الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة جيلالي اليابس ـ سيدي بلعباس ـ

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية



علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا ما بين 1520–1792م

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالب الباحث:

طاهر تومي

إشراف الأستاذ الدكتور:

عبد القادر صحراوي

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
حنيفي هلايلي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس	رئيسا
عبد القادر صحراوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس	مشرفا ومقررا
خديجة بختاوي	أستاذة محاضرة –أ	جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس	مناقشا
حميد آيت حبوش	أستاذ محاضر أ	جامعة أحمد بن بلة وهران 1	مناقشا
محمد العباسي	أستاذ محاضر أ	جامعة أحمد بن بلة وهران 1	مناقشا
مختار بونقاب	أستاذ محاضر-أ-	جامعة مصطفى اسطنبولي-معسكر	مناقشا

السنة الجامعية:

1439 1440هـ/2018 2019م

إهداء

إلى الوالدين الكريمين حفظهما الله ورعاهما وجعلهم يرضون عنا بمنه وكرمه

إلى كل من جاهد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى

إلى كل مسلم أندلسي موريسكي جاهد وقاوم من أجل دينه وعقيدته الإسلامية

إلى الإخوة بربروس رحمهم الله وجزاهم عنا خيرا نظير إبقائهم الجزائر دولة الإسلام والعروبة

إلى كل مجاهد عثماني وجزائري شارك في طرد الإسبان وأبقى الدولة الجزائرية قائمة إلى يومنا هذا

إلى قدوتنا في العزيمة والجهاد مصطفى بن بولعيد، العربي بن مهيدي، عبد القادر الجغلالي، زيان عاشور

إلى إخوتنا المحاصرين في غزة المرابطين في سبيل الله وعلى رأسهم كتائب القسام والجهاد

إلى أبطال الثورة المصرية

إلى كل من قال لا للظلم والطغيان

إلى الزوجة الفاضلة ورفيقة الدرب

إلى إخوتي وأخواتي وعلى رأسهم بلقاسم، المسعود، أحمد والجيلالي

إلى أبنائنا فردا فردا

إلى زملائي في العمل وعلى رأسهم السيد المدير فضيل مجيد الذي دعمني وساعدني كثيرا

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل المتواضع

شكر وتقدير

الشكر لله وحده على كل حال، فله الحمد والشكر والمنة تبارك الله أحسن الخالقين وما التوفيق والسداد إلا منه سبحانه وتعالى

الشكر موصول إلى الأستاذ الدكتور: عبد القادر صحراوي الذي كان لنا أخا قبل أن يكون لنا أستاذا، قدوتنا قبل أن يكون المشرف علينا، معلمنا قبل أن يكون موجهنا، وقد استفدنا من أخلاقه وتواضعه قبل علمه وتوجيهه، وكان لنا الناصح الأمين، فجازه الله عنا خيرا وجعل ذلك في ميزان حسناته

أتقدم بالشكر لأخي المسعود الذي كان أكبر مساعدا لي

أشكر أيضا إخوتي الذين لم تلدهم أمي: الأستاذ محمد بطيخ الذي كانت فضائله عليا كثيرة بالإضافة إلى أخي وصديقي ورفيق دربي الأستاذ: مبارك شودار الذي فتح لي أبواب بيته في كل وقت ولم يبخل عليا بالمساعدة بدون كلل أو ملل، بالإضافة إلى الأستاذ والأخ محمد عطية الذي ساعدني كثيرا ولم يبخل عليا بشيء، وكذلك الأخ الحاج قيشي صاحب مكتبة الهداية الذي أتعبته كثيرا وساعدني بكل ما يملك سواء في المكتبة أو البيت

والشكر موصول أيضا إلى الأستاذ خليفة حماش

أشكر أيضا عمال الأرشيف الوطني التونسي الذين كانوا في القمة معنا أخلاقا ومعاملة ومساعدة لأنهم وفروا لنا كل ما طلبنا

في الأخير أتقدم بالشكر أيضا إلى ابن أختي عبد الحق وإلى ابن أخي محمد، فجز الله الجميع كل خير وجعلهم ذخرا في ميزان حسناتهم يوم القيامة.

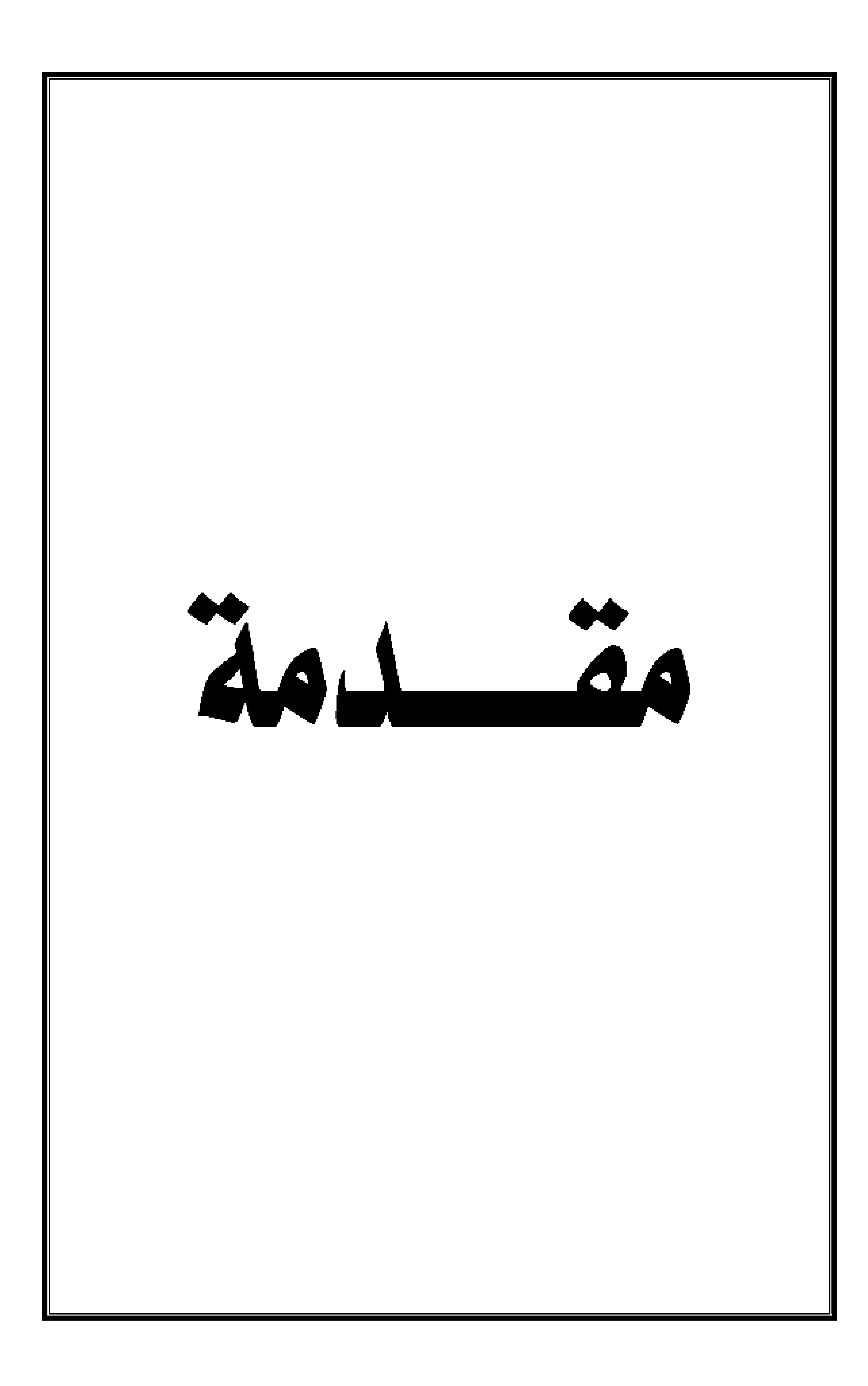
قائمة المختصرات

القسم العربي:

الرمز	المعنى
أ.و.ت	الأرشيف الوطني التونسي
س.ت.ت	السلسلة التاريخية التونسية
أ.و.ج	الأرشيف الوطني الجزائري
ج	جزء
د د ن	دون دار نشر
د س ط	دون سنة طبع
ص	صفحة
ص ص	صفحات عديدة متلاحقة
ط	طبعة
ط خ	طبعة خاصة
ع	عدد
م	ميلادي
هـ	هجري

القسم الأجنبي:

ENAL	Entre prise national algérienne de livres
N	Numéro
P	Page
PP	Pages contenues
T	Tome
R.Af	Revue africaine



مقدمة

مقدمة:

خضعت بلاد الأندلس للحكم العربي الإسلامي لعدة قرون، أين شيد فيها المسلمون حضارة إنسانية ذات بعد عالمي؛ بقيت الشواهد المادية والتراثية عليها قائمة دليلا على عراقتها وأصالتها وإسلاميتها، إلا أن بقايا الإسبان الرافضين للفتح الإسلامي بقيادة الراهب بيلايو استطاعوا هزم جيوش المسلمين في معركة كابادنجا (مغارة دانجا)، وحجبوا بريق هذه الحضارة الراقية على كامل أوربا، لقد أوقفت هذه الهزيمة تقدم المسلمين نحو بقية الأراضي الإسبانية والأوربية، ومنذ هذا التاريخ بدأ العد العكسي للتواجد الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، وفي نفس الوقت بدأت حروب الاسترداد التي كانت آخر مراحلها احتلال إمارة غرناطة سنة 897هـ/1492م، لتتوجه أنظار الملوك الكاثوليك الإسبان إلى بلاد المغرب الإسلامي، حيث استطاعوا احتلال سواحله الواحد تلو الآخر، وبذلك نقلوا الصراع لأول مرة إلى الضفة الجنوبية من المتوسط.

كانت إسبانيا تعيش حالة من التفكك والفوضى والانهيار في جميع المجالات إلى حين فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة 857هـ/ 1453م، حينها أدرك الأوروبيون عامة والإسبان خاصة خطورة المد الإسلامي من الجهة الشرقية على أوروبا، لذلك سارع الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإيزابيلا ملكا أراغون وقشتالة لعقد قرانهما سنة 873هـ/ 1469م معلنين بذلك عن وحدة إسبانيا سياسيا، لتكتمل هذه الوحدة رسميا سنة 879هـ/ 1474م، وبذلك حملا الملكان الكاثوليكان على عاتقهما مسؤولية القضاء على ما تبقى من الوجود الإسلامي في الأندلس، بمباركة ودعم لا نظير لهما من زعماء الكنيسة الكاثوليكية بروما التي أحاطتهما بالرعاية والدعم المطلق لتحقيق الهدف الذي طال انتظاره من طرف كل المسيحيين، خاصة مسيحي روما وشبه الجزيرة الإيبيرية، الذين رأوا أنه لا اطمئنان ولا خلاص لهم إلا بتصفية الوجود الإسلامي من على أراضيهم، خاصة بعد أن تسارعت الأحداث وتم للعثمانيين فتح القسطنطينية.

ومباشرة بعد أن تمت الوحدة الإسبانية وتثبتت أركانها وقامت مؤسساتها، خاصة العسكرية منها، بدأ الملكان الكاثوليكيان إيزابيلا وفرديناند بتحقيق مشروعهما الذي تم من أجله زواجهما السياسي، والهادف أساسا إلى استرجاع جميع الأراضي الإسبانية الباقية تحت سيطرة المسلمين، والتضييق عليهم وحصارهم ودحرهم رويدا رويدا حتى القضاء عليهم نهائيا، خاصة وأن الفرصة كانت مناسبة بعد دخول الحكم العربي في الأندلس مرحلة الضعف والذي بدا واضحا في حكام ما تبقى من المسلمين بإسبانيا، حيث بدأ الإسبان زحفهم وقتال بقايا الجيوش الإسلامية حتى وصلوا أخيرا إلى مملكة غرناطة التي استطاعوا احتلالها والقضاء نهائيا على الحكم الإسلامي بها في جانفي 897هـ/ 1492م، وبذلك تمت الوحدة الإسبانية عمليا ابتداء من هذا التاريخ؛ الذي كان شاهدا

على مأساة حقيقة تعرض لها الأندلسيون لم يشهد لها التاريخ الحديث مثيلا، ولم يكتف الإسبان وحلفاؤهم بهذا، بل مدوا أنظارهم إلى بلاد المغرب الإسلامي وبدون استثناء وذلك بنقل المعارك إليه ومطاردة سكانه والفارين من جحيم دواوين التفتيش والجيوش الإسبانية الكارهة لكل مسلم والناقمة على السكان المغاربة الذين ساهموا بكل قوة وعزم في عملية الفتح الإسلامي للأندلس سنة 91هـ.

وبعد سقوط إمارة غرناطة أصبح المغرب الإسلامي ميدانا للصراع وهدفا مباشرا للجيوش الإسبانية، بحيث تم احتلال العديد من سواحل المغرب الأقصى، بالإضافة إلى احتلال المرسى الكبير سنة 911هـ/1505م، وهران سنة915هـ/1509م، بجاية سنة 916هـ/1510م، طرابلس الغرب سنة 916هـ/1510م، ليأتي الدور فيما بعد على مدينتي مستغانم سنة 1511م والجزائر التي أعلن حكامها تبعيتها للإسبان بدون مقاومة تذكر خوفا من بطش الإسبان الذين واصلوا احتلالهم للسواحل إلى أن تمت لهم السيطرة على جل السواحل المغاربية، ليضطر الحكام الحفصيون تحت ضغط الأحداث إلى إعلان ولائهم للملوك الإسبان بدل الإسراع في قتالهم وأخذ زمام المبادرة، هذا ما زاد في تأزم الأوضاع في بلاد المغرب الإسلامي، وجعلها عرضة للمؤامرات الداخلية والخطر الخارجي، وبذلك فُسِحَ المجال لقوى خارجية لم يضع لها الإسبان حسبانا، خاصة بعدما ظنوا أنهم استطاعوا السيطرة على بلاد المغرب وبإمكانهم الانتقام من سكانه بكل حرية.

إلا أن ظهور الإخوة بربروس على سواحل حلق الوادي بتونس وانتشار صيتهم بسرعة في الآفاق المغاربية، هذا ما جعل السكان المغاربة ينظرون إليهم على أساس أنهم منقذون ومخلصون لهم من الأوضاع التي آلت إليها بلادهم، خاصة وأن الدين الإسلامي كان القاسم المشترك بين الطرفين، وبذلك كان ظهور الإخوة بداية فعلية لإعادة الاعتبار للمغاربة الذين أعلنوا الجهاد ضد الإسبان المحتلين، فقد استطاعوا إعادة التوازن للمنطقة بعد أن كانت في وضعية استسلام تام، وهذا ما شجع السكان المحليين بالتعاون مع الإخوة بربروس على التصدي للإسبان ومواجهتهم بكل حزم وعزم وقوة، وكانت البداية بتحرير جيجل سنة 920هـ/1514م، ثم مدينة الجزائر سنة 922هـ/ 1516م ليقرر خير الدين الاستنجاد بالسلطان العثماني سليم الأول، الذي وافق على مد يد العون لخير الدين معلنا بذلك ميلاد الإيالة الجزائرية الحديثة سنة 926هـ/1520م ليواصل خير الدين إنجازاته، حيث استطاع تحرير مدينة الجزائر نهائيا من قبضة الإسبان سنة 935هـ/1529م بعد طردهم وتدمير قلعة البنيون ليأتي الدور على تونس سنة 940هـ/1534م ليعاد احتلالها من طرف الإسبان سنة 941هـ/ 1535م بقيادة شارلكان، ليتم تحريرها نهائيا سنة 1574م، وبذلك تأسست الإيالة التونسية الحديثة وقبلها كان تحرير طرابلس الغرب سنة 982هـ/1551م إيذانا بميلاد الإيالة الطرابلسية الحديثة.

بعد أن تأسست الإيالات المغاربية العثمانية الثلاث؛ الجزائر، طرابلس الغرب، تونس بدعم مباشر من السلاطين العثمانيين الذين تحملوا عبء المسؤولية ابتداء من رعاية حكام هذه الإيالات، وتشجيعهم على مواجهة المحتلين ونصرة الدين الإسلامي وإنقاذ الأندلسيين الموريسكيين من همجية الإسبان ومساعدتهم على الثورات الداخلية، بالإضافة إلى تحرير السواحل المغاربية المحتلة، وفي نفس الوقت تثبيت الحكم العثماني ببلاد المغرب، والمساهمة الفعلية في مواجهة الأخطار المتزايدة والذود عن ممتلكات الدولة العلية العثمانية التي كانت محل أطماع الأوروبيين ومؤامراتهم، وهذا ما جعل المسؤولية تزداد على حكام الإيالات المغاربية في مواجهة الأخطار الأوروبية عامة والإسبانية خاصة في الحوض الغربي للمتوسط؛ الذي كان محل صراع بين العثمانيين والإسبان، لذلك شكلت هذه الإيالات خط المواجهة الأول في التصدي للمشاريع الإسبانية الرامية إلى السيطرة على بلاد المغرب الإسلامي.

وإدراكا منا لأهمية العلاقات بين الإيالات المغاربية العثمانية والإمبراطورية الإسبانية التي ميزت الطرفين ما بين 926-1207هـ/ 1520-1792م والتي عرفت خلالها هذه العلاقات العديد من الأحداث المهمة التي كان لها الأثر البالغ في تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط بضفتيه الشمالية والجنوبية على حد سواء، أردنا البحث عن مسار هذه العلاقات ومآلاتها محاولين الإلمام ولو بجزء منها في مذكرة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر والموسومة بـ: "علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا ما بين 926-1206هـ/ 1520-1792م.

الأهمية العلمية للموضوع:

يعتبر موضوع علاقات الإيالات المغاربية العثمانية الإسبانية ما بين 926-1207هـ/1520-1792م موضوعا مهما والخوض فيه من الصعوبة بمكان؛ لأنه يتناول علاقات كثر حولها اللغط والجدل والاختلاف، لأنها تميزت بالصراع والندية بين الطرفين على عكس كل العلاقات الأوروبية المغاربية الأخرى، التي كانت تتميز بالصراع تارة والهدوء والسلم تارة أخرى، كما أن هذه العلاقات أخذت طابع الصراع الديني، خاصة وأن إسبانيا حملت على عاتقها مسؤولية نشر الدين المسيحي بالقوة والجبر والإكراه ومطاردة الأندلسيين الموريسكيين وحملهم على تغيير دينهم أو الرحيل إلى وجهة أخرى، إلا أن أمنيات البابوات والملوك الكاثوليك ذهبت أدراج الرياح، هذا ما جعل العداء يزداد وحب الانتقام يتمكن من قلوبهم، فقرروا نقل المعارك إلى بلاد المغرب الإسلامي، التي تحمل سكانها وحكامها مسؤولية الدفاع عن المضطهدين والذود عنهم، وفي نفس الوقت رد عدوان المحتلين الإسبان الذين كانوا يطمحون لجعل هذه المنطقة منطقة مسيحية كما فعلوا في العالم الجديد.

وتكمن أهمية الموضوع في تطرقه لعلاقات الإيالات المغاربية مع إسبانيا مجتمعة وليست منفردة، لأن مصير هذه المنطقة مرتبط مع بعضه البعض منذ القديم، لأن الجنس الواحد والدين المشترك والمذهب المالكي واللغة العربية أعطت لهذه الوحدة زخما آخرا على عكس كل مناطق العالم الإسلامي الأخرى، ولذلك كان هدف الإسبان هو السيطرة على كامل بلاد المغرب؛ من المغرب الأقصى غربا إلى طرابلس الغرب شرقا لتفتيت هذه الوحدة، لأنهم يعلمون علم اليقين أن بقاء قطر واحد خارج سيطرتهم يعني ضياع كامل بلاد المغرب الأخرى، وهذا ما حدث فعليا مباشرة بعد تأسيس الإيالة الجزائرية.

هذا بالإضافة إلى أن أغلبية المصادر العربية تريد أن تجعل من الصراع المغاربي الإسباني امتدادا للحروب الصليبية التي انتهت عمليا سنة 1297م، فيما أرادت المصادر الأوروبية أن تجعل من هذه العلاقات مطية لتحميل المغاربة والمسلمين مسؤولية توتر العلاقات لأنهم كانوا سببا في الاعتداء على الأراضي المسيحية (الأندلس) بل وسببا مباشرا في هذا الصراع، وما اعتداء الإسبان على الأراضي المغاربية إلا نتيجة طبيعية لسيطرة المسلمين طيلة ثمانية قرون من الزمن على إسبانيا حسب زعمهم.

وحاولنا قدر المستطاع الاعتماد على مصادر ووثائق جديدة خاضت في هذا الموضوع، الذي أردنا أن نعطي له أهمية بالغة من خلال البحث عن المصادر المهمة والوثائق والمخطوطات؛ قراءة، ترجمة؛ تمحيصا؛ تدقيقا ومقارنة، حتى نستعملها في سياقها الصحيح والمطلوب، خاصة وأن المصادر الأوروبية كانت متطرفة لأبعد الحدود، فيما كانت المصادر المحلية متعاطفة في كثير من المرات ومبالغة في وصف هذه العلاقات أو بالأحرى الصراع.

هذا، وبالرغم من الصراع والندية اللذين طبعا علاقات الطرفين إلا أنه تخللته بعض المحاولات الدبلوماسية الجادة لحلحلة الأوضاع، ومحاولة الوصول إلى حلول كانت في غالبيتها تريد تحقيق أهداف تجارية وسلمية لصالح إسبانيا وليس الإيالات المغاربية؛ خاصة مع الإيالة التونسية التي كانت السباقة في هذا المجال وخصوصا خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

وقد حاولنا من خلال دراستنا هذه وضع اللبنات الأولى لدراسات مستقبلية إن شاء الله تتعلق بهذا الموضوع، خاصة العلاقات الطرابلسية الإسبانية والعلاقات التونسية الإسبانية، ومن ثم تجميع أكبر قدر ممكن من الوثائق والمخطوطات والمصادر والاستفادة منها.

الإطار الزماني والمكاني:

يتناول الموضوع علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا ما بين 926-1207هـ/ 1520-1792م فترة مهمة ومصيرية تحدد على ضوئها مصير بلاد المغرب الحديث، الذي حاول الإسبان وغيرهم السيطرة عليها

وضمها لأوروبا، فيما كان العثمانيون بمثابة المنقذ الحقيقي لها من هذا الخطر المحدق بها، وبذلك تحددت معالم هذه الإيالات سياسيا وعسكريا وحتى اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا، لأنها حافظت على هويتها الإسلامية ومذهبها المالكي ولغتها العربية إلى يومنا هذا، بالإضافة إلى حدودها الجغرافية.

حتى وإن كان بحثنا هذا يبدأ عمليا من سنة 926هـ/ 1520م تاريخ تأسيس الإيالة الجزائرية الحديثة، إلا أننا تطرقنا لهذا الموضوع منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي وما قبله بقليل، لأنه يرتبط بالوجود العثماني ببلاد المغرب الذي كان في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، ولذلك لا يمكننا إغفال هذه المرحلة أو تجاهلها، لأنها الممهد الأساسي لتأسيس الإيالات المغاربية العثمانية، وفي نفس الوقت المرحلة الخطيرة والحرجة لبلاد المغرب الإسلامي، لأنها عرفت احتلال إمارة غرناطة وإسقاط الحكم الإسلامي بها، ومنها كان بداية احتلال السواحل المغاربية، لينتهي موضوع بحثنا هذا في حدود سنة 1207هـ/ 1792م تاريخ التحرير النهائي للمرسى الكبير ووهران، وبذلك نلاحظ أن هذا البحث ارتبط زمنيا بتاريخ الجزائر الحديث ابتداء وانتهاء؛ حيث اتخذنا تاريخين معلمين كإطار زماني لهذا الموضوع، وبالرغم من اعتراضنا عن سنة 1792م لأنها تعلقت أساسا بتحرير وهران، وكنا نود أن يكون التاريخ سنة 1206هـ/ 1791م وهو تاريخ ارتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ الإيالتين الجزائرية والتونسية، لأنه في هذه السنة تم توقيع معاهدات ثنائية مع السلطات الإسبانية، إلا أن المجلس العلمي للكلية هو الذي فرض علينا هذا التاريخ، لذلك لم يكن بوسعنا فعل أي شيء.

أما فيما يخص الإطار المكاني لدراستنا هاته، فقد كانت السواحل المغاربية وبدون استثناء من تلمسان غربا إلى طرابلس الغرب شرقا مسرحا رئيسيا لهذه الأحداث، هذا بالإضافة إلى العديد من الأراضي الإسبانية وسواحلها وبعض جزرها، وكذلك الأراضي الإيطالية والمالطية وما تبعها من أراضي أخرى بحكم تبعيتها للإمبراطورية الإسبانية، وبعض أراضي الدولة العلية ذاتها، حيث شاركت الأساطيل المغاربية في التصدي لأخطار التحالفات الأوروبية التي كانت إسبانيا أحد الفاعلين فيها، يجمع هذه المناطق كلها حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي بعض المرات المحيط الأطلسي لامتداد تأثير العلاقات بين الطرفين فيه وعليه.

دوافع اختيار الموضوع:

لكل موضوع أسباب تدفع الطالب الباحث إلى الخوض فيه، لذلك فقد حفزتني العديد من الأسباب لدراسة هذا الموضوع ولعل من أبرزها:

- أن موضوع علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا غير مدروس بهذه الطريقة، ولأن الكثير من المؤرخين الجزائريين خاضوا في موضوع العلاقات الجزائرية الإسبانية، ولم يحدث أن خاضوا في

موضوع العلاقات الطرابلسية الإسبانية والتونسية الإسبانية بهذه الكيفية في حدود علمنا، وبالتالي مازال هذا الموضوع مفتوحا في وجه الدراسين، لذلك حاولنا تقديم عمل أكاديمي يخدم البحث العلمي المغاربي المشترك، وتزويد المكتبات الوطنية والباحثين بهذا العمل، ليكون نورا يسلط الضوء ولو جزئيا على تاريخنا المغاربي الحديث الذي حاول الكثير من الأوروبيين وأتباعهم من المدرسة الكولونيالية تشويهه وتزويره، وهذا ما وقفنا عليه خلال إنجازنا لهذا البحث.

- محاول الاستفادة من الكم الهائل من المصادر والوثائق والمخطوطات وتوظيفها فيما يخدم تاريخنا الوطني والمغاربي المشترك، خاصة وأن هذه المصادر مبعثرة ومتفرقة على عديد المكتبات الوطنية والمغاربية، مما قد يسهل على الباحثين في المستقبل استغلالها بأحسن طريقة.
- أردنا الخوض في هذا الموضوع ودراسته دراسة أكاديمية بسبب التحامل الذي لا مبرر له ضد العثمانيين من بعض الأساتذة والمؤرخين، سواء أثناء الدراسة للحصول على شهادة الليسانس أو في عديد الكتابات الجزائرية خاصة أو المغاربية عامة، حيث يحاول بعض المؤرخين المغاربة إلصاق تهمة الاحتلال بهم، وجعلهم سببا مباشرا في تأخر البلاد والعباد وتسليمها للفرنسيين فيما بعد، وهم بذلك يريدون تسويتهم بالاحتلال الفرنسي، وفي نفس الوقت إيجاد مبررات لهذا الاحتلال الغاشم، لأنهم من أتباعه وأتباع المدرسة الكولونيالية التي ما زالت تكيل التهم لكل مسلم مناهض للاحتلال فكنت أقف حائرا كيف لمن يدعي الإسلام والوطنية أن يفكر بهذه الطريقة؟ إلى أن جاءتني الفرصة وقررت اختيار هذا العنوان بمباركة وموافقة الأستاذ المشرف الذي شجعني على دراسة الموضوع دراسة أكاديمية تستند إلى الأدلة العلمية والحقائق التاريخية، حتى نثبت أن للعثمانيين إيجابيات، وفي نفس الوقت لهم سلبياتهم أيضا لا يمكن لكل دارس متمعن إنكارها، وهذا ما يمكننا من كتابة تاريخنا بأقلامنا وبدون تأثير من أحد مهما كان، خاصة وأن للعثمانيين في بلاد المغرب إيجابيات لا يمكن إنكارها إلا من كل جاحد مكابر ذهبت بصيرته بفعل تأثره بالمحتلين وأذنابهم في الداخل والخارج.
- مازال الغموض يكتنف تاريخنا المغاربي المشترك في العهد العثماني، بالرغم من عديد الدراسات المنجزة حول هذا التاريخ، إلا أن العديد من الحقائق التاريخية لا زالت غائبة ولم تأخذ حقها من الدراسة، خاصة وأن جل الدراسات تركز على الصراع الجزائري الإسباني وفيما بين هذه الإيالات نفسها، غافلة أو متغافلة عن العلاقات الطرابلسية الإسبانية والعلاقات التونسية الإسبانية، بالإضافة إلى التاريخ الدبلوماسي المشرف لحكام الإيالات المغاربية في الكثير من المرات، لأنهم وقفوا سدا منيعا

ضد المحتلين بفضل حنكة المفاوضين المغاربة، بالرغم من الأخطاء المرتكبة في هذا المجال، ونخص بالذكر هنا الدبلوماسية التونسية التي أثبتت علو كعبها وقدرتها على المناورة وأخذ الحقوق بالتفاوض خاصة وأنها أول من أرجعت ممارسة شعائر الدين الإسلامي في إسبانيا بعد عدة قرون من منع كل مظاهر الدين الإسلامي، وبذلك لم يكن للإسبان بدٌّ إلا الرضوخ لمطالب التونسيين.

- إعطاء هذا البحث بعدا مغاربيا لأنه يتناول موضوعا تاريخا شارك في أحداثه سكان منطقة بلاد المغرب، الذين كانوا رافضين لكل محتل أجني مهما كان جنسه، إلا أن حبهم للدين الإسلامي الذي كان يربطهم بالعثمانيين جعلهم يستأنسون ويتقبلون الإخوة بربروس ومن بعدهم العديد من الحكام العثمانيين ويشاركونهم في تحرير البلاد من الاحتلال الإسباني، والتصدي لكل محاولة أوروبية تهدف إلى ما كان يسعى إليه الإسبان، خاصة وأنه بدون السكان المحليين لم يكن في وسع العثمانيين فعل شيء.

الإشكالية:

قصد معالجة موضوع علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا التي تميزت في عمومها بالصراع والندية في غياب الطرق الدبلوماسية لحل الخلافات والمشاكل العالقة بين الطرفين، ارتأينا أن تكون إشكالية هذه الدراسة حول نوعية العلاقات السائدة حين ذاك، وأهم المؤثرات فيها ومآلاتها لذلك كانت الإشكالية العامة كما يلي:

- إلى أي مدى استطاع حكام الإيالات المغاربية التصدي لمشاريع الاحتلال الإسباني؟ وهل استطاعوا إعادة التوازن إلى بلاد المغرب؟ وما هي مميزات العلاقات الثنائية بين الإيالات المغاربية العثمانية والإمبراطورية الإسبانية؟ وإلى أي مدى ساهم السكان المحليون في إفشال المخططات الإسبانية ومساعدة العثمانيين؟ وما هي مآلات الصراع الإسباني المغاربي ونتائجه على الطرفين المسيحي والإسلامي؟

وتندرج تحت هذه الإشكالية الرئيسية عدة إشكاليات جزئية أهمها:

- ما هي أوضاع المغرب الإسلامي قبيل ظهور العثمانيين؟
- كيف ساهم العثمانيون في تأسيس الإيالات المغاربية العثمانية؟
- ما هي نتائج هذا التأسيس على الصعيد المحلي والإقليمي والدولي؟
- كيف كان رد فعل الإسبان على ذلك؟

- ما هي الأسباب والعوامل المتحكمة في العلاقات المغاربية الإسبانية؟
- ما هي طبيعة هذه العلاقات؟ وما أثرها على الطرفين؟
- ما هي مميزات هذه العلاقات في كل قرن؟
- ما موقف الدولة العلية والدول الأوروبية من الصراع المغاربي الإسباني؟
- ما هو دور الحكام المغاربة في مساعدة وإنقاذ الأندلسيين الموريسكيين؟

الدراسات السابقة:

هناك العديد من الدراسات التي تناولت العلاقات الجزائرية الإسبانية، إلا أن العلاقات الطرابلسية الإسبانية والعلاقات التونسية الإسبانية لم تتطرق إليها الدراسات الأكاديمية الجزائرية إلا نادرا خاصة في شقها السياسي، اللهم إذا استثنينا الدراسة التي قام بها الشافعي درويش والموسومة بـ: "علاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي"، ومع ذلك خلت من الوثائق والمصادر المهمة، بل كانت دراسة سطحية لم تف بالغرض، وما عدا ذلك لم ينجز أي باحث دراسة أكاديمية تطرقت للموضوع، خاصة وأننا سألنا الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي فيما يخص العلاقات التونسية الإسبانية والطرابلسية الإسبانية وأخبرنا أنه موضوع صعب لم يتطرق إليه الباحثون التونسيون إلا قليلا، وحتى هو لم يفدنا بشيء في هذا الخصوص إلا نصحه لنا بالاتصال بالأستاذ صدوق بوبكر وكلارا إلهام ألفارو دوبيكو اللذين لهما دراسة بالفرنسية تناولت الموضوع عنوانها: " **Empreints Espagnoles dans L'Histoire Tunisienne**" وما عدا ذلك لم نستطع الحصول على أشياء أخرى.

أما العلاقات الطرابلسية الإسبانية فتلك مسألة أخرى، لأننا كلما حاولنا الحصول على دراسة أكاديمية تهتم بهذه العلاقات فكأنما نبحث عن إبرة في كومة من التبن، فقد عجزنا عن الحصول ولو على شيء يسير من ذلك، خاصة خلال القرن السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ما عدا الدراسة التي أنجزها ميكال دي إيبلزا المعنونة بـ: "المعاهدة الليبية الإسبانية سنة 1784م والمنشورة بالمجلة التاريخية المغربية"، ومع أننا استفدنا منها إلا أنها لم تكن كافية بالقدر المطلوب.

أما بالعودة للعلاقات الجزائرية الإسبانية فقد تطرق إليها عديد الباحثين الجزائريين، وكلهم اشتركوا في إهمالهم للقرن السابع عشر الميلادي الذي كان الحلقة المفقودة في هذه الدراسة، فيما حاول الطالب تومي الطاهر خلال دراسته الموسومة بـ: "العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين القرن السادس والثامن عشر على ضوء المصادر المحلية" التطرق لأحداث القرن السابع عشر الميلادي، وكانت محاولة أولى حتى ولو لم تكن كافية، ومن أهم الذين

تناولوا هذه العلاقات بكثير من الإسهاب نجد الأستاذ أحمد توفيق المدني في كتابه: "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792م)، ويعتبر هذا المؤرخ واضع أسس الدراسات الحديثة حول هذه العلاقات، وقد يكون الوحيد الذي عالج الموضوع بطريقة قل نظيرها من بعده، بالإضافة إلى الأستاذ عبد القادر فكاير في دراسته الموسومة بـ: "الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1207هـ/1505-1792م)، وقد تناول جوانب عدة من العلاقات وأثرها سياسيا وعسكريا واقتصاديا وعمرانيا على الجزائر، كما تناول الأستاذ يحي بوعزيز جانبا من هذه العلاقات في كتابه المعنون بـ: "علاقات الجزائر الخارجية بدول وممالك أوروبا (1515م إلى 1792م)"، وتناول أيضا جزءا مهما من تاريخ العلاقات الدبلوماسية الجزائرية الإسبانية من خلال كتابه: "مراسلات...".

أما من حيث الأطاريح والرسائل الجامعية، فقد تناول الأستاذ نجيب دكاني الموضوع في رسالة ماجستير بعنوان: "الوجود الإسباني على السواحل الجزائرية ورد الفعل الجزائري خلال القرن السادس عشر الميلادي"، كما تناول أيضا الموضوع محمد السعيد بوبكر في مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث بعنوان: "العلاقات السياسية الجزائرية الإسبانية خلال القرن الثامن عشر (1708-1792م)"؛ وهذا طبعا في حدود اطلاعنا، وقد تكون هناك دراسات لم نصل إليها لعدة عوامل خارجة عن نطاقنا، بالرغم من محاولاتنا المتكررة خاصة في الجزائر بالإضافة إلى تونس، وبذلك لم يكن بالإمكان أكثر مما تحصلنا عليه، وربما يصل غيرنا إلى هذه الدراسات في المستقبل إن شاء الله.

المنهج العلمي المتبع:

لدراسة هذا الموضوع دراسة أكاديمية والإلمام به ارتأينا إتباع المنهج الوصفي التركيبي، لأننا في الغالب نقوم بوصف الكثير من الأحداث التاريخية وتركيبها لأنه مرّ عليها عدة قرون حتى نعطي صورة ولو بسيطة للمهتم بهذه الأحداث، كما أننا اعتمدنا على المنهج التحليلي والمقارن؛ لأننا حاولنا تحليل العديد من الأحداث ومقارنتها ببعضها البعض لعل وعسى نصحح بعض المفاهيم والأخطاء التاريخية التي وقع فيها غيرنا بحسن نية أو بسوء نية ومحاولة رفع اللبس عنها خاصة وأنها ما زالت تثير الكثير من الجدل بين الدارسين إلى يومنا هذا.

خطة البحث:

لمعالجة هذا الموضوع والإلمام به قسمنا بحثنا هذا إلى فصل تمهيدي وثلاثة أبواب؛ يحتوي كل باب على ثلاثة فصول، بالإضافة إلى الخاتمة، وكانت كالتالي:

الفصل التمهيدي: الأوضاع العامة للدولة العلية العثمانية وإيالاتها المغاربية وإسبانيا.

تناولنا فيه الملامح الكبرى للدولة العلية العثمانية وإيالاتها المغاربية نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس

عشر الميلاديين، من خلال تطرقنا إلى الجوانب السياسية، الاقتصادية، الثقافية والاجتماعية، بالإضافة إلى تطرقنا للملامح الكبرى للإمبراطورية الإسبانية سياسيا، اقتصاديا، اجتماعيا وثقافيا، هذا وارتأينا أن نتناول في هذا الفصل التمهيدي محركات العلاقات الثنائية المغاربية الإسبانية، وما هي أهم هذه المحركات التي كانت سببا مباشرا في التأثير على سير العلاقات بين الإيالات المغاربية وإسبانيا.

الباب الأول: علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا خلال القرن 10هـ/16م (926-1008هـ/1520-1599م)، احتوى هذا على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: العلاقات بين الإيالة الجزائرية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (10هـ/16م)، وقد تناولنا فيه ابتداء علاقة المغرب الأوسط بالملوك الإسبان (910-926هـ/1505-1520م)، ثم تطرقنا إلى العلاقات الجزائرية الإسبانية منذ التأسيس الرسمي للإيالة الجزائرية سنة (926هـ/1520م)، وتطرقنا فيه لتأسيس الإيالة الجزائرية ومراحلها، وانعكاساتها داخليا وخارجيا، ثم تطرقنا إلى سير العلاقات الجزائرية الإسبانية طيلة هذا القرن وأهم أحداثه البارزة.

الفصل الثاني: العلاقات بين الإيالة الطرابلسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (10هـ/16م)"، وتناولنا فيه سير هذه العلاقات والعوامل المؤثرة فيها، ومآلات هذا الصراع، ومراحل تأسيس الإيالة الطرابلسية وانعكاسات ذلك محليا وإقليميا.

الفصل الثالث: العلاقات بين الإيالة التونسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (10هـ/16م)، وتناولت فيه العلاقات الثنائية قبل تأسيس الإيالة التونسية في عهد الدولة الحفصية، ثم تطرقنا إلى كيفية تأسيس الإيالة التونسية ومراحلها وانعكاساتها داخليا وخارجيا.

الباث الثاني: علاقات الإيالة المغاربية العثمانية مع الإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (11هـ/17م)، قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: العلاقات بين الإيالة الجزائرية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (11هـ/17م)، تناولنا فيه المحنة الموريسكية وقرار الطرد النهائي، وتداعياته على الأندلسيين داخليا وخارجيا وعلى بلاد المغرب أيضا، ثم تطرقنا إلى الصراع الجزائري الإسباني الذي كان السمة البارزة في علاقات الطرفين خلال هذا القرن، وحاولنا التطرق للحملات الإسبانية ورد فعل الجزائريين عنها.

الفصل الثاني: العلاقات بين الإيالة الطرابلسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (11هـ/17م)، وتطرقنا فيه إلى سير العلاقات الثنائية بين الطرفين، وكيفية رد فعل الطرابلسيين على الهجمات الإسبانية المالطية وانعكاسات ذلك على الطرفين.

الفصل الثالث: العلاقات بين الإيالة التونسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (11هـ/17م)"، تطرقنا فيه للقضية الموريسكية قبيل قرار الطرد وبعده، وكيفية تعامل الحكام التونسيين معها، وكيف كانت هذه العلاقات خلال هذا القرن، وكيفية تأثير الأندلسيين على هذه العلاقات، وتطرقنا أيضا إلى الحملات الإسبانية المالطية على الإيالة التونسية ورد فعل التونسيين على ذلك.

الباب الثالث: علاقات الإيالة المغاربية العثمانية مع الإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (12هـ/18م)، قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: العلاقات بين الإيالة الجزائرية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (12هـ/18م)، وتطرقنا في الجزء الأول منه إلى الفتح الأول لوهران سنة 1120هـ/ 1708 م، وأهم العوامل المساعدة على ذلك، ومراحل فتح وهران والمرسى الكبير ونتائجه ثم تناولنا إعادة الاحتلال الإسباني لوهران سنة 1145هـ/ 1732م والأسباب التي أدت إلى ذلك، وسير الحملة ونتائجها على الطرفين ثم تطرقنا إلى الحملات الإسبانية الثلاث على مدينة الجزائر (حملة الكونت أوريلي سنة 1189هـ/ 1775م، حملتا الدون أنطونيو بارسلو الأولى والثانية (1197–1198هـ/ـ1783–1784م) وأهم النتائج المترتبة عنها، أما في الجزء الثاني من الفصل فقد تطرقنا إلى العلاقات السلمية الرسمية بين الطرفين وإمضاء اتفاق صلح بينهما سنة 1199هـ/ 1786م، وتبعات هذا الاتفاق على الطرفين لنصل في الأخير إلى إمضاء معاهدة 1206هـ/ 1791م والتحرير النهائي لوهران والمرسى الكبير وختمناه بالعلاقات السياسية والتجارية بين الجزائر وإسبانيا بعد 1207هـ/ 1792م.

الفصل الثاني: العلاقات بين الإيالة الطرابلسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (12هـ/18م)، تطرقنا فيه إلى سير العلاقات الثنائية وأهم العوامل المتحكمة فيه، ومآلات هذا الصراع الذي انتهى بتوقيع معاهدة السلم الطرابلسية الإسبانية سنة 1784م، التي تطرقنا إلى حيثياتها بكثير من التفصيل؛ ظروف توقيعها، بنودها، نتائجها على الطرفين.

الفصل الثالث: العلاقات بين الإيالة التونسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (12هـ/18م)، تطرقنا فيه إلى العلاقات الثنائية، حيث تناولنا بالتفصيل المعاهدة التونسية الإسبانية سنة

1161هـ/ 1748م، وأهم بنودها ونتائجها، ثم تطرقنا إلى المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1200هـ/ 1786م، وفي الأخير تطرقنا إلى المعاهدة النهائية سنة 1206هـ/ 1791م، وتناولنا ظروف توقيعها وأهم بنودها ونتائجها على الطرفين.

واختتمنا دراستنا هاته بخاتمة تناولنا فيها أهم النتائج التي استخلصناها من خلال هذه الدراسة.

نقد المصادر والمراجع:

لإنجاز هذا البحث اعتمدنا على الكثير من المصادر والمراجع التي تطرقت لهذا الموضوع، إضافة إلى العديد من المصادر والمراجع الأجنبية، وكذلك بعض المقالات والأطاريح الجامعية، لذلك كان واجبا علينا التوقف عندها والتمعن فيها، وقراءتها قراءة متأنية لفهمها واستنطاقها ومقارنتها ببعضها البعض، محاولة منا للوصول إلى بعض الحقائق التاريخية وتوضيحها، ومن ثم التوصل إلى أحسن النتائج المرجوة من هذه الدراسة التاريخية، ولذلك كان تصنيفنا لهذه المصادر والمراجع كما يلي:

1-**الوثائق الأرشيفية:**

- **وثائق المكتبة الوطنية**: وهي في مجملها عبارة عن تقارير تتكلم عن الأوضاع العامة بالجزائر، بالإضافة إلى تطرقها في بعض الأحيان إلى العلاقات الجزائرية الإسبانية، خاصة في الجهة الغربية، زد على ذلك بعض المخطوطات الموجودة بهذه المكتبة.
- **وثائق الأرشيف الوطني الجزائري**: خاصة دفتر مهم وهو عبارة عن مراسلات تمت بين السلاطين العثمانيين وحكام الإيالات المغاربية خاصة الجزائر وأكثرها خلال القرن السادس عشر الميلادي.
- **وثائق الأرشيف التونسي**: وهي في أغلبها عبارة عن معاهدات تمت بين الدولة الحفصية وإسبانيا أو بين الإيالة التونسية وإسبانيا وبعض الدول الأوروبية، ولغة هذه المعاهدات في مجملها عثمانية وإسبانية، بالإضافة إلى اللغة الإيطالية والفرنسية، وقد حاولنا ترجمة بعضها، فيما تُرجم بعضها الآخر من طرف الأستاذ كمال جرفال وبوبكر صدوق، وقد استفدنا منها كثيرا خاصة المعاهدات مع إسبانيا التي تحتوي على معلومات قيمة جدا نتمنى أن يسلط عليها الضوء في المستقبل وتعطى لها أهمية أكثر من طرف الباحثين الجزائريين، وقد استفدنا منها في جميع الفصول تقريبا، لأنها كانت معاهدات متفرقة على ثلاثة قرون تقريبا، وهي موزعة بين السلسلة التاريخية ووثائق الأرشيف التونسي.

2-المصادر المخطوطة:

استعملنا العديد من المخطوطات التي تخص الفترة المدروسة وتتعلق بتاريخ الإيالات المغاربية العثمانية كان أهمها:

- مخطوط تاريخ عروج رئيس وأخيه خير الدين في مدينة الجزائر لصاحبه محمد المنويب الفراتي الصفاقسي رقم 231، المكتبة الوطنية التونسية، وكما هو موضح في عنوانه، تكلم هذا المخطوط بالخصوص عن حياة الأخوين عروج وخير الدين منذ نشأتهما إلى غاية وصولهما إلى تونس والبلاد المغاربية، والأعمال التي قاما بها في المنطقة؛ وهو مخطوط خطه جيد مقروء يحتوي على معلومات قيمة استفدنا منه كثيرا في الباب الأول خاصة الفصل الأول والثاني المتعلق بالجزائر وتونس.
- مخطوط الخبر عن قدوم عروج رئيس إلى الجزائر وقدوم أخيه خير الدين لمجهول، رقم 1623، المكتبة الوطنية الجزائرية، وهو تقريبا يحتوي على نفس المعلومات التي نقلها محمد المنويب في مخطوطه.
- مخطوط قدوم السبانيول في المرة والثانية، وهو مخطوط قيم جدا بالرغم من قلة صفحاته، لأنه يتكلم عن الحملات الإسبانية على الجزائر سنوات 1189هـ/ 1775م، 1197هـ/ 1783م، 1198هـ/ 1784م، ولأن صاحبه كان شاهد عيان على هذه الأحداث، كما أنه أعطانا معلومات دقيقة ومحددة عن سير هذه الحملات وكيفية تصدي الجزائريين لها، وقد استفدنا منه في الفصل الأول من الباب الثاني.
- مخطوط ذكر طرف ولاية المرحوم السيد صالح باي أمير بلد قسنطينة، لصاحبه محمد الطاهر بن أحمد رقم 263، المكتبة الوطنية التونسية.
- العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، لصاحبه إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا، وهو مخطوط قل نظيره في العصر الحديث، لأنه تطرق لموضوع لم يخض فيه أحد غيره، وقد احتوى هذا المخطوط على خمسين بابا، تكلم فيه صاحبه عن الصناعات الحربية والجهاد في سبيل الله، استفدنا منه خصوصا في الباب الثاني الفصل الثالث.

2-المصادر المطبوعة:

أ -المصادر:

- كتاب دليل الحيران وأنيس السهران لصاحبه محمد ابن يوسف الزياني؛ وهو كتاب مهم جدا بالنسبة لدراسة العلاقات الجزائرية الإسبانية، خاصة وأنه تطرق بإسهاب لهذه العلاقات، استفدنا منه خاصة في الفصل الأول من الباب الثالث.
- كتاب الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني لابن سحنون الراشدي، والذي قام بتحقيقه المهدي البوعبدلي، وتكمن أهمية هذا الكتاب في أن صاحبه كان مرافقا لجيش الفتح بقيادة محمد ابن عثمان الكبير الذي فتح وهران سنة1207هـ/ 1792م، وهو أهم مؤلف في تحرير وهران، استفدنا منه في الفصل الأول الباب الثالث.
- كتاب الرحلة القمرية لصاحبه مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمان المعروف بابن زرفة، وتكمن أهمية هذا الكتاب في كون صاحبه كان كاتب الباي محمد الكبير ومن أهم مقربيه، قام بنشره حساني مختار إلى جانب تاريخ تحرير وهران من الاحتلال الإسباني لعبد الرحمان الجامعي، إلا أنه لدينا بعض المآخذ على هذا التحقيق لكثرة الأخطاء الواردة فيه، لذلك كنا نضطر في كثير من المرات للرجوع إلى المخطوط الأصلي الذي تحصلنا عليه من المكتبة الوطنية.
- كتاب طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر لصاحبه الآغا بن عودة المزاري؛ تناول فيه العديد من المواضيع التاريخية والاجتماعية والثقافية والجغرافية خاصة التأريخ لمدينة وهران والجزائر، إضافة إلى إسبانيا وفرنسا والتعريف بملوكهم بإسهاب وقد حققه الأستاذ يحي بوعزيز، استفدنا منه في كامل الفصول تقريبا.
- مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر ولد عام 1194هـ/ 1780م، تناول هذا الكتاب بكثير من الإسهاب أحداث مهمة في تاريخ الجزائر الحديث خاصة من 1167هـ/ 1754م إلى 1246هـ/ 1830م قام بتحقيقه أحمد توفيق المدني استفدنا منه خاصة في الفصل الأول والثالث من الباب الثالث.
- مؤنس الأحبة في أخبار جربة، لصاحبه أبو راس الجربي، وهو مصدر مهم أيضا في تاريخ تونس عموما، وتاريخ جزيرة جربة خصوصا خلال القرن السادس عشر، استفدنا منه في الفصل الثالث من الباب الأول.

- إعلام الأعلام فيمن زار بيت الله الحرام للنهرواني، وهو مصدر من أحسن المصادر التي اطلعنا عليها، اهتم بتاريخ بعض السلاطين العثمانيين، استفدنا منه في الفصل الثالث من الباب الأول فيما يتعلق بفتح تونس.
- البرق اليماني لصاحبه النهرواني، وهو مصدر قل نظيره فيما يخص التاريخ المغاربي الحديث، استفدنا منه في الفصل الثالث من الباب الأول فيما يتعلق بفتح تونس أيضا.
- إتحاف أهل الزمان لصاحبه ابن أبي الضياف، مصدر مهم في تاريخ تونس، لا يمكن للدارس الاستغناء عنه فيما يخص تاريخ تونس الحديث، استفدنا منه تقريبا في كامل الأبواب تقريبا فيما تعلق بتونس.
- التذكار لصاحبه ابن غلبون الطرابلسي، وهو مصدر مهم في تاريخ طرابلس الغرب، استفدنا منه في الفصل الثاني من الباب الأول، والفصل الثاني من الباب الثاني فيما يتعلق بتاريخ طرابلس.

ب-المصادر المعربة:

- تحفة الكبار لصاحبه كاتب جلبي (حجي خليفة)، وهو مصدر من أهم المصادر التي ساعدتنا في هذه الدراسة، استفدنا منه في الفصل الأول والثالث من الباب الأول، وأقل ما يوصف به هذا المصدر أنه من أروع المصادر التي لا يمكن لدراسي العلاقات المغاربية الإسبانية خاصة، والمغاربية عامة الاستغناء عنه لقيمة صاحبه والمعلومات التي قدمها لنا.
- وصف إفريقيا لصاحبه محمد بن حسن الوزان، تحقيق محمد حجي، وهو كتاب مهم جدا لدراسة العلاقات الجزائرية الإسبانية في العصر الحديث من وجهة نظر أجنبية كانت معاصرة لتلك الأحداث استفدنا منه خاصة في الفصل التمهيدي والأول.
- كتاب إفريقيا لصاحبه مارمول كاربخال، تناول العلاقات الإسبانية المغاربية عامة والجزائرية الإسبانية خاصة وقام فيه بوصف جميع مناطق بلاد المغرب الإسلامي وأقاليمها، استفدنا منه خاصة في الفصل التمهيدي والفصل الأول من الباب الأول.
- مذكرات خير الدين بربروس، كتاب مهم ومصدر لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة تاريخ الجزائر الحديث لأن صاحبه عاصر الأحداث الأولى في بداية القرن السادس عشر، وهو مؤسس الإيالة الجزائرية سنة926هـ/ 1520م قام بتعريب هذا الكتاب الأستاذ محمد دراج، إلا أنه توجد بعض المآخذ على الكتاب كافتقاده الكلي للسنوات، لذلك كنا نرجع في كل مرة إلى المصادر والمراجع الأخرى لتحديد الأحداث، استفدنا منه في الفصل التمهيدي والفصل الأول والثالث من الباب الأول.

- المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب لصاحبه أحمد بك النائب الأنصاري، مصدر مهم أيضا استفدنا منه في كامل الفصول المتعلقة بطرابلس.

3-المراجع:

اعتمدنا على الكثير من المراجع في إنجاز هذا البحث أهمها:

- حرب الثلاثمائة سنة لأحمد توفيق المدني، الذي أسهب في الحديث عن العلاقات الجزائرية الإسبانية طيلة ثلاثة قرون من الزمن، استفدنا منه في جميع الفصول.
- التأثير الأندلسي الموريسكي للأستاذ حنيفي هلايلي، وهو كتاب مهم جدا في دراسة القضية الموريسكية، استفدنا منه في الفصل الأول والثاني من الباب الأول والثاني.
- دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر لصاحبه ناصر الدين سعيدوني، أفادنا في الفصل الثالث من الباب الأول.
- الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية لصاحبه عزيز سامح ألتر، تعريب محمود علي عامر، وهو كتاب مهم تناول الوجود العثماني في الإيالات المغاربية الثلاث خاصة الجزائر، تناول بالتفصيل التواجد العثماني في الجزائر والعلاقات الجزائرية الأوربية، وعلى الرغم من انحيازه التام للعثمانيين، إلا أنه لا يمكن لدارس تاريخ الجزائر الحديث الاستغناء عنه، استفدنا منه في كامل الفصول.
- بنية الجيش للأستاذ حنيفي هلايلي، استفدنا منه في الفصل الأول والثاني من الباب الأول.

4-المصادر الأجنبية:

اعتمدنا على كتاب تاريخ ملوك الجزائر «Histoire des Rois d'Alger»، لهايدو «Haédo»، وهو مصدر مهم لدراسة العلاقات الجزائرية الإسبانية، وقد اعتمدنا في الفصل الأول من الباب الأول.

5-المراجع الأجنبية:

اعتمدنا على كتاب تاريخ الجزائر تحت السيطرة العثمانية" Histoire d'Alger sous la Domination Turque" لصاحبه "دي غرامون" «Grammont H. De» استفدنا منه في الفصل الأول والثاني من الباب الأول.

6-المجلات:

أ-الأصالة: اعتمدنا على الكثير من الأعداد، وفي جميع الفصول تقريبا.

ب-المجلة الإفريقية: Revue Africaine

لم يخل أي عدد من أعداد هذه المجلة من التطرق للجزائر، وقد تناول الكثير من كتاب هذه المجلة العلاقات الجزائرية الإسبانية، استفدنا منها موزعة على جميع الفصول.

وقد اعتمدنا على العديد من المصادر والمراجع التي لا يتسع المجال لذكرها.

-الصعوبات:

كأي طالب باحث اعترضتني العديد من المصاعب خلال إنجازنا لهذه الدراسة، يمكننا إيجازها فيما يلي:

- أكبر الصعوبات التي واجهتنا صعوبة الحصول على الوثائق والمصادر التي تتعلق بالإيالة الطرابلسية خاصة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، لأن هذه العلاقات شبه غائبة عن الدراسات الليبية فما بالك بالدراسات المغاربية، ما زاد الأمر صعوبة الأوضاع الأمنية المتردية في ليبيا وهيئتي التي لم تكن لتسمح لي بالدخول إليها، وحتى المؤرخين الليبيين لم يتعرضوا إلى هذه العلاقات إلا قليلا جدا.
- وجدنا صعوبة كبيرة في دراسة الإيالة التونسية وعلاقاتها مع إسبانيا، إلا أنها لم تكن بالصعوبات التي واجهتنا في دراسة الإيالة الطرابلسية، خاصة وأننا وجدنا كل التسهيلات من طرف عمال الأرشيف والمكتبة الوطنية التونسية، وقد كانوا بالفعل في المستوى المطلوب معنا ووفروا لنا جميع الإمكانيات، وقد منحونا جميع المعاهدات التي طلبناها بدون إشكال، على عكس المكتبة الوطنية الجزائرية التي رفض القائمين عليها منحنا معاهدة سنة 1206هـ/1791م، ونحن لا ندري لماذا؟ وماذا تشكل لهم هذه الوثيقة من خطر؟ خاصة وأنه مرّ أكثر من قرنين من الزمن على توقيع هذه المعاهدة التي أصبحت منتهية الصلاحية.
- صعوبة الموضوع في حد ذاته تكمن في اتساع الإطار الزمكاني المدروس، ونحن هنا نعترف أننا أخطأنا التقدير عندما حددنا هذا المجال الواسع، لأننا عندما كنا ننجز هذه المذكرة وكلما تطرقنا لتاريخ إيالة بذاتها كنا نحس أنفسنا وكأننا ننجز مذكرة مستقلة بذاتها وهذا ما زاد في صعوبة الموضوع وتشعبه.

الفصل التمهيدي

الملامح الكبرى للدولة العلية وإيالاتها المغاربية وإسبانيا بداية القرن 10هـ/16م

أولا: الملامح الكبرى للدولة العلية العثمانية وإيالاتها المغاربية.

المبحث الأول: الأوضاع العامة للدولة العلية العثمانية بداية القرن 10هـ/16م

1-الأوضاع السياسية.

2-الأوضاع الاقتصادية.

3-الأوضاع الاجتماعية والثقافية.

المبحث الثاني: الملامح الكبرى للمغرب الأوسط بداية القرن 10هـ/16م.

1-الأوضاع السياسية.

2-الأوضاع الاقتصادية.

3-الأوضاع الاجتماعية والثقافية.

المبحث الثالث: أوضاع طرابلس الغرب بداية القرن 10هـ/16م.

1-الأوضاع السياسية.

2-الأوضاع الاقتصادية.

3-الأوضاع الاجتماعية والثقافية.

المبحث الرابع: أوضاع الإيالة التونسية بداية القرن 10هـ/16م.

1-الأوضاع السياسية.

2-الأوضاع الاقتصادية.

3-الأوضاع الاجتماعية والثقافية.

المبحث الخامس: الملامح الكبرى للإمبراطورية الإسبانية بداية القرن 10هـ/16م.

1-الأوضاع السياسية.

2-الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

المبحث السادس: محركات علاقات الإيالات المغاربية مع الإسبانية.

1-الأسباب الدينية.

2-الدوافع الاقتصادية.

3-المحنة الموريسكية.

4-التفاهمات المغربية الإسبانية.

5-الأسر.

6-الاحتلال الإسباني لبعض السواحل المغاربية.

7-الصراع العثماني الإسباني.

أولا: الملامح الكبرى للدولة العلية العثمانية وإيالاتها المغاربية.

المبحث الأول: الأوضاع العامة للدولة العلية العثمانية بداية القرن 10هـ/16م

1-الأوضاع السياسية.

بعد وفاة السلطان محمد خان الفاتح 1429-1481م*، عرفت الدولة العلية العثمانية العديد من المشاكل كادت تعصف بها، بسبب أن السلطان العثماني أوصى بالملك من بعده لابنه جمْ، غير أن شريحة واسعة من مكونات السلطنة كانت تفضل بايزيد؛ وعلى رأسها الجيش الإنكشاري، الذي فرض قادته منطقهم على الجميع وقاموا بتنصيب بايزيد الثاني على رأس السلطة في الدولة العلية، في حين قبع الأمير جم في مدينة بروسا وأعلن نفسه سلطانا؛ عارضا على أخيه اقتسام السلطة فيما بينهما، إلا أن بايزيد الثاني رفض هذا العرض بشدة، وقرر إعلان الحرب على أخيه في مقره ببروسا، أين جرت معارك طاحنة بين الطرفين أسفرت نهايتها عن فرار جم إلى القاهرة، وتشتيت شمل أتباعه، وبذلك استطاع بايزيد الأول حسم أمر السلطة لصالحه ودانت له كامل البلاد.[1]

اشتهر السلطان العثماني بايزيد الثاني بميله للسلم، وكان محبا للعلم مهتما برجاله، حتى سماه بعض المؤرخين الأتراك ببايزيد الصوفي، تميزت أيامه الأخيرة بالصراع والندية بين أبناءه الراغبين في الحكم؛ قرقود، أحمد وسليم***، هذا الأخير الذي كانت له الغلبة في الأخير، بفضل مؤازرة الجيش الإنكشاري له**، ولم يكتف بقهر إخوته بل قام بخلع والده بايزيد الثاني من سدة الحكم ونصب نفسه سلطانا بدلا عنه، وكان ذلك في شهر صفر 918ه/ أفريل 1512م، تاركا والده يعيش بعيدا عن الحياة العامة متحسرا على ما حدث له، إلى أن توفي في نفس السنة التي عزل فيها.[2]

* – بشر النبي ﷺ بفتح القسطنطينية، وقال بأن الذي بفتحها من الأمراء المسلمين هو خير أمير وجيشه خير الجيوش، لذلك حاول الكثير من الخلفاء والسلاطين نيل هذا الشرف منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى غاية تولي السلطان الغازي محمد الفاتح، الذي نال هذا الشرف العظيم، وفي ذلك قال رسول الله ﷺ «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش جيشها»، رواه مسلم.

1 – محمد سهيل طقوش: التاريخ الإسلامي(الوجيز)، ط3، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2006م، ص 356.

**– سليم الأول من السلاطين الأقوياء في الدولة العلية حكم ما بين 1512-1520م، ولد سنة 885ه بأماسيا وجلس على العرش سنة 918ه وعمره 46 سنة في حياة أبيه، كان مشهورا في شبابه بالشجاعة وحب الحرب، لذا كان محبوبا لدى الجيش، اشتهر بحروبه ضد الفرس، في عهده سيطر على الشام ومصر، وانضمت الجزائر للدولة العلية، إبراهيم بك حليم: تاريخ الدولة العثمانية العلية –التحفة الحليمية–، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1408ه/1988م، ص ص 79،80.

*** –الملاحظ في هذه الفترة، خاصة بعد وفاة محمد الفاتح أن الإنكشارية بدؤا يتدخلون في عزل وتولية السلاطين نتيجة قوتهم وتأثيرهم في قرارات الدولة العلية نتيجة لحصولهم على امتيازات كثيرة بعد فتح القسطنطينية وقد ازداد نفوذهم وسطوتهم داخل جهاز الحكم العثماني لذلك نلاحظ تنامي دورهم في الدولة خلال مراحل لاحقة إلى غاية سنة 1826 تاريخ القضاء النهائي على الإنكشارية في الدولة العثمانية.

2 – محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق، إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1401ه/1981م، ص187.

افتتح السلطان الغازي سليم خان الأول أعماله بقتل أخويه قرقود وأحمد، ثم قرر التصدي للخطر الصفوي، الذي كان أكبر مشكلة تهدد أمن واستقرار السلطنة العلية حينذاك، لذلك أحدث السلطان العثماني انقلابا خطيرا في الاستراتيجية المتبعة من قبل أسلافه من السلاطين، لأنه أوقف زحف الفتح باتجاه أوروبا واتجه به إلى الشرق الإسلامي، بعد أن بدأ المد الشيعي الصفوي يقترب من الأراضي العثمانية، بالإضافة إلى خطر المماليك بمصر؛ الذين كانت أطماعهم تزداد يوما بعد يوم في القضاء على السلاطين العثمانيين، بعد أن شعروا بتنامي شعبيتهم، خاصة وأن تسمية الحكام العثمانيين بلقب السلاطين جعل المماليك يتوجّسُون خيفة من السلاطين الجدد.[1]

أراد الشاه إسماعيل الصفوي السيطرة على العراق، راغبا أيضا في التوجه بعدها إلى الأناضول لاحتلاله وطرد العثمانيين منه، تدفعه في ذلك العديد من الأسباب:

- محاولة نشر المذهب الشيعي الصفوي.
- القضاء على الدولة العلية العثمانية وأخذ مكانة سلاطينها.
- الاستفادة من خصب الأراضي العثمانية.
- السيطرة على طريق التجارة باتجاه الشرق[2].
- إحياء أمجاد الإمبراطورية الفارسية.

أراد السلطان الغازي سليم الأول توجيه ضربة استباقية إلى الصفويين؛ فقام بقتل وسجن حوالي 40 ألف من أتباع الشاه إسماعيل الصفوي في الأناضول ليأمن مكرهم وخداعهم، ثم جهزا جيشا عرمرما واتجه به إلى أراضي الدولة الصفوية، أين جرت معركة رهيبة بين العثمانيين والصفويين بمنطقة تشالديران بتبريز في شهر رجب 920هـ/1514م، أسفرت نهايتها عن انتصار العثمانيين وفتح عاصمة الصفويين تبريز والسيطرة على الأناضول الشرقية والجنوبية ماعدا الجزء الواقع تحت سيطرة المماليك.[3]

في هذا الوقت كان العالم العربي يتعرض للهجمات البرتغالية والإسبانية، ولم يكن لحكامه إلا الاستنجاد بالسلطان العثماني سليم الأول، لذلك اقترح شريف مكة أبو البركات في سنة 1516م إرسال وفد عنه إلى

1 محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام (648-923هـ/1250-1517م)، دار النفائس، الإسكندرية، مصر، ص486.

2 - محمد سهيل طقوش: التاريخ الإسلامي... المرجع السابق، ص 358.

3 - نفسه.

السلطان العثماني لمبايعته وإعلان الولاء له، إلا أن السلطان المملوكي قونصوه الغوري تدخل لمنعه* وتحالف مع الشاه إسماعيل الصفوي من أجل قتال سلاطين الدولة العلية[1] وتشتيت جهودهم بين الطرفين، ونتيجة لهذا الاتفاق بدأ السلطان قونصوه الغوري في الاستعدادات لمواجهة العثمانيين، وقد تم لقاء الطرفان بالقرب من حلب الشهباء في وادي مرج دابق، كان الدائرة فيه على المماليك، الذين تشتت جيشهم وتفرق بسبب قوة المدفعية العثمانية، وقتل قونصوه الغوري يوم الأحد 25 رجب 922هـ/1516م.[2]

خلف طومان باي السلطان المملوكي قونصوه الغوري على رأس المماليك، وحاول الانتقام لسيده من السلطان الغازي سليم الأول، الذي عرض على طومان باي الدخول في طاعته وإعلان الولاء له، في مقابل إسناد حكم مصر له، إلا أنه رفض هذا العرض مفضلا المواجهة العسكرية المباشرة، بدل الخضوع للعثمانيين، حينما قرر سليم الأول الزحف باتجاه مصر[3]، وفي طريقه استطاع السيطرة على حلب، حماه، حمص، دمشق، فلسطين، ليصل أخيرا إلى مشارف القاهرة، أين جرت معارك عنيفة بين الجيوش العثمانية والمملوكية في أواخر شهري ذي الحجة 922هـ أوائل شهر محرم 923هـ/ديسمبر 1517م[4]، استطاع خلالها العثمانيون إلحاق هزيمة نكراء في الريدانية بجيوش المماليك، الذين اضطر قائدهم طومان باي للهرب من ساحة المعارك باتجاه الدلتا[5]، ليسلم فيما بعد للسلطان العثماني سليم الأول الذي أمر بإعدامه.[6]

ترتب عن فتح مصر العديد من النتائج، كان أهمها وأبرزها:

- تنازل أحمد المتوكل آخر الخلفاء العباسيين في مصر عن الخلافة للسلطان العثماني سليم الأول.**

---

*- انفرد خليل إينالجيك بهذه الرواية فالكثير من المصادر والمراجع التي اطلعنا عليها تؤكد أن هذا الأمر تم بعد أن سيطر سليم الأول على مصر، وقد أكد على ذكر حفيد الرسول ﷺ حتى يعطي الشرعية الدينية والدنيوية للسلاطين العثمانيين ويرد على الذين طعنوا في شرعية الخلافة العثمانية.

1 – خليل إينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة، محمد.م. الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2002م، ص 54.

2 – نجم الدين محمد بن محمد الغزي: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، حققه، خليل المنصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1418هـ/1997م، ص210.

3 – كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية، نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي: دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1968م، ص 448.

4 – محمد أبو راس الناصري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، دراسة وتحقيق، بوركبة محمد، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011م، ص81.

5 – نجم الدين محمد بن محمد الغزي: المصدر السابق، ص ص 210، 211.

6 – علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، ج1، ط1، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر، 1306هـ/1888م، ص 56.

** –تتبادر إلى أذهاننا العديد من الأسئلة منها: هل فعلا تنازل محمد المتوكل على الخلافة؟ وإن كان قد تنازل عنها ففي أي الظروف، وقد كان أسيرا ولا يملك لنفسه حولا ولا قوة؟ وهل فعلا كان محمد المتوكل خليفة بما تحمل هذه الكلمة من معنى؟ وهل عدم تنازله يطعن في شرعية الحكم العثماني وأعمال هؤلاء السلاطين في خدمة هذه الأمة؟ أم أن هناك أمور خفية تقف وراء هذه الإشكالية التي يجب مناقشتها بما توفر من أدلة، لأن هناك=

- إعلان شريف مكة إسماعيل بركات انضمام الحجاز للخلافة العثمانية، ثم قام بإرسال مفاتيح الأماكن المقدسة إلى السلطان سليم الأول دليلا على خضوعه وتبعيته.[1]

بعد ذلك قرر السلطان سليم الأول العودة إلى مقر حكمه بإستانبول التي أصبحت منذ ذلك التاريخ عاصمة الخلافة الإسلامية، التي واصل منها السلطان العثماني فتوحاته، وفي أثناء تجهيزه إحدى الحملات لفتح جزيرة رودس، وجيش بري لقتال الصفويين توفي في شهر شوال 926هـ/ سبتمبر 1520م[2] بدون أن يحقق حلمه في القضاء على الشاه إسماعيل الصفوي وتشتيت شمل أتباعه.

تولى حكم السلطنة العلية العثمانية بعد وفاة السلطان سليم الأول السلطان سليمان القانوني (926-974هـ/1520-1566م)، الذي عرفت الدولة العلية أزهى فتراتها في عهده، حيث عادت السياسة العثمانية تتجه نحو الفتوحات في أوروبا، معلنا بذلك بداية مرحلة جديدة من العلاقات الأوروبية العثمانية، اتسمت بالتوسع في البلقان وحوض البحر المتوسط.[3]

بعد أن تولى حكم الإمبراطورية الإسبانية شارلكان، عهد إلى أخيه فرديناند ملك النمسا مهمة التصدي للخطر العثماني والدفاع عن أوروبا الوسطى، حيث برزت المجر كخصم عنيد للعثمانيين بعد تراجع الصرب والبلغار، فقد أقدم ملكها على قتل سفير السلطان العثماني، الذي قدم إلى المجر من أجل إبلاغ ملكها بتولي السلطان سليمان الحكم، وفي نفس الوقت عارضا عليه دفع الجزية المعتاد دفعها للسلاطين السابقين أو إعلان الحرب، ولما بلغ الخبر الحزين مسامع السلطان أمر بتجهيز الجيش وسار به شخصيا رفقة أحمد باشا أحد أمهر وأشهر معاونيه إلى بلغراد التي استطاع فتحها يوم 25 رمضان 927هـ/29 أوت1521م بعد هزيمة مذلة للجيوش المجرية التي اضطرت لتسليم المدينة، التي دخلها السلطان سليمان خان القانوني وصلى بها الجمعة في إحدى الكنائس التي تم تحويلها إلى مسجد[4].

عرفت الدولة العلية العثمانية في هذه المرحلة توسعا هائلا داخل القارة الأوروبية، حتى أن العثمانيين وصلوا إلى مشارف عاصمة النمسا ولم يتسن لهم فتحها سنة 935هـ/1529م، ووصلوا في الجهة الغربية من

=مدرسة الاحتلال الغربي وأتباعها في البلاد العربية والإسلامية تريد أن تجعل من التواجد العثماني احتلالا، واحتلاله الأوروبيين لبلادنا استعمارا كان في خدمتنا وسببا في ازدهارنا!

1 - أندريه ريمون: المدن العربية في العهد العثماني، ترجمة، لطيف فرج، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1981م، ص56.

2 - عبد الله الشرقاي: تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين، تحقيق رحاب عبد الحميد القاري، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 1916م، ص 115.

3 - سهيل طقوش: المرجع السابق، ص362.

4 - محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص ص206، 207.

المتوسط حتى المغرب الأوسط، أين أسسوا الإيالة الجزائرية الحديثة سنة 926هـ/1520م، لتكون القاعدة الرئيسية في إرساء الحكم العثماني بالمنطقة، والمدافع الأول عن حدود الدولة العلية في مواجهة الأوروبيين، وعلى رأسهم الإسبان في الجهة الغربية للمتوسط.

2-الأوضاع الاقتصادية.

يذهب الكثير من المؤرخين أن الدولة العلية العثمانية بُنيت على أسس عسكرية صرفه، وبني مجدها على الفتوحات العسكرية مشرقاً ومغرباً وداخل القارة الأوربية، لذلك تنوع اقتصاها ومداخيلها، واشتهرت العديد من المدن بنوعية خاصة من الإنتاج، وقد لعبت الأنشطة الاقتصادية دوراً رئيسيا في تنظيم المدن وازدهارها.

ففي المجال الفلاحي كانت أكثر الأراضي انتشارا في الدولة العلية العثمانية، هي أراضي ملك للدولة "الأراضي الأميرية"، وكان يتم توزيعها على شكل اقطاعات، قسمت على شكل التالي:

1- إقطاع صغير؛ يسمى تيمار، ولا يتجاوز دخله عشرين ألف أقجة ويسمى صاحبه تيمارجي.
2- إقطاع زعامات؛ وهو الذي يتجاوز دخله 20.000 أقجة، ويطلق على صاحبه اسم زعيم.
3- إقطاع خاص؛ وهو أكبر الإقطاعات مساحة، ويتجاوز دخله 100.000 أقجة، وكان ملكا إلى أفراد الأسرة الحاكمة، وكان صاحب الإقطاع يتمتع به مدى الحياة، كما كان للسلطان أملاكا في جميع أنحاء الدولة.[1]

كانت الدولة العلية العثمانية دولة السعة والخير والبركة ورخص الأثمان وتوفر السلع، هذا إن لم تتعاقب عليها سنوات الجفاف، فقد اشتهرت العديد من المدن بالمستوى المعيشي الجيد، خاصة المدن الكبيرة وضواحيها، كاستانبول، مرمرة، منطقة الأناضول الغربية، بورصة، أدنة، مانيسا، يضاف إليها العديد من المناطق التي تم فتحها فيما بعد مثل مدينة الجزائر، تونس، بيروت، سلانيك.[2]

بالرغم من التقدم التجاري الذي حدث في مجال تبادل السلع إلاّ إن الأنشطة التجارية كانت عموما نمطية الشكل إلى حد كبير، وبالرغم من سيطرة كبار التجار على مجال تجاري واسع، وعلى بعض المنتجات الرئيسية، ومع ذلك كانوا غير قادرين على الحصول على المنافع التي تترتب عادة على هذه السيطرة، ومن ذلك أن تجار البن في القاهرة كانوا لا يحبذون الذهاب إلى أبعد من مدينة جدة على البحر الأحمر؛ الذي كان مغلقا تقريبا في وجه الملاحة الأوربية، فيما كانت السفن المسيحية تفرض عن طريق قراصنتها سيطرة شبه كاملة على البحر

1- إسماعيل أحمد ياغي: العالم العربي في التاريخ الحديث، مكتبة العبيكان الرياض، المملكة العربية السعودية، 1418هـ/1997م، ص 77.

2- يلماز أوزاتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة، عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح، محمود سلمان مراجعة وتنقيح محمود الأنصار، م2، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، إسبانيول، تركيا، 1990، ص 585.

الأبيض المتوسط، لذلك كان يضطر الكثير من التجار المسلمين لاستئجار سفن أوربية لممارسة نشاطهم التجاري، ومن ذلك أن تجار الإسكندرية يلجؤون إلى استئجار السفن من مرسيليا لسد حاجيات تجارتهم مع ولايات الدولة العثمانية.[1]

أما في المجال الصناعي فقد كان أرباب الحرف عماد الطبقة الوسطى، وهم طبقة واسعة داخل المجتمع العثماني حينذاك ذات قيمة كبيرة، يعيشون في المدن وينقسمون إلى طوائف حسب المواد التي يصنعونها ويبيعونها، كما كان يوجد حوالي 1100 نوع من الحرف في اسبانيول.

3-الأوضاع الاجتماعية والثقافية.

دخل الأتراك العثمانيون آسيا الصغرى في الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادي كقبيلة من قبائل الأتراك التي كانت هجراتهم على فترات متباعدة أحيانا ومتقاربة أحيانا أخرى، تنزح من مناطق الإستبس في أسيا متجهة غربا إلى الأناضول، وهم ينتمون إلى إحدى قبائل الغز التركية؛ وهي قبيلة قابي التي خرجت بقيادة أرطغرل بن سليمان شاه من أواسط آسيا باتجاه الغرب، ثم انضمت إلى جيش السلطان السلجوقي علاء الدين الأول سلطان دولة الروم السلاجقة، مما زاده قوة فانتصر على أعدائه عام 630هـ/1232م، هذا ما جعل السلطان علاء الدين يكافئ أرطغرل؛ فأقطعه أرضا متاخمة للحدود البيزنطية.[2]

وكان السلطان علاء الدين يهدف من وراء ذلك تحقيق هدفين رئيسيين هما:

- إبعاد قبيلة الكاي عن مركز السلطة السلجوقية.
- حماية حدود الدولة السلجوقية من الهجمات البيزنطية.

اختلف المؤرخون في نسب العثمانيين، فهناك من قال بأنهم ينتمون إلى الحجاز، وأن جدهم عثمان فر إلى قرمان ودخل في خدمة السلاجقة، وتعلم لغتهم وصار منهم وأصبح له أتباعا وعساكر، فيما ذكر بعض المؤرخين أن العثمانيين ينتمون إلى أبي مسلم الخرساني، وقيل أن أصلهم من الجراكسة من أولاد يافث بن نوح، أما المؤرخين الأتراك فمنهم من ينسبهم إلى قبائل الغز فقط، ومنهم من ينسبهم إلى قبيلة قابي، الاّ أن الثابت عند الكثير من المؤرخين الأتراك أن النواة الأولى للدولة العثمانية من عنصر الغز التركماني الذي وقف مع السلاجقة[3].

1 -أندريه ريمون: المرجع السابق، ص 171.

2 – أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1412هـ/ 1982م، ص 14.

3 – إسماعيل أحمد ياغي: الدولة العثمانية في تاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1415هـ/ 1995م، ص 11.

ينتسب العثمانيون إلى عثمان بن سليمان شاه، وكان عثمان وقبيلته أتراكا يزاولون مهنة الرعي، ولم يكن تحت إمرته إلا أربعمائة مقاتل، ولكن عددهم ما لبث أن تضاعف وامتدت حدودهم حتى وصلت إلى الحدود البيزنطية، هذا ما أدى إلى اختلاطهم بأنجاس أخرى، ما نتج عنه فيما بعد الجنس العثماني الجديد المختلط الناشئ عن ذوبان العناصر الأصلية التركية مع العناصر الجديدة من الأجناس الأخرى.[1]

كان المجتمع العثماني خليطا من عدة أجناس كالبيزنطيين والعرب والأمازيغ واليهود، الذين بلغ عدادهم قبيل وفاة محمد الفاتح حوالي 8 آلف يهودي في استانبول، ليزداد عددهم بعد طردهم من إسبانيا خلال العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي، خاصة وأن كل الدول الأوربية منعتهم من دخول أراضيها فيما رحب بهم سلاطين الدولة العلية العثمانية وأحسنوا إليهم.[2]

كانت الدولة العلية العثمانية تتشكل من عدة أجناس مختلفة، ولا يوجد بها تمييز ديني مثلما كان سائدا في الدولة البيزنطية أو الرومانية، وكان كل رعايا الدولة سواسية، بالرغم من وجود بعض الفروق من الناحية الوظيفية، لكن ذلك لم يكن ليولد فروقا من شأنها أن تحدث وضعا منافيا لحقوق الرعايا العثمانيين دخل الدولة العلية[3]، التي كان مجتمعها ينقسم إلى قسمين هما:

- ا الطبقة الحاكمة؛ وتشمل الطبقة الحاكمة والإداريين والجيش ورجال الدين.
- الرعية؛ وهي بقية فئات المجتمع بجميع أطيافه.[4]

يعتبر الدين الإسلامي الدين الرسمي للدولة العلية العثمانية، والمذهب الحنفي هو المذهب الرسمي لها،بالإضافة إلى وجود المذاهب السنية الأخرى؛ المالكية والشافعية والحنبلية، التي كان منتشرة في العديد من الإيالات العثمانية مشرقا ومغربا، ولكل مذهب مفت خاص، وبذلك تعايشت جميع المذاهب السنية [5]، بالإضافة إلى وجود بعض الأقليات التي تعتنق بعض الديانات الأخرى كالمسيحية واليهودية، دليل على التسامح الديني الموجود داخل الدولة العلية العثمانية، وقد كان يسمح لكل فرد أن يعيش وفقا لها يمليه عليه ضميره، حتى قال جين بودن «jean bodin» في كتابه "كتب الجمهورية الستة":«....في قصر حريمه يسمح بممارسة شعائر أديان

1 - عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ الشعوب الإسلامية، دار الفكر الإسلامي، بيروت، لبنان، ص13.

2- محمود محمد الحويري: تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، مصر، 2002، ص 229.

3 - يلماز أوزاتونا: المرجع السابق، ص 461.

4- إسماعيل أحمد ياغي: العالم العربي في التاريخ الحديث...، المرجع السابق، ص 76.

5- يلماز أوزاتونا: المرجع السابق، ص 461.

أربعة مختلفة، شعائر يهودية والشعائر المسيحية وفقا لطقوس الكنيسة الرومانية، وشعائر المسيحية وفقا لطقوس الكنيسة الإغريقية، وشعائر الإسلام...».[1]

كانت اللغة الرسمية للدولة العلية العثمانية هي اللغة العصمانلية، وكان الأتراك قد كتبوا بالأحرف العربية التي حلت محل الحروف الرونية واليوجورية التي كانوا يكتبون بها قبل الإسلام، واقتبسوا من اللغة الغربية والفارسية الكثيرة من المصطلحات والعديد من القواعد التي أضافوها للغتهم التركية[2]، ولم يحاول السلاطين العثمانيين فرض لغتهم على بقية الأجناس الأخرى، بل تركوا المجال مفتوحا لبقية الشعوب التابعة لهم من أجل التكلم بلغاتهم.

المبحث الثاني: الملامح الكبرى للمغرب الأوسط بداية القرن 10هـ/16م.

1-الأوضاع السياسية.

عرف المغرب الأوسط نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين تفككا سياسية وانهيارا اقتصاديا، وتخلفا ثقافيا وجمودا حضاريا لم يسبق له مثيل، وأصبح منقسما إلى عدة إمارات متحاربة فيما بينها، استطاعت كل واحدة منها تكوين شبه دولة قائمة بذاتها، ما تكاد تختفي دويلة حتى تظهر على أنقاضها أخرى، خاصة بعد أن وصلت الدولة الزيانية لمرحلة الإجهاد والانهيار والفوضى، حيث لم يُعِرْ أمراءها أي اهتمام بالرعية والدولة، حتى وصل الأمر بهم إلى الاستنجاد بالإسبان ضد بعضهم البعض، مثلما قام يحي الثابتي سنة 912هـ/1506م أثناء تمرده على أبي حمو موسى الثالث (1503-1517م)، عندما طلب المساعدة من الإسبان للسيطرة على عاصمة الزيانيين تلمسان، وبذلك أتاح لهم فرصة لا تعوض من أجل فرض ضرائب على أمراء بني زيان قدرت بـ12 ألف دوقة و12 فرسا و6بزات.[3]

أمام الضعف والهوان الذي أصاب الأمراء الزيانيين استغل الحفصيون بتونس هذه الأوضاع لصالحهم وقاموا بالسيطرة على بجاية وقسنطينة وجزءا كبيرا من شرق المغرب الأوسط[4]، فيما حاول بنو مرين التدخل في الشؤون الداخلية للزيانيين، ومحاولة السيطرة على مناطق من الجهة الغربية للدولة الزيانية، فيما كانت بعض المناطق الشمالية والداخلية تخضع لحكم بعض الأسر العريقة مثل: مدينة الجزائر التي كانت تحكمها قبيلة الثعالبة بقيادة

1 - محمود محمد الحويري: المرجع السابق ص ص، 235، 236.

2 - أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص 33.

3- بسام كامل عبد الرزاق شقدان: تلمسان في العهد الزياني 633-962هـ/1235-1555م، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2002م، ص 248.

4- يوسف بنو جيت: قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر الميلادي، ترجمة: سامي عمار، دار النشر دحلب، الجزائر، 2007م، ص30.

سالم التومي[*]، ومدينة تقرت التي كانت تحكمها أسرة بني جلاب، ومدينة ورقلة تحكمها أسرة علاهم، أما المناطق الجبلية فقد تأسست بها إمارات ينتمي حكامها إلى أصولا مرابطية شريفية مثل إمارة كوك التي كان يحكمها أحمد بن القاضي[**]، وإمارة بين عباس التي كان يحكمها الأمير عبد العزيز، أما المنطقة الوسطى فكانت تتقاسم حكمها العديد من الأسر مثل: إمارة بوعكاز التي كانت تمتد إلى غاية الزاب والحضنة وبعض الجهات الأخرى في الصحراء، وإمارة بني يزانسن وفقيق بالجهة الغربية.[1]

أما المناطق الداخلية من المغرب الأوسط فقد سيطرت عليها بعض القبائل العربية والبربرية، ومن أهم القبائل العربية نذكر؛ قبائل الضحال وعباد اللذان سكنا منطقة حمزة، وقبائل بنو عبيد غربي تلمسان، أما القبائل البربرية فنذكر قبائل زواوة التي سكنت جبال جرجرة، وصنهاجة التي سكنت الجبال الواقعة جنوب جرجرة وتنس ومصب نهر الشلف، وقبائل توجين التي سكنت جبال الونشريس، وبنو ميزاب الذين سكنوا غرداية، وفطين واستوطنوا شمال تلمسان وبنو عبد الواد وسكنوا تلمسان وأحوازها.[2]

كان للأوضاع المزرية التي آل إليها المغرب الأوسط نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادي دورا بارزا في طمع السلطات الإسبانية في احتلاله[***]خصوصا بعد أن تمت الوحدة الإسبانية نهائيا بالسيطرة على إمارة غرناطة في شهر جانفي 1492م، معلنة بذلك مطاردة المسلمين في الأندلس، الذين لم يكن لهم من ملجأ إلا بلاد المغرب الإسلامي، وخصوصا المغرب الأوسط، أين واصلت الجيوش الإسبانية ملاحقة

*- سالم التومي: شيخ مدينة الجزائر، ويعرف باسم "سليم التومي" وقع عليه اختيار سكان الجزائر وشرشال للذهاب إلى بجاية يوم 10 جانفي 1510م للاجتماع ببيدرو نافارو وتم الاتفاق معه على دفع غرامة مالية سنوية والسماح للإسبان ببناء حصن صخرة البنيون، ينظر: وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم، عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000م، ص 35.

**- أحمد بن القاضي: شيخ قبيلة زواوة وقائدها، ينحدر من عائلة أبي العباس الغبريني صاحب كتاب الدراية، كان على رأس الوفد الذي سافر إلى السلطان سليم الأول للطلب منه قبول انضمام مدينة الجزائر للدولة العلية...للاستزادة ينظر، مجهول: سيرة المجاهد خير الدين بربروس، تحقيق: عبد الله حمادي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009م، ص78.

1- يحي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، الجزائر الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص8.

2- أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، ط1، دار البصائر للتوزيع والنشر، الجزائر، 2007م، ص ص، 84، 85.

***- عندما فوجئ المغرب الأوسط بالاحتلال الإسباني كان مجزءا إلى خمسة عشر جزء كل واحد منها تهيمن عليه قبيلة عربية أو بربرية ولا يهمها إلا مصالح القبيلة أو العشيرة... المهدي البوعبدلي:" أضواء على تاريخ الجزائر، العهد التركي من خلال مخطوط الثغر الجماني"، **مجلة الأصالة**، ع8، الجزائر، 1972م، ص 277.

الأندلسيين به، حتى لا يفكروا في العودة مرة أخرى إلى بلادهم المحتلة[1]، وفي نفس الوقت الانتقام من المغاربة الذين لطالما قدموا المساعدات للمسلمين بالأندلس.[2]

في الوقت الذي كانت فيه بلاد المغرب الأوسط تعيش الانحطاط والتجزؤ والانهيار داخليا، كان خطرا خارجيا يتهدد البلاد والعباد، حيث بدأت بعض سواحل البلاد تتعرض إلى الاحتلال من طرف الإسبان الذين كانت بلادهم تعرف نهضة علمية ووحدة سياسية وازدهارا اقتصاديا وتطورا عمرانيا وتلاحما اجتماعيا[3]، هذا ما شجعهم على توجيه أنظارهم لبلاد المغرب الأوسط من أجل احتلالها واستغلال خيراتها.

2-الأوضاع الاقتصادية.

انهار الاقتصاد بالمغرب الأوسط بسبب الفوضى السياسية الناتجة عن غياب الأمن والاستقرار، فقد اضطر الفلاحون لهجرة أراضيهم الزراعية بعد تزايد الأخطار الداخلية والخارجية، لأن الكثير من السكان فضلوا الهجرة إلى المناطق الآمنة، خاصة بالمدن الكبرى، تاركين أراضيهم ومزارعهم مهملة يعثوا فيها الغرباء فسادا، فيما فضل البعض الآخر من الفلاحين تربية المواشي والابتعاد عن المناطق كثيرة النزاعات، والفرار بمواشيهم وعائلاتهم إلى المناطق الصحراوية والجبال، وهذا ما نتج عنه تدهور الفلاحة حتى غدا بعض الفلاحين يعانون من الفقر البؤس بعد أن كانوا في رغد من العيش.[4]

أما فيما يخص المجال الصناعي، فإن المغرب الأوسط لم يعرف نهضة صناعية بمفهومها الشائع حينذاك، إنما كانت هناك بعض الحرف الموجودة في الكثير من المناطق بالبلاد، مثل صناعة السروج، سكك المحاريث، المناجل، الخناجر، الفؤوس والأواني الفخارية ذات الاستعمال المنزلي، وقد كانت منتشرة في كامل البلاد وعُرفت بجودتها العالية، بالإضافة على صناعة الزرابي، الأقمشة، صناعة البرانس، وكذلك تصنيع الفحم من أشجار الخروب.[5]

وقد اشتهرت مناطق بذاتها بصناعات معينة، كإمارة كوكو التي كانت تصنع بها الرماح والسيوف والبارود، ومدينة بجاية التي اشتهرت بها صناعة السفن لتوفرها على المواد الأولية الخاصة بهذه الصناعة خاصة الخشب ذات

1- محمد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، مكتبة دار الشروق، بيروت، لبنان، 1969م، ص14.

2- محمد حسن العيدروسي: تاريخ العرب الحديث، ط1، دار الكتاب الجامعي للنشر والتوزيع، الكويت، 1997م، ص 30.

3- مولاي بلحميسي: "نهاية دولة بني زيان"، **مجلة الأصالة**، ع26، الجزائر، 1975م، ص31.

4 - كليل صالح: سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الإسباني لاحتلال المغرب الأوسط، مذكر ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2006-2007م، ص20.

5 - مارمول كربخال: إفريقيا، ج2، ترجمة محمد حجي وآخرون، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب الأقصى، 1989م، ص 351.

النوعية الجيدة، كما اشتهرت مدينتي شرشال والجزائر بهذه الصناعة، خاصة بعد توافد الأندلسيين الذين وظفوا خبرتهم في تجهيز وصناعة السفن لمواجهة المحتلين الإسبان.[1]

أما التجارة فقد عرفت ركودا رهيبا بسبب كثرة الحروب بين الإمارات والقبائل المتناحرة فيما بينها، زاد الأمر خطورة انتشار قطاع الطريق واللصوص، نتيجة لقلة الأمن في ظل غياب تام لسلطة مركزية موحدة تضبط الأمن وتطبق القانون، مما اضطر بعض التجار إلى ترك مهنهم والفرار إلى أماكن أخرى أقل خطورة آملين في النجاة بأنفسهم بعد أن أصبحت سلعهم وأموالهم عرضة للنهب والسرقة، وفي بعض الأحيان تذهب حتى أرواحهم فداء لأموالهم وتجارتهم، هذا ما نتج عنه تدهورا خطيرا للتجارة وخراب مدن وقرى بأكملها.[2]

بالرغم من هذه الأوضاع الخطيرة، إلا أنه يمكننا استثناء بعض المناطق الساحلية والداخلية، أين كان يتوفر الأمن أو بالقرب من مراكز الاحتلال الإسباني أين توجد بعض القبائل العميلة التي كانت تمارس التجارة معه وتحت حمايته ورعايته المباشرة، في مقابل العمالة والخضوع له، والتعاون ضد سكان البلاد الرافضين للاحتلال، وهكذا استمر النشاط التجاري مع الإسبان بدون تدخل السلطة المركزية بسبب عجزها عن فعل أي شيء.

أما التجارة الخارجية، فقد كان لها نفس مصير التجارة الداخلية، خاصة بعد الكشوفات الجغرافية الإسبانية، وما نتج عنه من اكتشاف طرق تجارية جديدة، هذا ما انعكس على المغرب الأوسط الذي فقد أهميته التجارية التي عُرف بها في العصر الوسيط، حيث عرفت موانئه إهمالا كبيرا وتدهورا خطيرا، وفقدت العديد من المدن دورها الريادي في التبادل التجاري بين الدول الأوروبية وبلاد المغرب الإسلامي، مثل مدينة وهران، تلمسان، بجاية، عنابة وغيرها من المدن الأخرى.[3]

3-الأوضاع الاجتماعية والثقافية.

تشكلت البنية السكانية في بلاد المغرب من عنصرين أساسيين؛ العرب والأمازيغ اللذان اندمجا مع بعضهما البعض منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، حيث ساعدت العديد من الأسباب في هذا الاندماج والوحدة، نذكر منها:

---

1 – أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، ط1، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع والترجمة، القبة، الجزائر، 2009، ص 146.

2- محمد دراج: الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512-1553م، ط2، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، ص 70.

3 – عبد القادر فكاير: الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1206هـ/1505-1792م)، دراسة تتناول الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على الجزائر، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، ص ص 203، 206.

- الدين الإسلامي؛ الذي أزال جميع الفروقات والحساسيات الموجودة بين السكان الأصليين والوافدين الجدد.
- لعب المذهب المالكي دورا رئيسيا في توحيد سكان بلاد المغرب الأوسط.
- اللغة العربية التي كانت عنصر اندماج ووحدة، وعاملا من عوامل الجذب والألفة بين جميع مكونات المجتمع.
- الخطر المشترك؛ الناتج عن الاحتلال الأجنبي لبلاد المغرب، خاصة الإسبان الذين ساهموا بطريقة غير مباشرة في زيادة الوحدة والألفة بين مكونات المجتمع الواحد.

غلب على نمط الحياة ببلاد المغرب الأوسط البداوة والترحال، لأن أغلبية سكانه يعيشون في الأرياف ويعملون في تربية المواشي وزراعة الأراضي[1]، مما يتطلب الترحال المتواصل بحثا عن الكلأ والماء والأمن، وقد كان يسود بينهم نظام القبلية والعشيرة، أين السلطة المطلقة بيد أعيان القبائل والمرابطين، أما في المدن الكبرى فقد غلب عليها نمط التحضر والاستقرار، زاد هذه الوضعية الفريدة رونقا وجمالا قدوم الأندلسيين إلى المدن الساحلية بالمغرب الأوسط، بعد سقوط آخر معاقلهم إمارة غرناطة بيد الإسبان المحتلين في جانفي 1492م.[2]

استطاع الأندلسيون الموريسكيون التأثير في بنية المجتمع وازدهار الحياة الاجتماعية فيه، نتيجة التفاعل الذي حدث بين جميع أطياف المجتمع الأصليين والوافدين الجدد، الذين كانت لهم نشاطات سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية خاصة بهم، أرادوا نقلها إلى مجتمعاتهم الجديدة بالمغرب الأوسط ما نتج عنه تمازجا بين المجتمع العربي الأمازيغي والمجتمع الأندلسي الحامل بين ثناياه الفكري الغربي الأوروبي بالرغم من طابعه العربي الإسلامي، أو بمعنى آخر ربط مجتمع المغرب الأوسط ذو الطابع المشرقي الإسلامي بالمجتمع الأندلسي ذو الطابع الغربي[3]، وهذا ما أثر كثيرا في عديد المدن الساحلية التي نهل سكانها من إبداعات الوافدين الجدد، خاصة مدينة الجزائر، شرشال، دلس، بجاية، عنابة، مستغانم وتنس.

برز التأثير الأندلسي الموريسكي جليا في المغرب الأوسط من خلال عنصرين رئيسيين هما:

- إدخال العديد من العادات والتقاليد إلى بلاد المغرب الأوسط، بالإضافة إلى مساهمتهم في إحياء وتنشيط الحياة الثقافية بعد الركود الذي أصاب الكثير من المدن.

---

1 – عبد القادر حليمي: "القروض والنقود في مدينة الجزائر أثناء العهد التركي"، **مجلة الأصالة**، ع7، الجزائر، 2012م، ص74.

2 – أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص80.

3 – عزيز سامح ألتر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ط1، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، 1989م، ص 325.

- إعلان الجهاد ضد الإسبان المحتلين دفاعا عن العباد والبلاد، هذا ما أنتج تكاثفا وتلاحما بين الوافدين الجدد والسكان المحليين، لينصهر الجميع في بوتقة واحدة وتحت مظلة جامعة بعد قدوم العثمانيين.[1]

أما فيما يخص الحياة الثقافية، فقد عرفت تراجعا رهيبا عما كانت عليه سابقا نتيجة لغياب الأمن والطمأنينة، فإذا ما استثنينا بعض الزوايا التي استطاع شيوخها المحافظة على مواصلة تعليم الطلبة الوافدين إليها والراغبين في طلب العلم، وعلى ديمومة التعليم وسيرورته بالمغرب الأوسط، وقد عرفت هذه المرحلة انتشار الفكر الصوفي والتصوف، حيث أصبح ظاهرة غالبة في المدن والبوادي[2] بعد أن كان منحصرا في بعض المدن فقط.

ما يمكن ملاحظته هو اندثار وتراجع العديد من الحواضر العلمية بالمغرب الأوسط، بعد أن كانت منارة علم ومقصد الطلبة من كان مكان في العصر الوسيط، مثل: بجاية، مازونة وتلمسان وتوات، هذا ما انعكس سلبا على حركية التعليم، حيث هاجر العلماء والمعلمين بعد الاحتلال الإسباني، مفضلين الذهاب إلى مراكز علمية أكثر أمنا، سواء داخل الوطن أو خارجه مثل: القرويين بفاس الذي كان لا يزال حينذاك يؤدي رسالته العلمية ودوره الريادي في التعليم ونشر العلم بكفاءة متميزة.[3]

المبحث الثالث: أوضاع طرابلس الغرب بداية القرن 10هـ/16م.

1-الأوضاع السياسية.

لا يمكن فصل تاريخ طرابلس الغرب- منذ قيام الدولة الحفصية على أنقاض دولة بني مرين عن تاريخ الدولة الحفصية حيث ظلت البلاد تابعة للسلاطين الحفصيين، حتى وإن كان في الكثير من المرات اسميا فقط، على اعتبار أنه يسود بها نظام العشيرة والقبيلة، وكل منطقة شكلت دويلة قائمة بذاتها مستقلة عن الدولة الحفصية، بالرغم من أن هذه الدويلات كانت تدفع الضرائب والرسوم وتعلن الولاء للسلطان الحفصي؛ بقراءة الخطبة باسمه والدعوة له على المنابر يوم الجمعة، مثلما كان عليه الحال في إقليم فزان وبنغازي وغدامس، فقد كانت هذه الإمارات تستقل بذاتها تارة، وتتبع حكام طرابلس تارة أخرى، وبذلك تعتبر إحدى مقاطعات السلطان الحفصي[4]،حيث أسست شبه دويلات مستقلة يحكمها رجال الطرق الصوفية والمرابطين، أما الجزء الشرقي من البلاد "برقة" فقد كان خاضعا للمماليك بمصر، إلا أن الحقيقة الماثلة في ذلك الوقت والتي يجب أن نعرفها هي أن

1 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، 1500-1830، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م، ص 148.

2 -كليل صالح: المرجع السابق، ص29.

3 - محمد دراج: المرجع السابق، ص74.

4 -محمد بيرم الخامس التونسي: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأخبار، دار صادر، بيروت، لبنان،1303ه /1985م، ص66.

السلطة الفعلية كانت بيد البدو الذين كانوا يملكون زمام الأمور؛ لأنهم يمثلون القوة الرادعة والضاربة في برقة، طرابلس وفزان، بالرغم من تعدد ولاءتهم لعدة جهات كالحفصيين، المرينيين والمماليك بمصر.[1]

مع حلول سنة 864هـ/1460م حدثت اضطرابات خطيرة بطرابلس الغرب نتيجة لخلاف كبير وقع بين أسرتين عريقتين بالمدينة؛ أسرة مامي الشريف وهو أحد الأثرياء الكبار، والذي زوج ابنته إلى ابن مصطفى بن أحمد أحد وجهاء وأعيان المدينة، إلاّ أنّ ابن هذا الأخير ردّ العروس في اليوم الموالي، ونتيجة لهذا الحدث، نشب قتال بين الأسرتين وأتباعهما، كانت نتائج هذا الصراع وخيمة على الطرابلسيين الذين تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح، حُمِّلَت أوزارها للوالي الحفصي بطرابلس الذي لم يقم بدوره في رأب الصدع وإصلاح الأحوال، لذلك كله كان مصيره الطرد من طرابلس، وفي المقابل استطاع أحد الوجهاء اسمه سيدي منصور والذي تميز بالحنكة والدهاء وقف القتال بين الطرفين، وتوصّل إلى إبرام صلح بينهما وتم القضاء على هذه الفتنة وعاد الهدوء إلى البلاد، وكمكافأة لهذا الشيخ على عمله هذا بايعه أهل طرابلس كملك عليهم، بمباركة إمام الجامع الكبير[2]، وبهذه البيعة أصبح الحاكم الفعلي لطرابلس، ولتأكيد هذا المنصب الجديد وفد على الشيخ سيدي منصور العديد من زعماء القبائل لمبايعته مثل؛ قبيلة غريان، بني وليد، ترهونة، مصراتة، مسلاتة، وزواوة، فيما خرج أهالي تاجوراء كلهم لمبايعته وتهنئته[3].

بهذه الخطوة الجريئة التي قام بها الشيخ منصور أعلنت طرابلس الغرب بداية الانفصال الرسمي عن الدولة الحفصية التي كانت تمر بمرحلة ضعف شديد، وتأكيدا لسياسة الانفصال شُكّل مجلسا محليا من وجهاء وزعماء القبائل التي بايعت الشيخ منصور، حيث دارت مناقشات طويلة ومشاورات عديدة داخل المجلس أُتخذ على إثرها قرارا بإسناد رئاسة المجلس للشيخ منصور وفي نفس الوقت يكون حاكما وملكا عليهم.[4]

لما سمع السلطان الحفصي الأمير أحمد بن محمد الحفصي «أبو عمر»* بمبايعة أهالي طرابلس للشيخ منصور وإعلان انفصالهم عن تونس، قرر تأديبهم وإعادة إخضاعهم لسلطته من جديد، فأرسل إلى طرابلس

1- محمد دراج: المرجع السابق، ص78.

2 - شارل فيرو: الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، نقلها إلى العربية وحققها، محمد عبد الكريم، ط3، منشورات قاريونس، بنغازي، الجماهيرية الليبية، 1994م، ص 66.

3 - محمد خير فارس، محمود علي عامر: تاريخ المغرب العربي الحديث " المغرب الأقصى، ليبيا "ج1، الجمعية التعاونية للطباعة، دمشق، سوريا، ص147

4- خليفة محمد التليسي: حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، ط3، الدار العربية للكتاب، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، 1997، ص64.

* - المولى السلطان العالم الشهير أبو عمرو عثمان ابن المولى الأمير أبي عبد الله محمد المنصور ابن أمير المؤمنين أبي فارس عبد العزيز؛ ولد في 27رمضان 821هـ/1418م، بويع بالخلافة بتونس يوم الجمعة 12 صفر 839هـ/1436م،كان شجاعا حازما محبا للعلم والعلماء وكانت أمه من علوج=

جيشا عرمرما للانتقام من الطرابلسيين[1]، غير أن الشيخ منصور عَلِم مبكرا بتحرك الجيش الحفصي، لذلك استعد جيدا لهذه المعركة وقام بتجهيز جيش قُدِّر بحوالي 5000 مقاتل من المشاة و3000 فارس، وأعدّ خطة محكمة لمواجهة هذا الموقف؛ تقضي بترك الجيش الحفصي يتقدم حتى يصل إلى منطقة زواوة، وهناك التقى الجيشان في معركة حامية الوطيس، أسفرت نهايتها عن انهزام جيش أحمد بن محمد الحفصي «أبو عمر» الذي فقد حوالي 3000 جندي، وتراجع باقي جيشه إلى تونس، ونتيجة لهذا الانتصار زادت شعبية ومكانة الشيخ سيدي منصور لدى أهالي طرابلس، فاستغل هو هذه الفرصة وراح يُثبّتُ أركان حكمه بالبلاد، إلا أن السلطان التونسي لم يتقبل الأمر وحاول القضاء على الحكم الجديد بطرابلس الغرب، لذلك كرر الهجوم مرة ثانية، غير أنّ محاولته باءت بالفشل مرة أخرى، ليقرر بعدها الطرفان وضع حدٍ لهذه الحرب سنة 867هـ/ 1463م، فاسحين المجال لاستئناف العلاقات السلمية والتجارية بين الطرفين.[2]

لم تدم سيرة الشيخ سيدي منصور الحسنة في رعيته إلاّ مدة يسيرة من حكمه، ثم بدأت تسوء، فقد ظهر عليه حب الذات والانفراد بالحكم والتعالي على أهل طرابلس، واستعمال الغلظة والشدة معهم والتجبر والطغيان في استعمال السلطة والنفوذ، وسار في الناس سيرة قبيحة، نفرّتهم منه وجعلتهم يتضايقون من أعماله ومعاملاته، فقد كان يسوسهم كملك له سلطة مستقلة، وأراد حكمهم بالقوة والجبروت[3]، فقرر صهره التخلص منه بأيّ وسيلة، وبعد تخطيط وتدبير تحقق له ذلك سنة877هـ/ 1472م[4]، وبذلك تخلصت طرابلس الغرب من حاكم

=النصارى اسمها مارية، ثار عليه الأعراب مرارا مثل: أولاد أبي الليل، وبني الخلف والذواودة...، وخرج عليه الأمير أبي الحسن ابن المولى الخليفة أبي فارس عبد العزيز حاكم بجاية وطلب البيعة لنفسه لما سمع بموت أبي عبد الله المنتصر، والتقى الجيشان سنة 840هـ/1437م وكانت الكرة على جيش أبي الحسن الذي فرّ مع فلول جيشه وعاد أبو عمرو عثمان إلى مقر حكمه تونس، وضم تلمسان إلى ممتلكاته سنة871هـ/1488وهدم أسوارها ووصل في حركته هذه إلى بلاد ريغ (غرداية حاليا) وورقلة من الصحراء الجزائرية وأمّن أهلها... قام بالعديد من الإنجازات؛ أهمها بناؤه المدرسة والزاوية التي بدار صولة والمدرسة التي بجانب سيدي محرز والزاوية المعروفة بعين الزميت بين مدينة تونس ووباجة وتحبيسه عليها ما يقوم بها، وزاوية أبي الحداد وزاوية المنهلة وزاوية قرناطة الموجودة بين قفصة وتوزر وزاوية بسكرة وزاوية التومي... وإقامته خزانة للكتب وبناؤه بمقصورة سيدي محرز بن خلف شرقي جامع الزيتونة وحبس فيها الكتب من كل العلوم الشرعية، اللغة، الطب، التاريخ والحساب...ومن مآثره صدقته الجارية لأهل الأندلس في كل عام إعانة لهم لمواصلة الجهاد ضد الإسبان...للاستزادة ينظر، الزركشي؛ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق، محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م، ص ص134، 140؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع: الأدلة النورانية البينية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم، الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984م، ص126.

1- الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة، محمد حجي، محمد الأخضر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ص100.

2- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 65.

3- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص100.

4- خليفة محمد التليسي: المرجع السابق، ص65.

مستبد، وانتهى الأمر بالسكان إلى الالتجاء لأحد أفراد حاشية الأمير «أبو بكر»، وهو الشيخ يوسف الذي أُجبر على تولي الحكم بالرغم من رفضه هذا الأمر.[1]

بايع أهل طرابلس الشيخ يوسف كأمير عليهم سنة 877هـ/1472م، وقد عرفت فترة حكمه العديد من الأحداث البارزة، خاصة هجوم مارتان الأول «Martin1» ملك صقلية على طرابلس بحجة مطاردة البحارة المغاربة، ولم يلبث الأمير يوسف في الحكم كثيرا حتى توفي بالطاعون سنة 885هـ/1480م، ليخلفه الشيخ «مامي» الذي تمت بيعته كأمير للبلاد بالجامع الكبير في نفس السنة، ليتولّى من بعده الشيخ عبد الله بن شرف سنة 1492م، الذي عرفت البلاد في عهده توجيه العديد من الحملات ضد القراصنة النصارى الذين زاد نشاطهم ضد المسلمين، وكان ينطلق في ذلك من قناعته الراسخة بوجوب جهاد المعتدين من المسيحيين وعدم مهادنتهم ورفع راية الإسلام، لأنه عُرف بتدينه وزهده في الحكم حتى لقب بالمرابط[2]، ونظرا لسيرته الحسنة فقد ظلّ يحكم البلاد إلى غاية الاحتلال الإسباني لطرابلس الغرب سنة 1510م.[3]

عرفت طرابلس الغرب خلال فترة الحكم المحلي للبلاد العديد من الاضطرابات والمشاكل، خاصة وأنها أصبحت مستقلة بنفسها عن الحفصيين نهائيا، وأُلقيت الخطبة باسم السلطان المريني بفاس، وأمّا مدينة سرت فقد شكلت إقليما سياسيا مستقلا بذاته عن كل سلطة أخرى، يحكمها مجلسا محليا يتكون من شيوخ القبائل المحليين، يترأسه شيخ تؤول إليه أمور المدينة وتوابعها في كلّ شيء.[4]

أمّا برقة فكانت مقسمة بين اثنين من زعماء القبائل العربية؛ جزء شرقي تحت سيطرة أبي ذئب رئيس قبيلة هبيب، وجزء غربي تحت حكم الشيخ إسلام رئيس قبيلة لبيد، أمّا مصراتة، مسلاتة، سرت والخمس، فقد كانوا منذ العصر الوسيط يشكلون كيانات سياسية مستقلة، تحكمها أسرة عربية من أولاد سالم. أمّا جنوب غريان، وجنوبها الشرقي فقد كانا تحت حكم أولاد سليمان.[5]

وهكذا كانت بقية المدن الأخرى. كلّ مدينة شكّلت إمارة قائمة بذاتها لا يهم زعماءها إلاّ مصالح القبيلة الخاصة، وأكثر من ذلك متناحرين فيما بينهم حول الكلأ والمراعي والماء والحدود والنفوذ، ناسين أو متناسين الخطر

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص100.

2- شارل فيرو: المرجع السابق ص 67.

3- خليفة محمد التليسي: المرجع السابق، ص65.

4- الشافعي درويش: علاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، مذكرة شهادة ماجستير، قسم التاريخ، المركز الجامعي غرداية، 1431-1432م/2010-2011م، ص 36.

5- إسماعيل كمالي: سكان طرابلس الغرب، تعريب وتحقيق، حسن الهادي بن يونس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية، 1997م، ص ص 39،40.

الخارجي، إلى أن داهمهم الإسبان سنة 916هـ/1510م، واستطاعوا احتلال البلاد بكلّ سهولة في مدة زمنية وجيزة، نتيجة للانقسام والتنافر الحاصل في البلاد والخلافات الدائمة والمستمرة بين حكامها، وهي في الحقيقة ميزة اختصت بها كامل البلاد المغاربية في ذلك الوقت، قبل قدوم العثمانيين إليها.

2-الأوضاع الاقتصادية.

منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب سنة 27هـ، لم تعرف طرابلس الغرب أي وحدة سياسية بمفهومها الحقيقي ، لذلك أثّرت هذه الوضعية على الحياة الاقتصادية للبلاد، غير أنّ موقعها الاستراتيجي المطل على البحر الأبيض المتوسط وامتدادها نحو الصحراء الإفريقية ووقوعها في الطريق الرابط بين المغرب والمشرق الإسلاميين، أهلها لتكون همزة وصل وملتقى للطرق التجارية العالمية، وأعطاها ميزة فريدة من نوعها جعلتها تلعب دورا محوريا وبارزا كمركز ومعبر لتجارة الصحراء الإفريقية باتجاه أوربا خاصة الدويلات الإيطالية ومالطا، هذا على المستوى الخارجي، أما على المستوى الداخلي فخصب الأرضي وتنوع المناخ ووفرة المنتجات الفلاحية والرعوية جعلها في صدارة دول المغرب الإسلامي من حيث غناء أهلها واستقرارهم.

عاش سكان طرابلس الغرب حياة بسيطة؛ أساسها الاعتماد على أنفسهم في توفير مستلزمات حياتهم اليومية، خاصة في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين، حتى أن الفلاح يعتبر غنيا عند الطرابلسيين إذا استطاع توفير ستيتة أو ستيتين* من الشعير[1]، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على أن سكان طرابلس الغرب بالأرياف والمدن الصغرى كانت حياتهم بسيطة لا تَكَلُفَ فيها، يعتمدون في معيشتهم على كسب أيديهم وزراعة أرضهم، مستغنين عن معونة السلطات الحاكمة حينذاك، هذا إن وُجِدت أصلا، أمّا المدن الكبرى فقد كانت تمثل الاستثناء لأن أهلها عرفوا نوعا من الرفاهية والعيش الكريم، ومن أهم هذه المدن طرابلس ذاتها، وبرقة، وتاجوراء وغيرها فقد نقل لنا العياشي في رحلته نصا يعبر بصدق عن حياة الترف والبذخ الذي كان يعيشه أهل طرابلس، حتى أنهم نسوا واجب الدفاع عن بلادهم وتخلوا عن أبسط الأسلحة التي يجب أن يتسلحوا بها للدفاع عن أنفسهم وبلادهم، وفي ذلك يقول: «... **إنّ أهل هذه المدينة فيما مضى كانوا أهل دنيا عريضة فيما يقال وليس فيهم غناء ولا لهم بالحرب خبرة، فبينما هم كذلك قدمت سفن للنصارى تجارا بسلع كثيرة، فنزلت بالمرسى، فخرج إليهم رجل من التجار فاشترى منهم جميع ما بأيديهم من السلع وقدم لهم ثمنها، ثم استضافهم رجل آخر، فصنع لهم طعاما فاخرا فلما أخرج لهم الطعام أخذ ياقوتة ثمينة فدقها دقا**

* – ستيتة كيل قديم يقدر بنحو خمسة أرطال.

1– الحسن الوزان: المصدر السابق، ص98.

ناعما وذرها على طعامهم، فبُهتوا من ذلك، فلما فرغوا قدم لهم دلاعا فطلبوا سكينا لقطعها فلم توجد في داره سكين، ولا عند جاره إلى أن خرجوا للسوق فأتوا بسكين، فلما رجعوا إلى بلادهم سألهم ملكهم عن حال البلدة التي قدموا منها*، فقالوا: "ما رأينا بلدة أكثر منها مالا وأقل سلاحا وأعجز أهلا عن مدافعة العدو"، وحكوا له الحكايتين...».[1]

وبصرف النظر عن صدق هذه الرواية من كذبها، إلاّ أنّه يمكننا أن نستخلص منها الحالة المعيشية المزدهرة التي كان يعيشها سكان مدينة طرابلس الغرب ونواحيها، بالإضافة إلى المدن الواقعة على الساحل، بل هناك من المؤرخين من يؤكد أن طرابلس كانت مزدهرة أكثر مما كانت عليه تونس، وسكانها أغنى، فكانت مدنها مليئة بالمجوهرات واللآلئ والبضائع المختلفة، وكان بها العديد من المصانع قدرت بحوالي 150 مصنعا مختصا في صناعة الحرير والمنسوجات الفاخرة، وازدهرت بها التجارة الداخلية في جميع المجالات، كما كان بها عدد هائل من التجار والبقالين الذين كانت مخازنهم ممتلئة بالبضائع والسلع بجميع أشكالها وأنواعها.

تماشيا مع ازدهار التجارة الداخلية وكثرة التجار والحرفيين، كان تنظيم الأسواق يخضع لهذا التنوع والاختلاف، فأسواق المدن منسقة ومفصولة عن بعضها البعض بحسب نوع الحرف، فمثلا حرفة النساجين التي كانت مزدهرة، كانت تخضع لقوانين مضبوطة وتحكمها قواعد خاصة بها على عكس بقية الحرف الأخرى التي لم تكن في نفس مستوى هذه الحرفة[2]، ومع ذلك كانت الحرف الأخرى منظمة ولها أماكنها وأزقتها الخاصة التي تعرض وتباع فيها، وكانت هذه السلع تسوّق وتصدر إلى البلدان الأخرى، مثل المغرب الأوسط وتونس[3] والصحراء الإفريقية والدويلات الإيطالية ومالطا.[4]

أما البوادي والأرياف فإنّ المعيشة بها كانت بدائية كحال جميع بلدان المغرب الإسلامي، فحياة السكان بها تعتمد على زراعة الأراضي الصالحة، لأن طبيعة البلاد الغالب عليها الطابع الصحراوي منع سكانها من زراعة الأراضي على نطاق واسع، زدْ على ذلك قلة الأمطار وظهور الجفاف في الكثير من السنوات منع انتشار الزراعة بشكل كاف، حيث فضل الكثير من السكان تربية المواشي؛ خاصة الإبل والماعز والأغنام، لأن هذه الحيوانات

* – الملاحظ أن الإسبان والمسيحيين عموما كانوا يتخذون التجار والرحالة والمستكشفين كجواسيس من أجل رصد أوضاع البلدان الإسلامية التي يريدون احتلالها.

1– أبو سالم العياشي؛ عبد الله بن محمد: الرحلة العياشية (1661–1663م)، ج1، تحقيق، سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2006، ص 143.

2– راسم رشدي: طرابلس الغرب في الماضي والحاضر، ط1، دار النيل للطباعة، طرابلس، ليبيا، 1953، ص87

3– الحسن الوزان: المصدر السابق، ص97.

4– مارمول كربخال: المصدر السابق، ج3، ص121.

تتلاءم وطبيعة هذه البلاد، ومع ذلك انتشرت الكثير من الزراعات مثل: غرس النخيل الذي اشتهرت به واحات طرابلس لأنه لا يحتاج إلى الكثير من المياه، خاصة وأن البلاد كانت تعاني من ندرة المياه بسبب طابعها الصحراوي الجاف، وهذا ما أشار إليه الحسن الوزان بقوله: «... **وليس بها سقايات ولا آبار وإنّما فيها خزانات وتعاني كثيرا من قلة الحبوب. لأنّ البادية كلها ليست سوى رمال كبادية نوميديا**...»[1]، وقد زودنا مرمول كربخال بنص يؤكد لنا هذه الحقيقة حيث قال: «... **واحات وافرة النخيل، إلاّ أنّ تربتها لا تنتج شعيرا ولا قمحا، فظلّ الخبز بسبب ذلك يباع بثمن غال، وكثيرا ما كان يُفتقد في الأسواق**...».[2]

من هاتين الروايتين نكتشف أن السكان يعتمدون في معيشتهم على المنتجات المحلية والزراعة العائلية التي تتلاءم وطبيعة منطقتهم وتكفي لسدِّ حاجيات الأسرة فقط، خاصة في المناطق البعيدة عن المدن الساحلية ممّا أثر على مستوى المعيشة في البلاد حيث يقول الوزان: «...**ويأكل السكان طعاما رديئا جدا وهو بازين الشعير، لأنّ المؤن المستوردة للمدينة لا تكفي لإعالتها يوما واحدا**...»[3]، لذلك توجه سكان طرابلس الغرب للاعتماد في معيشتهم على تربية المواشي والتجارة أكثر من اعتمادهم على الفلاحة التي لم تستهوهم كثيرا نظرا الصعوبة ممارسة نشاطها.

أمّا عن التجارة الخارجية فقد كانت مزدهرة نوعا ما بسبب الموقع الاستراتيجي للبلاد؛ التي تمتد جنوبا إلى غاية الصحراء الإفريقية وشرقا وشمالا باتجاه البحر المتوسط، زادها أهمية قربها من مالطا والدويلات الإيطالية وعموم أوربا، فقد كان تجارها يتعاطون التجارة على نطاق واسع مع تجار جنوب الصحراء الكبرى والمغربين الأوسط والأقصى، لأنّ البلاد كانت طريقا لمرور قوافل التجار والحجيج باتجاه مكة والمدينة المنورة، وبذلك شكلت همزة وصل بين المشرق والمغرب الإسلاميين، بالإضافة إلى إنها كانت مركزا هاما لرسوِّ السفن التجارية من مختلف الأقطار، حيث كانت سفن جنوا والبندقية والعديد من السفن الأوروبية تقوم بإفراغ البضائع وتبادلها مع بضائع وسلع الطرابلسيين، ومع بضائع كل تاجر يأتي إلى البلاد لتسويق سلعته في كل موسم، لعلمهم بأن التجار البنادقة والصقليين والمالطيين وحتى الإسبان والكثير من الأوروبيين يأتون إلى طرابلس الغرب من أجل التجارة، بالإضافة إلى التجار العرب والمغاربة والأتراك.[4]

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص97.

2- مرمول كربخال: المصدر السابق، ص120.

3- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص98.

4- إتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة1911، ترجمة وتقديم، خليفة محمد التليسي، ط2، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا،1991، ص 147.

أصبحت طرابلس الغرب مركزا عالميا للتجارة؛ حيث يتوافد عليها التجار من كل مكان، وازدهرت المدن الساحلية ونشطت بها التجارة، وزاد ارتباطها بالسواحل الأوروبية خاصة، حيث يتم التبادل التجاري نقدا، نظرا لتطور التجارة وتشعبها مع العديد من الأطراف الداخلية والخارجية، حتى أصبح الطرابلسيون يفتخرون بثرواتهم ويتبجحون بذلك، مثلما فعل ذلك التاجر مع التجار الإسبان لما أخذ ياقوتة ودقها وذرها على الطعام[1]، وقد اعتمد الكثير من المؤرخين على هذه الرواية التي نقلتها العديد من المصادر لتصوير الحالة المعيشية المزدهرة لهذه البلاد قبيل الاحتلال الإسباني لها[2]، ومع ذلك لا يمكننا تعميم هذه الحالة على كامل البلاد نظرا لطبيعتها الصحراوية القاحلة وامتدادها الجغرافي الشاسع واختلاف طبائع سكانها بين البدو والحضّر، والفقير والغني والمنفتح على العالم الخارجي والمنغلق على نفسه وباديته ومدينته، لأنّ المصادر المعاصرة نقلت لنا حقائق لا تدع مجالا للشك أنّ البلاد كغيرها من بلاد المغرب والمشرق الإسلاميين، كانت تعيش في ذلك الوقت حياة اقتصادية صعبة[3] بسبب الحروب الطاحنة والاختلاف حول الأراضي والمراعي، لأن المغرب الإسلامي في ذلك الوقت لم تكن له سلطة مركزية تضبط الأمن وتحمي الاقتصاد وتُنهي الخلافات، فهل يعقل أن تتطور بلاد ما بدون أمن وعدل واهتمام من الحاكم والرعية بالجانب الحضاري لأي أمة.

3-الأوضاع الاجتماعية والثقافية.

تشكلت البنية السكانية في بلاد طرابلس الغرب قبيل التواجد العثماني من عنصرين رئيسيين هما: الأمازيغ والعرب، كبقية البلدان المغاربية منذ الفتح الإسلامي في بداية القرن الأول للهجرة "22هـ"، حيث اندمج العنصران وتعايشا مع بعضهما البعض، بفضل الإسلام الذي كان الدعامة الأساسية لهذا التعايش والتمازج والاندماج، خاصة بعد رسوخ وتجذّر المذهب المالكي الذي اتخذه المغاربة مذهبا رسميا لهم مفضلينه على بقية المذاهب السنية والخارجية والشيعية الأخرى*، هذا ما عزز الوحدة بين العنصرين الأمازيغي والعربي، زد على ذلك لعبت اللغة العربية دورا بارزا في هذه الوحدة والتمازج بعد أن استطاعت القضاء على الكثير من العوائق التي كانت تحول دون الاندماج الكلّي لمكونات المجتمع الطرابلسي، حيث أصبحت اللغة الرسمية للبلاد، جاعلة من اللغات المحلية

1- أبو سالم العياشي: المصدر السابق، ص 143.

2- خليفة محمد التليسي: المرجع السابق، ص 97.

3- إسماعيل كمالي: المرجع السابق، ص40.

* – من أهم المذاهب السُّنية التي انتشرت في بلاد طرابلس خصوصا والمغرب الإسلامي عموما، إلاّ أنها لم تتجذر ولم يتخذها المغاربة كمذاهب رسمية نذكر: المذهب الحنبلي والمذهب الحنفي، أما المذاهب الخارجية فنذكر الصفرية والإباضية وأما المذاهب الشيعية فنذكر المذهب الفاطمي. إلاّ أن هذه المذاهب كان مصيرها الاندثار والتقهقر أمام المذهب المالكي الذي تعايش معه المغاربة واتخذوه كمذهب رسمي إلى يوما هذا، اللهم إلاّ إذا استثنينا المذهب الإباضي الذي مازال بعض المغاربة يعتنقونه إلى اليوم، وهم أقلية لا يمكن مقارنتهم بأغلبية المغاربة.

الأخرى تنحصر بين القبائل والأقليات التي تتخاطب بها فيما بينها فقط، ولذلك لعب الإسلام واللغة العربية دورا بارزا وفعالا في وحدة مكونات المجتمع الطرابلسي.[1]

من أهم القبائل الأمازيغية التي عمرت وسكنت بلاد طرابلس الغرب نذكر: قبيلة زناتة، زوارة، مغيلة، لواتة؛ ومضاربها موجودة ببرقة، لبدة، زواغة، ودمر، هراطيل، بني توجين، بني مغرا، بني يفرن، وبني ورشفانة، وبني بازين، وقبائل نفوسة وهي من أكبر قبائل طرابلس وينتسب إليها "جبل نفوس" موطنهم الأصلي وتتفرع منها العديد من القبائل مثل بني زمور، بني مكسور، بنو ضرا وبنو والو، وهم من البربر البتر، هوارة. هولاي بين سرت وبرقة، ومسراتة ولهم مدينة تسمى باسمهم، وهم ذوي جاه ومال وكثرة، يمتهنون التجارة خاصة بمصر، التي كانوا يسافرون إليها انطلاقا من مضاربهم.

أما القبائل العربية فنذكر منها: قبائل "سعدى" وتنقسم إلى تسعة قبائل كلها تزعم أنها من سلالة بني هلال وبني سليم الذين غزوا المنطقة خلال القرن الخامس الهجري (422هـ) القرن الحادي عشر ميلادي، وقبائل المرابطين وتسكن برقة[2]، ومن القبائل العربية أيضا قبائل النوائل غرب قابس، وفي الشرق قبائل بني دبّاب، التي تتفرع منها عدة قبائل منها: الجواري والمحاميد.[3]

بالرغم من غلبة الأمازيغ والعرب على البنية السكانية لطرابلس الغرب، إلاّ أنّ هذا لم يمنع من وجود أقليات إلى جانب هذين العنصرين مثل: الزنوج المتواجدين بالبلاد بحكم التواصل والحدود الجغرافية الموجودة بين طرابلس والبلاد الإفريقية، وكذلك كان يوجد اليهود بالرغم من قلتهم، وقد قتل الكثير منهم أثناء الاحتلال الإسباني لطرابلس الغرب سنة 1510م، وأُسر منهم حوالي خمسة آلاف آخرين[4]، وفي أواخر القرن الخامس عشر استطاع المهاجرون الأندلسيون تأسيس مدينة بن غازي. التي وفد إليها المهاجرون من مدينة طرابلس وبلدان المشرق، فتحولت بذلك إلى مستقر للتجارة والتجار المسافرين عبر البحر من المغرب الإسلامي إلى الإسكندرية والعكس.[5]

غلب على نمط المعيشة البداوة؛ لأنّ أغلبية السكان يسكنون البوادي ويمتهنون تربية المواشي، ولذلك غلب عليهم الترحال بحثا عن الكلأ والماء، فيما كان يسود بينهم نظام القبيلة والعشيرة، أمّا سكان المدن مثل طرابلس،

1- أحمد بك النائب الأنصاري: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ط2، مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب، ليبيا، د.س.ط، ص17.
2- راسم رشدي: المرجع السابق، ص18.
3- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 143.
4- شارل فيرو: المرجع السابق، ص172.
5- محمد دراج: المرجع السابق، ص 79.

لبدة، برقة، تاجوراء ومسراتة فقد كان يغلب على سكانها طابع التمدن والتحضر بسبب مواقعها واحتكاك سكانها بالأجناس الخارجية عن طريق رابطين أساسيين هما:

- عن طريق التجارة التي كانت عاملا رئيسيا لنمو وازدهار هذه المدن.
- عن طريق ركب الحجيج القادم من كامل بلاد المغرب والصحراء الإفريقية.

كانت مدينة طرابلس المدينة الوحيدة المزدهر بكل ما تحمل الكلمة من معنى، أين يوجد رغد العيش ومستوى معيشة السكان التي كانت أحسن منها في مدينة تونس؛ وذلك بفضل قيام أهلها بدور الوسيط التجاري بين الطرابلسيين وغيرهم من الأجانب لاسيما مع البلدان الإفريقية، حيث استطاع أهلها تشكيل شبه نظام مستقل عن أيّ سلطة في طرابلس أو غيرها.[1]

أمّا فيما يخص الحياة الثقافية، فإنّ طرابلس الغرب لم تكن بها مدارس ومعاهد تعليم ومراكز ثقافية تضاهي مثيلاتها في حواضر بلاد المغرب الإسلامي مثل: فاس، وتلمسان، وبجاية، والقيروان، والزيتونة...ومع ذلك فقد عرفت البلاد حركة ثقافية وعلمية، نتيجة وقوعها في طريق ركب الحجيج وقوافل طلب العلم إلى المشرق الإسلامي خاصة الأزهر بمصر والمدينة المنورة ومكة المكرمة، وقد تركزت أغلب المراكز العلمية بطرابلس، ومن أشهرها الجامع الكبير وجامع القائد عمورة.[2]

كان القادمون من الحجاج والعلماء وطلبة العلم من المشرق الإسلامي وتونس والمغرب الأوسط وحتى الأندلس عماد الحركة العلمية والثقافية بطرابلس، لأنهم ينقلون الأخبار العامة وأخبار الدول والأوطان، كما كانوا يقومون بنقل الكتب والمخطوطات والمتاجرة بها، بالإضافة إلى مهمة التدريس في جوامع ومساجد وقرى ومداشر البلاد، خاصة العلماء الكبار؛ الذين يسهرون على خدمتهم وراحتهم ودعوتهم أمراء وحكام البلاد، بالإضافة إلى عِلِيَّةِ وكبراء القبائل، لذلك وجدوا كل الرعاية والدعم. فاستغلوا الفرصة في تعليم أهل البلاد، فكان يجتمع إليهم عامة الناس وطلبة العلم للاستفادة منهم، وبذلك أصبح لهؤلاء العلماء طلبةٌ ينقلون عنهم العلم وينشرونه في كامل مناطق طرابلس الغرب[3]، فكانت تلك الصلات بين العلماء والمثقفين المغاربة تتقوى غالبا أثناء موسم الحج عن ركب الحجيج، التي كانت تنطلق من تازة بالمغرب الأقصى، مرورا بالمغرب الأوسط وتونس وطرابلس الغرب والإسكندرية والقاهرة لتصل إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة، فكانت مناسبة للعلماء والمثقفين عامة للتعارف

1- محمد دراج: المرجع السابق، ص 79.

2- ناصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب العثمانية – الجزائر، المغرب، طرابلس الغرب –، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص144.

3- إتوري روسي: المرجع السابق، ص ص 126،127.

وتبادل المعارف ومزيدا من التكوين العلمي، وفي نفس الوقت يقومون بالتدريس تطوعا لبعض الوقت، وخلال ذلك تتاح لهم فرصة التعرف على النشاط الثقافي والتطورات العامة بالجهات التي يحلّون بها[1]، وهكذا استطاع الطرابلسيون استغلال هذه الحركة الثقافية والعلمية لصالحهم، لأن بلادهم كانت همزة وصل بين المشرق والمغرب الإسلاميين، ومركزا لأخذ الراحة ومواصلة السفر باتجاه مصر ومن ثم باتجاه الحجاز والشام أو العودة إلى المغرب الإسلامي.

عرفت طرابلس الغرب العديد من العلماء عُرِفوا بغزارة علمهم وتبحرهم فيه، حتى ذاع صيتهم في كامل بلاد المشرق والمغرب، نذكر منهم: أحمد زروق البرنسي (846-899هـ/1442-1494م)، الذي كان فقيها ومحدثا صوفيا درس على يد نخبة من العلماء في ذلك الوقت منهم: عبد الرحمان الثعالبي، إبراهيم التازي، أحمد سعيد الحباك وغيرهم، وله عدة مؤلفات منها: شرح الإرشاد، شرح القرطبية للغزالي، شرح حقائق الإمام المقري في قطع الششتري ونونيتيه، شرح الأسماء الحسنى، النصح الأنفع[2]، قواعد في الصوفية، عُدّة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت؛ وهو كتاب جليل في موضوعه فيه مائة فصل بيّن فيه البدع التي يفعلها فقراء الصوفية، وله أيضا مؤلف بعنوان تحفة المريد "الروضة" ومزيلا للبس عن أدب أسرار القواعد الخمس، وكتابة الكناشة، وشرح نظم بن البناء في التصوف، وتعليق لطيف على البخاري، وقد تتلمذ على يديه العديد من العلماء نذكر منهم: الشهاب القسطلاني، الشمس اللقاني، الشيخ زين الدين طاهر القسنطيني، الشيخ العالم محمد بن عبد الرحمن الحطاب وغيرهم، توفي بتكرين في مسراتة بطرابلس الغرب في صفر 899هـ/1494م.[3]

ومنهم أيضا محمد بن عبد الرحمان بن حسين أبو عبد الله الرعيني اشتهر بالحطاب؛ أندلسي الأصل، ولد بطرابلس الغرب سنة 861هـ/1457م أخذ العلم في بداية حياته على يد الشيخ محمد الفاسي، ثم رحل إلى مكة المكرمة مع أبويه سنة 877هـ/1472م، ليواصل طلب العلم على أيدي مجموعة من الشيوخ أبرزهم: ابن زهر محمد بن أحمد السخاوي قاضي المدينة المنورة، والإمام زروق والحافظ أبي الخير السخاوي وعبد المعطي الخطيب وغيرهم،

1- أرزقي شويتام: العلاقات الثقافية المغاربية خلال الفترة العثمانية، **مجلة الدراسات التاريخية**، ع13، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر، 1433هـ/ 2011م، ص81.

2- أحمد بك النائب الأنصاري: المصدر السابق، ص 181-183.

3- ابن مريم الشريف التلمساني أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1212هـ/ 1908م، ص ص 45، 46.

وقد تتلمذ على يديه الكثير من طلاب العلم من أبرزهم محمد الخروبي، وولده محمد الحطاب، توفي سنة 944هـ/1537م.[1]

ومن علماء طرابلس الغرب أيضا محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب، إماماً علامةً ومحققاً بارعاً من سادات العلماء في عصره، عارفا بعلم التفسير، فقيها متضلعا في الفقه وأحواله مستنبطا للمسائل، عالما بعلم الحديث له دراية واسعة باللغة العربية وعلومها كالنحو والصرف...أخذ العلم عن والده الحطاب والعلامة أحمد بن عبد الغفار، ومحمد بن عراق، أخذ علم الحديث عن الإمام الحافظ عبد القادر النويري وابن عمه أحمد بن أبي قاسم النويري، وتعلَّم على يديه الكثير من طلبة العلم، كان أبرزهم عبد الرحمن التاجوري، ومحمد الفيش وولده يحي الحطاب ومحمد الفلاني، خلَّف العديد من المؤلفات أشهرها: "شرح مختصر خليل"، شرح مناسك خليل، هداية السالك، المحتاج لبيان فعل المعتمر والحاج، وغيرها من المؤلفات في اللغة والفلك والصلاة...توفي بطرابلس الغرب سنة 954هـ/1547م.[2]

ومن العلماء أيضا نذكر عبد العزيز محمد الأوس الأنصاري، أندلسي الأصل، انتقلت عائلته إلى طرابلس الغرب قبيل سقوط غرناطة أثناء استيلاء الجيوش الإسبانية على المدن الإسلامية بالأندلس، كان فقيها عالما له حظ واسع في العلم وباع طويل في الأدب وعلومه، أَسّس مسجدا بالقرب من طرابلس الغرب لإمامة الناس وتعليمهم، شهد استيلاء النصارى الإسبان على طرابلس الغرب سنة 916هـ/1510م، وخوفا من بطشهم و رفضا لاحتلالهم فرّ إلى جبل غريان وأَسّس جامعا هناك بوادي النخل، يعلم الناس ويؤُمّهم، مُعْرضا بذلك عن الدنيا زاهدا فيها، إلى أن توفي ودفن بجوار مسجده[3] لكننا لا نعرف تاريخ وفاته بالضبط، إلاّ أننا نؤكد أنه كان قبل سنة 1551م، لأن المؤلف ذكر أن ابنه أحمد عاد بعد تحرير طرابلس الغرب على يد العثمانيين.

ومن العلماء الطرابلسيين أيضا نذكر عبد الرحمن بن الحاج أحمد الطرابلسي الملقب "بالتاجوري"، فقيها وعالما، أخذ الفقه على يد شمس الدين اللقاني وأخيه ناصر الدين، درس الموطأ، التهذيب والرسالة وكان متبحرا في المذهب المالكي وعلاّمة زمانه بطرابلس، وكان يتقن اللغة اللاتينية التي تعلمها، وهذا يدل على اجتهاده واطلاعه على عدة ثقافات، وذلك لأنه لم يكتف بعلوم الدين بل اطلع على عدة لغات لاكتساب ثقافة عصره.[4]

1- أحمد بك النائب الأنصاري: نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، تقديم وتعليق، محمد زينهم، محمد غرب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، طرابلس، الجماهيرية الليبية، 1994، ص ص 97-99.

2- نفسه، ص ص99-102.

3- نفسه: ص ص 101-102.

4- أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج 1،2، تقديم، عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية، 1398هـ/1989م، ص 253.

وما نخلص إليه في الأخير أنّ طرابلس الغرب لم يكن بها من المعاهد قبيل الاحتلال الإسباني إلا بعض المساجد الصغيرة، التي استغلها بعض العلماء والشيوخ وطلبة العلم من أجل إحداث نهضة علمية وثقافية بين الطرابلسيين، مستغلين في ذلك العديد من العوامل المساعدة، نذكر منها:

1- استغلال مرور العلماء وطلبة العلم بطرابلس الغرب في رحلاتهم ذهابا وإيابا من المشرق أو المغرب الإسلاميين وبلاد السودان والصحراء الإفريقية لأخذ العلم عنهم ونشره ببلادهم.

2- استغلال ركب الحجيج الموسمي في خدمة العلم وطلبته، وهنا يجب الإشارة والتنبيه لدور "المغرب الأوسط" "الجزائر فيما بعد" كحاضرة علمية ينهل منها المتعطشين للعلم في كامل بلاد المغرب ومنهم الطرابلسيين الذين استغلوا هذه الحاضرة العلمية أحسن استغلال في طلب العلم ونشره بين ذويهم، بالإضافة إلى مدينة "تنبكتو" ذات الرصيد الحضاري ومراكزها العلمية الراقية، خاصة خلال العصر الوسيط وبداية العصر الحديث، حتى وإن قلّ هذا الزخم خلال الفترة المدروسة مقارنة بما كانت عليه سابقا.

3- قرب مدينة طرابلس الغرب من القيروان بتونس والأزهر بمصر كان له تأثيرا واضحا على الحركة الثقافية بالبلاد؛ فقد لعبت هاتان الحاضرتان دورا بارزا وساعدتا في انتشار العلم وظهور العديد من العلماء حتى ولو لم يكن في المستوى المطلوب مقارنة بالأقطار المغاربية الأخرى، إلاّ أنه ساعد في تبلور فكرة ظهور حركة علمية وثقافية بطرابلس الغرب، سرعان ما تلاشت بعد مفاجئة الإسبان للطرابلسيين واحتلال بلادهم، وبذلك قُضي على هذا المشروع في بدايته، فاسحين المجال لانتشار الجهل والأمية والتخلف، وهذا هو حال كل الاحتلال الأوروبي المسيحي عبر التاريخي الإنساني الطويل.

المبحث الرابع: أوضاع الإيالة التونسية بداية القرن 10هـ/16م.

1-الأوضاع السياسية.

مرّت الدولة الحفصية بعدة تغيرات سياسية منذ تأسيسها سنة 600هـ/ 1204م ما بين قوة وضعف، إلاّ أنّ أهم وأخطر المراحل كانت بعد وفاة المستنصر في ذي الحجة 675هـ/1277م، حيث دخلت البلاد في فوضى سياسية عارمة، نتيجة للصراعات داخل البيت الحاكم، زاد الأوضاع خطورة سطوة الأعراب ونفوذهم بالبلاد، بالإضافة إلى التهديدات الخارجية، ولكن بتولي أبي العباس (772-796هـ/1370-1394م) بدأت البلاد تسترجع وحدتها، لتواصل الدولة تطورها وازدهارها وبسط نفوذها على كامل البلاد التونسية والطرابلسية وبعض

الأجزاء من المغرب الأوسط[1]، وقد تزامن ذلك مع تولي حكام أقوياء لزمام الأمور في البلد، مثل: أبو فارس عبد العزيز (796-837هـ/1397-1434م)، وأبو عثمان(839-893هـ/1436-1488م)[2]، الذي كان آخر السلاطين الأقوياء، فقد استطاع توحيد الدولة الحفصية وبسط سيطرته على البلاد، والحدّ من سطوة الأعراب والمتنفذين داخل البلاط الحاكم، وأعلن حربا لا هوادة فيها ضدهم، فمباشرة بعد توليه الحكم ظهرت العديد من حركات التمرد، وأعلنت بعض القبائل انفصالها، وأكثر من ذلك، تمرد أقاربه وأعلنوا العداء له، مثلما فعل عم أبيه أبو عبد الله أحمد الحسين وعمه أبو الحسن بن السلطان أبي فارس، إلا أنه استطاع القضاء على هذه التمردات، بالرغم من استمرارها لمدة طويلة قارب بعضها 17 سنة.

قام بالعديد من الأعمال كإعادة هيكلة الإدارات المحلية للحكم وتنظيمها وفق سياسته ومتطلبات عصره الرامية لبسط نفوذه على كامل البلاد وإخضاعها لسلطة مركزية قوية قادرة على الحكم بكل حزم وقوة، حتى أنه كان يخرج بنفسه على رأس الجيش في كل سنة لردع المفسدين، وبذلك استطاع تأمين الجبهة الداخلية، حتى قال فيه الشاعر:

أقلل ركابك في الفلا *** ودع الغواني للقصور.

فالقاطنون بأرضهم *** أشباه سكان القبور.[3]

بالإضافة إلى إنجازاته السياسية والعسكرية والإدارية بالداخل، حاول تأمين الجبهة الخارجية بإمضائه العديد من المعاهدات مع الدول والإمارات الأوروبية مثل: إمارة أرغونة التي وقّع معها معاهدة سنة 1452م، والبندقية، وجنوة وغرناطة بالإضافة إلى مد جسور التعاون والتواصل مع محيطه الإسلامي ومنه الدولة العثمانية[4]، وبوفاته سنة 893ه/1488م عرفت الدولة الحفصية بداية الانهيار والتقهقر الكلي نتيجة انتشار الخلافات العائلية المدمرة حول الحكم ومزاياه، وعدم الاهتمام بالرعية والبلاد، وقد فقدت الدولة الحفصية بوفاة أبي عمرو عثمان شخصية بارزة لم يستطع أحد خلافته أو إعادة إنجازاته أو على الأقل المحافظة عليها فقط، وفي ذلك قال ابن أبي دينار:

1- شوقي عطا الله الجمل: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب)، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية للطبع والنشر، القاهرة، مصر، 1977، ص28.

2- أحمد الطويلي: في الحضارة العربية التونسية، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، د.س.ط. ص19.

3 - أبو عبد الله محمد بن أحمد الشماع: المصدر السابق، ص ص 133،132

4- روبار برشنفيك: تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ج1-ط1-، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988، ص283.

«...**وبالجملة هو ختام الدولة الحفصية ونظام المحاسن الفاخرة في البلاد الإفريقية...**»[1]، لذلك يمكننا القول أنّ وفاة أبي عمرو عثمان هي بداية النهاية للدولة الحفصية.

بعد مرحلة القوة جاءت مرحلة الضعف والعمالة للأجنبي، حيث أصبح الحكام الحفصيين أُلعوبة بيد الإسبان والأعراب، وبذلك دخلت البلاد في دوامة عدم الاستقرار السياسي والضعف العسكري والانهيار الاقتصادي والتفكك الاجتماعي والتخلف الثقافي، كانت عواقب ذلك فيما بعد تسليم البلاد بسهولة للمحتلين الإسبان، وظهرت أولى بوادر الاحتلال هجوم بيدرو نافارو على جزيرتي جربة وقرقنة سنة 905 هـ/1500م.[2]

ما إن تولى الحكم أبو عبد الله محمد الحسن ابن عبد الله محمد المسعود (1494-1526م) حتى ضعفت الدولة وكادت تنهار نهائيا، وفقد السيطرة على الكثير من المدن والأقطار، وتمردت عليه العديد من القبائل، وعندما هم بقتالهم لم يجد من يعينه على ذلك؛ سواء جيشه أو المتعاونين مع من سبقه من القبائل والمرابطين، وفي هذه الأوضاع المتدهورة أعلن حكام القيروان تمردهم، فأراد أبو عبد الله محمد الحفصي إخضاعهم لسلطته، إلا أنه مني بهزيمة نكراء على مشارف المدينة رجع على إثرها خائبا إلى مدينة تونس يجر أذيال الحسرة والأسى، زاد الأوضاع تأزما إعلان جميع زعماء مدن طرابلس الغرب انفصالهم عن السلطة الحفصية.[3]

بعد وفاة أبي عبد الله محمد الحسن سنة 932هـ/1526م تولى من بعده ابنه محمد الحسن، الذي اضطربت الدولة في عهده وفقدت ما بقي لها من هيبة حتى وإن كانت في بعض المرات صورية فقط، وتأزمت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية أكثر، وأمام فقدانه لأهم مقومات الحكم أعلنت مدينة سوسة انفصالها عن سلطته وشكلت إمارة مستقلة بذاتها، وتأكد انفصال مدينة القيروان نهائيا بقيادة الشيخ عرفة أحد المرابطين، الذي بايع بدوره أحد مشايخ قبيلة لمتونة اسمه يحي، الذي ادعى بأنه من الحفصيين القاطنين بالمغرب الأقصى، وبقيت مدينة القيروان على هذا الحال إلى غاية ضمها من طرف درغوث باشا إلى ممتلكات الدولة العلية[4]، فيما خرجت جزيرة جربة نهائيا عن سيطرة السلطة المركزية الحفصية بتونس وحتى عن سيطرة البدو[5]، وبذلك استقلت هي أيضا بنفسها، فيما شكلت المدن الساحلية ومدن الجريد إمارات مستقلة بذاتها، لا يربطها بالسلطة الحفصية إلا دفع الجزية وقراءة الخطبة باسم السلطان، هذا الأخير الذي ظلّ محاصرا بمدينته تونس تحت رحمة حرسه المسيحي من

1- ابن أبي دينار: محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1226هـ/1869م.
2- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص22.
3- إسماعيل كمالي: المرجع السابق، ص ص40،39.
4- ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 22.
5 - أبو راس الجربي: مؤنس الأحبة في أخبار جربة، حققه، محمد المرزوقي، قدم له، حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس، 1960، ص50.

المرتزقة ولا يقدر حتى على مغادرة قصره[1] بسبب ضعفه وخوفه من الأعراب، وللخروج من هذه الوضعية المزرية قرر التعاون الإسبان والدخول في طاعتهم.[*]

نتيجة لهذه الأوضاع المتأزمة، وفقدان الدولة لهيبتها، انهارت السلطة الحاكمة وفُقد الأمن وغاب الرادع ضد القوى المحلية التي أعلنت انفصالها في كامل البلاد وتوابعها، زاد الطين بلة ظهور الاحتلال الإسباني على السواحل المغاربية التي بدأت في السقوط الواحدة تلوى الأخرى، معلنة عن اقترب الخطر الإسباني من البلاد التونسية، خاصة بعد احتلال بجاية وعنابة وطرابلس الغرب، وبذلك أصبحت البلاد التونسية بين فكي كماشة، محاصرة بالاحتلال الإسباني من الشرق والغرب، زاد الأوضاع خطورة ظهور الإخوة بربروس على ساحة الأحداث في بلاد المغرب، ليحدث نوع من التعاون بين الطرفين في بداية الأمر ثم تحول فيما بعد إلى عداء كانت له عواقب وخيمة على كامل بلاد المغرب.

1-1-ظهور الإخوة بربروس على السواحل التونسية "حلق الوادي".

نشير في البداية أن تاريخ قدوم الإخوة بربروس إلى بلاد المغرب عموما وتونس خصوصا يكتنفه الكثير من الغموض، بسبب تضارب المصادر التاريخية فيما بينها حول تاريخ أول قدوم إلى تونس، إلا أنه يمكننا القول أنّ مجيئهم كان ما بين 918 و919هـ/ 1512م و1513م، ودليل ذلك العديد من المعطيات ترجح هذه الفرضية، يمكن إيجازها فيما يلي:

- استنادا إلى ما ذكره خيرالدين في مذكراته فإن قدوم عروج إلى تونس كان بعد تولي سليم الأول الحكم سنة 1512م، وبداية الخلافات مع أخيه قرقود حول أحقية كل منهما في خلافة أبيه بايزيد الثاني، علما أنّ قرقود كان هو ولي نعمة عروج والحامي الأول له كما قال خير الدين، وخوفا من انتقام سليم الأول من أتباع قرقود، فرّ عروج من مدللي إلى أزمير ومنها إلى الإسكندرية في ضيافة قونصو الغوري سلطان دولة المماليك بمصر، أين قضى فصل الشتاء، وفي الربيع اتجه إلى جزيرة جربة بتونس، بعد القيام بعدة غزوات ناجحة ضد القراصنة الأوروبيين، خاصة على سواحل قبرص[2]، ومن خلال هذه الرواية يمكننا القول أنّ أول اتصال بين الإخوة بربروس والتونسيين كان سنة 1513م، استنادا لتاريخ تولي سليم الأول حكم الدولة العلية، وقضاء الإخوة للشتاء في مصر ثم في الربيع كان المستقر بالأراضي التونسية (جربة).

1- جلال يحي: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 1999، ص54.

* - إنه لعجب عجاب أن يتخذ سلطان يدعي الإسلام، كل حرسه من المسيحيين، الذين لهم القرار الفصل في الاستنجاد ببني ملتهم، وقد كان لهذا القرار عواقب وخيمة على تونس والمنطقة ولم يكن له من مخرج إلا سيطرة العثمانيين على تونس وإعلان تبعيتها للدولة العلية العثمانية.

2- خير الدين: مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة، محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص ص 40-42.

- ذكر دي غرامونت أن سفر عروج إلى تونس كان سنة 1510م[1]، وهذا في الحقيقة تاريخا بعيدا جدا عن الوقائع التي حدثت داخل البيت الحاكم العثماني، لأنّ في هذه السنة لا يزال بايزيد حاكما يتمتع بكامل صلاحياته ولم تحدث أي خلافات تحد من هذه الصلاحيات، اللهم إلا بعض الخلافات بين أبناءه، وبذلك كان عروج في مأمن وفي حماية قرقود الذي كان يتمتع بنفوذ قوي في البلاد، لذلك يمكننا استبعاد هذه الرواية لأننا لم نجد ما يعضدها، بل أنّ رواية خير الدين تفندها تماما، لأنه قريب جدا من الأحداث وكان أحد الفاعلين فيها.
- تأكيد مجهول في مخطوطه الخبر عن قدوم عروج رئيس للجزائر، أنّ عروج فرّ إلى مصر بعد الخلاف الذي نشب بين الأخوين سليم الأول وقرقود، وقضى الشتاء هناك بمصر ثم خرج للغزو في فصل الربيع وبعدها اتجه إلى جزيرة جربة من ناحية المغرب[2]، التي كانت تابعة للسلطان الحفصي، علما أنّ الخلاف وقع بعد تولي سليم الأول الحكم بمؤازرة الجيش الإنكشاري، وهي رواية تؤكد رواية خير الدين، وترجح أن قدوم الإخوة بربروس كان سنة 1513م.
- رواية أخرى تؤكد تقريبا نفس الروايات السابقة؛ وهي رواية محمد المنويب الفراتي الصفاقسي، التي تكاد تتطابق مع رواية مجهول السابقة، فقد ذكر أنّه بعد وقوع الخلاف بين قرقود وسليم الأول هرب عروج إلى مدللي ومنها إلى مصر أين رحب به سلطانها قونصو الغوري، واشترط عليه عدم الإساءة للسكان المحليين، وفي الربيع خرج إلى الغزو فأخذته الرياح إلى جزيرة جربة بتونس[3]، وهي نفس الرواية التي ذكرتها المصادر العربية الأخرى.

أما المراجع فتكاد تتفق على أن قدوم عروج وأخوته كان سنة 1513م؛ فعزيز سامح ألتر ذكر أن قدوم الإخوة بربروس إلى تونس دافعه العلاقة الحسنة التي تربط أبي عبد الله محمد الحفصي (1494-1526م) بالسلاطين العثمانيين منذ أن ساهم في إقامة صلح بينهم وبين المماليك سنة 1493م، في عهد بايزيد الثاني[4]، فيما رجح محمد دراج سنة 1513م كتاريخ لقدوم الإخوة بربروس إلى تونس[5]، وجاءت هذه الرواية موافقة لما جاءت به المصادر، وتقريبا كل المراجع حذت حذوه في تأكيد هذا التاريخ.

---

1 -DE Gramment (H.D): *Histoire D'Alger sous la Domination turque, 1515-1830, Paris 1887, p20.*

2- مجهول: الخبر عن قدوم عروج رئيس للجزائر وقدوم أخيه خير الدين، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1623، ص 60.

3- محمد المنويب الفراتي الصفاقسي تاريخ عروج وخير الدين في مدينة الجزائر، مخطوط، المكتبة الوطنية، تونس، رقم 231، ص8.

4- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ص 38، 39.

5- محمد دراج: المرجع السابق، ص ص182، 183.

وتأكيدا لما سبق نقول أنّ قدوم الإخوة بربروس إلى بلاد المغرب خصوصا تونس كان سنة 1513م اعتمادا على ما سبق من الأدلة والبراهين، وأنّ الروايات القليلة التي ترجح ما قبل هذا التاريخ لا يوجد لها أيّ سند تاريخي اللهم إلاّ إذا كان هذا التواجد عرضا وبالصدفة، خاصة وأنّ المصادر تنفي هذا الطرح تماما، لأن بلاد المغرب كانت مركز استراحة لهم فقط، على عكس التواجد العثماني بالمغرب الإسلامي الذي سبق ذلك بكثير، لذلك نتخذ سنة 1513م كحدث معلمي لبداية تواجد الإخوة بربروس في بلاد المغرب.

2-الأوضاع الاقتصادية.

عرفت البلاد التونسية استقرارا سياسيا كبيرا خلال حكم الأسرة الحفصية، وقد أثر هذا الاستقرار إيجابا على جميع المجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية وحتى العمرانية إلى غاية وفاة السلطان أبي عمرو عثمان، فبوفاته بدأت الدولة الحفصية في التراجع والانهيار، لأنه تولى من بعده سلاطين ضعاف فاسحين المجال للدهماء والبدو والقوى الأجنبية المسيحية العبث بمصير العباد والبلاد، وبذلك شهدت الدولة الحفصية تراجعا وتقهقرا لم تشهد له مثيلا من ذي قبل في جميع المجالات؛ لأنّه لا يمكن الفصل بين الاستقرار السياسي وتطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لأيّ بلد مهما كان، فكلما استقرت الأوضاع السياسية تطور الاقتصاد ونمت البلاد، وكلما تدهورت الأوضاع السياسية ساءت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.*

ارتبط الإنتاج الزراعي في بلاد المغرب الإسلامي بالسواحل أين توجد الأراضي الخصبة والمياه الوفيرة[1]، خاصة البلاد التونسية التي تحتوي على الأراضي ذات التربة السوداء والحمراء والنوعية الجيدة التي قل نظيرها في كامل بلاد المغرب والبلدان الأخرى، وقد اشتهرت بتنوع محاصيلها، كالقمح والشعير والزيتون والكروم، فقد تميزت مدن بعينها بإنتاجها الوفير وجودة محاصيلها، مثل: مدينة باجة؛ التي تتوفر على مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة ذات الإنتاج الوفير، وفيها سهل خصب ينتج جميع الغلال والمنتوجات[2] لدرجة كانت اليد العاملة بها لا تكفِ لزراعة الأراضي الفلاحية، لذلك نجد الفلاحين بها يستنجدون بسكان المناطق البعيدة والبدو ومربي المواشي للزراعة وجني المحاصيل[3]، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على توفر الأراضي وشساعتها وإنتاجها للعديد من

* – هنا يجب الإشارة لما قاله مالك بن نبي فيما يخص تطور أي حضارة، حيث عدد أسباب تطورها في ثلاثة عناصر أساسية هي: الزمن والإنسان والتراب (أرض معينة) نظيف لها عامل الأمن، لأنّه لا يمكن لأيّ حضارة أن تنمو وتزدهر في أي بلد مهما كان ما لم يتوفر لها الأمن والاستقرار، لأنه علمتنا التجارب السابقة أنّ أيّ حضارة توفر لها الحكام الأقوياء الذين فرضوا الأمن والعدل، أنتج ذلك رعية منتجة خلفت منتوجا حضاريا مازالت الأمم تنهل منه إلى يومنا هذا، مثل اليونان والمسلمين وغيرهم.

1– ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 88.

2 محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، دار القلم للطباعة، بيروت، لبنان، 1975م، ص74.

3– الحسن الوزان: المصدر السابق، ص66

المحاصيل ذات الجودة الرفيعة، حتى قال فيها الوزان: «...**لو كان لتونس باجتان لفاق عدد حبات القمح عدد حبات الرمل**...»[1]، هذا ما أدى إلى ازدهار المدينة ونموها، مما كان له انعكاسا على الأسعار، حيث رخصت بها الأثمان[2]، بفضل نشاط أهلها وجِدّهم في زراعة أراضيهم والتمسك بها وعدم التفريط فيها، لأنها مصدر ثراءهم وعزهم في ذلك الوقت.

ومن المناطق الخصبة بتونس قرطاجة التي اشتهرت بجودة منتوجاتها وتنوعها، خاصة الخوخ والرمان والتين والزيتون، فقد كانت تزود العاصمة تونس بالفواكه والثمار، بسبب توفرها على أراض خصبة صالحة لجميع أنواع الزراعة، إلاّ أنّ المساحات الزراعية بها قليلة مقارنة ببعض المناطق التونسية الأخرى، لأنّ موقعها بين البحر والجبل حدّ من المساحات المزروعة بها.[3]

أما مدينة تونس فلم تكن في مستوى مثيلاتها من المدن كباجة وقرطاجة، فقد غلب على سكانها ممارسة النشاط الصناعي والتجاري، ومع ذلك كان بعض السكان يمارسون الزراعة خاصة زراعة القمح والشعير، إلا أنّ هذا النشاط يكاد لا يوفر حاجياتهم الغذائية، فنجدهم يلجئون للتزود بالقمح من مدن عنابة وباجة وأوريس.[4]

يمكننا إرجاع عزوف سكان مدينة تونس عن ممارسة النشاط الزراعي إلى عدة أسباب نذكر منها:

- نقص المياه؛ لأن لكل منطقة بئر خاص بها لسقيها، زاد الأمر صعوبة الطريقة البدائية لاستخراج المياه، لأن الفلاح التونسي كان يعتمد على آلة مكونة من ناعورة "عجلة" يحركها بغل أو جمل لسقي مزروعاته.
- غلبة العنصر المتمدن من سكان المدينة على الفلاحين، هذا ما أدى إلى هجرة خطيرة من الأرياف إلى المدينة أملا في ممارسة النشاط التجاري المربح، على حساب خدمة الأراضي ومتاعبها التي لا تكاد تنتهي، فكان لذلك أثر عكسي على الفلاحة في المدينة، التي فقدت أهم ركيزة ومحرك، ممثلا في الفلاح المؤهل الذي يعرف خدمة الأرض، وتُرك المجال مفتوحا لغير المؤهلين في خدمة الأرض للعبث بها، فقلَّ المنتوج وانكمشت المساحات المزروعة والمغروسة، فكان له عواقب وخيمة على الزراعة في مدينة تونس.
- انشغال الناس في مدينة تونس بالتجارة المربحة وغير الشاقة، خاصة التجارة مع الخارج، بالإضافة إلى ممارسة نشاط الصناعة، خاصة صناعة الشاشية التي عرفت بجودتها وتنوعها.

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص66.

2- محمد بن عبد المنعم الحميري: المصدر السابق، ص74.

3- مرمول كربخال: المصدر السابق، ص ص95، 96.

4- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص70.

- الخوف من البدو الذين تسلطوا على بوادي مدينة تونس في غياب سلطة سياسية وعسكرية قوية تفرض الأمن وتطبق القوانين وتدافع عن البلاد والعباد، بل أكثر من ذلك أصبحت هذه السلطة عرضة لممارسات قاسية من طرف هؤلاء البدو الذين فرضوا منطقهم وقوتهم عنها، هذا ما جعلها تستنجد بهم لقمع السكان والقبائل المتمردة وجمع الضرائب منهم، ممّا اضطر الأهالي للاعتماد على أنفسهم، فأقاموا المنشآت الدفاعية للاحتماء بها من هجمات البدو.[1]

الجدير بالذكر أن المزارعين الأندلسيين استطاعوا التأثير مباشرة في النشاط الفلاحي التونسي بعد هجراتهم الأولى، قبل وبعد سقوط غرناطة سنة 1492م، حيث قاموا باستصلاح الأراضي الخصبة خاصة الموجودة منها بالسواحل أين كان استقرارهم، وأدخلوا أساليب جديدة لم يألفها السكان المحليين، قدموا بها من مواطنهم الأصلية بالأندلس، فقاموا بإدخال النواعير "النوريات" ومدوا القنوات وأنشأوا القناطر وحفروا الآبار وشقوا السواقي والطرقات إلى ضيعاتهم، وأدخلوا مزروعات جديدة لبلاد المغرب عموما والبلاد التونسية خصوصا، مثل السبانخ والكراث واللارنج والفلفل والبطاطا والزعفران والباذنجان والقطن والحرير «تربية دودة القز" وطوروا واهتموا بزيادة غرس أشجار العنب والزيتون والتين[2]، وغيرها من المزروعات الأخرى التي أبدع فيها الأندلسيون وحققوا فيها نتائج فاقت كل التوقعات، وهذا في كثير من الأحيان بمساعدة السكان المحليين الذين رحبوا وآووا الفارين من القمع والاضطهاد الإسباني.

بمجرد استقرارهم أبدع الموريسكيون في زراعة الأراضي، التي تحولت إلى حدائق وبساتين خضراء تنتج جميع أنواع الخضر والفواكه، وتدين كلها بدهاء وعبقرية ورفعة ذوق الوافدين الجدد، فقد تنوعت المزروعات وغلب عنها الإتقان والجودة خاصة الحدائق الخاصة والعامة ذات الترتيب المحكم والملائم للذوق والفطرة السليمة والتطور الزماني والمكاني الذي يلائم ذلك الوقت.[3]

أما الصناعة فقد تركزت بالمدن الساحلية، أين ازدهرت وتطورت وكان لها نظامها الخاص بها وقوانينها التي تتحكم فيها، التي تنظم العلاقات بين الحرفيين والصناع، وقد تركزت الصناعات والحرف اليدوية بالمدن الكبرى مثل تونس وصفاقس وباجة والقيروان وسوسة والمهدية وغيرها حيث حافظت هذه الصناعات على الموروث الحضاري

1- محمد دراج: المرجع السابق، ص 80.

2- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص69.

3- روبار برنشفيك: المرجع السابق، ص 378.

المتوارث على الآباء والأجداد، معتمدين في استمرارها وديمومتها على المواد الأولية الموجودة والمصنعة محليا، مثل الصوف والجلود والأخشاب والمعادن والحَلْفاء.[1]

انتشرت صناعة النسيج بكثرة، خاصة بمدينة تونس التي كانت تنتج كميات كبيرة جدا من القماش رفيع الجودة، الذي كان يسوق محليا، والفائض من المنتوج يصدر إلى بلاد المغرب الإسلامي وإفريقيا كلها بأثمان باهظة نظرا لنوعيته الجيدة، وقد كان يشترك في صناعة هذا القماش الرجال والنساء على حد سواء.[2]

كانت مدينتا زغوان وتونس رائدتان بمصانعهما الخاصة في صناعة الشاشية التي تحظى بشهرة واسعة عند كل المسلمين في إفريقيا[3]، وكذلك صناعة الكتان والصوف والحرير، وقلّما تجد حارة أو حيّا لا يوجد فيه مصنع أو بيت مختص بهذه الحرف، بالإضافة إلى مدينة باجة التي اشتهرت بصناعة الشالات عالية الجودة والبطانيات الصوفية الجيدة، تشترك معها مدن ومناطق أخرى مثل: مدينة توزر ومناطق الجريد المختصة بالمنتوجات الصوفية والبرانس[4]، التي كانت حرفة أغلبية السكان المغاربة الذين أبدعوا في صناعتها بسبب توفر موادها الأولية مثل: الوبر الموجود في كامل بلاد المغرب الإسلامي الذي اشتهر سكانه بتربية الإبل بكل أنواعها.

تضم أسواق المدن التونسية الكبرى عددا كبيرا من التجار والحرفيين الذين زاد غناهم نتيجة الأرباح التي تدرها عليهم هذه الصناعات والاتجار بها، وأمام تزايد هذه النشاطات ارتأى التجار والباعة إلى تنظيم الأسواق بطريقة رائعة تعبر عن ذكائهم وإتقانهم لمهنهم، فقد تنظموا في شكل مجموعات؛ لكل مجموعة أو حرفة رئيسها الخاص بها، ولكل سلعة مكانها الذي تباع وتسوق فيه، كالصناع والعطارين وبائعي الأشربة والعقاقير المحلات بالسكر، وتجار العطور وصانعيها وصناع الحرير والخياطين والسراجين والخبازين واللبانين والفاكهانيين والقصابين "الجزارين" وغيرهم من الحرفيين الذين يمارسون نشاطهم في هذه الأسواق.[5]

أما الصناعات الأخرى كالأسلحة والبارود وصناعة الخشب والحليّ والذهب والفضة والجلود وبناء السفن؛ وبالرغم من عدم تطورها مقارنة بالنشاطات النسيجية، إلاّ أنّ البلاد التونسية شهدت اهتماما بهذه الصناعات بسبب توفر المواد الأولية محليا ووجود اليد العاملة المحلية المؤهلة، وقد تركزت هذه الصناعات ببعض المدن مثل: مدينة تونس، حلق الوادي، جهات الوطن القبلي، زغوان، قرنبالية وسلمان، وقد ساهم اليهود والأندلسيون

1- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص93.

2- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص74.

3- مرمول كربخال: المرجع السابق، ص21.

4- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص95.

5- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص75.

المهاجرون في تطويرها والمحافظة عليها، بالإضافة إلى أهل البلاد الذين كانوا عماد هذه الصناعات[1]، بحكم تعودهم على ممارستها وانتقالها إليهم عن طريق آبائهم وأجدادهم الذين أوصوهم دائما بالمحافظة على هذا الموروث الحضاري المحلي، ولذلك امتزجت أموال اليهود وإبداع الأندلسيين وخبرة التونسيين، فأعطت إنتاجا ذا جودة عالية يكاد يقل نظيره في كامل البلاد المغاربية والإفريقية والأوروبية.

أما في الأرياف فقد انتشرت صناعات موجهة للاستهلاك والاستعمال المحلي مثل: السروج وبعض أنواع المجوهرات، والخيم وبعض الأواني التقليدية التي تصنع من الحلفاء مثل: أواني الأكل كأطباق الخبز وأواني شرب الماء والحليب، خاصة وأن الأرياف كانت مناطق رعوية بالدرجة الأولى، فكان يشترك الرجل والمرأة في صناعة هذه الأواني وتسويقها محليا، أين تباع في أسواق منظمة بالرغم من صغرها وقلة عدد روادها، بحكم قلة عدد سكان الأرياف وبُعدهم عن بعضهم بمسافات بعيدة جدا ونقص وسائل النقل التي كانت بدائية في ذلك الوقت مثل: الحمير والجمال والبغال والخيول، وطبيعة العنصر البدوي الذي يفضل التنقل والترحال من مكان إلى مكان، ومع ذلك كانت هذه الأسواق أماكن مفضلة لتجار الأرياف والمدن الصغيرة للبيع والشراء، حيث تعقد أسواق يومية أو أسبوعية في ساحات واسعة ورحبة يجد فيها التجار والزبائن راحتهم، وتعرض فيها البضائع بالإضافة إلى الحيوانات كالأغنام والماعز والبقر والإبل في الهواء الطلق، ومن أهم هذه الأسواق: سوق الربض الشمالي وسوق الربض الجنوبي، زاد هذه الأسواق أهمية وتنظيما وجود ساحات خاصة تباع فيها السلع والحيوانات، مثل: ساحة الحلفاويين (نسبة إلى باعة الحلفاء)، وساحة التبانين (نسبة إلى باعة التبن)، ساحة الغنم، ساحة الخيل وساحة الماعز... وغيرها.[2]

ما يمكننا ملاحظته أن الصناعة في تونس بقيت محافظة على استمرارها على عكس الفلاحة التي تأثرت كثيرا جراء الظروف السياسية والعسكرية التي مرت بها الدولة الحفصية، لذلك كانت الأسواق منظمة تنظيما جيدا سواء في الأرياف أو المدن الكبرى، بفضل جهود السكان وأرباب هذه الصناعات والمهن بدون تدخل مباشر من السلطة الحاكمة التي كانت عاجزة في أغلب الأحيان عن فرض منطقها وقوتها، وبفضل نشاط التونسيين استمر هذا النظام العام للأسواق وأماكن التجارة، مُثْبتين بذلك وجود موروث حضاري راسخ عندهم توارثوه عن آبائهم وأجدادهم، خاصة خلال الحكم الحفصي الذي شجع على ترسيخ هذه العادات والتقاليد،

1- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص ص 96-100.

2- روبار برنشفيك: المرجع السابق، ص37.

وذلك بعدم التدخل المباشر في تسييرها أو فرض نظام خاص تابع للسلطة المركزية، ويرجع ذلك لسببين رئيسيين هما:

1- قناعة السلطة الحاكمة بعدم التدخل في شؤون العامة من منطق جباية الضرائب فقط، وترك أرباب ورؤساء المهن والصناعات هم المتحكمون والمسئولون مباشرة أمام السلطة.

2- عدم قدرة السلطة الحاكمة في فرض سيادتها على هذه الأسواق نتيجة عجزها أما أرباب هذه المهن، الذين كانوا يمثلون دولة داخل دولة، خاصة بعد تمكن العنصر اليهودي من فرض سيطرته على الأسواق، بفضل أمواله وتغلغله داخل دواليب السلطة ذاتها.

مع ذلك أعطى هذا التنظيم المتعارف عليه بين التونسيين نوعا من الاستقرار الاقتصادي على عكس المجالات السياسية والاجتماعية والعسكرية.

أما في مجال التجارة فيمكننا أن نميز بين نوعين من المبادلات التجارية بتونس، مبادلات داخلية محلية، ومبادلات خارجية مع أقطار المغرب الإسلامي وإفريقيا جنوب الصحراء والدول الأوروبية بسبب قرب تونس من الدويلات الإيطالية ومالطا وحتى أراغون وقشتالة، وقد ارتبطت هذه المبادلات التجارية بالأسواق الريفية وفي المدن، حيث تحولت هذه الأسواق إلى مراكز تجارية للجهات والمدن القريبة منها، وقد كانت المدن الكبرى مثل تونس، صفاقس، القيروان وباجة عماد النشاط التجاري التونسي، ساعدها في ذلك قربها من السلطة المركزية، أين يتوفر الأمن ويكثر النشاط الصناعي، وهذا ما دعم نمو الحركة التجارية وتطور الأسواق.[1]

عملت السلطات التونسية وأعيان المدن وأرباب المهن والصناعات على بناء الخانات والفنادق من أجل جذب التجار وتوفير الراحة لهم خاصة المسيحيين منهم، والذين كانوا ينقسمون إلى مجموعات حسب جنسياتهم كالكتالونيين، الجنويين والبنادقة.[2]

بما أن تونس لها سواحل مطلة على الجهة الجنوبية لأوروبا كمالطا، صقلية، سردينيا، نابولي وخدمة لمصالحها التجارية، أمضت سلطات الدولة الحفصية العديد من الاتفاقيات التجارية مع حكام هذه الدول، يتمُّ بموجبها تنظيم الحركة التجارية الخارجية وضبطها بقوانين، خدمة لمصلحة الطرفين الحفصي والأوروبي، خاصة الدويلات الإيطالية، التي توثقت علاقاتها مع تونس خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر، حيث تواصلت العلاقات الدبلوماسية والتجارية بينهم، وساعدت النهضة في إيطاليا على ترسيخ تلك العلاقات، بل ازدادت متانة

1- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 101.

2- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص74.

عمّا سبق. الأمر الذي حث العديد من الأمراء الإيطاليين مثل ألفونصو الشهم على استيراد بعض الحيوانات من تونس كالخيول والنعام والأسود للتفاخر والتباهي بها[1]، خاصة وأن هذه الحيوانات عرفت بجمالها وقوتها وندرة سلالتها في أوربا قاطبة، فكانت هذه الحيوانات مفخرة للأمراء الإيطاليين، فقد ساد خلال عصر النهضة التباهي بمثل هذه الحيوانات، بالإضافة إلى الزينة وإعطاء المنازل الفاخرة والقصور المشيدة رونقا خاصا ومشهدا مؤثرا يسحر العيون، على عكس الدويلات المغاربية التي لم تكن بينها اتفاقيات رسمية تنظم الحركة التجارية وتضبطها عبر الحدود، ويرجع ذلك لعدة أسباب نذكر منها:

- طبيعة المنطقة التي تعتبر امتدادا طبيعيا لبعضها البعض.
- تناحر الحكام المغاربة فيما بينهم نتيجة الصراع الحاصل بين حكام الدويلات الزيانية والحفصية والمرينية (ثم الوطاسية).
- عدم اهتمام الحكام بعقد اتفاقيات تجارية بسبب تأكدهم أن المغرب الإسلامي هو وحدةٌ تجارية لا يجب تقييدها باتفاقيات وقوانين تؤثر على سير النشاط التجاري بينها.
- لعب الاحتلال الإسباني دورا بارزا في تفكيك وحدة المغرب الإسلامي؛ لأن الحكام والمحكومين كان هدفهم كيفية التصدي للاحتلال الخارجي، بدل التفكير في تأسيس دولة موحدة سياسيا مثلما كان عليه الحال في عهد الموحدين والمرينيين، ولذلك غابت عن أذهان المغاربة فكرة عقد اتفاقيات تكون في صالح العباد والبلاد.

نتيجة لهذه العوامل وغيرها نجد التبادل التجاري قائما بين السكان بصفة مستمرة بصرف النظر عن العراقيل.

كانت تونس والعديد من مدنها كطبلية، بنزرت، سوسة، وجربة تنتج العديد من السلع توجه إلى الاستهلاك المحلي والفائض يصدر إلى الخارج؛ مثل زيت الزيتون الذي كان ينتج بكميات معتبرة تكفي لسد حاجيات السكان والفائض منه يصدر للخارج كمصر، بالإضافة إلى تصدير المنتوجات النسيجية إلى أوروبا خاصة أراغون ومالطا وميلان، بالإضافة إلى تصدير الأسماك التي اشتهرت تونس بجودة منتوجاتها وكثرتها، فقد كان يستهلك على نطاق واسع، خاصة بمدينة تونس التي يكثر بها العديد من الأنواع، خاصة النوع المسمى

1- روبار برنشفيك: المرجع السابق، ص293

"البقنوس" الذي لا يوجد مثيله في ذلك الوقت إلا بتونس[1]،فقد كان يغطي الحاجيات المحلية والفائض يوجه للتصدير.

وقد شجع الحفصيون نشاط التجارة البحرية التي كانت مزدهرة بالسواحل والموانئ التونسية، وتركوا الحرية للتجار وأرباب المهن للسيطرة على الأسواق والتجارة الخارجية، فيما اكتفت السلطات الحاكمة بجباية الضرائب[2] وأخذ حصتها من المعاملات التجارية، تاركة الحرية لعبور السلع والمنتوجات من وإلى البلاد التونسية.

أما داخليا فقد كانت التجارة نشطة، إلا أن تسلط البدو والدهماء في البوادي والأرياف في بداية ضعف الدولة الحفصية أثر على التجارة بكل أنواعها في المدن البعيدة والأرياف، وبذلك قل النشاط وهجر السكان الأراضي الفلاحية والنشاطات اليدوية فاسحين المجال للأعراب والبدو للسيطرة على تونس ومقدراتها.

ما يمكن ملاحظته في الأخير أن تونس بدأت تفقد الكثير من مميزاتها الاقتصادية في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر خاصة بعد اكتشاف العالم الجديد وانتقال طرق التجارة العالمية ومسالك العملة والمعادن الثمينة من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي عبر طريق الرجاء صالح، وبذلك خرجت التجارة الأوروبية عن سيطرة الدول الإسلامية، فضعف بذلك اقتصاد المدن التونسية الكبرى، وحرمت الدولة الحفصية من الموارد الخارجية التي كانت تحصل عليها من الجهاد البحري أو التجارة مع الدول الأوروبية[3]، زاد الأوضاع تأزما ظهور الدولة العلية العثمانية على مسرح الأحداث، والتي سوف تنتقل إليها زعامة العالم الإسلامي، وبذلك سيطرت على موارد الدولة الحفصية الداخلية والخارجية، بعد صراع مرير مع السلطات الإسبانية المتحالفة مع الحفصيين والأعراب.

3-الأوضاع الاجتماعية والثقافية.

كغيرها من بلاد المغرب الإسلامي تشكلت البنية السكانية لتونس في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر وقبيل التواجد الأندلسي الموريسكي من عدة مكونات عرقية ومزيجا بين العرب والأمازيغ اللذان اندمجا مع بعضهما البعض بفضل الدين الإسلامي والعقيدة الواحدة والمذهب المالكي الذي وجد التربة الخصبة للازدهار والتجذر، حيث اتخذه المغاربة حكاما ومحكومين كمذهب رسمي لهم على حساب المذاهب الأخرى، تدفعهم في ذلك عدة أسباب نذكر منها:

1- عبد المنعم الحميري: المصدر السابق، ص144.

2- محمد الهادي الشريف: ما يجب أن تعرفه عن تاريخ تونس من ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب، محمد الشاوش، محمد عجينة، دار سراس للنشر، تونس، 2002، ص56.

3- نفسه، ص64.

- الدور البارز الذي لعبه العلماء المغاربة في نشر وتثبيت المذهب، ومن أبرز هؤلاء الإمام سحنون وأبي زيد القيرواني.
- طبيعة المذهب المالكي المعتدل وإتباع سنة الرسول ﷺ في كل صغيرة وكبيرة من طرف الإمام مالك، جعل المغاربة أكثر تعلقا بهذا المذهب لأنه يمثل الوسطية بكل معانيها.
- البساطة التي يتسم بها السكان المغاربة جعلهم يتقبلون المذهب المالكي المبني على الاعتدال وتيسير الفتوى، فوافق ذلك طبيعتهم فتقبلوه عكس المذاهب الأخرى المتسمة بالتشدد والتعقيد في الكثير من الأمور.
- تشجيع الحكام بتونس للمذهب المالكي وللعلماء والسادة المالكية، حيث اتخذوه كمذهب رسمي للدول المتعاقبة؛ والناس على دين ملوكهم.

بالإضافة إلى عوامل أخرى جعلت المذهب المالكي يكون سببا من أسباب الألفة والاتحاد بين التونسيين، خاصة وأن اللغة العربية لعبت درا بارزا وهاما في هذه الألفة، لأنها كانت ولازالت اللغة الرسمية، ولغة التواصل بين جميع مكونات المجتمع التونسي حكاما ومحكومين، بالإضافة إلى اللغة الأمازيغية التي أتقنها الكثير من التونسيين باعتبارها لغة السكان الأصليين قبل الفتح الإسلامي بحكم أن تونس تسكنها العديد من القبائل الأمازيغية المنتشرة والممتدة في كامل بلاد المغرب الإسلامي.

من أهم القبائل الأمازيغية التي سكنت الشمال التونسي نجد قبيلة هوارة التي امتزجت واندمجت اندماجا تاما مع القبيلة العربية بني هذيل التي تنتمي للعرب المضرية، وقد استوطنت بالمكان الواقع بين البحر وباجة، بالإضافة إلى قبائل ونيفة (ونيفان) التي سكنت مدينة الكاف، وقبائل ورغة وشتاتة اللتان استوطنتا التل التونسي الأعلى، وقبيلة سماتة والمركجسية؛ وهي فرع من فروع قبيلة أفرن التي اشتهرت بزراعة الأرض وتربية المواشي.[1]

أما أهم القبائل العربية فنجد قبيلة رباح، وبنو حبيب المنحدرتين من قبائل مرداس المتفرعة عن قبائل بنو سليم، بالإضافة إلى قبائل أولاد يحي التي استوطنت منطقة تبرسق، وقبيلة أولاد المهلهل، وكانت مضاربهم منطقة التل الأعلى، ويرجع أصلهم إلى قبائل أولاد عون المنحدرين في الأصل من قبائل جامعة ومكثر، وقبائل الكاعوب الكبرى المنحدرة من بني سليم وكانت متحكمة في كامل منطقة السباسب، بالإضافة إلى هذه القبائل العربية نجد

1- روبار برنشفيك: المرجع السابق، ص 334، 336.

أن الكثير من الأندلسيين سكنوا البلاد التونسية واستقروا بها واندمجوا فيما بعد مع بقية القبائل العربية والأمازيغية واستقروا في مدينة تونس، باجة، المهدية، سليمان وقرنبالية... .[1]

أما في المجال الثقافي فإن تونس أصبحت منارة ومركزا علميا هاما في بلاد المغرب الإسلامي قاطبة منذ الفتح الإسلامي وتأسيس مدينة القيروان؛ فقد امتد إشعاعها العلمي إلى كافة إفريقيا فيما بعد، لذلك أصبحت تونس ملتقى رجال العلم والمفكرين والعلماء والطلبة من كل الأنحاء، وفضاء واسعا للمناقشات الفقهية والعلمية والأدبية وميدانا خصبا لجميع الثقافات والآراء الفقهية على اختلافاتها، وبذلك فسح المجال لتعايش ثقافي وعلمي قل نظيره في العالم الإسلامي آنذاك، نتج عنه إخصابا علميا فريدا من نوعه، ترجم إلى مخطوطات كتب مازالت باقية وشاهدة على الزخم العلمي الذي أنتجه علماء ومفكرين وفلاسفة، بتشجيع من السلاطين والأمراء الحفصيين.[2]

تشجيعا لهذه الحركة العلمية المخالفة لكل التوقعات –بسبب الانحطاط الذي وصلت إليه الدولة الحفصية في كل المجالات–عمل السلاطين الحفصيين عموما على دعم ورعاية العلماء، الأدباء، الشعراء والفنانين وبناء وتشييد المؤسسات الثقافية والعلمية والدينية مثل: الكتاتيب والجوامع والمدارس والمكتبات التي أعطيت لها رعاية خاصة وعمرت بنفائس الكتب والمخطوطات، لذلك اشتهرت العديد منها مثل: مكتبة أبي زكريا الأول، التي احتوت على أكثر من 36000 كتاب، المكتبة الفارسية، المكتبة العثمانية والمكتبة العبدلية.[3]

انتشرت المدارس العلمية والزوايا بكثرة وذاع صيتها في كامل العالم الإسلامي مثل: جامع الزيتونة بمدينة تونس؛ الذي كان منارة علمية تضاهي كبريات المدارس الإسلامية في ذلك الوقت كالقرويين بفاس وتنبكتو والمدينة المنورة ومكة المكرمة والأزهر وغيرها، وقد كان يأتي إليه طلبة العلم من جميع بلاد المغرب الإسلامي والصحراء الإفريقية لجودة التعليم به وتبحر علماءه وكثرتهم، بالإضافة إلى احتوائه على جميع المرافق الضرورية للإقامة والأكل والشرب، نتيجة لكثرة أوقافه وموارده المالية[4]، وأمام تزايد طلبة العلم وكثرتهم عمل السلاطين الحفصيين على توسيع جامع الزيتونة، خاصة مداخله ورواقه الخارجي.[5]

1- روبار برنشفيك: المرجع السابق، ص ص 334، 337.

2- يحي جلال: المرجع السابق، ص 54.

3- أحمد الطويلي: المرجع السابق، ص10.

4- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص76.

5- يحي جلال: المرجع السابق، ص54.

نال جامع الزيتونة شهرة واسعة؛ أين كانت تجري فيه المناظرات العلمية والفقهية والأدبية، حيث يكاد يكون الوحيد الذي بقي يؤدي رسالته العلمية على أحسن وجه في بلاد المغرب، التي بدأت تعرف تراجعا رهيبا في المجال العلمي، وزالت العديد من المراكز العلمية في بداية العصر الحديث مثل: بجاية وتلمسان وحتى القرويين والأزهر تراجعا بشكل رهيب في أداء رسالتهما العلمية وفقدا بريقهما، فاسحان المجال أمام البلاد التونسية التي أخذت الصدارة في بداية العصر الحديث، فقد عرفت انتشار العديد من المراكز العلمية التي تميزت بمستواها الراقي ونوعية برامجها ومناهجها التعليمية المحافظة على تقاليد الدولة الحفصية والحضارة الأندلسية، لاتصالها الوثيق باهتمام الحكام التونسيين، وبذلك اشتهر جامع الزيتونة الذي استطاع الصمود والمحافظة على مكانته وجودة التعليم به وكان دار علم وفقه بامتياز[1]، بالرغم من المنافسة التي كان يلقاها من طرف عديد الحواضر العلمية الموجودة بتونس في ذلك الوقت.[2]

بالإضافة إلى جامع الزيتونة كانت بتونس العديد من الحواضر العلمية والثقافية الأخرى أبرزها مدينة المنستير التي كانت مركزا تعليميا و صرحا ثقافيا بالبلاد التونسية وعموم بلاد المغرب وإفريقيا، لأنها كانت مقصد طلبة العلم من جميع هذه الأقطار للتعلم والتفقه في جميع المجالات الدينية -وخاصة الفقه واللغة- على أيدي نخبة من العلماء والفقهاء من أهل البلاد والوافدين إليها من الخارج، ومن أشهر هؤلاء أبو العباس أحمد المنستيري النحوي واللغوي الذي أخذ العلم على يد نخبة من العلماء وأهل اللغة والمفكرين مثل ابن عرفة وابن خلدون[3] وصفه القلصادي في رحلته بقوله: «...**لم يكن يعتني بأحد من أهل الدنيا ويعظمه وبه كان انتفاع طلبة تونس ومن يرد عليها بالنحو في زمانه، قرأت كتاب المعزب لابن عصفور وبعض "التسهيل" لابن مالك وكذلك الجمل للنحو نجي ...ولم أر أحفظ منه لكلام ابن عصفور ولا من يستحضر نصوص المتقدمين من النحاة مثله**...»[4] وكان حيا سنة 848هـ/1444م.

لم تحدد لنا المصادر والمراجع تاريخ ميلاده ووفاته، ربما يرجع هذا لجهلها بهذين التاريخين، إلا أن الثابت لدينا أن هذه الشخصية أثّرت تأثيرا بارزا في مدرسة المنستير اللغوية التي كانت قد ابتدأت مع ابن عصفور، وكان

1- عبد المنعم الحميري: المصدر السابق، ص144.

2- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص

3- أحمد الطويلي: المرجع السابق، ص80.

4- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي: رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق، محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، الجمهورية التونسية، 1978م، ص ص 116، 117.

لأبي عباس أحمد المنستيري أهمية علمية بالغة في المنستير وعموم تونس وحتى البلاد المغاربية، وامتدت هذه الأهمية إلى غاية إفريقيا بحكم أن تونس كانت مركزا علميا يقصده العلماء وطلبة العلم من كل مكان.

من العلماء الذين ذاع صيتهم بتونس العالم أبو عبد الله محمد بن أبي زيد المنستيري، الذي كان مربيا فذا وعالما متميزا، طلب العلم على يد نخبة من علماء القيروان، ثم انتقل إلى المنستير أين واصل تعليمه، ثم أصبح مدرسا بها، وألف كتابه "الرسالة"، ليخلفه ابنه أبو العباس أحمد الذي درس على يد والده وتوفي سنة 869ه/ 1464م وقد أسس رباطا (زاوية لتربية المريدين) لطلب العلم يأتيه الطلبة من كل مكان، وقد ورثهما أبنائهما وأحفادهما في هذا الرباط إلى أن جاء الاحتلال الإسباني و قام بتهديم الزاوية وقتل طلبتها وعلمائها، وأسر عدد أخر منهم، وانتزع ما بقي من الزاوية وضمها لممتلكاته، لذلك فضل الأحفاد الفرار إلى زاوية سيدي ذويب بالمنستير لمواصلة مهمتهم النبيلة في نشر العلم.[1]

ومن علماء تونس أيضا نذكر أحمد ابن محمد ابن عبد الله الفلشاني التونسي، وكان فقيها وعالما ومحققا ضليعا ومتبحرا في العديد من العلوم، أخذ العلم على يد نخبة من العلماء منهم شيخ الجماعة أبي مهدي عيسى الغبريني وولده أبي عبد الله أدرك ابن عرفة وتعلم عنده، وليّ قضاء الجماعة بقسنطينة ثم بتونس بعد موت محمد ابن عقاب، ثم تولى التدريس بجامع الزيتونة، كان من أعلام المالكية، قام بشرح الرسالة، وصحيح البخاري، وجزء من صحيح مسلم وكتاب التهذيب توفي سنة 863ه/1459م.[2]

ومنهم أيضا أحمد عبد الرحمان بن موسى بن عبد الحق اليزليطي القيرواني عرف باسم "حلولو" ولد سنة 815ه/1412م، أخذ العلم على يد نخبة من العلماء منهم البرزلي، عمر القلشاني، قاسم العقياني، ابن ناجي، والعديد من الشيوخ منهم الشيخ أحمد زروق، أحمد بن حاتم، عبد الرحمان الثعالبي، القلصادي، وهو أحد الأئمة الحافظين لفروع المذهب المالكي والعديد من المذاهب الأخرى، وليّ قضاء طرابلس وتعلم على يديه في طرابلس أحمد بن حاتم بن محمد النبطي الصنهاجي الفاسي الطبيب، ثم عزل عن قضاء طرابلس، وعاد إلى تونس فتولى مشيخة عدة مدارس؛ أشهرها مدرسة إبراهيم الأخضري، توفي بتونس سنة 898ه/1492م، له عدة مؤلفات نذكر منها :

- شرح عقيدة الرسالة.
- شرح صغير على مختصر خليل.

1- أحمد الطويلي: المرجع السابق، ص 81.

2- أحمد بابا التنبكتي: المصدر السابق، ص ص 116،117.

- شرح كبير على مختصر خليل في 6 أسفار سمي "البيان والتكميل في شرح مختصر خليل".
- شرح ورقات الباجي في الأصول.
- مختصر نوازل البرزلي.
- شرح كبير على جمع الجوامع.
- الضياء اللامع في شرح جمع الجوامع ـ لتاج الدين السبكي.
- شرح إشارات الباجي في أصول الفقه.[1]

إذن كانت المنستير قبل الاحتلال الإسباني مركزا للعلم، فيه كل المرافق الضرورية المساعدة على طلب العلم والتبحر فيه، حيث يجد كل طالب مسكنا يليق بمقامه، ومعلما يهتم به ويؤدبه ويعلمه القرآن وبقية العلوم الشرعية الأخرى كالحديث والفقه والقراءات واللغة والنحو...وغيرها، بالإضافة إلى ذلك يجد المأكل والمشرب وحتى الملبس في بعض الأحيان، وكل هذه الحاجيات مصدرها الأوقاف وتبرعات المحسنين الراغبين في فعل الخير من كل جهات تونس كقفصة، نفزاوة، قابس، الوطن القبلي والقيروان وغيرها.[2]

أما القيروان فلم تعد في هذه الفترة المتأخرة كما كانت في سابق عهدها مدينة العلم والعلماء، حيث تحولت الصدارة العلمية منها، خاصة في العلوم الشرعية إلى جامع الزيتونة والمنستير، وبذلك فقدت مكانتها العلمية التي عرفت بها في السابق، إلى درجة أن الحسن الوزان وصفها بالمدينة البائسة والفاقدة للأهمية العلمية، على عكس ما كانت عليه من قبل حيث قال: «...**وقد ازدهرت العلوم الإسلامية بالقيروان في فترة من تاريخها حتى أن معظم فقهاء إفريقيا من المتخرجين منها، وبعد أن خرب الأعراب القيروان أخذت في الوقت الحاضر تمتلئ بالسكان، لكن بطريقة بائسة ...**».[3]

ومع أن مدينة القيروان فقدت أهميتها العلمية بالمقارنة مع الحواضر الأخرى، إلا أنها بقية محافظة على بعض تقاليدها العلمية السابقة، حيث يأتي إليها العديد من طلبة العلم من إفريقيا، إلى درجة أن مرمول كربخال شبهها بجامعات باريس وجامعة سلامانكا بإسبانيا، حيث يقول: «... **يتوافد طلاب المعرفة على القيروان من كل مناطق إفريقيا مثلهم كمثل الطلاب الفرنسيين الذين يحجون إلى باريس أو الطلاب الإسبان الذين يقصدون جامعة سلامانكا، وكل فريق من هؤلاء أو أولئك يعتز باغترافه العلم من هنا أو هناك ...**».[4]

1- محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982م، ص ص165، 166.

2- أحمد الطويلي: المرجع السابق، ص81.

3- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص91.

4- مرمول كربخال: المصدر السابق ص98.

ما يمكن ملاحظته أن الحسن الوزان ومرمول كربخال كلاهما يثنيان على القيروان في الفترة السابقة، ومع ذلك يمكننا القول أن المدينة في بداية القرن السادس عشر تحولت إلى مدينة خاوية على عروشها بفعل عدة عوامل يمكن تلخيصها فيما يلي:

- غارات الأعراب المتتالية حولت المدينة إلى خراب، فقد هجرها طلبة العلم والعلماء، وحتى الصناع والحرفيين، وفي ذلك يقول الحسن الوزان: «...**وبعد أن خرّب الأعراب القيروان أخذت في الوقت الحاضر تمتلئ بالسكان. لكن بكيفية بائسة** ...»، يؤيده في ذلك مرمول كربخال حيث يقول: «... **إلا أن الأعراب لم يقلعوا عن شن غاراتهم المتتالية عليها فالحقوا بها وباقتصادها أضرارا جسيمة**...».
- نزوح الطلبة والعلماء إلى الزيتونة والمنستير لتوفرهما على الأمن واحتوائهما على جميع المرافق الضرورية لطلب العلم.
- عدم اهتمام السلاطين الحفصيين بهذه المدينة خوفا من الأعراب الذين تسلطوا عليها وعجْز الجيش الحفصي عن مواجهتهم، فاسحين المجال لهم للعبث بالمدينة وأهلها.
- موقعها في الصحراء جعلها بعيدة عن الاهتمام سواء من السلاطين أو العلماء وطلبة العلم.
- ابتعادها عن الساحل والطرق التجارية، وركب الحجيج أبعدها عن الاهتمام من طرف الناس خاصة العلماء والفقهاء وطلبة العلم.

كل هذه العوامل ساعدت في فقدان القيروان أهميتها العلمية في بداية العصر الحديث ومنعها من البروز أو على الأقل المحافظة على مكانتها العلمية التي اشتهرت بها خلال العصر الوسيط.

ما ميز الحياة الثقافية والعلمية بتونس توافد العديد من علماء الأندلس، نتيجة لسقوط مدنها الواحدة تلو الأخرى بيد الإسبان، أين توجه هؤلاء إلى المغربين الأقصى والأوسط والبلاد التونسية، وقد شجع حكام الدولة الحفصية الوافدين الجدد وحرصوا على استقطاب العديد منهم إلى بلادهم، هؤلاء بدورهم وفدوا بكثرة لما لقوه من حسن المعاملة والتشجيع على الاستقرار ودعم وعناية من طرف أغلبية التونسيين حكاما ومحكومين، وقد حمل الأندلسيون- خاصة العلماء والمفكرين وعليّة القوم- معهم أنواعا عديدة من العلوم والفنون التي تعلموها وورثوها عن آبائهم وأجدادهم بالأندلس، ولذلك أصبحت البلاد التونسية مركزا مهما لهذا الموروث الحضاري الرافد إليها، وميدانا لتزاوج حضاري غريب بين حضارة المشرق والمغرب الإسلاميين والأندلس، دعم هذا لتزاوج والإخصاب الحضاري الدين الإسلامي الذي جمع بين الحضارتين والثقافتين مُسْقطا كل العراقيل والفروقات والحساسيات

الموجودة بين الطرفين، وبذلك كانت تونس أرضا خصبة لتعايش ثقافي قل نظيره في بلاد المغرب الإسلامي في ذلك الوقت.

ما نخلص إليه في الأخير أن البلاد التونسية في بداية العصر الحديث ازدهرت بها الحركة الثقافية نتيجة لوجود مراكز علمية نشطة مثل: الزيتونة والمنستير اللتان تحملتا عبء مسؤولية نشر العلم وتشجيعه، حيث كانت البلاد التونسية مقصدا للعلماء وطلبة العلم من كامل بلاد المغرب الإسلامي وإفريقيا، وقد ساعد في نشاط وديمومة هذه الحركة الثقافية السلاطين الحفصيين الذين شجعوا العلم والعلماء، وذلك بتوفير المأوى والمأكل والمشرب وحتى الملبس، بالرغم من الصعوبات والمشاكل التي كانوا يعيشونها وحالة البلاد المضطربة، وهي من غرائب الأمور وندرتها، فهل يعقل أن نجد دولة تمر بأخطر مراحلها وهي على وشك الانهيار، تشجع الحركة الثقافية على عكس بقية النشاطات الأخرى، وبذلك واصلت تونس صدارتها العلمية وصيرورة حركتها الثقافية بالرغم من أخطاء حكامها في مجالات أخرى.

المبحث الخامس: الملامح الكبرى للإمبراطورية الإسبانية بداية القرن 10هـ/16م.

1-الأوضاع السياسية.

كانت نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وبداية القرن السادس عشر الميلادي مليئة بالأحداث الهامة والتطورات السياسية المتميزة التي عرفتها إسبانيا الحديثة، حيث كان لهما الأثر البالغ على مستقبلهما ومستقبل العلاقات الدولية في العصر الحديث، خاصة في حوض البحر المتوسط، إذ أدى الزواج السياسي الذي تم بين ملك أرغون فرديناند* وملكة قشتالة إيزابيلا ** سنة 1469م إلى وحدة المملكتين، وظهور الدولة الإسبانية الموحدة[1]، ومع كل هذه الإجراءات إلا أن هذا الزواج لم يكرس الاندماج السياسي التام بمعنى الكلمة[2]، وهذا ما نلاحظه من خلال ما يلي:

*- فرديناند ابن الملك فرديناند الأول والملكة جيان ويسمى فرديناند الكاثوليكي ملك أراغون وصقلية ونابولي ما بين 1452-1516م اشتهر بتعصبه، وتأسيس محاكم التفتيش في عهده، استطاع السيطرة على غرناطة سنة 1492م رفقة إيزابيلا كانت له ميولات متوسطية لخضوعه لتأثير الدبلوماسيين والتجار، في عهده احتلت وهران والمرسى الكبير 1505-1509م.

**- إيزابيلا ملكة قشتالة ورثت العرش بعد وفاة أخيها هنري الرابع وتسمى إيزابيلا الكاثوليكية، حكمت ما بين سنتي 1474-1504م، لم يكن لزوجها سلطة على مملكتها، كانت متعصبة للمسيحية والمذهب الكاثوليكي، وحصلت مع زوجها على لقب ملوك الكاثوليك من البابا إسكندر السادس بعد تمكنهما من السيطرة على غرناطة وطرد المسلمين منها...، للاستزادة ينظر: محمد دراج: المرجع السابق، ص 15.

1 -*Braudel (Fernand): La Méditerranée et Le Monde Méditerranéen A l'époque de Philipe II, tome II, 2eme, Edition, Libraire Armand Colin, Paris, 1966, p19.*

2- جون.ب.وولف: الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط2، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص24.

- لم يكن فرديناند ملكا لقشتالة إلا بوصفه زوج إيزابيلا ومشاركته في نفس الصورة الموجودة على العملة، الأسلحة والراية.
- لم تكن للملكين فرديناند وإيزابيلا سياسة موحدة؛ ففرديناند بحكم امتلاكه لجزر البليار وصقلية وسردينيا ووجود أحد أفراد أسرته على رأس مملكة نابولي كان يتجه إلى التقرب أكثر من أوروبا لتأمين الممر البحري بين إشبيليا وصقلية، فيما كانت إيزابيلا تفضل التغلغل في المحيط الأطلسي بحكم موقع قشتالة واهتمام حاكمتها بالتوسع في العالم الجديد ومواصلة الزحف باتجاه بلاد المغرب الإسلامي.[1]

بالرغم من هذا الاختلاف الواضح بين الملكين الكاثوليكيين، إلا أنهما اتفقا على محاربة المسلمين، سواء داخل إسبانيا ذاتها أو ببلاد المغرب الإسلامي الذي كان الهدف الرئيسي لهما، بالإضافة إلى اهتمامهما بقضايا القارة الأوروبية وشبه الجزيرة الإيطالية[2] بتحريض مباشر من فرديناند، خاصة وأن الوحدة الإسبانية تمت على أساس ديني متعصب مقيت وتحالف وثيق بين الكنيسة الكاثوليكية والملكان الكاثوليكيان إيزابيلا وفرديناند، وهذا ما أنتج عداوة لكل المسلمين في الأندلس وبلاد المغرب الإسلامي[3].

بدأ الملكان الكاثوليكيان تنفيذ سياستهما التي تم على أساسها زواجهما؛ باحتلال مملكة غرناطة في جانفي 1492م[4]، وبهذه الخطوة تحقق عمليا مشروع الوحدة السياسية نهائيا ولأول مرة منذ سنة 91هـ/710م، معلنان بذلك نهاية الوجود الإسلامي العربي الرسمي من الأندلس، ونهاية فصل من فصول تاريخ إسبانيا الإسلامي، وبداية تاريخ إسبانيا المسيحي الكاثوليكي، المليء بالفضائح والفظائع، وبذلك انتقل الصراع الإسلامي المسيحي من الأراضي الإسبانية إلى الأراضي المغاربية لأول مرة، كانت بدايته احتلال المرسى الكبير، وهران، بجاية وعنابة[5]، طرابلس الغرب وتونس.

1 – نبيل عبد الحي رضوان: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الحديث، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية 1407هـ/1987م، ص33.

2– صالح حيمر: التحالف الأوروبي ضد الجزائر عام 1541 وتأثيراته الإقليمية والدولية، مذكرة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2006-2007، ص 27.

3– عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج5، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص97.

4– مجهول: نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب، ضبطه وعلق عليه، ألفريد البستاني، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 2002م، ص 47.

5– أحمد إسماعيل راشد: تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث والمعاصر (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا)، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2004م، ص 131.

عرفت إسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي حدثين بارزين هامين غيرا مجرى التاريخ الإسباني والأوروبي والإسلامي، وكان لهما أهمية بالغة على مستقبل الحوض الغربي للمتوسط بضفتيه الشمالية الجنوبية وعلى الكثير من مناطق العالم، وهما:

- احتلال غرناطة في جانفي 1492م.
- اكتشاف العالم الجديد.[1]

نتج عن الوحدة الإسبانية العديد من النتائج الهامة نذكر منها:

1-1-**داخليا**.

- تمكن الملكان الكاثوليكيان من تنظيم السلطة السياسية والعسكرية.
- إعادة النظام إلى مؤسسات الدولة، وإنشاء ميليشيات عسكرية قوية مسلحة، أُوكِل إليها مهمة محاربة أعمال اللصوصية السائدة آنذاك بسبب الفوضى وغياب السلطة والأمن في كل الأراضي الإسبانية[2].
- إتمام الوحدة الجغرافية للأراضي الإسبانية بعد عدة قرون من التجزؤ والانقسام.
- تصفية الوجود العربي الإسلامي من الأندلس.

1-2-**خارجيا**.

- احتلال الكثير من السواحل ببلاد المغرب الإسلامي.
- نقل الصراع من الأراضي الإسبانية إلى الأراضي الإسلامية[3].
- السيطرة على الكثير من أراضي العالم الجديد بعد اكتشافه.
- ازدياد نفوذ الملوك الكاثوليك داخل الأراضي الإيطالية والكثير من البلدان داخل القارة الأوروبية.
- ازدياد حدة الصراع بين الدولة العلية العثمانية والإمبراطورية الإسبانية.

بعد وفاة إيزابيلا الكاثوليكية سنة 1504م وفرديناند سنة 1516م آل العرش الإسباني إلى شارلكان[*]، الذي ورث عرش قشتالة والإمارات التابعة لها عن جدته لأمه إيزابيلا وورث عرش أراغون وتوابعه عن جده لأمه

1- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص42.

2- حنيفي هلايلي: دراسات وأبحاث في التاريخ الأندلسي الموريسكي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2010م، ص 118.

3- أحمد توفيق المدني: "تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين 1530-1554م"، **مجلة الأصالة**، ع26، الجزائر، 2011م، ص39.

*- شارل الخامس تولى الحكم بعد وفاة جده فرديناند سنة 1516م وأصبح بعد 1519م على رأس أكبر إمبراطورية في العالم، فخصص عهده في محاربة أعدائه إلى سنة 1556م، أين تخلى عن المسؤولية العظمى لصالح ابنه فليب الثاني، واعتزل في معبد يوست "Yuste" وبقي به إلى أن توفي في 21 سبتمبر 1558م...للاستزادة ينظر: مولاي بلحميسي: "غارة شارلكان على مدينة الجزائر، 1541م"، **مجلة الأصالة**، ع8، الجزائر، 1972م، ص91.

فرديناند، ثم ورث عرش النمسا بوفاة جده لأبيه ماكسيمليان الأول (1459-1519م)، وبذلك ترشح لخلافة جده على رأس الإمبراطورية الرومانية[1]، التي نافسه على اعتلاء عرشها الملك الفرنسي فرنسوا الأول «FrançoisI». *

بتاريخ 05 جويلية 1519م اجتمع الناخبون الألمان بمدينة فرانكفورت الألمانية لانتخاب إمبراطور جديد يتولى عرش الإمبراطورية الرومانية، وبعد مشاورات طويلة وشاقة ارتأى المجتمعون انتخاب شارل الخامس[2] تدفعهم في ذلك العديد من الأسباب:

- شارل الخامس-شارلكان-من أصل جرماني.
- كان الشخصية الأقوى والأقدر على مواجهة العثمانيين والتصدي لهم.
- شارلكان رأى فيه الناخبون القائد الأمثل لمواجهة التهديدات الداخلية والخارجية التي تواجه الإمبراطورية الرومانية.
- شخصيته القومية أهلته لتولي هذا المنصب بالمقارنة مع فرنسوا الأول.

بهذا الاختيار أصبح شارل الخامس يحكم إمبراطورية مترامية الأطراف باسم الإمبراطور شارلكان «Charlequin»[3]، الذي أولى اهتماما فريدا من نوعه للصراع ضد المسلمين والعداء لهم، يدفعه في ذلك قناعته المتجذرة في نفسيته التي اكتسبها من التربية التي نشأ عليها منذ صغره والمتوارثة عن أجداده، إيزابيلا وفرديناند ومكسيمليان، الذين غذوا فيه نزعة كره المسلمين وضرورة قتالهم، لذلك كانت الاستراتيجية المتبعة من طرفه تقوم على أساس قتال المسلمين واحتلال بلادهم، وفي نفس الوقت العمل على وحدة المسيحيين، لذلك كان يرى

1- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص41.

*- فرنسوا الأول تولى الحكم سنة 1525م وعمره 21 سنة، وهو من نسل الدوق دورليان، عرف بتضلعه في عدة علوم، محبا للفتن والمشاكل، لا يراعي إلا مصالحه، حدثت بينه وبين شارلكان حروب عديدة وأبرزها ميلانو التي أسر على إثرها وهزم جيشه وأرسل إلى مدريد، أثناء سجنه تولت أمه حكم فرنسا ولم يخرج من السجن إلا بعد موافقته على شروط قاسية ومذلة منها تنازله عن المطالب بحقه في ميلانو ونابولي أطلق سراحه سنة 1535م، أمضى معاهدة مع سليمان القانوني سنة 1536م، توفي سنة 1556م...، للاستزادة ينظر: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز: ط1، ج2، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسن داي، الجزائر، 2007م، ص ص 64، 65.

2- محمد دراج: المرجع السابق، ص25.

3- صالح حيمر: المرجع السابق، ص29.

نفسه الحامي الأول للديانة المسيحية[1] والذود عنها، خاصة بعد ازدياد الخطر العثماني واقترابه من أراضي الإمبراطورية الرومانية.

بالرغم من تشتت جهود الجيوش الإسبانية على عدة جبهات، داخلية وخارجية، كان أهمها الصراع ضد الجيوش الفرنسية، إلا أن شارلكان أولى اهتماما خاصا لحربه ضد العثمانيين؛ لأنه كان يرى أن الحرب ضد المسلمين هي مهمته بالدرجة الأولى ومهمة جميع الأوروبيين مجتمعين، وواجبة على كل مسيحي مهما كان.[2]

حاول شارلكان توحيد جميع الأوروبيين تحت راية واحدة بصرف النظر عن انتماءاتهم، وفي هذا الإطار واجه خصما عنيدا وقف ضد طموحاته المتزايدة التي كان يريد تحقيقها، وهو الملك الفرنسي فرنسوا الأول، وقد كان ميدان تصفية الحسابات الأراضي الإيطالية، التي استأنفت بها الحروب الإيطالية بين الطرفين سنة 1525م، بسبب غزو فرنسوا الأول لإيطاليا، إلا أنه مني بهزيمة نكراء على يد الجيش الألماني في معركة بافيا سنة 1525م[3]، وتم على إثرها أسر فرنسوا الأول وأخذه إلى مدريد، أين أرغم على توقيع معاهدة مدريد سنة 1526م، والتي تم بموجبها التنازل عن ادعائه بحقوقه في إمارة نابولي وميلانو وجنوة[4]، وبعد هذا الانتصار الباهر وغير المتوقع دعّم شارلكان علاقته بإمارة البندقية؛ القوة البحرية القوية حينذاك، كما استطاع الحصول على دعم الأسطول الجنوي بقيادة أندريا دوريا «André Doria»، الذي فضل التخلي عن فرنسوا الأول والدخول في خدمة الإمبراطور الإسباني شارلكان سنة 1528م، هذا ما أدى إلى تحالف الأسطولين الإسباني والجنوي، الذي كان يعتبر حينذاك أقوى أسطول بحري في غرب المتوسط[5].

حاول شارلكان اتباع سياسة التحالفات لقطع الطريق على خصمه فرنسوا الأول وحصاره، لذلك عقد تحالفا مع فرسان القديس يوحنا* بعد منحهم جزيرة مالطا سنة 1522م، تعويضا لهم عن فقدانهم جزيرة رودس التي

1- عبد الجليل التميمي: "الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني على الإيالات المغاربية في القرن السادس عشر الميلادي"، **المجلة التاريخية المغاربية**، ع11/10، تونس، 1985م، ص 09.

2- صالح حيمر: المرجع السابق، ص30.

3- يحي بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830م، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص41.

4- الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص، 65.

4- محمد دراج: المرجع السابق، ص25.

5- عبد الحميد البطريق، عبد العزيز سليمان نوار: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1973م، ص 77.

*- يعتبر فرسان القديس يوحنا من بقايا الحروب الصليبية، وقد أنشئت هذه المنظمة عام 1099م من طرف أحد الفرسان الفرنسيين، وكانت مهمتها في البداية علاج الحجاج المسيحيين في بيت المقدس، وسرعان ما تغير نشاطها لحماية الطرق التي يسلكها هؤلاء الحجاج، وهكذا تحول الفرسان من رهبان إلى عسكريين، وشاركوا في جميع الحروب الصليبية وكلفهم ذلك خسائر كبيرة خصوصا في الأرواح، وفي عام 1309م اتجهوا إلى رودس -بعد أن تم طردهم من فلسطين- وجعلوها مقرا جديدا لهم، حيث شيدوا مستشفيات وحاولوا حماية ما تبقى من المسيحية في المنطقة الشرقية، وبعد أن شعر=

فتحها العثمانيون سنة 1522م، ثم تنازل لهم أيضا على طرابلس الغرب سنة 1530م[1]، بعد أن كانت محتلة من طرف الإسبان منذ سنة 1510م، وكان هذا التحالف يهدف إلى التصدي للخطر العثماني وقطع الطريق أمامهم ومنعهم من التوسع في البحر الأبيض المتوسط ودوله.[2]

تدعيما وتشجيعا لشارلكان على إنجازاته قرر البابا كليمانت السابع «CléMent VII» تتويجه بالتاج الإمبراطوري سنة 1530م، ومع ذلك لم يحقق كل طموحاته التي كان يصبوا إليها، بسبب تزامن ظهوره مع ظهور شخصيات بارزة معاصرة له، كسليمان القانوني (1520-1566م)، فرنسوا الأول، هنري الثامن ملك إنجلترا، بايلرباي الجزائر خير الدين[3]، حسن آغا (1533-1544م)* وحسان بن خير الدين** اللذان أفسدا جميع مخططاته الرامية لاحتلال مدينة الجزائر.

بالرغم من مشاكله الكثيرة داخليا وخارجيا، حاول شارلكان بكل قوة التصدي للأخطار الداخلية بإسبانيا أولا، وداخل أوروبا ثانيا من أجل التفرغ الكلي للعثمانيين، إلا أن التحالف الفرنسي العثماني سنة 942هـ/1535م أفسد عليه الكثير من مخططاته وعقّد من مهمته التي انتخب من أجلها[4]، خاصة ما تعلق بالتصدي للعثمانيين في الحوض الغربي للمتوسط.

2-الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ظهرت حركة تنموية في جميع المجالات الاقتصادية بإسبانيا، نتيجة للتأثر بما كان يحدث من نهضة داخل أوروبا عامة وإيطاليا خاصة، حيث حمل الكثير من الإسبان أفكارا متطورة جاؤوا بها إلى بلادهم، بعد أن تشبعوا بها أثناء مزاولة دراساتهم في إيطاليا، مهد النهضة الأوروبية الحديثة، ثم بدأوا

=العثمانيون بخطورة هؤلاء الفرسان قرر السلطان محمد الفاتح عام 1480م فتح رودس إلا أنه فشل في ذلك، وفي عهد سليمان القانوني جهز حملة لفتحها وتم له ذلك سنة 1522م وبعد ذلك التجأ فرسان القديس يوحنا بعد خروجهم من رودس إلى مالطة التي منحها إياهم شارل الخامس في شهر ماي 1530م...، للاستزادة ينظر: محمد سي يوسف: أمير أمراء الجزائر قلج علي باشا، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص ص 45، 46.

1- نفسه، ص30.

2-كليل صالح: المرجع السابق، ص21.

3- عبد الحميد البطريق، عبد العزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص77.

*- حسان آغا كان من مسيحي سردينيا وقع أسيرا في سن الشباب مع الكثير من أمثاله في يد خير الدين أثناء إحدى الغارات على إحدى القرى الساحلية بسردينيا، ثم اعتنق الإسلام كان ذا ذكاء خارق عرف عنه الجد والصرامة، عينه خير الدين كاتبه الخاص وفوض إليه العديد من المهام، ثم عينه نائبا له على الجزائر، تصدى لحملة شارلكان سنة 1541م وحقق فيها نجاحا باهرا...، سلفاتور بونو: "العلاقات بين الجزائر وإيطاليا خلال العهد التركي"، **مجلة الأصالة**، ع6، ترجمة، أبو القاسم بن التومي، الجزائر، 1972م، ص 190.

**- حسان بن خير الدين حكم لثلاث فترات مختلفة (1544-1552م)، (1557-1561م)، (1565-1567م).

4- يحي بوعزيز: الموجز...، المرجع السابق، ص06.

في نشر هذه الأفكار ودراساتهم داخل بلادهم، علما أن النهضة في إسبانيا اقترنت بتطور الملاحة البحرية وصناعة السفن خصوصا، هذا ما أهلها لتكون من السباقين في حركة الكشوفات الجغرافية، التي مكنت الإسبان من جمع ثروة طائلة، نتيجة سيطرتهم على ثروات المناطق المكتشفة في العالم الجديد، هذا ما كان عاملا مساعدا على تطور الاقتصاد الإسباني، وفي نفس الوقت ساعدت هذه الثروات على تمويل الجيش وتجهيزه للقيام بمهامه داخل أوروبا وخارجها، خاصة احتلال المناطق الساحلية في بلاد المغرب الإسلامي؛ من المغرب الأقصى غربا إلى طرابلس الغرب شرقا[1]، لتأمين الطرق البحرية التجارية المساعدة على تطور الاقتصاد الإسباني.

مواكبة لتطور الاقتصاد؛ حاولت السلطات الإسبانية إتباع النظام الرأسمالي الحر بدل النظام الإقطاعي، الذي كان سائدا خلال العصور الوسطى، حيث بدأ الفكر الاقتصادي يشهد نضجا واستقلالا تاما خلال القرن السادس عشر عن مفاهيم الكنيسة المتحجرة التي كانت سائدة خلال العصر الوسيط، لذلك ظهرت البنوك والرأسمال الربوي التنافسي، وانتشر التعامل بالصكوك والعقود المكتوبة، وشُرِّعت القوانين المنظمة للعلاقة بين الدولة ورعايا الإمبراطور، وقد ساهمت الكشوفات الجغرافية التي قادها كريستوف كولومبوس«Ch Colombus» في تنشيط الحركة التجارية، وأصبح الاقتصاد أكثر انفتاحا على العالم الخارجي، وفتحت أسواق جديدة لتصريف فائض الإنتاج، وبيع الذهب والفضة القادمة من العالم الجديد، هذا ما أوجد طبقة برجوازية، استطاعت السيطرة على رؤوس الأموال واحتكار التجارة والتحكم في الاقتصاد الإسباني.[2]

لعبت الكشوفات الجغرافية دورا بارزا في زيادة الإنتاج، الأمر الذي انعكس سلبا على سكان العالم الجديد الذين أُستغلت ثرواتهم استغلالا مفرطا للغاية، وكانوا مستهلكين لفائض الإنتاج الإسباني، وبذلك كانت هذه المستعمرات عبارة عن سوق للتجارة فقط[3]، في مقابل هذا الاستغلال المقنن للشعوب المستعبدة تدفقت المعادن الثمينة إلى إسبانيا وأوروبا، خصوصا الذهب والفضة، الناتجة عن استغلال مناجم الذهب في المكسيك والبيرو ومناجم الفضة في بوليفيا، هذا ما أدى إلى توفر النقود وارتفاع الأسعار.[4]

أدى اكتشاف الذهب والفضة في العالم الجديد وتدفق الثروة إلى هجرة عكسية من إسبانيا إلى العالم الجديد، وبدأ الإسبان في تأسيس مدن جديدة على النمط العمراني الإسباني، للاستقرار بها واستغلال المعادن

1- مفيد الزيدي: موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ج1، ط1، دار أسامة، الأردن، 2004، ص 471.

2- محمد دراج: المرجع السابق، ص32.

3- عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، مدينة نصر، مصر، 1999م، ص 57.

4- محمد دراج: المرجع السابق، ص32.

النفيسة الموجودة في المناطق المكتشفة حديثا، هذا ما شجع على زيادة التوسع واكتشاف مناطق جديدة، حتى وصلوا في النصف الثاني من القرن السادس عشر إلى فنزويلا وكولومبيا، وقد تميزت هذه الفترة من تاريخ إسبانيا بالرخاء الاقتصادي واتساع مناطق الاحتلال في كثير من مناطق العالم[1]، ما أدى إلى استعباد سكان المناطق المحتلة واستغلال خيرات بلادهم.

أدت الكشوفات الجغرافية إلى تحول طرق التجارة، حيث فقد البحر الأبيض المتوسط الكثير من أهميته التجارية، ولم يعد جاذبا للسفن التجارية كما كان في السابق، هذا ما انعكس سلبا على بلدان المغرب الإسلامي خاصة والعالم الإسلامي عامة، ليتحول إلى ساحة صراع واسعة بين المسلمين والمسيحيين من أجل التوسع والنفوذ.[2]

المبحث السادس: محركات علاقات الإيالات المغاربية مع الإسبانية.

لا يمكن الحديث عن علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا خلال الفترة الممتدة من 1520م إلى 1792م، بدون الإشارة إلى أن هذه العلاقات تحكمت فيها العديد من العوامل والأسباب، لا يمكن فصل سبب عن الآخر أو تغليب عامل على آخر، فكل طرف كان يحاول أن يجد المبررات من أجل الدفاع عن مصالحه الخاصة، فقد حاول الإسبان جاهدين السيطرة على بلاد المغرب، خاصة بعد سقوط غرناطة في جانفي 1492م، فيما حاول المغاربة الدفاع عن بلادهم ونصرة إخوانهم الأندلسيين، ولذلك لا يمكننا تسبيق سبب عن آخر، لنقول أنه هو المتحكم المباشر في تلك العلاقات، بل كل سبب كان مكملاً للآخر، حيث اجتمعت العديد من هذه الأسباب التي أججت الصراع، وأعطته مميزات كانت عاملاً في استمراره لعدة قرون.

1-الأسباب الدينية.

يعتبر الدين من أهم العوامل المؤثرة في استمرار الصراع وطول مدته نتيجة لعدة تراكمات تاريخية موغلة في التاريخ؛ أي منذ أن بدأ الصراع المسيحي الإسلامي يظهر للعيان، بل قد نرجع ذلك إلى زمن بداية الدعوة الإسلامية على يد محمد ﷺ، خصوصًا خلال الفترة المدنية، حيث ظهرت الدولة الإسلامية الأولى كدولة قوية تنشر الإسلام وتتوسع على حساب جيرانها من الروم والفرس، هذا ما وَلَّدَ حقدًا دفينا على هذه الدولة، التي كان أعدائها يتربصون بها وينتظرون الفرصة المناسبة للإطاحة بها والسيطرة على ممتلكاتها، وكانت الفرصة مواتية فيما بعد، أثناء الحروب الصليبية، ولذلك لا يمكننا إخفاء ذلك الحقد الصليبي الذي ولدّته تلك الحروب، والذي ظل

1- عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين: المرجع السابق، ص68.

2- كليل صالح: المرجع السابق، ص20.

حيًا في نفوس رجال الدين المسيحيين الكاثوليك، وملوك أوربا عامة وإسبانيا خاصة[1]، هذه الأخيرة التي حملت على عاتقها مسؤولية الدفاع عن المسيحيين بعدما تمكنت من القضاء على الوجود الإسلامي من على أراضيها، وفي نفس الوقت قامت بنقل المعركة إلى بلاد المغرب الإسلامي لأول مرة منذ سنة 91هـ/710م، حيث أصبحت البلدان المغاربية في موضع دفاع وأراضيها عرضة للاحتلال بعد أن كانت منطلقًا للفتح الإسلامي باتجاه إسبانيا.

لم تنس السلطات الإسبانية للسكان المغاربة مشاركتهم المتميزة والفعالة في الفتح الإسلامي لبلادهم، على يد موسى بن نصير ومساعده الأمازيغي طارق بن زياد عام 91هـ/710م، ولم تنس أيضا المساعدات القادمة من بلاد المغرب الإسلامي في عهد المرابطين*، الموحدين** والمرينيين***، لذلك سارعت هذه المرة من أجل قطع الطريق

1- ابن غلبون: تاريخ طرابلس الغرب "المسمى التذكار في من ملك طرابلس الغرب وما كان بها من أخبار" نشره وصححه وعلّق عليه، الظاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1333هـ/1920م، ص 134.

* – من أشهر النجدات المرابطية للأندلسيين، الجواز الأول ليوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين سنة 479هـ/1086م، بدعوة من حاكم إشبيلية المعتمد بن عباد، الذي تلقى العديد من الإهانات على يد ألفونسو السادس، الذي وصلت به الجرأة أن طلب من المعتمد أن يترك زوجته تلد في المسجد الذي بناه بنفسه إذلالا له و استخفافًا بالمسلمين، وأمام الإهانات المتتالية طلب المعتمد بن عباد مساعدة يوسف بن تاشفين في التصدي للمسيحين، وقد وافق ابن تاشفين على هذا الطلب وسار بجيشه إلى الأندلس، وكان اللقاء بين الطرفين المسيحي و الإسلامي في موقعة الزلاقة الشهيرة، أين أحرز المسلمون نصرًا مبينًا كان صانعه أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، الجمعة 12 رجب 479هـ/23 أكتوبر 1086م، وبعد هذه المعركة عادت الخلافات لحكام الأندلس من جديد، حينها قرر يوسف بن تاشفين العبور مرة أخرى وكان ذلك في ربيع الأول سنة 481هـ/1088م، وبعد صدور فتوى من الفقهاء والعلماء بجوازهم السيطرة على الأندلس، قرر يوسف بن تاشفين الجواز للمرة الثالث سنة 484هـ/1091م، ثم قام بجواز رابع سنة 496هـ/1103م... للاستزادة ينظر: علي محمد الصلابي: فقه التمكين عند دولة المرابطين، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، 1427هـ/2006م، ص ص84-123؛ عبد المنعم الحميري: المصدر السابق، ص ص 288-291.

** –كما فعل من قبلهم المرابطين، حاول الموحدون مساعدة حكام الأندلسيين، بل أكثر من ذلك إلحاق الممالك الإسلامية رأسًا بحكمهم بالمغرب الإسلامي، حيث أوقفوا زحف زعماء الممالك النصرانية، وكانت قدرتهم تجلت في معركة الأرك سنة 591هـ/1195م، التي حقق فيها الموحدون نصرًا كبيرًا، جعل بعض الأمراء المسيحين يخضعون لهم ويحاربون معهم ضد بني جلدتهم، وحرروا العديد من المناطق مثل قلعة، رباح، بايرة، شلبطرة، شلب، باجة، حتى وصلوا إلى مدريد، ووادي الحجارة، إلاّ أن الدائرة كانت فيما بعد على الموحدين الذين انهزموا شر هزيمة في معركة حصن العقاب سنة 609هـ/1212م، في عهد الخليفة الناصر رابع خلفاء الموحدين، وكانت بداية النهاية لدولة الموحدين... للاستزادة ينظر: عز الدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1411هـ/ 1990م، ص ص48-56.

*** – مواصلة لجهود المرابطين والموحدين، لم يتخل أمراء الدولة المرينية عن واجبهم تجاه الأندلس، فقد أرسل السلطان يعقوب بن عبد الحق نجدة إلى سلطان بني الأحمر بغرناطة محمد الفقيه سنة 673هـ/1274م، بقيادة ابنه –يعقوب عبد الحق– أبي زيان إلى جزيرة طريف، ومنها إلى غرناطة سنة 674هـ/1275م، وقد استطاع تحرير حصن بياسة وأبدة، وحصن بالما، وحاصر إشبيلية ولم يتم له فتحها، وحاول تحرير قرطبة بعد تحرير بعض الحصون مثل: حصن الزهراء وأركونة وجيان، وانتصر المرينييون في معركة أستجة قرب قرطبة سنة 674هـ/1274م، قتل فيها قائد القتالين الدون نونيوديلار، وقد تم على إثر هذه المعركة عقد صلح بين الطرفين، إلاّ أن ابن الأحمر اتفق مع المسيحيين على مهاجمة المرينيين المرابطين بالجزيرة الخضراء وطردهم إلى بلاد المغرب ومنعهم من الجواز مرة أخرى، ودارت معركة عنيفة أسفرت عن انتصار المرينيين وفك الحصار عن الجزيرة سنة 678هـ/1279م، ثم كان جواز ثالثًا ورابعًا للسلطان يعقوب بن عبد الحق مساهمة منه في إنقاذ ما بقي من الأندلس من السقوط، إلاّ أن بعد وفاته 685هـ/1286م، تضاءلت مساهمة المرينيين فيما بعد في إنقاذ غرناطة بسبب المشاكل الداخلية والصراع حول السلطة هذا ما أضعف المرينيين وجعلهم عاجزين عن تقديم المساعدة لبني الأحمر بغرناطة... للاستزادة ينظر: عبد الكريم غلاب: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1426هـ/2005م، ص ص 261-268.

على الأندلسيين حتى لا تأتيهم المساعدات مرة أخرى كما كان في الزمن الماضي، ولذلك كان الوضع السياسي العام في إسبانيا يترجم حقيقة مدى عمق التأثير الديني الذي كان يسيطر على تفكير الإسبان؛ حكاما ومحكومين، قبل وبعد احتلال غرناطة سنة 1492م، هذا ما شجعهم وألهب حماسهم من أجل محاربة الإسلام والمسلمين مهما كلفهم الثمن.[1]

ما يمكن ملاحظته أن الدولة الإسبانية تأسست أثناء وجود دولة المسلمين بالأندلس، وبقيت تقاوم الوجد الإسلامي طيلة المدة الممتدة من 91هـ/710م إلى غاية 897هـ/1492م، فقد كان قيامها على أسس دينية صرفه[2]؛ أساسها التعصب الديني المقيت، والانتقام من كل ما يمثل الإسلام والمسلمين[*]، ومن ثم التصدي للتوسع الإسلامي حتى لا تتكرر مشاريع المسلمين لفتح الأندلس مرة أخرى، خاصة وأن فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة 857هـ/1453م، ليس ببعيد عن أذهان الإسبان، ولذلك عملوا بكل جد وعزم وثبات على استئصال المسلمين من بلادهم، ثم الزحف لبلاد المغرب الإسلامي، واضعين نصب أعينهم نقل الحرب التي كانت تجري على أراضيهم لعدة قرون من الزمن إلى الطرف الآخر، وجعل بلاد المغرب الإسلامي تحت سلطة الكنيسة الكاثوليكية والملوك الكاثوليك.[3]

1- عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص6.

2- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 71.

* - للتدليل على البعد الديني عند المسيحين وحقدهم الدفين الذي لا يمكن وصفه ننقل هذا النص لصاحبه الأسقف دون باسكوال بورونات إي براتشينا في كتابه؛ الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم، حيث قال: «...عرفت سياسة التسامح نهايتها بموت عبد العزيز وخلفه الحر الذي قاد حملة شعواء ضد المسيحيين وضد بيلايو-القس الذي قاد الحرب ضد المسلمين-جرت معركة كابا دونجا أو مغارة دونجا بين المور والمسيحيين بقيادة بيلايو، انتصر فيها هذا الأخير واعتبرها المؤرخون بذرة أو نواة حروب الاسترداد. هزمت جيوش المسلمين وقتل علقمة وانتصر بيلايو بمساعدة شرذمة من جيوشه عاهدوه على نصرة الدين والوطن ويرجع بعض المؤرخين نصره، بالإضافة إلى الظروف الطبيعية والجغرافية، إلى يقينه واعتماده على الرب وحمله لصورة العذراء القديسة إلى المغارة، استطاعت شرذمة قليلة من الرجال بقيادة بيلايو أن تحي من داخل مغارة وسط الجبال ملكًا كان على وشك الاندثار إلى الأبد، كانت تجري في عروقه دماء إسبانية وقوطية، ذلك الجيش الذي هزم أكثر من مائة شعب وأخضع كذلك الإسبان و إفريقيا وغيرهم، استطاع أن يبذر نواة دولة عظيمة سيكون لها شأن بعد ذلك: إسبانيا، كان وضعه مثل ذلك الجذع الهائل الذي قصمته حديد الحطاب، لكن قلبه النابض ونبتته بقيت حية بداخله فاستطاعت أن تقو من جديد وتترعرع ليصبح شجرة عميقة الجذور باسقة الأغصان ووافرة الظل تنعش العالم... تعتبر في الواقع شتيمة مقارنة العقيدة السمحة لأتباع بيلايو بعبارات وآيات القرآن....» للاستزادة ينظر، دون باسكوال بورونات أي براتشينا: الموريسكيون الإسبان وواقع طردهم، ج1، ترجمة، كنزة الغالي، مطابع دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1433هـ/ 2012، ص ص 51، 52.

إنه كلام يعبر بصدق عن قمة التعصب والوقاحة تجاه المسلمين، وهذا هو فكر الغالبية من الأوروبيين، خاصة ما يسمى رجال الدين، والذين لا يمثلون الدين المسيحي في شيء وهذا الفكر السائد حينذاك هو نفسه السائد الآن باسم محاربة الإرهاب والتطرف الإسلامي كما يسمونه، ناسين أو متناسين ماذا فعلوا بالمسلمين خلال الحروب الصليبية والموريسكيين وغيرهم، في كل زمان ومكان وإلى يومنا هذا، فمن يا ترى المتعصب والحاقد؟ وقد أجاب التاريخ عن ذلك فاعتبروا يا أولي الألباب!!!.

3- عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص 28.

كان زعماء الكنيسة الكاثوليكية هم مصدر الخطر والداعين للحقد والانتقام من المسلمين ومطاردتهم أينما كانوا، ومن ذلك ما أصدره البابا ألكسندر السادس «Alexandre viborgià» من مراسيم بابوية سنتي 1492م/1503م يبارك فيها إنجازات الملكين الكاثوليكيين إيزابيلا وفرديناند والحروب الصليبية*، طالبًا من جميع المسيحيين دفع ضريبة الصليب كروزادا «Crusaola» لصالح ملوك إسبانيا الكاثوليك[1]، وقد كان للكنيسة الكاثوليكية الدور الأبرز والأوضح على تفكير الإسبان حينذاك، حيث كان للمراسيم البابوية الدور الفعال في شن الحملات على السواحل المغاربية، لذلك ومباشرة بعد احتلال غرناطة بدأ التفكير جديًا في نقل الحرب من الأراضي الإسبانية إلى البلدان المغاربية الغارقة في مشاكلها وهمومها التي تكاد لا تنتهي، وكان هدف الإسبان الأكبر قطع الطريق نهائيًا أمام عودة الأندلسيين الفارين من دواوين التفتيش والاضطهاد المسيحي المتواصل ضدهم، وفي نفس الوقت عزل من بقى منهم، بهدف تعمير المدن الإسبانية وجعلها مدنًا مسيحية[2]، ومن بعدها السيطرة على بلاد المغرب الإسلامي تمهيدًا لتنصيرها[3]، وهذا ما سعى إليه الملكان الكاثوليكيان إيزابيلا وفرديناند، فقد عبر فرديناند عن ذلك بقوله: «...**أعمل لأجل الرّب، ومن أجل الديانة المسيحية الكاثوليكية المقدسة، وأعمل على محاربة أعداء الإيمان المسيحي الكاثوليكي**...»[4]، أما إيزابيلا فقد تركت وصية مفادها السيطرة على إفريقيا**، وعدم الكف عن القتال في السبيل الدين المسيحي حتى الانتصار على المسلمين[5] الذين سمتهم بالكفار.

---

* - يذهب الكثير من المؤرخين سواء المغاربة أو غيرهم إلى تسمية الحروب الإسبانية ضد بلاد المغرب الإسلامي بالحملات الصليبية؛ وهذا في الواقع مجانب للصواب ومخالف لقراءة التاريخ قراءة صحيحة وممنهجة، لأن كل المؤرخين أجمعوا على أن آخر الحملات الصليبية كانت على تونس سنة 1291م، وبالتالي عمليًا انتهت الحروب الصليبية في هذا التاريخ، ولذلك يمكننا تسمية الصراع بين إسبانيا والإيالات المغاربية بالصراع الإسلامي المسيحي على الأراضي، لأنه توجد ثلاثة أنماط من الصراع بين المسلمين والمسيحيين هي كالتالي:

-الصراع حول المقدسات؛ القدس، روما والقسطنطينية.

-الحروب الصليبية ثماني حملات صليبية.

-الصراع على الأراضي وهو مستمر إلى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة.

1- عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص 29.

2- حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2009م، ص125.

3- محمد دراج: المرجع السابق، ص 120.

4- *Braudel (F): Les Espagnoles et l'Afrique du nord de 1492-1577,R,AF, N°69 , Alger, 1928, P199.*

** - بما أن إيزابيلا تحمل حقدًا دفينًا وغير محدود للإسلام والمسلمين، كانت تريد الانتقام من سكان بلاد المغرب مهما كان الثمن، واحتلال بلادهم التي كانت منطلق الفتح الإسلامي للأندلس، وبذلك فإن قادة الكنيسة والملوك الكاثوليك لم تغب عن أذهانهم هذه الحقيقة بالرغم من مرور مئات السنين، ولذلك مباشرة ما جاءتهم الفرصة أرادوا الانتقام من سكان المغاربة لأنهم الداعمين الرئيسيين لعملية الفتح الإسلامي للأندلس.

5- محمد دراج: المرجع السابق، ص120.

اتسمت أغلب الحملات الإسبانية على بلاد المغرب الإسلامي بالطابع الديني والتعصب المقيت، ولم يكن الغرض منها التوسع والامتداد فحسب، بل الغرض الأكبر منها –على الأقل خلال القرن السادس عشر الميلادي– هو محاولة نشر الدين المسيحي في البلدان المغاربية وتنصير أهلها[1]، بكل الوسائل والطرق تحقيقًا لرغبة قادة الكنيسة الكاثوليكية وإيزابيلا وفرديناند الذين كان شغلهم الأكبر نشر المسيحية والقضاء على الخطر الإسلامي؛ المتمثل في الأندلسيين داخليًا، والمسلمين ببلاد المغرب الإسلامي خارجيًا، بل إنهم وضعوا تنصير العالم بالموازاة وفي نفس مرتبة اكتشاف الذهب[2]، وبذلك عمل الإسبان على نشر الدين المسيحي والبحث عن الثروة سواء في العالم الجديد الذي كان قد اكتشف حديثًا أو على السواحل المغاربية، مع اختلاف المكان والطريقة ورد الفعل أيضًا على مشروع الاحتلال الإسباني في المنطقتين.

أمام هذا التعصب المقيت والاعتداء الصارخ على المسلمين سواءً بالأندلس أو ببلاد المغرب الإسلامي من طرف الإسبان، كان رد فعل السكان المغاربة طبيعيًا على الهجمات الإسبانية المتتالية، وكان شعارهم الأساسي؛ رفع راية الجهاد ضد الكفار دفاعًا عن إخوانهم الأندلسيين الفارين إليهم والمستنجدين بهم، وفي نفس الوقت دفاعًا عن دينهم وأوطانهم التي أراد الإسبان السيطرة عليها، وكان السكان المغاربة ابتداءً في حالة دفاع لرد العدوان، حيث لعب الدين الإسلامي المحرك الأول لرد فعلهم هذا ونيل مرضاة الله سبحانه وتعالى وابتغاء دخول الجنة أو النصر في الحياة الدنيا.

كان الخطاب السائد في ذلك الوقت، هو الخطاب الذي يحث على الجهاد ونعت الإسبان المحتلين بالملاعين والنصارى الملاحدة[3]، حيث لا تجد كلمة إسباني غير مقرونة بكلمة كفرة السبانيول، أما الملوك الإسبان فكل المصادر المغاربية تصفهم بالطاغية[4] وصاحب إسبانيا دمره الله[5] وقلما تذكر اسمه[*]، وفي المقابل إطلاق تسمية المجاهدين على كل من يحارب المسيحيين، ومن توفى منهم يسمى شهيدًا أوجبت له الجنة في الآخر، والأسلاب

1- نيقولاي ايفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م، نقله للعربية، يوسف عطا الله، دار الفرابي، بيروت، لبنان، 1988، ص 32.

2- عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص 13.

3- مهمة دفتر، العلية رقم06، العدد 09، 994هـ.

4- محمد المنويب الفراتي الصفاقسي: المصدر السابق، ص 26.

5- ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 173.

* – يقول أبو فارس عبد العزيز الفشتالي: «...وملك الطاغية غرناطة في حدود تسعة وتسعين من المئة التاسعة لعهد المستضعفين من بني الأحمر وسكيت حلبتهم السلطان أبي عبد الله الشهير بالزغيبي واستولى بها الكفرة على الصبابة الباقية وانقرضت دولة الإسلام بالأندلس وطمست معالمها وابتز الكفر ملكها واستولى طواغيت الشرك على سائر أمصارها وقواعدها...»، للاستزادة ينظر، أبو فارس عبد العزيز الفشتالي: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، دراسة وتحقيق، عبد الكريم عبد الكريم، ...ص41

التي يتحصلون عليها تسمى غنائم[1]، حتى أن العديد من المؤلفات في ذلك العصر كانت تحث صراحة على الجهاد ضد النصارى وإعداد العدة لمواجهتهم، ومن ذلك أن البحار إبراهيم بن أحمد غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي الذي ألف كتابًا سماه: العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، والذي احتوى على خمسين بابًا كلها تحث على الجهاد وصناعة المدافع لمواجهة الكفار، وقد ألف هذا الكتاب باللغة القشتالية وترجمه إلى العربية أحمد بن قاسم بن أحمد الحجري الأندلسي.[2]

كان العلماء والفقهاء وزعماء المرابطين والشعراء يحثون الناس على الجهاد في سبيل الله والدفاع عن ديار الإسلام وفي ذلك يقول محمد أبو راس الجربي: «...**وفي يوم الجمعة استعد الكفار فصلى المسلمون صلاة الجمعة وخطب خطيبهم، بما أعد الله من النعيم المقيم للمجاهدين في سبيل الله**...»[3]، وفي ذلك أيضًا يقول ابن ميمون: «... **ولما تفاقم أمرها وثقل على المسلمين ضرها، حرض العلماء على القتال، بقصائد تشف على اللّب وتذهب بالبال، منهم الناظم الناشر الكثير المعالي و المآثر، الذي لا يدركه باعه، ولا يترك اقتفاؤه وأتباعه، السيد ابن عبد الله محمد، بن محمد، بن علي، بن سعد، بن سعيد، ابن عبد الواحد ابن يحي، ابن العباس الملقب بابن آقوجيل**...».[4]

وفي الأخير ننقل هذا النص لأحد الذين كانوا شاهدين على تلك الأحداث خلال القرن السادس عشر ميلادي، ومعاصر للسلطان العثماني سليم الثاني، وقد نقل لنا نصًا يعبر بصدق عن مدى انتشار روح الجهاد ضد الكفار المسيحيين، وهذا يتعلق بالفتح العثماني لتونس سنة 1574م، وصاحب هذا النص هو محمد بن أحمد النهرواني صاحب كتاب "كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام"، حيث قال: «... **وأما فتح حلق الوادي وبلاد تونس الغرب فهي من أجلّ الغزوات العثمانية وأعظم فتوحاتهم الكبيرة العلية الواقعة في أيام السلطان الأعظم العثماني سليم خان الثاني...وولى على ذلك سلطان تونس أحمد بن حسن الحفصي قابله الله تعالى على سوء فعله بما يستحقه فأخذ النصارى مملكة تونس ووضعوا السيف في أهلها فقتلوا الرجال وسبوا الأولاد والنساء والأطفال وباء أحمد المذكور بإثمه واسود في صحايف الأيام والليالي ديباجة وجهه**

1- عمر محمد الباروني: الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجير، طرابلس الغرب، ليبيا، 2001م، ص 27.

2- إبراهيم بن أحمد غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي: العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، ترجمة، أحمد بن حاتم الحجري الأندلسي: مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1511.

3- محمد أبو راس الجربي: المصدر السابق، ص 107.

4- ابن ميمون محمد الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 204.

واسمه، وانقلب خاسرًا مدحورًا، وانخلع عن ربقة الدين وازداد جنيّة وكفورًا، ونفرت قلوب المسلمين منه وازدادت نفورا، وكيف لا يكون ذلك وقد استعان بملة الكفر على الإسلام، واستدعى عبدة الصليب والأصنام، ينتصر بهم على أهل ملة محمد عليه أفضل الصلوات والسلام، وامتهن دار الإسلام تونس بأقدام أولئك الكفرة اللئام، والاعتصام بالله الكبير المتعال ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم... وعلم ما أصاب أهل الإسلام، من هذه المصائب العظام، اضطرمت نار حميته وتأجَّجت لهبا، وتحركت العصبية الإسلامية، والتهبت نيران الحمية العثمانية، وقام وقعد، وأرغى وأزبد، وأبرق وأرعد، وهدد وأوعد، وخاطب الوزراء العظام، والبكلاربكية الكبراء الفخام، وقال: من يقدم منكم على نصر الإسلام، وإذلال عبدة الصليب والأصنام، ويستنقذ من أُسِر من المسلمين بيد أولئك النصارى الطغاة ، ويخرج من عُهْدة الكفار الفجرة اللئام...».[1]

ويقول أيضًا نفس المؤلف في موضع آخر من كتابه الموسوم بالبرق اليماني في الفتح العثماني: «... **وقع في حدود سنة إحدى و ثمانين وتسعمائة حركة من طائفة النصارى الإفرنج دمرهم الله تعالى، وخذلهم، وزادهم خزيًا ووبالا، فعاثوا في بحر الروم ما بين جزيرة رودس والإسكندرية، وما حول تلك المراسي بالسواحل البحرية، فصاروا يأخذون من المسلمين كل سفينة غصبا، ويأسرونهم وينهبون ما يجدون من أموالهم سلبًا ونهبًا، إلى أن تعدى ضررهم على طوائف أهل الإسلام، وزاد فساد عُبَّادُ الصليب على ضعفاء المسلمين من الأنام، وأخرج «أصبانيا» الملعون جيشًا كثيفًا من النصارى، جهزهم للفساد في الأرض عنادًا واستكبارًا ...».**[2]

وبالعودة إلى الوثائق الرسمية العثمانية للإيالات المغاربية العثمانية نلاحظ بوضوح غلبة الخطاب الديني على هذه المراسلات فعادة ما يوصف الإسبان بالكفرة والمتعاونين معهم بالمرتدين المفسدين[3]، مع التشديد على استعمال الألفاظ الدالة على التعلق بالدين الإسلامي في النظرة للإسبان المعتدين ونعتهم بالكفار والدعاء عليهم بأن يخزيهم الله سبحانه وتعالى ويدمرهم.

1- قطب الدين محمد بن أحمد النهرواني: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، دار ليوبيزك، ألمانيا، 1857، ص ص 369،371.

2- قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي: البرق اليماني في الفتح العثماني تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري، مع توسع في أخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر، أشرف على طبعه، أحمد الجابر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1387هـ/1967م، ص 464.

3- مهمة دفتر، عليه 11، عدد 09، 994هـ.

من خلال ما سبق نلاحظ أن كلى الطرفين حاول أن يجعل الدين هو الأساس كدافع لمواجهة الآخر؛ فالإسبان كانوا يحملون أفكارًا متعصبة تجاه المسلمين، أساسها مطاردتهم أينما كانوا والسيطرة على أراضيهم والقضاء على الدين الإسلامي نهائيًا، حتى لا يفكر المسلمون في إعادة الكرة مرة أخرى وإرجاع الأندلس إلى حاضره الإسلام.

أما المغاربة فقد كان الدين الإسلامي مرجعًا أساسيًا في الدفاع عن بلادهم ونصرة إخوانهم من الظلم الإسباني المسلط عليهم، لذلك قامت الإيالات المغاربية على هذا الأساس ولو ابتداءً، وهدف حكامها الأسمى الدفاع عن الإسلام والمسلمين، مدعومين في ذلك من السلاطين العثمانيين، الذين قام سلطانهم على الجهاد والغزو في سبيل الله، حيث لا يكاد يسمى سلطانًا منهم إلاَّ بالسلطان الغازي، دليلا على تمسكهم بالجهاد ونصرة دين الله.

2-الدوافع الاقتصادية.

كانت الكشوفات الجغرافية سببًا مباشرًا في سيطرت الإسبان على مناجم الذهب والفضة في العالم الجديد الذي اكتشف حديثًا حينذاك، هذا ما جعل إسبانيا من أغنى الدول الأوروبية، وأكثرها فائضًا في الإنتاج، فكان لزامًا على سلطاتها البحث عن أسواق تستوعب هذا الفائض، وفي نفس الوقت البحث عن اليد العاملة الرخيصة وغير المكلفة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية إيجاد مصادر إضافية لتمويل الحروب المتواصلة داخل وخارج أوروبا، وتحقيق طموحات الملوك الكاثوليك الإسبان في السيطرة على بلاد المغرب الإسلامي.[1]

وأمام الثروة الناتجة عن الذهب والفضة في العالم الجديد التي نتج عنها فائضًا في الإنتاج، فكرت السلطات الإسبانية في البحث عن موانئ جديدة، يكون هدفها الرئيسي وضع قواعد عسكرية لحماية الأساطيل التجارية المحملة بالبضائع من هجمات البحارة المسلمين الذين جعلوا من السواحل المغاربية قواعد لانطلاقهم في جهادهم البحري، ولذلك كان احتلال هذه السواحل ضرورة اقتصادية وعسكرية يجب تنفيذها من أجل تأمين التجارة الإسبانية في البحر المتوسط[2] والمحيط الأطلسي المؤدي للعالم الجديد.

كانت الإمبراطورية الإسبانية تتبعها أراضي شاسعة موزعة على عديد من المناطق في العالم، منها نابولي، صقلية ومالطا والعديد من الدويلات الإيطالية، ومن ثم كان الاستيلاء على بلاد المغرب الإسلامي يعني السيطرة على البحر المتوسط وجزءًا من المحيط الأطلسي، ومنْع العثمانيين من السيطرة على الحوض الغربي للمتوسط،

1- محمد دراج: المرجع السابق، ص 127.

2- محمد العربي الزبيري: مدخل إلى تاريخ المغرب الحديث، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985م، ص 15.

خاصة بعد أن استطاعوا السيطرة على الليبانت «Lepante» سنة 1499م، ثم على مودون «Modon» سنة 1500م؛ ومعنى ذلك بالضرورة السيطرة على بيلوبونيز «pèloponnese»[1] ومواصلة توسعاتهم باتجاه بلاد المغرب، ولذلك حاول الإسبان التعجيل باحتلال السواحل المغاربية لعل وعسى يسبقوا العثمانيين ويقفون أمام طموحاتهم التوسعية المتزايدة حينذاك[2]، وزادهم عزيمة وإصرارًا وإغراء الموقع الاستراتيجي الهام للسواحل المغاربية المطلة على المحيط الأطلسي والبحر المتوسط، فقد شكلت هذه السواحل حلقة الوصل بين أوربا وإفريقيا والعالم الجديد وآسيا، ومنطقة لثروات وخيرات لا تقدر بأثمان، ومن سيطر عليها استطاع السيطرة على منافذ التجارة العالمية.

لعب الذهب دورًا بارزًا في دفع السلطات الإسبانية للتوجه بأرمادتها إلى السواحل المغاربية، خاصة ذهب السودان[3]، الذي حاولت إسبانيا السيطرة عليه واحتكار تجارته، وقد رأى حكامها أنه لا يتأتى لهم ذلك إلاّ باحتلال الموانئ المغاربية، لأن السكان المغاربة كانوا يقومون بدور الوسيط بين الأفارقة والأوروبيين، فأراد الإسبان إزاحة هذا الوسيط والتحكم مباشرة في التجارة القادمة من الصحراء الإفريقية[4]، خاصة وأنها كانوا في قمة قوتهم وعنفوانهم بسبب طرد المسلمين من على أراضيهم اكتشاف العالم الجديد ونقل المعارك إلى بلاد المغرب الإسلامي واحتلال بعض سواحله.

في مقابل الأهداف الاقتصادية الإسبانية كان المغاربة أيضًا لهم أهدافًا لا تقل أهمية عن أهداف الإسبان، لأن الجهاد البحري المغاربي كان عماد اقتصاد الإيالات المغاربية، التي كانت تعتمد بنسبة كبيرة في مداخيلها على العمليات البحرية الجهادية، فقد كان الجهاد البحري المورد والمصدر الرئيسي في زيادة ثروة الإيالات، وتنشيط الاقتصاد، بل هو عماد استقرار الحكم، لأن مداخيل الجهاد البحري كانت توزع على العديد من الأطراف خاصة الرياس والإنكشارية الذين هم أساس الحكم[5]، وقد تم الاعتماد على الجهاد البحري منذ البدايات الأولى للتواجد العثماني بتونس، حيث كان الأخوان عروج وخير الدين بربروس يوزعان غنائم البحر على الفقراء والمساكين، خاصة وأن الدولة الحفصية كانت تعيش أزمة اقتصادية حادة، لذلك كان سلاطينها يأخذون خمس الغنائم والباقي

1- مناطق تقع في اليونان الحالية.

2- جان كلود زليتنر: طرابلس ملتقى أوربا وبلدان وسط إفريقيا 1500-1795م، ترجمة، جاد الله عزوز الطلحي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، بنغازي، ليبيا، 1431هـ/ 2001م، ص ص 28، 29.

3-*Braudel (F): op.cit, p200.*

4- محمد دراج: المرجع السابق، ص 128.

5- شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م)، ج2، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، ص ص 334، 336.

يوزع بين الرياس والسكان المحليين[1]، وفي كل مرة عندما كانت سفن البحارة تأتي محملة بالحبوب والملح وغيرها من البضائع والسلع، توزع مباشرة على الفقراء وبسطاء الناس.[2]

كانت السلطات المغاربية تخصص نسبة ولو كانت قليلة من مداخيل الجهاد البحري للزوايا، وغيرها من المنشآت الدينية، كما أن جميع طبقات المجتمع كالبوابين، الحراس، الكيالين، باعة المزاد العلني، والحمالين وغيرهم يتقاضون أجوارًا ومكافآت بقدر عملهم من ناتج الغنائم[3]، وقد كان المنتسبون للجهاد البحري ينتمون لجميع طبقات المجتمع، من أعلى هرم السلطة الحاكمة إلى أبسط الناس، فيما كانت المناطق الساحلية هي أكبر المناطق الجالبة للعاملين في الجهاد البحري.[4]

كان اقتصاد الإيالات المغاربية يعتمد اعتمادًا كليًا على مداخيل الجهاد البحري؛ على الأقل خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ولذلك لا يمكننا إنكار فضل الجهاد البحري في نمو الاقتصاديات المغاربية، بل وساهم أيضًا في نمو أساطيل الجهاد البحري التي عمل حكام الإيالات المغاربية العثمانية على تطويرها وزيادة قطعها، يدفعهم في ذلك سببين رئيسيين هما:

1- مواجهة الأخطار الخارجية، خاصة الأوروبية منها.

2- زيادة مداخيل البلاد، من أجل استقرار الحكم، وفي نفس الوقت المحافظة على مورد هامٍ من موارد الخزينة، خاصة وأن الحكام في الإيالات المغاربية ثبت عنهم عدم اهتمامهم بالجانب الاقتصادي.

ولذلك نقول أن الجانب الاقتصادي لعب دورًا بارزًا في العلاقات بين الطرفين، وكل واحد منهما له أهدافه ومشاريعه التي يريد تحقيقها خدمة لمصالح بلاده.

3-المحنة الموريسكية.

تعتبر المسألة الموريسيكية من أهم الأسباب المؤثرة في علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا، بسبب حساسية هذه القضية التي تصدرت الأحداث في حوض المتوسط نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وإلى غاية القرن السابع عشر الميلادي، لأنها كانت تمثل قمة الصراع الإسلامي المسيحي، لذلك عبَّر الحكام المغاربة عن تعاطفهم ودعمهم للأندلسيين الموريسكيين قبل وبعد سقوط غرناطة، يدفعهم في ذلك حمية الدين الإسلامي التي توجب نصرة المظلومين من المسلمين والفارين بدينهم من الاضطهاد والتنكيل هذا من جهة، ومن جهة ثانية بحكم

1- خير الدين: المصدر السابق، ص 46.

2- نيقولاي إيفانوف: المرجع السابق، ص 101.

3- حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق، محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006م، ص 80.

4- بليل رحمونة: "موارد إيالة الجزائر المالية في مطلع القرن التاسع عشر"، كان التاريخية، دورية إلكترونية محكمة، ع13، سبتمبر2011م، ص 21.

المأساة التي تعرضوا لها على يد الإسبان[1]، خاصة وأن السلاطين العثمانيين كانوا يشددون في مراسلاتهم لحكام الإيالات المغاربية على ضرورة الاهتمام ومساعدة الموريسكيين.[2]

اختلفت أشكال الدعم المقدم لهذه الطائفة المضطهدة من المسلمين، حيث لم يدخر الحكام المغاربة وحتى السكان أي جهد لنصرة الأندلسيين؛ سواء بإسبانيا ذاتها أو عندما وصل هؤلاء إلى الإيالات المغاربية واستقروا بها وعمروا العديد من المدن والقرى[3] خاصة الساحلية منها، لتكون منطلقًا لهجماتهم ضد الإسبان، الذين كانوا يخشون عودة الأندلسيين إلى إسبانيا من أجل السيطرة عليها، بمساعدة الحكام المغاربة أمثال؛ أحمد المنصور الذهبي[4] وخير الدين وعثمان داي.

لعب الأندلسيون دورًا بارزًا في تأجيج الصراع بين الإيالات المغاربية وإسبانيا طيلة قرنين من الزمن تقريبًا، هذا فضلا عن المغرب الأقصى، الذي استقبل عددًا كبيرًا من الفارين من الأندلس، والذين كان لهم دورًا رائدًا في الجيش والبحرية المغربية أثناء مواجهة البرتغاليين والإسبان، وقد فعل الأندلسيون المهجّرون إلى المغرب ما لم تستطع القوات المحلية فعله؛ حيث استطاعوا إيقاف المد المسيحي على السواحل المغربية[5]، ثم القضاء على هذا الوجود فيما بعد.

ومن أبرز الحملات التي قادها الحكام المغاربة ضد الإسبان من أجل إنقاذ الأندلسيين؛ الحملة البحرية التي قادها أيدين رايس وصالح رايس سنة 1529م، بتوجيه من خير الدين بربروس، حيث أسفرت هذه الحملة عن إنقاذ حوالي600 موريسكي والقدوم بهم إلى الجزائر، بالرغم من الاشتباكات التي حصلت بين الأسطولين الجزائري والإسباني بمحاذاة جزر البليار.

تذكر لنا المصادر التاريخية أن خير الدين استطاع إنقاذ حوالي 70 ألف موريسكي خلال سنة 1529م وحدها، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على الدور الفعال الذي قامت به الإيالة الجزائرية في مساعدة

1- عبد الجليل التميمي: "الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين" **المجلة التاريخية المغربية**، ع23/24، تونس، نوفمبر 1981م، ص 194.

2- مهمة دفتر، رقم 23، حكم 284، 981هـ.

3- محمد بن الطيب القادري: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج1، تحقيق محمد حجي، أحمد التوفيق، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المغرب الأقصى، 1397هـ،1977م، ص ص 145، 146.

4- مجهول: تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تقديم وتحقيق، عبد الرحيم بن حادة، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، المملكة المغربية، 1994م، ص58.

5- غييرمو غوثالبيس بوستو: الموريسكيون في المغرب، ترجمة، مروة محمد إبراهيم، مراجعة وتقديم، جمال عبد الرحمان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2005م، ص27.

الأندلسيين، وإنقاذ الآلاف منهم ونقلهم إلى الجزائر[1]، هذا ما جعل أعيانهم يبعثون برسالة إلى السلطان العثماني سليمان القانوني سنة 1541م، فحواها الثناء على خير الدين وشكره على ما قدمه لهم من مساعدات، بالإضافة إلى ذكر مآثره وبطولاته.[2]

تواصلت المساعدات الجزائرية للموريسكيين طوال القرن السادس عشر الميلادي وما بعده، خاصة وأنهم كانوا يساهمون في حركة الجهاد البحري، ومن ذلك مثلا وخلال ثورة الموريسكيين ما بين 1568-1571م أعلن قلج علي تأييده لهم، من خلال تجهيزه للأسطول الجزائري، ومحاولته إنزال البحارة في الأماكن المتفق عليها مع الأندلسيين، إلاَّ أن علم الإسبان بهذا المخطط أفشل الثورة.[3]

أما الإيالة التونسية التي استقبلت أعدادًا هائلة من الأندلسيين الذين ساهموا بشكل فعال في نهضة البلاد طيلة القرنين السادس والسابع عشر الميلادين، خاصة بعد الجلاء النهائي سنة 1609-1614م، فقد وفرت لهم السلطات الحاكمة جميع الظروف الممكنة من أجل الاستقرار والعيش بسلام، وفي نفس الوقت الاستفادة من خبراتهم التي اكتسبوها في بلادهم الأصلية إسبانيا، وبذلك تفجرت مواهبهم التي كانت لصالح البلاد والعباد وخاصة في عهد عثمان داي[4]، الذي وفّر لهم جميع الإمكانيات، خاصة في مجال الجهاد البحري، حيث زودهم بالمال والسلاح وأطلق لهم العنان من أجل مهاجمة السواحل الإسبانية وغنم السفن التجارية والحربية التي تقع بأيديهم، وهذا ما شجعهم على المضي قدمًا في حربهم ضد الإسبان.[5]

ظلت القضية الموريسكية من أهم القضايا التي كان له الدور الفعال في زيادة التوتر واستمرار الصراع بين حكام الإيالات المغاربة والإمبراطورية الإسبانية، حيث عبّر حكام الإيالات عن دعمهم اللامشروط للأندلسيين؛ الذين ساهموا بدورهم في تأجيج الصراع وديمومته؛ وذلك بالمساهمة في حركة الجهاد البحري بكل فعالية، خاصة وأن منهم الكثير أصحاب الثروة الذين كانوا يملكون السفن ويساهمون في بتجهيزها بكل الوسائل الممكنة للمشاركة في

1- عبد الجليل التميمي: "رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م" **المجلة التاريخية المغربية**، ع3، تونس، 1975، ص40.

2- حنيفي هلايلي: "القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان في الجزائر خلال العهد العثماني"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، ع4، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 1426هـ/2005م، ص 244.

3- للمزيد حول هذه الثورة ومسارها ينظر: ليلى الصباغ: "ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ/ أواخر عام 1568م والدولة العثمانية" **مجلة الأصالة**، ع27، الجزائر، 1975، ص ص 117-174.

4- ابن أبي الدينار: المصدر السابق ص، 193، محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، مج2، تحقيق، علي الزواري، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988ص 90.

5- إبراهيم بن أحمد غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي: المصدر السابق، ص ص 11، 12.

الإغارة على السفن والسواحل الإسبانية بكل عزم وقوة[1]، واضعين نصب أعينهم أنهم مدعمين مباشرة من السلاطين العثمانيين والحكام المحليين للإيالات المغاربية، الذين لم يدخروا بدورهم أي جهد في سبيل نصرة الأندلسيين، خاصة حكام الجزائر الذين كانوا الداعمين الأساسيين لهم في مواجهة الإسبان.

4-التفاهمات المغربية الإسبانية.

بعد سيطرة محمد الشيخ[*] على مدينة فاس في 23 سبتمبر 1554م، أعلن أنه عازم على الذهاب إلى الجزائر لانتزاعها من يد العثمانيين، مُظْهِرًا بذلك عداءه الشديد لهم ومعارضًا لسياستهم التوسعية ببلاد المغرب، وهذا ما شجع قيام تحالف مغربي، إسباني، برتغالي ضد العثمانيين؛ خاصة بعد طلب محمد الشيخ مساعدة عسكرية من السلطات الإسبانية والبرتغالية من أجل قتال العثمانيين ووقف زحفهم[2]، وهكذا التقت مصالح الأطراف الثلاثة، بالرغم من اختلاف الدين والعقيدة والأهداف والمصالح، خاصة وأن الإيالة الجزائرية الناشئة حينذاك كانت في عداء مستمر مع الإسبان بسبب المحنة الموريسكية التي لا ندري موقف السلطان المغربي محمد الشيخ منها!!!، أم أن الرغبة في الحكم وإسقاط الوطاسيين نهائيًا حتّم عليه التحالف مع المسيحيين ضد الوطاسيين المدعمين فعلا من طرف العثمانيين.

1- محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، ط3، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1998م، ص 161.

* - محمد الشيخ: أبي عبد الله محمد الشيخ بن أمير المؤمنين أبي عبد الله القائم بأمر الله، ولد سنة 893هـ/1487م، لقب بأمغار ومعناه بلغة أهل البلاد الشيخ، ويلقب أيضًا بالمهدي، كان عالما بلغ في العلم درجة رائجة، حتى أنه كان له حواشي على التفسير، دليلاً على غزارة علمه، كان أديبًا متقنًا حافظًا، نقي الشيبة عظيم الهيبة، حافظًا لكتاب الله، عارفًا جيدًا بالتفسير كانت بيعته بالملك سنة 951هـ/1544م، ليستولي بعدها على جميع المناطق التي بيد أخيه أبي العباس من إقليم تادلا إلى وادي النون، ثم نقض العهود التي بينه وبين بني مرين، وقاتلهم حتى استولى على ما بأيديهم من الأراضي، واستطاع السيطرة على مدينة مكناس سنة 955هـ/1548م، بعد حصار ومعارك عنيفة، مع الوطاسيين، ليوجه أنظاره إلى فاس التي اقتحمها سنة 956هـ/1549م، وبعدما استقرار ملكه اتجه إلى تلمسان وسيطر عليها سنة 957هـ/1550م، ثم عاد إلى عاصمة ملكه فاس، وقد استطاع إخضاع كامل البلاد المغربية تحت حكمه، ليتفرغ إلى تنظيم شؤون الدولة وبناء المؤسسات التي تسيرها، وما زال كذلك إلى أن هجم عليه أبي حسون المريني من تلمسان وطرده من فاس، بمساعدة العثمانيين بالجزائر، وكان ذلك سنة 961هـ/1554م، إلاّ أن محمد الشيخ استجمع قواه وعاد إلى فاس، أين دارت معارك طاحنة بينه وبين أبي حسون، الذي قتل أثناء المعارك، ودخل محمد الشيخ فاس يوم السبت 24 شوال 961هـ، وقد اتسع ملكه وعلا سلطانه إلى أن دانت له الكثير من البلدان، أنجب العديد من أولاد أشهرهم مولاي محمد -الحران- الذي توفي أثناء حصار تلمسان سنة 957هـ/1550م، وابنه الوزير أبي محمد عبد القادر، أبو العباس أحمد المنصور، أبوسعيد عثمان، وأبو السعادة عبد المؤمن، وأبو حفص عمر وغيرهم، وبعد مسيرة حافلة بالإنجازات تم قتل السلطان محمد الشيخ على يد مجموعة من الأتراك الذين قطعوا رأسه بشاقور، وكان قتله يوم الأربعاء 29 ذو الحجة 964هـ/1557م... للاستزادة ينظر: محمد الصغير الإفراني: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق، عبد اللطيف الشادلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1419هـ/1998م، ص ص 62-95.

2- عبد الكريم كريم: المغرب في عهد الدولة السعدية دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، ط3، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، المملكة المغربية، 1427هـ/2006م، ص 83.

ولما استتب الحكم لمحمد الشيخ بعث له السلطان العثماني سليمان القانوني سنة 1557م بسفارة يبارك له فيها جلوسه على العرش ويطلب منه التعاون في قتال المسحيين، وفي ذلك يقول مجهول صاحب كتاب تاريخ الدولة السعدية: «... **ولما تفرد السلطان بملك المغرب ولا بقي له منازع واستقر بفاس وكان يضبط أحوالها إذ وفد عليه رسول السلطان سليم*** **وهو بعده في ملكه ويعلمه بما كان عليه بنو مرين معه من الهدايا والوداد والخدمة إليه، وأنه في نصرتهم وظهر ذلك مع آخر "ملوك" دولتهم أبو حسون الذي أعطاه أربعة آلاف من جيش الجزائر ودخل بها لفاس [فسكت عنه ولم يجبه شيء وبقي عنده] إلى أن طال جلوس الرجل وطلب منه أن يسرحه فقال له مولاي محمد الشيخ: سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له أن سلطان المغرب لابد أن ينازعك على عمل مصر ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله ويأتيك إلى مصر والسلام...**».[1]

من خلال هذا النص نلاحظ:

1- إعلان محمد الشيخ العداء للسلطان العثماني سليمان القانوني، منشوًا باتفاقه مع الإسبان والبرتغاليين.

2- انتهاكه لأعراف الدبلوماسية؛ لأنه لم يستقبل السفير العثماني بطريقة لبقة وأبدى له عدم الاهتمام به في مجلسه.

3- عدم اعترافه بسلطة العثمانيين على بلاد المغرب.

4- عدم تقديره لعواقب إعلان العداء للعثمانيين، خاصة وأن الدولة العلية كانت تمر بأزهى عصورها خلال فترة حكم السلطان سليمان القانوني.

5- اغترار محمد الشيخ كثيرًا بقوته، وإلاَّ بماذا نفسر تهديده للسفير بأن القتال يكون على مصر، ناسيًا أو متناسيا حكام الإيالتين الجزائرية والطرابلسية اللتان كانتا تحت حكم العثمانيين.

6- الاستهزاء بالسلطان العثماني والحط من قدره عندما خاطب سفيره بأنه أمير القوارب!!! وهو الذي فتح العديد من المناطق في إفريقيا وأوروبا وآسيا وهزم أكثر ملوك العالم في ذلك الوقت مثل: شارلكان الإسباني.

* – وقع المؤلف في خطأ لأن المقصود هو سليمان القانوني الذي حكم مابين 1520م–1566م وليس سليم الأول ولا سليم الثاني الذي حكم مابين 1566–1574م.

1- مجهول: المصدر السابق، ص 31.

7- غياب الذكاء والحنكة السياسية عند محمد الشيخ، الذي لم يعرف التصرف مع سفير دولة إسلامية قوية كانت تهابها جميع الدول الأوروبية، في مقابل ركونه للمسيحيين الذي كانوا يحتلون بلاده، هذا ما جلب له العديد من المشاكل في ذلك الوقت.

عرض محمد الشيخ على المسيحيين السيطرة على كامل بلاد المغرب وطرد العثمانيين منها، واضعًا نصب عينه ما قام به السلاطين السابقين عندما بسطوا سيطرتهم على كامل بلاد المغرب[1] مثلما فعل الموحدون سابقًا، متخليًا بذلك عن سياسته السابقة التي كان أساسها العمل بتعاليم الدين الإسلامي والجهاد في سبيل الله ضد الكفار.

كانت سياسة محمد الشيخ الرامية للتحالف مع المسيحيين ومعادة العثمانيين، والتقليل من شأنهم في وصفهم بسلاطين الحواتة[2]، ألّب عليه السلطان العثماني سليمان القانوني؛ الذي قرر توجيه حملة عسكرية لإسقاطه من الحكم والسيطرة على المغرب الأقصى، إلاّ أن معاونيه أشاروا عليه بإرسال من يقتله فقط بدل إهدار المال والوقت، وهذا ما جنح إليه السلطان العثماني، الذي كلف حسن باشا بن خير الدين بتنفيذ هذه المهمة، التي أسندت لصلاح كاهيا، الذي تظاهر بأنه جندي هارب من خدمة الجيش العثماني ويرغب في الانضمام للحرس العثماني الذي دخل في خدمة محمد الشيخ بعد انتصاره على الوطاسيين، وقد نجح صلاح كاهيا في مهمته واستطاع قتل محمد الشيخ أثناء زيارته لتارودانت يوم الأربعاء 27 ذي الحجة 964هـ/23 أكتوبر 1557م.[3]

هكذا تأزمت العلاقات العثمانية المغربية في بداية حكم السعديين، على عكس ما كانت عليه في عهد الوطاسيين، حيث شهدت تعاونًا حقيقيًا بينهم وبين العثمانيين، وكانت العلاقات السعدية المسيحية سببًا في زيادة توتر علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا، خاصة وأن وهران والمرسى الكبير وحتى تونس كانت خلال هذه الفترة تحت حكم الاحتلال الإسباني.

5-الأسرى.

لعب الأسرى الأوروبيون بالإيالات المغاربية والأسرى المغاربة بالإمبراطورية الإسبانية دورًا رئيسيًا في العلاقات الثنائية، لأن ظاهرة الأسر كانت إحدى المظاهر البارزة التي أفرزتها القرصنة واللصوصية الأوروبية عامة،

1- محمود علي عامر، محمد خير فارس: المرجع السابق، ص ص 44، 45.

2- محمد الصغير الإفراني: المصدر السابق، ص 42.

3- مجهول: المصدر السابق، ص ص 31، 33، عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص 86.

والإسبانية والإيطالية خاصة، هذا من جهة، والجهاد البحري الإسلامي عامة والمغاربي خاصة من جهة ثانية، خلال الفترة الممتدة من 1492م إلى غاية 1816م.

اختلف مفهوم القرصنة والجهاد البحري، فالأوروبيون يعتبرونها لصوصية وقطع طريق وعمل غير شرعي يجب محاربته، أما المسلمون فيعتبرونه جهادًا بحريًا وواجبًا شرعيًا للدفاع عن الإسلام والمسلمين الذين انتهكت حرماتهم، خصوصًا بعد سقوط غرناطة بيد الإسبان، وهو شكل من أشكال الدفاع عن النفس وردٌ طبيعي نتج عن فعل المتعدي -الأوروبيون-ومظهرًا من مظاهر الرفض الرسمي للهيمنة المسيحية* وتهديداتها[1] الرامية للسيطرة على العالم الإسلامي ومقدراته، بعد نكسة ضياع الأندلس.

لعبت السلطات الإسبانية رفقة السلطات الفرنسة دور الوصي على بقية الدول الأوروبية فيما يخص قضية الأسرى، وعادة ما كانت تثير هذه القضية وتتهم حكام الإيالات المغاربية باستعبادهم ومعاملتهم معاملة سيئة لا تليق بمقام الإنسان الأوروبي، وفي هذا الخصوص يقول جون وولف: «... **ويخبرنا الدكتور أندرهيل بأنه كان قد جُرِّد من ملابسه إلاّ ما يستر عورته وعُرض للبيع رفقة الإبل، البغال، الماعز، الأرانب، المهاري والنساء والرجال وغير ذلك من المخلوقات إما لإشباع الشهية أو للاستعمال...**».[2]

حاول الأوروبيين دائمًا إعطاء صورة قاتمة عن أوضاع أسراهم بالإيالات المغاربية، وتصوير معاناتهم اليومية، خاصة القساوسة والرهبان من أجل جمع المال لافتدائهم وتخليصهم من الأسر، هذا ما زاد من إعطاء نظرة سيئة عن الأوضاع في بلاد المغرب، ووصف البحارة بالهمجية والوحشية، هدفهم الانتقام من كل ما هو أوروبي، وهذا ما نستشفه من خلال عديد الكتابات الأوروبية التي حاولت تضخيم معاناة الأسرى الأوروبيين، ومن ذلك ما نقله توللي؛ وهو أحد المعاصرين لتلك الأحداث حيث قال: «**...وفي البقعة التي يبدو فيها هؤلاء الناس التعساء تُربط أرجلهم بحلقات من حديد من رسغ القدم، بسلسلة طويلة أو قصيرة، خوفًا من أن تسول لهم أنفسهم الهروب...أما أولئك الذين لا يقدرون على القيام بذلك ولا يعرفون صناعة أو حرفة، فإنهم يستخدمون بقساوة شديدة فتصبح حياتهم كلها عسر، وعملهم مضنٍ، يكدّون النهار كله، وعندما يجنُ**

* -كان ولا زال هذا صراعًا حضاريًا بين مشروعين مختلفين تمامًا، وهو امتداد لذلك الصراع القائم منذ فتح بلاد الشام في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه سنة 17هـ، ونهاية الوجود الروماني بهذه المنطقة، ثم سقوط الإمبراطورية الفارسية التي ورثتها الدولة الإسلامية وأخذت مكانها في الصراع بين الشرق والغرب، ليأتي الدور على الأمويين ثم العباسيين وإلى غاية ظهور العثمانيين على مسرح الأحداث العالمية كرافعين لراية الإسلام و الجهاد وحاملين على عاتقهم مسئولية الدفاع عن الحضارة الإسلامية في مواجهة الحضارة المادية الأوروبية، وكان صراعًا مريرًا و طويلا ومازال مستمرًا إلى يوم الناس هذا.

1- حنيفي هلايلي: بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م، ص 68.

2- جون وولف: المرجع السابق، ص 210.

الليل يوضعون في سجون عامة بدون سقوف، يفترشون الأرض الجرداء، ويلتحفون السماء، يتعرضون لأقسى أنواع البرد الشديد، ويغطسون في بعض الأحيان في الأوحال والمياه...يقوم الرقيق في المدينة بأحط وأقسى أنواع العمل، بينما هم مضطرون في الريف، بعض الأحيان، أن يجروا المحاريث بدلاً من الخيول، وهم في كل الاعتبارات الأخرى لا يعاملون معاملة إنسانية ويعاقبون عقابًا صارمًا إن هم سخروا الحيوانات خلسة في أعمالهم...».[1]

من خلال ما سبق نلاحظ أن الأوروبيين عادة ما يتهمون المغاربة خصوصًا والمسلمين عمومًا بسوء معاملة الأسرى؛ مع أن الإسلام حرم الإساءة إليهم مهما كان نوعهم وجنسهم والأعمال التي قاموا بها، ونظر للأسرى نظرة العطف والرحمة وحماهم من كل أنواع الإهانة والذل والمعاملة االسيئة، وأمر بمعاملة الأسرى بالعدل والإحسان والرفق بهم، لأنه نظر إليهم كإنسان يجب حفظ كرامته[2]، بصرف النظر عن دينه ومعتقده، خاصة وأنه جُرّد من كل الوسائل الممكنة للدفاع عن نفسه، وهذا في الحقيقة لم يثبت عند أي دين أو جنس سوى الإسلام والمسلمين.*

مقابل هذه الادعاءات، هناك الكثير من الأسرى الأوروبيين بالإيالات المغاربية أقروا بحسن المعاملة وطيب العيش في بلاد المغرب، بالرغم من اختلاف الدين والمعتقد والعداء المستمر بين المسلمين والمسحيين**، ومن أمثلة ذلك تيدنا الذي أَقَرَّ أن الجزائريين عاملوه معاملة حسنة قلما نجدها عند الأوروبيين في ذلك الوقت، وفي ذلك يقول: «... **فلم نعامل معاملة سيئة من طرف القراصنة*** مثلما كنا ننتظر، وبالتالي لم يجرح منهم أحد فقد كانوا إنسانيين بعض الشيء طيلة الأربعة أيام التي قضيناها للوصول إلى الجزائر...بعث إلي بالحضور إليه وأمرني بالاقتراب منه، وقال لي هذه العبارات بحنان فريد من نوعه، لقد اشتريتك لتكون عبدًا لي وفي**

1- ريتشارد توللي: عشر أعوام في طرابلس، ترجمة، عبد الجليل الطاهر، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، ليبيا، ص ص 167، 168.

2- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 183.

* – قال الله تعالى «**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**» الآية 70 من سورة الإسراء وهنا واضح أن التكريم كان للإنسان عامة بصرف النظر عن دينه وقربه من الله أو بعده، ومن هذا المنطلق كان المسلمون يتعاملون مع الأسرى مهما كان جنسهم ودينهم.

** – دائمًا ما تكتب المصادر والمراجع الأوروبية عن المآسي التي تعرض لها المسيحيون على أيدي المسلمين عبر تاريخ الصراع الطويل بين الطرفين، إلا أنهم يتناسون ما قام به أسلافهم ضد المسلمين في كل زمان ومكان، وما مأساة الأندلسيين ببعيدة عن هذه الأحداث التي نتكلم عنها، خاصة وأنهم عمدوا إلى تشويه وتزوير التاريخ الإسلامي بالأندلس، محملين المسئولية للعرب والمسلمين الفاتحين، الذين قاموا بنشر الدين الإسلامي والقيام بنهضة علمية لم تشهد لها الدول الأوروبية مثيلا قبل سنة 1492م تاريخ سقوط غرناطة وتواصل محنة المسلمين بعد ذلك؛ سواء الفارين بدينهم وعقيدتهم أو سكان بلاد المغرب الذين ذاقوا العذاب الأليم على يد الإسبان المحتلين، وهو ديدن كل محتل وظالم عبر التاريخ الإنساني الطويل.

*** – بالرغم من اعتراضنا عن هذا اللفظ إلاّ أننا وللأمانة العلمية ننقل النص كما جاء في الكتاب.

خدمتي، ولكني إذا كانت سيرتك حسنة فلا ينظر إليك كذلك، لقد تعجبت من حديث الباي أكثر من أي شيء حدث لي لحد الآن، لم أتمكن من الإدراك كيف منحني كل هذه الفضائل من الوهلة الأولى، هكذا كان علينا أن نعترف وأن أقول وداعًا لبلد كنت به سعيدًا جدًا...».[1]

نقلنا هذه الشهادة كأنموذج لما كان يعيشه أغلبية الأسرى في بلاد المغرب، لكن لا يمكن تعميم هذه الشهادة على كامل الأسرى بالإيالات المغاربية، ونحن هنا لسنا لننزه الحكام المغاربة من بعض الممارسات التي لا تمت للإسلام بصلة، ولسنا أيضًا نتكلم عن دول فاضلة يتضاءل فيها الخطأ والمعصية لأقل درجة، بل نريد التدليل أنه ليس كل ما نقله الأوروبيون عن العثمانيين والمغاربة صحيح، وهناك الكثير من التشويه والتزوير طال هذه الفترة من التاريخ المشرف خلال العصر الحديث[*]، فهل هذه الشهادة كافية لتدليل على حسن معاملة الأسرى التي أقرها الإسلام، ونفذها محمد بن عثمان الكبير[**]، والكثير من الناس بالإيالات المغاربية؟ أم أن المعاملة خاصة بالأسير تيدنا لأنه كان مثقفا والباي يمثل أعلى سلطة في الجزائر؟ أم أن الأسرى في أغلبيتهم كانوا يعاملون معاملة حسنة؟ وهل هذه المعاملة يمكن مقارنتها بما كان يفعله الإسبان ودواوين التفتيش بالمسلمين، سواء بإسبانيا ذاتها أو حتى ببلاد المغرب حين احتلالها؟ لكن الواقع أثبت أن الأندلسيين الموريسكيين لم يعطوا لنا أي إشارة تدل على أن

1- عميراوي أحميدة: الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجًا)، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر 2003م، ص ص 46، 58، 59، 128.

*- هناك الكثير من أتباع المدرسة الكولونيالية يريدون تشويه وتزوير التاريخ الحديث للجزائر خصوصا، والإيالات المغاربية عمومًا، ولهم العديد من الكتابات التي تصب في هذا الجانب، ولذلك لا يؤتمن جانبهم لأن هدفهم تسميم أفكار الأجيال القادمة، وإعطاء صورة سلبية وقاتمة عن العثمانيين، الذين لا نريد تبرئتهم أو الدفاع عنهم بدون دليل، فكما لهم إيجابيات لهم أيضًا سلبيات، لكن الواقع يقول أنهم حموا البلاد والعباد من الخطر المسيحي، بل لهم الفضل في محافظة المغاربة على دينهم وأرضهم إلى يومنا هذا، ولذلك ندعوا إلى الاعتماد على رواية الجرح والتعديل من أجل تنقية التاريخ من الشوائب والافتراءات وأخذ هذا الأمر من عند أهل الحديث، الذين سبقونا إلى ذلك، واستطاعوا كشف كل مزور وكذاب ومدلس، وبذلك استطاعوا تنقية أغلبية الروايات وتصنيفها التصنيف الصحيح.

- ولد الباي محمد بن عثمان بالكبير بمليانة ما بين 1734-1737م، كان ولده عثمان الكردي باي التيطري، وأمه تدعى زايدة كانت جارية ببلاط مولاي إسماعيل سلطان المغرب الأقصى، ولما قتل والده عثمان الكردي في معركة ضد أولاد نايل، حظى محمد الكبير وأسرته برعاية صديق والده الباي إبراهيم، الذي صار بايا للتيطري ثم بايا للغرب الجزائري سنة 1759-1760م، وكان محمد الكبير يحظى بثقة الداي إبراهيم لخصاله الحميدة، وازداد قربا إليه بالمصاهرة، حيث زوجه ابنته فاطمة وأشركه في إدارة البايلك، وتدرج في المناصب إلى أن صار بايا للغرب الجزائري سنة 1779-1797م، وخلالها سجل الباي العديد من الإنجازات، قال عنه أبو راس الناصري «...ذي المقام الذي أطلعت أزهاره غمائم جوده، واقتضى اختياره بركة جوده، الملك الأصيل الذي كرم منه الإجمال والتفصيل الرفيع الشأن، السيد محمد باي بن عثمان أخلص الله جهاده ويسر في قهر أعداء الدين مراده بأبسط العدل والأمان، الرفيع المجاهد المرابط...»، للاستزادة ينظر، محمد أبو راس الناصري: فتح الإله ومنته...، المصدر السابق، ص 100؛ بلبراوات بن عتو: "الإصلاح الثقافي للباي محمد الكبير في مدينة معسكر"، **حولية المؤرخ، ع3/4، الأبيار، الجزائر، 2003م، ص 197؛

Gorgouos: Notice sur le bey D'Oran Mohammed Elkebir ,R,Af,N°1,Alger, 1856,pp 403-406

مسئولاً إسبانيا واحدا عاملهم معاملة حسنة، سواءً في بلاده أو عند احتلال بلاد المغرب، وهذا ما نقره إلى أن يثبت العكس من المصادر التي لم نطلع عليها بعد.

لا يمكننا إعطاء أرقام دقيقة أو إحصائيات تقريبية عن عدد الأسرى الإسبان بالإيالات المغاربية خلال ثلاثة قرون من الزمن تقريبا (1520-1791م) وذلك لأن عددهم غير ثابت، ويختلف من قرن إلى آخر ومن فترة إلى أخرى، نتيجة لعدة عوامل، نذكر منها:

- طبيعة العلاقات المغاربية الأوروبية؛ فكلما توترت العلاقات كلما زاد عدد الأسرى.
- طبيعة العلاقات الأوروبية العثمانية كلما توترت العلاقات كلما زادت الهجمات المغاربية على الدول الأوروبية وبالتالي زيادة عدد الأسرى والعكس صحيح.
- قوة الإيالات المغاربية؛ فكلما كانت الإيالات في أوج قوتها كلما زاد عدد الأسرى، وكلما ضعفت قل عدد الأسرى.
- المشاكل الداخلية للإيالات المغاربية والدول الأوروبية أثّرت في عدد الأسري، فكلما استقرت الأوضاع الداخلية زادت الهجمات من كلى الطرفين وزاد عدد الأسرى، والعكس صحيح.
- طبيعة الحكام؛ فهناك حكام لا يرغبون في توتر العلاقات خدمة لمصالحهم الخاصة، وبذلك تقل الهجمات، ويقل عدد الأسرى وهناك حكام يحبذون الظهور وتوتر العلاقات وبالتالي يتزايد عدد الأسرى نتيجة الصراع بين الطرفين المغاربي والأوروبي.
- لعبت الاتفاقيات والمعاهدات دورًا رئيسيًا في ارتفاع ونقصان عدد الأسرى، لذلك كان حكام الدول الأوروبية يلجئون إلى إمضاء المعاهدات مع حكام الإيالات المغاربية للحفاظ على تجارتهم وضمان مصالحهم وتقليل عدد أسراهم.

نتيجة لهذه العوامل تباين عدد الأسرى؛ سواء المغاربة بإسبانيا خصوصًا والدول الأوروبية عمومًا، أو الأسرى الإسبان بالإيالات المغاربية عمومًا، وفي كل إيالة منفردة أيضًا، فقد بلغ عددهم بالإيالة التونسية سنة 1650م حوالي 10.000 أسير كانوا يتوزعون على9 سجون، وكان الهدف الأساسي من أسرهم الاتجار بهم أو مبادلتهم بالأسرى المسلمين في سجون الأوروبيين[1]، خاصة وأن هذا الرقم يمثل جميع الأسرى المسيحيين وبدون استثناء، أما في الإيالة الطرابلسية فقد بلغ عددهم سنة 1671م حوالي 1559 أسير من جميع الجنسيات الأوروبية، موزعين في السجون الطرابلسية، كما يلي:

1- أندريه ريمون: المرجع السابق، ص 42.

- السجن القديم 490 أسير.
- السجن الجديد 474 أسير.
- سجن القديس ميشل (سجن الترهين) 475 أسير.
- أسرى القلعة وأسرى بيوت خاصّة الناس 120 أسير.[1]

فيما كان عددهم في الجزائر خلال القرن السادس عشر الميلادي حوالي 25.000 أسير من جميع الدول الأوروبية[2]، كان أسْرهم ناتجا عن معارك بين الطرفين مثلما حدث في حملة شارلكان على الجزائر حيث قدرت خسائره بـ 12 ألف بين غريق وقتيل وأسير[3]، فيما بلغ عدد الأسرى الإسبان سنة 1555م بعد غزو حسن بن خير الدين لجزر البليار حوالي 6 آلاف أسير[4]، أما عدد الأسرى الأوروبيين فبلغ سنة 1580م حوالي 25 ألف أسير.[5]

أما في القرن السابع عشر الميلادي والذي عرف بقرن الجهاد البحري الجزائري، بسبب القوة التي وصل إليها الأسطول الجزائري الذي كان يجوب المتوسط طولا وعرضا، حتى وصل إلى المحيط الأطلسي، لذلك عرف عدد الأسرى ارتفاعا محسوسا نتيجة لانتعاش الجهاد البحري الجزائري، ففي الفترة الممتدة من 1607م إلى 1618م قدر عدد الأسرى بحوالي 12329 أسير، أما خلال الفترة الممتدة من 1621م إلى 1627م أَسَرَ الجزائريون ما مجموعه 20 ألفا كانوا موجودين بمدينة الجزائر[6]، وقدر عددهم سنة 1634م بـ 25 ألف أسير وارتفع العدد سنة 1635م إلى 30 ألف أسير[7]، ليبلغ عددهم سنة 1662م 21 ألف أسير.[8]

مع مطلع القرن الثامن عشر الميلادي بدأ عدد الأسرى في التراجع؛ نتيجة لضعف البحرية الجزائرية وبداية ظهور دولتان قويتان مثلتا فيما بعد نواة الاحتلال المعاصر، وهما إنجلترا وفرنسا، فيما بدأت إسبانيا تتراجع فاسحة لهاتين الدولتين، تماما كما بدأ تراجع دور الجزائر في المتوسط.

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص ص 168، 169.

2- أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعالياته ...، المرجع السابق، ص 97.

3- *Haédo (F.De): Histoire Des Rois D'Alger، Traduit Par H.D.DE Grammont, Adolphe Jourdan, Libraire Editeur, Alger, 1881. p490.*

4- أحمد توفيق المدني: حرب ثلاثمائة سنة ...، المرجع السابق، ص 275.

5- ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية –دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني-، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000، ص 569.

6- وليام سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم، عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000م، ص 173.

7- حنيفي هلايلي: القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان...، المرجع السابق، ص 69.

8- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 569.

مع مستهل القرن الثامن عشر الميلادي -1700م-بلغ عدد الأسرى 10 آلاف أسير[1] لينخفض العدد ما بين سنتي 1724-1725م إلى 2000 أسير، ويبقى هذا العدد مستقرا إلى غاية 1750م أين يرتفع إلى 7 آلاف أسير.[2]

خلال فترة حكم محمد بن عثمان باشا -الذي عمل على تقوية الأسطول البحري- زاد عدد الأسرى الأوروبيين في الجزائر، وفي ذلك يقول أحمد الشريف الزهار: «... **وفي أيامه كثر الرؤساء في البحر وكانت لمراكبه سمعة، ومن أكبر رؤساء عصره الحاج محمد قبطان وكان له صيت في البحر، ومما وجد مقيدا في دفاتر الرؤساء أن هذا القبطان أتى بأسارى في مدة سفره في البحر ما مجموعه 24 ألف أسير من مجموع الأسرى المسيحيين فيما بلغ الأسرى الإسبان وحدهم حوالي 10 آلاف أسير...**»[3]، وقد اتفق مع الزهار محمد بن عبد القادر الجزائري صاحب تحفة الزائر، والذي أكد هذه الرواية -ربما يكون قد نقلها عن الزهار- حيث قال: «... **ولما تولى محمد باشا المجاهد أكثر من غزو ثغورها** (إسبانيا) **حتى لجأ أهلها إلى الجلاء والفرار إلى الداخل، وقد اجتمع منهم 10 آلاف أسير...**».[4]

في عام 1783م قرر الملك الإسباني كارلوس الثالث تجهيز حملة بحرية لغزو الجزائر، وأسند قيادتها إلى الضابط الدون أنطونيو بارسللو، فلما علم محمد بن عثمان باشا بهذه الحملة، قرر ترحيل الأسرى المسيحيين من مدينة الجزائر كي يأمن عدم ثورتهم وتعاونهم مع الإسبان، وقد قدر عددهم بحوالي 1548 أسير، فيما أبقى معه

1- وليام سبنسر: المرجع السابق، ص 133.

2- حنيفي هلايلي: بنية الجيش...، المرجع السابق، ص 69.ب

*- تولى الحكم بعد وفاة علي بوصبع بتاريخ 29 شعبان 1179 هـ الموافق لـ 08 فيفيري 1766م، كان منصفا محبا للعدل ملتزما بأحكام الشريعة، عارفا بقوانين الحكم، تقلد منصب الخزناجي، تولى منصب الداي دون منافسة، فقد بايعه آغا السبايهية والأعيان والعلماء، قال عنه الزهار : «... وكان لباسه ما يستر به جسده، وطعامه ما يشبع به بطنه، وفي كل سنة كان يبعث حوائجه (ملابس) للخياط ليرقّعها ولا يفصل ثوبا إلا إذا لم يجد كيف يرقع القديم، ومن عادة الملوك ووزرائهم أن يحملون اليطاغات (نوع من السيوف) من الذهب وقت اجتماعهم في الحكم مع الأمير، وحين يذهبون معه للصلاة وقت انفصال الحكم (انقضاء المجلس) يذهبون لبيوتهم لكن هذا الأمير كان يحمل يقطانا من الفضة، ولو ما جرت به العادة ما كان يحمله أصلا، توفي يوم الثلاثاء 09 ذو القعدة 1205هـ الموافق لـ 12 جويلية 1791م...»، للاستزادة ينظر، أحمد الشريف الزهار: مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، تحقيق، أحمد توفيق المدني، عالم المعرفة للنشر و التوزيع الجزائر 2010 م، ص 39؛ بلبراوات بن عتو: "الداي محمد بن عثمان باشا وسياسته 1766-1791م"، **مجلة عصور**، ع6/7، جامعة وهران، الجزائر، جوان/ ديسمبر 2005م، ص ص 89، 90؛ أحمد توفيق المدني: محمد بن عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص ص 101، 102.

3- أحمد شريف الزهار: المصدر السابق، ص 39.

4- محمد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج1، شرح وتحقيق، محمود حقي، ط1، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، سوريا، 1384هـ/1964م، ص ص 109، 110.

304 أسير ليقوموا بالخدمات المطلوبة[1]، أما سنة 1789م فقد بلغ عددهم حوالي 2000 أسير حسب رواية فونتير دي بارادي «Venture de Paradis» الذي زار الجزائر في هذه السنة.[2]

من أهم الحكام الذين اهتموا بالأسرى المسلمين بإسبانيا ومالطا وعديد الدول الأوروبية نجد السلطان المغربي مولاي إسماعيل الذي أرسل سفارة إلى الملك الإسباني كارلوس الثاني* يطلب منه مبادلة الأسرى المسلمين بالأسرى النصارى في المغرب[3]، بالإضافة إلى إرجاع مجموعة من الكتب قدرت بحوالي 5.000 كتاب من نفائس الكتب المغربية والإسلامية التي هُربت إلى إسبانيا خلال عهود سابقة، والموجودة في خزائن إشبيلية وقرطبة وغرناطة والكثير من المدن الإسبانية الأخرى[4]، بالإضافة إلى السفارة التي أرسلها السلطان المغربي محمد بن عبد الله بقيادة محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي إلى البلاط الإسباني سنة 1193هـ/1778م من أجل إطلاق سراح الأسرى المسلمين الموجودين في إسبانيا، ليقوم فيما بعد بوساطة بين السلطات الجزائرية والإسبانية من أجل مبادلة أسرى الطرفين وهي المهمة التي نجح فيها.[5]

من خلال اطلاعنا على هذه السفارات وجدنا أن السلاطين المغاربة كانوا يهتمون بجميع الأسرى المسلمين بصرف النظر عن انتمائهم ومذاهبهم، وهذا دليلاً على الوحدة الإسلامية، التي كان يسعى إليها هؤلاء الحكام وتفكيرهم في مصير المسلمين الذين كانوا يتعرضون إلى أبشع أنواع التعذيب والممارسات القاسية، انتقامًا منهم ومحاولة من الإسبان خاصة والأوروبيين عامة للضغط على الحكام المسلمين من أجل إطلاق سراح أسراهم أو مبادلتهم.

1- يحي بوعزيز: المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780-1798م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص 24.

2-*De Paradis (Venture): Alger au XVII E Siècle, Alger, Typographie Adolphe Jourdan place du Gouvernement, 1898,p03.*

* - كارلوس الثاني: شارل الثاني، حكم ما بين (1661-1700) م، ملك إسبانيا ودوق لوكسمبورغ (1665-1700)م وكونت بورغونديا (1665-1678)م، وكان آخر ملوك الهابسبورغ على إسبانيا وحاكم أجزاء كبيرة من إيطاليا والأراضي الإسبانية بالأراضي المنخفضة، عرف بإعاقته البدنية والفكرية بالإضافة إلى دوره في التطورات التي سبقت حرب الوراثة الإسبانية التي دامت من (1701، 1714م).

3- محمد الغساني الأندلسي: رحلة الوزير في افتكاك الأسير (1690-1691م)، حررها وقدم لها، نوري الجراح، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2002م، المصدر السابق، ص 84.

4- مولاي عبد الرحمان بن زيدان: المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل الشريف، تقديم وتحقيق، عبد الهادي التازي، مطبعة إديال، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1413هـ/1993م، ص 191.

5- محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي: رحلة المكناسي (1785م)، حققها وقدم لها، محمد بوكنبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2003، ص ص 330، 331.

يمكننا القول أن الأسرى الأوروبيين في بلاد المغرب الإسلامي والأسرى المغاربة في إسبانيا لعبوا دورًا هامًا ورئيسيًا في توتر العلاقات المغاربية الإسبانية، نظرًا لأعدادهم الهائلة في كلتا المنطقتين، حيث لعبت القرصنة الأوروبية دورًا بارزًا في هذه القضية لما لها من أهمية في اقتصاد العديد من الدول الأوروبية ومنها إسبانيا، فيما لعب الجهاد البحري دورًا أكثر أهمية في بناء اقتصاد الإيالات المغاربية، لأنه يمثل المورد الرئيسي للخزينة، هذا بالإضافة إلى أنه وسيلة ضغط على الأوروبيين الذين كانوا يسعون دائمًا لاحتلال بلاد المغرب.

6-الاحتلال الإسباني لبعض السواحل المغاربية.

كان لاحتلال الإسبان للسواحل المغاربية دورًا هامًا في زيادة حدة التوتر بين الإيالات المغاربية وإسبانيا، خاصة خلال القرن السادس عشر، حيث ابتدأ الصراع أولاً بين الإيالة الجزائرية وإسبانيا، مباشرة بعد أن استطاع خير الدين تثبيت الحكم العثماني بالجزائر سنة 1520م، ليتحمل من بعدها حكام الإيالة الجزائرية الحديثة على عاتقهم مسئولية تحرير الأراضي الطرابلسية والتونسية من الاحتلال الإسباني، بالإضافة إلى المرسى الكبير ووهران، لتتمكن الدولة العلية العثمانية بالتعاون مع حكام الجزائر من تحرير طرابلس الغرب سنة 1551م[1]، وبذلك تأسست الإيالة الطرابلسية لتتوجه أنظار العثمانيين إلى تونس التي بقي الصراع منحصرًا حولها إلى غاية تحريرها نهائيًا سنة 1574م[2]، وانضمامها للدولة العلية العثمانية، حيث بقي حكام الجزائر يحاولون تحرير المرسى الكبير ووهران إلى غاية أن تحقق لهم ذلك نهائيًا سنة 1791م.

في مقابل ذلك حاول الحكام المغاربة نقل المعارك إلى السواحل الإسبانية والإيطالية انتقامًا من الإسبان، ومحاولة نقل الرعب إلى خصومهم، لعلهم يتراجعون عن مخططاتهم الرامية لإبقاء المناطق المحتلة تحت سيطرتهم، وفي نفس الوقت تحقيق هدفين رئيسيين هما:

- الرد بالمثل وضرب الإسبان في عقر دارهم والبرهنة على جاهزية المغاربة في التصدي للعدوان الإسباني.
- إثبات قوة وعزيمة المغاربة حكامًا ومحكومين والقدرة على إفشال المخططات الإسبانية في بلاد المغرب؛ بالرغم من الضربات المتتالية التي تلقوها على يد الإسبان والخسائر الفادحة التي تكبدها.

1- إتوري روسي: طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا، ترجمة وتقديم، خليفة محمد التليسي، مؤسسة الثقافة الدينية للتأليف والترجمة والنشر، طرابلس، ليبيا، 1969م، ص63.

2- محمود علي عامر، محمد خير فارس: المرجع السابق، 155.

7-الصراع العثماني الإسباني.

مباشرة بعد انضمام بلاد المغرب الإسلامي إلى الدولة العلية العثمانية، وتأسيس الإيالات الثلاثة؛ الإيالة الجزائرية، الإيالة الطرابلسية والإيالة التونسية، لذلك أصبح حكام هذه الإيالات يمثلون مصالح الدولة العلية في الحوض الغربي للمتوسط، والرادع الأول للإسبان، خاصة الجزائر بعد الانتصارات التي حققها مؤسسها الأول خير الدين ومساعدة الأندلسيين ونقلهم إلى السواحل الجزائرية، وبذلك أصبحت عاصمة المغرب الإسلامي بالنسبة لسلاطين الدولة العلية، وجبهة صراع متقدمة ضد الإسبان في الحوض الغربي للمتوسط.[1]

وقد تركزت العلاقات المغاربية العثمانية على ثلاثة دعائم أساسية، هي:

1- إلهاء الأساطيل الأوروبية عامة والإسبانية على وجه الخصوص عن المشاركة في الحروب العثمانية الأوروبية.[2]

2- مساعدة الأندلسيين وإنقاذهم من بطش الإسبان، وفي نفس الوقت نقلهم إلى بلاد المغرب والتكفل بهم.

3- تحرير ما تبقى من الأراضي المغاربية وطرد الإسبان منها.

ونظرًا لوجود رابطة الدين الإسلامي بين العثمانيين والمغاربة وتبعية الإيالات المغاربية إلى السلاطين العثمانيين كان لزامًا اشتراك الأساطيل المغاربية في رد عدوان الأوروبيين على الأراضي العثمانية، أو المشاركة في فتح عديد الأراضي الأوروبية، حيث لعبت البحريات المغاربية دورًا بارزًا في الفتوحات العثمانية، فقد كانت تسارع في الاستجابة لدعوات السلاطين العثمانيين إذ طلب من قادتها المشاركة رفقة الأسطول العثماني في الفتوحات أو رد العدوان، خاصة ضد الإسبان في غرب المتوسط.[3]

بما أن العثمانيين أقاموا دولتهم العلية على أساس الجهاد ومواصلة الفتوحات الإسلامية، كان لزامًا التصادم مع القوى الأوروبية المعارضة لهم؛ التي عملت جاهدة لتشكيل أحلاف لمواجهة المد العثماني المتزايد، ومن ثم إعادة الزحف باتجاه الأراضي العثمانية ذاتها، وهذا ما حدث خاصة في النصف الثاني من القرن السابع عشر وما بعده، هذا ما حتم على السلاطين العثمانيين الاستنجاد بحكام الإيالات المغاربية لمواجهة الأخطار الأوروبية، الذين حاولوا بكل ما لديهم من قوة تفكيك الدولة العلية واقتسام ممتلكاتها، بالرغم من الاختلافات المذهبية والمصالح والصراعات المتواصلة بينهم، إلاّ أن الخطر الإسلامي كان كافيًا من أجل استنفار البابوات وأباطرة وملوك

1- رقية شارف: "تشكل الكيانات السياسية للمغرب العربي في إطار الدولة العثمانية الفترة الحديثة"، **مجلة الدراسات التاريخية**، ع13، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 1433هـ/2011م.ص 135.

2- مهمة دفتر، علية 11، عدد 158، 993هـ.

3- مهمة دفتر، علبة 18، عدد 277، 979.

أوروبا وحثهم على التعاون فيما بينهم وإنهاك العالم الإسلامي بالهجمات المتواصلة تارة، وبالدسائس والمؤامرات وشراء الذمم تارة أخرى، ومع ذلك كان الحكام المغاربة في عديد المرات يتصدون لهذه المؤامرات بكل حزم وقوة معلنين وقوفهم في وجه كل محاولة رامية لإسقاط الدولة العلية العثمانية، وهذا ما أججّ الصراع المغاربي الإسباني خاصة والمغاربي الأوروبي عامة.

الباب الأول

علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا خلال القرن (10هـ/16م)

الفصل الأول

العلاقات بين الإيالة الجزائرية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (10هـ/16م)

أولا: الصراع بين حكام الإمبراطورية الإسبانية وحكام المغرب الأوسط ما بين 911-925هـ/ 1505-1519م.

المبحث الأول: الاحتلال الإسباني لسواحل المغرب الأوسط ما بين 911-918هـ/ 1505-1512م.

1-نكبة المرسى الكبير 911هـ/1505م.

2-مأساة مدينة وهران 915هـ/1509م.

3-الاحتلال الإسباني لشرق المغرب الأوسط سنة 916هـ/1510م.

4-خضوع مشيخة مدينة الجزائر لسلطة فرديناند الكاثوليكي سنة 916هـ/1510م.

المبحث الثاني: علاقات المغرب الأوسط مع إسبانيا ما بين 918-924هـ/1512-1518م

1-المغرب الأوسط بين ازدواجية دفاع الإخوة بربروس والاحتلال الإسباني.

2-استنجاد مشيخة مدينة الجزائر بعروج سنة 922هـ/1516م.

3-استقرار عروج رئيس بمدينة الجزائر سنة 922هـ/1516م.

4-الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر سنة 922هـ/1516م.

5-نتائج الحملة الإسبانية.

6-استراتيجية عروج في تحرير الجهة الغربية من المغرب الأوسط.

ثانيا: العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين 926-945هـ/ 1520-1538م.

المبحث الأول: مراحل تأسيس الإيالة الجزائرية.

1-المرحلة الأولى: إرهاصات التأسيس 920-926هـ/1514-1518م.

2-المرحلة الثانية: مرحلة الانضمام الرسمي سنة926هـ/ 1520م

3-تأثيرات تأسيس الإيالة الجزائرية محليا ودوليا.

المبحث الثالث: الصدام العسكري الجزائري الإسباني ما بين 925-945هـ/1519-1538م.

1-حملة هوغو كودي مونكاد سنة 925هـ/1519م.

2-خير الدين بين مواجهة الفتن الداخلية والتصدي للأخطار الخارجية.

3-تحرير قلعة البنيون (Le Pégnon) سنة935هـ/1529م.

4-حملة خير الدين على جزر البليار.

5-الصراع الجزائري الإسباني على شرشال سنة936ه/ 1530م.

6-الاحتلال الإسباني لمدينة هنين سنة937ه/1531م.

7-الصراع الجزائري الإسباني على تونس 940-941هـ/1534-1535م.

8-أسباب هزيمة خير الدين.

9-نتائج الصراع الجزائري الإسباني على تونس.

أولا: الصراع بين حكام الإمبراطورية الإسبانية وحكام المغرب الأوسط ما بين 911-925هـ/ 1505-1519م.

المبحث الأول: الاحتلال الإسباني لسواحل المغرب الأوسط ما بين 911-918هـ/ 1505-1512م.

تعتبر الفترة الممتدة (911-918هـ/1505-1512م) من أخطر المراحل التاريخية بالنسبة إلى المغرب الأوسط، لأن الجيوش الإسبانية استطاعت احتلال الكثير من المناطق الساحلية التي أصبحت بين عشية وضحاها عرضة للنهب والسلب، وسكانها بين قتيل وأسير ومشرد، لم يجدوا من يساعدهم في التخلص من هذه الأوضاع المزرية التي أصبحوا عليها، وبذلك وجد الإسبان الفرصة المواتية في مواصلة احتلال سواحل بلاد المغرب، حيث استطاعوا الوصول إلى غاية طرابلس الغرب شرقا، بدون أن تتصدى لهم أي قوة وتمنعهم من أفعالهم هذه، اللهم إذا استثنينا بعض المقاومات هنا وهناك التي لم تكن كافية لردعهم والوقوف في وجه مشاريعهم الرامية لاحتلال بلاد المغرب قاطبة.

كانت هناك الكثير من الأسباب التي ساعدت الإسبان على احتلال سواحل المغرب الأوسط، نذكر منها:

- انهيار الدولة الزيانية تماما وعدم تحكمها في زمام الأمور داخليا وخارجيا، هذا ما أدى إلى تشجيع الإسبان على المضي قدما في احتلال سواحل المغرب الأوسط، ساعدهم في ذلك أيضا إعلان بعض المدن تمردها عن الزيانيين مثل مدينة تنس والجزائر، كما أن الكثير من القبائل خلعت طاعة السلاطين الزيانيين.[1]
- أدى انهيار السلطة الزيانية إلى تفكك الجيش النظامي وتفرقه، وبذلك أصبح عاجزا عن الدفاع على العباد والبلاد.
- الانهيار الاقتصادي والتفكك الاجتماعي والتخلف الثقافي شجع الإسبان على تنفيذ مشروعهم الاحتلالي.
- مطاردة الأندلسيين الموريسكيين مخافة من التفكير في العودة إلى إسبانيا بمساعدة سكان المغرب الأوسط خصوصا والمغرب الإسلامي عموما.

1- الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص208.

- منع أي تحالف قد يحدث بين المغاربة والأندلسيين الموريسكيين، مخافة من التفكير في العودة إلى إسبانيا بمساعدة سكان المغرب الأوسط خصوصا والمغرب الإسلامي عموما.
- منع أي تحالف قد يحدث بين المغاربة والأندلسيين الموريسكيين، يكون عائقا في تنفيذ مشاريع الإسبان بالمغرب الأوسط وفي إسبانيا ذاتها.

1-**نكبة المرسى الكبير** 911هـ/1505م.

تعرض المغرب الأوسط لنكبة حقيقية لم يسبق لها مثيل[1]، تمثلت في احتلال إسبانيا للمرسى الكبير؛ ففي شهر أوت 1505م قاد الماركيز قوماريس «Marquis Gomares» جيشا بحريا مشكلا من 5 آلاف جندي، وسار بهم إلى المرسى الكبير، ومباشرة بعد وصوله إلى سواحله ضرب عليه حصارا مشددا دام 50 يوما، كان كافيا لإنهاك السكان المحليين الذين عجزوا عن الدفاع ومواصلة المقاومة في غياب أي دعم من المناطق المجاورة أو السلطة الزيانية بتلمسان، وبذلك استطاع الإسبان دخول المدينة واحتلالها بسهولة لم يكونوا يحلمون بها هم أنفسهم، ثم بدأوا في التنكيل بالسكان وإرغامهم على الخروج من مدينتهم[2] وتركها عرضة للنهب والسلب والإفساد.

بعد احتلال المرسى الكبير كان أول عمل قام به الماركيز قوماريس تحويل المسجد الكبير بالمدينة إلى كنيسة، وأطلق عليها اسم كنيسة القديس ميكائيل، ليتوجه بعدها إلى تحصين المدينة مخافة من رد فعل السكان المحليين، ثم أقام بها سوقا تجاريا لسد حاجيات الحامية الإسبانية وتأمين متطلباتها، هذا ما أدخل الغبطة والسرور في نفوس السلطات الإسبانية وعلى رأسها فرديناند، الذي أمر بإقامة الأفراح لمدة أسبوع كامل ابتهاجا بهذا النصر الكبير، الذي كان أول مركز للإسبان على سواحل المغرب الأوسط، والبداية الفعلية في تنفيذ مشروعهم الاحتلالي المعد من قبل الملكين الكاثوليكيين وبتدعيم مباشر من الكنيسة الكاثوليكية بروما، لذلك بدأت أعين قادة الجيش الإسباني تتجه نحو مدن ساحلية أخرى.[3]

استطاع الإسبان إحداث شرخ كبير جدا بين سكان المنطقة، لأنهم استطاعوا استمالة بعض القبائل إليه[*]، وتجنيدهم لخدمة مشروعهم[1]، وفي نفس الوقت ضرب السكان المحليين ببعضهم البعض، حيث أصبحت تلك

1- يحي بوعزيز: مدينة وهران عبر التاريخ، دار البصائر للنشر والتوزيع، ط1، حسين داي، الجزائر، 2009م، ص40.

2- موسى لقبال وآخرون: الجزائر في التاريخ 3 العهد الإسلامي من الفتح إلى العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 455.

3- *De Tassy (Laugier): Histoire de Royaume D'Alger, Editions, Loysel, Paris, 1990, p09.*

*- أهم هذه القبائل نذكر: شافع، حميان، غمرة، أولاد عبد الله، أولاد علي، الونازرة، للمزيد ينظر: المشرفي عبد القادر الجزائري: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق، محمد بن عبد الكريم، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.س.ط، ص ص 14-21.

القبائل عميلة للإسبان طمعا في منفعة مادية زائلة أو خوفا من قوتهم، التي لا طاقة لهم بها، وهذا ما شجع المحتلين الإسبان على المضي قدما ومواصلة احتلال المناطق الساحلية الأخرى، حيث كان الدور هذه المرة على مدينة تنس سنة 1507م، وبدون مقاومة تذكر من طرف حكامها والسكان المحليين، بسبب الخلافات الحادة الموجودة داخل البيت الحاكم الزياني؛ ممثلة في الصراع القائم بين أبي زيان الثالث-الملقب بالمسعود- وعمه أبو حمو الثالث الذي أعلن خلع طاعة ابن أخيه، واستولى على الحكم، وقام بسجن ابن أخيه أبو زيان الثالث، فيما استطاع الثابتي الفرار إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى طالبا المساعدة لاسترداد حق أخيه من عمه مغتصب العرش الزياني.[2]

ثار أهالي المدينة ضد أبي حمو الثالث وعينوا الثابتي ملكا عليهم، وهذا ما شجع الإسبان على استغلال هذه الخلافات الواقعة وإغراء الثابتي للتعاون معهم[3]، فما كان من هذا الأخير إلا الخضوع للمحتلين والتعاون معهم حرصا على البقاء في الحكم وتحقيق رغباته الشخصية التي أدت إلى مأساة مروعة، ووبالا على المدينة وسكانها، تمثلت في احتلال المدينة بكل سهولة، على عكس المرسى الكبير الذي قاوم أهله حوالي خمسون يوما ووقفوا في وجه الإسبان المحتلين.[4]

2-مأساة مدينة وهران 915هـ/1509م.

بعد احتلال الإسبان لمدينتي المرسى الكبير وتنس، اتخذت السلطات العليا في إسبانيا قرارا بمواصلة احتلال المزيد من المدن الساحلية وعلى رأسها مدينة وهران، تدفعهم في ذلك العديد من الأسباب:

- الموقع الاستراتيجي الهام والمتميز لمدينة وهران.
- قرب المدينة من المرسى الكبير.
- ازدياد الهجمات ضد الإسبان بالمرسى الكبير.
- تحريض الكنيسة الكاثوليكية على احتلال المزيد من المدن بالمغرب الأوسط، خاصة الكاردينال خمينيس «Ximines».

قام الملك الإسباني فرديناند بتعيين الكاردينال خمينيس قائدا عاما على الأسطول المتوجه إلى احتلال مدينة وهران بمساعدة بيدرو نافارو، وقد كان تعداد الأسطول 33 باخرة حربية و51 زورقا صغيرا على متنهم 15

1- أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم، ناصر الدين سعيدوني، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، ص63.

2- الحسن بن محمد الوزان الفاسي: المصدر السابق، ص ص 406، 407.

3- محمد دراج: المرجع السابق، ص106.

4- أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص89.

ألف جندي[1]، حيث انطلق الأسطول من ميناء قرطاجنة الإسباني يوم 7 ماي 1509م متجها أولا إلى المرسى الكبير أين أخذ الإسبان قسطا من الراحة، ليتوجه بعدها إلى مدينة وهران التي تبعد عن المرسى الكبير بحوالي 7 كلم.[2]

بعد وصول القوات الإسبانية إلى مدينة وهران، تصدى لها السكان المحليون بمساعدة بقايا الجيش الزياني، حيث دارت معارك عنيفة بين الطرفين أبلى فيها أهل المدينة بلاءً حسنا، إلا أن زاوي بن كبيسة —ابن زهوة–وهو أحد اليهود الخائنين المتآمرين قام بإدخال مجموعة من الجيش الإسباني المهاجم إلى المدينة على حين غفلة من سكانها، ما أدى إلى إحداث فوضى عارمة بين صفوف السكان والمقاومين، هذا ما استغله الإسبان وقاموا بتنفيذ مجزرة رهيبة بحق السكان[3]، بالإضافة إلى حرق ونهب كل ما صادفهم من أشياء ثمينة، ومع ذلك لم يستسلم المدافعين وحاولوا بكل قوة إنقاذ أبناءهم ونساءهم من بطش المحتلين، حيث واصلوا المقاومة لمدة خمسة أيام متتالية، إلا أن ارتفاع عدد الشهداء الذي وصل إلى 8 آلاف شهيد، ثبط من عزيمة ا السكان، ومنعهم من مواصلة الدفاع عن مدينتهم، ومما زاد الطين بلة وقوع 8 آلاف أسير بيد القوات الإسبانية، هذا ما قضى على كل أمل في إنقاذ مدينة وهران من هذه المأساة.[4]

2-1-نتائج احتلال مدينة وهران.

- مغادرة الكاردينال خمينيس مدينة وهران باتجاه إسبانيا، تاركا وراءه حامية عسكرية لحماية المدينة من هجمات السكان المحليين وبقايا الجيش الزياني المتمركز بمدينة تلمسان وأحوازها.[5]
- بدأ الإسبان في توسيع مناطق احتلالهم، لذلك قاموا بإعلان الحرب على جميع المناطق المجاورة لمدينة وهران من أجل إخضاع القبائل الساكنة بها والسيطرة على خيرات هذه المناطق.
- أعلنت العديد من القبائل العداء للإسبان، لذلك حاول قادة الاحتلال الإسباني بالمنطقة إخضاعهم وذلك بإعلان الحرب عنهم، ومن أهم هذه القبائل كريشتل، بنو زيان، الونازرة، قمرة، حميان، شافع، أولاد عب الله وأولاد علي وغيرهم من بني عامر[6]، وفي ذلك يقول الراشدي: «...**وقد استعملت هذه**

1- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص100.

2- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص41.

3- الأغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص208.

4 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص102.

5- محمد دراج: المرجع السابق، ص ص 109، 110.

6- الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص209.

القبائل كجواسيس وعملاء ضد بني جلدتهم من طرف الإسبان الذين قويت بهم شوكتهم واستعملوهم في الغارات على الأبعدين والأقربين فيأخذون أموالهم وينتهكون حرماتهم...».[1]

- إعلان الملك الزياني أبي حمو الثالث تبعيته للإسبان سنة918هـ/1512م وتعهده لهم بدفع جزية سنوية قدرت بـ 12 ألف دوقة ذهبية و12 فرسا من جياد الخيل و6 من طيور الباز الجارحة.[2]
- تمكن الإسبان من بسط نفوذهم على كامل الجهة الغربية تقريبا بعد أن بثوا جواسيسهم بين السكان من أجل إخافتهم وترصد تحركاتهم، وزرع الفتن بينهم حتى يعتقدوا أن جيش الإسبان لا يقهر ومددهم لا ينقطع[3]، ومن أهم هذه المناطق التي دخلت تحت طاعة الإسبان دلس، مستغانم وشرشال.[4]
- اكتشف الإسبان الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية لمدينة وهران، فأقاموا فيها التحصينات مخافة من هجمات السكان المحليين، وهذا ما مكنهم من الصمود في وجه الجزائريين لمدة قاربت ثلاثة قرون، حتى تم تحريرها النهائي سنة 1792م على يد محمد عثمان باشا.[5]
- من أهم الأعمال التي قام بها الإسبان تحويل المساجد إلى كنائس ومحاولة تنصير السكان.[6]
- قيام بعض المقاومات بزعامة المرابطين وزعماء وشيوخ القبائل ضد الاحتلال الإسباني مثل قبائل الزلامطة والكرط وبني شقران في رمال عين الفرس قبل دخولهم في ذمة النصارى.[7]
- إرغام سكان وزعماء المناطق المحتلة على دفع ضرائب سنوية لتموين الإسبان المحتلين بالمؤن والأغذية الضرورية، ومنعوا رُسُو السفن الأجنبية إلا بإذنهم.[8]

---

1 – أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: المصدر السابق، ص63.

2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص102.

3 – أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: المصدر السابق، ص63.

4 – شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 324.

5 – محمد دراج: المرجع السابق، ص111.

6 – ناصر الدين سعيدوني: "البحرية الجزائرية في العهد العثماني"، **مجلة التاريخ**، ع22، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1986م، ص27.

7 – أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: المصدر السابق، ص63.

8 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص42.

3-الاحتلال الإسباني لشرق المغرب الأوسط سنة 916هـ/1510م.

3-1-الاحتلال الإسباني لمدينة بجاية سنة 916هـ/1510م.

قررت القيادة السياسية والعسكرية الإسبانية مواصلة احتلالها لسواحل المغرب الأوسط، وكانت الوجهة هذه المرة الجهة الشرقية من البلاد خاصة مدينة بجاية ذات الموقع الاستراتيجي الهام، مستغلين في ذلك ضعف الأسرة الحفصية التي كانت تمر بأسوأ أحوالها حينذاك، فقد تأثرت هي الأخرى بالظروف السائدة في كامل المنطقة[1]، بسبب الصراع القائم بين الأمير عبد الرحمن الحفصي وابن أخيه عبد الله حول السلطة والجاه والنفوذ، لذلك حاول الإسبان استغلال هذه الحالة المزرية لصالحهم واحتلال المدينة، التي قرروا أن تكون قاعدة احتلالهم مستقبلا لمدينة عنابة والقل، وتونس وطرابلس الغرب، وبذلك ضمان احتلالهم لكامل سواحل المغرب الإسلامي[2] من المغرب الأقصى إلى طرابلس الغرب.

أمر الكاردينال خمينيس القائد العسكري بيدرو نافارو بالتوجه لمدينة بجاية لاحتلالها، وبدعم مباشر من الملك الكاثوليكي فرديناند سنة 916هـ/1510م[3]، الذي سخر لهذه الحملة أسطولا بحريا مكونا من 14 سفينة كبيرة محملة بالجنود، الذين حطوا رحالهم بميناء بجاية يوم 05 جانفي 1510م[4]، مفاجئين السكان المحليين بهذه الحركة غير المتوقعة، معلنين بذلك بداية المعارك بين الطرفين التي دامت العديد من الأيام.

بالرغم من عنصر المفاجئة الذي قام به الإسبان، إلا أن المقاومين في بجاية قرروا الدفاع عن مدينتهم متبعين خطة تقضي بانقسامهم إلى قسمين:

1- قسم يقدر بحوالي 10 آلاف مقاوم، تسلق الجبال وتمركز خاصة بجبال يماقورايا حتى يتصدى للإسبان ويمنعهم من النزول للبر.

2- قسم ثاني بقي يناور القوات الإسبانية على الشاطئ، حتى يعرقل تقدمهم باتجاه المدينة.

وبالرغم من هذا التنظيم المحكم، إلا أن امتلاك الإسبان لمدفعية متطورة بالمقارنة مع البجاويين، ساعدهم على التقدم نحو المدينة والجبال المجاورة، بالرغم من ضراوة المقاومة واشتدادها التي لم تكن لتستمر بسبب قلة

1- بلبراوات بن عتو: "بجاية من الاحتلال الإسباني إلى التحرير العثماني (1510-1555م)"، **عصور الجديدة**، ع7-8، جامعة وهران، الجزائر، 1433-1434هـ/2012-2013م، ص 107.

2- محمد دراج: المرجع السابق، ص 111.

3- مارمول كربخال: المصدر السابق، ص377.

4- بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص179.

الإمكانيات وغياب قيادة حكيمة[1] توجه المقاومين وتشجعهم، هذا ما أدى إلى انهيار معنويات المقاومين أمام إصرار الإسبان في الدخول للمدينة واحتلالها مهما كان الثمن، وقد تحقق لهم ذلك بعد أن اختار أميرها عبد الرحمن الحفصي وأعيانها دعوة المقاومين والسكان المحليين لإخلاء المدينة والفرار إلى الجبال والغابات المجاورة.[2]

بعد دخول القوات الإسبانية لمدينة بجاية، عاثت فيها فسادا، وارتكبت مجازر رهيبة بحق من بقي فيها من السكان العزل، فقد ذهب ضحية هذه الأعمال الوحشية حوالي 4100 قتيل، زيادة عن التدمير والتخريب الذي طال معالم المدينة من مساجد ومبان، بالإضافة لسرقة نفائس المعادن والمجوهرات.[3]

أعلن الأمير المنهزم عبد الله تبعيته للمحتلين الإسبان، هذا ما زاد في تشتيت شمل البجاويين، مما أعطى الفرصة للمحتلين من أجل مطاردة المقاومين وعلى رأسهم الأمير عبد الرحمن بجيش قوامه 1500 جندي[4]، حيث دارت معارك عنيفة بين الطرفين، كانت الغلبة فيها للإسبان الذين كبدوا المقاومين خسائر فادحة في الأرواح قدرت بحوالي 300 قتيل على رأسهم زوجة وابنة الأمير عبد الرحمن، بالإضافة إلى الخسائر المادية الكبيرة جدا، هذا ما اضطر الأمير عبد الرحمن إلى الخضوع لرغبات الإسبان والجلس معهم على طاولة المفاوضات، التي أفضت في نهايتها على توقيع معاهدة مع ملك بجاية الجديد عبد الله برعاية وحماية إسبانية، وأهم بنود هذه المعاهدة هي:

- تقسيم المدينة وأحوازها بين عبد الرحمن وعبد الله، مع تعهدهما بالخضوع لسلطة الإسبان.[5]
- التعهد بتوفير كل ما تحتاجه القوات الإسبانية المحتلة من حبوب وحيوانات وأخشاب.[6]

3-2-نتائج الاحتلال الإسباني لبجاية.

- احتلال مدينة بجاية وإخضاعها للسلطات الإسبانية بمدريد.
- تدمير وتخريب كل منشآت المدينة ومعالمها مثل تدمير قصر الجوهرة الذي كان ارتفاعه حوالي 70 ذراعا، والمسجد الأعظم وقصر الكوكب.
- نهب الأموال وسرقة المجوهرات والمعادن الثمينة، وقد تم نقل ما قيمته 30 مركبا إلى إسبانيا.[7]

1- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص110.
2- بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص180.
3- شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص102.
4- مارمول كربخال: المصدر السابق، ص378.
5-كليل صالح: المرجع السابق، ص51.
6- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص111.
7- محمد خير فارس: المرجع السابق، ص30.

- فشل المقاومة الرسمية بقيادة الأمير عبد الرحمن، وبداية المقاومة الشعبية التي سعت قيادتها جاهدة لطرد المحتلين بالرغم من قلة إمكانياتها.
- خيانة الأميرين عبد الله وعبد الرحمن اللذان أعلنا ولاءهما للإسبان المحتلين، وترك الرعية تواجه مصيرها لوحدها.
- إعلان العديد من المدن بالمغرب الأوسط خضوعها للمحتلين الإسبان بدون مقاومة تذكر، مثل دلس، شرشال، مستغانم، مدينة الجزائر وعنابة.[1]
- إعلان الأمير الحفصي أبو عبد الله (1494-1526م) تبعيته للسلطات الإسبانية، مع تعهده بدفع جزية سنوية لها، وتعهده بإهداء فرسين وأربعة من طيور الباز للملك الإسباني فرديناند.[2]

توالت النكسات والمشاكل على السكان في المغرب الأوسط، زاد الأمر خطورة إعلان العديد من الأمراء المحليين تبعيتهم وخضوعهم للمحتلين بدون مقاومة تذكر، وهذا خوفا من بطش الإسبان وقوتهم التي أفسدت كل مدينة وصلت إليها ودمرتها تدميرا، هذا ما بث الرعب في نفوس أمراء تونس، تلمسان، مدينة الجزائر ودلس الذين أعلنوا ولائهم للإسبان بدون مقابل، وبذلك خانوا دينهم وأوطانهم ورعيتهم بعرض من الدنيا، وهذا ما شجع الإسبان للتوجه إلى طرابلس الغرب واحتلالها، حيث تم لهم ذلك في نفس سنة احتلال بجاية -916هـ/1510م بعد مقاومة ضارية من سكانها لم تدم طويلا، ليتركوا بها حامية متكونة من 500 جندي لمواصلة احتلالهم بقية المناطق الأخرى.[3]

4-خضوع مشيخة مدينة الجزائر لسلطة فرديناند الكاثوليكي سنة 916هـ/1510م.

سارع حاكم مدينة الجزائر سالم التومي إلى إعلان تبعيته للملك الإسباني فرديناند كما فعل حكام الإمارات الأخرى بالمغرب الأوسط، حيث استقر رأي أعيان المدينة على إرسال وفد عنهم إلى بجاية لمفاوضة السلطات الإسبانية هناك على اتفاق يُؤَمِن مدينتهم ويحفظ مصالحهم وممتلكاتهم[4]، وقد ترأس هذا الوفد حاكم المدينة وشيخ قبيلة الثعالبة سالم التومي، الذي التقى مباشرة بعد وصوله إلى بجاية بالحاكم الإسباني للمدينة بيدرو

1- ميكال دي إبيلزا: "حول ثلاثة أحداث غير معروفة من العلاقات الخارجية بين عنابة وإسبانيا"، **مجلة الأصالة**، ع 35/34، الجزائر، 1977م، ص ص 112، 114.

2- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص114.

3- أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي: المصدر السابق، ص92.

4- *De Tassy (L) : op.cit, p09.*

نافارو، حيث دارت بينهما عدة لقاءات أسفرت عن التوصل لاتفاق بينهما، كانت أهم بنوده في خدمة المصالح الإسبانية في المنطقة، نذكر منها:

1- تعهد سالم التومي ومشيخة المدينة بدفع ضرائب سنوية للإسبان.

2- تعهد سالم التومي أمام بيدرو نافاروا بإطلاق سراح جميع الأسرى الإسبان بدون شرط أو قيد.

3- انتزع الإسبان من مشيخة مدينة الجزائر تعهدا بتمليكهم برج الفنار*-صخرة البنيون-لإقامة قلعة عليه لتأمين سفنهم التجارية. [1]

4- إقامة قلعة لحراسة مدينة الجزائر ومراقبة الحركة التجارية بها، ولحماية السفن التجارية الإسبانية وضمان حرية مواصلاتها البحرية[2]، ولضمان تطبيق بنود هذا الاتفاق سافر وفد من مشيخة المدينة إلى مدريد، أين قاموا بتوقيع الاتفاق مع الملك الإسباني فرديناند تدوم صلاحياته مدة عشر سنوات. [3]

تسارعت الأحداث بشكل رهيب في بلاد المغرب الأوسط، خاصة بعد تواصل إعلان "الزعماء" المحليين تبعيتهم للإسبان، ليأتي الدور مرة أخرى على مدينة مستغانم، التي اتصل أعيانها بالإسبان سنة 917هـ/1511م، عارضين عليهم إعلان الولاء لهم والدخول في طاعتهم، مثل:

- الالتزام بدفع غرامات مالية وضرائب للإسبان.
- السماح للإسبان ببناء قلاع وحصون بالمدينة.
- تموين الإسبان الموجودين بوهران والمرسى الكبير بما يحتاجونه من الأغذية والمؤن.
- تعهد حكام المدينة بمنع رسو أي سفينة أجنبية بميناء المدينة إلا بإذن الإسبان. [4]

بعد هذا التسارع من طرف الأمراء والحكام بالمغرب الأوسط للخضوع للإسبان والعمالة لهم، خضعت كامل السواحل بالبلاد للاحتلال في مدة لم تتجاوز ست سنوات، إما احتلالا عسكريا مباشرا أو غير مباشر بإعلان التبعية والولاء للملك الإسباني فرديناند الكاثوليكي، ودفع ضرائب سنوية مقابل ضمان عدم تعرض المدن

---

*- الفنار كلمة محلية تعني المنارة، وهي التي بناها الإسبان سنة 1510م، أي منارة البنيون في وسط الجزيرة الكبيرة، وشكلها مستدير يصل قطرها إلى 60 مترا، وارتفاعها إلى 40 مترا على مستوى سطح البحر، وتتألف من طابقين مزودين بـ 17 فتحة نارية بمدافع ذات عيار كبير وأعلى هذه المنارة برج مثمن الأضلاع بناه عرب أحمد باشا، وتتجلى أهمية هذا البرج لكونه يقع في الخط الأمامي للميناء...، بلبراوات بن عتو: "المنشآت الدفاعية للجزائر وميناءها خلال العهد العثماني"، **مجلة الحضارة الإسلامية**، ع14، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، وهران، الجزائر، 1431هـ/2010م، ص157.

1- الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص218.

2 - محمد دراج: المرجع السابق، ص115.

3- محمد بن حسن الوزان: المصدر السابق، ص38.

4- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص42.

للاحتلال المباشر*، لكن العجب العجاب في كل هذا هو السقوط المريع لكامل سواحل المغرب الأوسط بسهولة تامة، وحتى بخيانة بعض الحكام المحليين، الذين عجزوا كل العجز في الدفاع عن إمارتهم نتيجة لغياب سلطة حقيقية قارّة على ضبط الأمن الداخلي والتصدي للأخطار الخارجية، فاسحين بذلك المجال للسكان المحليين وزعماء المرابطين والزوايا لقيادة المقاومة ضد المحتلين.

أدت عمالة بعض الحكام المحليين للإسبان طمعا في بقاءهم في الحكم والاستئثار بمزاياه إلى تطلع شعوب المنطقة إلى من ينقذهم من هذه الوضعية المزرية التي آلت إليها بلادهم، ولم يكن من مخلص لهم إلاّ الإخوة بربروس الذين بدأ نجمعهم يسطع في السواحل الغربية من المتوسط، ليكونوا مثل سفينة نوح التي أنجت بلاد المغرب من الغرق في طوفان الاحتلال الإسباني.

المبحث الثاني: علاقات المغرب الأوسط مع إسبانيا ما بين 918-924هـ/1512-1518م

1-المغرب الأوسط بين ازدواجية دفاع الإخوة بربروس والاحتلال الإسباني.

1-1-إستراتيجية المواجهة المباشرة -محاولة الإخوة بربروس تحرير بجاية سنة 920هـ/1514م.

شهدت نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين فوضى سياسية عارمة ببلاد المغرب الإسلامي، كان نتاجها الاحتلال الإسباني لسواحله، خاصة بعد تقاعس حكامه وعجزهم في مواجهة التحديات الداخلية والأخطار الخارجية، وهذا ما كان يتطلب قيادات قوية وصارمة لإعادة الوحدة واللحمة بين مكونات سكانه، الذين لم يستطيعوا مواجهة الاحتلال لوحدهم، بالرغم من محاولاتهم المتكررة، وفي هذه الأوقات الصعبة والعصيبة كان نجم أربعة إخوة يظهر رويدا رويدا على الجهة الشرقية من بلاد المغرب، تميزوا بالشجاعة والإقدام ومعرفتهم الجيدة بالبحر، اتفق المؤرخون على أن أصلهم من ليسبوس بجزية مدللي باليونان، حيث كان أبوهم يعمل بالجيش العثماني في فرقة فرسان السبايهية.[1]

*- اتسم الاحتلال الإسباني بميزتين أساسيتين هما:

-توقف عند السواحل ولم يتمكن من احتلال المدن الداخلية لشدة المقاومة فيها وفرضه إشرافا شكليا على بعض المدن.

-اتخذ الإسبان من القلاع والأبراج التي احتلوها مراكز لتقوية نفوذهم في البحر والتصدي لهجمات الإخوة بربروس في بداية ظهورهم...للاستزادة ينظر: عبد الكريم غلاب: المرجع السابق، ص 336.

1- حاجي خليفة: تحفة الكبار في أسفار البحار، تحقيق وترجمة، محمد حرب، تسنيم حرب، دار البشير للثقافة والعلوم، إستانبول، تركيا 2017/1438م، ص84.

كانت البداية لاستقرار الإخوة بربروس ببلاد المغرب جزيرة جربة التونسية، بسبب قربها من الأراضي المسيحية كمالطا والجنوب الإيطالي، بالإضافة إلى عدم خضوعها للاحتلال الإسباني، هذا ما أهلها لتكون الملاذ الآمن والحصن المنيع لعروج وإخوته، الذين استطاعوا تكوين أسطول بحري مشكل من 12 سفينة، بلغ عدد العاملين به 1000 بحار، قرروا مواجهة المسيحيين والدفاع عن المسلمين، وهذا ما اتفقوا عليه مع السلطان الحفصي أبي عبد الله، في مقابل حماية بلاده واقتسام الغنائم معه، وتطبيقا لهذا الاتفاق قرر الإخوة بربروس التوجه لبجاية لتحريرها من الاحتلال الإسباني، لأنها تعد من ممتلكات السلطان التونسي، وبها ميناء من أكبر موانئ المغرب الأوسط[1]، الذي يساعدهم على تطبيق مشاريعهم المستقبلية حينذاك.

وقد اختلفت الروايات التاريخية عن سبب توجه الإخوة بربروس إلى بجاية لتحريرها.

أ-الرواية الأولى:

استقر الإخوة بربروس بتونس إلى غاية انقضاء الشتاء وحلول فصل الربيع، عندها قرروا الخروج للجهاد ضد المسيحيين، وكانت وجهتهم الأولى ميناء نابولي «Napoli»، وفي طريقهم صادفوا أسطولا إسبانيا على متنه حوالي 340 بحارا والكثير من الركاب الآخرين، ودارت معركة بحرية بين الطرفين، أسفرت نهايتها عن سيطرة الإخوة على 8 سفن وأسر 183 جندي من بينهم أحد حكام الولايات الإسبانية، وقتل حوالي 225 من آخرين، أما من جانب الإخوة فقد استشهد حوالي 150 بحارا وجرح 86 آخرين.[2]

لما سمع القادة العسكريين الإسبان بهذا الخبر، قرروا وضع حد لنشاط الإخوة بربروس، الذين ذاع صيتهم نتيجة هذه العملية، لذلك أعدوا أسطولا بحريا مكونا من 10 سفن حربية لاعتراض سبيل الإخوة الذين كانوا متجهين إلى جنوة[3]، غير أن سير الرياح عكس اتجاه سيرهم إلى مدينة بجاية، أين اشتبك الطرفين في معركة حامية الوطيس، كانت الغلبة فيها للإخوة بربروس، الذي استطاعوا غنم 3 سفن إسبانية، بالإضافة إلى سفينة القيادة، فيما استطاعت البقية الفرار والاحتماء بقلعة المدينة.[4]

1- محمد بوشنافي: "مساهمة عروج بن يعقوب في مواجهة الخطر الإسباني على المغرب الأوسط 1512-1518م"، **مجلة عصور**، ع5/4، جامعة وهران، الجزائر، 2004م، ص275؛ محمد دراج: المرجع السابق، ص151؛

De Grammont (H, De) : Histoire D'Alger sous la Domination turque, 1515-1830, Paris 1887, p18.؛ مجهول: المصدر السابق، ص59؛ جاسم محمد حسن العدول: "عروج ودوره في أحداث المغرب العربي وحوض المتوسط الغربي"، **مجلة التربية والتعليم**، ع2، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل 1980م، ص205.

2- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص49.

3- مجهول: المصدر السابق، ص 65.

4- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص51.

بعد انتهاء المعركة الأولى، اختلف عروج وخير الدين في كيفية التعامل مع هذه الوضعية الطارئة:

- كان عروج يرى مواصلة الهجوم وتحرير قلعة بجاية والسيطرة على السفن التي فرّ قادتها منها.
- فيما كان يرى خير الدين الاكتفاء بما غنموه والعودة سالمين إلى مدينة تونس.

بما أن عروج هو الأكبر سنا والقائد العام للبحارة، كانت غلبة الرأي له، هذا ما اضطر خير الدين لخوض المعارك معه –بالرغم من عدم اقتناعه بذلك*– ضد الإسبان المتحصنين بالقلعة التي هاجمها الإخوة في شهر أوت 1512م، إلا أن الإسبان تصدوا لهم بكل قوة وبسالة وردوهم خائبين، حيث فقد عروج ذراعه بسبب قذيفة أصابته أثناء الهجوم، وخسر حوالي 60 شهيدا من أتباعه[1]، أما الإسبان فقد قتل منهم حوالي 300 جندي وأسر 150 آخرين، ليقرر بعدها الإخوة بربروس العودة إلى مدينة تونس. [2]

ب -الرواية الثانية:

ساق لنا المؤرخ التركي عزيز سامح آلتر رواية أخرى تختلف تماما عن الرواية الأولى، مفادها أن ذهاب الإخوة بربروس إلى مدينة بجاية كان سببه طلب الأمير عبد الرحمن الحفصي من عروج مساعدته في استرجاع المدينة من الإسبان، فما كان من عروج إلا الاستجابة فورا لهذا الطلب، وتوجه إلى بجاية على رأس 4 سفن حربية، أين وجد الأمير عبد الرحمن في انتظاره رفقة 3 آلاف مقاتل وقامت بمهاجمته، حيث وقعت معركة بين الطرفين، استطاع خلالها عروج وأتباعه السيطرة على اثنين منها، فيما استطاعت البقية من النجاة. [3]

واصل عروج وأتباعه مطاردة السفن الإسبانية إلى غاية مدينة بجاية، أين نزل رفقة 50 من بحارته، ومعهم مجموعة من المدافع تم بها قصف المدينة لمدة ثمانية أيام متتالية، هذا ما أحدث فجوة في إحدى جدران القلعة، التي استطاع السيطرة على حصنها الأول، ليواصل هجومه على الحصن الثاني، وفي هذه الأثناء تلقى ضربة كانت كافية لبتر ذراعه الأيسر، هذا ما حتّم على رفاقه توقيف المعركة[4] والانسحاب إلى بجاية، مخلفين وراءهم 100 شهيد من البحارة وأزيد من 1000 شهيد آخرين من أهل المدينة، فيما تكبد الإسبان 300 قتيل وأسر منهم حوالي 150[5]وخسروا 10 سفن، استطاع الإخوة بربروس أخذها معهم إلى تونس، بالإضافة إلى غنم سفينة كبيرة أثناء

*- نتائج المعركة أثبتت أن خير الدين كان له بعد نظر أحسن من عروج، وكان محقا في رأيه، إلا أنهساير أخاه وخاض المعركة.

1-*Haédo (Fray Diego de): Histoire des Rois d'Alger, Traduit par H.D.DE Grammont, Adolphe Jourdan, Libraire éditeur, Alger, 1881, p11.*

2- يحي بوعزيز: الموجز...، المرجع السابق، ص 12.

3- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص45.

4- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص52.

5- مارمول كربخال: المصدر السابق، ج2، ص 379.

سيرهم كانت تمر بالقرب منهم[1]، ومباشرة بعد وصولهم إلى مدينة تونس عرض عروج على الأطباء الذين قرروا بتر ذراعه بسبب خطورة إصابته التي لا يمكن الشفاء منها.[2]

ترتب عن هذه المحاولة الفاشلة العديد من النتائج نذكر منها:

- بالرغم من فشل الحملة، إلا أن الإخوة بربروس اكتسبوا الاحترام والتقدير من طرف سكان المنطقة الذين أعجبوا بشجاعتهم وإقدامهم.
- تكسير حاجز الخوف الذي كان متجذرا في نفوس السكان المغاربة، بسبب الرعب من قوة الإسبان الذين كانوا يعتقدون أنها لا تقهر.
- استطاع الإخوة بربروس اختبار قوتهم أمام قوة جيش نظامي مجهز ومدرب جيدا وبعتاد متطور آنذاك.

1-2-استقرار الإخوة بربروس بمدينة جيجل سنة 921هـ/1515م.

بما أن مدينة بجاية كانت مركز الاحتلال الإسباني بشرق المغرب الأوسط، هذا ما جعل الإخوة بربروس شبه متأكدين من استحالة تحريرها بهذه الإمكانيات البسيطة التي لا يمكن مقارنتها مع الإمكانيات الإسبانية، كما أدركوا بحسهم العسكري وخبرتهم أن بقائهم في حلق الوادي بتونس مجازفة لا يمكن معرفة عواقبها وإنهاكا لقواتهم، لأن مدينة تونس بعيدة نسبيا عن بجاية مركز الاحتلال الإسباني[3]، لذلك قرروا البحث عن قاعدة جديدة لهم تقربهم من الإسبان، ويمكن اللجوء إليها عند الحاجة، والانطلاق منها في مواجهة المسيحيين، لذلك وقع اختيارهم على مدينة جيجل ذات الموقع الاستراتيجي الممتاز، بالإضافة إلى أنها قريبة من بجاية، وبذلك تكون قاعدة ارتكاز ومنطلقا لتحرير المناطق المحتلة من طرف الإسبان.[4]

استطاع الجنويين احتلال مدينة جيجل سنة 1260م، واتخذوا منها قاعدة تجارية ينطلقون منها باتجاه الدويلات الإيطالية وإفريقيا، والكثير من مناطق العالم، إلا أنه بمرور الزمن بدأت المدينة تفقد أهميتها التجارية بسبب ظهور مدن أخرى منافسة لها، هذا ما جعل حكام جنوة يهملون حاميتها شيئا فشيئا، إلى أن أصبحت من الضعف الشديد، ما شجع السكان المحليين على تنظيم مقاومة استطاعت الانتصار على الحامية الجنوية وطردها من مدينتهم[5]، إلا أن سكان المدينة لم يهنئوا بهذا الانتصار كثيرا، لأن أندريا دوريا -الذي كان في هذا الوقت في

1- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص46.
2- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص54.
3- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص151.
4- محمد دراج: المرجع السابق، ص191.
5- المرجع نفسه: ص191.

خدمة الفرنسيين-استطاع احتلال المدينة مرة أخرى، وطرد أهلها منها بعد معركة دامية، ليغادر ها لمواصلة قرصنته البحرية، مخلفا وراءه حامية عسكرية تعمل لصالح الجنويين، وإعادة القيمة التجارية للمدينة، وقد وقعت هذه الأحداث بعد المحاولة الأولى للإخوة بربروس لتحرير مدينة بجاية سنة 1514م.[1]

بعد انتشار أخبار الإخوة بربروس في السواحل المغاربية ومساهمتهم الفعالة في الدفاع عن السكان المحليين من بطش المسيحيين، قرر أعيان مدينة جيجل الاستنجاد بهم لتحرير مدينتهم من الاحتلال الجنوي[2]، هذا ما شجع عروج على المضي قدما في مشروعه، لذلك سارع في الاستجابة لهذا الطلب، حيث فاجأ الحامية الجنوية على حين غفلة منها، واستطاع تحرير قلعة المدينة سنة 921هـ/1515م، وتمكن من القضاء على الحامية الموجودة بها، ثم قفل عائدا إلى مدينة تونس، تاركا وراءه 50 جنديا من أتباعه ومندوبا واحدا عنه لمساعدة سكان المدينة، بالإضافة إلى ثلاث سفن مجهزة بالمدافع للذود عن المدينة وأهلها[3]، الذين اتفق معهم على دفع الزكاة وعشر الحبوب والثمار فقط، مما هو معمول به شرعا. [4]

بعد تحرير مدينة جيجل، استطاع عروج القيام بعمل استراتيجي هام، تمثل في نقل قاعدته البحرية من حلق الوادي إلى جيجل، أين أصبح أكثر قربا من خط المواجهة مع الإسبان، وفي نفس الوقت قطع مراكز الاحتلال الإسباني إلى قسمين بعد أن كانت ممتدة من طرابلس الغرب شرقا إلى المغرب الأقصى غربا، وهذا ما أغضب منه السلطان الحفصي أبي عبد الله.[5]

أ-المواجهة الحتمية بين الإخوة بربروس والإسبان في بجاية سنة 922هـ/1516م.

بعد أن استطاع عروج تثبيت مركزه بمدينة جيجل واتخاذها قاعدة لممارسة جهاده البحري ومواجهة الإسبان، تأكد له ولأتباعه أنه لا يمكنهم التوسع في بلاد المغرب؛ ما لم يطردوا الاحتلال الإسباني من بجاية، خاصة بعد إدراكهم أنهم باستطاعتهم مواجهة القوات الإسبانية، بعد عديد المواجهات التي دارت بينهما سابقا، واضعين في حسبانهم أن طرد الإسبان من مدينة بجاية يعني بالضرورة انحصارهم في مناطق محددة يمكن فيما بعد طردهم منها وتحريرها نهائيا بمساعدة السكان المحليين الذين أظهروا الولاء والمحبة للإخوة بربروس الذين كانوا يرغبون أيضا في تحقيق عدة أهداف أخرى من مواجهة الإسبان في بجاية:

1- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 151.
2- محمد بن حسن الوزان، المصدر السابق، ص 52.
3- محمد دراج: المرجع السابق، ص192.
4- محمد بن حسن الوزان: المصدر السابق، ص52.
5- محمد بوشنافي: المرجع السابق، ص 276.

- قطع الطريق البحري الرابط بين إسبانيا والدويلات الإيطالية.
- محاولة السيطرة على الجزء الأكبر من بلاد المغرب الإسلامي وطرد المسيحيين منه.
- جذب أنظار سليم الأول لهذه المنطقة من العالم الإسلامي.
- مساعدة السكان المحليين في إعلان الجهاد والمقاومة.
- الانتقام من هزيمتهم الأولى سنة 920هـ/1514م.
- إنقاذ أكبر قدر ممكن من الأندلسيين وترحيلهم إلى بلاد المغرب.

إذن كان تحرير مدينة بجاية يمثل بالنسبة للإخوة بربروس مرحلة هامة ومصيرية في معركة فرض السيطرة على الجهة الغربية من العالم الإسلامي، ولذلك كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة لتحريرها[1]، وفي أثناء توجههما إلى مدينة سبتة ومنها على السواحل الإسبانية في محاولة لإنقاذ الأندلسيين والعودة بهم إلى تونس، توقف الإخوة في أحد المراسي القريبة من مدينة بجاية، ولما سمع بهم أهل المدينة أرسلوا إليهم مجموعة من العلماء والأعيان والصلحاء يطلبون منهم مساعدتهم في طرد الإسبان من مدينتهم، ويشكرونهم أيضا على نصرة إخوانهم في بلاد المغرب[2]، مخاطبينهم قائلين: «...**إذا كان ثم مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال، لقد صرنا لا نستطيع الصلاة أو تعليم أطفالنا القرآن لما نلقاه من ظلم الإسبان، فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم، جعلكم الله سببا لخلاصنا...وعجلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفار...**».[3]

بناء على هذا الطلب المستعجل ورغبة من الإخوة في مواجهة الإسبان، قاموا بتجهيز 12 سفينة مجهزة بكل معداتها، وتحمل على متنها 2033 بحارا و150 مدفعا، بالإضافة إلى حوالي 20 ألف من السكان المحليين الذين أرادوا المساهمة في تحرير المدينة من الاحتلال الإسباني، الذي أصبح جنوده محاصرين داخل قلعتهم.[4]

بعد إتمام الاستعدادات، أعطى عروج إشارة انطلاق الهجوم على القلعة الخارجية؛ إلى تشكل جدار الصد الأول في مواجهة الأخطار القادمة من الخارج، وقد دامت المعارك بين الطرفين ثلاثة أيام متتالية، استطاع بعدها الإخوة بربروس وأتباعهم السيطرة على القلعة، وقتل الكثير من جنود الحامية الإسبانية بها[5]، وأسر حوالي 500

1- محمد دراج: المرجع السابق، ص199.
2- مجهول: المصدر السابق، ص78.
3- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص67.
4- نفسه.
5- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص47.

آخرين، بالإضافة إلى غنم الكثير من الذخائر والأسلحة[1]، لتتجه أنظار عروج وأتباعه إلى القلعة الداخلية التي فرضوا عليها حصارا محكما دام حوالي 29 يوما، إلا أنهم فشلوا في تحريرها وانسحبوا خائبين نتيجة لقلة الذخيرة الحربية التي نفذت بسبب طول الحصار، خاصة وأن السلطان الحفصي أبي عبد الله رفض تزويدهم بالبارود[2]، في مقابل ذلك وصل المدد من إسبانيا إلى الحامية الإسبانية ببجاية، التي تدعمت بحوالي 14 ألف جندي جديد[3]، وبذلك فشل الإخوة بربروس للمرة الثانية في تحرير بجاية.

ب-أسباب فشل الإخوة بربروس في بجاية:

- رفض السلطان الحفصي تزويد الإخوة بالبارود والذخيرة الحربية في وقت الحاجة.
- طول مدة الحصار أنهك البحارة العثمانيين، وجعلهم يفقدون الأمل في تحرير المدينة.
- أوعز الحسن الوزان الفشل في تحرير مدينة بجاية إلى الخسائر الكبيرة في صفوف البحارة والسكان المحليين، هذا ما كان له الأثر البالغ على نفسية المهاجمين الذين رفضوا مواصلة القتال.
- تزامنت هذه الحملة مع موسم البذر والزرع، ما جعل الكثير من الفلاحين يلتحقون بحقولهم بعد حصولهم على لغنائم.[4]
- صمود الحامية الإسبانية ودفاعها عن المدينة بكل شجاعة، أحبط كل محاولة من الباحرة المسلمين في تحرير المدينة.
- ساهم المدد القادم من إسبانيا في تغيير موازين القوى ورجح الكفة لصالح الإسبان.

نتيجة للظروف والمعطيات التي لم تكن في صالح الإخوة بربروس، اضطروا إلى رفع الحصار والعودة برا بعد إحراق السفن لاستحالة استعمالها بسبب جفاف وادي الصومام في هذه الفترة[5]، وحتى لا تبقى غنيمة للإسبان، وهكذا واصل عروج وأتباعه مسيره مشيا على الأقدام إلى غاية مدينة جيجل، ترافقه مجموعة من الأسرى الإسبان يقدر عددهم بحوالي 600 أسير، أما خير الدين فقد انسحب رفقة القوات البحرية إلى قاعدة جيجل التزاما بالاتفاق المبرم مع أخيه.[6]

1- حاجي خليفة: المصدر السابق، ص86.
2- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص72.
3- مجهول: المصدر السابق، ص80.
4- محمد بن حسن الوزان: المصدر السابق، ص 38.
5- مجهول: المصدر السابق، ص 80.
6- بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص 183.

2-استنجاد مشيخة مدينة الجزائر بعروج سنة 922هـ/1516م.

بوفاة الملك الكاثوليكي فرديناند في 22جانفي1516م[1]، جاءت فرصة تاريخية لحاكم مدينة الجزائر للتخلص من معاهدة الذل والعار الموقعة مع السلطات الإسبانية سنة 916هـ/1510م لذلك انتهز أعيان وعلماء المدينة انشغال الإسبان بموت ملكهم ورفضوا دفع الجزية التي كانوا يدفعونها سابقا كل سنة، وتمادوا في إعلان عداءهم للإسبان، وذلك بإرسال وفد عنهم من العلماء والأعيان يقودهم سالم التومي إلى مدينة جيجل للتخلص من الإسبان[2] وبطشهم وطغيانهم، والقدوم إليهم بنفسه لطرد المحتلين من قلعة البنيون«Le Pegnon»، خاصة وأنهم أضروا بهم وبتجارتهم ومدينتهم وضيقوا عليهم أيما تضييق. [3]

تعتبر هذه الخطوة التي قامت بها مشيخة مدينة الجزائر من أهم الأحداث التاريخية التي يجب التنويه بها، لأنها غيرت مجرى التاريخ الحديث للمدينة وسكانها وبلاد المغرب قاطبة، حيث تمت هذه الخطوة بعد سماع سكان المدينة ببطولات الإخوة بربروس في شرق المغرب الأوسط والبلاد التونسية، لذلك ظلوا ينتظرون الفرصة المواتية لطلب المساعدة منهم، وفي ذلك يقول محمد المنويب الفراتي: «... **إن الله تعالى كفيل بنصركما حيثما توجهتما لم تنكسر لكما راية في الجهاد، فكيف تدعوننا في أيدي الكافر لنعبد الله على خفية ولا نقدر على إشهار ديننا، وأنتم معشر المسلمين قادرون على تخليصنا من أيديهم...**». [4]

بعد تفكير عميق ومشاورات طويلة، قرر عروج الاستجابة لطلب أعيان مدينة الجزائر، وسار معهم رفقة 500 بحار[5]، وترك وصية لأخيه خير الدين –الذي كان بمدينة تونس–لخلافته على جيجل[6]، وبعد سفر شاق ومتعب وصل عروج إلى مدينة الجزائر، التي استقبله أهلها بترحاب لم يكن يتوقعه مطلقا وأكرموه غاية الإكرام، هذا ما شجعه على المضي قدما في مشروعه الرامي للسيطرة على المدينة؛ ذات الموقع الاستراتيجي الرائع والغنية بكل ما يحتاجه والمناسبة أيضا للجهاد البحري. [7]

---

1 -*Mercier (Ernest): Histoire L'Afrique Septentrional (Berbérie) depuis les Temps les Plus recule's Jusqu'à la conquête Française (1830) T3, Paris, 1868, p15.*

2 - *De Grammont (H. de): op.cit, p22.*

3- مجهول: المصدر السابق، ص82.

4- محمد المنويب الفوراتي الصفاقسي: المصدر السابق، ص 28.

5 - *Missoum (Sakina): Alger A L'époque ottomane la médina et la maison Traditionnelle, INAS, Alger, 2003, p33.*

6 - حاجي خليفة: المصدر السابق، ص87.

7- كورين شوفالييه: ثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541م، ترجمة، جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص226.

بعد استقرار عروج بمدينة الجزائر وازدياد طموحاته، خاصة بعد الترحاب والدعم والتشجيع الذي تلقاه من السكان والعلماء والأعيان، توجس سالم التومي منه خيفة، وبدأ يشك في نواياه وطموحاته المتزايدة، وقد يرجع ذلك لعدة أسباب:

- خوف سالم التومي من بطش الإسبان في حالة الفشل في تحرير قلعة البنيون.
- قد يتكرر فشل عروج في مدينة الجزائر مثلما حدث له في مدينة بجاية.
- خوف سالم التومي من ضياع ملكه لصالح عروج الذي زاد تقربه من السكان المحليين، على عكس سالم التومي الذي عرض المدينة للخراب والدمار بسبب الدخول تحت سلطة الإسبان، الذين عرّضوا المدينة للحصار، وضيقوا على النشاط التجاري، مما ألحق أضرارا بالغة بالسكان عامة والتجار خاصة، وزادوا في قيمة الضرائب المفروضة عليهم.[1]

حاول عروج إظهار حسن نيته تجاه سكان المدينة وأعيانها، من خلال القيام ببعض الأعمال التي نذكر منها:

- تعهد للسكان والأعيان باحترام سيادتهم على المدينة وعدم التدخل في شؤونهم الداخلية.
- وعدهم بعدم فرض ضرائب جديدة عليهم.
- تعهد بعدم التدخل في تجارتهم.
- تعهد بتقديم المساعدة لهم في تحرير صخرة البنيون وتحطيم أسوارها.

3-استقرار عروج رئيس بمدينة الجزائر سنة 922هـ/1516م.

حاول عروج الالتزام بتعهداته السابقة تجاه السكان المحليين والأعيان، وقرر تحرير قلعة البنيون، إلا أنه فشل في ذلك[*]، بعد قرابة عشرون يوما من القصف المتتالي عليها[2]، هذا ما ولّد التذمر بين السكان والأعيان، خاصة بعد الممارسات الرعناء التي كان يقوم بها بعض أتباع عروج، وتصرفاتهم اللامسؤولة ومعاملاتهم الفضة تجاه السكان الذين خابت آمالهم، لأنهم لم يكونوا يتوقعون مثل هذه الأفعال.[3]

1- محمد بوشنافي: المرجع السابق، ص276.

*- علل الكثير من المؤرخين هذا الفشل بموقف سالم التومي الذي لم يتورع في هذه المرحلة الصعبة عن تدبير الدسائس وحبك المؤامرات ضد عروج والاتصال بالإسبان وإفشاء الأسرار لهم، بل بلغ من تواطئه أنه استمات في خدمتهم من أجل استرجاع سلطته وملكه الضائع، جاسم محمد حسن العدول: المرجع السابق، ص214.

2- ابن رقية الجديري التلمساني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1626، ص05.

3- محمد دراج: المرجع السابق، ص211.

بدأ التذمر والسخط يصيب السكان جراء بعض تصرفات عروج وأتباعه، هذا ما استغله سالم التومي وبعض أعيان المدينة وشرعوا في تأليب العامة ضدهم، إلا أن عروج تفطن لذلك وأمر بإعدام سالم التومي بعد مشورة العلماء فيمن تعامل مع الإسبان سرا ضد المسلمين[1]، وبهذه الخطوة استطاع عروج التخلص من خصم عنيد حاول إفشال مشروعه بمدينة الجزائر، هذا ما فتح له الأبواب على مصراعيه لحكم المدينة بكل راحة وبدون منافسة من أحد، حيث نودي عليه كملك على المنطقة وضربت السكة باسمه، ودان له الجميع بالولاء والطاعة، وبدأوا في دفع الخراج له.[2]

حاول السكان المحليون تنظيم أنفسهم جيدا لإعلان الثورة على عروج بتحريض من بعض الأعيان والعلماء الذين أعلنوا البيعة ليحي بن سالم التومي ليكون سلطانا عليهم خلفا لوالده بدل عروج الذي نصّب نفسه حاكما للبلاد[3]، خاصة وأن الإسبان المتحصنين بالقلعة حاولوا مساعدة المتمردين، إلا أن عروج اكتشف هذه المؤامرة وأمر جنوده بالوقوف على أبواب الجامع يوم الجمعة، والقبض على جميع المشاركين في هذا التمرد وقتلهم، فيما استطاع يحي بن سالم التومي الفرار إلى وهران طالبا نجدة الإسبان لمساعدته على استعادة حكم أبيه.[4]

بعد استقرار الأوضاع بمدينة الجزائر والقضاء على المؤامرات، بدأ عروج في تنظيم الشؤون العامة بالمدينة وفرض الأمن والنظام، هذا ما عاد بالفائدة على الجميع، وجعل الثقة تعود بين عروج والسكان المحليين، خاصة الأعيان والعلماء الذي كسب ودهم وقربهم إليه، فكان يستشيرهم في كثير من الأمور التي تخص البلاد والعباد، وبذلك اطمأن سكان المدينة والتفوا حول عروج وجنوده، وقرروا التعاون معه في مواجهة الإسبان وطردهم من قلعة البنيون، هذا ما شجع سكان المدن المجاورة للاتصال بعروج وإعلان طاعتهم له والاعتراف بسيادته على المنطقة، خاصة سكان البليدة، دلس، مليانة وبلاد منطقة القبائل.[5]

4-الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر سنة 922هـ/1516م.

بعد النجاحات التي حققها عروج بمدينة الجزائر، قررت السلطات السياسية والعسكرية الإسبانية القيام بحملة عسكرية لاحتلال مدينة الجزائر نهائيا، والقضاء على حكم عروج بها، وقد أوكلت هذه المهمة إلى الضابط

1- محمد بوشنافي: المرجع السابق، ص278.
2- محمد بن حسن الوزان: المصدر السابق، ص39.
3- محمد دراج: المرجع السابق، ص212.
4- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص83.
5- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص14.

دييغو ديفيرا «Diego de Vera» بأمر من الكاردينال خمينيس، حيث تم تجهيز أسطول بحري مكونا من 350 سفينة حربية[1] و15 ألف جندي[2]، انطلق من إسبانيا في صيف 922هـ/1516م باتجاه سواحل مدينة الجزائر، ولما سمع عروج وأتباعه بهذه الحملة قرروا تنظيم أنفسهم والاستعداد جيدا للدفاع عن مدينتهم، فجهزوا القلاع والحصون وبناء الاستحكامات، وأعلنوا في الناس النفير العام، حيث كان عدد المدافعين عن المدينة حوالي 19 ألف جندي، منهم 6 آلاف من السكان المتطوعين و13 ألف من أتباع عروج، مسلحين بالمدافع والبارود والكثير من المؤن مخافة من طول مدة الحصار. [3]

مباشرة بعد وصول الإسبان إلى مدينة الجزائر ضربوا حصارا محكما وبدأوا في قصفها في شهر سبتمبر 1516م، ولم يكتفوا بذلك، بل قرر دييغو ديفيرا إنزال جميع جنوده إلى البر والتقدم بهم لاحتلال المدينة التي استطاع احتلال بعض الأبراج والمناطق المعزولة منها[4]، بالرغم من تحذيرات قائد قلعة البنيون نيقولاي دي كونت الذي طلب عدم إنزال جميع القوات، والاكتفاء بإنزال محدود، وترك قوات احتياطية لحماية مؤخرة الجيش وتأمين خط الرجوع، هذا ما جعل ساحة المعركة تتوسع من سائر البحر إلى حي الأتراك الواقع ضمن القلعة الداخلية.[5]

قابل المدافعين عن المدينة بقيادة عروج الهجوم الإسباني بكل عزم وقوة، واستطاعوا رد الهجوم واسترجاع الحصون والأماكن التي تم احتلالها سابقا[6]، هذا ما أثر في معنويات الجيش الإسباني التي بدأت تنهار شيئا فشيئا ولم يعد بوسعهم مواصلة القتال والصمود في وجه الهجمات المتتالية للمقاومين، وفي نفس الوقت الذي كانت المعارك بين الطرفين تزداد ضراوة، بدأ البحر في الهيجان والاضطراب نتيجة هبوب عاصفة بحرية أتت على ما تبقى من الإسبان الذين بدأوا في الفرار أملا في النجاة مما وقعوا فيه، إلا أن بعدهم عن السفن حال دون ذلك، إلا القليل منهم الذين استطاعوا النجاة، تاركين خلفهم 3 آلاف قتيل و2700 أسير، بالإضافة إلى جميع المعدات التي قدموا بها[7]، لتسفر هذه المعركة عن نهاية سعيدة لعروج وأتباعه الذين استطاعوا رد هذه الحملة، التي تعتبر أول امتحان حقيقي لهم في مواجهة الإسبان.

1 – محمد المنويب الفوراتي الصفاقسي: المصدر السابق، ص39.

2- حاجي خليفة: المصدر السابق، ص87.

3-*Diego (H.de). op.cit, p53.*

4- *Mercier (E) : op.cit, p17.*

5- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ص 55، 56.

6 -*Conestaggio (Jeronimo): Relation des Préparatif, Faits pour surprendre Alger, Traduite de L'italien et Annotée par, Grammont (H. de), Adolphe Jourdan, Alger, 1882, p3.*

7- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص78؛ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص ص 166، 167.

5-نتائج الحملة الإسبانية.

- أقيمت الأفراح بمدينة الجزائر وأحوازها ابتهاجا بهذا النصر المظفر، الذي أبان عن حقيقة عروج وأتباعه في مواجهة الإسبان.
- أحيا هذا الانتصار أمالا كبيرة في نفوس كادت تقنط من مواجهة الإسبان واستحالة النصر عليهم. [1]
- انهزام الإسبان* الذين فقدوا حوالي 3 آلاف قتيل و2700 أسير والكثير من العتاد الحربي في أرض المعركة.[2]
- عمّ الحزن كامل إسبانيا، وغضب شارلكان غضبا شديدا لهذا الحدث الأليم، الذي هزّ أركان الإمبراطورية الإسبانية.[3]
- كان هذا الانتصار الذي حققه عروج وأتباعه بمثابة البداية الفعلية لتحرير كامل سواحل المغرب الأوسط.

6-استراتيجية عروج في تحرير الجهة الغربية من المغرب الأوسط.

6-1-تحرير قلعة تنس سنة 923هـ/1517م.

أثبت عروج ذكاءً خارقا عندما استطاع السيطرة على مدينة الجزائر، لأنه قام بعمل استراتيجي هام، لأن هذه المدينة تتوسط المغرب الأوسط، حيث أصبح قريبا جدا من الإسبان الذين فرق بين مراكز احتلالهم وجعلهم بين فكي كماشة؛ جيجل من الجهة الشرقية ومدينة الجزائر في الوسط، التي أصبحت قاعدة ملكه وعاصمة المناطق المحررة، والمدينة التي من خلالها بدأ في التوسع غربا لطرد الإسبان[4]، لذلك عمل على بناء الأسوار وتشييد القلاع والأبراج بالمدينة لحمياتها من خطر الإسبان المتربصين بها، وبعد ذلك قرر فتح قلعة تنس والانتقام من حاكمها

1- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص176.

*- أرجعت كورين شوفالييه سبب الانهزام إلى:

- إنزال الجيش الإسباني بطريقة فوضوية على الشاطئ، مما جعل سكان المدينة يكتشفونه ويستعدون جيدا لملاقاته.
- ذكاء الجنود الأتراك وسيطرتهم على أرض المعركة، والتزود الجيد بالمؤن والتفاف السكان حول عروج.
- الخلاف الذي وقع بين نيكولاي قائد الحصن ودييغو ديفيرا قائد الجيش حول مكان الإنزال.
- الخطأ في تقسيم الجيش الإسباني إلى أربعة فرق ومهاجمة المدينة من عدة جهات، هذا ما شتت جهود الجيش...للاستزادة ينظر، كورين شوفالييه: المرجع السابق، ص33.

2- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص78؛ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص ص 166، 167.

3- مجهول: المصدر السابق، ص86.

4- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص78؛ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص ص 166، 167.

حميد العبد الذي تعاون مع المحتلين أثناء حملتهم على مدينة الجزائر*، فجهز جيشا من المتطوعين والأندلسيين والأتراك يقودهم خير الدين الذي سار بهم إليها في شهر حزيران 1517م، ونجح في تحرير المدينة، بالرغم من الإمدادات التي وصلت إلى حميد العبد من طرف الإسبان، الذي لم يستطع مواصلة الدفاع عن مدينته وفضل الفرار تاركا المدينة تحت سيطرة خير الدين؛ الذي قرر العودة لمدينة الجزائر محملا بالكثير من الغنائم[1]، تاركا نائبا عنه لحكم المدينة المحررة**، التي عاد إليها حميد العبد مباشرة بعد سماعه بمغادرة خير الدين، ليقرر عروج ضمها نهائيا إلى سلطته.[2]

بعد ثبات تعاون حميد العبد مع الإسبان، قام باستدعاء العلماء واستفتاهم في حكم الشرع فيمن يتولى الكفار ضد المسلمين، وأعلن طاعته للملك الإسباني شارلكان، الذي كان يطارد المسلمين في الأندلس وبلاد المغرب الإسلامي، ويحتل أرضهم ويستنزف خيراتها، ويقتلهم وأبناءهم ونساءهم، فأصدر العلماء فتوى بجواز قتله وهدر دمه، ووفقا لذلك سار عروج إلى مدينة تنس التي ما إن سمع أهلها بقدومه حتى أعلنوا عصيانهم على أميرهم حميد العبد، الذي قبضوا عليه وسلموه إلى عروج[3]، الذي أمر بقتله رفقة مجموعة من أتباعه والمتعاونين معه.[4]

بعد ضم مدينة تنس، اتسعت رقعة المدن التي سيطر عليها عروج وأخيه خير الدين، وأصبح عددها عشرة؛ خمسة منها تقع شرقي مدينة الجزائر وخمسة أخرى تقع غربها***، وبغية تنظيم شؤونها قرر عروج تقسيمها إلى مقاطعتين:

- شرقية ومركزها دلس ونصب عليها خير الدين حاكما.
- غربية مقرها مدينة الجزائر ويحكمها بنفسه.[5]

---

* – كانت هناك الكثير من المراسلات بين حكام تنس والإسبان في هذه الفترة، وقد عبر حكام تنس عن خضوعهم وتبعيتهم التامة للإسبان، ووقوفهم ضد عروج وخير الدين، فقد نشر شارل فيرو المراسلات التي تمت بين الطرفين في المجلة الإفريقية، للمزيد ينظر:

Chârles (Feroud): Lettres Arabes de L'époque de L'occupation Espagnole En Algérie, R.Af, N°17, Alger, 1873, p313-321.

1 – حاجي خليفة: المصدر السابق، ص89.

**– في كل المراجع التي اطلعنا عليها وجدنا أن عروج هو الذي سار بنفسه وفتح تنس، إلا أننا ونحن ننجز هذا البحث وجدنا أن خير الدين في مذكراته ذكر أنه فتحها أولا ثم سار عروج بنفسه مرة ثانية وضمها نهائيا، ووافقه في ذلك محمد المنويب الفوراتي الصفاقسي، لذلك اعتمدنا رواية خير الدين لأنها مصدر مهم في توثيق معلومات هذه المرحلة.

2– خير الدين: المصدر السابق، ص81.

3– ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص26.

4– ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص09.

***– جيجل، مدينة الجزائر، البليدة، دلس، تنس، مليانة، شرشال، المدية، إمارة كوكو، إمارة بني عباس.

5– محمد المنويب الفوراتي الصفاقسي: المصدر السابق، ص21.

أ-حكم عروج لمدينة تلمسان سنة 924هـ/1518م.

عاشت مدينة تلمسان مرحلة حرجة في تاريخها بداية القرن السادس عشر الميلادي؛ بسبب التنافس الشديد على السلطة بين أمراء العائلة الحاكمة، فقد استطاع أبو حمو الثالث إزاحة ابن أخيه أبي زيان المسعود من الحكم بمساعدة الإسبان[1]، وقد تزامنت هذه الأحداث الأليمة مع فتح عروج لمدينة تنس، أين قدم إليه وفد من أعيان مدينة تلمسان يشكوا إليه حالها المتردي منذ وقوعها تحت الحماية الإسبانية سنة 917هـ/1511م[2]، ويناشدونه الإسراع في نجدتهم من أبي حمو الثالث الذي طغى واشتد عليهم، وزجّ بابن أخيه المسعود-الوريث الشرعي للحكم-في السجن[3]، لذلك رقّ عروج لحالهم وقرر مساعدتهم والاستجابة لهذه الدعوة*، خاصة وأنها فرصة مناسبة لتوسيع ممتلكاته، حيث سار إلى مدينة تلمسان على رأس قوة برية سنة 923هـ/1517م[4]، مفضلا سلك طريق البحر تجنبا لأي مواجهة مع الإسبان المتربصين به، وفي طريقه استطاع فتح قلعة بني راشد** التي اتخذها مركزا لتأمين مواصلاته، وعين كحاكم لها أخاه إسحاق تساعده حامية عسكرية لحماية الطريق حين عودته، وفي نفس الوقت شن هجمات على القوات الإسبانية بوهران وعرقلة تحركاتها، حتى ينشغلوا عنه أثناء سيره باتجاه تلمسان، ومنعهم من التزود بالمؤن التي كانت تأتيهم من القلعة.[5]

التقى جيش أبي حمو الثالث المؤلف من 9 آلاف مقاتل وعروج وأتباعه بمنطقة سيدي بلعباس في ربيع 1517م في معركة رهيبة أسفرت عن انهزام أبي حمو وتشتت جيشه، فيما واصل عروج سيره إلى مدينة تلمسان التي استقبله أهلها استقبال الفاتحين ورحبوا به غاية الترحيب، ابتهاجا بهذا النصر المحقق على خصمهم أبي حمو، الذي

1- ابن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص07.

2- جاسم محمد حسن العدول: المرجع السابق، ص218.

3- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص80.

*-سارع عروج لتلبية نداء أهل تلمسان لعدة أسباب نذكر منها:

-القيمة الاستراتيجية للمدينة، فالسيطرة عليها تعني إحكام القبضة على وهران من جهتين: شرقا تنس وغربا تلمسان.

- الإرث الحضاري والقيمة المعنوية لتلمسان لأنها تمثل عاصمة المغرب الأوسط.

- توسيع رقعة ممتلكاته بالمغرب الأوسط.

4- محمد أبو راس الناصري: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"، حققه، محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م، ص 107.

**- قال عنها محمد المنويب الفوراتي الصفاقسي: (...كانت قلعة بني راشد من أغنى بلاد الله زرعا وضرعا تذهب الميرة إلى كل ناحية وكانت وهران إذ ذاك قد استولى عليها الكفرة فكانت تأتيها الميرة من قلعة بني راشد، فينفقون بذلك أهلها ويستعينون بذلك على قتال المسلمين...)، للاستزادة ينظر، محمد المنويب الفوراتي الصفاقسي: المصدر السابق، ص21.

5- جاسم محمد حسن العدول: المرجع السابق، ص218.

استطاع الفرار من أرض المعركة بمساعدة حراسه[1]، حيث توجه إلى مدينة فاس طالبا مساعدة سلطانها، الذي رفض تقديم المساعدة له*، حينها رجع قافلا إلى الإسبان بمدينة وهران مستجيرا بهم، وطالبا مساعدتهم لاسترجاع ملكه الضائع.[2]

أتم عروج بسط سيطرته على تلمسان سنة 925هـ/1518م[3]، وبعدها قام بإطلاق سراح أبي زيان المسعود وسلمه حكم المدينة، إلا أن العلاقة بين الطرفين ما لبثت أن تدهورت بينهما بسبب محاولة أبي مسعود التمرد على عروج بمساعدة بعض الرافضين لتواجد هذا الأخير بمدينتهم، مستغلين في ذلك خروجه لإخضاع القبائل القاطنة على حدود المغرب الأقصى مثل بني عامر، وبين يزناسن، وقد استغل عروج هذه المهمة، واتصل بالسلطان الوطاسي بهدف تنسيق الجهود في مواجهة الإسبان المحتلين، غير أنه بمجرد ما سمع بخبر التمرد حتى عاد مسرعا إلى مدينة تلمسان، أين استعمل القوة العسكرية للقضاء على زعماء التمرد، وعلى رأسهم أبي زيان وسبعين من أفراد عائلته[4]، وبذلك تم القضاء على هذه الفتنة ولو إلى مدة وجيزة.

ب-التآمر الإسباني المحلي واستشهاد عروج رئيس سنة 925هـ/1518م.

كان الإسبان يراقبون عن كثب التطورات الحاصلة في تلمسان، وما كان يحققه عروج من انتصارات متتالية على خصومه، خاصة وأنه أصبح على مقربة من مدينة وهران، لذلك عزموا على وضع حد لنشاطه وحياته أيضا، واسترجاع المدينة منه وتسليم حكمها لأبي حمو الثالث، لذلك قرروا تجهيز حملة عسكرية بأمر من الملك شارلكان شخصيا، يكون انطلاقها من مدينة وهران[5] لتعقب تحركات عروج أينما حل وارتحل.

بعد القرار الذي اتخذه شارلكان، والقاضي بتعقب عروج والقضاء عليه واسترجاع تلمسان، تم إرسال إمدادات ضخمة بلغ قوامها 10 آلاف جندي من إسبانيا[6] لمساعدة القوات الموجودة بوهران وقوات أبي حمو الثالث المتحالفة معها، والتي قدرت بحوالي 10 آلاف رجل من القبائل العربية المؤيدة له[7]، وكانت بداية المعارك بين

1- نيقولاي إيفانوف: المرجع السابق، ص 126.

*- لعله لم يستطع كسب تأييد سلطان المغرب الأقصى، لأنه كان يعيش مشاكل داخلية نتيجة للصراع بين الوطاسيين والسعديين الذين بدأوا في الظهور على مسرح الأحداث وأخذ مكانهم داخل المغرب الأقصى، وأيضا تجنبا لمواجهة الإسبان المسيطرين على وهران والمرسى الكبير، وتفاديا للدخول معهم في مشاكل تؤثر عليه سلبا.

2- مجهول: المصدر السابق، ص91.

3- أبو راس محمد الناصري: زهر الشماريخ في علم التاريخ، مخطوط، مكتبة خاصة، الجزائر، رقم 01، ص 81.

4- محمد بوشنافي: المرجع السابق، ص80.

5- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص88.

6- ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص9.

7- حاجي خليفة: المصدر السابق، ص91؛ جاسم محمد حسن العدول: المرجع السابق، ص220.

الطرفين في قلعة بني راشد، أين تمركز إسحاق رئيس منذ فتحها، حيث دارت معارك عنيفة بين الطرفين كانت الغلبة فيها للإسبان والقبائل المتحالفة معهم، بالرغم من البسالة والشجاعة التي أظهرتها الحامية المرابطة في القلعة بقيادة إسحاق رئيس الذي استشهد رفقة مساعده خيرالدين بك إسكندر أثناء المعارك غير المتكافئة بين الطرفين.[1]

بعد احتلال قلعة بني راشد توجه الإسبان وأبي حمو إلى تلمسان، التي ضربوا عليها حصارا محكما، وأغلقوا جميع المنافذ المؤدية إليها، آملين من وراء ذلك استسلام عروج وأتباعه والسيطرة على المدينة في أقل مدة ممكنة وبأقل التكاليف، إلا أن هذا الأمل بدأ يتلاشى، بالرغم من عدم تكافؤ القوتان، والفرق الشاسع في العدة والعتاد، حيث استطاع المدافعون عن المدينة الصمود لمدة ستة أشهر كاملة، ليتمكن بعدها الإسبان من اقتحامها، أين دارت معارك عنيفة أبلى فيها السكان المحليين وعروج بلاءً حسنا، وكبدوا المحتلين خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، إلا أن اختلال موازين القوى لصالح الإسبان وحلفائهم، اضطر عروج وأتباعه للانسحاب من المدينة والتوجه إلى قلعة المشور للاحتماء بها في انتظار وصول المدد إليهم من سلطان فاس مولاي أحمد بحسب الاتفاق المبرم سابقا بين الطرفين، هذا ما جعل عروج يقرر الخروج من القلعة والسير بمحاذاة الساحل، غير أن الإسبان لحقوا به، ووقعت بينهما معركة استشهد فيها عروج بعد قتال طويل ضد خصومه[2] عن عمر ناهر 44 سنة بالمكان المسمى الوادي المالح على يد فارس إسباني اسمه غارسيا فرننديز دولابلازا[3]، بالإضافة إلى عدد كبير من أتباعه[4]، ولم يكتف الإسبان بقتل عروج بل قاموا بقطع رأسه وإرساله إلى الملك الإسباني شارلكان[5]، الذي قام بتقليد غرسيا فرننديز دولا بلازا وسام الشرف الملكي نظير عمله هذا[6]، وقد كان هذا الحدث البارز الذي تم عن طريق عمل مزدوج بين الإسبان المحتلين وبعض المتعاونين والعملاء فرصة لإقامة الاحتفالات في كامل التراب الإسباني، ابتهاجا بهذا النصر المحقق الذي انتظروه لمدة فاقت الست سنوات.[7]

1- حساني مختار: "دراسة لمخطوط قلعة بني راشد"، **المجلة المغاربية للمخطوطات**، ع3، مخبر المخطوطات، أعمال الملتقى الوطني للتراث المخطوط، نوفمبر 2006م، غليزان، الجزائر، 2013م، ص253.

2 - حاجي خليفة: المصدر السابق، ص91.

3- المهدي البوعبدلي: "أضواء على مدينة الجزائر في العهد التركي من خلال مخطوط الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، **مجلة الأصالة**، ع8، الجزائر، 1972، ص280.

4- محمد بوشنافي: المرجع السابق، ص280.

5- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص92.

6- المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص 280.

7- محمد بوشنافي: المرجع السابق، ص280.

ج-أسباب نكسة عروج في تلمسان:

- طول مدة الحصار الذي فرضه الإسبان على أهالي تلمسان، ألحق أضرارا جسيمة بهم، هذا ما اضطرهم للتخلي عن عروج أملا في انصراف المحتلين عنهم.
- استياء السكان المحليين من حكم عروج، حيث اتهم بأنه أحدث الشقاق بينهم، واعتدى على ممتلكاتهم وأراضيهم، هذا ما كان مدعاة للانقلاب عليه في أول فرصة تتاح لهم.
- تأخر المدد عن عروج من طرف مولاي أحمد، بالرغم من أن هذا الأخير التزم بالوعد، إلا أن القوات التي أرسلت ظلت طريقها وسلكت طريق مليلية عكس طريق تلمسان ولم يسعفها الحظ في الوصول لميدان المعركة. [1]
- طول مدة حصار قلعة المشور الذي دام حوالي 26 يوما أنهك عروج ومن معه، وعرّضهم للجوع والعطش وأنهك قواهم، زاد الأمر خطورة نفاذ الذخيرة والسلاح، وكثرة الجرحى والمعطوبين الذي زادت معاناتهم جراء الحصار. [2]
- لم يتجاور عدد الجنود المرافقين لعروج 500 جندي، وبذلك لم يكن بإمكانهم مواجهة آلاف الجنود الإسبان وعملاءهم بقيادة أبي حمو.
- مكان المعركة وظروفها لعبا دورا بارزا في هزيمة عروج، خاصة وأنه كان يقاتل في بيئة بعيدة عن بيئته خاصة بعد تحالف الإسبان وأبو حمو وأتباعه ضده.[3]

استطاع عروج بأعماله الفريدة من نوعها خلال فترة وجيزة لم تتجاوز ست سنوات أن يمهد الطريق لإنهاء احتلال الإسبان للمغرب الأوسط، ويضع الحجر الأساس لتأسيس الإيالة الجزائرية الحديثة، وتثبيت أركان الحكم العثماني ببلاد المغرب، خاصة وأنه حاول جاهدا طرد الإسبان من كامل السواحل المغاربية، بالرغم من عدم تكافؤ القوتين، وقد عمل كل ما في وسعه لتحقيق هدفه هذا، إلا أن قضاء الله سبقه، ليتولى إكمال هذه المهمة الشريفة من بعده أخيه خير الدين.

1- جاسم محمد العدول: المرجع السابق، ص221.

2- مجهول: المصدر السابق، ص94؛ محمد المنويب الفوراتي الصفاقسي: المصدر السابق، ص21.

3- جاسم محمد العدول: المرجع السابق، ص221.

ثانيا: العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين 926-945هـ/ 1520-1538م.

المبحث الأول: مراحل تأسيس الإيالة الجزائرية.

1-المرحلة الأولى: إرهاصات التأسيس 920-926هـ/1514-1518م.

مر تأسيس الإيالة الجزائرية بعدة محطات؛ من خلال الجهود التي بذلها الإخوة بربروس وسكان المغرب الأوسط في إقناع سلطان الدولة العلية سليم الأول، ليأخذ في الأخير طابعا رسميا، وبذلك أصبحت الإيالة الجزائرية بعدها القاعدة الأولى في صد العدوان الإسباني.

ونظرا لمجهودات الإخوة بربروس في حوض البحر المتوسط، توطدت العلاقة بينهم وبين الباب العالي، كانت هناك عدة سفارات نحو إسطنبول من أجل التقرب وكسب تأييد السلطان، ومن أهم هذه السفارات نذكر:

أ-سفارة بيري رئيس* سنة920هـ/1514م.

مرّت عدة سنوات عن أول اتصال بين الإخوة بربروس والسلطان العثماني قبل الانضمام الرسمي للدولة العلية[1]، فقد أرسل الإخوة بيري رئيس ومعه وفد لمقابلة السلطان سليم الأول وهو شخصية معروفة تحظى بالاحترام لدى السلطان.[2]

لقد تعمد الإخوة بربروس إرسال شخصية معروفة ليؤكدوا للسلطان مدى تمسكهم بخدمته وإبداء ولائهم له، ضف إلى ذلك أنهم يسعون إلى إكمال المهمة التي بدأها والده السلطان بايزيد في خدمة المسلمين والدفاع

---

* – اسمه محي الدين بيري رئيس؛ أحمد بن الحاج محمد من عائلة قرمانلية ولد بغاليبولي سنة 869هـ/ 1465م بحار وجغرافي تركي ابن أخت كمال رئيس الذي أرسله السلطان العثماني بايزيد الثاني لنجدة مسلمي الأندلس، عاش معه حوالي 14سنة، شارك خلالها في كل العمليات التي خاضها كمال رئيس، جال العديد من أقطار العالم، وأثناء هذه الرحلات أتيحت له الفرصة للتوقف بالعديد من البلدان كفرنسا، إسبانيا، تونس، بلاد المغرب الأوسط، وبلدان البحر الأدرياتيكي، فكان يسجل ملاحظاته؛ حول الطبيعة و المواقع الجغرافية، والتي دونها فيما بعد في كتابه البحرية، وأثبتها في خريطة مفصلة وضعها لكتابه، شارك في العديد من الغزوات البحرية ،مثل مشاركته في فتح مصر رفقة السلطان سليم الأول، واسترجاع اليمن من يد البرتغاليين سنة 1526م، استرجاع مدينة مسقط من البرتغاليين أيضا ...حكم عليه بالإعدام من طرف السلطان سليمان القانوني سنة 1535 أو سنة 1554م، بتهمة التآمر مع البرتغاليين، وعند تنفيذ حكم الإعدام فيه كان عمره ناهز 89سنة...للاستزادة ينظر، زهرة زكية: "لمحة عن الجغرافي الأميرال العثماني بيري رئيس وكتابه "كتاب البحرية"، **مجلة الدراسات التاريخية**، العدد 6، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، وزارة التربية والتعليم، كتابة الدولة للتعليم العالي، الجزائر، 1413هـ/1992م، ص ص101، 106.

1 – محمد دراج: "تأسيس الإيالة الجزائرية"، **مجلة عصور**، ع16، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، جوان، ديسمبر 2010م، ص44.

2 – حاجي خليفة: المصدر السابق، ص86.

عنهم، كما سعوا لإصلاح العلاقة مع السلطان لأن أخاهم عروج في بداية الأمر كان في خدمة قرقود، الذي كان هو الآخر في صراع ضد أخيه سليم الأول.[1]

يقول خير الدين: «...**غادر بيري رئيس تونس في ستة قطع بحرية فوصل إلى إستانبول في اليوم الحادي والعشرين من خروجه...استقبل السلطان بيري رئيس وتفضل بقراءة رسالتي بنفسه وسرّ بذلك كثيرا...**».[2]

ما يمكن تأكيده من خلال كلام خير الدين هو أن هذه السفارة تمت عندما كان الإخوة مستقرين بتونس، ولم يكن لهم أي اتصال بالمغرب بالأوسط، وأن الهدف الرئيس منها هو كسب ود السلطان للاستعانة به في مقاومة الاحتلال الإسباني، وكذلك نصرة إخوانهم الموريسكيين، بعدما تأكدوا من ضعف وتقاعس السلطان التونسي.[3]

بهذا توطت علاقاتهم بالباب العالي[4] ونالوا تأييد السلطان سليم الأول، خاصة بعدما دعا لهم بالنصر والتمكين عقب قراءته لرسالتهم، وفي هذا الخصوص قال خير الدين: «... **بعد قراءة رسالتي رفع يديه المباركتين بالدعاء لنا ولبحارتنا، اللهم بيض وجهي عبديك عروج وخير الدين في الدنيا والآخرة، اللهم سدد رميتهما واخذل أعداءهما وانصرهما في البر والبحر...**».[5]

إن قراءة الرسالة من طرف السلطان سليم الأول هو دليل قاطع على الأهمية والمكانة التي يشغلها الإخوة عنده، فلا يعقل أن السلطان يقرأ رسائل إنسان عادي ليس له أهمية تذكر، ولكن قراءة هذه الرسالة دليل على أن السلطان كان يتتبع أخبار هؤلاء المغامرين ويولي لهم أهمية قصوى، فقد أحاطهم بالرعاية في أول فرصة تتاح لهم، وبالتالي إصلاح العلاقة التي كانت متوترة بين الطرفين، على اعتبار أن عروج كان يؤيد قرقود على حساب سليم الأول، وبذلك صفح هذا الأخير عن كل الأخطاء الماضية التي ارتكبها الإخوة بربروس.[6]

تخلل هذه الرحلة إرسال هدايا إلى السلطان العثماني، تفضل بقبولها والاطلاع عليها واحدة واحدة إضافة إلى سماحه لسفن بيري رئيس بالرسو قريبا من قصره، بالرغم من أنه إلى وقت هذه السفارة لم تتجرأ أية سفينة على

---

1 – مجهول: المصدر السابق، ص58.

2 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص 64.

3 – مجهول: المصدر السابق، ص67.

4 – نيقولاي إيفانوف: المرجع السابق، ص 122.

5 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص 64.

6 – نيقولاي إيفانوف: المرجع السابق، ص180.

الاقتراب من الساحل المحاذي للقصر[1]، وهذا دليلا على الثقة المطلقة الموجودة بين السلطان والإخوة بربروس ممثلين ببيري رئيس.

لقد سُرَّ السلطان بالهدايا التي أرسلها له الإخوة، هذا ما كان مدعاة لتوجيه رسالة شكر وتقدير إليهم، والدعاء لهم بالنصر، وبذلك تأكدت العلاقة الرسمية بين الطرفين منذ هذه السفارة وازدادت متانة وقوة، فأرسل السلطان مجموعة من الهدايا منها قادرغاتين مجهزتين، بالإضافة إلى سيفين حُلّيت قبضة كل منهما بالماس، وخلعتين سلطانيتين ونيشانين ملكيين.[2]

تخلل إرسال الهدايا السلطانية إلى الإخوة بربروس إرسال خط همايوني* لا نعرف محتواه، إلا أن الخط الهمايوني الثاني الذي بعثه إلى السلطان الحفصي يأمره فيه بضرورة تنفيذ التعاليم الواردة فيه** والتحذير بلغة التهديد من مخالفته[3]، والذي يمكن استنتاجه من هذه الرواية، أن الإخوة بربروس كانوا قد دخلوا تحت سلطة الدولة العلية بشكل رسمي وصاروا منذ ذلك التاريخ تحت حمايتها.

الملاحظ على هذه السفارة أنها كللت بالنجاح التام:

- أصلحت العلاقة التي كانت متوترة بين الإخوة بربروس والسلطان سليم الأول.[4]
- سمحت بدخول الإخوة بربروس تحت حماية السلطنة العلية
- أصبح للإخوة بربروس سندٌ قويٌ يشد أزرهم ويحميهم من الأعداء والمتربصين بهم.

لا يوجد لدينا ما يدل على أن السلطان العثماني قد عين عروج أو خير الدين في أي منصب رسمي باسم الدولة العلية[5]، وعليه فإن هذه المرحلة من علاقاتهم اتسمت بضمان الحماية لهم وتطابق سياسة الإخوة في غرب المتوسط مع سياسة سلطات الدولة العلية الرامية إلى التوسع في كامل الأراضي الإسلامية، وإنقاذ مسلمي الأندلس، وكان لهذه السفارة أهميتان كبيرتان على مستقبل الوجود العثماني في بلاد المغرب هما:

1 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص64.

2 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص47.

* – أمر ملكي أو سلطاني الذي يصدره السلطان العثماني إلى رعاياه أو رجال دولته.

** – يقول خير الدين: «... إلى أمير تونس إذا وصلك كتابي هذا عليك أن تعمل به، واحذر أن تخالفه وإياك أن تقصر في تقديم أي عون لخادمينا عروج وخير الدين...»، المصدر نفسه.

3 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص68.

4 – نيقولاي إيفانوف: المرجع السابق، ص122.

5 – محمد دراج: المرجع السابق، ص ص، 44، 45.

1- أنها أعطت الصبغة الرسمية للعلاقة بين الإخوة بربروس والدولة العلية، وذلك من خلال الحماية التي قدمها السلطان العثماني لهم في المغرب الإسلامي.

2- تحول العلاقة بين السلطان الحفصي والإخوة بربروس من دور الحليف الناصر إلى الخصم المناوئ بحيث بدأ السلطان الحفصي يجاهر بعداوته للإخوة بدافع الخوف على عرشه[1]، وفي ذلك يقول خير الدين: «... **منذ هذه اللحظة تغير موقف السلطان منا، وبدأ يبدي لنا خلاف ما يبطن، لما يجده في نفسه من حسد، لقد أدرك أننا لم نعد مجرد قراصنة بائسين مجردين من أية حماية، بل صرنا في خدمة وحماية السلطان العثماني المعظم...والابتعاد عنا خوفا من أن نأخذ منه مملكته لحساب السلطان سليم خان**...».[2]

والملاحظ أن الإخوة بربروس أصبحوا يدركون فعلا أن حماية السلطان سليم زادتهم قوة وثقة بأنفسهم ولا يريدون الخضوع إلا له، وهذا ما أدركه السلطان الحفصي الذي أحس أن السلطنة العلية ممثلة في الإخوة بربروس باتت تهدد سلطانه المتهالك داخليا والمهدد خارجيا، لذلك اضطر لإعلان العداوة المباشرة لهؤلاء الأخوة.

ب-سفارة مصلح الدين قورد أوغلو رئيس923هـ/1517م.

السفارة الثانية كانت بقيادة مصلح الدين قورد أوغلو رئيس إلى الإسكندرية في حدود923هـ/1517م ودامت حوالي شهرين، وقد وصل هذا الوفد إلى الإسكندرية ترافقه عدة قطع بحرية، وذلك أثناء وجود السلطان سليم الأول بالقاهرة، الذي احتفى بهذا الوفد وأمر له بمعدات وجنود، فعاد مصلح الدين بهذا كله إلى مدينة الجزائر كما ذكر ذلك خير الدين.[3]

أما دوافع هذه الزيارة والقرارات التي عادت بها من طرف السلطان العثماني فلا يوجد أي دليل على وجود رسالة أو خط همايوني أُرسل إلى خير الدين وعروج بل قد يكون الأمر حدث عرضا.[4]

ومع ذلك فقد استطاعت هذه السفارة توطيد العلاقة أكثر بين الطرفين، ومواصلة تأكيد حاكم السلطنة العلية دعمه للإخوة بربروس، وهذا ما نستشفه من خلال إرسال المعدات الحربية وبعض الجنود لهم.

1 - محمد دراج: المرجع السابق، ص 45.
2 - خير الدين: المصدر السابق، ص69.
3 - المصدر نفسه: ص69.
4 - محمد دراج: المرجع السابق، ص46.

2-المرحلة الثانية: مرحلة الانضمام الرسمي سنة926هـ/ 1520م

كانت السفارة الثالثة في حدود925هـ/1519م بقيادة حسين آغا، وممثلا عن سكان مدينة الجزائر الشيخ أبي العباس أحمد بن القاضي[1]، يقترحون على السلطان سليم الأول تبعيتهم للدولة العلية* والدخول تحت حماية سلطانها ويتعهدون بقراءة الخطبة باسمه لأنهم بحاجة إليه، وهم مخلصون له في باطنهم وظاهرهم.

وتم هذا الأمر بعد استشهاد عروج ومبايعة أهل مدينة الجزائر خير الدين حاكما عليهم، هذا الأخير الذي أعلن لأعيان المدينة بأنه لا يقوى على رد النصارى بمفرده[2] وقد رأى كثرة المؤامرات والدسائس التي يحيكها ضده الزعماء المحليين في مناطق مختلفة من البلاد، لذلك طلب منهم الاستنجاد بالسلطان العثماني[3]، وفي ذلك يقول حاجي خليفة: «...**وخطب خير الدين بك في أهالي الجزائر ، وقال لهم: إنني قد حميتكم حتى الآن، وعمرت القلعة وأصلحتها، ووضعت فيها أربعمائة مدفعا، وقد أذهب بعد ذلك إلى بلاد أخرى فعينوا من تريدونه واليا عليكم، وحينما سمعوا ذلك، أخذوا كلهم يرجونه ويتوسلون إليه قائلين: لا تتركنا، فقال لهم خيرالدين بك إن حاكم تلمسان وتونس من أعدائي، أما إذا أصبحت الخطبة باسم أبناء عثمان أبقى، فقبلوا ذلك**... ».[4]

أُستقبل الوفد من طرف سليم الأول الذي بالغ في إكرامه، وبعد عدة مناقشات بين الطرفين وافق على طلبهم، وبعث بقرار تعيين خير الدين بايلرباي على الجزائر، مع سيف مرصع وخلعة سلطانية مذهبة وراية الإمارة وسفينتين محملتين بالأسلحة، يرافقهم 2000 جندي من الإنكشارية[5]، وهذا العدد من الإنكشارية يعتبر النواة الأولى للجيش البري بالإيالة الجزائرية.

كانت نتيجة استنجاد أهل مدينة الجزائر مقرونة بالبيعة الطوعية وليست ناتجة عن الحروب والغزو، فسلاطين الدولة العلية لم يكن في نيتهم ضم المغرب الأوسط بالقوة، لذلك لم يتردد السلطان سليم الأول في قبول

---

1 – عبد الجليل التميمي: "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول 1519م، **المجلة التاريخية المغاربية**، ع6، تونس، جويلية 1976م، ص ص119، 120.

* – انفرد المهدي البوعبدلي برواية تقول أن ابن القاضي لما رأى خطر الصليبية كاتب سلاطين الدولة العلية وهم الذين أرسلوا عروج وإخوته إلى بلاد المغرب لنجدته ولم نجد في كل المصادر والمراجع التي اطلعنا عليها أي سند لهذه الرواية ولم يحدث أي اتصال بين الإخوة بربروس والدولة العلية في هذه المرحلة، المهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 279.

2 – جمال قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830م، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 1431هـ/2010م، ص42.

3 – عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص119.

4 – حاجي خليفة: المصدر السابق، ص93.

5 – أندريه ريمون: المرجع السابق، ص21.

هذه البيعة لأنها فتحت الطريق لوصول العثمانيين بسهولة إلى الحوض الغربي المتوسط[1]، فكان ذلك إيذانا ببداية العهد العثماني في الجزائر* الذي استمر من 926-1246هـ/1520م إلى 1830م.

3-تأثيرات تأسيس الإيالة الجزائرية محليا ودوليا.

3-1-على الصعيد المحلي.

1- اتسمت بميلاد الدولة الجزائرية الحديثة التي أرّخت لمرحلة جديدة[2]، ساهم العثمانيون في تجسيد معالمها وفي رسم خريطتها الجغرافية.[3]

2- الإعلان الرسمي عن انضمام المغرب الأوسط إلى الدولة العلية العثمانية، حيث أصبحت الخطبة باسم السلطان العثماني، بعد أن أرسل خير الدين المنادين يعلنون ذلك في كل مكان.[4]

3- توحيد بلاد المغرب الأوسط الذي كان عبارة عن فسيفساء من الدويلات كل واحدة وبُعدها السياسي[5] -القضاء على الفرقة والانقسام-.

4- الحد من الهجمات الإسبانية وتحرير السواحل الجزائرية مثل صخرة البنيون سنة 1529م، بجاية سنة 1555م، تلمسان سنة 1556م... إضافة إلى تحرير تونس وطرابلس الغرب.[6]

5- تنظيم بلاد المغرب الأوسط وإخضاعها للسلطان العثماني، حيث بلغ امتدادها من تونس شرقا إلى الحدود المغربية غربا، -عدا المرسى الكبير ووهران-وإلى ورقلة وتوقرت سنة 1552م جنوبا.[7]

6- تقسيم الإيالة إلى قسمين في عهد عروج، وفي فترة حكم حسان بن خير الدين أعاد تقسيمها إلى أربع بايلكات.

أ- دار السلطان (الجزائر وما جاورها).

---

1 - خليد فؤاد طحطح: العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث-القرن السادس عشر أواخر القرن الثامن عشر-، كان التاريخية، دورية إلكترونية محكمة، ربع سنوية، ع14، ديسمبر 2011م، ص107.

* - أشار عبد الحميد بن أشنهو إلى أن تنصيب الحكم العثماني في الجزائر كان سنة 1505 على عكس ما ذهبت إليه كل المصادر والمراجع التي رجحت تاريخ 1519م أو 1520م...، عبد الحميد بن أشنهو: "الدور الذي لعبته الجزائر في القرن السادس عشر في البحر المتوسط"، **مجلة الأصالة**، ع8، الجزائر، 1974، ص294.

2 - محمد دراج: المرجع السابق، ص49.

3 - محفوظ قداش: "الجزائر في العهد التركي"، **مجلة الأصالة**، ع52، الجزائر، 1977م، ص 07.

4 - حاجي خليفة: المصدر السابق، ص93.

5 - الشافعي درويش: المرجع السابق، ص49.

6 - أرزقي شويتام: نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830م، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2011، ص ص 17، 18.

7 - أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري...، المرجع السابق، ص 34.

ب- بايلك الشرق (قسنطينة).

ج- بايلك الغرب (مازونة ثم وهران 1791م).

د- بايلك التيطري (المدية).[1]

3-2-على الصعيد الدولي.

1- إن الطريقة التي انضمت بها بلاد المغرب الأوسط-الجزائر-للدولة العثمانية لا توحي بأنها كلفت السلطان سليم الأول تكاليف مالية وعسكرية باهظة، لأن الإخوة بربروس لم يكونوا تحت وصاية الدولة العلية بشكل رسمي، وإن كانت هناك تكاليف فيتحملها الإخوة بربروس وأعيان مدينة الجزائر، وعليه يمكننا القول أن العثمانيين في الجزائر قطفوا الثمار حين نُضْجها من خلال توسيع خارطتهم الجيوسياسية نحو المغرب وإحكام قبضتهم على الحوض الغربي للبحر المتوسط.[2]

2- اتخذت الإيالة الجزائرية طابعا خاصا، بسبب موقعها الجيوستراتيجي، فقد تحولت في وقت وجيز إلى قاعدة هامة للعثمانيين، ساهمت في تسيير شؤون طرابلس الغرب بعد تحريرها عام 1551م، وكذا تسيير شؤون إيالة تونس بعد تحريرها عام 1574م من الاحتلال الإسباني.

3- بعد الانضمام الرسمي للمغرب الأوسط إلى الدولة العلية في حدود سنة 926هـ/1520م، أصبحت الإيالة الجزائرية هي خط الدفاع الأول في الحوض الغربي للمتوسط، كان الهدف الأول لها هو كسر شوكة الإسبان وإبعادهم عن المشاركة في الحروب الأوروبية ضد الدولة العلية في كل من المجر والنمسا، وقد تم هذا وفق طريقين هما:

أ- نقل المعارك إلى السواحل الإسبانية أو الأماكن التي يتواجد بها الاحتلال الإسباني مثل تونس وطرابلس الغرب.[3]

ب- المساهمة في إنقاذ مسلمي الأندلس من الاضطهاد الإسباني.[4]

4- سادت حالة من الفزع في أوساط الأوروبيين والإسبانيين خاصة بعد تأسيس الإيالة الجزائرية، حيث اعتبروا هذا الانضمام مؤشرا خطيرا، بسبب تهديد قواعدهم العسكرية على السواحل المغربية، ودليلا على سعي العثمانيين لاستعادة الأندلس، فقد كان الإسبانيون يتوجسون خيفة من هذا الخطر الداهم.

---

1 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص ص 23، 24.

2 - محمد دراج: المرجع السابق، ص48.

3 - محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص54.

4 - محفوظ قداش: المرجع السابق، ص07.

ولعل أكبر مؤشر على تأكيد مخاوفهم هو فتح رودس سنة928هـ/1522م، ثم حصار فينا سنة935هـ/ 1529م، إضافة إلى استيلاء سليمان القانوني على مملكة نابولي عندما عزم على فتح روما وفتح أولونيا التي تقع على البحر الأدرياتيكي سنة 942هـ/1537م. [1]

5- أدى بروز الإيالة الجزائرية كقوة إقليمية إلى إفساد كل المخططات الإسبانية الرامية إلى السيطرة على حوض البحر المتوسط، كما بث الحكام الجدد الرعب والارتباك بين السياسيين الإسبان وعلى رأسهم شارلكان الذي لم يجد سبيلا لتحقيق مخططه، فقد تردد بين أميرين، إما أن يثبت نفوذه في أوروبا ويقوم بمواجهة البروتستانت في فرنسا[2]، أو يوجه كامل قوته للقضاء على الإيالة الجزائرية الناشئة التي أرهقت قوته البحرية من خلال شنها لهجمات متتالية على السواحل الإسبانية والسواحل المطلة على البحر المتوسط.[3]

6- اعتبر تأسيس الإيالة الجزائرية حافزا قويا ومهما لأهالي طرابلس الغرب الذين قرروا بدورهم الانضمام للدولة العلية، بعدما رأوا الدعم المادي والعسكري الذي حظي به الجزائريون من عند السلطان، لذا بادروا بإرسال وفد يمثلهم سنة 1530م يعرضون من خلاله تبعيتهم، وهذا ما حدث، حيث استجاب لهم السلطان وعين مراد آغا واليا عليهم لإتقانه اللغة العربية. [4]

المبحث الثالث: الصدام العسكري الجزائري الإسباني ما بين 925-945هـ/1519-1538م.

عرفت بلاد المغرب الأوسط تغييرا سياسيا وعسكريا بارزا بداية من سنة 1519م، بعد أن كانت عبارة عن مسرح لهجمات صليبية مسيحية، تحولت إلى إيالة قوية تابعة للدولة العلية، تحكم قبضتها على الحوض الغربي للمتوسط، حيث أصبحت تشكل خطرا على مصالح القوى الأوروبية خاصة الإسبانية منها، صاحبة النفوذ القوي نظرا لقوة أسطولها البحري، إذ اعتبرت هي متزعمة أوروبا بلا منازع، وللحد من هذا الخطر بدأ حكام الإيالة الجزائرية يعملون على تقوية وتوحيد المنطقة، حتى يستطيعوا مواجهة كل التحديات المحيطة بهم، فقد سعوا بكل عزم وقوة إلى إحداث توازن عسكري أدى إلى نشوب صراع طويل كان من نتائجه انحصار النفوذ الإسباني وتراجعه خاصة على السواحل الجزائرية.

1 – محمد دراج: المرجع السابق، ص49.

2 – محمد خير فارس: المرجع السابق، ص30.

3 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص209.

4 – أبي عبد الله محمد ابن خليل غلبون الطرابلسي: المصدر السابق، ص100.

لما استشهد عروج، ظنت الكثير من القبائل بأن سلطة الإخوة بربروس قد تلاشت ولم يعد لها وجود، وظهر للبعض منهم أن الفرصة مواتية لإعلان التمرد والتنصل من تعهداتهم نحو الإخوة، مثل قبائل تنس وشرشال، وتلمسان التي أصبحت السلطة في يد أبي حمو الزياني الذي بلغ نفوذه مليانة.[1]

أمام هذا الفراغ بادر أهالي مدينة الجزائر وأعيانها وعلمائها إلى مبايعة خير الدين أميرا عليهم ليبدأ بعد ذلك التصرف بحزم تجاه القبائل المتمردة، وكانت البداية بكل من شرشال وتنس، وترك القبائل النافذة والقوية إلى آخر الأمر، حتى يقوم بترتيب أموره[2]، لأنه كان يعي جيدا حجم المصاعب التي تنتظره، خاصة وأنه بقي وحيدا يصارع على عدة جبهات.

1-حملة هوغو كودي مونكاد سنة 925هـ/1519م.

بعدما علمت إسبانيا بانضمام خير الدين تحت لواء الدولة العلية واحتمائه بها، أدركت أن الوضع قد أصبح خطيرا، فالتواجد العثماني قرب سواحلها يهدد وجودها في بلاد المغرب الأوسط، لذا كان لابد من البحث عن سبيل يقوّي من أركان الإيالة الفتية في مهدها ويقضي عليها، فأرسلوا إلى عميلهم أبي حمو الزياني ملك تلمسان من أجل المشاركة في حملة ضد مدينة الجزائر، وكانت الخطة تقضي بأن يهاجم أبو حمو في البر، والقوات الإسبانية من البحر معتمدة على مدفعية أسطولها.[3]

وصلت الحملة الإسبانية بقيادة كودي مونكاد «Hugo de Moncada » ونائبه كونزا ألفو مارينو دي ربيرا «Gonzalvo Marino de Ribera» وقد كانت الحملة مشكلة من 40 سفينة على متنها 5 آلاف مقاتل[4]، ومباشرة بعد وصولهم إلى مدينة الجزائر بعثوا برسول عنهم إلى خير الدين يهددونه ويتوعدونه ويأمرونه بالخروج، وإلا سيكون مصيره كمصير أخويه إسحاق وعروج[5]، لكن خير الدين كان رده حازما تجاه هذه التهديدات مخاطبا إياهم بقوله: «...**ماذا لنا معشر الغزاة في قيد الحياة، فإنكم لا تظفرون من الجزائر بحجر من أحجارها، وليس بيننا وبينكم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين...**»[6]، وما إن وصل الجواب إلى قائد الحملة الإسبانية حتى أمر ببدء الهجوم.

1 – محمد دراج: المرجع السابق، ص227.

2 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص71.

3 – أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص189.

4 – حكمت ياسين: "الغزو الإسباني للجزائر في القرن السادس عشر ميلادي أسبابه، مراحله، نتائجه"، **مجلة الأصالة**، ع 15/14، الجزائر، 1973م، ص 246.

5 – ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص10.

6 – مجهول: المصدر السابق، ص95.

واختار الجيش الإسباني الساحل الممتد على يسار وادي الحراش ميدانا لعملياته ضد مدينة الجزائر، إلا أن خير الدين استطاع استدراج القوات الإسبانية لمقاتلتها في البر[1] والبدء في مناوشتها حتى ينال التعب منها حينها يهاجمونها مرة واحدة ويقضون عليها، وقد قام خير الدين وقواته بقطع خطوط الإمداد الخلفية مستغلين الاضطراب الذي حصل عند القوات الإسبانية نتيجة تأخر وصول قوات أبي حمو الزياني[2]، وقد جرت معارك بين الطرفين برا وبحرا دامت ثلاثة أيام، انتهت بهزيمة نكراء للقوات الإسبانية* التي أجبرت على الفرار مخلفة وراءها 14 ألف بين قتيل وأسير.[3]

هكذا استطاع خير الدين وقواته من العثمانيين والسكان المحليين التصدي لهذه الحملة، وقد أسفرت على عدة نتائج نذكر منها:

- انهزام الإسبان وتحطم أسطولهم المهاجم وفقدانهم لجزء كبير من جنودهم بين أسير وقتيل.
- زيادة شعبية خير الدين وتواصل التأييد له داخليا نتيجة لهذا التحدي الذي رفعه في مواجهة القوات الإسبانية، واتساع رقعة شهرته أوروبيا، حيث أصبح يحسب له ألف حساب.
- تواصل العداء لخير الدين من طرف أميري تونس وتلمسان عميلا الإسبان خوفا من ضياع ملكهما نتيجة الشعبية المتزايدة والتأييد الذي تلقاه من طرف السكان المحليين، خاصة بعد مواجهته للقوات الإسبانية منذ قدومه إلى تونس.
- توازن القوى بين الطرفين والتخلص من ضغط العامل النفسي الذي كان سائدا والاعتقاد بأن الإسبان قوة لا تقهر.

لم يتقبل الإسبان هذه الهزيمة، لذلك فكروا في إعادة الكرة مرة أخرى، وكان ذلك سنة 1520م، حيث جهزوا حملة مكونة من 110 قطعة بحرية يقودها الإمبراطور الأميرال فرديناند[4] نائب شارلكان على صقلية، ولما سمع خير الدين بقدوم هذه الحملة قام بشن هجوم مفاجئ ومعاكس على الأسطول الإسباني أحدث فوضى

1- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص190.

2- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص 242.

*- يختلف المؤرخون حول سبب هذه الهزيمة إلى ثلاثة أقوال: يذهب ألتر أن سبب الهزيمة يرجع إلى الخلاف الذي نشب بين مونكادا ونائبه، فكان الأول يريد الهجوم فورا، بينما فضل الثاني انتظار قوات أبي حمو الزياني، عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص77.

- أما جون وولف فيضيف سببا آخرا وهو العاصفة الهوجاء التي ضربت مدينة الجزائر، وتسببت في تدمير 26 سفينة من مجموع 40 سفينة إسبانية جون وولف: المرجع السابق، ص33، وهكذا هو ديدن المؤرخين الأوروبيين الذين يعزون انتصارات الجزائر إلى الطبيعة.

- أما القول الثالث فيرجع سبب الانتصار إلى مناورة وعبقرية خير الدين بربروس...، للاستزادة ينظر، أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص192.

3 - ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص11.

4- محمد دراج: المرجع السابق، ص243.

واضطرابا داخل صفوفه، وغدت السفن الإسبانية تصطدم ببعضها البعض فاسحة المجال للقوات الجزائرية لتوجيه سير المعركة، التي أسفرت في نهايتها عن انهزام الأسطول الإسباني وأسر قائده فرديناند مع 36 قبطانا و300 بحار إسباني، وتحطيم قسم كبير من سفن الأسطول وفرار قسم والسيطرة على قسم آخر.[1]

2-خير الدين بين مواجهة الفتن الداخلية والتصدي للأخطار الخارجية.

عندما استولى عروج على تلمسان قام بإطلاق سراح أخوي السلطان مسعود وعبد الله اللذين كانا مسجونين، وبعد استشهاد عروج عاد أبو حمو الزياني الذي كان قد لجأ إلى فاس، أما أخواه فتفرقا، فعبد الله طلب دعم الإسبان الموجودين بوهران، أما المسعود فدخل تحت حماية خير الدين الذي أرسل كتابا إلى زعماء القبائل بالغرب يدعوهم إلى خلع سلطة أبي حمو ومبايعة أخيه المسعود[2]، فأجابوه إلى ذلك، واجتمع للمسعود حوالي 20 ألف مقاتل بالإضافة إلى القوات العثمانية، التي كان قد بعثها خير الدين وتوجهت هذه القوات إلى تلمسان لملاقاة أبي حمو، الذي فر وترك الحكم لأخيه مسعود، هذا الأخير الذي جلس على عرش تلمسان تابعا لخير الدين[3]، لكنه سرعان ما خرج عن طاعته وأعلن استقلاله عنه، فاستغل أخوه عبد الله هذه الظروف واستنجد بخير الدين معلنا طاعته وولاءه له مقابل نصرته على أخيه، فاستجاب خير الدين على الفور لهذا الطلب مخافة من تدخل الإسبان لدعم أحد الأطراف واستغلاله لصالحهم، وكذلك لفرض سلطته على تلمسان وإعلان دعمه لعبد الله، مقابل أن تضرب السكة وتقرأ الخطبة باسم السلطان العثماني.[4]

وبمجرد مغادرة خير الدين لتلمسان أقبل المسعود في جيش كبير من أنصاره، وفرض حصارا عليها استمر لمدة قاربت الثلاثة أشهر، لذلك قرر خير الدين إرسال قوات لمساندة الخليفة عبد الله المحاصرة في تلمسان، وقد استطاعت القوات العثمانية فك الحصار والقضاء على قوات المسعود وأسره ووضعه في السجن إلى أن توفي.[5]

ظلت إسبانيا خلال القرن السادس عشر الميلادي أهم خطر خارجي يهدد كيان الإيالة الجزائرية حديثة النشأة، أما داخليا، فإن زعماء القبائل المحلية وبالتعاون مع سلطانيّ تونس والمغرب الأقصى، فكانوا من أهم العوائق في وجه خير الدين من أجل إكمال مشروعه في توحيد المغرب الأوسط.

1- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص79.

2- محمد بن عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص95.

3- مجهول: غزوات عروج وخير الدين، اعتنى بتصحيحه وتعليق حواشيه، نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، الجزائر، 1353هـ/1934م، ص47.

4- محمد دراج: المرجع السابق، ص245.

5- مجهول: سيرة المجاهد خير الدين بربروس...، المصدر السابق، ص120.

قسم خير الدين مناطق بلاد المغرب الأوسط التي حررها من الاحتلال الإسباني إلى قسمين:

شرقي: يترأسه رفيقه وصديقه في الجهاد أحمد بن القاضي، وغربي يترأسه رجل يقال له محمد بن علي[1] وكان يعتقد أنه باستطاعته أن يعتمد على الرجلين في حكم البلاد وعن طريق أبنائها مباشرة*، تاركا لمدينة الجزائر السلطة العليا في توجيه السياسة الخارجية خاصة في مجال الحرب والسلم.[2]

نتيجة لحرب الزعامات بين أحمد بن القاضي المقرب من خير الدين والأمير عبد العزيز ملك قلعة بني عباس، هذا الأخير الذي كان يرى نفسه مظلوما، لذلك أعلن تمرده على خير الدين، وطاعته للملك الحفصي بتونس، الذي كان يحيك المؤامرات ضد خير الدين، ويحرض ابن القاضي ضد ولي نعمته، إلا أن هذا الأخير لم يستجب له ووبخه على الخيانة، ودعاه إلى لزوم الطاعة للأتراك والتبعية لهم[3]، وفي ذلك يقول مجهول في كتاب غزوات: «...**فأجابه أحمد بن القاضي: يا عجبا أي شيء فعله معك خير الدين من الشر حتى تكتب لي فيه بمثل ما كتبت، فإني لا أقدر على خيانته ولا يساعدني قلبي على المكر به، فقد رأيت في أيامه وفور الجاه وبسط اليد ووفور الحشمة ولبس الملف الجيد وانتقاء السلاح المصوّب، وركوب الخيل المسوّمة مالم أره قبل دولته، فاقطع طمعك مني فإني لا أتابعك على ما تريد، ولا يحصل مني ندم إن شاء الله...**».[4]

بعد وفاة ابن القاضي خلفه ابنه في إمارة كوكو، حيث بادر السلطان الحفصي بتأليبه ضد الأتراك ليثور عليهم، مبديا رغبته في الدعم والمساندة[5] بهدف تشتيت قوات الأتراك التي يقودها خير الدين، فهو يهاجمه من جهة الشرق، وقارة حسن من الغرب، أما ابن القاضي –الابن–يقوم بمهاجمته من الجنوب[6] وهكذا تتم محاصرته ولا يجد منفذا سوى البحر أو الموت.

أعد خير الدين العدة من أجل مواجهة السلطان الحفصي، وذلك بتجهيز جيش قوامه 12 ألف مقاتل، دارت بينهما معركة طاحنة، مني فيها السلطان الحفصي بخسائر فادحة، كما تم إلقاء القبض عليه، غير أن خير

1- مجهول: المصدر السابق، ص104.

*- ربما كان يعتقد أنه إذا حكم السكان المحليين سلطة محلية يتفادى بها تمرد ومؤامرات السكان، ولكن سنلاحظ فيما بعد تغير هذه الفكرة وسيكون للعثمانيين السلطة الفعلية في كل المناطق نتيجة المؤامرات التي حيكت ضد خير الدين.

2- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 195.

3- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص109.

4- مجهول: المصدر السابق، ص45.

5 - مجهول: غزوات عروج وخير الدين...، المصدر السابق، ص 45.

6 - محمد دراج: المرجع السابق، ص250.

الدين ما لبث أن أطلق سراحه واكتفى بتحذيره*، كرد للجميل على أن لا يعيد هذا العدوان مرة ثانية، وكان الهدف واضحا إذا أن خير الدين كان يريد الحفاظ على وحدة الصف من أجل القضاء على العدو التقليدي، وكسب ودّ السلطان الحفصي.[1]

عند عودة خير الدين للجزائر تفاجأ بهجوم قوات ابن القاضي عليه، التي كبدته خسائر فادحة في الأرواح بلغت 750 بحارا في ظرف ثلاث ساعات فقط، أما الباقي فنجو بصعوبة[2]، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل قام ابن القاضي في إثارة القبائل وأعيان الجزائر ضد حكم خير الدين[3]، فبلغ التمرد ذروته بين سكان الإيالة، وما زاد في تأزم الوضع هو إعلان قارة حسن تمرده والتحاقه بابن القاضي من أجل تنسيق الجهود للقضاء على خير الدين.

نظرا لصعوبة الوضع، قرر خير الدين الرجوع إلى جيجل، فاجتمع بالأشراف والأعيان وطلب منهم وحدة الصف وإقامة صلح مع حاكم تونس والمتمردين من أمثال ابن القاضي–الابن–وقارة حسن، وبعدما استتب الأمن غادر خير الدين مدينة الجزائر سنة 926هـ/1520م، فدخلها ابن القاضي ومقاتليه وعاثوا فيها فسادا، وارتكبوا الكثير من المظالم ضد سكانها[4]، كما قاموا بعمليات نهب وسرقة، الأمر الذي دفع بأعيان المدينة أن يرسلوا وفدا عنهم إلى خير الدين؛ الذي كان ماكثا بجيجل ليطلبوا منه العودة إلى الجزائر، وهذا ما كان ينتظره، فبمجرد وصولهم قبل دعوتهم وأمر بالتنقل ترافقه مجموعات كبيرة من الأعراش، والقبائل التي ضاقت ذرعا من تصرفات ابن القاضي، حيث أبدت رغبة جامحة في قتاله.[5]

تواجه الخصمان في ثنية بني عائشة ببلاد القبائل، كانت نتيجة المعركة لصالح خير الدين، الذي شتت جموع ابن القاضي، ولما تأكد بعض معاوني ابن القاضي أنه لا طاقة لهم بخير الدين وجنوده وصد هجماتهم، تآمروا

*– قام خير الدين بهذه الخطوة لعدة اعتبارات منها: ربما كان أكثر بُعدا للنظر ويريد وحدة الصف مع كامل بلاد المغرب ضد الإسبان، وأيضا ردا للجميل الذي كان قد أسداه السلطان الحفصي أبو عبد الله للإخوة بربروس في بداية قدومهم إلى الحوض الغربي للمتوسط، ويريد كسب حليف ضد الإسبان الذين مازالوا متمركزين ببجاية وتونس وطرابلس الغرب.

1 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص110.

2 – نفسه.

3 – محمد دراج: المرجع السابق، ص250.

4 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص81.

5 – مجهول: المصدر السابق، ص53.

على قائدهم ودبروا له حيلة من أجل القضاء عليه، فاستغلوا فرصة إعادة تنظيمه لجيشه ووثبوا عليه بحربة طعنوه بها فأردوه قتيلا.[1]

أكمل جيش خير الدين مسيره نحو مدينة الجزائر، ولما علموا بقدومه خرجوا لاستقباله، فكان دخوله إليها يوما مشهودا[2]، بعدما استقر به الأمر قرر ملاحقة قارة حسن الذي أعلن عصيانه سابقا، فألقى عليه القبض قرب شرشال وقتله هناك[3]، وهكذا تم القضاء على حركات التمرد التي كادت أن تعصف بالتواجد التركي بالجزائر، التي سعى إليه الإخوة بربروس خلال عقد من الجهاد.

الشيء المؤكد أن هذه الفتن الداخلية كانت وبالا على الجزائريين، فكلما استتب الأمن والهدوء تعود الفوضى والاضطرابات إلى صفوفهم، ولولا العناية الإلهية لاستغل الإسبان كل تلك الظروف السيئة واحتلوا مدينة الجزائر وباقي المدن المحررة، إذن فبعدما ساد الأمن وجه خير الدين أنظاره للمناطق الغير محررة والتي لا زالت تقبع تحت الاحتلال الإسباني من أجل تحريرها.

تأكد خير الدين أنه لا يمكنه إرساء دعائم دولته إلا من خلال القضاء على كل مصادر الفتن الداخلية، فبعد قضاءه على ابن القاضي وقارة حسن وسلطان تلمسان حتى اندلعت ثورة ضده بمدينة الجزائر سنة 933هـ/ 1527م بقيادة أتباع ابن القاضي وبعض الأعيان الذين رأوا في خير الدين خطرا عليهم وعلى مصالحهم، فما كان منه إلا مواجهتهم ودفع خطرهم سواء باللّين والحكمة أو استعمال القوة.

فقد حاول ردعهم بطرق سلمية مستعينا ببعض الحكماء والعلماء[4] لتفادي القوة، غير أن زعماء التمرد أبدوا رفضهم القاطع لكل وساطة وأصروا على مواصلة عصيانهم وخروجهم عن طاعة خير الدين.[5]

بعدما باءت محاولات العلماء في ثنيهم عن تمردهم أصدروا فتوى تقضي بضرورة استئصال رؤوس الفتنة كما حرموا التعاون معهم، لذا بادر خير الدين إلى القضاء عليهم، ومعاقبة كل من ثبت تعاونه[6]، كما شرّد الباقين، وبهذا دانت مدينة الجزائر لحكم خير الدين وتلتها المدن المجاورة لها.

بعد تمرد ابن القاضي أخذ خير الدين درسا وعبرة مضمونها أن لا يتهاون في القضاء على أي تمرد، وهذا ما حدث بين سنتي 1526–1527م، بعدها قام بملاحقة المتمردين بتنس وشرشال، فشردهم وقطع رؤوسهم،

1 – مجهول: سيرة المجاهد...، المصدر السابق، ص135.
2 – نفسه: ص136.
3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص85.
4 – مجهول: المصدر السابق، ص122.
5 – محمد دراج: المرجع السابق، ص256.
6 – مجهول: المصدر السابق، ص122.

والأمر كذلك سنة 1528م بقسنطينة، بعدها قاموا بقتل قائد المنطقة الذي عينه خير الدين، فأذعن فيهم بالسيف[1] وسيطر على المدينة، وأمام هذا الفعل الحازم بادر أمير منطقة القبائل حسين ابن القاضي إلى طلب العفو شريطة دفع 30 حملا من الفضة كل سنة، فوافق خير الدين على ذلك وأمره بإعلان السمع والطاعة.[2]

إن توحيد بلاد المغرب الأوسط أخذ مدة قاربت العشر سنوات، أنهكت قوى خير الدين وشتت جهوده، من خلال سعيه المتواصل في القضاء على التمردات الداخلية، كان الخاسر الأكبر فيها هم سكان مدينة الجزائر بالخصوص، فقد كانوا ضحية طرفين من جهة خير الدين كان طامحا لإرساء قواعد إيالة تحت لواء الدولة العلية تهدف إلى توحيد المنطقة ومجابهة المد الإسباني الذي شكل خطرا على بلدان المغرب، ومن جهة أخرى الزعماء المحليون الذين وضعوا أيديهم بيد الإسبان من أجل الحفاظ على مصالحهم ونفوذهم والتصدي لهذا الوافد الجديد.

3-تحرير قلعة البنيون (Le Pégnon) سنة935هـ/1529م.

عرفت الفترة الممتدة من 1520 إلى غاية 1529م صراعا مريرا بين خير الدين والزعماء المحليين، ولحسن حظه أن الإسبان الذين كانوا متواجدين بصخرة البنيون لم يشنوا أي هجوم عليه، فقد كانت سيطرتهم على هذا المكان المهم حجر عثرة في طريق توحيد بلاد المغرب الأوسط، ولإحكام سيطرته على كل المناطق وجه أنظاره للاحتلال الإسباني المتواجد في صخرة البنيون وفكر في إزالته نهائيا[3]، لما يشكله من تهديد لمسعاه الوحدوي، فهو لم ينس أن أخاه عروج جاء أساسا لتحريرها سنة 1516م، وأن استقرار الإيالة الجزائرية مرتبط بطرد الإسبان من هذه المنطقة الحساسة، إضافة إلى عدة دوافع أخرى نذكرها تباعا:

- بقاء قلعة البنيون في يد الإسبان تمثل إهانة للإيالة الجزائرية، فهي تتحكم في كل تحركاتهم، ضف إلى ذلك الخطر الدائم الذي تشكله.[4]
- تزايد عدد السفن حيث بلغ 20 سفينة وميناء جربة لم يعد يسعه، لذا كان لزاما عليه البحث عن ميناء جديد قريب من حصن إقامته يتحمل هذا العدد من الأسطول البحري*، ولم يجد ما هو أقرب إليه غير ميناء الجزائر.

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص85.

2 – مجهول: المصدر السابق، ص140؛ أما عزيز سامح ألتر فقد ذكر أن مقدار ما تعهد به حسين بن القاضي ثلاثون يوك من الفضة...، عزيز سامح ألتر، المرجع السابق، ص 85.

3 – محمد بن عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص97.

4 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص86.

*– يذهب جون وولف أن السبب الحقيقي لهذا البحث هو عجز خير الدين عن استعمال سفنه بالقرب من مدينة الجزائر، لأن أسطوله الصغير لم يستطع مواجهة الحامية الإسبانية، لكن الواقع يكذّب هذا الطرح لأن خير الدين لو كان خائفا لما فكر أصلا في تدمير الحصن.

- سعيه إلى توحيد الجهتين الشرقية والوسطى، والقلعة كانت تشكل خطرا عائقا أمام مشروعه وهو توحيد بلاد المغرب الأوسط، لذا لا بد من فتح باب الصراع ضد الإسبان وطردهم، ثم التفرغ لهم في الجهة الغربية.
- قصور الأهالي وعدم قدرتهم على دفع الضرائب وعجزهم عن ممارسة أي نشاط تجاري بحري دون العودة للإسبان، ففي حالة رفضهم فإن مدينتهم معرضة للخطر نظرا لوقوعها تحت رحمة مدفعيتهم[1]، فكان لزاما على خير الدين إنهاء هذه المأساة من خلال تحريرها نهائيا.
- استغلال وضعية الإهمال والبؤس التي لحقت بقلعة البنيون من طرف السلطات الإسبانية، بعد نقص تزويدهم بالمؤن الغذائية والعسكرية، لذلك استغل خير الدين الوضع المزري للحامية من أجل تحريرها نهائيا.

كان حاكم الحصن هو الدون مارتين دي فيرغاس «Martin devergas»، حيث طلب منه خير الدين الاستسلام دون إحداث فوضى وتسليم القلعة والانسحاب منها، ووعد بأن لا يصاب أي أحد بأذى، غير أن الحاكم الإسباني تعنّت ورفض طلب خير الدين الأمر الذي أدى إلى إعلان الحرب ضده.[2]

أمام هذا الرفض لم يجد خير الدين خيارا آخر فقام بنصب مدافعه وشرع في دك القلعة بالمدافع ودام الحال عشرون يوما، ما ولد نوعا من الخوف والذّعر في أوساط الحامية الإسبانية، ونظرا لشدة القصف أصيبت الحصون وتم فتح ثغرة في جدار القلعة يوم 27 ماي 1529م[3]، تمكن خير الدين من خلالها السيطرة على الحصن ومحاصرته من كل ناحية.[4]

نظرا لانهيار معنويات الحامية الإسبانية، وقلة المؤونة وتأخر الإمدادات قرر حاكم الحصن دون مارتن أن يقاتل بنفسه، رغم تأكده من استحالة النصر على خير الدين، لأن الأمر كان قد قضي بعدما استطاع العثمانيون من عبور الثغرة التي أحدثوها في الجدار واستيلائهم على الحصن وأسر كل الجنود المتواجدين فيه والذين قدر عددهم بحوالي 700 جندي[5]، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أمر خير الدين بتهديم وتدمير القلعة حتى يضمن عدم عودتهم، وربط الجزيرة بالبر عن طريق جسر من الصخور صار يحمل اسمه، وسخّر الأسرى لحمل الحجارة من

1 – محمد دراج: المرجع السابق، ص259.

2 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص 135.

3 – عزيز سالم ألتر: المرجع السابق، ص87.

4 – مجهول: المصدر السابق، ص143.

5 – *Berbrugger (Adrien): le Pégnon d'Alger, ou les origines du Government Turk en Algérie, Collection Regarde, Alger, 2012, p134.*

برج تامنفوست وأمر بان توصل الجزر الصغيرة مع بعضها مع إحداث فتحة واحدة في شكل دائري، وهكذا أنشأ ميناء الجزائر الذي أصبح مقرا للأسطول الجزائري[1] يحمي السفن من رياح الشمال والشمال الغربي، وأقام ثكنة عسكرية لمراقبة كل التحركات المتوقعة والمشبوهة ضد السفن الجزائرية. [2]

كرد فعل من الإسبان؛ وصلت تسعة سفن لمساعدة حاميتها وفك الحصار عنها بعدما بلغتهم أخبار بأنه تم السيطرة على الحصن من طرف الأسطول الجزائري، وبمجرد وصولهم لم يجدوا له أي أثر، فآثروا الانسحاب والفرار بسرعة، فلحقت بهم سفن الأسطول الجزائري، ووقع بينهم صدام انتهى بانتصار الجزائريين، واستيلائهم على السفن الحربية، وقتل عدد معتبر من الجنود الإسبان، كما تم أسر حوالي 2700 جندي[3]، وقد كان لتحرير صخرة البنيون عدة نتائج نأتي على ذكر بعضها:

- القضاء على التواجد الإسباني بالجزائر، يعني إتمام الإيالة الجزائرية لوحدتها تحت سلطة ونفوذ خير الدين بربروس.
- انكماش وتراجع النفوذ الإسباني وحصره ببجاية والجهة الغربية للإيالة الجزائرية.
- كسر حاجز الخوف من الاحتلال الإسباني بعد الهزيمة والطرد من حصن البنيون.
- تزايد شعبية خير الدين بين سكان الجزائر، كما ذاع صيته في كل أوروبا.[4]
- إثبات خير الدين لقوته العسكرية، وعبقريته في النظم الاستراتيجية أثناء قتاله مع الإسبان، مما ولد لديهم حالة من الضعف واليأس.

4-حملة خير الدين على جزر البليار.

بمجرد أن دان حكم مدينة الجزائر لخير الدين، وجه أنظاره لإنقاذ إخوانه الأندلسيين الفارين من جحيم محاكم التفتيش، وذلك من خلال نقل المعارك إلى السواحل الإسبانية وإيطاليا وجزر البليار وغيرها من الجزر الأخرى مع تكثيف وتيرة هذه الهجمات.[5]

بادر خير الدين بمهاجمة جزر البليار، واختار لهذه المهمة أحسن رياسه وهو أيدن رئيس الذي انطلق من مرسى مدينة الجزائر ومعه عشرة سفن، وبمجرد توغله في عمق البحر حتى تصادم مع خمس سفن بحرية عملاقة من

---

1 – محمد دراج: المرجع السابق، ص263.

2 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص87.

3- *Berbrugger (A): op.cit, p135.*

4 – حكمت ياسين: المرجع السابق، ص248.

5 – محمد دراج: المرجع السابق، ص266.

نوع قادرغة، انتصر في أول تلاحم له معها، واستطاع السيطرة عليها ثم إرسالها إلى الجزائر، كما تمكن من بلوغ السواحل الجنوبية الإسبانية ومهاجمتها، وفي خضم هذا الصراع بلغ خبر وجود بعض المسلمين الراغبين في الهروب من جحيم وظلم الإسبان، لذا نجده يسرع بأسطوله إلى سواحل أوليفا ليتمكن من إنقاذ 200 عائلة أندلسية، والعودة بها إلى الجزائر، وأمام هذا الوضع أصدر الإمبراطور أمرا للأميرال ألفريد دريكوبورتوندو«Portonda» بأن يتقدم ويحطم الأسطول الجزائري، حتى لا يفكر مرة أخرى في التعرض للسواحل الإسبانية، وقدر الأسطول الإسباني بـ15 سفينة، والشيء الملاحظ من هذه الحملة أن الدافع الرئيسي منها هو حب المال، إذا عرفنا بأن الملك الإسباني شارلكان قد رصد مبلغا قدره 15 ألف ليرة ذهبية في سبيل القضاء على نشاط الأسطول الجزائري[1]، فقد تمت ملاحقة الأسطول إلى غاية جزر البليار، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين أبلى فيها الأسطول الجزائري البلاء الحسن وحقق انتصارا كبيرا على الأسطول الإسباني، وذلك بفضل دهاء أيدن رئيس ودعم صالح رئيس له.[2]

كانت نتائج المعركة وخيمة على الجانب الإسباني إذ تم قتل قائد الأسطول وأسر 375 إسبانيا، كما تم الاستيلاء على تسعة سفن وإغراق ثلاثة، والسفن الثلاثة الأخرى فرّت، إضافة إلى تحرير المئات من الأندلسيين وإنقاذ الأسرى الذين استغلهم الإسبانيون في التجديف.[3]

بعد هذا التلاحم أدركت إسبانيا مدى قوة الأسطول الجزائري وجرأة قادته لنقلهم الحرب إلى تخوم إسبانيا ومقارعتها هناك، وللحد من هذه الهجمات قرر شارلكان أن يزيح هذ الخطر الداهم فأمر قادته بتجهيز حملة ضد الجزائر وعهد بالقيادة هذه المرة لأندريا دوريا.

5-الصراع الجزائري الإسباني على شرشال سنة936هـ/ 1530م.

تزينت مدينة الجزائر وعمت الفرحة أجوائها، بعد عودة الأسطول الجزائري الذي حقق انتصارا باهرا في جزر البليار بقيادة إيدن رئيس، وفي مقابل ذلك خيّم الحزن والأسى على إسبانيا خاصة وأوروبا عامة بعد إقرارهم بالهزيمة النكراء التي منيو بها في عقر دارهم، لم ترض إسبانيا بما حدث لها فعقدت العزم مرة ثانية على محو آثار العار الذي لحق بها من خلال مساعدة حامياتها في كل من المرسى الكبير ووهران، ومما زاد في تأجيج حدة هذا الصراع هو تلك الشكاوى التي كانت ترفع من الأهالي الإسبان، والتي يصفون فيها أوضاعهم المزرية وحالة الهلع

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص88.

2 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص141.

3 – مجهول: المصدر السابق، ص88.

والخوف التي يعيشون فيها جراء مهاجمة رياس البحر لهم، ومطالبتهم المتكررة بتخليصهم ودفع الخطر عنهم، وعليه قرر شارلكان احتلال مدينة الجزائر سنة 936هـ/1530م.[1]

لم يستطع شارلكان توجيه حملة عسكرية إلى مدينة الجزائر مباشرة إلا بعدما عقد صلحا مع الملك الفرنسي فرنسوا الأول لأنهما كانا في حالة حرب[2]، بدأت الاستعدادات سنة 936هـ/1530م، حيث تم تجهيز أسطول بقيادة أندري دوريا في مدينة جنوة، وكانت انطلاقة الحملة في جويلية سنة 1530م باتجاه مدينة الجزائر.

كان الأسطول الإسباني يتكون من 230 سفينة، و10 سفن جنوية كلها من نوع قادرغة[3] تحمل حوالي 1500 مقاتل[4]، يعلوهم أمل واحد هو تحطيم الأسطول الجزائري الذي أرقهم ووقف في وجه طموحات ملكهم، وكذلك توعد أندري دوريا لخير الدين بأسره وأخذه لإسبانيا والتمثيل به.[5]

عندما تحركت القوات الإسبانية سارع خير الدين إلى تجهيز أسطول بحري مكون من 35 سفينة قادرغة بقيادة قورد أوغلو رئيس، فضل دوريا مهاجمة مدينة شرشال لعدة اعتبارات نذكرها:

- تواجد عدد كبير من الأسرى المسيحيين داخل قلاعها.[6]
- لها موقعا استراتيجيا ممتازا لكونها قريبة من جزر البليار.
- لم يكن بها جيش كبير يدافع عنها عدا رجال حاميتها.[7]

بمجرد وصول أسطول أندري دوريا لمدينة شرشال أحكم رجال الحامية إغلاق منافذ القلعة وتحصنوا بها في انتظار وصول المساعدات العسكرية من طرف خير الدين، فدخلت القوات الإسبانية المدينة وعاثت فيها فسادا ونهبت ما توفر لها، كما حررت الأسرى المسيحيين، وأمام هذا الوضع السيء قام جنود الحامية بفتح أبواب القلعة، وهجموا على قوات دوريا على حين غفلة وشتتوا صفوفهم وفرقوا بينهم ليضمنوا عدم تجمعهم.[8]

استطاع رجال الحامية أن يقتلوا 1400 جندي إسباني وأسروا 400 آخرين، هذا ورغم وصول خير الدين إلى المدينة متأخرا، أول ما قام به هو تسلم الأسرى واستخدامهم بعدما ربطهم في مجاذف السفن، ومن بين هؤلاء

---

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص94.

2 – جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص40.

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص94.

4- *Grammont (H. De) : op.cit, p97.*

5 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص149.

6 – *Haedo (F.De): op.cit, p44.*

7 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص205.

8 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص150.

الأسرى مساعد أندريا دوريا الذي أمر خير الدين بإحضاره من أجل استنطاقه ليزوده بمعلومات حول الوجهة التي سيقصدها دوريا بعد مغادرته لشرشال، ويتعرف على أحوال المسيحيين واستعداداتهم في سبيل القضاء على خير الدين وأسطوله، فأخبره بأنه توجه نحو جنوة. [1]

عهد خير الدين بمهمة ملاحقة دوريا لإيدين رئيس، وأمره بأسره، لذا نجد أنه تتبعه إلى غاية مدينة سبتة، ثم إلى مضيق جبل طارق، وإلى المحيط الأطلسي، لكن لم يحالفه الحظ في القبض عليه، وفي طريق عودته أغار على جزر البليار وقصف ميورقة والسواحل الإسبانية، كما اقترب من مدينة برشلونة، كما استطاع أن يأسر 3000 مسيحي.

من بين النتائج التي أسفرت عنها الحملة الإسبانية على مدينة شرشال، نذكر:

1- تحرير عدد كبير من الأسرى لدى الإسبان بلغ حوالي 2200 أسير.
2- انكسار الحملة على مدينة شرشال ولدّ صدمة كبيرة لدى شارلكان، خاصة بعد فرار أندري دوريا وملاحقته من طرف الأسطول الجزائري حتى برشلونة.
3- أصبحت مدينة الجزائر تعجُّ بالأسرى والكثير من الغنائم مما جعلها تزدهر اقتصاديا.
4- ابتهاج سلطات الدولة العلية بإستانبول بهذه الانتصارات التي ما فتئ يحققها خير الدين على الإسبان في غربي المتوسط، لذلك نلاحظ تدعيمه عسكريا وماديا، وتعيينه قائدا عاما للأسطول العثماني، في محاولة لتشجيعه على فتح الأندلس من جديد كما صرح بذلك خير الدين.[2]
5- إنقاذ الكثير من الأندلسيين من بطش الإسبان ومحاكم التفتيش.

6-الاحتلال الإسباني لمدينة هنين سنة937ه/1531م.

أمام هذه الانهزامات المتتالية للإسبان، لم يكن لهم من مخرج إلا معاودة الكرة ومحاولة تنظيم حملة ضد الجزائر، لكن هذه المرة ستكون الوجهة الغربية التي كانت تحت سيطرة الإسبان المتمركزين بوهران والمرسى الكبير فكانت وجهتهم ميناء هنين، الذي كان يعتبر المنفذ المهم للدولة الزيانية، التي كانت تتخذه مركزا للتبادل التجاري مع الممالك الأوروبية خصوصا البندقية. [3]

1 - مجهول: المصدر السابق، ص 153.
2 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص152.
3 - محمد دراج: المرجع السابق، ص269.

أدركت السلطات الإسبانية حقيقة مفادها أن خير الدين لا يمكنه السكوت عن احتلالها للمرسى الكبير ووهران خاصة بعد سيطرته على شرشال، لذا فكر القادة الإسبان في قطع الطريق على خير الدين واحتلال المزيد من المدن في الغرب خاصة مدينة تلمسان، ليضعوا بذلك خير الدين وقواته بين فكي كماشة وتطويقه شرقا ببجاية المسيطرين عليها، وغربا بوهران والمرسى الكبير وهنين، والضغط على ملك تلمسان ليكون في خدمتهم.

في سنة937هـ/1531م تلقى القائد ألفارودو بازان «Don Alvaro de Bazan» أمرا بمهاجمة مدينة هنين واحتلال مينائها وتحطيم الأبراج بها وحرق الديار وتخريبها[1]، من أجل ذلك وصل الأسطول الإسباني المؤلف من 11 سفينة حربية وناقلتين للجند، أمام مرسى هنين الذي لم تكن به قوات جزائرية كافية للدفاع عنه، وبعد عدة معارك وفي 24 أوت 1531م تم السيطرة على المدينة من طرف الجنود الإسبان الذين قاموا بنهبها وسلبها واستباحوها لعدة أيام، ثم قاموا بتحصينها وتركوا حامية بها لحراستها والدفاع عنها تتكون من 700 مقاتل و15 مدفعا.[2]

بالرغم من سقوط مدينة هنين بيد الإسبان، إلا أن السكان المحليين لم يرضوا بهذا الوضع المستجد وفرضوا حصارا شديدا على الحامية، حيث قاموا بقطع التموين عنها وحاصروها داخل أسوار القلعة، فساءت حالة الجنود الإسبان الذين عاشوا معزولين ولم يتلقوا المدد الكافي سواء من إسبانيا أو من المرسى الكبير ووهران لمدة قاربت الثلاث سنوات، فاضطروا لإخلاء المدينة في شهر ديسمبر 1534م بعد تخريبها.[3]

7-الصراع الجزائري الإسباني على تونس 940-941هـ/1534-1535م.

عاشت تونس في بداية القرن السادس عشر الميلادي أوضاعاً سيّئة ميّزها التفكك والفوضى خاصة في عهد السلطان الحسن بن محمد (1526-1542م)، الذي فقد السيطرة على البلاد وانحصر نفوذه منذ سنة 1530م على الشمال الغربي لتونس، وفي بعض المناطق النائية مثل سوسة والقيروان، أما في المناطق الأخرى فقد استقلت القبائل عن السلطة المركزية[4] وذلك راجع لشخصية هذا السلطان الذي عُرف عنه ميله للهو والخمر مهملا شؤون الدولة والرعية، سفاكا للدماء حيث أمر بقتل جميع إخوته الذكور ولم ينج منهم سوى أخويه عبد المؤمن والرشيد الذي فر إلى خير الدين بالجزائر طالبا مساعدته ضد أخيه.[5]

1- مارمول كربخال: المصدر السابق، ص 297.
2- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص219.
3- محمد دراج: المرجع السابق، ص271.
4- محمد الهادي شريف: المرجع السابق، ص 65.
5- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص211.

ولما علم السلطان العثماني سليمان القانوني بأوضاع تونس المزرية، أمر خير الدين بالتوجه لفتحها وتخليصها من هذه الأوضاع السيئة، فلبى خير الدين الطلب على الفور[1]، وسار على رأس أسطول مكون من 800 انكشاري و8000 بحار[2]، وفي طريقه سيطر على عنابة وتزود منها بمدد جاءه من حسن آغا، ليتجه إلى مدينة بنزرت عن طريق البر، ثم حلق الوادي بحرا وصولا إلى تونس التي دخلها في شهر أوت 1534م وأعلنها إيالة عثمانية، بعد فرار سلطانها تاركا عاصمة ملكه لاجئا إلى الصحراء، ليواصل خير الدين سيره حتى بلغ القيروان في الجنوب ثم قفل راجعا إلى تونس، حيث كان مستقره بها كحاكم للبلاد تابعا للسلطان العثماني.

بعدما وصلت الأخبار إلى إسبانيا مؤكدة انتصار خير الدين بربروس، قرر شارلكان أن يحتل تونس، مقتنما فرصة استنجاد سلطانها الحسن بن محمد الحفصي به، من أجل استعادة ملكه الضائع، فقد كان هذا الأخير قد عرض على شارلكان امتلاك تونس ويكون هو تابع له ويحكم باسمه[3]، ومما ساعد إسبانيا على الإقدام بهذه الخطوة هو اشتغال الدولة العلية بحربها ضد الشيعة في بلاد فارس، وكذلك ضمانهم حياد الملك فرانسوا الأول.

وأثناء إعداده للحملة، تردد شارلكان بين الهجوم على مدينة الجزائر، لأن خير الدين لم يكن موجودا بها، وبين تونس التي عقد العزم على احتلالها، فجهز أسطولا بحريا متكون من 500 قطعة بحرية، سفن حربية وأخرى لنقل الجنود الذين قدر عددهم بالآلاف.[4]

وصلت القوات الإسبانية إلى المياه التونسية يوم 16 جوان 1535م، لتجد في انتظارها أسطول خير الدين وقواته المتكون من 12 ألف جندي (7 آلاف أتراك، 5 آلاف تونسيين مؤيدين لخير الدين)، ورغم عدم تكافؤ القوى بين الطرفين، فقد استطاع المدافعون عن تونس أن يصمدوا شهرا كاملا في وجه قوات شارلكان، بينوا فيها مدى مقدرتهم في صد أي عدوان، ورغم هذا الصمود المشرف آلت الأمور في نهايتها لصالح الإسبان وسقط ميناء تونس بين أيدهم في 15 جويلية 1535م، وأسفرت هذه المعركة عن توقيع معاهدة مشينة مع السلطان الحفصي الذي وضع يده في يد الإسبان، ومما جاء فيها نذكر:

1- يوحنا أفندي أبكاريوس: قطف الزهور في تاريخ الدهور، ط2، د.د.ن، بيروت، لبنان، 1988م، ص266.

2- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص171.

3 - *Godard (L'abbe Léon): Soirées Algériennes-Corsaires, Esclaves et martyrs de barbarie, libraires, mdclvn, Paris, p17.*

4 - محمد دراج: المرجع السابق، ص 289.

اعتراف السلطة* الحفصية بتبعيتها الإمبراطورية الإسبانية.

- حق الإسبان في ملكية مرسى حلق الوادي، عنابة والمهدية.
- التزام السلطان الحفصي بعدم إدخال لبلاده أي أحد من مهاجري الأندلس يهودا أو مسلمين.[1]
- دفع اثني عشر ألف دوقة** سنويا للإنفاق على الجنود المقيمين في حلق الوادي.[2]

بعد هذا النصر الذي حققه شارلكان، وتوقيعه لمعاهدة ذلّ بها التونسيين، قفل راجعا إلى بلاده منتشيا بنصره على خير الدين، الذي اتجه إلى مدينة عنابة، حيث كانت تنتظره 14 سفينة نقلته إلى الجزائر، وما يجدر بنا ذكره هو أنه في طريق العودة غرقت سفينة إيدن رائس ومات شهيدا-رحمه الله تعالى-.[3]

8-أسباب هزيمة خير الدين.

اجتمعت مجموعة من الأسباب ساهمت في هزيمة خير الدين في تونس، نذكر منها:

- عدم تكافؤ القوى بين الطرفين الجزائري والإسباني من حيث العدد والعدّة.
- ثورة الأسرى أثناء المعركة، الذين استطاعوا أن يفكوا قيودهم ليتوجهوا نحو قلعة المدينة وهاجموها، كما منعوا خير الدين ورجاله من التحصّن بها.
- انسحاب خير الدين بسبب خيانة المتطوعين من البدو المقدر عددهم بـ 6 آلاف تملقا لملك إسبانيا بطلب من السلطان الحفصي.
- محاربة خير الدين على جبهتين: داخلية السلطان الحفصي وخارجية الجيوش الإسبانية.

9-نتائج الصراع الجزائري الإسباني على تونس.

- انسحاب خير الدين من تونس، وسقوطها في يد شارلكان، وإلغاء تبعيتها للدولة العلية.
- احتلال ميناء حلق الوادي واعتباره ملكية إسبانية، بعدما كان في يد خير الدين منذ 1510م، وكذا فقدانه لكمية كبيرة من الذخيرة.[4]

---

* – فضلنا استعمال لفظ السلطة على كلمة الدولة التي استعملها أحمد توفيق المدني، للفرق الشاسع بين المفهومين، لأن السلطان الحفصي كان يمثل سلطة محدودة جدا على تونس، على عكس الدولة التونسية التي لم تخضع كليا لسلطة الإسبان والسلطان الحسن بن محمد.

1 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص215.

** – هي عملة فلورونسية نسبة إلى مدينة فلورنسا بإيطاليا وهي تعادل درهمين عثمانيين، وقد استخدمتها الدولة العلية كعملة ذهبية...، عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص119.

2 – نفسه.

3 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 215.

4 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص175.

- استباحة تونس لمدة ثلاثة أيام بموافقة السلطان الحفصي، حيث عاث الإسبان فيها فسادا وقتلا ونهبا وتخريبا.
- تكبد خير الدين خسائر بشرية كبيرة، فقد قدر العدد بـ 30 ألفا بين قتيل وأسير، واستعباد 10 آلاف امرأة وطفل.
- تدمير مكتبة تونس التي كانت تزخر بآلاف المخطوطات والكتب، حيث تم إتلافها وإحراقها، وعليه تم القضاء على شتى أنواع العلوم والمصادر النادرة. [1]
- بعدما جعل الملك الحفصي تونس تحت حماية الإسبان، قرر شارلكان توسيع دائرة ممتلكاته نحو الشرق باتجاه الجزائر، وكان هدفه احتلال مدينة عنابة، التي دخلها في أوت 1935م، وبعد مقاومة دامت ثلاث أيام، سقطت في أيديهم لتمثل فيما بعد مركزا مهما للإسبان من أجل السيطرة على الحوض الغربي للمتوسط وخوفا من عودة خير الدين ترك الإسبان بها حامية عسكرية[2] لتتولى مهمة الدفاع عنها من أي هجمات محتملة، وكذا لحماية الطرق التجارية الإسبانية.[3]

10-رد البحرية الجزائرية على احتلال تونس.

اتسم رد البحرية الجزائرية بنوع من الجرأة والمناورة، فرغم الخسارة التي مني بها أسطول خير الدين في تونس إلا أنه قام بتحدي الإسبان وبادر إلى نقل الصراع نحو الجبهة الإسبانية وبالتحديد مدينة ماهون «Mahon» عاصمة جزر البليار التي هاجمها في شهر أوت 1935م بأسطول مكون من 32 قطعة بحرية كما سيطر على بالما «Palma» بجزيرة ميورقة، واستولى على عدد هائل من الغنائم كما أسر 5 آلاف شخص وأمر بنقلهم نحو الجزائر، حتى وصل إلى مضيق جبل طارق وخرّب ميناء فارو «Faro» جنوب البرتغال. [4]

استمرت الحملات الجزائرية على السواحل الإسبانية وبعض السواحل الأوروبية، فقد أغار على قلعة قسطيلية «Castella» في جنوب إيطاليا وخرّبها بعد أن أسر منها نفرا كبيرا ليتوجه بهم نحو إستانبول في طريق ذهابه لتقديم تقرير مفصل حول غزواته للسلطان العثماني سليمان القانوني. [5]

1 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص175.
2 – محمد دراج: المرجع السابق، ص297.
3 – ميكال دي إبيلزا: المرجع السابق، ص 112.
4 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص ص 179، 180.
5 – محمد دراج: المرجع السابق، ص297.

لقد كان الغرض من هذه الغارات التي قام بها خير الدين هو ردّ الاعتبار لنفسه وللبحرية الجزائرية، كما أثبت لغريمه شارلكان مدى قوته وصلابة أسطوله، فهذه الحملات المتتالية أرعبت الإسبانيين ودبّت الفزع في قلوبهم.

11-**معركة بريفيزا "Preveza" سنة945هـ/ 1538م.**

اعتبرت السلطات الإسبانية نفسها راعية للمصالح الأوروبية وقائدة للصراع العسكري الذي كان يتأجج بين الفينة والأخرى في حوض البحر المتوسط بينهما وبين الإيالة الجزائرية والدولة العلية، إذ عرفت هذه الأخيرة معها صراعات مريرة على الجبهة الشرقية للمتوسط أثناء توسعاتها داخل أوروبا الشرقية.

وللحد من توسعات العثمانيين شكلت إسبانيا حلفا ضم كل من إسبانيا، البندقية، فرنسا، مالطا، جنوة، فلورنسا، بدعم من الكنيسة الكاثوليكية، وكان هذا في شهر فيفري 1538م، سارعت هذه الدول إلى إقرار اتفاق يقضي بحشد أسطول بحري مهمته الأولى منع تقدم العثمانيين نحو أوروبا، عهد بقيادة الأسطول إلى أندريا دوريا، كان مكونا من 600 سفينة، 308 منها حربية، 120 سفينة كبيرة للنقل، إضافة إلى 60 ألف جندي[1]، أما الجانب العثماني فكان الأسطول مكون من 120 سفينة قادرغة و20 ألف بحار[*] بالإضافة إلى المدفعيين والجدافين، وهنا يظهر مدى الفرق الكبير بين الأسطولين في العدة والعتاد.

اشتبك الطرفان بخليج آرتا «Arta» وتحديدا في منطقة بريفيزا «Prévez» في شهر سبتمبر 1538م، حيث أمر أندي دوريا الأسطول الأوروبي بالتقدم المباشر نحو الأسطول العثماني ليكون في مرمى مدافعه، لكن حنكة خير الدين مكنته من المناورة فأبلغ درغوث باشا رئيس بالالتفاف وبسرعة حول الأسطول الأوروبي على شكل هلال ليسهل الانقضاض على عليه بواسطة الجناحين، على أن يكون الهجوم الفاصل من قلب الأسطول العثماني.[2]

طبق درغوث باشا رئيس ما أمره به خير الدين، وبادر الأسطول العثماني بقصف الأسطول الأوروبي ليسود بعدها الاضطراب وتعم الفوضى قوات الأوروبيين، وبحلول الظلام انسحب أندريا دوريا وفر هاربا بأسطوله لإنقاذ ما بقي له من قوات، فقد تكبد خسائر فادحة، ومن بين النتائج التي أسفرت عنها هذه المعركة نذكر:

- دحر خير الدين للقوات الأوروبية المسيحية المتحالفة تحت قيادة أندريا دوريا.

---

1 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص184.

*– يذكر جون.ب. وولف أن عدد السفن الأوروبية كان 131 سفينة موزعة كما يلي: 55 سفينة من البندقية، 27 سفينة من روما وفرسان القديس يوحنا، 49 إسبانيا، أما عدد سفن خير الدين فقدر بـ 120 سفينة خفيفة، جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص53.

2 – محمد دراج: المرجع السابق، ص302-304.

- تحطيم ما يقارب 123 سفينة حربية.
- غنم العثمانيون 36 سفينة و3آلاف أسير.
- فقدت القوات العثمانية 400 شهيد و500 جريح.
- إحكام الدولة العلية قبضتها وسيطرتها على شرق ووسط البحر المتوسط.
- تقريب السلطان سليمان القانوني لخير الدين وزيادة شهرته. [1]
- فشل التحالف الأوروبي بسبب تراجع موقف البندقية وتوقيعها لمعاهدة سلام مع الدولة العلية العثمانية. [2]

ثالثا: العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين 945-948هـ/1538-1541م.

المبحث الأول: بوادر الحراك الدبلوماسي بين السلطات الجزائرية والإسبانية.

1-الإتصالات الرسمية بين الطرفين.

تميزت العلاقات بين الإيالة الجزائرية وإسبانيا بالعداء والتصادم العسكري المباشر، وعلى الرغم من قوة الأسطول الإسباني إلا أنه بقي عاجزا في حسم معاركه بالقوة، فما كان من شارلكان إلا أن انتهج السبيل الدبلوماسي ليقنع خير الدين بالعدول عن رأيه ويفصل بلاد المغرب الأوسط عن الدولة العلية، وتمثل هذا الأمر في إجراء مفاوضات بينه وبين خير الدين –بصفته قبودان باشا للأسطول العثماني وبيلرباي الجزائر–ما بين سنوات 1538-1541م، كما جرت مفاوضات أخرى بين حاكم وهران الكونت دالكوديت الذي حكم ما بين 1534، 1538م وحسن آغا نائب خير الدين على الجزائر. *

سعى شارلكان إلى إحكام قبضته على بلاد المغرب انطلاقا من المناطق الاستراتيجية التي كان يحتلها كطرابلس الغرب، تونس، وهران، المرسى الكبير، بجاية وعنابة، فقد كانت توفر له الدعم والحماية عند قيامه بأي حملة على سواحل البحر المتوسط ونظرا لقوة الأسطول الجزائري[3] باءت كل محاولاته بالفشل، والشيء الآخر الذي حطم طموحاته هو فشله في هزيمة العثمانيين في الجهة الشرقية للمتوسط، إضافة إلى المشاكل التي واجهها داخل أوروبا وتحديدا مع فرانسوا الأول ملك فرنسا، الذي كان يسعى لكسب خير الدين في صفه.

1 - محمد دراج: المرجع السابق، ص307.

2 - محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص235.

* - يذهب مولاي بلحميسي واستنادا إلى المصادر الأوروبية أن المفاوضات جرت بالقسطنطينية ما بين 1538 و1540م، مولاي بلحميسي: غارة شارل الخامس...، المرجع السابق، ص56، واستنادا إلى ما قاله خير الدين فإن المفاوضات كانت تجري بالجزائر عن طريق نائبه حسن آغا، بالإضافة إلى أن الواقع ينفي هذا الطرح، بحيث لا يمكن لشارلكان أن يغامر بمثل هذا الأمر، لأن خير الدين كان قائدا للأسطول العثماني وهو قريب من مركز القرار في إستانبول فهل يعقل أن يجري المفاوضات في مكان يتم اكتشافه بسهولة؟

3- *Grammont (H. De): op.cit, p56.*

اقترح شارلكان على خير الدين بربروس أن يقطع علاقاته مع العثمانيين، على أن يعترف به ملكا على كل البلاد الإفريقية الواقعة بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي، ولا يكون تابع لأي أحد يتصرف بكل حرية كملك، فشارلكان أراد بهذا الاقتراح أن يعزل الجزائر عن اتصالها بالعالم الإسلامي ليسهل عليه احتلالها فيما بعد وإلحاقها بالتاج الإسباني، غير أن حكمة خير الدين كانت أوسع من تفكير شارلكان ونستدل بقول خير الدين على لسان شارلكان حيث قال: «...**إن تنزيلك من منصبك كملك للجزائر لتكون بيلرباي عليها تقضي به التقاليد العثمانية، يعتبر إهانة بالغة لك، وها أنا أعرض عليك أن تتخلى عن خدمة السلطان سليمان، على أن أجعلك ملكا وحيدا على كل البلاد الإفريقية الواقعة بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي، وليكن معلوما لديك بأني لا أريد أن تكون حليفا لي، بل يكفي أن تكون صديقا لي، وتقطع صلتك بالعثمانيين هذا كل ما أريد**...» [1]، هذا ما جعل خير الدين يستشير الصدر الأعظم لطفي باشا ويناقش معه العرض، لكن الأخير حذّره من مغبة قبول هذا الاقتراح، لأن في ثناياه خديعة ومؤامرة يسعى من خلالها شارلكان للسيطرة على الجزائر.[2]

استنفذ شارلكان كل حيله وأساليبه من أجل استدراج خير الدين لقبول إغراءاته الدبلوماسية[3]، كان أندري دوريا هو الوسيط المباشر لهذه المفاوضات، فاقترح عليه خير الدين أن يبعث رسولا إلى نائبه في الجزائر حسن آغا[*]، وبهذا تكون قد انطلقت المفاوضات السرية، وقد تكوّن الوفد الإسباني من ألونسو دي ألاركون «Alonso de Alarcon» والقبطان فيرغار«CapitaineVergarra» ومعهم طبيب يهودي من رعايا الدولة العلية يدعى روميو «Romeo» طلب خير الدين من نائبه حسن آغا أن يتماشى مع طروحاتهم وأن لا يعارض أفكارهم ربحا للوقت من أجل الاستعداد لأي صراع طارئ قد ينتج عقب هذه المفاوضات.[4]

---

1 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص193.

2 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص156.

3 - *Watabled et Monnerau: Négociation entre Charles-Quint et Khair Eddine (1538-1540), R.AF, Alger, 1871, N15, p139.*

* – كان من مسيحي سردينيا وقع أسيرا في سن الشباب مع الكثير من أمثاله في يد خير الدين أثناء إحدى الغارات على إحدى القرى الساحلية بسردينيا، ثم اعتنق الإسلام كان ذا ذكاء خارق عرف عنه الجد والصرامة، عينه خير الدين كاتبه الخاص وفوض إليه العديد من المهام، ثم عينه نائبا له على الجزائر، تصدى لحملة شارلكان سنة 1541م وحقق فيها نجاحا باهرا...، سلفاتور بونو: "العلاقات بين الجزائر وإيطاليا خلال العهد التركي"، **مجلة الأصالة**، ع6، ترجمة، أبو القاسم بن التومي، الجزائر، 1972م، ص 190.

4 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص194.

استمرت اللقاءات بين الطرفين لمدة قاربت العامين، فخير الدين وحسين آغا كانا يفاوضان الإسبان ويتبادلون الهدايا مع بعضهم البعض حتى اعتقد الإسبان أنهم كسبوا خير الدين إلى صفهم وأنه لا يشكل أي خطر عليهم، ولم يكونوا على علم بأن السلطان العثماني مطلع على كل تفاصيل هذه المفاوضات[1]، ونظرا لاستحالة التوصل إلى نتيجة ترضي الطرفين، قرر حسن آغا أن يطرد المفاوضين الإسبان وأبقى على الطبيب اليهودي باعتباره من رعايا الدولة العلية، حيث أرسله إلى استنابول وأمر خير الدين بحبسه في سجن يدي كولة «YediKule».[2]

فشلت مساعي شارلكان في محاولة منه لإغراء خير الدين، بسبب إخلاص هذا الأخير ووفاءه رفقة حسن آغا للسلطان العثماني سليمان القانوني واعتزازهما بالانتماء للدولة العلية، فالمفاوضات وإن طالت مدتها كانت بلا معنى وعديمة الجدوى، في حين نجد أن بعض المؤرخين يؤكدون سبب فشل هذه المفاوضات يعود لنشاط الملك فرانسوا الأول الذي كانت تربطه علاقات متينة بالسلطان العثماني* وكشفه لخيوط المؤامرة.[3]

لم يسلم حسن آغا هو الآخر من الإغراءات، فأثناء المفاوضات السرية بينه وبين حاكم وهران الكونت دالكوديت حاول استمالته وإغراءه شرط تسليم مدينة الجزائر للإسبان بمجرد محاصرتها[4]، قام حسن آغا بمجاراته والتماشي مع أفكاره وهذا ما تظهره الرسائل المتبادلة بينهما، لأن الهدف الأساسي هو إفشال المفاوضات وخداع الكونت دالكوديت[5]، مثلما حدث مع خير الدين.

أرجعت المصادر الأوروبية سبب فشل هذه المفاوضات إلى ضغط القائد محمد –وهو أحد يهود الأندلس–على حسن آغا وإبلاغه بعلمه بهذه المفاوضات، ما جعل حسن آغا يتراجع ليتجنب العواقب التي يمكن أن تنجر عنها، وعليه أبدى رفضه للمندوب الإسباني الدون لورنيزو مانويل «Don Ldrenzo Manuel» وأعلمه بعدم الاستمرار في هذه المفاوضات.[6]

---

1 - *Grammont (H. De): op.cit, p57.*

2 – محمد خير فارس: المرجع السابق، ص35.

* – يبدو أن الرواية واهية من وجهة نظرنا لأن خير الدين أصلا كان قد أعلم لطفي باشا وسليمان القانوني بهذه المفاوضات.

3 – مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص 96.

4 – جون.ب.وولف: المرجع السابق، ص55.

5 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص156.

6 - *Berbrugger (A): Négociation Entre Hassan Aga et le Comte D'Alcaudette Gouverneur D'Oran, 1541-1542, R.Af, N°9, Alger, 1865, p380.*

2-أسباب فشل المفاوضات الجزائرية الإسبانية

- العلاقات المتينة التي تربط حكام الإيالة الجزائرية بسلاطين الدولة العلية العثمانية، وإخلاص خير الدين للسلطان سليمان القانوني ونلمس هذا في كشفه حيثيات المفاوضات.
- كره الجزائريون والأندلسيون للإسبان جعل خير الدين يدرك بأن أي تقارب مع الإسبان سيهدد مركزه ويؤلب الجزائريين ضده وضد نائبه حسن آغا.
- التقارب والتفاهم الجزائري العثماني أكّد للإسبانيين بأنه غير قابل للمساومة.[1]

من هذا المنطلق يمكن القول أن المفاوضات رغم استحالة نجاحها تبقى من إحدى المظاهر التي بعثت العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر وإسبانيا.

المبحث الثاني: حملة شارلكان على مدينة الجزائر سنة 948هـ/ 1541م*.

إن القضاء على الإيالة الجزائرية حلم طالما راود شارلكان، فقد سعى إليه من يوم توليه عرش الإمبراطورية الرومانية، إذ أن احتلال الإيالة الجزائرية ضمن له السيطرة التامة على حوض البحر الأبيض المتوسط، خاصة الجهة الغربية منه، غير أن تشتت جهوده والمشاكل التي واجهته في الجبهة الأوروبية حالت دون تحقيق مراده، فأول ما قام به هو تسوية مشاكله العالقة مع فرانسوا الأول حيث تعهد له بعدم تدخله في حربه ضد الجزائر، وبهذا أمن شره، فبادر إلى تحقيق حلمه ومضى في مشروعه القديم بأن حرّض الدول المسيحية على الجزائر وجمعهم حوله فقاموا بتجهيز حملة عسكرية ضخمة، كان شارلكان على رأسها.

1-أسباب الحملة.

- رد الاعتبار للمسيحيين عموما والإسبانيين على وجه الخصوص بعد الهزيمة التي لحقت بأسطولهم في معركة بروزة «Broza» سنة 1538م من طرف الأسطول العثماني بقيادة خير الدين.
- الاستفادة من غياب خير الدين الذي ذهب إلى القسطنطينية بدعوة من سليمان القانوني، واستغلال الفرصة من طرف شارلكان الذي ظن بأن غيابه سيضعف الأسطول بصفته مخطط بارع هزم الإسبان في عدة مواقع الأمر الذي سيجعل فراغا وضعفا في الجيش والقيادة، يكون لصالح شارلكان وجيشه.[2]

---

1 - *Watbled et Monnerau: op.cit, p145.*

* – توجد دراسة باللغة الفرنسية فيها جميع تفاصيل الحملة، وللاطلاع عليها من وجهة نظر أجنبية ينظر:
De Paradis (V): Expédition Contre Alger le Prince Charles-Quint à L'Assant de la Régence D'Alger en Octobre, 1541, Collection Regarde, Alger, 2013.

2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص251.

- فشل المفاوضات السرية بين شارلكان وخير الدين التي كان الهدف الرئيسي منها هو إخضاع بلاد المغرب والوقوف في وجه العثمانيين والحد من نفوذهم في الحوض الغربي للمتوسط.
- الرغبة في تأديب قادة الأسطول الجزائري نظرا لزيادة الهجمات التي كان يقودها حسن آغا ضد السواحل الإسبانية.[1]
- الرغبة في فتح جبهة صراع بديلة من أجل تخفيف الضغط العثماني على شرق أوروبا من طرف الدولة العثمانية، وتشتيت جهودها ولو مؤقتا.[2]
- الاعتماد على تقارير الجواسيس الإسبان الذين أكدوا لشارلكان أن عدد الجيش العثماني قليل ومحدود العتاد، فهو غير قادر على رد الهجوم عن المدينة.[3]

2-استعدادات الطرفين.

2-1-الاستعدادات الجزائرية.

وصلت أخبار تؤكد الاستعدادات الكبيرة من أجل غزو الجزائر، ورغبة شارلكان في إخضاعها، فقرر حسن آغا أن يباشر في بناء تحصيناته وترميم ما تهدم منها سابقا في عهد خير الدين، والتهيؤ لمواجهة هذه الهجمة والتصدي لها، فجهز المدافع ووضع ثلاث مدافع كبيرة و5 مدافع صغيرة في البرج الفوقاني و11 مدفعا في زاوية باب الواد ومدفعان في البرج الكبير و17 مدفعا في زاوية الباب المقابل للجزيرة، و17 مدفعا من البرونز في جهة المسجد الكبير زائد 4 مدافع من الحديد وبين المسجد الكبير ودار الصناعة 21 مدفعا، وبين دار الصناعة وباب عزون 8 مدافع، ووفق نفس الباب 8 مدافع، وكان في المرسى 8 سفن أكبرها تتكون من 17 صفا للجدافين.[4]

استطاع حسن آغا تنظيم الجنود المدافعين عن المدينة في وقت قصير، فقد قدر عددهم بحوالي 3 آلاف جندي من الأتراك والأندلسيين والعرب، وكانوا موزعين على النحو الآتي: 600 جندي تركي، 2000 فارس عربي متطوع بالإضافة إلى السكان المحليين[5] بقيادة حسن آغا الذي قرر أن يتولى مهمة قيادتهم بنفسه[6]، ضف إلى هذا

1 – مجهول: المصدر السابق، ص211.

2 – مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص 95.

3 – محمد دراج: المرجع السابق، ص308.

4 – حكمت ياسين: المرجع السابق، ص250.

5 – *Haedo (F.De): op.cit, p70.*

6 – خليفة أفندي: إتحاف ملوك الزمان بتاريخ شارلكان، تعريب، خليفة محمود، مطبعة بولاق، القاهرة، مصر، 1266هـ/1849م، ص 151.

مساعدة أعيان مدينة الجزائر نذكر منهم: سيدي السعيد الشريف شيخ المدينة، الحاج مامي، القائد رمضان، القائد يوسف، القائد أرسلان، الحاج باشا (تركي الأصل) والقائد صقر.[1]

بعد فراغه من ترتيبات المواجهة جمع حسن آغا علماء ومشايخ وصلحاء مدينة الجزائر وأهاليها وذكرهم بمرتبة المجاهدين والشهداء في الآخرة وما يجدونه من جنات الخلد من ربهم وشجعهم وحثهم على الجهاد والمقاومة، فقد خاطبهم بقوله: «...**يا أهل الجزائر فقد تعين الجهاد علينا معشر المسلمين كغرض الحياة الدنيا، بل نريد بذلك إعلاء كلمة الله وتحصيل درجة الشهادة**...»[2]، بعدها قام بفتح خزائن السلاح ووزعه على المجاهدين، وأمر بقطع أشجار البساتين كلها حتى لا يتستر بها النصارى أثناء القتال والتلاحم.

2-2-الاستعدادات الإسبانية.

بدأ الإمبراطور الإسباني استعداداته لهذه الحملة مبكرا، وذلك بإعطاء تعليمات صارمة لتجهيز أسطول ضخم لم يشهد القرن السادس عشر الميلادي وما قبله مثيلا في الحوض الغربي للمتوسط، بدعم مباشر من ملوك أوروبا؛ ألمانيا، الديولات الإيطالية، فرسان مالطا، وباباوات الكنيسة الكاثوليكية يوحنا بولس الثالث، الذي أصدر أمرا بابويا أعلن فيه مباركة هذه الحملة، التي اعتبرها حملة "صليبية" بكل المقاييس، هدفها نصرة الدين المسيحي والقضاء على الخطر الإسلامي في بلاد المغرب، ولذلك يجب على كل مؤمن بالمسيح المشاركة فيها وتدعيمها بكل ما يملك، لذلك كاتب يوحنا الثالث في الموضوع كادينار طليطلة ورئيس أساقفة إشبيلية، وأسقف قرطبة وبعث إلى حاكم جنوة يأمره بتجهيز ما عنده من السفن وإعدادها للسفر، لتكتمل التحضيرات لهذه الحملة في أواخر 1540م، حيث تم تجهيز حوالي 400 سفينة[3] وقيل 450 سفينة، تحمل على متنها حوالي 70 ألف جندي من مختلف الجنسيات الأوروبية[4]، حيث قرر شارلكان أن يقودهم بنفسه بمساعدة الكثير من القادة الأكفاء مثل: أندريا دوريا وكورتيس «Cortice» والكونت دالكوديت.

3-المواجهة الدبلوماسية الجزائرية الإسبانية قبيل المعركة.

كان الإمبراطور الإسباني شارلكان يعتقد أنه في فسحة، وأن مدينة الجزائر ستكون لقمة صائغة، لأن حسن آغا سيسلمها لأن الكونت دالكوديت مهد له الطريق عندما أجرى مفاوضات مع حسن آغا تقتضي

---

1 – مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص99.

2 – ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص15.

3 – *De Paradis (V): op.cit, p28.*

4 – حساني مختار: التراث الجزائري المخطوط في الجزائر والخارج، ج2، الوثائق المخطوطة بالمكتبة الوطنية الجزائرية (نماذج)، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م، ص 54.

بالتقارب مع الإسبان، لذلك وما إن حط الإمبراطور الإسباني الرحال بمدينة الجزائر حتى بعث لحاكمها برسالة تهديد ووعيد، وفي نفس الوقت حاول استمالة حسن آغا ومفاوضته على نجاته وسلامته مع أهله والمقربين منه، في مقابل تسليمه مدينة الجزائر دون خوض المعارك، مؤكدا له أن سقوط المدينة بيده لاشك فيه، لأنه لا يمكن الرجوع إلى إسبانيا دون احتلالها مهما كلفه الثمن[1]، واصفا نفسه بأنه البطل الذي لا يقهر، كيف لا وهو الذي هزم خير الدين في تونس وطرده منها، وفي ذلك يقول: «...**أنا ملك إسبانيا الذي استولى على تونس وأخرج منها خير الدين بربروس، وتونس أعظم من الجزائر وخير الدين أعظم منك**...». [2]

كان شارلكان واثقا من النصر، وإلا بماذا نفسر هذه المنهجية والغرور الذي أصابه، خاصة وأنه اغتر بقوته التي جمعها من مختلف الدول الأوروبية، لأن لهذه القوات الجرارة لا يمكن لسلطان الدولة العلية سليمان القانوني بجيشه وأسطوله الضخم التصدي لها، فما بالك بقوات قليلة العدة والعتاد مواجهتها وردها عن هدفها الذي قدمت من أجله. [3]

حاول الإمبراطور الإسباني سباق الزمن والرفع من وتيرة التهديدات، لذلك منح لحسن آغا مهلة زمنية محددة لتسليم المدينة والخروج آمنا منها، تنتهي هذه المهلة إلى غاية بداية المعارك، فإن لم يلتزم بالموعد المحدد فلا أمان له وعليه أن يتحمل مسؤولية النتائج المترتبة بعد ذلك، وقد طلب من حسن آغا التشاور مع أهل العقد والحل بالمدينة ودراسة هذه المبادرة التي تعتبر حسبه آخر فرصة للنجاة من قبضة جيوشه التي هي على أهبة الاستعداد لتنفيذ الهجوم دفعة واحدة، واحتلال كل جزء من المدينة وتدميرها، وقتل أهلها صغارا وكبارا وإعلان حرب لا هوادة فيها على الجميع وبدون استثناء.[4]

كان رد حسن آغا تجاه المبادرة الإسبانية حازما، رافضا أي تقارب مع الإسبان تحت أي ذريعة مهما كانت، مذكر الإمبراطور الإسباني بهزائمه المتتالية أمام عروج وخير الدين، مؤكدا له أنه لا يمكنه التفاوض على شيء لا يملكه ولا يتحكم فيه، لأن هذه المدينة تابعة للسلطان العثماني سليمان القانوني، ولن يغامر بموالاته له، في مقابل إرضاء شارلكان، مخاطبا إياه أنه لن يرضخ لتهديداته وغير مبال تماما بمواجهته، بل هو ينتظرها بفارغ الصبر، وأن الميدان هو الحكم بينهما، وبرفضه هذه المبادرة أعلن بايلرباي الجزائر حسن آغا بداية المعارك بين الطرفين.

1 – مجهول: المصدر السابق، ص215.

2 – محمد بن عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص106.

3 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص199.

4 – ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص16.

4-سير المعارك ونتائجها.

أ-سير المعارك.

انطلق الأسطول الإسباني من مدينة قرطاجنة «Carthagène» يوم 15 أكتوبر 1541م*، متوجها إلى مدينة وهران المحتلة لأخذ قسط من الراحة والتزود بالمؤن الضرورية وإعطاء فرصة لمن يريد المشاركة في احتلال مدينة الجزائر، التي وصلها يوم 19 أكتوبر من نفس السنة، وقد أرسى الأسطول جنوب تامنفوست يوم 27 جمادي الثانية 948هـ/20 أكتوبر 1541م[1]، ليقرر شارلكان إنزال قواته في شمال الحراش يوم 23 أكتوبر 1541م، فيما فضل هو إقامة معسكر بالحامة شرق المدينة، وهنا تفاجأ السكان عندما رأوا هذه القوات الضخمة، وخيّل لهم أن جبلا استقر في هذا المكان، لأنهم لم يروا مثل هذه الجيوش من قبل.[2]

حاولت القوات المدافعة عن مدينة الجزائر منع الإسبان من إكمال إنزال قواتهم، إلا أنهم فشلوا في ذلك واضطروا للتراجع أمام قوة العدو، فاسحين له المجال لإكمال إنزال الجنود والسلاح، بينما أبقيت المؤن بالسفن بأمر من الإمبراطور الإسباني ومعاونيه لاعتقادهم أن المدينة ستسقط بأيدهم في أقل مدة زمنية ممكنة وبأقل التكاليف، غير أن قوات حسن آغا المتربصة بالعدو، شنت هجوما مباغتا مباشرة بعد أن أرخى الليل سدوله، كبدت فيه الجيش الإسباني خسائر معتبرة في الأرواح والعتاد، وعادت سالمة لمعسكرها.[3]

قرر شارلكان تكثيف القصف على المدينة لإرعاب أهلها والضغط على المقاومين من أجل الاستسلام، إلا أن الرد كان عنيفا وأكثر مما كان يتوقعه الإسبان، الذين اضطروا للانسحاب إلى رأس تافورة قرب باب عزون على الساحل الشمالي الشرقي من المدينة، بسبب شراسة وقوة الهجوم، وفي نفس الوقت أعطت قيادة العمليات بالمدينة وعلى رأسها حسن آغا الأوامر لفرقة من الجيش بشن هجوم خاطف ومباغت على الجناح الأيسر للجيش

* – الملاحظ أن شارل الخامس لم يحظ بالتأييد اللازم من جانب الكنيسة بروما، فيما ما يخص توقيت الحملة فقط، إذ طلب البابا بولس الثالث (1534-1549م) من الإمبراطور العدول عن شن الحملة في الخريف وكتب إليه قائلا: «إنك سترتكب خطأ فادحا إذا ما خرجت غازيا لإفريقيا في نوفمبر... فانتظر الربيع»، وشاطره الرأي القائد البحري أندريا دوريا، إلا أن شارل الخامس كان مصمما على شن هذه الحملة...، للاستزادة ينظر، علي العبيدي: "الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر 1541م وأثرها على توازن القوى في غرب المتوسط"، **مجلة عصور**، ع17، جامعة وهران، الجزائر، جوان/ ديسمبر 2011م، ص 11.

1 – مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص99.

2 – ابن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص15.

3 – مولاي بلحمسي: المرجع السابق، ص103.

الإمبراطوري، لذلك اضطر شارلكان إعطاء الأوامر باحتلال المرتفعات المحيطة بالمدينة للتحصن بها والخروج من هذه الورطة التي وقع فيها.[1]

استطاع الجيش الإسباني احتلال كدية الصابون واتخذها قاعدة لانطلاق عملياته العسكرية، ولاحتلال التلال المجاورة لتسهيل السيطرة على المدينة، إلا أن هذه الفكرة فرقت شمل الإسبان والمتحالفين معهم، وسهلت من عمل المقاومين، الذي زادت ضراوة هجوماتهم وانتشرت في كل مكان من المدينة، لتستمر المعارك عدة أيام متتالية، أبلى فيها أهل المدينة والمدافعين عنها بلاء منقطع النظير.[2]

أصبح وضع القوات الإسبانية متأزما والخسائر فادحة، زاد الأمر خطورة هبوب عاصفة بحرية على المدينة يوم الثلاثاء 25 أكتوبر 1541م، هذا ما منع الإسبان من الرمي بالمدافع والبنادق، ووقع بين صفوفهم هرج ومرج، وتقطعت بهم الأسباب وضاقت بهم الأرض بما رحبت، وفي أثناء ذلك قرر حسن آغا استغلال هذه الوضعية الحرجة وشن هجوما معاكسا أثناء الليل، كبد فيه الإسبان خسائر فادحة، وقتل منهم حوالي 3 آلاف جندي[3]، ما أوقع في قلوبهم الخوف والرعب بسبب ما أصابهم، وهول ما رأوا من بسالة وشجاعة أهل المدينة.

تواصلت المعارك بين الطرفين ليلا ونهارا، خسر فيها الإسبان حوالي 4 آلاف قتيل، فيما استشهد من أهل المدينة حوالي200[4]، أدرك بعدها شارلكان انه لن يستطيع احتلال المدينة، لذلك كان يتمنى أن يخرج من هذه المصيدة التي أوقع فيها نفسه وجيوشه بأقل الخسائر الممكنة، هذا ما جعله يأمر جيشه بالانسحاب فورا من أرض المعركة بتاريخ 26 أكتوبر، إلا أن سوء الأحوال الجوية وشراسة الهجمات عرقلت انسحاب الجيوش الإسبانية، لذلك بادر أندريا دوريا بالتوجه إلى رأس ماتيفو ليلتحق به شارلكان ويعسكر بوادي الحراش جنوب شرقي المدينة، ليقضيا رفقة جنودها الليلة به، وهم منهكي القوى بسبب الجوع والتعب جراء استمرار المعارك بدون انقطاع، هذا ما اضطرهم لذبح 400 من أحصنتهم، ليضطروا في صبيحة يوم 27 أكتوبر عبور وادي الحراش بعد صنع جسر بألواح سفنهم المحطمة.[5]

كان قادة الجيش الإسباني يضنون أن انسحابهم من المدينة يقلل خسائرهم، بيد أن سكان المدينة استغلوا هذه الفرصة وضاعفوا من هجماتهم ضد الإسبان ملحقين بهم خسائر كبيرة في الأرواح ومعرقلين حركة سيرهم،

---

1 – محمد دراج: المرجع السابق، ص314.

2 – مجهول: المصدر السابق، ص216.

3 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص 203.

4 – ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص18.

5 – مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص140.

لذلك لم يصلوا إلى رأس ماتيفو إلى غاية يوم 29 أكتوبر، أين قضى شارلكان يومين للراحة، غير أن عاصفة بحرية قوية غيرت اتجاه سيره نحو بجاية التي وصلها يوم 4 نوفمبر، ليغادر بعدها إلى ميورقة ومنها إلى قرطاجنة التي وصلها يوم 02 ديسمبر 1541م.[1]

ب-نتائج حملة شارلكان الفاشلة:

1- تلقى الجيش الإسباني هزيمة مذلة أمام سكان المدينة بقيادة حسن آغا، لم تعرف لها أوروبا مثيلا في ذلك الوقت وما قبله.

2- فرار شارلكان وما تبقى من جيشه من أرض المعارك تحت طلقات المدافع والبنادق.

3- لما وصل شارلكان وسط البحر خلع تاجه ورماه في البحر من شدة الغيظ والإحباط الذي أصابه.[2]

4- خسر الإمبراطور الإسباني حوالي 12 ألف* قتيل من خيرة جنوده وبحارته، حتى قيل أن جثثهم وفرائس خيلهم ملئت ما بين مدينتي الجزائر ودلس شرقا ومدينة شرشال غربا.[3]

5- خلف الإسبان وراءهم العديد من العتاد؛ إذ يقدر عدد السفن المحطمة بحوالي 130 سفينة و17 قادسا، أما عدد المدافع التي غنمها أهل المدينة فيقدر بحوالي 200 مدفع، بالإضافة إلى 400 حصان قدم بها شارلكان ولم يُرجع معه أي واحد منها، وقد قدرت خسائر الإسبان بحوالي 4 ملايين دوقة ذهبية، وهو مبلغ كبير جدا في ذلك الوقت.[4]

6- أقيمت الأفراح بمدينة الجزائر وبعث حسن آغا برسول عنه إلى القسطنطينية لحمل بشائر النصر المحقق إلى السلطان العثماني سليمان القانوني وخير الدين بربروس، وقد حمل هذا الأخير كتاب النصر بنفسه للسلطان، الذي أثنى على حسن آغا وبعث له بخلعة سلطانية عظيمة، وأمر همايوني يتضمن تعيينه على نيابة مدينة الجزائر، وجعله من جملة وزرائه[5]، هذا ما زاد في شهرة حسن آغا، سواء داخل المغرب الأوسط أو عموم العالم المسيحي.

1 – محمد دراج: المرجع السابق، ص ص318، 319.

2 – محمد الغساني الأندلسي: المصدر السابق، ص 75.

*– قد تكون هذه الأرقام مبالغا فيها كثيرا، ولا يمكننا التصديق بمثل هذه الروايات، لكن في المقابل المصادر الأوروبية كذلك تبالغ في التقليل من حجم الخسائر.

3 – مجهول: سيرة المجاهد...، المصدر السابق، ص228.

4 – المنور مروش: المرجع السابق، ص102.

5 – ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص18.

7- إطلاق سراح الأسرى المسلمين الذين أتى بهم شارلكان كجدافين لسفنه، وقد قدر عددهم بحوالي 3 آلاف أسير تم إنقاذهم من العبودية والموت المحقق.[1]

8- احتفل أهل المدينة كثيرا بهذا النصر المبين في تاريخ مدينتهم، واعتبروه يوما مجيدا من أيام الإسلام الخالدة، وقد بقوا يحتفلون لمدة قرنين من الزمن، لأنه من أعظم انتصاراتهم، حتى اليهود شاركوهم في هذا الاحتفال ابتهاجا بهزيمة الإسبان[2] الذين قاموا بطردهم من إسبانيا وإذاقتهم شتى أنواع العذاب الأليم.

5-موقف السلطات العثمانية من العدوان الأوروبي على الجزائر.

مهما كان الانتصار الذي حققه حسن آغا وقواته المدافعة عن مدينة الجزائر، والذي قد نصفه بأنه أعظم انتصار تحقق خلال العصر الحديث، خاصة وأنه جاء على حساب خصم عنيد قاد تحالفا مسيحيا فريدا من نوعه، قد لا يضاهيه إلا ما حدث في معركة الليبانت في 07 أكتوبر 1571م، إلا أن هذا لا يمكنه أن ينسيا أمرا في غاية الأهمية؛ ألا وهو غياب المساعدة من سلطان الدولة العلية، خاصة قائد أسطوله خير الدين الذي لم يكلف نفسه عناء القدوم للجزائر، وهو الذي عمل كل ما في وسعه من أجل تحريرها من الاحتلال الإسباني، خاصة وأن الفرصة كانت مواتية له من أجل الانتقام من خصمه شارلكان.

إذا عدنا إلى حيثيات هذه القضية المهمة، فإننا نجد أن خير الدين وعد خليفته على الجزائر حسن آغا بالمساعدة فيما يبقى هذا الأخير إلهاء الإسبان حتى تصله النجدة من إستانبول، مع إقرار خير الدين أنه لا يمكنه التعجيل بالقدوم إلى الجزائر[3]، إلا أنه لم يقم بشرح الدوافع والأسباب التي دعته إلى تأخير قدومه، فيما ذكر المؤرخ التركي عزيز سامح آلتر أن السلطان سليمان القانوني أعطى أوامره لخير الدين باشا بالتحرك فورا صوب إيالة الجزائر لمساعدة أهلها على رد العدوان مكونا من 100 قادرغة زيادة على العديد من السفن الأخرى، وتنفيذا لهذه المهمة قرر خير الدين تقسيم الأسطول إلى قسمين؛ 50 قادرغة أرسلها إلى السواحل الإسبانية و50 قادرغة أخرى أرسلها إلى صقلية لمباغتة الأسطول الإسباني وتدميره أثناء تجهيزه وتسليحه في موانئها، إلا أنه لم يخرج لتنفيذ هذه المهمة إلى غاية منتصف شهر أكتوبر سنة 1541م*، حيث كان الإسبان قد أتموا استعداداتهم كليا وهم على أهبة

---

1 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص207.

2 - جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص59.

3 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص197.

* - كيف لأسطول مجهز من أجل الحرب لا يطيع أوامر السلطان والخروج بالسرعة المطلوبة؟ ربما يرجع ذلك لأن السلطان في هذا الوقت لم يكن بإستانبول إنما كان ببودين بالمجر لمحاربة المسيحيين، ومن كان موجود هو الصدر الأعظم الذي ربما هو من أخر هذا الانطلاق لوجود خلافات بينه وبين خير الدين مما يؤكد بداية تدخل الصدر الأعظم في شؤون الدولة العلية.

الانطلاق باتجاه مدينة الجزائر، ليذكر لنا أن خير الدين أثناء خروجه التجأ إلى مكان آمن اتقاء لعاصفة قضت على كثير من قطع الأسطول الإسباني الموجود بصقلية.[1]

أما الأستاذ محمد دراج فإنه يذكر أن السلطان سليمان القانوني أرسل من بودن بالمجر فرمانا يأمر فيه خير الدين بإرسال كل ما يلزم لمساعدة الجزائريين[2]، إلا أنه لم يذكر لنا لماذا تأخر قادة الأسطول عن نجدة الجزائريين؟ فيما ذكر لمنور مروش أن خلافا وقع بين خير الدين قبدان داريا الأسطول والصدر الأعظم لطفي باشا، حيث ذكر أن حسن آغا طلب المساعدة من خير الدين، الذي حاول قدر المستطاع إقناع حكومة الباب العالي بضرورة إرسال الأسطول الهمايوني لمساندة الجزائريين، إلا أنه اصطدم بمعارضة الصدر الأعظم لطفي باشا، في غياب السلطان سلميان القانوني الذي كان يقود حملة عسكرية ضد المجر.[3]

بعد يأس خير الدين من إقناع الصدر الأعظم بوجهة نظره، وأمام استحالة إرسال الأسطول إلى الجزائر بدون موافقته وجه أنظاره إلى السلطان العثماني الموجود بالمجر وقدم له شرحا مفصلا عن الأحوال في الجزائر وعن الحملة الإسبانية الموجهة ضدها، لذلك قرر السلطان فورا إصدار فرمان يقضي بإرسال الأسطول الهمايوني إلى الجزائر[4]، إلا أن المعركة كانت قد انتهت بانتصار ساحق للجزائريين، لذلك بعد عودة السلطان سليمان القانوني عزل الصدر الأعظم لطفي باشا من منصبه، وهذا ما يعزز عندما فرضية تصفية الحسابات بين لطفي باشا وخير الدين التي أدت إلى عدم إرسال الدعم للجزائريين، مع أننا نقول أن خير الدين كان حريصا على إرسال المساعدات، إلا أنه لم يكن بيده سلطة القرار التي تخول له اتخاذ الإجراءات الكفيلة بمساعدة الجزائريين في الوقت المناسب.

رابعا: العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين 948-1009هـ/1541-1600م

المبحث الأول: التنافس الجزائري الإسباني ما بين 948-970هـ/1541-1563م

بعد الهزيمة المذلة التي ألحقها الجزائريون بالقوات الإسبانية الأوروبية المتحالفة، أدرك السكان المحليون أنه لا أحد يمكنه تخليصهم من الاحتلال الإسباني إلا العثمانيين، هذا ما رفع من شأن هؤلاء عند العامة والخاصة، الذي تناقلوا أخبارهم مشرقا ومغربا، مما عزز نفوذهم داخل البلاد، وأرعب خصومهم في الداخل والخارج، وعجل بالكثير من الزعماء المحليين والأمراء، إعلان طاعتهم وولاءهم للعثمانيين حتى بدون الدخول معهم في معارك، مثلما

1 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 167.

2 - محمد دراج: المرجع السابق، ص312.

3 - المنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني -القرصنة، الأساطير والواقع-، ج2، دار القصبة، الجزائر، ص101.

4 - نفسه.

حدث مع السلطان الزياني "أبو محمد الزياني" الذي سارع في إعلان بيعته لحسان آغا والسلطان العثماني سليمان القانوني، بعد أن أعلن تمرده على خير الدين سنة942هـ/1535م، بعد انهزام هذا الأخير أمام شارلكان في تونس.[1]

بعد وفاة السلطان الزياني أبو محمد سنة948هـ/1541م، حدثت فتنة عظيمة على العرش بين أبي عبد الله وأخيه أبي زيان أحمد، كان الإسبان بالمنطقة قد غذوا هذا الصراع وذلك بمساعدة أبي عبد الله وإجلاسه على العرش بتلمسان، هذا ما أغضب حسن آغا بمدينة الجزائر وجعله يجهز حملة عسكرية توجه بها إلى تلمسان أواخر سنة 1542م، استطاع من خلالها هزيمة أبي عبد الله وطرده من المدينة، وتنصيب مكانه أبا زيان أحمد، ثم قفل راجعا إلى مدينة الجزائر بعد أن أخضع جميع قبائل الغرب الجزائري باستثناء قبيلة بني عامر، وبهذا العمل الفريد من نوعه أصبح الإسبان بالجهة الغربية محاصرين بمنطقة الساحل فقط.[2]

كان الإسبان يراقبون عن كثب ما كان يحدث في الجهة الغربية من الجزائر، ولذلك لم يبقوا مكتوفي الأيدي وهم يرون مخططاتهم التي عملوا من أجلها طويلا وأنفقوا عليها الكثير وخسروا من أجلها الغالي والنفيس تذهب أدراج الرياح، خاصة بعد أن دانت مدينة تلمسان عاصمة البلاد سابقا للعثمانيين، وهي ما هي لما لها من أهمية روحية واقتصادية وثقافية وسياسية وعسكرية، لذلك عملوا بكل ما في وسعهم من أجل السيطرة عليها واحتلالها، إلا أنهم كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة التي تتيح لهم ذلك، وهذا ما حدث عندما استنجد بهم أبو عبد الله لاسترجاع ملكه من أخيه أبي زيان أحمد الذي ساعده حسن آغا على تولي حكم المدينة، لذا قرر حاكم وهران الكونت دالكوديت إمداده بقوة عسكرية للسير بها إلى مدينة تلمسان، التي دارت بها معارك عنيفة بين الأخوين، أسفرت نهايتها عن انهزام أبي عبد الله وفراره من المدينة في جانفي 1543م، هذا ما أغضب دالكوديت وجعله يقرر السير بنفسه على رأس حملة لاحتلال المدينة.[3]

أراد الكونت دالكوديت التحضير جيدا لهذه الحملة، لذلك قرر الاتصال بالإمبراطور الإسباني شارلكان شخصيا لمساعدته في تجهيز حملة ضد تلمسان، إلا أن شارلكان والسلطات العسكرية لم يستطيعوا تلبية طلبه بسبب انشغالهم بالحروب الدائرة داخل القارة الأوروبية[4]، وبرغم ذلك لم ييأس دالكوديت واستطاع تجنيد حوالي 9 آلاف فارس بكل مستلزماتهم بمساعدة عائلته وسار بهم إلى مدينة تلمسان، التي استولى عليها يوم 06 فيفري

1 – محمد دراج: المرجع السابق، ص332.

2 – محمد بن عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص101.

3 – مارمول كاربخال: المصدر السابق، ص314.

4 – المنور مروش: المرجع السابق، ص104.

1543م بعد عدة معارك مع أهلها الذين لم يستطيعوا الوقوف في وجه الحملة الإسبانية بسبب الفارق في العدة والعتاد، حيث مكث دالكوديت وجنوده حوالي 40 يوما عاثوا في المدينة فسادا وبأهلها قتلا وتنكيلا، ليقرر بعدها العودة إلى مدينة وهران.[1]

تعتبر هذه الحملة آخر حملة وجهها الإسبان لاحتلال مدينة تلمسان خلال القرن السادس عشر الميلادي لأن العثمانيين استطاعوا السيطرة عليها وحكمها بعد القضاء على الفتن الداخلية بين أبناء العائلة الحاكمة الزيانية، ففي عهد حسن بن خير الدين قاد حاجي باشا حملة عسكرية إلى الجهة الغربية، ومنها تلمسان التي ضرب عليها حصارا محكما إلى غاية قدوم حسن بن خير الدين إليه، الذي استطاع دخول المدينة سنة 1545م بدون أي معارك تذكر، حيث رحب به سكانها وأعلنوا بيعتهم له، وأمام السيطرة العثمانية على تلمسان قرر الكونت دالكوديت في أوت 1546م القيام بحملة لاحتلال مدينة مستغانم، التي استطاع احتلال بعض أطرافها بالإضافة إلى مدينة مازغران[2]، إلا أنه اضطر لإخلاء المناطق المحتلة بسبب وصول النجدات القادمة من مدينة تلمسان.[3]

تواصل الصراع الجزائري الإسباني في الجهة الغربية من الجزائر، بالرغم من تراجع الإسبان وانحصارهم في مدينة وهران والمرسى الكبير فاسحين المجال للعثمانيين للسيطرة على عاصمة الزيانيين، دون حكما بصفة مباشرة أو إسقاطها نهائيا*، إلا أن ظهور السعديين وزيادة طموحاتهم التوسعية عجل بالتدخل المباشر لحكام الجزائر وإسقاط الحكم الزياني نهائيا.

1-السيطرة الجزائرية النهائية على تلمسان سنة 961هـ/1554م.

انقسم البيت الزياني حيال التواجد العثماني إلى قسمين:

أ- قسم مؤيد وموال لهم، يدفعه في ذلك العديد من الأسباب:

- الاشتراك في الدين الإسلامي؛ الموحد لجميع المسلمين بدون النظر في الاختلافات العرقية.

---

1 - مارمول كربخال: المصدر السابق، ص ص 314، 315.

2 - المنور مروش: المرجع السابق، ص104.

3 - Belhamissi (Moulay): Marine et marins D'Alger 1518-1830, T3, Alger, Bibliothèque Nationale Algérie, 1996, pp 75, 76.

* - قد يرجع هذا الأمر إلى إدراك حكام الجزائر للقيمة التاريخية التي يتمتع بها حكام تلمسان الموالين لهم، بحيث لم يكونوا يريدون تأليب السكان المحليين لتلمسان ضدهم لأن الحكام الزيانيين لديهم شرعية تاريخية.

- صعوبة المهمة في ظل تواجد القوات الإسبانية وعدم اكتمال توحيد تراب المغرب الأوسط.

- النقص العسكري لدى العثمانيين ربما هو الذي أخر انضمام الدولة الزيانية.

- ارتباط العثمانيين بأهل المنطقة برابط الجهاد ضد المسيحيين المحتلين، بمعنى المصير المشترك والخطر المشترك.

ب- قسم معاد للعثمانيين، تدفعهم أيضا عدة أسباب:

- الرغبة في البقاء في الحكم والاستئثار بمزاياه.
- المحافظة على بقاء العرش الزياني بصرف النظر مع من يتعامل سواء مسلمين أو كفارا، ولو على حساب الرعية ومصالحها المتعارضة في كثير من الأحيان مع مصالح الحكام المتعاونين مع الإسبان.

تأزمت الأوضاع في تلمسان، وأدت إلى الانهيار التام في جميع المجالات، السياسية، العسكرية، الاجتماعية والثقافية، الاقتصادية، زاد الأوضاع خطورة ظهور الخطر السعدي، بالإضافة إلى الخطر الإسباني، حيث حاول الأشراف السعديون التدخل في شؤون الزيانيين، راغبين في زيادة نفوذهم على حساب ما تبقى من أراضي الدولة الزيانية المنهارة على يد الشريف محمد المهدي السعدي، الذي حاصر مدينة تلمسان لمدة تسعة أشهر، ليتم بعد ذلك اقتحامها ودخولها عنوة بتاريخ 05 جوان 1550م، ليتجها بعدها إلى مدينة مستغانم، التي استطاع السيطرة عليها أيضا، ولم يكتف بذلك بل مد أنظاره إلى مدينة الجزائر عاصمة الإيالة*، وقرر التوجه إليها وإخضاعها إلى سلطانه وطرد العثمانيين منها.[1]

بعد هذه التوسعات التي قام بها الشريف السعدي ، قرر بايلرباي الجزائر حسن بن خير الدين وضع حد لهذه الطموحات المتزايدة، لذلك جهز حملة عسكرية بقيادة حسن قورصو (1556-1557م) للتصدي للجيش السعدي وطرده من جميع المناطق التي سيطر عليها، وعلى رأسها تلمسان، وقد التقى الجيشان الجزائري والسعدي في وادي الشلف، وكانت الغلبة للجيش الجزائري الذي ألحق هزيمة نكراء بالسعديين واضطرهم للتقهقر والتراجع حتى تم طردهم من تلمسان، التي دخلها حسن بن خير الدين باشا،ثم قام بعدها بخلع أبي زيان أحمد المتعاون مع السعديين، ونصب بدلا عنه الأمير الحسن بن عبد الله الزياني.[2]

وصل إلى حكم الإيالة الجزائرية صالح ريس (1552-1555م) في أفريل 1552م، الذي كانت له طموحات كبيرة في بناء دولة جزائرية قوية، لذلك وضع نصب عينه توحيد كامل التراب الجزائري تحت سلطة

---

*- الملاحظ أن المغاربة منذ القديم لم يخفوا نواياهم العدوانية تجاه الجزائر، وعلى الرغم من وجود الإسبان بوهران والمرسى الكبير وحتى المغرب الأقصى نفسه، لم يوجه الشريف السعدي قواته لمحاربتهم، وقام بتوجيه حملة لاحتلال تلمسان وهذا ما يؤكد رغبة المغاربة دائما في احتلال الجزائر.

1 - يحي بوعزيز: مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، ط.خ، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، 2009م، ص 59؛ عمار بن خروف: العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب الأقصى في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ج1، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1427هـ/2006م، ص 80.

2 - محمد بن عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص101.

واحدة تابعة رأساً للسلطان العثماني، وتحقيقا لهذا الهدف استطاع أولا إخضاع إمارة بني جلاب بتقرت وورقلة[1]، ثم توجه بعدها إلى تلمسان لمواجهة السعديين ووضع حد لمؤامراتهم التي كانوا يحيكونها ضد العثمانيين بالجزائر، يساعدهم في ذلك الإسبان المتواجدين بوهران والمرسى الكبير، و قد جرت معارك عديدة بين الطرفين كانت الدائرة فيها على السعديين وعملائهم في المنطقة، الذين تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح، كان على رأسها مولاي عبد القادر الشريف السعدي، الذي كان يحاول تنظيم صفوف جيشه بعد فقدانه تماسكه ووحدته جراء الضربات المتتالية التي تلقاها على يد الجزائريين.[2]

بعد معارك طاحنة بين الجزائريين والسعديين استطاع صالح رايس دخول مدينة تلمسان، التي فر منها الأمير الزياني الحسن بن عبد الله سنة 1554م والتحق بالإسبان طالبا بخدمهم ومساعدتهم للانتقام من العثمانيين، وبهذه الخطوة تم نهائيا إخضاع المدينة والسيطرة عليها وإلحاقها رأساً بالسلطة المركزية بعاصمة الإيالة الجزائرية[3]، وبذلك تم إسقاط حكم الأسرة الزيانية نهائيا وقطع الطريق على السعديين والإسبان اللذان كانا يتدخلان في شؤون الإمارة الزيانية التي كان حكامها ألعوبة بيد الخونة والمتآمرين والمحتلين، الذين تلقوا صفعة كبيرة جدا بهذا الإنجاز التاريخي لصالح رايس وأتباعه.

2-الفتح الجزائري لبجاية سنة 962هـ/1555م.

بعد ضم مدينة تلمسان نهائيا إلى السلطنة العلية العثمانية سنة 961هـ/1554م، قرر صالح رايس الالتفاف إلى الخطر الإسباني في مدينة بجاية، والذي كان حجر عثر في وجه وحدة الأراضي الجزائرية، لأن الإسبان قسموا التراب الجزائري إلى ثلاث أقسام، كل قسم منفصل عن الآخر:

- الأراضي الواقعة شرقي بجاية، محررة كليا.
- الأراضي الواقعة غربي مدينة بجاية إلى غاية مستغانم؛ محررة كليا.
- الأراضي الواقعة غربي وهران والمرسى الكبير، محررة كليا.

لم يبق بيد الاحتلال الإسباني من مناطق محتلة على السواحل الجزائرية إلا مدينتي وهران والمرسى الكبير ومدينة بجاية، التي قرر صالح رايس تحريرها نهائيا لربط المناطق المحررة ببعضها البعض في الجهة الشرقية من الإيالة، ثم

1 – محمد بن معمر: "علاقات بني جلاب سلاطين توقرت بالسلطة العثمانية بالجزائر"، **مجلة الحضارة الإسلامية**، ع12، جامعة وهران، الجزائر، جوان 2005م، ص19.

2 – دي كودي صوريس: تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي محمد الأخضر، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1989، ص 174.

3 – يحي بوعزيز: الموجز...، المرجع السابق، ص20.

التوجه للجهة الغربية للقضاء على الإسبان وحلفائهم، من بعض القبائل والسعديين[1]، ليسهل عليه فيما بعد توحيد كامل التراب الجزائري.

بعد تدبر وتخطيط قرر صالح رايس أن تكون الحملة العسكرية على مدينة بجاية صيفاً؛ لأنه الفصل المناسب لمثل هذه المغامرة، وتنفيذا لهذه القرار جهز جيشا برياً وبحريا قوامه 30 ألف جندي نظامي، بالإضافة إلى آلاف المتطوعين خاصة من إمارة كوكو[2] والعديد من المناطق الساحلية الجزائرية الأخرى وسار بهم براً، فيما أعطى أوامره لقادة الأسطول بحمل المدافع والبارود والمؤن والسير باتجاه المدينة، تدفعه في ذلك العديد من الأسباب:

- تشتيت جهد الإسبان بمدينة بجاية.
- محاولة استمالة أكبر قدر ممكن من القبائل الموجودة في الطريق البري.
- تأديب بعض القبائل الخارجة عن سيطرته.
- تمويه الإسبان وتشتيت تركيزهم.
- مهاجمة المدينة براً وبحراً وحصارها من الجهتين.

مباشرة بعد وصول القوات البرية في شهر جوان 1555م أعطى صالح رايس أوامره بضرب حصار محكم على المدينة من جهة البر بحوالي 40 ألف جندي من بينهم حوالي 10 آلاف فارس، فيما ضرب الأسطول البحري المكون من 22 سفينة حربية صغيرة، والقادرغات الحاملة للمدفعية حصاراً بحريا حتى لا تصل أي نجدة للإسبان، وبذلك أصبحت المدينة محاصرة من كل الجهات خاصة بعد أن فاض واد الصومام نتيجة لتهاطل الأمطار بغزارة، هذا ما مكن السفن الجزائرية من اجتياز مصبه إلى خلف أسوار المدينة على بعد مسافة 5 كلم تقريبا، ما سهل على صالح رايس إنزال مدفعيته وآلاته الحربية ومؤنه، وبذلك تم تطويق المدينة من كل الجهات.[3]

باشرت القوات الجزائرية قصف المدينة بكثافة وبدون انقطاع، هذا ما ألحق أضرار بالغة بقصر الإمبراطور في حصن موسى، ما سهل مهمة الجزائريين في اقتحام الحصن الذي غادره الإسبان وولوا مدبرين، فاسحين المجال لصالح رايس وجنوده من أجل مواصلة تقدمهم أكثر، حيث استطاعوا السيطرة على حصن البحر بعد خمسة أيام من القصف، هذا ما أتاح للجيش الجزائري إحكام حصاره على الحصن الأعظم، الذي لجأ إليه قائد قوات حرس مدينة بجاية الدون ألونزودي برالتاد «Don Alonzo de Biralta» وما تبقى معه من جنود، الذين تم محاصرتهم

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ص 193، 194.

2 – بلبراوات بن عتو: بجاية من الاحتلال الإسباني إلى التحرير العثماني...، المرجع السابق، ص 105.

3 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص323.

لمدة 22 يوماً* ليقرر بعدها القائد الإسباني الفرار من أرض المعركة رفقة 120 جندي، بعد أن رأى أنه لا يمكنه الوقوف في وجه الجزائريين، مخلفا وراءه بعض المسيحيين في بالقلعة، الذين فضلوا الاستسلام بعد أن تلقوا ضمانات بعدم المساس بحياتهم، وأكثر من ذلك تعهد لهم صالح رايس بتوفير سفينة لهم لتنقلهم إلى مدينة أليكانت الإسبانية[1].

بتاريخ 28 جويلية دخل صالح رايس وقواته إلى مدينة بجاية معلنا بذلك انتصاره على الإسبان، وتحرير المدينة من الاحتلال نهائياً ، وقد تم إلقاء القبض على 600 شخص مسيحي تم ترحيلهم فيما بعد إلى بلادهم، كما غنم الكثير من الأسلحة والذخائر الحربية، هذا ما أدخل الحزن والأسى في نفوس الإسبان؛ وعلى رأسهم الإمبراطور شارلكان قادته السياسيين والعسكريين، لذلك وما إن وصل ألونزودي برالتا، حتى قام شارلكان بسجنه ومحاكمته بتهمة الخيانة العظمى وعدم المحافظة على سلامة الأهالي المسيحيين بالمدينة وحفظ كرامة رجال الحامية وعدم الدفاع عن مصالح الإمبراطورية الإسبانية، وقد صدر بحقه حكما بالإعدام بقطع الرأس أمام العامة من الناس، ليتم تنفيذ هذا الحكم في ساحة عمومية ببلد الوليد.[2]

بعد هذا الانتصار الباهر الذي انتظره الجزائريون حوالي 40 سنة كاملة، تم الانتقام من الإسبان بمدينة بجاية[3]، والثأر منهم وتحقيق ما عجز عنه عروج، الذي فقد ذراعه وآلاف الشهداء جراء محاولته الأولى، وغيرها من المحاولات الفاشلة ليقرر بعدها صالح رايس العودة إلى مدينة الجزائر، تاركا وراءه بمدينة بجاية علي باردو خليفة له وحاكما للمدينة برفقة 600 جندي إنكشاري للمحافظة على الأمن بها وحراستها من الخطر الخارجي، وبهذه الخطوة لم يبق بيد الاحتلال الإسباني من السواحل الجزائرية إلاّ المرسى الكبير ومدينة وهران.

3- الحصار الجزائري لمدينة وهران سنة 963هـ/1556م.

كان لصالح رايس استراتيجية واضحة، أساسها تحرير كامل التراب الجزائري من الاحتلال الإسباني، لذلك ومباشرة بعد تحرير مدينة بجاية قرر التوجه غرباً لتحرير المرسى الكبير ووهران، ونظرا لقلة إمكانياته العسكرية حاول الاستنجاد بالسلطان العثماني سليمان القانوني، وتحقيقاً لهذه المهمة أرسل ابنه محمد إلى استانبول محملاً بالهدايا

* - يذكر مارمول كربخال أن القائد استسلم بعد أخذ العهد من صالح رايس مقابل إنقاذ حياة النساء والأطفال المسيحيين، وتمكينه من سفن يرحل على متنها إلى إسبانيا ولكن صالح رايس خان الوعد حسب رأيه...، للاستزادة ينظر: مارمول كربخال: المصدر السابق، ص380.

1 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص195.

2 - مارمول كربخال: المصدر السابق، ص380.

3 - *Primaudid (De la): Document Inédits Relation du frère Juan de Iribes sur les événement du Tunis, 4 Janvier, 1535, R.Af, N°19, Alger, 1875, pp 267,268.*

والتحف الثمينة مع رسالة يطلب فيها المساعدة العسكرية من أجل تحرير مدينة وهران والمرسى الكبير وطرد الإسبان والمتعاونين معهم من قبائل بني عامر والسعديين، وقد استجاب السلطان العثماني لهذا الطلب وقرر إرسال مساعدات عاجلة لصالح رايس[1] لأنه كان يدرك أهمية طرد الإسبان و تحرير كامل السواحل الجزائرية.

بعد وصول المساعدات العسكرية التي أرسلها السلطان العثماني سليمان القانوني، قام صالح رايس بتجهيز حملة عسكرية وسار على رأسها إلى مدينة وهران، التي ما إن وصل إليها حتى ضرب عليها حصار محكما، إلاّ أن الأجل عاجله أثناء هذا الحصار وتوفي جراء الطاعون الذي انتشر بالمنطقة في رجب 963هـ/1556م، ومع هذا المصاب الجلل إلاّ أن مساعديه القائد يحي وحسن قورصو واصلا الحصار وتنفيذ العمليات العسكرية ضد الإسبان، حيث تم فتح حصن رأس عين ومنه تواصل التضييق على باقي الحصون الأخرى، وبالرغم من هذه الإنجازات المحققة إلاّ أن الباشا الجديد علج علي أعطى الأمر بفك الحصار والعودة إلى مدينة الجزائر* للتصدي لهجمات القرصان الإيطالي أندريا في الجهة الشرقية من المتوسط.[2]

4-الاحتلال الإسباني لمدينة مستغانم سنة 965هـ/1558م.

كانت مدينة مستغانم قاعدة عسكرية جزائرية متقدمة في الجهة الغربية في مواجهة الإسبان ومصدر الخطر عليهم، لذلك قرر حاكم مدينة وهران والمرسى الكبير الكونت دالكوديت تجهيز حملة من أجل احتلالها والقضاء على الوجود الجزائري بها[3]، لذلك جهز جيشا من الإسبان والعملاء وتوجه بهم إلى المدينة يوم 22 أوت 1558م، وفي طريقه استطاع احتلال مدينة مزغران يوم 23 أوت دون مقاومة تذكر؛ لأن سكانها فضلوا الفرار منها بمجرد سماعهم بخبر الحملة، ليواصل دالكوديت مسيره باتجاه مدينة مستغانم التي تمكن من احتلالها يوم 24 أوت بكل سهولة أيضا، ولما علم حسان باشا بخبر الحملة الإسبانية جهز جيشاً واتجه به نحو المدينة ترافقه قوة برية تعززت

---

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص195.

*– تختلف الروايات التاريخية عن سبب رفع الحصار فقد ذهب ديكودي صوريس إلى أن رجلا كان خليفة صالح رايس على تلمسان وكان صديقا لحاكم وهران الإسباني و متعاطفا معه لذلك رفع الحصار، ديكودي صوريس: المصدر السابق، ص ص 175، 176؛ فيما ذهب جون وولف إلى أن السبب تخوف بعض حاشية السلطان من استقلال الجزائر عن الدولة العلية لأنها بعيدة جدا ولا يمكن التحكم فيها خاصة بعد وفاة صالح رايس، ولا يمكن ضمان ولاء حسن قورصو، جون وولف: المرجع السابق، ص 71، أما ألتر فقد ذكر رواية مفادها: أن السلطان العثماني هو الذي أمر بعودة 40 قادرغة إلى إستانبول لمساعدة الأسطول العثماني في مواجهة أندريا دوريا والرد عليه بسرعة..، عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 196، 197.

2 – يحي بوعزيز: مدينة وهران...، المرجع السابق، ص 44.

3- *Haedo (F.De): op.cit, p117.*

بأعداد كبيرة من المتطوعين[1]، وفي نفس الوقت أعطى أوامره لقادة الجيش بمدنية تلمسان للتوجه إلى مدينة مستغانم لمنع القوات الإسبانية من التوسع أكثر والحيلولة دون تزودها بالماء والمؤن من السكان المحليين .

بتاريخ 24 أوت وصلت القوات الجزائرية إلى مدينة مستغانم، التي استطاع الإسبان احتلالها بساعات قليلة قبل وصول الجيش الجزائري، الذي قرر قادته ضرب حصار محكم على المدينة لإغلاق جميع المنافذ على القوات الإسبانية، وهناك دارت معارك عنيفة بين الطرفيين استطاع خلالها الجزائريون تكبيد الإسبان خسائر فادحة في العتاد والأرواح، كان على رأس الضحايا الكونت دالكوديت[2] الذي ذهب ضحية لطموحاته وخدمة لمصالح بلاده العليا، بالإضافة إلى أسر ابنه دون مارتن «Don Martin»، لتواصل القوات الجزائرية تطهير المنطقة من المحتلين وعملاءهم، حيث تم تحرير مدينة مزغران يوم 26 أوت 1558م[3]، ليتلقى الإسبان هزيمة مذلة أخرى، أدركوا من خلالها أن الجزائريين لن يسكتوا عن احتلالهم للمرسى الكبير ووهران، وتأكدوا أنهم لا يستطيعون احتلال أي منطقة أخرى من التراب الجزائري، لذلك اكتفوا بالمحافظة على احتلالهم للمدينتين.

5-محاولة حسان بن خير الدين تحرير وهران والمرسى الكبير سنة 970هـ/1563م.

قرر حسان بن خير الدين توجيه حملة عسكرية لتحرير مدينتي وهران والمرسى الكبير من الاحتلال الإسباني، لذلك جهز جيشا بريا قوامه حوالي 15 ألف جندي و1000 فارس من فرقة الصبايحية يقودهم أحمد أمقران الزواوي، بالإضافة إلى 12 ألف متطوع من قبائل زواوة وبني عباس، فيما أعطى تعليماته لقادة الأسطول البحري بحمل العتاد الحربي والبارود والمؤن والتوجه إلى مدينة أرزيو للرسو هناك في انتظار قدوم الجيش البري.[4]

بعد اكتمال التحضيرات خرج حسان باشا من مدينة الجزائر متوجها إلى مدينة وهران يوم 5 فيفري 1563م، ولم يصل إليها إلى غاية 3 أفريل 1563م[5]، بسبب صعوبات الطريق وغيرها من المشاكل الأخرى، ومباشرة بعد وصوله أعطى حسان باشا تعليماته بضرب حصار محكم على المدينة، وفي نفس الوقت أعطى أوامر مشددة لعلي إسكندر حاكم مدينة تلمسان بمنع أي تعاون بين الإسبان وقبائل المنطقة، بالإضافة إلى تأمين طريق العودة للجزائريين في حالة العجز عن فتح مدينتي وهران والمرسى الكبير، لتبدأ القوات الجزائرية في مهاجمة الإسبان بالمدينة، الذين عجزوا عن الدفاع على المرسى الكبير، الذي استطاع الجزائريون تحريره بالكامل، لتنْصب جهودهم

1 - *Belhamissi (M): op.cit, p78.*

2 – محمد بن عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص101.

3 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 354.

4 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص213.

5 –أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص356.

فيها بعد على مدينة وهران، التي طُلب من حاكمها دون مارتن تسليمها والنجاة بنفسه، إلاّ أنه رفض قطعيا هذا الطلب، ليواصل الجزائريون هجماتهم براً بحراً لمدة يومين كاملين، عجزوا فيها عن إحداث أي تقدم في جبهات القتال، بسبب بسالة وشجاعة القوات الإسبانية في الدفاع عن المدينة.[1]

استمر حسان باشا في حصار مدينة وهران إلى غاية 7 جوان 1563م بالرغم من محاولاته المتكررة لحسم المعارك لصالحه إلا أنه فشل في ذلك، بسبب وصول الدعم من إسبانيا إلى القوات المحاصرة بمدينة وهران، وكان على رأس النجدة الإسبانية أندريا دوريا، الذي استطاع قلب موازين القوى لصالح الإسبان، الذين قاموا بفك الحصار وإفشال الهجوم الجزائري، هذا ما جعل حسان باشا يأمر قواته بالانسحاب من أرض المعارك، بسبب التعب الذي نال من جنوده وأيضا مخافة من قطع طريق العودة عنه من طرف الإسبان.[2]

بعد هذا الانتصار الذي حققه الإسبان بمدينة وهران على الجزائريين، بالرغم من طول مدة الحصار والخسائر الكبيرة التي تكبدوها، قرروا زيادة الحصون والقلاع وتجديد الدعم من السلطات الإسبانية بمدريد، حتى لا تتكرر المحاولات الجزائرية مرة أخرى والتي كادت أن تحرر المدينة، وبالرغم من الفشل الذي رافق هذا الحملة إلاّ أنها أحدثت الرعب وسط الإسبان الذين تأكدوا أن الجزائريين لن يسكتوا عن احتلالهم للمدينة مع أنه يجب التنويه بالشجاعة والبسالة التي تميزت بهما القوات الإسبانية في الدفاع عن مدينة وهران، بالرغم من طول مدة الحصار الذي تجاوز الشهرين كاملين.

6-محاولة مصطفى باشا لتحرير مدينة وهران سنة 1007هـ/1598م.

جاءت هذه المحاولة من طرف حاكم الجزائر مصطفى باشا (1599/1596) بعد تحرير تونس من الاحتلال الإسباني نهائيا سنة 1574م، وبذلك استطاع سلاطين الدولة العلية العثمانية إحكام سيطرتهم على بلاد المغرب نهائيا، ولم يبق لهم من مناطق محتلة إلا مديني وهران والمرسى الكبير، اللتان أصبح حولهما الصراع بين الطرفين؛ العثماني الجزائري من جهة والإسبان من جهة ثانية، وإدراكا من السلطات الإسبانية بمدى ارتباط حكام الجزائر بالسلاطين العثمانيين حاول الملك الإسباني جاهداً توقيع معاهدة سلام مع سلاطين الدولة العلية لعله بذلك يحافظ على هيبة أسطول بلاده المتهاوي أمام ضربات البحرية الجزائرية، وقد تم للملك الإسباني ما سعى له بعد أن أقنع السلطان العثماني بتوقيع صلح معه مدته 3 سنوات سنة 1582م.[3]

---

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص214.

2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص360.

3 – محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص232.

عندما كانت المفاوضات الإسبانية العثمانية تجري على قدم وساق للتّوصل إلى معاهدة سلام ، كان الجزائريون يكثفون هجماتهم على السواحل الإسبانية ، ففي عام 1578م أغار حسن فنريانو (1577-1580م) على سواحل جزر البليار أين كبد الإسبان خسائر فادحة، ليعود سالماً إلى مدينة الجزائر، لتواصل البحرية الجزائرية هجماتها ضد الأهداف الإسبانية أينما كانت بدون النظر للمعاهدة العثمانية الإسبانية، وهذا يدل على أن الرياس في هذه الفترة كانوا مستقلين في سياستهم الخارجية عن السلاطين العثمانيين، خاصة وأن المرسى الكبير ووهران كانتا تحت الاحتلال، وقد استطاع الرياس تكبيد الإسبان خسائر جسيمة في جزيرة كورسيكا وسردينيا وصقلية[1]، ليقوم بعدها مراد رايس بالهجوم على جزر الكناري أين استطاع أسر حوالي 300 شخص تم إرسالهم إلى مدينة الجزائر، فما كان من الإسبان للحد من نشاط البحرية الجزائرية إلاّ القيام بهجمات متتالية على الجهة الغربية من الإيالة انطلاق من مدينة وهران، لعلهم بذلك يشغلون الرياس داخلياً بدل مواصلتهم الهجمات على السواحل الإسبانية ، إلاّ أن المشروع الإسباني بغرب الإيالة أفشله الجزائريون نهائياً بفضل مقاومتهم وبسالتهم ضد المحتلين الإسبان[2].

مواصلة للجهود الجزائرية في تحرير مدينتي وهران والمرسى الكبير، قرر مصطفى باشا توجيه حملة عسكرية لتحرير المدينتين سنة 1007هـ/1598م[3]، حيث استطاع تحرير حصن المرسى الكبير وتدميره بعد حصار شديد على المدينتين، إلاّ أنه فشل في تحريريهما بعد أن تكبدت قواته خسائر فادحة في الأرواح؛ بسبب قلة الدعم وعدم التحضير الجيد للحملة وبسالة القوات الإسبانية المدافعة عن المدينتين، وتعتبر هذه الحملة آخر محاولة خلال القرن السادس عشر الميلادي لتحرير المدينتين من الاحتلال الإسباني، وقد ألهمت هذه الحملة العديد من الشعراء الجزائريين ، الذين خلدوها في شعرهم اعتزازا وافتخارا بمصطفى باشا، ومن بينهم الفقيه سيدي عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن موسى (929-1011هـ/1523-1602م) الذي نظم أبياتا خلد فيها هذه المعركة .

هَنِيئًا لَكَ بَاشَا الجَزَائِرِ والْغَرْبِ ... بِفتْحِ أَسَاسِ الكُفْرِ مَرْسَى قُرَى الكَلْبِ

ستَفْتَحُ وهْرانَ ومَرسَاهَا التِي ... أضَرَّت بِذا الإِقْلِيمِ ضرًّا بِلا رَيْبِ

فَثِقْ بالإِلهِ واسْتَعِنْ بِه وأَصْبِرنَّ ... يَنَلْكَ المرادُ يا أَمِيري ومَطْلِبِي

1 - يحي بوعزيز: علاقات الجزائر...، المرجع السابق، ص54.

2 - الشافعي درويش: المرجع السابق، ص69.

3 - ابن المفتي حسين رجب شاوش: تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، دراسة وتحقيق، فارس كعوان، ط1، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص44.

وقَدْ وَعَدَ الرَّحْمنُ جَلَّ جَلالهُ   مَعَ العُسْرِ يُسْرا فَدانِي ذاكَ فِي الكُتُبِ[1]

ولما حزن الداي على خسائر جيشه في المعركة نضم نفس الفقيه هذه الأبيات:

أمَوْلاَيَ بالمخْتارِ منْ آلِ غَالبٍ   أحبَّتَهُ والصَّحْبُ كُلُّ الأقَارِبِ

تَحْيَا بِنصْرٍ مع فُتُوحٍ تَواتَرتْ   علَى نَجْلِ خيرِ الدينِ خَيْرَ المطَالِبِ

وتُرْضيهِ يا مَوْلايْ في كُلِّ وِجْهَةٍ   وتَمْنَحُهُ عِزًا وخَيْرَ العَواقِبِ.[2]

المبحث الثاني: الصراع الجزائري الإسباني على ضوء بعض القضايا الخارجية

1-حصار جزيرة مالطا 972هـ/ 1565م.

كان السلاطين العثمانيين يحاولون دائما فتح أكبر قدر ممكن من الأراضي داخل أوربا، في مقابل ذلك سعى الملوك الإسبان لاحتلال أكبر قدر ممكن من أرضي بلاد المغرب الإسلامي خاصة، لذلك اتبع كل من حكام البلدين استراتيجية خاصة به من أجل إلحاق الهزيمة بخصمه وحسم الصراع لصالحه، خاصة في حوض البحر المتوسط؛ الذي كان الميدان الرئيسي لهذا الصراع، فكما كانت السلطات الإسبانية تعتقد أنه لا يمكن السيطرة على الحوض الغربي للمتوسط ما لم يتم لها احتلال بلاد المغرب الإسلامي، ومن ثم وقف الزحف العثماني، كان بالمقابل سلاطين الدولة العلية يرون وجوب تصفية المراكز المسيحية التي تشكل تهديدا وخطرا على المسلمين*، لذلك كان من الواجب فتح جزيرة مالطا، بالإضافة إلى حلق الوادي ومدينة تونس وتخليصهما من الاحتلال الإسباني.[3]

بما أن الإيالة الجزائرية في عهد البايلربايات ارتبط حكامها ارتباطاً وثيقاً بسلاطين السلطنة العلية العثمانية كان لزاماً مشاركة الجزائريين في أي عملية عسكرية تهدف لفتح مزيد من الأراضي وضمها للدولة العلية، لذلك مثلث مشاركة البحرية الجزائرية في حصار جزيرة مالطا مظهرا من مظاهر الصراع الجزائري الإسباني، الذي لم يكن مقتصراً على بعض المناطق المحتلة داخل بلاد المغرب فحسب، بل تعداه إلى مناطق أخرى داخل القارة الأوروبية كما حصل في حصار مالطا عندما بعث السلطان العثماني سليمان القانوني بفرمانات إلى قادة الإيالتين الجزائرية

---

1 - ابن مريم الشريف التلمساني أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد: المصدر السابق، ص، 132.

2 - نفسه، ص 133.

* – منذ أن وطّن شارلكان فرسان القديس يوحنا جزيرة مالطة سنة 1529م ومن بعدها طرابلس كانوا يهاجمون السفن التجارية العثمانية والإسلامية، حيث شكلوا خطرا دائما على تجارتهم، فقد كانت مالطة في نظر العثمانيين وكر القرصنة واللصوصية، ولذلك قرر السلطان سليمان القانوني السيطرة عليها...، جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص78.

3 - نفسه، ص79.

والطرابلسية يأمرهم فيها بضرورة المشاركة إلى جانب أسطوله الهمايوني في حملة ضد الجزيرة، فما كان من حكام الإيالتين إلا الاستجابة لهذا الأمر، ولبى الطلب كل من حسن بن خير الدين باشا حاكم الجزائر ودرغوت وقلج علي وغيرهم.[1]

تلقى حسن بن خير الدين عدة رسائل من السلطان العثماني خلال الفترة الممتدة من سبتمبر 1564م إلى غاية شهر مارس 1565م يخبره فيها عن قراره بتوجيه حملة عسكرية لفتح جزيرة مالطا وطرد فرسان القديس يوحنا منها، لأنهم أصبحوا الخطر المباشر على بلدان المغرب الإسلامي والدولة العلية، طالبا منه الاستعداد للمشاركة في هذه الحملة، التي انطلقت من عاصمة السلطنة العلية إستانبول يوم الخميس 26 شعبان 972هـ/29مارس1565م.[2]

كان الأسطول العثماني مكونا من 140 قادسا، 20 سفينة دائرية و10ماهونات، يحمل على متنه ما بين 30 إلى 36 ألف جندي بقيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا[3]، فيما التحق بهم من الإيالة الجزائرية حسن بن خير الدين على رأس أسطول مكون من 28 سفينة* حربية على متنها 3 ألاف جندي من أمهر وأشجع المقاتلين[4]، وقد التقى الطرفان في جزيرة مالطا يوم الخميس 18 شوال 972هـ/9 ماي 1565م، معلنين بذلك بداية حصار الجزيرة، التي كانت تحت حماية حوالي 9 آلاف جندي يؤازرهم حوالي 900 فارس مسيحي من مختلف الدول الأوروبية بقيادة الكونت لافاليت، وفي يوم 20 شوال/11 ماي استطاع العثمانيون السيطرة على قلعة صاشرمه، أين أصيب درغوت باشا بقنلبة استشهد على إثرها.[5]

واصل العثمانيون قصف المدينة وتشديد الحصار عليها لمنع أي مساعدة تأتي من الخارج، إلاّ أن الجزيرة لم تسقط بأيديهم رغم طول مدة الحصار الذي امتد من 15 ماي إلى غاية 12 سبتمبر 1565م بسبب قوة النظام

---

1 – المنور مروش: المرجع السابق، ص137.

2 – خليل الساحلي: "وثائق عن المغرب العثماني أثناء حرب مالطة سنة 1565م"، **المجلة التاريخية المغربية**، ع8/7، تونس، 1977م، ص 41.

3 – المنور مروش: المرجع السابق، ص137.

* – حاول درغوث باشا وقلج علي التأثير على السلطان سليمان القانوني من أجل توجيه الحملة لتحرير وهران، المرسى الكبير، تونس وحلق الوادي، لأنها مناطق يجب أن تكون تابعة للدولة العلية لأنها أراضي إسلامية خاضعة للاحتلال الإسباني، وهذا خلافا لمالطة التي هي إحدى القلاع المسيحية المحصنة والبعيدة عن الأراضي العثمانية، إلا أن السلطان العثماني أصرّ على فتح مالطة ولم يعبأ باقتراحات ونصائح قادته العسكريين...، محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص ص 103، 104.

4– المنور مروش: المرجع السابق، ص137.

5 – خليل الساحلي: المرجع السابق، 41.

الدفاعي، واستبسال المدافعين عنها، زاد الأوضاع خطورة عدم تنسيق القيادات العثمانية فيما بينها، وهي كلها عوامل ساعدت المالطيين والمدافعين عن الجزيرة للصمود كل هذه المدة.[1]

إذن لعبت البحرية الجزائرية دوراً هاماً في هذه الحملة؛ حيث تولى حسن بن خير الدين بنفسه مهمة الهجوم على القلعة سان ميشال[2]، التي ألحق بها أضرار فادحة وكبد المدافعين عنها خسائر معتبرة، وأكمل مهمته رفقة علج علي حصار الجزيرة حتى قرر الصدر الأعظم الانسحاب بعد الفشل في فتحها[3]، هذا ما شجع السلطان العثماني سليمان القانوني على تعيين حسن بن خير الدين قبودان داريا على الأسطول العثماني في رجب 974هـ/جانفي1566م[4] اعترافاً بدوره الفعال في هذه الحملة وقدرته على قيادة الأسطول ومواصلة الفتوحات العثمانية.

يعد حصار جزيرة مالطا–الذي ساهم فيه قادة الإيالة الجزائرية بشكل فعال ومميز–شكلا من أشكال الصراع الإسلامي المسيحي عامة، والجزائري الإسباني خاصة، حيث انتقل الصراع لأول مرة بين الطرفين إلى الأراضي المسيحية في الجهة الشرقية للمتوسط هذا ما زاد في توتر العلاقات الإسبانية الجزائرية خلال القرن السادس عشر الميلادي.

2-المساهمة الجزائرية في الثورة الموريسكية (976-978هـ/1568-1570م).

حاول قادة الإيالة الجزائرية منذ تأسيسها تقديم الدعم اللازم للأندلسيين الموريسكيين، سواء بتدعيم ثوراتهم الداخلية بإسبانيا أو المساهمة في إنقاذهم ونقلهم إلى الجزائر، ومن أهم الثورات التي ساهم فيها الجزائريون بشكل فعال ثورة 976هـ/1568م، التي كانت عبارة عن تراكمات من الاضطهاد والتنكيل الذي مارسه الإسبان على الأندلسيين منذ سقوط إمارة غرناطة سنة 1492م، لأنها لخصت وضعاً وصل إليه المسلمون بإسبانيا لا يمكن السكوت عنه مطلقا من طرف أي حاكم مسلم ينتصر لإخوانه المسلمين.

حاولت السلطات الإسبانية القضاء على كل مظاهر الإسلام ببلادها شكلاً ومضموناً ، وهذا ما تجسد في مضمون المرسوم الذي صدر بتاريخ 12 مارس 1524م؛ والذي يقضي بفرض التنصير الإجباري على كل الأندلسيين الذين لم يغادر البلاد، وفي حالة رفضه يجب عليه المغادرة فوراً وكل مسلم يخالف هذا القرار يسترق مدى الحياة بعد انتهاء المهلة الممنوحة من أجل تنفيذ هذا المرسوم الذي أعطى الحرية المطلقة لدواوين التحقيق

1 – المنور مروش: المرجع السابق، ص137.

2 – *Haedo (F.De): op.cit, p130.*

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 219.

4 – عمار بن خروف: المرجع السابق، ص105.

لتطبيقه وبكل الوسائل الممكنة؛ جوسسة، تعذيب، تحقيق، محكمات شكلية، متابعات قضائية، فبركة التهم وتحويل المساجد إلى كنائس[1]، هذا ما أدى إلى قيام ثورة أندلسية سنة 1526م، في معظم المناطق الإسبانية التي يسكنها المسلمون، إلاّ أنه تم القضاء عليها بسرعة[2]، بسبب عدم التحضير الجيد لها وقلة الإمكانيات المتاحة لقادتها ومنفذيها .

تواصل الاضطهاد والتنكيل بالمسلمين في إسبانيا، هذا ما اضطرهم لطلب المساعدة من السلطان العثماني سليمان القانوني سنة1541م مباشرة بعد انتصار حسن آغا على خصمه شارلكان، راجين منه إعادة خير الدين لحكم الإيالة الجزائرية حتى يساعدهم في التصدي للإسبان وإنقاذهم مما يعانونه من ظلم وجور وقتل وتنكيل وتنصير[3]، لعلمهم بالمكانة التي يتمتع بها خير الدين بربروس في الجزائر وإسبانيا، لأنه كان من السباقين في نصرة إخوانهم الأندلسيين الموريسكيين.

تولى حكم الإمبراطورية الإسبانية فليب الثاني (1558-1598م) خلفا لشارلكان، وقد كان من أشد أعداء المسلمين في بلاده وخارجها، لأنه كان خاضعا لتأثيرات باباوات الكنيسة الكاثوليكية، الذين كانوا يريدون إبادة جميع المسلمين ومطاردتهم أينما حلوا وارتحلوا، وتماشيا وهذه السياسة العدوانية أصدر فليب الثاني سنة 1563م مرسوماً ملكيا يحرم فيه على الأندلسيين حمل السلاح إلاّ بترخيص من الحاكم العام الإسباني، ليصدر سنة 1567م مرسوماً آخرا كان أشد خطراً من كل المراسيم السابقة ، حيث منح لأساقفة غرناطة الحق في منع المسلمين من: الاستحمام، الصلاة، الصوم، استعمال اللغة العربية، ارتداء الحجاب للنساء المسلمات، الذبح على الطريقة الإسلامية، الزواج من المسلمات، منع الختان، وأمر بأن تبقى البيوت مفتوحة يوم الجمعة لمنع المسلمين من الصلاة[4].

لم تكتف السلطات الإسبانية بهذه الإجراءات العدائية ضد المسلمين والتي لم يسبق لها مثيل منذ ظهور الإسلام، بل أصدر الملك فليب الثاني مرسوماً جديداً في جانفي 1568م يحرم فيه على الأندلسيين الموركسيين العمل بتاريخهم القديم أو كتابته أو مناقشته فيما بينهم أو العمل به، هذا ما أشعرهم بالذل والهوان والاحتقار،

---

1 – ليلى الصباغ: المرجع السابق، ص120.

2 – محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس-العصر الرابع-نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1417هـ/1997، ص256.

3 – عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص 43.

4- ليلى الصباغ: المرجع السابق، ص145.

لذلك وبعد مشاورات عديدة بين قادتهم، اتخذوا قراراً نهائياً بإعلان ثورة ضد السلطات الإسبانية سنة 1568م[1]، تدفعهم في ذلك العديد من الأسباب نذكر منها:

- الإجراءات العقابية التي اتخذتها السلطات الإسبانية في حقهم، جعلتهم يحسون بالظلم والجور، وكان اعتقادهم أنه لا يمكنهم التخلص من هذه المظالم إلاّ بالثورة.
- رغبة حكام الإيالة الجزائرية في مساعدة الأندلسيين، في حالة القيام بالثورة من الداخل، بتشجيع مباشرة من السلطان العثماني سليم الثاني.
- الرغبة في إعادة الاعتبار للمسلمين في إسبانيا، بعد سلسلة الانتهاكات المتواصلة في حقهم.
- الانتصارات التي حققها حكام الإيالة الجزائرية على الإسبان، شجعت الأندلسيين الموريسكيين على القيام بالثورة؛ لأن هذه الانتصار أزاحت حاجز الخوف عندهم وجعلتهم يؤمنون بإمكانية الانتصار على خصومهم، بمساعدة الجزائريين.
- إعلان حكام الجزائر بينهم مساعدة أي ثورة تقوم ضد الإسبان من الداخل.[2]

تم التخطيط للثورة الموريسكية جيداً، حيث اتفق قادة الثورة مع علج علي باشا من أجل مساعدتهم بالمال والرجال والعتاد، وفي نفس الوقت قرر علج علي القيام بهجوم مباغت على القوات الإسبانية في مدينة وهران لإرباك السلطات الإسبانية وتشتيت جهودها بين الداخل والخارج، وقد اتفق الطرفان الجزائري والأندلسي على إرسال 14 ألف جندي من الجزائر لمساعدة الثوار الأندلسيين المقدر عددهم بحوالي 60 ألف ثائر، وقد تقرر مبدئياً إعلان الثورة يوم 15 أفريل 1568م، عندما يكون المسحيين مشغولين باحتفالاتهم وصلواتهم بعيدهم في هذا اليوم، إلاّ أن هذه الخطة اكتشفها الإسبان وقاموا بإفشال مخطط الثورة، بسبب إفشاء هذا السر من طرف أحد الثوار، الذي وقع في قضبة السلطات الإسبانية، وأخبرهم عن كل تفاصيل الثورة وأماكن إخفاء الأسلحة والبارود والمؤن.[3]

بالرغم من فشل المحاولة الأولى في تفجير الثورة، إلاّ أن الأندلسيين لم ييأسوا واستجمعوا قواهم ونظموا صفوفهم وبايعوا شابا في العشرين من عمره ينتمي إلى حي البيازين من نسل بني أمية اسمه فرناندو وكوردو وفالورو، وتوّجوه كزعيم عليهم يوم 09رجب 976هـ/29 ديسمبر1568م في احتفال مشهود[4]، لينشر لهيب هذه الثورة في

1 – عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص157.

2 – الشافعي درويش: المرجع السابق، ص 65.

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص226.

4 – ليلى الصباغ: المرجع السابق، ص ص 149، 150.

كل مكان، خاصة بعد أن سارع علج علي في تقديم كل الدعم لها بتوجيه مباشر من السلطان العثماني سليم الثاني (1566م– 1574م)، الذي أمر بمساعدة الثوار ماديا ومعنويا.[1]

لم تنقطع المساعدات الجزائرية للثوار الموريسكيين، فقد أرسل قلج علي سنة 976هـ/1569م عدة سفن محملة بالأسلحة والجنود لدعم المجاهدين الأندلسيين، وهذا ما حدث أيضا خلال عام 977هـ/1570م[2] بتوصية من السلطان سليم الثاني، الذي أمر علج علي بمواصلة دعم الثوار ريثما يتم فتح جزيرة قبرص[3]، هذا ما شجع علج علي باشا على المضي قدماً في دعمه المباشر للثوار، حتى أنه قرر الذهاب بنفسه إلى غرناطة ليتولى قيادة الجهاد هناك، إلاّ أنه اضطر للتراجع عن هذه الخطوة تحت ضغط دون خوان دوتريس «Don Juon Dotris» الذي قرر مهاجمة مدينة عنابة[4]، فما كان من قلج علي باشا إلاّ التراجع عن الذهاب إلى إسبانيا والتوجه إلى مدينة عنابة ومنها إلى البلاد التونسية، التي هاجمها في شهر أكتوبر 1569م، في محاولة لتحريرها من قبضة عميل الإسبان حميد بن مولاي حسن (1542م–1569م)، الذي كان قد عقد معاهدة خضوع واستسلام مع الإسبان المحتلين مثلما حدث مع والده سابقاً.[5]

استمرت الثورة الموريسكية أكثر من سنتين متتاليتين، تكبد فيها الطرفان خسائر مادية وبشرية جسيمة، هذا ما جعل فيليب الثاني يُسخر كافة الإمكانيات العسكرية لجيشه من أجل القضاء على هذه الثورة التي زادت ضراوتها بسبب إصرار كل طرف على حسم الصراع لصالحه، وبعد معارك عنيفة ومكلفة استطاع الجيش الإسباني حسم المعركة الفاصلة لصالحه، خاصة بعد أن تولى القيادة الشاب دون خوان صاحب 24 سنة فقط، والذي ألحق هزيمة نكراء بالأندلسيين وقضى على ثورتهم نهائياً يوم 28 أكتوبر 1570م.[6]

حاولت السلطات الجزائرية بقيادة علج علي باشا لعب دوراً رئيسياً في الثورة الموريسكية، ولم تتأخر في تقديم المساعدات اللازمة؛ سواء مادية أو معنوية، إلاّ أن كل المحاولات الرامية لإرسال أسطول يساهم في المعارك بصفة مباشرة لم تكن ممكنة، بسبب انشغال العثمانيين بفتح جزيرة قبرص، وانشغال الجزائريين بالدفاع عن مدينة عنابة وتونس.

1 – مهمة دفتر، علبة رقم 2، عدد 127، 977هـ.

2 - *Haedo (F.De): op.cit, P139.*

3 – محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص131.

4 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ص227، 229.

5 – جون. وولف: المرجع السابق، ص85.

6 – دومينغيث أورتيث، برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين –مأساة أقلية–مراجعة وتقديم، عبد العال صالح، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2007م، ص ص56–65.

أسفرت هذه الثورة على عدة نتائج، نذكر منها:

- بالرغم من أن الثوار الموريسكيين حققوا العديد من الانتصارات على خصومهم الإسبان، حيث استمرت هذه الثورة أكثر من سنتين، إلاّ أنهم لم يستطيعوا حسم المعارك لصالحهم بسبب عدم تلقيهم الدعم الكافي من السلطان العثماني سليم الثاني وعلج علي باشا حاكم الإيالة الجزائرية، اللذان كانا لهما انشغالات أخرى، مع أنهما حاولا مساعدتهم بكل ما يلزم للثورة.
- أصدرت السلطات الإسبانية بقيادة فيليب الثاني قراراً يقضي بنفي المسلمين من غرناطة إلى داخل البلاد ومصادرة جميع أملاكهم العقارية، وقد صدر هذا القرار يوم 28 أكتوبر 1570م.[1]
- بعد هذه الثورة تأكد الأندلسيون أن عودة الأندلس إليهم أصبح ضرباً من الخيال، إلاّ في حالة تدخل العثمانيون مباشرة وبأسطول قوي تتحد فيه جمع البلدان الإسلامية، وهذا كان ضرباً من الخيال، ما أفقد الأندلسيين الثقة في أنفسهم، وضياع آمالهم في استرجاع بلادهم.
- زادت معاناة الأندلسيين بعد هذه الثورة؛ لأن دواوين التحقيق زادت من أساليبها الوحشية ضدهم وسلطت عليهم أبشع أنواع الاضطهاد والقتل والحرق والتنكيل[2]، وهذا ما نعتبره أهم مأساة عرفها التاريخ الحديث، إن لم نقل عبر التاريخ الإنساني الطويل الذي قلت فيه مثل هذه الأعمال الوحشية، أو على الأقل لم يحدث للمسلمين منذ ظهور الإسلام بمكة مثل هكذا مأساة، اللهم إلاّ في مكة ذاتها قبل هجرة الرسول ﷺ.

3-دور البحرية الجزائرية في معركة الليبانت* سنة 979هـ/1571م.

تعددت أشكال الصراع الإسلامي المسيحي الذي مثله خلال القرن السادس عشر الميلادي الدولة العلية العثمانية والإمبراطورية الإسبانية، التي أرادت سلطاتها وقادة الكنيسة الكاثوليكية نقل المعارك بينها وبين المسلمين إلى سواحل بعيدة عن سواحلها التي تضررت كثيراً جراء الهجمات المتواصلة للجزائريين والأندلسيين الموريسكيين، بدعم مباشر من سلاطين الدولة العلية، وهذا ما زاد في حدة الصراع وديمومته.

---

1 – ليلى الصباغ: المرجع السابق، ص161.

2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص379، 388.

* – تعرف عند الأتراك باسم ابنه بختي وهي تقع شمال المضيق الذي يؤدي من البحر الأيوني باليونان إلى خليج كورينيت والذي يعرف منذ العصور الوسطى بخليج لبانت، وقعت بيد البندقية خلال القرن الثالث عشر الميلادي، وقد حاول محمد الفاتح افتكاكها سنة 1477م لكنه لم ينجح، وتمكن بعد ذلك بايزيد الثاني من فتحها وأنشأ بها قلعتين لحماية مدخل الخليج...، للاستزادة ينظر، نعيمة حموش: "دور البحرية الجزائرية في معركة الليبانت 1571م"، **حولية المؤرخ**، ع1، المطبعة الحديثة، الجزائر، 2005م، ص 206.

عمل قادة الكنيسة الكاثوليكية دائماً على تحريض الملوك الأوربيين على محاربة المسلمين أينما كانوا، خاصة الملوك الإسبان الذين كانوا الأداة الطيعة التي تنفذ أوامر رجال الكنيسة ورغباتهم الشاذة في الانتقام من الإسلام والمسلمين ، وهذا ما حاول البابا بيوس الخامس "Pie V" الذي حاول بكل ما يملك من تأثير وقوة توحيد القادة المسيحيين من أجل الوقوف في صف واحد لمواجهة الخطر العثماني الداهم، وقد كللت مساعيه بتوقيع اتفاق الحلف المقدس يوم 25 ماي 1570م، الذي ضم قادة وملوك كل من: إسبانيا، ألمانيا، إيطاليا والبابوية، الذين اتفق حكامها على إسناد مهمة قيادة القوات الأوروبية المتحالفة لدون خوان النمساوي، الذي كُلف بقهر العثمانيين وتشتيت شملهم ووقف زحفهم.

كان السلاطين العثمانيين يدركون أهمية الإيالة الجزائرية في أي مواجهة ضد المسيحيين، خاصة بعد الانتصارات المتتالية المحققة ضد الأساطيل الإسبانية في غرب المتوسط، لذلك كان سليم الثاني حريصاً على إبلاغ قلج علي بتحركات الأساطيل المسيحية، طالباً منه تجهيز نفسه وأسطوله للالتحاق بالأسطول العثماني المرابط بجزيرة قبرص.[1]

مباشرة بعد حصول الأمر الهمايوني بتاريخ 2 ذو القعدة 978هـ/أفريل 1570م، سارع قلج علي باشا في تجهيز 50 سفينة حربية، وسار على رأسها باتجاه جزيرة قبرص كما حدد له سلفا من طرف السلطان العثماني، وفي طريقه هاجم العديد من المدن الأوروبية الواقعة على ساحل البحر الأدرياتيكي[2]، وكبد سكانها الكثير من الخسائر، هذا ما أدخل الرعب في نفوس ملوك أوروبا، الذين سرّعوا من وتيرة التحضيرات لحملتهم ضد العثمانيين، هذا ما تفطن له قلج علي عند مروره بالأدرياتيكي فأرسل لقادة الأسطول العثماني يخبرهم بضرورة الإسراع في التحضير لمواجهة الأوربيين في أحسن حال، ليرد عليه بورتو باشا ويأمره بضرورة مهاجمة جزيرة كاندي «Coron»[*] وجزيرة طوطورا «Turtura»، بالإضافة إلى عدة جزر أخرى لإلهاء القوات الأوروبية[3] ريثما يتم تجهيز الأسطول الهمايوني جيدا.[4]

بعد أن تم الطرفان العثماني والأوروبي تحضيراتهما اصطدم الأسطول المسيحي والإسلامي ببعضهما البعض في مضيق الليبانت في معركة رهيبة يوم 17 جمادى الأولى 979هـ/7 أكتوبر 1571م، لم يشهد لها التاريخ الحديث

---

1 – محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص 151.

2 – *Grammont (H. De): op.cit, p108.*

* – تقع غرب يوغسلافيا (قبل تفككها) على البحر الأدرياتيكي.

3 – محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص156.

4 – محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص156.

مثيلا، بسبب ضخامة عدد قوات الطرفين، وقطع الأسطولين والمشاركة في المعركة والخسائر الناجمة عنها، حيث أسفر هذا الصدام على هزيمة نكراء تلقاها الأسطول الهمايوني للدولة العلية[1]، لم يسبق لها مثيل في تاريخ الصراع العثماني المسيحي، وحتى في الصراع الإسلامي المسيحي عبر التاريخ، هذا ما أدخل الحزن والأسى في نفوس المسلمين في ذلك الوقت، وفي مقابل ذلك كان الطرف المسيحي في قمة السعادة والفرح بهذا الإنجاز الكبير، الذي نُسب للقائد المسيحي دون خوان النمساوي، الذي استطاع قهر أكبر قادة أسطول بحري في ذلك الوقت، ومع ذلك كان هناك في ميمنة القوات العثمانية، قائد الأسطول الجزائري علج علي باشا، الذي نجا بأعجوبة من هذه المجزرة الرهيبة، واستطاع التغلغل بين صفوف المسيحيين حتى وصل إلى سفن فرسان مالطا وقام بالاستيلاء على رايتهم وكبدهم خسائر جسيمة، بالإضافة إلى أنه أنقذ جزءاً كبيراً من قطع الأسطول العثماني وعاد به إلى عاصمة الدولة العلية إستانبول[2]، هذا ما جعله محل إعجاب وتقدير من أعدائه قبل إخوانه المغاربة والعثمانيين، هذا ما أعطاه مكانة مرموقة عند السلطان العثماني سليم الثاني؛ الذي أسند إليه مهمة قيادة الأسطول الهمايوني، فيما أسند حكم الإيالة الجزائرية إلى حسان بن خير الدين.[3]

3-1 نتائج المعركة:

- تلقى الأسطول العثماني هزيمة قاسية لم يسبق لها مثيل، فقد على إثرها خيرة قادته وجنوده.
- تكبيد العثمانيين خسائر مادية وبشرية كبيرة جدا؛ فقد خسروا حوالي 200 سفينة حربية وجرح وقتل من جنودهم حوالي 30 ألف، بالإضافة إلى حوالي 3 آلاف أسير.
- كان للانتصار المسيحي صدى كبيراً جداً في كامل أوروبا، لأنه يعتبر أول انتصار على الأسطول العثماني بهذه الطريقة الفريدة من نوعها، والغريبة في آن واحد وغير المتوقعة بتاتا، لذلك أقيمت الأفراح في كل مكان ابتهاجاً بهذا النصر الذي رفع من قيمة دون خوان النمساوي، الذي تلقى الإشادة والثناء من ملوك أوروبا وقادة الكنيسة الكاثوليكية وعموم المسيحيين، كيف لا وهو صانع أكبر إنجاز بحري للأوروبيين على حساب العثمانيين.
- بسبب الدور البارز الذي لعبته البحرية الجزائرية في هذه المعركة، والبسالة والإقدام اللذان تميز بهما قائدها علج علي، وعرفاناً بالمجهودات الجبارة التي بذلها في سبيل إنقاذ الأسطول العثماني من الورطة التي وقع

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص231.

2 – جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص90.

3 – نفسه، ص 231.

فيها، قرر السلطان سليم الثاني تعيينه قائداً عاماً للأسطول، وتم تكليفه بإعادة بناءه من جديد حتى يستطيع مواجهة التحديات القادمة.[1]

- بعد هذه الهزيمة التي جعلت الأسطول العثماني عاجزا عن مواجهة الأوروبيين، قرر دون خوان النمساوي القيام بهجوم مباغت لاحتلال تونس، وهذا ما تحقق له بكل سهولة لأن كل الظروف كانت مهيأة له.[2]

تعتبر هذه المعركة التي جرت بين الأسطولين العثماني والمسيحي إحدى حلقات الصراع الإسلامي المسيحي عامة والجزائري الإسباني خاصة، حيث نقل الصراع هذه المرة من الأراضي الإسبانية والمغاربية إلى الجهة الشرقية من المتوسط، وبالرغم من أن الغلبة كانت هذه المرة للإسبان إلاّ أن الأمر لم يحسم لهم بصورة نهائية، لأن قادة الإيالة الجزائرية كانوا مدركين لأهمية مواصلة هذا الصراع حتى يتم تحرير كامل السواحل الجزائرية والتونسية، خاصة وأن خصومهم نقلوا المعركة هذه المرة إلى الأراضي التونسية التي كانت فرصة مناسبة للجزائريين لتصفية الحسابات مع خصومهم الإسبان، ورد الاعتبار للدولة العلية العثمانية.

---

1 – محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص ص 111، 112.

2- *Devoulx (Albert) : L'amarine de la Régence D'Alger, R.Af, N°13, Alger, 1869, p390.*

الفصل الثاني

العلاقات بين الإيالة الطرابلسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (10هـ/16م)

أولا: علاقات الإيالة الطرابلسية مع الإمبراطورية الإسبانية ما بين 916 958هـ/1510 1551م.

المبحث الأول: علاقات طرابلس الغرب مع الإمبراطورية الإسبانية.

1-أسباب الاحتلال الإسباني لطرابلس الغرب.

2-الاحتلال الإسباني لطرابلس الغرب سنة 916ه/1510م.

المبحث الثاني: الحملة الإسبانية على جزيرة جربة وقرنقة سنتي 916 هـ/1510م. و917هـ/1511م.

1-المرحلة الأولى: مرحلة الاستكشاف والاستطلاع.

2-المرحلة الثانية: مرحلة الهجوم على الجزيرة.

3-نتائج هذه الحملة.

4-الحملة الإسبانية على قرنقة سنة 917هـ/ 1511م.

5-الحملة الإسبانية على جزيرة جربة سنة 926هـ/ 1520م.

المبحث الثالث: أوضاع طرابلس الغرب تحت حكم الإسبان 1510-1530م.

1-احتلال فرسان القديس يوحنا لطرابلس الغرب.

2-التحرير العثماني لتاجوراء -بداية النهاية لفرسان مالطا بطرابلس الغرب-

3-درغوث باشا وجهوده الحربية ضد المسيحيين.

4-الاحتلال الإسباني لمدينة المهدية سنة 1550م.

5-هجوم التحالف الأوروبي على جزيرة جربة سنة 1551م.

ثانيا-التحرير النهائي لطرابلس الغرب سنة 1551م.

المبحث الأول: الحملة العثمانية على طرابلس الغرب.

1-أسباب الحملة.

2-تجهيز الحملة.

3-سير الحملة.

4-سير الحملة.

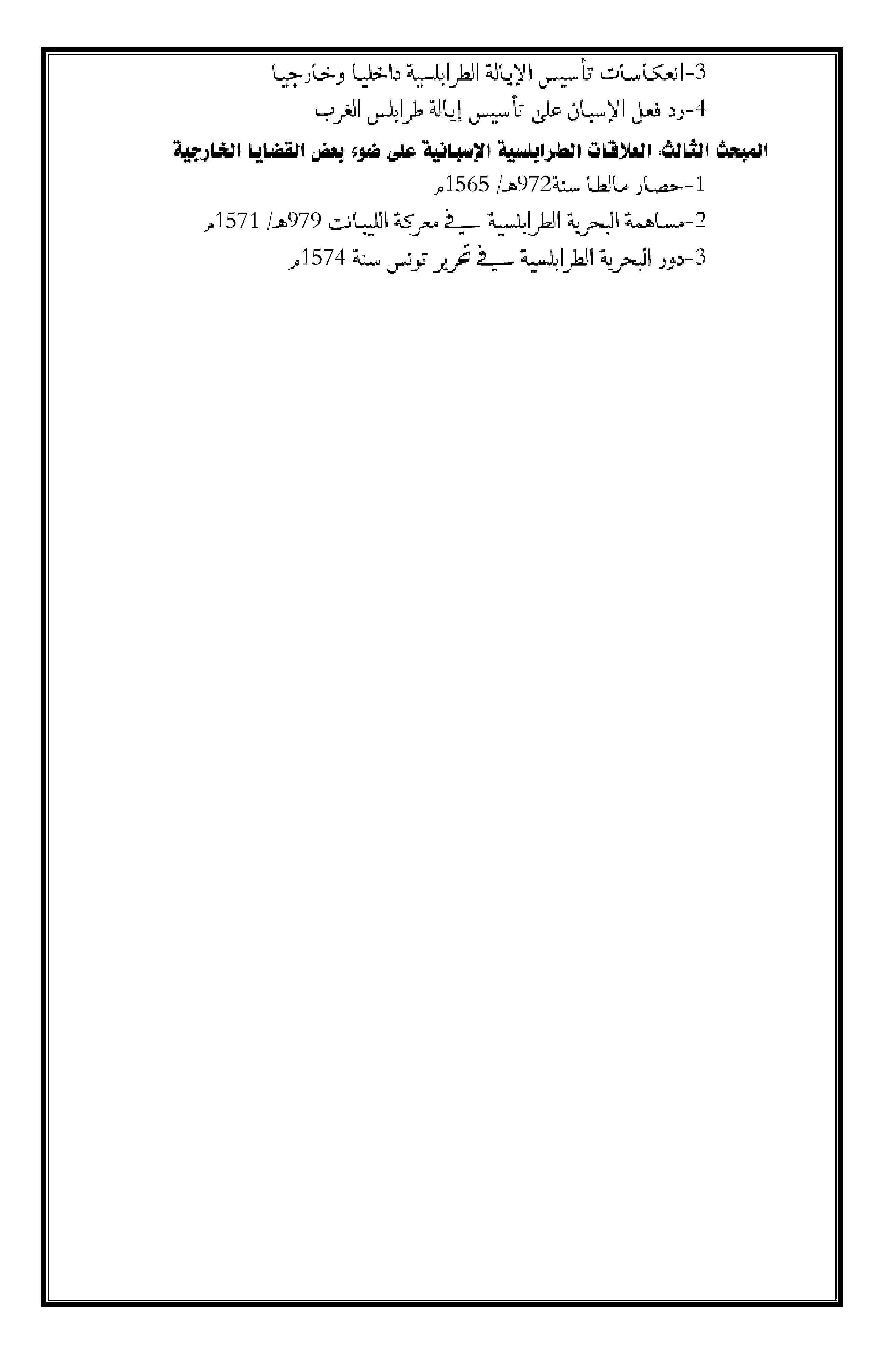
5-مفاوضات الاستسلام.

6-نتائج الفتح العثماني لطرابلس الغرب.

المبحث الثاني: تأسيس إيالة طرابلس الغرب

1-مراحل تأسيس الإيالة الطرابلسية

2-المرحلة الثانية: الانضمام الرسمي سنة958ه/ 1551م



أولا: علاقات الإيالة الطرابلسية مع الإمبراطورية الإسبانية ما بين 916-958هـ/1510-1551م.

المبحث الأول: علاقات طرابلس الغرب مع الإمبراطورية الإسبانية.

شكلت طرابلس الغرب الحلقة الثانية من الصراع العثماني الإسباني في الحوض الغربي للمتوسط بعد المغرب الأوسط، الذي كان الهدف المباشر للإسبان بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، حيث تم احتلال سواحله بداية من المرسى الكبير سنة 1505م ثم وهران سنة 1509م وصولا إلى احتلال كامل السواحل بحلول سنة 1511م، وتزامنا مع ذلك حاول الإسبان التوسع شرقا، حتى وصلوا إلى السواحل الطرابلسية واحتلالها سنة 1510م، وبذلك أصبحت تونس بين فكي كماشة، يحيط بها الاحتلال الإسباني من ثلاث جهات غربا المغرب الأوسط، شرقا طرابلس الغرب وأما شمالا فالدويلات الإيطالية التابعة للإمبراطورية الإسبانية، زادا الأوضاع تأزما وغموضا إعلان السلاطين الحفصيين خضوعهم للملك الإسباني.

تميزت العلاقات الطرابلسية الإسبانية بالعداء المستمر، خاصة وأن إسبانيا كانت البادئة بالاعتداء واحتلال طرابلس الغرب، هاته الأخيرة كانت تعيش التجزؤ والتفكك السياسي، والتخلف الثقافي العلمي، والانهيار الاقتصادي والضعف العسكري لم يسبق له مثيل نتيجة لغياب جيش قوي يحمي البلاد ويدافع عن حدودها وسيادتها بسبب ضعف السلطة الحفصية، الذي نتج عنه إعلان بعض مناطق طرابلس الغرب انفصالها واستقلالها عن السلطة المركزية بتونس، زاد الأمر خطورة غياب سلطة محلية قوية لها نظرة مستقبلية لحماية بلادها من خطر الاحتلال، خاصة وأن أخبار احتلال سواحل بلاد المغرب الأوسط كانت تصل إلى أسماع الطرابلسيين الذين بقوا مكتوفي الأيدي غافلين عن هذا الخطر الداهم، إلى أن تم احتلال بلادهم بأسرع مما يتصوره أي متابع للإحداث.

مع أن احتلال البلاد تم بسهولة تامة إلا أن سكان طرابلس الغرب عملوا كل ما في وسعهم للدفاع عن أرضهم ودينهم وظلوا ينتظرون الفرصة المواتية لطرد المحتلين الإسبان، خاصة وأن انتظارهم لم يطل وجاءتهم الأخبار السارة من المغرب الأوسط، أين تم تأسيس الإيالة الجزائرية على يد خير الدين بربروس سنة 1520م فاستبشروا خيرا بهذا النبأ، لذلك عملوا ما في وسعهم للاستنجاد بالعثمانيين لإنقاذهم من الاحتلال الإسباني، وقد تم لهم ذلك سنة 1551م.

وبتأسيس إيالة طرابلس الغرب التي شكلت قاعدة عثمانية ثانية بعد إيالة الجزائر في مواجهة الخطر الأوروبي عامة والخطر الإسباني خاصة، وفي نفس الوقت ساهمت إيالة طرابلس في تثبيت الوجود العثماني في غرب

المتوسط، وهمزة وصل بين المشرق والمغرب وبهذا التأسيس أصبح الاحتلال الإسباني بتونس محاصرا بممتلكات الدولة العلية العثمانية؛ غربا الإيالة الجزائرية وشرقا الإيالة الطرابلسية وبذلك كان طرد الإسبان من تونس تحصيل حاصل ومسألة وقت فقط.

1-أسباب الاحتلال الإسباني لطرابلس الغرب.

تميزت هذه المرحلة من العلاقات بالاحتلال الإسباني لطرابلس الغرب سنة 1510م، وفي نفس الوقت اشتداد مقاومة السكان المحليين بزعامة المرابطين وزعماء الطرق الصوفية لهذا الاحتلال بشتى الطرق والوسائل، والسعي لطرد الإسبان وتحرير بلادهم، بالرغم من وسائلهم المحدودة وغياب قيادة حكيمة حقيقية توجههم وتقود المقاومة، وفي نفس الوقت غياب جيش قوي يدافع عن العباد والبلاد، وأكثر من ذلك غياب السلطة الحفصية عن مسرح الأحداث نتيجة لضعفها وانحصار نفوذها بمدينة تونس أخّر تحرير طرابلس الغرب وفسح المجال للإسبان للعبث بالبلاد والعباد.

وقد توفرت العديد من الأسباب للإسبان لاحتلال طرابلس الغرب. يمكننا إيجازها فيما يلي:

1-1-الانقسام السياسي.

عرفت طرابلس الغرب نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر انقساما سياسيا خطيرا أدى إلى ضعفها وتفككها، وجعلها تنقسم إلى إمارات صغيرة متناحرة فيما بينها، لكل مدينة حاكمها وجيشها الخاص، حيث الولاء للقبيلة والعشيرة على حساب الولاء للدولة، خاصة وأن الطرابلسيين لم يحكمهم أي حاكم محلي إلا في نهاية القرن الخامس عشر، حيث كان يتنازع حكمهم بني حفص وبني مرين، فيما كان الخلاف والتناحر السمة البارزة بين الزعماء المحللين من أجل النفوذ والكلأ والماء والأرض، فمدينة درعة كان يتقاسم حكمها عدة زعماء محليين يعيشون في خلاف وقتال دائمين، وكل واحد منهم يستعين بالمرتزقة من الأعراب المجاورين الذين يتقاضون مبالغ مالية كبيرة من أجل القتال في صفوف هؤلاء الزعماء.[1]

أما القسم الشرقي من البلاد فقد كان خاضعا لسلطة المماليك بمصر، إلا أن هذا الخضوع كان اسميا فقط، لأن السلطة الحقيقية كانت بيد البدو الذين كانوا يمثلون القوة الرئيسية المتحكمة في البلاد، وتكاد تكون الوحيدة في غياب أي سلطة للدولة خاصة في برقة وفزان، نظرا لأعدادهم الكبيرة و قوتهم الضاربة وسلطتهم المفروضة بالقوة على السكان المحليين في هذه المناطق[2]، فيما كان إقليم طرابلس الغرب يشكل وحدة سياسية قائمة

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص ص119، 120.

2- محمد دراج: الدخول العثماني...، المرجع السابق، ص78.

بذاتها بعيدة عن السلطة الحفصية التي فقدت سيطرتها كليا عن هذا الإقليم، الذي أعلن تبعيته لبني مرين بفاس، وبذلك شكلت العديد من المدن والأقاليم حكومات محلية مستقلة بعيدا عن رقابة أي سلطة أخرى.[1]

1-2-الأهمية الاقتصادية لطرابلس الغرب:

للتدليل على الأهمية الاقتصادية لطرابلس الغرب في بداية العصر الحديث ننقل هذا النص الذي ذكره العياشي في رحلته حيث قال: «...**وأما أخذ النصارى لها فذكروا لذلك قضية غريبة ؛وهي أن أهل هذه المدينة فيما مضى كانوا أهل دنيا عريضة فيما يقال وليس فيهم غناء ولا لهم بالحرب خبرة، فبينما هم كذلك قدمت سفن للنصارى تجارا بسلع كثيرة، فنزلت بالمرسى فخرج إليهم رجل من التجار فاشترى منهم جميع ما بأيديهم من السلع ونقد لهم ثمنها، ثم استضافهم رجل آخر فصنع لهم طعاما فاخرا، فلما أخرج لهم الطعام أخذ ياقوتة فدقها دقا ناعما وذرها على طعامهم فبهتوا من ذلك، فلما فرغوا قدم لهم دلاعا...**».[2]

من خلال هذه الرواية التاريخية التي نقلها لنا العياشي وغيره من المصادر الطرابلسية والمغاربية، وبصرف النظر عن صدقها من كذبها، يمكننا إبراز الأهمية الاقتصادية والخيرات التي كان ينعم بها أهل هذه البلاد، لأنها كانت مركزا تجاريا هاما ومعبرا للسلع بين دول أوروبا والدول المغاربية وإفريقيا جنوب الصحراء، خاصة وأن المبادلات كانت تتم نقدا وليس مقايضة، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على الثراء الذي كان يعيشه السكان المحليين والخيرات التي تزخر بها بلادهم، وفي المقابل كانت إسبانيا مزهوة باكتشاف العالم الجديد؛ أين جلبت إليها ثروات طائلة خاصة الذهب والفضة[3]، مما جعلها تعيش في بحبوحة مالية وفائض في الإنتاج كانت مضطرة لتصريفه إلى أماكن أخرى من العالم، وفي نفس الوقت كانت بحاجة أيضا إلى مواد أولية ومنتجات زراعية غير متوفرة لديها، لذلك عملت على البحث عن أماكن تحقق لها مسعاها، فكانت بلاد المغرب عموما وطرابلس الغرب خصوصا، ملاذا آمنا وهدفا مباشرا لتحقيق طموحاتها.

1-3-غياب جيش نظامي موحد.

بما أن البلاد الطرابلسية كانت منقسمة على نفسها كل إمارة مستقلة بذاتها، وكل قبيلة أو عشيرة لها مصالحها الخاصة تدافع عنها[*]، حيث الولاء يكاد يكون لشيخ القبيلة أكثر من الولاء للدين والوطن، لذلك لم

1- ناصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب العثمانية...، المرجع السابق، ص16.

2- أبو سالم العياشي: المصدر السابق، ص143.

3- محمد دراج: المرجع السابق، ص32.

* - عموما هذه الميزة لم تكن خاصة بطرابلس الغرب فقط بل كانت سمة بارزة في كامل بلاد المغرب عموما.

يكن لهذه البلاد جيشا موحدا يدافع عن سيادتها وحدودها، بل أكثر من ذلك كان السكان في الأرياف والبوادي مهتمين بالاقتتال على الكلأ والماء والأراضي فيما كان سكان المدن الساحلية والمناطق الحضرية مهتمين بالتجارة والصناعة، ناسين أو متناسين التهديدات الإسبانية والأوروبية الداهمة، وهذا ما نستشفه من رواية العياشي حيث يقول: «... **فلما رجعوا إلى بلدهم سألهم ملكهم "فرديناند" عن حال البلد التي قدموا منها فقالوا: ما رأينا بلدا أكثر منها مالا وأقل سلاحا وأعجز أهلا عن مدافعة العدو**...».[1]

إذن هي وضعية كارثية وصلت إليها البلاد الطرابلسية، خاصة بعد ضعف السلطة الحفصية بتونس، فاسحة المجال للبدو وشيوخ القبائل والمرابطين للانفراد بحكم البلاد كل حسب أهوائه وأهدافه، وهكذا استغل الإسبان هذه الوضعية المتردية لصالحهم، خاصة وأنهم كانوا يمرون بمرحلة قوة وتوسع بعد طرد العرب والمسلمين من الأندلس، وآخر معاقلهم غرناطة، بالإضافة إلى اكتشاف العالم الجديد وانتصاراتهم المتتالية على الفرنسيين في الحروب الإيطالية وسيطرتهم على سواحل المغرب الأوسط، فيما كانت طرابلس الغرب عاجزة تماما عن تكوين جيش يدافع عن مصالح البلاد والعباد.

1-4-نشر المسيحية.

لا يمكن إغفال الجانب الديني في دواعي الاعتداء الإسباني على بلاد المغرب عموما و طرابلس الغرب خصوصا، خاصة وأن هذه الأخيرة كانت بوابة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب والأندلس، ولذلك كان لزاما على الإسبان الانتقام منها واحتلالها، ونشر المسيحية بها، لأن هذا العمل من أهم أهداف الملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا، اللذان تحملا على عاتقهما مسؤولية القضاء على الوجود العربي الإسلامي بالأندلس، لأنه واجب مقدس أولا، ثم مطاردتهم إلى بلاد المغرب ونشر المسيحية ثانيا، وكان الملك فرديناند يرفع شعارا جعله من أولوياته كحاكم لإسبانيا مفاده؛ « ...**إقامة السلم بين المسيحيين وإعلان الحرب على الكافرين**...»[2] فيما أمرت إيزابيلا في وصيتها بوجوب التوسع في إفريقيا ومواصلة قتال الكفار أعداء الدين المسيحي.[3]

مع أنه يمكننا القول أن نشر الدين المسيحي لم يكن أبدا الهدف الرئيسي في دفع الإسبان لاحتلال بلاد المغرب الإسلامي، إلا أنه كان من بين الأسباب التي اتخذها حكام إسبانيا للانتقام من سكان بلاد المغرب لأن المذهب الكاثوليكي كان خلال هذه الفترة في انحصار مستمر داخل أوروبا ذاتها بفعل ظهور المذهب البروتستانتي الذي استطاع القضاء على المذهب الكاثوليكي في العديد من البلدان الأوروبية أو على الأقل الحد من سيطرته

1- أبو سالم العياشي: المصدر السابق، ص143.

2- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص19.

3 - *Grammont, h, de : op.cit, p05.*

ونفوذه، فهل يعقل أن ينتشر المذهب الكاثوليكي في بلاد الإسلام، خاصة طرابلس الغرب؟ ونحن نعلم أن المغاربة رفضوا حركات تدعي الإسلام وحاربوها من أجل التمكين وإبقاء المذهب المالكي سائدا في بلادهم، ثم يتقبلون دينا جديدا عنهم.

1-5-الموقع الاستراتيجي لطرابلس الغرب.

تعتبر طرابلس الغرب من أهم البلدان في الحوض الغربي للمتوسط وهمزة وصل بين المشرق الإسلامي وبلاد المغرب، بالإضافة إلى موقعها المتميز لأنها تربط إفريقيا جنوب الصحراء ومصر، وبلاد المشرق والدول الأوروبية الواقعة بالضفة الشمالية الشرقية بالمتوسط، وبلاد المغرب الأخرى، فهي إذا مركزا تجاريا هاما يربط بين العالمين الإسلامي والمسيحي، لأنها قريبة من مصر بوابة المشرق ومالطا وصقلية وبقية الدويلات الإيطالية الأخرى، لذلك كان التجار يأتون إليها كل سنة لتبادل السلع والمنتوجات والخبرات[1]، حتى أصبحت مدن طرابلس الغرب الساحلية؛ خاصة مدن طرابلس، بنغازي وبرقة هاته الأخيرة كانت همزة وصل بين مصر والبلدان المغاربية وجمعت بين البر والبحر، وبذلك أصبحت مركزا هاما لرسو السفن المتجهة إلى المدن المصرية خاصة الإسكندرية[2]، بالإضافة إلى مدينة طرابلس الواقعة على شاطئ البحر مما جعلها عامرة بكل الخيرات، زادها أهمية وتطورا أراضيها الخصبة ومنتوجاتها المتنوعة، وطيبة أهلها وحسن معاملتهم وخبرتهم في ممارسة التجارة، وزادها أهمية قربها من البلاد التونسية.[3]

هذا الموقع الاستراتيجي الهام لطرابلس الغرب أغرى الإسبان لأنهم بذلك يستطيعون مراقبة طرق التجارة باتجاه الشرق والمغرب الإسلامي، خاصة أنهم استطاعوا السيطرة على المحيط الأطلسي باتجاه العالم الجديد، علما أن كل السواحل المغاربية من المغرب الأقصى غربا إلى عنابة شرقا كانت تحت سيطرتهم، أما تونس فكانت تحت سيطرتهم غير المباشرة عن طريق التفاهم وخضوع الحفصيين لهم، وبذلك لم يبق لهم إلا طرابلس الغرب ليكون البحر المتوسط في جهته الغربية بحيرة إسبانية.

1-6-انتشار الطاعون ببجاية.

هناك سبب يكاد لا يُذكر عند المؤرخين يتعلق بالحالة الصحية للجنود الإسبان في بجاية الذين أصيبوا بداء الطاعون الذي تفشى بينهم، وكان يذهب ضحيته يوميا حوالي 100 إسباني، لذلك اضطر بيدرو نافارو

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص98.

2- عبد المنعم الحميري: المصدر السابق، ص91.

3- نفسه: ص 389.

الفرار بجنوده إلى طرابلس الغرب وترك نائبه ببجاية[1]، وقد يكون هذا سببا مقنعا، خاصة وأن أهمية طرابلس الغرب عجلت بهذا الخروج[2]، زد على ذلك الخطط الحربية الإسبانية كانت تقضي بذلك في القريب العاجل والانتقال من بجاية إلى طرابلس الغرب، والفرصة مواتية للقادة الإسبان من أجل السيطرة على المزيد من الأراضي المغاربية.

2-الاحتلال الإسباني لطرابلس الغرب سنة 916هـ/1510م.

2-1-سير الحملة ونتائجها.

2-2-سير الحملة.

أ-تجهيز الحملة.

عندما غادر بيدرونفارو بجاية هربا من الطاعون الذي انتشر بها وأهلك المئات من جنوده، لم يتوجه رأسا إلى طرابلس الغرب إنما توجه إلى جزيرة "فابياني" بالقرب من صقلية للتزود بالأسلحة والمؤن، فيما توجه العقيد دييغو البلنسي «Diego devalencia» إلى نابولي للتزود أيضا بالأسلحة والمؤن، ليلتقيا بعدها في جزيرة فايياني أين اجتمعت قطع الأسطول الإسباني، الذي كان يتكون من 50 سفينة شراعية بكل مستلزماتها، فيما بلغ عدد السفن الحربية الأخرى 60 سفينة وغليوطتين، بالإضافة إلى التحاق 5 سفن حربية مالطية، وبذلك بلغ عدد وحدات هذا الأسطول حوالي 120 سفينة من كل الأنواع، ليتوجه بعدها إلى جزيرة "غوزو" بمالطا[3] ليقترب أكثر من طرابلس.

أما عدد الجنود الذين اجتمعوا لاحتلال طرابلس الغرب فكان يقارب 10 آلاف جندي إسباني و3 آلاف جندي إيطالي[4]، والمئات من الجنود المرتزقة الأوروبيين وغيرهم، وكان على رأسهم المرتزقة المالطيين الذين يعملون كمرشدين، وقد تولى عملية التوجيه والإرشاد مرتزق اسمه جوليانو أبيلا" «golyano ABILA»[5]، لأن الإسبان كانوا يجهلون جغرافية المنطقة، لأنه لم يسبق للقادة العسكريين التعرف عليها واستكشافها، إذا ما استثنينا الأخبار التي كانت تصلهم من التجار*، فيما كان المالطيون يعرفون هذه المنطقة جيدا بحكم قرب بلادهم منها،

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص75.

2 -جان كلود زليتنر: المرجع السابق، ص 29.

3- شارل فيرو: المرجع السابق، ص75.

4- إتوري روسي: ليبيا من الفتح العربي... المرجع السابق، ص ص 169، 170.

5- محمد خير فارس، محمد علي عامر: المرجع السابق، ص149.

* – هنا يجب الإشارة إلى أن الإسبان استعملوا التجار كجواسيس لاستكشاف بلاد المغرب واستطلاع أوضاعها، لأنهم قرروا احتلالها بالكامل، خاصة وأنهم استطاعوا احتلال سواحل المغرب الأوسط بكل سهولة، وكذلك الحال مع سواحل المغرب الأقصى، لذلك عمل هؤلاء التجار كمخبرين=

بالإضافة إلى عملهم كتجار ومرشدين أيضا للتجار الأجانب وتعاملهم المباشر مع الطرابلسيين، ولذلك يعتبر المالطيين بالدرجة الأولى جواسيس للإسبان، الذين لهم الفضل الكبير عليهم ويجب رد الجميل لهم ولا يتأتى ذلك إلا بمساعدتهم في احتلال طرابلس والانتقام من المسلمين؛ الذين ما أسست منظمة الفرسان القديس إلا للانتقام منهم، زد على ذلك أن المالطيين مرتزقة لا تهمهم إلا مصالحهم الخاصة وربح الأموال.

ب-سير الحملة ووقائعها.

تمت هذه الحملة بتحريض من الكاردينال خمينيس أسقف طليطلة، مثلما عمل سابقا مع بلاد المغرب الأوسط، فيما كان قائد الأسطول البحري بيدرو نفارو وبتوجيه و إشراف مباشر من نائب ملك صقلية، وقد غادر بيدرونفارو مدينة بجاية بتاريخ7 جوان1510م*، واتجه إلى مدينة فافنيان «favignnana» أين التقى الأسطول الإسباني مع بقية السفن الأوربية القادمة من نابولي وصقلية، ليغادر الأسطول مدينة فافنيان بتاريخ 15جويلية 1510م متجها إلى مدينة غوزو «gozo» بمالطا، أين أخد قسطا من الراحة إلى غاية يوم 20 جويلية[1]، وفي نفس الوقت أرسل بيدرونفارو الضابط ديغودو فلانسيا إلى مملكة نابولي للتزود بالمؤن الضرورية، وكذلك العتاد الحربي لجيشه المكون من 16 ألف جندي، وما إن عاد ديغو دوفلانسيا من مهمته حتى قرر قادة الأسطول الإسباني مواصلة السير باتجاه طرابلس الغرب التي وصلوها يوم 25 جويلية 1510م الموافق لعيد القديس يعقوب، وهو يوم مقدس عند الإسبان[2]، وبذلك نلاحظ أن الأمر كان مدبرا ومخططا له ومقصود، حتى يتم احتلال المدينة في يوم ديني مقدس عند المسيحيين تماشيا وما هو متعارف عليه عندهم، حيث يركزون دائما على مثل هذه الأعياد، حتى يلحقوا أكبر أذى بالمسلمين، وتحقيقا لوصية الملكة الكاثوليكية إيزابيلا التي أمرتهم بقتال الكفار حسب ظنها، خاصة إذا علمنا أن وراء هذه الحملة الكاردينال خيمينيس والملك الكاثوليكي فرديناند ومن ورائهما الكنيسة الكاثوليكية بروما.

=وجواسيس لتسهيل مهمة الجيش الإسباني، والمصادر التاريخية تؤكد بمالا مجال للشك أن الساسة والعسكريين الإسبان قرروا احتلال طرابلس الغرب قبل سنة 1510م وإلا بماذا نفسر تدخل الملك والكنيسة والقادة العسكريين في أمور التجارة.

* - ظهرت نوايا بيدرونفارو مباشرة بعد احتلاله بجاية سنة 1510م، لأنه في شهر ماي 1510م أمضى السلطان الحفصي أبي عبد الله اتفاقا مع الإسبان تم بموجبه إعلان تبعيته للملك فرديناند، وبذلك أمّن الإسبان الجهة الشرقية للمغرب الأوسط، وضمنوا اعترافا خطيا من السلطان التونسي بتنازله عن بجاية، ولم يبق للإسبان إلا طرابلس الغرب لتصبح جميع سواحل بلاد المغرب الإسلامي تحت سيطرتهم المباشرة، أو غير المباشرة عن طريق إعلان التبعية لهم، وبذلك قرر بيدرونفارو التحضير لاحتلال طرابلس الغرب بعد ضمان ولاء السلطان الحفصي لهم، والتنازل لهم أيضا عن طرابلس وإعطائهم الحق في احتلالها، وبدلك تركت هده البلاد تواجه مصيرها لوحدها.

1- مرمول كربخال: المصدر السابق، ص120.

2- إتوري روسي: المرجع السابق، ص170.

ج-خطة الهجوم والمعركة الفاصلة.

للسيطرة على المدينة بسهولة قرر القائد بيدرو نفارو أولا ضرب حصار محكم عليها، ومنع أي سفينة من الدخول إليها حتى لا تقدم للمحاصرين أي مساعدة[1]، وفي نفس الوقت مهاجمتها من جهتين، لذلك قسم قواته إلى قسمين:

قسم يهاجم المدينة ويستولي عليها، فيما يبقى القسم الثاني يؤمن مؤخرة الجنود المهاجمين ويمدهم بالدعم الكافي، وفي نفس الوقت يمنع الأعراب "الريفيين" من التقدم وتقديم المساعدة لإخوانهم المقاومين، مع التركيز على تشديد المراقبة على هؤلاء الأعراب ومهاجمتهم في الريف القريب من المدينة، لبسط السيطرة عليها من الجهتين داخل المدينة وأيضا الريف الطرابلسي[2]، وبذلك تستطيع القوات الإسبانية توجيه الضربة الاستباقية للطرابلسيين؛ لأنهم كانوا يعلمون أن سكان الريف لن يتنازلوا بسهولة عن المقاومة في حالة سقوط المدينة، لذلك أرادوا تأمين المدينة حتى لا تكون قواتهم عرضة لهجمات المقاومين من الداخل والأرياف والمدن المجاورة.

د-بداية المعارك.

بمجرد وصول الأسطول الإسباني إلى سواحل مدينة طرابلس في صباح يوم الخميس 25 جويلية 1510م، استطاع إنزال مجموعة كبيرة من الجنود إلى البر قدرت بحوالي 16ألف جندي[3]، لتنفيذ خطة الهجوم التي اتفق عليها قادة الجيش الإسباني، وقد استطاع حوالي 3 آلاف جندي مهاجمة المدينة، فيما بقي النصف الآخر لحماية الجنود المهاجمين، وفي نفس الوقت بدأت المدفعية في قصف المدينة لإرعاب سكانها وتشتيت شمل المقاومين والمجاهدين وإرباكهم، وقد استطاع الجنود الإسبان التوغل داخل شوارع المدينة والقتال فيها، فيما واجههم المقاومين الطرابلسيين ببسالة وثبات مدافعين عن مدينتهم، بينما احتمى حاكم المدينة الشيخ عبد الله وعائلته داخل قصره، أما غالبية السكان ففروا إلى المساجد.[4]

سرعان ما استولى الجنود الإسبان بمساعدة المدفعية على قسم من سور المدينة وبرجيها ليواصلوا تقدمهم، أين استطاعوا السيطرة على برج باب العرب والتوغل أكثر داخل المدينة، بالرغم من المقاومة العنيفة التي أبداها الطرابلسيون[5] في الدفاع عن المدينة التي لم تصمد طويلا في وجه الإسبان.

1- مرمول كربخال: المصدر السابق، ص122.

2- إتوري روسي: المرجع السابق، ص170.

3- إتوري روسي: طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا...، المرجع السابق، ص18.

4- راسم رشدي: المرجع السابق، ص76.

5- إتوري روسي: المرجع السابق، ص19.

مع اختلال موازين القوى بين الطرفين الطرابلسي والإسباني بسبب الفرق الشاسع بينهما في العدة والعتاد وحتى في العزيمة والإصرار؛ فبينما كان القائد بيدرو نفارو ومعاونيه وجيشه يقاتلون ببسالة وشجاعة وعزيمة منقطعة النظير، فضّل حاكم طرابلس الاختفاء مع عائلته داخل قصره منتظرا ما ستسفر عنه المعركة، وكأنه ينتظر استسلام المقاومين وتسليم المدينة للإسبان حتى يسلم نفسه، مفضلا الحياة والاستسلام، على الاستشهاد دفاعا عن دينه ووطنه، وهذا في الحقيقة ديدن كل حكام بلاد المغرب ذلك الوقت.*

لم تستمر المعارك بين المجاهدين والقوات الإسبانية إلا بضع ساعات، فلم يحل المساء حتى استطاع الإسبان السيطرة على المدينة وإحكام قبضتهم عليها نهائيا[1]، فيما أصبحت المقاومة لا تجدي نفعا، خاصة وأن المجاهدين افتقدوا لقائد شجاع يوجههم ويقود المقاومة بنفسه، ومع ذلك تواصلت المقاومة من طرف الطرابلسيين الذين استشهد عددا كبيرا منهم في ساحة المعارك.

هناك يجب الإشارة إلى تناقض الروايات التاريخية حول حقيقة امتلاك الطرابلسيين للأسلحة، حيث أشارت المصادر العربية والإسلامية أن أهل طرابلس كانت لهم تجارة رائدة وأموال ضخمة ونسوا تسليح أنفسهم مفضلين الحياة الدنيا وشهواتها[2]، وأوردوا قصصا خيالية عن كيفية احتلال طرابلس، أما المصادر المسيحية فقد أوردت عكس ذلك تماما، فمرمول كربخال ذكر أن التجار الجنويين كانوا قد اخبروا الطرابلسيين بقرب وصول الأسطول الإسباني إلى بلادهم لاحتلالها، ولذلك استعد الطرابلسيون للمقاومة، وقاموا بإصلاح التحصينات وبناء أخرى جديدة، وأنشأوا فرقا للحراسة في أطراف المدينة ودواخلها[3]، فهل يعقل أن مدينة خالية من الأسلحة تماما كما ذكرت الروايات المحلية تستعد للمقاومة وتحصن المدينة؟ وهل يعقل أن تُجهزّ حملة ضخمة من طرف الإسبان للسيطرة على مدينة خالية من الأسلحة؟ فكيف إذا نفسر تصدي المقاومون الطرابلسيون بكل شجاعة للإسبان لو لم تكن لديهم أسلحة بالرغم من عدم تكافؤ قوة الطرفين؟

بالرغم من المقاومة الشديدة التي أبداها الطرابلسيون في مواجهة المحتلين الإسبان، إلا أنهم استطاعوا احتلال المدينة والقضاء على المقاومة فيها وتكبيد أهلها خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، وبذلك استباحوا مدينة طرابلس وما فيها، حيث قتلوا من أهلها حوالي 5000 شخص أغلبهم الذين فضلوا الاعتصام داخل

* – علمنا التاريخ أن القائد الشجاع يفضل الموت على الاستسلام للعدو، وقد ضرب القادة المسلمون أروع الأمثلة في الصبر والبلاء، فقد كانوا يفضلون الاستشهاد على الاستسلام للعدو، وقلما سمعنا عن قائد مسلم في العصر الإسلامي سلم نفسه من عهد الصحابة إلى غاية الزمن المتأخر؛ الذي أصبح فيه القادة المسلمين يسلمون أنفسهم لعدوهم يفعل بهم ما يشاء تاركين الرعية تواجه مصيرها لوحدها

1– شارل فيرو: المرجع السابق، ص76.

2– أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ص142.

3– مرمول كربخال: المصدر السابق، ص123.

المسجد الكبير[1] على القتال مع إخوانهم والموت موتة الشرفاء والأبطال. بدل هذه النهاية التعيسة على يد المحتلين الإسبان وبدون مقاومة تذكر، أما الشيخ عبد الله حاكم طرابلس فقد سلم نفسه للمحتلين مع كامل عائلته ومعاونيه[2]، ويالها من نهاية لهذا الحاكم ومعاونيه! وبذلك استطاع الإسبان استباحة مدينة طرابلس وما فيها، ونهب خيراتها التي جاؤوا من أجلها، وهي عادتهم بعد احتلال كل مدينة.

2-3-نتائج الاحتلال الإسباني لطرابلس الغرب.

1- فرار سكان طرابلس باتجاه تاجوراء، مسراتة، مسلاتة وغريال[3] من بطش الإسبان وجرائمهم، وبذلك خلت المدينة للإسبان الذين أرادوا طرد أهلها وتعويضهم بالسكان الأوربيين من قشتالة وأرغون وصقلية والدويلات الإيطالية، واضعين في حسبانهم تكرار تجاربهم الناجحة في القمع والاضطهاد ضد الأندلسيين الموريسكيين وسكان العالم الجديد بعد اكتشافه.

2- تكبد الطرابلسيون خسائر بشرية ومادية فادحة، بالإضافة إلى تخريب المدينة واستباحتها ونهب خيراتها من طرف الإسبان، فقد بلغ عدد القتلى حوالي 6.000 شهيد، نكّل الإسبان بجثثهم وقاموا بحرقهم انتقاما منهم، أما بقية الجثث فقد رمي بعضها بساحات المساجد والجوامع*، والبعض الأخر رميت في البحر، وأسر أكثر من 15.000 شخص.[4]

3- لم تتكبد القوات الإسبانية وبقية القوات المسيحية المتحالفة معها إلا القليل من الخسائر البشرية، فقد قدر عدد قتلاهم بحوالي 300 فقط، كان على رأسهم أميرال الحملة كرستوباللو بازأريارنا « cristoballopez de arriaran».[5]

إن هذا العدد القليل من القتلى يثبت لنا عدة حقائق تاريخية نذكر منها:

— الاختلال الكبير في موازين القوى بين الطرفين، لأن الإسبان كانوا يمتلكون أسلحة متطورة جدا بالمقارنة مع الطرابلسيين، خاصة المدفعية التي لعبت الدور الكبير في هذا الانتصار.

1- راسم رشدي: المرجع السابق، ص87؛ إتوري روسي: المرجع السابق، ص19.

2- محمد خير فارس، محمود علي عامر: المرجع السابق، ص150.

3- أبو سالم العياشي: المصدر السابق، ص143.

* - وبذلك أثبت الإسبان وقاحتهم وهمجيتهم، اللتان عرفوا بهما، وهو ديدنهم في جميع معاركهم، خاصة مع المسلمين سواء في بلاد المغرب أو الأندلس، لكنهم ما بالهم ينتقمون من جثث أفضت أرواحها إلى خالقها، وهي لا تتأثر بهذه الأفعال القبيحة، مع العلم أن التاريخ لم يحفظ لنا أعمالا مماثلة قام بها المسلمون ضد المسيحيين!

4- مرمول كربخال: المصدر السابق، ص123؛ شارل فيرو: المرجع السابق، ص78.

5- ايتوري روسي: المرجع السابق، ص22.

- الجيش الإسباني كان منظما جيدا ومدربا تدريبا عسكريا متطورا أثبت نجاحه في كل المعارك التي خاضها، سواء ضد الأندلسيين أو المغاربة أو في الحروب الإيطالية والعالم الجديد، على عكس الطرابلسيين الذين كانوا عبارة عن متطوعين غير مدربين على مثل هذه المعارك.
- امتلاك الإسبان لقيادة عسكرية كفئة كان همها تحقيق رغبات ملوكها ووصياهم التي تأمرهم بقتال الكفار "المسلمين" بقيادة بيدرو نافارو، أما القيادة الطرابلسية فهي قيادة متقاعسة لا تملك خبرة بشؤون الحرب والقتال، مفضلة الحياة الدنيا على الجهاد في سبيل الله، وإلا بماذا نفسر اختفاء الحاكم "عبد الله" وأبنائه وحاشيته ومعاونيه في قصره تاركين مصير المدينة بيد الإسبان.
- إصرار الإسبان على تحقيق أهدافهم بالرغم من فقدان أحد أبرز قادتهم في هذه المعارك كريستو باللوباز.

4- استطاع الإسبان تحرير 180 أسير إيطالي[1]، كان الطرابلسيون يحتجزونهم عندهم.

5- قام الإسبان ببناء أسوار جديدة لحماية المدينة من هجمات المقاومين الطرابلسيين بالرغم من قلتها أو الهجمات الخارجية القادمة من جهة البحر، وقد استعملت في عملية البناء مواد مأخوذة من المنازل والقصور والبنايات والمساجد والجوامع المهدمة نتيجة القصف المكثف والتخريب الذي طال هذه المنشآت العمرانية من طرف الجنود المسيحيين.

6- رُفع العلم الملكي الإسباني على مباني مدينة طرابلس دليلا على خضوع المدينة التام للملك فرديناند، وبذلك أصبحت مقاطعة إسبانية جديدة، تخضع رأسا لإسبانيا، ويدير شؤونها العسكرية دون خايمي بيدرو ريكيزنس «don jayme pedro requzens» ومعه حامية من الجنود الإسبان وبعض المرتزقة لحفظ الأمن والقضاء على أي مقاومة.

7- قدوم دون غارسيا الطليطلي «dongarcia de tolede» على رأس أسطول قادم من مالطا إلى طرابلس كحاكم جديد خلفا لبيدر ونفارو الذي استدعي لمهام أخرى.[2]

8- استولى الإسبان على العديد من خيرات البلاد، خاصة الذهب والفضة والأحجار الكريمة والأثاث[3]، بالإضافة إلى ذلك وفي اليوم الثاني من احتلالهم طرابلس استطاعوا الاستيلاء على عدة سفن كانت قادمة من الإسكندرية والشرق للاتجار ولم يكن قادتها يعلمون بخبر الاحتلال الإسباني لطرابلس.

1- مرمول كربخال: المصدر السابق، ص123.

2-شارل فيرو: المرجع السابق، ص78.

3- جان كلود زليتنر: المرجع السابق، ص 31.

9- استقبلت أوربا نبأ احتلال طرابلس الغرب بسرور عظيم وبهجة غامرة، واعتبر هذا الاحتلال نصرا لكامل أوروبا، فقد أقيمت الأفراح بإيطاليا وأقامت الكنيسة البابوية ببولونيا بقيادة فرنشيسكو اليدروسي «Franchesco alidossi» مظاهرات كبيرة تعبيرا عن فرحتهم بهذا الانتصار، فيما أرسل دوق البندقية ونائب ملك صقلية وروما التهاني إلى الملك الإسباني فرديناند، الذي وصلته العديد من رسائل التهاني خاصة من مالطا وجزيرة رودس؛ التي أرسل مرشدها الأكبر أميركودا مبوازيو«Emierico d'amboise» برسالة تهنئة إلى الملك الإسباني ، وفي نفس الوقت داعيا إياه لمواصلة الحرب على إفريقيا ومصر مخبرا إياه أن قواته انتصرت على الأسطول المصري في خليج الأياس«laiazo».[1]

10- استطاع الإسبان الاستيلاء على حوالي 10سفن حربية من مختلف الأنواع بالإضافة إلى عدة سفن تجارية محملة بالتوابل والعديد من السلع القادمة من الشام والإسكندرية وغيرهما.[2]

ومهما يكن فان سقوط طرابلس الغرب بيد الإسبان، كانت ضربة موجعة لبلاد الإسلام عامة، وبلاد المغرب الإسلامي خاصة، فما كادت مأساة الأندلس وغرناطة ، والمرسى الكبير ووهران وبجاية وتونس -التي دخلت في طاعة الإسبان- تختفي حتى جاءت المأساة الكبرى بسقوط طرابلس الغرب بيد الاحتلال، وبذلك تأكد تفوق الإسبان على المسلمين، الذين أصبحوا عرضة للانتقام جزاء لموقفهم الداعم لإخوانهم الأندلسيين وكذلك وقوفهم مع الفاتحين العرب والأمازيغ الذين استطاعوا فتح الأندلس وإبقائها أرضا إسلامية لمدة فاقت ثمانية قرون من الزمن، وبذلك حاول الإسبان رد الصاع صاعين لبلاد المغرب الإسلامي، التي انتقل إليها الصراع بعد أن كان على الأراضي المسيحية.

المبحث الثاني: الحملة الإسبانية على جزيرة جربة وقرقنة سنتي 916 هـ/1510م. و917هـ/1511م.

1-المرحلة الأولى: مرحلة الاستكشاف والاستطلاع.

تعتبر هذه المرحلة بداية التخطيط الفعلي لاحتلال الجزيرة باستكشاف أوضاعها السياسية والعسكرية والاقتصادية وحتى الاجتماعية، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على حنكة وعبقرية بيدرو نفارو وتخطيطه المحكم، حتى يستطيع التحكم الجيد في سير المعارك وفي نفس الوقت لا يغامر بتوريط جيشه المتحصن في طرابلس الغرب في مغامرات لا يعرف عواقبها جيد مثلما حدث له في المغرب الأوسط في الكثير من المعارك، فحاول ابتداء

1- إتوري روسي: المرجع السابق، ص28.

2 - جان كلود زليتنر: المرجع السابق، ص 31.

استطلاع الأوضاع بنفسه، حيث توجه إلى الجزيرة على رأس ثمانية مراكب شراعية فقط[1] على أمل أن تستسلم له المدينة بسهولة مثلما حدث مع بطرابلس الغرب.

كانت هذه الجزيرة تابعة إسميا فقط للسلطان الحفصي أبو عبد الله، لأنها في الواقع كانت مستقلة تماما عنه، بسبب ضعف الدولة الحفصية في أواخر عهدها، بالإضافة أن موقعها الاستراتيجي الهام منع عنها الحملات العسكرية التي كانت يقوم بها السلطان الحفصي لإخضاعها أو حتى الهجمات الأوروبية المتتالية عليها، لذلك ومباشرة بعد احتلال طرابلس قرر بيدرو نفارو توجيه حملة عسكرية لاحتلالها سنة 1510م، وفي هذا الإطار طلب من نائب ملك صقلية تزويده بالمعدات العسكرية مثل المدافع والمنجنيق والمؤن، لتنطلق الحملة باتجاه جزيرة جربة بتاريخ 28 جويلية 1510م[2]، وعند وصول بيدرو نفارو إلى الجزيرة وبالضبط عند مضيق القنيطرة أنزل ثلاثة من جنوده يتقنون اللغة العربية لإقناع السكان المحليين وقادتهم بسلمية مهمتهم، وللتدليل على حسن نيتهم ورغبتهم في السلام مع أهل الجزيرة، رفع هؤلاء الجنود علما أبيضا للتمويه والخداع، إلا أنه في الواقع كانت نيتهم أخذ سكان الجزيرة على حين غرة من أمرهم، وتجنيب الجيش الإسباني خسائر فادحة ونكسة مدوية تؤثر على معنوياته، إلا أن سكان الجزيرة تفطنوا لهذه الحيلة، خاصة وأن سقوط طرابلس الغرب بيد النصارى مازال ماثلا أمامهم، لذلك عملوا على عدم تكرار نفس الخطأ الذي ارتكبه الطرابلسيون الذين فرطوا في مدينتهم بسهولة وتركوها عرضة لهمجية الإسبان مثلما كان الحال في المغرب الأوسط.

كان السكان المحليون مدركين أن الإسبان سوف يتوجهون إلى جزيرتهم لاحتلالها مباشرة بعد السيطرة على طرابلس، لذلك وضعوا حراسة مشددة على جوانب الجزيرة، يؤازرهم في ذلك الأندلسيين الموريسكيين الفارين من جحيم الإسبان*، وقد كان الحراس يركبون الخيول ويحرسون الجزيرة، لذلك وبمجرد ما نزل الجنود اكتشفوا أمرهم بسرعة واستطاعوا اللحاق بأحدهم وقتله فيما استطاع الآخران الفرار عوما والوصول إلى مراكب قائدهم بيدرو نفارو، الذي قرر العودة إلى طرابلس لإعداد الحملة جيدا[3]، خاصة وأن السكان المحليين أعطوه رسالة واضحة مفادها أن جزيرة جربة عصية عليه وعلى جنوده، ورجالها يدركون جيدا مخططاته الرامية لاحتلالها، وأن الجزيرة بفضل رجالها و فطنتهم هي ليست طرابلس الغرب، وهذا ما نستشفه مما نقله لنا شارل فيرو في حولياته بقوله:

1- إتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي...المرجع السابق، ص ص175، 176.

2- إتوري روسي: المرجع السابق، ص78.

* - هذا دليل على فطنة ونباهة قادة وسكان هذه الجزيرة، الذين أدركوا حقيقة المرامي الإسبانية الهادفة لاحتلال أي منطقة مغاربية ساعدت وآوت الأندلسيين الموريسكيين.

3- يحي بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ط3، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، 2009م، ص256.

«...وبعد ذلك اقترب المغاربة من البحر مطلقين صيحات مجلجلة قائلين: إن على النصارى ألا يتوقعوا أن يجدوا في جربة الدجاج الذي لقوه في طرابلس وأن النصارى أحرارا في القدوم متى شاءوا، ولكن ليعلموا أن الجرابة يفضلون الموت على التسليم تحت أي شرط كان، وبأن شيخ الجزيرة وسكانها قد عقدوا العزم على الدفاع عن عقيدتهم وعن ترابهم ونسائهم وأطفالهم وممتلكاتهم كي لا يقعوا غنيمة في أيدي النصارى...».[1]

أكدت هذه الرسالة شديدة اللهجة التي بعث بها السكان المحليون للقائد الإسباني وجنوده أن جزيرة جربة لن تكون سهلة المنال لهم، وأن قيادة المدينة وسكانها على قلب رجل واحد لملاقاة العدو والذود عن المدينة بكل ما عندهم من قوة فداء للإسلام وأرضهم وعرضهم، وأن السهولة التي لقيها الإسبان في طرابلس الغرب لن تتكرر على أرض الجزيرة التي تنتظرهم في أي لحظة يريدون القدوم إليها لذلك فهم بيدرو نفارو الرسالة جيدا وقرر عدم المغامرة في معركة أدرك نتائجها جيدا قبل وقوعها[2]، لأنه يتميز بالفطنة والذكاء والخبرة العسكرية لذلك قرر الانسحاب والاستعداد جيدا لمعركة جديدة، وتهيئة الأجواء وتحضير العدد الكافي من الجنود والعتاد لخوضها، لأنه علم أن أهل جربة ليسوا مثل أهل طرابلس فقرر العودة إلى مستقر جنوده بطرابلس الغرب.

الملاحظ أن بيدرو نفاروا قبل مغادرته جزيرة جربة كان قد تفقد جميع نقاط قوة وضعف الجزيرة مداخلها ومخارجها وتحصيناتها، منها الجسر الذي يربطها باليابسة، الذي أمر شيخ المدينة بهدمه حتى لا يستطيع المقاتلين من أتباعه الفرار من المعارك والصمود أمام الإسبان*، بالرغم من الهلع الذي أصاب الإسبان أثناء محاولتهم الأولى لاحتلال الجزيرة، إلا أن بيدرو نفاروا استطاع تحديد أماكن النزول، لأنه كان عازما على العودة للجزيرة والانتقام لرجاله، وقد وصل إلى طرابلس الغرب يوم 9 أوت 1510م.

2-المرحلة الثانية: مرحلة الهجوم على الجزيرة.

لم يلبث بيدرو نفاروا طويلا بطرابلس الغرب، وبدأ في تجميع قواته وتحضيرها وتجهيزها وبث الحماس والرغبة في الانتقام للشرف الملكي الإسباني بين صفوف جنوده، وقد استغل يوم صعود العذراء** واستعرض جميع

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص79.

2 – محمد أبو راس الجربي: المصدر السابق، ص106.

* – وهذا دليل على الشجاعة والإقدام الذي تميز به شيخ الجزيرة؛ الذي فضل الموت على تراب الجزيرة بدل الفرار أو الاستسلام للعدو الإسباني، وكما رضى لنفسه هذه الميتة الشريفة أراد أن تكون أيضا لأتباعه مخافة من التولي يوم الزحف ضد العدو.

** – وهو يوم مقدس لدى المسيحيين يصادف يوم 15 أوت من كل سنة.

قواته المؤلفة من 15000 مقاتل، وحوالي 120سفينة[1] وقد قرر التوجه بهم فورا إلى جزيرة جربة تاركا وراءه 3000 جندي لحماية طرابلس الغرب* إلا أن سوء الأحوال الجوية أعاق انطلاق الأسطول إلى غاية 27 أوت 1510م.[2]

مباشرة بعد إتمام الاستعدادات وبينما كان الأسطول على أهبة الاستعداد للانطلاق باتجاه جزيرة جربة ظهرت 15 سفينة على سواحل طرابلس لكل واحدة صاريتن أو ثلاثة، يقودهم دوق ألب دون غارسيا الفاريز الطليطي رفقة أخيه وابنه، ومعهم عددا لا بأس به من فرسان مالطا يدفعهم الحماس الديني المسيحي للانتقام من المسلمين المغاربة، ويرافقهم أيضا ديقو دوفيرا ضابط الرماة وفرانشيسكو ماركيز رفقة ثلاثة آلاف جندي إسباني الذين كانوا يشكلون حامية عسكرية لحماية بجاية من هجمات السكان المحليين.[3]

بعد استراحة دامت حوالي خمسة أيام (23-27 أوت)، أقلع الأسطول باتجاه جزيرة جربة التي وصلها يوم الخميس 29 أوت، أين وصلت 9 سفن بالإضافة إلى سفينة بيدرو نفارو؛ التي ساعدتها خفتها وقلة حمولتها على الوصول قبل كل السفن، وبمجرد وصوله قام بيدرو نفارو بحركة استباقية حيث أغلق مدخل القناة، وسرعان ما اتبعته بقية السفن بجانب القناة التي يقوم عليها الجسر، ورست على بعد ميلين منه جهة الشمال بالقرب من برج المراقبة، وبحلول يوم الجمعة 30 أوت استطاع الجنود الإسبان النزول بأسلحتهم من سفنهم، إلا أنهم عانوا الأمرّين ولاقوا مشقة كبيرة بسبب بعد المسافة بين أماكن رسو السفن واليابسة، فقد قدرت المسافة بحوالي 1.6 كلم"[4] قطعها الجنود عوما، لذلك أصابهم الإعياء والإجهاد، زد على ذلك تبلل ملابسهم بالرغم من أن الموسم كان صيفا والملابس تجف بسرعة .

استطاع حوالي 15 ألف جندي إسباني النزول على الشاطئ، بالإضافة إلى عدد آخر من البحارة ومدفعين كبيرين وأربعة مدافع صغيرة، حيث قام الجنود بسحبها إلى اليابسة المعروفة بشدة حرارتها وقلة مياهها، ولذلك أصاب الجنود عطشا شديدا ولم يجدوا الماء للشرب فتساقط عددا منهم ميتا جراء فقدانهم للماء، في حين استطاع بعض الجنود الفرار، وقد حدث نوعا من التمرد على القيادة التي زجت بهم في هذه المعركة التي لا يعرفون أرضها جيدا ولم يخططوا لها بإحكام، وقد حاول دون غارسيا الفاريز الطليطلي تشجيع الجنود وشحذ هممهم ورفع

1- محمد أبو راس الجربي: الإصابة فيمن غزى المغرب من الصحابة، مخطوط، المكتبة الوطنية التونسية، رقم 225، ص14.

*- هذا ما يؤكد لنا أن طرابلس الغرب كانت من الضعف الشديد، لدرجة أن سكانها لم يكونوا قادرين على طرد حامية مكونة من 3000 جندي، وهذا ما يؤكد لنا السهولة التي تم بها احتلالها.

2- شارل فيرو: المرجع السابق، ص79.

3- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص350.

4- شارل فيرو: المرجع السابق، ص80

معنوياتهم موهما إياهم بوجود العديد من أبار الماء بجوار واحة النخيل، ومن شدة العطش كان الجنود الذين يتوفر لديهم الماء يبيعونه للآخرين* بحوالي عشرة قروش طرابلسية.[1]

واصل الجنود الإسبان سيرهم باتجاه واحات النخيل لعلهم يصلون سالمين لكن الغرابة تكمن في أن لا أحد من السكان المحليين أو المدافعين عن المدينة اعترض سبيلهم، وهذا ما بعث الريبة والشك في نفوسهم، بالرغم من أن هذا الأمر يبدو في صالح الإسبان لأنه لا يمكن خوض المعارك في هذه الوضعية الكارثية التي يوجدون عليها.

بعد مشقة وعناء وصل الجيش الإسباني إلى واحات النخيل وبدأت طليعته تتوغل داخلها ووسط البساتين المغروسة بأشجار الزيتون، لأن كل الدلائل تشير أن الماء موجود بكثرة في هذا المكان؛ ومن هذه الدلائل وجود آبار قائمة عند أسوار مهدمة لمبنى أثري قديم، والكثير من الآبار معلق فيها الأباريق و الجرار والدلاء المربوطة بحبال لإخراج المياه**، وبذلك استطاعوا تمويه الجنود الإسبان بوضع هذه الأشياء لجذب أنظارهم فتدافعوا نحوها على أمل الحصول على الماء***، وفي نفس الوقت كان حوالي 3000 من الفرسان المحليين ومعهم عدد كبير من المشاة ينصبوا كمينا للإسبان وقد تمركزوا بالقرب من هذه الآبار منتظرين اللحظة الحاسمة للانقضاض عليهم حالما ينشغلون بإخراج الماء.[2]

لما هرع الجنود الإسبان للآبار بدأوا في التسارع على الدلاء والجرار تاركين أسلحتهم على الجانب في فوضى عارمة، فكانت هذه الوضعية مناسبة للمقاتلين المحليين من الفرسان والمشاة للقيام بهجوم خاطف ومباغتة الأعداء، وعبثا حاولت السفن إطلاق سفارات الإنذار وتنبيه الجنود المنهمكين في إخراج المياه، حيث لم يترك لهم المقاتلون المحليون أية فرصة للاستعداد والقتال، وقاموا بتشتيت شملهم وقتل الكثير منهم، وقد حاول دون غارسيا الفاريز الطليطلي تنظيم الجيش والقتال بشجاعة نادرة متقدما الصفوف وحاثا جنوده على القتال ومواصلة الدفاع عن أنفسهم، بالرغم من ظروف المعركة القاسية، وبالفعل استطاع المقاومة لمدة قصيرة، إلا أن التحاق

* – هذا دليل على عدم التوافق والألفة بين الجنود وأيضا الجشع والطمع والأنانية التي لا يمكن أن تكون في مثل هذه الظروف الصعبة، فكيف لجندي يواجه الموت يفكر في التجارة؟

1– شارل فيرو: المرجع السابق، ص80.

** –وهذا ينمُّ عن ذكاء خارق للقيادة والمدافعين عن المدينة الذين كانوا يدركون أن الإسبان سيصلون منهكين من العطش، لذلك سيبحثون عن الماء وهم أهل خبرة ودراية بأرضهم وخباياها.

***– يذكرنا هذا بغزوة بدر الكبرى أين استطاع الرسول ﷺ وأصحابه السيطرة على أبار المياه وبذلك حرموا المشركين من أهم ما يحتاجون إليه في مثل هذه الأوضاع.

2 – شارل فيرو: المرجع السابق، ص80.

مقاتلين جدد حسم المعركة لصالح السكان المحليين، بالرغم من بسالة وشجاعة دون غارسيا الطليطلي، الذي مات أثناء هذه المعركة، مخلدا اسمه كبطل من أبطال إسبانيا ذهب ضحية حبه لبلده وجشع ملوكه الذين أرادوا السيطرة على بلاد المغرب ناسين أو متناسين أن المسلم المغاربي لا يفرط في بلده ودينه بالرغم من مروره بأوقات ضعف وهوان.

حاول بعدها الكونت دالفيتو«dalveto »اعتراض طريق الجنود الإسبان الفارين من المعارك الضارية ومشجعا لهم و حاثهم على مواصلة القتال والدفاع عن التاج الملكي الإسباني، وقد نجح ابتداء، لكن الجنود سرعان ما انسحبوا من المعارك باتجاه الشاطئ[1] تحت ضربات المقاتلين المحليين الذين استطاعوا حسم المعارك لصالحهم والقضاء على كل أمل للإسبان في مواصلة القتال، وبذلك انتهت هذه الحملة بالفشل الذريع وخيبة أمل مدوية لبيدرو نفارو، الذي شهد العديد من الانتصارات على المغاربة، إلا أن سكان جزيرة جربة استطاعوا الحد من طموحاته وأحلامه المتزايدة.

3-نتائج هذه الحملة:

- فشل الإسبان فشلا ذريعا في هدفهم الذي جهزوا من أجله الحملة، لأنهم لم يستطيعوا السيطرة على جزيرة جربة، بل أكثر من ذلك فقدوا معظم جيشهم بين قتيل وأسير ولم ينج منهم ويلتحق بجزيرة صقلية مع الأسطول إلا القليل.[2]
- تكبد الإسبان خسائر فادحة أحجمت المصادر والمراجع الأجنبية عن ذكرها بالتدقيق، وهذا في الواقع هو ديدن المؤرخون الأجانب، حيث ذكر شارل فيرو أن الإسبان فقدوا حوالي 1500جندي[3]، معظمهم مات عطشا قدر عددهم بحوالي 1000 جندي، ربما حتى لا يعطي أهمية كبيرة لهذا الانتصار الساحق الذي حققه السكان المحليين، فذكر أن العطش هو السبب وليس عبقرية وشجاعة المقاتلين المحليين، وهذا أمر لا نستغربه من هؤلاء المؤرخين لأنهم يريدون دائما الإنقاص من قيمة انتصارات المغاربة، فيما ذكر حسن الوزان أن خسائرهم كانت فادحة ومدوية ولم ينج منهم إلا القليل الذي توجه إلى صقلية[4]، فهل القليل هذا يمثل حوالي 1400 ألف جندي أم أن المنطق في تفسير القليل ربما يكون على أقل تقدير 7000جندي بين قتيل وأسير، لأن بسالة وشجاعة المقاتلين والخطة المحكمة التي أديرت بها المعركة،

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص81.
2- الحسن الوزان: المصدر السابق ص 95.
3- شارل فيرو: المرجع السابق ص82.
4- مرمول كربخال: المصدر السابق ص109.

بالإضافة إلي العطش؛ كلها عوامل تدل على أن الخسائر أكثر من ذلك بكثير، وما يؤكد لنا هذا الطرح وهذه التخمينات هو اعتراف شارل فيرو أن ثلاثة آلاف جندي بقوا ليلة انتهاء المعركة لم يصعدوا إلى السفن إلا في اليوم الثاني[1]، فيما ذكر إيتوري روسي مابين 2000 و4000 قتيل[2]، أما المصادر المحلية فقد ذكرت حوالي 10000 آلاف قتيل من الإسبان[3] وهذا ما نرجحه إذا ما قارنا تلميحات مرمول كربخال والحسن الوزان وشارل فيرو.

- استشهد حوالي 20 من السكان المحليين، فيما لم تذكر لنا المصادر الأجنبية خسائر سكان جربة.
- فقد النصارى 18 سفينة نتيجة لهبوب عواصف عاتية*، وكانت هذه السفن تحمل الكثير من الأموال والمؤن والعتاد الذي قدم به الإسبان وحلفائهم.[4]
- فقد الإسبان العديد من القادة الأكفاء مثل: دون غرسيا دي توليدو ابن دوق ألب، وغرسيا سارمينتو وغيرهم كثر[5] الذين ذهبوا ضحية المغامرة وحبهم لوطنهم وتعصبهم المقيت ضد المسلمين، وطموحات قادتهم؛ الذين حاولوا الانتقام من المسلمين الذين فتحوا وسكنوا وعمروا إسبانيا لعدة قرون، فأراد القادة الإسبان مطاردتهم داخل بلاد المغرب الإسلامي، ونقل الحرب إليها وتشريد سكانها واستغلال ثرواتها وخيراتها ومد إمبراطوريتهم على حسابها.

4-الحملة الإسبانية على قرنقة سنة 917هـ/ 1511م.

بالرغم من الفشل الذريع الذي لحق ببيدرو نفارو في جزيرة جربة، إلا أنه لم يستسلم ولم ينس طموحه وتحقيق وصايا إيزابيلا وأحلام فرديناند الكاثوليكي للسيطرة على بلاد المغرب ونشر المسيحية بها، يدفعه في ذلك حب الانتقام والرغبة في محو العار الذي لحقه في جزيرة جربة، فأراد أن يبقى بالقرب من الجزيرة، وفي نفس الوقت التقدم باتجاه السواحل الطرابلسية والتونسية، وإيجاد مرفأ آمن لسفنه من أجل بعث مشروعه من جديد الذي أصيب بالتعثر على أسوار جزيرة جربة، لذلك قرر في شتاء 1511م احتلال جزيرة قرنقة التي كانت تبدو سهلة

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص 95.

2- شارل فيرو: المرجع السابق، ص82.

3- محمد أبو راس الجربي: المصدر السابق، ص ص 106، 108.

* – تحاول المصادر المغاربية المحلية دائما إعطاء بعدا روحيا لهذه المعارك لأن أصحابها يريدون تصوير ذلك على أنه دعما من الله سبحانه وتعالى لهم في معاركهم ضد المحتلين، وقد يكون ذلك صحيحا في بعض المرات، مثلما حدث عبر التاريخ الإسلامي وقد يكون غير صحيح، لأن هذه الأمور لا يعلمها إلا الله وحده.

4- محمد أبو راس الجربي: المصدر السابق، ص 106.

5- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 178.

المنال حسب ظنه، فجهز حملة تتألف من 5000 جندي كانوا موجودين بطرابلس واتجه بهم إلى هذه الجزيرة الصغيرة وقليلة السكان، وقرر إنزال 400 جندي فقط بقيادة جيرولا موفيانللو[1] ثم كلفهم بالبحث عن المياه واحتلال الجزيرة.[2]

بينما كان الجنود منهمكين في تطهير الآبار وحفرها، حدث وأن خالف أحد الجنود الأوامر التي كلف بتنفيذها، فثار العقيد موفيانللو في وجهه وقام بضربه وشتمه، بل أكثر من ذلك قام بنتف لحيته، مما كان له الأثر السيئ على معنويات الجندي وحز في نفسه هذا العمل المشين، لذلك عزم الانتقام لشرفه وكبريائه وقرر الهروب إلى السكان الذين يقطنون الجزيرة ولم يصطدموا بعد بالإسبان*، وأخبرهم بأنه يريد إشهار إسلامه والتعاون معهم ضد قومه، ثم دبر معهم خطة للقضاء على الجيش الإسباني**، حيث قادهم في جنح الظلام خفية إلى معسكر الجيش وقتلوا الحراس الذين أنهكهم التعب وأدركهم النوم نتيجة الإعياء الشديد، وبعدها تسلل المقاتلون المحليون إلى الخنادق التي تحصن بها الإسبان وكانت لهم ملاذا آمنا، وهجموا عليهم وقاموا بذبحهم جميعا، ما عدا ثلاثة منهم اختلف مصير كل واحد منهم عن الآخر؛ فأُرسل أحدهم إلى السلطان التونسي، فيما أُرسل الثاني إلى شيخ جزيرة جربة، أما مصير ثالثهم الذي ظن المقاتلون أنه من الموتى فإنه استطاع لململة جراحه بصعوبة بالغة والفرار إلى أن استطاع الوصول للأسطول الإسباني وقص على قائده كيف هلك رفاقه، لذلك قرر الكونت بيدرو نفارو الفرار وعدم المجازفة بجنوده الآخرين، وقبل الإقلاع لحق به 20 جندي آخر كانوا قد ذهبوا لإحضار الطعام، حيث لم يستطع المقاتلين المحليين النيل منهم[3]، وبعد هذه الهزيمة المدوية على أيدي بعض المقاتلين في جزيرة صغيرة لا تكاد تذكر إلا نادرا توجه بيدرو نفارو إلى جزر كابري نابولي.[4]

وبهذه الهزيمة المنكرة بدأت أمجاد القائد بيدرو نفارو تتهاوى وتتساقط بعد المجد الذي أكسبه لنفسه باحتلاله طرابلس الغرب، لتكون نهاية طموحاته وأمجاده على أيدي مقاتلين شجعان في جزيرتين صغيرتين تكادا

1- يحي بو عزيز: المرجع السابق، ص 351.

2- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 179.

* – نحن نتساءل كيف يعقل أن يحدث مثل هذا الأمر، حيث يقوم الإسبان بالإنزال على الجزيرة ولا يعلم أحد من سكانها بهم، وهذا دليل على غفلة القيادة والسكان على عكس سكان جزيرة جربة وقادتها.

** – هذه من الأخطاء الفادحة التي يجب أن لا ترتكب في مثل هذه الحالة الخطيرة والحاسمة في مصير الأمم، وهي تنم عن أمرين مهمين:

– قلة الخبرة العسكرية والحماقة التي تميز بها قائد الجيش الإسباني موفيا نللو.

– التسرع والاندفاع اللذان تميز بهما هذا الجندي؛ الذي فكر في الانتقام بدل التفكير في مصلحة بلاده الذي جاء من أجلها إلى هذه الجزيرة.

3- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 84.

4- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 257.

تكونا نسيا منسيا في تاريخ المقاومة والجهاد ضد الإسبان إذا ما قورنا بمدن مثل الجزائر ووهران وطرابلس الغرب وتونس وحلق الوادي.

4-1-نتائج الحملة.

- تناقص عدد جنود بيدرو نفارو إلى حوالي 4000 جندي ونزلت قطع أسطوله إلى حوالي 23 سفينة شراعية فقط بعد هذه الهزيمة التي سبقتها الهزيمة في جزيرة جربة.
- فقد الإسبان أكثر من 3700 جندي في هذه المغامرة غير محسومة العواقب.
- تعتبر هذه الحملة النهاية الفعلية لبيدرو نفارو بعد أن برز اسمه على مسرح الأحداث بعد سيطرته يوم 10جويلية 1510م على مدينة طرابلس الغرب، ثم طمس اسمه بعد هزيمة جربة وقرنقة.[1]
- عاقبت السلطات الملكية الإسبانية بيدرو نفارو بعد هذه الهزيمة التي جلبت العار لفرديناند وإسبانيا وعزل من منصبه وأرسل للحرب في إيطاليا تحت إمرة رامون دوكاردونا[2]، إلى أن وقع أسيرا بيد الفرنسيين، ثم أطلق فرانشيسكو الأول سراحه حيث دخل في خدمة الفرنسيين ضد بلاده، إلى أن قُبض عليه من طرف الإسبان حيث نفذ فيه حكم الإعدام سنة 1529م*، الذي طبق في كاستيل نوفو.[3]
- حاول الطرابلسيون استعادة مدينتهم وقاموا بالثورة ضد الإسبان بمساعدة السلطان الحفصي محمد بن الحسن لكنهم فشلوا في ذلك بسبب قوة التحصينات الإسبانية.[4]
- أصيب الإسبان بخيبة أمل كبيرة جدا وأحسوا بمرارة لم يتذوقوا مثلها من قبل[5]، منذ بدية احتلال المرسى الكبير سنة 1505م إلى غاية هذا التاريخ.

5-الحملة الإسبانية على جزيرة جربة سنة 926هـ/ 1520م.

بعد الهزيمة المذلة التي تكبدها هوغو دي مونكادا على يد خير الدين سنة 1519م على أسوار مدينة الجزائر**، قرر التوجه إلى جزيرة جربة لاحتلالها يدفعه في العديد من الأسباب:

1- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 180.

2- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص257.

*- وهكذا كانت نهاية هذا المغامر الذي أراد أن يصنع لنفسه مجدا وأحلام تزايدت باحتلال طرابلس، إلا أنها تهاوت على أسوار جزيرة جربة وسقطت نهائيا في جزيرة قرنقة الصغيرة ليموت خائنا لوطنه وقومه الذين انتقموا منه فأعدموه نظير خيانته.

3- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 180.

4- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 39.

5-إتوري روسي: المرجع السابق، ص 180.

- الرغبة في الانتقام لسلفه بيدرو نفارو.
- الرغبة في التوسع والانتقام من كامل المغاربة لأنهم لا فرق بينهم.
- محاولة محو عار الهزيمة المذلة التي تكبدها على يد الجزائريين.

كانت الفرصة المناسبة للانتقام وإعادة الاعتبار للإسبان سنة 1520م، خاصة أن هوغو دي مونكادو أمّن الجانب الطرابلسي بعد أن ذهب وفدا عنهم إلى الملك الإسباني شارلكان وقدم له فروض الطاعة والولاء المطلق، وكان الوفد مشكلا من مساعد الشيخ عبد الله حاكم طرابلس السابق واثنان من الأعيان الطرابلسيين هما: مصطفى بن عبس وعامر راكيل.

قاد هوغو دي مونكادا حملة كبيرة ضد جزيرة جربة، وقام بحصارها من كل الجهات حتى لا يأتيها المدد من أي مكان، ونظرا لاختلال موازين القوى بين الطرفين وبعد مناوشات بينهما اضطر شيخ الجزيرة وحاكمها مهادنة الإسبان ومراوغتهم حتى يصد خطرهم عن الجزيرة وسكانها، لذلك اضطر لإمضاء اتفاق مع الإسبان ينص على عدة بنود رئيسية منها:

- دفع جزية سنوية لملك الإمبراطورية الإسبانية.
- منع البحارة المسلمين وخاصة العثمانيين من اللجوء إلى الجزيرة.
- إرسال وفد إلى الملك الإسباني شارلكان لإعلان دخول الجزيرة في طاعته وتحت رعايته وحكمه[1].

لم يكن في نية شيخ الجزيرة الالتزام بهذا الاتفاق، وإنما هدفه هو إبعاد خطر الإسبان عن رعيته وجزيرته، وهذا ما نستشفه من خلال قيامه بحرق هذه الوثيقة وعدم الالتزام بها.[2]

وهكذا وبفضل حنكة ودهاء شيخ الجزيرة، جنب جزيرته خسائر مادية وبشرية كان في غنى عنها، واستطاع مراوغة الإسبان والوقوف أمام أحلامهم في السيطرة على الجزيرة، وهكذا صمدت الجزيرة تارة بالحنكة والخطط الحربية الذكية، وتارة أخرى بالدهاء والدبلوماسية، حيث بقيت صامدة في وجه الإسبان على عكس الكثير من مدن الجزائر وطرابلس الغرب.

** – يجب الإشارة أن شارل فيرو وكغيره من المؤرخين الأوربيين أوعز هذه الهزيمة إلى العوامل الطبيعية حسب زعمه، حيث هبت عاصفة قرب رأس ماتيفو أفقدته في لحظة واحدة أربعة آلاف رجل وحوالي ثلاثين سفينة...شارل فيرو: المرجع السابق، ص85، وهكذا هو ديدن شال فيرو وغيره من الأوربيين يتعمدون التقليل من إنجازات المغاربة، ويرجعون انتصاراتهم إلى العوامل الطبيعية التي تكون دائما الفيصل في المعارك.

1- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص258.

2- شارل فيرو: المرجع السابق، ص85.

المبحث الثالث: أوضاع طرابلس الغرب تحت حكم الإسبان 1510-1530م.

بعد إحكام الإسبان السيطرة على طرابلس الغرب اتبعوا سياسة الأرض المحروقة حتى يتم لهم طرد السكان المحليين وتعويضهم بالإسبان والأوروبيين خاصة من الدويلات الإيطالية التي كانت في معظمها تدين بالولاء للإمبراطورية الإسبانية، لذلك عمدوا لنهب المدينة وتخريبها وتحويل مساجدها إلى كنائس والسيطرة على موانئها التي كانت مزدهرة ونشطة نتيجة التبادل التجاري مع الخارج، لذلك اضطر التجار والحرفيون والمزارعون وغيرهم إلى الهجرة من البلاد باتجاه البوادي والأرياف حتى عمّ الخراب والدمار وأصبحت البلاد في حالة يرثى لها، فاستغل الإسبان ذلك وقاموا ببناء أسوار جديدة لحماية البلاد من هجمات المقاتلين المحليين، الذين استغلوا هزيمة الإسبان في جزيرة جربة في ذي الحجة سنة 916هـ/1510م، وصمموا على طردهم من بلادهم، ففي11فيفري 1511م وبمساعدة السلطان الحفصي محمد بن الحسن الذي دعم الطرابلسيين بقوة كبيرة شن الأهالي هجوما واسعا على القوات الإسبانية[1] خلفوا بين صفوفها الكثير من الخسائر المادية والبشرية، إلا أن القوات الإسبانية استطاعت التصدي لهذا الهجوم ورد المقاتلين.[2]

بعد هذه الهجمات المتكررة من طرف الطرابلسيين أدرك الساسة والقادة العسكريين الإسبان، أن خسائرهم المادية والبشرية تتضاعف نتيجة استمرار المقاومة ضدهم، ورغبة في بقاء المدينة تحت سيطرتهم والتقليل من أعباء هذا البقاء على عاتق الخزينة الملكية الإسبانية التي كانت تنفق أيضا على الحروب الإيطالية ضد فرنسا وحليفاتها، عمد الملك شارلكان إلى إلحاق طرابلس الغرب رئسا بنائب الملك الإسباني الموجود بصقلية ؛بحجة قربها منها، وقام باستدعاء ديغو دي فيرا إلي إسبانيا، وعين مكانه جيم دي ريجوس«don jim de rejecen» كحاكم للمدينة.

أراد الإسبان تطبيق سياسة الاحتلال الاستيطاني لذلك وفي عهد نائب الملك على صقلية دون هوغو دي مونكادا، حاول هذا الأخير تنفيذ هذه السياسة، حيث قام بتشجيع السكان المسيحيين على الرحيل إلى الأراضي الطرابلسية، وتعهد لهم بتوفير المساكن الملائمة والأراضي الزراعية الخصبة، ووعدهم بعدم دفع الضرائب لمدة عشر سنوات متتالية، كما حصنهم من المتابعات القضائية في حال ارتكاب جرائم ضد الطرابلسيين*، وبالرغم

1- حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، م3، ج3، العصر الحديث لنشر والتوزيع بيروت، لبنان 1412هـ/1929م، ص435.

2- محمد خير فارس، محمود على عامر: المرجع السابق، ص ص150، 151.

* -هي نفس السياسة التي طبقتها فرنسا بالجزائر بعد احتلالها، لكن الفرق أن حثالة المجتمع الأوربي قدم إلى الجزائر واستغل خيراتها واستعبد سكانها فيما رفض المسيحيين في ذلك الوقت هذه الخطة، وهذا ما نلاحظه مع الاحتلال الاستيطاني الصهيوني لفلسطين إلى يومنا هذا، وهكذا هو ديدن الاحتلال إذا تعلق الأمر بالمسلمين.

من كل هذه الإغراءات إلا أن المسيحيين رفضوا الذهاب إلى طرابلس الغرب لخطورة هذه المغامرة وظهور الأتراك العثمانيين على مسرح الأحداث في حوض البحر الأبيض المتوسط.[1]

لإعادة الهدوء إلى طرابلس الغرب حاول الملك الإسباني شارلكان تهدئة السكان المحليين بعد فشل مشروعه الاستيطاني، من أجل ذلك قام بإطلاق سراح شيخ المدينة سنة 1518م؛ والذي عاد بعد عدة أشهر من النفي والأسر، وقد دخل في طاعة الملك الإسباني وبدأ في إعادة تعمير المدينة وحاول تشجيع السكان على العودة إليها.[2]

أمام خطورة الأوضاع داخل أوروبا واشتداد الصراع الإسباني الفرنسي خاصة بعد تولي فرنسوا الأول حكم فرنسا سنة 1515م، وظهور الخطر العثماني المتنامي، واشتداد المقاومة العسكرية في الجزائر ضد الاحتلال الإسباني، أدرك الإسبان خطورة موقفهم وأوضاعهم المتأزمة في حوض البحر الأبيض المتوسط، خاصة وأن أعبائهم المادية تتزايد في أوروبا وبلاد المغرب، وأوضاعهم الاقتصادية بدأت تتدهور نتيجة هجرة الأندلسيين الموريسكيين للضيعات والمصانع، وتشتت جهودهم العسكرية في أكثر من مكان في العالم، ولإدراكهم أهمية بقاء السواحل المغاربية تحت سيطرة المسيحيين مهما كانت توجهاتهم، خاصة وأن طرابلس الغرب لم تكن بتلك الأهمية التي تحتلها الجزائر لدى الإسبان، لذلك كله رحب شارلكان بالعرض المقدم من طرف فرسان القديس يوحنا بمنحهم طرابلس الغرب لكي تكون مقر لنشاطهم ضد المسلمين وقاعدة متقدمة في خدمة الإسبان إلى جانب جزيرة مالطا، بعد ما طردهم السلطان سليمان القانوني من جزيرة رودس سنة 1522م، وفي مقابل ذلك تعهد فرسان مالطا بالدفاع عن مصالح إسبانيا وخدمة ملكها شارلكان.[3]

1-احتلال فرسان القديس يوحنا لطرابلس الغرب.

بعد فتح جزيرة رودس من طرف الجيش العثماني في ديسمبر 1522م استسلم فرسان القديس يوحنا وسمح لهم بالخروج آمنين من الجزيرة بعد حصار دام حوالي ستة أشهر، فاتجهوا بعدها إلى جزيرة مالطا التي منحهم إياها شارلكان، ومن ذاك الوقت عُرفوا بفرسان مالطا وأعلنوا الولاء والطاعة للإمبراطور الإسباني، ليقرر مرشدهم الأكبر في شهر أكتوبر سنة 1524م التقدم بطلب للملك الإسباني شارلكان من أجل تسليمهم طرابلس الغرب لقربها من جزيرة مالطا[4] ليواصلوا منها نشاطهم العدائي ضد المسلمين والانتقام من العثمانيين الذين سيطروا على

1- إتوري روسو: المرجع السابق، ص37.
2- الحسن الوزان: المصدر السابق ج2، ص101.
3- محمد خير فارس، محمود علي عامر: المرجع السابق ص152.
4- حسين مؤنس: المرجع السابق، ص436.

جزيرتهم ولم يتوان شارلكان لحظة واحدة، ولم يجد أي مانع في تحقيق طلبهم شريطة طاعته وإعلان الولاء له وخدمة مشاريعه داخل القارة الأوروبية وفي بلاد المغرب الإسلامي، فتوافقت الأهداف والغايات وتم الاتفاق بينهما بعد مفاوضات طويلة بين المرشد الأكبر والإمبراطور الإسباني انتهت بتوقيع الاتفاق في 24 مارس 1530م بكاستيل فرنكو بولو نييزي «castelfranco bolo gnese» وبذلك يكون شارلكان وافق نهائيا على تسليم طرابلس الغرب لفرسان القديس يوحنا[1] لتدخل بعدها هذه البلاد في ظلمات أشد مما كانت عليه أثناء الاحتلال الإسباني، فقد سلطوا على سكانها أقسى أنواع الظلم والجور والاسترقاق وإفشاء العداوات بينهم، بل أكثر من ذلك استخدموهم كعبيد في بناء الاستحكامات والأسوار لحماية المدينة من هجمات سكان البوادي، والحملات العسكرية الخارجية، خاصة وأن العثمانيين قد وطدوا حكمهم بالمغرب الأوسط وأسسوا إيالة الجزائر سنة 1520م[2]، وأصبحت بذلك المركز الرئيسي والقاعدة المتقدمة في الحوض الغربي للمتوسط للذود عن حمى المسلمين المغاربة والأندلسيين، ولذلك أدرك الإسبان وفرسان مالطا أن العثمانيين والجزائريين لن يهدأ لهم بال ما لم ينقذوا كل المغاربة من الاحتلال الجاثم على صدورهم من المرسى الكبير ووهران غربا إلى طرابلس الغرب شرقا .

1-1-فرسان مالطا يدخلون طرابلس الغرب.

بعد ثلاثة أشهر من توقيع مرسوم التنازل عن طرابلس الغرب بين الملك الإسباني وفرسان مالطا وفي جويلية 1530م وصل مبعوثو المرشد الأكبر إلى طرابلس، حيث سلم لهم نائب الحاكم الإسباني فرنشسكو فلاسكيز «f.velasquéz» كشفا مفصلا عن اللوازم التي يجب إرجاعها إلى الإمبراطور شرلكان منها المدافع وبعض المستلزمات الحربية*، وبعد عدة أيام وصل أول حاكم توفده منظمة فرسان مالطا إلى طرابلس الغرب وهو غاسباري دي سانغوسا «Gaspare de sanguessa»، رافقه سفينتان حربيتان محملتان بالعتاد والمؤونة ومجموعة معتبرة من الجنود والفرسان.[3]

بدأ الحاكم الجديد لطرابلس الغرب في تحصين المدينة وبناء الأسوار والقلاع والاستحكامات الداخلية والخارجية، وتماشيا مع سياستهم الرامية إلى تغيير معالم المدينة وبنيتها الديموغرافية أطلقوا على البرجين الواقعين في الطرف الشرقي من المدينة اسم القديس جورج (الركن المواجه للمدينة) واسم القديس جاكومو (الركن المواجه

1- إتوري روسي: طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا ...، المرجع السابق، ص50.

2 - للاستزادة ينظر، عبد الجليل التميمي: أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر ...، المرجع السابق، ص 122.

* - بالرغم من أن في الظاهر المسيحيين في خدمة بعضهم البعض إلا أن قلوبهم شتى، حيث يغلبون المصالح الخاصة بكل واحد منهم على كل الحسابات الأخرى.

3- إتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي... المرجع السابق، ص 193.

للبحر)، والساحة الواقعة بينهما اسم القديسة بربرة، واتبعوا سياسة التهجير الجماعي لإخلاء المدينة من سكانها الأصليين وتعويضهم بالمسيحيين، ونتيجة لهذه السياسة لم يتبق من الأسر الطرابلسية سوى ثمانون أسرة، وقاموا أيضا ببناء كنيسة–ربما كانت في السابق مسجدا–سميت باسم القديس ليوناردو حيث سخر لها أربعة رجال دين مسيحيين للقيام بشؤونها[1]، ومن ذلك تنصير المسلمين الطرابلسيين بالموازاة مع ما كان يحدث بالأندلس وبعض المناطق بإفريقيا، تطبيقا لوصية إيزابيلا التي تركتها لهم، والتي توصيهم فيها بضرورة محاربة الكفار (المسلمين) ونشر الدين المسيحي ببلاد المغرب، ولم ينجو من هذه الحركة التبشيرية إلا سكان البوادي والأرياف الذين لم تصلهم سيطرة المالطيين، وبالتالي تحمل فرسان مالطا أعباء السيطرة العسكرية ومواجهة المسلمين ونشر الدين المسيحي، إلا أن هذا المشروع اصطدم بقوة الإيالة الجزائرية وعزيمة رجالها وقوة تحملهم في التصدي للإسبان وفرسان مالطا ومن ورائهم العالم المسيحي، بالإضافة إلى السكان المحليين الذين سوف يفشلون هذا المشروع بالتعاون مع العثمانيين والجزائريين .

إن سلطة حاكم طرابلس الغرب في عهد فرسان مالطا كما في عهد الاحتلال الإسباني لم تتعد نطاق العاصمة طرابلس وأحوزها، فيما لم تكن سيطرتهم على بعض المدن والقرى كجنزور والماية وزواغة سوى سيطرة شكلية تمثلت في دفع الضرائب؛ مع أنها لم تكن تُدفع بانتظام[2]، إلا أن مدينة تاجوراء شكلت الاستثناء برفضها الخضوع للاحتلال*، بل كانت مركزا مهما في استقطاب كل القيادات والشخصيات والقبائل والعشائر الرافضة للاحتلال الإسباني وحتى بعض المجاهدين العثمانيين المتطلعين لتحرير طرابلس والمدن الأخرى من الاحتلال.

2-التحرير العثماني لتاجوراء –بداية النهاية لفرسان مالطا بطرابلس الغرب–

تشتّت جهود فرسان مالطا على عدة جبهات في المتوسط فبالإضافة إلى محاولة إبقاء مالطا تحت حكمهم ونفوذهم، والمشاركة مع العالم المسيحي خاصة إسبانيا في مواجهة العثمانيين وأيضا ضد الفرنسيين المتعاونين معهم، والذين يواجهون إسبانيا في إيطاليا، زد على ذلك محاولة إبقاء طرابلس الغرب تحت سيطرتهم، وبذلك زادت مصاعبهم المالية وحاجتهم إلى موارد أخرى لتغطية عجزهم المالي، فلم يكن لهم من حل سوى

1- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 193.

2- نفسه، ص 193.

* –اتخذ قادة وسكان هذه المدينة هذا الموقف لعدة أسباب، نذكر منها:

– تجذر الإسلام في نفوس السكان المحليين.

– ضعف حامية فرسان مالطا.

– الروح الوطنية التي تميز بها سكان هذه البلاد.

– تلاحم السكان مع حكام الجزيرة، كلها عوامل ساهمت في بقاء الجزيرة خارج السيطرة المالطية.

مهاجمة القرى والأرياف وفرض مزيد من الضرائب عليها، مثلما حدث مع لمايا، المنصورية، الزاوية، ومصراتة وغيرهم، ومن أجل إرغام السكان على دفع الضرائب كانوا يأخذون أولادهم رهائن، زاد الطين بلة والأوضاع سوءا تعاون الحسن الحفصي معهم، والذي هادنهم ودخل في طاعتهم[1]، وبذلك زادت أوضاع الطرابلسيين تأزما ولم يكن من مخلص إلا العثمانيين.

في هذه الأثناء أصبحت الإيالة الجزائرية القوة الضاربة في الجهة الغربية للمتوسط، فيما أصبح خير الدين قائد الأسطول العثماني كافة، فكان يهاجم بسرعة وجرأة وإقدام الأساطيل الأوروبية دون استثناء، وتوسع نشاطه البحري على السواحل الإيطالية والإسبانية وغيرهما، ولذلك وعندما علم بأوضاع الطرابلسيين المتردية، وجه حملة عسكرية إلى طرابلس الغرب سنة 937هـ/1531م، إلا أن حاكمها جاسبارو دي سانجيا تمكن من التصدي لهذه الحملة وردها، ومع ذلك لم ييأس خير الدين واتجه إلي تاجوراء وهاجمها واستطاع تشتيت شمل فرسان مالطا والمتعاونين معهم من بعض العرب وطردهم من المدينة، ثم عين عليها حاكما من رجاله الأوفياء اسمه خير الدين كرامان وترك معه حامية عسكرية عثمانية مزودة بالأسلحة والمدافع[2]، ثم قفل راجعا إلي الجزائر، فيما استطاع خير الدين كرمان تحويل تاجوراء إلى قلعة مقاومة ضد فرسان مالطا، وقام بتحصينها وبناء برج لحمايتها[3] من الهجمات المتوقعة من القراصنة الأوربيين؛ خاصة المالطيين لأنه كان يعلم أنهم لن يسكتوا بسهولة عن تحريريها .

بعد توطيد حكمه بتاجوراء حوّل خير الدين كرمان أنظاره إلي طرابلس الغرب حيث ابتدأ ببناء قلعة بالقرب منها لا تبعد عنها إلا بمسافة ميل (1.600كلم) واستطاع بث الحماس بين الناس للمشاركة في الجهاد وتحرير المدينة، فانظم إليه الطرابلسيون خاصة من لماية وزنزور وغيرهم، وبالتعاون مع جيشه هاجموا مدينة طرابلس وكادوا يحررونها بعد قتال عنيف ومرير بين الطرفين، لولا ظهور إشاعة مفادها استشهاد خير الدين كرمان في هذه المعارك، فكان ذلك سببا كافيا لتراجع جيش تاجوراء، وبذلك استطاع المالطيون بقيادة جيورجيو شيلنج «Giorgio schilling»[4] الإبقاء على مدينة طرابلس تحت سيطرتهم إلى حين.

في محرم سنة 943هـ/1536م قاد حاكم طرابلس الغرب أوراليو بوتيجلا حملة عسكرية ضد تاجوراء، بعد أن جاءته نجدة عسكرية قوامها 4 مراكب و550 جندي، منهم مائة وخمسون فارس من فرسان القديس يوحنا وبمساعدة السلطان الحفصي مولاي الحسن- الذي كان يدعى أن له حقوق شرعية في طرابلس- واستطاعوا

1- حسين مؤنس: المرجع السابق، ص 437.

2- نفسه.

3- إتوري روسي: المرجع السابق، ص196.

4- حسين مؤنس: المرجع السابق، ص 437.

دخولها بعد قتال عنيف مع الحامية العثمانية وسكان المدينة، وقد استشهد في هذه المعارك خير الدين كرمان مع العديد من المقاومين، فيما استطاع المحتلين السيطرة على المدينة ونهبها واستباحتها[1]، ولما سمع خير الدين بربروس بهذه الأحداث سارع لنجدة المدينة، وبعد الوصول إليها عين عليها حاكما من خيرة رجاله وهو مراد أغا الذي استطاع إعادة الهدوء إلى المدينة وتنظيم المقاومة بها والتصدي لهجمات فرسان مالطا.[2]

استطاع مراد أغا أن يتخذ من مدينة تاجوراء مركزا له لبداية تحرير باقي المدن الطرابلسية، وقد استطاع تنظيم شؤونها وتحسين أحوالها وإعادة الهدوء والأمن لها، ثم بدأ في التقرب من أهلها وذلك بإتباع سياسة مرنة ومتسامحة معهم، واستطاع بث روح الحماس بين صفوفهم وتشجيعهم لمقاومة الاحتلال المالطي، ودعاهم للتعاون معه ومساعدته لطردهم من المدينة، ومن أجل توطيد العلاقة معهم وبث المحبة بينهم وتوحيد صفوفهم قام ببناء مسجد جامع يكون المكان الذي تنطلق منه المقاومة (الجهاد)، بالإضافة إلى بناء مدرسة لتعليم أهل المدينة؛ لأنه كان يعلم أن العلم هو أساس بناء الدولة وتطورها وازدهارها، بالإضافة إلى أنها مصدر لبث الوعي بخطر الاحتلال على طرابلس الغرب قاطبة.

ولعلمه أنه لا يستطيع مقاومة الاحتلال المالطي الإسباني المسيحي لوحده، قرر الاتصال بالسلطات العثمانية بإستانبول لتقديم المساعدة له، وإبلاغها بمرامي وأهداف الاحتلال المالطي المدعم من السلطات الإسبانية الهادفة لجعل البحر الأبيض المتوسط وبلدانه المغاربية محميات إسبانية مثل ما هو عليه الحال في العالم الجديد –إلا أن هذه الأحلام ذهبت أدراج الرياح أمام الأحلام المتزايدة للعثمانيين الذين استطاعوا القضاء على الإسبان في كامل السواحل المغاربية– لذلك وافق السلطان العثماني على تقديم المساعدة لمراد أغا مباشرة بعد وصول طلبه وبدون تردد.

3-درغوث باشا وجهوده الحربية ضد المسيحيين.

3-1-التعريف بدرغوث باشا.

ولد درغوث باشا بن علي في جزيرة رودس في مطلع القرن السادس عشر، وتربى تربية إسلامية وتعلم المغامرة وركوب البحر مع الأساطير العثمانية[3]، وكغيره من الأبطال الذين قدموا إلى بلاد المغرب الإسلامي، فإن أصوله تكاد تغيب عنا لأن كل مصدر أو مرجع نسبها إلى جهة ما، خاصة الأوربيون الذين قلدهم وتبعهم المؤرخون الجزائريون في نسبته إلى أصول أوروبية مسيحية، وهذا في الحقيقة أمر يمكن فهمه عند المؤرخين الأجانب

1- حسين مؤنس: المرجع السابق، ص438.

2- الشافعي درويش: المرجع السابق، ص87.

3 - حاجي خليفة: المصدر السابق، ص 132.

لأنهم دائما ينسبون الأبطال المسلمين إلى العالم المسيحي؛ محاولة منهم لوضعنا أمام الأمر الواقع؛ وكأنهم يقولون لنا أن هذه الانتصارات والفتوحات مهما كانت هي في الأصل جاءت من عند أبطال أصولهم مسيحية شئتم أم أبيتم، لنكون دائما تابعين لهم؛ ناسين أو متناسين أن الإسلام هو الفاصل في مثل هذه الأمور، وأن هؤلاء القادة قدموا للإسلام والبلاد الإسلامية ما لم يقدمه بعض الحكام الخونة لبلادهم، بل أكثر من ذلك أنهم خدموا المسيحيين على حساب أوطانهم ورعيتهم، أما المؤرخون العرب والجزائريون فإنهم لم يجدوا في مصادرنا ما ينفي هذه الأساطير، ومع ذاك يبقى أن الإسلام هو الذي رفع من شأن هؤلاء القادة الأبطال، مثل ما كان عليه الحال عبر كل زمان ومكان في التاريخ الإسلامي، مثل: صهيب الرومي وسلمان الفارسي في صدر الإسلام وغيرهم من العظماء الذين خلد التاريخ أسماءهم إلى يومنا هذا.

وقد تضاربت المعلومات حول مولده ونشأته، فقد رجح مرمول كربخال مولده برودس[1]، قبل طرد فرسان مالطا من طرف العثمانيين سنة 1522م مثلما قال به يحي بوعزيز، وهناك من قال أنه من أصل يوناني وهذا ما رجحه جون وولف[2]، فيما ذهب آخرون أنه ولد سنة 1485م في مقاطعة منتشية «Menteshe» على السواحل الغربية للأناضول[3]، إلا أن الثابت أنه حصل على ثقة خير الدين بربروس وكان معه في العديد من المعارك التي خاضها ضد الأساطيل المسيحية، خاصة على السواحل التونسية أثناء الهجوم على جزيرة جربة عامي 1510م، 1520م، والهجوم على حلق الوادي سنة 1535م[4]، وبصفات الشجاعة والإقدام استطاع التقرب من خير الدين والحصول على ثقته، وبذلك أصبح من المقربين إليه ومن رجاله المخلصين، ومن صانعي القرار في جماعة البحارة العثمانيين .

ولتأكيد هذه الثقة منحه خير الدين مسؤولية الإشراف على الأسطول العثماني في معركة بريفيزا سنة 1538م، وبتاريخ 15 جوان 1540م وقع أسيرا بيد جالتين دوريا ابن أخ أندري دوريا، ليصبح مجدافا في السفن الجنوية[5]، وهذه التجربة المريرة تكاد تكون عادة عند البحارة الأبطال مثلما حدث لعروج، وهي تجربة زادت من قوتهم وعزيمتهم وصبرهم على تحدي الصعاب وتحقيق الرغبات وصقل مواهبهم، وهيّئتهم لقيادة الجهاد ضد

1- مرمول كربخال: المصدر السابق، ج 3، ص123.

2- جون وولف: المرجع السابق، ص 64.

3- إتوري روسي: طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا، ...المرجع السابق، ص69.

4- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص ص 258، 259.

5- جون وولف: المرجع السابق، ص 65.

المسيحيين، بل زادتهم كرها لهم ومعرفة حقيقة أوضاع الأسرى وكيف يعاملهم المسيحيين، مستذكرين في ذلك مأساة السكان المغاربة والأندلسيين الموريسكيين الفارين من ويلات القتل والتعذيب.

حاول خير الدين بربروس تخليص درغوث باشا من أسره لذلك استغل تواجده بميناء طولون بفرنسا شتاء 1542، 1543م* أثناء دفاع الأسطول العثماني عن فرنسا ضد الخطر الإسباني، اتفق خير الدين بربروس مع أندري دوريا على إطلاق سراح درغوث باشا في مقابل التنازل له عن جزيرة طبرقة «tabraque» التونسية[1] لإقامة مرسى ومصنع لصيد المرجان لصالح الجنويين فيما تحصل أندري دوريا على ثلاثة آلاف دوكا ذهبية[2]، وهذا طبعا بعد موافقة السلطان العثماني سليمان القانوني الذي قبل هذه الصفقة لأنه يعلم قيمة درغوث باشا وتخطيط خير الدين، لعلمه أن الجزيرة سوف تعود عاجلا أم آجلا، لأن هدف جميع العثمانيين كان تحرير جميع السواحل المغاربية بدون استثناء وضمها للدولة العلية العثمانية.

2-3-درغوث باشا في مواجهة المالطيين والإسبان.

بعد إطلاق سراح درغوث باشا، بقي هذا الأخير وفيا لسياسته المعادية للمسحيين، خاصة المالطيين والإسبان، ونظرا لاستحالة عودته إلى الإيالة الجزائرية؛ بسبب التزام هذه الأخيرة بالهدنة الموقعة بين الدولة العلية والإمبراطورية الإسبانية** كان لا بد لدرغوث باشا البحث عن مرفأ لمزاولة نشاطه الجهادي، فكانت جزيرة جربة بتونس المكان المفضل من أجل اتخاذها كقاعدة لأسطوله الحربي[3]، بعد أن سمح له شيخها بالبقاء ومنحه مرسى بها مقابل جزء من الغنائم التي يتحصل عليها جراء عائدات جهاده ضد المسيحيين.[4]

* – لأن فرنسا كانت تمر بمرحلة ضعف خاصة أنها تلقت العديد من هزائم داخل إيطاليا على يد القوات الإسبانية، ومخافة من انتقال الأطماع الإسبانية إلى فرنسا ذاتها، خاصة بعد ضياع العديد من أراضيها أمام الضربات الموجعة التي تلقتها على يد القوات الإسبانية استنجدت بالعثمانيين لرد هذا الخطر الداهم.

1– يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 259.

2– مرمول كربخال: المصدر السابق، ج3، ص 73؛ جون وولف: المرجع السابق، ص65.

**–بعد المصاعب التي تلقتها فرنسا أمام القوات الإسبانية، وهزائمها المتتالية على الأراضي الإيطالية، بالإضافة إلى ظهور الحركة اللوثرية بألمانيا ومناداتها بالإصلاح الديني، زد على ذلك مصاعبها المالية جراء هذه الحروب، مما أثر على تكاليف القوات العثمانية الموجودة على أراضيها، واستحالة الإنفاق عليها، لذاك وقعت اتفاق هدنة بين الملكين (شارلكان، فرنسوا الأول) في كريسبي "Grispy" ونتيجة لذلك اضطر السلطان العثماني سليمان القانوني لتوقيع معاهدة مع الإسبان سنة 1545م تحت ضغط المشاكل الداخلية والحروب داخل الأراضي الأوروبية، وتشتت جهوده الحربية في العديد من بلدان العالم، وأيضا تنكر فرنسوا الأول لتعهداته مع العثمانيين، كل هذه العوامل ساعدت في توقيع هدنة بين هذه الأطراف، إلا أن درغوث باشا رفض هذه الهدنة جملة وتفصيلا وواصل جهاده ضد المسيحيين

3 – محمد أبو راس الجربي: المصدر السابق، ص15.

4– جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص65.

ويعود سبب اختيار درغوث باشا لجزيرة جربة؛ بسبب التعذر عليه الاستقرار بتونس لأنها تحت سيطرة مولاي الحسن العميل للإسبان، والمدعم بقواتهم، أما طرابلس الغرب فكانت تحت سيطرة فرسان مالطا، أما إيالة الجزائر فقد كانت تحت إمرة حسن بن خير الدين الذي كان ولائه شديدا للسلطان العثماني؛ ولا يمكنه الخروج عن طاعته وعدم الالتزام بالهدنة الموقعة مع الإسبان، ولذلك لم يكن من ملجئ لدرغوث باشا إلا جزيرة جربة الخارجة عن سيطرة كل الأطراف.

استطاع درغوث باشا من هذه الجزيرة الاقتراب من المالطيين والتضييق على مولاي الحسن والإسبان بتونس، فكانت أولى إنجازاته خلال هذه المرحلة السيطرة على سفينة مالطية كانت تحمل أموال خزينة فرسان القديس يوحنا، وقدرت قيمة هذه الأموال بحوالي 20 مليون دوكا ذهبية، استطاع بها تدعيم أسطوله بالرجال والعتاد، وبذلك أظهر مقدرة فائقة في مواجهة المسيحيين على السواحل الطرابلسية والتونسية، وبدأ يعد العدة لتحرير طرابلس الغرب، وكانت البداية بالبحث عن مرسى أكبر يتحمل أسطوله المتنامي، ليكون سدا منيعا بين المالطيين المتمركزين بطرابلس الغرب والإسبان المتواجدين بتونس، ولذلك يمكننا القول أن القوات الإسبانية أصبحت بين فكي كماشة؛ فمن الشرق درغوث باشا بقواته المتربصة، ومن الغرب الإيالة الجزائرية المتنامية والتي بدورها تنتظر الفرصة المواتية للتحرر من الهدنة الموقعة بين السلطان العثماني سليمان القانوني وشارلكان ملك الإمبراطورية الإسبانية، بالإضافة إلى أنه حقق هدفا آخرا تمثل في عزل قوات القديس يوحنا بطرابلس.

بعد تزايد نشاط درغوث باشا ضد الإسبان والمالطيين احتجت إسبانيا لدى السلطان العثماني، وطلبت منه الالتزام بالهدنة الموقعة بين الدولتين، لذلك قام السلطان سليمان القانوني باستدعاء درغوث باشا إلى إستانبول، إلا أن هذا الأخير رفض المثول بين يديه، خشية من مصيره الذي قد يكون القتل جزاء له على عصيانه أوامر الدولة العلية[1]، ولذلك فضل البحث عن مكان أكثر أمنا من جزيرة جربة، وبالرغم من حصوله على مدينتين صغيرتين مقابلتين لجزيرة جربة إلا أنهما لم ترضيا طموحه، لذلك وقع اختياره على مدينة المهدية[2] التي كانت أكثر أمنا وتحصنا من غيرها، بالإضافة إلى أنها خارجةً عن سيطرة الإسبان، وقد استطاع درغوث باشا السيطرة عليها بسهولة لضعف المقاومة بها[3]، واستأنس السكان المحليين بالبحارة العثمانيين وتقبلوا فكرة الخضوع لهم بدل الإسبان وعميلهم مولاي الحسن.

وبالسيطرة على المهدية استطاع درغوث باشا تحقيق العديد من الأهداف نذكر منها:

1 - حاجي خليفة: المصدر السابق، ص 133.

2- شارل فيرو: المرجع السابق، ص89.

3- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص67.

- التقرب أكثر من طرابلس الغرب وتهديد القوات المالطية المتمركزة بها وقطع خط الإمداد بينهم وبين الإسبان المتمركزين بتونس وصقلية.
- تهديد ومزاحمة القوات الإسبانية بتونس وانتظار اللحظة المناسبة للانقضاض عليها بمساعدة الدولة العلية العثمانية وإيالة الجزائر.
- فك ارتباط الدولة العلية والإيالة الجزائرية بالهدنة الموقعة مع الإسبان؛ لأنه كان يعلم أن الإيالة الجزائرية رافضة لهذه الهدنة، بالرغم من الالتزام بها، لأن العديد من أراضيها لا زالت تحت الاحتلال الإسباني.
- اختبار صبر القوات الإسبانية على الالتزام بالهدنة الموقعة مع الدولة العلية العثمانية في ظل الاستفزازات المتواصلة لدرغوث باشا وقواته التي اقتربت كثيرا من حلق الوادي، المركز المعنوي للعثمانيين في مواجهة الإسبان، لأنه كان المنطلق الفعلي لنشاط الإخوة بربروس بالحوض الغربي المتوسط.
- اعتراض التجارة البحرية الإسبانية خاصة والأوروبية عامة وتهديد سفنهم التجارية والحربية أيضا.
- محاولة استمالة السكان المحليين في جميع الأراضي التونسية ومساعدته على التخلص من الإسبان المحتلين وعملائهم من الحكام المحليين.

وأمام هذه الأوضاع المتأزمة والهجمات المتتالية لدرغوث باشا على المدن التونسية واستنزاف القوات الإسبانية بحرب طويلة الأمد، اتخذت السلطات الإسبانية ذريعة من طلب حاكم حلق الوادي من أندري دوريا والملك الإسباني تخليصه من تهديدات درغوث باشا المتواصلة، وقررت إرسال قواتها لإعادة احتلال المهدية سنة 1550م.

4-الاحتلال الإسباني لمدينة المهدية سنة 1550م.

نتيجة للشكاوي المتكررة من طرف قادة القوات الإسبانية بتونس وعملائهم بالمنطقة قرر شارلكان إعادة احتلال المهدية وإخضاعها لحكمه، لذلك أصدر أوامره إلى نائب ملك صقلية دون جون فيغا « Don juan devega» وأندري دوريا بالتوجه إلى المدينة واحتلالها[1]، وبمساعدة القوات الجنوية شنت القوات المتحالفة هجوما واسعا على المهدية في جوان 1550م[2]، وتم احتلالها نهائيا يوم 10سبتمبر 1550م، بالرغم من المقاومة الشديدة التي أبداها البحارة العثمانيين في مواجهة الإسبان والمتحالفين معهم بعد حصار دام حوالي أربعة أشهر[3]، لتستبيح

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 89.

2- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 260.

3 -كوستانزيو برنيا: طرابلس من 1510م إلى 1850م، تعريب خليفة التليسي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، الجماهيرية الليبية، 1394هـ/1985م، ص 39.

القوات المحتلة هذه المدينة وتخربها وتهدم حصونها وتشرد سكانها وتسترقهم انتقاما منهم نظير تدعيمهم درغوث باشا وبحارته، وأمام هذا التخريب الذي طال المدينة كان ملك إسبانيا يود تسليمها لفرسان مالطا، الذين رفضوا هذه الفكرة جملة وتفصيلا[1]، لأنهم كانوا يعلمون جيدا أنهم لا يستطيعون حمايتها، هذا بالإضافة إلى التكاليف الباهظة الناتجة عن احتلالها، خاصة وأن تجربة طرابلس الغرب ماثلة أمامه؛ وهم بالكاد يستطيعون الحفاظ عليها، فكيف بمزيد من الأراضي التي تشتت جهدهم وتزيد التكاليف، وبعد انسحاب درغوث باشا من المهدية عاود التوجه إلى جزيرة جربة التي كانت بها المواجهة المقبلة بينه وبين أندري دوريا.

5-هجوم التحالف الأوروبي على جزيرة جربة سنة 1551م.

بعد احتلال المهدية وتخريبها من طرف القوات الإسبانية، حاولت القيادات العسكرية الإجهاز نهائيا على درغوث باشا والقضاء على التواجد العثماني على السواحل التونسية، وتخليص فرسان مالطا من الهجمات المتكررة لقوات درغوث باشا، هذا ما دفع أندري دوريا لطلب مساعدة حكام الدويلات الإيطالية والملك الإسباني شارلكان، فتجمع لديه حوالي 27 سفينة اتجه بها إلى مدينة المهدية التي وصل إليها يوم 10 أفريل 1550م، ولما وصلها علم أن درغوث باشا موجود في جزيرة جربة، فاتجه إليها ووصل إلى مضيق القنطرة يوم 12 أفريل[2]، ومباشرة فرض عليها حصارا محكما على أمل أسر درغوث باشا والسيطرة على جميع مراكبه وتشتيت بحارته.[3]

رغم أن قوات الطرفين لم تكن متكافئة إلا أن درغوث باشا استطاع فك الحصار بمساعدة شيخ الجزيرة والسكان المحليين، بالرغم من الإغراءات التي قدمها لهم أندري دوريا، ومع ذلك لم تجد هذه الإغراءات نفعا أمام الولاء المطلق الذي تميز به أهل الجزيرة تجاه العثمانيين، وقد استطاع درغوث باشا نقل جميع مراكبه من الجهة الغربية من مضيق القنطرة وإيصالها إلى البحر المتوسط سالمة؛ مستغلا في ذلك المناوشات التي كانت تدور بين قواته وقوات أندري دوريا، وقد دامت هذه العملية حوالي ثمانية أيام[4]، أثبت خلالها درغوث باشا ذكائه الخارق وقدرته على المناورة واستغلال أدنى الفرص، فيما أثبت أندري دوريا فشله مرة أخرى أمام البحارة العثمانيين.

وبعد إفلاته من الحصار اتجه درغوث باشا إلى جزيرة قرنقة، أين أعترض سبيل سفينة قادمة من صقلية لمد يد العون للقوات المسيحية، وفي نهاية شهر أفريل اتجه إلى جزيرة مالطا واستطاع السيطرة على بعض سواحلها لمدة قصيرة منها قرية سيجوي «siggéui»، ليتوجه بعدها رأسا إلى استانبول، أين قدم شرحا مفصلا للسلطان

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص89.

2- إتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي...المرجع السابق، ص207.

3- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 263.

4- نفسه: ص264.

العثماني عن الأوضاع في تونس وطرابلس الغرب، وفي نفس الوقت طلب الصفح عنه و معتذرا عن عدم المثول بين يديه عندما طلب منه ذلك، موضحا للسلطان العثماني بدقة مآلات الصراع بين الدولة العلية العثمانية والإمبراطورية الإسبانية في الجهة الغربية للبحر الأبيض المتوسط، ومقترحا عليه تحضير خطة محكمة بمشاركة الساسة والقادة العسكريين العثمانيين تساعد في تحرير طرابلس الغرب من الاحتلال المالطي، وبذلك يسهل حصار القوات الإسبانية بتونس من الجهتين؛ الشرقية والغربية، وتطويقها ووضعها بين فكي كماشة؛ الإيالة الجزائرية من الجهة الغربية وطرابلس الغرب –بعد تحريرها– من الجهة الشرقية، وبذلك تتأكد السيطرة العثمانية على المتوسط، ويصبح طرد الإسبان من تونس وبعض مناطق الجزائر المحتلة مسألة وقت فقط.

ثانيا-التحرير النهائي لطرابلس الغرب سنة 1551م.

المبحث الأول: الحملة العثمانية على طرابلس الغرب.

1-أسباب الحملة:

- محاولة العثمانيين الرد السريع على احتلال إسبانيا للمهدية (إفريقية) والانتقام منهم ورد الاعتبار للسكان المحليين الذين ذاقوا ويلات التشريد والاسترقاق وضياع الممتلكات والأموال على يد القوات الإسبانية.
- الإسراع في قطع الطريق على الإسبان مخافة السيطرة على الجهة الشرقية للمتوسط، خاصة وأن ممتلكاتهم في إيطالية قريبة جدا من تونس وطرابلس الغرب، وتثبيت حكم فرسان مالطا والإسبان بهاتين المنطقتين يعني أن الدور سيكون على الإيالة الجزائرية؛ التي كانت تتحمل العبء الأكبر في مواجهة إسبانيا والقوات الأوروبية المتحالفة معها، ولذلك لم يكن السلطان العثماني ليقبل رؤية الإسبان يسيطرون على البحر الأبيض المتوسط.[1]
- توفر الأسطول العثماني على قيادات بارعة وماهرة وحكيمة يدعمها السلطان سليمان القانوني، لذلك أراد هذا الأخير استغلال هؤلاء القادة في عمل يفيد الدولة العلية العثمانية، وفي نفس الوقت تخليد أسمائهم في التاريخ، ومن أبرز هؤلاء القادة: غازي مصطفى، العلج علي الفرطاس، حسن كليج، محمد رايس، سينجكدار رايس، دالي جعفر، قارة مامي وحسن قورصو... .[2]
- حاول السلطان سليمان القانوني إلهاء القادة العسكريين والرأي العام عن المشاكل الداخلية والخارجية التي كانت تعيشها الدولة العلية خاصة داخل القارة الأوربية، لأن الحروب العثمانية الأوروبية استهلكت مبالغ

1- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص67.

2- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 265.

مالية ضخمة كادت تفلس خزينة الدولة ، لذلك ظهر بعض القادة المعارضين لسياسة السلطان العثماني الهادفة للقيام بحروب داخل القارة الأوروبية بدون توقف، بالإضافة إلى معارضتهم للامتيازات الفرنسية داخل الأراضي العثمانية والتحالف مع فرنسوا الأول وهنري الثاني ضد الإمبراطورية الإسبانية، زاد الأوضاع تأزما نشوب صراع حول العرش بين سليمان القانوني ذاته ووريثه على العرش سليم الثاني[1]، لذلك أراد سليمان القانوني توجيه أنظار معارضيه بالداخل إلى مغامرة خارج أوروبا ترفع من قيمته وتسكت معارضيه وتزيده عزة ورفعة في نظر رعيته.

- مغامرة رجال البحر العثمانيين وفي مقدمتهم صالح رايس، درغوث باشا ومراد آغا بالتوجه إلى تحرير طرابلس الغرب بدون علم السلطان العثماني، الذي كان قد أمر قيادة الأسطول بالتوجه إلى حلق الوادي لتجديد الحصار عليها وتحريرها، إلا أن هذه القيادة وبطلب من درغوث باشا توجهوا إلى طرابلس الغرب[2]، وهذا الأمر على اختلاف الروايات حوله يعتبر سببا ثانويا بالمقارنة مع الأسباب الأخرى.
- محاولة استغلال الأوضاع الأوروبية المتأزمة؛ بسبب ظهور حركة الإصلاح الديني والصراعات والحروب داخل القارة ومنها الحروب الإيطالية التي جلبت إليها أنظار العالم الأوروبي والصراع المتواصل بين أسرتي الفالوا والهابسبورغ حول زعامة العالم المسيحي، علما أن ملك فرنسا هنري الثاني كان يلح على إحياء التعاون الفرنسي العثماني ضد الهابسبورغ.[3]
- نقض الهدنة بين الدولة العلية والإمبراطورية الإسبانية بعد احتلال المهدية من طرف الإسبان، لذلك استغل درغوث باشا هذه الفرصة وأقنع السلطان العثماني بأن القيادة الإسبانية اخترقت الهدنة ويجب استغلال الفرصة للرد عليهم.[4]
- قطع الطريق على القراصنة المسيحيين الذين كانوا يعترضون السفن التجارية العثمانية بصفة خاصة والإسلامية بصفة عامة[5]، لذلك أرادت القيادة العثمانية طرد هؤلاء القراصنة وتأمين السفن التجارية والطرق البحرية من وإلى البحر الأبيض المتوسط.

1- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص67.
2- أبو سالم العياشي: المصدر السابق، ج1، ص143.
3- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص68.
4- شارل فيرو: المرجع السابق، ص90.
5- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص68.

2-تجهيز الحملة.

بعد توفر الأسباب للحملة العثمانية على طرابلس الغرب بدأت الاستعداد الحثيثة لتجهيزها تحت الرعاية الشخصية للسلطان العثماني سليمان القانوني وقائد الأسطول سنان باشا، وقد اختلفت المصادر والمراجع في تقدير عدد السفن التي تم تجميعها، إلا أنها أجمعت على ضخامة عددها وهذا حرصا من القيادة العثمانية على إنجاح الحملة، فقد ذكر أحمد بك النائب الأنصاري أن الأسطول العثماني كان مكونا من 150سفينة تحت قيادة سنان باشا[1]، فيما ذكر شارل فيرو أن عدد سفن الأسطول كانت 20 سفينة بالإضافة إلى سفن درغوث باشا الذي كان موجودا حينذاك بالجزائر[2]، ومن هذه الرواية يمكننا القول أن المدد العثماني من استانبول كان قليلا جدا إذا ما قورن بما ذكرته المصادر والمراجع المحلية، وهي رواية انفرد بها شارل فيرو، فيما ذكر أرنست مارسي أن عدد السفن العثمانية بلغ 150سفينة[3]وهذا ما ذهب إليه إتوري روسي عندما ذكر أن عدد سفن الأسطول العثماني كان يتكون من 150سفينة وأسندت قيادة هذا الأسطول إلى سنان باشا بمساعدة درغوث باشا وصالح بك حاكم رودس[4]، فيما قدر عدد الجنود بحوالي 12000 جندي انكشاري بالإضافة إلى عدد كبير من المتطوعين من أهل البلاد وغيرها.[5]

3-سير الحملة.

قبل التطرق لسير الحملة ووقائعها يجب الإشارة أن المصادر والمراجع اختلفت في سبب قدوم درغوث باشا إلى طرابلس الغرب لفتحها، وأيضا في وصوله من عدمه إلى القسطنطينية؛ فهناك من المصادر والمراجع التي ذكرت أن درغوث بعد هزيمته وطرده من المهدية على يد الإسبان توجه إلى القسطنطينية ورفع تظلماته إلى السلطان العثماني سليمان القانوني وشرح له الأوضاع العامة في حوض المتوسط عامة وفي طرابلس الغرب خاصة وكيفية ضياع المهدية منه التي تحصر على ضياعها كثيرا، لذلك طلب من السلطان أن يمده بقوات لإعادة تحريرها، بما في ذلك تجهيز الأسطول الهمايوني للمساعدة في إنجاح الحملة وطرد فرسان مالطا من طرابلس الغرب، لأن الإسبان باحتلالهم المهدية نقضوا الهدنة مع العثمانيين[6]، وهذا ما أشار إليه ابن غلبون الطرابلسي بقوله:

1- أحمد بك النائب الأنصاري: المصدر السابق، 189.

2- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص68.

3 -*Ernest (Mercier): Histoire De l'Afrique septentrional, T3, Ernest Leroux. Éditeur, Paris, 1891, p73.*

4- إتوري روسي: المرجع السابق، ص208.

5- حسين مؤنس: المرجع السابق، ص438.

6- شارل فيرو: المرجع السابق، ص90.

«...**فسرح لهم أمير المؤمنين السلطان سليمان قبودان البحر سنان باشا وطورغود بك في الأساطيل ولحقوا بالعدو**...»[1]، فهنا ذكر ابن غلبون أن السلطان العثماني سرح لهم هؤلاء القادة ومن بينهم درغوث وهي إشارة واضحة بأنه كان بحضرة السلطان سليمان القانوني، ولو قال أنه أرسله لأمكننا تأويل الكلام إلى أنه لم يكن معه، أما وأنه قال أنه سرحه فإنه كان معه ولم يكن بعيدا عنه وهذا ما يتفق مع ما قاله شارل فيرو، وأيضا موافقا لقول جوون وولف، الذي أشار أن السلطان العثماني سليمان القانوني عفى عن درغوث لأنه كان لا يحبذ رؤية الإسبان وهم يسيطرون على حوض المتوسط، وأيضا تحقيقا لرغبة الملك الفرنسي هنري الثاني إحياء الوفاق الفرنسي العثماني[2]، ولإنجاح هذا الوفاق كان يجب العفو عن درغوث باشا وهذه الرواية تتفق عموما مع الروايات السابقة، وقد أشار حسين مؤنس أن درغوث باشا استطاع إقناع سليمان القانوني بضرورة مساعدته على فتح جزيرة مالطا وفي نفس الوقت طرد فرسان القديس يوحنا من طرابلس الغرب[3]، أما إتوري روسي في كتابه ليبيا منذ الفتح العربي... فقد أشار أن درغوث باشا كان رفقة سنان باشا قائد الأسطول العثماني وصالح بك حاكم رودس[4]، وهذه إشارة واضحة أن درغوث وسنان باشا كانا مع بعضهما البعض عند السلطان العثماني، أو أن سليمان القانوني عندما شرح له درغوث باشا الأوضاع قام باستدعاء سنان باشا وأعطاه التعليمات وأمره بمرافقة درغوث باشا إلى طرابلس الغرب لفتحها وافتكاكها من فرسان القديس يوحنا .

أما الرأي الثاني فقد أشار إليه يحي بوعزيز؛ ومفاده أن درغوث باشا بعد أن أفلت من حصار جزيرة جربة في ربيع أفريل1551م اتجه إلى نفربون الواقعة بالمياه الإقليمية اليونانية التي وصلها خلال شهر جوان أين وجد الأسطول العثماني هناك بقيادة سنان باشا قائد البحرية العثمانية في انتظاره، ثم بدأ العديد من القادة الكبار يلتحقون بهما في هذا المكان منهم: غازي مصطفي وعلج علي الفرطاس، حسن كليج، محمد رايس، سنجكندار رايس، دالي جعفر، حسن قورصو وحسن رايس وغيرهم.[5]

لكن السؤال المطروح هو: هل فعلا أن سنان باشا ودرغوث وغيرهم من القادة تصرفوا بمفردهم دون الرجوع إلى السلطان العثماني؟ وهذا ما نستبعده خاصة ونحن نعلم عن العلاقة الوطيدة التي تربط السلطان بقادة الأسطول خاصة سنان باشا؛ الذي عُرف عنه وفائه المطلق وإتباعه الدقيق لتعليمات السلطان، ولذلك لا يمكنه

1- ابن غلبون الطرابلسي: المصدر السابق، ص189.

2- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص67.

3- حسين مؤنس: المرجع السابق، ص438.

4- إتوري روسي: المرجع السابق، ص209.

5- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص.265

اتخاذ قرار خطير قد تترتب عليه عواقب وخيمة على الدولة العلية العثمانية وأسطولها الهمايوني!، وإن كان حدث مثل هذا الفعل الذي قد نصنفه في خانة الخطير، فهو إذاً تمردا خطيرا لا يمكن فهمه وخروجا عن الأعراف السياسية والعسكرية المعمول بها داخل النظم العثمانية خاصة والعالمية عامة، وكيف تغاضى السلطان العثماني عن هذا الفعل الخطير؟ وهو يرى سلطانه وأهم صلاحياته تنتهك من طرف قادة في الأسطول، خاصة إذا علمنا أن السلطان سليمان القانوني عرف عنه قوته وسطوته وتحكمه الجيد في زمام الأمور، مع العلم أن هذه السنوات من أهم فترات حكمه قوة ونفوذا داخل الدولة العلية وبقية السناجق العثمانية ومن بينها الجزائر.

ولو سلمنا جدلا أن إبراهيم باشا الصدر الأعظم هو الذي أعطى الأوامر إلى قائد الأسطول سنان باشا بالتحرك، فلماذا لم تذكر لنا المصادر والمراجع ذلك، وهو أمر نستبعده لأن قرارا بهذا الحجم هو قرار خطير لا يتخذه إلا السلطان بعد مشاورات كثيرة وتفكير عميق، لذلك يمكننا أن ننفي الرواية التي تقول أن درغوث باشا لم يصل إلى إستانبول، أو أن سنان باشا هو الذي اتخذ قرار فتح طرابلس الغرب بمفرده دون الرجوع إلى السلطان العثماني.

أما قضية أن الفتح العثماني لطرابلس جاء عرضا ولم يكن مخططا له، فقد اختلفت فيها الروايات التاريخية أيضا، بين من قال: أن السلطات العثمانية خططت لهذا الفتح، وقائل: أن الفتح جاء صدفة أو عرضا لأن الهدف كان فتح تونس، فقد مر الأسطول العثماني بالأراضي الطرابلسية سنة 1551م بقيادة سنان باشا بمساعدة درغوث باشا الذي كان يعرف جيدا هذه المناطق، فلما سمع بهم السكان طلبوا من مراد آغا أن يلتمس من درغوث باشا مساعدتهم في الهجوم على القوات المالطية وتحرير مدينتهم، وبعد تردد منه بحجة عدم أخذ الإذن من السلطان العثماني وافق على مهاجمة طرابلس وفي ذلك يقول العياشي في رحلته: «...**وسبب أخذها من العدو أن مراكب للمسلمين جاءت من استانبول مددا للعمارة المحاصرة لحلق الوادي بتونس فمرت بسواحل طرابلس، فكلمهم أهل السواحل في إعانتهم على النصارى فقالوا: إنا لم نأمر بذلك من السلطان فقال لهم الباشا مراد : أعينوني في هذا الأمر، فإن كانت عقوبة من السلطان فأنا المآخذ بها دونكم**...»[1]، فهل يعقل أن يتخذ أمر خطير كهذا على مستقبل الدولة العلية في المتوسط يؤخذ بهذه البساطة دون الرجوع إلى السلطان ؟.

وقد ذهب ابن غلبون إلى ما قاله العياشي، وقد يكون أخذ عنه هذه الرواية، وفي ذلك يقول: «...**إلى أن دخلت سنة ثمان وخمسين وتسعمائة فمر أسطول السلطان سليمان بالمدينة المذكورة، مددا لعلج علي**

1- أبو سالم العياشي: المصدر السابق، ج1، ص143.

باشا إذ كان محاصرا لحلق الوادي وبه درغوت باشا وهو قائده، فخرج إليهم مراد ومعه أعيان بيعته من أهل تاجوراء... وطلبوا منه الإعانة فأبى عليهم وتعلل بأنه لم يأذن له فيها فهونوا عليه أمرها وصغروها بين يديه فأجابهم إلى ذلك بشرط أن يعطوه حجة على أن لا يكون عليه درك من السلطان لمخالفته أمره وأنهم المأخوذون بذلك فأعطوه بذلك حجة...»[1]، وقد اتفقت العديد من المراجع ونقلت هذه الروايات.

تبدو لنا هذه الروايات مجانبة للصواب وأقرب للتخمينات منها إلى الحقائق التاريخية لعدة اعتبارات، نذكر منها:

- كيف يعقل أن يطلب درغوث باشا من السكان المحليين ومراد آغا تحمل المسؤولية في حال الفشل في طرد المالطيين من طرابلس أمام السلطان العثماني سليمان القانوني؟؛ وهو المسئول المباشر عن الأسطول العثماني في نظر السلطان في كلتا الحالتين سواء نجحت عملية الفتح أو فشلت!
- هل من المعقول أن الناس عرفوا درغوث باشا بحقيقة الأوضاع في طرابلس الغرب وكأنه يجهل حقيقتها، وهو الذي حاول تحريرها، بل وكان موجودا بالمهدية وتاجوراء وله أتباعه من البحارة الذين يعرفون جيدا هذه البلاد؟
- كيف يمكن لقائد مقدام عارف بخبايا بلاد المغرب أن يغامر بمثل هذا الفعل الخطير على مصير الدولة العلية في المتوسط، مع العلم أن الأوضاع لم تستقر بعد في الجزائر، والأسطول العثماني لم يستطع فتح جزيرة مالطا، وتونس لا زالت تحت الاحتلال الإسباني، فكيف لدرغوث لم يأخذ كل هذه العوامل ويقرر من تلقاء نفسه المغامرة بفتح طرابلس الغرب!
- هل يعقل أن الدولة العلية العثمانية كانت بمصر ولم تفكر بفتح طرابلس لأن هذه الأخيرة امتداد جغرافي وطبيعي لمصر منذ الفتح الإسلامي سنة 23 هـ!، ولا يمكن السيطرة على البحر المتوسط ما لم تتحكم في طرابلس الغرب لأن ذلك يعني ببساطة أن جزءاً من المتوسط خارج هيمنة الدولة العلية العثمانية.
- هل يعقل أن درغوث كان بحضرة السلطان –وهذا ما يثبت أنه التقى به–ولم يخبره بعزمه على فتح طرابلس الغرب؟ وهو يعلم جيدا أن الحامية المالطية ليست بالقوة الكافية التي تقف في وجه الأسطول العثماني.

1– ابن غلبون الطرابلسي: المصدر السابق، ص94.

من غير المعقول أن سلطات الدولة العلية العثمانية تفكر في فتح تونس ولا تفكر في فتح طرابلس الغرب، وهي تعلم أنه يجب عليها إخضاع جميع الأراضي الإسلامية، تماشيا وما قامت به الدولتان الأموية والعباسية اللتان استطاعتا تأطير جميع أراضي بلاد المغرب الإسلامي.

قد يتساءل أي باحث لماذا نجح هذا الأمر مع المغرب الأوسط؟ نقول أن الإخوة بربروس كانوا أحرارا ولم يثبت قطعا تبعيتهم إلى سلاطين الدولة العثمانية قبل سنة 1516م، أما درغوث باشا فقد ثبت بالدليل القاطع أنه تابع للدولة العلية العثمانية في هذه الفترة، وإلا لماذا بعث السلطان بمدد لفتح طرابلس الغرب؟.

لم نعلم في هذه الفترة أن الأسطول الهمايوني كان يحاصر حلق الوادي لفتح تونس، حيث تأخر الفتح العثماني لها إلى غاية سنة 1574م وقائد الأسطول هو سنان باشا وليس علج علي.

ما يؤيد قولنا هذا ما ذهب إليه إتوري روسي في كتابه ليبيا منذ الفتح الإسلامي بقوله: «... **والواقع أن الحملة على طرابلس كانت مدبرة من القسطنطينية...».**[1]

وخلاصة القول أن سلاطين الدولة العلية خططوا بإحكام لفتح طرابلس الغرب وضمها لممتلكاتها، خاصة وأنها قريبة جدا من مصر، وفتحها يعني الاقتراب من فتح تونس، وهذا ما تحقق فعلا سنة 1574م.

4-سير الحملة.

بعد الاستعدادات السريعة والتخطيط المحكم من قبل السلطات العثمانية أعطى السلطان العثماني سليمان القانوني الضوء الأخضر لقادة الأسطول وعلى رأسهم سنان باشا بالتوجه إلى طرابلس الغرب لتحريرها نهائيا من قبضة فرسان القديس يوحنا، وكان انطلاق الأسطول يوم 7افريل 1551م واتجه أولا إلى صقلية التي وصلها يوم 16 جويلية، وفي طريقهم قرر قادة الأسطول مهاجمة قرية أوفوستا لتأكيد مرورهم و دليلا على قوة الأسطول العثماني[2]، وإنذار مباشر للسلطات الإسبانية التي كانت عاجزة على الرد نظرا لتشتت جيوشها بين العالم الجديد وإيطاليا وحروبها ضد الدولة العلية العثمانية في البلقان وتونس والجزائر .

واصل الأسطول العثماني سيره إلى إن وصل لمالطا وهاجم مدينة قوزو وأسر منها حوالي 6000 آلاف من سكانها أطفالا ونساء ورجالا[3]، كرسالة واضحة للمالطيين مفادها أن العثمانيين لم ينسوا لهم أنه منذ ثلاثين

1- إتوري روسي: المرجع السابق، ص208.

2- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص265.

3 - شارل فيرو: المرجع السابق، ص190.

سنة (عام1521م) قاموا بخيانة السلطان العثماني سليمان القانوني بعدما وقعوا معه معاهدة تقضي بعدم مهاجمة السفن التجارية العثمانية في مقابل الجلاء عن حصنهم آمنين في جزيرة رودس مع احتفاظهم بالشرف الحربي.[1]

بعد هذه الحملة الناجحة على مدينة قوزو تشجع درغوث باشا وسنان باشا بالتوجه إلى طرابلس الغرب لفرض الحصار عليها، وقد وصل الأسطول العثماني إليها يوم 5 أوت 1551م وضيّق عليها الخناق من كل الجهات، وعند وصول الأسطول إلى طرابلس الغرب كانت الحامية المالطية لا تزيد عن 30 فارسا و630 جنديا من المرتزقة الأوروبيين الذين قدموا من إيطاليا لنجدة فرسان مالطا، بالإضافة إلى بعض العملاء من العرب المتعاونين مع المالطيين[2]، فيما كانت قلعة طرابلس وحصن المندريق «mandarik» مجهزين بـ 36 مدفعا، بالإضافة إلى عدد كبير من القنابل رومانية الصنع، وصهاريج معدة للاشتعال لإلقاء كرات المنجنيق على المهاجمين للمدينة -لا يوجد غير المسلمين كأعداء- بالإضافة إلى المؤن والعديد من الأشياء الضرورية[3] التي وفرها فرسان مالطا لمثل هذه الأوضاع الطارئة، وذلك راجع لقلة عددهم لأنهم كانوا يتحصنون داخل المدينة في حالة الهجوم من الخارج، وهم أعداد قليلة جدا لا يمكنهم الصمود أمام الأسطول العثماني، الذي أتم جميع الاستعدادات لبدأ الهجوم وتحرير المدينة، وقد وضع القادة العثمانيون جميع الاحتمالات الممكنة التي قد تعترض سبيلهم في الوصول إلى هدفهم المنشود الذي جاءوا من أجله، ولم ينقص إلا إعطاء إشارة انطلاق الهجوم.

ونظرا لتأكد المرشد العام لفرسان مالطا جيوفاني دي ميدتشي من استحالة الوقوف في وجه القوات العثمانية استغل وجود السفير الفرنسي لدى الدولة العلية حين مروره بمالطا متجها إلى استانبول لمباشرة مهامه وترجاه وطلب منه التوسط لدى سنان باشا وإقناعه بالعدول عن الهجوم على طرابلس الغرب، وبعد عرض الفكرة على سنان باشا رفضها جملة وتفصيلا طالبا من السفير الفرنسي عدم التدخل في هذا الأمر وإقحام نفسه في متاهات لا يمكنه الخروج منها بسهولة، خاصة وأن العثمانيين يكنون لهذا السفير كل الاحترام والتقدير[4]، وهكذا هم القادة الحقيقيون الذين يسعون إل تحقيق أهدافهم مهما كانت العقبات والإغراءات، مفضلين مصالح المسلمين وبلدانهم فوق كل اعتبار.

ويمكننا إرجاع أسباب رفض سنان باشا لعرض السفير الفرنسي إلى:

1- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص68.

2- حسين مؤنس: المرجع السابق، ص438.

3 - شارل فيرو: المرجع السابق، ص91.

4- إتوري روسي: المرجع السابق، ص209.

- تشبع سنان باشا بمبادئ الدين الإسلامي الداعي للجهاد وجعل كلمة الله في الأرض هي العليا، خاصة وأن هذه الأرض أرض إسلامية يجب تحريرها.
- الإخلاص التام الذي يكنه سنان باشا للسلطان العثماني حتم عليه عدم مخالفة أوامر سليمان القانوني الذي طلب منه فتح طرابلس وضمها لأملاك الدولة العلية العثمانية.
- الكره الذي يكنه قادة الأسطول العثماني لفرسان القديس يوحنا بعد خيانتهم سنة 1522م بعد فتح جزيرة رودس، لأنهم تعهدوا للسلطان العثماني بعدم مهاجمة السفن التجارية العثمانية إلا أنهم نقضوا الوعد ونكصوا على أعقابهم وخانوا سليمان القانوني، وأكثر من ذلك سيطروا على طرابلس الغرب، لذلك ولما جاءت الفرصة لسنان باشا أراد أن ينتقم منهم ويرد لهم الصاع صاعين.
- الأهداف العامة للدولة العلية كانت تأطير كامل جغرافية العالم الإسلامي الذي كان بيد الأمويين ثم من بعدهم العباسيين، وطرابلس الغرب تعتبر بوابة المغرب الإسلامي، فكيف يمكن التفريط في فرصة كهذه وعدم استغلالها.
- استغلال فرصة قلة عدد حامية المالطيين وتشتت جهود الإسبان بين القارة الأوروبية والجزائر وتونس لتحرير طرابلس الغرب نهائيا، ومن ثم محاصرة الإسبان بتونس شرقا وغربا.
- ربما تأكد سنان باشا أن السفير الفرنسي مهما كانت نواياه اتجاه الدولة العثمانية فإنه دائما في خدمة المسيحيين مهما كانت اختلافاتهم الداخلية فالأعداء دائما هم المسلمون، خاصة وأن الفرنسيين والإسبان والمالطيين لهم نفس المذهب الكاثوليكي، وقد علمنا التاريخ أن المصالح المسيحية تلتقي عندما يكون العدو مسلم.
- قطع الطريق على السفير الفرنسي الذي أراد أن ينقذ فرسان مالطا من الهجوم العثماني وفي نفس الوقت إبقاء طرابلس تحت سيطرة المسيحيين.
- عدم إتاحة الفرصة للسفير الفرنسي لتحقيق مجدٍ شخصي أو قومي يحسب له عند المسيحيين على حساب المسلمين وأراضيهم.
- تحقيق مجد شخصي لسنان باشا يحسب له وللدولة العلية العثمانية يبقى يذكر عبر التاريخ؛ لأنه لم يخضع للضغوطات ولم يفرط في فتح طرابلس الغرب بالرغم من الإغراءات التي تعرض لها.

بتاريخ 8 أوت1551م أكمل وأحكم الأسطول العثماني الحصار عليها برا وبحرا واستطاع غلق جميع المنافذ المؤدية من وإلى طرابلس، بالإضافة إلى السيطرة على منابع المياه[1]، وهي خطة تنم عن حنكة وعبقرية قادة الأسطول العثماني الذين أرادوا عدم ترك أي فرصة للنجاة قد يستغلها فرسان القديس يوحنا، وقبل بداية الهجوم بدأ سنان باشا في التنسيق مع مراد آغا بتاجوراء[2] والذي جاء لمساعدة القوات العثمانية لإحكام الحصار يرافقه 200 فارس و600 من المشاة المنتمين إلى القبائل العربية[3] وفي نفس اليوم بدأ الهجوم العثماني على طرابلس من جهة البر لاستحالة ذلك من جهة البحر لأن مدفعية حصن كاستليو «castellajo»كانت تمنع تقدم السفن العثمانية، ومع ذلك كان الهجوم شديدا وقويا ومثمرا تكبد فيه الطرفان خسائر مادية وبشرية فادحة خاصة فرسان مالطا الذين قاوموا ببسالة نادرة على قلة عددهم بالمقارنة مع العثمانيين، الذين أحدثوا أضرار بليغة بسور القلعة وبذلك أصبح سقوط المدينة بيدهم وشيكا.[4]

استمر الحصار والقصف العثماني عدة أيام، لذلك حاول قائد فرسان مالطا الاستنجاد بالمرشد الأكبر جيوفاني دي مديتشي لتقديم يد العون لجنوده المحاصرين وإنقاذ طرابلس من السقوط الوشيك بيد العثمانيين، إلا أنه لم يقدم لهم إلا معونة قليلة جدا[5] لم تكن كافية لإنقاذهم من الحصار والعطش وقلة المؤونة ونفاذ الذخيرة الحربية، زاد الوضع تأزما تكبدهم خسائر فادحة في الأرواح والعتاد الحربي، وما زاد الطين بلة إعلان الطرابلسيين لثورة داخلية ضد المالطيين، كان لها لأثر السيئ على نفسية الجنود الذين انهارت معنوياتهم نتيجة إحساسهم بالخذلان من طرف مرشدهم الأكبر وطول مدة الحصار، بالإضافة إلى ذلك بعد نظر العثمانيين عندما قاموا بجميع الاستعدادات لعملية التحرير وكسب المؤيدين لهم من السكان المحليين وتجنيدهم خلف جبهة متماسكة ومتحالفة وموحدة وقوية.[6]

5-مفاوضات الاستسلام.

بعد اشتداد الحصار وانهيار معنويات الجنود المالطيين قرر جاسبارو دي ڤاليز الاجتماع بالمجلس الحربي والتشاور معه في كيفية الخروج من هذا المأزق، وبعد مشاورات خرجوا بقرار الاستسلام وتسليم المدينة للعثمانيين في مقابل بعض الشروط التي نذكر منها:

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص98

2- محمد خليفة التليسي: المرجع السابق، ص77.

3- شارل فيرو: المرجع السابق، ص209.

4- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 209.

5- حسين مؤنس: المرجع السابق، ص438.

6- إتوري روسي: المرجع السابق، ص210.

- ترك حرية الخروج للجنود سالمين من طرابلس ليتوجهوا إلى البلدان المسيحية.[1]
- ترك الأسلحة في مقابل خروج الجنود المتبقين وعددهم 300 جندي سالمين.[2]

ليعاود السفير الفرنسي التدخل لحفظ ماء وجه المسيحيين، حيث طلب من سنان باشا السماح للجنود المالطيين بالركوب في سفينة فرنسية مقابل استسلامهم فورا، وقد قبل سنان باشا هذا الشرط.[3]

في يوم11شعبان 958هـ/14 أوت 1551م فتحت المدينة أبوابها للعثمانيين الذين دخلوها لأول مرة معلنين ضمها لممتلكات الدولة العلية وانتصارهم على فرسان مالطا وإسبانيا، وتم أسر الجنود المرتزقة، أما الخونة من السكان المحليين فقد تم تنفيذ القصاص في حقهم بالقتل، فيما استطاع البعض الآخر الفرار إلى سلطان تونس والاستنجاد به[4]، وهكذا دانت طرابلس الغرب للعثمانيين بعد حصار محكم ومعارك عنيفة امتدت لمدة ستة أيام متتالية وفي ذلك يقول ابن غلبون الطرابلسي: «... **وحاصروها برا وبحرا، فأخذوها عنوة وقيل طلب أهلها الأمان لأنفسهم، فأجابوهم لذلك وخرجوا عنها...»**.[5]

استطاع العثمانيون بقيادة سنان باشا ودرغوث باشا تحرير طرابلس الغرب من احتلال فرسان مالطا الذين لم يستطيعوا الصمود في وجه العثمانيين نظرا للفرق الشاسع في القوة العسكرية بين الطرفين، لأن العثمانيين طبقوا خطة استراتيجية محكمة أساسها إنهاك الخصم بالحصار والمعارك المتتالية، واستخدام أسلوب القذف بالمدفعية الذي أتى أكله بتحطيم سور القلعة مما سهل عليهم الدخول لطرابلس، بالإضافة إلى منع منابع الماء على العدو في لحظة احتياجه الشديد إليه، زد على ذلك انتفاضة بعض السكان ضد التواجد المالطي الإسباني؛ أو ما يسمى بإحداث الفوضى الداخلية لإنهاك قوى العدو المنهكة أصلا جراء طول الحصار وكثرة المعارك، وهي كلها عوامل ساعدت في انتصار العثمانيين الذين زادت ممتلكاتهم بهذا النصر المبين، وبذلك تأسست رسميا الإيالة الطرابلسية بعد الإيالة الجزائرية سنة 1520م ولم تبق إلا البلاد التونسية .

6-نتائج الفتح العثماني لطرابلس الغرب.

- يعتبر هذا الانتصار إنجازا عظيما للدولة العثمانية، التي استطاعت أن تؤمن ميناء يربط البحر الأبيض المتوسط بإفريقيا جنوب الصحراء بالإضافة إلى ربط طرابلس بالمغرب الأقصى والجهة الغربية من الجزائر،

1- عبد الجليل التميمي، المرجع السابق، ص77.
2- حسين مؤنس: المرجع السابق، ص438.
3- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص68.
4- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 211.
5- ابن غلبون الطرابلسي: المصدر السابق، ص94.

لأنه يعتبر الطريق الرئيسي باتجاه مكة والمدينة، وهو أيضا معبر للقوافل التجارية من الغرب إلى الشرق والعكس.[1]

- تضييق الخناق على الإسبان بتونس، ووضع قواتهم داخل حلقة مغلقة تحيط بها قوات الدولة العلية من جهتين، شرقا طرابلس الغرب وغربا إيالة الجزائر، وبذلك أصبح تحرير تونس في حكم مؤكد ولم يكن إلا مسألة وقت فقط.
- اتساع أملاك الدولة العلية العثمانية في المتوسط، فقد استطاع العثمانيون تحرير كامل الأراضي الإسلامية التي كانت تحت سيطرة الأمويين والعباسيين باستثناء تونس والمغرب الأقصى والأندلس، بل أكثر من ذلك أن هذه الدولة استطاعت ضم العديد من الأراضي داخل القارة الأوربية التي لم يصل إليها لا الأمويون ولا العباسيون، وبذلك لم تصل أي دولة إسلامية سابقة إلى ما وصلت إليه الدولة العلية العثمانية في فتوحاتها.
- خسر فرسان القديس يوحنا حوالي 300 قتيل بالإضافة إلى 200 قتيل من العرب المتعاونين معه.[2]
- تبادل الاتهامات بين دي فاليز والمرشد الأكبر يوحنا الأوميدي، لأن كل واحد منهما حمل المسؤولية للأخر في ضياع طرابلس الغرب، فقد اتهم دي فاليز المرشد الأكبر بالتفريط وعدم تقديم المساعدة لقواته ومدهم بالذخائر الحربية، فيما اتهم المرشد الأكبر دي فاليز بالخيانة والتفريط.
- لعبت الدبلوماسية الفرنسية دورا بارزا في إنقاذ الفرسان المالطيين، فقد استطاع السفير الفرنسي التوسط لدي سنان باشا وإطلاق سراح 200 جندي أسير، فقد بادر أولا بإطلاق سراح 20 منهم في مقابل إطلاق سراح 30 بحارا عثمانيا محتجزين في مالطا، وكان أغلب الذين أطلق سراحهم من الإسبان والصقليين.[3]
- بالرغم من تظاهر السلطات الفرنسية بالتحالف مع العثمانيين إلا أن الكثير من جنودها شارك إلى جانب فرسان مالطا في معاركهم ضد العثمانيين وهذا ما نستشفه من قول شارل فيرو: «...**وفي تلك الأثناء كان الفارس الفرنسي دي روش أمير برج المندريق الصغير القائم عند مدخل الميناء مستمرا في المقاومة مع 30 جنديا العاملين تحت إمرته الذي كان رأيه مواصلة القتال بالرغم من الاحتجاجات القوية التي نطق بها الفارس الفرنسي بوازيو« poisieuex»**...».

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 97.

2- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص69.

3- شارل فيرو: المرجع السابق، ص ص 95، 98.

- أُستقبل السفير الفرنسي استقبالا حارا من طرف السلطات المالطية نظير الخدمات الجليلة التي قدمها لهم، فقد أنقذ جنودهم من القتل والأسر على يد العثمانيين، إلا أنه تناهى إلى مسامعه أنه كان سببا في ضياع طرابلس الغرب حيث حاول تبرير موقفه أمام هيئة الفرسان، التي استطاع إقناعها على حساب المرشد الأكبر الذي اتهمه بذلك، ثم نقل ذلك إلى الملك هنري الثاني الذي طالب بإسقاط تلك الأكاذيب ورد الاعتبار للفرنسيين ممثلين في سفيرهم، وهو ما حدث بتاريخ 30 سبتمبر 1551م.[1]
- أقام العثمانيون الأفراح احتفالا بهذا النصر المبين بتاريخ 16 أوت 1551م عند الخندق المقابل لبقية القلعة في الجهة الشرقية منها، وقد شارك في هذا الاحتفال الضخم سفير فرنسا دارا مون* بدعوة من سنان باشا.[2]
- تعيين مراد أغا حاكما على طرابلس الغرب (1551–1556م)، الذي أعاد للمدينة مكانتها الاستراتيجية والتجارية والأمن والاستقرار، وقام بتنظيم قوة مسلحة وبناء أبراج وتحصين المدينة مخافة من إعادة احتلالها من طرف فرسان مالطا أو إسبانيا[3].
- عودة الأسطول العثماني إلى إستانبول محملا بعدد كبير من الأسرى وكثيرا من الغنائم الوفيرة[4]، أين استقبل بحفاوة كبيرة من طرف سلطات الدولة العلية.
- تم نهائيا إنهاء الاحتلال المالطي الإسباني لطرابلس الغرب، وبذلك أصبحت إيالة عثمانية تابعة للإيالة الجزائرية وتحت إشراف حكامها مباشرة، وكان ذلك بداية لمشروع وحدة بلاد المغرب الإسلامي، ومع ذلك حاول المالطيون استرجاعها، فقد وجهوا حملة عسكرية إلى مدينة زوارة القريبة من مدينة طرابلس سنة 1552م، إلا أنها منيت بالفشل.

حاول المالطيون الانتقام من العثمانيين والطرابلسيين بكل الوسائل والطرق؛ فبمجرد سماعهم بالحملة التي يرغب زعماء الدول المسيحية المتحالفة القيام بها من أجل احتلال مدينة طرابلس الغرب سنة 1560م، حتى قرروا

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص99.

* – هكذا هي دائماً ازدواجية الفرنسيين في التعامل؛ فتارة يحتفلون مع العثمانيين وتارة أخري يتعاطفون مع بني جلدتهم وهذه هي حقيقتهم الراسخة في خدمة الأمة المسيحية عبر التاريخ، وهذا ما نلاحظه في تعامل قادتهم في جميع المواقف خاصة مع الإيالة الجزائرية، وبعد حضوره الاحتفال يذهب السفير الفرنسي لتبرير مواقفه أمام هيئة فرسان مالطا.

2- إتوري روسي: المرجع السابق، ص211.

3- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 107.

4- إتوري روسي: المرجع السابق، ص211.

المشاركة فيها، لعلهم يسترجعون هذه البلاد التي ضاعت منهم سابقا، إلا أن أحلامهم ذهبت أدراج الرياح لأن هذا التحالف مُني بهزيمة نكراء على أرض جزيرة جربة.[1]

المبحث الثاني: تأسيس إيالة طرابلس الغرب.

1-مراحل تأسيس الإيالة الطرابلسية.

من السذاجة أن نعتبر تأسيس إيالة طرابلس الغرب كان سنة 1551م، لأن الوقائع التاريخية أثبتت أن عملية التأسيس لم تكن بعد تحرير طرابلس من الاحتلال المالطي سنة 1551م، بل بالعكس أن هذا التأسيس جاء نتيجة لعدة تراكمات وأحداث تاريخية كانت ثمرتها الأخيرة سنة 1551م، وقد مر تأسيس إيالة طرابلس الغرب بمرحلتين أساسيتين هما:

1-1-المرحلة الأولى: مرحلة الإرهاصات 916-957هـ/ 1510- 1550م.

يرتبط التواجد العثماني ببلاد المغرب الإسلامي ارتباطا وثيقا بقضية الأندلس، خاصة ونحن نعلم أن سكانها استنجدوا بالسلطان العثماني بايزيد الأول وطلبوا منه التدخل لإنقاذهم وحمايتهم من البطش الإسباني قبل سقوط غرناطة[2]، لذلك أرسل كمال رئيس على رأس قوة بحرية عثمانية إلى الشواطئ الإسبانية سنة 1480م، فقام بالعديد من الهجمات على السواحل الأوربية؛ الإسبانية، الإيطالية، جنوب فرنسا، سردينيا، كورسيكا ومالطا وقام بنقل أولى أفواج المهاجرين المسلمين واليهود إلى إستانبول.[3]

واصل كمال رئيس رفقة بيري رئيس هجماتهما على سواحل إسبانيا سنة 916هـ/ 1510م، وكان يتخذ من جزيرة جربة قاعدة عسكرية لانطلاق حملاته والهجوم على الأهداف المسيحية، سواء داخل الأراضي الأوروبية أو حتى داخل أراضي بلاد المغرب ذاتها مثل عنابة وبجاية[4]، وهذا يدل على أن كمال رئيس كان السباق في التواجد قبل عروج وخير الدين وإسحاق ببلاد المغرب وكان نشاط هؤلاء الإخوة امتدادا لنشاط كمال رئيس وبيري رئيس.

1- إتوري روسي: المرجع السابق، ص211.

2 - للاستزادة حول موضوع استنجاد الأندلسيين بالسلطان العثماني بايزيد الأول ينظر، عبد الجليل التميمي: رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني...، المرجع السابق.

3- محمد دراج: الدخول العثماني ... المرجع السابق، ص176؛ عبد الجليل التميمي: الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين... المرجع السابق، ص191؛ نيقولاي إيفانوف: المرجع السابق، ص ص 95، 96.

4- محمد دراج: المرجع السابق، ص 177.

الملاحظ أن العديد من المراجع لم تتطرق بتاتا لقضية تواجد كمال رئيس وبيري رئيس بطرابلس الغرب ما بين سنوات 1507-1508م[1]، وهذا الأمر الذي أورده إتوري روسي لا نستغربه لأن جزيرة جربة لا تبعد كثيرا عن طرابلس الغرب، زد على ذلك أن هذه الأخيرة لم تكن محتلة من طرف الإسبان وفي نفس الوقت خارجة عن نطاق سيطرة السلطان الحفصي، وكانت تشكل شبه إمارة مستقلة بذاتها وخارجة عن كل سيطرة، بالإضافة إلى أن السلاطين الحفصيين في هذه المرحلة لم تكن لديهم أي معارضة لتواجد البحارة العثمانيين؛ شريطة عدم المساس بمصالحهم أو تهديد عرشهم.

كان أول اتصال بين البحارة العثمانيين والسكان المحليين كان في وقت مبكر على عكس المغرب الأوسط وتونس، لأن السكان طلبوا من كمال رئيس اختيار حاكما من عنده ليدير شؤون مدينة طرابلس الغرب، مع العلم أن كمال رئيس كان متواجدا بهذه المدينة منذ سنة 1510م[2].

لذلك نستطيع القول أن التواجد العثماني كان بطرابلس الغرب قبل سائر بلاد المغرب لعدة معطيات منها:

- تعتبر طرابلس الغرب بوابة بلاد المغرب لقربها من مصر.
- مثلت بالنسبة للعثمانيين الطريق الرئيسي للجهة الغربية للمتوسط، خاصة نحو الأهداف الإسبانية بحكم التواجد الأندلسي والعداء الموجود بين المسلمين والمسيحيين في ذلك الوقت.
- عدم وجود سلطة حقيقية بطرابلس تدافع عنها جعلها عرضة للهجمات الخارجية، خاصة وأن السلطة الحفصية كانت ضعيفة في هذه الفترة.

يمكن أن يكون تواجد كمال رئيس في طرابلس الغرب قد تم عرضا ولم يكن مبرمجا له، إلا أن شخصيته المحبوبة لدى السكان المحليين وشهرته الواسعة التي اكتسبها من خلال مساعدة وإنقاذ الأندلسيين من بطش الإسبان، بالإضافة إلى علاقاته الحسنة مع سلطان تونس، كلها عوامل ساعدته على التواجد بهذه البلاد خلال هذه الفترة المبكرة نوعا ما.

كانت القواعد الرئيسية لنشاط البحارة العثمانيين تمتد على الساحل الشمالي لبلاد المغرب كطرابلس، جربة، بجاية، مدينة الجزائر، تنس، وهران والمرسى الكبير.[3]

---

1 - إتوري روسي: المرجع السابق، ص 212.

2- المرجع نفسه: ص149.

3- نيقولاي إيفانوف: المرجع السابق، ص ص 95، 96.

ولذلك ومن وجهة نظرنا وبالرغم من عدم ذكر المراجع رواية الاتصال الأول بالطرابلسيين، إلا أن رواية إتوري روسي تؤيدها رواية محمد دراج وهما مكملتان لبعضهما البعض لأنهما أثبتتا تواجد كمال رئيس مبكرا ببلاد المغرب خاصة وأن طرابلس الغرب وجزيرة جربة قريبتان جدا من بعضهما البعض، ويعتبران امتدادا جغرافيا واحدا خاضعا للسلطة الحفصية، حتى ولو كان هذا الخضوع اسميا فقط، وقد ذهبت بعض الروايات أن كمال رئيس وبيري رئيس كانا يساهمان في حل بعض المشاكل المحلية* التي تحدث بين سكان المناطق المتواجدين بها.[1]

وقد قام الطرابلسيون بالعديد من السفارات باتجاه إستانبول رغبة منهم في موافقة السلاطين العثمانيين قبول انضمام بلادهم إلى الدولة العلية العثمانية، ومن أهم هذه السفارات نذكر:

1-2-السفارة الأولى سنة 926هـ/1520م.

امتدادا لمحاولة سكان طرابلس الغرب الاستنجاد بالعثمانيين، خصوصا بعد تأسيس إيالة الجزائر سنة 1520م بعد قبول طلب وفد أعيان مدينة الجزائر من طرف السلطان العثماني سليم الأول، ولما سمع سكان طرابلس الغرب بذلك أرسلوا وفدا عنهم إلى الدولة العلية العثمانية طالبين من سلطانها سليمان القانوني نجدتهم وإنقاذهم مما هم فيه من ضنك العيش والذل والهوان تحت سلطة الاحتلال الإسباني، وكان على رأس هذا الوفد جماعة من أعيان تاجوراء – التي كانت خارج سيطرة الإسبان– لشرح أوضاعهم للسلطان العثماني كي يقدم المساعدة لهم ويمدهم بقوة عسكرية لتحرير طرابلس، وهذا ما يؤكده لنا أحمد بك النائب الأنصاري بقوله: **«...ولما تفاقم الخطب على أهل طرابلس واستفحل أمر ما نزل بهم من فتنة الإسبانيول ومغالبتهم على حاميتها وطلوعهم على أهل بسوم الخسف، انتدب جماعة من أهلها سكنتة تاجوراء ووفد وفدهم إلى دار السعادة العلية مستنجدين بالخلافة الإسلامية وكان ذلك سنة – 926هـ– ست وعشرين وتسعمائة...».**[2]

وهذه السفارة لإستانبول لم تذكر لنا المصادر والمراجع ماهي الأهداف التي حققتها، وماهي الوعود التي أعطيت لوفد تاجوراء؟ الذي ذهب نيابة عن كامل سكان بلاد طرابلس الغرب، وعلى عكس سفارة وفد مدينة الجزائر الذي وافق السلطان العثماني سليم الأول على مطالبه بالانضمام للدولة العلية وتعيين خير الدين بايلرباي على البلاد، لم تذكر لنا المصادر هل قدم السلطان العثماني المعونة لأهل طرابلس أم لا؟ إلا أن الثابت عندنا أن

* – مع أننا لا نعرف نوعية هذه المشاكل؛ أهي سياسية أم عسكرية أم اجتماعية...، وقد ذكر الأستاذ محمد دارج أن هذا التواجد كان في كامل سواحل بلاد المغرب، مع العلم أن بلاد المغرب لم تكن مؤطرة من طرف البحارة العثمانيين الذين كان تواجدهم شكليا فقط، ولم تكن لهم على بلاد المغرب أي سلطة حقيقية مهما كانت، لأن في كل منطقة لها سلطة محلية تدير شؤونها.

1– محمد دراج: المرجع السابق، ص 177.

2– أحمد بك النائب الأنصاري: المصدر السابق، ص 186.

السلطان العثماني تأثر لحالهم وعزم على إعانتهم ونجدتهم[1]، وتعتبر هذه السفارة أول اتصال رسمي مباشر بين الدولة العلية وأهل طرابلس الغرب، لأن الاتصال الأول مع كمال رئيس لم يكن اتصالا رسميا؛ باعتبار هذا الأخير لم يكن ممثلا رسميا للدولة العلية بطرابلس.

1-3-السفارة الثانية سنة 1530م.

تعتبر هذه السفارة الثانية من أهل تاجوراء إلى استانبول طلبا لمساعدة السلطان العثماني سليمان القانوني مباشرة بعد احتلال فرسان مالطا لبلادهم، وعندما وصل هذا الوفد إلي القسطنطينية تعجب سكانها من لباسهم وأشكالهم، فسألوهم عن المكان الذي قدموا منه، فأجابهم أعضاء الوفد أنهم قدموا من طرابلس الغرب طلبا لمساعدة السلطان سليمان القانوني، الذي بادر باستقبالهم بحفاوة وأصغى إلى مطالبهم، وكان مراد أغا يجيد اللغة العربية، لذلك كان الواسطة بين السلطان والوفد الطرابلسي، وقد أعاد السلطان الوفد صحبة مراد أغا بنفسه الذي حل بطرابلس وأعترف به حاكما على سكان غريان سنة 952هـ (1545- 1546م).[2]

هذه الرواية انفرد بها إتوري روسي، إلا أنه لدينا بعض الملاحظات حولها:

- مراد أغا كان مقربا من السلطان ويعمل داخل القصر؛ وإلا بماذا نفسر أنه كان الواسطة بين الوفد الطرابلسي والسلطان.
- الثقة التي كان يحظى بها مراد أغا لدى السلطان، لذلك فُوض له نقل مطالب الوفد إليه، وهي مسؤولية لا يحظى بها إلا المقربين.

اهتمام السلطان بالوفود المغاربية التي تطلب المساعدة وتلبية مطالبهم خاصة وأن أهالي الجزائر كانوا قد طلبوا المساعدة من سلفه سليم الأول ووافق، لذلك لا نتصور أن يرفض طلبهم تحقيقا لمجد يحسب له، لكن ما يمكننا قوله، حول بقية الأحداث أن إتوري روسي حدث له تناقص كبير جدا في روايته هذه، فابتداء قال أن الوفد قدم إلى القسطنطينية عبر البحر سنة (936هـ/1530م) طلبا لنجدة السلطان، حيث يقول: «... **قدم وفد من تاجوراء بالسفر عن طريق البحر إلى القسطنطينية سنة 936هـ (1529- 1530م) طلبا لنجدة السلطان ومساعدته**...»[3]، ولعله في هذه الجزئية كان محقا، إلا أنه عندما تعلق الأمر بتعيين مراد أغا تناقض كثيرا حيث

1- أحمد بك النائب الأنصاري: المصدر السابق، ص 187.
2- إتوري روسي: المرجع السابق، ص ص 198، 199.
3- راسم رشدي: المرجع السابق، ص88.

قال: «... **وقد أعاد السلطان الوفد صحبة مراد أغا نفسه والذي حل بطرابلس واعترف به زعيما، أو رئيسا على سكان غريان سنة 952هـ (1545–1546م)**...» وهناك تناقض صارخ في هذه الرواية من عدة أوجه:

- هل يعقل أن الوفد بقي في إستانبول لمدة 15سنة؟
- ماذا بقي هذا الوفد يعمل بإستانبول وبلاده محتلة ولو قال في تاجوراء لربما كان محقا في ذلك؟

خالف كل الروايات التاريخية التي تقول أن مراد أغا قدم إلى طرابلس الغرب سنة 1545م، ولم تكن سفارة 1530م هي التي تم تعيينه فيها، فهو اتفق مع الرواية الثانية فقط، لذلك نرجح أن الكاتب اختلط عليه الأمر، ونقل أشياء عن المؤرخين العرب لم يتحقق منها، ولذلك ممكن أن تكون هذه السفارة بعد احتلال فرسان مالطا لطرابلس وهو حدث فعلا يستحق الاستنجاد بالسلطان العثماني أما هذه السفارة فلم يتم فيها تعيين مراد أغا بل سفارة أخرى من طرف وفد تاجوراء.

وبالعودة إلى العياشي في رحلته وابن غلبون والنائب بك الأنصاري يمكننا نوضح ذلك بدل الذين نقل عنهم إتوري روسي.

أن ابن غلبون ذكر أن مراد أغا كان تعيينه سنة 952هـ/1545م.

النائب بك الأنصاري: وقع في الخلط أيضا فهو يقول أن الوفد سافر في سنة 926هـ/1520م، ثم يقول أن سليمان خان عين عليهم مراد أغا بدون ذكر تاريخ محدد، فقط يقول في عهد سليمان خان.

العياشي يقول: خير الدين كيرمان كان حاكم على تاجوراء سنة 1534م.

من خلال ما سبق يمكن القول أن المقصود برواية إتوري روسي هي سفارة مستقلة ذهبت سنة 1530م، وليس سفارة 1545م التي تم على إثرها تعيين مراد أغا حاكما على تاجوراء وجنزور وما حولهما.

1-4-السفارة الثالثة 942هـ/1535م.

لم تنقطع السفارات الطرابلسية عن الدولة العلية أملا في تلقي المساعدة لتحرير بلادهم من ظلم فرسان القديس يوحنا، لذلك كانت سفارة أخرى في حدود سنة 1536م من طرف سكان تاجوراء، الذين عرضوا على السلطان أحوالهم ومصابهم الجلل وأوضاعهم المزرية وما حل بهم على يد الاحتلال، فأكرمهم السلطان وردهم إلى بلادهم برفقة مراد أغا مع قلة من الإنكشارية.[1]

وهذا رواية أخرى انفرد بها محمد خير فارس حيث ذكر أن السفارة تمت سنة 1536م، وربما تكون سفارة أخرى تمت في هذه السنة، وقد يكون مراد أغا تم تعينه من طرف السلطان على تاجوراء كممثلا له، إلا أن

1- محمد خير فارس: المرجع السابق، ص ص159، 160.

الواضح أن هذه السفارة لم تكن هي التي تم على إثرها تعين فيها مراد أغا، وأن هذا الأخير كان لا يمثل الدولة العلية بل مستقلا بذاته خلال هذه الفترة لأن خير الدين كيرمان كان حيا في سنة 1536م وهو الذي كان حاكما على تاجوراء وما حولها.

1-5-السفارة الرابعة سنة 942هـ/1545م.

هذه آخر سفارة قبل الانضمام الرسمي، حيث تم تعين مراد أغا رسميا ممثلا للدولة العلية باسم السلطان سليمان القانوني، والذي أمده بفرقة من الإنكشارية لتدعيم الحكم العثماني هناك؛ وقد كان هذا التعيين على الأراضي المحررة فقط، على اعتبار أن العديد من أراضي طرابلس كانت لازالت تحت سيطرة فرسان القديس يوحنا، وتكاد تجمع المصادر والمراجع على أن مراد أغا تم تعينه ما بين سنوات 1544-1545م.[1]

من خلال تتبعنا لمسار الأحداث السابقة يمكننا إبداء بعض الملاحظات:

- أن كل السفارات باتجاه إستانبول كانت من طرف سكان تاجوراء، الحريصين جدا على طرد الإسبان وفرسان مالطا من بلادهم، لذلك كانوا في كل مرة يستنجدون بالسلطان العثماني.
- أن مراد أغا تم تعينه كحاكم لبعض أراضي طرابلس الغرب. مثل؛ تاجوراء، غريان وما حولها في حدود سنة (1544–1545م) لأن المصادر لم تضبط التاريخ جيدا وبصفة دقيقة.
- قد يكون مراد أغا متواجدا بالأراضي الطرابلسية بصفة بحار حر، لم يكن يخضع لتوجيهات السلطان العثماني.

وهناك رواية لإتوري روسي تثبت بما لا مجال لشك أن مراد أغا كان في أسطول خير الدين الذي أغار على إيطاليا سنة 1539م، وفي ذلك يقول: «...**أنه في سنة 1539م أغار بربروس على المياه الإيطالية، وأن مراد أغا نائبه (كاهيته) قد استحثه وألح عليه في القيام بالاستيلاء على طرابلس**...».[2]

قبل سنة 1539م، لم يكن مراد أغا يشغل أي منصب رسميا بتاجوراء لصالح الدولة العلية، بل كان بحارا حرا ثم انضم إلى الأسطول العثماني، وإلا بماذا نفسر طلبه من خير الدين أن يقوم بغزو طرابلس وتحريرها ولا يطلب ذلك من السلطان سليمان القانوني؟

- الحرص الكبير لسكان طرابلس على تحرير بلادهم.
- حرص السلطان العثماني على تقديم المساعدة للطرابلسيين لولا بعض المشاكل داخل القارة الأوروبية.

1- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 93؛ النائب بك أحمد الأنصاري: المصدر السابق، ص 186.

2- إتوري روسي: المرجع السابق، ص199.

2-المرحلة الثانية: الانضمام الرسمي سنة958هـ/ 1551م.

على عكس الجزائر التي لم يستغرق انضمامها للدولة العلية أكثر من ثماني سنوات فإن طرابلس الغرب استغرق حوالي أربعين سنة لعدة اعتبارات منها:

- لم تكن طرابلس بذات الأهمية عند العثمانيين كما هو الحال بالنسبة الجزائر، حتى وإن كانت قريبة من مصر.
- لعب وجود خير الدين وعروج بحلق الوادي بتونس دورا بارزا في تأسيس الجزائر على عكس طرابلس التي كانت بعيدة عن اهتمامهم، ربما ابتداء لأنها تابعة لسلطان تونس الذي كان معهما في وفاق.
- كان العثمانيون يريدون استعادة الأندلس لذلك كانت الجزائر الأقرب جغرافيا لتحقيق هذه الرغبة من طرابلس الغرب.
- لعب الأندلسيون دورا هاما وبارزا في توجيه السياسة العثمانية في المتوسط بداية القرن 16م حيث كانوا يريدون العودة إلى بلادهم عبر الجزائر.
- تمركز الأخوة بربروس بالجهة الغربية للبحر الأبيض المتوسط وترحيب السكان بهم لعب دورا في استقرارهم بالجزائر.
- الجزائر كانت مركزا للجهاد البحري خاصة جيجل سنة 1512م فيما لم يستطع البحارة الاستقرار بطرابلس الغرب لقربها من سكان مالطا والدويلات الإيطالية.
- حماس سكان الجزائر لعب دورا بارزا في استقرار الإخوة بربروس على عكس سكان طرابلس الغرب، حيث لم ينتفض سكانها داخليا ضد الإسبان وفرسان مالطا إلى غاية النجدة العثمانية على عكس الجزائريين الذين حرروا بلادهم بمساعدة لإخوة بربروس وبدون مساعدة الدولة العلية.

هي كلها أسباب أخّرت انضمام طرابلس الغرب للدولة العلية العثمانية.

يعتبر مراد أغا أول حاكم في طرابلس الغرب يمثل السلطان العثماني، إلا أنه كان في تاجوراء وغريان إلى غاية تحرير طرابلس الغرب نهائيا في أوت 1551م حيث أصبح يتبع الحاكم الجزائري وليس مستقلا مثل الإيالة الجزائرية، وقد لعب مراد أغا دورا مهما في إعادة إعمار طرابلس الغرب واستقرارها منذ تعينه.

لكن الملاحظ أن تعيينه كان من طرف سنان باشا قائد الأسطول بتوصية من السلطان العثماني[1]، وليس بفرمان سلطاني مثلما يحدث مع حكام الإيالة الجزائرية، ويمكننا إرجاع سبب تعين مراد أغا على حساب درغوث باشا لعدة أسباب نذكر منها:

- معرفته بالمنطقة لأنه سبق له وأن تم تعينه حاكما على تاجوراء لمدة فاقت 10سنوات.
- قربه من سنان باشا جعل هذا الأخير يعطي له الحق والأولوية في حكم طرابلس الغرب.
- طول مدته في مقاومة الإسبان شفعت له عند سنان باشا، لذلك كان تعينه جزاء له عن مجهوداته في مقاومة الإسبان.
- تخوف سنان باشا من طموحات درغوث باشا جعله يرفض تعينه على طرابلس الغرب، وتعيين مراد أغا بدله.
- شخصيته المحبوبة خاصة لدى سكان تاجوراء وغريال وغيرهما، وقربه من السكان المحليين أهله لهذا المنصب وجعل السكان يتقبلونه.
- الدعم المباشر الذي تلقاه من طرف السلطان العثماني شخصيا على حساب درغوث باشا؛ الذي رفض ذات مرة الامتثال بين يدي السلطان، هذا الأخير لم ينس له فعله ذاك، لذلك أبدي تخوفه من طموحات درغوث باشا الزائدة، على عكس مراد أغا الذي كان مقرب جدا من السلطان منذ صغره وإلى غاية تعينه كحاكم على تاجوراء.

كل هده الأسباب جعلت سلطان الدولة العلية يبارك تعيين مراد أغا حاكما على طرابلس الغرب تابعة لبايلرباي الجزائر، وبهذا التعين أصبحت طرابلس الغرب إيالة عثمانية.

3-انعكاسات تأسيس الإيالة الطرابلسية داخليا وخارجيا.

3-1-داخليا.

- التأسيس الرسمي للإيالة الطرابلسية بتاريخ 16 أوت 1551م، وبذلك أصبحت ولاية عثمانية.
- نقل مركز الحكم من تاجوراء إلى العاصمة طرابلس، أين اتخذ مراد آغا قلعتها كمركز لحكمه وحول الكنيسة التي بها إلى مسجد[2].

1- يحيى بوعزيز: مع تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص265.

2- محمد خير فارس: المرجع السابق، ص168.

- أدى تأسيس إيالة طرابلس الغرب وانضمامها الرسمي للدولة العلية بداية مرحلة جديدة، سمتها البارزة ميلاد دولة حديثة عرفت لأول مرة وحدة سياسية وجغرافية، فقدتها لعقود من الزمن وبذلك يمكننا القول أن العثمانيين كان لهم الفضل في توحيد البلاد ورسم الخريطة الجغرافية الحالية تقريبا لبلاد طرابلس الغرب.
- القضاء على الفرقة والانقسام اللذين كانا سائدين في طرابلس الغرب وإعادة اللحمة والألفة والوحدة بين مكونات المجتمع الطرابلسي قاطبة بعد عقود طويلة من الاختلاف والتناحر والتنافر، لأن كل منطقة كان لها شيخها الخاص بها وقوانينها التي تتحاكم إليها، فقد كان الولاء للشخص والقبيلة أكثر منه للوطن، وإلا بماذا نفسر السهولة التامة التي تم بها الاحتلال الإسباني ثم المالطي لأراضي طرابلس الغرب.
- تنظيم بلاد طرابلس الغرب وإخضاعها لسلطان الدولة العلية، فقد أصبحت خاضعة كليا لأول مرة وتابعة لأراضي الدولة العلية العثمانية.
- عودة النشاط الاقتصادي إلى طبيعته السابقة والذي اشتهرت به طرابلس الغرب؛ خاصة التجارة في البر والبحر وتربية المواشي، لأن سكانها تمكنوا من إعادة إحياء هذه النشاطات إلى مدينتهم في فترة وجيزة وعادة إليها الازدهار التي عرفت به قديما.[1]
- تطبيق نفس النظام السائد بالولايات العثمانية الأخرى، فمراد آغا أول حاكم برتبة بايلربك يعاونه درغوث باشا على رأس الأسطول البحري، مهمته المساعدة في الدفاع عن الأراضي المغاربية[2]، إلا أن الملاحظ أن هذا الأسطول والحاكم يتبع رأسا إيالة الجزائر المكلفة ابتداء بحماية جميع الأراضي المحررة من الاحتلال الإسباني.
- تشكيل الجيش الإنكشاري بطرابلس الغرب لأول مرة، فقد أرسل السلطان العثماني قوة من الإنكشارية قدرت بحوالي 2000 جندي كانت عماد الدولة الوليدة بطرابلس الغرب.
- عودة الحركة التجارية بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء إلى النشاط، فقد عادت قوافل الحجيج وطلبة العلم باتجاه مكة والمدينة، هذا ما كان سببا في تنشيط الحركة التجارية.
- عودة نشاط الحركة الثقافية مع عودة ركب الحجيج إلى النشاط الدائم، بعد ركود لعدة عقود من الزمن، نتيجة لسيطرة الإسبان وفرسان مالطا على طريق طرابلس الغرب باتجاه الحجاز، ونتيجة لعودة الأمن

1- محمد خير فارس: المرجع السابق، ص163.

2- حسين مؤنس: المرجع السابق، ص439.

نشطت الحلقات العلمية بعد قدوم العديد من العلماء والطلبة إلى طرابلس في طريقهم إلى الحجاز ومصر لطلب العلم أو الحج، نتج عنه حركة علمية وثقافية في هذه البلاد.

- إعادة بناء الحصون وترميم المتضررة منها، مخافة من عودة الإسبان وفرسان مالطا لمهاجمة المدينة مرة أخرى[1]، خاصة وأن العثمانيين كانوا يدركون أن العالم المسيحي لن يسكت عن ضياع طرابلس الغرب من أيديهم بهذه السهولة.

3-2-خارجيا.

- تأمين طريق التجارة البري والبحري الرابط بين بلاد المغرب الإسلامي –خاصة المغرب الأقصى، الجزائر، إفريقيا جنوب الصحراء-باتجاه مصر وبلاد المشرق، حيث ارتبطت ممتلكات الدولة العلية العثمانية ببعضها البعض من الجزائر غربا إلى مصر شرقا.
- أصبحت القوات الإسبانية في مأزق ووضع لا تحسد عليه ببلاد المغرب، حيث أصبح تواجدهم بتونس بين فكي كماشة؛ غربا الجزائر وإيالة طرابلس الغرب شرقا، وبذلك أصبح تحرير تونس مسألة وقت فقط.

بعد تأسيس إيالة طرابلس الغرب سادت موجة من الرعب والذعر داخل إسبانيا خاصة وأوروبا عامة، لأن التواجد العثماني أصبح قريبا جدا من مقر الكنيسة بروما بالإضافة إلى قربها أيضا من إسبانيا، هذا ما كان سببا في إنهاء الحروب الإيطالية، وإمضاء معاهدة كاتو كامبرسيس سنة 1559م.[2]

بعد إدراك الأوروبيين للخطر العثماني الداهم؛ خاصة بعد تأسيس إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب سارعوا في إبرام اتفاقيات لمواجهة هذا الخطر الزاحف؛ سواء داخل أوروبا في جهتها الشرقية أو في بلاد المغرب الإسلامي، لذلك توحدت كامل أوروبا بقيادة الكنيسة للتصدي للعثمانيين.

توحيد جهود إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب في مواجهة الخطر الإسباني في المتوسط، خاصة وأنهما تحملتا عبئ المسؤولية في تحرير تونس.

مشاركة البحرية الطرابلسية في العديد من المعارك برفقة الأسطول العثماني ضد الأساطيل الأوروبية، خاصة ضد إسبانيا والدويلات الإيطالية، منها مشاركة البحرية الطرابلسية في حصار جزيرة مالطا سنة 1565م ومعركة الليبانت في أكتوبر 1571م.

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص107.

2- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص269.

اتساع ممتلكات الدولة العلية؛ حيث أصبح الطريق مفتوحا من طرابلس الغرب غربا إلى القسطنطينية شرقا، وبذلك دانت كامل بلاد المشرق والمغرب بالولاء والطاعة للعثمانيين.

- زيادة نشاط وقوة الأسطول العثماني في المتوسط بعد اتحاد الأسطولين الجزائري والطرابلسي ضد الأهداف الإسبانية خاصة والأوروبية المعادية للدولة العلية عامة.
- على عكس تأسيس الإيالة الجزائرية؛ تحملت الدولة العلية العثمانية عبء تحرير طرابلس الغرب من الاحتلال المالطي، فقد تكفل الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا ومعاونيه بمهمة طرد الاحتلال نهائيا من طرابلس الغرب.
- حاول فرسان مالطا إعادة احتلال طرابلس الغرب، فقد استطاعوا الدخول إلى مدينة زوارة ونهبها، إلا أن مراد آغا أرسل قوة من الجيش الإنكشاري يؤازره عدد كبير من السكان المحليين خاصة المجاورين للمدينة، وقد استطاعت تحرير المدينة وطرد فرسان مالطا منها.[1]
- تطبيق نفس نظام الولايات العثمانية في طرابلس الغرب؛ حيث عين مراد آغا حاكما على طرابلس الغرب بلقب بايلربك[2]، إلا أنه لم يكن عنده نفس رتبة بايلربك الجزائر الذي كان في العادة يجمع بين منصبين؛ حاكم الجزائر وقائد الأسطول العثماني، بسبب ما يتمتع به حكام الجزائر من شجاعة وخبرة وإقدام، بالإضافة إلى أن السلطات الجزائرية أُعطيت لها مهمة الدفاع عن مصالح الدولة العلية في المتوسط، بالإضافة إلى ذلك أنها أكثر البلدان قوة في المنطقة.

4-رد فعل الإسبان على تأسيس إيالة طرابلس الغرب.

أدرك المسيحيون الخطر العثماني الحقيقي الذي يهدد مصالحهم وبلدانهم، خاصة بعد تحرير طرابلس الغرب وازدياد الهجمات التي كان يقوم بها درغوث باشا، لذلك قرروا تسوية خلافاتهم داخل القارة الأوروبية، خصوصا قضية الحروب الإيطالية التي قسمت أوروبا لمدة فاقت 60سنة، تكبدت فيها جيوشها خسائر مادية وبشرية فادحة، فكانت معاهدة كاتوكامبرسيس سنة 1559م حدثا بارزا استطاعت من خلاله أوروبا إنهاء هذه الحروب المستمرة، وتوحيد الجهود ضد الخطر العثماني، فقد تشكل تحالفا ضم كلا من: إسبانيا، فرنسا، البندقية والدويلات الإيطالية، الكنيسة الكاثوليكية، وفرسان مالطا وقرروا القيام بحملة عسكرية لإعادة احتلال طرابلس الغرب والقضاء على درغوث باشا شخصيا ومحاولة فك الحصار على القوات الإسبانية، خاصة وأن درغوث باشا

1- حسين مؤنس: المرجع السابق، ص239.

2- شارل فيرو: المرجع السابق، ص108.

حاول أن يجعل من طرابلس الغرب جزائر ثانية[1] في مقارعة الإسبان ومحاولة طردهم من كامل بلاد المغرب الإسلامي، واضعا نصب عينيه الدعم الذي يلقاه من حكام الإيالة الجزائرية والسلطان العثماني سليمان القانوني.

بعد ازدياد نشط البحرية الطرابلسية ضد الأهداف المسيحية، خاصة بعد الهجوم على مدينة ريجيو القلورية «Reggio de calabria» الواقعة على مضيق مسينا، وغنم الكثير من الأموال والعتاد وأسر العديد من سكانها، لذلك تأثر فليب الثاني، وبتحريض من يوحنا ديلافاليت «Gean de la valette» مرشد منظمة فرسان مالطا[2]، الذي طلب من الإمبراطور الإسباني الإسراع في القضاء على درغوث باشا ووضع حد للبحرية الطرابلسية قبل استفحال أمرها كمثيلتها الجزائرية، وفي نفس الوقت إعادة احتلال مدينة طرابلس وطرد العثمانيين منها والحد من خطرهم في الجهة الغربية للمتوسط، ونتيجة لكل هذا تقرر القيام بحملة ضد طرابلس في سبتمبر 1559م، إلا أن الظروف الجوية وعدم الاستعداد الجيد أخر هذه الحملة إلى غاية شتاء 1560م وباتجاه جزيرة جربة وليست طرابلس[3]، وقد تشكل الجيش الأوروبي من حوالي 78 فرقة موزعة على الشكل التالي:

إسبانيا 30 فرقة من المشاة[4] تحت إمرة اللواء دون ألفار دي ساندو«Donalvar de sando»، و35 كتيبة من إيطاليا بقيادة أندري دي غونزاج «Andrede Gonague»، و14 سرية ألمانية بقيادة العقيد تين ليوبات «Etienive Leopat»، بالإضافة إلى سريتين من المشاة الفرنسيين، و200 فارس مالطي يشكلون طليعة الجيش الأوروبي، و600 جندي من حملة القرابينات والمدفعية التي عهد بقيادتها إلى برنارد دالدانيا «Bernard D'aldana» فكان مجموع الجنود حوالي 30ألف[5]، وأكثر من 100 حصان و30 مدفعاً.[6]

أما قطع الأسطول فقد تشكل من حوالي 96 سفينة صغيرة وكبيرة موزعين كما يلي:

54 سفينة حربية قاليز.

28 سفينة شحن كبيرة.

14سفينة شحن صغيرة منها؛ 5 قوادس شراعية (4 ملك للبابا أنجيلارا Anguillara) .

1- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص73.

2- شارل فيرو: المرجع السابق، 113.

3- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص74.

4- شارل فيرو: المرجع السابق، ص114.

5- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص271.

6- شارل فيرو: المرجع السابق، ص114.

و4 لدوق توسكانيا الأعظم نيقولا جانتيل «Nicolac gentile »، و5 لمنظمة تسير «Tessieres» آمر اللواء قوادس الديانة النصرانية، وقد زودت هذه الحملة بمؤونة تكفي لمدة أربعة أشهر[1]، في حين أعطيت قيادة الأسطول لأندري دقونزاف وقيادة القوات البرية تحت إمرة سلافادو سوند من إسبانيا، فيما أسندت القيادة العليا للحملة إلى جون أندري دوريا «geanandre doria».[2]

ما يمكننا ملاحظته عن هذه الاستعدادات:

مشاركة جميع الدول الأوروبية المتصارعة خلال الحروب الإيطالية، فقد أزاحت خلالها خلافاتها ووضعتها جانبا عندما تعلق الأمر بخطر المسلمين العثمانيين والمغاربة.

لم يعد يهم المسيحيين خلافاتهم المذهبية، فقد تحالف الكاثوليك والبروتستانت؛ وهذا إن دل على شيء إنما يدل على توحيد جهودهم وترك خلافاتهم السياسية والمذهبية جانبا في سبيل القضاء على خطر المسلمين واحتلال أراضيهم، على عكس العالم الإسلامي المنقسم بين عميل للإسبان والمسيحيين (بعض حكام تونس والمغرب الأقصى) أو متمذهبا بالمذهب الشيعي معلنا عدائه للمذهب السني (العثمانيين) الذين أعلنوا عليهم الحرب في المشرق محاولا إحياء الإمبراطورية الفارسية.

الاستعدادات الضخمة والكبيرة التي أعدتها الدول الأوروبية لمعرفتها الحقيقة بالقوة العثمانية في بلاد المغرب ممثلة في إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب، هذه الأخيرة التي بدأت تتطور شيئا فشيئا بقيادة درغوث باشا.

هذه الاستعدادات تنم عن إدراك الأوروبيين لأهمية طرابلس الغرب كبوابة للمحافظة على تونس والدويلات الإيطالية التي تتعرض باستمرار لخطر البحارة المسلمين.

قوة البحرية الطرابلسية بالرغم من حداثتها، وإلا بماذا نفسر هذه الاستعدادات الضخمة، خاصة ونحن نعلم أنها قريبة من تونس والدويلات الإيطالية.

مباشرة بعد علم درغوث باشا بهذه الحملة سارع إلى طرابلس الغرب وقام بالتحصينات الضرورية وأعد جيدا المواقع الدفاعية ثم قام بإعداد جيشه وتنظيم المتطوعين والمدافعين عن المدينة[3]، خاصة وأن هدف الحملة كان يستهدف طرابلس الغرب حتى وإن كانت متجهة إلى جزيرة جربة.

تجمعت قطع الأسطول الأوروبي بجزيرة مالطا ولم تستطع مغادرتها إلا شتاء سنة 1560م بسبب هبوب عواصف بحرية، لذلك كان هذا التأخر في صالح درغوث باشا الذي أتم استعداداته لمواجهة الحملة، وبسبب هذا

1- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص114.
2 - شارل فيرو: المرجع السابق، ص114.
3- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 210.

التأخر قرر قادة الأسطول الأوروبي توجيه الحملة إلى جزيرة جربة للسيطرة عليها، وقد تم ذلك بالفعل بدون مقاومة تذكر[1] لأن الحامية العثمانية الموجودة بها فرّت منها وتركتها عرضة لهمجية الأوروبيين مستنجدة بالسلطان العثماني بإستانبول.[2]

بعد احتلال جزيرة جربة انقسم أهلها إلى قسمين:

- قسم أبدى استعداده للتعاون مع المسيحيين نكاية في درغوث باشا الذي يكنون له الكره والعداء، وتزعم هذا القسم الشيخ مسعود زعيم جزيرة جربة.
- قسم رفض التعاون مطلقا مع المحتلين ضد المسلمين سواء درغوث أو غيره؛ رافضين التنازل عن أي شبر من الأراضي الإسلامية سواء طرابلس أو جربة أو غيرهما[3]، وقد كان هذا القسم الفيصل في المعارك التي دارت بين الأسطولين العثماني والأوروبي، لأنه فضل المصالح العليا للأمة على المصالح الخاصة رافضا الخضوع للمحتلين والتعاون معهم ضد بني جلدتهم.

بقي درغوث باشا يناور الأسطول الأوروبي أملا في وصول النجدة العثمانية سريعا مفضلا عدم المغامرة بقواته في مواجهة غير مضمونة العواقب، لأن الفارق بين القوتين كبير جدا، ولم يدم انتظار درغوث كثيرا حتى وصل الأسطول العثماني في فترة قياسية دامت 20 يوما بقيادة بيالي باشا، وكان يتألف من 85 مركبة بحرية و2000 جندي إنكشاري و3000 صبايحي وعدد آخر من المتطوعين.[4]

مباشرة بعد وصول الأسطول العثماني ليلة 11/10أفريل 1560م إلى جزيرة جربة بدأت معارك عنيفة بين الطرفين، تكبد فيها الأسطول الأوروبي خسائر فادحة؛ منها 32 سفينة والقضاء تماما على الحامية المسيحية الموجودة بالجزيرة[5] وأسر 5000 جندي على رأسهم سانشدوليفا وابناه وجان دوكاردون ودون قاسطون، وجان ابن نائب ملك صقلية وقس ميورقة، وعدد كبير من قادة الحملة[6]، وبذلك انتهت هذه المعركة بنكسة كبيرة للتحالف المسيحي حزنت لها كامل أوروبا[7]، إلا أن الحملة الإسبانية بقيت داخل الحصن الذي بناه المسيحيين بالجزيرة إلى

1 - محمد أبي راس الجربي: المصدر السابق، ص16.
2- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص.74
3- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص272.
4- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص274.
5- الشافعي درويش: المرجع السابق، ص94.
6- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص274.
7- الشافعي درويش: المرجع السابق، ص94.

غاية جويلية 1560م لتعلن استسلامها بعد نفاذ الطعام والماء عنها[1] أين تركها قادة الأسطول الأوروبي تواجه قدرها لوحدها متخلين عنها في سبيل إنقاذ بعض قطع أسطولهم.

وقد ترتب عن هذه المعركة عدة نتائج نذكر منها:

- انهيار معنويات جنود التحالف الأوربي، فقد تركوا الحامية الإسبانية تواجه الخطر العثماني لوحدها بدون تقديم المساعدة لها.
- حزن شديد عمّ أوروبا نتيجة هذه النكسة التي حلت بأسطولهم.[2]
- فشل المخابرات الأوروبية في تقدير حجم القوة الطرابلسية وسرعة تحرك الأسطول العثماني بقيادة بيالي باشا ومساعدة علج على، متوهمين أن العثمانيين لن يستطيعوا الدخول بهذه السرعة وفي فصل الشتاء.
- زيادة النفوذ العثماني بغرب المتوسط، وبذلك أصبح طرد الاحتلال الإسباني من تونس مسألة وقت فقط.
- تشجيع الأندلسيون الموريسكيون الذين طلبوا النجدة من العثمانيين (الإيالة الجزائرية، والطرابلسية) لمواجهة الاعتداءات الإسبانية المتكررة ضدها، ونتيجة لذلك بدأت الاستعدادات الفعلية للقيام بالثورة من داخل إسبانيا التي اندلعت بها بعد 8 سنوات فقط من التخطيط لها، معتمدين بالفعل على البحرية الجزائرية والطرابلسية ومن ورائهما الدعم العثماني.
- نقل درغوث باشا هجوماته إلى صقلية، فقد هاجم الأسطول الإسباني وأغرق عدد آخر من السفن، وبذلك أثبت قوة البحرية الطرابلسية ومبادرتها الفعلية في نقل الخطر إلى السواحل الأوروبية.

هدم جميع الحصون الإسبانية البحرية ما عدا البرج القديم.

تعتبر هذه الهزيمة إحدى النكسات الكبرى التي عاشتها الأساطيل الأوروبية، بعد هزيمة شارلكان على عتبات مدينة الجزائر سنة 1541م، وهي إيذانا بميلاد بحرية جديدة ناشئة بعد البحرية الجزائرية، وبالرغم من تدخل الأسطول العثماني في هذه المعركة إلا أن ذلك لا ينقص شيء من إنجازات البحرية الطرابلسية، التي بدأت تضع لنفسها مكانا بين القوى الإقليمية، وقد تجسدت هذه المكانة في حصار مالطا سنة 1565م بالإضافة إلى نقل المعارك إلى السواحل الأوروبية التي صارت عرضة لهجمات درغوث وبحارته باستمرار، معلنا بذلك انتقال طرابلس الغرب من مجرد إمارات متناحرة ومنقسمة على نفسها إلى إيالة عثمانية موحدة لأول مرة بعد عقود طويلة من الزمن، وظهور بحريتها الجديدة الداعمة للأسطول العثماني في المتوسط.

1- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص74.

2- درويش الشافعي: المرجع السابق، ص 95.

المبحث الثالث: العلاقات الطرابلسية الإسبانية على ضوء بعض القضايا الخارجية.

1-حصار مالطا سنة972هـ/ 1565م.*

لعبت البحرية الطرابلسية بقيادة درغوث باشا دورا هاما في حصار جزيرة مالطا التي عمل درغوث باشا جاهدا على فتحها، فقد كان يلح دائما على السلطان العثماني سليمان القانوني من أجل تسيير حملة للسيطرة عليها، لما لها من دور بارز في اعتراض السفن الإسلامية ومحاولاتها المتكررة احتلال سواحل طرابلس الغرب وجزيرة جربة، فقد كان فرسان مالطا يسارعون في كل مرة لتقديم الدعم اللازم للأساطيل الأوروبية المهاجمة للبلدان المغاربية والأسطول العثماني، ومع ذلك كان درغوث يريد تحرير المناطق المغاربية المحتلة قبل التوجه إلى جزيرة مالطا.

ولما سمع درغوث باشا بخبر الحملة العثمانية على مالطا جهز نفسه للمشاركة فيها استجابة لأوامر السلطان العثماني، بالرغم من معارضته لهذه الفكرة لأنه كان يريد رفقة علج علي توجيه الحملة لتحرير السواحل المغاربية الواقعة تحت الاحتلال الإسباني مثل تونس والمرسى الكبير ووهران باعتبارها امتدادا طبيعيا للأراضي الإسلامية خلافا لمالطا التابعة للأراضي المسيحية[1]، وبعد أن غادر درغوث باشا طرابلس ومعه 12 سفينة تحمل على متنها 1300 جندي و10 غليوطات تحمل 800 جندي آخرين[2]، التحق مباشرة بالأسطول العثماني الموجود بمالطا تحت قيادة بيالي باشا للمشاركة في إحكام الحصار على الجزيرة .

بالرغم من اشتداد الحصار إلا إن الجزيرة لم تسقط بيد العثمانيين، وبذلك أثبت درغوث بُعد نظره عندما عارض الهجوم على هذه الجزيرة مفضلا تحرير المناطق المغاربية الواقعة تحت الاحتلال الإسباني، وقد استطاع فرسان مالطا بقيادة دي لافاليت الصمود والدفاع ببسالة عن جزيرتهم بالرغم من الخسائر المادية والبشرية التي تكبدوها جراء الحصار الطويل والمعارك الضارية ضد العثمانيين.[3]

وأثناء المعارك الضارية هاجم درغوث باشا حصن القديس الملاك فأصيب على إثر ذلك بشظية من طلقة مدفع كانت سببا كافيا في استشهاده بتاريخ 23 جوان 1565م، مخلفا ورائه فراغا رهيبا سواء في طرابلس الغرب أو في الأسطول العثماني الذي فقد أحد أمهر قادته وأشجعهم، وقد أعتبر هذا الحادث أحد أهم المآسي التي خلفتها هذه الحملة، لينقل جثمانه بعد ذلك إلى طرابلس الغرب أين دفن بالجامع الكبير الذي بناه بمدينة

* – تطرقنا إلى الحصار العثماني لجزيرة مالطا في فصل العلاقات الجزائرية الإسبانية لذاك سوف نتطرق فقط لإسهامات البحرية الطرابلسية في هذا الحصار بدون التطرق لتفاصيله مرة أخرى.

1– ابن غلبون الطرابلسي: المصدر السابق، ص98.

2– شارل فيرو: المرجع السابق، ص126.

3– جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص80.

طرابلس[1]، وبعدها عين علج علي باشا على رأس الإيالة الطرابلسية لما عرف عنه من الشجاعة والإقدام، خاصة أثناء الهجوم المسيحي على جزيرة جربة، حينما تردد بيالي باشا أخذ علج علي المبادرة وقام بهجوم مباغت كبد الإسبان خسائر فادحة، ومن حينها وصلت أخباره إلى السلطان العثماني سليمان القانوني فكافأه على شجاعته وإقدامه ودفاعه عن الدولة العلية بتعيينه حاكما لطرابلس الغرب أين استمرت ولايته عامين كاملين (1565-1567م) لينقل بعدها إلى الجزائر.[2]

باستشهاد درغوث باشا يمكن القول أن إيالة طرابلس الغرب فقدت شخصية قوية أمّنت الرعية وحافظت على أرزاقها، وأعاد الهدوء إليها، وشارك أيضا في الجهاد ضد النصارى فقد كان لهم ندا عنيدا برهن على قوة شخصيته وعبقريته الحربية، فقد كان في الكثير من المرات في خلافات مع السلطان العثماني نفسه أو قادة الأسطول العثماني نظرا لكرهه للنصارى خاصة الإسبان، وكانت أكبر خسارة للبحرية العثمانية في حصار مالطا فقدانها لدرغوث باشا، وبذلك قدمت طرابلس الغرب وبحريتها قائدها ثمنا لمحاولة فتح مالطا وإبعاد الخطر المسيحي عن الأراضي الإسلامية.

2-مساهمة البحرية الطرابلسية في معركة الليبانت 979هـ/ 1571م.

لعبت إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب دورا رئيسيا في معركة الليبانت في شهر أكتوبر 1571م، أين دارت أحداثها بين الأسطولين العثماني الإسلامي والمسيحي الأوروبي، وقد لعب علج علي دورا بارزا في هذه المعركة، لذلك يعد من الممثلين البارزين للإيالتين الطرابلسية والجزائرية، هذا بدون نسيان المشاركة الفعالة للبحرية الطرابلسية إلى جانب الأسطول العثماني.

بالرغم من استشهاد درغوث باشا إلا أن البحرية الطرابلسية استطاعت مواصلة تطوير نفسها في عهد علج علي وحيدر باشا اللذان شجعا البحارة الطرابلسيين على ركوب البحر واستهداف الأساطيل المسيحية، خاصة على السواحل الإسبانية والإيطالية، التي تكبدت خسائر فادحة جراء هذه الهجمات المتتالية، ونظرا لكفاءته وشجاعته عهد إليه السلطان العثماني سليمان القانوني إعادة بناء الأسطول الهمايوني المتضرر جراء محاولته فتح مالطا وبالموازاة مع ذلك كانت البحرية الطرابلسية تقوم بدورها بفعالية كبيرة وقدرة فائقة في سبيل تحقيق أهداف الدولة العلية في جميع أنحاء العالم، وظهر ذلك من خلال مشاركتها في معركة الليبانت شهر أكتوبر سنة

1- ابن غلبون الطرابلسي: المصدر السابق، ص198.

2- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ص 234، 235.

1571م بقيادة جعفر باشا الذي عين سنة 977هـ/1568م خلفا لعلج علي باشا على رأس إيالة طرابلس الغرب، وقد قدم الطرابلسيون خيرة بحارتهم وجنودهم في هذه المعارك ناهيك عن خسائرهم المادية الفادحة[1].

مع العلم أنه أول من علم بتحركات القوات المسيحية المتحالفة لمهاجمة الأسطول العثماني كان جعفر باشا الذي سارع في إخبار السلطان سليم الثاني وأعلمه أيضا أن تونس ستكون هدفا للمسيحيين[2]، ولذلك نقول أن الطرابلسيين قاموا بدورين رئيسيين:

- نشاطهم التجسسي القوي والفعال الذي استطاع كشف تحركات العدو قبيل المعركة.
- تقديم الغالي والنفيس أثناء المعركة.

إذن لعبت البحرية الطرابلسية دورا مهما في هذه المعركة بالرغم من حداثة تكوينها، إلا أن مجهودات قادتها أمثال مراد أغا، درغوث باشا، علج علي وجعفر باشا أعطى لها قوة فاقت مثيلاتها في المشرق الإسلامي وبعض الإيالات العثمانية الأخرى التي لا نكاد نسمع عن مشاركتها في الأحداث الكبرى، لكن ما يحير في الأمر أن العالم المسيحي شارك بقوة واتحاد تام بين جميع مكوناته العرقية والمذهبية (كاثوليك، بروتستانت) ضد العثمانيين، فيما لم نسمع شيئا عن البحريتين المغربية والفارسية، ويرجع ذلك لعدة أسباب نذكر منها:

- العداء المستمر بين المذهب السني العثماني والمذهب الصفوي الفارسي الذي كان ينتظر إسقاط العثمانيين نهائيا ليحل محلهم في قيادة العالم الإسلامي، إلا أن ذلك لم يحدث لأن المسيحيين لم يستثمروا هذا الانتصار جيدا بسبب خسائرهم الفادحة هم أيضا، لذلك نلاحظ أن العثمانيين سيفتحون تونس بعد ثلاث سنوات فقط من معركة الليبانت.
- ادعاء الأشراف السعديين للنسب الشريف منعهم من الدخول تحت راية الدولة العلية العثمانية والمساهمة معهم في طرد الاحتلال الإسباني من الأراضي المغربية، فهل يعقل أن يكون سببا لعدم المشاركة في المعارك؟ أو على الأقل إعلان الحرب في الجهة الغربية للمتوسط لإلهاء وتقسيم الجيوش المسيحية، أم أن غياب وضعف البحرية المغربية منعها من المشاركة في هذه المعركة، ومع ذلك لا يمكننا إيجاد الأعذار لحكام المغرب الأقصى في عدم المشاركة في معركة الليبانت، بالرغم من محاولة العثمانيين دائما تقريب وجهات النظر مع حكام السعديين.[3]

1- محمد خير الفارس، محمود علي عامر: المرجع السابق، ص179.

2- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص230.

3- مهمة دفتري: رقم21، حكم رقم509، تاريخ 980/11/21 هـ.

بالرغم من هزيمة العثمانيين إلا أن البحرية الطرابلسية شاركت بفعالية كبيرة في هذه المعركة خدمة لأهداف الدولة العلية، ورفضا لمحاولة المسيحيين السيطرة على العالم الإسلامي، خاصة المغرب الإسلامي الذي بدأ يتحرر منذ ظهور العثمانيين بغرب المتوسط وتأسيس الإيالة الجزائرية ومن بعدها الطرابلسية.

3-دور البحرية الطرابلسية في تحرير تونس سنة 1574م.

شكلت تونس إحدى حلقات الصراع العثماني الإسباني بعد أن استطاع دون خوان النمساوي احتلالها سنة 1572م، فكانت بذلك الحاجز الذي منع من وحدة بلاد المغرب وخضوعها للعثمانيين، حيث استطاع الإسبان فصل الإيالتين لجزائرية الطرابلسية عن بعضهما البعض، ومنعهما من توحيد جهودهما بالقدر الكافي في مواجهة الأخطار الأوروبية عامة والإسبانية خاصة، هذا ما جعل القيادات العثمانية وأتباعها في الإيالتين المغاربيتين يدركون حقيقة مفادها؛ أنه لا يمكن الاستقرار والاطمئنان على هذه المنطقة ما لم يتم طرد الاحتلال الإسباني من تونس وتوحيد بلاد المغرب نهائيا تحت سلطة الدولة العلية العثمانية .

بعد أن اتخذ سليم الثاني (1566-1574م) قرارا بفتح تونس سنة 984هـ/1573م أرسل إلى قيادات الإيالتين الجزائرية والطرابلسية يأمرهم بالمشاركة في الحملة بكل قوة ودون تردد[1]، لذلك وما إن وصل الأسطول العثماني إلى طرابلس الغرب حتى التحقت به قوات القيروان وطرابلس الغرب التي كانت مركز تجمع الأسطول العثماني.

بما أن القوات العثمانية كان مركز تجمعها طرابلس الغرب بسبب قربها من تونس، لذلك كان للبحرية الطرابلسية دورا رئيسيا في تحريرها من خلال مشاركة الأسطول الطرابلسي بقيادة مصطفى باشا وبأمر مباشر من جعفر باشا الذي كان تلقى أمرا من السلطان سليم الثاني بالمشاركة في هذه الحملة، واستعدادا لها قام بتجهيز 4000 مقاتل، ثم بدأ التنسيق مع حيدر باشا حاكم القيروان للهجوم سويا على مدينة تونس، بعدما أمدهما سنان باشا بقوات إضافية وعدد من المدافع.[2]

إذن لعبت البحرية الطرابلسية دورا رئيسا في تحرير تونس من الاحتلال الإسباني، وبذلك دانت للسلطنة العلية العثمانية وتأسست الإيالة التونسية رسميا سنة 1574م، ليتم بذلك لأول مرة بعد عقود طويلة وحدة الجزائر، تونس وطرابلس الغرب* تحت سلطة واحدة، وإعلان بداية تاريخ جديد لهذه الإيالات التي ستلعب دورا رئيسيا في

1- مهمة دفتري: رقم21، حكم رقم509، تاريخ 980/11/21هـ.

2- الشافعي درويش: المرجع السابق، ص97.

* - استعملنا لفظ الجزائر، تونس وطرابلس الغرب، ونحن بذلك نقصد بعد تأسيس الإيالة الجزائرية، وتفادينا استعمال لفظ المغرب الأوسط لأنه يعبر عن عصر الوسيط، ولكل عصر ألفاظه، فالدولة الجزائرية الحديثة أصبحت واقعا معاشا منذ سنة 1520م، وكذلك بالنسبة للإيالتين التونسية=

تحقيق أهداف الدولة العلية ومقاومة الاحتلال المسيحي الأوروبي طيلة ثلاثة قرون من الزمن متحملة عبئ أطماعه الهادفة للسيطرة على الجهة الغربية من العالم الإسلامي.

=والطرابلسية اللتان كانتا تعيشان تقريبا نفس الأوضاع، إلا أن ظهور العثمانيين غير من وضعهما وتأسست الإيالتين في العصر الحديث سنتي 1551م، و1574م على التوالي.

الفصل الثالث

العلاقات بين الإيالة التونسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (10هـ/16م)

أولا: العلاقات التونسية الإسبانية ما بين 916 957هـ/ 1510-1550م.

المبحث الأول: العلاقات التونسية الإسبانية ما بين 916 -932هـ/ 1510-1526م.

1-تواجد الإخوة بربروس بالبلاد التونسية.

المبحث الثاني: العلاقات التونسية الإسبانية ما بين 932-957هـ/ 1526-1550م.

1-علاقات الإسبان بالحسن الحفصي.

2-الفتح العثماني لتونس سنة940هـ/ 1534م.

المبحث الثالث: الرد الإسباني على تحرير البلاد التونسية سنة940هـ/ 1534م.

1-حملة شارلكان على تونس سنة941هـ/ 1535م.

2-استعدادات الطرفين.

3-سير الحملة الإسبانية.

4-البلاد التونسية تحت الاحتلال الإسباني (ثنائية الهمجية والتدمير).

5-المعاهدة الإسبانية التونسية أوت 1535م.

6-نتائج الحملة الإسبانية على تونس.

7-أسباب هزيمة خير الدين.

8-المهدية تحت سلطة الإسبان سنة (958ه/1550م).

ثانيا: العلاقات التونسية الإسبانية ما بين 957-982هـ/ 1550-1574م.

المبحث الأول: الصراع العثماني الإسباني على البلاد التونسية ما بين 958-982هـ/ 1550-1574م.

1-محاولة الجزائريين تحرير البلاد التونسية سنة977هـ/ 1569م.

2-حملة دون خوان النمساوي على تونس سنة 981ه/1573م.

3-الفتح العثماني لتونس سنة **982**ه/**1574**م.

4-الاستعدادات الإسبانية.

5-سير الحملة العثمانية.

6-خطة الهجوم.

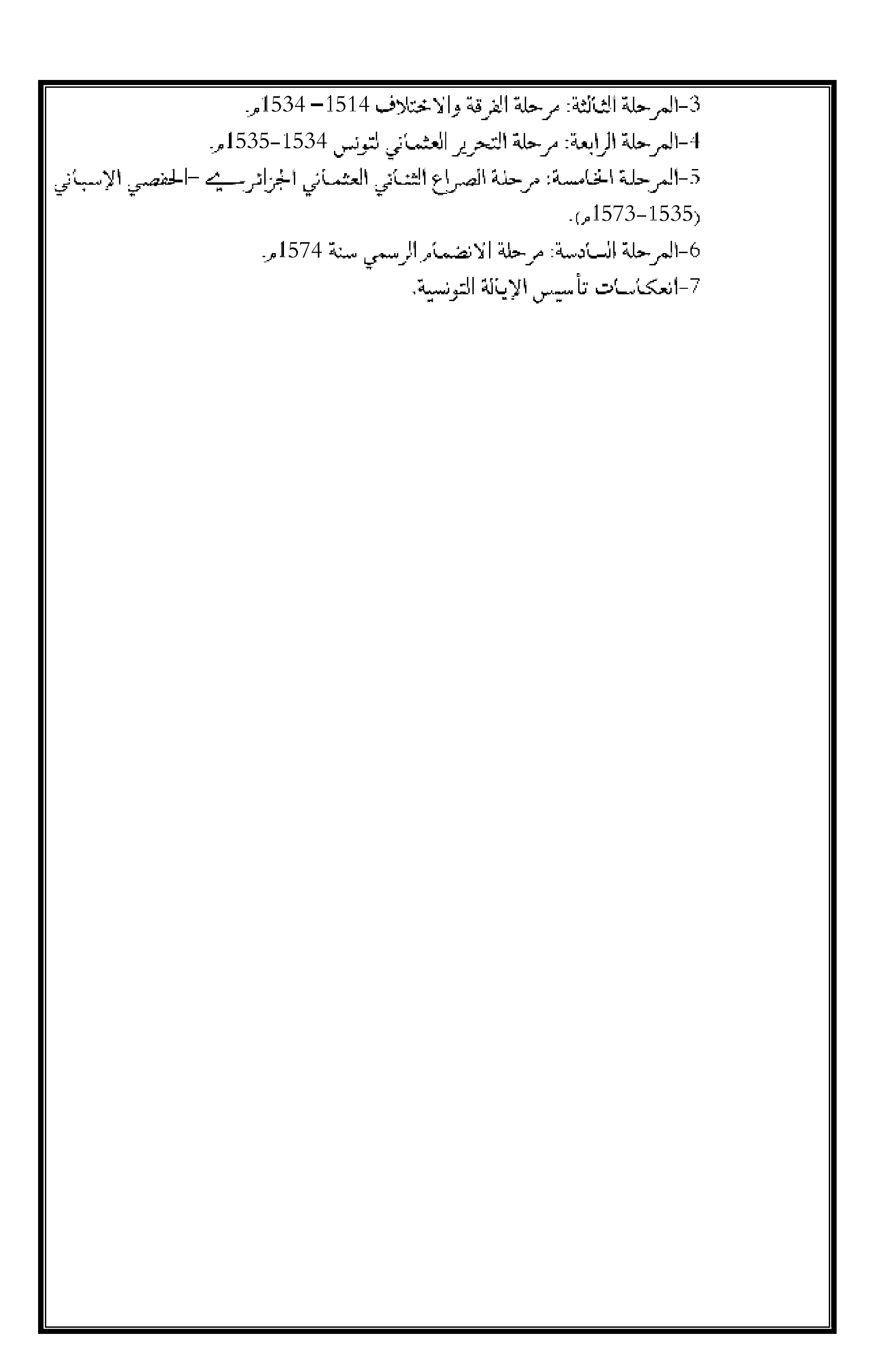
7-بداية المعارك.

8-نتائج الفتح العثماني لتونس.

المبحث الثاني: تأسيس الإيالة التونسية سنة 982هـ/1574م.

1-المرحلة الأولى: مرحلة التواجد العثماني الرسمي المبكر 1490-1512م.

2-المرحلة الثانية: مرحلة الألفة والتعاون الحفصي مع الإخوة بربروس 1513-1514م.



3-المرحلة الثالثة: مرحلة الفرقة والاختلاف 1514 – 1534م.

4-المرحلة الرابعة: مرحلة التحرير العثماني لتونس 1534-1535م.

5-المرحلة الخامسة: مرحلة الصراع الثنائي العثماني الجزائري -الحفصي الإسباني (1535-1573م).

6-المرحلة السادسة: مرحلة الانضمام الرسمي سنة 1574م.

7-انعكاسات تأسيس الإيالة التونسية.

أولا: العلاقات التونسية الإسبانية ما بين 916-957هـ/ 1510-1550م.

المبحث الأول: العلاقات التونسية الإسبانية ما بين 916 -932هـ/ 1510-1526م.

1-تواجد الإخوة بربروس بالبلاد التونسية.

تميزت العلاقات الحفصية الإسبانية خلال الفترة الممتدة ما بين916-932هـ/ 1510-1526م عن غيرها من علاقات دويلات بلاد المغرب وإسبانيا قبل تأسيس الإيالات المغاربية العثمانية، بسبب وجود سلطة محلية ممثلة في الحفصيين ظلت محافظة على وحدة البلاد التونسية حتى ولو اسميا فقط، مستمدة شرعيتها من السلطة السياسية والدينية التي لا يمكن الخروج عليها، وقد استطاعت إخضاع الكثير من الأراضي الطرابلسية وأراضي المغرب الأوسط إلى غاية ظهور العثمانيين على مسرح الأحداث في المتوسط، ليتبين للتونسيين عمالة بعض حكام الأسرة الحفصية للإسبان على حساب السكان المحليين.

ذلك أن الأسرة الحفصية كانت دائما تحتمي بالسلطات الإسبانية في مواجهة التمردات الداخلية أو الخطر العثماني القادم من الخارج، خاصة بعد تأسيس الإيالة الجزائرية ومن بعدها الإيالة الطرابلسية، حينها أصبحت البلاد التونسية محاصرة بممتلكات العثمانيين من الجهة الشرقية والغربية، ومن أجل المحافظة على السلطة كان الملجأ الوحيد للحكام الحفصيين هم الإسبان؛ الذين وجدوا الفرصة مواتية لاحتلال تونس والبقاء فيها، التي تحولت إلى مركز صراع بين الدولتين العثمانية والإسبانية، في محاولة لكل واحدة منهما الحفاظ عليها مع اختلاف الأهداف والغايات؛ فسلطات الدولة العلية كانت تريد ضم كامل بلاد المغرب تحت سلطتها وإعادة تونس إلى حاضرة الإسلام، وطرد المسيحيين نهائيا منها، مستغلة في ذلك تأسيس الإيالتين الجزائرية والطرابلسية اللتان أصبحتا قوتان لا يستهان بهما في المتوسط، أما السلطات الإسبانية فحاولت من جهتها تشتيت جهود العثمانيين ومن ورائهما الإيالتين الجزائرية والطرابلسية ومحاصرتهما بممتلكاتها في وهران والمرسى الكبير غربا وبتونس شرقا، وبذلك استطاعت فصل ممتلكات الدولة العلية عن بعضها البعض في بلاد المغرب مفوتة الفرصة على توحيد الجهود الإسلامية في مواجهة الأخطار المسيحية، وفي نفس الوقت إبقاء ولو جزءا من البلاد المغاربية تحت سيطرة المسيحيين، وربطها بممتلكاتها في إيطاليا، وبذلك تحافظ على تأمين الطريق البحري في المتوسط من إسبانيا إلى إيطاليا أو العكس، بالإضافة إلى تأمين التجارة الإسبانية خاصة والأوروبية عامة من خطر المسلمين الذي بدأ يتزايد مع ظهور الدولة العلية في المتوسط .

تولى حكم الدولة الحفصية بتونس خلال الفترة الممتدة من (904-932هـ/1494-1526م) أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد المسعود، الذي عرفت الدولة الحفصية في عهده أسوأ مراحلها التاريخية، حيث كانت ميزتها الأساسية الضعف والتجزؤ والانهيار في كل المجالات: السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية، وهذا مانستشفه مما نقله لنا أحمد ابن أبي الضياف بقوله: «... **أتى والدولة على انقراض بمر من الأمراض من سد أبواب التعبير والاعتراض...**».[1]

هذه الكلمات تعبر عن حقيقة ما وصلت إليه الدولة الحفصية من انهيار حقيقي بكل المقاييس، وهي في الحقيقة نهاية مؤسفة أوصلها إليها سلاطينها في هذه الفترة المتأخرة ، وذلك بتفضيل مصالحهم على حساب مصالح الدولة والرعية، وكان يمكن أن تكون الدولة الحفصية دولة مُوحِدة لبلاد المغرب كما فعل أسلافهم من الموحدين؛ عندما استطاعوا توحيد بلاد المغرب قاطبة تحت سلطة واحدة، إلا أن حب الزعامة والاستئثار بالمناصب واستغلال الثروة والانشغال بالدنيا وبهارجها والارتماء في أحضان المحتلين الإسبان فوت فرصة على الحفصيين لقيادة بلاد المغرب للدخول في العصر الحديث في أحسن حال، فاسحين المجال للعثمانيين من أجل القيام بهذه المهمة، وقد استغلوا في ذلك الأوضاع المتردية وفقدان الثقة بين السلاطين والرعية واستنجاد السكان بهم.

1-2-استقرار الإخوة بربروس بالسواحل التونسية.

يعتبر التواجد العثماني ببلاد المغرب مبكرا، لأنه يعود إلى نهاية القرن الخامس عشر ميلادي في عهد بايزيد الثاني الذي استنجد به الأندلسيين لإنقاذهم من بطش السلطات الإسبانية[2]، وذلك بتواجد الإخوة بربروس برفقة يحي رئيس –وهو من أهم البحارة العثمانيين- بصفة غير رسمية لأنهم كانوا مطاردين من طرف السلطان سليم الأول الذي دخل في خلاف حاد مع أخيه قرقود ومن ورائه عروج وإخوته؛ لأنهم كانوا يدعمون قرقود على حساب السلطان سليم الأول، وكان ذلك في حدود سنة 1513م، حيث اقتنع الإخوة بربروس بضرورة التوجه إلى السلطان التونسي أبي عبد الله محمد الحفصي (1494-1526م) الذي كانت له علاقة ودية مع سلاطين الدولة العلية، منذ توسطه للقيام بمبادرة لإبرام صلح بين العثمانيين والمماليك في العهد بايزيد الثاني عام 1494م.[3]

1- ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ط2، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971، ص ص 241، 242.

2- عبد الجليل التميمي: الدولة العثمانية والموريسكيين...، المرجع السابق، ص275.

3- محمد دراج: المرجع السابق، ص183.

عندما وصل الإخوة بربروس رفقة العديد من البحارة إلى تونس قدموا الهدايا إلى سلطانها أبي عبد الله الحفصي، ثم طلبوا منه أن يمنحهم مكانا آمنا يكون مركزا لهم لممارسة نشاطهم الجهادي ضد السفن المسيحية، وفي نفس الوقت مساعدة الأندلسيين وإنقاذهم من بطش الإسبان، ويقضون الشتاء في حمايته، وبعد أن شرحوا له كل ما يتعلق بهم وبنشاطهم، وافق السلطان التونسي على منحهم حلق الوادي مقابل دفع خمس الغنائم له[1]، إلا أن خير الدين أشار في مذكراته أنهم اتفقوا مع السلطان الحفصي على ثمن الغنائم وبيع غنائمهم بالأسواق التونسية حتى يستفيدوا من الأرباح في مقابل استفادة السكان المحليين من التبادل التجاري فيما بينهم، وبذلك تعم الفائدة على جميع الأطراف، وفي ذلك يقول خير الدين: «... **نريد أن تتفضل علينا بمكان نحمي فيه سفننا بينما نقوم بالجهاد في سبيل الله، وسوف نبيع غنائمنا في أسواق تونس فيستفيد المسلمون من ذلك وتنتعش التجارة كما ندفع لخزينة الدولة ثمن ما نحوزه من الغنائم (8/1)*** ، **فأجابهم سلطان تونس قائلا: إن ما تقولونه معقول جدا، فأهلا وسهلا بكم البلد بلدكم، أذن لنا السلطان بالرسو في ميناء حلق الوادي فقضينا الشتاء هناك...**».[2]

من خلال هذا النص يتبين لنا أن الطرفين اتفقا على جميع الإجراءات الضرورية لاستقرار الإخوة بتونس، وقد رحب بهم السلطان الحفصي وأكرم وفادتهم في مقابل تبادل المنافع خدمة لمصلحة البلاد والعباد، إلا أنه يجب علينا طرح بعض التساؤلات التي نراها ضرورية حتى يمكننا فهم كيف كانت بداية هذه العلاقات:

- عندما وافق السلطان التونسي أبي عبد الله الحفصي على استقرار عروج وإخوته ومعهم يحي رئيس هل كان يعلم بتوتر علاقاتهم بالسلطان سليم الأول؟
- وإن كان يعلم بتوتر العلاقة هل غامر بالاتفاق مع الإخوة ؟، وخسر بذلك علاقاته الودية مع الدولة العلية العثمانية ممثلة في سلطانها سليم الأول؟، خاصة وأن علاقة الود بين الإخوة والسلطان التونسي لم تدم أكثر من سنة، لتتحول هذه العلاقة إلى عداء مستمر؛ عندما وجد عروج وإخوته السند الذي يعولون

1- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص242.

* – اختلفت المصادر التاريخية في تقدير نسبة الفوائد التي تم عليها الاتفاق بين السلطان الحفصي والإخوة بربروس، فقد ذكر صاحب كتاب غزوات عروج وخير الدين نسبة الخمس (ص ص 12، 13) ووافقه في ذلك المنويب الفراتي، وأيضا ابن أبي الضياف، ج 2، وربما قدموا هذه النسبة اعتبارا إلى ما قال به الشرع توهما فقط، وليس نقلا عن مصدره الحقيقي وهو خير الدين، الذي نرجح روايته عن الروايات الأخرى، على اعتبار أنه المصدر الحقيقي والوحيد الذي يمكننا الاعتماد عليه في مثل هذه الأمور، وقد يكون أبو عبد الله الحفصي استفاد شخصيا من العديد من الغنائم كما كان أول مرة، وهي عادة الحكام والملوك، وهي استفادة معقولة وخاصة أن البلاد والعباد تستفيد من عائدات الغنائم البحرية للإخوة التي تتحول إلى تجارة داخلية يستفيد منها الجميع .

2- خير الدين: المصدر السابق، ص ص 46، 47.

عليه ممثلا في السلطان سليم الأول، وبذلك ضحوا بعلاقاتهم مع أبي عبد الله الحفصي، وأكثر من ذلك اتفق الإخوة مع السلاطين العثمانيين على ضم تونس بعد ثبوت سيطرة الإسبان عليها وفقدان الحفصيين لشرعيتهم.

- هل خطط الإخوة بربروس لضم تونس؟ متبعين في ذلك سياسة التدرج والمرحلية لإرضاء سلاطين الدولة العثمانية وفي نفس الوقت عزل الحفصيين عن السكان المحليين للسيطرة على الحكم؛ وبذلك خسر أبي عبد الله الحفصي الرهان عندما فضلّ علاقة الإخوة على السلطان سليم الأول الذي ربما كان يدعمه ضد الإسبان ويبقيه حاكما لتونس ومن بعده خلفائه الحفصيين !!
- هل كان لبعد الدولة العلية عن بلاد المغرب دورا في تشجيع السلطان الحفصي على المضي قدما في الاتفاق مع الإخوة بربروس خدمة لمصالحه الداخلية ممثلة في التصدي لهجمات البدو والأعراب المناهضين لحكمه؟، خاصة وأن البلاد في هذه الفترة عرفت تسلطهم وسيطرتهم على العديد من المناطق بالبلاد وانحصار السلطة الحفصية في العاصمة وأحوزها وخروج العديد من المناطق عن سيطرته كعنابة، بجاية، قسنطينة وطرابلس الغرب هذا من جهة، ومن جهة أخرى التعاون في التصدي للأخطار الخارجية ممثلة في هجمات القراصنة المسيحيين والاحتلال الإسباني القريب من بلاده بعد احتلاله للعديد من السواحل المغربية وسواحل المغرب الأوسط .
- هل كانت المصلحة الاقتصادية لتونس سببا في الاتفاق بين الطرفين؟ لأن أبي عبد الله الحفصي كان يفضل المصالح الاقتصادية لبلاده لأنها كانت تمر بمرحلة انهيار شديد في جميع المجالات، حتى يستفيد السكان من التجارة وغيرها من الأعمال المربحة التي يوفرها الإخوة بربروس نتيجة نشاطهم في الجهاد البحري، وفي نفس الوقت توفير مداخيل إضافية لخزينة الدولة نظيرا الثُمن من الغنائم، التي قد تحل بعض المشاكل الاقتصادية للدولة والرعية على حد السواء؛ مما ينعكس إيجابا على استقرار الأوضاع الداخلية ويبعد السلطة الحفصية عن فرض مزيد من الضرائب، هل كان لذكاء ودهاء الإخوة وحسن تفاوضهم وإصرارهم دورا في هذا الاتفاق؟ مما أثر على السلطان الحفصي الذي قبل تواجدهم على مضض لأنه كان يعلم بعلاقاتهم الحسنة مع السكان؛ وإلا بماذا نفسر انقلابه عليهم في أول فرصة تتاح له عندما رفض تزويدهم بالبارود أثناء محاولتهم الأولى لفتح بجاية سنة 1514م، مفضلا تبعيته للإسبان والخضوع لهم على حساب الإخوة بربروس المشتركين معه في الدين والعقيدة.

وعموما قد تم الاتفاق بين الطرفين لأنه كان يحقق مصلحتهما، فقد كان لكل طرف حساباته وأهدافه وطموحاته الخاصة التي يريد تحقيقها، إلا أن السياق التاريخي للأحداث سيعطي الأولوية للإخوة بربروس الذين سيحققون العديد من أهدافهم، وكانت البداية الفعلية للتواجد العثماني في بلاد المغرب من حلق الوادي بتونس، وفي نفس الوقت بداية النهاية لحكم الأسرة الحفصية والاحتلال الإسباني لبلاد المغرب الإسلامي، وكان أيضا إيذانا بتأسيس الإيالات المغاربية الحديثة التي ستلعب دورا محوريا وبارزا في التصدي للإسبان انطلاقا من بجاية التي كانت تابعة إسميا فقط للسلطان التونسي.*

1-3-خلافات السلطان أبي عبد الله الحفصي مع الإخوة بربروس.

استمرت العلاقات الودية بين الإخوة بربروس والسلطان الحفصي حوالي سنتين، فقد كانت المصالح المشتركة والاحترام المتبادل هو السائد في هذه العلاقات، ففي ربيع 1513م خرج الإخوة للغزو واستطاعوا غنم العديد من السفن المحملة بالزيتون والعسل والجبن والحديد عادوا بها إلى تونس أين استقبلوا استقبال الأبطال من طرف السكان المحليين لكثرة الغنائم التي عادوا بها، وبذلك نالوا رضى السكان ومعهم السلطان الحفصي وفي ذلك يقول خير الدين: «**...وصلنا إلي تونس على أصوات المدافع، مثقلين بالغنائم كالجبال، أخذ جميع الغزاة قدر ما يريدون من الغنائم وقمنا بفرز حصة السلطان وتصدقنا بمال كثير على الفقراء، فنلنا منهم كثيرا من الدعاء... هذا وقد كان من بين الغنائم التي حصلنا عليها: سبعون أو ثمانون ببغاء وعشرون بازيا قمنا بإهدائها إلى سلطان تونس...**»[1]، من خلال هذا النص يمكننا استنتاج بعض الحقائق :

- حصول الإخوة بربروس على غنائم ضخمة انطلاقا من مدينة تونس ذات البعد الاستراتيجي في حوض المتوسط.
- بداية ظهور القوة الفعلية للأخوة بربروس.
- مخاطبة السلطان الحفصي بلقبه –السلطان–دليل اعترافهم بسلطته على البلاد.
- وفرة الغنائم التي وزعت على البحارة والسكان المحليين والسلطان الحفصي.

---

* – تطرقنا إلى موضوع تحرير بجاية في العلاقات الجزائر الإسبانية، لأنها مهما كانت تعتبر مدينة جزائرية، على عكس بعض الدراسات التي اطلعنا عليها خلال هذا البحث تشير إلى أن بجاية تندرج تحت مسمى العلاقات التونسية الحفصية الإسبانية، ولذلك لم نشأ التطرق ثانية لموضوع الاحتلال الإسباني لبجاية وأيضا تحريرها في هذا العنصر.

1– خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص ص 48،49.

- لم يأت ذكر السلاطين العثمانيين بتاتا في هذه المرحلة، دليلا على أنه لا يوجد أي اتصال بين الطرفين خلال هذه المرحلة نظرا للخلافات الموجودة بينهما، وفي نفس الوقت دليلا أيضا على استمرار العلاقات الودية مع السلطان الحفصي.

بعد هذه الألفة بين الطرفين جاءت مرحلة ثانية في العلاقات السلطان الحفصي بالأخوة بربروس خاصة بعد المحاولة الثانية لتحرير بجاية سنة 1514م بعدما استطاع عروج وخير الدين فتح جيجل سنة 1512م واتخاذها كمركز متقدم لمقاومة الاحتلال الإسباني، وأثناء حصار بجاية واشتداد المعارك بين الإخوة والإسبان نفذ البارود للإخوة فبعثوا للسلطان الحفصي لتزويدهم به، إلا أنه تماطل في تحقيق طلبهم ذلك، فكان من أهم أسباب عدم فتح بجاية هذا الموقف المتخاذل من السلطان.[1]

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل فعلا هذا هو السبب الحقيقي لهذه الخلافات؟ ويمكننا ترجيح بعض العوامل الأخرى التي نذكر منها:

- كان للاتصال الرسمي الذي حدث بين الإخوة بربروس والسلطان العثماني سليم الأول دورا مهما في توتر العلاقة بينهم وبين السلطان الحفصي أبو عبد الله، وقدكان هذا الاتصال في حدود سنة 1514م، أين كان الإخوة متمركزين بتونس، لذلك عده السلطان الحفصي تهديدا مباشرا لعرشه وبلاده، وكان ذلك مدعاة لشكوكه في نوايا البحارة العثمانيين الذين يريدون السيطرة على بلاده بمساعدة سليم الأول حسب اعتقاده.
- تزامنت رحلة بيري رئيس إلى إستانبول مع وصول وفد من أعيان بجاية إلي تونس لطلب نجدة الأخوة بربروس ومساعدتهم على طرد الإسبان من مدينتهم[2]، وهذا ما اعتبره السلطان الحفصي تعديا على حقوقه من جهتين:
- تعتبر بجاية من ممتلكات دولته ويجب طلب الدعم منه وليس من غيره.
- تعظيم وفد بجاية لعروج وخير الدين وتجاهل السلطان الحفصي، مما أوقع هذا الأخير في حيرة من أمره اتجاه هذا الموقف غير المقبول في الأعراف والتعامل مع الحكام، فأحس بالخطر لذلك قرر التخلص منهم في أقرب فرصة ممكنة.

1- حاجي خليفة: المصدر السابق، ص86.

2- محمد دراج: المرجع السابق، ص 193

- القوة التي أصبح عليها الإخوة بربروس بعد فتحهم لجيجل، وقدوم وفد بجاية إليهم، بالإضافة إلى المكانة المرموقة التي يحضون بها عند السكان التونسيين خاصة والمغاربة عامة، جعل السلطان الحفصي يخشى على عرشه منهم ويجاهر بعداوتهم.
- بعد اتخاذ الإخوة بربروس لجيجل كقاعدة لانطلاق نشاطهم الجهادي ضد الإسبان وغيرهم من المسيحيين، أحسوا أنهم بإمكانهم الاستغناء عن السلطان الحفصي، وليس لهم حاجة بالمقام بحلق الوادي ما داموا يملكون مكان أخر للتمركز ومواجهة الإسبان.

بعد زيارة مصلح الدين بيري رئيس إلى استانبول، بات من الواضح أن سياسة الدولة العلية الرامية للسيطرة على بلاد المغرب تتطابق تماما مع سياسة الإخوة بربروس الرامية لإيجاد مكان آمنا يحقق للدولة العلية أهدافها الهادفة لإكمال مهمة إنقاذ الأندلسيين الذين عجز الحكام المغاربة عن مساعدتهم بما في ذلك السلطان الحفصي، وبذلك حدث اختلاف في الرؤى بين الإخوة والسلطان الحفصي حول العديد من القضايا المهمة التي تخص تونس وكامل المنطقة، لأنه كان يرى في اندفاع الإخوة ومحاربة الإسبان يؤلب عليهم السلطات الإسبانية وتكون بلاده هدفا لهجماتهم المستقبلية.

بعد سفارة بيري رئيس اكتسب الإخوة بربروس حماية لا مثيل لها من طرف السلطان سليم الأول، لذلك تغيرت نظرتهم لسلطان تونس، فقد أصبحوا يحسون بنوع من الاستقلال عنه ويعاملونه وكأنه تابع للدولة العلية وليس حاكما لدولة مستقلة بذاتها، وذلك مانستشفه من خلال النص التالي الذي نقله لنا خير الدين حيث قال: «... **لقد أدرك أننا لم نعد مجرد قراصنة بائسين مجردين من أية حماية، بل صرنا في خدمة وحماية السلطان العثماني المعظم**...»[1]، وهذا دليلا على أن السلطان الحفصي تأكد من خطورة الإخوة على عرشه، ولذلك قرر التخلص منهم مهما كان الثمن .

وجه السلطان سليم الأول خطابا شديد اللهجة إلى السلطان الحفصي يأمره فيه –وليس يطلب منه– بتقديم المساعدة للإخوة بربروس مهما كان نوعها في مواجه الإسبان، وفي ذلك يقول خير الدين: «... **إلى أمير تونس إذا وصلك كتابي هذا عليك أن تعمل به، واحذر أن تخالفه وإياك أن تقصِّر في تقديم أي عون لخادمينا: عروج وخير الدين**...»[2]، وهو تعدٍ صارخ لسلطان الدولة العلية على حقوق سلطان تونس الذي كانت بلاده في ذلك الوقت مستقلة، وهو ما اعتبره السلطان التونسي إهانة له يجب عدم تكرارها مرة أخرى، ولا

1- خير الدين: المصدر السابق، ص 69.

2- نفسه: ص68.

سبيل لذلك إلا بالتخلص من الإخوة بربروس الممثلين الحقيقيين للسلطان العثماني، وبذلك بدأت العداوة تظهر جليا بين الطرفين.

الموقف الغريب الذي قام به الإخوة بربروس ألّب عليهم السلطان الحفصي؛ فقد أقيم احتفالا كبيرا بتونس حضره العديد من المشايخ والأشراف التونسيين، وبحضور السلطان أبو عبد الله الحفصي، حينها قام بيري رئيس بإلباس خير الدين حلة بعثها له السلطان العثماني سليم الأول بالإضافة إلى سيف، وعند الانتهاء قام العلماء بالثناء على السلطان العثماني والدعاء له.[1]

الملاحظ إذا أن هذا الاحتفال كان في مجمله أعمالا عدائية ضد أبي عبد الله محمد الحفصي الذي أحس بالإهانة والتهميش؛ كيف لا وهو يرى بيري رئيس يقلد خير الدين السيف والحلة بدلا عنه، زاد الطين بلة دعاء العلماء لسليم الأول بدلا من الدعاء له وهو الذي كان مدعما أساسيا للإخوة بربروس حين منحهم مكان للاستقرار فيه أول مرة، زاد الأوضاع تأزما توجيه سليم الأول لخطابه بفعل الأمر الملزم له بمساعدة الإخوة بدلا الطلب منه التعاون معه لمواجهة الأخطار، هذا ما أجج نار الغضب والحقد عند السلطان الحفصي.

ربما هذه بعض الأسباب التي عجلت بالعداوة بين الإخوة بربروس والسلطان الحفصي، لأن كل طرف كانت له أسبابه وحججه ومخاوفه التي رآها أسبابا مقنعة في الخلاف الذي أدى في النهاية إلى القطيعة والخصام، نتيجة لذلك ضاعت فرصة كبيرة من أجل توحيد الجهود ورص الصفوف في مواجهة إسبانيا.

المبحث الثاني: العلاقات التونسية الإسبانية ما بين 932-957هـ/ 1526-1550م.

تميزت هذه المرحلة بالتوتر الشديد في العلاقات الإسبانية العثمانية، خاصة وأن خير الدين استطاع تحرير تونس من الاحتلال الإسباني سنة 1534م وضمها للدولة العلية، لكن سرعان ما استطاع الإسبان إعادة احتلالها سنة 1535م، وإعادة السلطان الحفصي إلى سدة الحكم، هذا الأخير الذي أعطى الشرعية للاحتلال الإسباني خاصة وأن هذا السلطان ضعيف الشخصية عرفت البلاد في عهده أسوء مراحلها، وكانت عرضة للتدخلات الأجنبية وهجمات الأعراب والبدو داخليا، وبالكاد كان يتحكم في نفسه وأهله.

1-علاقات الإسبان بالحسن الحفصي.

تولى الحسن الحفصي حكم البلاد التونسية يوم وفاة أبيه في يوم الخميس 25 ربيع الثاني 932هـ/1526م، وقد عرفت البلاد في عهده ضعفا خطيرا نتيجة عجزها عن ردع الحركات الانفصالية في الأرياف والبوادي، فقد أصبحت كل قبيلة لها سلطة موازية وفي بعض المرات أكبر من سلطة الدولة ذاتها، مما انعكس بالسلب على

1- خير الدين: المصدر السابق، ص 68.

السلطة الحفصية التي انحصر نفوذها في الشمال الغربي لتونس وبعض المدن كسوسة والقيروان، فيما كانت بقية المناطق شبه مستقلة عنها، وكانت كل قبيلة تدير شؤونها بحرية واستقلالية تامة[1]، وقد وصف لنا ابن أبي الدينار هذه الأوضاع المزرية بقوله: «...**وقد خرجت عن طاعته مدينة سوسة فقام فيها صهره القليعي، وقام عليه في القيروان الشيخ عرفة وكان من مرابطي القيروان من ذرية الشيخ سيدي نعمون وهو جد الشابيين،...وفي أيامه كانت قسنطينة في أيدي الترك، وإنما كان ولده أحمد نائبا عن بلد العناب وفي أيامه تغلب الأعراب على جل البلاد وكانت شوكة في أولاد سعيد لأنهم استقلوا بالبلاد بعد أولاد مدافع وشرخ لما انقرضوا فعاث أولاد سعيد في البلاد وهادنهم السلطان الحسن بستين ألف دينار على الوطن...**»[2]، ويقول أيضا محمود مقديش صاحب كتاب نزهة الأنظار: «....**محمد الحفصي اشترك في حكم المؤمنين مع أهل الكفر فصار لا يقضي أمرا دون رضا كبير الكفرة، وآل به الأمر حتى تغلب عليه الكفار ...**».[3]

وبذلك أصبحت تونس في عهده مقاطعة إسبانية، تأتمر بأوامر الإمبراطور الإسباني شارلكان وما الحسن الحفصي إلا خادما من خدامه الأوفياء الذي يجب عليه تطبيق أوامر سيده، لذلك أعلن العداء للسكان المحليين وكذلك العثمانيين الموجودين بالجزائر، مخافة من طلب السكان معونة العثمانيين الذين كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة لتخليص تونس من هذه الأوضاع الكارثية التي تعيشها، خاصة وأن السلطان مولاي الحسن أصبح غير مرغوب فيه من طرف السكان، وهذه عادة السكان المغاربة في مجملهم الذين يكرهون العمالة للأجنبي مهما كان فما بالك الإسبان الذين يطاردون إخوانهم بالأندلس وبلاد المغرب الإسلامي، بل يحبون كل من أراد تخليصهم منهم، مثلما حدث في الجزائر أين استطاع خير الدين كسب قلوب الناس بسبب إصرار عروج وإسحاق على مقاومة الاحتلال الإسباني، إلا أن مولاي الحسن لم يدرك هذه الحقيقة وارتمى بين أحضان الإسبان رغبة في الحفاظ على ملكه الزائل لامحال، هذا ما ألب عليه العامة بسبب ظلمه وطغيانه وغدره.[4]

لعب الحسن الحفصي بسياسته الرعناء المبنية على فرض الضرائب وإنهاك السكان بالعديد منها واستعمال القوة والجبر والقهر لإخضاع الناس، على تأليب العامة ضده مستغلين ضعفه وعمالته للإسبان واشتغاله بملذات الدنيا على حساب مصلحة العباد والبلاد، وبذلك أصبحت تونس في وضعية متدهورة على جميع الأصعدة والمجالات: السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية، تاركا الفرصة لقوتين ناشئتين تتنافس على بلاده، وما زاد

1- محمد الهادي شريف: المرجع السابق ص 64.

2- ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص ص 152، 153.

3- محمود مقديش: المصدر السابق، ص 70.

4- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 112.

الطين بلة خضوعه للإسبان بدل التعاون مع العثمانيين، مفوتا فرصة على نفسه لإنقاذ بلاده من الاحتلال الإسباني الذي أصبح أمرا واقعا لا مفر منه إلا في حالة تدخل سلطات الإيالة الجزائرية وتخليص تونس مما أصبحت فيه، بعد أن كانت بلد الحضارة والعلم.

2-الفتح العثماني لتونس سنة940هـ/ 1534م.

هيأت الظروف المزرية التي كانت تعيشها تونس كل الأسباب الممكنة لخضوعها لقوة أجنبية سواء إسبانيا أو الدولة العلية العثمانية، إذ كانت تعيش ظروفا سياسية خطيرة، تمثلت في الصراع على السلطة بين الأسرة الحفصية الحاكمة لأن محمد بن حسن الحفصي ترك عددا من الأولاد، إلا أنه لم يكن منهم من هو قادر على قيادة البلاد بعد وفاته غير أن أصغرهم مولاي الحسن الذي كانت أمه عربية استطاع السيطرة على الحكم، وقام بقتل وتشريد إخوته حتى لا ينافسونه في الحكم ولم ينج حتى أبناء إخوته وأخواته ونسائهم إلا أخوه الرشيد الذي استطاع الفرار إلى الشيخ عبد الله زعيم إحدى القبائل العربية، إلا أن مولاي الحسن استطاع اللحاق به، وحينما لم تستطع هذه القبيلة حمايته طلبت منه الفرار خوفا من بطش مولاي الحسن، ولم يكن له من ملجأ سوى خير الدين[1]، هذا الأخير الذي وجد الفرصة مواتية لتحقيق حلمه والسيطرة على تونس وضمها للدولة العلية العثمانية والقضاء على مولاي الحسن مستغلا كره السكان له واتهامه بالعمالة للإسبان بعد أن أصبح ألعوبة بيد شارلكان.

2-1-أسباب الفتح.

- وجد خير الدين بربروس الفرصة مواتية في استنجاد الرشيد به من أجل حمايته وتنصيبه على رأس الدولة الحفصية مستغلا ميول السكان له وكرههم لمولاي الحسن وبذلك سيضمن تعاون السكان معه في مواجهة السلطان الحفصي والإسبان، اللذان تعاونا ضد مصلحة البلاد والعباد لأن آخر ممثلي الحفصيين الضعاف كانوا قد وضعوا أنفسهم تحت الحماية الإسبانية للنجاة بأنفسهم.[2]
- محاولة خير الدين استغلال الأوضاع الداخلية المتردية التي ميزت تونس خلال هذه المرحلة من تاريخها فقد انتشرت الفتن الداخلية وسيطر الأعراب على البوادي وبعض المدن الداخلية، فيما انفصلت العديد من المدن الأخرى وأعلنت استقلالها عن السلطة المركزية نتيجة الضعف والهوان اللذان ميزاها فاسحة المجال لسلطة الأعراب، بالإضافة إلى المشاكل داخل الأسرة الحفصية الحاكمة حول الحكم وامتيازاته ومآثره.[3]

1- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص46.

2- أندريه ريمون: المرجع السابق، ص21.

3- إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص64.

- محاولة الدولة العلية تأمين تونس وضمها لممتلكاتها؛ لأنها تمثل بعدا استراتيجيا هام بموقعها المطل على الجزر الإيطالية، صقلية، نابولي، مالطا وغيرها، زيادة على ذلك أنها كانت تريد تأمين الجهة الشرقية للجزائر، ولا يتأتى لها ذلك إلا بالسيطرة على تونس وجعلها قاعدة متقدمة أخرى بعد الجزائر لعملياتها ضد المسيحيين.[1]
- رغبة الدولة العلية في السيطرة على بلاد المغرب، وتتبع ما قامت به الدولتان الأموية والعباسية، لأن سلاطينها يعلمون أنه لا يمكنهم نيل التزكية والخضوع لهم وبلاد الإسلام محتلة، لذلك كان قادتها يعتبرون أن تحرير البلاد الإسلامية من الاحتلال واجبا شرعيا يجب القيام به.
- الرغبة الشخصية لخير الدين في الانتقام من السلطان الحفصي الذي ثبتت عمالته للإسبان ضد بني جلدته، فقد خرب البلاد وضيع العباد، وتعاون ضد العثمانيين والإيالة الجزائرية التي مازالت في هذا الوقت العديد من مناطقها محتلة من طرف الإسبان، الذين كانوا يصولون ويجولون في تونس، بل ثبت عند خير الدين بما لا يدع مجالا للشك أن السلطان الحفصي يتآمر على الجزائر مع حاكم تلمسان، لذاك أراد قطع الطريق عليهما وفك هذا التعاون كما كان يظن خير الدين، الذي يقول في مذكراته: «... **إن هذا السلطان الذي لم يكن قادرا على مواجهتي بمفرده، ولذاك كان يستعين بالإسبان تارة، وتحريض الأمراء المحللين ضدي تارة أخرى، وكان على رأس المستجيبين لتحريضه سلطان تلمسان المعزول عن عرش الزيانيين، لقد كان هذا السلطان تابعا لي، إلا انه لم يكن يتردد في الاتصال بالإسبان والتحالف معهم سرا...**».[2]
- لعبت الصدفة دورها في عملية الفتح العثماني لتونس، فقد استطاع خير الدين باشا غزو العديد من المدن الساحلية الأوروبية مثل :كونتي دي فوني«Kontesde fundi»، بواتة دي أراغون« de» Yuanne aragon، ومدينة فوندي «Fondi»، فوندوم القديمة «Eskifonum»ليتجه بعدها إلى جزيرة سردينيا التي استطاع السيطرة عليها لمدة قصيرة، وبعد ذلك أراد التوجه بسفنه المثقلة بالغنائم والأسرى إلى الجزائر؛ وبسبب سوء الأحوال الجوية اتجه إلى بنزرت[3]، فكانت الفرصة مواتية لخير الدين من أجل تحقيق مشروعه الذي لطالما حلم به، خاصة وأن جل الدول الأوروبية كانت منشغلة بالحروب الإيطالية، فيما كانت القوات الإسبانية منشغلة في الجزائر، لذلك أدرك أن القوات الإسبانية والأوروبية لن تتحد ضده.

1- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص44.
2- خير الدين: المصدر السابق، ص100.
3- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص111.

- محاولة خير الدين إثبات جدارته بتقلد منصب قبدان داريا الأسطول العثماني، خاصة وأن السلطان سليمان القانوني كان يضع فيه ثقة تامة سواء ما تعلق بمنصب قيادة الأسطول أو حكم الإيالة الجزائرية، فقد كافأه السلطان بتولي المنصبين في نفس الوقت، علما أن السلطان العثماني سليمان القانوني والصدر الأعظم إبراهيم باشا كانا مسروران جدا بما كان يفعله وبالإصلاحات التي أدخلها على الأسطول، بالإضافة إلى الانتصارات المتتالية التي كان يحققها في مضيق ماسينا روجيو«Reggio» الإيطالية وعودته بالعديد من الغنائم منها[1]، لذلك أراد إثبات حسن النية تجاه الدولة العلية وأنه محل ثقة سلطانها، فكان لابد له من عمل أكبر من كل هذه الغزوات في أوروبا، ولم يكن له بدا إلا التفكير في تونس لأنها قريبة من الجزائر وضمها يعني توسيع ممتلكات الدولة العلية في المتوسط .
- بما أن طرابلس الغرب هي الجارة الشرقية لتونس الخاضعة للاحتلال المالطي، وإدراكا من خير الدين لأهميتها الاستراتيجية كان يريد قطع الطريق على فرسان مالطا وتحييدهم في المواجهة المقبلة مع إسبانيا والسلطان الحفصي، الذي عقد اتفاق صلح وصداقة وحسن جوار مع فرسان القديس يوحنا، فقد بعث حاكم طرابلس المالطي برسالة إلى مولاي الحسن يخبره بأنه خاطب حكومة بلاده وطلب منها عدم إرسال السلاح لتاجوراء؛ التي كان سكانها في حروب متواصلة مع المالطيين بطرابلس، فأراد خير الدين قطع هذا التعاون وتدعيم سكان تاجوراء ضد المحتلين المالطيين وتشتيت جهود الإسبان وحلفائهم الحفصيين والمالطيين، لذلك تحمس خيرالدين للسيطرة على تونس.[2]

2-2-البلاد التونسية إيالة عثمانية سنة 940هـ/1534م.

توجه خير الدين إلى القسطنطينية بأمر من السلطان العثماني سليمان القانوني الذي كان ينوي غزو إسبانيا ونصرة الأندلسيين، لذلك سارع خير الدين في تلبية الدعوة، وفي ذلك يقول: «...**إلى بايلرباي الجزائر العربية الغازي خير الدين باشا: اعلم بأنني عازم على غزو ملك إسبانيا، فإذا وصلك كتابي هذا فاستخلف من تعتمد عليه وأقدم عليا في إسطنبول أما إذا لم تجد من تعتمد عليه في خلافتك فأعلمني بذلك... ما كدت أقرأ كتاب السلطان حتى قلت لسنان شاوش: هذا أمر مولانا: سوف أتوجه إلى إسطنبول على جناح السرعة لكي أتشرف بالمثول بين يديه فأنظر ماذا يأمر به...**».[3]

تمخضت عن هذه الرحلة إلى عاصمة الدولة العلية على عدة نتائج منها:

1- خير الدين: المصدر السابق، ص170.

2- عمر محمد الباروني: المرجع السابق، ص91.

3- خير الدين: المصدر السابق، ص159.

- تعيين خير الدين قبودان داريا الأسطول العثماني.
- إشرافه على تجديد وتطوير الأسطول العثماني.
- غزو العديد من المناطق الإسبانية على السواحل الإيطالية مثل ماسينا والسواحل الغربية لجزيرة سيردينيا، والحصول على الكثير من الغنائم، بالإضافة إلى مهاجمة العديد من قطع الأسطول الإسباني ذهابا وإيابا إلى استانبول.
- تأييد كلي تحصل عليه خير الدين من طرف القيادة العثمانية ممثلة في السلطان سليمان القانوني والصدر الأعظم إبراهيم باشا.

هنا يجب الإشارة إلى ملاحظتين هامتين هما:

- بعد أن عين السلطان العثماني خير الدين قبودان داريا الأسطول العثماني طلب منه التوجه إلى حلب لملاقاة الصدر الأعظم لإتمام إجراءات هذا التعيين*، وهذا يدل على القيمة الكبيرة والثقة المطلقة التي كان يتمتع بها الصدر الأعظم إبراهيم باشا عند السلطان، وأيضا التأثير الواضح له في اتخاذ القرارات المهمة للدولة خاصة في المراحل القادمة من تاريخها، أين تصبح الوزارات بيد هؤلاء الصدور العظام.
- الطاعة العمياء التي كانت عند خير الدين لقرارات السلطان وحرصه على تنفيذها بكل حذافرها، فقد انطلق لتوه عندما طُلب منه التوجه لحلب لمقابلة الصدر الأعظم، فقد قطع المسافة في عشرة أيام تحمسا ورغبة في تعيينه قبودان باشا، أين نال التزكية لهذا المنصب من طرف إبراهيم باشا الذي رأى فيه الرجل المناسب لقيادة الأسطول في هذه المرحلة والإشراف على دار صناعة السفن لتطويره.

لكن ما نلاحظه أن خير الدين في مذكراته لم يأت على ذكر مشروع غزو إسبانيا، وهذا هو السؤال الذي يحير، خاصة وأن المهمة الأولى التي ذهب من أجلها هي هذا المشروع، فلماذا يا ترى لم يناقش هذا الأمر مع السلطان والصدر الأعظم؟ أم أنه نوقش ولم يذكر تفاصيله.

- هل أن خير الدين أطلع السلطان عن حقيقة الأوضاع في المتوسط وأقنعه بأنه لا يستطيع غزو إسبانيا وتونس وطرابلس الغرب وبعض مناطق الجزائر وأيضا بعض مناطق المغرب الأقصى محتلة ويجب الاهتمام بتحريرها أولا.

* – خاطبه قائلا: «...اسمع يا باشا... أريد أن أجعلك قبدان داريا لتتولى إدارة أسطولنا السلطاني وقيادته في حروبك المظفرة ... ولتعلم بأنني لن أنزع منك ولاية الجزائر بل ستحتفظ بها بصفتك بيلرباي عليها، إلا أنه يتعين عليك أن تختار من تراه مناسبا لإدارتها نيابة عنك والإشراف عليها باسمك، ولكي تتمكن من ترتيب الأمور المتعلقة بهذين المنصبين عليك أن تقابل وزيرنا الأعظم المعسكر في حلب، فعجل بامتطاء فرسك والحق به، وعندما ترجع سوف نتقابل من جديد ...» ... للاستزادة ينظر، خير الدين: المصدر السابق، ص ص 164 .165.

- أم أن تدخل الصدر الأعظم بعد مناقشة الأوضاع مع خير الدين، ثبط عزيمة السلطان عن مهاجمة إسبانيا في هذه المرحلة، مع العلم أن الأرمادة الإسبانية كانت من القوة ما تجعلها في حالة الهجوم وليس الدفاع، وإلا بماذا نفسر احتلال طرابلس مع فرسان مالطا، وتواجده بالعالم الجديد وإيطاليا وهزمه للأسطول الفرنسي في الحروب الإيطالية.
- هل اتخذ السلطان قرار غزو إسبانيا كتهديد فقط ؟، وهي حرب نفسية داخلة في الحروب العسكرية بين الطرفين.
- هل خير الدين أقنع السلطان العثماني أن تونس وطرابلس الغرب والجزائر أولى من إسبانيا بما أنهم الأقرب للإيالة الجزائرية التي أصبحت قوة لا يستهان بها ومع ذلك لا زالت بعض أراضيها محتلة والأولوية لبلاد المغرب، بدل تشتيت الجهود في أهداف بعيدة المنال.
- هل فشل الثورات الأندلسية كان سببا مقنعا لثني السلطان عن مشروعة بعد تقارير من خير الدين تثبت عدم جدوى مهاجمة إسبانيا لأنها لن تعود لحاضرة الإسلام، بعد إن تمكنت إسبانيا من إتمام وحدتها وبناء قوة عسكرية تضاهي القوة العثمانية.
- هل الصدر الأعظم أراد عدم تشتيت جهود القوات العثمانية في أهداف لن تتحقق؟ هل تخوف الصدر الأعظم من مكانة خير الدين عند السلطان هو الذي منعه من الموافقة على هذا المشروع؟، حتى لا ينال شرف انتصار قد يتحقق ويحسب لصالح خير الدين في غياب الصدر الأعظم الذي سيفوته هذا الشرف.
- هل مصلحة الدولة العلية منعت تشتيت جهود الأسطول العثماني في المتوسط والعالم؟، هذا ما يضعف قدراته في مواجهة إسبانيا خاصة وأوروبا عامة، علما أن القوات العثمانية كانت منتشرة في البلقان والمغرب الإسلامي وأوروبا وغيرها.

اجتمع السلطان العثماني بخير الدين الذي أطلعه على أوضاع بلاد المغرب ومن بينها تونس التي ثبتت عاملة سلطانها للإسبان، لذلك أدرك السلطان العثماني أن مهمة طرد الإسبان من تونس وبلاد المغرب مسؤولية ملقاة على عاتقه وعاتق الدولة العلية، التي لن تبق تنظر لمعاناة السكان المغاربة بالرغم من انشغالها في حروبها العديدة في المجر ورودس وغيرها من المناطق التي تستنزف أفضل وأكبر ما عندها من القوات.[1]

وفي أثناء هذه السفارة إلى إستانبول اصطحب خير الدين معه الرشيد أخو السلطان مولاي الحسن، وقدمه للسلطان وعرض عليه قضيته بالكامل، واستمع إليه السلطان باهتمام وحز في نفسه ما تتعرض له تونس

1- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص109.

من مؤامرات داخلية وخارجية، وفي الأخير وافق السلطان على مهاجمة تونس وأمر خير الدين في طريقه مهاجمة كلايا وصقلية والعديد من المدن الساحلية الأوروبية الأخرى.[1]

عندما قرر خير الدين التوجه إلى تونس لم يصطحب معه الرشيد الذي أعطيت له أهمية بالغة فقد خصص له معاشا محترما قدره 5000 أوقجا يوميا وتأمين كافة مستلزماته بإستانبول والعيش بها كيفما شاء[2]، لكن السؤال المطروح هو لماذا لم يصطحب خير الدين الرشيد؟ وربما يرجع ذلك لعدة أسباب:

- ربما هي خطة من خير الدين للتخلص من آخر الحفصيين باعتبار أن مولاي الحسن أصبح إسقاطه من الحكم مسألة وقت فقط، وكان يريد الانفراد بحكم الجزائر وتونس.
- ربما الأمر كان من طرف السلطان الذي أراد ألا يحكم أي سلطان من المغرب بلاده، لأنه يريد أن يضع حكاما عثمانيين على رأس هذه الإيالات.
- قد يكون الرشيد نفسه هو الذي رفض العودة بعد الاستقبال الرائع من طرف السلطات العثمانية؛ حتى وإن كان هذا الأمر مستبعدا لأن أهمية الحكم وامتيازاته تغري كل إنسان حتى ولو أعطيت له كل المستلزمات الضرورية خارج بلاده، مع العلم أن الرشيد ذهب إلى إستانبول للعودة إلى حكم بلاده.*
- ربما تم إرغام الرشيد على عدم العودة إلى تونس لأنه كان الوحيد عند العثمانيين الطامعين للسيطرة على بلاد المغرب، ولم يكن له من إرادة ولاقوه يستطيع بها رفض قرار الإبقاء بإستانبول.
- قد يكون وعد بالعودة حينما يتم تحرير البلاد من الاحتلال الإسباني إلا أن هذا التحرير سرعان ما تلاشى، لأن شارلكان يستطيع إعادة احتلال تونس سنة1535م بسرعة لم تكن متوقعة، وبذلك تعذرت عودة الرشيد.

بعد إتمام خير الدين استعداداته باستانبول مزهوا بنيل تزكية السلطان العثماني سليمان القانوني والصدر الأعظم إبراهيم باشا وكبار المسئولين بالدولة العلية، ومفتخرا برتبته الجديدة على رأس الأسطول العثماني قرر المغادرة بأسطوله المكون من 800 إنكشاري و8000 بحار[3]، ومبلغا من المال قدره 800 قطعة ذهبية كهدية من السلطان سليمان القانوني[4]، وفي طريقه إلى تونس استطاع غزو العديد من المدن الإيطالية وقام بضرب قلاع

1- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص46.

2- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص110؛ محمد دراج: المرجع السابق، ص283.

* - ذكر جون وولف أن الرشيد سجن بسجن نورام بإستانبول (ص46)، ربما هذا لإظهار خير الدين والسلطان العثماني بالهمجية والغدر والخيانة التي يريد إلصاقها بهما وهذا هو ديدنه في هذا الكتاب.

3- محمد دراج: المرجع السابق، ص283.

4- عزيز سامح آلتر: المرجع السابق، ص110.

سبيرلونغة، كترارو، وسان لوسيدو ومن خلالها استطاع الحصول على الكثير من الغنائم، وفي نفس الوقت أوهم الأوروبيين أن هدفه فتح روما، مما أرعبهم، خاصة البابا الذي بدأ في استنهاض كامل أوروبا لاتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع التقدم العثماني.[1]

واصل الأسطول العثماني سيره باتجاه تونس وبتاريخ 15 أوت 1534م مرسى بميناء مدينة بنزرت، أين استطاع خير الدين السيطرة على حلق الوادي بسهولة تامة وبدون مقاومة تذكر[2]، وفيها أمر بقراءة الخطبة باسم السلطان العثماني على منابر مساجد بنزرت إيذانا بإلحاقها بالدولة العلية[3] ثم توجه إلى مدينة تونس ومعه 5000 من الفرسان، استطاع معهم السيطرة على قلعة المدينة بسهولة وبدون مقاومة تذكر، لأن مولاي الحسن بمجرد ما سمع بخبر الحملة فرّ هاربا إلى الصحراء مستغيثا بحلفائه من الأعراب، فيما أسر أتباعه الذين حاولوا عبثا الدفاع عن سلطانهم أما زعماء المقاومة المحلية فقد تم تنفيذ حكم الإعدام بحقهم لأنهم قاوموا خير الدين وأتباعه[4]مع العلم أن القوات العثمانية لم تكتف بدخول مدينة تونس بل واصلت زحفها إلى غاية القيروان ثم قفلت راجعة إلى العاصمة تونس.[5]

بمجرد دخول خير الدين مدينة تونس لقي ترحيبا كبيرا من طرف السكان المحليين وأنصار الرشيد وأقاربه، لأنهم اعتقدوا أن الرشيد كان بصحبة خير الدين[6] من أجل حكم تونس، إلا أنهم أصيبوا بصدمة عنيفة عندما علموا أن خيرالدين لم يصطحب الرشيد، وأصابهم الذهول لأنهم أدركوا أن بلادهم سوف تصبح إيالة عثمانية مثلما كان الحال مع الجزائر، وسوف تحكم باسم السلطان العثماني وليس باسم السلطان الحفصي الجديد مولاي الرشيد؛ لأن التونسيين لم يكونوا يتوقعون هذا السيناريو غير المنتظر لذلك أحسوا بخديعة ومكر خير الدين والعثمانيين، ومهما كانت سلبيات الحفصيين فإنهم كانوا منهم، وألفوا حكمهم لمدة فاقت الثلاثة قرون، ولذلك لم يتقبلوا فكرة زوال هذه الدولة وبهذه السهولة.

إذن يبقى الحفصيون من السكان الأصليين للبلاد مهما كانت عمالتهم وسلبياتهم، وهذه حقيقة أدركها الإسبان الذين أبقوا الأسرة الحفصية في الحكم بالرغم من علمهم بكره السكان لهم وللإسبان على حد سواء، وقد

1- محمد دراج: المرجع السابق، ص284.
2- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص46.
3- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص11.
4- عزيز سامح آلتر: المرجع السابق، ص112.
5- خير الدين: المصدر السابق، ص171.
6- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص47.

أراد التونسيون تغيير حاكمهم الحفصي بآخر من الحفصيين أيضا وليس أجنبيا عنهم، فلذلك لم يتقبلوا فكرة زوال دولتهم بخديعة من خير الدين، وهو ما ألب عليه السكان التونسيين.

بعد اكتشاف خديعة خير الدين قام بعض أعيان المدينة بمراسلة السلطان مولاي الحسن سرا يدعونه للقدوم إليهم، معلنين له عن جمع الأسلحة لشن هجومات مباغتة على العثمانيين معتبرينهم أعداء يجب قتالهم، إلا أن خير الدين اكتشف خطتهم وأعلن الحرب عنهم، وأمام اكتشاف عدم قدرتهم على المواجهة أعلنوا استسلامهم والدخول في طاعة السلطان سليمان القانوني، وأمام هذه الأوضاع أعلنت بعض القبائل العربية دخولها في طاعة خير الدين والمساهمة في السيطرة على بعض المدن الأخرى.[1]

تشجع مولاي الحسن وجمع قواته ومن انظم إليه من سكان المدن والبوادي، وقام بهجوم مباغت على مدينة تونس، إلا أنه مني بهزيمة نكراء فقد على إثرها حوالي 900رجل من قواته، ليفر بعدها إلى القيروان أين استطاع أن يجمع حوالي 15000مقاتل اتجه بهم لقتال خير الدين، حيث التقى الطرفان في الصحراء، وجرت بينهما معارك طاحنة كانت فيها الغلبة للعثمانيين بفضل مدفعيتهم المتطورة[2]، فيما فضل مولاي الحسن الفرار من أرض المعركة لأنه لم يكن لقواته سابق عهد بحروب المدفعية، هذا ما اضطر شيوخ وزعماء بعض القبائل الالتحاق بخير الدين معلنين له خضوعهم وتبعيتهم له.[3]

عندما أدرك مولاي الحسن عدم قدرته على مواجهة خير الدين وجنوده قرر الفرار والاستنجاد بالإسبان، الذين كانوا يدركون الأهمية الاستراتيجية لتونس، منتظرين فقط الفرصة المواتية، وقد أخبرهم السلطان الحفصي أن جميع السكان معه وينتظرون المعونة منهم لطرد العثمانيين وفي ذلك يقول ابن أبي الضياف: «... **ولما رأى السلطان الحسن أنه لا قدرة له على مقاومة خير الدين، لوى عنانه إلى الصبنيول، فركب إليه البحر مستصرخا وأخبره أن البلدان والبوادي من أهل المملكة معه، وبذل له ما أرضاه في العاجل والآجل...**».[4]

استطاع خير الدين وقواته بسط سيطرته على تونس وجعلها سنجقا عثمانيا، وتليت الخطبة باسم السلطان العثماني وأخضعت القبائل المتمردة واضطرت لإعلان الولاء والطاعة للسيد الجديد، فيما كان مولاي الحسن عند الإسبان رغبة في استعادة ملكه الضائع، تاركا بلاده تحت رحمة غرباء عن المنطقة، أما مولاي الرشيد فقد ضاعت أحلامه بمجرد وصوله إلى استانبول تاركا ورائه بلادا تمزقها الخلافات والأهواء، وتتجاذبها أطرافا من

1- مرمول كربخال: المصدر السابق، ج3، ص31.

2- محمد دراج: المرجع السابق، ص286.

3- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج2، ص ص 11، 12.

4- نفسه: ص13.

خارج الأسرة الحفصية وكل واحد منهم يحاول تحقيق أهدافه ومصالحه على حساب أهل المنطقة، نتج هذا عن ضعف حكام تونس الذين استنجدوا بالأجنبي* بدل من حل مشاكلهم الخاصة في ما بينهم، ولذلك نقول أن الصراع انحصر بين العثمانيين والمسيحيين فيما كانت الرعية تنظر إلى بلادها وهي تضيع من بين أيديها .

المبحث الثالث: الرد الإسباني على تحرير البلاد التونسية سنة940هـ/ 1534م.

1-حملة شارلكان على تونس سنة941هـ/ 1535م.

بعد سيطرة خير الدين على تونس وإلحاقها بالدولة العلية العثمانية أدركت إسبانيا ومن ورائها الكنيسة البابوية بروما حقيقة الخطر العثماني، لأن العثمانيين لم يكتفوا بضم الجزائر والتوسع في الجهة الشرقية من أوروبا مستغلين في ذلك الخلافات الأوروبية الأوروبية، لذلك قرر شارلكان تحييد خلافاته مع فرنسا جانبا داخل إيطاليا، والالتفاف إلى بلاد المغرب الإسلامي، خاصة بعد ازدياد نشاط خير الدين واتساع طموحاته، لأنه أدرك أن الدولة العلية لن تكتف بما حققته في تونس والجزائر بل ستمتد أنظارها إلى كامل البلاد المغاربية وحتى إسبانيا نفسها .

وقد تهيأت العديد من الأسباب لشارلكان من أجل القيام بهذه الحملة.

1-1-أسباب الحملة الإسبانية على تونس.

أ-استنجاد مولاي الحسن بالإسبان.

لعب مولاي الحسن دورا بارزا في تحريض الإسبان على القيام بهذه الحملة، رغبة منه في استعادة ملكه من العثمانيين، خاصة وأن شارلكان استمع لنصيحة أحد الأعلاج الألمان الذي طلب منه مساعدة مولاي الحسن لطرد خير الدين من البلاد التونسية[1]، وهذا في الحقيقة ليس رغبة من شارلكان في إعادة السلطان الحفصي إلى الحكم، وإنما رغبة في احتلال تونس وجعلها قاعدة متقدمة ضد العثمانيين؛ ومحاصرتهم في الجهة الغربية من الجزائر بحاميته الموجودة بالمرسى الكبير ووهران ومن الجهة الشرقية بتونس وفرسان مالطا، وجعل تونس مركزا في الجهة

* -لما استنجد المعتمد بن عباد بالمرابطين قبل معركة الزلاقة سنة 479هـ قيل له بأنك سلمت البلاد لهم، وكان يمكن أن تتصالح مع المسيحيين، فقال لهم مقولة شهيرة مازالت تتداول إلى يوم الناس هذا، فقال: رعي الإبل خير لي من رعي الخنازير، وكان يقصد بذلك أن يحضر لحم المرابطين الذين يمثلون الإسلام خيرا له من الخضوع للمسيحيين لأنه كان يدرك حقيقتهم ومراميهم، على عكس الحكام المغاربة في هذه المرحلة الذين كانوا يرتمون في أحضان المسيحيين مفضلين مصالحهم الخاصة على حساب مصالح دينهم وبلادهم ورعيتهم لما استنجد المعتمد بن عباد بالمرابطين قبل معركة الزلاقة سنة 479هـ قيل له بأنك سلمت البلاد لهم، وكان يمكن أن تتصالح مع المسيحيين، فقال لهم مقولة شهيرة مازالت تتداول إلى يوم الناس هذا، فقال: رعي الإبل خير لي من رعي الخنازير، وكان يقصد بذلك أن يحضر لحم المرابطين الذين يمثلون الإسلام خيرا له من الخضوع للمسيحيين لأنه كان يدرك حقيقتهم ومراميهم، على عكس الحكام المغاربة في هذه المرحلة الذين كانوا يرتمون في أحضان المسيحيين مفضلين مصالحهم الخاصة على حساب مصالح دينهم وبلادهم ورعيتهم.

1- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص47.

الغربية للمتوسط ومنطلقا لتحقيق أهدافه الرامية لتأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف وتأمين طرق التجارة الإسبانية في المتوسط.

ب-تأمين السواحل الإيطالية من هجمات المسلمين.

عندما كان خير الدين عائدا من إستانبول بعد موافقة السلطان العثماني على فتح تونس سنة 1534م طلب منه السلطان العثماني غزو بعض السواحل الأوروبية، وأثناء هذه الغزوات أوهم الأوروبيين أنه يريد فتح روما وبذلك تملك الرعب قلوب الأوروبيين[1]، لأنهم أدركوا حقيقة الخطر العثماني الداهم، لذلك قرر شارلكان باعتباره حامي الإمبراطورية الرومانية المقدسة الدفاع عن ممتلكاته ووقف هجمات البحارة العثمانيين ولا يتأتى له ذلك إلا بالسيطرة على تونس لأنها أقرب منطقة للدويلات الإيطالية.

ج-تأمين طرق التجارة.

عرفت إسبانيا خلال هذه الفترة نموا اقتصاديا هائلا ناتجا عن عائدات الذهب والفضة من العالم الجديد، فانعكس ذلك إيجابا على الاقتصاد الإسباني، وتوفرت السلع والمنتجات، وأصبح هناك فائضا في الإنتاج، فكان لزاما تصريف هذا الفائض إلى الخارج، وفي نفس الوقت البحث عن الموارد الأولية المفقودة، ولا يمكن أن تواصل هذا التطور والنمو إلا بتأمين الطرق التجارية، سواء باتجاه العالم الجديد أو باتجاه الشرق، ومادام الطريق البحري في المتوسط مهما جدا ويعتبر من أهم أسباب تأمينه السيطرة على تونس، ولذلك أرادت إسبانيا من هذه الحملة تأمين الطريق البحري الرابط بين إسبانيا وممتلكاتها في إيطاليا.[2]

د-إيقاف توسع الإيالة الجزائرية.

عرفت الإيالة الجزائرية خلال الفترة الممتدة من 1520-1546م أزهى فترات تطورها واتساعها، فقد استطاعت تحرير الجزء الأكبر من أراضيها المحتلة من طرف الإسبان، وبذلك زادت طموحات حكامها بعد تعيين خير الدين قبودان الأسطول العثماني الذي استطاع تحرير تونس وإلحاقها بالدولة العلية العثمانية لذلك خشي القادة الإسبان من ازدياد طموحات خير الدين ومحاولاته المتكررة توسيع ممتلكات الإيالة الجزائرية باتجاه طرابلس الغرب، وربط ممتلكات الدولة العلية ببعضها البعض؛ من الجزائر غربا إلى مصر شرقا، فسارع شارلكان لإجهاض هذا المشروع الطموح مخافة أيضا من السيطرة على صقليا وسردينيا.

1- عزيز سامح آلتر: المرجع السابق، ص111.

2- عبد المنعم إبراهيم الجميعي: الدولة العثمانية والمغرب العربي، دار الفكر العربي للطبع والنشر، القاهرة، مصر، 2002، ص58.

هـ -دعم فرسان مالطا وتأمين الحماية لهم.

عندما سلم شارلكان طرابلس الغرب لفرسان مالطا سنة 1530م تعهد لهم بالحماية والدعم اللازمين، ولذلك وبمجرد سيطرة خير الدين على تونس أدرك فرسان مالطا الخطر الحقيقي الذي يمثله الوجود العثماني بجوارهم فسارعوا للاستنجاد بالبابا وشارلكان، وطلبوا من هذا الأخير الوفاء بتعهداته اتجاههم لأنه حامي المسيحيين، فحاول جاهدا تأمين الحماية اللازمة لهم[1]، وتقديم المساعدة لهم وعدم تركهم في مواجهة مصيرهم لوحدهم، وقطع الطريق أمام خير الدين إذا فكر في حصار طرابلس.

و-الحد من التعاون الجزائري العثماني.

منذ تأسيس الإيالة الجزائرية التي أصبحت سدا منيعا في وجه طموحات وتوسعات الإسبان، هذا ما أكسبها مكانة مرموقة لدى السلاطين العثمانيين، خاصة بعد أن أصبح خير الدين يجمع بين وظيفتي حكم إيالة الجزائر وقيادة الأسطول العثماني، لذلك أدركت إسبانيا أنه لا يمكنها هزم العثمانيين ما لم تقطع تعاونهم مع الجزائريين، لذلك حاولت حصار الجزائر من الشرق باحتلال تونس ومن الغرب بقواعدها في المرسى الكبير ووهران تمهيدا للانقضاض عليها وإنهاء الوجود العثماني بها[2]، وكانت الخطوة الأولى السيطرة على تونس لتنفيذ هذا المشروع.

ز-اضطراب الأوضاع الداخلية لتونس.

بعد سيطرة خير الدين على تونس لم تستقر الأوضاع الداخلية لها وواجهته عدة مشاكل وتمردات[3] نتيجة لعدة عوامل منها:

- ممارسات بعض جنود الإنكشارية ولّد حقد وكره وتنافر بين الطرفين.
- إحساس سكان تونس بخيانة خير الدين لهم، بعد تركه الرشيد بإستانبول ومحاولة استئثاره بالحكم.
- ولاء التونسيين للأسرة الحفصية لأنها أسرة محلية، فيما كان العثمانيون غرباء عن المنطقة.
- إدخال خير الدين لتنظيمات وقوانين جديدة عن المجتمع التونسي، كان لها التأثيرات السلبية على العلاقة بين الطرفين.
- على عكس الجزائر التي خضعت معظم سواحلها للاحتلال الإسباني، كانت تونس غير محتلة مباشرة من طرف الإسبان، لذاك لم يحدث اندماج حقيقي بين العثمانيين والتونسيين.

1- عزيز سامح آلتر: المرجع السابق، ص114.

2- محمد دراج: المرجع السابق، ص288.

3- عبد المنعم بن براهيم الجميعي: المرجع السابق، ص58.

كل هذه العوامل ألبت السكان ضد خير الدين الذي واجه العديد من المشاكل والتمردات.

ض-فك الحصار عن القوات الإسبانية بالجزائر.

عندما استطاع خير الدين بسط نفوذه على تونس أصبحت مناطق الاحتلال الإسباني بالجزائر محاصرة بعدة جهات؛ فداخليا هجمات القبائل وقوات الإنكشارية ومن جهة البحر البحرية الجزائرية، وبذلك لم تستطع إسبانيا ربط مراكز احتلالها ببعضها البعض في المغرب الإسلامي، وظلت مجرد حصون متفرقة[1] مصيرها آيل للزوال في أية لحظة، لذلك أدرك الإسبان خطورة الأوضاع بعد السيطرة على تونس من طرف العثمانيين وأرادوا تصحيح أخطائهم قبل فوات الأوان.

ظ-استغلال الحروب العثمانية الفارسية.

لم تتوقف الحروب الفارسية العثمانية منذ ظهور الدولة العثمانية كدولة عالمية تحاول بسط نفوذها على كامل الأراضي الإسلامية، فيما أرادت الدولة الصفوية إحياء أمجاد الإمبراطورية الفارسية، غير أن هذه الأحلام تلاشت أمام قوة الدولة العلية العثمانية، خاصة في عهد سليم الأول وسليمان القانوني الذي اشتغل بالحروب ضد الصفويين، الذين حاولوا استغلال تفرق جهود العثمانيين وبدأوا في تحريض شارلكان على استغلال هذه الأوضاع لصالحه، وعدم ترك الفرصة تمر موضحا له أن تواجد العثمانيين بالجزائر يحد من طموحاته وُيفقد إسبانيا الكثير من الامتيازات الإسبانية، ووجود خير الدين بتونس يشكل تهديدا مباشرا للعالم المسيحي عامة وإسبانيا خاصة.[2]

2-استعدادات الطرفين.

2-1-الاستعدادات الإسبانية.

بدأت الاستعدادات الإسبانية مبكرا لحشد الدعم الأكبر لهذه الحملة، خاصة الكنيسة الكاثوليكية والدويلات الإيطالية وفرسان القديس يوحنا، بالإضافة إلى ألمانيا والبرتغال لأنهم جميعا معنيون بالخطر العثماني، واستطاع الملك الإسباني جمع أسطولا ضخما مكونا من 500سفينة حربية وأخرى لتقديم الدعم اللوجيستي ونقل الجنود[3] من جميع أنواع الغليونات، السفن الشراعية، السفن الإبريقية، الأسطوانات وأنواع أخرى من السفن، فيما قدر عدد الجنود بحوالي 39000؛ 34000 جندي و15000 فارس.[4]

1- شوقي عطا الله الجمل: المرجع السابق، ص90.

2- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص113؛ محمد دراج: المرجع السابق، ص288.

3- خير الدين: المصدر السابق، ص172.

4- جون وولف: المرجع السابق، ص، ص47، 48.

وللتدليل على ضخامة هذه الحملة ننقل هذه الإحصائيات من كتاب الحوليات التونسية لصاحبه ألفونص روسو:

أ-القوات البحرية.

- القوات الإسبانية الجنوية الفلاندرية :54سفينةمن نوع غالير «Gale'res»، 70سفينة كبيرة و24 سفينة إبريقية «Bricks»، وكانت هذه القوات تحت إمرة أندري دوريا.
- القوات البرتغالية تتألف من 27 سفينة تحت إمرة أونطونيو سالدانا «Antoinede Saldanha».
- القوات الإيطالية المالطية: تتألف من36سفينة من نوع غاليار و28 سفينة كبيرة تحت إمرة ألفار بزان «Alvar Bazan» بالإضافة إلى الكثير من وسائل النقل الأخرى.

ب-القوات البرية.

- القوات الإسبانية تعدادها 4000 مقاتل من قدماء المحاربين الإيطاليين بقيادة الجينرال الماركيز دي جوا زات «Marquisde Guast».
- القوات الإسبانية – المقاتلين الجدد: تتكون من 8000جندى بقيادة فرديناند الطليطلى « ferdinand de toletdo».
- القوات الألمانية تتكون من 7000مقاتل بقيادة ماكسيمليان بيدرا بوينا « Maximillian piedra Buena».
- القوات الإيطالية تتكون من 4000رجل، بقيادة الأمير سالران.
- القوات البرتغالية تتكون من 2000رجل، بقيادة دون لويس ابن ملك البرتغال.
- الفرسان من النبلاء من جميع الأمم الأوروبية، قارب عددهم 1000رجل، بقيادة الماركيز دي مونديخار «marquis de mondejar» بالإضافة إلى 500فارس إسباني.[1]

من خلال هذه الإحصائيات يمكننا إبداء بعض الملاحظات:

- تعتبر هذه الحملة؛ حملة أوروبية بامتياز فقد شاركت فيها جميع الأمم المسيحية، خاصة الدول التابعة للإمبراطورية الإسبانية.

1- ألفونص روسو: الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، نقلها ونقحها وحققها، محمد عبد الكريم الوافي، منشورات قار يونس، بنغازي، ليبيا، 1992م، ص ص 88، 89.

- نلاحظ غياب القوات الفرنسية في هذه الحملة نتيجة الخلافات مع إسبانيا بسبب الحروب الإيطالية التي كانت في أوجها خلال هذه الفترة.
- شارك كبار القادة العسكريين والسياسيين الأوروبيين، وهذا يدل على الأهمية البالغة التي أولاها شارلكان للاحتلال تونس.
- بمشاركة القوات البرية والبحرية الأوروبية قرر شارلكان احتلال تونس نهائيا، وخطط لذلك بإحكام ولم يترك أي مجالا للصدفة.
- الخطر العثماني في المتوسط أدى إلى شعور الدول الأوروبية بالخطر، لذلك كان لزاما احتلال تونس، وفيما بعد تكون الجزائر.
- بلغ عدد سفن الأسطول حوالي 289 سفينة، فيما كان عدد الجنود المشاة حوالي 26500 وهذا ما يوافق ماذكره مرمول كربخال، فيما ذكر جون وولف رقم 24000 جندي[1]، أما خير الدين في مذكراته فقد ذكر 30000[2]، وهي إحصائيات متقاربة جدا، وفي المقابل نلاحظ اختلافا كبيرا بين هذه الإحصائيات وإحصائيات المصادر العربية؛ فقد ذكر الوزير السراج أن عدد القوات الأوروبية بلغ حوالي 100000جندي وهذا ما اتفق معه ابن أبي الدينار[3]، وهي رواية فيها الكثير من الخيال لأنه لايعقل أن تكون هذه القوات مع بعضها دفعة واحدة لعدة اعتبارات منها:
  - الحروب الإيطالية ودورها في تشتت الجيوش الأوربية.
  - تفرق الجيوش الإسبانية على عدة جبهات الجزائر، الحروب الإيطالية، العالم الجديد.
  - الحروب الأوربية خارج إيطاليا.
- مبالغة المصادر المحلية في تضخيم العدد على عكس المصادر الأوروبية التي تقلل العدد للبرهنة على أن المغاربة كانوا من الضعف الشديد، حتى أنهم لا يستطيعون رد أي حملة أوربية، أما عزيز سامح آلتر اقترب كثيرا من إحصائيات ألفونص روسو حيث قدر عدد القوات الأوروبية 22000؛ منهم 20000 من المشاة و2000من الخيالة و200سفينة[4]، فيما ذكر محمد دراج أن عدد السفن بلغ 500سفينة

1- مرمول كربخال: المصدر السابق: ص 34؛ جون. ب. وولف: المرجع السابق، ص 48.

2- خير الدين: المصدر السابق، ص 175.

3- الوزير السراج: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج2، تقديم وتحقيق، محمد الحبيب الهيلة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1973م، ص 20؛ ابن أبي الدينار، المصدر السابق، ص 154.

4- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 115.

و30000 جندي من جميع الأمم الأوروبية[1]، وقد يكون هذا هو العدد الصحيح لأن ألفونص روسو ذكر 26500جندي مشاة، فيما لم يذكر عدد جنود البحرية الذي قد يكون 4500 جندي وهو العدد الذي توافق وما ذكره خير الدين، وبذلك نأخذ هذا العدد بالتقريب لجميع القوات الأوروبية المشاركة في هذه الحملة.

2-2-الاستعدادات العثمانية.

علم خير الدين مبكرا بخبر الحملة الإسبانية لذلك عمل كل ما في وسعه للتصدي لها، وبداية كانت بتوجيه ضربات متتالية للأهداف الإسبانية على السواحل الإسبانية نفسها وأيضا مهاجمة سفن الدويلات الإيطالية التابعة للإمبراطورية الإسبانية لتشتيت جهود قواها، وتوجيه ضربات استباقية لإرعاب القادة الإسبان، لعل وعسى يتراجعون عن التفكير في احتلال تونس والاكتفاء بالدفاع عن سواحلهم وفي ذلك يقول خير الدين: «...**لم يتأخر هذا السلطان في الاستنجاد بالملك كارلوس لاستعادة عرشه، فلبا هذا الأخير الدعوة وعلمت بأنه سوف يتوجه إلى تونس لإخراجنا منها، ولأجل ذلك شرعت على الفور في الاستعداد لتصدي له... وفي ذلك الشتاء أرسلت بعض سفني لضرب السواحل الإسبانية في غرب البحر المتوسط، وأما أسطولي الذي أرسلته للإغارة على سواحل سردينيا فقد عاد محملا باثنتي عشرة ألف دوقة ذهبية، وأربع مئة وخمسة وسبعين أسيرا بالإضافة إلى غنائم أخرى...»**.[2]

من خلال هذا النص نستشف بعض الحقائق:

- علم خير الدين بخبر الحملة مبكرا وهذا دليلا على نشاط وفعالية الجوسسة العثمانية الجزائرية.
- سرعة خير الدين ومفاجئته لشارلكان وذلك بتوجيه ضربات استباقية لإرباك القوات الإسبانية.
- قدرة خير الدين على المناورة والتخطيط الحربي الجيد بالرغم من فارق القوة بين الطرفين.
- لما أدرك خير الدين أن السلطان العثماني يحارب الدولة الصفوية وجهوده مشتتة ولا يستطيع مساعدته قرر المناورة بتوجيه ضربات استباقية للقوات الإسبانية.
- أعطى خير الدين إحصائيات دقيقة عن قيمة الغنائم التي قدم بها بحارته، الذين توجهوا إلى سردينيا وهذا دليل اطلاعه على جميع ما يتعلق بأسطوله.

1- محمد دراج: المرجع السابق، ص288.

2- خير الدين: المصدر السابق، ص 172.

- أكد مرمول كربخال أن خير الدين عرف مبكرا بأمر الحملة وفي ذلك قال: «...**علم بربروس بأمر الحملة عندما حل بحلق الوادي راهب فلورسني، مبعوثا من ملك فرنسا إلى إمبراطور الترك* وأكد له أن الإمبراطور يشارك بنفسه في الحملة لذلك أرسل بربروس مركبين صغيرين إلى القسطنطينية لاطلاع سليمان القانوني بما يحدث، وفي نفس الوقت أبلغه بضرورة التعجيل بإرسال المساعدات، وإلا ضاع جيش البحر، وضاعت معه ولايات الترك في بلاد البربر**...».[1]

من خلال هذا النص نلاحظ:

- اتفاق رواية مرمول كربخال مع رواية خير الدين حول علم هذا الأخير بخبر الحملة مبكرا، على عكس بعض المصادر العربية التي رجحت علمه المتأخر، مثل صاحب كتاب غزوات عروج الذي قال أن خير الدين علم بعد عمليات إنزال القوات الأوروبية بحلق الوادي.[2]
- تعاون خير الدين مع الملك الفرنسي ضد إسبانيا بسبب العداء الحاصل بين فرنسا وإسبانيا وأيضا الدولة العلية وإسبانيا، وهذا ناتج عن المصالح المشتركة وليس حبا من فرنسا للدولة العلية وخير الدين.
- استعمال رجل دين مسيحي للجوسسة يدل على قوة وعبقرية خير الدين في تنشيط شبكة الجوسسة العثمانية الجزائرية ضد إسبانيا.
- وقع اختلاف بين رواية خير الدين ومرمول كربخال، الذي ذكر أن خير الدين أرسل إلى السلطان العثماني بالتعجيل في إرسال المدد مباشرة بعد علم خير الدين بالحملة، فيما ذكر خير الدين أن هذا الطلب أرسل بعد إنزال القوات الإسبانية بحلق الوادي[3]، وهي الرواية التي نرجحها لأن صاحبها هو شاهد عيان على الأحداث ومؤثرا فيها.

أما من حيث قوات خير الدين الجاهزة فعليا للدفاع عن تونس فقدرت بحوالي 12000مقاتل[4]، نصفهم من المتطوعين الذين لا يعرفون فن القتال، وغير مؤمنين من الركون إلى العدو في حالة غلبته أو في حالة إغرائه

* - استعمال لفظ إمبراطور الترك تزامنا مع لفظ إمبراطور فرنسا وإمبراطور إسبانيا نابع عن ثقافة مرمول كربخال أما نحن فيجب علينا استعمال لفظ السلطان العثماني للدولة العلية، لأنه تاريخيا لا يمكن إطلاق هذا اللفظ على حكام المسلمين لأنها ألفاظ خاصة بالأوربيين، في المقابل لنا ألفاظنا الخاصة مثل الخليفة والأمير والسلطان الذي يطلق على حكام الدولة العلية، والكثير من المؤرخين الجزائريين والعرب يقع في الخطأ من حيث يعلم أو لا يعلم ويستعمل هذه لألفاظ الأوربية.

1- مرمول كربخال: المصدر السابق، ص 173

2- نفسه.

3- مجهول: غزوات...، المصدر السابق ص 95.

4- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 13؛ مجهول: المصدر السابق، ص95.

ونشر الإشاعة بينهم أو عندما لا يستعطون مقاومة العدو[1]، أما من حيث تحصين المدينة فقد بدأ خير الدين في بناء الاستحكامات وتجديد المهدم منها وإقامة الحواجز في حلق الوادي لأنها المعنية الأولى بمواجهة الإسبان والهدف المباشر لهم، وقبل احتلال تونس يستلزم احتلالها، لذلك نصب المدافع حولها وعين سنان باشا للقيام بالدفاع عن المدينة، وزوده بحوالي 120مدفعا بالرغم من قلتها في مقابل ما يملكه شارلكان.[2].

لايمكننا المقارنة بين قوات الطرفين عدة وعتادا، خاصة وأن شارلكان خطط جيدا لتوقيت هذه الحملة، مستغلا انشغال الجيوش العثمانية بمواجهة الدولة الصفوية، إلا أن خير الدين بشجاعته وتحمله مسؤولية الدفاع عن الأراضي الإسلامية كان مضطرا لمواجهة القوات الأوروبية المتحالفة مهما كانت العواقب.

3-سير الحملة الإسبانية:

كانت الحملة بقيادة شارلكان يساعده كل من أندري دوريا ودوق ألب ،وقد انطلقت من مدينة برشلونة يوم 31 ماي 1535م، وأثناء سيره مر بكاملياري[3] ثم بقرطاجنة للتزود بالمؤن وانتظار التحاق السفن الحربية الأوروبية الأخرى، التي لم تلتحق بالأسطول الإسباني في برشلونة، وقد وصلت الأرمادة الإسبانية إلى حلق الوادي بتاريخ 16 جوان 1535م، وقد بدأ الإسبان بإنزال الجنود والمدافع والذخائر والأسلحة الحربية وقد وصف لنا ابن أبي الضياف وضعية الأسطول الإسباني بحلق الوادي حيث قال: «... **فأصبح أسطول الصبنيول ناثرا أجنحته بحلق الوادي، ونزل للبر بمحل يقال له برج العيون قرب حلق الوادي وأنزل عساكره ومدافعه وآلات حربه وسفنه وراءه، غادية رائحة بما يلزمه من ضروريات الحرب والجيش...**».[4]

كان الإسبان يدركون أن السيطرة على تونس لا تتأتى إلا باحتلال حلق الوادي لذلك بدءوا مباشرة في إحكام الحصار حولها لمنع أي مساعدة أو مدد يأتي إليها[5]، خاصة وأنهم علموا أن خير الدين كان بمدينة تونس لتنظيم قواته وتحصين المدينة، وفي نفس الوقت مناورة مولاي الحسن والمتعاونين معه من البدو، وأمام هذه الأوضاع المتأزمة وقلة قوات خير الدين-التي قدر عددها بـ 12000جندي- كان لزاما على سنان باشا القيام بعمل ما لإرباك الإسبان، لذلك قام بثلاث هجمات خاطفة كبد فيها القوات الإسبانية حوالي 6000 قتيل من بينهم أمير

1- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص115.
2- خير الدين: المصدر السابق، ص172.
3- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 115.
4- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 13.
5- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص116.

سارنو«sarno»، وأمير مونديا «mondiea»، اللذان كانا من أشهر قادة الجيش الإسباني[1]،بالإضافة إلى الخسائر المادية الأخرى وعدد هائل من الجرحى والمعطوبين.[2]

كان خير الدين وسنان باشا متأكدان أن موازين القوى مختلفة تماما، وأن سقوط حلق الوادي تحصيل حاصل بيد الإسبان، إلا أنهما أراد تحقيق بعض الأهداف التي نذكر منها:

- تعطيل تقدم الأسطول الإسباني أكبر مدة ممكنة.
- إعطاء فرصة كافية لتنظيم دفاعات مدينة تونس وتنظيم المقاومة بها.
- محاولة خير الدين القضاء على مولاي الحسن وتشتيت جهوده ومنعه من التعاون مع الإسبان.
- إلهاء الإسبان على أمل وصول المدد من إستانبول أو من الجزائر.
- بعث الثقة في نفوس المقاتلين الآخرين إذا ما استطاع سنان باشا الصمود لمدة أطول في وجه الإسبان.
- بث الشك في نفوس القادة والجنود الإسبان على أمل الانسحاب إذا طالت مدة المقاومة.
- إنهاك القوات الإسبانية وتفريقها.
- استنزاف المؤن والذخائر الإسبانية في حالة صمود حلق الوادي لمدة طويلة.

وأمام إصرار الإسبان وإدراكا من خير الدين بخطورة الأوضاع في حلق الوادي وكامل البلاد التونسية، قرر وعلى جناح السرعة إرسال طلب إلى السلطان العثماني لإرسال الأسطول البحري وإنقاذ تونس من الاحتلال[3]، إلا أن السلطان سليمان القانوني لم يلب طلب خير الدين لعدة اعتبارات منها:

- خروج السلطان بنفسه لقيادة الجيوش في حربها ضد الصفويين، وبالتالي لم يكن على علم بطلب خير الدين، نظرا لضيق الوقت.
- عدم قدرة خلفاء السلطان على اتخاذ أي قرار خطير يتمثل في إرسال الأسطول البحري لإنقاذ تونس.
- الطلب لم يكن في الوقت المناسب، لأنه لا يمكن إرسال طلب كهذا في وقت اشتدت فيه المعارك بين الطرفين، وقد كان يمكن إرسال الطلب مباشرة حين سماع خبر الحملة الإسبانية، وهذه من الأخطاء التي ارتكبها خير الدين وكانت سببا في ضياع تونس.
- بُعد المسافة بين تونس وإستانبول، وظروف الحروب الدائرة في المتوسط؛ التي كانت الدولة العلية إحدى أطرافها عطلت وصول المدد إلى خير الدين.

1- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص116.

2- خير الدين: المصدر السابق، ص 172.

3- مجهول: المصدر السابق، ص 96؛ خير الدين: المصدر السابق، ص173.

بالرغم من عدم تكافؤ القوة بين الطرفين شارلكان وسنان باشا، إلا أن الإسبان لم يستطيعوا احتلال حلق الوادي إلا بعد شهر كامل وذلك بتاريخ 14جويلية، بعد محاولات عديدة، وصمود خارق للعادة من طرف القوات العثمانية والمتعاونين معهم من السكان المحليين[1]، ومباشرة بعد سقوط المدينة، استطاع سنان باشا الانسحاب بقواته والالتحاق بخير الدين بمدينة تونس[2]، لمواجهة القوات الإسبانية الزاحفة، وفي نفس الوقت مواجهة التمردات الداخلية ضد خير الدين، التي كان يغذيها عاملان رئيسيان هما:

- النشاط المتزايد لمولاي الحسن والمتعاونين معه ضد خير الدين.
- الانتصارات المتتالية للإسبان خاصة بعد معركة حلق الوادي التي كانت لصالحهم.

مباشرة بعد السيطرة على حلق الوادي قام بعض فرسان مالطا برفع علم الإمبراطور[3] إيذانا باحتلالها وإخضاعها، فيما توجه شارلكان وقواته إلى مدينة تونس بتاريخ 17 جويلية، وفي طريقه كان يحرق القرى وكل ماصادفه من أشجار، خاصة الزيتون منها، وهي نية مسبقة من الإمبراطور الإسباني في تدمير تونس وإلحاق الأذى بأهلها انتقاما منهم لتأييدهم خير الدين سنة 1534م.

مباشرة بعد وصول شارلكان إلى تونس أعلن بداية المعارك ضد خير الدين، يحذوه الأمل في القضاء على قواته بأقصى سرعة ممكنة وبأقل التكاليف حتى لا تتكرر مأساة حلق الودي، وفي نفس الوقت مخافة من وصول المدد من الدولة العلية، وقد وصف لنا ابن أبي الدينار هذه المعارك بقوله: «...**التقى الجمعان بخربة الكلخ شرقي تونس وخير الدين معهم وانتشب القتال بينهم، وكانت مقتلة عظيمة**...»[4]، وفي هذه الأثناء ومع اشتداد المعارك قام البدو الذين قدر عددهم بـ60000 رجل بانقلاب على خير الدين والدخول تحت طاعة شارلكان لذلك أصبح خير الدين وقواته بين فكي كماشة البدو وقوات مولاي الحسن داخل المدينة وقوات شارلكان والمتحالفين معه خارج المدينة، ولم يكن لهم من مخرج إلا الانسحاب جنوب مدينة تونس[5]، زاد الأوضاع تأزما خيانة فرانك جعفر المكلف بأمن المدينة من الداخل، لأنه قام بإطلاق سراح الأسرى المقدر عددهم حوالي10000أسير، الذين قاموا بالاستيلاء على المدينة وإغلاق أبوابها[6] لمنع خير الدين وجيشه من التحصن بها.[7]

1- محمد دراج: المرجع السابق، ص 289؛ عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 116.
2- خير الدين: المصدر السابق، ص 175.
3- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 116.
4- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 221.
5- خير الدين: المصدر السابق، ص 174.
6- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 116.
7- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 13؛ الوزير السراج: المصدر السابق، ص 205؛ ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 185.

ترك لنا ابن أبي الضياف وصفا دقيقا لمعركة تونس ومآلها وفي ذلك يقول: «... **فخرج لهم خير الدين في 12000 من صناديد المقاومين وصدقوا العزيمة في القتال فاستولى على البرج المذكور -برج العيون-ثم رجع بمن معه إلى المدينة فاضطرب عليه أهلها، فبعضهم تمسكك بطاعته وبعضهم جنحوا لطاعة السلطان أبن أبي حفص، فجمع أعيان الناس وتكلم معهم فاختلف معهم، فتركهم وخرج بمن معه إلى الحرب، وجاءه المدد من الأعراب ظاهرهم معه وقلوبهم عليه، فانهزموا بالجيش...»**.[1]

بعد أن دب الخلاف في صفوف جيش خير الدين وزادت التمردات ضده-ومع ذلك صمد أمام القوات الإسبانية لمدة ستة أيام فقد فيها الكثير من جنوده وكبد فيه الإسبان الكثير من الخسائر المادية والبشرية-وأمام هذه الوضعية وجد نفسه مجبرا على الانسحاب إلى مدينة عنابة قاطعا كامل الساحل التونسي للوصول إليها، أين كانت تنتظره 14 سفينة حربية من نوع قدرغا، وفي هذه الأثناء غرق آيدين رئيس ومات شهيدا بإذن الله.[2]

وهكذا بعد حوالي شهر وسبعة أيام من المقاومة والصمود حاول خلالها خير الدين عبثا إنقاذ تونس من الاحتلال الإسباني إلا أن عدة عوامل حالت دون تحقيق رغبته، ومع ذلك استطاع إلحاق خسائر فادحة بالإسبان وحلفائهم من الأوربيين ومولاي الحسن وأتباعه، في حين كان خير الدين مجرد من أي مساعدة سواء من الدولة العلية أو الإيالة الجزائرية التي كانت هي الأخرى منشغلة بحروبها المتتالية ضد الإسبان، ومع ذلك استطاع إنقاذ بقية جيشه من الهلاك، وسار بهم إلى عنابة، وبذلك دانت تونس لشارلكان ودخل مولاي الحسن في طاعته، وقد أباح لشارلكان وجنوده استباحة المدينة وسكانها، تاركا رعيته تحت رحمة الكفار فاقدا بذلك كل وازع ديني أو ضمير يؤنبه وكأنه ينتقم من سكان تونس لتأييدهم خير الدين فيما سبق.

4-البلاد التونسية تحت الاحتلال الإسباني (ثنائية الهمجية والتدمير).

بعد احتلال الإسبان لمدينة تونس بتاريخ 21 جويلية 1535م وإعلان السلطان الحفصي تبعيته لشارلكان، بدأ السكان المحليين يعودون إلى بيوتهم و ممارسة أعمالهم بصورة طبيعية، اعتقادا منهم أن المدينة أصبحت آمنة والأوضاع بها مستقرة، وإذ بجنود الاحتلال الإسباني يغيرون عليهم على حين غفلة، واستطاعوا قتل كل من طالته أيديهم واستباحة المدينة وسرقة كل غال وثمين، ولم ينجوا من هذه الأعمال الوحشية إلا من استطاع الفرار[3]، وبذلك خلت المدينة من أهلها وأصبحت عرضة لكل فعل مشين، فيما كان مولاي الحسن المغلوب على

1- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص ص13، 14.

2- ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 185؛ خير الدين المصدر السابق، ص177؛ عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص117.

3- محمد دراج: المرجع السابق، ص292؛ أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة...المرجع السابق، ص233.

أمره يوقع معاهدة ذل وعار مع شرلكان متفرجا على بلاده ورعيته وهم يبادون وينكل بهم، فاقدا بذلك كل مقومات الحاكم الصالح المدافع عن أهله .

تكبد التونسيون خسائر فادحة جراء هذه الأعمال الوحشية، وقد نقل لنا ابن أبي الضياف نصا يعبر بمرارة عن هذه الوضعية التي آلت إليها البلاد التونسية حيث قال: «...**فقتل في هذه الوقعة الثلث من أهل تونس ونجا الثلث وأسر الثلث والمأسور يفتدي إن كان له مال، وقد بلغت الفدية 1000دينارا، وتغيرت البلاد وطمست أعلامها...**».[1]

لم يكتف المسيحيين بهذه المجازر الرهيبة والتدمير المقنن فقط بل أرادوا الحصول على كل ماهو موجود بمدينة تونس وفي أثناء هذه العمليات الوحشية كان الإسبان يبحثون في كل مكان حتى الصناديق وأماكن حفظ الطعام و المطامير والآبار البعيدة عن الكنوز والمجوهرات لعلمهم بما تحتويه المدينة من خيرات، وللتدليل على هذه الحقائق المرعبة نستدل بما نقله لنا عزيز سامح آلتر الذي قال: «...**وفي عملية القتل والنهب والسلب كانت القوات الإسبانية أكثر شهرة من غيرها من القوات الأخرى لقد بحث الإسبان في المنازل والصناديق وبيت المؤن، وفي الآبار البعيدة، ولم يتركوا مكانا إلا وبحثوا فيه عن الأهالي، وبعد ذلك بدأوا باتباع أساليب أكثر وحشية مما اتبعوه سابقا ، لقد هدموا المدارس والمساجد والجوامع وأحرقوا الكتب القيمة والنادرة، وأصبحت شوارع المدينة وأزقتها مليئة بالقتلى من الشيوخ والأطفال والنساء، وعاملوا اليهود بنفس المعاملة، فغدت المدينة خالية تماما من الأهالي...**».[2]

ثم يصف لنا خير الدين وحشية الإسبان في تعاملهم مع التونسيين بقوله: «... **وعندما أدرك الكفار أنني قد أفلت من أيديهم قاموا بإفراغ جام غضبهم على البؤساء من أهالي المسلمين، وتفنن الإسبان في التعبير عن أبشع ما تحمله نفوسهم الشريرة من سوء، بعد مرور اثنين وسبعين ساعة على حملة النهب والقتل والتدمير دخل الملك كارلوس المدينة بعدما حولوها إلى خراب، لقد اصطبغت أرجل فرسه بلون الدم المتدفق من أشلاء الضحايا المتناثرة في أزقة وشوارع المدينة...**».[3]

1- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص13.

2- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص118؛ محمد دراج: المرجع السابق، ص292.

3- خير الدين: المصدر السابق، ص178.

من خلال هذه النصوص يمكننا تصور حجم الخسائر التي ألحقها الإسبان بالبلاد التونسية وتبقى هذه الأعمال القبيحة راسخة في ذهن كل من اطلع على هذه المأساة التي قل مثيلها في التاريخ، مع أن التاريخ شاهد أن المسلمين كلما فتحوا أرضا إلا وحافظوا على أرواح أهلها وعمارة بنيانها وأماكن عبادتها كالكنائس والأديرة.*

لم يكتف الإسبان بهذه الأعمال، بل حاولوا اللحاق بكل من فرّ من مدينة تونس، وقد أرسل مولاي الحسن إلى البوادي لتأليب الأعراب ضد المخالفين له، واستعمل أسلوب الإغراء لمن يقبض على من فر إليه من أهالي تونس[1]، لذلك استغل هؤلاء الأعراب الفرصة وتسلطوا على بني جلدتهم، وهكذا زادت مأساة الفارين من بطش الإسبان كمن يستجير بالرمضاء من النار، وفي ذلك يقول الوزير السراج: «... **فخرج العربان في طلبهم، وأخرجوهم من كل شِعْبٍ ووادي، وأتوا بهم إلى النصارى وأخذوا ما شرط لهم، والبعض فدى نفسه من البادية، وبلغت فدية الرجل 1000 دينار وأكثر، ومن لم يفد نفسه يرسلوه إلى النصارى...**».[2]

5-المعاهدة الإسبانية التونسية أوت 1535م.

وقعت هذه المعاهدة بتاريخ 6أوت 1535م بين إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة شارلكان وسلطان تونس مولاي الحسن** الذي دخل في طاعة الملك الإسباني، وكانت هذه المعاهدة آخر ما أنهى به مولاي الحسن خيانته؛ وأي نهاية هاته لحاكم باع دينه ووطنه ورعيته وبدنيا غيره، بل بدنيا حاكم مسيحي سُلط على المسلمين وبلادهم، وقد احتوت هذه المعاهدة على العديد من البنود نذكر منها حسب ما ورد في نصها الأصلي[3]:

- **البند الأول**: التزام مولاي الحسن بإطلاق جميع الأسرى الأوروبيين وإلحاقهم ببلادهم بدون مقابل مادي سواء ذكورا وإناثا أو أطفالا في أقرب فرصة.

---

* – لكن أعمال المسيحيين ضد المسلمين تبقى شاهدة على وحشيتهم و همجيتهم، وهذا ما يذكرنا بما قام به الصليبيين في بيت المقدس عند احتلالها وما قام به الاحتلال الفرنسي بالجزائر والبرتغاليين والإسبان في العالم الجديد، وما قام به الإسبان أيضا في وهران والمرسى الكبير، وفي المقابل عندما حرر صلاح الدين القدس سنة 583هـ /1187م حيث قام بنفسه بافتداء الأسرى منهم و المعوزين ورجال الدين وعاملهم معاملة تليق بهم، وأيضا ما فعله محمد الفاتح عندما فتح القسطنطينية سنة 1453م حيث عامل الأسرى معاملة لا يمكن إلا أن تصدر من قائد مسلم، فهل يمكن المقارنة بين ما قام به شارلكان ضد التونسيين وما قام به صلاح الدين ومحمد الفاتح وغيرهم من القادة العظماء المسلمين.

1- محمد دراج: المرجع السابق، ص293.

2- الوزير السراج: المصدر السابق، ص205.

** – من خلال تتبع الأحداث لا يمكننا إطلاق اسم السلطان على مولاي الحسن أو وصفه به، لأنه أصبح تابعا للمسيحيين ولم تكن له أي سلطة على رعيته أو وطنه، وإلا أين كان عندما استبيحت تونس ونهبت خيراتها وهو يقف موقف المتفرج، ورعيته تعاني الويلات جراء الممارسات الوحشية ضدها من طرف الإسبان، فهل يعقل أن يكون سلطانا أو حاكما؟ إن هو إلا تابعا لا يملك إلا توقيع معاهدة العار حتى تكون لها شرعية حتى ولو كانت مزيفة.

3- المعاهدة الإسبانية التونسية 1535، الأرشيف الوطني التونسي، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 2876، ملف 12.

-**البند الثاني**: يلتزم مولاي الحسن للملك الإسباني بحفظ جميع المسيحيين ولا يدع أي مسيحي مهما كان يقع في الأسر، ويجب الدفاع عنه سواء ذكر أو أنثى صغيرا أو كبيرا في مقابل التزام الملك بأن رعايا السلطان لا يأسرون في جميع الأراضي التابعة للملك مثل ألمانيا وبرغوية وروما وجميع الأراضي الإيطالية التابعة للإمبراطور، وهذه الشروط باقية وملتزم بها في من يخلفهما فيما بعد.

- **البند الثالث**: التزام السلطان الحفصي مولاي الحسن ومن يرثه في الحكم بعده بترك المسيحيين بتونس يمارسون عباداتهم بكل حرية، وفي نفس الوقت الحفاظ على أماكن عبادتهم مثل الكنائس والأديرة وغيرها، وبناء كنائس جديدة وترميم القديمة منها.*

-**البند الرابع**: يلتزم مولاي الحسن بنفسه وورثته من بعده بإعادة كل من يأتي إلى تونس من الأندلسيين سكان غرناطة وبلنسيا، وجميع مناطق إسبانيا وما تبعها من الدويلات التابعة للإمبراطورية.

-**البند الخامس**: يتعهد مولاي الحسن بالتنازل عن حلق الوادي وبنزرت والمهدية وعنابة وغيرها من القلاع والحصون، ويحق له الدفاع عنها وطرد خير الدين منها، وخاصة حلق الوادي لأن الإمبراطور أخذها قوة وعنوة وبذلك هو ملك له لا ينازعه فيه أحد، ويبقى ملكا لخلفائه من بعده، وقدرت المسافة بميلين من جهة البر، ويحق للمسلمين الاستسقاء منه بالإضافة إلى أهل قرطاجنة، ويحق له تنظيم حركة الملاحة به وباتجاه مدينة تونس، زيادة على حرية صيد المرجان بالنسبة لسفن الإمبراطورية، ويعين قنصل بحلق الوادي يهتم برعايا الإمبراطور، مع اشتراط عدم التدخل في شؤون الرعايا المسيحيين من طرف مولاي الحسن.**

-**البند السادس**: يتعهد السلطان الحفصي بتقديم ستة رؤوس من الخيل الجياد واثنا عشر طير معدة للصيد، بالإضافة إلى الأموال السابقة الذكر، وفي حال تعذر الدفع يتعهد مولاي الحسن ومن يخلفه من بعده يدفع في العام الأول 50 ألف دينار فإن عجز ففي العام التالي يلزمه 100 ألف دينار، وإن عجز في العام الثالث فقد الملك وترجع تونس إلى الإمبراطور وتصبح تابعة له رأسا.***

* – في مقابل بناء كنائس جديدة كان الأندلسيون الموريسكيون يعانون من القتل والتنكيل والشريد ويمنعون من ممارسة شعائرهم الدينية وتهدم وتحرق أماكن عبادتهم، فأين حظهم في هذه المعاهدة يا ترى ؟، أم أن الأمر لا يعني حكام المسلمين في ذلك الوقت ؟، بل أكثر من ذلك تعهد في بند لاحق بإرجاعهم وعدم قبولهم على أراضي تونس، وكأنه يملك زمام الأمور بها.

** – هنا استطاعت إسبانيا القضاء نهائيا على سيادة مولاي الحسن على تونس، فقد أصبحت حلق الوادي مقاطعة إسبانية تخضع رأسا للإمبراطور شارلكان.

*** – يا له من شرط عجيب وغريب انتهك حرمات بلاد الإسلام، وبعدها تعد هذه الشروط معاهدة بين الطرفين فهل يعقل هذا؟ وكان من المفروض يسمونها معاهده استسلام وخضوع.

-**البند السابع**: يتعهد مولاي الحسن بدفع في كل عام للإمبراطور 12ألف تونسي تدفع كل ستة أشهر على الإلزام، ويدفع النصف الأول لحاكم حلق الوادي ابتداء من جانفي 1536م، ثم يدفع النصف الثاني في جويلية 1536م، وإن لم يستطع الدفع يحق لحاكم حلق الوادي أخذ ما يلزمه لتسديد الدين من الغارم والفداء حتى تحصل على المال المقدر بـ 6 آلاف دينار تونسي في مقابل حماية البلاد التونسية.

-**البند الثامن**: يقوم مولاي الحسن بنفي جميع البحارة من بلاده، ولا يتركهم يمارسون مهنتهم ولا يتزودون بالمؤن ولا يسكنوها ولا يستقرون بها لحظة.*

بعد إمضاء المعاهدة عاد شارلكان إلى بلاده بتاريخ 17 أوت 1535م مزهوا بانتصار باهر حققه على حساب خير الدين والمعاهدة حققت له طموحا لم يكن يحلم به لولا خيانة مولاي الحسن.

6-نتائج الحملة الإسبانية على تونس:

ترتب عن هذه الحملة العديد من النتائج القاسية على التونسيين لأنهم تحملوا عبئ هذه الحملة بالرغم من أن الصراع كان دائرا بين الدولة العلية ممثلة في خير الدين والدول المسيحية، إلا أن من سوء حظ التونسيين أنهم تحملوا القسط الأكبر من نتائج هذا الصراع، ومن أهم هذه النتائج نذكر:

- حدثت مجازر رهيبة بحق التونسيين ارتكبتها القوات الإسبانية خاصة لأنهم كانوا عزلا لا يحملون السلاح، إلا أن ذنبهم الوحيد أنهم مسلمون يجب إبادتهم والقضاء عليهم، وكأن الإسبان يستحضرون تواجد المسلمين على أراضيهم، ولذلك أرادوا الانتقام من التونسيين لأن بلادهم كانت قاعدة الفتح الإسلامي ببلاد المغرب (القيروان) ومن ثم الأندلس**، فقد قدرت المصادر التاريخية عدد القتلى من التونسيين بثلث السكان فيما أسر الثلث الآخر، ولم ينجوا إلا ثلث السكان[1]، أما المؤرخ الفرنسي هنري قارو«Henri Garo» فقدر عدد القتلى من سكان تونس بـ 70 ألف[2]، وقد وافقه في ذلك ألفونص روسو وأعطى نفس العدد وكذلك مرمول كربخال.[3]

---

* – واضح أن هذا البند يقصد به حركة الجهاد البحري عامة والبحارة العثمانيون والجزائريون خاصة.

** –إلا أن ما يمكن ملاحظته أن المسلمين بالأندلس عمروها وبنو حضارة ما زالت الشواهد قائمة إلى يومنا هذا دليلا على سموها وتطورها فيما قام الإسبان بتهديم البلاد وقتل العباد فنقلت كل المصادر التاريخية بعض تفاصيلها دليلا على همجيتها ووحشيتها وما خفي كان أعظم.

1– ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص13.

2 -*Henri Garot: Histoire générale de l'Algérie, paris , 1889, p373.*

3– مرمول كربخال: المصدر السابق، ص173؛ ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 88.

أما خير الدين فقد ذكر لنا أن المسيحيين قتلوا من التونسيين 30 ألفا وأسروا 10 آلاف من النساء والأطفال[1]، فيما ذكر ابن أبي الدينار إن الذين قتلوا حوالي 60 ألف وأسر 60 ألف آخرين فيما نجا أيضا 60 ألفا[2]، وقد أيد عزيز سامح ألتر هذه المعطيات حيث أعطى رقم 30 ألف قتيل.[3]

بالرغم من تضارب المصادر والمراجع حول عدد القتلى، إلا أننا نرجح الرواية التي تقول بمقتل 60 ألف من التونسيين، لأن خير الدين بعد انسحابه من تونس لم يعد يدرك حقيقة الأحداث ولا معطياتها، فيما نقل مرمول كربخال عن مولاي الحسن الذي كان حاضرا رفقة الإسبان في هذه الوقائع وبالتالي ألفونص رسو ومرمول وقارو إحصاءاتهم أقرب للحقيقة، لأنه في عادة الأوروبيين التقليل من حجم أفعال بني جلدتهم لإظهارهم أكثر إنسانية وحضارة، أما هذه المرة فلم يستطيعوا إخفاء الحقائق التي كانت واضحة وجلية.

- فقد سنان باشا بحلق الوادي حوالي 40 مدفعا مع كميات معتبرة من الذخيرة والأسلحة المختلفة والعديد من المعدات العسكرية الأخرى.[4]
- استطاع الإسبان إطلاق سراح الأسرى الأوروبيين الذين قدر عددهم بحوالي 10 آلاف أسير كان لهم الفضل في ترجيح سير المعارك لصالح القوات الأوروبية المتحالفة فيما كان البدو من التونسيين ضد العثمانيين وخير الدين، بقيادة فرانك جعفر الذي كان يدعي الإسلام إلا أنه قام بخيانة خير الدين، مما كان له الأثر السيئ على المدافعين عن تونس وأوقعهم في مشاكل كبيرة قرر على إثرها خير الدين الانسحاب إلى عنابة.[5]

من أهم نتائج هذه الحملة أن خير الدين بالرغم من هزيمته القاسية وحقده المتزايد على مولاي الحسن، إلا أنه كان يجد الأعذار لبعض العوام الذين قاموا بخيانته أثناء المعارك، وهذه الخصال قلما نجدها عند القادة العسكريين، فكيف يعقل أن يخونك الناس وتتحمل عبئ الهزيمة ونتائجها القاسية، وفي نفس الوقت تحاول أن تبرر الخيانة بالجهل والدعاية والتضليل، لربما كان بعض القادة الآخرين يحملونهم المسؤولية في الهزيمة ويترصدون الفرص المواتية للانتقام إلا أن خير الدين كان عكس ذلك تماما، لذلك ننقل هذه الكلمات المعبرة عن حال التونسيين على لسان خير الدين في مذكراته، حيث قال: «...**لا شك أن من بين هؤلاء البدو من كان يحمل مشاعر**

1- خير الدين: المصدر السابق، ص 174.
2- ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص155.
3- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص120.
4- محمد دراج: المرجع السابق، ص292.
5- خير الدين: المصدر السابق، ص176؛ عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص117.

المودة للأتراك، وتمسكهم بدينهم كان يمنعهم من القيام بمثل هذه الخطوة الدنيئة "الخيانة"، إلا أن عقولهم كانت قد تسممت بالدعاية التي أطلقها مولاي الحسن بواسطة جواسيسه الذين كانوا يشيعون بين الناس أن الإسبان إنما جاءوا لإنقاذ تونس من الأتراك، وأن ملكهم مولاي الحسن قد اتفق مع الملك كارلوس بأن الإسبان لن يريقوا قطرة دم مسلم عندما يدخلون المدينة...».[1]

- استباحة مدينة تونس لمدة ثلاث أيام كاملة من طرف الجنود الإسبان*، الذين عاثوا فيها فسادا ولم تسلم منهم حتى الجدران والمدارس والجوامع والمساجد دليلا على همجيتهم ووحشيتهم.[2]
- بالرغم من الهزيمة التي تلقتها القوات العثمانية بقيادة خير الدين وضياع مدينة تونس، إلا أن الكثير من المؤرخين عدوا هذه الهزيمة انتصارا لخير الدين ولا يمكن اعتبارها وصمة عار في جبينه، لأن الفارق بينه وبين خصومه واضح وبين في العدة والعتاد، وحتى أرض المعركة نفسها التي كان جزء كبيرا من أهلها ضده، إلا أن طريقة إدارة المعركة وكيفية الانسحاب كانت تنم عن عبقرية فذة عند خير الدين** وفي ذلك يقول عزيز سامح ألتر: «...**إن تلك البطولات لا يمكننا إخفائها وهي تدل على شجاعة عظيمة ومناورة حكيمة ومغامرة فذة، لأن الهزيمة التي واجهها خير الدين ورجاله يمكننا أن نشبهها بالنصر، لأن بربروس حافظ على قواته وعاد بها إلى بون "عنابة" سالمة وهو عمل مشرف له...».**[3]

1- خير الدين: المصدر السابق، ص174.

* – وجدنا أن عزيز سامح ألتر قال أن شارلكان لم يكن في نيته نهب المدينة! إلا أن الوقائع أثبتت العكس لأن شارلكان في طريقه من حلق الوادي إلى مدينة تونس قتل ونهب وقطع وحرق حتى أشجار الزيتون وكل ما صادفه في الطريق، دليل على نيته المبيتة في تدمير تونس وكل ما فيها حتى وإن حاول عزيز سامح ألتر إيجاد الأعذار له لأنه رجح أن الجنود هم من ضغطوا عليه فنفسر ذلك بأمرين:

ـ إما أن الجيش تمرد وهذا مستبعد لأن شارلكان معروف عنه قوته وبطشه وتحكمه في جيشه، وإما أن الأمر مقصود والأوامر صدرت من شارلكان بنفسه وهذا هو الراجح لما يحمله من حقد وغل ضد المسلمين عامة وأهل المغرب خاصة.

2–عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 118.

** –يمكننا تشبيه هذه المعركة وطريقة الانسحاب بما قام به خالد بن الوليد رضي الله عنه في غزوة مؤتة سنة 6هـ أين استطاع إنقاذ جيش المسلمين من مجزرة رهيبة على يد الروم وبعبقريته وحنكته وسرعته في إدارة المعارك استطاع تسيير معركة تختلف فيها موازين القوى تماما، بين قوة مسلمة تعدادها ثلاثة آلاف مقتل وجيش عرمرم من الروم قدره 100.000 مقاتل وهكذا استطاع خير الدير إعادة هذه الملحمة من جديد مع الفارق والاختلاف في الشخصيتين والزمان والمكان وطريقة وطبيعة المعركة.

3– عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص120.

- دخول مولاي الحسن تحت سلطة شارلكان وإعلان تبعيته له[1]، وبموجب ذلك أصبحت تونس مستباحة للقوات المحتلة، بعد أن أمضى مولاي الحسن معاهدة لا يمكن وصفها إلا بمعاهدة الذل والعار.
- ضياع آلاف الكتب والمخطوطات النادرة التي كانت تزخر بها مكتبات تونس، وبذلك قضوا على شتى أنواع الفنون والعلوم المختلفة والنادرة[2]، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على جهل وتخلف القادة الأوروبيين عموما والإسبان خصوصا وعلى رأسهم شارلكان، الذي أفسد ولم يكن من المصلحين.[*]
- تلقى اليهود نفس المعاملة التي تلقاها المسلمون بتونس[3]، انتقاما منهم لأن ديوان التفتيش ارتكب بحقهم أيضا مجازر رهيبة بإسبانيا مثلما فعل بالأندلسيين، وهذا دليل أن شارلكان كان ممنهجا في القتل والتدمير وما جاء لتونس إلا للاحتلال والإفساد.
- تعرضت تونس لعمليات قتل جماعي وانتهاك فضيع للأعراض ونهبا مقننا ومخططا للممتلكات، لم يشهد له ذلك العصر مثيلا، حتى غدت المدينة عبارة عن أطلال وركام وخراب ودمار لا يمكن وصفه وقد يعجز المرء عن تخيل مثل هذه الأفعال، وهل يعقل أن تصبح تونس مدينة الحضارة والعلماء في العصر الوسيط إلى مدينة خربة على يد جهلة جاؤوا للانتقام والتخريب بدل البناء والتعمير، وقد عبر لنا الأستاذ محمد دراج عن هذه الحالة المروعة بقوله: «... **ومهما اختلفت الأرقام التي يوردها المؤرخون فيعدد الضحايا التي خلفتها تلك المجزرة، فهي بلا شك كانت فاجعة كبيرة، وإلا فما الذي يمكن توقعه من جيش موغل في التعصب والسادية يتلذذ بقتل البؤساء من الأطفال والنساء والعجزة في وهران وبجاية، قبل أن يكرر ذلك بطريقة أكثر دموية في تونس...وبعد ذلك قاموا بتهديم المدارس والجوامع، ومزقوا وأحرقوا نوادر الكتب القيمة وأصبحت المدينة وأزقتها مليئة بجثث القتلى من مختلف الأعمار ولم ينجو من هذه المجزرة لا المسلمون ولا اليهود...»**.[4]

---

1 – ج.أو.هابنسترايت: رحلة العالم الألماني ج.أو.هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس-1145هـ/1732م-، ترجمة وتقديم وتعليق، ناصر الدين سعيدوني، دار المغرب الإسلامي، تونس، د.س.ط، ص104

2- خير الدين: المصدر السابق، ص178؛ محمد دراج: المرجع السابق، ص293؛ عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص118.

* – شتان بين ما فعله محمد الفاتح عند فتحه للقسطنطينية سنة 1453م؛ حيث أمر بالمحافظة على كنوز العلم الموجودة المدينة، وبذلك نشطت حركة التأليف والحفاظ على المخطوطات النادرة والكتب القيمة ونشطت حركة الترجمة لهذه النوادر القيمة وكانت سببا فيما بعد في نهضة أوروبا الحديثة، وما فعله هؤلاء القادة ضد المسلمين وتراثهم النادر خاصة والإنسانية عامة.

3- محمد دراج: المرجع السابق، ص293؛ عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص113.

4- محمد دراج: المرجع السابق، ص ص 292 ،293.

- بوقوف مولاي الحسن إلى جانب الإسبان ضد رعيته ووطنه، زاد كره التونسيين له وأصبح لا قيمة له بين قومه وفقد كل تأييد كان يحظى به، إلا من بعض المنتفعين كعادتهم في كل زمان ومكان، ولا أحد من رعاياه أظهر أي تأييد له.[1]
- إطلاق سراح مابين 18 إلى 20 ألف أسير مسيحي كانوا بيد المسلمين بتونس، ولم يتم قتلهم بالرغم من اشتداد المعارك وهزيمة خير الدين، وقد كان بالاستطاعة لانتقام منهم وقتلهم، إلا أن الدين الإسلامي تحكم في مشاعر المجاهدين ولم يفعلوا ما يخالف عقيدتهم وهذا ما أشار إليه جون وولف نقلا على لسان شارلكان بقوله: «...**وقد أخبر الإمبراطور الملك –شارل–أخته أنه حرر ما بين ثمانية عشر وعشرين ألفا من الأرقاء والمسيحيين الذين لم يقتلوا من طرف القراصنة* كما كان متوقعا...**».[2]
- إعادة مولاي الحسن إلى حكم تونس حتى ولو كان حكما اسميا فقط، بعد أن طرده خير الدين سنة 1534م وبذلك لم يدم حكم العثمانيين لتونس إلا سنة واحد تقريبا.[3]
- بالرغم من الهزيمة إلا أن خير الدين لم يستسلم وقرر نقل المعركة إلى الأراضي الإسبانية نفسها، فهاجم جزر البليار، ميورقة، مينورقة، وتمكن من أسر 5500 أسير من ميناء ماهون «Mahon» وبالما «Palma» ووصل إلى المحيط الأطلسي مرورا بمضيق جبل طارق، حتى وصل إلى ميناء كاديز« kadiz» بين إسبانيا والبرتغال وقام بتخريب ميناء فارو «faro» جنوب البرتغال[4]، انتقاما من الإسبان والأوروبيين وإثباتا لوجوده معلنا لهم أنه خسر المعركة ولم يخسر الحرب، وهو تحديا لشارلكان وقواته المتحالفة معه، وبذلك استطاع نقل المعارك من بلاد المغرب إلى أوروبا، هذا ما أدخل الرعب والخوف في نفوس الإسبان، مخافة من إعادة تكرار فتح الأندلس على يد خير الدين والعثمانيين.
- أظهرت الحملة الإسبانية على تونس سنان باشا كشخصية بحرية جديدة، أثبتت كفاءتها في إدارة المعارك أذهلت شارلكان نفسه، وبفضله استطاعت حلق الوادي الصمود مدة شهر كامل**، على عكس مدينة

1- جون وولف: المرجع السابق، ص 49.

* – يالها من مفارقة عجيبة، كيف لملك يدمر، يقتل، ينهب ويخرب و–قراصنة –كما وصفهم يحافظون على أرواح أعدائهم المسيحيين ويعطونهم الأمل في الحياة مجددا، ولكن لكل دينه وأخلاقه وأهدافه ومبادئه في الحرب والسلم.

2- جون وولف: المرجع السابق، ص 49.

3- محمد دراج: المرجع السابق، ص 295.

4- خير الدين: المصدر السابق، ص179.

** –تكررت هذه الملحمة مجددا سنة 2003م في ميناء أم قصر العراقي الذي صمد أمام جحافل القوات الأمريكية المحتلة مدة 15 يوما كاملة في ملحمة فريدة في هذا العصر، فيما تم احتلال مدينة بغداد في مدة 24 ساعة فقط، لأن الخيانة والعمالة للأجنبي تكرر في كل زمان ومكان، فتارة تكون ممثلة في أشخاص فقط وتارة أخرى تكون ممثلة في قادة ودول بأكملها.

تونس التي سقطت في مدة ستة أيام فقط وهذا بفضل الدهاء والتخطيط الجيد الذي تحلى بهما، حتى قال فيه خير الدين: «... **لقد استحق سنان رئيس تقديرا كبيرا بذلك الانسحاب بعد ما قطعت الأمل في نجاتهم، إن كفاءته العالية مكنته من إنقاذ البحارة من الطوق الذي ضربه عليهم العدو...**».[1]

- لم توضح لنا المصادر والمراجع الخسائر المادية والبشرية التي تكبدتها القوات الإسبانية والمتحالفين معها إلا أن بعض المصادر والمراجع ذكرت أنهم فقدوا 6000 جندي في حلق الوادي وحدها[2]، إلا أننا لم نستطع تحديدها لكن بكل تأكيد أن خسائرهم زادت في مدينة تونس.
- اكتسب شارلكان شهرة واسعة وسمعة كبيرة في أوروبا وعزز مكانته داخلها[3]، علما أنه كان في تنافس حاد مع فرنسوا الأول بهدف نيل رضا المسيحيين وعلى رأسهم بابا الكنيسة الكاثوليكية، خاصة وأن الحروب الإيطالية كانت مستعرة، مما مكنه من كسب تأييد المسيحيين الذين كانوا يرونه منقذهم من الخطر العثماني والانقسام الأوروبي.
- ركز شارلكان في المعاهدة التي أمضاها مع مولاي الحسن على احتلال حلق الوادي وبناء حصنها الذي يحرص المرسى، وهو يمثل القاعدة الرئيسية في توجيه الحملات باتجاه الجزائر غربا، وللأراضي الإيطالية شمالا وطرابلس الغرب وجزيرة جربة جنوبا لذلك بقيت فيه حامية إسبانية كبيرة من أجل تحقيق عدة أهداف نذكر منها:
- مراقبة جميع التراب التونسي من أجل محاصرة مولاي الحسن حتى لا يفكر في الخروج على طاعة الإسبان، وقد كان الاختيار موفقا لشارلكان لأن مولاي الحسن كان ضعيف الشخصية يسهل التحكم فيه.
- ربط الأراضي المحتلة مثل طرابلس الغرب بتونس وفي نفس الوقت مراقبة الطريق البحري الرابط بين الدويلات الإيطالية وتونس.
- حصار الإيالة الجزائرية من جهتين غربا المرسى الكبير ووهران وشرقا طرابلس الغرب تونس.
- تدعيم فرسان مالطا بطرابلس الغرب ومساعدتهم وتشجيع القرصنة الأوروبية ضد التجارة الإسلامية.
- منع الهجرات الأندلسية الموريسكية باتجاه بلاد المغرب والدولة العلية.

1- خير الدين: المصدر السابق، ص 75.

2- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 116؛ خير الين المصدر السابق، ص 173.

3- جون وولف: المرجع السابق، ص 50.

– اتخاذ حلق الوادي كقاعدة بحرية متقدمة للتزود منها بالمؤن وأيضا لرسوا الأسطول الإسباني في حروبه المتوقعة ضد الدولة العلية وفرنسا والجزائر وغيرهم.

7-أسباب هزيمة خير الدين:

– الفارق في العدة والعتاد بين الطرفين، لأنه لا يمكن المقارنة بين جيش قوامه 30000 مقاتل وما بين 400إلى 500سفينة بجيش لا يملك سوى 7000مقاتل وبضعة سفن.

– لعب مكان المعركة دورا بارزا في تحديد نتائجها، لأن التونسيين كانوا ضد خير الدين؛ الذي كان يقاتل في محيط معادي له ظنا من التونسيين أن الإسبان أرحم من العثمانيين، بعد تجربة دامت سنة واحدة أحسوا خلالها أنهم مضطهدين.

– عرف شارلكان اختيار الزمان والمكان المناسبين، لأن السلطان العثماني سليمان القانوني كان منشغلا بالحرب ضد الصفويين، لذلك كان مطمئنا من عدم وصول أي مساعدة لخير الدين سواء من الدولة العلية[1] أو الإيالة الجزائرية التي كانت هي الأخرى في صراع مع الإسبان.

– لعب الأسرى المسيحيين دورا بارزا في حسم المعركة بمدينة تونس، أين استطاعوا السيطرة على المدينة وإغلاق أبوابها في وجه خير الدين وجنوده[2]، فكانت النهاية الحتمية لهذه المعركة، حينها قرر خير الدين الانسحاب والتوجه إلى عنابة ومنها إلى مدينة الجزائر.

– خيانة الأسير المسيحي فرانك جعفر الذي عهد إليه خير الدين المحافظة على المدينة ومراقبة الأسرى، إلا أنه انقلب على سيده وقام بإطلاق سراحهم.

– الدعاية المفرطة التي أطلقها مولاي الحسن لدى التونسيين بواسطة جواسيسه الذين أشاعوا بين الناس أن الإسبان جاؤوا لإنقاذ البلاد والعباد من خطر خير الدين وجنوده.

– الخطأ الاستراتيجي الفادح الذي ارتكبه خير الدين حينما بادر بالمواجهة بدون طلب معونة الباب العالي، لأنه لم يختر زمن طلب هذه المعونة في الوقت المناسب.*

– عدم استجابة الباب العالي لطلب خير الدين بإرسال الأسطول الهمايوني للمساعدة في إنقاذ البلاد التونسية من الاحتلال.

1- محمد دراج: المرجع السابق، ص 288.

2- خير الدين: المصدر السابق، ص175.

* – في مثل هذه الأوضاع الخطيرة والهامة يكون اتخاذ القرار الصواب في الوقت الخاطئ خطأ، واتخاذ القرار الخطأ في الوقت الصحيح خطأ، ولذلك يجب اتخاذ القرار الصواب في الوقت الصحيح.

- انقسام أهالي تونس بين مؤيدين ومعارضين لخير الدين فهناك من كان مع مولاي الحسن وآخرين مع خير الدين، إلا أن الراجح أن الأغلبية كانوا ضده، لأنه قال أن عدد جنوده كان 12000جندي نصفهم من البدوا الذين لا يعرفون القتال، ولا يترددون في الالتحاق بالعدو إذا اشتدت عليهم وطأة الحرب[1]، وفي ذلك يقول ابن أبي الضياف: «... **فاضطرب عليه أهلها فبعضهم تمسك بطاعته، وبعضهم جنح لطاعة السلطان ابن أبي حفص فجمع أعيان الناس وتكلم معهم فاختلفوا عليه، فتركهم وخرج بمن معه إلى الحرب، وجاءه المدد من الأعراب ظاهرهم معه وقلوبهم عليه...**».[2]
- تواطؤ مولاي الحسن وعمالته للإسبان كان له الأثر البالغ في حسم هذه المعركة، خاصة وأن أنصاره كانوا الداعم الأساسي للجنود المسيحيين وتزويدهم بالمؤن والذخيرة وكل ما يلزم في مثل هذه الوضعيات.[3]
- فقدان سنان باشا العديد من جنوده والآلات الحربية أثّر على المواجهة والتحمل عند أتباع خير الدين.

وعموما فإن كل هذه العوامل ساهمت في هزيمة خير الدين وقواته، إلا أن نجاته تعد مكسبا يجب التنويه به، لأنه كان يمثل في هذه المرحلة صمام الأمان لبقاء إيالة الجزائر صامدة في وجه الإسبان خصوصا والمسيحيين عموما، لأنها في هذه المرحلة لم يكتمل بنيانها وتشتد قوتها، بالرغم من أنها بدأت تظهر كقوة إقليمية فاعلة، لأننا سنلاحظ في المراحل القادمة أنها تتحمل على عاتقها عبء تحرير طرابلس الغرب وتونس، من الاحتلال، ولذلك تعد هذه الحملة حتى وإن حقق فيها شارلكان نجاحا باهرا، إلا أنها بالنسبة لخير الدين ما هي إلا خسارة معركة لأن الحرب سجال في قادم الأيام.*

1- خير الدين: المصدر السابق، ص173.

2- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص ص 12، 13.

3- خير الدين: المصدر السابق، ص 174؛ عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص116؛ محمد دراج: المرجع السابق، ص 291.

* - هناك من المؤرخين العرب والمسلمين من يريد أن يسوى بين الفتح العثماني والاحتلال مهما كان نوعه، ومن بينهم محمد الهادي شريف الذي يقول: «... واحتل الأتراك ثم الإسبان على التوالي تونس سنة 1534 وسنة 1535 وكانت البلاد التونسية لا تهمهم في حد ذاتها بقدر مكان يهمهم موقعها الاستراتيجي...»، للاستزادة ينظر محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص 65، يالها من مفارقة عجيبة، ولذلك يجب علينا أن نعرف أولا كيف نفرق بين الاحتلال والفتح؛ فاحتلال عندما يدخل إلى أي بلد يقوم بـ:

-إسقاط السلطة السياسية الموجدة في البلاد قبل احتلالها.

ـ تغيير لغة أهل البلاد ويغير دينهم وعقيدتهم.

- استبدال الجيش المحلي بجيشه، ثم نضيف له ما قاله غوستاف لوبون، عندما تكلم عن الأندلس وما قام به العرب المسلمين فيها، أنه يجب أن نعلم هل هذه البلاد تطورت أم ساءت أوضاعها بالنظر إلى مايلي: ـ وضعية البلاد قبل دخول الدولة التي سيطرت عليها ـ وضعيتها أثناء السيطرة عليها ـ وضعيتها بعد الخروج منها، ومن خلال ما سبق هل يمكن القول أن العثمانيين أسقطوا سلطة قائمة بذاتها سنة 1534م، خاصة وأن مولاي الحسن لم يكن يتحكم في البلاد إلا صوريا لأن الإسبان والبدوا سيطروا على مقاليد الأمور، وهل غيرّ العثمانيون اللغة والدين الإسلامي؟ وهل ارتكبوا المجازر بحق التونسيين؟، وهل الأوضاع كانت أحسن قبل تواجدهم؟، ثم عندما خرج خير الدين كيف أصبحت تونس، أليس قتل، نهب، مجازر، جور وظلم، اعتداءات، استرقاق ... وكذلك الأمر ينطبق على المغرب الأوسط وطرابلس الغرب ...لعمري هذا في القياس محال.

8-المهدية تحت سلطة الإسبان سنة (958هـ/1550م).

تعتبر مدينة المهدية من أهم المدن التونسية، ومرساها أكثر أمنا من الموانئ التونسية الأخرى، التي كانت هدفا للإسبان، إلا أن درغوث باشا استطاع السيطرة عليها[1]، وأمام تزايد نشاطه، ونظرا لقرب المدينة من حلق الوادي التابعة رأسا للملك الإسباني، بالإضافة إلى قربها من صقلية، وازدياد النفوذ العثماني بالمنطقة قرر القادة السياسيين والعسكريين احتلالها[2].

وجه الإسبان حملة لاحتلال المهدية بقيادة نائب الملك بصقلية الدون جون دي فيجا « Don juan de vega»، ومساعدة أندري دوريا بتاريخ 10 سبتمبر 1550م، وقد علم درغوث باشا بهذه الحملة فقرر ترك المدينة، وخلّف ورائه حامية من جيشه لمساعدة السكان في الدفاع عن مدينتهم.[3]

بمجرد ما وصل الأسطول الإسباني إلى المدينة ضرب عليها حصارا محكما، بالرغم من استبسال الأهالي في الدفاع عنها، ومع ذلك استطاع الإسبان هزيمته والتنكيل بهم وقتل حوالي 1200منهم، وأسر 9000 آخرين، معلنين بذلك سيطرتهم على المدينة التي عاثوا فيها فسادا، ليرحل بعدها دون جوان دو فيجا عنها تاركا أخيه دون الفار «Donalvar» كحاكما لها يساعده 1500 جندي لحفظ الأمن والدفاع عن المدينة من أي خطر داخلي أو خارجي.[4]

وأمام تزايد الإنفاق على الحامية الموجودة بالمهدية رفعت تقارير سلبية للملك الإسباني شارلكان، تحذره من تزايد التكاليف في بناء التحصينات وتجديد القديمة منها وزيادة مصاريف الحامية الموجودة بها، خاصة وأن المدينة ليست بنفس الأهمية الاستراتيجية لحلق الوادي، زد على ذلك أن نفقات الخزينة العمومية كانت لا تتحمل أعباء أخرى بعد الإنفاق المتزايد في السنوات الأخيرة سواء داخل إسبانيا أو في أوروبا والعالم الجديد وضد العثمانيين وإيالة الجزائر، لذلك كان مصير المهدية مرتبطا بما يقرره شارلكان ومجلسه، وبعد مشاورات عديدة قرروا تخريب المدينة ونهبها بدل الاحتفاظ بها وزيادة التكاليف؛ لذلك وفي سنة 1550م كلف شارلكان للقيام بهذه المهمة أحد قادته دون فرناند دي أكينا «Don fernand des ascuna»[5]، وهكذا أصبحت المهدية عرضة لهمجية الجنود الإسبان وكانت مساجدها وجوامعها وأسوارها ومساكنها هدمت بنسبة كبيرة أما سكانها فكان

1- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص 66.

2- عبد الجليل التميمي: الولايات العربية ... المرجع السابق، ص 76.

3- ألفونص روسو: المصدر السابق، ص24.

4- نفسه.

5- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص 67.

مصيرهم بين القتل والأسر والتشريد، وقد نقل لنا ابن أبي الضياف نصا يوضح لنا مصير هذه المدينة حيث قال: **«... وعلى ضعف الدولة الحفصية غزا أهل نابلي وجنوا المهدية وأخذوا ما فيها، وتفرق أهلها، وهدموا صورها، ثم أقلعوا عن المدينة وتراجع إليها بعض أهلها، وكان ذلك سنة 957هـ/ 1550م ...»**.[1]

حاول الإسبان بعد تخريب المهدية الاعتذار على هذا الفعل مبررين ذلك بمساعدة السلطان الحفصي مولاي الحسن لتخليص بلاده من القراصنة* الذين يريدون السيطرة على بلاده** بعدما استطاعوا السيطرة على المهدية.[2]

ما يمكن قوله أن المخططات الإسبانية الرامية للسيطرة على البلاد التونسية أتت أكلها خلال مدة قاربت ستة عشر سنة، أين كانت التهديدات الإسبانية متواصلة للجزائر، إلا أن الفتح العثماني لطرابلس الغرب سنة 1551م أفسد مخططات الإسبان، وأدخلهم في دوامة بعد ما أصبحت تونس محاصرة من جهتين؛ شرقا طرابلس الغرب وإيالة الجزائر غربا، زادت أوضاعهم تأزما بعدما تولى درغوث باشا حكم البلاد الطرابلسية وبدأ الزحف باتجاه الأراضي التونسية ابتداء من مدينة قفصة سنة 1553م وصولا إلى مدينة القيروان سنة 1557م، وبذلك عاد الأمل إلى خلفاء خير الدين في تحرير تونس نهائيا وضمها لممتلكات الدولة العلية العثمانية.

نجح الاحتلال الإسباني في هذه المرحلة من بسط نفوذه على تونس، وحسم الصراع ضد العثمانيين لصالحه فقد أصبحت ممتلكات الإمبراطورية الإسبانية ممتدة من طرابلس الغرب شرقا إلى عنابة واضعين حدا لطموح العثمانيين في السيطرة على بلاد المغرب والجزء الغربي من حوض المتوسط، إلا أن الهدف الأكبر للعثمانيين ومشروعهم الرامي للسيطرة على بلاد المغرب لم يقض عليه وإنما واجهته عقبات أخرته إلى حين، خاصة وأن حكمهم للجزائر شجعهم على مواصلة الصراع ضد الإسبان، بعد ظهور قوة الإيالة الجزائرية إثر هزيمة شارلكان

1- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص18.

* – نقلنا هذا اللفظ كما أورده جون وولف بالرغم من تحفظنا عنه، لأن هذا المؤرخ يريد دائما من خلال هذا الكتاب وصف المغاربة والعثمانيين بالقرصنة واللصوصية وهذا هو ديدنه دائما، ونحن لا نستغرب ذلك من المؤرخين الأوربيين، أما نحن عندنا فهو جهاد بحري نتج عن اللصوصية والقرصنة الأوربية واحتلال بلاد الإسلام.

** – كأن الإسبان محررين على حسب قول جون وولف ناسيا أو متناسيا المجازر التي قاموا بها في تونس، التي جعلوها وكأنها ما قبل العصور المظلمة في أوربا، وهي حرب ألفاظ ما بين المؤرخين المسلمين والمؤرخين الأجانب وأتباعهم من المدرسة العربية الكولونيالية التي تعتبر الفتح العثماني احتلالا، لذلك وجب علينا نحن كدارسين تصحيح المفاهيم المظللة وإعطاء كل ذي حق حقه، فالعثمانيون قدموا للمسلمين الكثير ولا يمكن بخس حقهم، مهما حاول المتحاملين عليهم اتهامهم، وكان لهم الفضل في طرد الاحتلال الإسباني من بلاد المغرب وإنقاذ الأندلسيين ولولاهم لكانت بلاد المغرب مسيحية إلى يومنا هذا مثلما حدث في العالم الجديد، ومع ذلك لا يمكننا تبرئة هؤلاء من الكثير من الأعمال التي قاموا بها ضد رعياهم في هذه البلاد، فهم بشر لهم سلبياتهم ولهم إيجابياتهم، ونحن وجب علينا أن نسمي الأشياء بمسمياتها، ولا ننقاد وراء أتباع المدرسة الكولونيالية التي تريد أن تسوي بين الاحتلال الفرنسي والفتح العثماني.

2- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص 67.

على أسوار مدينة الجزائر سنة 1541م، والقضاء على كبريائه وجبروته التي اكتسبها من انتصاراته المتتالية في تونس والعالم الجديد والحروب الإيطالية، إلا أن هذه الهزيمة جعلته يعيد حساباته ويتأكد من حقيقة مفادها أن جزائر اليوم ليست هي المغرب الأوسط سابقا.

ثانيا: العلاقات التونسية الإسبانية ما بين 957-982هـ/ 1550-1574م.

المبحث الأول: الصراع العثماني الإسباني على البلاد التونسية ما بين 958-982هـ/ 1550-1574م.

تعتبر هذه المرحلة من العلاقات التونسية الإسبانية من أهم المراحل التاريخية لكلا البلدين، لأنهما سيعرفان عديد التغيرات التي تؤثر على سير الأحداث في الحوض المتوسط، الذي يشهد صراعا مريرا بين الدولة العلية العثمانية والإمبراطورية الإسبانية التي عملت جاهدة لوضع حد للحروب الإيطالية خدمة لمصالح الدول الأوروبية التي استشعرت الخطر العثماني، وقد توجت تفاهمات الأوربيين بصلح كاتوكا مبرسيس سنة 1559م، الذي أنهى الصراع بين أسرتي الهابسبورغ والفالوا، لتتفرغ بعدها إسبانيا لمواجهة العثمانيين بمساعدة الدول الأوروبية، إلا أن الملاحظ أن الصراع بين الدولتين العثمانية والإسبانية سينحصر بالخصوص على تونس والجزائر وطرابلس الغرب اللتان ستتحملان المسؤولية في الدفاع عن بلاد المغرب ضد إسبانيا.

1-محاولة الجزائريين تحرير البلاد التونسية سنة977هـ/ 1569م.

منذ سنة 1535م ظلت تونس تحت الحماية الإسبانية إلى غاية سنة 1568م، تاريخ تولي علج علي حكم إيالة الجزائر، وفي هذه السنة راسله أعيان مدينة تونس لإنقاذهم من حكم الإسبان ومولاي أحمد من بينهم الوزير المقرب للسلطان الحفصي أبي الطيب الخضار* الذي أحس بالخديعة من سلطانه[1]، إلا أن اشتغال علج علي بتدعيم الثورة الموريسكية منعه من تلبية طلبهم على الفور.[2]

ومع استمرار الثورة الموريسكية سنة 1569م، إلا أن علج علي استغل العديد من الظروف التي كانت في صالحه:

* – هنا يجب الإشارة أن أبي الطيب الخضار كانت له علاقات مع علج علي بيلرباي الجزائر، لأن السلطان أحمد الحفصي أوفده في مأمورية خاصة إلى علج علي لا ندري فحو هذه المأمورية، فارتبط معه بعلاقات خاصة ومميزة، وقد يكون استعمله في الجوسسة على سلطانه فيما يخص علاقات الحفصيين مع الإسبان، خاصة ماتعلق بأخبار الحامية الإسبانية بحلق الوادي، والتي كانت المهدد الأول لأمن التونسيون... للاستزادة ينظر عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص 93، ولذلك نرجح أن يكون أبي الطيب الخضار عميلا لعلج علي وعينا من عيونه على الإسبان ومن المرجح أنه هو من قام بتأليب السكان ضد مولاي أحمد، وكان وراء تحريض أعيان مدينة تونس للاستنجاد بعلج علي.

1- عبد الجليل التميمي: رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية المغربية في القرن 16عشر، م، ج، ت، ع 29، ص 94، عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص 165.

2- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 18.

- اشتغال الإسبان بالثورة الموريسكية المشتعلة.
- تخوف القادة الإسبان من هجوم محتمل من طرف الدولة العلية وإيالة الجزائر، خاصة وأن هذه الأخيرة كانت مشاركة بصفة مباشرة في الثورة المورسكية.
- تأزم العلاقة بين السلطان أحمد الحفصي* والتونسيين.
- تململ السكان المحليين من وجود الحامية الإسبانية بحلق الوادي.
- إهمال الحامية الإسبانية الموجودة بحلق الوادي من طرف الملك الإسباني والقادة العسكريين المنشغلين بالثورة الموريسكية.

كان هناك عدد كبير من السكان المحليين في تونس يرغبون في التخلص من حكم أحمد الحفصي، لذلك اتصل أعيان المدينة بعلج علي طالبين منه مساعدتهم في القضاء على هذا المستبد، ومع حلول سنة 1569م جاءت الفرصة المواتية لعلج علي، حين عاود سكان وأعيان وعلماء تونس مراسلته لذلك قرر الاستجابة لهم عندما أدرك أن ثورة البشرات مآلها الفشل[1]، ففي شهر أكتوبر سنة 1569م غادر علج الجزائر متوجها إلى تونس** على رأس 5 آلاف مقاتل وانضم إليه في الطريق الكثير من المتطوعين من منطقة القبائل وقسنطينة وعنابة بلغ عددهم 6 آلاف متطوع مدعمين بـ 10 مدافع.[2]

بمجرد ما علم السلطان التونسي بخبر قدوم علج علي جهز جيشه المقدر بحوالي 30ألف مقاتل لمواجهة الجيش الجزائري، الذي التقى معه في مدينة باجة[3]، ومع اشتداد المعارك انحاز عدد كبير من جيش مولاي أحمد إلى الجيش الجزائري[4]، مما كان له انعكاسا على سير المعارك التي آلت نهايتها لصالح الجزائريين، الذين أرغموا مولاي

* – انقلب السلطان أحمد على والده مولاي الحسن وفقئ عيناه حسب رواية جون وولف ص85، فيا لها من مفارقة عجيبة كيف يتعامل الابن مع الأب من أجل خدمة مصالح الإسبان وكأن سكان تونس والتاريخ سيرحمانه، ولو أنه انقلب على الإسبان وقرر طردهم وتنحية العميل لهم لكان عمل بالرأي الصواب، إلا أن حب الدنيا والطمع في الحكم أعمى بصيرته فقام بعق والده من أجل عَرض من الدنيا، وكأنه فقئ عينا والده حتى لا يرى مرة أخرى ما حل ببلاده ورعيته من دمار وخراب.

1- فكاير عبد القادر: المرجع السابق، ص165.

**–عندما غادر علج علي الجزائر ترك خليفته مامي قورصو على رأس إيالة الجزائر مخافة من حدوث أي تمردات ضده، لأن الأوضاع الداخلية لم تكن قد استقرت بعد للعثمانيين، وفي نفس الوقت مراقبة التطورات الحاصلة في الثورة الموريسكية، خاصة وأنه علم أن الملك فليب الثاني كلف أخاه دون خوان النمساوي بتجهيز الأسطول للقيام بأعمال حربية في المتوسط، وفي نفس الوقت تعزيز التواجد الإسباني في بلاد المغرب، وهذا ما جعل علج علي يعمل على قطع الطريق على الإسبان ... للاستزادة ينظر عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص94.

2- *Haedo(F.D): Histoire…, op.cit, p406.*

3- ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 163.

4 -*DE Gramment: op.cit, p107.*

أحمد على الفرار متوجها إلى مدينة تونس، التي وجدها مغلقة الأبواب في وجهه[1]، هذا ما اضطره إلى اللجوء للحامية الإسبانية بحلق الوادي ومعه عائلته وبعض أتباعه، مثقلين بالأموال والأثاث، إلا أنه وفي الطريق تعرض موكبه للنهب والسرقة من طرف الأعراب، ومثل هذه الأعمال لا نستغربها من طرف هؤلاء لعدة أسباب:

- طبيعة هذا الصنف من الأعراب المعروفين بالهمجية والعنف إلا البعض منهم.
- حب الانتقام من هذا السلطان الذي أباح للإسبان احتقار السكان وإذلالهم.
- اعتقاد السكان أن هذه الأموال ملك لهم؛ لأنها أساسا مغتصبة منهم من طرف السلطان وأعوانه.
- الحيلولة دون وصولها للإسبان حتى لا تكون دعما لهم ضد السكان.

بتاريخ 15 جانفي 1570م دخل الجيش الجزائري بقيادة علج علي مدينة تونس دون مقاومة تذكر، وأعلن أهل المدينة وأحوازها الولاء والطاعة له، وأعلنت الخطبة باسم السلطان العثماني سليم الثاني (1566-1574م)، وبذلك عادت البلاد التونسية تابعة للدولة العلية بعد انفصال دام حوالي خمسة عشر سنة.

وعلى عادت الحكام المسلمين الذين عرفوا كيف يعاملون أهل البلدان المفتوحة وعرف عنه الحلم والأخلاق الحسنة، عامل علج علي سكان تونس بالين والرفق وطيب خواطرهم وطمأنهم على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم وممتلكاتهم، ثم بدأ في تنظيم أمور الدولة، ليقرر بعدها العودة إلى الجزائر تاركا القائد رمضان كحاكم يدير شؤون الإيالة ومعه حامية من الإنكشارية تقدر بـ 5 آلاف جندي لحفظ الأمن بالبلاد وضمان استقرارها وحراستها من الأخطار الخارجية.[2]

لكن السؤال المطروح لماذا لم يواصل علج علي تحرير حلق الوادي؟ ولربما حالت العديد من الأسباب دون ذلك، كان أهمها:

- قلة عدد الجنود المرافقين له والمقدرين بحوالي 5 آلاف من الإنكشاريين والمتطوعين.
- قوة الحامية الإسبانية حالت دون مواصلة الزحف إلى حلق الوادي، خاصة وأن هذه الأخيرة تتميز بحصونها المنيعة.
- الإسراع في العودة إلى الجزائر لمواصلة دعم الثورة الموريسكية التي كانت لا تزال متواصلة.
- الخوف من مهاجمة الجزائر من طرف القوات الإسبانية في حالة طول الغياب عنها.
- الاشتغال بالأوضاع الداخلية للجزائر مخافة من وقوع أي تمرد.

1- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص18، عبد لقادر فكاير: المرجع السابق، ص165.

2- عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص95.

- غياب الأسطول البحري العثماني، لأن معركة مثل هذه لا يحسمها إلا أسطول قوي.
- الخسائر التي تكبدها الجيش الجزائري منعته من مواصلة الاتجاه إلى حلق الوادي لتحريرها.

رغم تحرير مدينة تونس من الاحتلال الإسباني، إلا إن عدم تحرير حلق الوادي أبقى البلاد التونسية تحت رحمة التهديد المسيحي المستمر، مثلما كان حادثا في المرسى الكبير ووهران، هذا ما جعل البلدان المغاربية غير مكتملة السيادة، وقد لعبت ظروف الدولة العلية العثمانية المنشغلة بحروبها الأوروبية وتدعيم الثورة الأندلسية والصراع ضد الصفويين في تأخير التحرير النهائي لتونس.

2-حملة دون خوان النمساوي على تونس سنة 981ه/1573م.

تعتبر معركة الليبانت التي جرت وقائعها بين الأسطولين العثماني والمسيحي في 7 أكتوبر 1571م، من أهم المعارك البحرية عبر التاريخ في الصراع الإسلامي المسيحي، ويعدها الكثير من المؤرخين بداية النهاية للأسطول العثماني، لأنها كانت حدا فاصلا بين مرحلة القوة وبداية الضعف، وأمام الانهيار الشبه كلي للأسطول العثماني بعد الخسائر الفادحة التي تكبدها في هذه المعركة، حاولت إسبانيا استغلال هذه الأوضاع من أجل إعادة بعث حلم توسيع الإمبراطورية المقدسة، وكانت البداية من الحلقة الأضعف في بلاد المغرب تونس التي كانت بها حامية إسبانية متركزة بحلق الوادي.

وبعد أن هيأت معركة الليبانت الظروف اللازمة للملك الإسباني فليب الثاني من أجل القيام بالحملة، أمر بالبدء في إعداد حملة ضخمة أوكلت مهمة قيادتها لأخيه دون خوان دوتريش الذي وجد الفرصة مناسبة لتعزيز مكانته داخل البلاط الحاكم الإسباني خاصة وأوروبا عامة؛ بعد أن استطاع هزيمة العثمانيين في معركة الليبانت، بالإضافة إلى محاولة تحقيق مجد آخر باحتلال تونس يضاف إلى أعماله السابقة، مدعوما بقبول محمد بن الحسن اقتسام حكم تونس معه، بعد رفض مولاي أحمد الحفصي هذا العرض في مقابل إعادته لحكم البلاد مفضلا خلع نفسه واللجوء إلى صقلية سنة 980هـ/1572م أين بقي بها إلى غاية وفاته سنة 1573م[1] ليحول جثمانه إلى تونس أين دفن في زاوية بني قاسم الزليجي.[2]

انطلقت الحملة يوم 7 أكتوبر من جزيرة صقلية باتجاه مدينة تونس التي وصلها الأسطول يوم10أكتوبر 1573م وكانت الأرمادة الإسبانية مكونة من:

- 13ألف جندي إيطالي.

1- شوقي عطا الله الجمل: المرجع السابق، ص 108

2- حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 108

- 9 آلاف جندي إسباني.
- 5آلاف جندي ألماني[1]، بالإضافة إلى العديد من المتطوعين من مالطا والعديد من الدويلات الإيطالية الأخرى التي كانت تسارع دائما للمشاركة في مثل هذه الحملات ضد بلاد المغرب.

وصلت الحملة الإسبانية إلى حلق الوادي، أين تجمعت وحدات الأسطول من كل أنحاء أوروبا، وكانت خاتمتها السفن الإسبانية، لتنطلق باتجاه مدينة تونس التي استولى عليها الإسبان دون مقاومة تذكر، بسبب قلة جنود الحامية العثمانية المقدر عددهم بحوالي 2000 جندي فقط بقيادة رمضان باشا الذي لم يستطع الوقوف في وجه القوات المسيحية التي طاردته إلى غاية مدينة الحمامات، التي رفض أهلها استقباله وجنوده وأغلقوا دونهم الأبواب[2]،هذا ما اضطرهم للتوجه إلى مدينة القيروان؛ وأثناء سيرهم كانت تحدث معارك عنيفة بين الطرفين مالت كفتها لصالح العثمانيين وحلفائهم من التونسيين، وأمام خسائرهم المتتالية لم يجد الإسبان إلا السكان العزل بمدينة الحمامات للانتقام منهم كما جرت العادة في كل حملة يقومون بها ضد السكان المغاربة، وذهب ضحية هذه الأعمال الكثير من الرجال والنساء والأطفال، وكان خاتمة ذلك نهب المدينة[3]، أما رمضان باشا وقواته فواصلوا مسيرهم باتجاه القيروان، أين استقبلهم أهلها برفقة حيدر باشا بحفاوة وترحاب كبيرين.[4]

وقد نقل لنا ابن أبي الدينار نصا يعبر حقيقة عن حالة الرعب والخوف التي عاشها سكان تونس، مستذكرين في ذلك ما حدث لهم سنة 1535م عندما قام الإسبان بهتك الأعراض ونهب المدينة، وقتل الأبرياء رجالا ونساء وأطفالا، وفي ذلك يقول: «... **فلما علم أهل تونس بمجيئه هربوا من البلد خيفة من هول الأربعاء وهربوا إلى ناحية الرصاص واختفوا هناك في الدواميس، وهذه الواقعة يعبر عنها بمخطرة الدواميس...**».[5]

لما ظفر دون خوان بتونس واستقر له الأمر نهائيا قام بتنصيب مولاي أحمد الحفصي سلطانا وفرض عليه شروط مذلة وقاسية، وبذلك أصبح فاقدا للشرعية لأنه نُصّب من طرف الإسبان، وفاقدا أيضا لصلاحياته كحاكم لأن دون خوان جرده من كل سلطة، و جعله تابعا لعرش الملك الإسباني، وأمام هذه الوضعية المخزية قرر مولاي أحمد التنازل عن الملك لأخيه محمد الذي قَبِل أن يخضع للإسبان ويشاركه في تولي السلطة سيربيوني غابريال

---

1 -E. *guellouz,A. masmoud, M.smida : Hestoire de la tunisie, societetunisienne de diffusion, Tunis, 1983, p 18.*

2- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 22

3-*Ernest Mercier: op.cit, p 115.*

4- ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص167.

5- ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص167.

«Gabriel serbelloni»[1]، ثم قام دون خوان بإنشاء قلعة الباستيون وتحصينها وأسكن فيها الجنود الإسبان وزودها بجميع المنشآت الضرورية.[2]

بعد الانتصارات المتتالية التي حققها دون خوان النمساوي خاصة في الليبانت وتونس وفي العديد من المعارك في عرض البحر ازدادت طموحاته وأطماعه في تأسيس مملكة خاصة به في المتوسط بدعم من الكنيسة البابوية، هذا ما أدخل الخوف و الرعب في نفسية الملك فليب الثاني الذي خاف أن ينفرد دون خوان بحكم تونس ويجعلها مملكته المفترضة، لذلك وجه له الأوامر بالعودة فورا إلى إسبانيا، فما كان من دون خوان إلا تلبية الطلب فورا و العودة إلى إسبانيا تاركا وراءه حوالي 8000 جندي يقودهم غبريال سربيوني للمحافظة على المواقع المحتلة.[3]

بهذه الخطوة المميزة استطاع دون خوان النمساوي طرد العثمانيين من مدينة تونس التي دانت لهم نهائيا، بالرغم من وجود سلطة محلية ممثلة في محمد الحفصي، الذي كان حاكما صوريا لا يملك من الأمر شيئا سوى لقبا شرفيا يساعده في الاستئثار ببعض مزايا الحكم؛ الذي كان بيد سربيوني غبريال، وبذلك أصبحت تونس مقاطعة إسبانية مثلها مثل سردينيا وصقلية ونابولي...، إلا أن سكانها كانوا مسلمين تواقين لمن ينقذهم من هذا الوضع الذي آلوا إليه، ولم يكن لهم من مخلص إلا سلاطين الدولة العلية الذين تحملوا على عاتقهم مسؤولية الدفاع عن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

3-الفتح العثماني لتونس سنة 982ه/1574م.

زادت حدة الصراع العثماني الإسباني على تونس، لأنها المنطقة الوحيدة ببلاد المغرب التي بقيت تحت سلطة الإسبان مباشرة بالإضافة إلى وهران والمرسى الكبير، وقد تحملت الحامية الإسبانية بحلق الوادي عبئ المواجهة ضد إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب، التي كانت تسعى بكل قوة لضم تونس مثلما فعل علج علي سنة 1569م، ليعاد احتلالها مرة أخرى سنة 1573م من طرف دون خوان النمساوي، الذي لم يهنئ كثيرا بهذا الانتصار الذي لم يدم إلا بضعة أشهر، ليقرر السلطان العثماني سليم الثاني فتحها وضمها نهائيا لممتلكات الدولة العلية، وقد أوكلت هذه المهمة الجسيمة لعلج علي باشا الذي نال ثقة السلطان مباشرة بعد معركة الليبانت التي أبلى فيها البلاء الحسن.

1- فكاير عبد القادر: المرجع السابق، ص 116.

2- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص22.

3- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص245.

تحمل علج علي باشا والعديد من قادة الأسطول العثماني المسؤولية الكاملة في تحرير تونس، والتي حاول العديد من البحارة العثمانيين تحقيقها مثل خير الدين ودرغوث وسنان باشا وحيدر باشا وغيرهم، تدفعه في ذلك العديد من الأسباب.

3-1-أسباب الفتح العثماني لتونس.

أ-رغبة السلطان سليم الثاني في فتح تونس.

كانت القيادة العثمانية مصرة على فتح تونس وضمها نهائيا للدولة العلية خاصة بعد أن وجهت العديد من الفرمانات إلى حكام الجزائر، طرابلس الغرب، القيروان تطلب منهم الاستعداد لتحرير تونس؛ الهدف الأول للعثمانيين في ذلك الوقت.[1]

ب-تخفيف الضغط عن الإيالة الجزائرية.

شكلت تونس عبئا ثقيلا على الجزائر، لأنها تحملت المسؤولية في تحريرها، فكانت القوات الجزائرية في كل مرة تدخل في مواجهة الإسبان المتمركزين في تونس، لذلك أرادت الدولة العلية وضع حد لهذه المواجهات نهائيا ولا يتأتى لها ذلك إلا بتحرير تونس وإلحاقها بالجزائر.

ج-ربط ممتلكات الدولة العلية ببعضها البعض.

كانت تونس تمثل حجر عثر في وجه توحيد إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب وربطهم بممتلكات الدولة العلية بمصر خاصة والمشرق الإسلامي عامة، ولذلك أرادت تحرير تونس لتستطيع ربط ممتلكاتها ببعضها البعض.

د-إعادة الاعتبار للأسطول العثماني.

أراد السلطان العثماني رد الاعتبار لدولته وأسطوله الذي تضرر كثيرا في معركة الليبانت، مبرزا أن الأسطول مازال قادرا على حماية الدولة العلية، وما الحملة على تونس إلا دليلا قاطعا على قدرته في مواجهة أعدائه، بالرغم من أن الأسطول تلقى ضربة موجعة في هذه المعركة، إلا أنها لم تكن لتشل قدراته على مواجهة الأعداء المسيحيين.[2]

1- مهمة دفتري: رقم 21، حكم رقم، 637، 980/12/16هـ.

2- جون وولف: المرجع السابق، ص92.

هـ -فك التحالف الحفصي الإسباني.

حاول العثمانيون قطع الطريق على إعادة التحالف الإسباني الحفصي مرة أخرى مثلما حدث سنة 1535م، والذي دام حوالي 16 سنة ذاقت خلالها الرعية بالبلاد التونسية الذل والهوان، لذلك قرر السلطان سليم الثاني وضع حد لهذه الوضعية الكارثية، وعدم ترك تونس خارج نطاق السيطرة العثمانية.[1]

و-تدعيم حيدر باشا.

حاول السلطان العثماني استغلال تقدم حيدر باشا بقواته بالموازاة مع تقدم مصطفى باشا حاكم طرابلس الغرب باتجاه مدينة تونس لتحريرها، وقد التقت قوات الطرفين بمدينة المحمدية أين بدأ المواجهة مع القوات الإسبانية، وفي هذه الأثناء ومن محاسن الصدف أن ذلك تزامن مع قرار السلطان العثماني فتح تونس، ولذلك ولما سمعا بهذا الخبر زادت عزيمتهما وقررا مواصلة هذه العملية.[2]

ز -استغلال الأوضاع الداخلية لإسبانيا وأوروبا.

انتهت الأسرة الحاكمة في البرتغال دون ترك وريث شرعي، لذلك استغل فليب الثاني هذه الفرصة واستولى على الحكم، وكلف دون الألب بقتال المعارضين له، خاصة وأن النبلاء اشتكوا من تهميشهم بعد أن وعدهم فليب الثاني باحترام قوانين البرتغال كما اشتكوا أيضا من زيادة الضرائب عليهم، هذا وقد رفض البرتغاليون الموجودون في العالم الجديد وغيرهم الاندماج مع إسبانيا، خاصة عندما تأكدوا أن الإسبان لا يمكنهم مساعدتهم، ومع ذلك تمت الوحدة الإيبيرية بالرغم من هذه الاعتراضات، وبذلك توسعت ممتلكات الإمبراطورية الرومانية من لشبونة إلى بروكسل إلى الدويلات الإيطالية وصولا إلى العالم الجديد، وكان لها مليشيات كاثوليكية، وقد استطاع أحد نبلاء نافار إنشاء جماعة الياسوعيين (الجزويت) وعمل على نشر المسيحية على المذهب الكاثوليكي وأعلن الكفاح ضد الهراطقة (البروتستانت)، تدعمه في أعماله هذه القيادة الإسبانية[3]، هذا ما ولد العديد من المشاكل داخل إسبانيا وخارجها كانت قيادة الدولة العلية تعلم بها فأرادت بذلك استغلال هذه الأوضاع لصالحها وتسارع لفتح تونس .

ض-تطلع التونسيين لنصرة السلطان العثماني لهم.

عملت الحامية الإسبانية الموجودة بحلق الوادي على معاملة السكان بالظلم والجور وانتهاك الحرمات ونهب الخيرات، مدعمة في ذلك من طرف الأسرة الحفصية الحاكمة صوريا، ونتيجة لهذه الأفعال كان أغلبية السكان

1- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 246.

2- حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص109.

3- جلال يحي: أوروبا في العصور الحدية " الفجر"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر،1981، ص ص 358، 359.

ينتظرون الفرصة المواتية لطرد الإسبان وعملائهم، هذا التململ الذي أبداه السكان تجاه هذه السلطة الجائرة لم يكن ليستمر طويلا[1]، لأن السلطان العثماني أدرك هذه الحقيقة عن طريق عيونه الذين نقلوا له تطلع السكان التونسيين لنصرتهم وتخليص بلادهم من هذه الوضعية التي آلت إليها.

ط -استغلال ضغط إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب على الاحتلال الإسباني بتونس.

عملت إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب لزيادة الضغط على المحتلين الإسبان بتونس، ذلك أن مصطفى باشا بدأ الزحف من جهة الجنوب باتجاه مدينة تونس يؤازره في ذلك حيدر باشا حاكم القيروان[2] فيما حاول حاكم الجزائر رمضان باشا الضغط على تونس من جهة الغرب، وبذلك زاد ضغط حكام الإيالتين على الإسبان طمعا في نجدة سريعة من السلطان العثماني.

3-2-تجهيز الحملة العثمانية وسيرها.

أ ـ تجهيز الحملة.

بعد أن توفرت العديد من الأسباب والظروف قرر السلطان سليم الثاني القيام بتجهيز حملة عسكرية باتجاه تونس، لذلك بدأ في تجهيز الأسطول الهمايوني وعين على رأسه علج علي باشا بمساعدة سنان باشا، وبعث في طلب المساعدة من حاكم الجزائر رمضان باشا وحاكم القيروان حيدر باشا وحاكم طرابلس الغرب مصطفى باشا، بالإضافة إلى حاكم الجزائر السابق أحمد باشا، فيما اختلفت المصادر العربية الإسلامية في عدد قطع الأسطول بين مبالغ ومنصف في ذلك فقد ذكر علي بن محمد التمكروتي أن عدد قطع الأسطول كان حوالي 450سفينة، وفي ذلك قال: «...**ثم إن الترك انتدبوا وخرجوا إليها فجاؤوهم في أربعمائة وخمسين سفينة من القسطنطينية** ...»[3]، فيما ذكر محفوظ مقديش أن قطع الأسطول كانت حوالي 1500سفينة، وفي ذلك قال: «... **فشحنوا مائة غراب وعدة كثيرة من شونات*** **المراكب الكبار تحمل الأشغال والمدافع، قيل كان عدة سفن ألفا وخمسمائة سفينة**...»[4]، أما ابن أبي الدينار فذكر نفس الرواية تقريبا حيث قال: «...**وشحنت**

1- حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص109.

2- محمد الهادي شريف: المرجع السابق، ص66.

3 - علي بن محمد التمكروتي: النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم وتحقيق، عبد اللطيف الشادلي، المطبعة الملكية، الرباط، المملكة المغربية، 1423هـ/ 2002م، ص 42.

* - وهي كلمة من اللهجة المصرية تعني السفينة الكبيرة المعدة للجهاد البحري، وهي نفس السفينة من نوع غالير.

4- محفوظ مقديش: المصدر السابق، ص 71.

الأغربة بالرجال وعددها مائتان وثمان عشر معونة وغيرها من السفن الكبار والصغار فالجملة ألف وخمسمائة قطعة...».[1]

وهذه الرواية لا يمكن تصديقها لعدة أسباب منها:

- يمكن أن يكون المصدران ابن أبي الدينار ومقديش نقل عن بعضهما البعض.
- مساحة تونس والتجارب السابقة في عمليات الفتح العثماني أو الاحتلال الإسباني تنفى قطعيا هذه الرواية، لأن كل الحملات على تونس لم تجهز أسطولا بهذا الحجم.
- إذا كانت معركة الليبانت لم تجتمع فيها قطع الأسطول بهذا العدد الضخم جدا فكيف بحملة قد تكون بالنسبة للعثمانيين عادية ولا تحتاج إلى هذا العدد.
- كيف يعقل أن تكون عدد قطع الأسطول 1500 سفينة، ولم تمر إلا ثلاث سنوات عن تلقيه ضربة موجعة في معركة الليبانت في أكتوبر 1571م.
- لم نعثر في جميع المصادر والمراجع التي اطلعنا عليها مثل هذا العدد.
- مبالغة الكاتب تندرج في إطار افتخاره بأسطول الدولة العلية، وقد تعودنا عن مثل هذه المبالغات في المصادر العربية الإسلامية.
- شك الكاتب في هذا العدد لأنه استعمل لفظ قيل كان دليلا على عدم تأكده من المعلومة.
- اختلط على الكاتب العدد فذكر أولا 200 غراب لينتقل مباشرة إلى 1500 فهل هذا الفارق معقول؟

أما المراجع والمصادر الأجنبية فقد ذكرت أرقام مختلفة تماما عما ذكرته المصادر العربية فقد ذكر هايدو أن عدد قطع الأسطول العثماني كان مكونا من 250 سفينة حربية من نوع غالير و40سفينة لنقل الجنود والأسلحة والذخيرة[2]، أما فرناند برودال فقد ذكر أن عدد قطع الأسطول كانت 290سفينة[3]، فيما ذكر جون وولف أن العدد كان 230سفينة.[4]

الملاحظ أن المصادر والمراجع الأجنبية تقاربت في إعطاء العدد، وهو ما نأخذ به لعدة اعتبارات منها:

1- ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 176.

2 - *Haedo(F.D): op.cit, p149.*

3 -*Fernand (Braudel): les espagnols …op.cit, p 425.*

4- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص 92

- تعودنا أن المصادر والمراجع الأوربية تحاول دائما تضخيم مثل هذه الأحداث لإعطاء مصداقية أكبر للجانب الأوربي، أما في هذه الحالة فلم تستطع إعطاء أكثر من هذه الأرقام، لأنه لا يمكنهم إعطاء أرقام لا يتقبلها عقل أي إنسان متابع لهذه الأحداث.
- تطابق هذه الأرقام مع حجم البلاد التونسية، لأنه لا يعقل أن تجهز الدولة العلية أسطولا بهذا الحجم الضخم جدا لفتح بلاد بحجم تونس.
- هايدو كان أقرب للأحداث من مقديش وابن أبي الدينار اللذان كانا متأخرين إذا ما قورن مع هايدو.
- أما عدد الجنود فقد تقاربت حولها المراجع والمصادر وكان توزيعها كما يلي:
- 40ألف جندي من العثمانيين انطلقوا من إستانبول.[1]
- 4ألاف جندي من طرابلس الغرب.[2]
- 6 ألاف فارس من جربة والقيروان.
- 2000 رجل من عنابة وقسنطينة، بالإضافة إلى العديد من رجال القبائل في المنطقة.[3]
- 3 ألاف جندي إنكشاري وآلاف المتطوعين من الأهالي قدموا من الجزائر.[4]

وبذلك يكون الأسطول العثماني قد أتم استعداده لهذه الحملة.

رافق تجهيز الأسطول العثماني العديد من الخطوات الأخرى التي تدخل في إطار الاستعدادات الجيدة لعملية الفتح، ومن أهم هذه الاستعدادات مراسلة حكام الإيالات العثمانية الجزائر، طرابلس الغرب بالإضافة إلى القيروان وكانت هذه المراسلات كما يلي:

الرسالة الأولى: وجهها السلطان العثماني سليم الثاني إلى حاكم القيروان حيدر باشا يعلمه بالاستعداد جيدا للمساعدة في فتح تونس، وجاءت هذه الرسالة ردا على الرسالة التي وجهها مصطفى باشا للسلطان العثماني يخبره بسقوط تونس بيد دون خوان دوتريش، وقد طلب منه المساعدة بالرجال والسلاح والعتاد[5].

1- عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص 167؛ جون وولف: المرجع السابق، ص 92.; *Haedo(F.D) : op.cit, p 149.*

2 - *Braudel: op.cit, p425.*

3 - *Ernest mercier: Hestoire de la frique, seplo … ,op.cit, p 425.*

4- المنور مروش: المرجع السابق، ص 159.

5- مهمة دفتري: رقم24، حكم رقم166، 981/12/5هـ.

الرسالة الثانية: موجهة لأحمد باشا حاكم الإيالة الجزائرية يخبره السلطان العثماني بتعيين مكانه رمضان باشا على رأس الحكم بالجزائر، كمكافأة له على بلاءه الحسن بتونس، وفي نفس الوقت يطلب منه التوجه بقواته البحرية إلى تونس والمشاركة في فتحها، ويكون تحت إمرة علج علي باشا.[1]

الرسالة الثالثة: كانت موجهة لحاكم الجزائر الجديد رمضان باشا يخبره بتجهيز 300 قادرغا، وتأمره بالخروج بداية من محرم 982هـ/ أفريل 1574م بقصد فتح حلق الوادي مخبرا إياه أن قيادة الحملة أسندت إلى سنان باشا، أما قيادة الأسطول فكانت لقيادة علج علي باشا وتطلب منه التعاون مع حاكم طرابلس وحاكم القيروان والمشاركة مع سنان باشا قائد الحملة.[2]

الرسالة الرابعة: وجهت هذه الرسالة إلى الأمراء والقادة في سواحل المتوسط، تدعوهم لمساعدة مامي رئيس الذي أُرسل إلى المنطقة لتجنيد المتطوعين والراغبين في الجهاد بهدف إلحاقهم مع سفنهم إلى سنان باشا، وتأمرهم بترغيب وتشجيع المتطوعين على الجهاد في سبيل الله ويأمرهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد لنقلهم بسفن المتطوعين المجهزة إلى حلق الوادي التي تم العزم على فتحها.[3]

الرسالة الخامسة: مؤرخة بتاريخ 14ذي الحجة 981هـ/6أفريل1573م موجهة إلى أمير أمراء الجزائر رمضان باشا تطلب منه إرسال عساكر الجزائر للمشاركة في الحملة بعدد ألف وخمسة وتسعين فارسا وألف إنكشاري بكامل عدتهم وعتادهم[4]، وبهذه الإجراءات تمت الاستعدادات العثمانية لفتح تونس.

4-الاستعدادات الإسبانية.

لما علم الإسبان بخبر الحملة العثمانية بدأت الاستعدادات لمواجهتها بكل حزم وقوة، وفي إطار ذلك أُرسلت قوات إضافية إلى حلق الوادي[5]، كما تمت مراسلة الدون غارسيا دوتوليدو نائب ملك نابولي حول ما يجب فعله تجاه هذه الحملة، وتم اقتراح تحطيم حصن تون وتشيكلي «Chikli» الواقع بقرطاج.

بتاريخ 1 جويلية 1574م تلقى حاكم تونس سيريجيو سيربيوني خطابا من الكاردينال غران فيل «Granelle» يخبره فيه باقتراب الأسطول العثماني من تونس طالبا منه الالتحاق بحلق الوادي والدفاع عنها، واتخاذ جميع الإجراءات الدفاعية اللازمة والتنسيق مع حاكمها بيترو دي بورتوكاريرو « peitro de port

1- مهمة دفتري: رقم24، ص59، حكم رقم167 ،981/12/5هـ.

2- مهمة دفتري: رقم 24، ص72، حكم198، 981/12/5هـ.

3- مهمة دفتري: رقم 24، ص72، حكم198، 981/12/5هـ.

4- مهمة دفتري: رقم 24، ص ص 9. 52، حكم رقم 246، 981/12/14هـ.

5- فكاير عبد القادر: المرجع السابق، ص167.

carrero» لذلك سارع سيربيوني لإخلاء مدينة بنزرت ونقل الجنود إلى حلق الوادي[1]، كما أشرف على تنظيم الدفاعات وكانت موزعة كما يلي:

- حصن حلق الوادي: تحت قيادة ديبور توكاريرو ومعه أربعة كتائب عسكرية من الإسبان وخمسة من الإيطاليين.
- حصن الباستيون: أقيم بالقرب من بحيرة حلق الوادي وجزيرة شيكلي بقيادة الدون زاموغيرا «G.De.Zamogurra».[2]
- حصن باب البحر: تحت قيادة سيربيوني ومعه ألف جندي إسباني وإيطالي.

وإتماما لاستعداداته قام سيربيوني بإخلاء المدينة من المرضى والعجزة وإرسالهم إلى إيطاليا بتاريخ 23 جويلية حتى لا يشكلون عبئا إضافيا على القوات الإسبانية، وحماية لهم في حالة سقوط المدينة بيد العثمانيين[3] وهو عمل يحسب لصالح سيربيوني الذي فكر فيهم بطريقة صحيحة بالرغم من الظروف الموجود فيها.

5-سير الحملة العثمانية:

بعد أن أتم الأسطول العثماني استعداداته بقيادة علج علي انطلق من القسطنطينية متجها إلي تونس وكان يوما مشهودا، لأن العثمانيين علقوا عليه آمال كبيرة من أجل حسم معركة تونس نهائيا، وفي نفس الوقت الانتقام من هزيمتهم المذلة في معركة الليبانت، ولذلك خرج قادة الأسطول وكلهم عزما على رد هيبة الدولة العلية، خاصة علج علي الذي كان معنيا أكثر من غيره؛ لأنه تحمل على عاتقه مسؤولية إعادة بعث الأسطول من جديد، وهذه الحملة تعتبر اختبارا حقيقيا لإثبات جدارته وأحقيته بثقة السلطان العثماني، وقد سخرت سلطات الدولة العلية جميع الإمكانيات لإنجاح الحملة، وفي ذلك يقول محمود مقديش: «... **وكان يوم بروزهم في القسطنطينية يوما مشهودا في ساعة مباركة بغرة أشرف الربيعين سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، فشرعوا في السفر واجتمعوا بميناء ناورين...**»[4]، وقد خرج الأسطول من القسطنطينية بتاريخ 15 ماي 1574م بقيادة علج علي ومساعدة سنان باشا.

1- ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 25.

2 - *F.Elie.De La Primaudaie: Documents Inedits Sur Lhistoire Loccepation Espagnole En Afrique 1506-1574, R.Af, N°21, Alger, 1877, p460.*

3- محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص154.

4- محفوظ مقديش: المصدر السابق: ص ص 71، 72.

تجمعت قطع الأسطول العثماني بميناء ناورين (نافرين) «Navarin» باليونان لتتوجه بعدها إلى تونس وفي الطريق مرت بمنطقة ماللوكليسان بالبندقية، أين أخذ الجنود قسطا من الراحة ثم مرا بصقلية بتاريخ 20جويلية وفيها جرت معركة عنيفة بين الأسطولين العثماني والصقلي تكبد خلالها الطرفين العديد من الخسائر، وغنم العثمانيون سفينة محملة بالقمح والكثير من الغنائم الأخرى[1]، ليحط الأسطول العثماني رحاله بحلق الوادي يوم 12جويلية 1574م، معلنا بداية حصار المدينة مباشرة بعد وصوله.

بالتوازي مع تحرك الأسطول العثماني تحركت قوات الإيالات المغاربية باتجاه تونس، فقد انطلقت القوات الجزائرية بقيادة أحمد عرب باشا في نهاية شهر ماي، إلا أنه اضطر للتوقف في بجاية في انتظار وصول الأسطول العثماني[2]، وذلك راجع لقرب المسافة بين الجزائر وتونس، كما تحرك مصطفى باشا من طرابلس الغرب بقواته، وحيدر باشا من القيروان[3]، حيث بدأت المعارك بين الإسبان والموالين لهم من جهة وقوات مصطفى باشا وحيدر باشا من جهة ثانية، وبهذا الخصوص أورد لنا الوزير السراج هذه الرواية: «... **تحركت عند حيدر باشا الحرارة الإيمانية... فتحرك بمن معه إلى تونس، ونازلوها يوما حصلت فيه بعض محاربة، وطالت مدة الفتح عليهم وكاد أن ينفذا ما لديهم، فبينما هم في شدة الأحوال... رأوا على سطح البحر مراكب جمة...هي المدد والجيش العثماني**...»[4]، وقد نقل لنا أيضا حسن حسني عبد الوهاب ما يعزز لنا هذه الرواية- وقد يكون نقلها لنا من عند الوزير السراج لأنه لم يوضح لنا مصدر هذه المعلومة- وفي ذلك يقول: «...**فلما فرض الإسبان حمايتهم على بقايا المملكة الحفصية، وتدخلوا في شؤون البلاد، عزم حيدر باشا على افتكاك تونس من أيديهم، فتخابر في شأن ذلك مع زميله مصطفى باشا قائد الحامية التركية في طرابلس، واتفقا على جمع قواتهما والسير إلى تونس، فجهز كل منهما عساكره والتقيا بالمحمدية، ومن هنا أخذا يزحفا على العاصمة، حتى إذا اقتربا منها علم سرا بوصول فرقة من الأسطول العثماني إلى المياه التونسية بنفس الغرض الذي كانا يقصدانه، وبذلك قويت عزيمة الجيوش الزاحفة**...».[5]

من خلال الروايتين السابقتين نلاحظ:

1- قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي: البرق اليماني في الفتح العثماني...، المصدر السابق، ص ص 464-466.

2 -*Haedo(F.D):op.cit, p p 421,422.*

3- رحيمة بيشي: العلاقات السياسية التونسية الإسبانية في أواخر الدولة الحفصية 898-982هـ/ 1494-1274م، مذكرة شهادة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، المركز الجامعي غرداية، الجزائر، 1432-1433هـ/ 2011-2012م، ص 146.

4- محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج: المصدر السابق، ص 215.

5- حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 109.

- بدأت المعارك ضد الإسبان من الجهة الجنوبية لتونس بقيادة حيدر باشا ومصطفى باشا.
- قد يكون حدث اتفاقا مسبقا بين علج علي وحيدر باشا ومصطفى باشا، بحيث يتزامن الهجومان، من جهة البحر الأسطول العثماني، ومن جهة البر قوات طرابلس والقيروان.
- يمكن أن يكون حماس حيدر باشا ومصطفى باشا قادهما لبداية الهجوم، على عكس القوات الجزائرية بقيادة أحمد عرب باشا الذي بقي ينتظر في بجاية ولم يبادر بالهجوم.
- يمكن نفي رواية حسن حسني عبد الوهاب التي تقول أن حيدر باشا ومصطفي باشا كان لا يعلمان بالحملة العثمانية، لكن واستنادا إلى الفرمانات التي وجهت إلى الإيالات المغاربية تطلب منهم التحضير للحملة تؤكد لنا بما لا مجال للشك أنهما كانا يعلمان بخبر الحملة.
- الوزير السراج تكلم عن بداية المعارك بين قوات طرابلس الغرب والقيروان ضد الإسبان ولم يتكلم عن عدم علم مصطفي باشا وحيدر باشا بخبر الحملة.
- ما نرجحه أن سنان باشا لم يكن يعلم بزحف قوات طرابلس والقيروان باتجاه تونس إلا بعد وصوله في 13جويلية حينها أصدر تعليماته بتوحيد الجهود ودعم حيدر باشا بحوالي 4آلاف جندي، ونصبه قائدا للعمليات وزوده بـ 8 مدافع كبيرة، و8 أخرى صغيرة، وطلب منه المرابطة بمدينة تونس[1]، في انتظار الأوامر بتحرير حلق الوادي، وبذلك حدث التنسيق لأول مرة بين حيدر باشا ومصطفى باشا وقائد القوات البحرية سنان باشا.

6-خطة الهجوم.

قبل بداية المعارك اتخذت قيادة الأسطول العثماني قرارا بالهجوم على مدينة تونس من عدة جبهات، وكان الهدف ذلك:

- تشتيت جهود القوات الإسبانية جنوبا وشرقا.
- عزل الحامية الإسبانية بحلق الوادي وإنهاكها لأنها القوة الرئيسية في مواجهة العثمانيين.
- تخفيف الضغط على القوات العثمانية الدعامة الأساسية للحملة.
- كسب أكبر تأييد ممكن من طرف البدو بالإضافة إلى سكان المدن التونسية الأخرى.
- دعم قوات القيروان وطرابلس الغرب لأن المعارك البرية أنهكتهم.

1- *F.Elie.De La Primaudaie: op.cit, p465.*

لما اجتمع قادة الأسطول العثماني بالقرب من حلق الوادي قرروا دعم الجهة الجنوبية بقيادة حيدر باشا ومصطفى باشا، وأرسل لمساعدتهما إبراهيم بك حاكم مصر، ومحمود بك حاكم قبرص، وبكر بك حاكم قره حصار وطلب منهم الزحف نحو مدينة تونس[1] والسيطرة عليها في أقل مدة زمنية ممكنة وبأقل التكاليف، وفي ذلك يقول ابن أبي الدينار: «...**وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم وناوشوها بالقتال من كل جهاتها**...»[2]، أما سنان باشا وعلج علي فقد أحكموا الحصار على حلق الوادي ونصبوا الخيام وأنزلوا المدافع الكبيرة والصغيرة وبنو الخنادق من أجل الاستتار بها من مدافع وقنابل الإسبان.[3]

7-بداية المعارك.

7-1-تحرير حلق الوادي.

بعد وصول الأسطول العثماني إلى السواحل التونسية قرر العلماء والأعيان وزعماء القبائل الاتصال بالقيادة العثمانية من أجل تسهيل مهمتهم وتشجيعهم على المضي قدما في تحقيق هدفهم الذي جاءوا من أجله، شارحين لهم أوضاع البلاد والعباد وموضحين لهم أن مبشرات النصر واضحة.[4]

أُستقبل العثمانيون استقبال حارا من طرف السكان المحليين الذين زودوهم بكل ما يحتاجونه من الأكل والشرب وجميع المؤن الضرورية في مثل هذه الأحوال بالإضافة إلي الخيول والإبل والحمير التي تستعمل في نقل المواد اللازمة[5]، وقد عمل القادة العثمانيون على أخذ جميع الاحتياطات اللازمة خاصة التزود بالماء؛ فقد قاموا بحفر حوالي 20 بئرا، على عكس الإسبان الذين افتقدوا هذه المادة الحيوية نتيجة للحصار المضروب عليهم؛ مع أنهم حفروا عددا من الآبار، إلا أنها لم تكن كافية[6] لتحقيق رغباتهم نظرا لطول مدة الحصار وتواجدهم في مكان ضيق.

بعد راحة دامت حوالي أربعة أيام زادت فيه حدة الحصار وتم تنسيق الجهود بين القوات البرية والبحرية، وضبطت الخطط اللازمة لمهاجمة حلق الوادي وتونس، ابتدأت المعارك يوم 17 جويلية حيث تولى أحمد عرب باشا وعلج علي باشا الهجوم على حلق الوادي، وقد أظهرا ذكاء خارقا وخفة في توجيه ضربات متتالية للإسبان الذين أربكهم هذا الهجوم، فيما تأخر القصف المدفعي إلى غاية 21 جويلية محدثا خسائر فادحة في القلعة بعد حصار

1- محمود مقديش: المصدر السابق، ص 73.
2- ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 177.
3- محمود مقديش: المصدر السابق، ص 73.
4- ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 200.
5- محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص155.
6- نيقولاي إيفانوف: المرجع السابق، ص299.

وقصف دام حوالي شهرا كاملا، أحدث بعده العثمانيون ثغرة فيه ليلة 22-23 أوت، معلنين بذلك عن تحرير مدينة تونس صبيحة يوم 23 أوت[1]، وقد قتل جميع الجنود الإسبان انتقاما منهم وثأرا لآلاف الجنود العثمانيين والسكان المحليين وبقية المجاهدين الذين قتلوا أثناء هذه الحملة أو ما قبلها، كما قتل على أسوار القلعة مصطفى باشا[2]، فيما أُسر القائد الإسباني بورتو كاريروا رفقة 300 من جنوده وغنم العثمانيون 200 مدفع ثقيل[3]، بعدها توجه رمضان باشا لتعزيز الحصار على مدينة تونس وتدعيم حيدر باشا في محاولة لتحرير المدينة ضاربين حصارا محكما على قلعة الباستيون منذ 17جويلية.[4]

7-2-تحرير مدينة تونس.

تزامن ابتداء الهجوم على حلق الوادي مع بداية الهجوم على مدينة تونس بقيادة حيدر باشا حاكم القيروان الذي مدّا سنان باشا بقوات برية للزحف على مدينة تونس بالتزامن مع هجوم على حلق الوادي، واستطاعت القوات العثمانية الزحف باتجاه مدينة تونس إلا أن القوات الإسبانية قاومت بشراسة محاولة منع العثمانيين من التقدم، خاصة وأن عدد الجنود كان حوالي 30ألف جندي، إلا أن إصرار القوات العثمانية جعل الإسبان يتراجعون مخلفين ورائهم حوالي 200 قتيل والعديد من المدافع[5]، زاد الوضع تعقيدا انسحاب العرب من المعارك وانضمامهم للعثمانيين.[6]

بعد تراجع القوات الإسبانية وبداية انشقاق المقاتلين العرب عنها، قرر الأمير الحفصي وقائد القوات الإسبانية سيربيوني الفرار إلى حصن الباستيون والاحتماء به، إلا أن علج علي حاول اللحاق بهما ومطاردتهما، وقد فشل في ذلك ولم ينجح؛ مما اضطره لطلب المساعدة من سنان باشا ومده بالجنود والمدافع الكبيرة لاختراق الحصن، وكان استجابة سنان باشا سريعة حيث أرسل له حولي 1000 جندي انكشاري بقيادة علي أغا وثمانية مدافع كبيرة ومع ذلك لم تجدي هذه التعزيزات نفعا أمام إصرار الإسبان في المقاومة، لذلك قرر علج علي وسنان باشا الذي التحق به من حلق الوادي وضع الخطط اللازمة وحصار الباستيون من كل الجهات ومواصلة القصف بكثافة مما نتج عنه خسائر فادحة في صفوف الإسبان الذين فقدوا آلاف الجنود القتلى.[7]

1- فكاير عبد القادر: المرجع السابق، ص ص 167. *De Grammont : op.cit, p 116.*

2- الوزير السراج: المصدر السابق، ص 230؛ نيقولاي إيفانوف: المرجع السابق، ص 299.

3- *F.Elie.De La Primaudaie: op.cit, p463.*

4- فكاير عبد القادر: المرجع السابق، ص 167.

5- رحيمة بيشي: المرجع السابق، ص151.

6- محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص155.

7- نيقولاي إيفانوف: المرجع السابق، ص302.

مع هذه الأوضاع المتأزمة حاول دون خوان النمساوي السير بنفسه لمواجهة هذه الأوضاع، لذلك وبتاريخ 7 سبتمبر قرر تجهيز أسطول مسيحي يتكون من 60 سفينة لنجدة المحاصرين، إلا أن السلطات الإسبانية ممثلة في الملك فليب الثاني لم تأذن بالتحرك للأسطول إلا يوم 23 سبتمبر، وقد كان الأمر حسم لصالح العثمانيين.[1]

كان يوم 13 سبتمبر يوما فاصلا في معركة تونس، لأنه بهذا التاريخ استطاع العثمانيون شن هجوم مباغت، وفي نفس الوقت زرع الألغام تحت أبراج القلعة التي حدثت فيها انفجارات عنيفة، وبذلك سهل اقتحامها والسيطرة عليها والقضاء على الجنود الإسبان المدافعين عنها، وفي أثناء هذه المعارك ألقي القبض على القائد سيربيوني أما ابنه فقد قتل[2]، هذا ما جعل القوات الإسبانية تتلقى ضربة قاضية شتت شملها وتركتها غير قادرة على المواجهة، لأنه من غير المعقول أن تستمر المعارك في ظل انهيار معنويات الجيش بعد فقدان قائده، وبذلك أصبح يقاتل بدون هدف واضح، بعد أن فقد جميع القلاع التي سقطت الواحدة تلوى الأخرى بيد العثمانيين، زاد الطين بلة سقوط قلعة شيكلي وأسر قائدها زموقيرا، بالإضافة إلى بورتوكريرو والسلطان الحفصي مولاي محمد الذين أرسلوا جميعا إلى استانبول.[3]

بعد انتهاء المعارك واستسلام ما بقي من الجنود الإسبان تم استرجاع تونس نهائيا، وبذلك كسب العثمانيون الرهان واستطاعوا الخروج من معركة الليبانت أكثر إسرارا وقوة وعزيمة، معلنين بذلك بداية الأحزان في أوروبا بعد أفراح دامت حوالي ثلاث سنوات كانت بدايتها معركة الليبانت، وهكذا عادت الأوضاع إلى طبيعتها في بلاد المغرب التي أصبحت تابعة للخلافة الإسلامية بعد سنوات فقدت فيها وحدتها وتكاملها.

8-نتائج الفتح العثماني لتونس.

- استطاع العثمانيون الانتقام من هزيمة الليبانت، فقد تمكن علج علي وفي ظرف وجيز إعادة بناء الأسطول العثماني المتهالك أثناء معركة سالفة الذكر.
- تأمين طرق المواصلات البحرية بين الدولة العلية العثمانية وإيالاتها المغاربية.
- حُسم الصراع في هذه المعركة لصالح الأسطول العثماني، فقد تلقى الأسطول الإسباني هزيمة مدوية كانت لها أثارا سلبية على مشاريع الملوك الإسبان وقادة الكنيسة الكاثوليكية ببلاد المغرب، لأنهم تأكدوا أن بلاد المغرب لا يمكنهم احتلالها ببساطة في ظل وجود الدولة العلية.

1 -*Braudel: la mede…op.cit, p297.*

2- *F.Elie.De La Primaudaie: op. cit, p466.*

3- محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص157.

- بفتح تونس وتحريرها نهائيا من الاحتلال الإسباني، انتقلت البلاد من العصور الوسطى التي غلب عليها الاختلاف والتناحر الداخلي والأطماع الخارجية إلى العصر الحديث الذي تم فيه تأسيس الإيالة التونسية وانقراض الأسرة الحفصية.[1]
- أثناء المعارك أسر الأمير التونسي مولاي محمد بن مولاي الحسن الحفصي، الذي أرسله سنان باشا إلى الباب العالي أين بقي معتقلا إلى أن توفي وبذلك انقطعت السلالة الحفصية بعدما حكمت تونس ما يقارب 350سنة.[2]
- تعيين هيئة حكم بقيادة أمير الأمراء حيدر باشا الذي تلقى قرار التعيين من سلطان الدولة العلية ودُعم بحوالي أربعة آلاف جندي إنكشاري لحفظ الأمن والدفاع عن البلاد، وعُين المولى حسين أفندي قاض للحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وتنظيم الديوان، وبذلك كانت تونس لها نفس تنظيمات الدولة العلية العثمانية[3]، إلا أنه يجب الإشارة أن تونس كانت لها تنظيمات خاصة أثناء حكم الحفصيين، وبذلك امتزجت تنظيمات الدولتين لبناء مؤسسات الدولة التونسية الحديثة.
- تحطيم الحصون والمنشآت الإسبانية خاصة الموجودة بحلق الوادي، فقد أمر سنان باشا بتدميرها من أساسها حتى لا يتكرر ما حدث سابقا حينما استطاع الاحتلال الإسباني السيطرة عليها واتخاذها قاعدة عسكرية استراتيجية لتثبيت أركانه ومهاجمة بلاد الإسلام عموما والمغرب الإسلامي خصوصا.
- استشهد من العثمانيين حوالي10آلاف، سواء من الجنود النظاميين أو المتطوعين بالإضافة إلى الجرحى.
- قتل من الإسبان وحدهم حوالي 8000 جندي، بالإضافة إلى عدد ضخم من الموالين للسلطان الحفصي مولاي محمد.[4]
- فقد الإسبان خيرة قادتهم بتونس وعلى رأسهم القائد دي زاموقيرا، سيربيوني، بورتو كاريروا الذين تم إرسالهم إلى الباب العالي مقيدين بالأغلال دليلا على ذلهم وخضوعهم للعثمانيين.*

1- محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص124.

2- حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص110.

3- حسين خوجة: ذيل بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان، تعليق وتحقيق، الطاهر معموري، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 2001م، ص ص 5، 6.

4- محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص 157.

*- أسر القائد في المعارك هو أكبر إهانة لأي دولة مهما كانت قوتها، وأسر هؤلاء القادة هو إهانة لإسبانيا ملكها وحكومتها وشعبها وحتى لكامل أوربا، وموت هؤلاء دفاعا عن مشروعهم أفضل لهم من حياة الأسر والذل حتى ولو وعوملوا بطريقة جيدة، لأن الموت في المعارك هو شرف لكل إنسان مهما كان دينه وعقيدته وجنسه خاصة إذا كان في خدمة دينه وبلده.

- زفت بشائر النصر إلى كامل أنحاء العالم الإسلامي، وعلى رأسهم السلطان العثماني سليم الثاني، الذي أرسل له سنان باشا أخبار النصر المبين الذي تحقق في تونس، ومن بعده نقلت الأخبار إلى سائر أنحاء الدولة العلية، وفي ذلك يقول محفوظ مقديش: «...**وجهزت البشائر إلى الأعتاب العلية العثمانية وتطايرت أخبار هذه البشارة إلى سائر أقطار الإسلام** ...».[1]
- إفشال المشروع الإسباني الرامي لإعادة احتلال الجزائر وطرابلس الغرب وصولا إلى مصر وغيرها من أمصار الإسلام، إلا أن إرادة السلطان سليم الثاني وعزمه على نصرة المسلمين والإسلام، وإدراك القادة العثمانيين لخطر الإسبان أنقذ البلاد والعباد من هذا المشروع الهدام.[2]
- قتل من الإسبان حوالي 13000 مقاتل.
- استشهد من العثمانيين حوالي 13000شهيد.
- استشهاد العديد من القادة العثمانيين؛ على رأسهم صفر بك حاكم الإسكندرية وبايزيد بك حاكم ترحالة وأحمد بك حاكم ألونية ومصطفى بك حاكم أسيس وخضر بك.[3]
- غنم العثمانيون 205 مدفع كبير وعدد كبير من المدافع الصغار، فأبقى سنان باشا 25 مدفعا منها لحماية تونس، وأرسل 180مدفعا للباب العالي لتدعيم الأسطول.[4]
- وزعت مكافآت كبيرة (علوفة) على جميع الرؤساء والجنود، بالإضافة إلى الترقيات إلى مناصب أعلى؛ مكافأة لهم على جهادهم واجتهادهم لتحقيق هذا النصر العظيم.
- تدعيم مكانة سنان باشا عند حكام الباب العالي، أين أنعم عليه السلطان سليم الثاني بالترقية والدعم المادي والمعنوي، جزاء له على نصرة الدين الإسلامي والدولة العلية العثمانية ثم استقبل من طرف السلطان سليم الثاني، الذي قابله بحفاوة كبيرة دليلا على تقديره للخدمات التي قدمها سنان باشا وسائر جنود الدولة العلية خلال هذه الحملة المباركة.[5]

1- محمود مقديش: المصدر السابق، ص78.
2- ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص183.
3- محمود مقديش: المصدر السابق، ص81.
4- حاجي خليفة: المصدر السابق، ص84.
5- محمود مقديش: المرجع السابق، ص82.

- بضم تونس إلى الدولة العلية، تم توحيد إيالة الجزائر، طرابلس الغرب، تونس وبذلك أَمِنَ حكام الجزائر المؤامرات الحفصية الإسبانية التي كانت تحاك ضدهم[1]، وتحررت كامل بلاد المغرب ماعدا وهران والمرسى الكبير، وقد كان محور الصراع الجزائري الإسباني، ابتداء من هذا التاريخ 1574م.
- تبادل الطرفان العثماني والإسباني عددا كبيرا من الأسرى؛ ومن أهم هؤلاء الأسرى الذين تم إطلاق سراحهم محمد بن صالح رايس الذي أسر في معركة الليبانت سنة1571م.
- وقع في الأسر العديد من الصناع المهرة؛ خاصة صناع المدافع وسبك النحاس وقد أعطى سنان باشا الأمان لـ 205 منهم وزودهم بالمال في مقابل إرسالهم إلى الباب العالي من أجل استخدامهم في تطوير صناعة المدافع*، ومن ذلك التاريخ تطورت المدفعية العثمانية.[2]

المبحث الثاني: تأسيس الإيالة التونسية سنة 982هـ/1574م.

على عكس إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب أخذت إيالة تونس وقتا طويلا جدا لتأسيسها، خاصة إذا علمنا أن تواجد العثمانيين بهذه البلاد كان مبكرا وسابقا لتواجدهم بطرابلس الغرب والمغرب الأوسط، ويرجع هذا التأخر لعدة عوامل نذكر منها:

- وجود سلطة محلية حاكمة، مرتبطة بالسكان المحليين ارتباطا وثيقا، لأنهم من أهل هذه المنطقة، وكانت البلاد موحدة وخاضعة لها، بالرغم من وجود العديد من التمردات داخل البلاد هنا وهناك.
- الدعم الذي قدمه مولاي الحفصي عند قدوم العثمانيين إلى بلاد المغرب جعل علاقات الود تستمر بين الطرفين حتى ولو كان لمدة قصيرة.
- الشرعية الدينية والدنيوية التي تميز بها السلاطين الحفصيين داخل البلاد التونسية كانت سببا مانعا للعثمانيين لضم تونس، لأنهم كانوا يعلمون أنهم دخلاء على المنطقة، وتدخلهم يزيد المنطقة تأزما، لذلك انتظروا حتى جاءت الفرصة المناسبة.
- اعتقاد السكان المحليين بشرعية الحفصيين وارتباطهم المعنوي بهم على اعتبار أنهم أسرة حاكمة محلية، على العكس لو تدخل العثمانيون في وقت مبكر لكانوا تلقوا معاملة الدخيل على البلاد، وقد حدثت العديد من التمردات خلال المحاولة الأولى سنة1534و 1573م.

1- عمار بن خروف: المرجع السابق، ص ص86 ،87.

* – وهكذا هم القادة الحقيقيين الذين يفكرون في مصلحة بلادهم، حيث استغل الأسرى لتطوير المدافع العثمانية من أجل مواجهة المسيحيين، وبذلك استغل الصناع المهرة المسيحيين في مواجهة بني جلدتهم، لأنهم خير من يعرف قوتهم.

2-ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص185.

- ممارسة العديد من جنود الإنكشارية لبعض الممارسات المشينة نفّر منهم السكان خلال المرات السابقة، كان عائقا في ضم تونس للدولة العلية العثمانية.
- عدم استقرار الأوضاع بالجزائر أجل المشروع العثماني بتونس إلى حين.
- عدم استقرار الأوضاع بطرابلس الغرب منع التعاون الجزائري الطرابلسي لطرد إسبانيا من تونس.
- انشغال الدولة العلية بالحروب ضد المسيحيين والصفويين أجل ضم تونس في الأوقات السابقة، باعتبارها ليست من الأولويات العثمانية.
- تدخل إسبانيا في تونس كان له الأثر المباشر على تأخير انضمامها للدولة العلية العثمانية، لأن إسبانيا كانت تحاول التدخل المباشر في كل مرة لإبقائها تحت سيطرتها وتثبيت الأسرة الحفصية العميلة لهم.
- عدم وعي السكان المحليين بالخطر الذي يمثله الإسبان والحفصيين على وطنهم ودينهم وعدم القيام بالثورات كان سببا مباشرا في تأخير ضم تونس للدولة العلية.

وعموما فقد مرّ تأسيس الإيالة التونسية بعدة مراحل قبل أن تأخذ شكلها النهائي وتنظم للدولة العلية، وأهم هذه المراحل هي:

1-المرحلة الأولى: مرحلة التواجد العثماني الرسمي المبكر 1490-1512م.

تعتبر هذه المرحلة الإرهاصات الأولى للتواجد العثماني بتونس خاصة وبلاد المغرب الإسلامي عامة، خاصة وأن الكثير من المؤرخين يذهب إلى أن الحضور العثماني بالسواحل المغاربية كان مبكرا، حيث يعود إلى نهاية القرن الخامس عشر ميلادي؛ عندما حاول السلطان العثماني بايزيد الثاني نجدة الأندلسيين بعد اتصاله بقصيدة من أحد الموريسكيين يصور له فيها معاناة الأندلسيين ويطلب منه ويستنجده لإنقاذهم مما يعانونه.[1]

لذلك أرسل السلطان العثماني بايزيد الثاني العديد من البحارة العثمانيين استجابة لنداء الأندلسيين ودعم الأسطول العثماني في المتوسط، ومن أشهر هؤلاء البحارة؛ كمال رئيس الذي وصل حتى مصر وكان شخصية مشهورة جدا في هذه البلاد نظير أعماله في مجال الجهاد البحري[2] ويحي رئيس، اللذان استطاعا تنفيذ العديد من الهجمات على السواحل الإسبانية نجدة للأندلسيين[3] ومحاولة لإنقاذهم أو المساهمة في بقاء مملكة غرناطة صامدة

1- المقري التلمساني: أزهار الرياض في أخبار عياض، ج1، القاهرة، مصر، 1993، ص ص 109-115.

2 - ابن إياس محمد الحنفي: بدائع الدهور وطبائع الدهور، ج4، 1501-1515-، تحقيق، محمد مصطفى، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1404هـ/1984م، ص119.

3- ليلى الصباغ: ثورة مسلمي غرناطة...، المرجع السابق، ص137.

لمدة أطول، إلا أن الإسبان أدركوا الخطر العثماني على بلادهم، لذلك سرعوا عمليات طرد المسلمين وإسقاط آخر ممالكهم بالأندلس، بل أكثر من ذلك مطاردتهم إلى بلاد المغرب الإسلامي واحتلالها.

ولذلك كان التواجد العثماني مبكرا ببلاد المغرب خاصة تونس، لأن الأوضاع بها كانت مساعدة على مكوث الأسطول العثماني بها ولو لمدة قصيرة للتزود بالمؤن وأخذ قسط من الراحة لمواصلة السير باتجاه السواحل الإسبانية، ولأن العلاقات الحفصية العثمانية كانت حسنة؛ ميزتها الاحترام المتبادل، خاصة إذا علمنا أن السلطان الحفصي...توسط بين بايزيد الثاني وسلطان المماليك قايتباي[1] لإنهاء الخلاف الذي كان بسبب تدعيم المماليك للصفويين ضد العثمانيين في الحروب الدائرة بينهما، على اعتبار أنه لا يجوز الحرب بين أميرين مسلمين، لذلك تم الاتفاق سنة1491م على إنهاء الخلاف بدون قيام أية حرب بينهما.[2]

ما يمكن ملاحظته أن التواجد العثماني بالبلاد التونسية كان سابقا للبلاد المغاربية الأخرى؛ لتوفر عدة أسباب نذكر منها:

- وجود الأسرة الحفصية التي كانت لها السلطة الدينية والدنيوية على رعايا البلاد التونسية لأنها السلطة الوحيدة التي كانت تحظى بالدعم الحقيقي والاحترام من طرف العثمانيين، لأن البلاد المغاربية الأخرى كانت تعيش الفوضى والتشرذم والاختلاف.
- الاعتراف العثماني بشرعية الحكم الحفصي.
- وجود البلاد التونسية في الطريق البحري المؤدي إلى إسبانيا حتّم على الأسطول العثماني التوقف بالأراضي التونسية.
- العمل الإيجابي الذي قام به بايزيد الثاني في إنقاذ الأندلسيين من البطش الإسباني أكسبه الاحترام والتقدير من طرف التونسيين سلطة وسكانا؛ مما ولد الألفة والمحبة بين البحارة العثمانيين والسكان المحليين.
- الاستقرار المبكر للأندلسيين بالبلاد التونسية، الذين كانوا الداعم المباشر للعثمانيين في تواجدهم المبكر، لأنه تم التعاون بينهما من أجل إنقاذ إخوانهم المتبقين بالأندلس.

إذن هذه أهم العوامل التي ساعدت على الوجود المبكر للعثمانيين بتونس، مما شجع العديد من البحارة العثمانيين القدوم للبلاد التونسية، بتدعيم مباشر من سلاطين الدولة العلية العثمانية للراغبين في مساعدة

1 – محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك...، المرجع السابق، ص491.

2– محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص183.

الأندلسيين المضطهدين، ومن أبرز هؤلاء القادة العثمانيين الريس بوراق، كورت أوغلو مصلح الدين، الريس سنان، بيري رئيس والريس كمال الذي كان متواجدا بتونس منذ سنة 900هـ/1494م، بالإضافة إلى الكثير من القادة العثمانيين الذين لم يتم التعرف عنهم.[1]

تعتبر هذه المرحلة الإرهاصات الأولى للتواجد العثماني الرسمي المبكر، وهي إحدى أهم المراحل التي مرت بها تونس قبيل انضمامها إلى الدولة العلية، حتى وإن عُدّتْ مرحلة مبكرة جدا، إلاّ أنها مرحلة لا يمكن إغفالها بتاتا، لأنها مهدت لاكتشاف البلاد التونسية وحقيقة أوضاعها.

2-المرحلة الثانية: مرحلة الألفة والتعاون الحفصي مع الإخوة بربروس 1513-1514م

يمكننا القول أن الإخوة بربروس خلال الفترة الممتدة من 1513-1514م كانوا متواجدين بصفة حرة، ولم يكونوا تابعين لا للدولة العلية ولا لدولة المماليك بمصر التي دخل عروج في خدمة سلطانها قونصو الغوري قبيل الاستقرار في البلاد التونسية، ولذلك يمكن اعتبار قدوم الإخوة بربروس إلى تونس كان لتحقيق عدة أهداف منها:

- الهروب بعيدا عن أعين السلطان سليم الأول الذي كان في عداء مع عروج، لأن هذا الأخير كان تابعا لقرقود على حساب سليم الأول.
- إيجاد مرفأ آمن لممارسة الجهاد البحري ضد النصارى.
- محاولة إنقاذ الأندلسيين المضطهدين من طرف الإسبان، ولا يتأتى ذلك إلا بالدخول تحت سلطة سلطان مسلم، وبالتالي إيجاد الحماية اللازمة وبلاد آمنة على الأقل نسبيا.
- الاقتراب أكثر من الإسبان؛ لأن مصر بعيدة نوعا ما، لذلك كانت تونس البلاد المفضلة.
- اقتراب الإيالة التونسية من الدويلات الإيطالية التي كانت الهدف المباشر للإخوة بربروس. بعد أن اختار الإخوة بربروس اللجوء إلى الأراضي التونسية كانت وجهتهم أولا جزيرة جربة، حيث أصبحوا أكثر قربا من الحصون الإسبانية، وفيما بعد قرروا التوجه إلى تونس العاصمة لمقابلة سلطانها مولاي الحسن، يدفعهم في ذلك عدة أسباب، منها:
- اختلال ميزان القوى بينهم وبين الإسبان المتواجدين في طرابلس الغرب، وبالتالي تفادي أي مواجهة ممكنة معهم، خاصة بعد التعزيزات الإسبانية المتزايدة وتحصينهم للبلاد.
- عدم إثارة السلطان الحفصي، لأنهم لم يستأذنوه في الاستقرار بجزيرة جربة.
- الدخول تحت حماية السلطان الحفصي وكسب تأييده مخافة من رد فعل السكان المحليين.

1- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص39.

- التقرب أكثر من الحصون الإسبانية في الجزر الإيطالية وإسبانيا والمغرب الأوسط بغرض الجهاد وإنقاذ الأندلسيين.
- الخوف من الوقوع بين فكي كماشة؛ الإسبان المتواجدين بطرابلس الغرب جنوبا وقوات السلطان الحفصي شمالا، وبالتالي خسارة حليف مسلم مهم؛ متمثلا في الحفصيين.

توفرت العديد من الأسباب لذلك توجه الإخوة بربروس ومن معهم من البحارة العثمانيين إلى السلطان التونسي، الذي استقبلهم بما يليق بهم، حيث شرحوا له ظروفهم وأهدافهم المستقبلية لجهادهم، ثم قدموا له هدايا قيمة، وبعدها طلبوا منه أن يمنحهم مكانا يحتمون به ويجعلونه مركزا يرسون فيه سفنهم ويقيهم برد الشتاء، فوافق السلطان الحفصي على ذلك مقابل دفع خمس الغنائم له[1]، وفي ذلك يقول خير الدين: «...**كنت أنا وأخي يحي رئيس، ركب كل منا سفينته وأتينا تونس ودخلنا على السلطان وقدمنا له الهدايا**...» ثم قلنا له: «...**نريد أن تفضل علينا بمكان نحمي فيه سفننا بينما نقوم بالجهاد في سبيل الله وسوف نبيع غنائمنا في أسواق تونس ويستفيد المسلمون في ذلك وتنتعش التجارة كما ندفع لخزينة الدولة ثمن ما نحوزه من غنائم**...» فأجابهم سلطان تونس قائلا: «...**إن ما تقومون به معقول جدا. فأهلا وسهلا بكم البلد بلدكم**...».[2]

إذن مباشرة بعد اللقاء الذي تم بين الطرفين، حدث نوع من الألفة والاتفاق المبدئي على التعاون مقابل اقتسام الغنائم، لكن ما يمكننا قوله أن السلطان الحفصي كان مرغما على هذا الاتفاق لعدة أسباب:

- كفايته شر وتحرشات الإسبان الموجودين بطرابلس.
- محاولة تكبيل الإخوة بربروس بهذا الاتفاق، مخافة من انقلابهم ضده.
- الاستفادة المادية التي يحصل عليها أرغمته على قبول هذا الاتفاق.
- الطريقة المثلى التي قدم بها الإخوة، وطلبهم الاستقبال من طرف السلطان الحفصي، هيأ الأجواء ولطفها بين الطرفين.
- العلاقة الحسنة بين السلطة الحفصية والسلطان العثماني شجع السلطان الحفصي على قبول الإخوة ببلاده.
- استعمال الإخوة بربروس في مواجهة القراصنة الأوربيين، الذين كانوا يهاجمون السواحل التونسية باستمرار.

1- محمد دراج: المرجع السابق، ص 183.

2- خير الدين: المصدر السابق، ص 46؛ عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص46.

- تنمية الاقتصاد المحلي، وتدعيم الفئات السكانية الفقيرة، بعد قبول الإخوة بيع غنائمهم بالبلاد التونسية، هذا ما شجع السلطان على قبول هذا الاتفاق لأنه يخفف عنه الأزمة الاقتصادية التي كانت تعيشها البلاد التونسية، نتيجة الانهيار الاقتصادي وكثرة الضرائب.

وفي المحصلة أن قبول السلطان الحفصي فتح قلعة حلق الوادي للإخوة بربروس وبقية أتباعهم العثمانيين يُظهره أمام رعاياه بمظهر المدعم والمساند لحركة الجهاد البحري ضد الاحتلال الإسباني للسواحل المغاربية.[1]

وقد استطاع الإخوة بربروس ابتداء من سنة1513م بناء أسطول بحري مكون من 12 سفينة قديمة، بلغ عدد العاملين بها حوالي 1000 بحار، حيث تميزت علاقتهم بالسلطان الحفصي أبي عبد الله محمد بالتعاون في مواجهة الأعداء خارجا، والاحترام المتبادل وخدمة البلاد التونسية والاستفادة من الغنائم داخليا.[2]

بعد استقرار الإخوة بربروس ومن معهم من البحارة العثمانيين بتونس، شرعوا بحلول ربيع 1513م في شن غارات عديدة على مختلف السواحل والموانئ المسيحية الغربية وجزرها مثل سردينيا، نابولي وصقلية، زيادة على ذلك اعتراض السفن الأوروبية في عرض المتوسط التي كانت تحمل البضائع مثل؛ العسل والزيتون والجبن والقمح، بالإضافة إلى الأشخاص، حيث أصبحت غنائم مربحة للإخوة بربروس الذين كانوا يعودون بهذه الغنائم إلى تونس لبيع بعضها والتصدق ببعضها الآخر على الفقراء، وفي نفس الوقت فرز حصة السلطان منها، بالإضافة إلى أخذ كل البحارة لحصصهم.[3]

إن هذه الأعمال الخيرية والتفاهم السابق بين الإخوة بربروس والسلطان الحفصي وَلّدَ الألفة والمحبة بينهم بين السكان المحليين، هذا ما انعكس إيجابا على البلاد، وانتشرت الأخبار الحسنة عن الإخوة وبذلك ذاع صيتهم في كامل سواحل غرب المتوسط والبلاد المغاربية، مما أثار موجة من الرعب داخل أوروبا[4]، وفرحا ممزوجا بالتفاؤل في البلاد المغاربية لإنقاذ سكانها من الاحتلال الإسباني وإنقاذ الأندلسيين من الاضطهاد والمطاردة والتنكيل، وبذلك بدأ انحصار النفوذ الحفصي وازدياد نفوذ الإخوة في بلاد المغرب، وزادت المحبة والأخوة بين السكان والمجاهدين العثمانيين .

بالرغم من الغارات العديدة التي شنها البحارة العثمانيون، إلاّ أن الهدف الأساسي للإخوة بربروس كان التعاون مع السلطان الحفصي لطرد الإسبان من بلاد المغرب، أو على الأقل تحرير المناطق التابعة للسلطان التونسي

1 - محمد دراج: المرجع السابق، ص 184.

2 - حاجي خليفة: المصدر السابق، ص ص 86،85.

3- خير الدين: المصدر السابق، ص 48.

4 - محمد دراج: المرجع السابق، ص 188.

مثل بجاية، التي هاجمها عروج في أوت 1513م إلاّ أن عدم تكافؤ قوات الطرفين أدى إلى خسارة هذه المعركة والفشل في تحرير المدينة، ليتجه سنة 1514م إلى جيجل القريبة منها، التي كانت تحت سيطرة الجنويين، وبذلك وجد لنفسه قاعدة ارتكاز جديدة وحقق هدفا استراتيجيا، لأنه اقترب أكثر من مراكز الاحتلال الإسباني.

لم ييأس عروج في استرجاع بجاية وضمها للممتلكات السلطان الحفصي، بالرغم من فقدان ذراعه في المحاولة الأولى حيث قرر إعادة المحاولة مرة أخرى رفقة أخيه خير الدين، وبذلك يمكنهما طرد الاحتلال الإسباني من جميع الأراضي الشرقية للمغرب الأوسط، ويمكنهما قطع خطوط المواصلات بين إسبانيا والدويلات الإيطالية، إضافة إلى تأمين السواحل التونسية الغربية من غارات القراصنة الأوربية، لذلك اغتنم عروج استنجاد سكان بجاية به وجهز أسطولا يتكون من12 سفينة و2000 بحار، يساندهم 20.000 من القبائل[1] لمهاجمة بجاية، التي فشل في تحريرها بالرغم من بعض الانتصارات التي حققها ابتداء، إلاّ أن نفاذ البارود وخذلان السلطان الحفصي[2]لهم وعدم تزويدهم بالمؤن والبارود كان من أهم أسباب انهزام الإخوة بربروس وفشلهم في تحرير بجاية.[3]

هنا يجب الإشارة أن عدم تعاون السلطان الحفصي مع الإخوة بربروس، وخذلانهم في أحلك الظروف، أين كانوا بأمس الحاجة للمؤن والبارود والأسلحة، امتنع هو عن تزويدهم بها، بالرغم من أن عروج كان يحاول تحرير بجاية التي كانت تعتبر في ذلك الوقت من ممتلكات السلطان الحفصي، إلا أنه رفض تقديم المساعدة، وبذلك انقطع جبل الود بين الطرفين، وانتهت بينهما مرحلة التعاون والألفة والمحبة، لتبدأ مرحلة جديدة من العلاقات بين السلطان الحفصي والإخوة بربروس

3-المرحلة الثالثة: مرحلة الفرقة والاختلاف 1514– 1534م.

لعبت العديد من الأسباب دورها في حدوث الانشقاق والخلاف بين عروج والسلطان الحفصي، حيث تحولت العلاقة من التعاون والمحبة والود إلى الاختلاف والفرقة والشحناء، فقد أثرت العديد من العوامل والأسباب في توتر العلاقة بين الطرفين، يمكن إيجازها فيما يلي:

- عدم تزويد السلطان الحفصي الإخوة بالبارود، جعلهم يحسون بنوع من الخيانة من طرف السلطان، لأنهم كانوا قاب قوسين أو أدنى من تحرير بجاية.
- لعبت السفارة التي أرسلها عروج إلى السلطان سليم خان الأول دورا بارزا في الاختلاف لأن السلطان الحفصي اعتقد أن الإخوة يريدون السيطرة على البلاد بمساعدة السلطان العثماني.

1- خير الدين: المصدر السابق، ص 67.

2- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 11.

3- حاجي خليفة: المصدر السابق، ص86.

- الغيرة والحسد من طرف السلطان الحفصي تجاه الإخوة بربروس، بعد أن رأى وفد بجاية يطلب المعونة من الإخوة لتحرير بلادهم، دون طلبها منه شخصيا على اعتبار أنهم رعايا تابعين له، لذلك خاف من ازدياد شهرتهم على حسابه وتهديد عرشه، ولربما أراد أن يتم القضاء عليهم في بجاية ليتخلص من عدو جديد أو على الأقل الحد من قوتهم
- التفاف سكان تونس وجيجل وحتى بجاية حول الإخوة حرك مشاعر البغض والكراهية في نفس السلطان وحاشيته، مخافة من تعاون الإخوة والسكان ضده، خاصة وأنه لم يكن له عزيمة تذكر في جهاد الإسبان.
- الخطابات المشددة من طرف السلطان سليم خان الأول الموجهة للسلطان التونسي كان لها الأثر البالغ على نفسية السلطان الحفصي، الذي اعتبر هذه الخطابات لا تليق به وبمقامه كحاكم للدولة مستقلة تماما عن الدولة العلية العثمانية، حيث كانت تأتيه الخطابات على شكل أوامر لا على شكل رسائل للتعاون والمساعدة، وبذلك أراد التخلص من الإخوة بأي طريقة.
- لعبت قاعدة جيجل دورا بارزا في الفرقة، لأن الإخوة اعتقدوا أن لهم مرفأ يغنيهم عن حلق الوادي، وهم غير مضطرين إلى اللجوء لتونس وغير ملزمين بدفع الخمس لسلطان تونس أو طلب مساعدته.

إن السلطان الحفصي كان يعتقد أن طموح الإخوة بربروس ليس تحرير بجاية وفقط بل هو السيطرة على عرشه، لذلك كان منطقه أن تبقى بجاية تحت الاحتلال الإسباني خير من تحريرها، خوفا من أن يجلس عروج على عرشه وينتزع سلطانه ذات يوم وبذلك يزداد نفوذه على حسابه.[1]

بعد السفارة التي قام بها بيري رئيس إلى إستانبول، كافأ السلطان سليم الأول الإخوة بربروس بسفينتين مشحونتين بالسلاح والعتاد وخطين همايونين؛ أحدهما موجه إلى الإخوة وثاني إلى سلطان تونس[2]، حيث أشار خير الدين في مذكراته إلى محتوى الخط الهمايوني الثاني الموجه إلى سلطان تونس، فيما لم يشر بتاتا إلى الخط الهمايوني الأول وهذا ما نستغربه خاصة وأن جميع المصادر لم تتطرق إلى محتوى هذا الخط الهمايوني، ويمكننا تفسير ذلك بـ:

1- مجهول: غزوات عروج وخير الدين ...: المصدر السابق، ص 50.

2- محمد دراج: المرجع السابق، ص 201.

- الخط الهمايوني إنما كان عبارة عن إعلان رسمي بالعفو عن الإخوة، وإدخالهم تحت سلطة الدولة العلية، حيث يقول خير الدين: «... **قبلّت الخط الهمايوني سبع مرات ووضعته على رأسي وحمدت الله كثيرا على أن جعلني في خدمة سلطان معظم كهذا** ...».[1]
- أما الاحتمال الثاني فإن السلطان العثماني بعث برسالة تشجيع وتقدير للإخوة، نتيجة للمبادرة والاتصال بالسلطان، وكذلك نتيجة للأعمال الشجاعة في بلاد المغرب وإنقاذ الأندلسيين.

أما بالعودة لمحتوى الخط الهمايوني الثاني الذي بعثه السلطان سليم الأول إلى سلطان تونس، والذي قدمه خير الدين بنفسه له بحضور علماء وأشراف تونس، حيث جاء فيه: «... **إلى أمير تونس إذا وصلك كتابي هذا عليك أن تعمل به، واحذر أن تخالفه وإياك أن تقصر في تقديم أي عون لخادمينا عروج وخير الدين** ...».

كان رد فعل السلطان الحفصي على هذا الخط الهمايوني حسب خير الدين كما يلي: «... **ومن هذه اللحظة تغير موقف السلطان منا، وبدأ يبدي لنا خلاف ما يبطن لما كان يجده من الحسد وهكذا شرع منذ ذلك الحين في التحفظ منا، والابتعاد عنا خوفا من أن نأخذ منه مملكته لحساب السلطان سليم خان**...».[2]

مع أننا نقر أن هذا التفسير هو لخير الدين الذي لا يمكن الأخذ به وحده في غياب رواية الطرف الثاني الذي أصبح خائفا على عرشه، فقد كانت تدفعه العديد من الأسباب لهذا الخوف منها:

- تدخل السلطان سليم الأول مباشرة في شؤون سلطان تونس الذي كان إلى غاية هذه اللحظة مستقلا تماما عن الدولة العلية.
- طريقة التعامل مع السلطان الحفصي بتطبيق ما جاء في الخط الهمايوني، وليس مساعدة الإخوة.
- نعتقد أن السلطان الحفصي أدرك أن الإخوة ومن ورائهم سليم الأول كانوا يريدون السيطرة على عرشه وأن الأمر مسألة وقت فقط.
- التعاطف من العلماء والأعيان مع الإخوة والسلطان العثماني أدخل السلطان الحفصي في موجة من الخوف على عرشه، نتيجة انقلاب الجميع ضده
- الثناء والتقدير وإلباس الحلة السلطانية لخير الدين من طرف بـري رئيس، زاد من تخوفات السلطان الحفصي، لأن الأمر أصبح يتجاوز قدراته وفوق طاقته.

1- خير الدين: المصدر السابق، ص 68.

2- نفسه، ص 69.

وهي كلها أسباب تبرر مخاوف السلطان الحفصي وتخوفه من انفلات زمام الأمور من بين يديه لصالح خصومه الجدد، لكن لا يبرر له مطلقا تعاونه مع الإسبان ضد أمته دينه ووطنه.

إذن منذ سنة 1514م بدأت العلاقات تسوء بين السلطان الحفصي والإخوة بربروس نتيجة لحسابات كل طرف، لأن كل واحد منهما كان يرى أن الثاني انقلب ضده، إلا أن الحاصل أن هذه الفرقة والاختلاف كانت خيرا في صالح المسلمين ببلاد المغرب، بعد أن تشتت الجهود وضاعت سنوات طويلة، وكان الرابح الأكبر الإسبان والمسحيين، الذين استطاعوا الحفاظ على احتلالهم لطرابلس الغرب وكسب سلطان تونس إليهم، بالإضافة إلى بقاء العديد من أراضي المغرب الأوسط تحت احتلالهم، لذلك بادر عروج وخير الدين بالتحرك باتجاه أراضي المغرب الأوسط لتحريرها واتخاذها قاعدة لتثبيت سلطة الدولة العلية ببلاد المغرب، خاصة وأن الإخوة بربروس أصبحوا يدركون فعلا أن حماية السلطان سليم خان زادتهم قوة وثقة بأنفسهم ومنحتهم فسحة من الأمل وزيادة طموحاتهم الرامية للسيطرة على بلاد المغرب، أو على أقل تحرير بعض المناطق والاستقرار بها، مثبتين ولاءهم للدولة العلية لا لغيرها، وهذا ما أدركه السلطان التونسي الذي أحس أن الإخوة بربروس وسلاطين الدولة العلية باتا يهددان سلطانه.[1]

تزامن فتح عروج لمدينة الجزائر سنة 1516م،[2] مع تفكير سليم خان الأول فتح مصر، وقد تحقق له ذلك سنة 1517م، ليشتد الخناق على السلطان محمد بن الحسن الحفصي الذي تأكد أن سيطرة العثمانيين على مصر يعني بالضرورة اقترابهم من طرابلس الغرب وتونس، وبالتالي تهديد ملكه مباشرة من طرف الأسطول العثماني ذاته، بعد أن كان عن طريق الإخوة بربروس فقط، زاد الطين بلة تأكيد حُسن العلاقة بين عروج وسليم الأول[3]، بعد أن أرسل هذا الأخير سفارة بقيادة مصلح الدين قرد أوغلوا رئيس إلى مصر، لتهنئة السلطان العثماني على فتحه لها وضمها لممتلكات دولته سنة 1517م.[4]

إلا أن الحدث الأبرز خلال هذه الفترة هو انضمام الجزائر رسميا إلى الدولة العلية سنة 1520م، بعد الرسالة التي بعث بها أهالي وعلماء وأعيان مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول يطلبون فيها القبول طواعية أن يكونوا تحت حمايته ورعايته وتعين خير الدين حاكما لهم، وقد وافق السلطان العثماني على هذا الطلب، وهو

1- خير الدين: المصدر السابق، ص 68.

2 - حاجي خليفة: المصدر السابق، ص 87.

3 - خير الدين: المصدر السابق، ص 68.

4- حاجي خليفة: المصدر السابق، ص87.

الذي كان ينتظر هذه الفرصة لإخضاع المغرب الأوسط، الذي أصبح منذ هذا التاريخ إيالة عثمانية تحمل اسم إيالة جزائر الغرب.[1]

إذن لم يهنئ السلطان الحفصي كثيرا بموت عروج سنة 1518م، حتى جاء الخبر المفزع بسيطرة العثمانيين على المغرب الأوسط، وطرد الإسبان من أراضيه، خاصة وأن نفوذ وقوة العثمانيين ازدادت بتحقيق الإخوة للعديد من الانتصارات، أين كان السكان المحليين يرون أن السلطان الحفصي خذلهم ولم يقوم بدوره كما ينبغي؛ سواء في إنقاذ بلاد المغرب ككل أو مساعدة الأندلسيين الفارين من الأندلس، وبذلك بدأ السلطان الحفصي يفقد نفوذه رويدا رويدا لصالح خير الدين والعثمانيين، ولم يكن للسلطان محمد الحسن من حل إلا التحالف مع الإسبان، وحبك المؤامرات مع الأمراء المحليين وأمراء تلمسان لطرد العثمانيين.[2]

إذن تميزت هذه المرحلة بتوطيد الحكم العثماني بالجزائر، وبداية التحرير الفعلي للكثير من مناطقها، وبذلك ازداد انحصار نفوذ السلطان الحفصي وفقد هيبته داخليا، لأن البلاد عرفت العديد من التمردات والثورات عن السلطة المركزية بتونس، زاد الأوضاع تأزما استنجاده بالإسبان والتعاون معهم لخدمة مصالحه الشخصية والحفاظ على ملكه المتهالك، وأكثر من ذلك ترك الحرية للأعراب والبدو للعبث بمقدرات البلاد في سبيل البقاء على سدة الحكم.

4-المرحلة الرابعة: مرحلة التحرير العثماني لتونس 1534-1535م.

تعتبر هذه المرحلة من أقصر المراحل؛ لأنها لم تدم إ لاّ سنة واحدة، لأن خير الدين استطاع فيها السيطرة على تونس، بعد تأكده أن الأوضاع مناسبة لفتحها وضمها لممتلكات الدولة العلية، خاصة بعد اضطراب أوضاع البلاد، بالإضافة إلى كراهية السكان لسلطانهم الحفصي المتعاون مع الإسبان، واشتهاره بقلة حنكته وفُجوره ومجونه[3]، وقد استطاع خير الدين السيطرة على تونس بكل سهولة وتليت الخطبة وضربت السكة باسم السلطان العثماني سليمان القانوني.

لم تستمر السيطرة العثمانية على تونس إلاّ سنة واحدة، لأن الإمبراطور الإسباني شارلكان جهز أسطولا بحريا ضخما استطاع به احتلال تونس وطرد العثمانيين منها في جويلية 1535م، وإعادة مولاي الحسن إلى سدة

1- خير الدين: المصدر السابق، ص ص98، 100.

2- حاجي خليفة: المصدر السابق، ص93.

3- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 13؛ محمد دراج: المرجع السابق، ص 282.

الحكم، وقد أمضى معه معاهدة تم بموجبها قبول الحماية الإسبانية للبلاد، بل بالأحرى حماية السلطان الحفصي على حساب رعاياه الذين ذاقوا ويلات الاضطهاد والتنكيل من طرف الإسبان.[1]

من أهم مميزات هذه المرحلة دخول السلطان الحفصي مولاي الحسن تحت الحماية الإسبانية، بعد إمضاءه لمعاهدة الذل والعار مع شارلكان، ليكون خاضعا وتابعا له، وليت الأمر تعلق به؛ بل كانت هذه المعاهدة وبالا ونكالا على العباد والبلاد التونسية، لأنها أعطت الحق للإسبان التصرف في كل ممتلكات الدولة التونسية برا وبحرا، ولم تراع حرمة دماء التونسيين أو ممتلكاتهم أو بلادهم، كل هذا من أجل الحفاظ على ملك زائل، وبذلك ثُبت حكم الإسبان بتونس إلى حين.

5-المرحلة الخامسة: مرحلة الصراع الثنائي العثماني الجزائري –الحفصي الإسباني (1535-1573م).

اشتد الصراع العثماني الإسباني على تونس، خاصة بعد توطيد الحكم العثماني بالجزائر وطرابلس الغرب نهائيا، وبذلك أصبحت الأسرة الحفصية والإسبان بين فكي رحى؛ الإيالة الجزائرية غربا وإيالة طرابلس الغرب شرقا، لذلك كانت المواجهة حتمية بين القوتين العظمتين في ذلك الوقت، زاد حرص العثمانيين على التدخل في تونس الاحتلال الإسباني للمهدية والمنستير وجزيرة جربة، إلاّ أن درغوت باشا استطاع تحرير هذه المناطق سنة 958هـ/1551م، وتم له السيطرة على القيروان، بعد أن استنجد به أهلها، وبذلك أزاح الأسرة الحفصية من حكم هذه المدينة، ونصب حيدر باشا خليفة له[2]، وبذلك بدأ الحكم العثماني يتوطد ابتداء من القيروان، التي لعبت دورا بارزا فيما بعد في الفتح العثماني لتونس سنة 1574م.

في سنة 976هـ/1568م راسل سكان تونس علج علي طالبين منه تخليصهم من السلطان الحفصي، ومن أهم الشخصيات التي قامت بمراسلته، قائد الفرسان بن حيبارة، القائد الخضر، والوزير الأكبر أبو الطيب الخضار، وقد وصف لنا ابن أبي الضياف طريقة الغدر والخيانة من طرف السلطان لوزيره بقوله:«... **أن أبا العباس (السلطان أحمد) تنكر لوزيره أبي الطيب الخضار، وفكر في الوصول إلى اغتياله، وأحس الوزير بالشر فراسل صاحب الجزائر علي باشا في غزوة تونس وهون عليه أمرها، والتزم له بالإعانة وجعل في ذلك لنجاته من نكبة الحائمة عليه واتخذها يدا عند علي باشا...»**.[3]

1 - ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 13.

2 - حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 107.

3 - ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 18.

ومع حلول سنة 977هـ/1569م، وبداية تراجع الثورة الموريسكية، قرر علج علي غزو تونس وضمها إلى الجزائر، مستغلا في ذلك دعوة ثانية وصلته من نفس الشخصيات التونسية باسم السكان المحليين، لذلك استغل انشغال الجيش الإسباني بالثورة الموريسكية بإسبانيا، وقام بالهجوم على مدينة تونس، وسيطر عليها سنة 1569م، حيث أُعلنت الخطبة وضربت السكة باسم السلطان سليم الثاني[1] للمرة الثانية بعد سنة 1534م، وبذلك عادت مدينة تونس لحاضرة الدولة العلية العثمانية.

تدعم الحكم العثماني بقدوم فرسان الزمازمية (من قبيلة أولاد سعيد) إلى علج علي باشا وإعلانهم طاعتهم وولائهم للسلطان العثماني، حيث خاطبوه بقولهم: «...**نحن سلطاننا دافعنا عنه بقدر استطاعتنا، ولا مرد لحكم الله، فإن شئتم أبقيتمونا في بلادنا، وإن شئتم ننصرف وأرض الله واسعة**...» فكان رد علج علي بقوله: «...**فقد فعلتم واجب عليكم من النصح والمدافعة عن سلطانكم فأنتم من جماعتنا**...».[2]

استقرت الأوضاع للعثمانيين بمدينة تونس، إلاّ أن حلق الوادي بقيت تحت سيطرة الاحتلال الإسباني، أين حاول علج علي تحريرها إلاّ أنه فشل في ذلك، فقرر العودة إلى الجزائر تاركا وراءه رمضان باشا حاكما على تونس باسم السلطان سليم الثاني، يؤازره في حكم البلاد وتنظيم شؤونها واستتباب الأمن بها والدفاع عنها مابين 5000 و8000 جندي.[3]

أصبحت تونس تابعة للدولة العلية يسري عليها نظام الحكم العثماني مثلها مثل إيالة الجزائر وطرابلس الغرب، حيث أرسل السلطان سليم الثاني فرمان التعيين لرمضان باشا كحاكم على تونس، وقد تضمن هذا الفرمان ما يلي: «...**حكم إلى القائد رمضان، قائم مقام وكيل أمير أمراء الجزائر (علج علي) في سوسة والمنستير وبلد الجريد وبنزرت من نواحي تونس يتضمن تعيينه على المناطق المذكورة**...»[4] «...**ذلك نزولا عند رغبة أعيان تونس الذين قاموا بتزكيته لدى السلطان العثماني**...».[5]

إذن خلال المدة الممتدة من سنة 1569م إلى غاية 1573م استطاعت الدولة العلية حسم الصراع في كامل بلاد المغرب لصالحها مستغلة الأزمات التي كانت تمر بها إسبانيا داخليا، خاصة الثورة الموريسكية، وخارجيا الصراعات ضد الدول الأوروبية، مما انعكس سلبا على مستعمراتها في تونس والجزائر، التي لم يستغل حكامها هذه

1 – ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 195.

2 – المصدر نفسه، ص 19.

3– ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 195؛ ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 96.

4– مهمة دفتري، رقم 12، حكم رقم 1037، بتاريخ 25/ 10 / 979 هـ.

5– مهمة دفتري، رقم 18، حكم رقم 237، بتاريخ 19 / 10 / 979 هـ.

الظروف ويطردون الإسبان من وهران والمرسى الكبير، ومع ذلك لم تيأس السلطات الإسبانية بل حاولت قدر المستطاع العودة لاحتلال بعض مناطق المغرب الإسلامي، مستغلة معركة الليبانت وتدهور حالة الأسطول العثماني وتوابعه بالجزائر وطرابلس الغرب .

بعد معركة الليبانت أصيب دون خوان دوتريس بالغرور، منشوا بنصره في هذه المعركة، وقد قاد الأسطول الأوربي لانتصار كاسح ضد الأسطول العثماني، حيث توّجهُ الأوربيون بطلا قوميا قل نظيره في ذلك الوقت، فحاول استغلال وضعيته هذه وقرر الاستقلال بنفسه عن حكام أوروبا وإقامة مملكة خاصة به، فوقع اختياره على تونس، يستند في ذلك على بابا الكنيسة الكاثوليكية الذي قدم له كل الدعم والتشجيع.[1]

ومع أن فليب الثاني كان يراقب بحذر طموحات أخيه غير الشقيق دون خوان إلاّ أنه وافق على القيام بحملة ضد تونس سنة981هـ/1573م، لأنه كان يتطلع إلى القضاء على الإيالة الجزائرية التي زادت قوتها ونفوذها داخل بلاد المغرب وكانت تهدد السواحل الإسبانية ذاتها.[2]

استطاع دون خوان السيطرة على تونس بتاريخ 11 أكتوبر 1573م، فيما فر رمضان باشا وجنوده إلى القيروان أين استقبلهم الأهالي بحفاوة بالغة من طرف قبائل الشابية[3]، دليلا على تدعيمهم ووقوفهم إلى جانب العثمانيين ضد الإسبان، إلاّ أن ما يجب ملاحظته في هذا الخصوص أن العثمانيين لم يستطيعوا الحفاظ على تونس وإرساء نظامهم بها، مثل ما حدث مع إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب، لأن الإسبان استطاعوا القضاء على الحكم العثماني بسرعة، وبذلك تأجل تأسيس إيالة تونس إلى حين.

6-المرحلة السادسة: مرحلة الانضمام الرسمي سنة 1574م.

تعتبر هذه المرحلة أهم وأقصر مرحلة في تاريخ تأسيس الإيالة التونسية، لأنها لم تدم إلاّ سنة واحدة، وبعدها استطاع العثمانيون تجهيز حملة بحرية ضخمة بقيادة سنان باشا وعلج علي، اللذان وصلا بأسطولهما إلى سواحل تونس بتاريخ 13 جويلية1574م، لتبدأ المعارك يوم17 جويلية، حيث تم تحرير حلق الوادي أولا يوم 23 أوت، فيما تأجل تحرير تونس إلى غاية سبتمبر من نفس السنة.[4]

وتم هذا الحدث البارز في تاريخ بلاد المغرب بعد أن رأى القادة السياسيين والعسكريين في الدولة العلية أنه لا يمكن استقرار الحكم العثماني ببلاد المغرب ما لم يتم القضاء نهائيا على الإسبان بتونس، وربط ممتلكاتهم

1- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 244.
2- ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 97.
3- رحيمة بيشي: المرجع السابق، ص 139.
4- ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 181.

ببعضها البعض، ولذلك أدرك العثمانيون خطورة هذا الاحتلال، فقرر سليم الثاني استعادة تونس، وقد تحقق له ذلك بعد معارك ضارية ضد الإسبان تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة في الأرواح والأموال[1]، لتعود تونس نهائيا إلى بلاد الإسلام وممتلكات الدولة العلية.

7-انعكاسات تأسيس الإيالة التونسية.

7-1-داخليا.

- أدى تأسيس الإيالة التونسية وانضمامها الرسمي للدولة العلية، إلى إعلان ميلاد الدولة التونسية الحديثة، التي لعبت دورا بارزا ومهما في الصراع الأوربي العثماني.
- القضاء على الانقسام السائد بالبلاد التونسية، بعد أن استطاع البدو وبعض القبائل التحكم في الكثير من المناطق، مشكلين بذلك دويلات وإمارات مستقلة بذاتها عن السلطة المركزية، مستغلين ضعف الحكام الحفصيين، الذين رضخوا لطموحات زعماء البدو والقبائل رغبة في الحكم.
- تنظيم البلاد التونسية وإخضاعها للسلطان العثماني، الذي ضُربت السكة وأُعلنت الخطبة باسمه، وترُكت بها حماية عسكرية لتنظيم شؤونها والدفاع عنها واستتباب الأمن بها.
- انقراض حكم الأسرة الحفصية نهائيا؛ الذي دام حوالي 350 سنة، بعد أسر محمد بن الحسن آخر السلاطين الحفصين، الذي أُرسل إلى إستانبول أين قضى نحبه بها، وابتداء من هذه السنة أصبحت تونس تابعة لأسرة غير محلية بعد عدة قرون من الحكم الحفصي المحلي.
- تعيين حيدر باشا كأول حاكم على الإيالة التونسية من طرف سنان باشا، حيث أصبحت تونس تابعة رأسا لإيالة الجزائرية إلى غاية 1587م، وبعدها أصبحت تابعة مباشرة للدولة العلية.
- القضاء على الاحتلال الإسباني نهائيا، وطرده من حلق الوادي[2] إذ ظل بها لمدة قرابة 39 سنة.
- بعد تحرير تونس أصبحت ولاية عثمانية وجزءا من ممتلكاتها في بلاد المغرب الممتدة من الإيالة الجزائرية غربا إلى طرابلس الغرب شرقا.[3]
- بفتح تونس نجح العثمانيون في القضاء على الأسطول الإسباني الذي سيطر على البلاد التونسية بمساعدة الحفصيين، وهكذا أصبح العثمانيون أسيادا في حوض البحر المتوسط.[4]

1- حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 110.

2- فكاير عبد القادر: المرجع السابق، ص 168.

3 - إسماعيل أحمد ياغي: العالم العربي الحديث ...المرجع السابق، ص 73.

4- إسماعيل أحمد ياغي: الدولة العثمانية في تاريخ الإسلامي...، المرجع السابق، ص99.

- أصبحت تونس بعد تحريرها ولاية عثمانية يحكمها وال يلقب بالباشا، يعينه السلطان العثماني مباشرة بإسطنبول لمدة معينة، وكانت تونس تتميز إداريا عن الجزائر وطرابلس الغرب، وتسمى رسميا وجقا أو سنجقا تأكيدا لطابعها العسكري، لأن حكامها من الإنكشارية عماد النظام العثماني بهذه الولاية.[1]
- ضبط الحكم بوضع قوانين، وأُسس ديوانا للحكم والتشاور، وسارت الأحكام أولا اقتداء بما كان عليه الحال في الجزائر، وعينت الرتب العسكرية في الإنكشارية، وعين أيضا قاضيا لتصريف شؤون الناس، ونظمت الإدارة، وبذلك أُقيمت أسس الدولة الحديثة التونسية.[2]

2-7 —خارجيا.

- أدى تأسيس الإيالة التونسية إلى توحيد بلاد المغرب تحت راية واحدة وحاكم واحد، حيث أصبحت الإيالات المغاربية تابعة رأسا للسلطان العثماني، وبذلك عادت اللحمة والوحدة بين مكونات المجتمع المغاربي بعد أن عاش الفرقة والاختلاف والتطاحن لفترة طويلة من الزمن.
- لعبت الإيالة التونسية دورا بارزا في مقارعة الأساطيل الأوروبية عامة والإسبانية خاصة، فقد أصبحت مركزا مهما للجهاد البحري، ومكملة لدور الجزائر وطرابلس الغرب.
- استطاعت الإيالة التونسية مساعدة الأندلسيين الموريسكيين في محنتهم، لأنه وفد إليها الآلاف من هؤلاء، الذين وجدوا كامل الرعاية والترحيب، وقد ساهموا في النهضة الحضارية للإيالة وشكلوا مدنا قائما بذاتها، مثل تستور، أريانة، العالية، سليمان، طبرية والسلوقية[3]، وشاركوا في الحملات العسكرية ضد الإسبان خاصة، انتقاما منهم بعد ما طردوهم من بلادهم.
- أدى تأسيس الإيالة التونسية ومن قبلها إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب إلى تعزيز الانتماء الواحد والمصير المشترك لدى المغاربة، الذين شعروا بوحدة بلادهم مع المشرق الإسلامي في ظل الحكم العثماني.
- ازدياد نشاط الحركة التجارية بين المشرق والمغرب بعدما استتبت الأوضاع، وتراجعت القرصنة المسيحية على كامل السواحل المغاربية، حيث بادر التجار والصناع بالتوجه إلى المشرق وخاصة مصر، التي وفرت لهم الحرية التامة لممارسة نشاطاتهم، سواء كانت تجارية أو صناعية، وكانت الموطن الآمن لهم، فاستقروا في

1- محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص 68.

2- شوقي عطا الله الجمل: المغرب العربي الكبير في العصر، ج، السعديين ...، المرجع السابق، ص117.

3- ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 193.

مدنها وقراها[1]، وهذا ما عزز الانتماء الواحد بين مكونات المجتمع الإسلامي المغاربي والمشرقي، وكان سببا في التواصل الحضاري بين الطرفين خلال العهد العثماني.

- أصبحت الإيالة التونسية، تقوم بنفس الدور الذي تقوم به إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب في مساعدة الدولة العلية العثمانية في حروبها ضد الدول المسيحية، وتقدم العون لها في الحالات المستعجلة أو كلما طُلب منها ذلك[2]، خدمة للمصالح العليا للدولة العثمانية كحامية للإسلام والمسلمين.
- بتحرير تونس وإعلانها إيالة عثمانية، أصبحت الإيالات المغاربية جبهة صراع ضد مشروع الاحتلال الإسباني، لا تقل أهمية عن الجبهة البرية للدولة العلية ضد النمسا والمجر ودول البلقان.
- بانضمام تونس للدولة العلية العثمانية وتوحيد بلاد المغرب (ماعدا المغرب الأقصى) اضطرت إسبانيا بعد فقدانها لقاعدة حلق الوادي وانتهاء نفوذها على تونس بزوال حكم الأسرة الحفصية.
- التخلي عن مشروعها لاحتلال بلاد المغرب، وأمام الزحف العثماني قررت السلطات الإسبانية انتهاج سياسة الدفاع عن السواحل الداخلية والإيطالية وحمايتها من هجمات المجاهدين المغاربة والعثمانيين[3]، ولم يبق تحت الاحتلال الإسباني سوى المرسى الكبير ووهران.
- بتحرير تونس توصلت القيادة في الإمبراطورية الإسبانية والدولة العلية إلى قناعة؛ مفادها التسليم بالأمر الواقع من كلا الطرفين، فالسلطات الإسبانية تأكدت أن الإيالات المغاربية لا يمكن احتلالها بالقوة، خاصة بعد وحدتها واكتسابها لبحرية قوية تضاهي مثيلاتها في الدول الأوروبية، أما سلطات الدولة العلية فقد تأكدت أنها لا يمكنها استرجاع الأندلس، واكتفت بتحرير البلدان المغاربية وتوحيدها، لذلك قررت قيادة الدولتين توقيع اتفاق هدنة أنهى حالة الحرب بينهما سنة 1577م وجدد سنة 1593م.[4]
- بعد تحرير كامل السواحل المغاربية (ما عدا وهران والمرسى الكبير)، بدأت القيادة الفرنسية بنشر الدعاية وحبك الدسائس مخافة من تقارب الدولة العلية وإسبانيا، وإقامة علاقات حسنة بين الطرفين، خاصة وأن حكام الإمبراطورية الإسبانية بدأوا يتبعون سياسة اللين مع رعايا الدولة العلية، لذلك بدأ السفير الفرنسي يحرض علج علي باشا لإقناع الديوان الهمايوني بعدم إقامة صلح مع إسبانيا، إلاّ بعد رحيلها عن المرسى

1- فاروق عثمان أباظة: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، ط2، دار المعارف، مصر، 1994، ص 105.

2- ناصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب العثمانية ...، المرجع السابق، ص 408.

3- المرجع نفسه، ص92.

4- جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص 92.

الكبير ووهران وهكذا كانت دائما فرنسا تلعب الدور ذاته في إثارة الخلافات بين إسبانيا والدولة العلية والإيالات المغاربية خدمة لمصالحها، ورغبة في إضعاف وإفشال العالم الإسلامي حتى تستطيع السيطرة عليه؛ فكانت البداية بمعاهدة الامتيازات سنة 1535م، والتي من خلالها استطاعت التغلغل داخل العالم الإسلامي، وبقيت تحيك الدسائس وتجد المبررات إلى أن تم لها تفكيك الدولة العلية واحتلال إيالاتها المغاربية، وكانت البداية من الجزائر سنة 1830م، التي حاولت فرنسا احتلالها بكل الوسائل والطرق منذ سنة 1572م وإلى أن تحقق لها ذلك.

الفصل الثاني

العلاقات بين الإيالة الطرابلسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (11هـ/17م)

أولا: العلاقات الطرابلسية الإسبانية ما بين 1009-1096هـ/ 1600 1685م.

المبحث الأول: دور الإيالة الطرابلسية في الصراع العثماني الأوربي.

1-الملامح العامة للإيالة الطرابلسية بداية القرن السابع عشر.

2-التحالف العثماني المغاربي ضد التحالف المسيحي.

المبحث الثاني: الحملة الإسبانية على الإيالة الطرابلسية سنة 1095هـ/1684م

1-أسباب الحملة الإسبانية.

2-الاستعدادات الإسبانية.

3-الاستعدادات الطرابلسية.

4-وقائع الحملة ونتائجها.

5-أهم بنود الصلح الإسباني الطرابلسي سنة 1096هـ/1685م.

6-نتائج الحملة الإسبانية.

العلاقات الطرابلسية الإسبانية ما بين 1097–1112هـ/1685–1700م.

المبحث الأول: الحملة الإسبانية الثانية على طرابلس الغرب سنة 1102هـ/1691م

1-أسباب الحملة.

2-تجهيز الحملة الإسبانية.

3-استعدادات السلطات الطرابلسية للحملة:

4-وقائع المعارك:

5-نتائج الحملة على الطرفين:

6-أسباب انتصار الطرابلسيين.

المبحث الثاني: اتفاق الصلح الإسباني الطرابلسي سنة 1102هـ/1691م.

1-أسباب توقيع اتفاق الصلح.

2-بنود الصلح الطرابلسي الإسباني.

أولا: العلاقات الطرابلسية الإسبانية ما بين 1009-1096هـ/ 1600-1685م.

المبحث الأول: دور الإيالة الطرابلسية في الصراع العثماني الأوربي.

1-الملامح العامة للإيالة الطرابلسية بداية القرن السابع عشر.

بالرغم من مرور حوالي خمسين سنة عن تأسيس الإيالة طرابلسية، إلاّ أن العثمانيين ظلوا أقلية تحكم وتسيطر على البلاد وخيراتها وثرواتها الكثيرة وأراضيها الواسعة، دون أن يحاولوا إشراك أهلها في الحكم أو إقامة نهضة حقيقية في المجالات الاقتصادية، الثقافية والاجتماعية، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب، نذكر منها:

- انشغال الحكام بالدفاع عن البلاد من الخطر الإسباني المالطي.
- كثرة التمردات والثورات الداخلية من قبل العديد من القبائل الرافضة للحكم العثماني أو التي مُسَت مصالحها.
- عدم الاهتمام بالمشاريع التنموية من طرف الحكام، الذين كان أغلبيتهم من البحارة أو الإنكشارية «عسكريين» لا يفقهون شيئًا في الجوانب الاقتصادية والثقافية، وهذا ديدن كل حكام الإيالات المغاربية، وحتى العثمانية، إلاّ من شذّ عن هذه القاعدة.
- قدوم الحكام من الأناضول والروملي كان له دورًا في اتساع الهوة بين أهل طرابلس وهؤلاء الحكام، الذين كان همهم الأكبر إخضاع السكان وتحقيق رغباتهم الشخصية والسيطرة على الحكم بدل الاهتمام بالرعية، إلاّ القليل منهم، وقليل ما هم.
- كان السلاطين العثمانيين يكثرون من تغيير الولاة في طرابلس الغرب، كما هو معمول به في كامل الولايات العثمانية، وذلك خشية تفكير أي والٍ في الانفصال عن السلطة المركزية بإستانبول، لذا فقد تعاقب على حكم الإيالة الطرابلسية عدد كبير من الولاة، وقد ترتب عن ذلك نفوذ الإنكشارية واستبدادهم بالأمر، مما اضطر الحكام لاسترضائهم والتقرب إليهم، فكانوا يظنون أنفسهم فوق سلطة القانون، ويعتبرون أنفسهم طبقة متميزة لا يمكن المساس بها من أي كان[1] فكانت لهذه المشاكل أثرًا سلبيًا على ازدهار البلاد ومعيشة العباد.

1- شوقي عطا الله الجمل: المرجع السابق، ص ص 131، 132.

زاد الطين بلة شساعة البلاد وكثرة الصحراء بها، هذا ما تطلب من الحكام جهودًا مضنية وكبيرة لتعميرها والنهوض بها، وبذلك أُهدرت طاقات هائلة في القضاء على هذه المشاكل الداخلية، وفوت الفرصة لنهضة حقيقية في البلاد، التي كانت لها إمكانيات كبيرة جدًا في ذلك الوقت[1].

مع أن الحكم العثماني لطرابلس الغرب بدأ سنة 1551م بعد تحريرها من الاحتلال المالطي، إلاّ أن العديد من القبائل وبعض حكام المناطق رفضوا الخضوع طواعية إلى الحكم العثماني، خاصة منطقة فزان، التي استطاع سكانها إلحاق العديد من الهزائم بالجيش النظامي الطرابلسي في الكثير من المواقع، مثلما حدث سنة 990هـ/1582م عندما أعلن أهل فزان تمردهم ورفض الخضوع لقرارات الجيش الإنكشاري، وشنوا عليه هجومًا مباغتًا وألحقوا به هزيمة نكراء أدت إلى هلاك جميع أفراده بالمنطقة، وأعلنوا بعدها تبعيتهم للناصر في السودان، الذي تولى حكم المنطقة إلى غاية سنة 1008هـ/1599م[2]، وبذلك بقيت هذه المنطقة خارج السيطرة العثمانية إلى غاية مطلع القرن السابع عشر ميلادي.

في سنة 1012هـ/1603م تولى حكم طرابلس الغرب سليمان داي بعد ثورة الإنكشارية على جعفر باشا – الذي أمّنوه على أن يخرج من البلاد– بدون علم السلطان العثماني أحمد الأول[*]، وقد حسنت سيرة سليمان داي بين العامة واستطاع السيطرة على زمام الأمور بالبلاد، بعدما قضى على بعض قادة الإنكشارية الذين اعتادوا إثارة الفوضى وإعلان التمردات على الحكام السابقين، ولم تستتب الأمور للداي حتى أعلن أحد زعماء جبال الدواخل– يُدْعى أويْس أبي الهاجدي– تمرده في تاجوراء ضد الحكم الجديد بطرابلس الغرب، تسانده في ذلك قبيلة بني رقيعة، هذا ما اضطر سليمان داي للخروج بجيشه لتأديبهم ووضع حد لتمردهم، إلاّ أنه تلقى مقاومة عنيفة وشديدة من طرف المتمردين الذين رفضوا الخضوع له والدخول في طاعته، إلاّ أن تدخل المرابط سيدي محمد الصيد اليحياوي–الذي كانت له مكانة مرموقة في المنطقة، وأيضا عند الحكام العثمانيين–أنقذ الموقف بعد أن

1– نجم الدين غالب الكيب: المرجع السابق، ص 91.

2– الطاهر أحمد الزاوي: ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1970م، ص 168.

* – السلطان أحمد خان الأول ابن السلطان الغازي مراد خان الثالث، ولد في 12 جمادي الآخرة سنة 998هـ/18 أفريل سنة 1590م، تولى حكم السلطنة العلية وعمره لم يتجاوز 14 سنة إلاّ بالقليل، تولى الصدارة العظمى لمساعدة السلطان مراد باشا–بقوبوجي– وقد تجاوز 80 سنة، فتولى بنفسه قيادة الجيش وحارب الثائرين بهمة ونشاط، فانتصر على فخر الدين الدرزي –كردي– وجان يولادو اقتفى أثرهم حتى هربا إلى بادية الشام ولم يعد لهما ذكرًا، واستمال قلندر أوغلي أحد زعماء التمرد في الأناضول، في هذه الأثناء استغلت النمسا الاضطرابات الحاصلة بالدولة العلية وقامت باضطهاد المجريين نظير تأييدهم للعثمانيين و انتخاب الأمير بوسكاي سنة 1605م الذي أمده حكام الدولة العلية بالجيوش والتي هزمت النمساويين وفتحت قلاع جران، بيسجراد، سيريم، وقد كانت علاقته مع فرنسا وبولونيا مستقرة حيث تم تجديد المعاهدات المبرمة سابقًا بالإضافة مع الفلامنك–هولندا– وإنجلترا.. وفي 23 ذي القعدة 1026هـ/22 نوفمبر 1617م توفي السلطان أحمد عن عمر ناهز 28 سنة وحكم 14 سنة تقريبًا، ليوصي بالحكم لأخيه بدل ابنه الصغير الذي لم يتجاوز 13 سنة من عمره مخالفًا بذلك عادات السلاطين السابقين من عثمان الأول... للاستزادة ينظر، محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ص 271، 274.

طلب منه سليمان داي التوسط له عند المتمردين ومساعدته على إحلال النظام في المنطقة وإقناع أويس أبي الهاجدي بالعودة إلى جباله، الذي وافق على ذلك بعد تسلمه العديد من الهدايا نظير موافقته على هذه الخطوة.[1]

ما كادت هذه الفتنة تنتهي حتى أعلن المنصور بن الناصر بن المنتصر الفاسي حاكم فزان تمرده ورفض دفع الضرائب لسليمان داي، الذي أرسل إليه يطالبه بدفعها سنة 1020هـ/1611م، إلاّ أن المنصور رفض رفضًا قاطعًا تلبية هذا الطلب، هذا ما اضطر سليمان داي لتجهيز جيش قدر بحوالي 10.000 مقاتل[2] للقضاء على تمرده وإدخاله في طاعته، وقد التقى الطرفان في معركة رهيبة بموضع يقال له «كنير» بين أم العبيد والرملة شمالي فزان، استطاع خلالها الجيش النظامي الطرابلسي إلحاق هزيمة نكراء بأهل فزان، بالرغم من المقاومة الكبيرة التي أبداها المتمردون، بقيادة المنصور الذي أصيب بجراح، بليغة توفي على إثرها فيما بعد، تاركًا وصية لأخيه الطاهر يأمره فيها بإنقاذ الأموال والنساء والفرار بهم إلى السودان، وقد استطاع أخيه إنجاز هذه المهمة بأسرع مما كان يتوقع المنصور، أما أنصاره فقد تفرقوا وتشتتوا من بعده فاسحين المجال للجيش النظامي للعبث بالمدينة وأهلها ليعود بعدها سليمان داي إلى مقر حكمه بطرابلس منشوًا بهذا الانتصار الساحق على خصم لدودٍ، تاركًا خلفه حامية من الإنكشارية لمساعدة عامله على فزان حسين النعال، الذي لم يتمكن من الاحتفاظ بمنصبه هذا سوى عامين، نتيجة المؤامرات والتمردات المتواصلة ضده وضد الحكم العثماني بالمنطقة، ليقتل سنة 1022هـ/1613م، أثناء تمرد جديد لأهل فزان[3]، الذين أرسلوا إلى الطاهر أخو المنصور لحكمهم، الذي وافق على الفور وعاد إلى المنطقة كحاكم لها.[4]

نتيجة للسياسات العنيفة تجاه السكان المحليين لطرابلس الغرب، زاد التذمر من حكم سليمان داي، لذلك استغل زعماء المناطق الجبلية البعيدة هذه الفرصة، وأعلنوا تمردهم وقاموا بعدة هجمات متتالية ضد الجيش النظامي بالقرب من مدينة طرابلس سنة 1023هـ/1614م*، وفي نفس الوقت قام زعماء المتمردين بتحريض

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 140.

2- الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 171.

3- شارل فيرو: المرجع السابق، ص141.

4- الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 172.

* - خلال هذه المدة الممتدة بين سنوات 1611م-1614م كانت هناك معارك بحرية تدور بين البحرية العثمانية و بحريات كل من: مالطا وإسبانيا، وبعض الدويلات الإيطالية، كان في غالبها الانتصار للأوربيين، الذين كبدوا الدولة العلية العثمانية خسائر فادحة في الأرواح والأموال، كانت لها انعكاسات خطيرة على الصراع العثماني الأوربي خاصة مع روسيا والنمسا، هذا ما جعل الصدر الأعظم نصوح باشا يأمر بتوحيد قطع الأسطول في مياه البحر الأبيض المتوسط، لمواجهة الحملات الأوربية المتزايدة، وتوحيد جهود الأسطول العثماني مع بحريات الإيالات المغاربية، إلاّ أن هذه الخطوة كانت وبالا على الدولة العلية لأن روسيا استغلت فرصة انسحاب السفن العثمانية من البحر الأسود، وقامت بمهاجمة منطقة سينوب ونهبها، لذلك ولما علم=

سكان مدينة طرابلس ضد السلطة المركزية، خاصة سكان غريان وترهونة، في محاولة منهم لإسقاط الحكم العثماني من الداخل، إلاّ أن سليمان داي أرسل وزيره مراد بك لمواجهتهم ووضع حد لتمردهم والإسراع في القضاء على هذه الفتنة حتى لا تنتقل العدوى إلى المناطق الأخرى، وقد استطاع مراد بك إلحاق هزائم متتالية بجيوش المتمردين، الذين فروا إلى الجبال، فيما تم إخضاع غريان وترهونة اللتين أعلن سكانهما الولاء للسلطة المركزية بطرابلس والخضوع لحاكمها سليمان داي.[1]

مع استمرار سليمان داي وجنوده إنزال المظالم بسكان تاجوراء، لم يكن من مخرج لإزالة هذه المظالم إلا إعلان التمرد ضد سلطة سليمان داي، من أجل ذلك وبعد تفكير وتدبير وموازنة للمفاسد والمصالح أعلن الزعماء المحليين لتاجوراء تمردهم والقيام بثورة، وفي نفس الوقت رفع زعماء الثورة شكاية للسلطان العثماني أحمد خان الأول بإستانبول لاطلاعه على الأسباب الحقيقية لثورتهم، مسجلين بذلك عدة نقاط لصالحهم على حساب سليمان داي ومعاونيه، نذكر منها:

- بهذه الشكوى أثبت زعماء تاجوراء أن تمردهم لم يكن ضد سلاطين الدولة العلية العثمانية التي كان أهل هذه المنطقة السباقين في الاستنجاد بسلاطينها لتخليصهم من ظلم الإسبان خلال القرن السادس عشر، بل كان ضد السياسات الرعناء التي اتبعها خلفائهم بالإيالة الطرابلسية عامة وتاجوراء خاصة.
- الإسراع في إبلاغ السلطان العثماني بالمظالم التي يرتكبها ولاة طرابلس بحق رعاياهم بالمنطقة، غير مبالين بتعليمات السلطان الذي كان يعطيهم المشروعية والتزكية في مقابل خدمة أهل المنطقة واحترام.
- إعطاء الشرعية للثورة ضد سليمان داي وذلك بإبلاغ السلطات العلية بإستانبول، وهذا ينم عن حسن تدبير ودهاء سياسي عند قادة التمرد.
- وضع سليمان داي في عزلة سواء في الداخل أو عند السلطان العثماني، وبذلك يسهل على المتمردين القضاء على حكمه إما بالثورة الداخلية أو بالعزل من طرف سلطات الدولة العلية في حالة الاستجابة لطلبهم.

ما إن وصل وفد تاجوراء إلى السلطان العثماني أحمد خان الأول حتى أرسل مُوَفدًا عنه للتّثبت من ادعاءات المتمردين، رفقة سفينتين حربيتين إلى طرابلس الغرب، ومباشرة بعد وصول مبعوث السلطان أحمد الأول استدعى سليمان داي للتحقيق معه حول الاتهامات الموجهة إليه، وبعد التحقيقات معه وثبوت الاتهامات ضده

=السلطان العثماني أحمد الأول غضب على الصدر الأعظم نصوح باشا ومازال يترصد به بوشاية بعض الحاقدين حتى أمر بإعدامه في 14 أكتوبر 1614م... للاستزادة ينظر: محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 274.

1-كوستانزيو برنيا: المرجع السابق، ص 95.

حكم عليه بالإعدام داخل السفينة وأمام مرأى وفد تاجوراء العائد من عند السلطان العثماني نفذ فيه حكم الإعدام.[1]

بعد إعدام سليمان داي تم تعيين شريف باشا[*] كحاكم على طرابلس الغرب، والذي حاول جاهدًا الحد من سطوة ونفوذ الإنكشارية الذين عاثوا في الأرض فسادًا، وفي ذلك يقول النائب الأنصاري: «...**كان ذا شهامة وقام فيما يفوض إليه، فأبدى الحزم وقرن بالصواب تدبيره وأمضى بالعدل حكمه، وصرف أنظاره إلى شاقيه من زعماء جندها، وأعراب فلاتها وقبض أيديهم بعد إنزال العقوبة بهم وأمن السبل وأضاء الأفق**...»[2]، واستطاع القضاء على التمردات الحاصلة نتيجة الاضطرابات والمشاكل داخل البيت الحاكم الطرابلسي، بسبب الصراع حول المناصب وجمع الأموال فيما كانت الرعية لوحدها من يدفع ثمن هذه الأخطاء والتهورات المرتكبة، أما خارجيًا فقد استطاع تجديد معاهدة التحالف مع إمارة بورنو، وقام بتشجيع الجهاد البحري ضد الأوربيين[**]، ونتيجة لذلك ارتفع عدد الأسرى بسبب حركة السفن الطرابلسية ضد أعمال القرصنة الأوربية[3]، وعمل أيضا على نشر العدل وإشاعة الاستقرار في مختلف أرجاء البلاد، إلاّ أن السيرة الحسنة لشريف باشا سرعان ما انقلبت وتغيرت تصرفاته وجنح إلى ممارسة الظلم والتعسف واستعمال القوة ضد السكان المحليين، الذين أرهق كاهلهم بالضرائب وقام بتسخيرهم في أعمال تعود عليه بالمنفعة الشخصية، واحتكر الجزء الأكبر من الغنائم

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 141.

* - شريف باشا: ينحدر من أسرة أصلها من مكة المكرمة ، بمعنى أنه من أصل شريف جاء من مدينة استانبول إلى طرابلس الغرب في عهد سليمان داي، كطبيب يداوي المرضى، ثم انتقل منها إلى الإيالة التونسية ثم إلى الإيالة الجزائرية، ومنها عاد إلى طرابلس الغرب، التي وصلها بعد مقتل سليمان داي، وكان ذا طبع لطيف، الأمر الذي مكنه من كسب ثقة الحامية العثمانية، ويقال أنه انخرط في صفوف الإنكشارية للوصول إلى هدفه في حكم طرابلس، خاصة وأنه نال ثقتهم بسبب أصله الشريف، ذات العراقة الدينية، لأن العثمانيين يعظمون النسب الذي يتصل بمحمد صلى الله عليه وسلم لذلك بويع لحكم البلاد الطرابلسية في سنة 1035هـ/1620م..، للاستزادة ينظر، ابن غلبون: المصدر السابق، ص 180، الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 173، شارل فيرو: المرجع السابق، ص 141.

2- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 229.

** - حاول دائمًا حكام الإيالات المغاربية العثمانية تشجيع الجهاد البحري لما له من فوائد؛ سواء على البلاد بصفة عامة أو الحكام بصفة خاصة، ومن أهم الأهداف التي يريد تحقيقها الحكام نذكر:

-تحقيق الربح المادي، لأنه في العادة يعود جزء كبير جدًا من العوائد البحرية إلى جيوب الحكام.

-تعويض الخسائر الناتجة عن التمردات والاضطرابات الحاصلة داخل الإيالة.

-الاستغناء عن معونات الدولة العلية.

-إلهاء الرياس حتى لا يشاركوا في الحكم.

-توجيه أنظار الرعية إلى الخارج، لكسب الشرعية للبقاء في الحكم.

-المساهمة في استقرار الأوضاع المالية للإيالة.

-شراء ذمم الإنكشارية، وذلك بتوزيع الأموال عليهم في مقابل الاستئثار بالحكم، والسكوت عن تجاوزاتهم.

3 -إتوري روسي : ليبيا منذ الفتح العربي...، المرجع السابق، ص 266.

المتحصل عليها من الجهاد البحري[1]، هذا ما ألّب عليه العامة والزعماء المحليين الذين كان ملاذهم الوحيد السلطان العثماني مراد خان الرابع (1609-1640م)، الذي رفعوا تظلماتهم إليه، لذلك سارع في إعطاء أمره لقادة الجيش من أجل إعدام مصطفى الشريف[2]، الذي ما إن سمع بهذا الخبر حتى سارع إلى القلعة وقام بالاعتصام بها رافضا الخضوع لأوامر السلطان العثماني مراد الرابع ومعلنًا مقاومته رفقة أنصاره، وأثناء هذا الخلاف الحاصل داخل إيالة طرابلس، وصل مبعوث السلطان من استانبول قاسم باشا لتسلم مقاليد الحكم، وتنفيذ حكم الإعدام بحق مصطفى الشريف، وقد أقام بالقرب من حصن درغوث باشا، معلنًا بذلك بداية المعارك بين الطرفين، وبالرغم من استعمال المدفعية إلا أن الأمر لم يحسم لأحدهما، ولم يتم القبض على مصطفى الشريف ولا قتله أو اختراق صفوف أنصاره وتأليبهم عليه، لذلك اضطر قاسم باشا لاستعمال أسلوب الخديعة والمكر تارة، واللين والمهادنة تارة أخرى، من أجل ذلك طلب توسط المرابطين وعلى رأسهم الولي الشيخ يحياوي الصيد*، الذي كانت تربطه علاقة مودة وحب مع مصطفى الشريف، مما جعل هذا الأخير يطمأن على نفسه ويقبل وساطة هذا الولي الذي أعطاه الأمان في مقابل الاستسلام وعدم إراقة مزيد من الدماء وإنهاء المقاومة، إلاّ أن هذه الوعود ذهبت هباءً منثورًا مباشرة بعد نزوله من القلعة، فقد قتل غدرا وبدون محاكمة، هذا ما أغضب الشيخ الصيد وجعله يخرج نهائيًا من مدينة طرابلس بعد إحساسه بالغدر والخيانة اللذان مورسا ضد مصطفى الشريف.[3]

يقال أن هذا المرابط تألم كثيرًا من هذا الفعل الذميم الذي قام به أعداء مصطفى الشريف، بقيادة قاسم باشا واعتبره غدرًا شهده بنفسه؛ لأنه وعد الباشا السابق بالحماية وعدم تعرض حياته للخطر، لذلك قرر مغادرة مدينة طرابلس وعدم العودة إليها ما دام على قيد الحياة مهما كان السبب، ليقرر من بعده ابنه سيدي عبد الحفيظ الذي خلفه كزعيم ديني القيام بنفس الخطوة[4].

بعد مقتل مصطفى الشريف تولى حكم الإيالة الطرابلسية من بعده قاسم باشا، الذي عين بتاريخ 23 جانفي 1631م، ومباشرة بعد توليه الحكم حاول كأسلافه السابقين الانفراد بالحكم والاستئثار بمزاياه، إلاّ أن

1- محمود علي عامر، محمد خير فارس: المرجع السابق، ص 192.

2- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 173.

* - الشيخ محمد الصيد يحياوي: نسبة ليحي بن محمد من بني رقيعة القبيلة المشهورة بطرابلس الغرب، وكان فاضلاً متنكسًا عابدًا منقطعًا لله تعالى عارفًا به دالاً عليه له عدة كرامات ظاهرة، والصيد في لغة أهل البلد معناه الأسد، وسمي بذلك لكثرة ردعه للظلم و قهره الجبابرة، حتى كان لا يجترئ أحد على معارضته فيم أمر به ولا يتعرض لمن انتسب إليه، وقد أخذ الطريقة عن سيدي عيسى بن محمد التلمساني المشهور بأبي مقرَى وهو أخذ عن الولي الكبير والعلم الشهير سيدي أبي عمر المراكشي، توفي سنة 1050هـ/1640م، ودفن بقرية الهنشير التي تبعد عن مدينة طرابلس بحوالي 6 أميال/9 كلم ...للاستزادة ينظر: ابن غلبون: المصدر السابق، ص 180، النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 238.

3- محمود علي عامر، محمد خير فارس: المرجع السابق، ص 192.

4- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 266.

أعضاء الديوان توجسوا خيفة من ترك الأمور تفلت من بين أيديهم وتكون بيد الحاكم الجديد، الذي هددهم بنفوذه في استانبول وغضب السلطان العثماني، هذا الأخير أمر بإجراء انتخابات لتعيين داي يدير شؤون الحكم بالإيالة مناصفة مع قاسم باشا، الذي لم يقبل خطوة السلطان هذه وأبدى انزعاجه وتذمره من مشاركة الديوان له في إدارة البلاد، لذلك اضطر للتنازل عن الحكم لصالح رمضان داي الذي انتخب من طرف الديوان، وقد كان رمضان هذا ضعيف الشخصية مسلوب الإرادة؛ فقد استولت على مشاعره امرأة بدوية اسمها مريم بنت فواز الشبلية، التي كانت زوجة لأحد أمراء الجند، بحيث كان رمضان داي لا يصدر أمرًا إلاّ بمشورتها ووفق إرادتها، ولذلك استغلت هذه الوضعية لصالحها وعملت بكل ما في وسعها لخدمة مصالحها ومصالح أقاربها، بدل الاهتمام بمصالح الإيالة و الرعية التي أنهكها الداي ومعاونيه بالضرائب[1]، في المقابل كانت هذه المرأة تحاول دائمًا التقرب من الإنكشارية؛ وذلك بقضاء مصالحهم وتحقيق رغباتهم وزيادة أعطياتهم، حتى وصل تأثيرها وسطوتها إلى مجلس الوالي الذي كان يعقد بعض جلساته في بيتها.[2]

بقي رمضان داي في الحكم إلى غاية سنة 1040هـ/1630م ليقرر بعدها الاتفاق مع محمد باشا الساقزلي* من أجل التنازل له عن الحكم؛ لما كان يتمتع به هذا الأخير من نفوذ قوي داخل الإيالة والجيش الإنكشاري، ولكي لا ينكشف هذا الاتفاق تظاهر الداي بالذهاب إلى الشيخ محمد الصيد اليحياوي، وأثناء هذا الغياب استغل محمد الساقزلي الفرصة وقام رفقة أتباعه بالهجوم على القلعة والسيطرة عليها، معلنًا نفسه دايًا على

1- الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص ص 175، 176.

2- ابن غلبون : المصدر السابق، ص 182.

* – عثمان الساقزلي: أصله من جزيرة ساقس إحدى جزر الدولة العلية الواقعة في الشطر الأوربي، وكان مولى للشريف داي الذي عينه قائدا على ساحل آل حامد لاستخلاص العشر من السكان وكان اكتسب من أخلاق العرب وشجاعتهم ما أكسبه الذكاء والفطنة، لذلك رفعه محمد باشا الساقزلي إلى رتبة بك عسكري، ليكون سندًا له في حكم الإيالة وسوطًا يسلطه على الأعراب الذين يتمردون على سلطته، وقد أظهر العدل والإنصاف وخفض الضرائب التي كانت في عهد سابقيه، ومنع القضاة من أخذ ربع السدس الذي كانوا يستوفونه من التركات، وأسس مسجدًا ومدرسة للتعليم وأوقف عليها الأوقاف، وفي سنة 1060هـ/1650م أتته مباركة السلطان العثماني محمد الرابع، وقام بتجديد القلاع وزيادة سفن الجهاد البحري التي بلغت في عهده 24 سفينة، كانت في غاية الجودة والإتقان حتى أصبح للأسطول الطرابلسي قيمة كبيرة في البحر المتوسط وكان يثير الرعب والخوف في نفوس الأوربيين، إلاّ أن سيرته تغيرت ومال إلى البطش والغدر مع الرعية، التي أنهك كاهلها بزيادة الضرائب ورفع الأثمان في البيع و الشراء خدمة لمصالحه، فكسدت الأسواق وزاد الفقر، وقد واصل بغيه وغيه وبطشه وجمع الأموال وقطع الأرزاق على الجند حتى ثقل الأمر على الكل، ولم يعد يطيق هذا الأمر أحد فكثرت تمردات الجند والثورات رفضًا لهذه الأوضاع التي آلت إليها شؤون الإيالة، وأمام تفاقم المشاكل قرر رؤساء الإنكشارية الثورة ضده ومحاصرته في القلعة وذلك في شهر محرم 1083هـ/1672م، أين دارت معارك عنيفة بين الطرفين لمدة 8 أيام متتالية، تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة، هذا ما اضطر عثمان داي للانتحار، وبذلك تخلص الناس من بطشه وجبروته وهي نهاية كل حاكم ظالم لا يخش الله ولقائه يوم القيامة... للاستزادة ينظر: ابن غلبون: المصدر السابق، ص 183، النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص ص 239، 241.

البلاد، واضعا الجميع أمام الأمر الواقع خاصة أنه كان يملك القوة والنفوذ، ولذلك وأمام اختلال موازين القوى، لم يكن للديوان من حلٍ سوى تقديم التهاني وإعلان مباركته للداي الجديد.[1]

كان محمد باشا الساقزلي يعلم جيدا بنفوذ مريم الشبلية، ومن أجل احتواء نفوذها والسيطرة على الجيش الإنكشاري والقبائل الموالية لها قرر الداي الجديد الزواج منها كخطوة أولى، ثم قام بقتلها فيما بعد حتى يتخلص من نفوذها وسطوتها نهائيًا، والتفرغ فيما بعد للسيطرة على مقاليد الحكم، وخشية من تمرد الأعراب نتيجة لفقدان إحدى ركائز نفوذهم داخل البيت الحاكم بطرابلس وبالاتفاق مع زعيم قبلي–اسمه أحمد بن رقيعة الذي قربه الساقزلي وجعله من أصدقائه المخلصين– أعد جيشًا من الفرسان بقيادة عثمان الساقزلي الذي عرف كيف يبث الخوف والرعب في نفوس القبائل المتمردة، وذلك بإتباعه أساليب المكر والخداع والغدر، فقد كان يستدرج زعمائهم إلى خيمته موهمًا إياهم بالتفاوض من أجل إحلال السلم داخل الإيالة، ثم يقوم بقتلهم بحجة عدم الإخلاص والموالاة[2]، حتى قضى على زعمائهم وفرض الضرائب على ضعفاهم.[3]

أمام البطش والطغيان الذي مارسه عثمان الساقزلي بأمر من سيده محمد باشا ضد الرعية والزعماء المحليين قرر زعيم قبيلة تاورغاء* الشيخ جبر بن موسى التاورغي إعلان تمرده ورفضه الخضوع للسلطة المركزية بطرابلس سنة 1043هـ/1633م، هذا ما اضطر محمد باشا لتوجيه جيش بقيادة عثمان بك الساقزلي لإعادة إخضاع قبيلة تاورغاء وإدخالها في طاعته، وما إن وصل عثمان بك إلى مضارب المتمردين حتى قام بقطع أشجار النخيل من بعض الجهات حتى يسهل الحصار، ومنع المؤنة عن السكان والضغط على زعمائهم، إلا أن الحصار فشل في تحقيق مسعاه، هذا ما اضطره لاستعمال السلاح، حيث دارت معارك طاحنة بين الطرفين، استطاع من خلالها التاورغيين إلحاق هزيمة نكراء بالجيش النظامي في المرة الأولى، إلاّ أن عزيمة عثمان بك وإصراره وإرادته وشجاعته رجحت الكفة لصالحه في المرة الثانية، فقد استطاع المقاومة بشدة داعيًا فلول جيشه للمقاومة والثبات وعدم الفرار من المعارك، هذا ما بث الحماس بينهم وثبّتهم حول قائدهم فحولوا الهزيمة إلى نصر، وكانت الكرة هذه المرة على

1- محمود علي عامر، محمد خير فارس: المرجع السابق، ص 193.

2- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 144.

3- ابن غلبون الطرابلسي: المصدر السابق، ص 183.

* – تاورغاء: مدينة تقع جنوبي مصراته بحوالي 40 كلم، فيها الكثير من مجاري المياه، لذلك يكثر بها النخيل وهي معروفة بجودة تمورها، وسكانها خليط من العرب والبربر، سمر البشرة قل فيهم الأبيض، اشتهروا بالشجاعة والإقدام، من أشهر رجالها جبر بن موسى التاورغي، الذي أعلن الثورة على محمد باشا الساقزلي، كانت قبل الفتح الإسلامي موطنًا لقبيلة هوارة الأمازيغية وكلمة تاورغاء بربرية وتوجد بتغزارة بالمغرب عين ماء تسمى تاورغا، وكثيرًا ما يلحق الأمازيغ "التاء" في أول الاسم المؤنث...للاستزادة ينظر: الطاهر أحمد الزاوي: معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، طرابلس، ليبيا، 1388هـ/1968م، ص 79.

جيش جبر بن موسى[1] الذي فرّ تاركًا تاورغاء وأهلها عرضة للنهب والسلب من طرف جيش عثمان بك، الذي استباح أموال جبر بن موسى وأسر زوجاته وأولاده وأخذهم إلى مصراتة*، وهناك أمر بقتل أولاده ثم منع الناس من دفنهم في المقبرة العامة**، ليدفنوا خارج المدينة بنحو ميل"1.5كلم" في مكان يقال له مسيد بن دُخان وهو موضع بمدينة مصراته.[2]

في أواخر سنة 1043هـ/1633م ثار أهل أوجلة فقرر محمد باشا إخضاعهم ،لذلك أرسل إليهم جيشًا بريًا بقيادة ساعده الأيمن عثمان بك بالإضافة إلى جيش بحري لمساندته، وكان على رأس المتمردين أحمد بن عبد الهادي؛ الذي كان صاحب نفوذ كبير وله وجاهة في قومه، لذلك ولما سمع بقدوم جيش السلطة المركزية أمر أتباعه بالاستعداد الجيد لملاقاته والدفاع عن المدينة، إلاّ أن عثمان بك علم من جواسيسه وعيونه بقوة المتمردين واستعداداتهم الجيدة، فقرر الجنوح إلى الحيلة والخداع، متظاهرًا أمام المتمردين بالندم والأسف على قدومه إليهم[3]، قائلا لهم: «...**لو علمت أن أوجلة هكذا بلدة في الصحراء، ليس بها ضياع ولا كثرة نخيل ولا مياه، لما قدمت إليها ولا أزعجت هؤلاء المساكين وجعل يتأسف ويظهر الندم على ما فعله مع هؤلاء الفقراء، حتى لا يشك أحد في نيته...**».[4]

ولما تأكد من عدم استطاعته مواجهة المتمردين اتصل بأعيان أوجلة وعلى رأسهم أحمد بن عبد الهادي، وطلب منهم المكوث بالمنطقة ثلاثة أيام فقط ليستريح وجيشه من عناء السفر ثم يعود إلى العاصمة طرابلس ليخبر

1- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 235.

* – هي إحدى المدن المشهورة بطرابلس الغرب، تقع شرقيها بحوالي 215كلم، اشتهر منذ القدم نشاطها التجاري، لأنها تقع على بداية خليج سرت من الشمال، عاصمتها القديمة قصر حَمَد على شاطئ البحر المتوسط، وبها مرسى ممتاز ساهم في ازدهار المدينة، وبها معدن الزئبق الكبريت، وكلمة مصراته كلمة أمازيغية، كانت تطلق على قبيلة بربرية من قبائل هوارة وكانت هذه القبيلة تسمى سراته وحرفت فيما بعد إلى مصراته، وقد سكنت هذه المنطقة، وكانت هوارة قبل الفتح الإسلامي تحيط بمدينة لبدة من كل ناحية، وسكانها ينتمون إلى قبائل عربية ولغتهم العربية، وبها العديد من القرى تقدر بحوالي 40 قرية، وبها مركز زاوية الزروق وزاوية المحجوب، وزاوية المداني،... وبها ثلاثة مراسي هي: مرسى حَمَد، وأبو شعيفة، والعوينية، وهي من أهم المدن التجارية والثقافية والعمرانية... للاستزادة ينظر: الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، : ص ص 216، 218.

** – من أعظم الممارسات التعسفية التي يقوم بها الطغاة و المستبدين ضد مخالفيهم استباحة الأموال و الأعراض، حيث لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة، وكل هدفهم الانتقام حتى من الجثث التي أفضت أرواحها إلى خالقها حيث تمنع هذه الجثث من مواراة التراب، وهذا حسب ظنهم هو من أعظم الانتقامات ناسيين أن مصيرهم سيكون مثل ذلك، وهي ممارسات لم يتصف بها هؤلاء الحكم فقط بل كل طاغية فاسد يريد حكم الأخرين بالحديد والنار لأنه لا يريد من الرعية سوى السمع والطاعة وتطبيق الأوامر ودفع الضرائب والإذعان للأوامر، وهذه ممارسات أثبتتها المصادر عبر كل زمان ومكان، وهناك من يريد تبرئة الحكام ولوم الرعية لأنها هي من قامت بالثورة والتمرد، بدل قول الحقيقة وكتابتها كما هي، فالعدل أساس الملك، وما من حاكم عادل إلاّ وكانت الرعية عونًا وخادمًا له، ومُساهمة في نهضة البلاد وبناء الحضارة التي لا تقوم لها قائمة إلاّ بتكاثف جهود الحاكم والمحكوم، لذلك يجب كتابة التاريخ مهما كانت مرارته بكل نزاهة وموضوعية بعيدًا عن التعصب وإيجاد المبررات مهما كان نوعها.

2- الطاهر أحمد الزاوي: ولاة طرابلس...، المرجع السابق، ص180.

3- نفسه.

4- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 193.

الباشا بذلك وكيف هي أوضاع أوجلة، ثم طلب منهم أن يجعلوه في حلٍ مِمَّا حدث لهم من فزع وخوف نتيجة قدومه، وترجاهم أن يسمحوا له بالدخول إلى البلدة لإقامة صلاة الجمعة، ويطلع على أحوالها عن قرب حتى ينقل أخبارها بدقة لمحمد الساقزلي بعد رجوعه، وقد استطاع بحيله ومكره ودهائه إقناع الأعيان والسكان بهذه الأفكار، وبذلك اطمأنت النفوس وهدأت[1]، وسمحوا له بالدخول رفقة جيشه، الذي ما إن انتهت صلاة الجمعة حتى استطاع القبض على زعيم أوجلة وقائدها أحمد بن عبد الهادي بأمر من عثمان بك[*] وعاثوا في المدينة فسادًا؛ سلبا ونهبا وتنكيلا، حتى أقراط البنات الصغار الموجودة في آذانهن لم تسلم من السلب، ولم يتركوا فيها ذهبًا ولا فضة إلاّ واستولوا عليه، ثم قفل راجعًا إلى مدينة طرابلس ومعه الكثير من الأسرى؛ وعلى رأسهم أحمد بن عبد الهادي رفقة أبناءه ونساءه وإخوته وعلية القوم بالبلدة، الذين سلمهم إلى سيده محمد باشا الساقزلي[2]، الذي أمر بقتل أحمد بن عبد الهادي وسجن البقية، فيما خضع ما بقى من أهل أوجلة وزادت قيمة عثمان بك نتيجة هذه الأعمال.[3]

بعد أن استطاع محمد باشا الساقزلي القضاء على الكثير من الحركات التمردية عمل على الاهتمام بولاية طرابلس اهتمامًا كبيرًا، فأكثر من بناء الخانات؛ بسبب تواجد التجار خاصة الأوربيين منهم، وبذلك عمرت الأسواق المحلية بالبضائع الأجنبية، وهذا ما استدعى منه بناء الأسواق التجارية والمخازن الكبيرة، وشارك الطرابلسيون التجار الأجانب الأعمال التجارية داخليًا وخارجيًا؛ وأقاموا شبكة من العلاقات التجارية النشطة مع

1- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 235.

* - هي أعمال قمة في الوضاعة والمكر والخداع تعبر عن أمرين اثنين:

- سذاجة وقلة حيلة المتمردين الذين صدقوا هذه الأكاذيب والأراجيف، خاصة وأنهم لا شك قد سمعوا بالأعمال الفظيعة التي ارتكبها عثمان بك وجيشه في مناطق أخرى من الإيالة.
- إن الحكام لا يلتزمون بمواثيق ولا عهود مع الناس في سبيل تثبيت أركان حكمهم، وقد ارتكبوا الكثير من الأعمال القبيحة والمنكرة في كامل الإيالات المغاربية، خاصة و أنهم غرباء على المنطقة ولا تربطهم بها أي صلة إلاّ الاستئثار بالحكم ومزاياه، مع أننا نستثني البعض الذي عمل بجد لخدمة البلاد والعباد ونصرة الإسلام والمسلمين بها، حيث لا يمكننا تعميم القاعدة على كل الحكام الذين قدموا من استانبول، وفي نفس الوقت لا يمكننا اتهام السلاطين العثمانيين بالتواطؤ مع هؤلاء الحكام، نظرًا لبعد المسافة وعدم الاطلاع على الأوضاع التي كانت تعيشها الرعية في ذلك الوقت. هي أعمال قمة في الوضاعة والمكر والخداع تعبر عن أمرين اثنين:

- سذاجة وقلة حيلة المتمردين الذين صدقوا هذه الأكاذيب والأراجيف، خاصة وأنهم لا شك قد سمعوا بالأعمال الفظيعة التي ارتكبها عثمان بك وجيشه في مناطق أخرى من الإيالة.
- إن الحكام لا يلتزمون بمواثيق ولا عهود مع الناس في سبيل تثبيت أركان حكمهم، وقد ارتكبوا الكثير من الأعمال القبيحة والمنكرة في كامل الإيالات المغاربية، خاصة و أنهم غرباء على المنطقة ولا تربطهم بها أي صلة إلاّ الاستئثار بالحكم ومزاياه، مع أننا نستثني البعض الذي عمل بجد لخدمة البلاد والعباد ونصرة الإسلام والمسلمين بها، حيث لا يمكننا تعميم القاعدة على كل الحكام الذين قدموا من استانبول، وفي نفس الوقت لا يمكننا اتهام السلاطين العثمانيين بالتواطؤ مع هؤلاء الحكام، نظرًا لبعد المسافة وعدم الاطلاع على الأوضاع التي كانت تعيشها الرعية في ذلك الوقت.

2 -إتوري روسي: المرجع السابق، ص 277.

3- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 235.

بعض الدول الأوربية ومملكة بورنو التي جدد مع ملكها المعاهدة التجارية سنة 1045هـ/1635م، وكان يصدر المنتوجات والعديد من البضائع ذات الجودة العالية، هذا ما نتج عنه تحقيق عوائد مالية كبيرة جدا في ذلك الوقت قدرت بحوالي 30.000 سكودو ذهبي.[1]

وقد تم ما بين 1636-1638م تبادل الوفود والهدايا بين محمد باشا الساقزلي وماهيي هامور « Mahi Hamour» حاكم بورنو[2]، هذا ما انعكس إيجابًا على الحركة التجارية بالإيالة، حيث عرفت المناطق الداخلية بطرابلس حركة تجارية واسعة ومربحة ووصلت البضائع المحلية والمستوردة إلى الكثير من المناطق الريفية البعيدة؛ دليلاً على ازدهار الحركة التجارية بهذه البلاد، كما أن السفن التجارية الطرابلسية عرفت حركة واسعة باتجاه العديد من أنحاء العالم، وحتى السفن الحربية بلغت من الازدهار والقوة ما أهلها للقيام بالهجوم على السواحل الإيطالية والإسبانية وبث الرعب في نفوس سكانها[3]، نتج عن ذلك ازدياد عدد الأسرى المسيحين، هذا ما ولّدَ مشكلة لدى الباشا الطرابلسي؛ تمثلت في أماكن سجنهم، لذلك قرر إنشاء سجن لهم ما بين سنتي 1640-1641م قرب باب المنشية –عُرف باسم الحمّام الجديد أو سانتو أونطونيو، نسبة إلى الكنيسة التي أقيمت فيه وخصصت للعبادة عند المسحيين*، وتكريمًا للقديس أونطونيو- وكان هذا السجن مكونًا من ستة وسبعين غرفة، تستوعب كل واحدة ستة أشخاص، ويحتوي هذا على حوالي 450 أسيرًا مسيحيًا.[4]

عرفت ولاية طرابلس الغرب في عهد محمد باشا الساقزلي تنظيما إداريًا وماليًا لم يسبق له مثيل منذ دخول العثمانيون إليها، فقد قام بتنظيم السجلات المالية، وأحصى النخيل والمواشي وأشجار الزيتون، وشجع المزارعين وأعفاهم من الضرائب لمدة خمس سنوات، كما حدد الضرائب المفروضة على المدن الطرابلسية، وحذر الجباة من زيادة الضرائب على السكان، وحددها بما يمتلكونه من أشجار وما ينتجونه من محاصيل، ومدّ الفلاحين بالمساعدات الضرورية، واهتم بالمواشي وحفر الآبار في المناطق البعيدة وأمَّن الطرق وأقام عليها الحراسة لضمان سلامة التجار وبضاعتهم، وأعفى التجار الكبار من الرسوم الجمركية والضرائب وأخضع البضائع المستوردة للمراقبة الدقيقة، وطارد المحتكرين وأعلن عليهم الحرب بدون هوادة، وقام بتوسيع دار صناعة السفن، واستقدم من الدولة

1- كوستانزيو برنيا: المرجع السابق، ص 121.

2- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 279.

3- محمود علي عامر، محمد خير فارس: المرجع السابق، ص 194.

* – وهذا دليل على التسامح عند المسلمين على عكس المسحيين الذين كانوا يضطهدون كل مسلم في كامل أوربا خاصة بإسبانيا بعد احتلال مدينة غرناطة سنة 1492م، وما كان بعدها من اضطهاد وتنكيل وتعذيب للمسلمين، ومنع كل مظاهر الدين الإسلامي؛ بل وحتى إرغام المسلمين على اعتناق الدين المسيحي، ولم تكتف السلطات الإسبانية بذلك بل حاولت مطاردة المسلمين ببلاد المغرب ونشر المسيحية والقضاء على الدين الإسلامي، ونقل الحروب إليه، إلى غاية دخول العثمانيين، الذين تحملوا عبء المسئولية والدفاع عن بلاد الإسلام، ومنها بلاد المغرب.

4- كوستانزيو برنيا: المرجع السابق، ص ص 131، 132.

العلية العثمانية لوازم السفن والصناع المهرة، وشجع الجهاد البحري والمنخرطين فيه، وسمح بشِراء السفن للقادرين على ذلك والسماح لهم بالعمل لحسابهم الخاص، مقابل رسوم يدفعونها لخزينة الدولة، ورسوم أكبر من الأولى على الأمراء والأغوات، وأولى اهتمامًا خاصًا بالجيش الإنكشاري وأشرف بنفسه على إعداده وتنظيمه، وحدد له الرواتب التي أصبحت تدفع كل ثلاثة أشهر، ومنح الفرسان 4 سكودات شهريًا، كما منح الجنود ما يعادل 500 خبزة يوميًا، وأنزل على المتقاعسين من طواقم السفن الحربية عقوبات صارمة، وقسم الأسطول إلى مجموعات، تظم كل واحدة منها من 7 إلى 9 سفن صغيرة وكبيرة، وزود السفن الكبيرة بثلاثين أو أربعين مدفعًا.[1]

استمر محمد باشا الساقزلي في الحكم إلى غاية يوم الجمعة 2 ذي القعدة 1059هـ/سبتمبر 1649م[2] عندما مرض؛ وأثناء ذلك عاده طبيبًا مسيحيًا وضع له السم في تفاحة*، كان تناولها كافيا لوضع حد لحياته مسموما[3]، ليتولى من بعده عثمان باشا الساقزلي، الذي ساءت سيرته في الرعية وأفسد الحرث والنسل، وتسلط على الفلاحين والصناع، واستعمل القوة والعنف لإخضاع المتمردين والرافضين لحكمه وحتى السكان العاديين، وحاول توسيع نشاط الأسطول، حيث أصبح عدد قطعه حوالي 24 سفينة ليزيد المداخيل ويكثر ثروته.[4]

وهكذا بقيت أحوال الإيالة الطرابلسية طيلة القرن السابع عشر الميلادي، ميزتها العامة الصراع حول الحكم والنفوذ والمال، وكان الخاسر الأكبر في ذلك الرعية التي ذاقت الويلات والهموم والتنكيل من طرف العديد

1- محمود علي عامر، محمد خير فارس: المرجع السابق، ص ص 193، 194.

2- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 237.

* - نقل لنا شارل فيرو تفاصيل هذه الحادثة المؤلمة كما يلي:«...وفي شهر سبتمبر سنة 1649م، تناول محمد الساقزلي سُمًّا مسحوقًا دُسَّ له في تفاحة، وكان الساقزلي قد أحاط نفسه بشلة من الأعلاج ذوي الأصل النصراني، معتقدًا بأنه قادرًا على الاحتفاظ بالسلطة بإيثاره لأناس ترتبط مصالحهم بمصالحه وكذلك فإن علجين آخرين تقلدا من جانبهما مناصب مدنية، وهما: محمود الكيخيا؛ وهو علج أصله من جزيرة سردينيا كان الداي قد عينه مديرًا للمالية، ورمضان التابلي، وأصله من مدينة نابولي الإيطالية، وكان قد أوكل إليه منصب أمانة صندوق القصر، حيث أن هؤلاء كانوا مثل سيدهم ينحدرون من أصل نصراني، فإنهم اعتبروا أنفسهم جديرين مثله بتولي السلطة، فاتفق هذان الخائنان منذئذٍ على خطة طموحة رمت إلى التخلص من محمد الساقزلي والحلول محله، واتجهت أنظارهم في البداية إلى أسير برتغالي يدَّعى أنه طبيب وأوعزوا إليه بإعطاء سيده مشروبًا مسمّمًا، غير أنه رفض، ونجحت مساعي الشريكين بعد ذلك مع أسير متطبب آخر، وهو من أصل كالابريزي إيطالي ويدعى فرانسوا أرفييتي "François Arfietti"فوعداه بإطلاق سراحه، وبدأ هذا الحقير مؤامراته بأن جرب السمَّ في سيدي علي البالغ من العمر اثنتي عشر سنة، وهو ابن محمد الساقزلي الوحيد، فتوفي يوم 18 أغسطس سنة 1649م، واعتمت نفس الداي الذي تأثر لموت وحيده المفاجئ، فظل يرفض تذوق الطعام عدة أيام، ثم قدمت إليه تفاحة تحتوي على السمِّ البطيء الأثر والذي قضى على حياته هو الآخر في يوم 28 سبتمبر التالي، وفي المساء أخذ محمد الساقزلي- الذي ظل يعاني منذ أن فقد ابنه- يطلق صيحات الألم ويتلوّى من شدة تأثير السم عليه، وهرع نحوه في الحال مدير مالية رمضان النابلي الذي كان يرقبه فلم يسمع منه سوى الكلمات التالية «يا ولدي المسكين! إنني أموت مثلك» ولفظ أنفاسه في التّو فعلا....» للاستزادة ينظر: شارل فيرو: المرجع السابق، ص 153.

3- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 183.

4- الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص ص 182، 184.

من الحكام، فيما حاول القلة منهم الإحسان إليها والدفاع عنها ومعاملتها بالتي هي أحسن، خاصة في تدخل السلطان العثماني مباشرة* إذا ما رفعت إليه الشكاوى من طرف الأعيان والزعماء المحليين.

2-التحالف العثماني المغاربي ضد التحالف المسيحي.

2-1-فتح جزيرة كريت.

يعتبر فتح جزيرة كريت من أهم الفتوحات العثمانية في أوربا، خاصة وأنه دام حوالي 24 سنة –من 1645-1669م[1]– لعبت فيه البحريات المغاربية دورًا مهمًا وبارزًا في مواجهة القوات الأوربية المتحالفة التي كانت تدافع عن الجزيرة، وبسبب طول مدة الحصار كان لزامًا على قادة الأسطول العثماني طلب المساعدة من الإيالات المغاربية العثمانية، ولذلك وفي شهر فيفري 1667م طلب الصدر الأعظم أحمد كوبورلي من حكام الإيالات؛ التونسية، الجزائرية، الطرابلسية عن طريق مبعوث خاص له بمؤازرة فعالة لفتح ميناء كاندي بجزيرة كريت، وهو الميناء الذي حضر من أجل فتحه الصدر الأعظم شخصيًا؛ وهذا دليلا على الأهمية التي أولاها قادة الدولة العلية العثمانية لهذه الجزيرة، لذلك سارع حكام الإيالات المغاربية لنجدة العثمانيين، ومنهم حاكم إيالة طرابلس الغرب الذي أرسل 6 سفن حربية تمكنت في طريقها إلى الجزيرة من السيطرة على سفينة أوربية.[2]

يعتبر هذا العدد من السفن عددًا كبيرًا إذا ما قورن بعدد قطع الأسطول الطرابلسي حينذاك، الذي كان يتكون من حوالي 14 سفينة فقط، وقد شاركت بفعالية عالية إلى جانب البحرية العثمانية في مطاردة المغامر جورجيو البندقي وقضت عليه وأسرت رجاله.[3]

لعب الفرنسيون دورًا بارزًا في المعارك التي دارت بين القوات العثمانية وقوات البندقية المحاصرة، خاصة وأن لويس الرابع عشر ملك فرنسا كان مسيحيًا متعصبًا يلقب بـ: «الكاثوليكي المركّز»، لذلك عمل دائمًا على

*– مثلما قام به السلطان العثماني مراد خان الثالث حينما وجه فرمانًا إلى بايلرباي طرابلس الغرب جعفر باشا يحثه فيه على حكم الناس بالعدل والإنصاف، هذا نصه:

– مراعاة العدل مع الأهالي.

– حُكم إلى بايلرباي إلى طرابلس الغرب حول أن الأخبار تداعت بوقوع بعض الأعمال المشينة في طرابلس الغرب، وأن الفقراء يتعرضون للظلم والطغيان، وضرورة التصدي لمثل هذه الأمور غير المشروعة وعدم الإقدام على ابتداء أساليب جديدة تحل محل الإجراءات المتبعة منذ القديم، مهمة دفتر، علبة 47، عدد 174، صفر 990هـ/1582م.

1– إتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي...، المرجع السابق، ص 280.

2– شارل فيرو : المرجع السابق، ص 166.

3– أمحمد سعيد الطويل: البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القرمانلي (1795–1832م)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، 2002م، ص 48.

مساعدة البنادقة، متأسيًا بما كان يفعله الملوك الكاثوليك بإسبانيا[1]، خاصة وأن حكام فرنسا في هذه المرحلة حلوا محل الحكام الإسبان في قيادة العالم المسيحي بعد تراجع دور الملوك الإسبان على الصعيد الأوربي والإقليمي، فاسحين المجال للفرنسين لأخذ الصدارة في مساعدة الأوربيين ضد العثمانيين، ومن ذلك؛ وفي سنة 1667م تم إرسال أسطولاً للمساعدة في فك الحصار عن جزيرة كريت* بقيادة دوق نافاي «Duc De Navailles»، يرافقه خيرة الفرسان الفرنسيين وهم: الكونت دي سان بول لونجفيل «De St-Pol Longueville» والفارس دي فاندوم «De Vendome» البالغ من العمر خمس عشرة سنة والفارس دي هاركور «D'harcourt»، وأمراء آخرون من عائلات لويان «Lorraine» وبويون «Bouillane» وبعض النبلاء، داميير«Gastellane»، وكولبير «Colbert» وكاستيلان «Castellane» ولاموت-فينيلون "La mothe-Fenelon" ونجلاه الاثنان، وسيفيتي «Sevigive»، وبصحبتهم 6000 جندي، وبعد خمسة أيام من وصول القوات الفرنسية هلك الدوق دي بوفور «Debeaufort» أثناء احدى المعارك ضد العثمانيين، بالإضافة إلى 600 فارس وعدد مماثل من المشاة.[2]

استمر حصار العثمانيين لجزيرة كريت أكثر من سنتين، اضطر خلالها الصدر الأعظم أحمد كوبورلي لحضور المعارك وتوجيه المقاتلين من أجل حسم هذه المعركة التي طال أمدها، بسبب الإمدادات المالطية والبابوية، الإنجليزية، الإيطالية، الألمانية والفرنسية بالمال والرجال والسفن الحربية[3]، لأن السلطات الأوربية الحاكمة كانت تعتقد أن جزيرة كريت مسألة كرامة بالنسبة للمسحيين تجاه الإسلام والمسلمين، واضعين نصب أعينهم ما فعله أسلافهم في معركة الليبانت في 7 أكتوبر 1571م، حين ألحقوا هزيمة قاسية بالأسطول العثماني.

بدأ الحصار النهائي من طرف العثمانيين لميناء كانديه في 1ماي 1669م، وفي 24 ماي وصل الأسطول الفرنسي واستطاع دخول ميناء المدينة وأنزل 16000 جندي آخر إلى القلعة للمساهمة في المعارك الجارية، والتي قتل فيها أحد الأمراء الفرنسيين بتاريخ 25 ماي وهو دوق «Vendôme» والأمير فرنسوا «François» (1616-1669م) حفيد الملك الفرنسي هنري الرابع وابن أخ لويس الرابع عشر، وأمام الخسائر المتتالية في

1- يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ص 509.

* - بالرغم من المعاهدات الكثيرة التي عقدتها السلطات الفرنسية مع سلاطين الدولة العلية العثمانية وحكام إيالاتها المغاربية، إلا أنها كانت دائمًا تسارع في نجدة بني جلدتها ضد العثمانيين، ولا تجد أي حرج في إعلان العداء للمسلمين، ففي هذه الفترة التي كانت تساعد فيها البنادقة كان قناصلها يعبثون في البلاد الطرابلسية، ويعملون على تخريبها وعدم استقرارها لكن العيب ليس في قادة فرنسا، بقدر ما هو في حكام المسلمين، الذين تركوا مصائرهم بيد هؤلاء المسحيين.

2- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 166.

3- محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص، 298.

صفوف القوات الأوربية وصلت مساعدات أخرى للمحاصرين بتاريخ 3 جوان، كان منها 15 سفينة فرنسية،9 بابوية، 7 مالطية و4 بندقية، إلا أن ذلك لم يجد نفعًا أمام إصرار العثمانيين في فتح الجزيرة، هذا ما اضطر القوات الفرنسية والبابوية والمالطية العودة إلى بلدانها خلال شهر أوت 1669م، خاصة بعد إعلان فرانسيسكو موروزيني «Francesco Morosini» أن الدفاع عن الجزيرة أصبح غير ممكن مهما كان الأمر لأن الخسائر في الأرواح والأموال بلغت حدًا لا يطاق.[1]

أمام استحالة مواصلة القتال بسبب الحصار الذي فرضه العثمانيون على قلعة كريت، والذي دام حوالي ثلاث سنوات تكبد فيه الطرفان خسائر فادحة في الأرواح والأموال، قرر القائد البندقي موروزيني الدخول في مفاوضات مع الصدر الأعظم أحمد كوبورلي لتسليم القلعة ومناقشة الشروط التي يتم على أساسها الصلح بين الطرفين، وبذلك بات في حكم المؤكد أن هذه القلعة أصبحت تابعة للدولة العلية العثمانية وممتلكات الإسلام[2].

بعد مفاوضات شاقة وطويلة توصل الطرفان إلى توقيع معاهدة استسلام، تم توقيعها يوم 5 سبتمبر 1669م، من طرف الصدر الأعظم أحمد كوبورلي والقائد البندقي موروزيني بالنيابة عن حاكم البندقية، وقد نصت هذه المعاهدة على ما يلي:

- يتم التنازل للدولة العلية العثمانية عن جزيرة كريت ما عدا ثلاث قرى، هي: بوزا، سودا، وسيبينا لونجا وهي قرى موجودة في شمال الجزيرة.[3]
- تنتقل إلى الدولة العلية العثمانية مدينة كانديه و1100مدفع الموجودة بداخلها.
- يمكن لأفراد الحامية البندقية الموجودة بكانديه الخروج سالمين وحمل ما يستطيعون من المال والسلاح.
- لا يسمح بحمل الأموال بواسطة الدواب.
- تُخلى المدينة وتُسلم للجيش العثماني خلال مدة 12 يوما.
- خلال مدة 12 يومًا الممنوحة للبنادقة لا يحق لهم التعرض للأسرى المسلمين بأي سوء ويتم تبادل الأسرى خلال هذه المدة.
- تعلن هدنة بين الطرفين بإطلاق أعيرة نارية من المدافع، لا يطلق بعدها أي سلاح.

وبتوقيع هذه المعاهدة التي احتوت على 18 مادة انتهت الحرب العثمانية البندقية حول جزيرة كريت التي دامت 24 سنة و4 أشهر و16 يومًا، والتي تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة في الأموال والأرواح وانتهت

1- يلماز أورتونا: المرجع السابق، ص ص 511، 512.

2- الوزير السراج: المصدر السابق، ج2، ص 126.

3- محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 298.

بمفاوضات دامت 8 أيام[1] ونصرا عسكريا للعثمانيين، لعبت فيه الإيالات المغاربية دورًا فعالاً وبارزًا طيلة هذه المدة، وفي ذلك يقول الوزير السراج: «...**ومر في بعض الأيام سياق فتح خانية وكندية على يد السلطان إبراهيم بحضرة السلطان محمد فتحركت منه دواعي الاشتياق إلى السعي بقدم الطاعة في سبيل الله وعقد النية الخالصة لفتح قلعة كاسترو، فانتشرت أوامره المنصورة لجمع المراكب الإسلامية وشرَّف بالخدمة مراكب الغرب، الجزائر وتونس وطرابلس، فسارعوا لما أُمِروا به وشرعوا القلاع وسفروا وأسفر لهم النصر عن وجه عزم يشير إشراقه بما ظفروا وانخرطوا في العمارة العثمانية، وانتظموا في سلك العساكر الخاقانية، ونزلوا في جزيرة كاسترو في غرة حجة الحرام سنة سبع وسبعين وألف[1077هـ/5 ماي 1667م]، ونزلوا إلى البر، واستفتحوا في صنيع البِر، وتدّرجوا إلى جوانبها صنيعهم بحلق الوادي، واستخرجوا من كنوز الجبل ذخائر الجهاد، إلى أن أحاطوا بها إحاطة الخجل بالضيف، والحر بالصيف، والمنام بالطيف، وكف الإسلام بالسيف والتصقوا بها التصاق الأظافر بالأصابع، وتصرفوا فيها تصرف الأرياح بالبراقع، وصيروها كالخدود موطئة للمدافع، ولن يجد الكافر يرفع المدافع من مدافع، وعندما حمي الوطيس وضاق الخناق، والتفتت منهم الساق بالساق[2]، ألقوا إلى سُبل الاستسلام المساق، والتفوا بعد ثياب العزة في خِرق الاسترقاق، ونزلوا من القلعة مذعنين وقالوا: "إنا أتينا طائعين"[3]، فحدد لهم الوزير الأسعد أن يخرجوا بعد ثلاثة أيام، وأضيفت القلعة إلى مملكة الإسلام والحمد لله على الختام، وكان ذلك سنة تسع وسبعين وألف[1079هـ/1668-1669م]، وكان ورودها إليها كما قدمنا سنة سبع وسبعين وألف بحيث كانت مدة حصارها ثلاث سنين وفي السنة الثانية من محاصرتها عادت سفن تونس إلى الجهاد، وبعد ما امتلأت المراكب بالعساكر المعدين للحروب أضيف معهم مراكب آخر نحو ألفي نفر من أبناء مدينة تونس ابتغاء وجه الله وعندما انصرفوا من فتح مدينة كاسترو وفُتحت كندية وجميع ملحقاتها من حصون وقرى وأدخلهم النّصر تحت الذمة وأداء الجزية والخراج...**».[4]

من خلال ما سبق يمكننا القول أن بحريات الإيالات المغاربية ساهمت بصورة فعالة في فتح ميناء كانديه خاصة وجزيرة كريت بصفة عامة، بعد حصار طويل ومعارك مستمرة دامت حوالي 24 سنة و4 أشهر، حيث كان حكام الإيالات المغاربية يسارعون في تلبية طلبات السلاطين العثمانيين للمشاركة في المعارك ضد الأوربيين، بالرغم

1- يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ص 513.

2- مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ الآيات 28-29-30، سورة القيامة.

3- مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ الآية 11، سورة فصلت.

4- الوزير السراج: المصدر السابق، ص ص 125، 126.

من حالة الجفاء التي كانت تطبع علاقات هؤلاء ببعضهم البعض، إلا أن واجب الدفاع عن الدولة العلية ونصرة الإسلام والمسلمين كان دائمًا سببًا في استجابة حكام الإيالات المغاربية.

لعب حكام فرنسا دورًا بارزًا في استمرار البنادقة في مواجهة العثمانيين طيلة 24 سنة وأكثر، فقد كان الفرنسيون دائمًا يلعبون على الوترين، فمن جهة يناصرون الدول الأوربية ويدعمونها في مواجهة العثمانيين، ومن جهة أخرى يعملون على زيادة نفوذهم داخل الدولة العلية، وخاصة في الإيالات المغاربية ومنها طرابلس الغرب، التي كانت تعيش خلال هذه المدة تحت التأثير الواضح للقناصل الفرنسيين، الذين كانوا يعبثون بمقومات الإيالة ويستغلون خيراتها ويثيرون الفتن بين أهلها، حتى لا تستقيم الأوضاع وتتطور البلاد.

المبحث الثاني: الحملة الإسبانية على الإيالة الطرابلسية سنة 1095هـ/1684م

1-أسباب الحملة الإسبانية:

أ-الأوضاع المتردية لطرابلس الغرب:

كانت طرابلس الغرب خلال هذه الفترة تعيش أوضاعًا متدهورة نتيجة الصراعات الداخلية حول الحكم والتمردات المتواصلة ضد السلطة المركزية بالمدن والأرياف، خاصة في عهد عبدالله الروميللي، الذي كان ضعيف الشخصية، فاتر العزيمة، فتغلب عليه مراد بك الأرنائوطي الذي استبد بالرأي، مما فسح المجال لجنود الإنكشارية الذين تذمروا من هذه الوضعية، لذلك قرروا التخلص من عبد الله الروميللي، فقاموا بعزله يوم الاثنين 5 رجب 1696هـ/1685م ونصبوا مكانه عبدالله الأزميرلي، الذي كان مثل سلفه ضعيف الشخصية عديم الهمة فتسلط عليه أيضًا مراد بك، لذلك ولما رأت السلطات الإسبانية هذه الأوضاع المتردية والفوضى العارمة والارتباك الحاصل داخل البلاط الطرابلسي الحاكم قررت القيام بحملة عسكرية ضد طرابلس في أواخر جمادي الآخرة 1096هـ/1685م.[1]

نقل لنا الطاهر أحمد الزاوي في كتابه ولاة طرابلس نصًا يعبر بصدق عن هذه الأوضاع المتردية وما وصلت إليه البلاد من فوضى عارمة في كل المجالات حيث قال: «... **والذي يمعن النظر في أحوال طرابلس منذ عشر سنوات مضت تقريبًا يرى كيف كان الترك منهمكين في سلب الأموال، وتزاحمهم على الولاية، وقتل بعضهم بعضًا، فقلت حاميتها، وانقسم الجيش على نفسه فرقًا وأحزابًا، وخلت الحصون من معدات الدفاع**

1- النائب بك أحمد الأنصاري : المصدر السابق، ص ص 250، 259.

وانتشرت الفوضى، وسئم الناس الحياة في ظل هذا الحكم الفاسد، فكثرت الثورات، طلبًا للعدالة التي هي أساس طمأنينة الناس على أموالهم وأرواحهم...».[1]

ب-تحرير الأسرى:

تعتبر قضية الأسرى من أهم القضايا التي قام عليها الصراع المغاربي الإسباني خاصة، والصراع المغاربي الأوربي عامة، خاصة وأن كلى الطرفين حاول الدفاع عن أسراه بكل قوة وعزيمة، جاعلاً من قضية تحريرهم هدفهم الرئيسي، وقد حاول الأوربيون تصوير معاناة أسراهم وما يلقونه من تعذيب وتنكيل على يد المسلمين بأبشع الصور، وفي ذلك يقول كوستانزيو برنيا: «... **وقد خص عثمان باشا، وبالي داي بعض الفرسان بمعاملة خاصة، كانوا يخرجون عند طلوع الشمس من الحمامات* ويسيرون في صفوف منتظمة تحت الحراسة، متجهين إلى العمل، ويتم استخدام كل صانع في الحرفة التي يتقنها. «أما الذين لا يحسنون حرفة معينة فقد كانوا يُسْتخدمُون في قطع الحجر من محاجر قرقاش والهنشير، ويقول المؤلف المجهول إن هذا النوع من الأعمال يعتبر من أشق الأعمال، إذ أن هذه المحاجر تبعد بحوالي ميل من المدينة وكان لابد من قطع هذه المسافة صباحًا مساءً، وكان يتحتم عليهم قطع عشر قطع في اليوم، ويبلغ حجم كل واحدة قدمين مربعين، ويجبر الأسرى على القيام بهذا العمل الشاق، وقد يتعرض بعضهم للموت أثناء العمل، ويشتغل بعضهم الآخر في أفران الجير، وأعمال البناء، وغرس البساتين وخدمة الأرض، وقطع الخشب، واستخراج الماء، وتفريغ المجاري وغير ذلك من الأعمال المتشابهة ...»، وكانوا يسخرون بلا تمييز أو استثناء لشحن مراكب القراصنة بالمياه والإمدادات والتموين...».**[2]

ولمواصلة ما نقله المؤرخون الأوربيون عن وضعية أسراهم ببلاد المغرب ننقل هذا النص لأحد المعاصرين لتلك الأحداث أرنولد توللي الذي قال: «... **ولداي حق اختيار واحد من كل ثمانية، ويفضل عامة أولئك الذين هم من ذوي المهارات على غيرهم، أما الباقون الذين تُركوا للمالكين الآسرين يقادون مباشرة إلى سوق النخاسة "سوق الرقيق" حيث يقدر ويحدد سعر كل شخص، من الوقت الذي جيء به إلى قصر الداي، حيث يباع الرقيق بالمزاد العلني، وإذا وصل المزاد فوق السعر الموضوع عليهم فإن فرق الزيادة**

1- الطاهر أحمد الزاوي: ولاة طرابلس... المرجع السابق، ص 201.

* -كان يطلق على السجون ببلاد المغرب عامة وطرابلس خاصة اسم الحمامات، لشدة درجة حرارتها المرتفعة جدًا، والتي كان يعاني منها السجناء الأوربيين.

2-كوستانزيو برنيا : المرجع السابق، ص 186.

يعود إلى الحكومة، وفي البقعة التي يبدو فيها هؤلاء الناس التعساء تربط أرجلهم بحلقات من حديد من رسغ القدم، بسلسلة طويلة أو قصيرة، خوفًا من أن تسول لهم أنفسهم الهروب...».[1]

لعب الفرنسيون خلال هذه المدة الدور الرئيسي في تبني قضية الأسرى الأوربيين، مُحَاوِلة في ذلك لعب نفس الدور الذي لعبته إسبانيا خلال القرن السادس عشر، لذلك حاولت في كل معاهداتها مع طرابلس الغرب التركيز على إطلاق سراح الأسرى الأوربيين عامة وليس الفرنسيين فقط*، غير أن السلطات الإسبانية لم تبق مكتوفة الأيدي أمام السياسة الفرنسية، لذلك عملت جاهدة للعب نفس الدور أو أكثر فكان هدف هذه الحملة إطلاق سراح جميع الأسرى الأوروبيين، وهذا ما حصل في نهاية هذه الحملة بتوقيع الصلح بين الطرفين.[2]

ينقل جان كلود زليتنر نصًا يعبر فيه بمرارة عما كان يتعرض له الأسرى من سوء معاملة على يد مالكيهم الطرابلسيين حسب زعمهم، حيث يقول على لسان أحد الأسرى اسمه توماس ساندر، كان برفقة خمسة فرنسيين وثمانية إيطاليين وإسبان، حيث قال: «... **قيدنا بالسلاسل كل ثلاثة إلى مجداف، كنا نقوم بالتجديف عراة ما فوق الحزام، كان رئيس الطاقم ورئيس العمال يتحركون، أحدهما أمام الساري والآخر خلفه، ممسكًا كل واحد منهما بسوط من عصب البقر، ويقومون بضرب المسيحيين بدون سبب كلما دفعهم مزاجهم الشيطاني لذلك كانوا يعطون لكل واحد منا نصف رطل من الخبز دون أي وسيلة أخرى للبقاء غير الماء...».**[3]

ج-الحد من نشاط الجهاد البحري الطرابلسي.

قامت السلطة العثمانية في بلاد المغرب على أساس حركة الجهاد البحري ضد المسيحيين، خاصة الرياس الذين لعبوا دورًا في تحرير البلاد من الاحتلال الإسباني، وفي نفس الوقت بُني اقتصاد هذه الإيالات على الجهاد البحري ومداخيله أيضا، لذلك كانت إسبانيا وغيرها من الدول الأوربية تعلم جيدًا أن القضاء أو الحد من نشاط البحارة الطرابلسيين؛ يعني انهيار الاقتصاد الطرابلسي، وبالتالي التوجه إلى الرعية من أجل إنهاكها بالضرائب

1- أرنولد توللي: المصدر السابق، ص 176.

* – وهذا ما نلاحظه في اتفاقية سنة 1685م بين طرابلس الغرب وفرنسا حيث تم التعهد بإطلاق جميع الأسرى الأوربيين المقدر عددهم بـ 1200 أسير أوربي بدون مقابل، أثناء الحملة التي قادها دوستري ضد طرابلس الغرب، حيث وقعت معاهدة اعتبرت أكبر إهانة تلحق بالإيالة الطرابلسية خلال العصر الحديث، لأنها أذلت حكام طرابلس وحققت مزايا لفرنسا لم تحصل عليها من قبل، حتى أصبح معها السفير الفرنسي يدخل على الباشا بدون أن يعترض سبيله أحد، أو يمنعه من الدخول، وأكثر من ذلك دفع عبد الله الأزميرلي مبالغ مالية ضخمة لفرنسا قدرت بـ 500 جنيه في ذلك الوقت مع كتابة رسالة اعتذار للملك الفرنسي لويس الرابع عشر كان محتواها كله إهانة وتذلل، زيادة على كل ذلك إرسال رهائن من علية القوم في طرابلس كرهائن لدى السلطات الفرنسية، التي عملت جاهدة خلال هذه الفترة لإذلال وإهانة الطرابلسيين خاصة و المغاربة عامة....!!! .

2- أبو العباس أحمد بن محمد بن الناصر الدرعي : المصدر السابق، ص 180.

3- جان كلود زليتنر: المرجع السابق، ص 231.

لتعويض خسائر الجهاد البحري، هذا ما سوف يولد المواجهة الحتمية بين الحكام الطرابلسيين والسكان المحليين وهذا ما حدث فعلا طيلة القرن السابع وما بعده، خاصة أن الدول الأوربية عملت في النصف الأول من القرن السابع عشر على تثبيت قناصلها بالإيالات المغاربية محاولة منها للحد من نشاط الجهاد البحري[1]، وفي الحالات التي تعجز عن وقف حركة الجهاد البحري تقوم بحملات عسكرية لعلها تحصل بالقوة ما لم تحصل عليه بواسطة قناصلها، مع أن إسبانيا كانت مستثناة من ذلك على اعتبار أنه لم يكن لها أي تمثيل دبلوماسي بالإيالات المغاربية، لذلك أرادت أن تقوم بهذه الحملة من أجل وضع حد لنشاط البحارة الطرابلسيين، وفي نفس الوقت مساعدة المالطيين والصقليين في مواجهة الطرابلسيين.

د-ضعف الجيش الطرابلسي.

أدت الصراعات حول السلطة، وكثرة التمردات ضد نظام الحكم العثماني بطرابلس-نتيجة الظلم والجور والتعسف بحق الرعية- إلى تشتيت جهود الجيش الإنكشاري الذي وجد نفسه في مواجهة السكان المحليين بقيادة زعماء القبائل والمرابطين، وفي نفس الوقت مشاركًا في مؤامرات الحكم ومزاياه، فتارة يناصر هذا ويثور ضد الآخر من أجل تنصيب الوالي الذي يدفع أكثر ويخدم مصالحهم الضيقة، وتارة أخرى يتآمر على الذي نصبه من أجل مزايا أخرى أو خدمة لمصالح أجنبية، نتيجة لتدخل القناصل الأوربيين في شؤون الحكم الطرابلسية، والضحية في ذلك السكان المحليين وبلادهم التي ضاعت نتيجة ضعف الحكام وخضوعهم للأجنبي حتى ضعفت الدفاعات ولم يعد للإنكشارية والرياس قدرة على مواجهة الأخطار الأجنبية.[2]

ه-منافسة فرنسا وانجلترا في بلاد المغرب.

بدأت طرابلس الغرب في القرن السابع عشر خاصة في نهايته تعرف تنافسًا حادًا بين إنجلترا وفرنسا من أجل الحصول على الامتيازات الاقتصادية والدينية، خاصة فرنسا التي أصبح قناصلها يتصرفون وكأنهم في مقاطعة تابعة لبلادهم، وكلما حاول أحد حكام الإيالة الطرابلسية إتباع سياسة الشدة والحزم اتجاههم، إلاّ وتدخلت السلطات الفرنسية بباريس وأرسلت حملة بحرية من أجل إخضاعه إلى رغباتها، مثلما كان الحال سنوات 1683م بقيادة دوكين و1685م بقيادة المارشال دوستري الذي هدم نصف المدينة وفرض معاهدة قاسية جدًا على عبد الله الأزميرلي.[3]

1-إتوري روسي: ليبيا منذ الفتح...، المرجع السابق، ص300.

2- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص259؛ الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 202.

3- جان كلود زليتنر: المرجع السابق، ص 283.

ولما رأت السلطات الإسبانية الدول الأوربية تحاول فرض نفوذها داخل إيالة طرابلس الغرب، بسبب ضعف حكامها وتراجع أسطولها البحري، قرر القادة العسكريين والسياسيين انتهاج نفس الأسلوب الذي اتبعته فرنسا وإنجلترا خاصة، والعمل على احتلال طرابلس الغرب وإرجاعها لسيادتها مثلما حدث سنة 1510م[1]، أو على الأقل فرض شروطها على قيادتها لخدمة مصالح إسبانيا العليا داخل الحوض الغربي للمتوسط، خاصة بعد تراجع نفوذها داخل أوربا ذاتها، ولذلك أرادت تعويض ذلك بالعمل على استرجاع ما ضاع منها ومنافسة إنجلترا وفرنسا على بلاد المغرب والبداية من إيالة طرابلس الغرب الخصم الأضعف في ذلك الوقت.

و-محاولة احتلال طرابلس الغرب.

عرفت إسبانيا خلال القرن السابع عشر تراجعًا رهيبًا داخل وخارج أوربا، بسبب ضعف جيشها البري والبحري، خاصة بعد تدمير الأرمادا على يد القوات الإنجليزية سنة 1580م، زاد الأوضاع تأزمًا فتح العديد من جبهات القتال داخل أوربا وفي العالم الجديد وبلاد المغرب وضد الدولة العلية العثمانية، هذا ما أثر على قدرات الإمبراطورية الإسبانية، التي فكر قادتها جديًا في إعادة أمجادها الضائعة وتكون البداية دائمًا من بلاد المغرب الإسلامي، خاصة طرابلس الغرب منطقة نفوذها في بداية القرن السادس عشر الميلادي، ولما سمع الإسبان عن طريق جواسيسهم بالصراعات الدائرة حول الحكم والارتباك الحاصل داخل البيت الحاكم وضعف الجيش البحري والبري، أرادوا احتلال البلاد الطرابلسية وإرجاعها لسيادتهم كما حصل سابقًا.[2]

2-الاستعدادات الإسبانية.

أدرك الإسبان حقيقة الخطر المغاربي عامة والطرابلسي خاصة بعد المعارك العديدة التي جرت بين فرسان مالطة وصقلية من جهة وإيالة طرابلس الغرب من جهة أخرى، بالرغم من الخسائر التي تكبدها الرياس الطرابلسيين، على يد المالطيين في شهر سبتمبر 1678م، بقيادة الفارس البرتغالي دون جيوفاني كوريا دي سوسة «G.Correa de susa» في معركة عنيفة ودامية بالقرب من جزيرة قبرص، أين استطاع المالطيون إطلاق سراح 11 عبدًا مسيحيًا وأسر 144 بحارًا طرابلسيًا كانوا على متن مركبين تم إغراقهما[3]، ومع ذلك لم يستسلم البحارة

1- أبو العباس أحمد بن محمد ناصر الدرعي: المصدر السابق، ص 178.

2 - النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 259.

3- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 298.

الطرابلسيين الذين زاد نشاطهم خلال هذه الفترة بالرغم من ضعف قطع أسطولهم[*] التي كانت دائمًا عرضة للهجمات الفرنسية على وجه الخصوص والأوربية على وجه العموم.

موازاة مع الهجمات المالطية الصقلية المتتالية، ونظرًا لعدم قدرة البحريتين على حسم الصراع، قررت السلطات الإسبانية الدخول مباشرة في الصراع ضد الإيالة الطرابلسية بدل الحرب بالوكالة التي تكفل بها المالطيين والصقليين، لذلك جهزوت أسطولاً بحريًا مكونًا من 22 سفينة حربية لاحتلال طرابلس الغرب.[1]

3-الاستعدادات الطرابلسية.

كانت الإيالة الطرابلسية في هذه المرحلة تعيش أيامًا صعبة نتيجة الحملات الفرنسية المتتالية، وانشغال القادة العسكريين والسياسيين في إرضاء الحكام الفرنسيين، فيما كانت البحرية الطرابلسية لوحدها في مواجهة التحديات الخارجية، فكان الطرابلسيين في غفلة من أمرهم عن الخطر الإسباني[2]، الذي انقطع لمدة طويلة عن بلادهم، فكان سببًا في طمأنينة أهل البلاد وركونهم للتكاسل ناسين أو متناسين أن الإسبان لن يهدأ لهم بالاً حتى يعودوا إلى طرابلس الغرب مرة أخرى، زاد الوضع خطورة ضعف الجوسسة الطرابلسية التي لم تكن في مستوى هذا التحدي، لأنها لم تكتشف الحملة الإسبانية مبكرا، وبالتالي لم يتم الاستعداد جيدا لصدها والذود عن البلاد.

---

* – نقل لنا شارل فيرو تقريرًا فرنسيًا للقناصل، عن عدد قطع الأسطول البحري الطرابلسي الذي بلغ عدد قطعه 11 سفينة حربية جهادية، ومن بضعة مراكب وثلاثة قوادس غليونية ذات مجاديف كان تفصيلها كما يلي:

نوع السفينة	عدد الأطنان	عدد الرجال	عدد المدافع
سفينة الأميرالية	450	540	44
سفينة نيابة الأميرالية	400	500	46
سفينة الجواد الطائر	400	480	38
سفينة التنين	370	400	38
سفينة البنتر	450	450	36
سفينة الشمس	430	500	40
سفينة القديسه كلير Sainte- Claira	300	350	44
سفينة أكتاActa	270	250	26
سفينة السيدة السوداء	250	230	30
سفينة القديس أنطوان Sainta-Antoine	200	200	18
مركب	-	40	06

للاستزادة ينظر: شارل فيرو: المرجع السابق، ص 210.

1– أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي : المصدر السابق، ص 178.

2– النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 259.

4-وقائع الحملة ونتائجها.

4-1-وقائع الحملة.

قبل التفصيل في وقائع هذه الحملة يجب الإشارة أننا أثناء إنجاز هذا البحث واجهتنا مشكلة كبيرة، بسبب تضارب المصادر والمراجع الأجنبية والطرابلسية في نقل وقائع هذه الحملة، فهناك من نسب هذه الوقائع التاريخية للحملة الفرنسية على طرابلس الغرب في سنة 1096هـ/1685م، وتزعّم هذا الرأي شارل فيرو ومترجم الحوليات الليبية محمد عبد الكريم الوافي، فيما ضربت العديد من المصادر صفحًا من الزمن وسكتت عن نسبة هذه الوقائع لأصحابها الحقيقين، مستعملة فقط لفظ الكفار أو النصارى أو الإفرنج، لذلك حاول كل طرف الاستدلال بهذه المصادر لتأكيد أن الحملة فرنسية أو إسبانية.

ومن جهتنا حاولنا قدر المستطاع البحث الجيد والتمحيص قبل نقل هذه الوقائع ونسبتها لمصادرها الحقيقية، حتى نستطيع ترجيح إحدى الروايتين التاريخيتين، ونقلها بكل أمانة علمية أو على الأقل تصحيح خطأ تاريخي بما توفر لدينا من أدلة يمكن الاعتماد عليها.

نقل شارل فيرو في حولياته وقائع تاريخية لحملة فرنسية كانت سنة 1685م، وأثناء استدلاله عن فضاعة وقوة هذه الحملة، أراد الاستدلال بإحدى الروايات التاريخية التي نقلها حسبه الحاج المراكشي أبو سالم العياشي الذي وصل إلى طرابلس مع قافلة من الحجاج متجهة إلى مكة، فكان العياشي شاهد عيان على الحملة الفرنسية ضد الطرابلسيين، ومن ثم فإنه رسم الصورة التي كانت عليها طرابلس أثناء القصف الفرنسي.[1]

ويمكننا قطعيًا تفنيد هذه الرواية التي نسبت إلى العياشي الذي كانت رحلته ما بين 1601م/1603م، لذلك فإن هذا الاستدلال خاطئ ولم يكن أبدًا شاهد عيان على حملة 1685م، ثم أن العياشي توفي سنة 1090هـ/1678م أي قبل هذه الحملة بحوالي سبع سنوات فكيف لميت نقل رواية تاريخية؟

إلاّ أن ما يمكن توضيحه للأمانة العلمية أن مترجم الحوليات الليبية محمد عبد الكريم الوافي صحح هذا الخطأ وأقر بأن النص لأحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الذي كان فعلا شاهد عيان على حملة للنصارى كما قال هو ذاته، ومع ذلك وقع هو أيضًا في خطئ تاريخي عندما أسند هذه الرواية للاستدلال على الحملة الفرنسية وليس الإسبانية، خاصة أنه أثناء نقل الترجمة للعربية أشار إلى ما يثبت إلى أنها حملة إسبانية وليس فرنسية حيث يقول

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 213.

شارل فيرو في حولياته، نقلاً عن ناصر الدرعي وليس العياشي كما كان يظن «.... **من إظهار الجزع والخوف والجبن للصقليين النصارى...»**.[1]

إن لفظ الصقليين يعني مباشرة الإسبان، لأن صقلية وفرسان مالطا كانتا في هذه الفترة تابعان رأسًا لإسبانيا، بل معظم الحملات الإسبانية المالطية كان يحضر لها من صقلية بسبب قرب المسافة بينها وبين طرابلس، ولم نسمع مطلقًا خلال الفترة الحديثة أن فرنسا قامت بالتحضير لحملة على بلاد المغرب منها، زد على ذلك العداء المستمر بين فرنسا وإسبانيا يمنع تعاون الصقليين مع الفرنسيين، على عكس ما ذهب إليه مترجم الحوليات الذي قال أن المقصود بالصقليين هم الفرنسيين وهو خطأ تاريخي أيضًا.

ونظرًا لحصولنا على نص الرحلة الناصرية المحقق من طرف عبد الحفيظ ملوكي قبل قراءة النص عند شارل فيرو وجدنا أن ناصر الدرعي تكلم عن حملة بدون ذكر هل هي إسبانية أم فرنسية؟، خاصة وأنه استعمل كلمة الكفار وكلمة النصارى، حيث قال: «...**وقد استولى عليها النصارى أيضا في القرن العاشر... وفي رحلتنا للحرمين الشريفين سنة ست وتسعين وألف وحاصرها الكفار، دمرهم الله تدميرًا...»**.[2]

وقد دأبنا أن جل المصادر التاريخية المغاربية تصف الإسبان بالنصارى والكفار، لذلك نعتقد أن ناصر الدرعي تكلم عن الحملة الإسبانية، وهذا ما أكده لنا عبد الهادي التازي في تحقيق كتاب أمير مغربي في طرابلس أو طرابلس من خلال رحلة الإسحاقي حيث قال: «... **وهذا أبو العباس الناصري الذي قام بآخر رحلاته عام 1121هـ/(1709-1710م) يزود المكتبة المغربية بدقائق عن ليبيا سواء عند مداهمة الإسبان لمدينة طرابلس أيام ولاية الحاج عبد الله الأزميرلي سنة 1096هـ/1684-1685م) أو ثورة البلاد على خليل باشا...»**.[3]

ومن خلال هذا النص فإن عبد الهادي التازي أقر أن ناصر الدرعي نقل وقائع الحملة الإسبانية ولم يأت بتاتًا ذكر الحملة الفرنسية، خاصة وأننا نعتقد أن التازي محَّصَ جيدًا في هذه الحملة قبل الفصل في أنها إسبانية.

أما ابن غلبون فإنه أيضًا لم يوضح لنا هل هذه الحملة إسبانية أم فرنسية، لكنه استعمل كلمة الإفرنج التي نعلم أنها في الغالب تطلق على المسحيين بصفة عامة وليس محددة بجنس معين، إلاّ أن الطاهر أحمد الزاوي محقق هذا المصدر المهم في تاريخ طرابلس وضّح الإشكال وقطع الشك باليقين، لأنه ذكر أن حكومة إسبانيا هي

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 213.

2 - أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: المصدر السابق، ص 178.

3- عبد الهادي التازي: المرجع السابق، ص38.

المقصودة بهذه الحملة التي أشار إليها ابن غلبون بقوله: «...**وفي أيامه سنة 1096هـ ست وتسعين وألف أواخر جمادي الآخرة أتى الإفرنج* بالبونية لأخذ البلد ورموها بالمدافع...**».[1]

ومواصلة لتوضيح هذا الإشكال الواقع في المصادر والمراجع التاريخية التي نقلت هذه الوقائع ننقل نصًا آخر لابن غلبون في نفس المصدر عندما تكلم عن الحملة الثانية سنة 1102هـ/1691م، حيث قال: «... **وقبل دخوله بها حركت محمد الإمام همته لنقض الصلح الذي كان فعله عبد الله وأصهاره بنو فشلوم مع الإفرنج فنقضه...ويعد الرماة بالعطاء الكثير فرمى بعضهم هوان البونية بكرة فتفرقع الهوان فقتل من حوله من النصارى...**».[2]

من خلال هذا النص نقول أن ابن غلبون استعمل كلمة الإفرنج ثم عاد واستعمل كلمة النصارى وهي دلالة على الإسبان وليس الفرنسيين، خاصة وأن النصارى في لغة المصادر المغاربية تستعمل في نعت الإسبان.

- عندما حصلنا على هذه المعلومة رجعنا إلى العديد من المصادر والمراجع ولم نجد أن فرنسا قامت بحملة عسكرية على طرابلس الغرب سنة 1691م.
- ولم نجد أيضًا أن محمد الإمام أقام صلحًا مع فرنسا، بل أقامه مع إسبانيا سنة 1102هـ/1691م.
- ذكر الطاهر أحمد الزاوي في كتابه ولاة طرابلس أن محمد الإمام نقض الصلح الذي أبرمه عبد الله الأزميرلي مع إسبانيا سنة 1096هـ/1685م[3] واضعًا حدًا لكل التباس في هذا الموضوع، ومقرًا أن الحملة كانت إسبانية، ولم يشر بتاتًا أن محمد الإمام أقام صلحًا مع فرنسا.

أما النائب الأنصاري وهو مصدرًا مهمًا في تاريخ طرابلس فقد أكد بما لا مجال للشك أن إسبانيا هي صاحبة الحملة في هذا التاريخ بالذات 1096هـ/1685م، وليس كما ادعى شارل فيرو، ومترجم كتابه محمد عبد الكريم الوافي، وأيضًا خليفة محمد التليسي في كتابه حكاية مدينة طرابلس، وفي ذلك يقول النائب الأنصاري: «... **وقدّموا لولايتها الحاج عبد الله الأزميرلي وكان على نسج سلفه من العجز فاستبد عليه مراد بك، أيضًا ولما رأت حكومة "إسبانيا" ما حل بطرابلس من الارتباك وضعف الحامية طمعت في الاستيلاء عليها وبعثت بأسطولها...**».[4]

* – هنا أشار الطاهر أحمد الزاوي أن المقصود هي حكومة إسبانيا.

1– ابن غلبون: المصدر السابق، ص 218.

2– نفسه: ص 222.

3– الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 207.

4– النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 259.

بمقارنة بنود الاتفاق بين ما أورده شارل فيرو وما أوردته المصادر العربية، نجد البنود مختلفة تمامًا ولا مجال للمقارنة بينهما، وهذا ما يؤكد لنا أن كلى الحدثين منفصلين عن بعضهما البعض، وأهم هذه البنود ما تعلق بالأسرى حيث يقول شارل فيرو على لسان بيتيس دي لاكروا الابن «Petis de la croix fils» سكرتير ملك فرنسا وترجمانه، وقد كان في خدمة المارشال دوستري أثناء الحملة: «... **والجدير بالملاحظة هو أنهم ردوا إلينا جميع الأسرى النصارى، من فرنسيين وأجانب، والذين بلغ عددهم ألفا ومائتين وذلك دون أن نعيد إليهم نحن أيا من أسراهم، ودون أن يُنصَّ على وعد بذلك في المعاهدة التي صادق عليها جميع كبار ضباطهم ولم يسبق لهؤلاء المتبربرين أن أبرموا أية اتفاقية تتضمن مثل هذا الإجحاف بهم**...»[1]، أما ناصر الدرعي والنائب الأنصاري فقد أوردا تبادل الأسرى من الطرفين وهذا دليلا آخر على أن الحملة التي تكلمت عنها المصادر العربية هي إسبانية فيما كان شارل فيرو يتكلم عن الحملة الفرنسية على طرابلس والاختلاف بيّن واضح.

- سياق الأحداث والمعارك التي قدمها شارل فيرو وكيفية الهجوم ورد فعل الطرابلسيين، تختلف جذريًا عما نقله لنا الناصري وابن غلبون والنائب وحتى الطاهر أحمد الزاوي، والواضح من الروايتين أن الاختلاف واضح ولا مجال للمقارنة بين الحدثين، بالرغم من محاولتنا التدقيق والتمحيص، وحتى طريقة التفاوض وإجراء الصلح فيها اختلاف جذري لا يمكن المقارنة بينهم بتاتًا.
- حتى عدد السفن كان فيه اختلافا فقد ذكر شارل فيرو أن الحملة الفرنسية كانت مشكلة من 8 سفن وخمس قوادس غليونية مسلحة ومركبين من مراكب الإحراق[2]، فيما ذكرت المصادر المعاصرة أن العدد كان 22 سفينة، وهذا اختلافًا كبيرًا، حيث يكون الفرق 7 سفن، وهو عدد يمكن أن يقود حملة مستقلة لوحدها.
- بالمقارنة بين الأشهر الميلادية والهجرية من السنتين المذكورتين، نجد أن شهر جمادي الآخرة من سنة 1096هـ يوافق شهر ماي سنة 1685م، فيما ذكر شارل فيرو أن الحملة الفرنسية كانت في شهر جويلية والفرق واضح وبين ولا مجال هنا للالتباس.
- بالمقارنة بين المصادر وما قاله شارل فيرو في كتابه نلاحظ أن جميعهم اتفقوا على أن الحملة كانت في أواخر جمادي الآخرة سنة 1096هـ/ ماي 1685م[3]، وما دام أن هذه المصادر والمراجع اتفقت على نفس الشهر والسنة، فإنها كلها تثبت أن الحملة المقصود بها هي الحملة الإسبانية وليست الفرنسية بالرغم من

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 206.

2- نفسه، ص 205.

3- ابن غلبون: المصدر السابق، ص218؛ النائب أحمد بك الأنصاري المصدر السابق، ص259؛ الطاهر أحمد الزاوي، المرجع السابق، ص 202.

الخطأ الذي وقع فيه شارل فيرو، حين نسب هذه الحملة لفرنسا، خاصة وأنه مرجعًا وليس مصدرا موثوقًا به كما هو الحال عند ابن غلبون والأنصاري وناصر الدرعي.

وما يُعضّد قولنا ويكاد يقطع الشك باليقين ما نقله لنا العياشي في رحلته عندما تكلم عن احتلال الإسبان لحلق الوادي بتونس، حيث وصفهم بالنصارى تارة وبالإفرنج تارة أخرى، وفي ذلك قال: «... **وفي أيامه* كان فتح حلق الوادي ببلاد تونس المغرب بعد استيلاء النصارى عليها بسبب الاختلاف الواقع بين سلاطين المغرب من آل حفص فصار بعضهم يتقوى على بعض بالإفرنج وأطمعوهم في بلاد المسلمين، ومن العجائب أن الإفرنج كانوا أنشئوا هناك حصنا حصينا وقلعة منيعة أقاموا في استحكامها وإتقان بنائها ثلاثًا وأربعين سنة، ففتحها المسلمون صحبة الوزير المذكور** في ثلاثة وأربعين يومًا من أيام حصارها وذلك في سنة إحدى وثمانين وتسعمائة...**».[1]

من خلال ما سبق يمكننا القول أن شارل فيرو ارتكب خطئا تاريخيًا جسيمًا أولا عندما نسب هذه الرواية للعياشي وهو بعيد كل البعد عن هذا الحدث التاريخي الهام، خاصة وأن وفاته كانت سنة 1678م، والحملة كانت سنة 1096هـ/1685م، وثانيًا عندما أقر بأنها حملة فرنسية، وقد يكون شارل فيرو متعمدًا للاستدلال بهذه الرواية للبرهنة على قوة بلاده حينذاك، وإظهار مدى فزع الطرابلسيين من الأسطول الفرنسي بقيادة دوستري، خاصة وأنه فرنسيا وقنصلا سابقًا يريد أن يدافع عن بلاده بكل ما أتيح له من أدلة وبراهين، إلاّ أن الحقائق التاريخية من المفروض لا يمكن تزويرها حتى لا تعتمد الأجيال التي تنقل عنه أخطاءً تاريخية جسيمة كما فعل، خاصة ونحن نعلم أن جل المؤرخين الأوربيين يحاولون إظهار الإيالات المغاربية على أنها همجية وعدوانية، وعندما تتعرض للحملات الأوربية عادة ما تنهزم وتخضع لرغبات الأوربيين كما فعل شارل فيرو في كتابه هذا.

ومع ذلك نحن لا نستغرب مثل هذه الأمور من الكتاب والمؤرخين الأوربيين، إنما نستغرب ذلك من بعض المؤرخين الطرابلسيين الذين أبقوا على هذا الخطأ الفادح في كتابة تاريخهم الحديث، خاصة مترجم الحوليات الليبية الذي لم يقوم بدوره في تنوير الأجيال القادمة حول تاريخنا الحديث كمورث مشترك بين جميع مكونات هذه الأمة، وحتى الشيخ طاهر أحمد الزاوي عندما شرح ذلك في تحقيق كتاب ابن غلبون لم يلعب دورًا حاسمًا في إظهار هذه الحقيقة بل اكتفى فقط بالإشارة وليس توضيح وتبيان هذا الخطأ التاريخي، إذا ما استثنينا في ذلك النائب أحمد

* – يقصد السلطان العثماني سليم الأول.

** – المقصود علج علي وسنان باشا وقد ذكرهما في السطر التاسع من هذه الصفحة.

1- أبو سالم العياشي: المصدر السابق، ج1، ص 144.

بك الأنصاري الذي كان معاصرًا لشارل فيرو، إلاّ أن الفرق بينهما أن الأنصاري يريد كتابة تاريخ بلاده بأمانة علمية ونقل الحقائق كما هي للأجيال القادمة فيما أراد شارل فيرو تغيير التاريخ والعمل على تشويهه.

ولذلك وإحقاقًا للحق وللأمانة العلمية ومحاولة منا لإظهار الحقائق التاريخية كما كانت، وبعدما قدمنا من أدلة نقول أن هذه المعلومات التي أوردها جميع من نقلنا عنهم، المقصود بها الحملة الإسبانية سنة 1096هـ/1685م وليس الحملة الفرنسية، خاصة وأن أحمد بن محمد ناصر الدرعي كان شاهد العيان الوحيد الذي نقلنا عنه، أما بقية المؤرخين فهم متأخرين عنه تمامًا، بما في ذلك شارل فيرو والذي كان لسانه وفكره ومشروعه فرنسيًا، ونحن نتساءل كيف نقل النص من العربية إلى الفرنسية، هل كان يتقن العربية؟ ولماذا لم يترجم الكتاب إليها؟ وإن كان يتقنها فلماذا لم يبحث جيدًا؟ أم ترجم له؟ وظلل من طرف أحد العرب؟ وهل الذي ترجم النص ونسبه إلى العياشي تعمد ذلك؟ أم لم يجهد نفسه في البحث والتنقيب عن الحقائق التاريخية، وبذلك ضيع جزءًا هامًا من تاريخ طرابلس الغرب يتعلق بالعلاقات الإسبانية الطرابلسية في العصر الحديث، خاصة وأن هذه الحملة ترتبت عنها نتائج مهمة جدًا في الجانب الدبلوماسي لم يسبقها إليها أي إيالة مغاربية أخرى.

وبالعودة إلى وقائع الحملة في أواخر جمادي الآخرة 1096هـ/جوان 1685م ظهرت على سواحل طرابلس الغرب السفن الإسبانية، وابتداءً ظهرت 3 سفن ثم بدأت البقية تصل تباعا إلى أن أتم الأسطول وصوله، حيث قدر عدد قطعه بـ22 سفينة، ومباشرة بعد وصوله بدأ في قصف المدينة بالمدافع، خاصة وأن الحاميات لم تكن مجهزة بالقدر الكافي لنقص المدافع والجنود[1]، هذاما سهل عملية القصف، الذي تواصل لمدة أربعة أيام متتالية، محدثًا بذلك هلعًا كبيرًا وتدميرًا هائلاً في مباني المدينة ومنشآتها، مما اضطر الأهالي إلى الفرار بعيدًا عن المدينة خوفًا من الهلاك، ووصفا لهذه الأحداث المفزعة نقل لنا أحمد بن محمد ناصر الدرعي نصًا معبرًا عن حالة الخوف والفزع الذي أصاب أهل طرابلس الغرب قيادة وسكانًا، خاصة وأنه شاهد عيان على تلك الأحداث، وفي ذلك قال: «...**وفي رحلتنا للحرمين الشريفين سنة ست وتسعين وألف وحاصرها الكفار، دمرهم الله تدميرًا، وذلك أنّ يوم نزولنا بها بمنزل الركب بسبب البحر، إذا بسفن ثلاث ظهرت على متن البحر، ثم تتابعت الفلك في اليوم نفسه إلى أن كملت اثنتين وعشرين سفينة فأقاموا عليها دمرهم الله، بقية الثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وأهل المدينة في تلك المدة في هولٍ عظيم، ونكد جسيم، وعناء شديد، وليس فيهم**

1- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 259.

مدبر ذو رأي حميد، أو نظير سديد، بل أخذوا في نقل أمتعتهم من المدينة لخارجها وحريمهم إلى سوانيهم بالمنشية...».[1]

من خلال هذه الرواية التي أوردها أحمد بن محمد ناصر الدرعي يمكننا إبداء بعض الملاحظات:

- أن المغاربة كانوا يدًا واحدة على الكفار، بالرغم من اختلاف الحكام فيما بينهم.
- شجاعة الحجاج وذلك يظهر من خلال مشاركتهم في الجهاد ضد النصارى بالرغم من نيتهم أداء فريضة الحج، وقد أبوا إلاّ أن يشاركوا إخوانهم الطرابلسيين في هذه المحنة التي ألمت بهم، وحاولوا المشاركة في ردّ العدوان على طرابلس وأهلها، مثبتين بذلك أواصر المحبة والأخوة بين السكان المغاربة، في غياب كلي للحكام سواء المغاربة أو سلاطين الدولة العلية.
- وصول سفن الأسطول الإسباني متفرقة، حيث وصلت في الدفعة الأولى ثلاثة منها، ثم تتابع وصول البقية، دليلا على أن هذه السفن تعمد قادتها ذلك؛ حتى يروا ردّ فعل الطرابلسيين اتجاهها وهل هم في استعداد أم في غفلة من أمرهم؟
- حاول الإسبان الإجهاز على مدينة طرابلس وأهلها، وذلك بقصفها لمدة أربعة أيام متتالية، رغبة منهم في تدمير وسائل الدفاع وإلحاق أكبر دمار بالمدينة، لإرباك الطرابلسيين حكامًا ومحكومين على أمل استسلامهم أو الفرار من المدينة، التي كان أملهم كبيرًا جدًا في احتلالها من جديد أو على الأقل إمضاء صلح مع حكامها يرضي طموحاتهم ويحقق أهدافهم التي جهزوا من أجلها هذه الحملة.
- أصاب الطرابلسيون الخوف والفزع جراء هذه الحملة المفاجئة والقصف الشديد من طرف السفن الإسبانية.
- غياب قيادة حكيمة تتصرف بروية وتعقل في مثل هذه الوضعيات الحرجة والمفاجئة، تاركة السكان يتصرفون بفوضى عارمة، هذا ما زاد من معاناتهم جراء القصف المتواصل والتدمير الذي أصاب مدينتهم.
- فرار السكان من المدينة بدل توحيد صفوفهم والتعاون مع قيادتهم وجيشهم لمواجهة العدو، دليلا على الهوة التي كانت موجودة بين حكام طرابلس ورعيتهم.

أمام هذه الأوضاع المتأزمة بسبب تواصل القصف وضعف المقاومة نتيجة لضعف الجيش وتخاذل القيادة وفرار السكان، قرر أعيان المدينة الاتصال بالباشا عبد الله الأزميرلي لتدارس الأوضاع والخروج بقرارات تكون في

1- أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: الرحلة الناصرية: المصدر السابق، ص 178؛ الحسين بن محمد الورثيلاني: بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار -الرحلة الورثيلانية-، تحقيق محمد بن أبي شنب، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1394هـ/1974م، ص 151.

صالح العباد والبلاد، ولا يتأتى ذلك إلا بالدخول مع الإسبان في مفاوضات من أجل التوصل إلى حل سلمي يرضي الطرافان، لأن البلاد أصبحت في عجز تامٍ على المقاومة ورد العدوان، خاصة بعد الدمار الذي أحدثه قصف الإسبان[1].

إلاّ أن الملفت للانتباه هو غياب قيادة البلاد عن هذه الأحداث الجسيمة، لأنها بقيت عاجزة عن نجدة رعيتها والدفاع عنها، وإيجاد الحلول لهذه المعضلة، تاركة البلاد والعباد في عناءٍ شديد ونكد عظيم، وإلاّ بماذا نفسر قدوم الأعيان لمناقشة هذه الوضعية الخطيرة مع عبد الله الأزميرلي، الذي بلغ من الكبر عتيا في ذلك الوقت، وكان عاجزًا عن إيجاد الحلول، أو ربما كان تحت رحمة معاونيه الذين أهملوا شؤون الرعية التي بقيت تواجه مصيرها لوحدها، وفي ذلك يقول ابن غلبون الطرابلسي عن هذا الحاكم وكيف غُلب على أمره وأصبح ألعوبة في يد غيره: «... **وكان عبد الله هذا ضعيف النكاية أصفر الفؤاد**[2]**، والغالب على أمر المدينة عبد الله ومراد بنو فشلوم بزلتين: عمر و محمود...**».[3]

وقد نقل الحسين بن محمد الورثيلاني في رحلته نصًا أبان فيه عن معارضة الحجاج المغاربة للسياسة المتبعة في مواجهة الإسبان والفرار من المدينة بهذه الطريقة، وتركها عرضة للقصف والدمار ولوم أعيانها على عدم اتخاذ قرارًا حازمًا في مواجهة الحملة، وفي ذلك قال على لسان ناصر الدرعي: «... **وكما رأينا ذلك تكلمنا مع وجوههم على فعلهم الغير اللائق بهم فيما يبدو لنا فيه من إظهار الجزع والجبن لأعداء الله الكفرة، اللئام الفجرة، وقلنا لهم إن هذا الصنع الذميم مما يغريهم عليكم فأصروا ولا تظهروا لهم الوهن والجبن... فقالوا هذا والله ليس بجبن، وإنما حملنا على ما رأيتم ما أتوا به مما لا طاقة لنا به من البُنبَة**[*]**، يضربون بها ولا تقع على شيء كائنا ما كان إلاّ وهدته ودكته...**».[4]

1- الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 202.

2- جبان لا يستطيع مواجهة الأعداء بقوة وحزم.

3- ابن غلبون الطرابلسي: المصدر السابق، ص 218.

* - المقصود بها القنابل، وربما عجز الكثير من أصحاب المصادر العربية عن شرح هذه الكلمة الفرنسية وإيجاد مرادفها في اللغة العربية، لأن كل المصادر في ذلك الوقت تطلق عنها هذه اللفظة، بالرغم من أن ناصر الدرعي متحكم جيد في اللغة العربية من خلال كتابه هذا المصدر المهم جدًا في تاريخنا الحديث.

4- الحسين بن محمد الورثيلاني: المصدر السابق، ص 151.

وفي أثناء هذه الأوضاع التي كان يعيشها الطرابلسيين اجتمع عبد الله الأزميرلي مع وفد من أعيان المدينة يتقدمهم عبد الله الرجيبي وعمر فلشوم وبنو المكنَّى وشرحوا له ما يعانيه السكان[1] وما حل بالمدينة من دمار وخراب، وتناقشوا معه في كيفية الخروج من هذه الأزمة، وقد انقسم المجتمعون إلى قسمين:

- قسم يريد مهادنة الإسبان ودفع المال في مقابل إقامة صلح معهم؛ وقد تزعم هذا الرأي عبد الله الرجيبي وعمر ومحمود بنو فلشوم وبنو المكنّى.
- قسم آخر يريد مواصلة المقاومة والدفاع عن المدينة، ولو اضطر الأمر إلى الخروج نهائيًا من المدينة وبناء مدينة جديدة، وقد تزعم هذا الرأي مراد بك الذي كان له نفوذًا قويًا على الباشا عبد الله الأزميرلي، وفي ذلك يقول ابن غلبون: «....**واتفق أمرهم على أن يعطوا مالاً للإفرنج ويكفوا عن الرمي فردوا الأمر على عبد الله فوافقهم، وكانوا أتو البلاد على حين غفلة من أهلها، ثم ردوا الأمر على مراد فأبى عليهم فراجعوه فرد عليهم رأيًا هو أنكم تتركون البلد وأنا أبني لكم مدينة بالهاني* عظيمة القدر أحسن منها، لا يلحقها أذى الإفرنج وأستعمل لغزوهم أسطولاً ويكون بناؤها من مالهم... فأبوا عليه وألحوا فوافقهم على ذلك...**».[2]

من خلال هذا النص يمكننا استنتاج العديد من الوقائع:

- أن أعيان المدينة جاءوا إلى الباشا عبد الله الأزميرلي من أجل الموافقة على عقد صلح وليس تدارس الأوضاع وإقناعه بمواصلة المقاومة.
- أن الاجتماع الذي حدث كان من أجل مناقشة مهادنه الإسبان وليس تدعيم السكان والجيش المدافع عن المدينة.
- موافقة باشا طرابلس على عقد الصلح دليلاً على ضعفه وعدم تحكمه في زمام الأمور، وإلا بماذا نفسر موافقته، وفي نفس الوقت طلب من الأعيان التوجه لمراد بك لأخذ رأيه والموافقة على عقد الصلح.
- المكانة المرموقة التي كان يتمتع بها مراد بك، خاصة وأن عبد الله الأزميرلي كان كبير السن قليل العزيمة ضعيف أمام خصومه كما وصفته المصادر.
- رأي مراد بك بترك المدينة والفرار إلى مكان آخر، ووعده ببناء مدينة بالهاني بدل طرابلس الغرب يقودنا إلى طرح العديد من الأسئلة التي لابد منها:

1- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 259.

* - مكان يقع بالجنوب الغربي من مدينة طرابلس بحوالي 15 كلم.

2 - ابن غلبون: المصدر السابق، ص 218.

- على أي أساس اتخذ مراد بك هذا القرار؟
- كيف له أن يرفض الاتفاق مع الإسبان؟ وفي نفس الوقت يقرر إخلاء المدينة من سكانها وحكامها وتركها للعدو؟
- هل كان يريد احتلال المدينة من طرف الإسبان؟ وإن كان كذلك فكيف لقادة الجيش وحاكم طرابلس والأعيان يسكتون عن مثل هذا الفعل الذميم؟
- هل كانت نيته سيئة تجاه طرابلس وأهلها؟ أم أنه اقترح ذلك عن حسن نية بدون التفكير في عواقب ذلك؟ وكيف لقائد في الجيش يفكر بهذه الطريقة؟
- هل كان يريد إثارة فتنة بين الرعية وحكامها في مثل هذه الظروف الصعبة على أمل الاستفراد بحكم البلاد؟
- وهل بناء عاصمة جديدة هو الحل لوقف الهجمات الإسبانية خاصة والأوربية عامة؟ وهل كان يفكر في مصلحته الشخصية بدون تفكير في الطرابلسيين الذين كانوا أكبر المتضررين من هذه الحملة؟
- ثم أنه لما اقترح بناء عاصمة جديدة لم يقر بتحرير مدينة طرابلس فيما بعد، بل كل ما قاله هو بناء المدينة الجديدة بأموال الإسبان التي سوف يغنمها من غزوهم بعد بناء أسطولاً بحريًا يكون في خدمة الطرابلسيين حسبه.
- هل فكر عندما اقترح هذا الاقتراح كم سيدوم بناء المدينة الجديدة؟ وكم سيكلفه ذلك من جهد ومال؟ وما مصير السكان قبل بناء هذه المدينة التي اقترحها؟

في هذه الأثناء التي كان فيها المجتمعون يتدارسون كيفية إقامة الصلح مع الإسبان وما هو ثمن ذلك؟، كانت هناك ملحمة جديدة يقودها السكان المحليين رفقة بقايا الجيش الطرابلسي وبعض حراس الأبراج بالرغم من قلة إمكانياتهم التي لا يمكن مقارنتها بتاتًا مع مكان يملك الإسبان، الذين واصلوا قصفهم ليلة السبت وصباح الأحد، خاصة بعد أن تصد لهم المدافعين الموجودين بالبرجين؛ المندريك وحصن درغوت باشا.

ومع ذلك واصل الإسبان قصف المدينة مما اضطر قادة المقاومة إلى إتباع استراتيجية جديدة في مواجهة هذه الحملة الشرسة؛ أساسها:

- إخراج النساء والأطفال وغير القادرين على الجهاد والمقاومة إلى خارج المدينة بمسافات طويلة حتى لا يصابوا بالأذى جراء قصف السفن الإسبانية، فيما رجع المقاومون إلى المدينة وسواحلها لمواجهة الإسبان، وفي نفس الوقت يؤازرون المدافعين الموجودين بالأبراج الذين استبسلوا في المقاومة ورد الهجمات مفضلين

الاستشهاد بدل حياة الذل والمهانة وهذا ما نقله لنا ناصر الدرعي الذي وصف لنا هذه الأحداث بدقة متناهية، خاصة وأنه كان أحد الفاعلين فيها، حيث قال: «... **والمسلمون في هذه الليالي كلها لا ينامون بل يحرسون على البحر ويطوفون حوله ونحن ركبنا معهم في ذلك مستهلين بالشهادة، رافعين أصواتنا بالتكبير، معلنين بالصلاة على البشير النذير، عليه أفضل الصلوات وأزكى التحيات من الملك القدير وعلى آله وصحابته ذوي المنهج الواضح المنير، فلما كان بعد صلاة العشاء، ليلة السبت، ضرب الكفرة –دمرهم الله– بمدافعهم، فرأينا من ذلك ما لم نره قط ولا سمعنا به، ترى البارود حين يخرج من بخش المدفع فإذا بكورة محماة تحكي الشهب خرجت منه فصعدت، ثم يرمون بأخرى وترتفع أكثر من الأولى، ثم تتدلى هابطة، فإذا وقعت بالأرض سمع لها صوت هائل تصم به الآذان فتتصدع في الموضع الذي وقعت فيه وتغرق، ولا تقع على بناء إلاّ وهدته، ولا على بسيط مستو إلاّ وحرفته وحفرته ولا على علية أو أسطوانة إلاّ وهدتها، ولا على شجرة إلاّ وأحرقتها أو قلعتها، فتمكث في أعماق الأرض سويعة فتكبر فيُسْمَع لها صوت هائل أعظم من الأول، ونحن في ذلك رافعي الأكف بالذلة والافتقار والضحية في كل الأحوال هم الأبرياء العزل وبلادهم التي استباحها الغرباء والمحتلين والعملاء... والخضوع والتضرع إلى الله تعالى الليل كله، ولا نكتحل بنوم قط، وما خرج مدفع من مدافعهم إلاّ وظننا أنه يقع علينا، فتارة تقع حداءنا، وتارة تمر علينا، وأكثر ما تقع بالمدينة أو البحر أو قرب المدينة خارجًا، وفي بعض الليالي، وهي من الليالي الهائلة أخذوا في الضرب الليل كله إلى الصباح بل إلى الضحى، لا يفترون عنه ساعة، وضربوا فيها أخبرني بعض فقهاء البلد –بأزيد من تسعمائة كرة– فلما رأينا هولهم العظيم، ومعنا النساء والصبيان –وفيهن الحوامل– فخشين عليهن أن يقذفن ما بأرحامهن مما يُعَانين، فتحولنا لبعض البساتين المسوّرة وعند الفيء عادوا للرمي إلى ضحى، ولما قرب الزوال زحفوا للمرسى فعاقبهم من البرجين الذين على البحر من المرابطين بهما البائعون أنفسهم من الله، وقط لا يبخلون من حارس في السلم أو الحرب أوردوهم على أعقابهم بما قذفوهم به من الكور والمدافع حتى كسروا لهم صندالاً صغيرًا فنكصوا على أعقابهم، وولوا أدبارهم والحمد لله رب العالمين..»**.[1]

1– أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: المصدر السابق، ص 180.

ما يمكن ملاحظته في خضم هذه الأحداث غياب سلاطين الدولة العلية العثمانية وعدم اتخاذ أي إجراء من شأنه إيقاف الهجمات الفرنسية والإسبانية على إيالة طرابلس الغرب، مما يدل بوضوح على إهمالهم لشؤون البلاد والعباد، وترك الأمور بيد الحكام الذين فضلوا مصالحهم الشخصية وفي ذلك يقول أحمد الطاهر الزاوي «...**مما يدل دلالة واضحة على إهمال الحكومة العثمانية شأن طرابلس، وترك أمرها لأولئك الأفاقين الذين كانت ترسلهم إليها يتصرفون فيها كما تسول لهم نفوسهم الشريرة، ولا يخافون رقيبا**...».[1]

فيما كانت الرعية تأتي من كل حدب وصوب بقيادة بعض العلماء والعاملين على الأبراج للمقاومة والدفاع عن المدينة بكل عزم وقوة متوكلين على الله سبحانه وتعالى ومتسلحين بالإرادة والعزيمة، مفضلين الموت على أرض بلادهم بدل الخنوع والاستسلام الذي كان يجري التحضير له على قدم وساق بدار الإمارة بطرابلس، وقد جاء الطرابلسيون من كل مكان آملين في طرد الإسبان من بلادهم وردهم خائبين، وفي ذلك يقول ناصر الدرعي «... **فكثر اللغط والعويل بالبر فجاء أهل الإسلام من كل وجهة مشاة وركبنا بعَدِدِ وعُدَدِ، كل بحسب وسعه، فاكفهرت وجوه الأبطال، وكحلت شفاه الرجال، وشمروا للنزال، وتهيئوا للدفاع والقتال، واحمرت الحدق فكسا الكفرة الفَرِق*، فارتحلوا إلى أبعد مكان، فأبعدهم الله وأسحقهم وأزلهم وأقلقهم، فكاد الإسلام يقتحم بأهله البحر إليهم، وأشد الناس حنقًا** عليهم الحجيج فعملوا على التجار والنضال والبراز، ولولا البحر لأراهم الله في أهل الإسلام ما يسيئهم، فكتب كلٌّ وصيّته وأعد الشهادة مغنمًا وفواتها مغرمًا، كل يرجو أن تخرج الكفرة كليا، واجتمعت آلاف مؤلفة من أهل الإسلام من أجل الدفاع والقتال، وما ردَّ الكفرة من الخروج إلاّ ما رأوا من شدة الحزم، وقوة العزم، وأبلغ الغيظ على أهل الكفر والظلم**...».[2]

من خلال ما نقله لنا ناصر الدرعي يمكننا استنتاج العديد من الوقائع التاريخية التالية:

- عندما أحس الطرابلسيون بالخطر يداهم بلادهم، قرر العديد من الأعيان والعلماء استصراخ الناس في جميع أنحاء طرابلس للدفاع عن مدينتهم التي أصبحت عرضة للتدمير نتيجة القصف المتواصل وبدون انقطاع.

1- الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 202.

* - الخوف والجزع.

** - حقدًا وكرهًا لهم.

2- أبو العباس أحمد بن محمد ناصر الدرعي: المصدر السابق، ص 180.

- استجابة الطرابلسيين بسرعة لهذا نداء، الذي حرك فيهم مشاعر الوحدة والألفة فقدموا من كل مكان راجلين وراكبين كل يحمل سلاحه مهما كان بسيطًا لاستعماله في الجهاد والمقاومة لإنقاذ بلادهم من الضياع.

من خلال النص يمكننا القول أن الإسبان لم يستطيعوا النزول إلى البر، وكل ما فعلوه قصف المدينة عن طريق المدافع الموجودة بالسفن.

- لما رأى الإسبان جموع الناس من الطرابلسيين القادمين للدفاع عن مدينتهم ولوَّ الأدبار مخافة من الهلاك أو الانهزام أمام هذه الجموع الغاضبة.
- الغياب الشبه الكلي للجيش الإنكشاري والبحارة الطرابلسيين، إذا ما استثنينا المرابطين بالأبراج الذين كان لهم دورًا كبيرًا في رد هذه الحملة بمساعدة السكان المحليين بقيادة العلماء وبعض الأعيان.
- مشاركة الحجيج المغاربة في رد العدوان الإسباني وهذا دليل عن التآزر والتكاثف الذي تحلى به السكان تجاه بعضهم البعض بالإضافة إلى حب الجهاد الذي اشتهر به الحجاج المغاربة.
- غياب السلطة الحاكمة بطرابلس التي كانت تبحث في كيفية إبرام الصلح مع الإسبان، يدعمها في ذلك بعض الأعيان والذين لم يكلفوا أنفسهم عناء مشاركة إخوانهم في هذه المصيبة التي أَلَمَّت بهم، وراحوا إلى الحكام لبحث مسألة السلم، وليس طلب المعونة للدفاع والمقاومة وإنقاذ مدينتهم من شبح الاحتلال الذي كان على الأبواب.
- عدم نزول القوات الإسبانية إلى البر دليلاً على قلة عددها.
- أن لبسالة السكان المحليين وشجاعتهم الدور الحاسم في إنقاذ مدينتهم من الاحتلال وإرغام الإسبان على الخضوع لرغبة حكام طرابلس في إقامة الصلح.

عندما كانت القوات الإسبانية تقصف المدينة وبكل ما أوتيت من قوة لمدة فاقت السبعة أيام، قدم الطرابلسيون أروع الأمثلة في الدفاع عن مدينتهم ملقنين الحكام دروسا في معنى الجهاد وحب البلاد التي كانت بحاجة لكل واحد من أجل إنقاذها من الضياع والهلاك الذي أوشك أن يحل بها.

في هذه الأثناء قرر المجتمعون بقصر الإمارة بطرابلس عرض الصلح على الإسبان في مقابل دفع غرامة مالية، واستقر رأي الأكثرية على أن يدفعها السكان المحليين[1] من أجل إنقاذ العباد والبلاد من الاحتلال.

1- الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 202.

بعد اتفاق الأغلبية على عقد الصلح مع الإسبان، ذهب وفدًا عنهم لمقابلة قادة الأسطول الإسباني والتفاوض معهم حول شروط الصلح ومقابله، وقد وافق الإسبان على عدم احتلال مدينة طرابلس في مقابل دفع غرامة مالية والاتفاق على بنود الصلح الذي[1]، والذي يعتبر أول اتفاق يحدث بين قيادتي الإيالة الطرابلسية والإمبراطورية الإسبانية، منذ احتلال ملوك هذه الأخيرة للبلاد المغاربية ابتداء من سنة 1505م وإلى غاية سنة 1685م، وبذلك يعتبر حدثًا بارزًا في تاريخ العلاقات المغاربية الإسبانية خلال العصر الحديث.

5-أهم بنود الصلح الإسباني الطرابلسي سنة 1096هـ/1685م.

- تنسحب القوات الإسبانية من طرابلس وعدم احتلالها في مقابل دفع غرامة مالية يدفعها حكام طرابلس.[2]
- يدفع حكام الإيالة الطرابلسية للسلطات الإسبانية مقابلاً ماليًا يقدر بـ 200 ريالة كرميلية.
- إقامة الصلح بين الإيالة الطرابلسية والإمبراطورية الإسبانية لمدة غير محددة بزمن معلوم.[3]
- وقف قصف المدينة من طرف الإسبان في مقابل دفع أموال لهم، تعويضًا عن خسائرهم وشراء السلم معهم.
- يتم هذا الصلح بين الطرفين في البحر، وسوف تتوقف الأعمال الحربية بين الطرفين.
- إطلاق جميع الأسرى الإسبان الموجودين بالإيالة الطرابلسية.
- إطلاق سراح جميع الأسرى الطرابلسيين الموجودين بالأراضي الإسبانية ويتم تحريرهم فورًا.[4]
- إرجاع جميع ما غنمه الطرابلسيون من الإسبان ورده إليهم بدون نقصان.
- السماح للإسبان بالتسوق والاتجار بمدينة طرابلس بدون التعرض لهم بأذى سواء من طرف السكان المحليين أو السلطات الحاكمة بضمان من الباشا عبد الله الأزميرلي نفسه، وفي ذلك يقول ناصر الدرعي: «...**فحينئذٍ دخل الكفرة المدينة للتسوق، وربما أغلظوا على بعض المسلمين في القول لتوعّد أمير البلد العثماني على من أساء إلى كافر ولو بكلمة بعاقب شديد...**».[5]

1- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 180.
2- الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 202.
3- أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: المصدر السابق، ص 180.
4- الحسين بن محمد الورثيلاني: المصدر السابق، ص 153.
5- أبو العباس أحمد بن محمد ناصر الدرعي: المصدر السابق، ص 181.

ذكر ابن غلبون بنودًا أخرى انفرد بها عن غيره من المصادر الأخرى، التي لم تلمح لها أصلا ولم تأت على ذكرها، وتعتبر هذه البنود من أكبر الإهانات التي لحقت بالإيالة الطرابلسية خلال العصر الحديث، بالإضافة إلى المعاهدة الفرنسية التي كانت سنة 1096هـ/جويلية 1685م[1]، وفي ذلك قال ابن غلبون: «... **وقد أخطئوا، ومنشأ خطأهم استبدالهم الحياة الدنيا بالآخرة فأهانوا البلد بتلك الفعلة، فمن يومئذٍ تقوَّى الإفرنج في البلد وعلا شأنهم، واشترطوا في صلحهم ذلك أمورًا لا يلتزمها مؤمن، يوقن بلقاء الله ووعده، منها:**

- **دخول طاغيتهم كائنًا ما كان بنعله على ملكها يطأ بها بساط ملك خليفة الله ورسوله في الأرض، ومشي كبيرهم شاهرًا سلاحه بين يدي الملك، وأن لا يحاكموا مسلمًا في خصومة إلى الشريعة المطهرة، وإنما تكون الحكومة بدار كبيرهم، أيقظ الله لهم ملك الإسلام وأعانه حتى يردهم إلى الصغار، كل هذا ومراد خارج المدينة...».**[2]

مع أننا لم نستطع التأكد من هذه البنود التي ذكرها ابن غلبون، ولم نجد لها ذكرًا عند كل المصادر والمراجع التي اطلعنا عليها*، إلاّ أنها إن ثبتت فهذا من أعظم المصائب التي حلت بالإيالة الطرابلسية، خاصة ونحن نعلم الفظائع التي فعلتها السلطات الإسبانية سواء ضد الموريسكيين أو المغاربة في بلادهم، خاصة ما تعلق بشرط عدم تطبيق الشريعة الإسلامية في المحاكمات بين المسلمين، فهل يعقل أن يوافق عبد الله الأزميرلي ومعاونيه على هذا الشرط، الذي لم نسمع عنه في جميع المعاهدات التي أبرمتها الإيالات المغاربية والمغرب الأقصى والدولة العلية العثمانية، وكيف للسكان الطرابلسيين القبول بهذا الشرط؟ وكيف كان رد فعل البحارة عندما علموا بهذا الشرط؟، أما أن ابن غلبون دفعته العديد من الأسباب لقول هذا الكلام، والتي نذكر منها:

- تبرير رفض مراد بك لهذا الصلح.
- الحقد الذي يكنه ابن غلبون لبعض الحكام خاصة عبد الله الأزميرلي هو الذي دفعه لإصدار هذه الأحكام.
- حبه لمراد بك أملى عليه قول هذه البنود.
- رفضه للمعاهدة الفرنسية الطرابلسية وكرهه لما فعله عبد الله الأزميرلي بخضوعه للملك الفرنسي، جعله يضع كلى المعاهدتين في سلة واحدة.

1 – المعاهدة الفرنسية الطرابلسية، أ. و. ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 5003، ملف 38.

2– ابن غلبون: المصدر السابق، ص ص 218، 219.

* – في هذا الخصوص يقول الطاهر أحمد الزاوي «...وذكر ابن غلبون شروطًا أخرى غير الغرامة الحربية –لا تتفق–في نظري–مع تصريح النائب بأخذهم الغرامة الحربية ورحيلهم عن البلد...» للاستزادة ينظر: الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 202.

- إيجاد المبررات لتمرد مراد بك على الحكام الطرابلسيين وعلى رأسهم عبد الله الأزميرلي، الذي لم يكن في هذه الفترة في كامل قواه الجسدية والعقلية، خاصة وأنه تجاوز التسعين سنة من عمره، ولم تكن زمام الأمور بيده.

6-نتائج الحملة الإسبانية.

- إعلان اتفاق صلح بين الإيالة الطرابلسية والإمبراطورية الإسبانية[1] يعتبر الأول منذ سقوط غرناطة سنة 1492م، بين الدولتين خلال العصر الحديث، وكان بادرة لم يسبق لها مثيل بين جميع الإيالات المغاربية العثمانية وإسبانيا الحديثة.
- دفع حكام الإيالة الطرابلسية أموالاً طائلة مقابل إقامة هذا الصلح وعدم تعرض بلادهم إلى الاحتلال من جديد[2] كما حدث سنة 1510م.
- تحمل عبء الأموال التي دُفعت إلى الإسبان السكان الطرابلسيين، الذين تحملوا أيضا عبء الحرب والدمار الذي لحق بلادهم، وعبء الأموال التي دفعت للإسبان وفي ذلك يقول ناصر الدرعي: «...**فأخذوا في دفع ما شرط عليهم: فصاروا يدفعون لهم الخيل والزرع والإبل، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم**...».[3]
- إحداث دمار هائل بمدينة طرابلس نتيجة القصف المتواصل والعنيف من طرف الإسبان.
- ولدت هذه الحملة تذمرًا كبيرًا عند السكان المحليين تجاه حكام طرابلس الذين لم يقوموا بدورهم، تاركين الرعية تتدبر أمرها في مواجهة الاعتداء الإسباني، والدفاع عن مدينتهم وكان على رأس الناقمين على الحكام العلماء المالكية، الذين رفضوا الخضوع والخنوع، ورحلوا عن المدينة مخافة من بطش الحكام الأتراك، وقد نقل لنا الورثيلاني نصًا عبر فيه بمرارة وأسى عما أصبح عليه حكام طرابلس حينذاك وموقف العلماء من ذلك، حيث قال: «... **وكلمنا علماء المالكية فقالوا**: «**إن هذا هو الصِّغار بعينه، ولا قدرة لنا على ما فعله هؤلاء الأتراك**»، **وخرجوا تلك الإيام خارج المدينة مخافة حضور هذا الفعل الذميم**...».[4]

1- الحسين بن محمد الورثيلاني: المصدر السابق، ص 154.

2- الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 202.

3 - أبو العباس أحمد بن محمد ناصر الدرعي: المصدر السابق، ص 181.

4 - الحسين بن محمد الورثيلاني: المصدر السابق، ص 153.

- معارضة بعض قادة الجيش لهذا الاتفاق، وعلى رأسهم مراد بك الذي رفض أي مقاربة مع الإسبان ابتداءً الموافقة على هذا الصلح، بل اقترح جلاء جميع السكان من طرابلس وبناء مدينة جديدة تكون في مأمن من الهجمات الأوربية عامة والإسبانية خاصة، وفي ذلك يقول النائب الأنصاري: «... **ثم أمرهم الوالي بمشورة مراد بك فأجاب:** «...**بأن المدينة إذا كانت حاضر البحر، ولم يكن بساحتها عمران القبائل!... ولا موضعها متوعر من جبل!... كانت في غرة للبياتِ!... وسهل طروقها في الأساطيل البحرية على عدوها، تحريقه لها لما يأمن من عدم وجود الصريخ لها... والرأي السديد... أن تتركوا هذه البلدة للعدو، وأخْتط لكم بلدًا** (بالهاني) **–موضع يبعد عن الثغر بنحو ساعة–أحسن منها سهلة المرافق، حصينة المعاقل، ويصعب منالها من العدو، ويتضاعف اتساعها وحصنها بموضعها الطبيعي !!... فتلطف أولئك الأعيان في الرد عليه، وصرفوا له وجوه المداهنة وجعلوا ذلك ذريعة لبغيتهم حتى تسهل لوفاقهم على الصلح وللعقد على ما وقع عليه اتفاق الطرفين من الشروط...**».[1]
- فقد الإسبان العديد من سفنهم نتيجة قصفهم من أبراج المراقبة فقد ذكر لنا ناصر الدرعي أنهم فقدوا مركبا في إحدى هجماتهم.[2]
- لم تفصح لنا المصادر التاريخية عن حجم الخسائر البشرية في صفوف الطرفين، مع أننا لا نستبعد وقوع قتلى وجرحى في صفوف الطرابلسيين نتيجة القصف العنيف والمتواصل من طرف الإسبان، الذين نستبعد أن تكون الحصيلة مرتفعة بينهم، بسبب عدم اقترابهم من البر ومواجهة السكان والمدافعين عن المدينة بصفة مباشرة، هذا ما قلل خسائرهم أو ربما انعدامها نهائيًا.
- إحداث فزع كبير وسط الطرابلسيين، نتيجة القصف المتواصل الذي لم يعهدوه من قبل، خاصة وأنه استعملت فيه القنابل طيلة عشر أيام كاملة، لم يغادر الإسبان فيها المدينة إلاّ بعد عقد صلح مع الطرابلسيين.[3]

1- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 259.

2 - أبو العباس أحمد بن محمد ناصر الدرعي: المصدر السابق، ص 180.

3 - نفسه، ص 182.

ثانيا: العلاقات الطرابلسية الإسبانية ما بين 1097-1112هـ/ 1685-1700م.

المبحث الأول: الحملة الإسبانية الثانية على طرابلس الغرب سنة 1102هـ/1691م

1-أسباب الحملة.

أ -نقض محمد باشا صلح سنة 1096هـ/1685م.

لم تدم مدة الصلح الذي أبرمته إسبانيا مع طرابلس الغرب إلاّ ست سنوات؛ فبمجرد ما اعتلى سدة الحكم الباشا محمد الإمام سنة 1098هـ/1687م، حتى بدأ في العمل على التصدي للأخطار الخارجية، إلاّ أن خصومه ضيقوا عليه، لذلك دبر حيلة للتخلص من أبرز قادتهم، فجهز أسطولاً للغزو وأسند رئاسته إلى بعض مناوئه، وأثناء خروجهم خطط للقضاء عليهم مباشرة بعد عودتهم، وقد نجح في ذلك؛ فبمجرد عودتهم من الغزو أمر بالقبض عليهم وقتلهم.[1]

لما استطاع الباشا محمد الإمام تثبيت أركان حكمه توجهت أنظاره إلى العمل من أجل فرض الاحترام على الدول الأوربية، الذي داسوا على كرامة الطرابلسيين، خاصة الإسبان والفرنسيين الذين أهانوا كثيرًا عبد الله الأزميرلي وفرضوا عليه معاهدة عارٍ وذلٍ لم يسبق لها مثيل، مع العلم أن محمد الإمام عُرف عنه الإيمان والتقوى وعزة النفس، وكان يعمل على تحصين البلاد وتشجيع الجهاد البحري، وفي ذلك يقول النائب الأنصاري: «... **وكان خيراً تقيًا، نزيه النفس واسع الصدر، حسن اللقاء ذا رأي وحزم وروية، وله مشاركة علمية، مؤثر للإنصاف، متجانفًا عن العنف، شديدًا على العمال، رادعًا لعدوانهم، وجه أنظاره إلى تحصين القلاع والأساطيل الحربية**...»[2]، ولما كان يعلم أن السلطات الإسبانية تحاول دائمًا فرض سيطرتها على طرابلس الغرب، -خاصة بعد إمضاء الصلح معها سنة 1096هـ/1685م-قرر التخلص من هذا الصلح وإعلان العداوة معها[3]، يدفعه في ذلك عدة أسباب:

- تعويض تناقص المداخيل والعجز المالي الذي كانت تعانيه خزينة طرابلس الغرب نتيجة التمردات الداخلية وإمضاء المعاهدات مع الدول الأوربية خاصة إنجلترا وفرنسا وإسبانيا، فقد أصبحت البحرية الطرابلسية مكبلة بهذه المعاهدات مما انعكس سلبًا على نشاطها في البحر.
- ضغط الرياس الذين تضرروا كثيرًا جراء المعاهدة السابقة مع إسبانيا، مما كان له الأثر السيئ على نشاطهم ومداخيلهم المالية التي كانت تأتي من حركة الجهاد البحري.

1 - الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 206.

2- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 259.

3- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 222.

- توجيه أنظار خصومه إلى الخارج، خاصة وأنه كان يعيش تحت ضغط رهيب، نتيجة المؤامرات التي كانت تحاك ضد كل من يتولى حكم الإيالة.
- إعادة الاعتبار لحكام طرابلس الذين أُهينت كرامتهم أثناء حكم عبد الله الأزميرلي، الذي أمضى أسوأ معاهدة في تاريخ الإيالة الطرابلسية الحديث.
- الحد من سطوة حكام الدول الأوربية على إيالة طرابلس، ووضع حد لتدخلاتها السافرة فيها.
- إرضاء الرياس وعدم الدخول في مواجهة معهم، خاصة وأن البلاد كانت لا تتحمل المزيد من المشاكل الداخلية.
- محاولة إعادة الثقة بين حكام طرابلس ورعيتهم، التي كانت تنظر إليهم على أساس أنهم دخلاء على البلاد لأنهم لا تهمهم إلاّ مصالحهم الشخصية على حساب البلاد والعباد، خاصة وأنهم كانوا الضحية الأولى للحملة الإسبانية السابقة، سواء ما تعلق بالخسائر أو ضريبة الصلح التي دفعت من أموالهم، فيما كان الحكام يتمتعون بمزايا الحكم ومآثره.

ب-الحد من سطوة بني فشلوم.

أراد محمد الإمام الانتقام من كل من ساهم في إهانة الطرابلسيين سواء داخل الإيالة أو خارجها، لعلمه أن عبد الله الأزميرلي لم يكن المتحكم الفعلي في زمام الأمور أثناء إمضاءه اتفاقية الصلح مع الإسبان، بل بنو فشلوم هم الراغبين الفعليين في ذلك، لتحقيق مصالحهم الشخصية على حساب مصلحة الرعية والإيالة الطرابلسية، ولذلك عمل على الحد من سطوتهم ونفوذهم، وقد تحقق له ذلك، حينها قرر التخلص من معاهدة الصلح التي كان يراها أضرت بمصالح الطرابلسيين وفي ذلك يقول ابن غلبون: «... **حركت محمد الإمام همته لنقض الصلح الذي كان فعله عبد الله وأصهاره بنو فشلوم مع الإفرنج فنقضه...**».[1]

ج -زيادة نشاط البحرية الطرابلسية.

كان محمد الإمام يشجع نشاط البحرية الطرابلسية، التي عرفت في عهده نهضة حقيقية بعد مدة من الركود والتراجع، خاصة بعد إمضاء العديد من المعاهدات التي حدَّت من هامش تحركها، لذلك وبضغط من الرياس وافق محمد الإمام على إعادة بعث نشاطها من جديد خاصة بعد إسناد أمرها إلى خليل قازداغلي الذي أصبح من المقربين للباشا بعد أن تصدى لمصطفى شرباني، الذي حاول خلع بيعة محمد الإمام والظفر به، إلاّ أن

1- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 222.

خليل قازداغلي استطاع الفتك به وببعض معاونيه، بدون علم محمد الإمام الذي ما إن علم بذلك حتى كافئه على صنيعه هذا بإسناد قيادة أسطول الجهاد له وتزويجه بابنته زينوبة.

د-محاولة إسبانيا الرد على نقض الصلح.

لم تتقبل السلطات الإسبانية القرار الذي اتخذه محمد الإمام بنقض اتفاق الصلح الذي أمضاه عبد الله الأزميرلي سنة 1096هـ/1685م، لذلك أرادت تجهيز حملة عسكرية لإرغام باشا طرابلس على العودة في قراره المتخذ[1] ووفق الشروط السابقة التي كانت في مجملها لصالحها.

ه-محاولة إسقاط محمد الإمام من حكم طرابلس الغرب.

مباشرة بعد تولي محمد الإمام حكم طرابلس بدأت هيبة الدولة تعود بالتدريج داخليًا وخارجيًا، لذلك عملت الدول الأوربية على الحد من طموحه المتزايد، خاصة حكام فرنسا وإسبانيا اللذين كانوا يراقبون تحركاته، وأمام عجزهم عن إسقاطه من الداخل، حاولوا إسقاطه بالقوة العسكرية[2]، وكانت هذه الحملة ضمن هذا المخطط، خاصة وأن الباشا عُرِف عنه حزمه وشجاعته، وتمثل ذلك في نقض الصلح مع الإسبان، الذين ما إن سمع ملكهم بذلك حتى قرر احتلال طرابلس والرد على هذه الخطوة الجريئة* التي لم يتوقعها بتاتًا، ولذلك اتخذت السلطات الإسبانية قرارًا سريعًا يقضي بضرورة تجهيز حملة هدفها إسقاط محمد باشا من الحكم أو على الأقل الحد من سلطاته، وفي نفس الوقت إعادة إحياء اتفاق الصلح وفق الشروط السابقة.

2-تجهيز الحملة الإسبانية:

بعدما اتخذت السلطات الإسبانية قرار توجيه حملة إلى طرابلس الغرب لاحتلالها والرد على نقض الصلح المبرم معها سنة 1095هـ/1685م، بدأت القيادات العسكرية في تجهيز الأسطول الذي كان يعول عليه كثيرًا في إحراز انتصار يعيد به هيبة الدولة الإسبانية التي تراجعت كثيرًا خلال هذه الفترة، فاسحة المجال للقوتين الفرنسية والإنجليزية، وقد تشكل الأسطول من 15 سفينة حربية مجهزة بالقنابل والمدافع، واتجه نحو طرابلس الغرب، التي وصلها يوم 29 رمضان 1102هـ/1691م[3]، ضاربًا عليها حصارًا مشددًا على أمل استسلام الباشا محمد الإمام أو الرضوخ لإملاءات قادة الأسطول الإسباني.

1- الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 207.

2- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 222.

* – خلال البحث عن هذا الموضوع لم نجد ما يؤكد لنا اتفاق البلدين على توحيد الجهود لإسقاط محمد الإمام، وكل ما في الأمر أنه خلال هذه الفترة تزامنت الحملات الإسبانية والفرنسية ضد طرابلس الغرب، الهدف منها الحد من قوة محمد الإمام وإسقاطه من سدة الحكم، خاصة ونحن نعلم أن الدول الأوربية كانت ولازالت لا تريد حكم بلاد المغرب من طرف حاكم قوي، يقف ضد طموحاتهم الرامية لاحتلالها والاستئثار بخيراتها.

3- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 266.

3-استعدادات السلطات الطرابلسية للحملة:

عندما اتخذ محمد الإمام قرار نقض الصلح كان يعلم يقينًا أن السلطات الإسبانية لن تبق مكتوفة الأيدي أمام هذا القرار، لذلك عمل على تحصين القلاع وبناء الاستحكامات وتشجيع حراسها واعدًا إياهم بزيادة أُعطياتهم، وقد كان يطوف بنفسه عليها مخافة من غفلة الحراس أو تهاونهم في تأدية مهامهم[1]، وفي نفس الوقت كان يشجع الناس على الجهاد والدفاع عن مدينتهم التي كانت مُعرّضة للاحتلال من جديد.*

4-وقائع المعارك:

مباشرة بعد وصول الأسطول الإسباني إلى سواحل طرابلس الغرب بتاريخ 29 شعبان 1102هـ/ 1691م**، وتشديد الحصار عليها، بدأ في قصف المدينة بالقنابل لإرباك أهلها، إلاّ أن الجيش الطرابلسي كان قد أخذ مواقعه وحضر بطريقة جيدة لإدارة هذه المعركة، يساعده في ذلك السكان المحليين الذين كانوا في أتم الاستعداد لملاقاة العدو، وفي ذلك يقول النائب الأنصاري: «... **وركب العساكر وأهل البلاد القلاع وتواقعوا بالمدافع، وكشفت الحرب عن ساقيها وحمي الوطيس وهبت الريح المبشرة...**».[2]

أثناء هذه المعارك ظهرت شخصية الباشا محمد الإمام، الذي كان يتقدم الصفوف في مواجهة العدو، مشجعًا جيشه والمدافعين على المدينة، حاثهم على الصبر والثبات في الدفاع عن مدينتهم، وفي نفس الوقت كان يطوف على الأبراج لمراقبة أداء جنوده الذين كان يعدهم بالعطاء الجزيل في حالة الانتصار ورد العدوان[3]، مما زاد

1- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 222.

* – لا يمكننا المقارنة بتاتًا بين ما قام به محمد الإمام في هذه الحملة، وما كان عليه الحال أثناء الحملة الأولى سنة 1096هـ/1685م، حيث كان الإهمال واللامبالاة سيد الموقف، وغياب كلي للباشا وحاشيته في مواجهة الحملة، تاركين السكان يواجهونها لوحدهم بدون أدنى مساعدة منهم، إلاّ أن الباشا محمد الإمام أعاد هيبة الحاكم الذي يخاف على العباد والبلاد، مفضلاً التواجد بنفسه في ساحة المعركة والعمل على تفادي الأخطاء التي ارتكبها سابقوه، وهكذا هو الحاكم الذي يحب بلاده ورعيته.

** – اختارت السلطات الإسبانية هذا التاريخ لعدة اعتبارات منها:

–انشغال أهالي طرابلس بفرحة العيد، خاصة ونحن نعلم أن المسلمين يعطون هالة كبيرة لمناسبة عيد الفطر الذي يأتي بعد عبادة الصيام، حتى تكون الفرحة مزدوجة فرحة الإفطار وفرحة التوفيق في الصيام.

–انشغال قادة البلاد بهذه المناسبة العظيمة التي يحرص الحكام على الاحتفال بها بطريقة مميزة، لذلك ظن الإسبان أن الفرصة مواتية لاحتلال مدينة طرابلس على حين غفلة من أهلها، ناسين أن شهر الصيام هو شهر الفتوحات والانتصارات عبر التاريخ الإسلامي الطويل، مثل غزوة بدر الكبرى، فتح الأندلس وغيرهما.

– استغلال الإجهاد الذي أصاب الجيش والسكان المحليين نتيجة الصيام.

–استغلال غفلة الناس نتيجة تفكيرهم بالصيام ومتطلباته طيلة شهر كامل، لذلك كانت السلطات الإسبانية تدرك كل هذه الحقائق ولم يكن اختيار هذا التاريخ عبثًا، إنما كان عن طريق تخطيط جيد يُراد به احتلال المدينة في أحسن الظروف.

2- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 266.

3 – ابن غلبون: المصدر السابق، ص 222.

في عزيمتهم وصبرهم وأداء مهامهم على أكمل وجه، كيف لا وهم يرون سيدهم وحاكمهم يتقدم الصفوف معرضًا نفسه للخطر من أجل حماية البلاد والدفاع عنها، بكل حزم وقوة.

مع زيادة مقاومة الطرابلسيين وإصرار الإسبان على تحقيق هدفهم طالت مدة المعارك، خاصة أمام النشاط البارز لمحمد الإمام في تشجيع المقاومة، مما انعكس إيجابًا على مقاتليه الذين زادت همتهم وعزيمتهم مكبدين الإسبان خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، مما اضطر قادة الأسطول إلى اتخاذ قرار الانسحاب[1]، مفضلين إنقاذ ما تبقى لهم من جنود وسفن، على مواصلة المغامرة التي لا يمكن معرفة تكلفتها ومدتها، خاصة وأنهم كانوا يشاهدون عزيمة الطرابلسيين في المقاومة والجهاد، على عكس المرة السابقة التي لم يجدوا فيها أي عناء في تدمير المدينة وإرعاب أهلها الذين اضطروا للهروب إلى دواخل البلاد مخافة من الهلاك[2]، في غياب شبه كلي للسلطات الحاكمة التي كانت تسعى لعقد الصلح بدل الجهاد والدفاع عن المدينة وأهلها.

5-نتائج الحملة على الطرفين:

- أظهرت هذه الحملة شخصية الباشا محمد الإمام، الذي لعب دورًا بارزًا ورئيسًا في رد العدوان، نتيجة تقربه من الرعية والجيش اللذين كانا عماد المقاومة والجهاد، مفضلا المخاطرة بنفسه على القعود في دار الإمارة وانتظار ما ستؤول إليه المعارك؛ مثبتًا بذلك أن الحاكم الحقيقي هو الذي يتقدم الصفوف ويدافع عن البلاد بدل الخنوع والاستسلام كما كان يفعل سابقيه.
- فشل الحملة الإسبانية التي لم تحقق أي نتيجة تذكر، بعد أن عاد الأسطول الإسباني خائبًا إلى بلاده[3].
- تكبد الإسبان الكثير من الخسائر المادية والبشرية، لم نعثر في المصادر والمراجع عن حجمها الحقيقي، إلاّ ما تكلموا عنه عرضًا أثناء وصفهم للمعارك، ومن ذلك عند انفجار أحد المدافع نتيجة الرد العنيف للطرابلسيين قتل من الإسبان حوالي 15 شخصًا كان سببًا كافيًا لاتخاذ قرار الانسحاب.[4]
- أصيب الإسبان بخيبة أمل كبيرة جراء خسائرهم المادية والبشرية وفشل حملتهم التي كانوا يعلقون عليها أمالاً كبيرة في تحقيق نصر يعيد لهم هيبتهم المفقودة، ويحقق طموحهم في احتلال طرابلس الغرب، وانقلبوا إلى بلادهم خائبين يائسين لعدم تحقيق أي هدف من أهدافهم التي جاءوا من أجلها.

1- الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص207.
2- أبو العباس أحمد بن محمد ناصر الدرعي: المصدر السابق، ص 179.
3- الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 207.
4- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 222.

– أُقيمت الأفراح ورفعت الرايات بمدينة طرابلس الغرب ابتهاجًا بهذا النصر المحقق على الأسطول الإسباني الذي لم يكن يتوقعه الطرابلسيون، خاصة بعد العديد من النكبات المتتالية وسلسلة الانهزامات المتواصلة أمام الأساطيل الأوربية خاصة الفرنسية والإسبانية، إلاّ أن عزيمة وإصرار وقوة شخصية الباشا محمد الإمام ونزوله إلى ميادين المعارك لمؤازرة جيشه وتشجيع المقاومين والمشاركة في المعارك بنفسه أعاد هيبة الإيالة الطرابلسية وحقق نصرًا قل نظيره في ذلك الوقت، وفي ذلك يقول النائب الأنصاري: «... **وركب العساكر وأهل البلاد القلاع وتواقعوا بالمدافع، وكشفت الحرب عن ساقها وحمي الوطيس وهبت الريح المبشرة فخفقت لها رايات محمد باشا وظفروا عليهم...**».[1]

6–أسباب انتصار الطرابلسيين.

– قوة شخصية الباشا محمد الإمام الذي كان له الدور البارز في هذا الانتصار المحقق، خاصة وأنه كان يشارك بنفسه في تنظيم المقاومة، مما شجع المدافعين على المدينة لزيادة مجهوداتهم ومواصلة الدفاع باستبسال عن مدينتهم.

– التكاتف والتآزر الذي أبداه السكان المحليين مع الجيش النظامي في المقاومة والجهاد، فقد توحدت جهود الطرفين في مواجهة الأسطول الإسباني، على عكس المرات السابقة أين كان يُترك السكان المحليين في مواجهة الأخطار الأجنبية، في غياب شبه كلي لقيادة البلاد التي كانت في كل مرة تخضع لشروط مذلة ومهينة للبلاد والعباد، إلاّ أن محمد الإمام كسَّر هذه القاعدة وكان اللبنة الأساسية التي وحدت الجميع حكاما ومحكومين، والذين فقدوا فيما مضى الحاكم الذي يحب رعيته وبلاده ويفضل الموت على الخضوع لإملاءات الأجنبي، وهذا ما عمل من أجله الباشا محمد الإمام.

– كانت الأُعطيات التي وعد بها الباشا محمد الإمام جنوده في حالة الانتصار سببًا مباشرًا في زيادة الهمة والعزيمة على مواجهة القوات الإسبانية، التي وجدت هذه المرة مقاومة شرسة لم يتوقعها قادة الأسطول بتاتًا، الذين كانوا يعتقدون أن المهمة ستكون سهلة كما كانت في المرة السابقة.

– كان لشهر رمضان دورًا بارزًا في زيادة الهمة والعزيمة لدى الطرابلسيين الذين كانوا يعلمون أن هذا الشهر هو شهر الانتصارات عند أسلافهم من المسلمين، وأن الشهادة في هذا الشهر هي شرف لهم، ينالون به درجتين؛ درجة الصيام ودرجة الجهاد والاستشهاد، وهذا ما زاد في صبرهم وعزيمتهم في الدفاع عن بلادهم والانتصار على الإسبان.

1 – النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 266.

- كان التخطيط الإسباني لهذه المعركة سيئًا للغاية، على عكس المرة السابقة، خاصة وأن قطع الأسطول لم تتجاوز 15 سفينة، لم تكن كافية لاحتلال طرابلس الغرب، وحتى توقيت المعركة لم يكن مناسبًا تمامًا، لأن شهر رمضان هو شهر الهمة والعزيمة عند المسلمين في ذلك الوقت وما قبله، وقلما خسر المسلمون معركة فيه، إلاّ أن الإسبان كانوا يظنون أنه شهر إرهاق وخمول لدى الطرابلسيين، الذين أثبتوا لهم عكس ذلك.
- التحضير المسبق من طرف الطرابلسيين لمواجهة هذه الحملة كان له الأثر الإيجابي والدور الفعال في سير المعارك، لأن الطرابلسيين كانوا على أتم الاستعداد معنويًا وماديًا، خاصة وأنهم اتخذوا العبرة من المرة السابقة.
- حب الانتقام والتخلص من آثار الصلح السابق الذي كان وبالاً على السكان الطرابلسيين خاصة، كان عاملاً حاسمًا في حسم المعارك، لأن السكان كانوا يرون أنفسهم قد ظلموا، خاصة وأن الأموال التي دُفعت للإسبان استخلصها الحكام من الرعية، إلاّ أن هذه المرة اجتمعت رغبة الحاكم مع رغبة الرعية فأنتجت انتصارًا كان الطرابلسيون بأكملهم في أمس حاجة إليه، بعد العديد من الهزائم على أيدي الأوربيين، خاصة الفرنسيين والإسبان.
- لعب المرابطون في الأبراج دورًا بارزًا في التصدي لهذه الحملة، خاصة بعد التشجيع الذي لاقوه من طرف الباشا محمد الإمام، الذي كان يسهر بنفسه على سير المعارك وإعطاء التوجيهات والنصائح للجنود وتشجيعهم على المقاومة والجهاد.

المبحث الثاني: اتفاق الصلح الإسباني الطرابلسي سنة 1102هـ/1691م.

يعتبر الصلح الإسباني الطرابلسي سنة 1102هـ/1691م، حدثًا دبلوماسيًا بارزًا في تاريخ الإيالات المغاربية، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين لأنه جاء بعد صراع طويل ومرير بين الطرفين، ولم يسبق أن وقعت إيالتي الجزائر وتونس أي اتفاق مع الإسبان، إلاّ أن الإيالة الطرابلسية أخذت السبق في هذا المجال، خاصة وأنها أمضت مع الإسبان اتفاقًا سنة 1096هـ/1685م تم بموجبه توقيف الأعمال العدائية بين الطرفين، لتحاول إسبانيا إجبار القيادة الطرابلسية مرة أخرى على الرضوخ لمطالبها، مستغلة في ذلك الهجمات الفرنسية المتتالية على طرابلس ونقض محمد الإمام للصلح السابق، هذا ما جعل القيادة الإسبانية توجه حملة عسكرية محاولة منها لاحتلال طرابلس الغرب مرة أخرى، مستغلة في ذلك بعض الأحداث لإجبار القيادة الطرابلسية على توقيع اتفاق صلح بعد أن رفض محمد الإمام سابقا أي تقارب معهم.

1-أسباب توقيع اتفاق الصلح:

تكاد تجمع المصادر والمراجع التي اطلعنا عليها أن أسباب توقيع الصلح الطرابلسي الإسباني كان حدثا عرضيًا لم يكن الإسبان يخططون له، ولم تكن القيادة الطرابلسية الحاكمة بقيادة الباشا محمد الإمام تضعه في الحسبان مطلقا، جاعلة نصبًا عينيها مواصلة القطيعة وإنهاء حالة السلم بين الطرفين والتخلص من تبعات اتفاق سنة 1096هـ/1685م، خاصة بعد علم الطرابلسيين بما عزمت عليه السلطات الإسبانية من توجيه حملة عسكرية ضد بلادهم لتحقيق العديد من الأهداف والغايات، نذكر منها:

- الانتقام من الطرابلسيين قيادة وسكانًا بعد نجاحهم في ردِّ الحملة الإسبانية السابقة.
- إثبات قدرة الأسطول الإسباني على مواجهة الصعوبات، بعد نكسته على أسوار مدينة طرابلس في المرة السابقة، وذلك بالرجوع مرة أخرى واحتلالها وهزيمة جيشها في أقل مدة ممكنة.
- محاولة الملك الإسباني حفظ ماء وجهه أمام رعاياه، وذلك بتجهيز حملة عسكرية ردا على الطرابلسيين، الذين لم يكونوا يتوقعونها بهذه السرعة وفي بضعة أيام فقط.
- إثبات كفاءة قيادة الأسطول الإسباني التي تلقت نكسة جديدة على يد الطرابلسيين، ولا تَتأتّى إثبات هذه الكفاءة إلاَّ بعمل يعيد لها هيبتها ويحفظ لها كرامتها.
- إرغام القيادة الطرابلسية على توقيع اتفاق صلح، خاصة بعد رد الحملة السابقة إلى إسبانيا بدون إعادة توقيع الصلح المبرم سابقًا 1096هـ/1685م.
- احتلال مدينة طرابلس وإسقاط الباشا محمد الإمام من حكم الإيالة نهائيًا.

بعد إتمام جميع الإجراءات انطلق الأسطول الإسباني باتجاه إيالة طرابلس، وقد التقى في عرض البحر بسفينتين جهاديتين طرابلسيتين على متن إحداهما خليل بك صهر الباشا محمد الإمام، الذي اشتبك مع الإسبان ودارت بينهما معارك طاحنة أبلى فيها الطرابلسيون بلاءً حسنًا، بالرغم من الفارق في القوة والعتاد بين الطرفين، ومع ذلك واصلوا المقاومة حتى نفذت الذخيرة الحربية حينها استطاع الإسبان السيطرة على السفينتين وأسر من كان فيهما، بما في ذلك خليل بك، وقد نقل لنا ابن غلبون تفاصيل هذا الحادث حيث قال: «... **فلما رجعوا لملكهم وأخبروه بعدم إفادة رميهم لها جهز أسطولاً كبيرًا لأخذ سفن الجهاد بالمدينة المذكورة، فاتفق أن التقى أسطوله بسفينتين من سفن الجهاد بالمدينة المذكورة رئيس أحدهما خليل المذكور، فجاهدتا جهادًا**

كبيرًا لم يعهد مثله حتى لم يبق لهما من الذخيرة شيء فأسروا من وجدوا بها حيًا، وكان فيمن وجد حيًا خليل مجروحًا شماله معدومة وأقلعوا نحو بلدهم..».[1]

إذن كان هذا الحدث سببًا كافيًا لرجوع الأسطول الإسباني إلى بلاده بدون الهجوم على الإيالة الطرابلسية، فقد كان يهدف أساسًا إلى عقد صلح مع الطرابلسيين، وقد جاءته فرصة لا تعوض وبدون تكاليف تذكر، فقد اتخذ قادة الأسطول الإسباني من أسر خليل بك وسيلة ضغط على الباشا محمد الإمام لطلب الصلح، ولذلك سارعت القيادة الإسبانية لبعث مندوبها للتفاوض مع الطرابلسيين حول شروط الصلح، فما كان من الباشا إلاّ الرضوخ لرغبة الإسبان[2]، لأن مكانة خليل بك عنده تجعل إطلاق سراحه من أولوياته.

هنا يجب الإشارة إلى براعة الإسبان وحسن إدارتهم لهذه المعركة، وفي نفس الوقت ذكاء وحسن تدبيرهم في معالجة موضوع إعادة الهدوء والدفء للعلاقات السلمية السائدة بعد توقيع اتفاق الصلح السابق، وإلاّ بماذا نفسر تراجعهم عن مهاجمة مدينة طرابلس والاكتفاء بأسر خليل باشا بعد علمهم بقيمته ومكانته لدى الباشا محمد الإمام، ولذلك اتخذوه كورقة ضغط للوصول إلى هدفهم الرامي لإعادة تجديد الصلح المبرم سابقًا بين الطرفين.

لكن السؤال المطروح هل الإسبان كان هدفهم الحقيقي هو إبرام اتفاقية صلح منذ البداية وليس احتلال طرابلس؟ أم أن شجاعة وقوة شخصية الباشا محمد الإمام هي التي فرضت هذا الواقع؟ خاصة بعد مساهمته الفعالة رفقة المقاومين في إفشال الحملة الإسبانية الثانية؟ وهذا ما نرجحه باعتبار أن الإسبان أدركوا حقيقة الطرابلسيين بهذه القيادة الجديدة التي عملت بكل ما في وسعها للدفاع عن الإيالة وإعادة هيبتها على الصعيد الخارجي، على عكس ما كان يحدث سابقًا.

في المقابل أعطت القيادة الطرابلسية فرصة ذهبية للإسبان من أجل الضغط عليها، مثبتة بذلك عدم بعد نظرها في معالجة مثل هذه القضايا، ومعتمدة على القوة العسكرية فقط متناسية المخاطر المحدقة بها من كل جانب، وهذا ما نستشفه من خلال الملاحظات التالية:

- كيف يعقل ترك سفن الجهاد تخرج في هذا الظرف بالذات بالرغم من علم الباشا ومساعديه بالخطر الفرنسي الإسباني المتربص.
- هل من المعقول أن يُرتكب خطئًا جسيمًا مثل هذا، ويُترك خليل باشا يخرج بنفسه على رأس الأسطول، وهو الذي له مكانة يمكن أن تكون تمثل الرجل الثاني في الإيالة.

1- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 223.

2- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 266.

- كيف يعقل خروج سفينتين فقط بقيادة خليل باشا، وماله من مكانة إثر حملة إسبانية فاشلة، وكان يمكن تأخير خروج سفن الجهاد إلى وقت آخر، حتى تتضح الأمور أو على الأقل زيادة قطع الأسطول.
- لم تقم الجوسسة الطرابلسية بدورها كما ينبغي، تاركة البحارة عرضة للخطر، على عكس الجوسسة الإسبانية الفعالة التي نجحت بمهارتها في اكتشاف السفينتين ومن ثم أسر طاقمها وعلى رأسه خليل باشا...!
- عدم تقدير العواقب والاندفاع الذي ميز تصرفات القيادة الطرابلسية وذلك بالسماح للسفينتين بقيادة خليل باشا بالخروج للجهاد، خاصة في هذه الظروف المتميزة بالتوتر والصراع بين الإيالة الطرابلسية والأوربيين عمومًا وإسبانيا خصوصًا.
- اندفاع خليل بك ومحاولة إثبات قدراته عند الباشا، والطرابلسيين عامة، وذلك باتخاذ قرار الخروج للجهاد متناسيا الأخطار المحدقة به ومكر وتربص الأعداء، ما أدى إلى ارتكابه خطئًا فادحًا كان سببًا في رضوخ الباشا ومهادنته للإسبان.

السؤال المطروح هل كان أسر خليل بك نعمة على الطرابلسيين أم نقمة عليهم؟ والراجح أنه كان نعمة عليهم بصرف النظر عن بنود الاتفاق، لأنه كان سببًا في مواصلة العلاقات السلمية بين الطرفين، وفي نفس الوقت جنب الطرابلسيين حملة إسبانية جديدة لم يكن أحدًا غير الله يعرف عواقبها، خاصة وأن هذا الاتفاق أوقف جبهة صراع طال أمدها جاعلاً الطرابلسيين يتنفسون الصعداء ويتفرغون لمواجهة التهديدات الفرنسية المتواصلة، وكان أيضا ممهدًا حقيقيًا للعلاقات السلمية في نهاية القرن السابع عشر بين الإيالة الطرابلسية والإمبراطورية الإسبانية.

2-بنود الصلح الطرابلسي الإسباني.

- إقامة صلح بين الإيالة الطرابلسية من جهة والإمبراطورية الإسبانية من جهة أخرى، تم بموجبه توقيف جميع الأعمال العدائية بين الطرفين؛ مع ملاحظة أن هذا الاتفاق لم يتطرق بتاتًا إلى التمثيل الدبلوماسي للطرفين سواء ما تعلق بالقناصل أو بإقامة ممثلين دائمين في كلى البلدين.
- وضع حد لجميع الأعمال الانتقامية، سواء من طرف البحارة الطرابلسيين أو البحارة الإسبان.
- تأكيد ساريان مفعول الاتفاق السابق[1]، حيث تكون الهدنة في البحر، وذلك بعدم اعتراض سفن الطرفين من كلى البحريتين الإسبانية والطرابلسية.
- إطلاق سراح جميع الأسرى الإسبان المحتجزين لدى السلطات الطرابلسية مهما كان جنسهم وأعمارهم.

1- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 266.

- إطلاق سراح جميع الأسرى الطرابلسيين الموجودين لدى السلطات الإسبانية في أسرع وقت ممكن.[1]
- تحديد سعر افتداء كل أسير من أسرى الطرفين الطرابلسي والإسباني بـ 150 ريالاً.
- يتم تبادل جميع الأسرى؛ حيث يطلق سراح كل أسير طرابلسي في مقابل إطلاق سراح أسير إسباني، إلى أن تتم عملية التبادل، ومن كان له أسير زائد يتم افتدائه بالمال.[2]

بالإضافة إلى هذه البنود، انفرد ابن غلبون ببنود أخرى تتعلق بمعاملة الإسبان لحكام طرابلس كما حدث في عهد عبد الله الأزميرلي، عندما كان يدخل عليه الإسبان بدون إعطاء أي قيمة أو اعتبار لمنصبه حتى وصل الأمر لإهانته وذلك بالدخول عليه بأحذيتهم، إلاّ أن الباشا محمد الإمام منعهم من فعل ذلك، بسبب إيمانه وخوفه من الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك قال ابن غلبون: «... **فكانوا يدخلون عليه كما كانوا يفعلون بمن قبله، غير أنه لقوة إيمانه لم يدخلهم محلاً به فراش يطؤنه بأقدامهم المنعلة قط**...».[3]

هذه الشروط لم ينقلها لنا أي مصدر آخر سوى ابن غلبون الذي انفرد بذلك، ولذلك نعتبر هذا الأمر أمرًا شاذًا لا يمكن الأخذ به، لأنها رواية أحادية الجانب، لا ندري على أي مصدر اعتمد عليه، لأنه من غير المعقول أن يوافق حكام طرابلس على مثل هذه الشروط المهينة لعدة اعتبارات منها:

- بالرغم من الإهانات التي تلقاها حكام طرابلس على يد الفرنسيين إلاّ أن الأمر لم يصل بتاتًا إلى هذا الحد من الإهانة، مع أن قوة الفرنسيين في هذا الوقت لا تقارن تمامًا بالإسبان.
- لا يوجد أي تأثير للإسبان في البلاط الطرابلسي، بحكم تراجع القوة الإسبانية وتشتت جهود جيشهم في كثير من مناطق العالم، بالإضافة إلى العداء المستمر بين الطرفين منذ سقوط غرناطة سنة 1492م وما تبعها من اعتداءات واحتلال لبلاد المغرب الإسلامي، فكيف يعقل أن تعرض شروطًا مثل هذه؟
- لا يوجد أي تمثيل دبلوماسي إسباني في ذلك الوقت، فمن يدخل على الباشا بهذه الطريقة، وما الغرض من ذلك؟ خاصة إذا كان هذا الاتفاق ليس بالإهانة الكبيرة لحكام طرابلس، بل قد يبدو اتفاقًا عاديًا بين دولتين لهما استقلالية تامة عن بعضهما البعض وكل واحدة تبحث عن مصالحها الخاصة.
- جاء هذا الاتفاق بعد معركة حربية بحرية؛ صحيح تم فيها أسر خليل بك وتدمير السفينتين وقتل وأسر من فيهما، لكن الإيالة الطرابلسية لم تتعرض لأي سوء، فكيف تفرض شروطًا مهينة وبهذه الكيفية !!!

1- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 223.

2- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 266.

3- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 223.

- إذا سلمنا جدلا أن هذه الشروط فرضت على عبد الله الأزميرلي نتيجة ضعفه وتواطئ بعض معاونيه وبعد هزيمة قاسية على يد الإسبان، فما هي الدواعي التي تجعل الباشا محمد الإمام ومعاونيه يقبلون مثل هكذا شروط وبدون مبرر لذلك، خاصة وأن الاتفاق جاء بعد رد الحملة الإسبانية وفشلها في احتلال طرابلس أو حتى توقيع اتفاقًا يحفظ كرامتها.
- الاتفاق كان وفق مبدأ موازنة المفاسد والمصالح بالنسبة للباشا محمد الإمام، ففي مقابل الصلح وإقامة السلم، أطلق سراح خليل بك ومعاونيه الذين أسروا من طرف الإسبان، فما هو الداعي لقبول شروط مهينة كهذه، خاصة وأن الإسبان كان هدفهم إقامة الصلح، وإلاّ بماذا نفسر عدم مواصلة الحملة لسيرها باتجاه الإيالة الطرابلسية، بمجرد أسر خليل بك، لاستعماله كورقة ضغط ضد الطرابلسيين، لأن القادة العسكريين الإسبان كانوا يعلمون الاستعدادات الطرابلسية الجيدة لمواجهة الحملة المزمع تنظيمها ضدهم.
- إذا لم يستطع الإسبان فرض شروطهم بالقوة العسكرية وفشلهم في الحملة على طرابلس، فكيف يتم فرض مثل هذه الشروط بالطرق الدبلوماسية، التي لا يمكن بأي حال من الأحوال تصور قبول الباشا محمد الإمام مثل هذا الشرط، وهو المعروف عنه حزمه وقوته وتدينه ورفضه للإملاءات الخارجية.

عمومًا بهذا الاتفاق هدأ التوتر بين الإيالة لطرابلسية والإمبراطورية الإسبانية، في نهاية القرن السابع عشر، ليتفرغ كل طرف إلى حل مشاكله الداخلية والخارجية الأخرى، ودخلت الدولتان في شبه هدنة حربية طويلة الأمد فيما بعد، طيلة القرن الثامن عشر تقريبًا، هذا دون أن تتطور هذه العلاقات إلى تمثيل دبلوماسي أو علاقات تجارية مثلما كان يحدث مع الإيالة الطرابلسية وبعض الدول الأوربية الأخرى؛ ويرجع ذلك إلى عدة أسباب نذكر منها:

- ضغط حكام الدولة العلية العثمانية على حكام طرابلس حتى لا يحدث أي تقارب مع الإسبان.
- استمرار العداء بين الإيالتين التونسية والجزائرية مع الإسبان، خاصة وأن وهران والمرسى الكبير كانتا في ذلك الوقت تحت الاحتلال الإسباني.
- ضغط السلطات الفرنسية على حكام طرابلس حتى لا يحدث تقاربًا حقيقيًا مع السلطات الإسبانية، لأنه كان يوجد عداءً شديدًا بين الدولتين الإسبانية والفرنسية، خاصة ونحن نعلم مدى نفوذ الفرنسيين داخل البلاط الحاكم الطرابلسي، لذلك كانت السلطات الفرنسية لا تقبل أن تأخذ السلطات الإسبانية حصتها من النفوذ داخل الإيالات المغاربية عامة والإيالة الطرابلسية خاصة، لذلك كانت دائمًا تعمل على أخذ الحصة الكبيرة من الامتيازات داخل الولايات العثمانية منذ توقيع معاهدة الامتيازات الفرنسية العثمانية

سنة 1535م، وفي نفس الوقت تعمل على إبعاد كل من يحاول التقارب مع الإيالات المغاربية، لعلم الفرنسيين بخيراتها التي كانوا يسارعون الزمن من أجل السيطرة عليها والانفراد بنهبها دون سواهم.

الفصل الثالث

العلاقات بين الإيالة التونسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (11هـ/17م)

أولا: التأثير الأندلسي الموريسكي في العلاقات التونسية الإسبانية ما بين 1609-1700م

المبحث الأول: الإيالة التونسية والمحنة الموريسكية بعد قرار الطرد النهائي.

1-أبرز التحولات السياسية للإيالة التونسية بداية القرن 17م.

2-مميزات البلاد التونسية خلال القرن السابع عشر الميلادي.

المبحث الثاني: الإيالة التونسية والقضية الموريسكية بعد قرار الطرد النهائي 1609-1614م.

1-الهجرة الأندلسية إلى الإيالة التونسية.

2-الأندلسيون في عهد عثمان داي.

3-مجالات التأثير الأندلسي الموريسكي في الإيالة التونسية خلال القرن السابع عشر.

4-أعداد الأندلسيين بالإيالة التونسية.

ثانيا: الصراع التونسي المالطي خلال القرن السابع عشر الميلادي.

المبحث الأول: أسباب الصراع التونسي المالطي

1-نشاط الأسطول التونسي

2-ظهور رياس تونسيين أقوياء في المتوسط

3-تحريض الأندلسيين على الجهاد

4-إنعاش الاقتصاد التونسي

5-الأسرى

6-الاعتداءات المالطية المتتالية

المبحث الثاني: الحملة المالطية على جزيرة زمبرة سنة1605م

1-أسباب الحملة

2-وقائع الحملة

3-نتائج الحملة المالطية

المبحث الثالث: الحملة المالطية على حلق الوادي سنة 1050هـ/ 1640م

1-أسباب الحملة

2-وقائع الحملة

3-نتائج الحملة

أولا: التأثير الأندلسي الموريسكي في العلاقات التونسية الإسبانية ما بين 1609-1700م

المبحث الأول: الإيالة التونسية والمحنة الموريسكية بعد قرار الطرد النهائي.

1-أبرز التحولات السياسية للإيالة التونسية بداية القرن 17م.

بعدما استطاع سنان باشا تحرير البلاد التونسية من الاحتلال الإسباني، وقبل عودته إلى استانبول حاول وضع الأسس الأولى من أجل تثبيت الحكم العثماني، لذلك قام بتنصيب حاكما للبلاد ممثلا في حيدر باشا حاكم القيروان، الذي لعب دورا بارزا في عملية التحرير، ومنحه لقب باشا، وزوده بحامية عسكرية عثمانية تتكون من حوالي 4000 جندي انكشاري، وعين على رأس كل 100 منهم ضابطا يسمى (داي)* وعين عليهم قائدا عاما يسمى آغا**؛ فظ الأمن الداخلي وحماية البلاد من الخطر الخارجي الذي كان لازال يتهدد الإيالة الفتية[1]، فيما قام بإسناد مهمة القضاء للعلامة حسين أفندي[2] للحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وإجراء الأحكام الشرعية بينهم، وقام بإنشاء الديوان*** الذي كان يشبه ديوان الجزائر، بالإضافة إلى العديد من التنظيمات الإدارية الأخرى التي تخص الجيش والإدارة وتنظيم العلاقة بين السكان المحليين والسلطات الحاكمة الجديدة.

كان الإنكشارية يميلون إلى القوة والجفاء في تعاملهم مع الرعية ويرون أنفسهم الأسياد الحقيقيين للبلاد التونسية ، لذلك كثر ظلمهم وغابت العدالة والحق في التعامل مع الرعية، هذا ما ألب عليهم السكان المحليين وبعض الجنود الذين أعلنوا الثورة ضدهم في شهر ذي الحجة سنة 999هـ/1590م[3]، وقاموا على إثرها بإزاحة البولكباشية**** من الحكم واستطاعوا السيطرة على القصبة، والقضاء على الكثير من قادة الجيش المتغطرسين، ولم ينج منهم إلاّ ثلاثة؛ قتلوا فيما بعد ورميت جثثهم في أزقة العاصمة تونس ليعتبر بهم كل من تسول له نفسه ممارسة الظلم والفساد.

---

* – الداي ومعناها بالعصمانلية الخال، وكان يطلق هذا اللفظ على قادة الإنكشارية أو الضباط الكبار في الجيش، ثم أصبح أعلى رتبة في الإيالة الجزائرية الحديثة، وقد دام حكم الدايات من سنة1671م إلى غاية سنة 1830م.

** – الآغا وهي رتبة عسكرية عثمانية، ويقصد بها قائد الجيش أو ضابط القوات البرية.

1 – حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 113

2 – ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 105

*** – الديوان كلمة فارسية وتعني سجل أو دفتر؛ كانت تستعمل في العهد العثماني بمعنى مجلس الشورى، أو مجلس الحكم، يتكون من رؤساء جند الإنكشارية والباشا والمفتي والقاضي والكواهي (الكتاب) بالإضافة إلى الآغاوات السابقين، وكان رئيسه في بداية القرن السابع عشر الميلادي هو الباشا وآغا القمرين...، جون وولف: المرجع السابق، ص128.

3- *E. guellouz. A. masmoudi، m. smida: Histoire de la Tunisie Les Temps Mnode rnes, Société tunisienne de diffusion, Tunis, 1993, pp 32,33.*

**** – البولكباشية: معناه ضباط المشاة في الجيش البري.

وقد نتج عن هذه الثورة عدة قرارات، كان أبرزها:

- إلغاء النظام السابق الذي وضعه سنان باشا.
- تقديم أحد الدايات لتولي حكم الإيالة، كانت له السلطة المطلقة للنظر في الشؤون المدنية والعسكرية.
- الباشا يكون في المرتبة الثانية بعد الداي في سلم المسؤوليات (وقد جرد من جميع الصلاحيات التي كان يتمتع بها سابقا).
- تحديد مهام الديوان والحد من صلاحياته، في مقابل ما أصبح يتمتع به الداي من صلاحيات ومهام.[1]

بعد هذه الثورة تولى حكم البلاد إبراهيم داي (1590-1592م) الذي عرف عنه الحكمة والصبر والرفق بالرعاية، وقد دام حكمه ثلاثة سنوات عرفت فيها الإيالة التونسية نوعا من الاستقرار والألفة بين الحاكم والرعية، ليقرر في النهاية التخلي عن الحكم وحج بيت الله الحرام، ليتجه فيما بعد إلى مسقط رأسه جزيرة رودس، ويتولى من بعده حكم الإيالة موسى داي في سنة 1001هـ/1592م، الذي حاول هو أيضا الانفراد بالحكم والاستبداد بالأمر، إلا أنه لم يستطع أمام قوة خصومه الذين حاولوا حبك الدسائس والمؤامرات ضده لإزاحته من الحكم، لذلك وعندما شعر بالخطر على حياته طلب الإذن بالحج نجاة بنفسه، فسُمح له بذلك و طُلب منه عدم العودة إلى البلاد مرة أخرى، ليخلفه فيما بعد أحد أحسن وأمهر القادة العسكريين المرافقين لسنان باشا، وهو عثمان داي[*]، الذي لقي معارضة شديدة من طرف بعض الانكشارية بقيادة صفر داي[2]، إلاّ أن الغلبة في النهاية كانت لعثمان داي الذي استطاع الانفراد بحكم البلاد سنة 1007هـ/1599م، وقد دام حكمه حوالي 12 سنة، حقق فيها الكثير من الإنجازات؛ أهمها ضم جزيرة جربة للإيالة التونسية سنة 1004هـ/1605م، وقام باستخلاف عاملا عليها اسمه الشيخ مسعود المومني[3]، بعدما ظلت بيد الباشاوات الطرابلسيين منذ أن ضمها درغوت باشا سنة 960هـ/1553م.

---

1 - ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 106.

* - عثمان داي: من أفضل الجنود القادمين مع سنان باشا، كان ذا حزم و عقل ودين وكان ذا هيبة كبيرة، سن قوانين المساواة بين الرعية؛ تعرف بالميزان، ثم وجه عنايته بعمارة البلاد وتنظيم شؤونها واهتم بالأسطول فكثرت في أيامه غنائم البحر، وأنجز العديد من المرافق العامة كالقنطرة التي على طريق بنزرت والتي مازالت قائمة إلى يومنا هذا، وفي أيامه كان قرار الطرد النهائي للأندلسيين الموريسكيين سنة 1609م، وقد تعاطف معهم واهتم بهم أيما اهتمام وأمر بتوفير كل ما يحتاجونه وبعد فترة حكم عامرة بالإنجازات والأعمال توفي عثمان داي سنة1009هـ/1609م، مخلفا وراءه ذرية صالحة منها حفيدته المحسنة الكبيرة عزيزة عثمانة ...للاستزادة ينظر، محمود مقديش: المصدر السابق، ص 90، الوزير السراج: المصدر السابق، ص155-162، حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ص113-115.

2 - حسين خوجة: المصدر السابق، ص 72.

3 - أبوراس الجربي: المصدر السابق، ص ص 112، 116.

عرفت الإيالة التونسية في عهد عثمان داي العديد من الإنجازات بفضل حنكته وبراعته في الحكم، فقد سن القوانين والتشريعات ونظّم العلاقة بين الحاكم والمحكوم وأصدر الأوامر من أجل عثمان داي معاملة الرعية بالرفق والمساواة، ووجه عنايته لتعمير البلاد وبناء المؤسسات التعليمة والمعالم الحضارية، وحصّن البلاد وبنا الأبراج؛ لأنه كان يعلم ما يتهدد الإيالة الناشئة من الأخطار الأجنبية، وفي عهده قدم الأندلسيون إلى البلاد التونسية، أين استقبلهم بالقبول والترحاب، وفي ذلك يقول ابن أبي الدينار: «... **وكثرت في أيامه غنائم البحر حتى كانت لا توصف، وفي أيامه كبر صيت محمد باي بن حسين باشا وكان قبطان البحر بغلائطه، وجر عدة غنائم مشهورة، وكان عثمان باي إذا جاءت غنائمه طلع إلى حلق الوادي وبيعت الغنيمة هناك فيقع للتجار ربح قوي، وفي أيامه جاء قبطان من بر النصارى وحصر ما بحلق الوادي من المراكب ومنعها من الخروج فخادعه عثمان داي إلى أن غدر به وأسره وسجنه بالقصبة وبها مات،...ومهد البلاد وجعل قوانين للرعايا يكون العمل بها ويسمونها قوانين عثمان داي ...وفي هذه السنة والتي تليها[1]جاءت الأندلس من بلاد النصارى نفاهم صاحب إسبانيا وكانوا خلقاً كثيراً فوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضعافهم على الناس وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا ...»**.[*]

يعتبر عثمان داي المؤسس الفعلي لنظام الدايات بسبب ما قدمه للبلاد التونسية من خدمات جليلة؛ سواء الإدارية أو التنظيمية أو السياسية أو العسكرية، وقبل أن يُكمل تلك الإنجازات توفي سنة1019هـ/1610م[2] ودفن بزاوية ابن عروس بالعاصمة تونس[3]، وبذلك لم يشاهد ما أنجزه الأندلسيين الذين وفر لهم الرعاية والاهتمام من أجل النهضة بالبلاد التونسية.

بعد وفاة عثمان داي خلفه في الحكم يوسف داي (1610-1637م) الذي سار على نهج سلفه، وقد استقر له الأمر، لأن الكثير من العوامل كانت في صالحه، نذكر منها:

- تميزه بشخصية قوية استطاع بها السيطرة على زمام الأمور وإخضاع الجيش البري والبحري لسلطته، مما انعكس إيجاباً على العلاقة بين الحاكم والرعية.

---

1 – حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص114.

* – يقصد سنة 1609م وهي السنة التي أتخذ فيها فليب الثالث ملك إسبانيا قرار الطرد النهائي الخاص بالأندلسيين.

2 – ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص ص 192، 193.

3 – حسين خوجة: المصدر السابق، ص 7.

- ظهور شخصية قوية ساعدته على النجاح وهو علي ثابت (الرمال) الذي كان ساعده الأيمن في تدبير شؤون الحكم.[1]
- حب الرعية ليوسف داي الذي عرف عنه عدله وحبه للسكان المحليين.[2]
- استقرار الأوضاع الداخلية نتيجة القوانين التي وضعها سلفه عثمان داي، والتي حددت الخطوط العريضة للعلاقات بين الحاكم العثماني والسكان المحليين، وقد تميزت هذه العلاقات بالمودة والمحبة بين الطرفين.
- قوة الأسطول التونسي الذي بدأ يعرف أوج قوته في عهد عثمان داي واستكمل هذه القوة في عهد يوسف داي؛ الذي أدرك أنه لا يمكن المحافظة على الاستقرار الداخلي ما لم يمتلك جيشاً وأسطولاً بحرياً يستطيع بهما مواجهة الأخطار الخارجية التي ازدادت ضراوتها في هذا القرن خاصة من طرف الفرنسيين.[3]
- الاهتمام بالسكان وخدمة مصالحهم- لأنه أدرك أن خدمة الرعية هي أساس الاستقرار واستمرار حكمه- لذلك بنا القناطر والعيون والأسواق[4] والمدارس مثل المدرسة "اليوسفية" بالغربية، التي عين عليها رمضان أفندي الخطيب كأول مدرس بها، وبنا المسجد الجامع برأس سوق الترك سنة 1020هـ/ديسمبر 1611م، جانفي1612م وبنا حوله ثمانية أبواب: المسجد الجامع، المدرسة، الميضأة، القهوة، الحمام، الفندق، سوق البركة، الطاحونة، وعمّر الحصون؛ وكان أعظمها وأحسنها على الإطلاق البرج الموجود على ساحل بنزرت، الذي كان مخصصا للمرابطة والدفاع عن البلاد، وقام بترميم القديم منها، وبنا القناطر مثل قنطرة وادي مجردة قرب طبرية وهي من أحسن ما أبدع وصنع، وأجرى الأعطيات لمعلمي الصبيان، وبنا الأسواق لتنظيم الشؤون العامة وخدمة السكان المحليين.[5]

بالرغم من النجاحات الداخلية التي تحققت في عهد يوسف داي، إلا أن علاقاته الخارجية تميزت بالتوتر والصراع مع الإيالة الجزائرية وفرنسا التي سعت دائماً لاحتلال تونس وتحقيق أحلام حكامها الذين أرادوا التوسع على حساب بلاد المغرب الإسلامي واستغلال خيراته، لذلك قرر يوسف داي تعزيز القدرات الدفاعية والهجومية، فقام ببناء الحصون والأبراج واهتم بالأسطول البحري، الذي علا شأنه، مما ساهم في شهرت رياس

---

1 - الوزير السراج: المصدر السابق، ص165.

2 - حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص105

3 - ألفونص روسو: المصدر السابق، ص.106.

4 - ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 194.

5 - الوزير السراج: المصدر السابق، ص ص 168، 170.

البحر وسطوتهم، فانعكس ذلك إيجاباً على توسع نشاط الجهاد البحري في المتوسط، وقد تطورت قطع الأسطول ووصل عدد سفنه إلى "15"سفينة من النوع الكبير دون احتساب السفن الصغيرة.[1]

بحكم ازدياد نفوذ حكام الإيالة الجزائرية داخل الإيالة التونسية اضطر يوسف داي إلى الحد من سطوتهم، هذا ما نتج عنه توترا كبيرا في العلاقات بين الطرفين، خاصة على الحدود الفاصلة بينهما[2]، أين وقعت اشتباكات عنيفة كادت تؤدي إلى حرب طاحنة بين الإيالتين، إلا أن تدخل العقلاء من الطرفين أدى إلى إبرام اتفاقية من أجل ترسيم الحدود سنة 1037هـ/1614م، تم بموجبها الإقرار بأن يكون وادي سراط كحد فاصل بينهما، فيكون ما يقع في غرب الوادي تابعا للجزائر وما يقع شرقيه تابعا لتونس.[3]

لم تستمر الاتفاقية الأولى طويلا، وبعد 14 سنة عادت المشاكل القديمة بين الطرفين تطفوا على سطح وتجددت معها مشاكل الحدود، بسبب تعدي القبائل المتاخمة للحدود على بعضها البعض، والدخول في صراع مستمر[4]حول الكلأ والماء والرعي، هذا ما كان سببا للتدخل العسكري من كلى الإيالتين.

الملاحظ أن هذه الأسباب في الحقيقة مصطنعة وليست حقيقية، وهناك أسباب أخرى يمكن حصر بعضها فيما يلي:

- محاولة حكام الجزائر إخضاع حكام تونس لسلطتهم؛ مثلما كان الحال في عهد البايلربايات.
- ضعف الإيالة التونسية بالمقارنة مع الإيالة الجزائرية أغرى حكام الأخيرة لبسط نفوذهم عليها.
- غياب التأثير المباشر لسلاطين الدولة العلية على حكام الإيالتين فتح الباب على مصراعيه لمحاولة كل طرف بسط نفوذه على الأخر.
- ضعف السلاطين العثمانيين أدى إلى ظهور قيادات محلية قوية بالإيالتين تريد الاستقلال بسلطة القرار، هذا ما نتج عنه تنافس بينهما، بدون الأخذ في الحسبان موقف سلاطين الدولة العلية.
- النفوذ الفرنسي داخل الإيالتين لعب دوره في تغذية الخلافات، رغبة في الاستئثار بخيرات البلدين وإلهاء حكامهما بالخلافات الداخلية لإنهاك قواهما في حروب طويلة ومستمرة.

نتيجة لخروقات القبائل وعبور الجيش الجزائري قررت السلطات التونسية بناء نقطة مراقبة عسكرية، "قلعة النوبة" عند مجرى وادي السراط، لكن الجزائريين رفضوا هذا الإجراء جملة وتفصيلا وأعلنوا الحرب على الإيالة

1 – ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 39.

2 – الباجي المسعودي أبي عبد الله الشيخ محمد: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، ط2، مطبعة بيكار وشركائه، تونس، 1333هـ/1914م، ص 92.

3 – ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 117.

4 – حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 115.

التونسية بتحريض من الشيخ ثابت بن شتوف أحد زعماء قبائل الكاف، التي كانت لها سطوة على المنطقة، وكانت السلطة المركزية بتونس تهابها بسبب إعلان ولائها لحكام الجزائر؛ الذين كانوا يتدخلون في الشؤون التونسية كل ما طُلب منهم ذلك[1]، مثلما حدث هذه المرة عندما التقى الجيشان في موقعة السطارة بتاريخ 13رمضان 1037هـ/17 ماي 1628م[2]، وبالرغم من انهزام الجيش الجزائري في بداية المعارك إلاّ أن انضمام قبيلة بن سعيد التونسية – المضادة للحكومة المركزية بالعاصمة تونس– أعاد موازين القوى لطبيعتها ورجح كفة الجيش الجزائري[*]، الذي استطاع إلحاق هزيمة نكراء بالجيش التونسي، الذي اضطرت قيادة بلاده لطلب الصلح، ومن أجل ذلك أرسلت وفداً عنها لمفاوضة الجزائريين، وقد تشكل الوفد من نخبة من العلماء والمشايخ أبرزهم؛ الشيخ تاج العارفين العثماني، الشيخ مصطفى، الشيخ محمد الأندلسي، الإمام أبو العباس أحمد خوجة،،سيدي الحاج عون الله، الشيخ الأفندي رمضان، الشيخ إبراهيم الغرياني، سيدي محمد العامري، سيدي علي الشرقي[3]، وبعد مفاوضات عسيرة وشاقة تم عقد معاهدة بين الطرفين؛ كانت أهم بنودها مايلي:

1- يبقى وادي سراط الحد الفاصل بين الإيالتين من الناحية الجنوبية.

2- ضرورة هدم قلعة النوبة العسكرية التونسية التي تم تشييدها وكانت السبب في نشوب الحرب.

3- يظل رسم الحدود بين البلدين من ناحية القبلة على ما كان عليه من قبل، أي أن يحدد بـ "وادي ملاّق" والنقطة المعروفة بـ "أحيرش" ونقطة "قلوب الثيران" ومنها إلى "جبل الحفا "ليتصل بالبحر.

4- كلما عبر رعايا الإيالتين من الجانبين إلى أرض الطرف الآخر فلا يحق لقادة الإيالة الأخرى أن تطالبهم بدفع الخراج، بل يكون خراجهم لحكام الإيالة الجديدة التي عبروا إليها.[4]

بهذه الاتفاقية تحسنت العلاقات الثنائية بين الإيالتين الجزائرية والتونسية ولو إلى حين، وقد بقيت هذه الخلافات طوال العهد العثماني بسبب الحساسية الموجودة بين الطرفين وتدخل العديد من العوامل الداخلية

1 – محمود مقديش: المصدر السابق، ص94.

2- *E.guellouz. A. masmoudi ،m. smida : op.cit, pp35.36.*

* – أطلق مقديش لفظ الخيانة على قبيلة بني سيعد وهذا تماشياً وماكان سائدا في ذلك الوقت، وهذا دليل على الفرقة الكبير الموجودة بين المسلمين، بالرغم من رابطة الدين والوطن وتبعية كلى الإيالتين للدولة العلية العثمانية، وسبب الفرقة والشقاق الأهواء وحب النفس المتجذرة في نفوس الحكام المغاربة، بدل العمل على المصالح العليا للأمة، هذا ما جعل حكام الدول الأوروبية تزداد أطماعهم في البلاد المغاربية خاصة والبلاد الإسلامية عامة.

3- عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 140هـ/1987م، ص217.

4 – الوزير السراج: المصدر السابق، ص181.

والخارجية، زاد تأجج الصراع ضعف السلاطين العثمانيين، هذا ما فتح المجال لمهاترات الحكام المحليين وتدخلات القوي الأجنبية في هذا الصراع.

أما في فيما يخص العلاقات التونسية الطرابلسية فقد بقي الصراع محتدما بين حكام الطرفين خاصة بعد استنجاد الطرابلسيين بحكام الإيالة الجزائرية، وكانت أبرز الأحداث في هذه الفترة ضم جزيرة جربة إلى البلاد التونسية على يد الشيخ سعيد أبي الجلود[1]، رمضان أفندي الخطيب لتعود نهائيا إلى سلطة يوسف داي، وبقيت كذلك إلى يوم الناس هذا، بعد أن ظلت عقودا من الزمن بيد حكام طرابلس الغرب.

أما فيما يخص العلاقات مع الدول الأوروبية فقد تميزت بالتوتر والصراع والندية، خاصة مع فرنسا التي تركزت العلاقات معها على عنصرين هامين؛ هما الأسرى والتجارة.

في شهر جويلية 1650م قدم إلى تونس الكونت ساقاري دي بريق سفير فرنسا بالدولة العلية بصحبة مبعوث السلطان العثماني مصطفى آغا، وكانت مهمتهما تقتضي إقناع حكام الإيالة التونسية بوجوب الامتثال بنصوص المعاهدة المبرة سنة 1604م بين الملك الفرنسي هنري الرابع والسلطان العثماني أحمد الأول وكانت أهم بنود هذه المعاهدة:

- إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين لدى الدولة العلية العثمانية وجميع إيالاتها.
- إعادة جميع الحقوق للرعاية الفرنسيين مهما كان نوعها.[2]
- إرجاع جميع السفن الفرنسية التي تم السيطرة عليها مؤخرا من طرف التونسيين.[3]

كان ساقاري دي بريق يعتقد أن مأموريته ستتم بسهولة، خصوصا وأنه كان وسيطا خلال إقامته بإستانبول في تعيين محمد باشا على رأس البحرية التونسية، إلاّ أن الداي عثمان كان حازما في الرد على السفير الفرنسي، فقد كتب إليه رسالة في 19 جويلية 1650م، أوضح له فيها أسباب توتر العلاقات التونسية الفرنسية، والتي عزاها إلى مايلي:

- احتجاز سفينة تابع للدولة العلية العثمانية من طرف بارجة حربية فرنسية.

1 – الوزير السراج: المصدر السابق، ص175.

2 – محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 247.

3 - *Brèves (M.De) :(Le sieur) : Relation des voyages de M.De Brèves Tant En Grèce Terre Sainte Et Egypte Kuaux Royaumes De Tunis Et Alger. Nicolas Gaase-Éditeur, Paris, 1628, pp364, 365.*

- عرقلة التجارة التونسية في عرض المتوسط من طرف السفن الحربية الإيطالية والإسبانية، التي كانت ترفع الرايات الفرنسية.
- عدم اتخاذ الحكومة الفرنسية لأي مبادرة تمنع الدول الأوروبية من اعتراض السفن التونسية، بل أكثر من ذلك استغلال راية الدولة الفرنسية لمهاجمة السفن التونسية، وهذا ما اعتبره الداي عثمان تواطئا من طرف الحكومة الفرنسية.[1]

أمام تعنت الداي عثمان في الاستجابة لمطالب السفير الفرنسي قرر هذا الأخير التوجه إلى مقر الديوان الإنكشاري بالعاصمة تونس، أين قرأ أمام أعضاءه فحوى أوامر السلطان العثماني التي جاء بها بحضور جمع من المواطنين والأعيان، وبعد فراغ السفير الفرنسي من تلاوة الأوامر السلطانية بادر آغا الإنكشارية بتليين الكلام محاولة منه لاستمالة الحاضرين حتى يقبلوا ما أمر به السلطان العثماني مراد الأول، وما إن أنهى كلمته حتى نهض عثمان داي من مقعده غاضبا معبرا بذلك عن رفضه الشديد وعدم قبول هذه الأوامر؛ معتبرا أن السلطان العثماني أصدرها تحت تأثير الغش والخداع والتدليس من طرف الفرنسيين ثم غادر القاعة غاضبا[2]، مخالفا بذلك الأعراف الدبلوماسية وقرارات حاكم السلطنة العلية، خاصة وأن في هذه الفترة كان حكام الإيالة التونسية لا يزالون يعلنون ولائهم المطلق للسلطان العثماني، وفي نفس الوقت يتبين لنا أن الداي عثمان كان يكن عداءً شديد للفرنسيين على عكس آغا الإنكشارية، بالإضافة إلى أننا نلاحظ وجود صراعات طفت على السطح بين الداي عثمان والإنكشارية حاولت السلطات الفرنسية استغلاله لصالحها .

أمام تأزم الأوضاع تدخل مراد رايس-أحد رياس البحر والذي اشتهر بجهاده البحري ضد السفن المسيحية طوال ستين سنة- لحل المشاكل العالقة بين الطرفين محاولا إجراء مباحثات مباشرة بين الداي عثمان والسفير الفرنسي بحضور المبعوث العثماني، إلا أنه لم يفلح في ذلك رغم محاولاته المتكررة، و نظرا للمكانة المرموقة التي كان يحظى بها لدى السلطات التونسية الحاكمة، أُعطيت له كل الصلاحيات للتفاوض بدلا عنها، وقد تحمل هذه المسؤولية بكل جدية وعزم وطلب من السفير الفرنسي بسط مطالبه على طاولة النقاش، هذا ما استجاب له السفير، الذي كانت مطالبه مدعومة بفرمان من السلطان العثماني، وقد تمحورت في مجملها على مايلي:

1 - ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 111

2 - *Brèves (M.De):op.cit, pp 364. 365.*

- يجب أن تحظى السفن التي ترفع العلم الفرنسي باحترام رياس البحر التونسيين، ويمنع عنهم منعا باتا الصعود إليها وتفتيشها أو التأكد من جنسيتها وحمولتها.*
- إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين دون شروط أو قيد.
- استرجاع السفن الفرنسية وحمولتها التي تم احتجازها سابقا.[1]

ما يمكن ملاحظته أن السفير الفرنسي استغل الفرمان العثماني وحاول رفع سقف مطالبه عاليا، وإلاّ بماذا نفسر طلبه عدم تفتيش السفن التي تحمل علم الفرنسيين، وإطلاق سراح جميع الأسرى؛ وهذا تَعدٍ صارخ على كل الأعراف والقيم التي تعارف عليها المجاهدون في بلاد المغرب، خاصة وأن عملية الاقتداء كانت تجلب أموال طائلة لخزينة هذه الدول، وهي في الحقيقة تعبر عن نظرة الاستعلاء التي حاولت الدبلوماسية الفرنسية تطبيقها في هذه المرحلة من تاريخ الدولة العلية.

رفض مراد رايس في البداية رفضا قاطعا الموافقة على هذه المطالب**، وأقر أنه من حق الرياس التونسيين الصعود للسفن الفرنسية وتفتيشها مهما كانت الحجج والأسباب، كما أصر على حقهم في ضرب أصحاب تلك السفن وقباطنتها وماسكي دفاترها بالفلقة لجعلهم يعترفون بجنسية تلك البضائع المعدة للتجارة، لأن الكثير من الدول كانت تستعمل السفن الفرنسية وعلمها من أجل الإفلات من قبضة الرياس التونسيين خاصة والطرابلسيين والجزائريين عامة، وهذا بتواطئي الفرنسيين الذين كانوا يستغلون معاهدة الامتيازات الموقعة مع الدولة العلية العثمانية، وكذلك بعض الاتفاقيات المبرمة مع الإيالات المغاربية من أجل التحايل والحصول على مزيد من الامتيازات لأنفسهم ولإخوانهم من الأوروبيين، إلاّ أنه وبعد إلحاح من طرف السفير الفرنسي قبل بالشرط الأول في مقابل السماح بمرور البضائع التونسية المشحونة على متن السفن الفرنسية، خاصة من جانب قراصنة مالطا،

* – هنا نلاحظ الحيل والأساليب الملتوية التي تمارسها الدبلوماسية الفرنسية التي كانت دائما تحاول الدفاع عن المصالح الأوروبية قاطبة، وتحاول استغلال أي فرصة لإظهار قوميتها ونصرة المسيحيين، خاصة منذ توقيع معاهدة الامتيازات سنة 1535م، على عكس الدولة العلية العثمانية التي بدأت تعرف العديد من المشاكل الداخلية، هذا ما فتح المجال لتدخل الدبلوماسية الفرنسية من أجل نيل أكبر قدر ممكن من الامتيازات داخل أراضي الدولة العلية، خاصة بلاد المغرب الإسلامي، وكل هذه الأحداث كانت مقدمة لاحتلالها.

1 – *Brèves (M.de): op.cit, pp 364, 365.*

** – نلاحظ أن المفاوضات كان يديرها من الجانب التونسي مراد رايس، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على القيمة الرفيعة التي يتمتع بها عند عثمان داي، بالإضافة إلى النفوذ القوي داخل جهاز الحكم العثماني بتونس، وفي نفس الوقت تعبر بصدق عن دور الرياس في حكم الإيالة التونسية خلال هذه المرحلة، ويمكن تفسير النفوذ الكبير لمراد رايس بما يلي:

-دوره البارز في جهاد المسيحيين أهله لأخذ مكانة مرموقة في البلاد التونسية.

-أكسبه الحكمة والحنكة والدهاء الدبلوماسي للتعامل مع مثل هذه المواقف. سنه المتقدم (حوالي80 سنة).

فلورنسا وإسبانيا، كما قبل الشرط المتعلق بالأسرى في مقابل إطلاق سراح الأسرى العثمانيين المحتجزين بمرسيليا*، بمعنى الوقوف الند للند أمام الفرنسيين ومعاملتهم بالمثل دون الخضوع لمطالبهم وأوامرهم التي كانوا يصدرونها، أما فيما يتعلق بالمطلب الثالث فقد رفضه جملة وتفصيلا لأنه ينقص من قيمة البحرية التونسية وقيادة بلادها، بالإضافة إلى ذلك فهي موارد دخلت خزينة الدولة ولا يمكن إعادتها أو التفريط فيها بأي حال من الأحوال.[1]

في نفس هذه الفترة كان حكام الجزائر في صراع مستمر ضد الفرنسيين، فقد قام الخضر باشا (1599-1603م)** بتهديم مركزهم التجاري القديم بالقالة وسجن قنصلهم، الذي أُطلق سراحه فيما يعد بعد اقتداءه، هذا ما جعل الفرنسيين يحيكون المؤامرات ضده ويحرضون السلطان العثماني عليه، ما أدى بهذا الأخير لإصدار حكم بإعدامه، وقد قام بتنفيذ هذا الحكم محمد قوصة باشا (1603-1605م) الذي لم يكتف بذلك بل قام أيضا بمصادرة أملاكه، وبعد أن أتم هذه المهمة سارع في إقامة صلح مع الفرنسيين تم بموجبه إعطاءهم الحق في حماية تجارتهم في عرض البحر، وتحميل المسؤولية التامة لباشاوات الجزائر في ارتكاب أي خطأ ضد السفن الفرنسية مهما كان نوعه، وأمر بتحرير جميع الأسرى الفرنسيين وإعادة بناء مركز القالة، إلاّ أن الديوان بالجزائر رفض هذه الشروط المخزية، بالرغم من تدخل السلطان العثماني وإرساله قوصة مصطفى باشا "القابجي" مندوبا عنه إلى الجزائر من أجل تنفيذ أوامره، وقد فشل في مهمته وأثار بتصرفاته الطائشة واستعلاءه الزائد غضب أعضاء الديوان الذين رفضوا تدخل المبعوث العثماني في شؤون الإيالة الداخلية جملة وتفصيلا، إلاّ أن وفاة قوصة محمد باشا سنة 1605م فسح المجال واسعا للمبعوث العثماني قوصة مصطفى باشا لتولي سلطة الحكم بالجزائر***، حينها قام باستغلال هذه الفرصة التي لم يكن ليحلم بها على الإطلاق وأرغم أعضاء الديوان على قبول معاهدة صلح مع

*- خرنق مبروكة: العلاقات التونسية الفرنسية خلال القرن السابع عشر (1605-1705م)، مذكرة شهادة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم، الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي بغرداية، 1432-1433هـ / 2011-2012 م، ص 54.

1 - ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 113.

** - هذه المرة الثالثة التي يحكم فيها خضر باشا بعد المرة الأولى ما بين 1589- 1592م، حيث قام بإخضاع قبائل بني عباس الذين أعلنوا الثورة ضده، وشجع الجهاد البحري ضد المسيحيين الذين لا يرتبطون مع الإيالة بمعاهدات، ولما أكمل ولايته رجع إلى استانبول، ليُتهم باختلاس أموال فسجن حتى ظهرت براءته، ليعود مرة أخرى لحكم الإيالة للمرة الثانية ما بين 1595- 1596م، عازما على الانتقام من خصومه الذين اتهموه سابقا، مستعينا بالأعراب على الأتراك، هذا ما نتج عنه كثرت القلاقل والفتن، مما اضطر السلطان العثماني لعزله ليخلفه مصطفى باشا في الحكم مابين 1596- 1599م ، ليعود إلى حكم الجزائر سنة 1599م ويستمر في الحكم إلى غاية 1603م...، للاستزادة ينظر، أحمد توفيق المدني: محمد بن عثمان ...المرجع السابق، ص ص50، 51.

*** - من خلال الأحداث السابقة نلاحظ أن الدبلوماسية الفرنسية لعبت دورا بارزا في تعيين القابجي قوصة مصطفى باشا على رأس السلطة في الجزائر، وإلاّ كيف نفسر قبوله شروط الصلح مباشرة بعد توليه الحكم، ضاربا بذلك عرض الحائط بكل القرارات التي أصدرها أعضاء الديوان، الذين حاولوا جاهدين رفض الشروط الفرنسية القاسية، إلا أن الكلمة الأخيرة عادت للباشا المدعوم من الفرنسيين.

الفرنسيين بشروطها السابقة، ما عدا شرطا واحدا رضخ فيه لرغبة أعضاء الديوان، وهو ما تعلق بإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين الذي لا يتم إلاّ بعد إطلاق سراح الأسرى المسلمين في فرنسا.[1]

الملاحظ أن الدبلوماسيين الفرنسيين حاولوا جاهدين استغلال علاقاتهم الجيدة مع سلاطين الباب العالي، واستعمال جميع السبل والحيل لزيادة نفوذهم داخل الإيالات المغاربية العثمانية، إلاّ أن فطنة وحنكة قيادة الإيالتين حال دون حصول الفرنسيين على مبتغاهم، هذا ما اضطرهم إلى استعمال أسلوب الوشاية والمؤامرات ضد الباشاوات وتشويه صورتهم عند سلاطين الدولة العلية حتى يسهل تنفيذ مؤامراتهم؛ وذلك بالتأثير على قرارات السلطان العثماني، الذي كان يضطر في كل مرة لإرسال مبعوثيه للتوسط لدى حكام الإيالتين التونسية والجزائرية حتى يرضخوا لشروط الفرنسيين، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على التأثير القوي للفرنسيين على السلاطين العثمانيين في اتخاذ القرارات المهمة التي كانت تداعياتها بارزة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين على الدولة العلية ذاتها وإيالاتها خاصة المغاربية منها، التي كانت عرضة للحملات العسكرية الأوروبية عامة والفرنسية خاصة الهادفة أساسا لاحتلال البلدان المغاربية، وقد تواصلت هذه الحملات إلى أن تم تحقيق الهدف منها بداية القرن التاسع عشر الميلادي، وبذلك صدقت النظرة الاستشرافية لحكام الإيالات المغاربية على عكس نظرة سلاطين الدولة العلية.

توقفت المفاوضات الفرنسية التونسية لبعض الوقت بعد رفض مراد ريس شروط السفير الفرنسي، الذي حاول استغلال حادثا عرضيا تمثل في استيلاء رياس البحر ببنزرت على سفينتين فرنسيتين بحاريتين محملتين ببضائع ثمينة، وبدأ في رفع سقف المطالب من جديد بعد أن بدأ يبدي بعض الليونة في مطالبه سابقا، إلا أنه نكص على عقيبيه فيما بعد بسبب هذا الحادث الذي حاول استغلاله بطريقة جيدة، لذلك عاد لاستعمال أسلوب التهديد والوعيد من أجل الحصول على المزيد من المزايا والتنازلات لصالح بلاده، إلاّ أن الداي عثمان – صاحب الشخصية القوية والعداء المستمر لفرنسا– رفض هذه التهديدات والضغوطات، واحتج على تساهل أعضاء الديوان مع السفير الفرنسي وعدم الرد على عجرفته وتطاوله، وقد نجح بالفعل في إقناع أعضاء الديوان في تبني موقف حازم تجاه الفرنسيين وعدم التساهل معهم مطلقا مهما كلفه ذلك وتحت أي طائل كان.[2]

بقيت حالة التوتر قائمة بين الطرفين، خاصة بعد الرسالة التي بعث بها الأسرى التونسيين الموجوين بفرنسا لذويهم؛ أخبروهم فيها عن الأوضاع المزرية التي يعشونها هناك وسوء المعاملة التي يتلقونها على أيدي

1 – أحمد توفيق المدني: محمد بن عثمان... المرجع السابق، ص 51.

2– ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 113.

الفرنسيين[1]، راجين من الداي عثمان الضغط عليهم من أجل إطلاق سراحهم، وقد تُوليَت هذه الرسالة بحضور السفير الفرنسي وأعضاء الديوان، هذا ما أجج الأوضاع بين الطرفين وزادها تعقيدا، لولا تدخل رؤساء الإنكشارية؛ الذين ساهموا بطريقة إيجابية في تهدأت الأمور والتوفيق بين المتخاصمين في التوصل إلى اتفاق أرضى الطرفين، وتم بموجبه إعادة العلاقات السلمية إلى سابق عهدها؛ وقد وقّع هذه المعاهدة السفير الفرنسي وعثمان داي بتاريخ 29 أوت 1605م[2]، وكان من أهم بنودها مايلي:

- تتعهد السلطات الفرنسية بإطلاق سراح جميع الأسرى التونسيين.
- تتعهد السلطات التونسية بإطلاق جميع الأسرى الفرنسيين.
- يتم إرجاع جميع البضائع والسلع والسفن الفرنسية التي أخذها التونسيون بالقوة.
- يتعهد الطرفان باحترام معاهدة الامتيازات وما اتفق عليه الملوك الفرنسيين والسلاطين العثمانيين فيما بينهم[3].

وهكذا ساهم هذا الاتفاق بطريقة إيجابية في تحسين العلاقات التونسية الفرنسية ولو لمدة بسيطة من الزمن، في بداية القرن السابع عشر الميلادي ظهر بتونس جماعة من الأعلاج تسمواكلهم باسم مراد مباشرة بعد اعتناقهم الدين الإسلامي، وقد اتخذوا هذا الاسم تبركا وتفاؤلا بأسماء السلاطين العثمانيين مراد الثالث* ومراد

1 – خرنق مبروكة: المرجع السابق، ص 55.

2 – ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 114.

3- Rouard de card: traites de la France avec les pays de L'Afrique du nord, A pedone-éditeur, paris,1906, p 113.

* – السلطان الغازي مراد خان الثالث ولد بالقسطنطينية في 5 جمادى الأولى 953هـ/ 3 جويلية 1546م، في بداية حكمه أمر بمنع الخمر، الذي انتشر بشكل كبير في عهد سلفه السلطان سليم خان الثاني، إلا أن الانكشارية ثاروا ضد هذا القرار، هذا ما اضطره للتراجع عن قراره السابق مع وضع بعض القيود على شربه، منها عدم ذهاب العقل وتكدير الراحة العمومية – وهذا دليلا على سطوة و نفوذ الانكشارية داخل البيت الحاكم العثماني خاصة بعد نهاية مرحلة القوة والتفوق مع وفاة سليمان القانوني سنة 1566م – ثم أمر بقتل إخوته الخمسة ليأمن على الملك من المنازعة، أمضى معاهدة مع ملك النمسا رودلف بن ماكسيمليان الثاني سنة 1576م، مدتها ثماني سنوات، فيماكانت علاقاته مع ملك فرنسا على أحسن حال، بحيث أعطى للقنصل الفرنسي الأسبقية على كافة القناصل الآخرين في المقابلات والاحتفالات الرسمية، وكانت علاقاته حسنة أيضا مع حكام البندقية، وفي عهده تحصلت الملك الإنجليزية إيزابيلا على امتيازات تجارية لبلادها، بحيث يمكن لتجار بلادها حمل علم بلادهم على مراكبهم إذا أرادوا الدخول للموانئ العثمانية، بعد أن كان لا يحق لهم ذلك في الماضي ولجميع الدول الأوروبية الأخرى ما عدا سفن البندقية إلا تحت ظل العلم الفرنسي، وبعد واحد وعشرين سنة من الحكم توفي السلطان مراد خان الثالث يوم 8 جمادى الأولى سنة 1003هـ/9 جانفي 1595م وله من العمر خمسون سنة، وكان شاعرا مجيدا فطنا ذكيا، إلا أنه كان ميالا لنسائه متخذا معتدا بمشورتهن، هذا ما أثر على الكثير من قراراته التي لم تكن في صالح العباد والبلاد...للاستزادة ينظر، محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ص 259، 266.

الرابع*، وقد بدأ نفوذهم يزداد وطموحاتهم تكبر مباشرة بعد وفاة رمضان باي بن الحسن قائد الجيش في سنة 1021هـ/ 1612م خلال فترة حكم يوسف داي، الذي عين خلفاً له أحد الأعلاج يدعى مراد الأول**، وهو المؤسس الفعلي للدولة المرادية، وكان هذا الشخص له طموحات متزايدة، ساعده في ذلك شجاعته وثروته الطائلة، فقد كانت عينه على منصب الباشا، لذلك عمل كل ما في وسعه حتى استطاع فعلا الحصول عليه ونيل التزكية من طرف السلطان العثماني مراد الرابع سنة 1041هـ/1631م، هذا ما جعله يتنازل لابنه حمودة*** عن مهامه السابقة التي كان يباشرها[1] بالإضافة إلى تقليده منصب الداي**** في نفس سنة وفاة والده[2]، ومن هنا بدأت أهمية البايات تزداد ونفوذهم داخل دواليب السلطة يتعاظم، في مقابل انحصار نفوذ الدايات مع استلام حمودة باي منصب والده بعد وفاته سنة 1531م، ليحصل فيما بعد سنة 1068هـ/1657م على لقب الباشا[3]، وقد استطاع حمودة باشا المرادي دق آخر مسمار في نعش حكم الدايات مباشرة بعد وفاة الداي أحمد خوجة (1640-1647م) وتولي محمد لازا، لتبدأ بعدها رتبة الباي ترتفع على رتبة الداي.

*- مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول ابن السلطان محمد الثالث ولد في 28جمادى الأولى1018هـ/ 29أوت 1609م، تولى الحكم بعد أن عزل الانكشارية عمه السلطان مصطفى الأول ابن السلطان محمد الثالث بسبب صغر سنه حتى لا يعارض أعمالهم الإجرامية ولا يحد من نفوذهم الذي اكتسبوه فيما مضى، في عهده تمت العديد من التمردات والثورات أشهرها ثورة الانكشارية التي راح ضحيتها الصدر الأعظم حافظ باشا في 18رجب 1041هـ/ 9 فيفري 1632م بالرغم من محالة السلطان منعهم من ذلك، ومن هذه الحادثة بدأ السلطان في ملاحقة رؤوس الانكشارية والبطش بهم، ثم قام بتأمين الناس على ممتلكاتهم و توفير الراحة لهم بمعاقبة كل من تسول له نفسه المساس بمصالح الدولة والرعية، وقد استطاع القضاء على ثورة فخر الدين الدرزي بالشام، و قام بفتح مدينة أريون الواقعة في الشمال الغربي من إيران سنة 25صفر 1045هـ/ 10أوت 1635م، ثم توجه إلى تبريز وفتحها في 28 ربيع الأول 1045هـ /10سبتمبر 1635م...للاستزادة ينظر، محمد فريد بك المصدر السابق ،ص280، 285.

** - ينتمي إلى عائلة كاثوليكية من جزيرة كورسيكا الفرنسية، قام البحارة المغاربة بأسره ليعتنق الإسلام فيما بعد، كان رجل غنيا وله شخصية قوية وحازمة، وله صيت واسع، هذا ما أهله ليكون أهم شخصية في الإيالة التونسية خلال تلك الفترة التي عاش فيها، وكان مراد يملك طموحا كبيرا أهله لتولي المناصب العليا، ساعده في ذلك ثروته الطائلة التي امتلكها...،للاستزادة ينظر، ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 118.

*** - حمودة باشا ويسمى أيضا محمد باشا ابن مراد باي من أهم البايات الذين حكموا الإيالة التونسية، له العديد من الإنجازات والأعمال، قال عنه الوزير السراج «...المولى الهمام، وإمام الولاة الفخام، أبو عبد الله محمد حمودة قدوة الأنام، في سير الملوك الأعلام، رتب في دفاتر السياسة فروض المملكة وسننها، وأوضح بكوكب فضله طرقها وسننها، وبنى على أساس المجد معالمها، وأصبح تحت ظلال معاني صفحاتها خبيرها وقوصة مصطفى باشا "القابجي" عالمها، شيد مقام المملكة الإفريقية وأوصل لأوج المعالي مشاهدها، فأدهشت بجمال إشراقها مشاهدها، وصيرت بلطيف أنبائها من بعين الإنصاف شاهدها، قاضيا بتفضيلها على علاتها وشاهدها، وألقى على رونق مفرقها تاج أبهة لو شاهدها بختنصر لانقاد لطاعتها وما تنصر، حاز قصب السبق في مضمار الكرم، وما تعود لسانه لمستمطر النعم سوى نَعم، وبر خواطرهم كان ولوعا بحب العلماء يتلذذ مجالستهم وحصل لهم منه المدد الأفخم، فأنتج له منهم الثناء الأعظم...» للاستزادة ينظر، الوزير السراج: المصدر السابق، ص ص184- 190.

1 - ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 131.

**** - الداي هي أعلى منصب ثم تأتي رتبة الباشا وهي رتبة عسكرية وتعني قيادة الجيش، ثم يأتي الباي.

2 - حسين خوجة: المصدر السابق، ص7.

3 - محمود مقديش: المصدر السابق، ص102

استطاع حمودة باشا القضاء على تمردات قبائل أولاد سعيد الذين عاثوا في البلاد فسادا وأهلكوا الحرث والنسل فخرج إليهم على رأس جيشه في شتاء سنة 1041هـ/1631م وشتت شملهم وأنقذ مدينة القيروان منهم، وولى عليها مملوكه علي الحناشي ووصل حتى بلاد الجريد ثم رجع قافلا إلى الحامة واستطاع القضاء على تمردات الأعراب بها سنة 1046هـ/1636م، ومن بعدها اتجه إلى جبل وسلات الذي عرف حركة تمرد واسعة لقبائل بني شنوف[1]، فاستطاع إخضاعهم لسلطته ثم توجه لشيوخ العرب كالشيخ خالد بن نصر الحناشي؛ الذي كان له صيتا واسعا، خاصة وأن السلطة المركزية بتونس كانت تقدم له الهدايا وتهادنه حتى تتجنب سخطه وشره، وفي نفس الوقت يقيها شر هجمات الجيش والقبائل الجزائرية، إلى أن جاء حمودة باشا واستطاع إخضاعه لسلطته والقضاء على تمرده نهائيا[2]، وبذلك دانت له البلاد حتى قبل أن يتولى رتبة الباشوية سنة 1068هـ/1657م التي جاءته مقرونة بالأوامر السلطانية، فصار بذلك الحاكم الفعلي لتونس، حتى أن معظم قبائل الدواخل كانت لا تعترف بأي سلطة ما عدا سلطة حمودة باشا.[3]

بعد أربع سنوات من توليه منصب الباشا قرر حمودة باشا سنة 1073هـ/1662م التخلي طواعية عن منصبه لأبنائه الثلاثة، وهم:

- مراد باي، وتقلد مسؤولية الجيش البري "المحلات".
- محمد الحفصي، وتولى حكم القيروان، سوسة، المنستير وصفاقس.
- حسن باي، وهو أصغر أخوته وقد تولى حكم إفريقية، المتاخم للحدود الجزائرية ويشمل باجة والكاف.[4]

مباشرة بعد وفاة حمودة باشا سنة 1076هـ/1665م، بدأت مرحلة ضعف الدولة المرادية لتزداد الأوضاع سوءا في عهد خلفه ابنه مراد الثاني (1666-1675م) الذي عرفت فترة حكمه العديد من المشاكل، فقد ثار عليه والي طرابلس الغرب عثمان باشا، إلا أن هذا التمرد لم يدم طويلا وتم القضاء عليه بسرعة، وما إن انتهى من القضاء على هذا التمرد حتى ثار عليه الإنكشارية الذين لم يصمدوا طويلا أمام الحزم والصرامة اللذان أبداهما مراد الثاني، الذي استطاع القضاء على رؤساء الفتنة وتهديم ثكنتهم، ليعاجله الموت أواخر جمادى الأولى سنة 1086هـ/1675م[5]، ليتولى من بعده الحكم محمد بن مراد باي وأخوه علي باي، إلا أنهما اختلفا فيما بعد وتنازعا

1 - الوزير السراج: المصدر السابق، ص ص 187، 189.
2 - محمود مقديش: المصدر السابق، ص 101.
3 - ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 118.
4 - محمود مقديش: المصدر السابق، ص 102.
5 - ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص231-233.

في الأمر، وبذلك حدثت فتنة عظيمة بسبب هذا الخلاف الذي لم ينته إلا بعد تدخل أعضاء ديوان الجند، الذين عقدوا اجتماعا طارئا تقرر على إثره خلع الأخوين وتقديم عمهما محمد الحفصي لتولي حكم الإيالة، وكان ذلك في رجب سنة 1086هـ/ 1675م[1]، ومنذ هذا التاريخ ازدادت أوضاع الأسرة المرادية تأزما وتشتت شمل البيت المرادي، فاسحا المجال أمام الجزائريين للتدخل المباشر في شؤون الحكم بالإيالة[2]، لتستمر الخصومات بين الإخوة إلى غاية سقوط هذه الأسرة نهائيا، وترتقي بدلا عنها الأسرة الحسينية إلى الحكم بقيادة حسين بن علي (1705م-1735م) لتدخل البلاد التونسية مرحلة جديدة في بداية القرن الثامن عشر ميلادي.

2-مميزات البلاد التونسية خلال القرن السابع عشر الميلادي.

- الإصلاحات الرائدة التي قام بها عثمان داي، حيث استطاع بها إدخال البلاد التونسية القرن السابع عشر الميلادي وهي رائدة في هذا المجال، فقد نظم العلاقة بين السلطة والرعية، والرعية فيما بينها.
- قدوم الأندلسيين الموريسكيين ومساهمتهم في النهضة الرائدة بالبلاد التونسية في جميع المجالات، بالتعاون مع السلطة والسكان المحليين، كان لها الأثر المباشر على البلاد والعباد.
- قيام الأسرة المرادية التي استطاعت حكم البلاد والتأثير في سير الأحداث سواء داخل البلاد أو خارجها.
- بداية الصراع والتنافس بين الإيالتين الجزائرية والتونسية، ومحاولة كل طرف إثبات وجوده، خاصة الطرف الجزائري الذي بقي مصمما على إبقاء التونسيين تابعين لهم مثلما كان عليه الحال في عهد البايلربايات، هذا ما نتج عنه توترا في العلاقات الثنائية، ترجمت إلى صراع على الحدود والنفوذ.
- أدى الصراع الجزائري التونسي إلى تحامل القوى الأوروبية على الإيالات المغاربية، خاصة من طرف الفرنسيين، الذين حاولوا جاهدين استغلال هذا الصراع والتوتر لصالحهم وزيادة نفوذهم.
- توتر العلاقات التونسية الفرنسية، خاصة وأن هذه سلطات هذه الأخيرة حاولت زيادة نفوذها والحصول على امتيازات تجارية وعسكرية داخل الإيالة التونسية، مستغلة في ذلك معاهدة الامتيازات مع الدولة العلية العثمانية التي أُمضيت سنة 1535م، إلاّ أن النزعة الوطنية التي تمتع بها حكام الإيالة التونسية حالت دون تحقيق الفرنسيين لأغراضهم، بالرغم من الأساليب والطرق الملتوية التي كانت تستعملها الدبلوماسية الفرنسية؛ بل أكثر من ذلك كانت في العديد من المرات تستعمل الوشاية ضد حكام

1 - محمود مقديش: المصدر السابق، ص 107

2 - حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ص 120، 121.

الإيالات المغاربية لدى سلاطين الدولة العلية العثمانية، وهي أساليب دائمة الاستعمال من طرف الدبلوماسيين الفرنسيين من أجل تحقيق أغراضهم الخاصة أو ما تعلق بالمصالح الأوروبية.

- لعب الصراع الداخلي دورا بارزا على الجهاد البحري ضد الأوروبيين، بالرغم من أن هذا القرن عرف تراجعا واضحا في الصراع المغاربي الإسباني، فقد فسح الإسبان المجال لفرسان مالطا وحكام بعض الدويلات الإيطالية لتولي مهمة قيادة الصراع ضد الإيالات المغاربية نيابة عنهم.
- انهيار نفوذ الدايات وحكمهم، وزيادة نفوذ البايات الذين استطاعوا الوصول إلى الحكم والسيطرة على البلاد التونسية خاصة في عهد حمودة الباشا الذي عرف بأعماله العسكرية داخل البلاد وإنجازاته العمرانية التي خلفها، وقد أحدث بدعة لم تكن معروفة بالبلاد التونسية، عندما تخلى عن الحكم طواعية، بالرغم من التنازل عنه لأبنائه.

المبحث الثاني: الإيالة التونسية والقضية الموريسكية بعد قرار الطرد النهائي 1609-1614م.

1-الهجرة الأندلسية إلى الإيالة التونسية.

مباشرة بعد تطبيق قرار الطرد النهائي بحق الأندلسيين من طرف السلطات الإسبانية سنة 1609م، تعددت وجهات الفارين الموريسكيين؛ سواء باتجاه العالم الإسلامي كالمغرب الأقصى والإيالة لجزائرية والإيالة التونسية والدولة العلية العثمانية وغيرهم، أو باتجاه العالم المسيحي كفرنسا والبندقية وحتى العالم الجديد، وقد كانت الإيالة التونسية من أهم الدول التي احتضنت الجاليات المسلمة الفارة بدينها وعقيدتها، بعد أن وجدت كل الترحاب والقبول من طرف التونسيين[1]، خاصة وأن هذا الجاليات بلغ مسامعها كرم التونسيين وتعاطفهم المطلق مع قضيتهم وما عانوه من عذاب ومهانة على أيدي الإسبان عامة ودواوين التفتيش خاصة، وما شجع أيضا الأندلسيين على الاستقرار بالإضافة إلى ما سبق خصب الأراضي التونسية وجودتها[2]، زد على ذلك قرب الإيالة التونسية من الدويلات الإيطالية مركز الكنيسة الكاثوليكية المدعم الأساسي لسياسة الإسبان ضد المسلمين، هذا ما ساعد الأندلسيين على ممارسة الجهاد البحري ضد المسيحيين والانتقام من الذين سلبوهم أموالهم و أولادهم وأراضيهم وغيروا دينهم وعقيدتهم.

1 - محمد قشتيليو: المرجع السابق، ص82.

2 - حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص114.

وقد نقل لنا مجهول صاحب كتاب نبذة العصر نصا معبرا يتكلم فيه عن مأساة حقيقية عاشها الموريسكيين مباشرة بعد سقوط غرناطة وما بعدها وكيفية جوازهم إلى بلاد المغرب الإسلامي، وفي ذلك قال: **«... وكان من أراد الجواز من المسلمين تُجَوِّزه النصارى بالكراء الوافي لضعف المسلمون وقوة المغاوم، وزالت حرمة الإسلام عن المسلمين وقطع لهم الأذان في الصوامع والاجتماع للصلوات في المساجد ومن أدار الصلاة فعلها في داره، وأمر على كبار غرناطة بالخروج من المدينة إلى الأرباض وقبض على أولاد السّراج وأولاد بيرة وأولاد طغير، ثم بادر المسلمون بالجواز إلى العدوة* من المراسي فخرج من بقى من أهل مالقة في ثلاث أيام إلى بادس**، وخرج أهل المرية في نصف يوم إلى تلمسان، وخرج أهل الجزيرة الخضراء في نصف يوم إلى طنجة، وخرج أهل رندة وبسطة وحصن موجر وقرية قردوش وحصن مرتيل إلى تطوان وأحوازها، وأهل ترقة خرجوا إلى المهدية وخرج أهل منسين إلى بلاد الريف، وخرج أهل دانية وأهل جزيرة صقلية في أربعة أيام إلى تونس والجزائر والقيروان، وخرج أهل لوْشة وقرية الفخار والبعض من غرناطة وأهل مرشانة وأهل البُشرة إلى قبيلة غمارة بزاوية سيدي أحمد الغرال، وخرج أهل بربرة وبرجة وبولة وأندراش إلى ما بين طنجة وتطوان ثم انتقل البعض منهم إلى قبيلة بني سعيد من قبائل غمارة، وخرج أهل مرينية في يوم إلى مدينة أزيلة*** وما قرب منها ثم خرج أهل مدينة بليشوشيطة وقرية شريش إلى مدينة سلا**

* – العدوة، أطلق سكان بلاد المغرب الإسلامي والأندلس وفيما بعد المؤرخين على بلاد المغرب والأندلس اسم العدوة أو العدوتين؛ لقربهما من بعضهم البعض وسهولة الاتصال بينهما، فالساحل المغربي يتصل اتصالا مباشرا بالسواحل الأندلسية ولا يفصل بينهما إلا مضيق جبل طارق.

** – بادس أو باديس مدينة مغربية يقال أن القوط هم من أسسوها، وآخرون يقولون أهل البلد، تقع بين جبلين كبيرين قرب إحدى الشعاب، يكثر بها السمك الذي يشكل أحد مصادر الدخل للسكان، تحتوي على مرفأ هام يعتبر الأقرب في البحر المتوسط لمدينة فاس، والذي كان منطلقا لحملات الجهاد البحري ضد القراصنة المسيحيين ويوجد به أيضا دارا لصناعة السفن الحربية المعدة للجهاد البحري، وسكانها ينتسبون إلى قبيلة غمارة المغربية، أقام فيها بيدرو دي نافار الإسباني شبه برج بالجير والرمل ووضع فوقه خمسة مدافع ضخمة وثلاثين جنديا بقيادة فلالوبوس من أجل مراقبة المنطقة والرياس عند خروجهم للجهاد، ليتم تحريرها من قبل المغاربة سنة 1522م وقتل جميع الحامية الإسبانية الموجودة بها، ليسيطر عليها الأتراك العثمانيون فيما بعد إلى أن تم احتلالها من طرف الإسبان مرة أخرى ...للاستزادة ينظر، مرمول كربخال: المصدر السابق، ص ص 230-243.

***– أزيلة والمقصود بها مدينة أصيلا المغربية الساحلية تقع على بعد سبعة وأربعين فرسخا (كل فرسخ يساوي 5.800) من فاس وسبعة فراسخ من مضيق جبل طارق، يقال أنها أسست من طرف الرمان، ثم احتلها القوط وأقاموا بها حامية عسكرية إلى غاية سنة94هـ/713م، أين استطاع الفاتحون العرب فتحها وضمها للممتلكات الدولة الإسلامية، هاجمها الإنجليز سنة 936م وقاموا بتخريبها وإهلاك الحرث والنسل فيه انتقاما من المسلمين الذين كانوا يهاجمون شواطئ أوكوصيا وإنجلترا، وبقيت هكذا حتى قام ملوك قرطبة بإعادة تعميرها من جديد بعد عشرين سنة من ذلك ، قام ملك البرتغال ألفونس باحتلالها سنة876هـ/ 1470م بعد معارك طاحنة أبلى فيها المسلمون بلاء حسنا وفقدوا حوالي 1000 شهيد وأسر منهم 5000، من بينهم محمد الوطاسي الذي لقب بالبرتغالي، وتخلوا عنها بعد دخول محمد الشيخ السعدي مدينة فاس سنة 951هـ / 1544م، ليعاودوا احتلالها قبيل معركة واد المخازن بعد أن تواطأ معهم محمد المتوكل... للاستزادة ينظر، مرمول كربخال: المصدر السابق، ص ص197-208؛ حسن الوزان: المصدر السابق، ص ج1، ص 242.

وخرج ما بقي من أهل غرناطة في خمسة عشر يوما إلى بجاية ووهران وبرشد زوالة ومازونة ونفطة وقابس وصفاقس وسوسة، وخرج أهل طريفة في يوم إلى آسفي وزمور وأنفة وخرج أهل القلعة إلى آجدير...».[1]

من خلال هذا النص يمكننا إبراز بعض الحقائق التاريخية التالية:

1- غالبية الأندلسيين كانوا يعيشون في فقر مدقع نتيجة سياسية الحصار والتجويع الذي فرضه عليهم النصارى، خاصة أثناء حصار غرناطة، لذلك فقد الأندلسيون الكثير من أموالهم ومدخراتهم، وما بقي منها سلبها منهم الإسبان.

2- استغل النصارى فرصة فرار الأندلسيين إلى بلاد المغرب هروبا من القتل والتعذيب والتنكيل وقاموا بكراء سفنهم وعتادهم لنقل هؤلاء في مقابل أموالا ضخمة، فلم يكتف الإسبان بما نهبوه من الأندلسيين؛ بل أرادوا أخذ الباقي عن طريق كراء سفنهم وفي نفس الوقت التخلص من هؤلاء وطردهم إلى بلاد المغرب.

3- أول ما قام به الملكان الكاثوليكيان وأتباعهما من الجنود والعامة من المسيحيين قطع المسلمين عن جذورهم الإسلامية؛ وذلك بقطع الآذان ومنع الصلوات.[*]

4- ذكر لنا المؤلف أن الرحلات الأندلسية كانت باتجاه بلاد المغرب الإسلامي خاصة، وهذا الأمر مبررا لأن بلاد المغرب قريبة جدا من الأندلس ولذلك كانت الرحلات باتجاهها، ولم يذكر لنا الدولة العلية أو البلدان الأوروبية الأخرى، وهذا ابتداء على اعتبار أن الأندلسيين كانوا يرون بلاد المغرب بلادا إسلامية مرحبا فيها بهم، إلاّ أن مع مرور الوقت تغير الحال وكانت الهجرات باتجاهات مختلفة من العالم.

5- كانت الهجرات الأندلسية إلى المغرب الأقصى هي الأكثر، نظرا للقرب المسافة وترحيب الحكام بهم.

6- حتى صقلية لم تنجوا من طرد المسلمين منها لأنها كانت تابعة للملوك الإسبان.

وجد الأندلسيون الموريسكيون كل الترحاب والقبول من المغاربة، حكاما ومحكومين على حدٍ سواء، والذين اعتبروهم من أهل البلد[2] حيث تبوؤا مكانة مرموقة في هذه البلاد، بتشجيع من الحكام، وخاصة أهل العلم

---

1 - مجهول: نبذة العصر في أخبار...، المصدر السابق، ص 48.

* - في ذلك يقول واشنطن إيرفنغ في كتابه أخبار سقوط غرناطة «... وأول ما فعله الملكان حين دخولهما إلى المدينة هو تقدمهما إلى المسجد الجامع فيها حين حولاه إلى كاتدرائية فورا، ودخلاه للصلاة فيه على هذا الأساس إظهارا لشكرهما للرب برفقة أبراشيتهم الكنسية التي كانت تغني أغاني النصر على الإسلام، حيث رافقهم بهذا الغناء الملكان وكل الفرسان المرافقين...» للاستزادة ينظر واشنطن إيرفنغ: أخبار سقوط غرناطة، ترجمة هلاني يحي نصري، دار الإرشاد العربي، بيروت، لبنان، 2000م، ص409.

2- محمود مقديش: المصدر السابق، ص 90.

منهم بعد أن كانوا في بلاد الأندلس من المضطهدين والمعذبين والمنبوذين على أيدي الإسبان وملوكهم الكاثوليك*، والذين كانوا يرونهم خارجين عن الملة المسيحية ولذلك يجب طردهم وقتالهم مهما كلفهم ذلك.

بالرغم من صعوبة مفارقة الأرض والأحباب إلاّ أن الأندلسيين استأنسوا في أوطانهم الجديدة وشكلوا بنية اجتماعية رفقة عناصر البلاد القديمة كالعرب والأمازيغ والعثمانيين والسودانيين فاسحين المجال لإبداعاتهم وهِمَمِهِم وفكرهم الراقي المتطور ليكون في خدمة المسلمين بتونس، التي استقبلتهم بكرم أهلها وطيبتهم، فردوا لها الجميل بنهضة علمية في جميع المجالات، كانت أنموذجا راقيا في العصر الحديث في بلاد المغرب الإسلامي، ساهم فيه بفعالية تكاتف وتآزر السكان المحليين مع الوافدين الجدد، ساعدتهم في ذلك العديد من العوامل التي نذكر منها :

- رابطة الدين الإسلامي.
- طيبة السكان التونسيين.
- الرغبة في الانتقام من الإسبان المحلتين؛ فقد جمعت هذه الرغبة كلى الطرفين.
- تشجيع الحكام لهذا التقارب؛ أنتج إخصابا حضاريا راقيا استفادت منه البلاد التونسية على نطاق واسع.
- السياسة الرشيدة لعثمان داي في التعامل مع الأندلسيين والعناية الكبيرة بهم أثناء حكمه، خاصة وأنه اعتبرهم جزءا لا يتجزأ من المجتمع التونسي ولا فرق بينهم وبين السكان الأصليين، بل كانوا في كثير من المرات مُفضَلين عن السكان المحليين.

2-الأندلسيون في عهد عثمان داي.

شهدت تونس في عهد عثمان داي العديد من الإنجازات الحضارية والعمرانية، لأنه أراد بناء دولة قوية تضاهي نظيْرتيْها؛ الجزائرية والطرابلسية، مستمدا طموحه هذا من الاستقرار الذي فرضه أثناء حكمة ودعْم سلاطين الدولة العلية له في إصلاحاته التي بادر بها، والتي مكنت الإيالة التونسية من دخول مرحلة جديدة سمتها البارزة البناء والتعمير وبناء نظام سياسي يعتمد على الألفة بين الرعية والحاكم والعدل بين الناس والحكمة في تسيير شؤون الدولة، هذا ما انعكس على تطور البلاد في جميع المجالات؛ السياسية، العسكرية، الاقتصادية، الثقافية

*- يقول واشنطن إيرفنغ بهذا الخصوص: (... قال أغاييدا بهذه المناسبة: إن الشكر للرب الذي أعطاهم مثل هذا الملك المؤمن الذي أعاد إلى إسبانيا إمبراطوريتها ومجدها وخلصها من هذا الجنس الكافر المنحط، ورفع على مدينتهم الصليب العظيم رغم أنفهم وأنف الهرطقة المحمدية التي كانت مزدهرة فيها سنين طويلة، وبروح هذا الملك وصلت نعم السماء بنعم الأرض التي تم تكرارها مرارا بهزيمة هؤلاء...) للاستزادة ينظر، واشنطن إيرفنغ: المرجع السابق، ص409.

والعمرانية، ولذلك كانت الرعية هي عماد هذه السياسة الجديدة، خاصة بعد قدوم الجاليات الأندلسية الفارة من بطش الإسبان وظلمهم[1] قبيل وبعد قرار الطرد النهائي الصادر بحقها سنة 1609م.

حاولت السلطات التونسية توفير جميع سبل الراحة والاطمئنان للجاليات الأندلسية مباشرة بعد وصولها، ومساعدتها على الاندماج تدريجيا مع بقية شرائح المجتمع، خاصة بعد السياسة الرشيدة التي اتبعها عثمان داي في معاملة الأندلسيين بتدخل مباشر من سيدي أبي الغيث القشاش[*]، فقد أسكنهم السادة والأعيان عندهم وتقاسموا معهم السكن والمال[**] فاندمج الاثنان[2] وشكلا نسيجا اجتماعيا فريدا من نوعه في بلاد المغرب، بعد أن كانوا يلاقون الإهانة والاحتقار على يد بعض السكان المغاربة لأنهم كانوا يعتقدون أن الموريسكيين متنصرين باطنيا، كما كان النصارى يعتقدون أنهم مسلمين باطنيا[3]، وهذا هو واقع الكثير منهم، فكانوا مضطهدين منبوذين من طرف الجميع؛ فلا هم مسلمون في بلاد الإسلام ولا هم مسيحيون في إسبانيا، وهي محنة عظيمة عاشها الأندلسيون لم يسبقهم في ذلك أحد من المسلمين بهذه الطريقة عبر التاريخ.[***]

1- محمود مقديش: المصدر السابق، ص90.

* – أبو الغيث القشاش وصفه ابن الفكون قائلا: «... وهو رحمه الله –كان بتونس في ابتداء أمره يطلب العلم فنال منه ما صار به من أهل الفقه والمعرفة ، وأخذه في أول حاله عارض أظهر منه اتخاذ السمع استعماله بيده، ويقال إن أهل البلد، اعني خاصتهم حسدوه و رمقوه بالعين البغضاء، وتعاطوا جانبه بالهضم و السعاية للوالي إلى أن فر منهم وخرج، وأخذ علي الحديدي وغيره فيما يقال، فلم يدخل إلى بلدهم إلا على الحالة التي ذكرناه آنفا – يقصد عند إقامة الصلح التونسي الجزائري سنة 1628م- ويقال إنه وصل إلى مصر ورجع من هناك ولم يحج، وأن يعتقد فيه عدم الفطنة في أحوال الدنيا، فلما رجع غلى تونس استعمل نفسه في بيته واحتجب واتخذ طريقة القوم من الجمع والذكر وإعداد الأطعمة للتلامذة حتى ظهر أمره، ولولا ما فيه من العلم و المعرفة اللذين هما زمام الطريقة لكان فيه بعض الشيء، إلا أنه استفاض عنه أنه لا يأخذ ما يعطى له لنفسه بل يجمعه يصرفه للفقراء كان قليلا أو كثيرا...وكان ينقل عنه بذل المال للأسرى وبناء ما وهى من المساجد، وأحدث زوايا بأماكن شتى و جعل خارج سماطها ما يأتي له من العِدَاتِ والصدقات على يد وكلائه، حتى إنه ينسب إلى استخدام الجان وجلب الماء، والله أعلم بحقيقة أمره ولنا به صحبة عن بعد الدار تضمنها الرسائل من الجانبين، ورأيته في النوم مرارا وأرجو من الله النفع بها يوم القيامة...»... للاستزادة ينظر عبد الكريم بن الفكون: المصدر السابق، ص ص199، 200.

** – وكأنهم في ذلك يقتدون بما قام به الأنصار تجاه المهاجرين، بعدما ترك هؤلاء المال والأولاد والمسكن في مكة، فاستقبلهم الأنصار بالترحاب والقبول والمحبة، فتقاسموا معهم الدار والأموال، بل حتى من عرض أن يطلق زوجته الثانية ليتزوج بها أخيه المهاجر، فكانت الألفة والمحبة بينهما، وكلاهما ساهم في بناء الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة المنورة، وكذلك كان الحال بنسبة كبيرة في الإيالة التونسية التي تآخى فيها الأندلسيين والسكان المحليين فانتجوا حضارة بقيت آثارها إلى يومنا هذا شاهدة على المحبة والأخوة الإسلامية في كل زمان ومكان.

2- أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص32.

3- محمد قشتيليو: المرجع السابق، ص82.

*** – كان ملاذهم للخروج من هذه المحنة العلماء والفقهاء لاستفتائهم في كيفية المحافظة على دينهم الإسلامي، إلا أن الونشريسي رفض رفضا قاطعا فكرة بقائهم في الأندلس، وإلا كانوا مرتدين رضوا بحكم الكافر عليهم، إلا العاجزين منهم عن السفر فيما أفتى لهم أبو جمعة المغراوي بجواز استعمال التقية للمحافظة على دينهم إلى أن يفرج الله همهم ويجعل لهم مخرجا.

بعد الترحيب الذي استقبل به عثمان داي وعامة التونسيين الأندلسيين الموريسكيين، ونظرا لاختلاف الشرائح الاجتماعية من الوافدين الجدد؛ مابين علماء ونخبة وفلاحين وصناعيين وغيرهم قررت القيادة التونسية توزيعهم إلى ثلاثة فئات كل حسب مستواه واختصاصه وفي مناطق مختلفة من البلاد، كانت على الشكل التالي:

أ-الصنف الأول: العلماء والأعيان

سكنوا تونس العاصمة، وخصص لهم عثمان داي أحياء خاصة بهم مثل: حومة الأندلس قرب ترنجة وباب قرطاجة والحلفاويين؛ أين بنوا جامع سبحان الله والمدرسة الأندلسية وزقاق الأندلس، علما أن الكثير من إخوانهم قد سكنوا هذه المناطق قبل محنة الطرد النهائي، وبذلك سهلوا لهم الاندماج الفوري وساعدوهم في التأقلم مع حياتهم الجديدة، وقد سكن بعضهم باب الجزيرة أين توجد زاوية سيدي علي الأندلسي.

ب-الصنف الثاني: الفلاحون والصناعيون

سكنوا المناطق القريبة من العاصمة تونس، أين توجد الأراضي الخصبة والمياه الوفيرة والقرب من المدينة، هذا ما ساعدهم على الاستقرار والإنتاج الوفير؛ الذي كان يسوق ويباع في الأسواق القريبة مثل: أريانة، طبرية والجديدة.

ج-الصنف الثالث: سكان القرى الأندلسية

يمثلون الأغلبية الساحقة من المهاجرين الأندلسيين، وقد كانوا من سكان البوادي والأرياف في الأندلس قبل طردهم منها، وبعد هجرتهم سكنوا المناطق الخصبة شمال تونس وضفاف واد مجردة وبنزرت والوطن القبلي، أين عمروا المدن والقرى المخربة والمهجورة منذ أمد بعيد.[1]

مواصلة لسياسته الحكيمة في جبر خاطر الأندلسيين الموريسكيين وإدماجهم في المجتمع التونسي قرر عثمان داي توفير لهم كل الإمكانيات المتاحة في ذلك الوقت لبناء حياة جديدة، ومنحهم الحرية المطلقة في امتلاك الأراضي والعقارات، وفي ذلك قال محمود مقديش: «... **فأوسع لهم عثمان داي في البلاد مع كثرتهم، وفرق ضعفائهم على الناس وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا فانتشروا في البلاد واستوطنوا عدة أماكن...**».[2]

وكان عثمان داي يهدف من وراء هذه التسهيلات تحقيق العديد الأهداف، نذكر منها:

- النهوض بالاقتصاد التونسي الذي كان يعاني ركودا رهيبا في ذلك الوقت.

1- أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص ص 32، 33.

2 - محمود مقديش: المصدر السابق، ص90.

- تعمير القرى والمداشر التي خُربت نتيجة الحروب الطويلة بين السلطة المركزية والبدو، خاصة بعد استقرا الأوضاع الأمنية بداية القرن السابع عشر الميلادي، نتيجة لسياسة الحزم والقوة في قهر المتمردين هذا من جهة، واللين والعدل في حماية الرعية وبسط نفوذ السلطة على الجميع من جهة ثانية.
- الاستفادة من الخبرات التي قدم بها الأندلسيون في جميع مجالات الحياة السياسية، العسكرية، الثقافية، الاقتصادية والعمرانية.
- محاولة إدماج جميع فعاليات المجتمع التونسي على حد سواء، والهدف من وراء ذلك الولاء للدولة وخدمة مصالحها بصرف النظر عن العرق والجنس، فهم سواسية أمام الحاكم وسلطان العدل.
- الاستفادة من رؤوس الأموال التي قدم بها الأندلسيون لبناء وتعمير البلاد التونسية، التي كانت بحاجة ماسة لأموالهم وخبرتهم في جميع الاختصاصات؛ سواء العلمية أو الصناعية أو الفلاحية، خاصة وأن البلاد كانت تعرف انكماشا اقتصاديا رهيبا نتيجة الهجمات الأوروبية المتتالية والاضطرابات الداخلية المتزايدة.

أثبتت السياسة الحكيمة والرسيدة التي اتبعها عثمان داي نجاعتها، وحققت نتائج طيبة، سواء على المجتمع التونسي أو الدولة التونسية ذاتها، وحتى على المستوى الخارجي، خاصة بعد مساهمة الأندلسيين الموريسكيين في صد الهجمات الخارجية، ولم تمر إلا بضعة أشهر حتى بدأت النتائج تظهر على أرض الواقع، وبدأ الأندلسيون في وضع بصماتهم في مجالات البناء والتعمير والإنتاج*.

3-مجالات التأثير الأندلسي الموريسكي في الإيالة التونسية خلال القرن السابع عشر.

3-1-التأثير الأندلسي الموريسكي في المجال الفلاحي.

لعبت الجاليات الأندلسية دورا هاما ومحوريا في النهضة بالقطاع الفلاحي بتونس على غرار ما حدث بالجزائر والمغرب الأقصى، وكل مكان حل به الأندلسيين، خاصة وأنهم كانوا عماد الاقتصاد الإسباني ودعامته الأساسية، أين اكتسبوا الخبرة والمعرفة، لأن الإسبان كانوا ينظرون إلى كل مهنة على أنها مهنة حقيرة ومقيتة، ماعدا مهنة الانخراط في الجيش ومهنة الإكليروس[1]، وهذا تأثرا بما كانت تقوم به الكنيسة من دعاية لها ولرجال الدين

* – في مقابل هذا الإنتاج كانت إسبانيا تعيش أحلك أحوالها في المجالات؛ الفلاحية، الصناعية، الفنية والعمرانية، فقد فقدت أيادي عاملة راقية الجودة كبيرة الخبرة، حيث لم تستطع اليد العاملة الإسبانية وحتى الأوروبية الوافدة تعويض ولو جزء يسير من الفراغ الذي تركه الأندلسيون، وقد نتج عن ذلك قلة الإنتاج وهجرة الضيعات والأراضي الزراعية والحقول والمزارع وخُربت المصانع وفقد الطابع العمراني الأصيل لإسبانيا، خاصة وأن جل الإسبان كانوا ينفرون من المهن التي كان يمارسها الأندلسيين سابقا.

1 غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة، عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2000، ص584.

والمذهب الكاثوليكي، وبذلك استغل الأندلسيون خلو المجال لهم وتعلموا جميع الفنون والصناعات واكتسبوا الخبرات وفجروا عبقرياتهم فكانت نهضة إسبانيا الحضارية قبل طردهم منها، ليحملوا معهم هذه المهارات إلى البلاد التونسية، أين قاموا بتكوين جاليات نشطة، لعبت دورا هاما وبارزا في الإنتاج الزراعي[1]، خاصة في المناطق التي عمرتْها وسكنتها مثل تستور؛ التي اشتهرت بنظام الفلاحة السقوية مستفيدة في ذلك من خبرة الأندلسيين المتقدمة؛ كنظام الناعورة الذي أثر إيجابا ووفر محاصيل زراعية كثيرة، خاصة الأشجار المثمرة كالرمان والمشمش بأنواعه[2] وغرسوا الكروم والزيتون وأنشئوا البساتين وعمروها[3]، وأسهموا كثيرا في تطوير زراعة التوت واستحدثوا تربية دودة القز[4]، التي تعتبر زراعة وافدة استحدثها الأندلسيون الذين استطاعوا وضع بصماتهم في المجال الفلاحي بتونس، هذا ما ترك انطباع جيدا لدى التونسيين الذين ساهموا بدورهم في هذه المجهودات الجبارة التي أعادت للنشاط الفلاحي التونسي بريقه بعد سنوات عجاف، فأعادوا بذلك للقطر التونسي ثروته الغابرة[5]، وأحدثوا جنات من أعناب وزيتون وغريب الفواكه والثمار.[6]

بسبب لخصب أراضي البلاد التونسية توزعت الجاليات الأندلسية وسكنت العديد من المناطق مثل: أراضي وادي مجردة السفلى، أسفل الوطن القبلي، وسواحل شرق البلاد من قلعة الأندلس إلى بنزرت التي أحيوها بعد أن كانت بورا وعمروها بعد أن كانت خرابا، واستصلحوها وغرسوها بالزيتون وجعلوها أراضي سقوية[7] لها إنتاجا وفيرا ومتنوعا من الزيتون، الذي بنو له مَعاصِراً لاستخراج الزيت منه، بالإضافة إلى العنب والتين، وزادوا في مساحة البساتين[8] لولعهم بها، ومن أهم مناطقهم الفلاحية: زغوان وسليمان التي اشتهرت بزراعة الحبوب والأشجار المثمرة، كاللوز، الرمان، الكروم، التين والبرتقال وغيرها من المنتوجات الفلاحية.[9]

إذن عمل الأندلسيون على خدمة الأراضي وتطوير الإنتاج الفلاحي بالبلاد التونسية مستغلين في ذلك عدة عوامل كانت في صالحهم، نذكر منها:

1- أندريه ريمون: المرجع السابق، ص42.

2 – أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص36.

3 – ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص193.

4 – ألفونص روسو: المصدر السابق، ص110.

5 – حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص115.

6 – الوزير السراج: المصدر السابق، ج2، ص157.

7 – محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص75.

8 – محمود مقديش: المصدر السابق، ص90.

9 – أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص42.

- السياسة الحكيمة التي اتبعها عثمان داي ومن بعده يوسف داي، والتي عمادها الترحيب بهم واقتطاع الأراضي وتمليكها لهم.
- استغلال خبرتهم التي اكتسبوها بالأندلس ووظفوها بالبلاد التونسية.
- التعاون الذي أبداه السكان المحليين معهم، وبذلك تعاون العنصران من أجل خدمة البلاد التونسية التي كانت المستفيد الأول من هذا التمازج.
- خصب الأراضي والطبيعة التي كانت مشابهة لحد ما لطبيعة الأندلس.
- الاستقرار السياسي والأمني كان له دورا بارزا في هذا الإنتاج، لأن الأندلسيين عمروا أراضي كانت مهجورة وعرضة لهمجية البدو وقطاع الطرق، فكان فرض سلطة الدولة وهيبتها عاملا رئيسيا في تطور وازدهار الإنتاج الفلاحي.

3-2-التأثير الأندلسي الموريسكي في المجال الصناعي.

نشط الأندلسيون في المدن أيضا خاصة الساحلية منها لتوفرها على المناخ المناسب المساعد على تفجير مواهبهم في جميع المجالات الصناعية، حيث أدت قدراتهم وفعالياتهم إلى إنعاش وبعث وحتى ابتكار أنشطة صناعية جديدة متعلقة بحياكة الحرير[1]؛ الذي أصبح سلعة رائجة بعد إنتاج دودة القز بالإيالة التونسية، ومن أهم ما أبدع فيه الأندلسيين الموريسكيين صناعة الشاشية التي احتلت حيزا كبيرا من النشاط الصناعي لهذه الفئة؛ سواء كإنتاج محلي أو تجارة خارجية مع البلدان المغاربية الأخرى وحتى مع مصر، وقد أبدع الموريسكيون في اختيار نوعية الصوف وألوانه الجذابة، حيث تذهب الدراسات الحديثة إلى أن الإيالة التونسية كانت تنتج من هذا المنتوج ما بين خمسمائة ألف إلى مليون قطعة شاشية سنويا[2] مما جعل هذه الصناعة تحتل الصدارة من حيث النشاط الصناعي في البلاد التونسية[3]، التي عرفت بفضل المهارة والإتقان اللذين تميزا بهما الأندلسيين قفزة نوعية في إنتاج وتصدير هذا المنتوج، حيث أصبح هذا المجال جالبا لليد العاملة ومصدرا مهما من مصادر الدخل؛ سواء للأفراد أو الدولة التي كانت بحاجة ماسة لمثل هذه المهن التي ساعدت في مداخيل الخزينة، خاصة بعد تراجع حركة الجهاد البحري خلال القرن السابع عشر الميلادي.

---

1 – أندريه ريمون: المرجع السابق، ص42.

2 – عبد الجليل التميمي: تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الإسبانية والعربية الإسلامية منها، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، 2011، ص66

3 – أندريه ريمون: المرجع السابق، ص42.

لم يقتصر الإبداع الأندلسي الموريسكي على الشاشية؛ بل تفجرت مواهبهم بالعديد من الإبداعات كصناعة السروج الجلدية وصناعة الزرابي، التي أدخلوا عليها أبجديات الطباعة التي جاءوا بها من الأندلس أو من البلدان الأوروبية الأخرى، وهو أمر في غاية الأهمية يبرهن على الحس الراقي والإتقان المتميز لمهنهم باختلافاتها، خاصة منها الصناعات اليدوية كصناعة الخزف التي عرفت شهرة ة واسعة في البلاد التونسية، لأن الأندلسيين حاولوا الاتصال مع الكثير من المهنيين المهرة من مرسيليا، حتى أن بعضهم أقام مصنعا بمنطقة jurad de «Bayonne» و«Baynne» و«Biarritz».[1]

تميزوا أيضا مثل نظرائهم بالمدن الجزائرية في صناعة الأواني الخاصة بالاستعمال المنزلي؛ كالجرار والصحون والفناجين والقلال والقدور والقصاع، حيث انفرد الأندلسيين بالإتقان والمهارة في هذه الصناعات، علما وأنهم أدخلوا صناعة جديدة من الخزف المكسو بالزليج «Céramique de l'émaic»، الذي كان يستعمل لتغطية أرضية المنازل وكساء الجدران، وتزيين المساجد والعيون والأبواب، بالإضافة إلى الصناعات الخاصة بالنساء كصناعة الجبة والقشابية والمرقوم ومجوهرات الزينة، حيث اشتهرت المدن بصناعة المجوهرات الذهبية بسبب توفر تبر السودان، وقد عُرفت عائلات أندلسية ويهودية بذاتها في هذه الصناعة خاصة بمدينة تونس، أما الأرياف فقد اشتهرت بصناعة المجوهرات الفضية خاصة بمنطقة الجريد.[2]

عموما كانت صناعات النسيج نشطة خاصة خلال القرن السابع عشر الميلادي في المدن؛ مثل: تونس العاصمة وخاصة مدينة تستور[3]، وكانت مدنا تجارية بامتياز بسبب ازدهار الصناعة بها، وبموازاة ذلك التجارة أيضا، حيث تميزت مدينة تونس بعدة خصائص جعلتها في صدارة المدن التونسية من حيث الصناعة والتجارة، نذكر منها:

- قرب الإيالة التونسية من السواحل الإيطالية؛ أين حركة الصناعة والتجارة نشطة؛ خاصة وأن إيطاليا عرفت نهضة أدبية كبيرة خلال القرن السادس عشر ميلادي، كانت لها تأثيرات بارزة داخل أوروبا، وحتى على البلاد التونسية، حيث كان ملوك الدويلات الإيطالية يجلبون أدوات الزينة والحيوانات النادرة من تونس، هذا ما جعل أسواقها نشطة ومتميزة.
- قرب الإيالة التونسية من أوروبا جعلها مركزا تجاريا نشطا يربط تجارة إفريقيا جنوب الصحراء بأوروبا؛ وبذلك أصبحت سوقا للسلع الإفريقية والأوروبية معا.

1 – عبد الجليل التميمي: دراسات ...، المرجع السابق، ص ص 55، 56.
2 – ناصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب العثمانية ... المرجع السابق، ص ص 98، 99.
3 – أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص41.

- توفر البلاد التونسية على أسواق مزدهرة ومنظمة تنظيما جيدا سهل المعاملات التجارية بين التونسيين أنفسهم أو مع الخارج.
- إتقان الأندلسيين للغات الأوروبية خاصة لغة الفرنكا* سهل المعاملات التجارية، لأنهم لعبوا دور الوسيط بين التجار المسلمين والأوروبيين.
- توفر مدينة تونس على الأمن ساعد في قدوم التجار والحرفيين والصناع إليها للاستقرار بها، ما نتج عنه حركة تنموية وتجارية على خلاف بعض المناطق التونسية الأخرى، التي كانت تشهد بعض تمردات القبائل، بالإضافة إلى ذلك الخلافات الجزائرية التونسية والطرابلسية التونسية.
- لعبت الاتفاقيات المبرمة بين الإيالة التونسية وبعض الدول الأوروبية دورا بارزا في استقرار الأوضاع بالمدن الساحلية، هذا ما شجع الحركة التجارية خلال القرن السابع عشر ميلادي.
- هدوء العلاقات التونسية الإسبانية؛ بسبب انشغال السلطات الإسبانية بمشاكلها الداخلية والخارجية داخل القارة الأوروبية شجع على نمو الاقتصاد التونسي، خاصة بالمناطق الساحلية ومدينة تونس على وجه التحديد.

عمل الأندلسيون أيضا في الصناعات الحربية؛ كصناعة الأسلحة بجميع أنواعها وصناعة البارود وملح البارود[1]، وصناعة السفن وتجهيزاتها[2]، حيث أدخلوا عليها العديد من التحسينات لتتلاءم مع متطلبات الجهاد البحري، وتُنافس نظيراتها الأوروبية، تدفعهم في ذلك عدة أسباب، نذكر منها:

- الانتقام من الإسبان الذين سلبوهم أموالهم وأراضيهم واستعبدوا أبنائهم.
- الاستفادة المادية؛ لأن الجهاد البحري كان يعتبر مصدرا للثروة والشهرة أيضا.
- تلبية حاجيات الحكام الذين كانوا يرغبون في بناء أسطول بحري قوي لمواجهة الأخطار الخارجية.
- رد الجميل لحكام الإيالة التونسية والسكان المحليين الذين استقبلوهم وأحسنوا إليهم، لذلك كان لزاما المساهمة في الدفاع عن البلاد والعباد وذلك بتطوير السفن الحربية والأسلحة.

ما يمكننا ملاحظته أن غالبية المؤرخين يركزون على دور الأندلسيين الموريسكيين في تطور الصناعة والتجارة بالإيالة التونسية ناسين أو متناسين الدور الذي لعبه السكان المحليين، وهذا في الحقيقة ينطبق على كافة بلدان

* – لغة الفرنكا، هي مزيج من لغات البحر الأبيض المتوسط كانت تستعمل على نطاق واسع، خاصة في المعاملات التجارية.

1 – عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص ص 55،56.

2 – أبو القاسم درارجة: آثار الأندلسيين في الفنون الشعبية في إسبانيا وبلاد المغرب، صور الموريسكيين في الأدب والفنون، أعمال المؤتمر الثامن للدراسات الموريسكية، زغوان، تونس، 92/91، ص ص41،42.

المغرب، وكأن السكان المحليين كانوا غير موجودين بهذه البلاد أو لم تكن لهم صناعة، تجارة وفلاحة أصلا، ويمكننا إبراز بعض المعطيات الموجودة قبل هذا التواجد، في النقاط التالية:

- غرس الزيتون كان مهنة معروفة في بلاد المغرب منذ القدم.
- صحيح أن الشاشية التونسية ازدهرت عند قدوم الأندلسيين الموريسكيين لكن لم تكن أبدا من ابتكارهم، بل كانوا مساهمين فقط في تطويرها وإدخال بعض التحسينات عليها.
- صناعة السروج؛ عُرفت بلاد المغرب منذ القدم بجودة حصانها البربري، فهل يعقل أن يوجد الفارس والحصان ولا يوجد السرج؟ والمؤكد أن المغاربة اشتهروا منذ القدم بصناعة السروج، وبقيت هذه المهنة متوارثة إلى يومنا هذا.
- إن موقع بلاد المغرب وقربها من إفريقيا وأوروبا، يجعلنا نكاد نجزم أن العديد من الصناعات، خاصة صناعة المجوهرات والحلي وصناعة الفخار، هي صناعات مغاربية بامتياز.
- هل يعقل أن المغاربة لم يكونوا يملكون أسطولا بحريا وانتظروا حتى جاء الأندلسيون وقاموا بتطويره؟ علما أن الدولة الحفصية كانت لها تقاليد عريقة في المجال البحري، وكانت لها صولات وجولات ضد الأساطيل الأوروبية حتى قبل التواجد العثماني، فما بالك بالتواجد الأندلسي الموريسكي.
- أما الصناعات الخزفية فهي صناعات تونسية مغاربية بامتياز، خاصة أن العائلات الأمازيغية عُرفت بجودة المنتوج وكثرته، مع العلم أن البلاد المغاربية قاطبة تحتوي على نوعية جيدة من الطين المساعد في هذه الصناعات، لأن هذه الأدوات لا يمكن لأحد من سكان العالم الاستغناء عنها، فكيف بالسكان المغاربة؟
- أما فيما يخص المجوهرات وأدوات الزينة فهي موجودة أيضا منذ القديم ببلاد المغرب عامة، وتونس خاصة التي عرفت توافد العديد من الأجناس؛ كالفينيقيين، الرومان، البيزنطيين والمسلمين الذين أعطوا مكانة مرموقة للمرأة، وهذا ما كان له تأثيرا مباشرا على المرأة التونسية التي استعملت أدوات الزينة والتجميل.
- حاول العديد من المؤرخين التونسيين خاصة عبد الجليل التميمي وبعض من سار على نهجه إعطاء كل إيجابيات التقدم الصناعي خلال القرن الحادي عشر هجري/ السابع عشر الميلادي وما بعده إلى اللمسات الموريسكية، وفي ذلك إجحافا بحق السكان المحليين الذين يريدون دائما الإنقاص من مساهماتهم في جميع المجالات، بالرغم من أن جميع الإنجازات التي حققها العثمانيون أو الأندلسيون في المجالات السياسية، الثقافية، الاقتصادية، الاجتماعية والعسكرية لم تكن لتنجح لولا مساهمة السكان المحليين الذين

استقبلوهم بالترحاب، وأحسنوا إليهم بسبب رابطة الدين الإسلامي التي كانت تربط الطرفين، ومع ذلك لا يمكن لأي مؤرخ عاقل إنكار الإنجازات البارزة في جميع المجالات الحياتية سواء داخليا أو خارجيا التي قام بها الأندلسيون، الذين ساهموا فعليا في النهوض بعديد القطاعات، وأيضا اخترعوا صناعات جديدة، وفي نفس الوقت ساهموا في إحياء مهن كادت أن تموت وتندثر، وبذلك ساهمت جميع فعاليات المجتمع التونسي في خدمة هذه البلاد.

3-3-التأثير الأندلسي الموريسكي في المجال الثقافي.

تأثر المجال الثقافي في البلاد التونسية بالهجرات الأندلسية كغيره من المجالات الأخرى، وكان للأندلسيين الأثر البالغ في الحياة العلمية والأدبية، فمباشرة بعد هجرتهم إلى تونس واستقرارهم في مدنها الساحلية بالذات، حافظوا على شخصياتهم وهوياتهم*، إلا أن هذا لم يمنعهم من إبراز قدراتهم العلمية والمعرفية ومحاولة نشرها بين جميع أطياف المجتمع التونسي، لذلك عملوا على بناء المدارس والمساجد وأوقفوا عليها الأوقاف خدمة لطلاب العلم والعلماء والمعلمين، وقد استطاعوا التفوق على نظرائهم التونسيين، وبذلك انتعشت الحياة الثقافية وخرجت رويدا رويدا من حالة الركود والجمود الذي طالها خلال القرن السادس عشر الميلادي[1]، نتيجة لعدة أسباب نذكر منها:

- انهيار الدولة الحفصية التي عُرف عنها تشجيعها للحركة الثقافية بالبلاد التونسية.
- الصراع العثماني الإسباني كان له الأثر البالغ على الحياة الثقافية في تونس؛ لأن فقدان الأمن يؤثر على جميع المجالات، فما بالك بالجانب العلم، لأن العلماء وطلبة العلم يفرون من البلاد التي أوضاعها الأمنية متدهورة إلى البلاد الأكثر أمناً.
- تغلب البدو والدهماء في عديد المناطق التونسية، وغياب السلطة المركزية فتح المجال للجهلة والغوغاء الذين سيطروا على الطرق والمراكز العلمية، خاصة بالمدن البعيدة عن العاصمة تونس.
- غياب سلطة حاكمة تشجع الحركة العلمية، خاصة وأن السلطة العثمانية كانت مهتمة بالدفاع عن البلاد وحمايتها من الأخطار الخارجية، ولذلك لم تلق اهتماما كبيرا للجانب الثقافي.

* – يمكن القول أن الأندلسيين بقوا منغلقين على أنفسهم متأثرين بكونهم الجنس العربي الراقي الذي لا ينبغي له الاختلاط بالأجناس غير العربية مثل البربر، لأنهم أقل شئنا منهم حسبهم، حيث توارثوا عادات الزواج وتكاثر النسل بينهم حتى يسودوا البلاد، كما حدث في المغرب الأقصى حينما قاموا بعدة تمردات ضد الحكام السعديين بمنطقة أبي الرقاق، وهو دليل على نظرة العلو والرفعة التي تميزوا بها، مع أننا لا نقر هذا الأمر عند جميع الأندلسيين، الذين اندمجوا في المجتمعات المغاربية بمرور الوقت، ولم يبق ذلك الفرق الواضح بين العرقيات أو الأجناس، بل كانوا كلهم في خانة واحدة، لأن الدين الإسلامي أزاح تلك الحساسيات الموجودة وكان الداعم الأساسي لوحدتهم ، ليأتي بعدها الاحتلال والخطر المشترك الذي أتم تلك الوحدة.

1 – محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص 76.

هاجر نخبة من العلماء والمفكرين الأندلسيين الموريسكيين إلى البلاد التونسية، لأنها كانت أكثر أمنا واستقرارا على بقية المناطق المغاربية الأخرى، خاصة وأن التونسيين حكاما ومحكومين قابلوهم بالترحاب والقبول الحسن على عكس ما حدث في المغرب الأقصى[1]، وقد نقل لنا محمد بن الطيب القادري نصا يثبت لنا هذه المعاملة الحسنة، حيث قال: «... **ومن حوادث العام أن خرج من بقى من المسلمين في بلاد الأندلس تحت حكم العدو، فخرجت ألوف بفاس وألوف أخرى بتلمسان، وجمهورهم خرج من تونس، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله في الطرقات ونهبوا، وهذا ببلد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المعرة**[*]، **إلا أن الذين خرجوا بنواحي تونس سلم أكثرهم وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها...**».[2]

حاول العلماء والنخبة الأندلسية التأقلم مع حياتهم الجديدة وبنو المساجد والجوامع والمدارس الخاصة بهم، لتلقين أبنائهم العلوم الوافدة من الأندلس، خاصة العلوم الدينية التي كانت أهم العلوم التي تدرس، لأن مذهبهم الحنفي الذي كان يعتنقه الحكام العثمانيين[3] يختلف عن مذهب أهل البلاد، الذين يدينون بالولاء واتباع المذهب المالكي، فكان لزاما بناء مساجد خاصة بهم؛ مثلما كان الحال بمدينة تونس أين بنو مدرسة لنشر العلم الشرعي احتسابا لله تعالى بقرية مدفن الشيخ سيدي محرز بن خلف، وكان تأسيسها سنة 1034هـ/1625م، وقد تولى التدريس فيها الشيخ شعبان الأندلسي، الذي اشتهر بعلم الكلام، وبعد وفاته تولى التدريس فيها أبو الربيع سليمان الذي اشتهر بعلم النحو[4]، بالإضافة إلى المدارس أسس الأندلسيون العديد من الزوايا لتحفيظ أبنائهم القرآن الكريم ، وتدريس جميع أنواع العلوم الشرعية الأخرى؛ كالحديث والفقه وغيرهما من العلوم الأخرى دليلا على تمسكهم بالدين الإسلامي والطرق الصوفية خاصة بمنطقة السلوقية[**]، وكان أبرزها زاوية سيدي عبد القادر الجيلاني وزاوية سيدي بن عثمان المغربي وزاوية سيدي خويلي المغربي؛ والتي كانت عبارة عن مدرسة قرآنية يُحفظ

---

1 - محمد قشتيليو: المرجع السابق، ص82.

* - في الحقيقة هي أكبر من معرة ؛ بل هي جريمة في حق مسلمين فروا بدينهم وعقيدتهم من دار الكفر إلى دار الإسلام ، التي ظنوا أنهم آمنون بها ، إلا أن بعض المجرمين وقطاع الطرق وشذاذ الآفاق أفسدوا عنهم هذه الأمنية، ومع ذلك لا يمكننا تعميم مثل هذه الممارسات المشينة التي وقعت في ذلك الوقت، بل هي أفعال دنيئة المغاربة بريؤون منها، وهي من أفعال الغوغاء والمجرمين الذين وجدوا فرصتهم في غياب الأمن وسلطة الدولة، ليقوموا بهذه الأفعال، علما أن المصادر نقلت لنا أن الجاليات الأندلسية وجدت كل الترحاب والقبول؛ سواء في الجزائر أو المغرب الأقصى أو طرابلس الغرب من بداية مأساتها إلى غاية اندماجها في المجتمعات الجديدة.

2 - محمد بن الطيب القادري: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر، ج1، تحقيق، محمد حجي، أحمد التوفيق، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المغرب الأقصى، 1397هـ/1977م، ص145.

3 - محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص75.

4 - الوزير السراج: المصدر السابق، ص158.

** - السلوقية كلمة محرفة عن الكلمة القشتالية "Sanlu'car" ومعناها في اللغة العربية المنيعة أو الحصينة، وقد أعاد إحياءها الأندلسيون الفارين من كاتالونيا بعد هجرتهم سنة 1609م على أنقاض مدينة رومانية قديمة اسمها كيديبيا "chidibbia"

فيها كتاب الله، وكانت مدعومة مباشرة من الباي؛ وهو دليل على علاقة الأندلسيين الجيدة مع سكان هذه المنطقة والباي التونسي.[1]

ما يلفت الانتباه أن الأندلسيين كانوا متفتحين على جميع اللغات بما فيها الإسبانية التي كانوا يتكلمون بها رجالا ونساء وأطفالا ويتقنونها بشكل جيد*، وقد أسسوا مدرسة لتدريسها بمدينة طبرية بعد سنين من وصولهم[2]، وهي خاصية يكاد ينفرد بها الأندلسيون التونسيين على سائر إخوانهم الذين استوطنوا بلاد المغرب الأخرى**، إلا أن تعلم اللغة الإسبانية تحول شيئا فشيئا إلى نقمة عليهم، لأن التونسيين استهجنوا عليهم مثل هذا السلوك، وشكوهم إلى السلطات المحلية، واتهموهم بالردة عن الإسلام وإتباع الدين المسيحي والعمالة لمن طردهم من بلادهم وقام بتنصيرهم، فتدخل الباي وأمر بإغلاق المدارس التي تدرس اللغة الإسبانية وصادر الكتب المكتوبة بهذه اللغة، مما أثر بالتدريج على لغتهم التي بدأت بالاندثار والتراجع لتتلاشى نهائيا فيما بعد، وتحل محلها اللغة العربية التي أصبحت لغة لتعلم الصلاة وحفظ القرآن وتلاوته وتعلم العقيدة الإسلامية الصحيحة[3] وجميع علوم الدين الأخرى، خاصة بعد اندماجهم في المجتمع العربي التونسي بمرور الزمن.

لم تقتصر التأثيرات الثقافية على الجانب الديني بل تعدته إلى جوانب حياتية أخرى كالموسيقى مثلا، حيث شاع الفن الأندلسي خاصة في المدن التي استقر بها المهاجرون الأندلسيين، وبالذات المدن الساحلية كتونس العاصمة والمهدية، أين بدا التأثير الأندلسي واضحا في جميع مجالات العلوم والفنون التي كانت موجودة في بلدهم

1 – أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص37.

*– حقق الأندلسيون العديد من الأهداف بإتقانهم اللغة الإسبانية نذكر منها:

–تفتحهم على العالم الخارجي خاصة الأوروبيين الذين بقوا مرتبطين بهم على الأقل خلال تنقلاتهم وهجرتهم إلى الدول الأوروبية.

–الارتباط بالبلد الأم حتى وإن فقدوا الأمل بالعودة إليه.

– ربط أبنائهم والجيل المولود بديار الإسلام بوطنهم الأم.

– مناقشة المسيحيين بلغتهم التي يفهمونها، خاصة في المجالات العلمية مثلما كان يفعل أبو القاسم الحجري في بلاط المنصور الذهبي أو في رحلاته الدبلوماسية إلى أوروبا.

– استعمالها في الاتصال بين السلاطين التونسيين والبعثات الدبلوماسية الأوروبية، خاصة وأنهم عملوا كمترجمين وكتاب عند السلاطين.

– حب التميز عن السكان المغاربة جعلهم يتعلمون هذه اللغة.

– استعمالها فيما بينهم لأنهم في كثير من المرات كانوا يعيشون منغلقين على أنفسهم، خاصة في بداية تواجدهم.

2 – عبد الجليل التميمي: تراجيديا طرد الموريسكيين من ...، المرجع السابق، ص61.

** – وهذا دليل على تفتحهم على الآخر بغض النظر عن العداوة التي بينهم وبين الإسبان، لأنهم كانوا يدركون أن الارتباط بالبلاد الأم هو واجب مقدس، يدفعهم في ذلك الشوق والحنين والأمل بالعودة إلى الأندلس، بالرغم من استحالة ذلك بعد مرور أكثر من قرن ونصف من الزمن على الاحتلال الإسباني لها.

3 – أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص40.

الأصلي ونقلوها معهم إلى وطنهم الجديد، وبذلك أصبحت تونس وارثة لعلومهم[1] وإبداعاتهم وأصالتهم التي ظلوا يعتزون بها، خاصة في مجال الأناقة والزينة والجمال الخاص بالمرأة الأندلسية التي لها الفضل في المحافظة على عاداتها وتقاليدها، وخصوصا مظهرها، وفي الأطعمة والحلويات التي كانت تتدرب عليها بناتهن، ويتوارثونها فيما بينهم للمحافظة عليها مثل العولة* من الكسكس، المحمصة، مصبرات الموالح، التوابل، الفلفل الأحمر، شرائح الطماطم، خدمة الصوف والنسيج، التطريز وإعداد جهاز زفاف العروس خاصة يوم عرضه، حيث يتم إنشاد المألوف على إيقاعات الطبل المختلفة تماما عن طبال السكان المحليين[2]، بالإضافة إلى الألبسة التي تميزت بها المرأة الأندلسية وكانت تشبه اللباس الإسباني المسيحي، ويرجع ذلك لسببين رئيسيين هما :

- حاول الإسبان محو كل ما يتعلق بالهوية الإسلامية العربية للأندلسيين بعد سقوط غرناطة، بما في ذلك اللباس الذي فرض عليهم وأصبح على النمط الأوروبي.
- الكثير من الأندلسيين اندمجوا في المجتمع الإسباني، خاصة وأن المحنة الأندلسية تواصلت منذ سقوط غرناطة وما قبلها إلى غاية صدور قرار الطرد النهائي ما بين 1609-1614م؛ بمعنى أن المأساة دامت أكثر من قرن ومائة وسبعة عشر سنة.

أثر هذين العاملين تأثيرا مباشرا في جميع مناحي حياة الأندلسيين، فما بالك باللباس الذي أصبح غالبيته على النمط الإسباني المسيحي مثل: القمجة كلباس للعروسة شبيهة بالقميص الروماني، و الذي كان يستعمل كلباس داخلي بالأندلس، وهي مصنوعة من الكتان المزركش بالحرير الملون وكان منتشرا في الوطن القبلي، والقوفية أو تاج العروس، وقد كان يلبسه الرجال في قرطبة زمن الخلفاء وقلدهم في ذلك أمراء الإسبان منذ القرن الثالث عشر ميلادي، وقد تميزت القوفية بترصيعها بالجواهر والقطع الذهبية المنقوشة، مثلما كانت في غرناطة، وكانت تلبسها العائلات البرجوازية والطبقة الراقية الحضارية بخلاف مثيلاتها البدويات، بالإضافة إلى السروال المشترك بين النساء والرجال، فقد كان يلبس في البلاد التونسية، ويصنع بأقمشة متنوعة كالكتان بالنسبة لسراويل نساء تونس

أبو عبد الله بن أحمد الشماع: المصدر السابق، ص ص 5-8.

*- العولة كلمة تعني ادخار الطعام لوقت الحاجة سواء في أوقات الجفاف والأزمات أو وقت نفاذه في فصل معين، وهناك احتمالان رئيسيان لمصدر هذه العادة:

- إما أنها عادة مغاربية وجدت عن طريق تعرض بلاد المغرب لكثير من الحروب المتواصلة، وكذلك تعرضها لأوقات جفاف ومجاعات متعددة، فأبدع المغاربة هذه الطريقة لتخزين الطعام ومواجهة الأزمات.
- أو هي عادة أندلسية نتجت حديثا بسبب الحصار المتتالي الذي تعرضوا له أثناء الحروب المتواصلة عليهم قبيل وبعد سقوط غرناطة 1492م، مع أننا نميل للاحتمال الأول لأنه الأقرب إلى الواقع، خاصة وأنها كلمة عربية قريبة إلى الدارجة المغاربية أكثر منها للغة أخرى.

2 - أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص86.

وبنزرت وكذلك الشبرلة «xererilla» الغرناطية الشبيهة بحذاء أسود منبسط* وكانت مشتهرة في تونس العاصمة، بنزرت وصفاقس وغيرها، وقد تواصل تواجدها في المجتمع التونسي إلى غاية القرن العشرين.[1]

وفيما يخص اللباس وغيره من عادات وتقاليد الأندلسيين يقول عبد الجليل التميمي: «... **وبادئ فقد جاء الموريسكيون إلى تونس وهم يرتدون لباسا إسبانيا، وذلك دليلا على تمسكهم بالعادات والتقاليد الإسبانية –الأندلسية– وقد حافظوا عليها في بيئة تنكر عنهم ذلك، البلاد التونسية، والذي أثار استغراب الجميع مغاربة وأوربيين هو بياض بشرتهم وجمال خَلْقِهم، بحيث يستحيل على المغاربي أن يجد بعض القواسم الفيزيولوجية مع هؤلاء الموريسكيين وهو ما أثار ضدهم البدو الذين اتهموهم بأنهم مسيحيين في الجوهر والظاهر، وقد جلب لهم ذلك عديد المتاعب من بعض السلط السياسية المغاربية...».**[2]

من خلال هذا الكلام الذي نقله لنا عبد الجليل التميمي عن الموريسكيين يمكننا إبداء بعض الملاحظات التي رأينا عدم تطابقها مع السياق التاريخي والواقع المعيش آنذاك، والتي نذكر منها:

- هل يعقل أنه لا يوجد أي تشابه فيزيولوجي بين الموريسكيين والمغاربة مهما كان نوعه، ونحن نعلم أن البشرة البيضاء وحسن الخلق موجودة في كل الأزمنة والأمم، مع العلم أن السكان المغاربة أيضا عرفوا بحسن الخلق والبشرة البيضاء، بل إن الجمال موجود في البادية أكثر منه في المدن، خاصة لدى النساء اللائي عرف عنهن الجمال الطبيعي الخالي من أي مؤثرات.
- إذا سلمنا جدلا أن المغاربة استغربوا فعلا من بشرة وخلق الأندلسيين الموريسكيين، فهل يعقل أن يستغرب الأوروبيون من ذلك؟ وهم من ذوي البشرة البيضاء إلا ما ندر، بل أكثر من ذلك أن الأندلسيين كانوا يعيشون بين الأوروبيين ويختلطون بهم، فكيف يستغربون من بشرتهم وخلقهم!!!.
- هل السكان المغاربة بهذه الدناءة والوضاعة لدرجة أن من يخالفهم اللباس والبشرة يوشون به إلى الحكام؟ ونحن نستغرب ذلك لأن المغاربة وفدت إليهم العديد من الأجناس عبر لتاريخ، وثبت أنهم لم يستأنسوا إلا لثلاثة أمم، أما الباقي فقد قاوموهم وطردوهم من بلادهم بكل ما أوتوا من قوة، وهذه الأمم الثلاث هي:
- الفينيقيون؛ لأن أصلهم عربي حسب الكثير من الدراسات التاريخية.

*- في الجزائر كانت تسمى الصندالة بلغة الأندلسيين.

1 – أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص ص 86، 87.

2 – عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص67.

- العرب الفاتحون؛ لأنهم جاءوهم بالدين الإسلامي الذي رضيه المغاربة عقيدة وتشريعا عن قناعة لا شك فيها.
- العثمانيون الذين أنقذوا المغاربة من الاحتلال الإسباني خاصة والأوروبي عامة، وقد كان الدين الإسلامي الرابط الأساسي بين العثمانيين والمغاربة الذين تقبلوا حكمهم كما كان مع العباسيين والأمويين من قبلهم بسبب الدين الإسلامي لا غير.
- ألم يكن العثمانيين بيض البشرة ولهم حسن الخلق أيضا، فلماذا لم يستغرب منهم المغاربة؟
- إن ما جعل المغاربة يتخذون بعض المواقف المضادة للأندلسيين الموريسكيين هي أفعالهم المنافية للدين الإسلامي والأعراف المغاربية، وتمسكهم ببعض العادات الإسبانية التي كان يراها المغاربة استفزازا لهم، لأنهم لم ينسوا للإسبان احتلالهم لبلادهم ونهبهم لخيراتها ومحاولة تغيير دينهم الإسلامي بالدين المسيحي، بل لم يغفروا للموريسكيين تمسكهم بعادات الإسبان وتعلم لغتهم ونشرها بين أبناءهم، وهم الذين قتلوهم وعذبوهم ونهبوا أموالهم وأراضيهم وممتلكاتهم وأرغموهم على تغيير دينهم الإسلامي واعتناق الدين المسيحي، ولذلك يمكننا القول أن انغلاق الأندلسيين على أنفسهم في بعض المرات وترفعهم على المغاربة هو الذي جعل البعض ينكر عليهم هذه الأعمال، وليس لباسهم؛ لأن العرب الفاتحين وحتى العثمانيين كانوا يختلفون عن المغاربة في اللباس والهيئة، فهل يعقل أن يكون الأمر كما ذهب إليه التميمي؟

وقد نبغ العديد من الأندلسيين الموريسكيين في كثير من التخصصات العلمية والأدبية، والجدول التالي يوضح لنا أبرز هؤلاء خلال القرن السابع عشر ميلادي:

الاسم	الاختصاص	المولد	المؤلفات	سنة الوفاة
إبراهيم التيبلي نسبة إلى تيبيلية معروف بخوان بيريت	كاتب وشاعر	طليطلة	ألف قصيدة من4608 بيت بالإسبانية مع بعض التواليف بالعربية في الدفاع عن الإسلام والرد على النصارى	//
محمد بن عبد الكريم بن علي بريت	الفقه			توفي بعد سنة 1624م
أحمد قاسم الحجري	عالم، كاتب، سفير			
أحمد بن محمد بن عبد العزيز الشريف	الفقه		هدية المهديين في تكفير جاهل صفة الإيمان.	1650م.

القرشي الحنفي				
الحاج محمد الروبيو الأرقواني	الفقه		كان ينفق أمواله في ترجمة كتب الإسلام من العربية إلى الإسبانية له ولإخوانه الأندلسيين الذين يتعلموا اللغة العربية، وذلك للمحافظة على دينهم.	

3-4-التأثير الأندلسي الموريسكي في الجانب العمراني.

ترك الأندلسيون الموريسكيون بصماتهم في العديد من المجالات، خاصة الجانب العمراني الذي أبدعوا فيه استطاعوا أن يخلدوا أسمائهم في مجال البناء والتعمير إلى يومنا هذا، دليلا على عبقريتهم ونبوغهم وحضارتهم الراقية التي أرادوا إحيائها في بلاد المغرب عامة وتونس خاصة، أين فجروا مكنوناتهم تعبيرا عن حنينهم إلى بلادهم الأم وتماشيا ووضعهم الجديد، فقد بنو المساجد والبيوت والمدارس على نفس النمط السائد في الأندلس سابقا، وعمدوا إلى جعل الشوارع متسعة تنتهي إلى ساحة مع تقاطع الأزقة على زوايا، وقاموا بتبليط الشوارع، واستعمال نوع جديد من العربات يسمى الكراريط* واستعمال القرميد الأحمر –القرمود– وهو من المواد التي تستعمل في تسقيف المنازل؛ وهو نظام تسقيف ذو انحدار خفيف لا يتجاوز الثلاثين درجة، ويجعل البناء محمي من الانزلاقات والرياح والأمطار، ويوضع أيضا في واجهة البيوت للزينة دليلا على تميز شخصيتهم الفنية وذوقهم الرفيع ، وقد سعوا بكل تفاني لنقل ما كان موجودا بالأندلس إلى الإيالة التونسية وسائر بلاد المغرب.[1]

بتشجيع من عثمان داي ابتداءً ثم من بعده حكام تونس استوطن الأندلسيون العديد من مناطق البلاد وأسسوا مدنا بأكملها، عددتها المصادر التونسية بعشرين مدينة؛ سواء كانت على أنقاض مدن سابقة أو مدن كانوا هم فعلا من أسسها لأول مرة، ومن أهم تلك المدن: سليمان، ويلي، نيانو، قرنبالية، تركي الجديدة، زغوان، طبرية، قريش الواد، مجاز الباب، السلوقية، تستور، بلاد العالية، القلعة[2] وأريانة وغيرها، بالإضافة إلى بناء المساجد والزوايا كزاوية سيدي ناصر الغزواني بتستور، جامع السلوقية، الجامع الكبير بتستور، جامع سليمان، وزاوية سيدي

* – الكراريط مفردها كريطة وهي عربات نقل مجرورة لها عجلتان من الخشب مصفحتان بالحديد، كانت موجودة بالأندلس خاصة وأوروبا عامة، فقد ذكرت المصادر التاريخية التونسية مثل محمود مقديش وابن أبي الدينار، وابن أبي الضياف وغيرهم أن أول من أدخل هذا النوع من العربات هم الأندلسيون.

1 – عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص39.

2 – ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص193؛ محمود مقديش: المصدر السابق، ص90.

علي عزوز بزغوان، بالإضافة إلى القصور والمدارس مثل: قصر باردو، ودار عثمان، والمدرسة الأندلسية ومدرسة الفتح وغيرها من الإنجازات العمرانية الأخرى.[1]

لا يمكن إغفال دور المهندسين الذين خططوا لبناء هذه المنجزات الحضارية التي مازالت قائمة إلى يومنا هذا، شاهدة على نبوغ وكفاءة المهندسين الأندلسيين، والجدول التالي يوضح لنا أهم الأسماء التي ساهمت في هذه الإنجازات العمرانية:

اسم المهندس	سنة الإنجاز	الإنجازات
محمد تغرينو (الثغري)	1630م	-بنا الجامع الكبير بتستور على النمط المعماري الطليطلي، ثم أضيف له صحن صغير سنة 1730م، وتجسد هندسته ومواد بنائه وزخرفته فن النهضة الإيطالية الإسبانية، مثل تزويق المحراب بالأجر البارز، وبناء الجدران بصناديق من التربة مدعومة بالأجر تعرف بالطانية والصومعة بقسميها القائمين على قاعدة مربعة.
علي بن دسيم الأندلسي	1631م	-بنا سبيل يوسف داي ببنزرت.
محمد بن غالب	1637م	-بنا الرواق الشرقي بجامع الزيتونة.
الأندلسي	1639م	-بنا تربة يوسف داي وجامعه.
موسى الأندلسي	1640م	-بنا البرج الأوسط بغار الملح.
محمد غانم الأندلسي	1675م	-جدد الرواق القبلي بجامع سوسة الكبير.
أبو البركات النيقرو الأندلسي	1700م لم تحدد سنة ميلاده أو وفاته	-كان خبير بالحياكة إلى أن احتاجت صومعة جامع القصبة إلى الترميم حيث لم يستطع المكلف القيام بهذه المهمة، فتولى أبو البركات بنفسه ترميمها، ليتولى من بعده أبنائه هذه المهنة
الحاج عبد الواحد	1733م	- بنا زاوية سيدي نصر القرواني، تتألف من سقيفة ومدخل وصحن تحيط به بيوت الطلبة.
محمد بلانكو	1741كم	- قام بتوسيع برج القصبة بباجة وبناء برج طبرقة.

1 - أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص ص 95، 103.

لعب الأندلسيون دورا بارزا في جميع مجالات الحياة بالإيالة التونسية وتركوا بصماتهم واضحة إلى يوم الناس هذا، دليلا على اندماجهم في مجتمعهم الجديد، الذي استطاعوا أن يؤثروا فيه ويتأثروا به، خاصة بعد استحالة عودتهم إلى أرض آبائهم وأجدادهم، لذلك عملوا كل ما في وسعهم للتعايش مع وضعهم الجديد، خاصة بعد المعاملة الطيبة والترحاب الجيد الذي لاقوه من التونسيين حكاما ومحكومين، حيث أُقطعت لهم الأراضي وتملكوها ومُنحت لهم العقارات فاستغلوها، هذا ما مكن الطرفان من التعاون فيما بينهما، فأنتج ذلك إخصابا حضاريا فريدا من نوعه، امتزجت فيه العقلية والفكر الأوروبي الغربي مع العقلية والفكر المغاربي الشرقي، وهذا ما ولد تعايشا حضاريا قل نظيره حينذاك.

3-5-التأثير الأندلسي الموريسكي في مجال الجهاد البحري.

لعب الأندلسيون دورا مهما في عمليات الجهاد البحري ضد الأوروبيين عامة والإسبان خاصة؛ محاولة منهم لرد الاعتبار لأنفسهم وانتقاما من الذين قاموا بطردهم من أرضهم وسلبوا أموالهم وممتلكاتهم وقتّلوا أبنائهم واستحيوا نسائهم وأذاقوهم العذاب الأليم، إلا أن حركة الجهاد البحري التونسي كانت قليلة النشاط ضد الإسبان بالمقارنة مع نظيراتها الجزائرية والمغربية، نتيجة لعدة عوامل نذكر منها:

- عدم خضوع أي منطقة للاحتلال الإسباني، قلل من عمليات الجهاد البحري التونسي ضد الأهداف الإسبانية، هذا ما أثّر على الجهاد الأندلسي، على عكس الإيالة الجزائرية والمغرب الأقصى اللتين كانتا بعض أراضيهما محتلة من طرف الإسبان؛ كالمرسى الكبير، وهران، سبتة ومليلية.
- فقدان الأندلسيين الأمل في الرجوع إلى الأندلس ثبّط من عزائمهم على مواجهة الإسبان انطلاقا من الإيالة التونسية.
- ضعف الأسطول التونسي بالمقارنة مع الأسطول الجزائري؛ لم يتح الفرصة لانضمام الأندلسيين إليه، إلا بعدد قليل، مما أثر على حركة الجهاد البحري ضد الإسبان.
- انشغال الإسبان بمشاكلهم داخل القارة الأوروبية أثّر على المواجهة المباشرة مع الإيالة التونسية، وبالتالي مع الأندلسيين بطريقة غير مباشرة.
- يعتبر الجيل الثاني من الأندلسيين؛ وهم الذين هاجروا بعد قرار الطرد النهائي ما بين 1609-1614م غير ذي بأس في الحروب والقتال وغالبيتهم من الذين اندمجوا في المجتمع الإسباني حتى ولو شكليا فقط، وبذلك فقدوا العزم على الانتقام من الإسبان.

– الراحة والدّعة والطمأنينة التي وجدها الأندلسيين بالبلاد التونسية وامتلاكهم للأراضي والعقارات وتأسيس المدن والمشاركة في الحياة العامة في بلادهم الجديدة وركونهم للحياة الدنيا، أنساهم التفكير في الانتقام من الإسبان، خاصة بعد فقدانهم الأمل في العودة لوطنهم الأم.

بالرغم من قلة النشاط العسكري الأندلسي ضد الإسبان؛ إلا أن هذا لا يعني بتاتا عدم المساهمة الفعلية في الجهاد البحري، خاصة ضد الفرنسيين والإنجليز، بالإضافة إلى المالطيين والإيطاليين الذين حملوا على عاتقهم مسؤولية مواجهة التونسيين نيابة عن الإسبان، حتى اشتهر بالبلاد التونسية مثلا مفاده" لا يعرف كيد أو طرد الروم إلا الأندلسيين"[1]، وهذا دليل على معرفة الأندلسيين بخبايا الأوروبيين؛ لأنهم عاشروهم لمدة فاقت الثمانية قرون من الزمن، هذا ما عزز معرفتهم بهم، خاصة أولئك الذين وقعوا في الأسر مثل: المجاهد المعروف أحمد بن غانم الأندلسي الذي قدم بعد صدور قرار الطرد النهائي سنة 1609م، صاحب مخطوط العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدفع، وهو أول كتاب ناقش مسألة الصناعات الحربية المغاربية، وقد اقتبس أفكار هذا الكتاب من خلال عمله في التجديف أو نتيجة ركوبه البحر مع الأوروبيين في أسفاره و تنقلاته، مما مكنه من الاطلاع الجيد على خبايا هذه الصناعة المتطورة في ذلك الوقت عند الأوروبيين، ومن ثمّ أراد نقلها إلى التونسيين وسائر المغاربة والمسلمين[2]، وهذا إن دل على شيئا إنما يدل على حرص المؤلف على خدمة أمته وصدق إيمانه وإخلاصه لدينه[3]، مفندا بذلك كل ما قيل عن الأندلسيين وردتهم عن دينهم وخيانتهم لأوطانهم الجديدة في سبيل الرجوع لإسبانيا تحت حكم الملة الكافرة.

ولما كان إبراهيم بن غانم الأندلسي لا يحسن الكتابة إلا باللغة الإسبانية كان يتمنى أن يجد من يترجم هذا المخطوط إلى اللغة العربية حتى يستفيد منه الحكام التونسيين وغيرهم من المسلمين ابتغاء وجه الله الكريم[4]، وخدمة لأمته الإسلامية حتى تستطيع منافسة الأوروبيين والوقوف في وجههم والذود عن بلاد الإسلام– التي تتعرض دوما للحملات الأوروبية الساعية لاحتلالها– ولا يتأتى ذلك إلا بامتلاك القوة والأسلحة التي بفضلها يمكن المواجهة والتصدي لطغيان المسيحيين المتزايد حينذاك، وقد قيّض الله سبحانه وتعالى لهذا المؤلف مترجما لا يقل أهمية وعلما عن سابقه؛ وهو أحمد بن قاسم الحجري –أفوقاي–.*

1 – أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص108.

2 – محمد حجي: الموريسكيون في المغرب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، المغرب الأقصى، 2001م، ص72.

3 – أحمد بن غانم الأندلسي: المصدر السابق، ص9.

4 – المصدر نفس: ص9.

* – اسمه أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي، لقب بالشهاب ودعي بـ "أفوقاي" وكان هذا اسمه الموريسكي الذي اشتهر به عند قومه حينذاك، وحمل أيضا اسما إسبانيا هو بيخارانوا "begerano"، ولد بمحلة الحجر الأحمر قرب غرناطة سنة977هـ /1570م=

أثناء عودة أبو القاسم الحجري الأندلسي من رحلة الحج مرّ بالإيالة التونسية، وهناك اطلع على مخطوط أحمد بن غانم الأندلسي، وما سهل عليه ذلك إتقانه اللغة الإسبانية، وقد أعجب بالمخطوط وتأثر بالأمنية التي تمناها صاحبه الأصلي، عندها قرر أن يحقق هذه الأمنية ويترجمه إلى اللغة العربية لينتفع به الحكام والمجاهدين في سبيل الله في كامل البلاد الإسلامية، وقد أضاف في مقدمة الترجمة فصلا كاملا عن الجهاد في سبيل الله، مستشهدا بالآيات والأحاديث الدالة على ذلك، وحاول أيضا توسيع معاني الجهاد؛ إلى الجهاد بالقلم واللسان خدمة لدين الله ونصرة للحق[1]، خاصة وأنه كان من الذين يهاجرون كثيرا ويقابلون المسيحيين، الذين عادة ما كان يدخل معهم في مناقشات لإبطال ادعاءاتهم عن الإسلام والمسلمين، بالإضافة إلى عمله ببلاط أحمد المنصور وابنه زيدان، حيث كان يلتقي مع كثير من الوافدين على البلاط السعدي، وكذلك عمله كممثل رسمي للدولة السعدية إلى بعض الدول الأوروبية.*

كغيرهم من الأندلسيين الفارين بعد صدور قرار الطرد النهائي إلى بلاد المغرب الإسلامي عمل أندلسيو الإيالة التونسية على تنشيط حركة الجهاد البحري ، بتشجيع مباشر من عثمان داي ابتداءً ثم الحكام الذين جاءوا

=تحت سلطة الإسبان الذين استطاعوا احتلالها في جانفي 1492م، ونظرا للتضييق الذي كان يعيشه الموريسكيين من أجل ترك دينهم الإسلامي نشأ الحجري وهو يبطن الإسلام و يظهر المسيحية وتعلم اللغة العربية ومبادئ الشريعة الإسلامية داخل أسرته، لأنه كان ممنوع على الأندلسيين تعلم دينهم ولغتهم، بل كل من ضبط يفعل ذلك كان مصيره القتل أو التنكيل والحرق حيا، ولذلك لعب الاضطهاد الذي مارسته دواوين التفتيش ضد الموريسكيين دورا بارزا في تمسك الحجري بدينه وعقيدته والذود عنهما حتى ولو كان ذلك بممارسة شعائره الدينية خفية، وتعلم اللغة القشتالية وأتقنها واطلع على مبادئها وتعلم آدابها، وحضر مجالس الترجمة تحت إشراف أسقف غرناطة دي سالفاتييرا (M.Desalpatierra) وخليفته الأسقف بيدروكاسترو (D.pedro Castro) مدعيا أنه تعلم العربية بمدريد على يد طبيب من بلنسية ،وحتى يتقي ضرر دواوين التفتيش(Inquisition) ويبعد أي تهمة عنه ادعى أن هذا الطبيب قد توفي منذ سنوات، وظل مواظبا على الترجمة من وإلى القشتالية بعد أن استطاع الحصول على رخصة لممارسة هذه المهنة، وبذلك أهلته مهنته لترجمة نصوص عربية وجدت في صومعة الجامع الكبير بغرناطة بعد تخريبه وإزالته نهائيا سنة 966هـ /1588م، له عدة مؤلفات منها : رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب- ناصر الدين على القوم الكافرين- بالإضافة إلى ترجمته مصنف بالقشتالية لصاحبه إبراهيم بن غانم الدباش الأندلسي بعنوان العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، انتهى من تعريبه عام 1048هـ /1638م، كما أنه قام بتعريب الرسالة الزكوطية في علم تعديل الكواكب لليهودي إبراهيم زكوط السملنقي التي ألفت سنة 877هـ وتشتمل على 248 جدول في الهيئة ، بالإضافة إلى عديد الترجمات الأخرى ... للاستزادة ينظر ، ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي- تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين-، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1999م، ص ص344 ،347.

1 - محمد حجي: المرجع السابق، ص73.

* - اشتغل أبو القاسم الحجري أولا لحساب أحمد المنصور الذهبي (1578- 1603 م) ثم من بعده لابنه مولاي زيدان (1603- 1627م)، وخلال حكم هذا الأخير صدر قرار الطرد النهائي بحق الأندلسيين الموريسكيين سنة 1018هـ/ 1609م، وبسبب أن عددا كبيرا لجأ إلى المغرب الأقصى، واشتكوا من المعاملات السيئة والمضايقات أثناء ترحيلهم من طرف الأوروبيين قرر مولاي زيدان إرسال مذكرة احتجاج لبعض الملوك الأوروبيين، عن طريق وفد رسمي؛ كان أحد أعضاءه أبو القاسم الحجري، وللغرض نفسه ذهب إلى فرنسا وهولندا، أين حاول الحجري الدفاع عن الإسلام والمسلمين ودارت العديد من المناقشات والمجادلات برهن فيها عن افتخاره بدينه وعقيدته الإسلامية... للاستزادة ينظر كيليا سارتلي، الحجري في فرنسا، تعريب، عبد الجليل التميمي، أعمال المؤتمر العالمي الثالث حول تطبيق الموريسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية – 1492-1609م – منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس، 1991، ص ص81، 86.

من بعده، الذين دعموهم بالمال والرجال والعتاد، وقد شكل الأندلسيون فرقا نظامية خاصة بهم، وأعلنوا الجهاد ضد الإسبان وغيرهم لاسترداد بعض حقوقهم المسلوبة ظلما وعدوانا من طرف المسيحيين، وفي ذلك يقول إبراهيم بن غانم الأندلسي: «... **وجئت إلى مدينة تونس حرسها الله ، فوجدت فيها كثيرا من الأصحاب والأحباب والأندلس–كذا – وأقبل عليا أمير المدينة عثمان داي –رحمه الله– وقدمني على مائتي رجل من الأندلس وأعطاني خمسمائة سلطاني ومائتي مكحلة* ومائتي سكين وغير ذلك مما يحتاج إليه في سفر البحر، وركبنا بأصحابنا في سفينة لم تجر إلا نحو الستة أشهر ومات رحمه الله، وبعد موته بقليل ولينا إلى تونس بغنيمة قليلة وأنا مجروح من حرب الأعداء حتى أشرفت على الهلاك...».**[1]

من خلال هذا النص يمكننا إبداء بعض الملاحظات، التي نذكر منها مايلي:

- تشجيع عثمان داي لحركة الجهاد البحري، وبإشراف مباشر منه.
- تشجيع عثمان داي للمجاهدين الأندلسيين من أجل استرداد بعض حقوقهم الضائعة.
- المحبة والشوق اللذين كانا يتميز بهما الأندلسيين الموريسكيين تجاه بعضهم البعض، وهذا ما نستشفه من خلال فرح المؤلف عندما وجد أصحابه وأحبابه الذين سبقوه إلى البلاد التونسية.
- شكل عثمان داي فرقا من المجاهدين في البحر من الأندلسيين لوحدهم، بسبب خبرتهم وحماسهم المستمد من رغبتهم في الانتقام من الإسبان.
- يمكننا القول أن الجهاد البحري في تونس تشكل من ثلاثة فرق؛ تونسية خالصة، أندلسية خالصة، مزيج بين الاثنين، وهي ميزة تكاد تكون فريدة من نوعها في بلاد المغرب.

ازدهرت حركة الجهاد البحري ازدهارا ملفتا للنظر، وساهم مساهمة فعالة في تنشيط عجلة الاقتصاد التونسي، الذي عرف انتعاشا واضحا، نتيجة لدخول الأسواق التونسية آلاف الأسرى المسيحيين، بالإضافة إلى عديد السلع الوافدة إليها نتيجة غنمها من عند المسيحيين[2]، هذا ما نتج عنه ازدياد حركة الجهاد البحري؛ سواء بين التونسيين أو الأندلسيين خلال القرن السابع عشر، وقد عملوا كل ما في وسعهم من أجل الانتقام من الذين أجبروهم على تغيير دينهم وطردهم من بلادهم، لذلك كان الأندلسيون يغيرون على الإسبان انطلاقا من البلاد التونسية، حتى يثبتوا لأعدائهم أن تهجيرهم القصري لم ولن ينسيهم العودة إلى بلادهم، أو على الأقل الانتقام عن طريق القتل والأسر كما فعل إخوانهم من قبل، وقد نقل لنا أحمد بن غانم الأندلسي نصا يثبت عزم الأندلسيين

* – المقصود بها البندقية، وهي مأخوذة من اللغة المغاربية الدارجة.

1 – أحمد بن غانم الأندلسي: المصدر السابق، ص8.

2 – محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص73.

على الجهاد مهما كلفهم الثمن، وفي ذلك قال: «...**وبعد أن برأت ركبنا البحر وسافرنا فيه في طلب الكفار وأموالهم* ونحن بقرب مدينة مالقة، وهي على حاشية هذا البحر الصغير، والتقينا بأحد عشر غرابا[1]، وذلك في نصف شهر أغشت، والبحر ساكن لا شيء من الريح، ووقعت الحرب الشديدة، ومات من الجانبين خلق كثير ودام الطرد الكبير حتى لم يبق منا إلا القليل، وأسرونا، وصح أن من الكفار أعدائنا مات في ذلك اليوم أكثر من ستمائة رجل وكان فيهم أكثر من عشرين من أكابرهم وأنا مثقل بالجراح، ثم فرج الله علي من الأسر بعد السبع سنين...**».[2]

ونظرا للمهارة التي تميز بها الأندلسيون الموريسكيين في البناء والتعمير، شاركوا أيضا إلى جانب السكان المحليين في بناء وتعمير وحراسة القلاع، مخافة من هجمات النصارى، خاصة بالمدن الساحلية كتونس العاصمة وحلق الوادي وبنزرت وغيرها من المدن التي كانت عرضة للهجمات الأوروبية باستمرار، هذا ما جعل يوسف داي يهتم أكثر بالأسطول البحري لمواجهة هذه الأخطار الخارجية، وقد علا شأن الأسطول وكثرت سفن الجهاد وبلغت خمسة عشر مركبا من المراكب الكبار، وازداد عدد رؤساء البحر، وكانت لهم شهرة كبيرة في الآفاق[3]، إلا أن ذلك لم ينسه الاهتمام بالدفاع عن البلاد حين خروج المجاهدين للبحر لمطاردة سفن النصارى، فأسند هذه المهمة للأندلسيين الموريسكيين لعلمه بنباهتهم وفطنتهم وخبرتهم في مثل هذه المهام، وفي ذلك يقول أحمد بن غانم الأندلسي: «... **ثم وليت إلى تونس، والأمير يوسف داي أمرني بالقعود في حصن حلق الوادي ونحن من أهل الجيش في المراتب وفيها أكملت معرفة آلات المدافع بالانشغال بيدي فيها وبالقراءة في كتب الفن...**».[4]

أبرز ما يمكن ملاحظته هو انشغال الكاتب إبراهيم بن غانم الأندلسي بأربعة مهام في نفس الوقت قلّ من يقوم بها في زمن الحرب والجهاد، بل هي ميزة انفرد بها هذا المؤلف عن سائر الناس، سواءً المغاربة أو الأندلسيين، حيث لم تنقل لنا المصادر مثل هذا، وهذه المهام هي:

- قيادة الجيش المدافع عن حلق الوادي.

---

* – يذكرنا هذا بغزوة بدر الكبرى سنة 3 هـ عندها حاول المسلمون استرداد أموالهم التي سلبها منهم كفار قريش، وذلك باعتراض قافلة التجارة التي كان يقودها أبو سفيان والقادمة من الشام، إلا أنه استطاع إنقاذ هذه القافلة، وكانت غزة بدر الكبرى مصداقا لقوله تعالى ﴿**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ**﴾، الآية 7، سورة الأنفال.

1 – المقصود بها السفن الحربية.

2 – أحمد بن غانم الأندلسي: المصدر السابق، ص3.

3 – محمود مقديش: المصدر السابق، ص92.

4 – أحمد بن غانم الأندلسي: المصدر السابق، ص3.

- الانشغال بصناعة المدافع، هذا ما أكسبه خبرة أهلته للتأليف فيما بعد.
- قراءة الكتب أثناء الحرب والقتال، وهي ميزة لا يمكن أن تتوفر إلا في هذه الشخصية البارزة والفذة.
- التفكير في مصير المسلمين وتزويدهم بمؤلف يكون في صالحهم وذخرا لهم للقيام بصناعة حربية آنية ومستقبلية تساعدهم في التصدي للمسيحيين.

كان الهدف الأكبر من ممارسة الأندلسيين للجهاد البحري ضد المسيحيين* الانتقام منهم سواءً بالقتل والتنكيل أو بالأسر، فقد شكّل الأسرى تجارة رائجة ونشطة ومجزية عن طريق افتدائهم[1]، وقد لعب الأندلسيون دورا بارزا في هذه التجارة؛ سواء كملاك أو وسطاء خلال القرن السابع عشر ميلادي، حيث كانت تتم المقايضة بين الأسرى المسيحيين والأسرى الأندلسيين الموريسكيين بوساطة يهودية أو عن طريق وساطة الأوروبيين العاملين في هذا المجال، أو الأندلسيين الموريسكيين أنفسهم مقابل ما قيمته نسبة 25% من الثمن الكلي للصفقة، وأحيانا يتم التبادل بقروض مضمونة ماليا، أو عن طرق شخص ما يملك السيولة المالية، لذلك برز العديد من الملاك الأندلسيين ساهموا مساهمة فعالة في إنقاذ إخوانهم من الأسر والعبودية.

والجدول التالي يوضح لنا أهم الشخصيات الأندلسية الموريسكية المالكة للعبيد خلال القرن السابع عشر ميلادي:[2]

اسم المالك	السنة	اسم الداي التونسي الحاكم
سيدي حسين	1615 م	يوسف داي
أسطا قاسم	1620 م	//
علي بن حسين	1621 م	//
أحمد قايا	1621 م	//
رجب الأندلسي	1631م	//
محمد بيريث	1632 م	//
شريف الأندلسي	1633 م	//
عاشور الأندلسي	1634 م	//

* – لم يقتصر التعاون بين حكام الإيالة التونسية والأندلسيين في جهاد المسيحيين؛ بل تعداه إلى التعاون في مواجهة الجزائريين أيضا، حيث عرض مصطفى قرضناش على يوسف داي إمداده بسبعة آلاف جندي أندلسي لحماية حلق الوادي وتونس العاصمة من هجمات الأسطول الجزائري، ليساهم فيما بعد في إقرار الصلح بين الجزائريين والتونسيين سنة 1628م، بمساهمة مجموعة من المشايخ والأعيان التونسيين ...للاستزادة ينظر، أحمد الحمروني: المرجع السابق ن ص109.

1 – أندريه ريمون: المرجع السابق، ص42.

2 – هذا الجدول حسب ما أورده أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص110.

الحاج محمد الثغري	1635 م	//
مامي سبنيولو	1636 م	//
رمضان طوريو	1647 م	حمودة باشا
حسن فارا	1652 م	حمودة باشا
علي كاتالان	1653 م	حمودة باشا
محمد ماتشو	1653 م	حمودة باشا
قضار الموريسكي	1655 م	حمودة باشا
بابا يوسف	1655 م	حمودة باشا
أسطا محمدين عبد الله	1657 م	حمودة باشا
مصطفى النبلي	1659 م	حمودة باشا
شعبان البطر	1662 م	حمودة باشا
رمضان الأندلسي	1664 م	حمودة باشا
الحاج محمد بن سالم	1666 م	حمودة باشا
سيدي الشريف بن مصطفى قرضناش	1672 م	مراد باي
محمد روبريو	1680 م	محمد باي الثاني
محمد تكال	1693 م	محمد باي الثاني
محمد الطيب	1694 م	محمد باي الثاني

من خلال هذا الجدول نلاحظ:

- أكبر فترة استطاع فيها الأندلسيون امتلاك العبيد هي الفترة الممتدة من حكم عثمان داي إلى غاية حكم حمودة باشا، وهو دليل على النشاط الكبير لحركة الجهاد البحري التونسي مما بين 1610م-1675م تاريخ وفاة مراد باي الثاني.*

* - مراد باي الثاني ابن حمودة باشا، تولى بعد وفاة أبيه سنة 1076هـ/ 1666م ،كان شجاعا منصفا، سلك مسلك أبيه في تطويع المتمردين وفرض هيبة السلطة، استطاع في أول عهده القضاء على المتمردين في طرابلس من الانكشارية بعد قتلهم عثمان باشا، فسار إليهم وقضى على رؤوس الفتنة منهم وشرد البقية ونصب ابن عثمان باشا حاكما لطرابلس، ثم قفل عائدا إلى مقر حكمه، ثم اتجه إلى جبل وسلات واستطاع السيطرة على الجبل بالقوة وطرد المتمردين منه سنة 1085هـ/ 1674م، وثار عليه الانكشارية؛ إلا أنه تمكن منهم وقضى عليهم وشردهم، له العديد من الإنجازات، مها المدرسة المرادية، جامع قابس، المسجد الحنفي بباجة، وغيرها من الإنجازات الأخرى، وقد بقي مسيطرا على زمام الأمور حتى وافاه الأجل في سنة 1086هـ / 1675م بقصر باردو... للاستزادة ينظر، محمود مقديش: المصدر السابق، ص ص104- 106؛ حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 119.

- تعتبر الفترة الممتدة من 1675 إلى 1694م فترة انكماش حقيقي بالنسبة لامتلاك الأسرى، بمعنى تناقص نشاط الجهاد البحري التونسي خلال هذه الفترة مباشرة بعد وفاة حمودة باشا، وبداية ضعف الأسرة المرادية.
- نجد خلال الفترة الممتدة من 1610إلى غاية 1640م وجود حوالي 11 مالكا أندلسيا للأسرى، ومن 1640إلى غاية 1666م حوالي 10 ملاك، ومن 1666إلى غاية 1694م 4 ملاك فقط، ويرجع هذا لعدة أسباب نذكر منها:
- تراجع دور الأندلسيين في الجهاد البحري.
- تراجع حركة الجهاد البحري التونسي.
- ظهور فرنسا وإنجلترا كقوتين متناميتين في البحر المتوسط وتحملهما عبء مسؤولية الدفاع عن الأسرى المسيحيين أثّر على حركة التجارة بهم.
- إمضاء حكام الإيالة التونسية لعديد الاتفاقيات مع نظرائهم الأوروبيين حدّ من التجارة بالأسرى.

عمل الكثير من الأندلسيين أيضا كوسطاء في عمليات تبادل الأسرى، سواء بين الأندلسيين وغيرهم من الأوروبيين أو مع عامة التونسيين والأوروبيين، وقد ظهرت العديد من الشخصيات البارزة في هذا المجال: لويس ثباطة 1615م، محمد خيار 1621م، حسن الحاج سالم 1628م، إبراهيم موسى1634م ومصطفى قرضناش 1645م[1]، علما أن هذه الشخصيات ظهرت في عهد يوسف داي، في وقت نشطت حركة الجهاد البحري، ما انعكس إيجابا على ازدياد عدد الأسرى بالإيالة التونسية، وفي نفس الوقت زيادة مداخيل الاتجار بهم ومقايضتهم بالأندلسيين الذين وقعوا في الأسر لدى مختلف الدول الأوروبية .

إذن لعب الأندلسيون دورا بارزا في تنشيط حركة الجهاد البحري التونسي خاصة خلال الفترة الممتدة من 1610-1675م ، وهي فترة القوة والنشاط، حيث ساهموا بفعالية كبيرة في الجهاد البحري ضد الأوروبيين، مستغلين في ذلك الفرصة للانتقام منهم، خاصة الإسبان؛ وذلك بأسرهم والتجارة بهم وبسفنهم وجميع ما عليها من السلع والمواد، هذا ما مكن البعض منهم من الظهور كمجاهدين أو ملاك أو وسطاء، وفي نفس الوقت أيضا استطاعوا إنقاذ الكثير من إخوانهم الأسرى من العبودية، نتيجة افتدائهم بالأموال أو مقايضتهم بالأسرى الأوروبيين، وبذلك كانوا مساهمين فعليين في انتعاش وازدهار الاقتصاد التونسي خلال القرن السابع عشر ميلادي، خاصة وأنهم تلقوا كل العناية والتشجيع من طرف الحكام التونسيين، الذين تعاطفوا معهم وشجعوهم على الانتقام

1 - أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص110.

من الإسبان، لأن الطرفين التقيا على هدف مشترك تمثل في الدفاع عن الأراضي الإسلامية والتصدي للأوروبيين الطامعين في احتلال بلاد المغرب الإسلامي.

4-أعداد الأندلسيين بالإيالة التونسية.

اختلفت المصادر والمراجع العربية والأجنبية في تحديد العدد الحقيقي للأندلسيين المهاجرين إلى الإيالة التونسية، بل أكثر من ذلك نجد تضاربها وتناقضها فيما يخص هذه المسألة التي لا يمكن لأي دارس تحديدها بالضبط ،إنما يكون ذلك بالتقريب فقط، فنجد الكثير من المصادر والمراجع حددت العدد بحوالي 80 ألف، مثلما ذهب إلى ذلك شارل أندري جوليان في كتابه تاريخ إفريقيا الشمالية حيث قال: «... **وكانت تونس أيضا مدينة أهلها خليط من السكان، فقد آوت –أكثر من الجزائر– الموريسك المطرودين من إسبانيا سنة 1609م والتجأ إليها ثمانون ألفا منهم حسب ما يقال وقد عرفت منذ القدم باحتضانها للأندلسيين**...»[1]، فيما يقدر عددهم أحمد الحمروني استنادا على مصادر ومراجع أجنبية بنفس العدد أيضا أي 80 ألف مهاجر، وفي نفس الوقت يذكر أن عددهم 40 ألفا استنادا إلى المؤرخ جون ديريك لاتام، مستندا على ذلك بشهادة المؤرخ الإنجليزي أليات «Ellyatt» الذي كان أسيرا بالإيالة التونسية ما بين 1603-1609م، وشهادة الأسير المالطي مرسيلو أتاردو «Marcello Attardo»[2]، مع أن الحمروني لم يرجح أي من الروايتين، خاصة وأنه يعتبر من المؤرخين التونسيين البارزين الذين خاضوا في موضوع الموريسكيين، فيما ذهب أندريه ريمون إلى تقدير عددهم ما بين 40-50 ألف من بين 80 ألف غادروا الأندلس[3]، فيما ذهب عبد الجليل التميمي إلى تقدير عددهم بحوالي 80 ألفا[4]، وهذا ما ذهب إليه أيضا حسين مؤنس[5]، وذلك ما قالا– دومينغيث أورتيث، برنارد فينسينت به الذي قال: «...**لكن التيار الكبير المفاجئ عام 1609م لم يحدث له مثيل من قبل، وقد ذكر أنه يصل إلى 80 ألفا، وهو عدد كبير بالنسب لبلد صغير وذي عدد قليل من السكان ربما لا يزيد على 40 ألفا كما ظن لا ثام "Ltham " وعلى كل الأحوال فهو عدد ضخم، وكان يحتوي على فالنسيين وقشتاليين، إلا أن العدد**

1 – شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص356.

2 – أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص34.

3 – أندريه ريمون: المرجع السابق، ص 42.

4 – عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص59.

5 – حسين مؤنس: المرجع السابق، ص352.

الأكبر من أراغون، وقد استقبلوا بترحاب من جانب الداي التركي عثمان الذي كان يعلم -بالإضافة إلى مشاعره نحو أبناء دينه- أنهم سيسهمون بطريقة كبيرة في تقدم الدولة ...».[1]

تكاد تجمع المراجع العربية والأجنبية على أن الأندلسيين الموريسكيين الذين وفدوا على الإيالة التونسية كانوا حوالي 80 ألف نسمة، وخالفهم في ذلك أندريه ريمون الذين حدد العدد فيما بين 35 ألف و40 ألفا أندلسي من مجموع 80 ألفا غادروا الأندلس حسب زعمه، مخالفا بذلك كل المؤرخين الذين تكلموا عن رقم مهول يتراوح ما بين 500 ألف و2 مليون أندلسي، فيما قدرهم الشهاب الحجري بحوالي 800 ألف مهاجر أندلسي[2]، أما محمد بن عبد الرفيع الأندلسي فقدر عددهم بأكثر من 600 ألف مهاجر أندلسي، فيما قدرهم مؤرخ ديوان التحقيق لورفاشني بمليون[3]، والمؤرخ النمساوي فون بور خشتال فيقدرهم بأكثر من 300 ألف أندلسي موريسكي، أما فليرونتيني يقدرهم بحوالي 200 ألف، أما نافاريني فيقدرهم بحوالي 300 ألف أندلسي موريسكي، فيما يقدرهم البعض الآخر ما بين 600ألف و900 ألف أندلسي موريسكي.[4]

أما بالنسبة للمؤرخين الأوروبيين الذين عاصروا الأحداث أو كانوا قريبين منها فقد اختلفوا أيضا في تقدير عددهم؛ فالمؤرخ بليدا «Bleda» يقدرهم بـ 672 .340 فيما يقدرهم بينالوزا «Penalosa» بحوالي 310آلاف موريسكي، أما سالزار ديموندوزا «Salazar De Mondoza» فيقدرهم بحوالي 313ألف موريسكي هذا بالنسبة لمؤرخي القرن السادس عشر أما مؤرخو القرن السابع عشر فقد أعطوا لنا أرقاما مغايرة تماما لتلك الأرقام، فالمؤرخ مونكادا«Moncada» يقدر عددهم بحوالي 400 ألف موريسكي، أما المؤرخ إيسكولانو«Escolano» فيقدر عددهم ب600 ألف موريسكي فيما يقدرهم المؤرخ رودريغوموندوز سيلفا« Silva Rodrigo Mendez» بحوالي 900 ألف موريسكي[5]، أما هربرت فيشر فقد قدر عددهم بحوالي 500 ألف موريسكي من أمهر زراع البلاد وصناعها[6]، أما غوستاف لوبون فقد أعطانا رقما مهولا عن مدينة مدريد لوحدها التي غادرها حوالي 200 ألف أندلسي من مجموع سكانها المقدر عددهم بحوالي 400 ألف، وفي ذلك يقول: «...**وأصبح عدد سكان مدريد مائتي ألف بعد أن كان أربعمائة ألف، وصارت إشبيلية التي كانت تحتوي على**

1 – دومينغيث أورتيث، برنارد فينسينت: المرجع السابق، ص369.

2 – أحمد بن قاسم الحجري: المصدر السابق، ص55.

3 – عبد الله محمد عنان: موقف القسطنطينية...، المرجع السابق، ص110.

4 – علي مظهر: المرجع السابق، ص45.

5 – محمد رزوق: المرجع السابق، ص ص 126 ،127.

6 – هربرت فيشر: أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة الأوربية إلى الثورة الفرنسية، نقله للعربية، زينب عصمة راشد، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة، أحمد عزت عبد الكريم، ط3، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1970م، ص231.

1600حرفة كافية لإعانة 130ألف شخص لا تشمل على غير 300حرفة، وهذا فضلا عن ثلاثة أرباع سكانها كما جاء في رسالة مجلس الكورش إلى الملك فليب الرابع...».[1]

استنادا إلى المعطيات السابقة فإن عدد الأندلسيين الموريسكيين الذين تم طردهم من إسبانيا لا يقل عن 500 ألف، ولا يزيد عن مليون أندلسي، وهو رقم هائل نتساءل عن مصيرهم؟ خاصة إذا علمنا أن عدد الوافدين إلى بلاد المغرب الإسلامي لا يزيد عن 130ألف أندلسي حسب الدراسات التي بين أيدينا، فالسؤال المطروح هو: أين ذهب بقية الموريسكيين؟ علما أن الأستاذ عبد الجليل التميمي قدم لنا إحصائيات مهمة تفيدنا في الإجابة عن السؤال المطروح ولو بصورة تقريبية.

من خلال ما أورده عبد الجليل التميمي؛ الذي قال أن عدد الأندلسيين الموريسكيين الذين هاجروا باتجاه الدولة العلية العثمانية والدول الأوروبية لم يتجاوز 4600 أندلسي موريسكي موزعين على النحو التالي:

- 3 آلاف تحولوا بدعوة من الدوق الأكبر واستقروا بلفورنة بعد مساعي حثيثة.
- 1100 أندلسي من أرغونا وقشتالة اتجهوا إلى الدولة العلية العثمانية.
- 500 أندلسي موريسكي ذهبوا إلى سانوليك.[2]

فإذا أضفنا إلى هذا الرقم بضعة مئات آخرين اتجهوا إلى طرابلس الغرب والعالم الجديد، فبالكاد يكون الرقم في حدود 7 آلاف خارج البلاد المغاربية، التي التجأ إليها السواد الأعظم من المطرودين، وذلك حسب الإحصائيات التالية:

- المغرب الأقصى: 60 ألف أندلسي موريسكي.[3]
- الإيالة الجزائرية: 25 ألف أندلسي موريسكي.[4]
- الإيالة التونسية :80 ألف أندلسي موريسكي.[5]

وبإجراء عملية حسابية بسيطة نجد أن عدد الأندلسيين الذين فروا إلى بلاد المغرب: 155000=25000+50000+80000.

1 – غوستاف لوبون: المرجع السابق، ص584

2 – عبد الجليل التميمي: تراجيديا طرد الموريسكيين...، المرجع السابق، ص59.

3 – محمد قشتيليو: المرجع السابق، ص82؛ دومينغيث أورتيث، برنارد فينسينت، المرجع السابق، ص359.

4 – ناصر الدين سعيدوني: دراسات أندلسية – مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندليسي بالجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1424هـ/2003م، ص23؛ حنيفي هلايلي: التاريخ الأندلسي الموريسكي...، المرجع السابق، ص34؛ محمد رزوق، المرجع السابق، ص131.

5 – عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص59؛ دومينغيث أورتيث، برنارد فينسينت، المرجع السابق، ص 369.

وبمقارنة هذه الإحصائيات التي أوردتها المصادر العربية والإحصائيات التي أوردتها المصادر الأجنبية، نجد الفارق كبير جدا بينهما؛ فإذا سلمنا جدلا أن الحجري وابن عبد الرفيع أعطيا العدد بالتقريب فقط وهو ما بين 600 ألف 800 ألف موريسكي ، ويعضد روايتهما كل من المؤرخ إيسكولانو الذي قدر عددهم بحوالي 600 ألف موريسكي والمؤرخ رودريغو موندوز سيلفا الذي قدر عددهم بحوالي 900 ألف موريسكي، بالإضافة إلى عديد الروايات الأخرى التي تؤكد هذه الإحصائيات، لذلك فإن الفرق بينهم وبين ما أورده المؤرخون المتأخرون نجده أكثر من 350 ألف موريسكي، واستنادا إلى هذه المعطيات نرجح الأرقام التي أوردها المؤرخون الموريسكيون الحجري وابن عبد الرفيع، بالرغم من المبالغة التي تكون قد حدثت في نقل هذه الأرقام المروعة عن مأساة حقيقية حدثت لإخوانهم، يدعم هذا الطرح أيضا ما ذهب إليه غوستاف لوبون وهربرت فيشر واللذان رجحا عددهم بحوالي 500 ألف مهاجر، ولذلك يمكننا إعطاء العدد التقريبي للأندلسيين المهجرين بحوالي 500 ألف نسمة اعتمادا على ما سبق ذكره.

بالعودة إلى الإحصائيات السابقة والتي تقول أن عدد المهجرين إلى بلاد المغرب هو 155 ألف تحتاج إلى إعادة نظر، خاصة بالنسبة للمهجرين إلى المغرب الأقصى والإيالة الجزائرية، خصوصا هذه الأخيرة التي يجب إعادة النظر في مصادر المعلومات التي تحدثت عن 25 ألف مهجّر فقط، والإحصائيات التالية توضح لنا بعض الغموض حول هذه الإشكالية المطروحة والخاصة بالهجرات الأندلسية، وقد اعتمدنا على أن عدد المهاجرين الأندلسيين هو 500 ألف أندلسي بدل 275000 الذي اعتمده عبد الجليل التميمي، خاصة وأنه اعتمد كليا على المصادر والمراجع الأجنبية لتكون النتائج كالتالي :

- 500000-155000=345000 الفارق المعتمد هو 345000 موريسكي، ولذلك نورد الإحصائيات التالية اعتمادا على الإحصائيات الجديدة والمقارنة بينها وبين ما أورده التميمي الذي اعتمد على الإحصائيات التي ترجح عدد 275000:

الدولة	التميمي	الطالب
المغرب الأقصى	60.000 →275.000 X → 100 %21.81 =X	60.000 →500.000 X → 100 %12 =X
الجزائر	25.000 →275.000 X → 100 %9.09=X	25.000→500.000 X → 100 %5=X

تونس	80.000 →275.000 X → 100 X= %29.09	80.000 →500.000 X → 100 X= %16
باقي جهات العالم	6.000 →275.000 X → 100 X= %2.18	6000 →500.000 X → 100 X= %2.1
	المجموع الكلي	
	62,17% أين 37,83%	34,2% أين65,8%

بعد التعرض للإحصائيات التي تم اعتمادها في الجدول المبين أعلاه نخلص إلى ما يلي:

- حسب ما أورده عبد الجليل التميمي فإن عدد الموريسكيين الأندلسيين الذين فروا من جحيم محاكم التفتيش يقدر بـ 62.7%، وعليه يمكن طرح السؤال الموالي: أين توجهت النسبة المتبقية والمقدر بـ 37.83%.
- حسب ما أورده الطالب الباحث فإن عدد الموريسكيين الأندلسيين الذين فروا يقدر بـ 34.2%، وهذا أقل بكثير مما توصل إليه عبد الجليل التميمي، وبناء على هذه النسبة نتساءل إلى أين توجهت نسبة 65.8% من مجموع الموريسكيين المهجرين.

في كلا الحالتين هناك فرق شاسع بين ما هو معلوم من المرحلين وما هو مجهول، حيث تصل النسبة إلى 37.83% بعدد إجمالي يقدر بحوالي 165 ألف مرحل من إجمالي 275 ألف مهاجر أندلسي، بمعنى أن العدد المجهول هو 110 آلاف أندلسي، فأين ذهب هذا العدد؟، أما ما توصلنا إليه فهو نسبة 65.80% من عدد الذين لا نعرف مصيرهم من إجمالي 500 ألف مطرود أندلسي، بمعنى 335 ألف موريسكي لا نعرف وجهتهم بالضبط، فأين ذهب هذا العدد المهول منهم؟، ولماذا تجاهله المؤرخون؟؛ سواء الإحصائية الأولى أو الثانية.

لذلك ووفق المعطيات السابقة فإن الإيالة الجزائرية وفي كلتا الإحصائيتين فإن عدد الموريسكيين بها أكثر بكثير مما هو متداول الآن، وكذلك بالنسبة للمغرب الأقصى، فكلا البلدان مؤهلان لاحتضان أعداد كبيرة جدا من المهاجرين الأندلسيين، خاصة الإيالة الجزائرية التي كانت مؤهلة أكثر من غيرها لاحتضان العدد الأكبر منهم لتوفرها على عدة مميزات نذكر منها:

- مساحة الإيالة الجزائرية الشاسعة مقارنة مع الإيالة التونسية والمغرب الأقصى تؤهلها لاحتضان عدد أكبر بكثير مما هو مصرح به.

- المساعدات العسكرية الجزائرية كانت معتبرة جدا للثورات الأندلسية، ولجميع الأندلسيين ابتداء من عهد خير الدين إلى غاية قرار الطرد النهائي، ولذلك كانت الهجرات إلى الجزائر مستمرة منذ سقوط غرناطة وخصوصا بعد تأسيس الإيالة الجزائرية سنة 1520م والتي عمل حكامها كل ما في وسعهم لمساعدة الأندلسيين.
- تأسيس الإيالة الجزائرية كان سابقا بكثير لتأسيس الإيالة التونسية، فقد قدرت المدة الزمنية بينهما بأكثر من خمسين سنة، وهي فترة مرت بها الجالية الأندلسية بالكثير من المآسي، هذا ما اضطرها للهجرة باتجاهات مختلفة من بينها الجزائر التي كانت الأكثر جذبا لهم، باعتبار أن تونس كانت خاضعة للاحتلال الإسباني أو من ينوب عنه، فهل يعقل أن يفر الأندلسيين من الاضطهاد الإسباني بالأندلس إلى الاضطهاد الإسباني بتونس؟
- انخراط الأندلسيين في الجهاد البحري الجزائري ومشاركتهم في الهجمات ضد الإسبان، كان يستلزم إنقاذ إخوانهم من الاضطهاد الإسباني، وبالتالي نقلهم إلى الجزائر وليس إلى جهات أخرى.
- قرب الجزائر من المغرب الأقصى أهلها لتكون منطقة جاذبة للأندلسيين وليست طاردة لهم، خاصة وأن المصادر التاريخية تكلمت عن حسن المعاملة التي تلقاها الأندلسيين من طرف الجزائريين حكاما ومحكومين.
- الوجود المبكر للعثمانيين بالجزائر على عكس المغرب الأقصى وتونس، كان عاملا مساعدا على ووفود الأندلسيين، خاصة أن المصادر التاريخية ذكرت لنا أن الأندلسيين كانوا يعلقون آمالا كبيرة على حكام الإيالة الجزائرية في إنقاذهم من الاضطهاد الإسباني، وكثرت نبؤاتهم التي ترى أن العثمانيين هم المخلصين لهم مما يعانونه، فكان تواجدهم بالجزائر يزيد من تصديق هذه التنبؤات، هذا ما جعل الأندلسيين يفرون إلى الجزائر على أمل المساعدة في تحقيق هذا الأمل الموعود.
- قرب الإيالة الجزائرية من إسبانيا أهلها لتكون الوجهة المفضلة رفقة المغرب الأقصى للأندلسيين، بالرغم من أن بعض المصادر* تكلمت عن حدوث بعض الانتهاكات بحقهم من طرف اللصوص وقطاع الطرق؛ علما أن هذه الانتهاكات استثناءً وليست قاعدة تُعمم على سكان الجزائر والمغرب الأقصى.

* – من بين هذه المصادر التاريخية نذكر: المقري التلمساني في كتابه نفح الطيب، الراشدي الشقراني في كتابه القول الأوسط ومحمد بن الطيب القادري في كتابه نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني.

بالرغم من توفر الجزائر على العديد من الامتيازات قديما وحديثا، إلا أن الدراسات الموريسكية بها لا زالت متأخرة بالمقارنة مع المغرب الأقصى وتونس، لذلك نجد أن الإحصائيات التي تقول بهجرة 25 ألف موريسكي فقط يجب إعادة النظر فيها، وهي لا تدل بأي حال من الأحوال عن الحقيقة التاريخية استنادا إلى عدة معطيات نذكر منها:

- هل يعقل أنه في عهد خير الدين فقط الذي دام حوالي 16سنة استطاع إنقاذ أكثر من 70 ألف أندلسي نقلوا إلى الجزائر في 36 سفينة[1]، ثم لا يرتفع العدد فيما بعد، وهذا لا يمكن تصوره مطلقا، خاصة خلال فترة حكم علج علي باشا الذي قدم دعما كبيرا للثورة الموريسكية ما بين 1568-1571م.
- هناك حلقة مفرغة في العدد المتبقي الذي لم يتكلم عنه المؤرخين والمقدر بحوالي 110 آلاف أندلسي من بين 275 ألف غادروا الأندلس بنسبة تقدر بـ 37.83 من المائة -وهذا استنادا إلى ما أورده التميمي والكثير من المؤرخين-أما الإحصائيات التي أنجزنها استنادا على العديد من المصادر؛ والتي اعتمدنا فيها على عدد 500 ألف أندلسي مطرود لم يتبين لنا مصير 335 ألف منهم، بنسبة مئوية تقدر بـ 65.80 في المائة، فلا شك أن نسبة كبيرة منهم التجأت إلى الجزائر.
- الاعتماد الكلي من طرف الأستاذ عبد الجليل التميمي-المختص في الدراسات الموريسكية -على المراجع الأجنبية -وهذا ما وقفنا عليه أثناء إنجازنا هذه الدراسة ومناقشته حول هذا الموضوع، مهملا بذلك الاعتماد على المصادر العربية الإسلامية-* جعلت الكثير من المؤرخين يعتمد عليه، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الوثائق والمصادر والمراجع التي نستطيع من خلالها تحديد العدد ولو بالتقريب الذي هاجر إلى الجزائر منذ سقوط غرناطة إلى غاية قرار الطرد النهائي وما بعده.
- الدراسات الأندلسية الموريسكية متطورة جدا في المغرب الأقصى وتونس، فقد خصصت مئات الندوات والملتقيات والمؤتمرات العالمية لهذه المسألة، خاصة في تونس، أين اهتم مركز التميمي بهذه القضية بشكل يكاد يكون فريد من نوعه في الوطن العربي والإسلامي، أما في الجزائر فباستثناء الدراسات التي أنجزها

1 - مجهول: غزوات...، المصدر السابق، ص82.

* - في مقابلة شخصية مع الأستاذ عبد الجليل التميمي، وبعد مناقشات عديدة معه حول هذا الموضوع ومعارضته في قضبة اعتماده الكلي على المصادر والمراجع الأجنبية، وإهماله لإحصائيات ابن عبد الرفيع والحجري وغيرهم من المصادر والمراجع الأخرى، فقد اتفقنا على أن عدد المهجرين لا يقل عن 500000 أندلسي موريسكي- وهذا ما توصلت إليه في هذه الدراسة قبل المقابلة معه-، بالإضافة إلى عدد المهجرين منهم إلى الجزائر الذي لا يمكن التسليم به كما قلت له، مبديا رضاه عن هذا الطرح، إلا أنه قال لي أن هذه المهمة تخصكم أنتم كجزائريين وحدكم، وأرجع اعتماده على الأجانب لثقته بهم واعتمادهم على كثير من الوثائق الهامة التي لم تصلنا بعد كما قال.

الأستاذ ناصر الدين سعيدوني والأستاذ حنيفي هلايلي والأستاذ جمال يحياوي، تكاد تنعدم هذه الدراسات، وإن وجدت فإنها لم تصل بعد إلى نظيراتها في تونس والمغرب الأقصى.

- عندما طرح أندريه ريمون فكرة أن عدد المرحلين إلى تونس كان في حدود 30ألفا فقط، رفض التميمي هذه الفكرة مطلقا، واستغل الفرصة المناسبة لمناقشة هذه القضية، حيث قال أنه بعد مناقشات طويلة مع أندريه ريمون تراجع هذا الأخير عن فكرته السابقة، مقرا أن العدد أكبر مما صرح به سابقا، وقد تم هذا النقاش أثناء انعقاد المؤتمر الحادي عشر للدراسات العثمانية، الذي انعقد بمؤسسة التميمي في الفترة الممتدة من 30 سبتمبر إلى 2 أكتوبر 2004م[1]، فكيف للمهتمين بالدراسات الموريسكية بالجزائر لا يهتمون بهذه القضية؟ أو على الأقل يحاولون التوصل إلى جزء ولو يسير من الحقيقة المتعلقة بعدد الأندلسيين الموريسكيين ببلادنا اقتداء بما قام به التميمي، بالرغم من الفرق الشاسع بين الإيالة الجزائرية والإيالة التونسية.

من كل ما سبق يمكننا القول أن عدد الوافدين من الأندلسيين الموريسكيين إلى الجزائر هو أكثر بكثير مما هو مصرح به لحد الآن، وعلى أقل تقدير لا يقل عن 70 ألف التي استطاع خير الدين ومعاونيه إنقاذهم خلال القرن السادس عشر.

مما سبق يمكننا القول أن التأثير الأندلسي الموريسكي بالإيالة التونسية شمل جميع مناحي الحياة، سواءً السياسية، العسكرية، الثقافية، الاجتماعية والحضارية، فقد استطاعوا بعث نشاطاتهم المندثرة بالأندلس بموطن استقرارهم الجديد في الإيالة التونسية، وأسسوا مدنا جديدة وضعوا عليها بصماتهم، دليلا على عبقريتهم وتمكنهم من فنون الحياة، وأنعشوا حركة الجهاد البحري، هذا ما انعكس إيجابا على الجانب الاقتصادي؛ الذي كان يعرف ركودا كبيرا نتيجة لكثرة التمردات والصراعات بين عديد الأطراف المتنازعة فيما بينها.

ثانيا: الصراع التونسي المالطي خلال القرن السابع عشر الميلادي.

المبحث الأول: أسباب الصراع التونسي المالطي.

1-نشاط الأسطول التونسي.

في بداية القرن السابع عشر الميلادي عرف الأسطول التونسي تطورا متسارعا لم يسبق له مثيل منذ تأسيس الإيالة سنة 1574م؛ وذلك بفضل السياسة الحكيمة التي تبناها الدايات، خصوصا عثمان داي ويوسف داي اللذين عملا على زيادة سفن الجهاد البحري وتطويرها حتى أصبحت تضاهي نظيراتها الجزائرية والأوروبية،

1 - عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص59.

خاصة وأن الإيالة التونسية كانت عرضة لهجمات القراصنة الأوروبيين باستمرار، فكان لزاما تطوير الأسطول والاهتمام بالرياس، وفي ذلك يقول ابن أبي الدينار: «... **وفي أيام عثمان داي كثرت غنائم البحر كما قدمنا، لأن النصارى كانوا في غفلة عن الاستعداد لشحن المراكب الكبار، وإنما كان يسافر الغزاة في الفراقط وما ظهرت المراكب مثل الشيطيات والباطاشات وغيرها من السفن الكبار إلا في زمن عثمان داي**...»[1]، ويقول أيضا محمود مقديش عن يوسف داي: «... **وفي أيام يوسف داي تحضرت البلاد، وكثرت عمارتها، وكثرت مراكب الجهاد في البحر، وبلغت عدتها خمسة عشر مركبا من الكبار، فكثرت رؤساء البحر، وكان لمراكبه في البحر صيت وشهرة**...»[2]، وقد أتت هذه السياسة بنتائج طيبة على المستوى الخارجي، حيث كان تأثيرها واضحا على العلاقات التونسية الأوروبية، فقد سارع العديد من زعماء الدول الأوروبية لإقامة صلح مع حكام الإيالة التونسية تفاديا للمواجهة المباشرة معهم.[3]

2-ظهور رياس تونسيين أقوياء في المتوسط.

خلال القرن السابع عشر الميلادي ظهر على مسرح الأحداث رياس بحر تونسيين أقوياء؛ همهم الوحيد مواجهة القوى الأوروبية المتحاملة على الإيالة التونسية، بتشجيع مباشر من الحكام التونسيون، في مقدمتهم عثمان داي ويوسف داي وحمودة باشا وغيرهم، ومن أبرز هؤلاء الرياس مراد باي الذي كان من الأعلاج* وأحد الرياس الأقوياء، الذين لهم خصال حميدة في الجهاد وله صيت في جميع الدول الأوروبية[4]، والريس أسطا مراد** قائد الأسطول البحري التونسي والذي أصبح فيما بعد حاكما لتونس فيما بين 1637-1640م والريس يوسف، الذي كان من المساهمين الفعليين في إنشاء بحرية السفن الشراعية التونسية بمساعدة زملاءه الإنجليز[5]، ومراد رايس

---

1 - ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص192.

2 - محمود مقديش: المصدر السابق، ص ص 91، 92.

3 - حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص114.

* - الأعلاج ومفردها علج وهم المسيحيون الذين دخلوا في الإسلام وخدموا في الدولة العثمانية وإيالاتها المغاربية، وقد ذاع صيت الكثير منهم، إلى درجة وصول العديد منهم إلى حكم الإيالات المغاربية.

4 - حسين خوجة: المصدر السابق، ص7.

** - أسطا مراد وأصله من مدينة جنوة الإيطالية، وهو من أكبر مساعدي يوسف داي، حكم من 1637 إلى 1640م، وكان من المجاهدين البارزين، فقد استطاع أسر آلاف المسيحيين وغنم مراكبهم ، وكان يقوم ببيع العبيد في أسواق تونس، وكان يحتفل بانتصاراته على أعدائه بالطريقة الرومانية، أين تتجلي مظاهر الأبهة والتفاخر، حتى قيل أنه جلب لمدينة تونس في مرة واحدة حوالي 12 ألف أسير وحوالي 90 مركبة صغيرا وكبيرا، وقام بطرد القراصنة الأوروبيين من غار الملح وأسكن فيه الأندلسيين... للاستزادة ينظر، الوزير السراج : المصدر السابق، ص195؛ حسن حسني عبد الوهاب :المرجع السابق، ص 116؛ محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص72.

5 - أندريه ريمون: المرجع السابق، ص42.

الذي قضى حوالي ستين سنة من عمره في الجهاد البحري[1]، وغيرهم من الرياس الذين عملوا على مواجهة القوى الأوروبية دفاعا عن الإسلام والبلاد التونسية.

3-تحريض الأندلسيين على الجهاد.

كان للأندلسيين الموريسكيين دورا بارزا في الجهاد البحري التونسي، فقد كانت لهم مكانة خاصة لدى الحكام؛ بسبب امتلاكهم للخبرة العسكرية ورغبتهم في الانتقام من المالطيين الذين يُعْتبرون الداعم الأساسي للإسبان والإيطاليين في حربهم ضد المسلمين، ولذلك كان الأندلسيون من المحرضين الرئيسيين على الجهاد وتجهيز السفن الحربية لقتال النصارى انتقاما من الذين قتلوا إخوانهم ونهبوا أموالهم ونصّروا أولادهم.[2]

4-إنعاش الاقتصاد التونسي.

كان الجهاد البحري عاملا منشطا للاقتصاد التونسي، نظرا لما له من مداخيل سواء بالنسبة للحكومة أو السكان، خاصة وأن السفن المحجوزة وما تحمله كانت كلها تذهب للأسواق التونسية، بالإضافة إلى الأسرى الذين قدر عددهم بحوالي 10آلاف أسير سنة 1650م، وكان الهدف من أسر الأوروبيين أمرين رئيسيين هما:

1- ممارسة تجارة نشطة ومربحة عن طريق البيع والشراء والافتداء.
2- الانتقام من الأسرى واستعبادهم، خاصة من طرف الأندلسيين الموريسكيين الذين يريدون التشفي فيهم، أو مقايضتهم بإخوانهم الأسرى عند الأوروبيين.

ازدهر الجهاد البحري خلال القرن السابع عشر ميلادي وأصبح منشطا حقيقيا للاقتصاد[*]؛ ذلك أنه كان يدفع إلى الأسواق بآلاف الأسرى وبكميات ضخمة من السلع والمواد التي كانت ممولا رئيسيا للبلاد

---

1 - ألفونص روسو: المصدر السابق، ص110.

2 - محمد بن الخوجة: صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق، حمادي الساحلي، الجيلالي بن الحاج يحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م، ص226.

*- يشير ناصر الدين سعيدوني في كتابه ولايات المغرب العثمانية أن الجهاد البحري المغاربي خلال القرن السابع عشر تحول إلى مجرد نشاط بحري هدفه ليس موجها لصد هجمات الإسبان، وإنما الحصول على الغنائم والأسرى للربح المادي وفي ذلك يقول: «... وهي مرحلة لم يعد فيها الجهاد البحري في البحر المتوسط وعلى السواحل الأطلسية لأوروبا الغربية موجها لصد هجمات الإسبان، وإنما تحول إلى مجرد نشاط بحري هدفه الأساسي الحصول على الغنائم والأسرى وفرض الإتاوات على الدول الأوروبية مقابل سلامة سفنها وحرية تجارتها مع أقطار المغرب العربي، وقد أدى هذا النشاط الذي اتخذ طابعا اقتصاديا إلى رد فعل عنيف من طرف الأساطيل الأوروبية، فتعرضت موانئ سلا والجزائر وتونس وطرابلس إلى حملات بحرية مدمرة فرضت بواسطتها الدول الأوروبية شروطها القاسية على حكام الأقطار المغاربية، وقد ساعد على تفوق الأوروبيين في هذه المواجهة تراجع الروح الحماسية لدى البحارة المغاربة، وانطفاء روح الجهاد الديني ضد النصارى الإسبان، وتغلب الجانب المادي على نشاطهم البحري المتمثل في الحصول على الغنائم والأسرى ...» للاستزادة ينظر، ناصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب العثمانية ... المرجع السابق، ص84 .

من خلال ما سبق يمكننا إبداء بعض الملاحظات التالية: =

التونسية[1]، علما أن اقتصادها كان يعاني خلال هذه الفترة نتيجة لعدم استقرار الأوضاع الداخلية وكثرة الحركات التمردية، لأن الحكومة المركزية سخّرت كل ما في وسعها للقضاء على هذه التمردات، مثلما فعل حمودة باشا مع أولاد سعيد الذين دخلوا فيما بعد في طاعة السلطة المركزية[2]، ذلك أنه لا تطور للاقتصاد في ظل أوضاع أمنية متدهورة، فكان المنقذ من هذه الوضعية الجهاد البحري.*

5-الأسرى.

حاول الطرفان التونسي والمالطي كل حسب قدرته من أجل تحرير أسراه، ونظرا لغياب قنوات اتصال مباشرة بينهما أراد كل طرف منهما تجريب القوة العسكرية لافتكاك أسراه، أو النيل من عدوه بأسر أعداد أخرى والرجوع بها إلى بلاده، ومن ذلك ما قام به أسطا مراد حيث استطاع العودة إلى مدينة تونس ومعه 12077 أسير

- نزع صفة الجهاد عن البحارة المغاربة واختصره فقط في مشروع ربح مادي لا غير، مثله مثل ما كان يقوم به القراصنة ولصوص البحر الذين كان هدفهم الربح المادي فقط.
- نحن نتساءل كيف اطلع الأستاذ سعيدوني على نيّات البحارة حين ذاك، قائلا أن هدفهم مادي بحت وليس مرضاة الله ودفاعا عن بلاد المسلمين التي لم يزول عنها الخطر الإسباني حتى ظهرت الأخطار الأوروبية الأخرى، الإنجليزية، الهولندية، المالطية، خاصة الفرنسية التي حققت كامل أهدافها الاستعمارية فيما بعد.=

=-لا يمكننا نفي الربح المادي، وهذا حق مشروع منذ أن شرع الإسلام الجهاد، لكنه لم يكن أبدا الهدف الأساسي للمجاهدين في كل زمان ومكان، الذين كانوا يخرجون للجهاد وهم لا يعلمون هل يعودون لديارهم أم لا؟، فكيف نشكك في نياتهم.

- لا يمكننا تسوية ما كان يقوم به البحارة المغاربة والقراصنة الأوروبيين بأي حال من الأحوال، خاصة وأن سعيدوني قال أن هذه الأعمال أدت إلى رد فعل عنيف ترجم إلى هجمات على السواحل المغاربية مثل: سلا والجزائر وتونس وطرابلس الغرب، وكأن هذه الهجمات لم تكن موجودة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، وإنما نتجت كرد فعل فقط عن هجمات المجاهدين المغاربة، وكيف نفسر إذاً احتلال السواحل المغاربة من حجر باديس غربا إلى طرابلس الغرب شرقا، وأكثر من ذلك أن وهران والمرسى الكبير وسبتة ومليلية وجزيرة قرنقة كلها كانت تحت الاحتلال إلى غاية القرن الثامن عشر، ومنها من هو محتل إلى يومنا هذا.
- ما نلاحظه وكأن الأستاذ سعيدوني يحمل المسؤولية للبحارة المغاربة في إعلان الجهاد ضد المحتلين، خاصة قضية الأسرى والغنائم التي يتحصلون عليها، واتهامهم بأنهم كانوا هم السبب في زيادة الهجمات الأوروبية المتوالية، وكأن الأوروبيين كانوا ينتظرون الأسباب لاحتلال بلاد المغرب، أو أنهم لم يقوموا باحتلال السواحل المغاربية إلا نتيجة لأعمال البحارة المغاربة ؟!!!.
- لم تنطفئ روح الجهاد ضد الإسبان ولا غيرهم من النصارى منذ بداية الاحتلال الإسباني، أو أي احتلال أوروبي آخر، وقد تكون خفت بعض الشيء ولكنه لم ينطفئ نوره أبدا وإلى غاية تحرير كامل أراضي الإيالات المغاربية.

1- محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص73.

2 - حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص118.

* - لا يمكن مقارنة الجهاد البحري الجزائري بالجهاد البحري التونسي، ليس فقط في الجانب الاقتصادي، بل أيضا في قوة الرياس وعدد السفن المخصصة لذلك، وحتى مداخيل الجهاد البحري كانت كبيرة جدا في الجزائر على عكس نظيرتها التونسية، لأن عدد الأسرى كان أيضا كبيرا جدا بالمقارنة مع تونس، وبذلك يمكننا القول أن الجهاد البحري لعب دورا بارزا في اقتصاد الإيالتين، إلا أنه في الجزائر كان أكثر قوة ونشاطا وعائدا منه في تونس.

و900 سفينة*، أين أقيمت له الأفراح ابتهاجا بهذا النصر العظيم[1]، وفي سنة 1030هـ/1625م تعرضت مدينة تونس لهجوم من طرف سفن مالطية قادمة من صقلية كان هدفها تحرير الأسرى الأوروبيين واسترجاع سفينتين كان قد استولى عليهما مراد داي، وبعد معركة عنيفة ودامية استطاع التونسيون تحرير 500 أسير مسلم كانوا على متن سفن المهاجمين.[2]

وقد حاول الطرفان الدفاع عن أسرى ملته بصرف النظر عن الانتماء لأي بلد كان، حيث كان يرى التونسيون أنه من واجبهم تحرير الأسرى المسلمين من العبودية مهما كانت الظروف والأسباب، وفي نفس الوقت كان المالطيون أيضا يرون أن تحرير الأسرى المسيحيين واجبا مقدسا يجب القيام به مهما كان الثمن، نيابة عن الإمبراطورية الإسبانية التي تبنى قادتها في كثير من الأوقات قضية الأسرى الأوروبيين عند المسلمين.

6-الاعتداءات المالطية المتتالية:

مثلت مالطا الحليف الاستراتيجي للإمبراطورية الإسبانية الغارقة في مشاكلها داخل أوروبا في تلك الفترة، حيث وصل بها الأمر سنة 1609م إلى الاعتراف باستقلال هولندا، بالإضافة إلى صراعها ضد إنجلترا وفرنسا بسبب الحروب المذهبية بين هذه الأطراف -البروتستانت، الكاثوليك- زاد الطين بلة قرار الطرد النهائي الذي أصدره فليب الثالث بحق الأندلسيين -الذين كانوا من أمهر الصناع والفلاحين- وهذا ما أثر سلبا على الاقتصاد الإسباني، كل هذه المشاكل وغيرها أضعفت قدرات إسبانيا في مواجهة الأعباء المالية المتزايدة[3] لإمبراطورية مترامية الأطراف داخل أوروبا وإفريقيا والعالم الجديد، فكان لزاما لأحد من أتباع هذه الإمبراطورية أن يتولى بدلا عنها عبئ مواصلة الهجمات على البلاد المغاربية، وقد تحمل هذه المسؤولية فرسان مالطا بسبب ارتباطاتهم المذهبية وتبعيتهم للإمبراطور الإسباني، وذلك منذ أن تنازل لهم شارلكان عن جزيرة مالطا ؛ ومنذ ذلك الحين وهبوا أنفسهم لمحاربة المجاهدين المسلمين في البحر الأبيض المتوسط[4]، خاصة التونسيين والطرابلسيين انتقاما منهم؛ لأنهم استطاعوا مساعدة العثمانيين في تحرير هاتين المنطقتين وإلحاقهما بالدولة العلية العثمانية.

* - يبدو أن الرقم مبالغ فيه كثيرا، خاصة وأن الوزير السراج لم ينقل لنا إن كان هذا العدد في غزوة واحدة أم في عدة غزوات، وإن سلمنا جدلا أنه كان في عدة غزوات ضد النصارى، فإن الواقع ينفي لنا مثل هذا الطرح، فربما أوروبا بأكملها لم يكن لها هذا العدد!!! وحتى سواحل الإيالة التونسية لا يمكنها تحمل هذا العدد الضخم من السفن.

1 - الوزير السراج: المصدر السابق، ص201.

2 - محمود مقديش: المصدر السابق، ص93.

3 - هربرت فيشر: المرجع السابق، ص231.

4 - عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم -القرن 17-18م، المجلد 9، عهد العلويين-، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية المملكة المغربية، 1405هـ/1988م، ص317.

المبحث الثاني: الحملة المالطية على جزيرة زمبرة* سنة1605م.

1-أسباب الحملة.

- عملت السفن الحربية المالطية دائما على استعمال أسلوب الاستفزاز المباشر للقوات التونسية، وقد كانت تستغل أدنى فرصة للاشتباك معها ومحاولة أسر الرياس التونسيين والاستلاء على سفنهم، وكان منطلق القوات المالطية دائما هي صقلية**، بسبب قرب المسافة بين الجزيرة والبلاد التونسية، وبذلك كانت هذه الجزيرة عبارة عن قاعدة عسكرية متقدمة للمالطيين في مواجهة التونسيين والطرابلسيين أيضا، ومن الملاحظ أن فرسان القديس يوحنا بمالطا وفرسان القديس ستيفانو بتوسكانيا كانوا دائمي التعدي على السفن الإسلامية وأسر الحجيج والتجار الذين على متنها[1]، وعادة ما يدخلون في اشتباكات وحروب مع البحارة التونسيين والطرابلسيين.
- عمل قادة الكنيسة الكاثوليكية على تحريض المسيحيين للقيام بهجمات متتالية على الإيالات المغاربية، لتحقيق العديد من الأهداف، التي نذكر منها:

  - الإبقاء على نفوذ رجال الدين داخل الأسر الأوروبية الحاكمة، خاصة الدول ذات المذهب الكاثوليكي.
  - توجيه الأنظار إلى خارج أوربا، لإبعاد الحكام والمحكومين عن المشاكل الداخلية التي كانت تعاني منها الكنيسة خلال هذه الفترة، علما أن حركة الإصلاح الديني قامت على أساس إصلاح الكنيسة، ومطالبة رجالها القيام بدورهم المنوط بهم، بدل ممارسة الابتزاز والهرطقة، لذلك كان قادة الكنيسة يحرضون على مثل هكذا حروب؛ سواء داخل أوربا أو خارجها؛ للتغطية على مشاكلهم المتنامية، وفي نفس الوقت الحصول على المنافع المادية من خلال التجارة بالأسرى والمواد المحجوزة من المسلمين.
  - محاولة نشر المذهب الكاثوليكي خارج معاقله المعلومة داخل أوربا، خاصة بعد ظهور المذهب البروتستانتي الذي ساهم بشكل كبير في انحصاره، هذا ما جعل رجال المذهب الكاثوليكي يفكرون في نشر مذهبهم في بلاد المغرب الإسلامي بعد احتلالها من جديد.

---

* – هي جزيرة صغيرة تبعد بحوالي 120 كلم عن الوطن القبلي –الهوارية–وكانت دائما تتعرض لهجمات القراصنة الأوروبيين

**–كانت مالطا في هذه الفترة تابعة لنائب الملك الإسباني بصقلية، وبالرغم من هذه التبعية كانت السلطات المالطية تتمتع بنوع من الاستقلالية، خاصة فيما يخص علاقاتها بالمغرب الإسلامي، فقد كانت لها مؤسساتها الخاصة بها التي تتحكم في سياستها الخارجية، ومن ثم فقد كانت تابعة للملك الإسباني اسميا فقط ... للاستزادة ينظر، جون وولف: المرجع السابق، ص 277.

1 – إبراهيم سعيود: الأسرى المغاربة في إيطاليا خلال العهد العثماني، مذكرة دكتوراه في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 1430-1431هـ/2009-2010م، ص 113.

- محاولة استغلال الظروف الداخلية التي كانت تعيشها الإيالة التونسية؛ نتيجة الاضطرابات الحاصلة بسب التمردات، التي سخر لها عثمان داي إمكانيات كبيرة للقضاء عليها، زاد الطين بلة المجاعات والأوبئة؛ كالطاعون الذي ضرب البلاد ما بين 1013-1014هـ/1604-1605م، بالإضافة إلى الجفاف والقحط، مما أدى إلى تراكم المصائب والهموم على البلاد والعباد، هذا ما فتح الباب على مصراعيه للتدخلات الأجنبية.[1]
- محاولة تحرير الأسرى الأوروبيين بتشجيع من الكنيسة الكاثوليكية بروما التي تحمّل رجالها مسئولية تحريرهم من العبودية[2]، وفي نفس الوقت حماية التجارة الأوروبية من هجمات الرياس، الذين كانوا يحاولون في كل مرة مهاجمة السفن الأوروبية والسيطرة على ما تحمل من مواد وسلع كانت الإيالة التونسية في أمس الحاجة إليها حينذاك.
- استمرار الصراع الإسلامي المسيحي في كامل البلدان المتوسطية، فقد كان الصراع على أشده بين حكام الإيالة الجزائرية وحكام الإمبراطورية الإسبانية وحكام المغرب الأقصى وحكام إسبانيا، بينما تولى مهمة الصراع بالنيابة فرسان مالطا ضد الإيالة التونسية والطرابلسية، بسبب قرب المسافة وانشغال إسبانيا بمشاكلها الداخلية، ولذلك اندلعت حروب بالنيابة؛ يقودها فرسان القديس يوحنا ضد المسلمين امتدادا للحروب التي كانت دائرة بين الدولة العلية العثمانية حامية العالم الإسلامي والقوى الأوروبية ممثلة للعالم المسيحي[*]، فكان كل طرف يجهز نفسه لأسوأ الاحتمالات في تعامله مع عدوه، لذلك اهتم الحكام التونسيين بأمر الجهاد البحري أكثر من اهتمامهم بالأوضاع الداخلية، خاصة مع بداية القرن السابع عشر الميلادي، ومن ذلك أن عثمان داي أسند مهمة الجهاد البحري لمحمد باي وأمره بتجهيز الأسطول وزيادة قطعه لغزو المسيحيين، وفي ذلك يقول الباجي المسعودي: «... **وكانت فيه -عثمان داي- شهامة وسياسة وشجاعة واتخذ الأساطيل العظيمة لغزو الكفار لنظر أحد الأمرا- الأمراء-حسين داي فاحتوى على مغانم كثيرة، وكبر صيت محمد الذكور...»**.[3]

---

1 - ألفونص روسو: المصدر السابق، ص110.

2 - إبراهيم سعيود: المرجع السابق، ص113.

* -كانت إسبانيا رائدة في حروبها ضد المسلمين خلال القرن السادس عشر الميلادي في كامل البحر المتوسط، إلا أن مشاكلها الداخلية في القارة الأوروبية جعلها تتراجع فاسحة المجال لعديد الدول الأوروبية لأخذ مكانها في مقارعة العالم الإسلامي وأخذ الريادة داخل أوربا أيضا، مثل: إنجلترا وفرنسا وقد شكلت الدولتان فيما بعد نواة الاحتلال الأوروبي في إفريقيا وآسيا والعالم الجديد.

3 - الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 92.

2-وقائع الحملة.

انطلق الأسطول المالطي باتجاه الإيالة التونسية، وكان هدفه المباشر جزيرة زمبرة، التي وصلها في شهر أوت 1605م*، وقد استطاع البحارة المالطيون الإنزال على شاطئ الجزيرة ومعهم بعض معداتهم الحربية مثل المدافع والقنابل والبارود، ليبدأوا في حفر الخنادق للاحتماء بها من هجمات التونسيين؛ الذين ما إن سمعوا بهذا الهجوم حتى بدأوا في تحضير أنفسهم لمواجهته بكل حزم وقوة والعمل على طرد المالطيين من جزيرتهم الصغيرة.

قامت القوات المالطية بالاستعداد جيدا لمواجهة التونسيين، الذين شنوا هجوما عنيفا ومباغتا، إلا أن رد المالطيين كان أكثر عنفا، خاصة وأن تمركزهم الجيد واستعداداتهم سهلت من مهمتهم، هذا ما ألحق بالتونسيين خسائر مادية وبشرية فادحة[1]، إلا أن ذلك لم يثن من عزائمهم وواصلوا القتال بكل عزم وقوة لطرد المالطيين، الذين أصبحوا في وضع محرج نتيجة لعدة عوامل لم تكن في صالحهم، نذكر منها:

- الحصار الذي ضربه التونسيون على الجزيرة حال دون وصول المساعدات للجنود المالطيين؛ سواءً من صقلية أو مالطة أو بقية الدول الأوروبية.
- عدم علم السلطات المالطية بما كان يجري بجزيرة زمبرة، خاصة وأن انطلاق الأسطول كان من صقلية، وبالتالي لم يكن هناك تنسيقا كافيا بين قيادة الأسطول والقيادة المركزية بمالطا.
- سيطرة التونسيين على السفن المالطية، منع الجنود من الفرار، الذين كانوا عرضة للقتل والأسر على أيدي المدافعين على الجزيرة.

هذه العوامل مجتمعة كادت أن تؤدي بحياة جميع الجنود المالطيين، الذين عانوا أيضا من ضراوة المعارك وطولها، مما أدى إلى نفاذ المؤن والبارود وانهيار معنويات الجنود المالطيين، الذين كادوا يعلنون استسلامهم، لولا ظهور سفينة أوربية** كانت سببا في إنقاذ ما تبقى منهم؛ علما أن هذه السفينة كانت في رحلة تجارية فأجبرها هيجان البحر على الاتجاه صوب جزيرة زمبرة، أين رست السفينة بالقرب من شاطئها على بعد حوالي 7.5 أو8.5 كلم، ولم تقترب أكثر بسب الحصار المضروب من طرف التونسيين، ومع ذلك ونتيجة لإشارات الاستغاثة

---

* – خلال الفترة الممتدة من شهر جوان إلى شهر أكتوبر تزداد الحملات الأوروبية على البلدان المغاربية، لأنها الفترة المناسبة لذلك، لأن البحر يكون هادئا، وتقل العواصف البحرية، هذا ما يسهل عمل السفن الحربية والجنود في تنفيذ مهامهم القتالية، مع العلم أن جل المؤرخين الأوروبيين يوعزون انهزامات الجيوش الأوروبية إلى العوامل الطبيعية مثل الأمطار والعواصف وغيرها.

1 – ألفونص روسو: المصدر السابق، ص111.

** – لم يتسن لنا التأكد من هوية هذه السفينة الأوروبية التي أنقذت الجنود المالطيين، ومع ذلك ما يمكن ملاحظته أن الدول الأوروبية كانت دائما تتعاون فيما بينها ولا يهمها إن كانت مرتبطة مع الإيالات المغاربية والدولة العلية بمعاهدات أم لا، وما يهم قادتها هو مصلحة المسيحيين بصرف النظر عن الخلافات المذهبية والسياسية الموجودة بينهم.

التي كان يبعثها الجنود المالطيون قرر قائد السفينة إرسال بعض القوارب الصغيرة سريعة الحركة لنجدتهم؛ مستغلا في ذلك بعض الفجوات التي تركها الجنود التونسيون المحاصِرون للجزيرة، هذا ما شجع الجنود المالطيين على الفرار والالتحاق بالقوارب ومن ثم إلى السفينة، التي سارع قائدها بالفرار باتجاه صقلية، مخلفا وراءه الكثير من الجنود الذين وقعوا في قبضة التونسيين في اليوم التالي من فرار السفينة الأوروبية.[1]

3-نتائج الحملة المالطية.

- فشل الحملة المالطية في احتلال الجزيرة، بالرغم من الخسائر التي تكبدها التونسيون.
- استشهاد حوالي 300 تونسي خلال الأيام الأولى من الهجوم المالطي، نتيجة للهجوم المباغت وعدم أخذ الاحتياطات اللازمة في مواجهة المالطيين.
- تكبد المالطيون خسائر فادحة في الأرواح والعتاد أحجمت المصادر والمراجع الأجنبية عن ذكرها، فيما لم تعطنا المصادر المحلية عدد الجنود الهالكين أو المأسورين، إلا أنه تبين لنا أن خسائرهم كانت كبيرة جدا؛ لأنه لا يعقل أن سفينة تجارية واحدة استطاعت إنقاذ مئات الجنود، وهذا لا يمكن التسليم به، لعدة أسباب نذكر منها:
  - حتى وإن تم إنقاذ بعض الجنود، فإن الحراسة المشددة وسرعة التدخل التونسي حَالاَ دون إنقاذ الكثير من الجنود.
  - الاعتراف بأن العديد من الجنود لم يتم إنقاذهم دليلا على أن الكثرة هي التي بقيت بالجزيرة، ووقعت بين أيدي التونسيين؛ إما قتلى أو أسرى.
  - بُعد السفينة على الساحل يحول دون إنقاذ الكثير من الجنود المالطيين، خاصة وأن قوارب الإنقاذ صغيرة لا تستطيع نقل عدد كبير من الجنود، ولذلك نرجح أن عدد الفارين كان قليلا بالمقارنة مع عدد الجنود الهالكين على أيدي القوات التونسية.
  - السفينة التجارية التي أنقذت الجنود كانت أصلا محملة بالسلع والبضائع بالإضافة إلى طاقمها وحراسها، وبالتالي لا يمكنها حمل الكثير من الجنود.
- خسر المالطيون كل المدافع والمعدات التي نفذوا بها الهجوم، بالإضافة إلى سفنهم المهاجمة بكل معداتها.[2]

1 - إبراهيم سعيود: المرجع السابق، ص113.

2 - ألفونص روسو: المصدر السابق، ص111.

- أسر العديد من الجنود المالطيين، وأخذهم إلى العاصمة تونس لمبادلتهم بالأسرى التونسيين الموجودين بصقلية ومالطا، أو لبيعهم في أسواق العبيد بالبلاد التونسية.
- بالرغم من الخسائر البشرية والمادية التي تكبدتها القوات المالطية، إلا أن ذلك لم يثن من عزيمة حكامها، الذين زاد تصميمهم على محاربة البحارة المسلمين عامة والبحارة التونسيين والطرابلسيين خاصة، وهذا ما أهّل المالطيين ليكونوا حمَلَتَ َلواء الحرب الدينية ضد المسلمين وقادة القرصنة الأوروبية ضد المسلمين مع بداية القرن السابع عشر الميلادي.[1]
- زيادة حِدّة الصراع التونسي المالطي بعد هذه المعركة، فمن جهة حاول القادة المالطيون الانتقام من هزيمتهم بجزيرة زمبرة وموصلة الحرب "المقدسة" ضد المسلمين بدعم مباشر من الكنيسة الكاثوليكية بروما والملوك الإسبان، ومن جهة أخرى كان التونسيون يحاولون الدفاع عن المسلمين بدعم مباشر من سلاطين الدولة العلية العثمانية وحكام إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب، اللتان كان حكامهما في كثير من المرات يشكلون رفقة التونسيين قوات مشتركة لمهاجمة السفن التابعة لإسبانيا، ومواجهة سفن القرصنة الأوروبية في عرض البحر.

المبحث الثالث: الحملة المالطية على حلق الوادي سنة 1050هـ/ 1640م.

1-أسباب الحملة.

- محاولة المالطيين الانتقام من البحارة التونسيين الذين زادوا من هجماتهم على السواحل الأوروبية، خاصة صقلية ونابولي وميلان ومالطا.
- شكل الأسرى القضية الأساسية في توتر العلاقات الأوروبية المغاربية عامة، والعلاقات المالطية التونسية خاصة، علما وأن الأسرى الأوروبيين خلال هذه الفترة قدر عددهم بحوالي 24 ألف أسير[2]، بُنيت لهم تسعة سجون، يحتوي كل سجن على كنيسة صغيرة لممارسة عبادتهم بكل حرية*، وقد عمل فرسان مالطا وفرسان القديس ستيفانوا على أخذ السبق في تبني قضايا أسرى الأوروبيين ومحاولة إطلاق

1 - جون وولف: المرجع السابق، ص278.

2 - الوزير السراج: المصدر السابق، ص 200.

* - هذا دليل على التسامح الإسلامي وحرية الاعتقاد تطبيقا لقوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ ، الآية 256، سورة البقرة، في مقابل ذلك كان الأوروبيون يتميزون بكره شديد لكل ما هو مسلم، وما حدث للأندلسيين خاصة وبقية المسلمين عامة على يد المسيحيين خير دليل على ذلك.

سراحهم؛ سواءً عن طريق الغارات المتتالية على الإيالات المغاربية؛ تونس، الجزائر وطرابلس الغرب، أو عن طريق مقايضتهم بالأسرى المسلمين.

- كان هناك حدث بارز تسبب في توتر العلاقات التونسية المالطية؛ فقد استطاع القراصنة المالطيين السيطرة على سفينة مصرية تحمل الهدايا والإتاوات إلى الباب العالي، ويرجع سبب ذلك أن الريس سيكالا* لم يكن على يقظة كبيرة بأخطار فرسان مالطا[1]، هذا ما جعل الرياس التونسيين وغيرهم من الرياس المسلمين يزيدون من وتيرة نشاطهم ضد الإسبان والمالطيين لعلهم يعوضون هذه الخسارة، في مقابل ذلك أراد القراصنة المالطيون الرد على هذه الهجمات باحتلال حلق الوادي.
- استغلال تغيير القيادة الحاكمة بالإيالة التونسية، وذلك بعد وفاة أسطا مراد (1047-1050هـ/1637-1640م) وتولي أحمد خوجة الذي بايعه الإنكشارية في شهر ربيع الأول 1050هـ/ جويلية 1640م، علما وأن البيت الداخلي التونسي كان يعرف العديد من المشاكل والصراع على السلطة، لذلك قررت القيادة المالطية شن هجوم مباغت على حلق الوادي في شهر أوت 1640م.
- الرد على الغارات التي كان يشنها البحارة التونسيون والجزائريون على الأراضي الإسبانية والإيطالية، خاصة ما كان يقوم به أسطا مراد؛ الذي كان دائم الإغارة على الأراضي المسيحية، لذلك حاول المالطيون الحد من هذا التهديد المتنامي الذي كان يقف حاجزا أمام مشاريعهم الرامية لنقل الرعب لبلاد المغرب الإسلامي.[2]
- لم يستطع الرياس المغاربة ولا رياس الدولة العلية العثمانية وقف نشاط فرسان القديس يوحنا بمالطا، بل بالعكس زاد نشاطهم وعزمهم وإصرارهم على مواصلة هجماتهم ضد السفن الإسلامية، وحتى على المدن الساحلية التونسية والطرابلسية، إيمانا منهم أنهم في حرب مقدسة ضد الإسلام والمسلمين، خاصة

* – الريس سيكالا ابن أميرال عثماني من أصل جنوي، لجأ إلى الجزائر سنة1636م بسبب إهماله الذي أدى إلى ضياع السفينة المصرية المحملة بالإتاوات والهدايا إلى الباب العالي، هذا ما عرضه لنقمة السلطان العثماني إبراهيم خان الأول ، ما أدى به إلى التفكير في الهرب، وكان من كبار= =البحارة العثمانيين رفقة حمزة آغا وعلي بتشين، الذين كانوا يعارضون بشدة إقامة صلح مع فرنسا، ومن الجزائر ذهب إلى أوربا واعتنق المسيحية، ثم ذهب إلى فرنسا سنة 1671م لينظم إلى الحاشية المالكة ويصبح ذو نفوذ ومشورة، أما دوغرامو فإنه يشير أنه كان مغامر بوشناقي يدعي أنه ابن الأميرال سيبسون سيكالا وأمه إحدى بنات السلطان العثماني أحمد الأول...للاستزادة ينظر، منور مروش: المرجع السابق، ص 288؛

Grammont. (H.D.DE) : Relation, Enter La France Et La Regence Dalger Au XVII. Siècle .RAF, 1879, P430.

1 – المنور مروش: المرجع السابق، ص 288.

2 – الوزير السراج: المصدر السابق، ص ص200، 201.

مسلمي الإيالة التونسية وعموم مسلمي بلاد المغرب الإسلامي[1]، الذين كانوا الهدف الأقرب للمالطيين لسببين رئيسيين هما:

- قرب المسافة بين الإيالتين التونسية والطرابلسية من جهة وجزيرة مالطا والدويلات الإيطالية من جهة أخرى.
- ضعف البحرية التونسية شجع المالطيين على اتخاذ الإيالة التونسية هدفا مباشرا لهم، أمام عجزهم في مواجهة البحرية العثمانية، وبدرجة أقل البحرية الطرابلسية.

2-وقائع الحملة:

وصلت السفن المالطية بقيادة الأميرال لاندجرا فدوزيا إلى شواطئ حلق الوادي بتاريخ 24 أوت 1640م، وبالرغم من التحصينات الكبيرة والحراسة المشددة، إلا أن ذلك لم يثن من عزيمة الأميرال المالطي وجنوده في المغامرة وبدء الهجوم، وهذا ما حدثا فعلا حيث نجحوا ابتداءً في التسلل إلى الميناء وقاموا بإشعال النار في السفن التونسية والإنجليزية الراسية فيه[2]، التي ما إن تفطن قادتها لهذا الهجوم حتى بادروا بالرد عليه، خاصة الإنجليز الذين كثفوا من إطلاق القذائف المدفعية باتجاه المهاجمين، ما نتج عنه دخانا كثيفا كان في صالح المالطيين؛ الذين استغلوا ذلك وزادوا من خسائر خصومهم، وفي ذلك يقول الوزير السراج: « ...**إن مراكب الإنقليز (كذا) أطلقوا في ذلك اليوم خمسة عشر ألف مدفع حتى صار النهار ليلا* من دخان البارود ثم دخلوا تحت الدخان وأحرقوا المراكب المذكورة وكانت من أعظم المكائد...**».[3]

شكل هذا الهجوم المباغت صدمة عنيفة للإنجليز والتونسيين، الذين لم يعرفوا التعامل معه بطريقة صحيحة، هذا ما كبدهم خسائر فادحة في الأرواح والعتاد الحربي خاصة السفن، بسبب إطلاق القذائف عشوائيا في كل الاتجاهات لصد الهجوم، هذا بالإضافة إلى عنصر المفاجأة الذي قام به المالطيون، خاصة وأن الهجوم لم يُعلم ابتداءً مَنْ الجهة المنفذة له، ومع ذلك قامت القوات الإنجليزية بالتصدي لهذا الهجوم، مما أعطى الفرصة للتونسيين باستجماع قواهم وتنظيم صفوفهم وأخذ المبادرة والتنسيق مع الإنجليز في كيفية التصدي للمالطيين بعد

---

1 - جون وولف: المرجع السابق، ص278.

2 - ألفونص روسو: المصدر السابق، ص220.

* - يجب الإشارة إلى أن الوزير السراج ذكر أن النهار صار ليلا وهذه الرواية يمكن تفنيدها لعدة اعتبارات نذكر منها:

- كيف يغامر البحارة المالطيون بالهجوم نهارا وهم يعلمون أن التونسيين متأهبين لرد أي عدوان محتمل، وقد أخذوا العبرة من الهجوم السابق.

- هل يمكن تصور أن يتم الهجوم نهارا، خاصة وأن الحراسة كانت مشددة والسفن الحربية التونسية تجوب السواحل تحسبا لأي هجوم مباغت.

- قلعة حلق الوادي المعروفة بتحصيناتها الجيدة ولا يمكن اختراقها نهارا مهما كانت الأحوال.

3 - الوزير السراج: المصدر السابق، ص223.

الارتباك الحاصل في بداية الهجوم، لذلك بدأوا في إطلاق القذائف باتجاه المهاجمين، وقدرت القذائف التي أطلقت بحوالي 1500 قذيفة مدفع[1]، كانت سببا كافيا في إرباك القراصنة المالطيين، والحد من نشاطهم، وفي نفس الوقت المساهمة في التقليل من الخسائر المادية والبشرية والدفاع عن المدينة، هذا ما أجبر القائد لاندجرا فدوزيا على إنهاء الهجوم وأمر قواته بالانسحاب فورا، مخلفا وراءه العديد من القتلى والجرحى، والعديد من السفن المحروقة، ودمار كبير بالمدينة ومرساها.[2]

3-نتائج الحملة:

- نجاح الهجوم المالطي على حلق الوادي، حيث استطاع القراصنة المالطيون إحداث دمار كبير بالمدينة ومرساها، بالإضافة إلى العديد من القتلى والجرحى، هذا ما أفزع السكان المحليين وفاجأ وأربك البحارة التونسيين والإنجليز.
- ارتكبت القوات المالطية أعمالا وحشية ضد السكان المحليين، هذا ما أحدث بينهم فزعا كبيرا وبلية عظيمة.
- استطاع المالطيون السيطرة على 5 مراكب تونسية[3]وإحراق 11سفينة إنجليزية[4]، وبذلك يكون ما خسره التونسيون والإنجليز حوالي 16 سفينة حربية بين صغيرة وكبيرة.
- خُلد هذا الانتصار عند المالطيين عن طريق رسم لوحة فنية كبيرة جدا؛ صُوِر فيها كيفية إحراق السفن الراسية في حلق الوادي، مع رسم تمثيلي للمدينة وآثار قرطاجة ومدينة تونس.
- خُلد اسم الأميرال لاندجرا فدوزيا –بطل هذه المعركة بالنسبة للمالطيين–على لوحة كتب عليها العبارة التالية: «...**اصطياد خمسة مراكب من طرف الجنرال الأمير لانجراف دوزيا في 24 أوت 1640م...**»[5]، وهذه اللوحة الفنية دليلا على المكانة التي تبوأها هذا القائد في قلوب المالطيين حكاما ومحكومين، وتعبيرا عن عبقرية ودهاء هذا القائد الذي استطاع قيادة هجوم مباغت وناجح على حلق الوادي، بدون تكبد خسائر كبيرة في أرواح قراصنته وسفنه.

---

1 – الوزير السراج: المصدر السابق، ص223.

2 – ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص211.

3 – الوزير السراج: المصدر السابق، ص223.

4 – ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص211.

5 – ألفونص روسو: المصدر السابق، ص121.

- برهن هذا الهجوم على عدم فاعلية قلعة حلق الوادي في الدفاع عن المدينة ومرساها، الذي كان عرضة للعديد من الهجمات الأوروبية المتتالية، لذلك قررت السلطات التونسية الحاكمة بقيادة الداي أحمد خوجة بناء برج ثاني لحماية المدينة؛ وفي ذلك يقول السراج: «... **وكانت هذه الواقعة السبب الحامل لإيجاد البرج الثاني تحصينا للمرسى ومنعا لها من مثل هذه الواقعة...»**.[1]

ومن خلال ما سبق يمكننا إبداء بعض الملاحظات حول هذه المعركة، نذكر منها:

- حسب رواية الوزير السراج فإن نفوذ الإنجليز بدأ يأخذ طابعا جديد منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي، وقد يكون الممهد الرئيسي لتوسعاتهم باتجاه الشرق، والقيام باحتلال مناطق منه فيما بعد.
- غفلة القيادة التونسية عن الأخطار المحدقة بالبلاد، وإلا كيف نفسر السهولة التي تم بها الهجوم المالطي، وأكثر من ذلك الاستيلاء على سفن حربية تونسية وأخذها إلى جزيرة مالطا ذاتها.
- عدم فاعلية الدفاعات التونسية في مواجهة الأخطار الخارجية، خاصة وأن خطر الحملات الأوروبية كان متواصلا على البلاد.
- عدم فاعلية قلعة حلق الوادي في تحصين المدينة والميناء من الأخطار الخارجية المتواصلة، لذلك تقرر بناء حصن جديد.
- التراخي الحاصل في صفوف الرياس التونسيين؛ نتيجة لتغيير القيادة بالبلاد وكثرة المؤامرات للوصول إلى الحكم، وإلا كيف نفسر سهولة هذا الهجوم المباغت، والذي كان من المفروض أن يتصدى له ابتداءً الرياس وليس غيرهم.

السؤال المطروح، هل القوات الإنجليزية كانت في مهمة عسكرية بالسواحل التونسية؟ أم أنها كانت مارة من هناك فقط فتصادف الهجوم مع هذا التواجد؟ وفي كلتا الحالتين فإن التواجد الإنجليزي كان نعمة على التونسيين بصرف النظر عن التدخل في الشؤون الداخلية للإيالة التونسية، وهل المالطيون لم يكن لهم علم بالتواجد الإنجليزي في تونس؟ أم أن الإنجليز أعداء الإسبان في هذه المرحلة تصدوا للهجوم وهم على علم بأصحاب هذه الحملة؟ وهل يمكننا القول أنه حدث تعاونٌ تونسيٌ إنجليزيٌ متعمد ومنسق؟ وهذا ما نرجحه لسابق العداوة الموجودة بين الإنجليز والإسبان.

1 - الوزير السراج: المصدر السابق، ص223.

الباب الثالث

علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا خلال القرن (12هـ/18م)

الفصل الأول

العلاقات بين الإيالة الجزائرية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (12هـ/18م)

أولا: الصراع الجزائري الإسباني ما بين (1120-1189هـ/1708-1775م)

المبحث الأول: التحرير الأول للمرسى الكبير ووهران سنة 1120هـ-1708م

1-التحضير الجزائري لعملية التحرير.

2-مراحل عملية التحرير.

3-نتائج عملية الفتح.

المبحث الثاني: الاحتلال الإسباني الثاني للمرسى الكبير ووهران سنة 1145هـ/1732م

1-حملة الكونت دي مونتمار وإعادة احتلال المدينتين

2-أسباب الحملة الإسبانية.

3-الاستعدادات الإسبانية الجزائرية.

4-سير المعارك بين الطرفين

5-نتائج الحملة الإسبانية.

6-العوامل المساعدة في احتلال الإسبان للمدينتين.

7-الصراع الجزائري الإسباني على وهران بعد نكسة 1145هـ/1732م.

ثانيا: الصراع الجزائري الإسباني ما بين 1146-1200هـ/1733-1786م

المبحث الأول: الحملة العسكرية الإسبانية لاحتلال مدينة الجزائر سنة 1189هـ/1775م

1-أوضاع الإيالة الجزائرية والإمبراطورية الإسبانية قبيل الحملة

2-الاستعدادات الإسبانية والجزائرية للحملة.

3-الاستراتيجية العسكرية الجزائرية في مواجهة الحملة الإسبانية.

4-مجريات المعارك.

5-نتائج الحملة الإسبانية.

6-أسباب فشل الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر.

ثالثا: الحملتان الإسبانيتان على مدينة الجزائر سنتي 1197-1198هـ/1783-1784م

المبحث الأول: الحملة الإسبانية الأولى سنة 1197هـ/1783م.

1-دوافع الحملة الإسبانية.

2-التحضيرات الجزائرية والإسبانية للحملة.

3-المعارك الفاصلة.

المبحث الثاني: الحملة الإسبانية الثانية على مدينة الجزائر سنة 1198هـ/1784م

1-الاستعدادات الجزائرية والإسبانية للحملة.

2-وجهة الحملة ونتائجها.

3-العوامل المساعدة على انتصار الجزائريين.

رابعا: العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين 1200-1207هـ/1786-1792م

المبحث الأول: انعقاد الصلح الجزائري الإسباني سنة 1200هـ/ 1786م

1-بداية النهاية للصراع العسكري بين الطرفين الجزائري والإسباني.

2-العوامل المساعدة على توقيع اتفاق السلم والأمن الجزائري الإسباني.

3-المفاوضات الجزائرية الإسبانية

4-بنود الصلح الجزائري الإسباني.

5-الخلافات الجزائرية الإسبانية بعد إمضاء اتفق الصلح.

6-نتائج اتفاق السلم الجزائري الإسباني.

المبحث الثاني: الفتح الجزائري الثاني والنهائي لمدينتي وهران والمرسى الكبير سنة 1207هـ/1792م

1-العوامل المساعدة على تحرير وهران والمرسى الكبير.

2-الاستراتيجية العسكرية الجزائرية المتبعة في فتح وهران والمرسى الكبير.

3-المعاهدة الجزائرية الإسبانية سنة 1206هـ/1791م.

4-بسط السلطة الجزائرية على مدينتي وهران والمرسى الكبير سنة 1206هـ/1792م.

5-نتائج المعاهدة على الطرفين.

أولا: الصراع الجزائري الإسباني ما بين (1120-1189هـ/1708-1775م)

المبحث الأول: التحرير الأول للمرسى الكبير ووهران سنة 1120هـ-1708م

1-التحضير الجزائري لعملية التحرير.

كان محمد بكداش يعلم جيدا أن أي عملية فتح يجب إعداد لها جيشا قويا ومدربا تدريبا يكون في مستوى هذا الحدث الكبير والذي انتظره الجزائريون كثيرا، لذلك قام بتجهيزه بكل ما يلزم، واستطاع جمع ما بين 8000 و9000 جندي، بالإضافة إلى المتطوعين الذين انضموا إلى الجنود النظاميين في طريقهم إلى وهران والمرسى الكبير[1]، وقد زود هذا الجيش بالكثير من المدافع الكبيرة وكميات كبيرة من الذخيرة قدرت بحوالي 3300[2] قنطارا لصناعة الألغام الأرضية حتى يتم تحطيم الأبراج الموجودة بالمرسى الكبير ووهران.[*]

ولمعرفة محمد بكداش بقوة الإسبان المتحصنين بوهران، قرر أن يجعل على رأس قيادة الجيش حسن أوزان الذي كانت له قدرات كبيرة أهلته لهذا المنصب، هذا الأخير قرر تقسيم جيش الفتح إلى قسمين:

- جيش بحري؛ قام بنقل المدافع والألغام المعدة لتدمير الحصون والأبراج لتسهيل اقتحامها فيما بعد.
- جيش بري؛ مكون من الجيش النظامي والمتطوعين، الذين قدر عددهم بحوالي 17 ألف[**]، فيما قدر عدد قوات مصطفى بحوالي 2500[***]، الذين كانوا يحاصرون المرسى الكبير ووهران في عهد حسن باشا الذي لم يقدم أي دعم للقوات المحاصرة[3]، واستنادا إلى ما سبق فإن الجيش الذي شارك في تحرير وهران والمرسى الكبير بلغ حوالي 27 ألف مقاتل، كان من بينهم 10 آلاف جندي نظامي و17 ألف متطوع، يتقدمهم حفظة القرآن الكريم والطلبة الذين قدر عددهم ما بين 700 و1000

---

1 – جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص376.

2 – عبد الرحمن الجامعي: فتح مدينة وهران، تحقيق، مختار حساني، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، الجزائر، 2003م، ص ص77، 78.

* – يبدو الرقم مبالغ فيه كثيرا، وهذا لا يتطابق مع الوقائع التاريخية حينذاك.

** – يشير جون.ب. وولف أن الهدف الأساسي من الانضمام إلى الجيش النظامي هو إحساس هؤلاء المتطوعين من البربر كما سماهم أنه بإمكانهم النهب والحصول على الأموال، لكن لا ندري من أين له هذا الاستنتاج، خاصة وأن الناس في ذلك الوقت كانت تنظر إلى هذا الأمر على أساس أنه جهاد مقدس يجب القيام به، يدفعهم في ذلك حب الاستشهاد نتيجة للدور الذي قام به العلماء والفقهاء في توضيح مراتب الشهداء في الآخرة وأهمية الجهاد في سبيل الله، لكن هذا هو ديدن الأوروبيين يربطون دائما هذه الأمور بالأمور المادية التي تستهوي الناس في بلاد المغرب.

*** – ذكر الجامعي أن عدد الفسطاط بلغ 300 فسطاط في كل فسطاط 25 رجلا، فإذا ضرب إحداهما في الآخر تحصلنا 7500 رجلا وهذا عدد العسكر الراتب القادم من الجزائر، فيما ذكر المشرفي عبد القادر الجزائري أن مصطفى بوشلاغم حاصر المدينتين بـ 100 فسطاط في كل فسطاط 25 رجلا، ولم يذكر لنا بكم أمده محمد بكداش من الجيش، ومع ذلك لا تناقض بين الروايتين لأن أحمد توفيق المدني وضح هذا الإشكال حيث قال: أن الباشا محمد بكداش أرسل جيشا جزائريا مؤلفا من 7500 رجل، وبعملية حسابية يكون عدد الجيش النظامي قد بلغ حوالي 10آلاف بالإضافة إلى آلاف المتطوعين...،للمزيد ينظر: عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص90؛ المشرفي عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص39؛ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص436.

3 – المشرفي: المصدر السابق، ص39.

مقاتل، والذين كانوا أول من سارع لإجابة نداء الجهاد، وكانوا أكثر بلاء وأشجع من واجه الإسبان في ساحات المعارك[1]، دليلا على حبهم للجهاد وإقدامهم في مواجهة الأعداء المحتلين.

بعد إتمام الاستعدادات، اتجه الجيش الجزائري إلى الجهة الغربية من الوطن في 1119هـ/1707م، وكان هدف قادته تدعيم الحصار المفروض على المدينتين منذ عام 1116هـ/1704م، بقيادة مصطفى بوشلاغم، وفي نفس الوقت إعلان بداية تحرير المرسى الكبير ووهران، وقطع الطريق عل القبائل العميلة للإسبان، والتي اعتبرت مارقة عن الدين الإسلامي استنادا لفتوى بعض العلماء الذين أجازوا قتل رجالها الذين تعاونوا مع العدو، وأخذ أموالهم[2]، أما الجيش البحري بقيادة حسن أوزان فقد انطلق من مدينة الجزائر في شهر محرم عام 1119هـ ومعه المدفعية، وقد نزل هذا الجيش بمرسى أرزيو، ومنه اتجه إلى مدينة وهران لحصارها برا، لاستحالة حصارها بحرا، بسبب تواجد القوات الإسبانية بها من جهة البحر.[3]

بعد وصول القوات الجزائرية؛ البرية منها والبحرية إلى مدينة وهران يوم 14 جوان 1707م، أسندت القيادة العامة لحسن أوزان، وكانت إدارة العمليات على الأرض من نصيب مصطفى بوشلاغم، الذي كان يعرف خبايا المنطقة جيدا، وكذلك كيفية تحرك القوات الإسبانية والقبائل المتحالفة معها، خاصة وأنه بدأ حصاره للإسبان منذ سنة 1704م، بدعم مباشر من محمد بكداش باشا الجزائر[4]، الذي لم يشارك في عملية التحرير بصفة مباشرة.*

2-مراحل عملية التحرير.

2-1-المرحلة الأولى: حصار الإسبان داخل المدينتين.

كان الشغل الشاغل للباي مصطفى بوشلاغم هو تحرير المدينتين وكخطوة أولى، قرر حصارهما منذ سنة 1116هـ/1704م، والتقليل من حركة القوات الإسبانية ونشاطها، وفي نفس الوقت الحد من تحرك القبائل المتحالفة معها، ومنعها من الحصول على المؤن الضرورية، والتي كانت تذهب في مجملها للإسبان، الذين وجدوا أنفسهم مضطرين لطلب المدد من السلطات الإسبانية بمدريد لتخفيف وطأة الحصار، بدل الاعتماد على هذه

1 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص ص87، 88.

2 – المشرفي: المصدر السابق، ص36.

3 – أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: المصدر السابق، ص68.

4 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص426.

* – السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا تغيب الداي عن قيادة عملية الفتح؟ لكن الملاحظ أن الجزائر كانت في هذه الفترة تمر بمرحلة مضطربة خاصة نظام الحكم بها، وازدياد المؤامرات والدسائس من طرف الإنكشارية، ولذلك يذهب جون.ب. وولف أن الداي أراد أن يشغلهم بعملية الفتح حتى لا يثوروا ضده مثل سابقيه، وهذا ما ذهب إليه ابن ميمون، وإلا ما كان له ليتأخر ويترك فرصة المشاركة والفوز بمجد هذا النصر وتخليد اسمه في عملية الفتح...، للمزيد ينظر: جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص 370؛ ابن ميمون محمد الجزائري: المصدر السابق، ص219.

القبائل التي وجدت نفسها في وضع حرج بسبب الحصار المفروض عليها، زاد الوضع تأزما وصول المدد من مدينة الجزائر في شهر ربيع الأول 1119هـ/14 جوان 1707م[1]، حينها زاد إحكام الحصار، وبدأت القوات الجزائرية في حفر الخنادق حول مدينة وهران خاصة بمحاذاة الأبراج[2]، لتسهيل مراقبة حركة القوات الإسبانية، وفي نفس الوقت قذفها بالمدافع لإلحاق أكبر ضرر بها لتسهيل اختراقها فيما بعد، وبهذه الخطوة زادت معاناة الإسبان ولم يبق لهم إلا البحر كمنفذ وحيد للتزود بما يحتاجونه.

وهكذا لعب هذا الحصار دورا مهما في إنهاك القوات الإسبانية والقبائل المتحالفة معها، التي اضطر قادتها للامتناع عن دفع الضرائب للإسبان، وكذلك منعهم من التزود بالسلع نتيجة فقدانها بسبب الحصار المفروض عليها، وقد حقق هذا الحصار العديد من النتائج الإيجابية على الجزائريين نذكر منها:

1- قطع العلاقات الوثيقة بين قبائل بني عامر العميلة والإسبان.
2- منع المؤن الضرورية والأسلحة عن القوات الإسبانية التي أصبحت محاصرة داخل أسوار المدينتين.
3- التضييق على قبائل بني عامر العميلة، مما جعل البعض منها يعلن الانضمام فيما بعد للقوات الجزائرية.
4- هزيمة القوات الإسبانية نفسيا قبل هزمها عسكريا، بعد صمود القوات الجزائرية في الحصار لمدة قاربت الأربع سنوات.
5- زيادة عدد المتطوعين الراغبين في المشاركة في عملية تحرير المدينتين.
6- زيادة الحماس والرغبة عند القادة الجزائريين في تحرير المدينتين، خاصة بعد مشاهدتهم تأثر القوات الإسبانية بهذا الحصار ومعها القبائل العميلة لهم.

2-2-المرحلة الثانية: تحرير الأبراج.

أ-تحرير برج القديس فليب*-10 جمادي الثانية 1119هـ.

يسمى أيضا هذا البرج ببرج العيون، لوجود الماء بكثرة به، والتي تعتبر الممون الرئيسي لمدينة وهران بالماء، لذلك كان الهدف الأول لقادة الحصار من أجل منع الإسبان من التزود بالماء، لذلك أمر حسن أوزان قواته

---

1 – محمد بن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص212.

2 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص39.

* – أسسه الحاكم الإسباني الماركيز دقوماريس "Le Marquise de gomarés" سنة 1509م في الجنوب الشرقي للمدينة بأعلى وادي الرحى على الضفة الشرقية وسماه الإسبان برج القديس "Château des saints" ثم فيما بعد برج القديس فليب "le fort saint Philip" وقد بني على ربوة عالية تشرف على المدينة من الجنوب الشرقي، وتشرف على ما ورائها من المناطق الأخرى في الجهة الشرقية، وكان هدفا رئيسا لهجومات القوات الجزائرية منذ تأسيسه، فقد هاجمه حسن قورصو وهدم جزء منه سنة 1556م، ثم هاجمه حسن بن خير الدين عام 1563م وهدمه تماما...، يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص89.

بضرب حصار شديد عليه بتاريخ 15 ربيع الأول 1119هـ/ 14 جوان 1704م، ثم قرر هدم مجار الماء باتجاه وهران إلى وسطها[1] لتبدأ من بعدها القوات الجزائرية في قصف الحصن بالقنابل الذي تضرر كثيرا جراء هذا القصف المتواصل.[2]

استطاع الجيش الجزائري اقتحام الحصن الذي دارت به معركة عنيفة صمد فيها الطرفان بطريقة غريبة، إلا أن الغلبة فيها كانت للجزائريين الذين ألحقوا بالإسبان خسائر فادحة في الأرواح، كان لها الأثر السيء على مواصلة القتال، خاصة بعد أن أنهكهم الحصار ونقص المؤن، هذا ما أرغمهم على إعلان استسلامهم وطلب الأمان، وقد قدر عدد الإسبان الذين استسلموا حوالي 108 جندي وبعض النسوة[3]، وقد تم فتح برج القديس فليب مساء يوم 10 جمادي الثانية 1119هـ/8 سبتمبر 1707م[4]، وفي ذلك يقول عبد الرحمن الجامعي:[5]

فَكَانَ بَاكُورَةَ ذَلِكَ الفَتْحِ ... بُرْجَ العُيَونِ فَامِنًا لِلنَّجْحِ

عَاشِرَ يَوْمٍ مِنْ جُمَادَى الأُخْرَى ... يَوْمَ الثُّلاَثَاءْ مَسَاءَ فَسَرَا.

أسفرت المعارك في نهايتها على العديد من النتائج، التي يمكن إيجازها فيما يلي:

- مقتل حوالي 40 جندي إسباني وجرح 27 جندي آخر، قام حسن أوزان بإطلاق سراحهم تكرما منه، ورحمة بهم؛ وهذا ما يدل على الأخلاق العالية التي كان يتمتع بها هذا القائد العسكري، والمستمدة من الدين الإسلامي، الذي طلب الرفق بالأسرى والجرحى.
- أسر ما بين 320–540 جندي إسباني من طرف الجزائريين.
- استشهاد حوالي 200 جندي جزائري[6]، دليلا على بسالتهم وحماسهم في سبيل تحرير بلادهم من الاحتلال، ورغبة منهم في نيل الشهادة في سبيل الله.

1 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص424.

2 – محمد بن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص213.

3 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص96.

4 – محمد بن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص215.

5 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص96.

6 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص ص99، 100.

ب-فتح برج مرجاجو* 27 جمادي الآخرة 1119هـ/28 سبتمبر 1707م

واصلت القوات الجزائرية زحفها لتحرير بقية الأبراج، شجعها في ذلك سيطرتها على برج العيون الذي تم تطهيره من الإسبان وعملائهم، وكان الدور هذه المرة على برح مرجاجو-الجبل-الذي تمت محاصرته من كل الجهات وذلك بحفر الخنادق حوله لتسهيل اختراقه، لتبدأ القوات الجزائرية هجومها الخاطف والسريع على البرج يوم 25 جمادي الآخرة 1119هـ[1]/22 سبتمبر1707م، إلا أن القوات الإسبانية التي كانت على أهبة الاستعداد قامت بصد الهجوم ودارت معارك عنيفة بين الطرفين، حاول فيها كل طرف إلحاق الهزيمة بالآخر وحسم المعارك لصالحه، إلا أن طول المعارك وضراوتها أنهك الإسبان الذين أدركوا أن المقاومة لا تجدي نفعا أمام إصرار الجزائريين على تحرير الحصن.[2]

في يوم 27 جمادي الآخرة 1119هـ/28 سبتمبر 1707م، قرر القادة الإسبان والمدافعين عن البرج إعلان استسلامهم بعد ثلاثة أيام من الصمود أمام القوات الجزائرية المهاجمة[3]، التي استطاعت أسر حوالي 107 جندي و3 نساء[4]، وبذلك تم تحرير برج مرجاجو من الاحتلال الإسباني نهائيا بعد أكثر من قرنين من الزمن على احتلاله.

ج-فتح برج ابن زهوة.**

تم الهجوم على هذا البرج بالموازاة مع الهجوم على برج مرجاجو، فقد أمر حسن أوزان أولا بضرب حصار محكم على برج بن زهوة بتاريخ 22 جمادي الآخرة 1119هـ/23 سبتمبر 1707م[5]، ليعطي الأوامر فيما بعد ببدء الهجوم، إلا أن الإسبان تصدوا للهجوم بعنف وبسالة نادرة، هذا ما كبد الجزائريين مئات الشهداء والجرحى والعديد من الخسائر المادية الفادحة طيلة ثمانية أيام كاملة من المعارك.[6]

* – يسمى أيضا برج مرجاجو أسسه الإسبان على قمة جبل سيدي هيدور فوق برج حسن بن زهوة، وقد اختلفت الروايات التاريخية في سنة تأسيسه فقد ذكر كيجل سنة 1557م، أما ديدي فذكر سنة 1577م، أما بيبيس فقد ذكر أنه شيد ما بين 1698م و1708م، واستعمل الإسبان في بنائه الحميانيين الذين كانوا ينقلون المياه على ظهورهم وذلك بإيعاز من أحد شيوخهم الذي كان مواليا للإسبان، وبعد أن انتهوا من بنائه أطلقوا عليه اسم القديس كروز "Santa cruz"، وبه 300 مدفع نظرا لموقعه المشرف على المدينة ومينائها، يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص91.

1 – ابن ميمون محمد الجزائري: المصدر السابق، ص207.

2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص228.

3 – ابن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص207.

4 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص74.

** – بناه الإسبان عام 1589م، على ربوة صغيرة جنوب برج المونة وشمال برج الجبل على سفح جبل مرجاجو، وأطلق عليه اسم القديس قريقوري"San Gregorio"، به 301 مدفع لحراسة طريق المرسى الكبير الذي يمر بالقرب منه...، يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص90.

5 – ابن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص 221.

6 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص422.

وأمام توالي خسائر الجزائريين واستحالة اختراق البرج، طلب حسن أوزان من الباي مصطفى بوشلاغم إعانته بالمزيد من الجنود، فما كان من هذا الأخير إلا الاستجابة لطلب حسن أوزان، والنزول بقواته بالتراب الأحمر المقابل لبرج زهوة، يأمر جنوده بحفر المتاريس وصناعة مصاعد من الحطب ليسلق جدران البرج، هذا ما سهل عزل الجنود الإسبان المدافعين عن البرج ومنع المدد القادم إليهم من جهة البحر[1]، مما اضطرهم للخروج من وهران والمبادرة بالهجوم من أجل فك الحصار المضروب عليهم، خاصة بعدما نال منهم التعب والإجهاد بسبب مقاومتهم المستميتة والطويلة ضد الجزائريين، الذين كانت هجماتهم متواصلة ومستمرة.[2]

بالرغم من المحاولات المتكررة التي قام بها الجزائريون لتحرير برج بن زهوة، إلا أنهم فشلوا في ذلك، هذا ما اضطرهم لتغيير خططهم الحربية، حيث أمر حسن أوزان بحفر خنادق تحت الأرض لتلغيمه، ومباشرة بعد الانتهاء من الحفر تم زرع اللغم، إلا أن المحاولة لم تكلل بالنجاح التام، ليعاد زرع اللغم مرة ثانية وثالثة، أين استطاع الجيش الجزائري اقتحام البرج بكل قوة، حيث دارت به معارك عنيفة بين الطرفين، تمكن فيها الجزائريون من إلحاق هزيمة قاسية بالإسبان الذين اضطروا للتراجع والتقهقر أمام إصرار وعزم الجزائريين الذين استطاعوا تحرير البرج نهائيا يوم الثلاثاء 5 شعبان 1119هـ/6 نوفمبر 1707م* وقتل كل من وجد به من الإسبان[3] الذين مات منهم حوالي 120 جندي، فيما فرّ منهم وطلبوا الأمان من زوجة الباي مصطفى بوشلاغم، أما فيما يخص الجزائريين فقد استشهد منهم حوالي 200 مقاتل بالإضافة إلى جرح عدد آخر منهم.[4]

د-فتح برج الصبايحية.**

حاول الجيش الجزائري مواصلة تقدمه وتحرير المزيد من الأبراج، حيث كان الدور هذه المرة على برج الصبايحية الذي تم حصاره لمدة ثمانية أيام، هذا ما اضطر الإسبان الموجودين به للاستسلام بدون مقاومة تذكر، فما فضل الجنود الرافضين لهذه الخطوة الفرار إلى البرج الأحمر[5] لمواصلة الدفاع عن ما تبقى لهم من المدينة، هذا ما

---

1 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص76.

2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص429.

* – الملاحظ أن عملية الفتح دامت تقريبا شهرين من الزمن وهذا دليل على بسالة المقاومة الإسبانية وصمودها هذه المدة على الرغم من الخسائر التي تكبدتها، بالإضافة لحصانة هذا البرج، وعلى الرغم من طول مدة الحصار والخسائر الفادحة التي تلقاها الجزائريين إلا أن إصرارهم على فتح البرج كان أكبر وفي الأخير كان لهم ما أرادوا.

3 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص429.

4 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص77.

**– أسسه الإسبان سنة 1693م قرب باب الجبارة بين البرج الأحمر وبرج رأس العين، على الضفة الشرقية لوادي الرحى، لمراقبة قرية إيفري العربية على الضفة اليسرى للوادي ومراقبة المناطق الشرقية أيضا، كان بها 36 مدفع ثم زاد عددها ليصل إلى 100مدفع، لأهميتها العسكرية في الدفاع عن المدينة، أطلق عليها الإسبان اسم القديس أندري "le fort saint kandre"، يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 86.

5 – الشافعي درويش: المرجع السابق، ص93.

اضطر الجزائريين لمواصلة زحفهم إلى أن وصلوا إلى كنيسة سانتا ماريا، وبذلك أصبح الجزء الموجود ما بين البرج الجديد والبرج الأحمر تحت إدارتهم المباشرة، وأصبحت المعارك بين الطرفين تدور داخل أسوار مدينة وهران[1]، وبهذه الخطوات المتتالية والتي حققها الجزائريون أصبح من الواضح أن تحرير المدينة من الاحتلال الإسباني كان قاب قوسين أو أدنى، وإنما يتطلب مزيدا من العزيمة والصبر ليتحقق للجزائريين ما عجز عنه أسلافهم طيلة قرنين ونيّف من الزمن.

هـ-فتح برج الأحمال.*

واصل الجزائريون تقدمهم واستطاعوا فتح البرج الأحمر، بعد يوم كامل من المعارك ضد الإسبان الذين أبدوا بسالة وشجاعة كبيرتين في الدفاع عن البرج، حيث استمرت المعارك من الصباح إلى المساء، إلا أن تأكدهم من استحالة الوقوف في وجه الجيش الجزائري اضطرهم لطلب الأمان والاستسلام، وهذا ما نقله لنا ابن ميمون الذي قال: «...**ولما بصروا بفتح المدينة، تمزّقت قلوبهم بضربة مكينة وتشاوروا فيما بينهم، ورأوا أن الهلاك يفضي إليهم، لكنهم أظهروا التجلد فحاربوا يوم الفتح، من المساء إلى الصباح ثم مكثوا هنيئة من الزمان، وطلبوا الأمان من الموت وأسفا على ما يفقدونه بطول المدة، وخرج النصارى وصاروا أسرى نحو 560 وألقوا أسلحتهم**....».[2]

2-3-المرحلة الثالثة: التحرير النهائي لمدينة وهران.

توالت انتصارات الجيش الجزائري، وفي نفس الوقت زادت انكسارات الجيش الإسباني، الذي عجز تماما على الدفاع عن الأبراج والحصون التي تم تحريرها، وأصبحتا مراكزا متقدمة لحماية الجزائريين من الهجمات المتتالية للإسبان، الذين حاولوا بكل قوة منع الجيش الجزائري من التقدم وعرقلة سيره، حيث أصبحت تدور معارك ضاربة بين الطرفين في محاولة لكل واحد حسمها لصالحه، ومع ذلك استطاع الجزائريون تحقيق العديد من الانتصارات مكنتهم من التقدم وتحرير قصبة المدينة، التي قاموا بتحصينها جيدا وإزالة كل الأشجار المحيطة بها مخافة من رد فعل

1 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 430.

*– يعود تشييده إلى العصر الوسيط حيث وضع نواته الأولى تجار البندقية واتخذوه كمركز تجاري يربطهم مع بلاد المغرب الإسلامي الأخرى، وقيل صممه وبناه مهندس معماري مالطي بأمر من القديس ملك بيت المقدس أثناء فترة الحروب الصليبية، وعندما سيطر أبو الحسن المريني على المنطقة ما بين 1331–1339م اعتنى حلفاؤه بهذا البرج وبرج المرسى الكبير وحصنوهما وطوروهما واتخذوهما كقاعدة للنشاط الإسلامي من أجل الدفاع عن المدينة وباقي مدن بلاد المغرب الإسلامي، وعندما احتل الإسبان المدينة اتخذوه مقرا لحكمهم سنة 1509م، وسموه روزا الكزار "Rosalacazar"...، يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص87.

2 – محمد ابن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص238.

الإسبان[1]، وبذلك عطلوا كل اتصال بين ما تبقى من المدينة والأبراج بيد الإسبان، مثل برج مرزاق وأبراج الأحبة[2]، وهذا ما سهل عزل المدينة ومن فيها عن الخارج وأصبح تحريرها مسألة وقت فقط.

اندفع الجزائريون بكل قوة لتحرير المدينة نهائيا، وتحقيق نصر لطالما انتظروه كثيرا، أمام دهشة الإسبان الذين لم يستطيعوا مواصلة القتال، هذا ما اضطرهم للاستسلام، فيما فضل الحاكم العام لمدينة وهران الدون ملشوردي أفيلاندا «Don Melchior de Avelaneda» الفرار إلى إسبانيا[3]، مخلفا وراءه بعض الجنود الذين قرروا الدفاع عن كنيسة سانتا ماريا، التي استطاع الجيش الجزائري السيطرة عليها بمشاركة طلبة العلم، الذين أبلوا بلاء حسنا في هذه المعارك التي تكبد فيها الإسبان خسائر فادحة، حيث لم ينجوا من الموت إلا 40 جنديا إسبانيا أعلنوا استسلامهم وطلبوا الأمان من قائد الجيش الجزائري حسن أوزان، الذي أمر جنوده بمواصلة تحرير المدين وإحكام القبضة عليها[4]، ليتم تحرير المدينة نهائيا يوم 1 شوال 1119هـ/20 جانفي 1708م، حيث دخلها خليفة الداي محمد بكداش حسن أوزان وجنوده، معلنين بذلك عن تحرير مدينة وهران بعد حوالي قرنين من احتلال الإسبان لها، بعد استسلام آخر 560 جندي إسباني[5] مفضلين النجاة بأرواحهم بدل مواصلة القتال الذي أصبح لا يجدي نفعا أمام إصرار وعزيمة الجزائريين الذين لم يبق لهم إلا تحرير المرسى الكبير.

2-4-المرحلة الرابعة: الفتح الجزائري للمرسى الكبير.*

بعد أن تم تحرير مدينة وهران نهائيا من قبضة المحتلين الإسبان، قررت القيادة الجزائرية لجيش الفتح السير رأسا إلى المرسى الكبير لتحريره، خاصة بعد أن فضل 3 آلاف جندي إسباني الفرار باتجاهه لمواصلة المعارك[6]، لذلك سارع حسن أوزان بضرب حصار محكم على المدينة من ناحية البر والبحر، وأمر جنوده بحفر الخنادق ومنع وصول أي نجدة إلى الإسبان المتحصنين بها، الذين قرروا مواصلة المعارك وعدم الاستسلام مهما كان الثمن[7]، هذا ما صعب من مهمة الجيش الجزائري، الذي اضطر لوضع الألغام تحت حصون المدينة، إلا أنها لم تعطي النتيجة

---

1 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص118.

2 – الشافعي درويش: المرجع السابق، ص92.

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 459؛ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 431.

4 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص119.

5 – محمد ابن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص228.

* – سماه الإسبان باب سانتون " porte du Santon " يقع في غرب مدينة وهران من القصبة على سفح الجبل وما زال قائما حتى اليوم مع جزء من الصور الذي يعلوا القصبة، يؤدي إلى برج حسن وبرج الجبل...، محمد ابن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص 134.

6 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص130.

7 – نفسه.

المرجوة إلا في المحاولة الثالثة، التي تم فيها إحداث أضرار بالحصن[1]، حيث تم السيطرة عليه يوم الجمعة 24 ذي الحجة 1120هـ/10 أفريل 1708م لتتواصل المعارك في أزقة المدينة، أين فقد الإسبان حوالي 3 آلاف رجل وامرأة، الذين رفضوا الاستسلام ليتم التحرير النهائي للمرسى الكبير بعد حوالي أربعة أشهر من تحرير مدينة وهران، وهكذا استطاع حسن أوزان ومصطفى بوشلاغم إنجاز ما عجز عنه سابقيهم واللذان قاما بطرد الإسبان وفك ارتباطهم مع القبائل العميلة لهم، والتي أباح مصطفى بوشلاغم دماء الذين ثبت تعاونهم مع العدو وخدمته.*

وبهذا الانتصار الذي حققه الجزائريون تم نهائيا تحرير كامل السواحل الجزائرية بعد احتلال دام حوالي قرنين من الزمن، وبهذه الخطوة تمت عمليا وحدة التراب الجزائري لأول مرة منذ الفتح العثماني للمغرب الأوسط وتأسيس الإيالة الجزائرية سنة 1520م، وبإعلان هذا النصر المبين سارت الرسل تبشر به، وأقيمت الأفراح ورفعت الرايات وزفت البشائر إلى الدولة العلية وإلى كامل تراب الإيالة ابتهاجا بهذا النصر المحقق، وفي ذلك قال عبد الرحمن الجامعي: «... **ولما أقبلت رسل البشائر وتُليت صحف فتحها على الأمير وعمَّ الخطاب بالفرح جميع المؤمنين بلسان البشير، أمر الأمير نصره الله محمد بكداش بصنع وليمة الفتح وعيده وتسريح من كان في هم وعيده (السجناء)، وتزيين سوق البلد وتجديده، وتعطيل البيع والشراء، وقطع الجدال والمراء، ورفع الأحكام، وتنويع اللباس والطعام**...».[2]

3-نتائج عملية الفتح:

1- نقل عاصمة بايلك الغرب الجزائري من معسكر إلى وهران، وبذلك تأكيد السيادة الجزائرية عليها ودليلا على وحدة كامل التراب الجزائري.

2- فقدت الجزائر حوالي8 آلاف شهيد.[3]

3- تأكيد الخضوع الجزائري للسلاطين العثمانيين، وقد تمثل ذلك في إرسال مفاتيح وهران إلى السلطان العثماني، الذي فرح بهذا النصر، وأعلن الأفراح بكامل السلطنة، دليلا على اعتباره أن وهران قطعة من تراب الدولة العلية.

4- خُلدت هذه الملحمة التاريخية عند الشعراء سواء الشعر المنظم أو الملحون ومن أولئك الشعراء أحمد الفيلالي وأبو عبد الله محمد ابن عبد المؤمن الحسني الجزائري.[1]

---

1 - محمد ابن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص235.

*-للتوسع في هذا الموضوع ينظر إلى كتاب بهجة الناظر لصاحبه المشرفي عبد القادر الجزائري الذي تكلم فيه بالتفصيل عن هذه القبائل المتعاونة مع الإسبان، وأيضا أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: المصدر السابق، ص ص 63، 66.

2 - عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص ص 123، 124.

3 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 461.

5- إخضاع كامل القبائل المتعاونة مع الإسبان والقضاء على سلطتهم في بعض المناطق بالغرب الجزائري.

6- تكبدت إسبانيا جراء هذه العمليات خسائر بشرية ومادية فادحة تمثلت في 1230 أسير كما ذكر الجامعي موزعين كما يلي:

- برج العيون 540 أسير.
- برج مرجاجو 120 أسير منهم ثلاثة نسوة.
- برج بن زهوة 9 أو 8 أسرى.
- البرج الجديد 400 أسير.
- البرج الأحمر 160 أسير.[2]

أما يحي بوعزيز فذكر حوالي 461 أسير في كل من وهران والمرسى الكبير[3] ولا ندري من أين له بهذا العدد، مع أن المصادر ذكرت أكثر من ذلك بكثير، أما عزيز سامح ألتر نقل عن تاريخ رشيد المجلد الثالث أن عدد الأسرى بلغ حوالي 400 أسير من الإسبان و2200 من القبائل المرتدة[4]، أما عدد القتلى فلم تذكر المصادر العدد بالضبط، فيما ذكرت المراجع عدد 3 آلاف قتيل من الإسبان في المرسى الكبير وحده، و15 ألف قتيل من الإسبان والمتعاونين معهم، وأكثر من 1200 أسير مرتد من العرب.[5]

7- الاعتراف الفرنسي البريطاني بهذا النصر والتسابق في تقديم الهدايا للداي محمد بكداش، فقد قدم القنصل الفرنسي قطعة من القماش الراقي، فيما قدم القنصل الإنجليزي هدايا قيمتها على الأقل 500 بياشر[6]، وبالتالي الاعتراف بقوة الإيالة ومن ثم التسابق فيما بينهما للحصول على أكبر قدر ممكن من الامتيازات.

المبحث الثاني: الاحتلال الإسباني الثاني للمرسى الكبير ووهران سنة 1145هـ/1732م

1-حملة الكونت دي مونتماريا وإعادة احتلال المدينتين

كانت مدينة وهران تمثل بالنسبة إلى السلطات الإسبانية القاعدة الرئيسية التي من خلالها تستطيع تحقيق كل مشاريعها الاستعمارية في بلاد المغرب، وفي نفس الوقت لها رمزية تاريخية، تمثلت في بقاءها تحت سيطرتها لمدة

---

1 - الجيلالي سلطاني: "قراءة في أرجوزة الحلفاوي في فتح وهران من خلال مخطوط شرح الجامعي للأرجوزة"، **المجلة الجزائرية للمخطوطات**، ع5، مجلة علمية محكمة، جامعة وهران، الجزائر، 2011م، ص ص 41،40.

2 - نفسه، ص 128.

3 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص55.

4 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 461.

5 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص55.

6 - جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص 379.

قاربت قرنين من الزمن، حتى اعتقد الإسبان أنها من ممتلكاتهم الخاصة التي يجب عدم التفريط فيها، لذلك وما إن تم تحريرها من طرف الجزائريين سنة 1120هـ/1708م حتى عمت الأحزان كامل إسبانيا ندما على التفريط فيها، لأنها مثلت للإسبان فخرا ظلوا يتباهون به أمام نظرائهم الأوروبيين، لأن العثمانيين ومعهم الجزائريين عجزوا عن تحريرها، بالرغم من نجاحاتهم المتكررة في بلاد المغرب وخارجها، إلى أن تحقق لهم ذلك سنة 1120هـ/1708م بعد 200 سنة ونيّف من احتلالها.

بعد تشاور ودراسة وتخطيط قررت السلطات الإسبانية وعلى رأسها الملك احتلال مدينة وهران وتلقى كل الدعم من الكنيسة الكاثوليكية بروما، التي كانت السباقة في إعلان تأييدها لأي حملة إسبانية تهدف لإعادة احتلال المدينة واسترجاع هيبة الإمبراطورية الإسبانية التي أسقطها الجزائريون سنة 1708م عند فتحهم للمدينة، هذا ما شجع الإسبان في المضي قدما من أجل تجهيز حملة عسكرية تكون في مستوى الحدث الذي طال انتظاره داخل إسبانيا وفي أوروبا.

2-أسباب الحملة الإسبانية.

2-1-وقف نشاط البحرية الجزائرية.

تلقت السلطات الإسبانية ضربة موجعة بعد فتح المرسى الكبير ووهران من طرف الجزائريين، ذلك أن التهديدات الجزائرية انتقلت إلى السواحل الإسبانية ذاتها، وهذا بسبب قرب المسافة بين البلدين، فكانت المدينتين القاعدة الرئيسية لانطلاق البحرية الجزائرية لمواجهة الإسبان والقوى الأوروبية المتحالفة معها، خاصة وأنهما ساعدا في تنفيذ المهمات السريعة والخاطفة، وفي نفس الوقت العودة بسرعة وبأقل التكاليف، هذا ما جعل الإسبان يقررون وضع حد لهذا المركز المهم واحتلاله، وتخليص سكان السواحل الإسبانية من أكبر خطر يهددهم.[1]

2-2-الرغبة في إعادة احتلال المدينتين.

لم ينس الإسبان أبدا التفكير في إعادة احتلال المدينتين بمجرد ما تسمح لهم الفرصة بذلك، إدراكا منهم للأهمية الاستراتيجية لهما، لأنهما كان سمحا بالتحكم في الممر البحري الرابط بين المحيط الأطلسي والبحر المتوسط باتجاه الدويلات الإيطالية ومالطا، لأن مدينة وهران كانت تمثل مركزا متقدما لمراقبة هذا الممر التجاري، خاصة بعد ضياع مضيق جبل طارق منها لصالح الإنجليز سنة 1704م، والأمر الذي فتح المجال واسعا لاشتداد المنافسة بين الطرفين الإنجليزي والإسباني، وبعد أن فقد الإسبان مدينة وهران أصبح من المؤكد ضياع مصالحهم العسكرية والاقتصادية، ولذلك كان مطلب احتلال وهران والمرسى الكبير مطلبا رئيسيا لجميع الإسبان، حيث كان يتلاءم

1 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 444.

ذلك مع طبيعة التفكير السائد خلال القرن الثامن عشر الميلادي [1]،الذي غلب عليه الصراع العسكري الاقتصادي، بدل الصراع الديني.

2-3-إشغال الرأي العام الإسباني عن المشاكل الداخلية.

حاول الملك الإسباني فليب الخامس إيجاد حلول للأزمات الخانقة التي كانت تعيشها بلاده، وتم ذلك في المجالين الإداري والعسكري بفضل المساعدات التي قدمها الفرنسيون له، حيث أصبح الجيش الإسباني أكثر قوة وانضباطا من ذي قبل، إلا أن الأزمة الاقتصادية كانت أكبر من قدراته، بسبب تضرر الخزينة العامة جراء الإنفاق المتواصل على الحروب داخل القارة الأوروبية وخارجها، هذا ما جعله يشغل الرأي العام الداخلي بعمل يعيد الأمل لرعاياه، ولم يجد إلا تجريب إعادة مدينتي المرسى الكبير ووهران.[2]

3-الاستعدادات الإسبانية الجزائرية.

3-1-الاستعدادات الإسبانية.

بعد تشاور عميق بين جميع الهيئات السياسية والعسكرية الحاكمة في إسبانيا، اتخذ قرار بالإجماع بضرورة إعادة احتلال مدينتي وهران والمرسى الكبير، لأجل ذلك أصدر الملك فليب الخامس مرسوما ملكيا يطالب فيه من الجميع مساعدة بلاده في إتمام هذه المهمة، حيث كان يهدف من وراء ذلك حشد أكبر قدر ممكن من الدعم الداخلي والخارجي في عموم أوروبا، وأبرز ما جاء في هذا المرسوم: «... **لقد رأيت أن التخلي عن وهران تحت سلطان المتوحشين الأفارقة إنما هو عائق يحول بيننا وبين نشر الديانة المسيحية المقدسة*... ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف العظيم أمرت أن يجتمع الجيش بأليكانت مع كل ما يلزم من الأسلحة والمؤن والمعدات اللازمة لمثل هذه المعركة...**».[3]

استطاع الإسبان التحضير جيدا لهذه الحملة العسكرية، حيث تم تجهيز أسطول ضخم من أجل إنجاح المهمة واحتلال مدينتي وهران والمرسى الكبير بأقل الخسائر وفي أسرع وقت ممكن، وبدأ القادة العسكريين في تجميع قطع الأسطول بمدينة أليكانت، وقد أسندت مهمة قيادة الأرمادة إلى الكونت جوزيف كاريللو دي مونتمار «De

---

1 - بوحفص تجاجنة: الحملات العسكرية لدول غرب أوروبا المتوسطية على الجزائر 1145-1246هـ/1732-1830م، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، 1432-1433هـ/2010-2011 م، ص52.

2 - جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص 400.

* - بالرغم من استعمال حجة نشر المسيحية إلا أننا نؤكد أن هذه الحجة في الحقيقة لم تكن أبدا سببا مباشرا في هذه الحملة، بل فقط لاستعطاف رجال الكنيسة من أجل حشد الدعم لها، على اعتبار أنه لا أحد في أوروبا كان يصدق مثل هذه الأمور في القرن الثامن عشر ميلادي، خاصة بعد ظهور الحركات الداعية لإصلاح الكنيسة التي كانت تمارس الهرطقة والشعوذة.

3 - *Berbrugger (A): Reprise D'oran par Les Espagnols en 1732, R.Af, N°8, Alger 1864, p20.*

«montemar الذي استطاع إتمام جميع الاستعدادات في الفترة الممتدة من 3 إلى 13 جوان 1732م، حيث وضع جميع الاحتمالات في الحسبان، لذلك لم يترك أي مجال للصدفة، وهذا ما نستشفه من المعطيات التالية:

عدد أفراد الجيش	30 ألف رجل
عدد سفن أسطول والنقل	525 سفينة
المدافع	720 مدفع
قنابل من مختلف الأحجام	16420 قنبلة
قنابل يدوية	56 ألف قنبلة
قذائف مختلفة	80693 قذيفة
البارود المعد لهذه الحملة	12427 قنطار
صناديق رصاص البنادق	8000 صندوق
البنادق	12 ألف بندقية
الرصاص	1522 قنطار
مؤن الجيش	2 مليون وجبة

3-2-الاستعدادات الجزائرية.

لما علم الباي مصطفى بوشلاغم بخبر الحملة الإسبانية، بدأ في الاستعداد للتصدي لها بما توفر لديه من إمكانيات مادية وبشرية، وقد استطاع حشد ما يقارب من 20 ألف مقاتل متطوع، يدعمهم ما يقرب من 2500 جندي نظامي*، فيما تم تجهيز حصون المدينة بما يربوا عن 138 مدفع**؛ منها 87 مدفع من البرونز[2]، بيد أن ما يمكن ملاحظته هو غياب أي مساعدة من السلطة المركزية بمدينة الجزائر، بسبب المشاكل التي كانت تعيشها، وضعف الداي عبدي باشا (1724-1732م)، الذي تجاوز عمره 88 سنة حينذاك، لذلك كان عاجزا عن اتخاذ

واتفق معه المدني في هذه المعلومات، أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 443، فيما خالفه جون.ب. وولف في بعض الجزئيات مثل ذكره لعدد السفن 505 سفينة و200 مدفع حصار لضرب استحكامات المدينة، جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص ص 400-401؛ وكلها إحصائيات تدل على ضخامة الأرمادا الإسبانية، فيما أكد بوعزيز هذه الإحصائيات، يحي بوعزيز: مدينة وهران...، المرجع السابق، ص55.

* - يقول عزيز سامح ألتر أن مصطفى بوشلاغم كان عدد قواته ما بين 3 ألاف إلى 4 آلاف كرغلي و30 ألف مقاتل من الأهالي والفاسيين (المغاربة) يقودهم جنرال هولندي اسمه ريباردا والمهدي سرسري الشريف، ويوجد في المدينة حوالي 138 مدفع منها 78 مدفع من البرونز و7 مدافع هاون...، عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 482.

** - يقول عزيز سامح ألتر أن مصطفى بوشلاغم كان عدد قواته ما بين 3 ألاف إلى 4 آلاف كرغلي و30 ألف مقاتل من الأهالي والفاسيين (المغاربة) يقودهم جنرال هولندي اسمه ريباردا والمهدي سرسري الشريف، ويوجد في المدينة حوالي 138 مدفع منها 78 مدفع من البرونز و7 مدافع هاون...، عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 482.

2 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 445.

أي قرار يمكن به مساعدة الباي مصطفى بوشلاغم والتصدي للعدوان الإسبان[1]، الذي لم يكن لينجح لولا التخاذل الذي طبع قرارات الداي ومعاونيه، الذين تركوا قيادة البايلك تواجه العدوان لوحدها وبإمكانياتها القليلة جدا بالمقارنة مع ما استطاع الإسبان حشده، وهذا ما يجعلنا نقول أن قيادة البايلك بقيادة مصطفى بوشلاغم كانت في مواجهة الإمبراطورية الإسبانية والمتحالفين معها من الأوروبيين والخونة بالداخل.

4-سير المعارك بين الطرفين

4-1-الصدام الجزائري الإسباني على الساحل

قررت القيادات العسكرية والسياسية الإسبانية إعطاء إشارة انطلاق الأرمادة من ميناء أليكانت يوم 15 جوان 1732م، حيث رافق هذه الانطلاقة احتمالات كبرى قل نظيرها حينذاك، وقد أعطيت التعليمات لقائد الأرمادا الكونت دي مونتيماريا بضرورة احتلال المدينتين مهما كلفه ذلك، ولا يمكن بأي حال من الأحوال العودة دون تحقيق هذه المهمة التي قبلها هذا القائد الطموح، الذي وصل إلى سواحل مدينة وهران يوم 25 جوان 1732م، إلا أنه لم يستطع إنزال قواته إلى الساحل بسبب هبوب رياح قوية، ومع ذلك بقي يحاول إلى أن تحقق له ذلك يوم 29 جوان، هذا ما كان له أثرا سلبيا على الخطط التي وضعها الجزائريون للتصدي لهذا العدوان، لأنهم لم يستطيعوا اكتشاف مكان إنزال القوات الإسبانية بالضبط، هذا ما جعلهم يتخذون قرارا بتقسيم القوات المدافعة عن المدينة إلى قسمين، قسم بوهران وقسم آخر بمدينة المرسى الكبير[2]، هذا ما شتت جهود المقاومة وشوش على قدرتها في مواجهة المحتلين؛ الذين اختاروا ساحة عيون الترك لإنزال قواتهم، مباغتين بذلك القوات الجزائرية حينما أوهموا قيادتها؛ وذلك بإرسال عدد من السفن إلى خليج أرزيو للإيحاء أنهم يقومون بإنزال قواتهم هناك، هذا ما اضطر الباي مصطفى بوشلاغم لإرسال قسم آخر من الجيش للتصدي للإسبان هناك[3]، وبذلك استطاع الإسبان في أول خطوة تشتيت جهود القوات الجزائرية وإفقاد تركيزها منذ البداية.

لما أتم الإسبان إنزال قواتهم، واجهتهم القوات الجزائرية بمقاومة شديدة بالرغم من قلة عدد أفرادها وإمكانياتها، وهذا ما تفطن له الباي مصطفى بوشلاغم، الذي أرسل جزءا آخر من الجيش لمؤازرة المقاومين الذين زادت عزيمتهم بعد وصول الدعم لهم، واستطاعوا تكبيد العدو خسائر بشرية فادحة[4]، مما جعل القيادة الإسبانية تأمر بزيادة عدد الفرق العسكرية لمواجهة هذه الوضعية الخطيرة، التي كادت تعصف بمخططاتهم، حيث تمكن

---

1 – جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص 401.

2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 445.

3 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 55.

4 – جمال قنان: المرجع السابق، ص 87.

الإسبان من قلب الموازين لصالحهم، وبدأوا بالتقدم شيئا فشيئا باتجاه مركز تجمع القوات الجزائرية المشرف على ميدان المعركة.[1]

بعد تضييق الخناق على القوات الجزائرية من طرف الإسبان، حاولت مجموعة من الجيش الجزائري مكونة من 2000 جندي فك الحصار، والانقضاض على ميمنة الجيش الإسباني والسيطرة على المنبع الذي كانوا يتزودون منه بالماء، وهذا ما أوقع الإسبان في ورطة كبيرة[2]، جعل قائد القوات الإسبانية دي مونتيماريا يأمر إحدى فرقة الحربية المكونة من 400 جندي بقطع خط العودة على القوات الجزائرية والانقضاض عليها، إلا أن فطنة قائد الفرقة الجزائرية حالت دون وقوع خسائر بين صفوف الجزائريين الذين احتموا بالمرتفعات القريبة، ووصلوا بسلام لمركز تجمع القوات الجزائرية.[3]

4-2-المعارك النهائية واحتلال المدينتين.

بتاريخ 07 محرم 1145هـ/30 جوان 1732م، استطاع الجزائريون تكبيد الإسبان خسائر بشرية فادحة كان على رأسها مقتل قائد ميسرة جيشهم والكثير من جنوده، وقد تمكن خلالها البارون ريباد اختراف الجيش الإسباني الذي أصبح في وضعية كارثية، كانت تنذر باقتراب هزيمته[4]، إلا أن القيادة الإسبانية رأت من الضرورة إشراك كامل وحداتها القتالية في هجوم موحد ضد الجيش الجزائري[5]، وفي نفس الوقت بادر أحد قادة الجيش الإسباني بخطوة فريدة أربكت الجزائريين وشتّت شملهم، حيث استطاع تسلق التل الواقع في الجهة اليسرى من المعركة وشن هجوما مباغتا ألحق به خسائر بشرية فادحة بالجيش الجزائري، الذي اضطر البعض منه الانسحاب أمام الضربات المتلاحقة التي تلقاها على يد الإسبان، ما جعل أيضا الكثير من المتطوعين يفضلون الانسحاب بدل الموت بنيران المحتلين، الذين استطاعوا بهذه الاستراتيجية أن يبسطوا سيطرتهم على كامل المدينة ومعها المرسى الكبير يوم 01 جويلية 1732م.[6]

بعد هذا الانهيار المريع للقوات الجزائرية التي تركت المدينتين لهمجية ووحشية المحتلين الإسبان، حاول الداي عبدي باشا إرسال مجموعة من الجيش تعدادها حوالي 2000 جندي، حيث كان أمر المعارك قد حسم

1 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 446.
2 – بوحفص تجاجنة: المرجع السابق، ص55.
3 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 446.
4 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 482.
5 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 446.
6 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 482.

نهائيا، وتشتت شمل الجزائريين الذين أصيبوا بخيبة أمل لم يسبق لها مثيل منذ تأسيس الإيالة الجزائرية[1]، وكان أكبر المتأثرين عبدي باشا، الذي اعتزل في بيته أسفا وحزنا على ضياع المدينتين، إلى أن توفي يوم 03 سبتمبر 1732م[2]، أما مصطفى بوشلاغم فكان تأثره أكبر من ذلك بكثير، ومع ذلك لم ييأس وحاول الاستنجاد بقبائل بني عامر إلا أنها خذلته ورفضت التعاون معه، حيث فضل قادتها الدخول تحت طاعة المحتلين الإسبان مرة أخرى، لينتقل فيما بعد إلى مدينة مستغانم التي اتخذها كعاصمة لبايلك الغرب، إلى أن توفي "رحمه الله تعالى" ودفن بمنطقة المطمر.[3]

وهكذا أسفرت المعارك على نهاية مأساوية للجزائريين الذين أعطوا الفرصة للإسبان من أجل احتلال المدينتين بعد 24 سنة من تحريرها، لتعم الأفراح كامل الإمبراطورية الإسبانية وعموم أوروبا، التي قرر حاكمها قرع طبول الفرح ابتهاجا بهذا النصر الذي أعاد هيبة ومجد الإسبان، الذين استطاعوا الانتقام من هزيمتهم التي تلقوها على يد الجزائريين سنة 1120هـ/1708م.

5-نتائج الحملة الإسبانية.

1- أدت الحملة الإسبانية على وهران والمرسى الكبير إلى توتر حاد في العلاقات الجزائرية الفرنسية، وذلك راجع إلى الاتهامات التي وجهتها الجزائر إلى فرنسا بمساعدة الجيش الإسباني* المحاصر بوهران حيث تأكدت الاتهامات الجزائرية من خلال اعتراف بعض الأسرى الفرنسيين الذين وقعوا بيد الجزائريين أثناء حصار وهران زيادة على ضبط بعض السفن الفرنسية وهي تحمل المؤن للجيش الإسباني.[4]

ولذلك بعث الداي إبراهيم باشا (1651–1659م) برسالة شديدة اللهجة فيها الكثير من اللوم والتأنيب للكونت دي موريبا على مساعدة إسبانيا وخذلان الجزائر التي كانت تقدم المساعدات لفرنسا في كل مرة، فيما تقابلها فرنسا بالغدر والركون لبني جلدتها رغم خلافاتهما، ومما خاطبه به الداي إبراهيم:«... إنه واضح مثل النهار أن الانتصار الذي حققه الإسبان في وهران التي فاجؤوها، لم يحققوه سوى بفضلكم عن طريق القوات والذخائر التي زودتموهم بها، إن صداقة معلنة، مقرونة بعداء مضمر لا يبشر بخير... فعندما فاجأ الإسبان وهران

1 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص ص 447، 448.

2 - *Grammont, (H.de) : Histoire…, op.cit, p 236.*

3 – الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص 256؛ أحمد بن عبد الرحمان الشقراني الراشدي: المصدر السابق، ص69.

* – لم تكن هذه المرة الأولى التي تقوم فيها فرنسا بالتآمر على الإيالة الجزائرية، بل بدأت هذه المؤامرات منذ القرن السادس عشر على الرغم من إمضائها معاهدة الامتيازات مع الدولة العلية بين فرانسوا الأول وسليمان القانوني سنة 1536م، إلا أن فرنسا دائما ما تحيك المؤامرات ضد الجزائر على الرغم من عدائها المستمر مع إسبانيا.

4 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 484.

كنتم قد ساعدتموهم بـ 4 أو 5 آلاف رجل مسلح تسليحا جيدا، لقد أخذنا عددا من الأسرى في وهران وثبت أنهم فرنسيون، وإذا أنكرتم هذا فإننا نرد عليكم بكونه من المستحيل وجود عدد كبير من الجنود مسلحين تسليحا جيدا في خدمة دولة أجنبية بدون موافقة أميرهم أو على الأقل وزيرهم...».[1]

لما تأكدت الجزائر من خيانة فرنسا لها، خاصة أن هذه الأخيرة كانت لديها امتيازات بالجزائر لا يمكن التفريط فيها لصالح أي دولة أخرى، ولذلك استغل الداي إبراهيم الذي عرف عنه الذكاء والمكر هذه الفرصة وأخذ يمنح القنصل الإنجليزي امتيازات واسعة بقصد التأثير على الفرنسيين الذين كانوا يدركون مساعي الإنجليز الرامية لأخذ مكانتهم والحصول على الامتيازات التي كانت فرنسا تستأثر بها في الجزائر، وبذلك حدث تقارب جزائري إنجليزي بعد هذه الحملة.

2- تكبدت القوات الإسبانية خسائر مادية وبشرية هائلة منها: حوالي 1500 قتيل و2200 أسير.

3- إعادة احتلال مدينتي وهران والمرسى الكبير من طرف الإسبان بعد تحريرهما لمدة 24 سنة، وقد اتخذ الإسبان منهما قاعدة لانطلاق حملاتهم العسكرية في حوض المتوسط أو في دواخل البلاد في الجهة الغربية للإيالة الجزائرية.

4- أدت ممارسات الإسبان الجائرة بالكثير من سكان المدينتين للفرار، أما في البوادي فإن كثرة الغارات جعلتهم يغادرون مضاربهم والانتقال إلى مناطق أكثر أمنا.

5- خلفت القوات الجزائرية المنسحبة من المدينتين الحصون سالمة، والمدافع والاستحكامات، استغلها الإسبان في معاركهم ضد الجزائريين الذي ارتكبوا خطأ فادحا بعدم تحطيمها.

6- انتقال عاصمة البايلك إلى مدينة مستغانم المجاورة، لتكون قاعدة حكم مصطفى بوشلاغم ومركزا لهجماته القادمة ضد الإسبان.

7- عودة القبائل العميلة للإسبان إلى طبيعتها القديمة والدخول في خدمتهم ضد بني جلدتهم من الجزائريين، وإقامة علاقات تجارية وودية معهم، وأبرز هذه القبائل: قبيلة بني عامر.[2]

8- سادت موجة من الحزن في كامل أنحاء الإيالة الجزائرية على فقدان وهران والمرسى الكبير[3]، وقد كان أكثر المتأثرين الداي عبدي باشا الذي كان يعتبر نفسه السبب المباشر في هذه النكسة التي حلت بالجزائر لأنه تأخر في إرسال الدعم لمصطفى بوشلاغم، لذلك اعتزل حتى وفاته.

1 – جمال قنان: المرجع السابق، ص217.

2 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص484.

3 – ج.أو.هابنسترايت: المصدر السابق، ص104.

9- ابتهجت كامل أوروبا بهذا الانتصار الذي أعاد لها جزءا من هيبتها التي فقدتها على يد القوات الجزائرية سنة 1708م بقيادة حسن أوزان ومصطفى بوشلاغم، وأقيمت الأفراح بهذه المناسبة واستقبل الكونت مونتيمار استقبال الأبطال، ونُقش اسمه على ميدالية برونزية رفيعة سنة 1735م.[1]

6-العوامل المساعدة في احتلال الإسبان للمدينتين.

1- قوة الإسبان وتحضيرهم الجيد لهذه الحملة، آخذين في الاعتبار الخطأ المرتكب سنة 1708م، لأن مشاكلهم الداخلية حالت دون مساعدة الحامية الإسبانية بوهران والمرسى الكبير، فإسبانيا لم تكن لها هذه المرة مشاكل تعيق إنجاح الحملة.[2]

2- الفارق الكبير بين القوتين عدة وعتادا، فقد استفادت القوات الإسبانية من التطور الحاصل في أوروبا خاصة من خبراء الجيش الفرنسي في الميدان الحربي، فكانت هذه الحملة تعبيرا عما وصلت إليه أوروبا من تطور مذهل في ذلك الوقت في مجال الصناعة الحربية، فيما كانت القوات الجزائرية تراوح مكانها ولم تحاول تطوير نفسها.

3- خيانة قبائل بني عامر للباي مصطفى بوشلاغم وقواته المدافعة عن المدينتين، ولعلهم تذكروا ما فعله بهم في حصاره لوهران سنة 1704-1708م فحاولوا الانتقام منه والتعاون مع الإسبان نكاية فيه.

4- مواجهة الباي مصطفى بوشلاغم العدوان الإسباني بقواته والمتطوعين من أهل المنطقة فقط، بدون تدخل السلطة المركزية بالجزائر التي كانت تعيش دوامة من الصراعات على الحكم وامتيازاته، أبطالها الجيش الإنكشاري، فكان من الصعوبة مواجهة هذه الأرمادة الإسبانية بهذه القوة البسيطة.

5- الخطأ العسكري الفادح الذي ارتكبه الباي مصطفى بوشلاغم، وعدم تخريبه لحصون المدينة فعندما دخل الإسبان وجدوها جاهزة واستعملوها في تحصين مواقعهم وتدعيمها، بالإضافة إلى تركه المدافع التي استعملت ضدهم في المعارك.[3]

7-الصراع الجزائري الإسباني على وهران بعد نكسة 1145هـ/1732م.

بالرغم من احتلال الإسبان للمدينتين، إلا أن المصادر التاريخية لم تذكر لنا أي معاهدة أمضاها مصطفى بوشلاغم يتم بموجبها التنازل عن وهران و المرسى الكبير، أو فرض شروط معينة، مثلما يحدث دائما في مثل هذه المعارك التي تنتهي بإمضاء معاهدة استسلام، وهو في الحقيقة موقف يحسب للباي، ولذلك يعتبر أن انسحابه

1 -*Berbrugger (A): op.cit, p27.*

2 - جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص401.

3 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص55.

ضرورة أملتها عليه الظروف الخاصة التي كان يمر بها، وعدم قدرته على مواجهة المد الإسباني بقوات قليلة العدة والعدد في غياب كلي للمساعدات، سواء من طرف السلطة المركزية بالجزائر، أو من طرف الدولة العلية حامية الإسلام والمسلمين.

حاول مصطفى بوشلاغم الانسحاب إلى الجبال القريبة من المدينتين، مفضلا عدم المغامرة ببقية قواته التي فقد منها الكثير[1]، متبعا استراتيجية الإنهاك التدريجي لقوات الخصم، بفرض الحصار وقطع طرق التموين وخوض المعارك الخاطفة والمفاجئة في نفس الوقت لإلحاق أكبر قدر ممكن من الخسائر في صفوف العدو وإدراكا من إسبانيا لخطورة هذه الاستراتيجية، جاءت أوامر ملكية لحاكم وهران الجديد فيلاداریاس تأمره بالبقاء داخل أسوار المدينتين وعدم المغامرة بالجيش والاشتباك مع القوات الجزائرية.[2]

اتبع الباي مصطفى بوشلاغم هذه الاستراتيجية مدة سنة تقريبا استطاع من خلالها إنهاك القوات الإسبانية، وكبدها الكثير من الخسائر المادية والبشرية، ففي 4 أكتوبر 1732م حاول الإسبان إدخال المؤن إلى حصن سانتاكروز إلا أن القوات الجزائرية قامت بهجوم مباغت وسريع على القوات الإسبانية التي لم تستطع تموين الحصن إلا بعدما أنهكتها المعارك ضد الجزائريين وتكبدوا خسائر فادحة.[3]

مواصلة للمحاولات الرامية لتحرير المدينتين عاود الجزائريون بعد شهرين هجومهم على وهران ووصلوا إلى أبوابها يتقدمهم الباي مصطفى بوشلاغم رفقة ابنه، وخاضوا معارك ضارية أسفرت عن استشهاد ابن الباي* بالإضافة إلى بعض الخسائر في صفوف الجزائريين[4]، وفي 12 نوفمبر اندلعت معارك أكثر ضراوة من سابقاتها استطاع فيها الباي مصطفى بوشلاغم الانتقام لاستشهاد ابنه وكبد الإسبان خسائر بشرية فادحة، يأتي على رأسها مقتل الماركيز دي ميرو سنيل رفقة خيرة ضباطه المتعاونين معه وجمع كبير من الجيش الإسباني[5]، ليواصل الإسبان محاولات فك الحصار، ففي يوم 21 نوفمبر حاولت القوات الإسبانية الخروج من وهران بقوة يقارب

---

1 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 448.

2 – بوحفص تجاجنة: المرجع السابق، ص 58.

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 483.

* – إن خوض ابن الباي المعارك رفقة أبيه إنما يدل على أن هؤلاء العثمانيون كان هدفهم هو حماية أراضي الإسلام والدفاع عنها بكل ما أوتي من قوة رفقة السكان المحليين الذين كانوا يتساوون معهم في هذه المهمة، ولم يكن دائما هدفهم المناصب والاستئثار بها رفقة عائلاتهم وأتباعهم كما يروج ذلك أتباع المدرسة الكولونيالية والمدرسة المشرقية التي تنتقد كل ما هو عثماني وتصفهم بالمحتلين، فقد ضرب هؤلاء أروع الأمثلة في الشجاعة والإقدام على أرض الجزائر وليس غريبا على هؤلاء هذه الصفات لأن أجدادهم عروج وإسحاق وخير الدين والباي شعبان... كانوا مثالا وقدوة لهم في الدفاع عن الإسلام وأرض الجزائر.

4 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 448.

5 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 56.

عددها 6800 جندي، إلا أنها جوبهت بمقاومة شديدة من طرف القوات الجزائرية تكبد فيها ا الإسبان خسائر فادحة تمثلت في 565 قتيل من مختلف الرتب العسكرية السامية في الجيش بالإضافة إلى 1523 جريح[1]، وهي خسائر لم يكن يتوقعها الإسبان تماما إلا أن الهجمات الخاطفة والتخطيط الجيد هو الذي فاجأ الإسبان وكبدهم هذه الخسائر.

واصلت القوات الجزائرية مسعاها الرامي لطرد المحتلين، لذلك قامت بتاريخ 10 جوان 1733م بشن هجوم مباغت على مدينة وهران قتل فيه قائد الحامية ليواصل مصطفى بوشلاغم الانتقام من الإسبان، فقاد هجوما بنفسه في نفس السنة محاولا استرجاع مركز العيون الموجود بالقرب من وهران، ووصل إلى أبواب المدينة ولم يستطع تحريرها[2]، وهكذا بقي مصطفى بوشلاغم يقاوم الإسبان ويحاول طردهم من وهران والمرسى الكبير، وكأنه كان يلوم نفسه على ضياعهما لذلك بقي مصمما على استرجاعهما، لكنه لم يحقق أمنيته في حياته لأنه توفي سنة 1733م بمستغانم.

ثانيا: الصراع الجزائري الإسباني ما بين 1146-1200هـ/1733-1786م

المبحث الأول: الحملة العسكرية الإسبانية لاحتلال مدينة الجزائر سنة 1189هـ/1775م

مع بداية تراجع القوة العسكرية داخل أوروبا وخارجها، ارتأت القيادة السياسية والعسكرية للإمبراطورية الإسبانية ضرورة المحافظة على المدن المحتلة وعدم المغامرة بحملات جديدة تزيد التكاليف المالية ولا تحقق أي طائل من ورائها، لذلك لم يوجه الإسبان أي حملة عسكرية لاحتلال مدينة الجزائر طيلة القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر الميلاديين، واكتفوا بإعادة احتلال مدينتي المرسى الكبير ووهران، إلا أن دوام الحال من المحال لمن سار على طريق الظلم والتعدي والاحتلال، لذلك اجتمعت القيادة الإسبانية من سياسيين وعسكريين واتخذت قرارا بالإجماع يقضي بضرورة إعادة احتلال مدينة الجزائر عاصمة الإيالة والقضاء على أسطولها لوقف خطره المتزايد على الأهداف الإسبانية، خاصة بعد فشل الأسطول الدنماركي في الحد من خطره بعد حملته الفاشلة على المدينة سنتي 1770 و1772م[3]، اللتان لم تحققا أي طائل من ورائهما، فقد حاولت القيادات الأوروبية لعب نفس الدور الذي لعبته السلطات الإسبانية والرامي للقضاء على الإيالة الجزائرية واحتلالها، وتدمير أسطولها البحري.

---

1 - جمال قنان: المرجع السابق، ص169.

2 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 448.

3 - ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر-الفترة الحديثة والمعاصرة-، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 156.

كانت هذه الحملة الإسبانية أهم حملة عسكرية أوروبية خلال القرن الثامن عشر على الإيالة الجزائرية، لأن السلطات الإسبانية حشدت لها كامل الدعم من أجل إنجاحها، بتوجيه مباشر من قادة الكنيسة الكاثوليكية المتعطشين لرؤية مدينة الجزائر بيد الاحتلال المسيحي الكاثوليكي، واضعين نصب أعينهم الانتقام من سكانها الذين أذاقوا شارلكان هزيمة نكراء جعلته يندم على اليوم الذي فكر فيه في توجيه حملة عسكرية لاحتلال المدينة، لتنتهي حياته بعد هذه الهزيمة المذلة في كنيسة يوست «Yuste» ندما وأسى على ما لحق به من ذل وعار لازمه منذ سنة 1541م إلى غاية اعتزاله الحكم، والتنازل عنه لابنه فليب الثاني.[1]

1-أوضاع الإيالة الجزائرية والإمبراطورية الإسبانية قبيل الحملة

1-1-أوضاع الإيالة الجزائرية

عرفت الإيالة الجزائرية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي العديد من الإصلاحات الداخلية وتغيير السياسة الخارجية، بعد أن تولى حكمها الداي محمد بن عثمان باشا سنة 1180هـ/1766م خلفا للداي علي بوصبع، فقد كان الداي محمد بن عثمان باشا يطمح لإعادة الهيبة للدولة، التي ضاعت بسبب الفوضى الداخلية الناتجة عن الصراع حول الحكم والاستئثار بمزاياه، زاد الطين بلة التدخلات الخارجية من طرف الدول الأوروبية الراغبة في احتلال الإيالة، خاصة الاحتلال الإسباني الذي أراد الداي تصفيته نهائيا، وإكمال مشروعه الرامي لتوحيد تراب الإيالة الجزائرية، لثاني مرة بعد نكسة احتلال وهران والمرسى الكبير سنة 1145هـ/1732م، ليتسنى له بعد ذلك تنفيذ مشروعه الحضاري للنهوض بالإيالة الجزائرية.[2]

بدأ الداي محمد بن عثمان باشا إصلاحاته الداخلية، بتوليه المناصب السامية للرجال الذين تتوفر فيهم الكفاءة والنزاهة والولاء سواء المتعاونين معه مباشرة أو الذين يديرون شؤون البايليكات الثلاثة، فكان لا يتهاون مع كل من لا يقوم بواجبه مهما كان، وبدون تردد، خاصة ضباط الإنكشارية الذين كانوا عادة ما يحيكون المؤامرات ضد كل من يحد من نفوذهم وامتيازاتهم، لذلك بادر بالتقليل من عددهم، وعزل رؤوسهم وتشتيت شملهم وإرغامهم على اتباع النظام وعدم التهاون في ذلك، وأمر بتطبيقه على كل من يحاول تجاوزه؛ ومن ذلك أنه منعهم من حمل السلاح أثناء التجول بالمدينة؛ رغبة منه في رفع الظلم عن الرعية، وعدم إزعاجها*، هذا ما ألب

---

1 – شكيب بن حفري:" العلاقات الإسبانية الجزائرية في القرن الثامن عشر ميلادي من خلال مخطوط عثماني"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، ع1، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2002، ص 125.

2 – جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص 403.

* – نحن بدورنا نتساءل لماذا تأخر حكام الإيالة في فرض هذا النظام طوال المدة السابقة؟ على الرغم من عشرات الحالات التي تم فيها اغتيال الحكام نتيجة هذا التسيب في مقر الحكم، وراجع ربما لضعف الحكام السابقين الذين كانوا يُتحكم فيهم من طرف الإنكشارية لأنهم هم من عينوهم فيبدون ضعفاء أمامهم، بالإضافة إلى فقدان حكام الإيالة الجزائرية لبروتوكولات الحكم كما كان يحدث في سائر دول أوروبا.

عليه رؤساء الإنكشارية الذين حاولوا مرارا قتله والتخلص منه، إلا أن الداي محمد بن عثمان تفطن لحيلهم ومؤامراتهم، وواصل التصدي لهم، لذلك قرر لأول مرة منذ تأسيس الإيالة الجزائرية منع دخول أي شخص يحمل السلاح لقصر الداي، بالإضافة إلى إعطاءه الأوامر بتفتيش كل من يريد الدخول إليه، إلا موظفي الحكومة وضباط حراس القصر المقربين منه[1]، هذا من جهة، ومن جهة ثانية حاول استعمال اللين والمهادنة مع بعض القبائل المتمردة عن السلطة المركزية لإخضاعها للنظام والاستفادة من خبرة مقاتليها في مواجهة الأخطار الخارجية المتزايدة، وتوحيد الجهود الداخلية في البناء والتعمير بدل تشتيتها في حروب لا طائل منها ولا فائدة من ورائها، شريطة التزام كل واحد بواجباته تجاه الآخر، إلا أن بعض القبائل رفضت هذه السياسة وأعلنت تمردها وعدم دفع الضرائب للسلطة المركزية كقبيلة فليسة بجبال جرجرة، وبعض قبائل بجاية التي رفضت دفع ما قيمته 30 بوجو سنويا كضرائب عليها، هذا ما اضطر الداي محمد بن عثمان لاستعمال القوة معها لإخضاعها لسلطان الدولة وقوانينها.[2]

بالموازاة مع محاولته فرض هيبة الدولة داخليا، حاول أيضا الداي محمد بن عثمان باشا فرض احترامه وسلطته مع الدول الأوروبية، وذلك برفع قيمة الضرائب على سفن الدول التي لها معاهدات سلام مع الإيالة كالبندقية وهولندا والسويد، فيما فضل نقض الصلح مع الدنمارك سنة 1181هـ/1767م، بسبب رفض سلطانها تقديم الهدايا المفروضة عليها، والتنصل من المعاهدة الممضاة سابقا[3]، وردا على هذه الخطوة التي قام بها الداي محمد بن عثمان باشا قررت السلطات الدنماركية تجهيز حملة عسكرية لاحتلال مدينة الجزائر، إلا أن هذه الحملة فشلت فشلا ذريعا بعد 11 يوما من القصف، الذي تصدت له الدفاعات الجزائرية بكل حزم وقوة[4]، هذا ما اضطر الدانماركيين للرضوخ لشروط الداي* بعد توسط سلطات الدولة العلية العثمانية لديه وإقناعه بضرورة إبرام معاهدة جديدة معهم[5]، تماشيا والعلاقات الحسنة بينها وبين الدنماركيين الذين أرسلوا الأميرال هوسلاند «Hosland» لتوقيع المعاهدة مع الداي محمد بن عثمان باشا سنة 1182هـ/1772م[6]، فيما حاول الحفاظ على

1 – بوحفص تجاجنة: المرجع السابق، ص63.

2 – بلبراوات بن عتو: الداي محمد بن عثمان باشا وسياسيته...، المرجع السابق، ص ص 92، 94.

3 – مجموعة 3190، ملف A19، المكتبة الوطنية الجزائرية.

4 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ص 40، 41.

* – من أهم هذه الشروط دفع 50 ألف سكين، و4 مدافع من البرونز، و400 قنبلة و500 قنطار بارود و500 صارية للأشرعة، وكميات معتبرة من الأخشاب ومواد البناء، والعديد من الحبال الضخمة، ودفع جميع الهدايا المترتبة على السنوات الماضية أثناء قطع العلاقات...، بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص 100؛ عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص526.

5 – مجموعة 3190، ملف 16، المكتبة الوطنية الجزائرية.

6 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 524.

هدوء العلاقات بينه وبين السلطات الفرنسية والإنجليزية بسبب قوتي الدولتين اللتان لم يكن يريد الدخول معهما في خلافات تعيق جهوده في تحرير مدينتي وهران والمرسى الكبير.

إذن هذه الخطوات الهامة التي اتخذها الداي محمد بن عثمان باشا من أجل الرّقي بالإيالة الجزائرية، التي بدأ يصيبها الضعف والوهن، حاول فرض سلطة الدولة خدمة للبلاد والعباد، وذلك بإسناد المناصب العليا إلى من يستحقها ومن يخشى الله في الرعية، ويقوم بخدمتها والسهر على رعاية مصالحها والدفاع عنها داخليا من الظلم والجور وخارجيا من الاحتلال والأعداء، حتى قال فيه الزهار: «... **وكان رحمه الله مؤثرا للعدل والإنصاف عارفا بقوانين الملك ملتزما بأحكام الشريعة المطهرة، وكان يحب الجهاد**...».[1]

1-2-أوضاع الإمبراطورية الإسبانية.

حكم الإمبراطورية الإسبانية خلال الفترة الممتدة من 1172-1202هـ/1758-1788م الإمبراطور كارلوس الثالث، الذي تبنى مشروعا طموحا للنهوض ببلاده، والرقي بها لمصاف الدول الأوروبية القوية، خاصة فرنسا وإنجلترا، لذلك قام بعدة إصلاحات مست جميع القطاعات الحساسة، كالمالية والصناعة والفلاحية وأعطى أهمية بالغة لإعادة بناء الأسطول البحري وتجديده، وذلك ببناء سفن جديدة وإسناد القيادة لجيل جديد يستطيع إعادة أمجاد الإمبراطورية الإسبانية الضائعة، ولذلك لقب بعد عشرة سنوات من بداية إصلاحاته بلقب "الطاغية المسنير"[2] نظير جهوده التي بذلها في سبيل إعادة الهيبة للإمبراطورية وفرض سلطان القانون داخليا، وإعادة الاعتبار لها خارجيا، لذلك وما إن استطاع تأمين الجبهة الداخلية بعد نجاح إصلاحاته حتى عزم على توجيه أنظاره إلى الإيالة الجزائرية التي كانت تمثل له الخطر الأكبر الذي يجب إنهاءه والتخلص منه، وهذا ما جعله يأمر مساعديه في التحضير لحملة على مدينة الجزائر ابتداء من سنة 1188هـ/1774م من أجل احتلالها والقضاء على مركز الجهاد البحري في المتوسط "مهد القرصنة"، معتمدا في ذلك على خطة تقضي بمهاجمتها في أسرع مدة ممكنة.

2-الاستعدادات الإسبانية والجزائرية للحملة.

2-1-الاستعدادات الإسبانية.

تماشيا والتحضيرات التي بدأتها السلطات الإسبانية من أجل القيام بحملة على مدينة الجزائر، أصدر الملك كارلوس الثالث أمرا إلى كافة قادة ومسيري الموانئ الرئيسية بإسبانيا بضرورة الاستعداد جيدا للمساهمة في إنجاح

---

1 - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص37.

2 - جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص 403.

الحملة، وذلك باتخاذ جميع التدابير اللازمة التي تساعد على تجهيز الأسطول الحربي في أحسن حال، وذلك باتباع الخطوات التالية:

- توفير كل سبل الراحة للجنود والعاملين بالأسطول.
- المساهمة بفعالية في تجميع قطع الأسطول بأسرع ما يمكن وفي أحسن الظروف.
- توفير المؤن الضرورية.
- توفير العتاد الحربي وسفن النقل.
- تجنيد المتطوعين والراغبين بالمشاركة في هذه الحملة.
- ترصد أي حركة عدائية قد تعطل تأخر انطلاق الأسطول.
- وقد استمرت هذه التحضيرات طيلة شهر جوان 1775م.[1]

تكون الأسطول الإسباني من 500 سفينة حربية، منها 50 سفينة كبيرة، 20 بارجة، 20 مدمرة، 7 مراكب من نوع شباك و344 سفينة مزودة بـ 100 مدفع*، أما عدد الجنود فقد قدر بحوالي 20 ألف جندي و600 مدفعي و300 فارس، و3500 بحارا[2] وقد أسندت قيادة الأسطول للأميرال الإيرلندي أليخندرو أورللي «Algandro O'reilly»، فيما أسندت قيادة الجيش البري للقائد بيدرو كاستيخون « Don Pedro Castejon»، لتنطلق الحملة باتجاه مدينة الجزائر يوم 23 جوان 1775م، حيث وصلت إلى سواحل المدينة يوم 30 جوان.[3]

2-2-الاستعدادات الجزائرية.

أخذ الجزائريون العبر والدروس من الحملات الإسبانية السابقة، خاصة مأساة احتلال مدينتي وهران والمرسى الكبير سنة 1145هـ/1732م من طرف الإسبان، لذلك حالوا ترصد أي حركات مريبة تستهدف الإيالة

---

1 - تومي الطاهر: "حملة الكونت أورللي على مدينة الجزائر سنة 1775م"، الحوار المتوسطي، مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، ع13-14، ديسمبر2016م، ص260.

* - أما المصادر المحلية والمراجع فقد تقاربت في إعطاء نفس الأرقام تقريبا 20 ألف جندي و500 سفينة حربية، أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 42، مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص1، محمد أبوراس الناصري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، دراسة وتحقيق بوركبة محمد، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011م، ص 338.

2 - جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص 403، فيما ذكر جيمس ولسن ستيفانس أن عدد القوات كان 25447 شخص بما فيهم المشاة، الخيالة، الفرسان، رجال المدفعية...وغيرهم، أما السفن وتجهيزاتها فكانت 6 سفن كبيرة، 12 فرقاطة 9 شباك، 24 سفينة من نوع آخر، 176 قطعة مدفع و2 مدافع هاون ...جيمس ولسن ستيفانس: الأسرى الأمريكان في الجزائر، 1785-1797 م، ترجمة، علي تابليت، منشورات تالة، الجزائر، 2008 م، ص ص58، 59.

3 - مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص2.

الجزائرية، وهذا ما حدث خلال هذه الحملة، التي علمت بها القيادة الجزائرية مبكرا، بعد علم عن طريق جواسيسها الذين قاموا بواجبهم على أكمل وجه وفي الوقت المناسب أيضا، هذا ما كان مدعاة للداي محمد بن عثمان باشا لإصدار أوامره وإعلان النفير العام في كل تراب الإيالة، داعيا الناس للمشاركة في الجهاد والدفاع عن الدين والعباد والبلاد، ونسيان خلافاتهم واختلافاتهم مهما كانت، حتى أنه سمح للأطفال الصغار الدين تتجاوز أعمارهم السبعة سنين بالمشاركة في بناء القلاع والأبراج.[1]

قرر الداي محمد بن عثمان باشا تنظيم المقاومة في المدينة بطريقة تسمح بمواجهة الحملة الإسبانية في أحسن الظروف، حيث تم توزيع المقاتلين إلى عدة فرق، وعين على كل فرقة قائد وعدة مساعدين له، من أجل التنسيق فيما بينهم، وبين بقية الفرق الأخرى والقيادة المركزية للمقاومة، وقد قدر عدد المقاومين بحوالي 11897 مقاتل، منهم حوالي 9322 مقاتلا قادرا على المشاركة بفعالية في المعارك، حيث تم توزيعهم على 424 فرقة موزعة على 8 ثكنات بالمدينة[2]، ليقرر بعدها توجيه أوامره إلى قيادة البايليكات بضرورة المشاركة في التصدي للحملة الإسبانية، وهذا ما استجاب له على وجه السرعة باي قسنطينة الذي كانت قواته مرابطة ناحية منطقة حمزة- البويرة حاليا- وهذا ما نقله لنا محد الطاهر بن أحمد بقوله: «...**فأخذ صالح باي المخازنية والعتاد والمشايخ والدواير والصبايحية وكل من أراد الجهاد من الطلبة والمرابطين وتوجه إلى الجزائر...**»[3]، ليوجه بعدها أوامره أيضا إلى باي التيطري، وخليفة باي الغرب بضرورة المسارعة في القدوم لمدينة الجزائر، فيما طلب من باي الغرب الجزائري البقاء لتشديد الحصار على مدينة وهران، حتى يعيق تحرك القوات الإسبانية، إن قرر قائدها مساعدة قوات بلاده في احتلال مدينة الجزائر أو مهاجمة مدينتي مستغانم وتلمسان.[4]

3-الاستراتيجية العسكرية الجزائرية في مواجهة الحملة الإسبانية.

3-1-تنظيم المقاومة بالمدينة.

تفاديا لأي مفاجئة غير سارة، قرر الداي محمد بن عثمان باشا تنظيم المقاومة بطريقة تسمح بالتصدي بكل حزم وقوة للقوات الإسبانية المهاجمة، حيث وزع قواته إلى خمس مجموعات، وكلف كل واحدة منها بمهمة خاصة بها، من أجل تفادي أي تداخل في المهام والصلاحيات بين المجموعات وقياداتها، حيث كان التوزيع كما يلي:

---

1 – مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص2.

2 – ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 157.

3 – محمد الطاهر بن أحمد: ذكر طرف ولاية المرحوم السيد صالح باي أمير ببلدة قسنطينة، مخطوط المكتبة الوطنية، تونس، رقم 263، ص22.

4 – ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص26.

- مجموعة المقاومة والجهاد الأولى: عين على رأسها حسن الخزناجي، أعطيت لها الأوامر بالمرابطة بعين الربط-الحامة حاليا-ووادي الخنيس تتكون من 40 خباء "فيصل أو سرية" في كل خباء 30 مقاوما، فكان مجموع المجاهدين بهذه المجموعة حوالي 1200 مجاهدا، بين جنود نظاميين ومتطوعين.
- مجموعة المقاومة والجهاد الثانية: عين على رأسها علي آغا-آغا العرب-أعطيت لها الأوامر بالمرابطة في واد خنيس-العناصر حاليا-، تتكون من 40 خُباء، في كل خُباء 30 مقاوما، فكان مجموع المجاهدين بهذه المجموعة حوالي 1200 بين جنود نظاميين ومتطوعين.
- مجموعة المقاومة والجهاد الثالثة: كان على رأسها مصطفى خوجة –خوجة الخيل-، ومركز رباطها باب الواد، تتكون من 200 خُباء، في كل خُباء 30 مقاوما[1]، فكان مجموع المجاهدين بها حوالي 600 ما بين جنود نظاميين ومتطوعين. [2]
- مجموعة المقاومة والجهاد الرابعة: تحت إمرة مصطفى باي-باي التيطري-أعطيت لها الأوامر بالمرابطة في منطقة تمنفوست، وقد كانت هذه المجموعة في أغلبها مكونة من المتطوعين من القبائل وفرسان سباو.
- مجموعة المقاومة والجهاد الخامسة: أسندت قيادتها لخليفة باي الغرب، بمؤازرة بعض قوات حسن الخزناجي المقدرة بـ 4 آلاف فارس من قبائل الدواير، التي طلب منها حماية الجهة الغربية من رباط عين الربط – لحامة-.[3]

3-2-القوات المرابطة حول المدينة.

حاول الداي محمد بن عثمان باشا وضع كل القوات المقاومة من البايليكات حول المدينة ولم يغامر بإدخالها كلها، تفاديا لإنهاك قواها ورفع الضغط عن المقاومين داخل المدينة، حتى لا تختلط عليه الأمور ويصعب تنظيم المقاومة، لذلك أمر قياداتها بالاستعداد جيدا وعدم المشاركة في المعارك إلا إذا أعطيت لها التعليمات بذلك، خاصة وأان عدد هذه القوات كان كبيرا حينذاك حسب التقرير الذي أعده سان ديدي حول الحملة الإسبانية، والذي نقلناه بدورنا عن جمال قنان، حيث كانت موزعة كما يلي:

- بايلك الغرب: عدد القوات به 20 ألف مقاتل، موزعين بين جندي نظامي ومتطوع، قاده الخليفة نائب الباي، فيما بقي مرابطا بأرزيو لإلهاء الإسبان ومنعهم من المشاركة في الحملة، وكان عدد قواته يتراوح ما بين 30 إلى 40 ألف مقاتل.[1]

1 – مجموع هذه الأخبية 100 خباء ليكون عدد الجنود بها 3 آلاف جندي.
2- ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص ص 26، 27.
3 – مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص 01.

- بايلك التيطري: عدد القوات به حوالي 40 ألف مقاتل، فيما ذكر الجديري التلمساني رقم 20 ألف فقط[2]، وكان على رأس هذه القوات حاكم البايلك مصطفى باي.
- بايلك الشرق: عدد القوات به حوالي 40 ألف مقاتل بقيادة صالح باي حاكم البايلك.

فيما كانت بقية القوات موزعة كما يلي:

- قوات آغا العرب بمدينة الجزائر، كانت تقدر بحوالي 2000 مقاتل من العثمانيين.
- قوات حسن الخزناجي بمدينة الجزائر، كانت تقدر بحوالي 6000 مقاتل.
- وكيل قوات الحرج، كانت تقدر بحوالي 5000 مقاتل* من العثمانيين.[3]

3-3-تنظيم المقاومة بالأبراج والحصون.

سارع الداي محمد بن عثمان باشا لإعادة بناء الحصون والأبراج المهدمة وترميم القديمة منها، وتجهيزها بكل ما يلزم لتساهم في الدفاع عن المدينة، حيث قام بنصب المدافع فيها على الشكل التالي:

- برج البحرية "برج الفنار" نصب به 180 مدفعا وجهزه بكل ما يلزم.
- برج السردين، نصب به 32 مدفعا.
- برج الزوينة "البرج الجديد"، الذي قام الداي بإعادة بناءه من جديد ما بين سنتي 1187-1188هـ/ 1773-1774م، ونصب به مجموعة من المدافع، وبذلك كان يوجد من المدافع في الأبراج ما بين 250 و300 مدفع جاهزا للدفاع عن المدينة.[4]

4-مجريات المعارك.

كان وصول القوات الإسبانية إلى سواحل مدينة الجزائر ظهر يوم الجمعة 02 جمادي الثانية 1189هـ/30 جوان 1775م، هذا ما أربك القيادات الجزائرية والسكان المحليين، الذين تفاجؤوا بكثرة الجنود وعدد قطع الأسطول، إلا أن صالح باي سارع في القيام بحركة التفاف ذكية أزالت الارتباك وحمست الجزائريين في مواجهة أعدائهم، حيث تقدم جزء كبير من قواته المقدرة بحوالي 20 ألف مقاتل بالاقتراب من القوات الإسبانية بمكان غير بعيد عن الحراش حتى يعيق تقدم الإسبان، ويظهر لهم أن الجزائريين على أهبة الاستعداد للتصدي لهم، وهذا ما

---

1 - جمال قنان: المرجع السابق، ص 256.

2 -ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص 27.

* - ليكون بذلك عدد الجنود المدافعين عن المدينة يقدر بحوالي 113 ألف مقاتل ويبدو الرقم مبالغا فيه كثيرا ولا يعبر عن الحقيقة، خاصة وأن المصادر المحلية لم تتطرق بتاتا لهذا العدد الضخم.

3 - تومي الطاهر: المرجع السابق، ص263.

4 -جمال قنان: المرجع السابق، ص 256.

فهمه الأعداء جيدا، الذين أنزلوا قواتهم البرية المقدرة عددها بحوالي 20 ألف جندي بكامل معداتهم بين وادي خنيس–العناصر– والحراش.[1]

وقد وصف لنا أحد القادة الأميرال مزاريدو «Mazarrede» عملية الإنزال والظروف المحيطة بها بقوله:

«...بعد أن تجمعت الحملة في خليج الجزائر في أول جويلية طلب مني الكونت أوررللي على أساس أنني قائد الأسطول النزول إلى البر رفقة الأفواج الأولى للجيش ومعي 12 قطعة مدفعية من عيار4، ثم يليها مباشرة إنزال 12 مدفع من عيار8 بالإضافة إلى 8 مدافع من عيار 12، لتصادفنا ريح قويه في 03 جويلية مما صعب عملية الإنزال التي قرر لها 4 جويلية ونتيجة هذه الأوضاع كلفت بوضع خطة نهائية لنقل الجنود واختيار السفن التي ستحملهم إلى الشاطئ على أن تنزل قوة قوامها 7600 رجل، ليلتحق بهم بعد وقت قصير قوة تعدادها 7 آلاف رجل...».[2]

قرر الداي محمد بن عثمان باشا تطويق القوات الإسبانية من كل الجهات، خاصة بعد أن تسارع إلى البر من أجل احتلال المدينة بأقصى سرعة، وذلك اتباع استراتيجية عسكرية لمواجهة هذه الأوضاع الخطيرة، ساعده في ذلك العدد الكبير للمقاومين وكانت الخطة المتبعة في التصدي للإسبان كما يلي:

- الجهة الغربية المؤدية بين الجزائر ووادي خنيس وعين الربط (الحامة، ساحة أول ماي)، أسفل مرتفعات عين الأزرقة، قوات حسن الخزناجي تؤازرها قوات علي آغا العرب بالقرب من وادي خنيس.
- الجهة الشرقية من ساحة الحراش جنوبا: قوات صالح باي ومعه الكثير من راكبي الخيل والجمال.
- الجنوب الغربي: قوات مصطفى خوجة الخيل.
- باب الوادي: فرقة الصبايحية، لمراقبة تحركات العدو في حال تغيرت خططه وتنقل إلى الجهة الغربية لمدينة الجزائر.
- فرق زواوة: لحماية الجهة الغربية للمدينة.
- الجهة الغربية: قوات خليفة باي الغرب محمد بن عثمان الكبير.[3]

1-*Berbrugger (A): op.cit, p174.*

2- *Mazarredo (Joseph de): Expédition D'oreilly Contre Alger en 1775, R.Af, N°8, Alger, 1864, pp 255, 257.*

3 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص465.

- سهل متيجة: قوات باي التيطري إلى غاية تامنفوست (البرج البحري حاليا)، لتأمين مؤخرة المدافعين والمكلفين بإيصال المؤن، والمبادرة بالهجوم في حالة الضرورة.

مباشرة بعد أن أتم الإسبان إنزال قواتهم، بدأوا في قصف المدينة بكثافة، مركزين قصفهم على الجهة الغربية من المدينة، أين توجد قوات حسن الخزناجي، رغبة منهم في تأمين قواتهم، وفي نفس الوقت إلحاق أكبر الخسائر بالجزائريين ومدينتهم، إلا أن البطاريات والمدافع الجزائرية كانت لهم بالمرصاد، واستطاع المقاومون إعاقة تقدمهم وتطويقهم وحصارهم في منطقة صغيرة بين مرتفعات حسين داي وشاطئ البحر، بالرغم من محاولات الإسبان المتكررة الخروج من هذا النفق المظلم الذي وضعوا فيه أنفسهم.[1]

بعد المقاومة الشرسة التي أبداها الجزائريون والخطة الجيدة التي طبقوها من أجل التصدي للمحتلين، أدرك القادة الإسبان أنهم في ورطة حقيقية، لذلك حاولوا مرارا وتكرارا فك الحصار المضروب عليهم، وذلك بالهروب إلى البساتين والحقول الواقعة بين الحراش وواد خنيس، وفي نفس الوقت قام الأسطول الحربي بقصف المدينة ومراكز تجمع القوات الجزائرية طيلة ثلاثة أيام لم تكن كافية أبدا للخروج من المأزق وفك الحصار، حيث بقيت المعارك تدور بنفس المنطقة تقريبا، إلى أن استطاع عمر براقنيس أحد المدافعين عن المدينة من توجيه عدة ضربات بالمدافع، أحدثت خسائر فادحة في الحصن الذي يتواجد به الإسبان، الذين أصبحوا بعدها في مرمى المدافع والمقاومين الجزائريين[2]، هذا ما كبد الإسبان خسائر فادحة في العتاد والأرواح، حيث قتل منهم حوالي 119 ضابطا و2083 جندي، فيما أحكم الحصار على البقية، الذين أغلقت دونهم كل المنافذ وأصبح مصيرهم بين أيدي الجزائريين.[3]

4-1-عبقرية صالح باي تقضي على طموح الكونت أوريلي.

بالرغم من مرور ثلاثة أيام على بداية المعارك بين الطرفين الإسباني والجزائري، إلا أن الأمور لم تحسم لصالح أحد الطرفين، إلى أن قرر صالح باي تنفيذ خطة محكمة شتت بها شمل الإسبان وحسم المعارك لصالح الجزائريين نهائيا، فما إن حل اليوم الرابع من المعارك حتى أمر جنوده بإحضار 500 جمل* قدم بها من قسنطينة[4]، وقام بوضع الصوف فوقها وأشعل فيها النار، هذا ما حمل الإبل على الجري إلى الأمام باتجاه خناق الإسبان،

1 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص ص158، 159

2 - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 42.

3 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص530.

* -يذكرنا هذا الأمر بما فعله المرابطون في معركة الزلاقة سنة 479 هـ بقيادة يوسف بن تاشفين، عندما استنجد بهم المعتمد بن عباد ضد النصارى، فهاجموا النصارى بالإبل وكانت المعركة فاصلة أبقت الأندلس إسلامية لمدة قاربت أربعة قرون من الزمن.

4 - مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص2.

وتدميرها على رؤوسهم[1]، فيما وجه تعليماته إلى جنوده بالسير خلفها للاحتماء بها من نيران العدو[2]، زيادة على ذلك إرعابه وبث الخوف في نفوس جنوده، عند رؤيتهم هذا المشهد الرهيب، الذي لم يألفه الإسبان من قبل، وفي أثناء ذلك وصلت قوات حسن الخزناجي من الجهة الغربية وقوات خليفة باي الغرب من الجهة الجنوبية، بالإضافة إلى قوات خوجة الخيل، لمؤازرة قوات صالح باي والمشاركة في المعارك الطاحنة التي كانت تجري بين الطرفين.[3]

في اليوم الرابع درات معارك عنيفة بين الطرفين، استطاع فيها الجزائريون دخول مراكز تجمع القوات الإسبانية وتدميرها وملاحقة الجنود الفارين في كل اتجاه، أملا في النجاة والوصول إلى سفنهم، إلا أن بعدهم عن الساحل أزّم أوضاعهم، لذلك قتل الكثير، ولم ينج منهم إلا القليل الذين وصلوا إلى سفنهم بأعجوبة[4] مخلفين وراءهم مدافعهم ومعداتهم التي قدموا بها من أجل إحكام الحصار على مدينة الجزائر واحتلالها، إلا أن مساعيهم وأحلامهم ضاعت على أسوار مدينة الجزائر، وبعزيمة مقاوميها وعبقرية قادتها، الذين أمروا جنودهم بمطاردة المحتلين الإسبان أينما حلوا وارتحلوا، هذا ما كان وبالا عليهم، حيث استمرت معاناتهم إلى غاية يوم 8و9 جويلية، أين استطاع بعض جنودهم النجاة والوصول إلى الأسطول الذي ظل جاثما بالقرب من المدينة إلى غاية 24 جويلية، أملا في وصول المساعدات من إسبانيا، لإعادة المحاولة مرة ثانية، إلا أن المجلس الحربي الإسباني رفض خطة أوررلي الجديدة، ليقرر هذا الأخير إعطاء الأوامر لأسطوله بالسير إلى إسبانيا وسط خلافات لا حصر لها بين قيادته، بسبب رفض كل واحد تحمل مسؤولية فشل الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر.[5]

5-نتائج الحملة الإسبانية.

- زفت البشائر للداي محمد بن عثمان باشا وأُعلنت الأفراح، فقام بتوزيع الكثير من الأموال على السكان، وفي ذلك يقول أحمد الشريف الزهار: «... **وقعد عند باب دار ملكه ومعه خزنداره وعماله وهم يفرقون الأموال بإذنه على كل من يأتي برأس نصراني، والمقدر بـ 100 سلطاني على كل رأس**

1 – مجهول: تاريخ بايات قسنطينة، المرحلة الأخيرة، تحقيق، حساني مختار، منشورات دحلب، حسين داي، الجزائر، 1990م، ص 10؛ الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص 250.

2 – أوجين فايست: المصدر السابق، ص33.

3 – تومي الطاهر: المرجع السابق، ص266.

4 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ص42-43.

5 – حساني مختار: "شرح تنوير البصائر والأبصار في تحريض سلطان الجزائر على قتال الكفار"، **المجلة المغاربية للمخطوطات**، أعمال الملتقى الوطني للتراث المخطوط، نوفمبر 2006 م، ع4، جامعة الجزائر، الجزائر،2013 م، ص228.

بالإضافة إلى أصحاب المدافع، حتى ضاقت الأرض برؤوس النصارى والمدافع...»[1]، وهو دليل على كثرة الغنائم التي تحصل عليها الجزائريون.

- فشل الإسبان بقيادة الكونت أورللي في احتلال مدينة الجزائر وخيبة آمال الملك كارلوس الثالث في تحقيق أمنية لطالما حلم بها أجداده من الملوك، وهي إخضاع المدينة لسلطة الإسبان.
- تكبد الإسبان خسائر مادية وبشرية فادحة، فقد أجمعت المصادر المحلية على أن الإسبان تركوا وراءهم جميع عتادهم وجثث جنودهم مقطوعة الرؤوس مرمية في ساحة المعركة، وقد قدرت هذه الخسائر بـ 8 آلاف قتيل و3 آلاف جريح منهم 12 مهندسا، ومن الضباط السامين 250 ضابطا منهم كاهية الجنرال "كاتبه"[2]، فيما ذهبت رواية أخرى إلى أن عدد القتلى كان 11 ألف قتيل[3]، بالإضافة إلى 100 مدفع وجميع الآلات الحربية.[4]

أما التقارير الإسبانية فإنها حاولت التخفيف من هول الصدمة التي أصابتهم، والتقليل من الخسائر التي لحقت بهم، فالأمير جوزيف دي مازاريدو المسؤول عن عمليات الإنزال على الشاطئ حاول في تقريره التخفيف من الخسائر الإسبانية قائلا: «... **وما تركناه وراءنا على الساحل أربعة مدافع مشاة، وبعض قطع مدفعية عيار 18، بالإضافة إلى 19 رطلا من رصاص البنادق، ورامي القذائف، وبعض الأدوات، وهذه الخسائر لا تعبر عن شيء لعدد الرجال الذين كنا سنتركهم قتلى لو انتظرنا إلى الصباح...»**.[5]

وهذا التقرير في الحقيقة يعبر عن نظرة عسكري وجب عليه التحفظ في شأن إعطاء الخسائر الحقيقية والتدليل على عبقريته العسكرية، مفضلا الانسحاب على تكبد خسائر في أرواح جنوده، مع التقليل من الخسائر وعدم إظهار ذلك للعدو (الجزائريين)، وهذا في الحقيقة يعبر عن ذكاء هذا الضابط في ذلك الوقت أو لنقل هي حرب كلامية مرتبطة عضويا بالحرب العسكرية، مع أن كل القرائن تكذب قوله، فهل يعقل أنه لم يتكبد خسائر في كل المدة التي قضاها في المعارك وأدرك هذه الحقيقة في يوم واحد فقط؟

1 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص43.

2 – ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص31.

3 – مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص 02.

4 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص43.

5 - *Mazarredo (J. de): op.cit, p265.*

أما بالنسبة للخسائر البشرية* حسب الروايات الأجنبية فإنها جاءت مغايرة تماما لما أوردته المصادر المحلية ولم تتجاوز حسبهم 191 قتيل و27 جريحا من الضباط، و2088 جندي قتيل و501 جريح في صفوف الجنود.[1]

- أما خسائر الجزائريين فقد كانت ضئيلة مقارنة بحجم الخسائر التي مني بها الإسبان والمعارك التي جرت فلم تتجاوز عند بعض المؤرخين 200 شهيد[2]، أما عند البعض الآخر فقد بلغت 300 شهيد[3] فيما ذهب البعض الآخر إلى 400 شهيد، جمعوا وجعلت لهم مقبرة بالرملية إزاء عين الربط[4] (عرفت لدى العامة بحصن المجاهدين "ساحة أول ماي حاليا").
- زاد هذا الانتصار المحقق الإحساس بالفخر والاعتزاز لدى الجزائريين، والالتفاف حول قيادتهم التي قادتهم إلى الانتصار، فعمت الأفراح والاحتفالات كامل تراب الإيالة، وزف الخير السعيد للسلطان عبد الحميد الأول** مع بعض الهدايا وقدم له حفيد الداي محمد بك ووكيل خراج القصر تفاصيل هذا الانتصار الذي حققه الجزائريون، فيما توافدت جموع غفيرة للوفد الجزائري مهنئة ومباركة له هذا الانتصار.[5]
- تركت هذه الهزيمة أثرا بالغا عند الإسبان، فقد ذكرتهم بحملاتهم السابقة الفاشلة، خاصة حملة شارلكان سنة 1541م، لتضاف هذه الهزيمة إلى انتكاساتهم السابقة على عتبات مدينة الجزائر، التي بقيت صامدة دائما أمامهم.[6]
- سطوع نجم الداي محمد بن عثمان باشا في كامل العالم الإسلامي، وبخاصة في منطقة المغرب الإسلامي، وأصبح مشهورا ومحبوبا في قلوب الناس، لأنه استطاع بدهائه وعبقريته العسكرية ألا يترك شيئا للصدفة،

---

* – يقول جون.ب. وولف أن عدد القتلى بلغ 27 ضابطا و500 جندي وجرح 191 ضابطا وأكثر من 1000 جندي؛ جون.ب.وولف: المرجع السابق، ص 406؛ وهكذا هي عادة الأوروبيين يقللون من خسائرهم حتى ينقصوا من انتصارات الجزائريين ولا يعطونها حقها من القيمة والاهتمام، عكس انتصاراتهم ولو كانت في معركة بسيطة.

1-*Berbrugger (A): op.cit, p184.*

2 – مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص 2.

3 – ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص 31.

4 –محمد أبو راس الناصري: المصدر السابق، ص338.

** – عبد الحميد الأول ولد سنة1138 هـ/1726م، جلس على العرش سنة 1187هـ/1773م، ومدة حكمه 16 سنة، في عهده عرفت الدولة العلية عدة إصلاحات ابتداءً من سنة 1189هـ/1775م، مثل محاربة الفساد وبعض الإصلاحات الإدارية، وعرف عهده الكثير من الحروب ضد الدولة الصفوية وروسيا، توفي سنة 1203هـ/1789م، عن عمر يناهز 66 سنة...، محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص ص 184، 186.

5 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 532.

6 – أمحمد موفقي: المرجع السابق، ص39.

ولذلك كافأه السلطان عبد الحميد الأول ببردة وسيف وطرة مرصعة بالجوهر والكثير من السفن ولوازمها والأشرعة تكريما أو تعظيما له.[1]

- خلّدا هذا النصر لدى الجزائريين وأطلق الشعراء العنان لقرائحهم، فنظموا العشرات من القصائد الشعرية والكتابات التي تخلد هذا النصر التاريخي، ومن هذه الأبيات ما قاله الشاعر الجزائري أحمد بن الشيخ سيدي السعيد قدورة وهو يُجيب فيها الشيخ محمد بن سعيد بن قريش التطواني عن أخبار هذه المعركة:

هِيَ الأَقْلاَمُ تَنْطِقُهُا المحَابِرُ	لِتُسْمِعَكَ اليَقِينَ عَنِ الجَزَائِرِ
وَبَاؤُوا مِثْلَمَا جَاؤُوا خَزَايَا	وَأَعْطَوْا مَا أَكَنَّ فِي الضَّمَائِرِ
وَكَمْ رَمَتْ الحُصُونُ عَلَيْهِمُ	مِنْ صَوَاعِقِ لاِ تَعُدُ خِلاَلَ زَاخرِ
وَلاَ تَحْزَنْ فَإِنَّ اللهَ مَعَنَا	إِذَا الْتَقَتِ العَسَاكِرُ بِالْعَسَاكَرِ.[2]

- استمرار حالة العداء بين الطرفين الجزائري والإسباني، فزادت الغارات من الجانبين وأصبح كل واحد منهما يترصد سفن الآخر، وقد اتبع محمد عثمان باشا سياسة تكثيف الغارات على سفن الإسبان والقيام بتشجيع العاملين في البحرية بزيادة المكافآت للرّياس والبحارة، ودفع الأجور لهم زيادة على نصيبهم من الغنائم، وشجع صناعة السفن، ولذلك اعتبرت السنوات الممتدة من 1778–1782م أعظم نتائج الجهاد البحري، لأن المداخيل زادت فيها وقاربت المليوني فرنك سنويا.[3]

- انتعاش الحركة التجارية بمدينة الجزائر نتيجة لكثرة الغنائم والأسرى، وفي ذلك يقول الزهار: «**فوقع للتجار ربح عظيم، وكان السماسرة ينادون على الأسارى وقيمة كل أسير 200 دورو، فإذا جاء الغداء يفتدونهم بألف دورو لكل رأس**»[4]، وهذا دليل على انتشار الحركة التجارية وكثرة الغنائم والأسرى بمدينة الجزائر في ذلك الوقت.

6-أسباب فشل الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر.

- الخطة الحربية المحكمة التي نفذها صالح باي، كانت الفيصل في كل المعارك التي جرت بين الطرفين لأنها أنهكت القوات الإسبانية وتشتت شملها، وقضت على كل أمل لهم في مواصلة المعارك.[5]

---

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 532.

2 – عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام...، ج3، المرجع السابق، ص ص 245، 246.

3 – المنور مروش: المرجع السابق، ص 468.

4 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 144.

5 – مجهول: المصدر السابق، ص10.

- التنظيم المحكم والجيد للمقاومين والمجاهدين، وسرعة تحركاتهم في الوقت المناسب، كان له دورا فعالا في حسم المعارك لصالح الجزائريين.[1]
- الشخصية القوية لداي الجزائر محمد بن عثمان باشا، ساهمت في وحدة الجزائريين ووضع هممهم من أجل الدفاع عن بلادهم بكل ما أوتوا من قوة.
- القدرات العالية والفذة لمساعدي الداي محمد بن عثمان باشا، وإخلاصهم التام للقيادة المركزية، ما أعطى عزيمة وقوة لكل المجاهدين والمقاومين من أجل الالتفاف حول قيادتهم والدفاع عن الإيالة، ومن أبرز أولئك القادة، صالح باي، مصطفى خوجة خليفة باي الغرب-باي التيطري-.[2]
- قوة الدفاعات الجزائرية وفعاليتها، بالإضافة إلى الحصون والأبراج المنيعة، كل هذه العوامل ساعدت في هزيمة الإسبان.
- كانت للكرامات التي أعطاها الله سبحانه وتعالى للمجاهدين في سبيله دورا رئيسيا في هزيمة الإسبان[*]، حتى أنه في كثير من المرات كان الجزائريون يشاهدون النيران تشتعل في جنود الأعداء بدون أن يكون الرمي من عندهم، لأن الملائكة كانت تقاتل إلى جانبهم بإذن الله تبارك وتعالى.[3]
- الرغبة في الجهاد والدفاع عن الدين والبلاد، كان لهما تأثيرا واضحا على الجزائريين في مواجهة الإسبان وغيرهم من المسيحيين الذين كانوا يرغبون في احتلال بلادهم، لذلك لعب الدين الإسلامي دورا في شحذ هممهم وتشجيعهم على نيل إحدى الحسنيين؛ أما النصر وإما الشهادة.
- كان للجانب المادي الذي وعد به الداي محمد بن عثمان باشا دورا بارزا في تشجيع المجاهدين والمقاومين وبث الحماس بين صفوفهم والتنافس لقتل أكبر قدر ممكن من الإسبان، والحصول على 10 دنانير في مقابل قتل كل كافر[4]، وفيما يخص هذه الجزئية نلاحظ أن جون.ب. وولف فسر هذا الأمر أنه جشع مادي اشتهر به الجزائريون، ناسيا أو متناسيا أو جاهلا لا يعرف عن المسلمين غير الاسم فقط، ولا

1 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 469.

2 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 161.

* - في مثل هذه الحالات لا يمكننا تصديق أو تكذيب مثل هذه الأمور الغيبية، التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك ثبت عبر التاريخ الإسلامي منذ غزة بدر الكبرى قتال الملائكة مع المسلمين مصداقا لقوله تعالى: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ الآيتان، 9، 10 من سورة الأنفال، وهي كرامات يعطيها الله سبحانه وتعالى للمجاهدين المخلصين في سبيله، حيث يمدهم بالملائمة الذين لا يمكن رؤيتهم للقتال معهم، نصرة لدينه وعباده المظلومين، وقد يكون هذا الأمر قد حصل في هذه المعركة التي انتصر فيها الجزائريون.

3 - مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص 2.

4 - جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص 406.

يعرف عن عقيدتهم التي تحثهم على الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى مرضاة له والفوز بالجنة يوم القيامة، التي هي دافعهم الأسمى من وراء الدفاع عن دينهم وبلادهم، بالإضافة إلى أنهم يريدون الانتقام من الإسبان الذين قتلوا ونكلوا بإخوانهم المسلمين الذين كانوا بالأندلس.

- التقدير السيء والحسابات الخاطئة التي قامت بها القيادات الإسبانية، لأنها لم تضع في الحسبان القدرات العسكرية للإيالة الجزائرية التي كانت مستعدة جيدا لأي هجوم إسباني.
- عدم وضع خطة محكمة من طرف الإسبان الذين عجزوا حتى عن إتمام إنزال قواتهم بطريقة جيدة، حيث دامت هذه العملية أكثر من ثلاثة أيام، ما كان له أثرا سلبيا على الجيش الإسباني، الذي أنْهكت قواه، بدل أخذ قسط من الراحة.
- الاستهزاء بقدرات المقاومين والمجاهدين الجزائريين من طرف القيادة العسكرية الإسبانية، وعلى رأسها الكونت أورللي.[1]

ثالثا: الحملتان الإسبانيتان على مدينة الجزائر سنتي 1197-1198هـ/1783-1784م

المبحث الأول: الحملة الإسبانية الأولى سنة 1197هـ/1783م.

لم ينتظر الإسبان هذه المرة طويلا على عكس المرات السابقة التي كان الإسبان ينتظرون مدة طويلة للتفكير في إعادة حملاتهم على الجزائر، لم ينتظروا كثيرا هذه المرة فقرروا إعادة المحاولة مرة ثانية في مدة لم تتجاوز الثماني سنوات، لأنه لم يكن من السهل عليهم نسيان تلك الهزيمة المدوية التي كبدتهم خسائر مادية وبشرية فادحة سنة 1775م، ونتيجة لكثرة الضغوط التي كانت تمارس على الملك وقادته العسكريين، لم يطق الملك صبرا أمام هذه الضغوطات وقرر توجيه حملة عسكرية إلى مدينة الجزائر يمحو بها آثار الحملة السابقة، وينتقم لهيبة إسبانيا التي ضاعت على عتبات هذه المدينة، ولهذا الغرض شكل أرمادة عسكرية وأسند قيادتها للدون أنطونيو بارسللو تدفعه في ذلك العديد من الأسباب، نذكر منها:

1-دوافع الحملة الإسبانية.

1-1-فشل مساعي الصلح بين السلطات الجزائرية والإسبانية.

بعد صراع طويل ومرير بين الجزائر وإسبانيا ارتأت هذه الأخيرة بعد تردد طويل إقامة صلح يكون مفيدا للطرفين، فحاولت أن تستغل حادثا عابرا لصالحها- فبينما كان وكيل الحرج حسين عائدا إلى الجزائر بعد أن ذهب إلى استانبول لزف التهاني للسلطان العثماني وإخباره بالنصر المحقق على الإسبان بقيادة أورللي وأثناء عودته وقع

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص531.

في قبضة الإسبان واقتيد إلى قرطاجنة- من أجل الضغط على الداي محمد بن عثمان باشا لإقامة الصلح، لكن الداي لم يبال بهذا الأمر كثيرا، فما كان على الإسبان إلا أن أطلقوا سراح وكيل الحرج مزودا بالهدايا، آملين منه التعاون معهم في تحقيق أمنيتهم، لكن على ما يبدو أن الداي عندما فاتحه وكيل الحرج كان رده الرفض وقال: «...**لا أصالحهم ما دمت حيا...**».[1]

فما كان على الإسبان إلا التوجه للباب العالي، الذي وقعوا معه اتفاق صلح سنة 1197هـ/1782م مستغلين فرصة محاولة الدولة العلية إشراك الجزائر في هذا الصلح، وأرسل السلطان كبير البوابين لإخبار الجزائريين بهذا الصلح مع إسبانيا، وعلى الرغم من الفرمان الذي أرسله السلطان إلا أن محمد بن عثمان باشا رفض الاعتراف بهذا الصلح ورد قائلا: «... **إنني أعلم أن ملك إسبانيا كارلوس الثالث يقوم بتجهيز أسطوله وتجنبا من أن يعتقد أنني خفت منه لذلك هرعت إلى عقد الصلح، ولهذا فلا أريد التحدث في هذا الموضوع...**»[2] ونتيجة لهذا الموقف المتعنت للداي قررت إسبانيا الرجوع إلى أسلوب القوة لإجبار الداي على الرضوخ لشروطها.

1-2-الانتقام لهزيمة الكونت أورللي سنة 1775م.

لم تنس السلطات الإسبانية هزيمة جيشها القاسية بقيادة أورللي أمام الجيش الجزائري ، ولم يكن بمقدورها الصبر على ذلك أكثر من 8 سنوات، وهي لا تزل ترى آثار هذه الهزيمة ماثلة أمامها، ولذلك وبمجرد ما حلت سنة 1783م حتى رأت القيادة الإسبانية أن الوقت أصبح مناسبا للانتقام واحتلال مدينة الجزائر[3]، مستغلة في ذلك العلاقات المتوترة بين الجزائر وأوروبا ما بين سنتي 1783-1784م[4]، فقد رفض الداي محمد بن عثمان مرارا إقامة الصلح مع روسيا ما دامت في حالة عداء مع الدولة العلية ،كما رفض استقبال القنصل الإنجليزي بل أكثر من ذلك قام بطرده مع مستهل سنة 1783م، وكانت الجزائر في حالة حرب مع العديد من الدول الأوروبية، بالإضافة إلى استنجاد الدولة العلية بالداي في حروبها ضد روسيا ،فكان يستجيب لرغبة الباب العالي ويرسل بعض قطع الأسطول لمساعدة الأسطول العثماني[5]، فأرادت إسبانيا استغلال هذه الفرصة وتشتيت جهود الجزائريين في المتوسط وغيره، وفي نفس الوقت الانتقام لحملة أورللي.

---

1 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 23.

2 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 539.

3 - تومي طاهر: "الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر سنة 1197هـ من خلال مخطوط"، مصادر تاريخ الجزائر عبر العصور، كتاب جماعي، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، 2018م، ص451.

4 - بوحفص تجاجنة: المرجع السابق، ص21.

5 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص539.

1-3-تخفيف الضغط على وهران والمرسى الكبير.

كان محمد بن عثمان باشا مركزا جهوده على إعادة فتح وهران والمرسى الكبير، وقد رفض إقامة صلح مع الإسبان ما لم ينسحبوا منهما[1]، لذلك عمل على إخضاع القبائل المتعاونة معهم وفرض عليها الإتاوات، وعمل فيما بعد على فرض حصار جديد على وهران، لكن الإسبان كانوا متحصنين جيدا ولم يستطع الجيش الجزائري اختراق هذه الحصون، إلا أنه جعل الإسبان أسرى حصونهم[2]، وبحلول سنة 1780م استطاع الباي محمد الكبير أن يحكم قبضته على المدينة من جهة البر، لكن المنفذ البحري قلل على الإسبان مخاطر الحصار المفروض عليهم[3]، ومع ذلك تأثرت الحامية الإسبانية به، فما كان من الإسبان المقيمين بوهران إلا الاستنجاد بالملك الإسباني، الذي حاول جاهدا فك الحصار، وكان يدرك أنه لا يتأتى له ذلك إلا بتوجيه أنظار الجزائريين وإشغالهم بحرب أخرى تكون مدينة الجزائر مسرحا لها.

1-4-تفوق سفن الأسطول الإسباني.

استطاعت إسبانيا قبيل تنفيذ حملتها على الجزائر سنة 1783م امتلاك نوع من السفن الحربية المتطورة جدا في ذلك الوقت تسمى "اللّنجور" أو "اللّنجون"[4]، وعرفت لدى الإسبان بـ «La Lancha»، وكانت من اختراع الضابط أونطونيو بارسللو -الذي كوفئ على هذا الاختراع بأن أعطي له شرف قيادة الحملة الأولى سنة 1783م والحملة الثانية سنة 1784م-وهي عبارة عن سفن خفيفة وسريعة الحركة تحمل على متنها مدافع صغيرة، لذلك أرادت إسبانيا تجريب هذه السفن على مدينة الجزائر ومدى فاعليتها، وقد استعملت في الحرب ضد إنجلترا.[5]

1-5-الوفاق الإسباني الإنجليزي.

تميز القرن الثامن عشر ميلادي بكثرة الحروب الأوروبية فيما بينها، خاصة وأنه تميز ببداية ظهور الحركة الاستعمارية الحديثة وما نتج عنها من الصراع الأوربي أوربي على المستعمرات، فيما كانت إسبانيا تواجه عدة تحديات، منها المحافظة على مستعمراتها في العالم الجديد، وظهور إنجلترا كمنافس قوي لها، خاصة بعد سيطرتها

1 – ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 162.
2 – تومي طاهر: المرجع السابق، ص452.
3 – جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص407.
4 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 51.
5 – شكيب بن حفري: المرجع السابق ص ص 187، 188.

على مضيق جبل طارق وجزيرة مينورقة التي حاولت إسبانيا جاهدة استعادتها[1]، وما إن انتهت من تسوية مشاكلها مع إنجلترا حتى وجهت أنظارها نحو الجزائر لعلها تعوض ما فقدته في حربها ضد إنجلترا.

2-التحضيرات الجزائرية والإسبانية للحملة.

2-1-التحضيرات الجزائرية.

كان في حكم المؤكد لدى الجزائريين أن الإسبان لم ينسوا هزيمتهم سنة 1775م وسوف يعاودون الحملة على مدينة الجزائر من أجل الأخذ بالثأر، ولم يكن الداي محمد بن عثمان باشا غافلا عما كان يقوم به الإسبان من استعدادات على الرغم من مشاكلهم المستمرة مع الدول الأوروبية الأخرى، وفي شهر ماي 1783م تلقى الداي إشعارا من السلطان المغربي محمد بن عبد الله ينبهه فيه إلى أن الإسبان يُعدون لحملة على مدينة الجزائر، وأنهم على وشك الانطلاق لتنفيذها[2]، لذلك لم يتأخر الداي في أخذ جميع التدابير اللازمة لمواجهة الحملة ومنها:

- استدعاء الفرق العسكرية من البايلكات الثلاث فجاء من بايلك قسنطينة حوالي 25 ألف جندي، ومن بايلك الغرب حوالي 20 ألف جندي، ومن بايلك التيطري 5 آلاف جندي.[3]
- إجلاء السكان المدنيين من البيوت مع أمتعتهم وأموالهم إلى الحدائق والبساتين لتجنيبهم تبعات القصف والتدمير الذي سيلحق بالمدينة.[4]
- إخراج الأسرى المسيحيين الموجودين بالمدينة والبالغ عددهم حوالي 1548 أسير وإرسالهم إلى خارج المدينة مخافة محاولة تمردهم، خاصة وأنهم قاموا بمحاولة مماثلة فيما سبق.[5]
- الشروع بسرعة فائقة في بناء سفينتين مدفعيتين لتعزيز القوة البحرية الجزائرية.[6][*]

---

1 – بوحفص تجاجنة: المرجع السابق، ص 80.

2 – يحي بوعزيز: المراسلات الجزائرية الإسبانية...، المرجع السابق، ص24.

3 - *Charles (F): Les trois Attaques Des Espagnols Contre Alger au XVIII Siècle, R.Af*, N20, *Alger, 1876, p303.*

4 – أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص475.

5- *Grammont (H. De): Histoire..., op.cit, p267.*

6 - *Charles (F): op.cit, p303.*

* – هو في الأصل تقرير بالإيطالية لشاهد عيان كان حاضرا بالمدينة ويراقب الأحداث عن قرب وبالضبط من دار قنصلية هولندا، ليقوم شارل فيرو بترجمة هذا التقرير إلى الفرنسية ونشره في المجلة الإفريقية بالتاريخ المذكور أعلاه.

2-2-التحضيرات الإسبانية.

على العكس من الحملة السابقة التي قادها الأميرال أورللي لم تكن هذه الحملة بمثل ضخامة الحملة الأولى، فقد اكتفت إسبانيا بإرسال حوالي 75 مركبا[1] مشكلا من عدة أنواع من السفن بعضها يحتوي على مدافع[2]، منها 10 فرقاطات و25 شبيكة و40 شلوب «Chaloupes»، يقود هذا الأسطول أنطونيو بارسللو.[3]

3-المعارك الفاصلة.

3-1-المواجهات الجزائرية الإسبانية على سواحل مدينة الجزائر.

بعد تجمع قطع الأسطول الإسباني بميناء قرطاجنة واتخاذ جميع الإجراءات والتدابير اللازمة لإنجاح الحملة، غادر ميناء المدينة متوجها إلى مدينة الجزائر بتاريخ 17 جويلية 1783م، ولسوء الأحوال الجوية التي أعاقت سيره لم يصل إلى غاية 29 جويلية، وبعد ثلاثة أيام من وصوله بدأ بالهجوم في 02 رمضان 1198هـ الموافق لـ 01 أوت 1783م، مباشرة بعد صلاة الظهر من يوم الجمعة بدأت السفن الإسبانية "اللّنجور" بقصف المدينة، وقد أطلقت حوالي 500 قذيفة أغلبها لم يصب أهدافه وسقط في البحر[4]، لأن السفن الجزائرية ردت بقوة ولم تترك الأسطول الإسباني يتقدم إلى المدينة، لتضطره إلى الانسحاب من ساحة المعركة، فيما بقي الأسطول الجزائري في ميدان المعركة حتى الساعة الثانية عشرة ليلا.[5]

شهد اليوم الثاني معارك عنيفة بين الطرفين استطاع من خلالها الإسبان إطلاق حوالي 500 قذيفة على مدينة الجزائر، ألحقت أضرارا جسيمة بها وهدّمت الكثير من المباني[6] من أهمها تهديم جامع السيدة[7] ومسجد سيدي والي دادة وتضرر المرسى وبرج الفنار، واستشهد حوالي ثمانية جزائريين من بينهم خوجة الخيل لتتوقف المعارك ليوم واحد، وتستأنف يوم الإثنين 05 رمضان الموافق لـ 4 أوت، أين حاول الإسبان إنهاء المعركة وهاجموا مدينة الجزائر بكثافة، إلا أنهم جوبهوا بمقاومة شديدة من قبل السفن الجزائرية التي اضطرتهم للانسحاب، وأسفرت هذه المعركة على مقتل ثلاثة أشخاص وجرح 10 من الجزائريين.[8]

1- مجهول: تاريخ مجيء الإسبانيين في المرة الثانية والثالثة إلى الجزائر، مخطوط، رقم، 2285، المكتبة الوطنية الجزائرية، ص5.

2 – عبد القادر فكاير: "حملتا الدون أونطونيو بارثيللو على الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر من خلال مخطوط تاريخ مجيء اسبانيول"، **مجلة العصور الجديدة**، ع1، معهد التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2011، ص 79.

3 – جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص 407.

4 – مجهول: المصدر السابق، 5.

5 - *Charles (F): op.cit, p305.*

6 – مجهول: المصدر السابق، ص 6.

7 – أحمد الشريف الزهار: المرجع السابق، ص51

8 - *Charles (F): op.cit, p306.*

تواصلت المعارك يوم 07 رمضان الموافق لـ 06 أوت وسط تبادل كثيف لإطلاق القذائف في محاولة من كل طرف حسم المعارك لصالحه، لتستمر المعارك إلى غاية 09 أوت دون أن يستطيع أي طرف حسم المعركة الأخيرة لصالحه، وقد خلفت هذه المعارك مقتل 13 جزائري وجرح 252.[1]

3-2-نتائج فشل الحملة الإسبانية.

- على الرغم من أن الحملة الإسبانية ألحقت أضرارا كبيرة بمدينة الجزائر، إلا أنها لم تحقق هدفها، ألا وهو إخضاع المدينة والسيطرة عليها نهائيا، ولذلك نستطيع القول أن الحملة فشلت في مهمتها الأساسية التي جاءت من أجلها.
- حدوث أضرار كبيرة في المباني جراء كثافة القصف الذي تعرضت له المدينة بفعل نجاعة سفن "اللّنجور" التي أثبتت قدرتها على المناورة وإصابة أهدافها بدقة وسرعة فائقة، حتى أن أحد المعاصرين لهذه الأحداث سماها "بالبلاء والمصيبة" بسبب الخسائر التي ألحقتها بمدينة الجزائر[2] التي سقطت عليها حوالي 4000 قنبلة ومثلها من قذائف الكور، إما باتجاه المدينة أو التحصينات، وتضرر منها حوالي 200 منزل، منها منزل القنصل السويدي وجامع السيدة وقصر الداي.[3]
- بلغ عدد القتلى الجزائريين حوالي 46 شهيدا و52 جريحا[4]، فيما ذهبت بعض المصادر الأجنبية إلى مقتل 300 مدني و100 عسكري.[5]
- لم تذكر المصادر والمراجع عدد الخسائر التي تكبدها الإسبان جراء هذه الحملة، فيما اكتفت بعضها بذكر عدد القنابل التي أطلقتها السفن والمدافع الجزائرية التي قدرت بحوالي 10 آلاف قذيفة مدفع[6] والتي نستبعد أنها لم تحدث أي خسائر بالإسبان سواء مادية أو بشرية، فلماذا سكتت هذه المصادر عن ذكر الخسائر؟ وهذا يقودنا إلى طرح الأسئلة التالية:
  - فهل سفن اللّنجور هي التي أحدثت الفارق وجنبت الإسبان خسائر في الأرواح والعتاد؟
  - أم عدم نزول الإسبان إلى البر سهّل من مهمة إخفاء خسائرهم؟
  - أم أن الدفاعات الجزائرية في البر تكون أكثر فاعلية ودقة في إصابة الهدف منها في البحر؟

---

1 - عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص79.

2 - شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص 128.

3 - محمد أبو راس الناصري: المصدر السابق، ص338.

4 - عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص 80.

5- *Charles (F): op.cit, p310.*

6 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص478.

– أم أن تغيير الإسبان لاستراتيجيتهم الحربية وحذرهم الشديد هو الذي جنبهم أي خسارة تذكر.

وربما أن هذه العوامل مجتمعة سهلت من مهمة إخفاء الإسبان لخسائرهم.

– خرج الجزائريون من هذه المعركة قيادة وسكانا أكثر كرها للإسبان، وتأكدوا أنهم يريدون احتلال مدينتهم بأية طريقة، لذلك أصبحوا أكثر إصرار وعزما على تحدي العدو، وأكثر استعدادا للمواجهات القادمة، مع علمهم أن مدينتي وهران والمرسى الكبير مازالتا تحت الاحتلال، لذلك شرعوا في ترميم الحصون وبناء السفن والتزود بالسلاح والبارود خاصة من هولندا وإستانبول.[1]

على غير عادتها في المرات السابقة لم تقم إسبانيا بإنزال بري في هذه الحملة، بالمقارنة مع حملاتها السابقة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، فكانت دائما تعتمد على الهجوم البري والبحري الذي كبدها خسائر فادحة مادية وبشرية، زيادة على خيباتها المتتالية في احتلال مدينة الجزائر، إلا أن هذه المرة اكتفت بالهجوم البحري الذي استعملت فيه سفن جديدة "اللّنجور" ذات فعالية كبيرة، وكان لها الدور الكبير في ترجيح كفة الإسبان في هذه المعركة، على الرغم من فشلهم في هدفهم الذي جاؤوا من أجله وهو احتلال مدينة الجزائر.

فكيف خطر على بال قادة الإسبان الاكتفاء بالهجوم البحري هذه المرة على عكس المرات السابقة؟

فهل هو الخوف من تكبد خسائر مماثلة لما كانوا يتكبدونه سابقا؟ أم أن هناك مجموعة من القادة داخل البلاط الملكي الحاكم أصبحوا معارضين للهجوم على مدينة الجزائر نتيجة للخيبات السابقة؟ أم قلة الجيش البري ونقص التجنيد فيه هو الذي فرض هذا التوجه؟ أم قوة الجيش البري الجزائري بكل مكوناته سواء النظامي أو المتطوعين والذي بلغ حسب بعض المصادر في آخر معركة سنة 1775م حوالي 150 ألف جندي –وهو عدد ضخم جدا ذلك الوقت–، هو الذي فرض منطقه الحربي على الإسبان وجعلهم متأكدين من استحالة مواجهته في البر؟ الأكيد أن الكثير من هذه العناصر مجتمعة هي التي جعلت إسبانيا تغير استراتيجيتها الحربية ضد الجزائر ابتداءً من هذه المعركة.

1 – مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص11.

المبحث الثاني: الحملة الإسبانية الثانية على مدينة الجزائر سنة 1198هـ/1784م

1-الاستعدادات الجزائرية والإسبانية للحملة.

1-1-الاستعدادات الجزائرية.

مباشرة بعد انسحاب الأرمادا الإسبانية سنة1197هـ/ 1783م بدأ الداي محمد بن عثمان باشا في إصلاح وتجديد ما تخرب وتهدم من حصون[1]، وقام بإصلاح السفن التي تضررت جزئيا، لكن أهم خطوة قام بها الداي صناعة 50 سفينة[2] من نوع "اللّنجور"[*]، من أجل الوقوف في وجه السفن الإسبانية المتطورة في ذلك الوقت، وقد اكتملت هذه الاستعدادات في ظرف قياسي مدته سنة واحدة فقط –حتى أن القائد الإسباني أنطونيو بارسللو تفاجأ عندما لم يشاهد آثار الحملة السابقة–[3]واستطاع صنع 50 سفينة[**] من نوع "اللّنجور" وضم إليها سفنا كبرى وأصبح مجموع السفن 60، منها 42 مجهزة بالمدافع والباقي بالمهارس.[4]

1-2-الاستعدادات الإسبانية.

بدأ الدون أنطونيو بارسللو استعداداته لتنفيذ حملته ضد الجزائر بمحاولة جمع أكبر عدد ممكن من قواته ومراكبه التي باستطاعتها إنجاح مهمته، واستطاع جمع أسطول بحري يحتوي على أكثر من 130 سفينة منها 80 من نوع "اللنجور" والباقي ما بين سفن صغيرة وكبيرة[5] منها: 11 سفينة من نابولي، 8 من مالطة، وكان الأسطول يضم 26 سفينة حربية و30 سفينة تفجير، أما السفن الباقية فهي مخصصة للنقل، وقبل انطلاق الأسطول أقام

1- *Belhamissi (M): Alger La Ville aux Mille Canons ,E.N.A.L, Alger, 1990, p30.*

2 - مجهول: المصدر السابق، ص 2.

* – ذكر الزهار أن عدد سفن اللّنجور 500سفينة، ويبدو الرقم مبالغا فيه كثيرا مع أننا لم نستطع التأكد من ذلك، لأن المصادر سواء المحلية أو الأجنبية التي اطلعنا عليها لم تشر إلى هذا العدد، ولذلك نرجح احتمالين: إما أن هناك خطأ مطبعيا والعدد هو 50، أو أن أحمد الشريف الزهار يبالغ في هذا العدد، مع العلم أن إسبانيا كانت تملك 80 سفينة من هذا النوع فقط، فكيف للجزائر أن تملك هذا العدد الضخم في مدة سنة !؟

3-*Grammont (H. de): op.cit, p267.*

** – عند انسحاب الإسبان بعد فشلهم في إخضاع مدينة الجزائر، تركوا وراءهم سفينة من نوع اللّنجور محطمة في المكان المسمى عين الربط (العناصر حاليا)، فعثر عليها بعض المقاتلين هناك، وعندما سمع بها أحد القادة العسكريين "قبطان الحاج أحمد"، أرسل أحد المهندسين لمعاينتها، ثم نقل هذا الانشغال إلى الداي محمد بن عثمان باشا واتفق معه على صنع نفس النوع لمواجهة الإسبان به في المرة القادمة، وقد طلب منهم الداي صناعة 50 سفينة قبل نهاية السنة، لذلك أمر كبير الطرسنة –وكيل الحرج– أن يباشر صنع ذلك، وقد رفع العمال التحدي وأتموا بناء هذه السفن في الوقت المحدد. أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق ص ص 51، 52.

4- عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص 80.

5 - مجهول: المصدر السابق، ص2.

البابا قداسا لكي تغفر جميع ذنوب المشاركين في الحملة، أما عدد الجنود فكان يجهل عددهم لسكوت المصادر عن ذكر ذلك لينطلق الأسطول من قرطاجنة في 28 جوان 1784م.[1]

2-وجهة الحملة ونتائجها.

2-1-محاولة الإسبان احتلال مدينة الجزائر.

بتاريخ 21 شعبان 1198هـ/ 09 جويلية 1784م وصلت الأرمادا الإسبانية على مشارف مدينة الجزائر، إلا أنها لم تبدأ القتال إلى غاية يوم 12 جويلية*، أين ظهرت 70 سفينة من نوع "شالوب" خالية من السواري متخذة وضعية القتال معلنة بذلك بداية المعارك، إلا أن السفن الجزائرية اعترضت طريقها ولم تتركها تتقدم باتجاه المدينة منتظرة حلول الليل ليسهل عليها مناورة الأسطول الإسباني، وفي الليل أعطيت الإشارة من الحصون لقنبلة السفن الإسبانية، التي ردت بقوة وعنف، إلا أنها لم تحدث أضرارا كبيرة سواء بالمدينة أو بالسفن الجزائرية.[2]

وبعد توقف القتال لمدة يومين استؤنف مرة أخرى، ودارت معارك طاحنة استعملت فيها الحراقات لقصف مدينة الجزائر، ورغم ذلك لم يستطع الأسطول الإسباني الاقتراب من المدينة[3]، وبقيت السفن الجزائرية في وضعية دفاع محافظة على مراكزها، لتتواصل المعارك بين الطرفين إلى غاية 19 جويلية أين أحدث الرياس بعض المشاكل، وطلبوا من الداي زيادة مرتباتهم، وأعلنوا رفضهم خوض المعارك بالمدافع الحديدية مخافة انفجارها، وطالبوا بمدافع نحاسية لتحسين أدائهم القتالي**، مما أثر على سير المعركة، وترجيح كفتها لصالح الإسبان بسبب فرار بعض المقاتلين من ميدان المعركة، إلا أن ثبات فئة من المقاتلين منع الإسبان من دخول المدينة وفوت عليهم فرصة لا تعوض للسيطرة عليها.

---

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص543.

* – لم تبدأ السفن الإسبانية القتال لسببين اثنين: إعطاء فرصة للجنود الإسبان لأخذ قسط من الراحة حتى لا تتكرر الأخطاء السابقة التي كان فيها الجنود الإسبان يقاتلون وهم منهكون جراء قلة النوم والتعب، أما السبب الثاني: فحتى يستطيع الأسطول الإسباني التموقع جيدا.

2 – *Charles (F): op.cit, p315.*

3 – *Grammont (H. de): Document Relatif A La Seconde Expédition DE Don Angelo Barcelo Contre Alger, 1784, R.Af, N°26, Alger, 1882, p223.*

** – ذكر أحمد توفيق المدني: في كتابه حرب الثلاثمائة سنة أن عدد الضحايا جراء انفجار المدافع كان 12 قتيل و14 جريح، وقد بقيت مشكلة المدافع التي تنفجر قائمة، لأنها مصنوعة من الحديد ولا تحتمل الحرارة العالية جراء الاستخدام المتواصل، وهذا من بين العيوب التي رصدها القنصل الفرنسي دي كرسي، لأنه كان شاهد عيان على الحملتين الإسبانيتين سني 1783– 1784م وسجل في تقريره الذي رفعه إلى حكومته نقاط ضعف الدفاعات الجزائرية وطريقة دفاعها، وهي المعلومات التي استعانت بها وزارة الحرب الفرنسية في حملتها على الجزائر سنة 1830م... أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص351.

تواصلت المعارك أيام 17 و18 و19 جويلية لتضطر بعهدها السفن الإسبانية للانسحاب إلى مركز قيادة الأسطول، لتفاجئها السفن الجزائرية بهجوم مباغت كبدها خسائر كبيرة، وبتاريخ 21 جويلية 1784م قررت القيادة الجزائرية اتخاذ قرار المبادرة بالهجوم وعدم الاكتفاء بالدفاع، لذلك أُعطيت الأوامر للسفن الحربية بمهاجمة الأسطول الإسباني، إلا أن رده كان عنيفا، ودارت معركة طاحنة بين الطرفين أطلق خلالها كل طرف حوالي 2000 قذيفة على الآخر، وأسفرت في نهايتها عن انهزام الإسبان وتكبدهم لخسائر فادحة.[1]

بتاريخ 22 جويلية بدأ الإسبان يفكرون جديا في الانسحاب من قبالة مدينة الجزائر، وقاموا بتجميع قطع أسطولهم واتخذوا كافة الإجراءات والتدابير من أجل الانسحاب بهدوء وبدون خسائر، وفي 23 جويلية أقلع الأسطول الإسباني عائدا إلى بلاده دون تحقيق الهدف الذي جاء من أجله.

وهكذا انتهت هذه الحملة إلى ما انتهت إليه سابقاتها بالفشل الذريع وعدم تحقيق هدفها وهو احتلال مدينة الجزائر، لأن الجزائريين اعتمدوا الأساليب الدفاعية المحضة والمناورة بعيدا عن المدينة بغرض إدارة المعارك في وسط البحر، بدل ترك السفن الإسبانية تقترب، وبهذا الأسلوب استطاعوا تجنيب المدينة الكثير من الخسائر وعدم تعرضها للاحتلال، وقد ترتب عن هذه الحملة عدة نتائج:

2-2-نتائج الحملة الإسبانية.

- بلغت خسائر الإسبان 300 ما بين قتيل وجريح بالرغم من صعوبة تحديد هذا الرقم بدقة لأن المصادر المغاربية والأجنبية سكتت عن إعطاء الرقم الحقيقي.[2]
- فشل الإسبان في احتلال مدينة الجزائر وانكسار حملتهم على مشارفها ليتأكدوا للمرة الأخيرة أنهم لن يستطيعوا إخضاعها أو احتلالها، لذلك يجب عليهم إيجاد طرق أخرى غير الطرق العسكرية في تعاملهم مع الجزائريين.
- تأكد الإسبان نهائيا أن الطريق السلمي هو الطريق الوحيد لتحسين علاقاتهم مع الجزائر، ولا يكون ذلك إلا بتقديم تنازلات لصالح الجزائريين، من أجل إنهاء هذا الصراع الذي دام أكثر من قرنين ونصف من الزمن.
- سمحت هذه الحملة لإسبانيا باختيار طريق السلم والدخول في مفاوضات جدية سوف توجت فيما بعد بتوقيع اتفاق صلح سنة 1786م.

1 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص544.

2 - *Grammont (H. de): op.cit, p225.*

- البحث عن الصلح من طرف إسبانيا جعل الجزائر بعد هذه الانتصارات تفاوض من موقع قوة، هذا ما جعل الداي محمد بن عثمان باشا يشترط مقابل أي صلح الانسحاب من وهران والمرسى الكبير[1] فكانت العديد من الدول الأوروبية ترى هذه الشروط مذلة لإسبانيا وإهانة لها، وفي ذلك يقول ويليام شالر في مذكراته: «... **عندما امتلأت نفوسهم بالاحتقار لهذه الدولة (إسبانيا) راح الجزائريون يكيلون لها الشتائم والإهانات... ويضطرونها إلى دفع الأموال لأتفه الأسباب...**».[2]
- خسر الجزائريون خلال هذه الحملة 50 قتيلا و134 جريحا وتحطُم الكثير من المباني ودور العبادة.[3]
- خسر الإسبان من معداتهم في هذه الحملة 3339 قذيفة و145 طلقة مدفع و401 علبة رصاص.[4]

3-العوامل المساعدة على انتصار الجزائريين.

- التعزيزات العسكرية التي قامت بها الجزائر لحماية المدينة من الهجمات الإسبانية، منها بناء وتجديد الحصون، بالإضافة إلى اقتناء بعض المدافع الجديدة من السويد وهولندا وإنجلترا، وكانت هذه المدافع سببا في عدم اقتراب الإسبان من المدينة.[5]
- اختيار الإسبان أسلوب القتال في البحر، والقصف بالقنابل والقذائف كان سببا مباشرا في عدم السيطرة على مدينة الجزائر.
- استتباب الأمن الداخلي، وعدم حدوث تمرُّدات تزعزع الاستقرار، لأن الداي محمد بن عثمان باشا اتخذ جميع الإجراءات اللازمة لتجنب أي انزلاق، ومنها إرسال الأسرى إلى خارج المدينة حتى لا يثوروا أو يحدثوا إخلالا بالنظام، وهي في الحقيقة خطة كان لها الأثر الإيجابي في استقرار الأوضاع أثناء المعارك.[6]
- اكتساب الجزائريين للتكنولوجيا البحرية المتطورة، واستغلال تعطل نوع واحد من سفن اللّنجور وتصنيع عدد كبير منها بلغ 50 سفينة وشكل مفاجئة غير سارة للإسبان بهذا الاختراع، الذي كان له الدور الرئيس في ترجيح كفة الحرب لصالح الجزائر، وربما هو خطأ فادح من طرف الإسبان الذين تركوا أهم وسيلة بيد أعدائهم، الذين حاربوهم بنفس سلاحهم الذي كان له دور مهم في تقليل خسائرهم خلال الحملة السابقة سنة 1783م.

---

1 – عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص 62.

2 – ويليام شالر: مذكرات ويليام شالر 1816–1824م، تعريب وتعليق وتقديم: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص 133.

3 – عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص 82.

4 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص544.

5 – جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص408.

6 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص544.

- لعبت شخصية الداي محمد بن عثمان باشا دورا كبيرا في هذا الانتصار، زيادة على التفاف السكان والقادة العسكريين والقوات الإنكشارية والرياس حوله، والخبرة العسكرية التي اكتسبها الجيش الجزائري من خلال الحروب الطويلة التي خاضها ضد الأوروبيين عامة والإسبان خاصة، مما أهله للتّكيف مع مثل هذه الأوضاع العسكرية.
- التآزر والتكاتف الذي أظهرته القيادة العسكرية فيما بينها واستجابتها في كل مرة لنداء الداي محمد بن عثمان باشا الذي كان ما إن يستدعيها إلى الجزائر إلا ولبت النداء، إيمانا منها بالدفاع عن الوطن والحفاظ عليه من الأخطار الأجنبية.

رابعا: العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين 1200-1207هـ/1786-1792م

المبحث الأول: انعقاد الصلح الجزائري الإسباني سنة 1200هـ/ 1786م

1-بداية النهاية للصراع العسكري بين الطرفين الجزائري والإسباني.

ظلت العلاقات الجزائرية الإسبانية متوترة، ميزتها الرئيسية الصراع والنزاع بين الطرفين منذ تأسيس الإيالة الجزائرية، التي حملت على عاتقها الدفاع عن بلاد المغرب الإسلامي من الخطر المسيحي الذي مثلته إسبانيا الحديثة خاصة بعد قيام هذه الأخيرة باحتلال السواحل المغاربية الواحدة تلوى الأخرى.

استطاعت القيادات الجزائر تحرير معظم السواحل المغاربية من تلمسان غربا إلى طرابلس الغرب شرقا، ما عدا وهران والمرسى الكبير اللذين شكلا مركز الصراع بين الطرفين، وبقي الجانب الجزائري مصمما على تحريرهما، ونجح في ذلك سنة 1708م وإلى غاية 1732م، أين عاود الإسبان احتلالهما، ليزداد الصراع ضراوة بين الطرفين، رغبة من الجزائر في استرجاع المدينتين، ومحاولة من الإسبان استرجاع أمجاد الماضي وإخضاع السواحل المغاربية من جديد، ونقل الصراع إلى مدينة الجزائر وإخضاعها نهائيا، كما حدث في بداية القرن السادس عشر ميلادي.

لكن الإيالة الجزائرية الحديثة ليست هي نفسها المغرب الأوسط الذي كان يعيش التفكك والفوضى والانهيار، فقد استطاعت الوقوف في وجه كل المحاولات الإسبانية الرامية لإخضاع مدينة الجزائر والسيطرة عليها، لتنتهي هذه المحاولات بالفشل الذريع ابتداء من 1519م إلى 1784م، لتهتدي إسبانيا أخيرا إلى أسلوب جديد غير الذي كانت تستعمله من قبل، وحاولت اختيار طريق السلم، بعد أن جربت طريق الحرب ولم تجني منه إلا الخسائر والفشل، واختارت طريق الدبلوماسية، الذي ربما يحفظ لها ماء وجهها، وتنهي حالة التوتر والصراع، وتعبد الطريق لفتح صفحة جديدة في العلاقات بين الطرفين.

الملاحظ أن إسبانيا هي التي اختارت الطريق العسكري، وهي أيضا التي اختارت الطريق السياسي الدبلوماسي، وسعت جاهدة في محاولة منها لإقناع القادة الجزائريين بضرورة التوصل لمعاهدة تنهي حالة الحرب.

تواصل الصراع الجزائري الإسباني منذ تأسيس الإيالة الجزائرية، لأن كل طرف كان يحمل مشروعا مختلفا عن الآخر، فالقيادة الجزائرية كانت تدافع عن الإسلام والمسلمين في الجهة الغربية للبحر المتوسط نيابة عن سلاطين الدولة العلية العثمانية، فيما كانت السلطات الإسبانية تتحمل مسؤولية الدفاع عن المسيحيين الكاثوليك وعموم الأوروبيين ضد الإسلام والمسلمين الذين كانوا الأعداء الرئيسيين للملوك الإسبان منذ احتلالهم لإمارة غرناطة سنة 1492م وما قبلها، لذلك عملوا بكل ما في وسعهم من أجل مطاردة المسلمين أينما حلوا وارتحلوا، واضعين في الحسبان أن بلاد المغرب الإسلامي هي الحاضنة الأولى للجهاد ضد النصارى، خاصة بعد نجاح خير الدين في تأسيس الإيالة الجزائرية ابتداء من سنة 926هـ/1520م، حيث استطاع حكام الإيالة تحرير كامل سواحل بلاد المغرب الأوسط والبلاد التونسية والطرابلسية، ما عدا المرسى الكبير ووهران اللذان بقيا عائقا أما أي تقارب بين الإسبان والجزائريين.

تكبدت إسبانيا والجزائر طيلة مدة الصراع خسائر مادية وبشرية فادحة، كانت لها عواقب وخيمة على الطرفين، خاصة إسبانيا التي اهتدى قادتها أخيرا إلى اختيار الحل الدبلوماسي، بدل الحل العسكري، الذي لم تجن منه إلا الهزائم المتتالية والخسائر الفادحة في الأموال والأرواح، هذا ما جعل الملك الإسباني كارلوس الثالث ومساعديه يسعون إلى إقناع حكام الإيالة الجزائرية بضرورة التوصل إلى اتفاق ينهي حالة الحرب بين الطرفين، إلا أنهم كانوا يدركون استحالة تحقيق هذه الأمنية، ومدينتي وهران والمرسى الكبير محتلتين من طرفهم، خاصة وأن الدبلوماسية الإسبانية حاولت سابقا سنة 1196هـ/1782م ولم تنجح، هذا ما جعلهم يفكرون في وسيط يتحمل مسؤولية تقريب وجهات النظر ويزيل العوائق العصاب بين الطرفين، علم القادة الإسبان أن السلطات الفرنسية هي الوحيدة القادرة على التوسط لدى الداي محمد بن عثمان باشا من أجل عقد سلام معه، بسبب العلاقات الحسنة التي تربط الفرنسيين والجزائريين، ومع ذلك ومباشرة بعد تدخل الدبلوماسية الفرنسية وعرضها الموضوع على الداي، رفض هذا المقترح جملة وتفصيل، ما دامت المدينتين محتلتين، إلا أن المفاوض الفرنسي دوكرسي «Kercy» لم ييأس، وظل يلح على الداي حتى استطاع إقناعه بضرورة توقيع اتفاق سلام مع السلطات الإسبانية، وهذا ما تم فعلا في شهر جوان 1200هـ/1786م، تم بموجبه إقرار حالة السلم لأول مرة ففي تاريخ العلاقات بين البلدين خلال العصر الحديث، وفتح المجال على مصراعيه من أجل مناقشة وحل كل القضايا العالقة بين سلطات البلدين، وفتح قنوات اتصال مباشرة بينهما.

2-العوامل المساعدة على توقيع اتفاق السلم والأمن الجزائري الإسباني.

- وصول القادة الإسبان سياسيين وعسكريين إلى قناعة مفادها أن مواصلة الصراع العسكري ضد الجزائر لن يفيدهم في شيء، خاصة وأنهم جربوا هذا المسعى منذ بداية القرن السادس عشر ميلادي ولم يجنوا منه إلا الهزائم المتوالية والخسائر الفادحة البشرية منها والمادية، ومما زاد من هذه القناعة هزائمهم المتتالية سنوات 1775، 1783، 1784م التي أكدت للمرة الأخيرة أن الجزائر لن تخضع لإسبانيا عسكريا مهما حاولت هذه الأخيرة، التي وصلت في الأخير إلى أنه لابد من فتح صفحة جديدة مع الجزائر ربما بفضلها تتحصل على مكاسب لم تحققها بالقوة العسكرية.
- عرفت إسبانيا في بداية القرن الثامن عشر ميلادي عدة هزائم عسكرية ومشاكل داخلية وخارجية ابتداء من حرب وراثة العرش الإسباني إلى صراعها المتواصل ضد إنجلترا حول جبل طارق، بالإضافة إلى مشاكلها داخل العالم الجديد الذي فقدت فيه الكثير من المواقع، زد على ذلك الهزائم المتتالية على يد الجزائريين، ما ألحق بها خسائر فادحة، فأثر فيها هذا وقررت التخلي عن وهران، ولم يعد لديها رغبة في الاحتفاظ بها، فاقترحت على إنجلترا استبدالهما بجبل طارق سنة 1780م إلا أن السلطات الإنجليزية رفضت هذا الاقتراح.[1]

عرفت إسبانيا خلال هذه الفترة نموا اقتصاديا هائلا، فكان لا بد لها من تأمين تجارتها الخارجية من اعتداءات الرياس، الذين كانوا ينتقمون من الإسبان لاحتلالهم وهران والمرسى الكبير، فأرادت بذلك أن تعمل شيئا ما لتحسين علاقاتها مع الجزائر[2]، فيما يرى ماتيوس أندرسن أن إسبانيا في هذه المرحلة صحيح عرفت نموا وازدهارا اقتصاديا، لكنه كان من العائدات التي جنتها من مستعمراتها داخل القارة الأمريكية -العالم الجديد- ولذلك مصالحها وحجم مبادلاتها كان أكثر أهمية وأكبر نشاطا من أي جزء في العالم خارج أوروبا[3]، بمعنى أن مصالحها الاقتصادية في المتوسط والعالم الجديد حتم عليها تأمين الطرق التجارية لمواصلة تطورها الاقتصادي الذي لا يتم إلا بتوفير الأمن لهذه التجارة، ومن أهم وسائل الأمن إقامة الصلح مع الجزائر لتأمين جزء من طرقها التجارية.

- لعبت الدبلوماسية الفرنسية دورا بارزا في تحقيق السلم بين الجزائر وإسبانيا يحركها في ذلك سببين رئيسيين:
  - التقارب الحاصل بين أسرة البربون الحاكمة في فرنسا وإسبانيا اللتان شكلتا تحالفا مهما داخل أوروبا.

---

1 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص23.

2 - جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص108.

3 - ماتيوس أندرسن: تاريخ القرن الثامن عشر في أوروبا، تعريب: نور الدين حاطوم، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1988م، ص 271.

- محاولة السلطات الفرنسية التقرب أكثر من حكام الجزائر حفاظا على مصالحها الاقتصادية، مخافة من التقارب الحاصل بين الجزائر وإنجلترا التي كانت تحاول أن تحل محل فرنسا للحصول على امتيازات في الجزائر، ولذلك حاولت تقريب وجهات النظر بين الطرفين، فقد أقنعت إسبانيا بتغيير سياستها المتسمة بالعداء المستمر ضد الجزائر، خاصة وأنها استطاعت إمضاء معاهدة مع الدولة العلية سنة 1782م بمساعدة فرنسا، فيما حاول القنصل الفرنسي دوكرسي إقناع السلطات الجزائرية بأهمية هذا الصلح وفوائده عليها.
- بالرغم من الموقف الحازم الذي تبناه الداي محمد بن عثمان باشا تجاه الإسبان وعدم قبوله لأي صلح ما لم يتم الانسحاب من مدينتي وهران والمرسى الكبير، إلا أن بعض الشخصيات البارزة التي كانت تساعد الداي في تسيير شؤون الإيالة، كان لها رأي آخر محاوِلة إقامة صلح مع إسبانيا يعود بفائدة على الجزائر، التي تكبدت خسائر فادحة طيلة قرنين ونصف من الزمن، ومثّل هذا الرأي وبشكل واضح وكيل الحرج حسن ابن أخت محمد بن عثمان باشا والذي خلفه فيما بعد.

وظل وكيل الحرج يرتبط بعلاقات حسنة مع الإسبان منذ أن تم أسره من طرفهم، وقدموا له هدايا معتبرة من أجل التوسط لإقامة صلح مع الجزائر، ولذلك اتهم بالرشوة[1]، وفي هذا الشأن يقول الزهار: «...**إنهم أهدوا إليه صورة شاة صوفها كله جوهر، ورأسها وقوائمها كلها حجارة كريمة، وتكلم الناس كثيرا في هذا المعنى... فلما رجع حسن وكيل الحرج من إستانبول، خاطب مولانا الباشا في الصلح فكان يقول: لا أصالحهم ما دمت حيا...**».[2]

إلا أن ما يحير المتأمل في الأحداث هو لماذا رفض الداي الصلح سنة 1783م ورضي بها سنة 1786م؟ وهل فعلا حسن وكيل الحرج تلقى رشوة من الإسبان؟

إن القناعات تتغير من يوم لآخر بالرغم من رفض الداي الدائم لعقد صلح مع إسبانيا إلا أنه قبل فيما بعد، وهذا ربما راجع لعدة ضغوط كان يلقاها من محيطه القريب والبعيد، وربما تأنيب الضمير والخسائر في الأرواح وهو الذي كان يشاهد حالة الهلع والخوف الذي أحدثه الإسبان سنوات 1775، 1783، 1784م فكان يريد أخذ استراحة لشعبه، خاصة وأنه عرف عنه تقواه وخوفه من الله وحبه للخير وربما للضغوطات التي حدثت له من طرف سلاطين الدولة العلية نفسها، التي أبرمت صلحا مع إسبانيا سنة 1782م، ولذلك كثرت الضغوط لإبرام اتفاق بالموازاة مع الجزائر، بالإضافة إلى أن المغرب الأقصى أمضى معاهدة صلح مع إسبانيا في ماي 1780م تحت

1 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 30.

2 - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص54.

إشراف السلطان المغربي مولاي محمد بن عبد الله، وتضمنت المعاهدة ما يشير إلى ضرورة وضع علامة عل السفن المغربية حتى يتم تمييزها عن غيرها خاصة في الليل، كما تمكنت طرابلس الغرب من عقد صلح مع إسبانيا سنة 1783م.[1]

وبهذه المعاهدات استطاعت إسبانيا عزل الجزائر عن محيطها الإسلامي، ووضعت الداي في موقف حرج أمام الدولة العلية، فارضة بذلك سياسة الأمر الواقع، لتؤكد للسلطان العثماني أن الداي محمد بن عثمان هو الرافض للصلح، خاصة وأن إسبانيا حاولت سنة 1768م إجراء محادثات إلا أن الديوان رفض ذلك ما دامت وهران والمرسى الكبير تحت سيطرتها، مع العلم أنه تم تبادل الأسرى بين الطرفين، وأطلقت إسبانيا سراح 1200 أسير مسلم فيما أطلقت الجزائر حوالي 712 أسير، لتعاد نفس الاتفاقية سنة 1783م، حيث أطلقت إسبانيا 1106 أسير مقابل إطلاق الجزائر سراح 570 أسير إسباني.[2]

- ربما تغيرت قناعات الداي بعد أن شاهد إسبانيا تبرم كل هذه الاتفاقيات وتحاول التقرب من الجزائر لفتح مذكرات سياسية رغبة منها في عقد الصلح.
- ربما قد يكون ضغط أعضاء الديوان على الداي لقبول السلم بدل الحرب التي طال أمدها، خاصة وأن الداي بدأ يفقد الكثير من مؤهلاته الجسدية والعقلية نتيجة تقدمه في السن.
- قد يكون الداي حاول تجريب الطرق السلمية لاسترجاع وهران والمرسى الكبير بدل الحرب، خاصة وأننا لاحظنا أنه من بين شروط الصلح استرجاع المدينتين.
- قد يكون الضغط الذي مارسه وكيل الحرج على الداي لأنه ابن أخته ومن المقربين إليه.

بالرغم من أن الكثير من الباحثين يُحمل السلطات الجزائرية المسؤولية لأنها لم تكن راغبة في الصلح نتيجة الصراع الطويل ضد إسبانيا، إلا أن الواقع يثبت أن الجزائر لم تكن أبدا البادئة بالحرب ضد إسبانيا، بل العكس هو الذي حدث، وإلى غاية هذه المحاولات في إقامة الصلح لا زالت إسبانيا تحتل وهران والمرسى الكبير فكان طلب الجزائر الأساسي هو خروج الإسبان من المدينتين وهو حق مشروع لذلك لا يمكننا القول أن الجزائر لم تكن راغبة في الصلح أو أن الصراع الطويل هو الذي حتم عليها الصلح، بل قبول إسبانيا الجلاء عن وهران والمرسى الكبير هو الذي جعل الجزائر تقبل الصلح.

1 – مولاي بلحميسي: صفحات من تاريخ مدينة الجزائر...، المرجع السابق، ص16.

2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 472.

3-المفاوضات الجزائرية الإسبانية

3-1-إرهاصات العلاقات السلمية الجزائرية الإسبانية

تعود أولى محاولات التقارب الجزائري الإسباني إلى سنة 1119هـ/1707م أين كانت هناك اتصالات بين الحاكم الإسباني لمدينتي وهران والمرسى الكبير الدون خوان فرانكو وباي الغرب الجزائري مصطفى بوشلاغم، بالرغم من الطابع الجهوي لهذه الاتصالات، إلا أنها تعتبر محاولة تستحق الذكر في زخم الصراع العسكري الطاغي على العلاقات الثنائية بين الإمبراطورية الإسبانية والإيالة الجزائرية، وكانت هذه الاتصالات أول محاولة قام بها الإسبان من أجل التوصل لاتفاق مع الجزائريين منذ بداية احتلال السواحل المغاربية، وقد حرر مشروع المعاهدة بتاريخ 10 جوان 1707م، حيث تضمنت العديد من البنود، نذكر منها:

- إقامة علاقات سلمية بين الطرفين الجزائري والإسباني.
- كل المناطق الجزائرية الغربية ما عدا وهران والمرسى الكبير لها الحق في السلم والأمان.
- يلتزم باي الغرب الجزائري مصطفى بوشلاغم بجمع الضرائب من السكان المحليين الذين يريدون الدخول لأماكن الاحتلال الإسباني في الجهة الغربية مقابل السماح لهم بارتيادها.
- كل الأسرى الجزائريين لدى الإسبان –أتراك وسكان محليين–لهم الحق في اعتناق الدين الإسلامي وعدم تغييره، ومن يرفض ذلك يباع للسلطات الجزائرية.
- كل الأسرى المسيحيين لدى السلطات الجزائرية لهم الحق في الافتداء إذا رفضوا اعتناق الدين الإسلامي.
- إذا هرب السكان الذين تحت سلطة الاحتلال الإسباني إلى السلطات الجزائرية هربا من دفع الضرائب، يجب عليها دفع الضرائب المترتبة عنهم.[1]

وهناك يجب أن يبدي بعض الملاحظات التي رأينا أنها لا تتوافق بتاتا مع هذه الوثيقة المشفرة، ولا يمكن التسليم بها، بسبب العديد من الأسباب نذكر منها:

- بالرغم من محاولاتنا المتكررة للحصول على نص هذه المعاهدة في مصادر جزائرية أو أجنبية، لم يتسن لنا ذلك، إلا ما وجدناه منشورا عند جمال قنان، ولذلك لم نحصل على أي دليل يثبت لنا أن الباي مصطفى بوشلاغم اطلع على نص هذه المعاهدة أو دخل في مفاوضات مع الطرف الإسباني حولها، فكيف بتوقيعها؟

1 – جمال قنان: المرجع السابق، ص ص 201، 202.

- تعتبر هذه المعاهدة مجرد مشروع وضعه الحاكم الإسباني لوهران من أجل جس نبض الباي مصطفى بوشلاغم ومن وراءه السلطات الجزائرية.
- لا يمكننا أن نتصور أن الداي محمد بن عثمان باشا يعطي تفويضا لمصطفى بوشلاغم من أجل الدخول في مفاوضات مع الإسبان، وهو الذي كان يرفض جملة وتفصيلا أي تقارب معهم ما لم يتم تحرير المدينتين بالكامل.
- كيف يمكننا تصور مثل هذا الأمر مع الداي محمد بن عثمان باشا، حيث وافق على إمضاء معاهدة في جوان، ثم يدعو للنفير العام للجهاد ضد الإسبان المحتلين وحصارهم في شهر سبتمبر 1707م؟
- عُرف عن الداي محمد بن عثمان باشا كرهه الشديد للإسبان المحتلين وسعيه الحثيث من أجل تحرير مدينتي وهران والمرسى الكبير، فهل يعقل أن يوافق على هذه المعاهدة؟
- كان الباي مصطفى بوشلاغم يسعى دائما لتحرير وهران والمرسى الكبير، وطرد الإسبان منها، هل فعلا يوافق على بقاء الاحتلال بها؟
- الإخلاص والتبعية والاحترام الذي كان يكنه الباي مصطفى بوشلاغم للداي محمد بن عثمان باشا يحتم عليه عدم التقارب مع الإسبان أو الدخول في تسويات يعلم مسبقا أنها مرفوضة من طرف داي الجزائر.

بالرغم من نشر بنود هذه المعاهدة، إلا أنه يمكننا إعطاء احتمالين لا ثالث لهما:

1- تعتبر هذه المعاهدة مجرد مشروع لا أكثر ولا أقل، تم إخراجه للعلن من أجل تثبيط عزائم الجزائريين وإفشال الحصار المفروض على المدينتين أملا في وصول الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر سريعا.
2- وقد تعتبر هذه المعاهدة مجرد مشروع موجه للرأي العام الإسباني الذي ضاق ذرعا بالهزائم المتتالية على يد الجزائريين، لذلك أخرجت المعاهدة لإثبات سيادة الإسبان على مدينتي وهران والمرسى الكبير، اللتان كانتا تشكلان بالنسبة للإسبان أهمية سياسية واستراتيجية وعسكرية واقتصادية لا يمكن التفريط فيهما بأي حال من الأحول.

3-2-المفاوضات الجزائرية الإسبانية النهائية لعقد اتفاق السلم سنة 1200هـ/1786م.

لأول مرة منذ بداية الصراع الجزائري الإسباني، بادرت السلطات الإسبانية إلى طلب إقامة سلام دائم مع نظريتها الجزائرية، وسارعت إلى إرسال مبعوثا عنها إلى الجزائر لجس نبض الداي علي باشا بوصبع (1748-1766م) ومعرفة رأيه في إقامة صلح معها، إلا أن الداي الجزائري قابل هذا المسعى بالرفض المطلق ما لم يتم تحرير المدينتين بالكامل، لتتواصل المساعي الإسبانية في عهد خلفه محمد بن عثمان باشا، الذي وقف بالمرصاد لكل

محاولات الإسبان، رافضا إعطاءهم أي أمل في السلام معهم ما لم يتمك خروجهم نهائيا من مدينتي وهران والمرسى الكبير.

بعد فشل المفاوضات المباشرة مع السلطات الجزائرية حاولت السلطات الإسبانية اتباع أسلوب المفاوضات غير المباشرة عن طريق السلطان المغربي محمد بن عبد الله طالبة منه التوسط لها من أجل عقد صلح مع الجزائر، فأرسل السلطان المغربي مبعوثا عنه إلى الداي محمد بن عثمان راجيا منه باسم الدين والعروبة قبول الصلح مع إسبانيا إلا أن الداي كان رده قاسيا قائلا: «...**هل طلبت مشورتي عندما عقدت صلحا مع الإسبان**...»[1] ونتيجة لهذا الرد اتجه السلطان المغربي إلى السلطان العثماني للضغط على الداي[2]، هذا الأخير الذي كرر رفضه القاطع لأي تقارب مع الإسبان، ولذلك لم تجد محاولات السلطان المغربي نفعا ولا ضغوطات السلطان العثماني.

وأمام تعنت الداي اتجهت السلطات الإسبانية إلى الدول الأوروبية عارضة عليهم امتيازات عديدة، من أجل التوسط لها لدى الداي وإقناعه بإقامة صلح معها، إلا أن كل المحاولات باءت بالفشل أمام تعنت الداي في موقفه اتجاه إسبانيا.

استطاعت السلطات الإسبانية عقد صلح مع سلطات الدولة العلية العثمانية عام 1196هـ/1782م وقد أشار مصطفى بن عثمان خوجة إلى هذه المعاهدة وتساءل عن السهولة التي استطاع بها ملك إسبانيا إقناع السلطان العثماني بضرورة إبرام هذه المعاهدة بينهما، حيق قال: «...**إننا لا ندري بأي حيلة استطاع الكافر عقد صلح مع الباب العالي، والشكوى ضد إيالة الجزائر التي ألقحت خسائر كبيرة بسواحله وسفنه التجارية في البحر المتوسط**...»[3]، وقد تحصلت إسبانيا بموجب هذه المعاهدة على عدة امتيازات في كامل الإيالات العثمانية بما في ذلك الإيالات المغاربية الثلاث (الجزائر، طرابلس الغرب، تونس) التي تلقت فرمانات تطلب منها إقامة معاهدة سلم مع إسبانيا، ووصل مبعوث الدولة العلية إلى الجزائر لإخبارها بتلك المعاهدة، طالبا الاستجابة لأوامر الباب العالي بضرورة إقامة صلح مع إسبانيا، لكن الداي محمد بن عثمان رفض الاستجابة لأوامر السلطان مفضلا إبقاء حالة الحرب مع إسبانيا قائلا: «...**إنني أعلم أن ملك إسبانيا شارل الثالث يقوم بتجهيز أسطوله، وتجبنا من أن يعتقد أنني خفت منه لذلك هرعت إلى عقد صلح ولهذا فلا أريد التحدث بهذا الموضوع**...[4]».*

1 – شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص 125.
2 – امحمد موفقي: المرجع السابق، ص60.
3 – شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص 129.
4 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص539.

وقد استطاع الأستاذ يحي بوعزيز -رحمه الله- دراسة حوالي 109 رسالة تبادلها الطرفان الجزائري والإسباني خلال السنوات الممتدة من 1780-1798م وأفرد لها كتابا عرض فيه المراسلات الجزائرية الإسبانية حسب السنوات والأشخاص واللغة التي كتبت بها والمواضيع التي تطرقت إليها.

من خلال هذا الكتاب نلاحظ أن المفاوضات كانت طويلة وشاقة، علما أن العلاقات بين الطرفين كانت متوترة بسبب الاحتلال الإسباني لمدينتي وهران والمرسى الكبير، لذلك عملت إسبانيا جاهدة تحييد قضية المدينتين من أجل إقامة الصلح، فيما رفضت الجزائر هذا المسعى، فحاولت إسبانيا استغلال علاقاتها الحسنة مع حسن وكيل الحرج لإقناع الداي بعقد صلح معها، وما يؤكد هذا المسعى أن حسن وكيل الحرج وجه في الفترة الممتدة مابين 1780-1798م 38 رسالة[1] منها 16 رسالة عندما كان وكيلا للحرج، و22 رسالة عندما أصبح دايا للجزائر، فأظهر أثناء حكمه ميولا وتسامحا مع الإسبان وهذا ما يؤكده بول ماسو «Paul Masson» بقوله: «أن الداي حسن منح إسبانيا امتيازات معتبرة، لأنه على عكس سلفه فقد عرف بكرهه للفرنسيين وحبه للإسبان».[2]

الملاحظ أن المفاوضات الجزائرية الإسبانية بدأت منذ سنة 1777م، أي بعد حملة الكونت أورللي الفاشلة، أو ربما قبلها كما تؤكده الرسائل المتبادلة بين حسن وكيل الحرج والوزير الأول الإسباني الكوندي دو فلوريدا بلانكا «El Conde de Florida Blanca» بتاريخ 04 جانفي 1780م ردا على رسالة الوزير الإسباني المؤرخة بتاريخ 13 أفريل 1779م، أخبره أن الجزائر قبلت شروط الصلح المقترحة بين الطرفين وتنتظر فقط موافقة الدولة العلية، مبلغا إياه أنه اتصل بالماركيز قونزاليز، وتلقى منه رسالة بتاريخ 23 جانفي 1778م، مما يؤكد أن مفاوضات الصلح بدأت في وقت مبكر بين الطرفين[3] *، وبعد فشل هذه المفاوضات المباشرة تدخلت

---

* - لا يمكننا التصديق بمثل هذه الرواية التي تبدو ساذجة لأبعد الحدود، فلا يعقل أن الداي رفض عقد صلح بمجرد أن يتهم بالخوف والجبن، لكن الواقع أن استراتيجية الداي هي التي كانت وراء هذا الرفض، فكيف يعقل أن يعقد صلحا مع إسبانيا وهي مازالت تحتل المرسى الكبير ووهران، فيما كانت القوات الجزائرية تحاصر الإسبان بالمدينتين لمدة كبيرة جدا من الزمن، في محاولة لتحريرهما، خاصة وأن إسبانيا كانت ترفض رفضا قاطعا التطرق لهذه المسألة.

1 - للاطلاع على هذه المراسلات ينظر: يحي بوعزيز: المراسلات الجزائرية الإسبانية...، المرجع السابق، ص ص 22-55.

2 - *Masson (Paul): Histoire des Etablissent de Commerce Français dans L'Afrique Barbaresque, 1560-1793,Hachette, paris, 1930, p 102.*

3 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 31.

* - لم نعثر في المصادر -العربية المحلية أو العثمانية المعربة-ما يؤكد أن المفاوضات بين الطرفين لم تسبق المفاوضات الإسبانية العثمانية أو حتى مراسلات جزائرية عثمانية تتكلم حول هذا الموضوع، فمن خلال هذه الدراسة يمكن القول أن المفاوضات الجزائرية الإسبانية انطلقت بسنوات طويلة قبل توقيع المعاهدة العثمانية الإسبانية سنة 1782م.

الدبلوماسية الفرنسية في محاولة منها تقريب وجهات النظر بين الطرفين بقيادة القنصل فاليار «M. Valliére» الذي كان يفاوض باسم الإسبان إلا أن هذه المفاوضات لم تصل إلى نتيجة.[1]

ومباشرة بعد فشل حملتي الكونت أنطونيو بارسللو الأولى والثانية سنتي (1783-1784م) بدأت مفاوضات رسمية بين الطرفين في جوان 1785م بهدف التوصل إلى اتفاق، حيث قاد هذه المفاوضات الأميرال مازاريدو والكونت دكسي «Dexilly» وبمساعدة القنصل الفرنسي بالجزائر دوكرسي الذي عمل على تقريب وجهات النظر بين الطرفين الجزائري والإسباني، خدمة لمصالح إسبانيا المتحالفة مع فرنسا في ذلك الوقت.

كمبادرة حسن نية تجاه إسبانيا كتب الداي محمد بن عثمان باشا رسالة إلى الملك كارلوس الثالث بتاريخ 20 ذو الحجة 1199هـ الموافق لـ 24 أكتوبر 1785م يبلغه أن الجزائر قررت منع بحارتها من ممارسة أي نشاط في البحر ابتداء من 09 محرم إلى 10 ربيع الثاني 1200هـ الموافق لـ 12 نوفمبر 1785م إلى 10 فيفري 1786م[2] [*]، وهي بمثابة إعلان هدنة مؤقتة من جانب واحد كدليل على حسن نية الجزائر تجاه إسبانيا.

نلاحظ أن هناك تناقضا واضحا بين مواقف الداي المتصلبة والرافضة لأي تقارب مع إسبانيا، وفي نفس الوقت يعقد هدنة أحادية الجانب معها، فكيف نستطيع تفسير هذا الموقف؟ مع العلم أن هذه الرواية سكتت عنها جميع المصادر المحلية المعاصرة، وانفردت بها المصادر الإسبانية، والتي نقلها لنا الأستاذ يحي بوعزيز، فهل تأثر الداي بمواقف وكيل الحرج حسن؟ أم أنه كان يريد فعلا عقد هدنة مع إسبانيا لأن الحرب أنهكت قواته؟ أم أن جهات خفية لعبت دورا في هذا الموقف ولا نعلم عنها شيئا؟ أم أن فرنسا بقيادة قنصلها كان لها أثر مباشر في هذا الموقف؟ أم أن الداي اقتنع بوجوب إقامة صلح مع إسبانيا التي كانت تسعى جاهدة في سبيل ذلك واستعملت كل الطرق والأساليب لتحقيق ذلك؟

تواصلت المفاوضات بين الطرفين عاما كاملا قبل أن يتم التوصل إلى اتفاق بشروط اتفق عليها الطرفان وقد أظهرت الدبلوماسية الإسبانية خلال هذه المفاوضات عزيمة كبيرة من أجل التوصل إلى سلام مع الجزائر، ليتم التوقيع على اتفاقية سلام بين البلدين بتاريخ 17 شعبان 1200هـ الموافق لـ 14 جوان 1786م.[3]

---

1 - امحمد موفقي: المرجع السابق، ص61.

2 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 33.

*-بالرجوع إلى قراءة الرسالة في نفس الكتاب ليحي بوعزيز وفي ترجمته للرسالة من التركية إلى العربية وجدنا أن الداي محمد بن عثمان باشا أعلم الملك كارلوس أن المراكب لا تخرج للحرب والجهاد إلى غاية أواخر شهر مارس ولذلك فإن المدة 4 أشهر وليست 3 أشهر.

3 - يحي بوعزيز: الموجز...، المرجع السابق، ص 331.

4-بنود الصلح الجزائري الإسباني*

أصبح هذا الاتفاق ساري المفعول بعد أن وقعه عن الجانب الجزائري الداي محمد بن عثمان باشا وعن الجانب الإسباني الكونت دكسي والأميرال مازاريدو وقائد العمارة البحرية نيابة عن الملك كارلوس الثالث وتضمن هذا الاتفاق 25 بندا شملت العديد من الجوانب الخاصة بالعلاقات بين الطرفين، خصوصا الحقوق الجمركية والامتيازات التجارية والتمثيل الدبلوماسي والإجراءات الخاصة بحالة السلم التي أقرها الطرفان والأسرى... ويمكننا تصنيف بنود الاتفاق حسب محتوياته إلى عدة بنود منها:[1]

أ-البنود السياسية والعسكرية (01-04-8-20-21-23-25)

- إقرار السلم بين الطرفين الجزائري والإسباني حكومة وشعبا بدون استثناء.
- عدم مهاجمة مدينة وهران والمرسى من طرف الجزائر، وتكليف الباي بمنع أي هجوم على القوات الإسبانية الموجودة بالمدينتين، حتى وإن قام الأهالي بمهاجمة الإسبان هذا لا يمنع من بقاء حالة السلم بين البلدين.[2]**
- لا ترسو المراكب الإسبانية في السواحل الجزائرية بدون علم السلطات المحلية، حتى لا يُعتبر عملا عدوانيا موجها ضدها (الجزائر).
- إن حدث وقُطعت العلاقات بين الطرفين، يكون لرعايا البلدين مدة ثلاثة أشهر لمغادرة وحمل أمتعتهم وعدم اعتراض سبيلهم قبل سفرهم أو أثنائه.
- احترام رعايا الملك الإسباني ليس فقط على السواحل الإسبانية بل يمتد ذلك إلى السواحل البابوية، وعدم التعرض للشخصيات التي أسبغ عليها ملك إسبانيا حمايته، في مقابل احترام الملك الإسباني لجميع رعايا الدولة الجزائرية.
- للجزائر الحق في مفاوضة الدول التابعة لإسبانيا لتكون لها علاقات حسنة مع الدولة العلية.

---

* – يعتبر الكثير من المؤرخين أن الجزائر وقعت معاهدة مع إسبانيا، وهذا خطأ لأن المعاهدة تكون وفق شروط واضحة وتكون طويلة الأمد، أما الاتفاق فيكون مؤقتا على قضايا واضحة، والجزائر هنا مازلت خاضعة للاحتلال الإسباني (وهران والمرسى الكبير)، وبالتالي لم توقع معاهدة بل اتفاقا مؤقتا ريثما يتم التفاهم على كل القضايا، للاستزادة ينظر: ناصر الدين سعيدوني: "**المعاهدة الجزائرية الإسبانية 1791**، ع7، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، 1414هـ/1993 م، ص75.

1 – وفق بنود الاتفاق الذي أورده يحي بوعزيز في كتابه المراسلات الجزائرية الإسبانية...، المرجع السابق، ص 41-47.

2 – مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص 17.

** – نتساءل كيف وافق الداي على هذا الاتفاق وخصوصا هذا الشرط، الذي أبقى المدينتين تحت حكم الاحتلال الإسباني، مع أننا نعلم أنه كان رافضا لأي تقارب مع الإسبان ما دامت المدينتين تحت الاحتلال، مما يؤكد لنا أن هناك نقاط خفية في هذا الاتفاق مازالت غامضة، وأن الداي وقع تحت الضغط لقبول هذا الاتفاق.

- حماية مراكب الطرفين من أي هجوم على سواحل الجانبين وتقديم المساعدة اللازمة حتى خروجها آمنة.
- تعهد الطرفان بعدم تقديم المساعدة لأي دولة تعلن الحرب على إحداهما.

ب-البنود التجارية (7-9-18-22)

- للتجار في البلدين الحق في التجارة بحرية مطلقة شريطة الخضوع لقوانين أسواق البلدين.
- تحديد قيمة الرسوم الجمركية على تجار البلدين بنفس القيمة التي يدفعها التجار الفرنسيون في البلدين.
- للإسبان الحرية في شحن وإفراغ البضائع دون إكراه من الطرف الجزائري أو تحديد الوجهة إلى مكان معين.
- في حالة التوقف الاضطراري للسفن الإسبانية على السواحل الجزائرية، بدون إفراغ أو شحن البضائع لا يمكن أخذ الرسوم الجمركية عنها.

ج-البنود الأمنية وحقوق الأسرى (2-3-6-17)

تقديم المساعدة للسفن الإسبانية المارة على السواحل الخاضعة للجزائر.

- في حالة تفتيش السفن الإسبانية لا يمكن إرسال أكثر من شخصين لهذا الغرض.
- حرية تنقل السفن الإسبانية والجزائرية، في كامل السواحل الخاضعة للطرفين.
- حرية رسو سفن الطرفين على مرافئ الجانبين إذا اقتضت الضرورة.
- تعويض الخسائر الناتجة على تعرض أحد الطرفين لمركب الآخر، ومعاقبة من قام بهذا الفعل.
- التعهد بعدم أسر أي أحد من الأعداء الموجودين على متن مراكب الطرفين.
- عدم أسر رعايا البلدين على مراكب معادية، بعد إظهار جوازات السفر التي تثبت انتماءهم للبلدين.
- عدم قبول فرار العبيد والأسرى إلى سفن بلادهم سواء إسبانيا أو الجزائر عندما تمر هذه السفن على موانئ البلدين.[1]

د-الحقوق القنصلية (10-12-14-15-19)

- يتمتع القنصل الإسباني بنفس الحقوق التي يتمتع بها القنصل الفرنسي.
- للقنصل الحق في محاكمة رعاياه وفق الأحكام القضائية الإسبانية.
- للقنصل الإسباني الحق في اختيار ترجمانه ومعاونيه، وزيارة سفن بلاده ورفع علم بلاده فوق زورقه أو منزله.

1 – ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص76.

- لا يتحمل القنصل المسؤولية على ديون التجار الإسبان أو الأشخاص إلا إذا تعهد كتابيا بذلك.
- توضع أملاك الإسبان المتوفين بالجزائر تحت تصرف القنصل الإسباني.
- يعفى القنصل الإسباني من جميع الرسومات المتعلقة بمؤونته وأثاث منزله.
- للداي الحق في تعيين ممثل للدولة الجزائرية بإسبانيا متى شاء.
- حرية ممارسة شعائر الدين المسيحي لجميع الرعايا الإسبان الموجودين بالجزائر.
- للإسبان المقيمين بالجزائر حق التقاضي أمام مجلس الباشا والداي والديوان والإنكشارية بحضور القنصل الإسباني أو من ينوب عنه.
- في حالة اعتداء إسباني على جزائري أو تركي لا يعاقب في غياب القنصل، الذي لا يتحمل المسؤولية في حالة فرار المتهم.

ما يمكننا ملاحظته على هذه الاتفاقية أنها أبقت وضع مدينتي وهران والمرسى الكبير تحت سلطة الاحتلال الإسباني، وعدم الإشارة صراحة إلى التمثيل الدبلوماسي للجزائر بإسبانيا إضافة إلى السكوت نهائيا عن الحقوق القنصلية للجزائر، وحقوق الرعايا الجزائريين بإسبانيا في حالة وجودهم هناك، وأيضا تلك الحقوق التي أعطيت للرعايا الإسبان فوق الرعايا الجزائريين، خاصة حق التقاضي، حيث يكون تقاضيهم مباشرة لدى الداي وليس أمام قاض عاد يتحاكم عنده كل رعايا الدولة، خاصة بالنسبة للحقوق الدينية للإسبان لدى الجزائر وعدم ذكر ذلك فيما يخص المسلمين بإسبانيا وحقهم في ممارسة الشعائر الإسلامية، علما أنها منعت كل مظاهر الدين الإسلامي على أراضيها.

فهل تم التلاعب بالألفاظ من طرف المفاوضين خاصة دكسي؟ أم أن بنود المعاهدة تختلف بين تحريرها باللغة العربية واللغة الإسبانية؟ أم أن السلطات الإسبانية تعمدت نشر هذه الاتفاقية الإسبانية حتى تثبت تفوقها على السلطات الجزائرية؟

5-الخلافات الجزائرية الإسبانية بعد إمضاء اتفق الصلح.

حدثت خلافات كبيرة جدا بين السلطات الجزائرية ونظيرتها الإسبانية، بسبب الاختلاف الكلي في وجهات النظر حول القضية الرئيسية التي عكرت صفو العلاقات الثنائية طيلة قرنين ونيّف من الزمن، وهي احتلال مدينتي وهران والمرسى الكبير، واللتان حاولت الدبلوماسية الإسبانية التنصل من التزاماتها تجاههما، وعدم الاعتراف بتحريرهما، وهذا ما أثار حفيظة الجزائريين الذين أسحوا أنهم خدعوا من طرف الفرنسيين والإسبان على حد السواء، ففي كل بنود المعاهدة لم يأت ذكر المدينتين ووضعيتهما الجديدة، هذا على الأقل في النسخة الأصلية من

المعاهدة المكتوبة باللغة الإسبانية، فحتى في البند العشرين من الاتفاق الذي أشار إلى وهران، لم يشر إلا إلى عدم مهاجمة المدينة من طرف قوات باي الغرب الذي يجب عليه الموافقة على قرارات الداي، الذي تعهد بعدم مواجهة المدينة، مع إعفاء الداي من المسؤولية لأي هجوم من طرف الأهالي أو العصاة المتطرفين.

وهذا ما يجعلنا نشكك في صحة هذا الاتفاق، وإمكانية تعرض النسخة الإسبانية للتحريف والتزوير لا سيما وأن بعض المؤرخين مثل مرسي «Mercier» ودوغرامو «Grammont» الذي يشير إلى وجود بند في اتفاق سنة 1786م يلزم الإسبان بالانسحاب من وهران والمرسى الكبير[1]، مقابل الضمانات والتعهدات التي أعطيت لهم، وهذا إثبات أن النسخة الإسبانية من المعاهدة التي كانت موجهة للرأي العام الإسباني وقع فيها تزوير على عكس النسخة التي كتبت باللغة التركية، لأن الرأي العام الإسباني كان يرى التخلي عن وهران والمرسى الكبير عملا غير مشرف للعرش الإسباني، خاصة وأن التضحيات التي قدمها الجيش الإسباني في استرجاع المدينتين سنة 1732م كانت كبيرة جدا، وتأكيد الملك الإسباني لجنوده أن هذا النصر هو بمثابة نصر لكامل المسيحيين[2]، لأنها تمثل البوابة الرئيسية في نشر الدين المسيحي في بلاد المغرب.

أو أن النص الذي كُتب باللغة الإسبانية تم مراجعته وتنقيحه فيما بعد، حتى لا تُطرح قضية الانسحاب من وهران والمرسى الكبير، لأن الحكام الإسبان كانوا يأملون أن الأموال الضخمة التي سوف يدفعونها للجزائر كفيلة بأن تنسيهم مطلبهم الأساسي المتمثل في استرجاع المدينتين.

لكن بالرجوع إلى الرسائل المتبادلة بين الطرفين يمكننا القول أن الداي محمد بن عثمان باشا اكتشف أن هناك تلاعب من طرف الإسبان بنص الاتفاق، ففي رسالة[3] بعث بها الداي إلى الكونت دي فلوريدا بلانكا مؤرخة بتاريخ 09 رجب 1201هـ الموافق لـ 24 أفريل 1787م ذكر فيها خيانة الكونت دكسي الذي قام بتغيير ثلاثة بنود من الاتفاق وهي: البند الرابع المتعلق بالتجارة، البند العشرون الخاص بوهران والمرسى الكبير والبند الخامس والعشرون الذي يخص تحديد شواطئ الدولة البابوية بإيطاليا، ولذلك أعرب الداي عن رأيه في المراسلة صراحة واتهم الكونت دكسي بالخيانة وعدم الأمانة في نقل بنود الاتفاق المبرم[4]، ولذلك يتأكد لنا أن النسخة الإسبانية حدث بها تزوير خدمة لمصالح إسبانيا الداخلية، على عكس النسخة التركية التي تؤكد انسحاب الإسبان من وهران والمرسى الكبير، كما أثبتتها هذه الرسالة، بالإضافة إلى رفض الداي لأي تغيير أو مناورة فيما يخص

---

1 – مولود قاسم نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، ج1، ط2، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م، ص 175؛ *Grammont (H. De): Histoire…, op.cit, pp 337-338*.

2 – ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 77.

3 – ينظر نص الرسالة مترجمة إلى العربية عند يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص ص110-112.

4 – نفسه، ص 111.

البند الخامس والعشرين، لأن حرمة المراكب الإسبانية محددة حسب نص الاتفاق بمسافة رمي مدفع من الشواطئ الجزائرية، أما من غير الشواطئ فلا أمان للإسبان ولا يوجد نص أو عقد صالح بين الطرفين يبين ذلك.

وتذكر المصادر التاريخية أن السلطات الجزائرية أمضت اتفاق مع إسبانيا مدته ثلاث سنوات ولم يكن صلحا دائما لأنها كان لاتزال تحتل وهران والمرسى الكبير، وحتى هذه الهدنة كانت تحت تأثير وضغط الأحداث الجارية آنذاك منها الضغوط الداخلية، والتي تمثلت في ضغط حسن وكيل الحرج، أما الضغوط الخارجية فتمثلت في إمضاء الدولة العلية لمعاهدة مع إسبانيا، إضافة إلى المغرب الأقصى الذي وقع معاهدة مع إسبانيا، وقد أشار إلى ذلك مصطفى بن حسن خوجة على لسان الداي بقوله: «...**لقد صرنا منذ ذلك اليوم لا نخاف ذلك الكافر الذي هزمناه في البر والبحر، شأنه في ذلك شأن أجداده، وأن عقد الصلح لا يعتبر أبدا عارا بالنسبة إلينا، لأن ذلك الصلح سنعقده معه وهو تحت سلطان سيوفنا، وعلاوة على ذلك فإنه هو الذي طلب الصلح ولسنا نحن الذين طلبنا ذلك، كما أن الصلح الذي سنعقده لمدة ثلاث سنوات سيوفر للإيالة أموالا كثيرة من خزائن ذلك الكافر، مما يمكننا من تعويض الخسائر التي لحقتنا، وإلى جانب ذلك فإنه قد تم عقد الصلح مع الباب العالي أيده الله بحكمه، وكذلك مع سلطان فاس، وبقينا نحن بينهما، ولذلك فإن صلحنا نحن لمدة ثلاثة سنوات مع ذلك الكافر لن يمس بسمعتنا أمامه، لأننا سبق أن أعطيناه حقه "وانتصرنا عليه" في البر والبحر**...».[1]

بالرغم من إمضاء الداي لهذا الاتفاق، إلا أنه لم يكن راضيا تماما على نفسه بمهادنة الإسبان ونستشف ذلك مما نقله لنا مصطفى بن حسن خوجة بقوله: «...**لا تحزني يا جزائر على ما حدث، فإن الله قد فضلك على سائر البلدان بكونك دار الجهاد، وستعود الأيام التي كانت تدوي فيها المدافع من جديد... لأن صلحنا مع إسبانيا يعد غدرا كبيرا، وجهادنا ضدها هو بالنسبة إلينا مثل عيد الأضحى**...».[2]

ما يمكننا ملاحظته من خلال هذا النص:

- أن الداي لم يكن راضيا تماما على هذا الاتفاق.
- أن الداي قد وقع تحت ضغوط رهيبة من أجل إمضاء هذا الاتفاق، وقد يكون من طرف وكيل الحرج والديوان.
- ضعف الداي أمام خصومه القابلين للعرض الإسباني.

1 - شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص132.

2 - نفسه، ص134.

- تلهية الداي نفسه على أمل استرجاع قوته ونفوذه حتى يقوم بالجهاد ضد الإسبان.
- ربما فعلا أن المفاوضات أبقت على الوضع القائم لوهران والمرسى الكبير، وإلا بماذا نفسر قوله أن الصلح مع إسبانيا يعتبر غدرا كبيرا، وأن الأصل هو الجهاد الذي اعتبره بمثابة عيد الأضحى، حينما يتم استرجاع وهران والمرسى الكبير.

السؤال المطروح هو من الذي أجبر الداي على توقيع الصلح؟ والذي اعتبره غدرا وخيانة كبيرة، ومما لا شك فيه من خلال هذه النصوص أن الداي وقع تحت ضغوط داخلية وخارجية كبيرة جعلته يوقع هذا الاتفاق، علما أنه بدأ يفقد قوته وهيبته مع تقدمه في السن.

يعتبر هذا الاتفاق بمثابة هدنة مؤقتة أرادها الجزائريون أن تكون محطة لاسترجاع الأنفاس، وتقوية الجيش البري والبحري من أجل الاستعداد للمعركة الفاصلة واسترجاع وهران والمرسى الكبير، خاصة وأن إسبانيا أرادت شراء السلم مع الجزائر بالمال، ربما على أمل بقاء الوضع كما هو! ومع ذلك يمكن القول أن هذا الاتفاق استطاع تقريب وجهات النظر بين الطرفين بعد قطيعة دامت حوالي ثلاثة قرون من الزمن، وكان مقدمة لمعاهدة سنة 1791م في عهد الداي حسن.

6-نتائج اتفاق السلم الجزائري الإسباني.

من خلال بنود الاتفاق الموقع بين السلطات الجزائرية والإسبانية، نلاحظ أن المستفيد الأول منه هم الإسبان، لأنهم استطاعوا الحصول على كل ما رغبوا فيه، ابتداء من الحصول على امتيازات تجارية وقنصلية لم يحلموا بها مطلقا قبل هذا الاتفاق، هذا بالإضافة إلى إبقاء احتلالهم لمدينتي وهران والمرسى الكبير، على عكس الجزائريين الذين كانت خيبتهم كبيرة جدا، لأنهم لم يحققوا أي هدف يذكر، باستثناء حصولهم على بعض الأموال والهدايا التي لم تكن أبدا من أولوياتهم عندما وافقوا على الدخول في مفاوضات مع السلطات الإسبانية.

6-1-نتائج اتفاق الصلح على الإيالة الجزائرية.

- تحصل السلطات الجزائرية جراء توقيع هذا الاتفاق على مبالغ كبيرة جدا تُدفع لخزينة الدولة في مقابل الأضرار التي لحقت بمدينة الجزائر جراء قصف المدينة سنتي 1783-1784م، ومقدار هذا المبلغ مليون و200 ألف ريال كتعويض للجزائريين وشرط من شروط الصلح.[1]
- استفادت السلطات الجزائرية الكثير من الهدايا والمجوهرات والأمتعة وفي ذلك يقول ألتر: «...**وبعد الصلح أرسل الملك الإسباني 500 كيس من المجوهرات والأمتعة والهدايا لحاكم الجزائر، كما**

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 544.

تعهد بإرسال 6 سفن محملة بالمعدات والذخيرة ولوازم السفن عملا بنصوص المعاهدة المعقودة...».[1]

- حصول السلطات الجزائرية على مبالغ مالية كبيرة مقابل إطلاق سراح الأسرى الإسبان، الذين بلغ عددهم 1350 أسير، وقد افتداهم ملك إسبانيا بـ 1000 ريال للأسير الواحد، إضافة إلى أن الجزائر أصبحت تفرض أموالا على إسبانيا ولو لأتفه الأسباب.[2]
- تحرير الأسرى الجزائريين لدى الإسبان وفي ذلك يقول الزهار: «...**فلما كانت سنة 1199هـ أتى الإصبانيول للصلح وأتوا معهم بالأسرى الذين عندهم وأبدلوهم بالنصارى الأسارى...**»[3]، فيما يذكر ألتر أن عدد الأسرى الجزائريين لم يتعد 100 أسير، وأن الداي لم يعترف بهم بل اتهمهم بالخيانة والجبن ليتدخل سلطان المغرب ودفع ثمن افتدائهم.[4]
- دخول البحرية الجزائرية لمياه المحيط الأطلسي لأول مرة بحرية تامة وبدون مضايقات إسبانية، وفي ذلك يقول كاثكارت في مذكراته: «...**وقد أخبرني الرياس أنهم قراصنة جزائريون وأنهم دخلوا المحيط الأطلسي على إثر معاهدة سلام بين الجزائر وإسبانيا...**»[5]، مما دفع هذا بعض الدول الأوربية إلى السعي لعقد معاهدة صلح مع الجزائر مثل البرتغال التي تضررت بحريتها وتجارتها من خروج البحرية الجزائرية للأطلسي.

وما يمكننا استخلاصه مما سبق حول هذا الاتفاق:

- تضارب الروايات التاريخية حول مدة هذا الاتفاق، فقد ذكر الزهار أنه مدته مائة عام في جهة البحر فقط أما جهة البر من وهران فلم يقع الصلح إلى أن فتح الله على المسلمين في أول ولاية حسن باشا[6]، وهي رواية متناقضة مع الرواية التي نقلها لنا مصطفى بن حسن خوجة الذي ذكر مدة ثلاث سنوات، وهي الرواية التي نرجحها لقرب صاحبها من الأحداث ومكانته داخل البلاط الحاكم في الجزائر*، إضافة إلى

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص، ص545.
2 – وليام شالر: المصدر السابق، ص ص137-139.
3 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص34.
4 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص545.
5 – جيمس كاثكارت: مذكرات أسير الداي، تعريب إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، ص18.
6 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 55.
* – مصطفى بن حسن خوجة كان يعيش بالجزائر منذ سنة 1754م، وعمل إماما بمسجد خضر باشا، وبعد مرور 18 سنة أي سنة 1772-1773م حصل على لقب علمدار (حامل الراية)، وبمناسبة مشاركته في الدفاع عن مدينة الجزائر ضد الحملات الإسبانية الثلاث (1775-1783-1784م) حصل على رتبة "تذكره خوجة سي"، مما جعله يصير مؤرخا، لأن تلك الرتبة جعلته كاتبا رسميا في حكومة الداي محمد بن عثمان باشا،=

تناقض الزهار في روايته، فمن جهة يقول أن الصلح تم من جهة البحر، ومن جهة ثانية يقول أن جهة البر من وهران لم يتم عليها الصلح وكأن مدينتي وهران والمرسى الكبير ليستا في البحر، وهي رواية انفرد بها لوحده دون سائر المصادر والمراجع.

- تضارب الآراء وتناقضها حول القضية الجوهرية في العلاقات الجزائرية الإسبانية، وهي بقاء الاحتلال الإسباني للمدينتين، حيث أن الاتفاق لم يتطرق إلا إلى بعض الجزئيات منها: عدم مهاجمة الباي لمدينة وهران، أما الانسحاب فلم يأت ذكره بتاتا في النسخة الإسبانية من الاتفاق، أما في النسخة التركية التي لم تصلنا، فيمكن وجود بند يفرض على الإسبان الانسحاب.
- سكوت المصادر المحلية عن التطرق لبنود الاتفاق ولو تلميحا وهذا ما نستغربه!
- كانت للظروف الداخلية والخارجية لكلا الطرفين الأثر المباشر على قرارهما بتوقيع الاتفاق، وقد بدأت القوتان في التراجع والتقهقر بموازاة ظهور قوى أخرى كفرنسا وإنجلترا، اللتان ستشكلان نواة الاحتلال المعاصر.
- الاتفاق كان في صالح إسبانيا التي استفادت كثيرا في المجال التجاري والدبلوماسي، فيما لم تجن الجزائر إلا بعض المكاسب المادية.
- وجود تناقض واضح في الاتفاق بينما كان يريده الداي وما كان يريده الإسبان، ونستشف ذلك من خلال الرسالة التي بعثها الداي محمد بن عثمان باشا للكوندي دي فلوريدا بلانكا بتاريخ 24 أفريل 1787م يشتكي من خلالها خيانة دي بيسي وتغييره لبعض شروط الصلح، طالبا منه أن يراجع هو بنفسه بنود الاتفاق ليتأكد من التغيير الذي حصل، ومن ذلك نستشف أن بنود المعاهدة تم تغييرها لصالح إسبانيا حتى تبقى قضية وهران والمرسى الكبير بعيدة عن الاتفاق.
- إقرار سلم بين الطرفين بعد صراع طويل وكان هذا الاتفاق البداية الفعلية لعقد معاهدة صلح سنة 1791م تم بموجبها الانسحاب النهائي من وهران والمرسى الكبير.

6-2-نتائج اتفاق الصلح على الإمبراطورية الإسبانية.

- إقرار حالة السلم بين السلطات الجزائرية والإسبانية لأول مرة بعد صراع طويل ومرير، وبذلك تحقق مشروع الملك كارلوس الثالث الذي كان يطمح لتحقيقه والقاضي بعقد معاهدة سلام مع الدولة العلية

=مكلفا بكتابة تاريخ الأحداث التي عرفتها الجزائر خلال الحملات الإسبانية الثلاث، ومعها اتفاق الصلح الذي عقد بين الدولتين بعد ذلك في عام 1786م، له كتابان باللغة العثمانية (التبر المسبوك في جهاد غزاة الجزائر والملوك) -مخطوط تحصلنا عليه بالمكتبة الوطنية-، وكتاب (المضحكات العجائبات على رؤوس الإصبنيول المقهورات المهلكات...، شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص120.

وإيالاتها المغاربية (الجزائر، طرابلس الغرب)، ولم تتبق له إلا تونس، والذي سوف يحاول الضغط عليها بواسطة الجزائر ليتم إمضاء معاهدة معها سنة 1791م.

- استطاعت السلطات الإسبانية الحصول على حق التمثيل الدبلوماسي وتعيين قنصل لها بالجزائر له نفس الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها القنصل الفرنسي.
- استطاعت إ السلطات الإسبانية الحصول لرعاياها على امتيازات ضخمة –دينية وقضائية–حيث يتمتعون بحرية ممارسة الشعائر الدينية المسيحية والتحاكم إلى محاكم خاصة يرأسها كبار موظفي الدولة الجزائرية.
- حققت السلطات الإسبانية بهذا الاتفاق الأمن لسواحلها الشرقية التي عانت كثيرا من هجمات البحارة الجزائريين الذين أجبروا الكثير من سكانها على الفرار، وبعد هذا الاتفاق بدأ السكان في العودة إلى مواطنهم على السواحل.
- تأمين طريق سير السفن التجارية الإسبانية خاصة مابين الدويلات الإيطالية وإسبانيا، مما كان له انعكاسات إيجابية فيما بعد على الحركة التجارية داخل الأراضي الإسبانية.
- حصول السلطات الإسبانية على امتيازات تجارية تعادل نفس الامتيازات الفرنسية خاصة في الجهة الغربية من الجزائر في مقابل الامتيازات الفرنسية في الجهة الشرقية.
- بالرغم من الحصول على الكثير من الامتيازات إلا أن السلطات الإسبانية تكبدت خسائر مادية كبيرة جدا جراء المبالغ المالية المدفوعة للجزائر في مقابل إقرار حالة السلم بين الطرفين.[1]

المبحث الثاني: الفتح الجزائري الثاني والنهائي لمدينتي وهران والمرسى الكبير سنة 1207هـ/1792م

لم تنقطع الهجمات الجزائرية على مدينتي وهران والمرسى الكبير منذ أن أعاد الإسبان احتلالهما سنة 1145هـ/1732م، وإلى غاية تولي محمد بن عثمان الكبير حكم بايلك الغرب سنة 1200هـ/1786م، والذي قرر إعادة حصار المدينتين مباشرة بعد توليه حكم البايلك أملا في تحريرهما، بالرغم من الأوامر التي أعطيت له من طرف الداي محمد بن عثمان باشا بعدم مهاجمة المدينتين، امتثالا لبنود الاتفاق الموقع مع الإسبان سنة 1200هـ/1786م[2]، إلا أن الباي لم يمتثل لهذه الأوامر وواصل سياسته العدائية للمحتلين الإسبان، لذلك بعث الكوندي دي فلوريدا بلانكا رسالة إلى حسن وكيل الحرج بتاريخ 26 فيفري 1787م، يطلب فيها منه استعمال

1 – محمد السعيد بوبكر: المرجع السابق، ص 167.

2 – ابن زرفة مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن: الرحلة القمرية، تحقيق، مختار حسان: مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، الجزائر، 2002م، ص180.

نفوذه وسلطته لكبح جماح محمد بن عثمان الكبير ومنعه من مهاجمة الإسبان بوهران احتراما للاتفاق الموقع سابقا.[1]

تواصلت الهجمات على مدينة وهران، وزادت حدتها ابتداء من سنة 1200هـ/1786م تاريخ تولي قيادة بايلك الغرب محمد بن عثمان الكبير، لأن تاريخ كتابة الرسالة كان في شهر فيفري 1786م، هذا ما يؤكد لنا أن أخبار الحصار والمبادرة بالهجوم انتشرت خلال سنة 1786م، ليست سنة 1201هـ/1787م، لأن أغلب المصادر والمراجع نقلت لنا أن باي الغرب محمد بن عثمان الكبير كان ينفذ هجماته باستمرار ضد الأهداف الإسبانية[2]، بالرغم من عدم تحقيقها للهدف الرئيسي المتوخى منها، ومع ذلك أحدثت الرعب والخوف في صفوف المحتلين، الذين بدأوا في التفكير جديا إزاء مطلب الجزائريين القاضي بضرورة الانسحاب من المدينتين[3]، خاصة مع اشتداد الحصار عليهم، وزيادة أعباءهم المالية، والعزيمة والإصرار اللذان أبداهما محمد بن عثمان الكبير في تحرير المدينتين، حيث استطاع تجنيد العديد من فعاليات المجتمع ببايلك الغرب حول هذا المطلب، كالعلماء والصلحاء وطلبة العلم[4]، بالإضافة إلى أتباعه وجنوده والمتطوعين الراغبين في الجهاد ضد المحتلين الإسبان.

1-العوامل المساعدة على تحرير وهران والمرسى الكبير.

1-1-العوامل السياسية والعسكرية.

- لم يحقق اتفاق السلم بين الإمبراطورية الإسبانية والإيالة الجزائرية في جوان 1200هـ/1786م الأهداف المرجوة منه، لأن الجزائريين خاصة الداي محمد بن عثمان باشا ظل يعتقد أن الإسبان قاموا بخيانته وغيروا بعض بنود الاتفاق[5]، في مقابل ذلك اعتقدت السلطات الإسبانية أنها بإمكانها شراء السلم بالأموال مع التغاضي عن احتلال مدينتي وهران والمرسى الكبير.
- حاولت السلطات الجزائرية استغلال الأوضاع المتأزمة داخل القارة الأوروبية، والصراعات المتواصلة بين الأسر الحاكمة خاصة ظروف الثورة الفرنسية سنة 1203هـ/1789م والتي شغلت كامل الأوروبيين حينذاك، لذلك استغل الداي هذه الظروف لصالحه وخرج بنفسه إلى المدن والقرى والأرياف لتحريض الناس على الجهاد والدعوة لفتح وهران وتحريرها من الاحتلال مهما كانت العقبات والصعاب.

1 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص108.
2 - عميراوي احميدة: المرجع السابق، ص ص 72، 73.
3 - شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص133.
4 - عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص397.
5 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص111.

- تأكد السلطات الإسبانية الحاكمة مباشرة بعد توقيع اتفاق السلم مع الجزائر أن السبب الرئيسي للعداء المستمر بين الطرفين هو احتلال وهران والمرسى الكبير، وأنه لا سبيل لتنشيط التجارة وأخذ مكانة لهم داخل الإيالة الجزائرية إلا بالتخلي عن المدينتين، لأنه لا مصلحة للجزائريين في مواصلة العداء مع الإسبان.[1]

- تواصل الهجمات الجزائرية على مدينتي وهران والمرسى الكبير منذ احتلالهما الثاني سنة 1145هـ/1732م، وقد زادت هذه الهجمات ضراوة مع تولي حكم بايلك الغرب محمد بن عثمان الكبير سنة 1194هـ/1780م، الذي استطاع فتح حصن البرج الأحمر، ليكون بعدها منطلقا لفرض حصار مشدد على المدينتين ابتداء من 22 أكتوبر 1790م إلى غاية 31 أكتوبر 1791م، وهذا ما أكده لنا مسلم بن عبد القادر بقوله: «... **فأرسل لها جماعة من الطلبة الشجعان يرابطون بجوارها ويضايقون الإسبان وراء الأسوار...**»[2]، وتشديدا لإجراءات الحصار، قطع الباي الماء عن المدينة حتى ينهك الإسبان ويجهدهم[3]، ليقرر بعدها البدء في الهجومات المتواصلة والخاطفة، التي وصلت أوجها ما بين ماي وجويلية 1791م، وفي ذلك يقول محمد بن يوسف الزياني: : «...**ودام حصار (الباي) لها أي وهران بالقتل الصادر منه ومن جنوده وشدة صواعقه ومدافعه وكوره وبارووده إلى أن فتحها بقالته...**».[4]

أثناء مدة الحصار حاول الباي محمد بن عثمان الكبير استعمال كل الوسائل الممكنة من أجل إرهاق واستنزاف القوات الإسبانية وتشتيت شملها وإنهاك قواها، وهذا ما نستشفه من هذا النصر الذي نقله لنا ابن سحنون الراشدي الذي قال: «...**إن الأمير أيد الله رفعته وخلّد منعته لم يزل منذ ولى يتحيل على الظفر بالكفرة وينصب لهم المكائد والخدع الشبيهة بالإشراك التي تنصب للكثير ليقبض، فتارة يوجه لهم المهرة بالسباحة في البحر فيبيتون من قدروا عليه منهم في بيوتهم ويأتونه برؤوسهم، وتارة يرصد لهم الكمين قرب أسوارهم حتى يظفروا بهم، وتارة تحمل عليهم طلائع جنوده فيتخطفونهم تخطف الصقور للبغاث وتارة يتخطفونهم من مسارحهم ومحتطبهم ومزارعهم ومواضع اصطيادهم برا وبحرا ومحارسهم إلى غير ذلك...**».[5]

---

1 – جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص409.

2 – مسلم بن عبد القادر: خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص25.

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص558.

4 – محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص166؛ ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص49.

5 – أحمد بن محمد بن علي ابن سحون الراشدي: المصدر السابق، ص 197.

1-2-العوامل الاقتصادية.

كانت القوات الإسبانية المحتلة لمدينتي وهران والمرسى الكبير تقدر بحوالي 4 آلاف جندي، بالإضافة إلى النساء والأطفال والعملاء، هذا ما كان يتطلب أموالا ضخمة للإنفاق عليهم، حيث قدرت الأعباء المالية التي كانت تصرف على الحامية المحتلة لوهران بأكثر من 4 ملايين دورو، وقد كانت تتزايد يوما بعد يوم، هذا ما زاد الضغط على الخزينة العامة في إسبانيا، التي ضاق مسيروها ذرعا بالمطالب المالية المتزايدة التي أرهقت كاهل الإسبان، زاد الأمور خطورة امتناع القبائل العميلة دفع الضرائب المفروضة عليها (الرومية، السغورو)، بعد أن تعرض قادتها لتهديدات باي الغرب محمد بن عثمان الكبير، إثر هزيمة القوات الإسبانية على أيدي الجزائريين سنة 1189هـ/1775م.[1]

1-3-العوامل الطبيعية.

تعرضت مدينة وهران إلى زلزال عنيف في يوم السبت 29 محرم 1205هـ/9 أكتوبر 1790م دام خمسة أيام، أحدث خلالها دمارا هائلا بالمدينة، ذهب ضحيته ما بين 2000 و3000 قتيل، على رأسهم الحاكم العام للمدينة نيكولا غارسيا « Nicola Garsia»، زيادة على تدمير قصبة المدينة بالكامل وإتلاف السفن الراسية بالميناء[2]، هذا ما فسرته المصادر المحلية بتأييد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين في سبيله، واعتبروا الزلزال جند من جند الله نصر به الجزائريين، وبشارة خير إلى الباي محمد بن عثمان الكبير من أجل مواصلة جهاده وفتح مدينة وهران[3]، وما هذا الزلزال إلا آية من آيات الله العزيز الحكيم وعقابا للكفار على احتلالهم أرض الإسلام، وهذا ما نقله لنا ابن سحنون الراشدي بقوله: «...**ثم إن الله الذي جلت قدرته وعظم سلطانه قاهر الجبابرة ومفني الأكاسرة والقياصرة، وهازم الأحزاب المتآليين، وقامع العيدات المتكالبين أتاه وأظهر له أكبر الأسباب المنبهة لفتحها الداعية إليه، وذلك أنه زلزل بالكفار بلادهم زلزلة عظيمة أهلكتهم إلا القليل منهم بإسقاط دورهم عليهم في لحظة واحدة حتى صار بناؤهم الأنيق كله أكواما أكواما من التراب والحجر وآل أمر عمرانهم إلى الخراب، فأصبحوا وقد مات أكثرهم بالردم، وصارت بيوتهم لهم قبورا لم يخرجوا من ردمها إلى الآن، وما نجا منهم أحدا إلا من بات في البروج الحصينة فإنها لم يؤثر فيها الزلزال بالهدم بل شقت بعضها فقط..**».[4]

---

1 – ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص79.

2 – نفسه.

3 – خوجة حسان: تاريخ بايات وهران، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1634، ص02.

4 – أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص205.

وهذا ما أكده لنا أيضا بن زرفة بقوله: «...**بينما هو ينتظر الفرج من الله وترجمان حاله يبشّر بزلزال وهران، وسطوة الحق تعالى لا يقوم لها أحد فكان ذلك اليوم على النصارى قمطريرا، وللإسلام عيدا، وطالعه عليهم وعلى الإسلام سعيدا**...».[1]

حاولت إسبانيا إيعاز انسحابها من مدينة وهران إلى الزلزال الذي ضرب مدينة وهران[2]، متجاهلين بذلك الجهود الحربية التي قام بها الجزائريون طيلة قرنين وخمسة وثمانون سنة، كبدوا خلالها الإسبان خسائر مادية وبشرية لا يمكن إحصاءها بأي حال من الأحوال، وهذا الأمر لا نستغربه من المؤرخين الأوروبيين الذين يحاولون دائما الإنقاص من قيمة الانتصارات التي يحققها المسلمون عامة والجزائريون خاصة، ويرجعونها عادة إلى العوامل الطبيعية كالعواصف والزلازل والأمطار، مثلما حدث عندما انهزم شارلكان بمدينة الجزائر سنة 948هـ/1541م، وهزيمة الكونت أوررلي بنفس المدينة سنة 1189هـ/1775م، وغيرها من المعارك التي انتصر فيها الجزائريون، متجاهلين تماما قوة البحرية والجيش الجزائري، سواء الجيش النظامي أو المتطوعين، بالإضافة إلى قوة وحكمة وعبقرية حكام الإيالة، هذا فضلا عن العزيمة والإصرار اللتين تميز بهما السكان المحليين، الذين كانوا يرون كل عمل ضد المحتلين الإسبان جهادا يتقربون به إلى الله سبحانه وتعالى، وما هذا الزلزال إلا عاملا ثانويا بجانب العوامل الأخرى التي أرغمت الإسبان على إخلاء المدينتين؛ كالحصار المضروب على حاميتهم والهزائم المتتالية التي تلقوها على أيدي الجزائريين، الذين كانوا مصرين على تحرير وهران مهما كلفهم ذلك من جهد وزمن.

2-الاستراتيجية العسكرية الجزائرية المتبعة في فتح وهران والمرسى الكبير.

2-1-حرب الاستنزاف والهجمات الخاطفة 1200-1205هـ/1786-1790م.

كانت الظروف مواتية لقيادة بايلك الغرب من أجل طلب المساعدة وحشد الدعم اللازم من أجل تحرير مدينة وهران والمرسى الكبير، وهذا مباشرة بعد الزلزال الذي ضرب المدينتين سنة 1205هـ/1790م، حيث أرسل الباي محمد بن عثمان الكبير موفدا عنه إلى الداي محمد بن عثمان باشا يخبره بما آلت إليه أوضاع الحامية الإسبانية، والظروف الصعبة التي تعيشها، طالبا منه مد يد العون له من أجل الإجهاز عليها وطردها من وهران، إلا أن الداي لم يقدم له أي مساعدة سواء مادية أو بشرية بسبب ارتباطه باتفاق السلم مع الإسبان سنة 1200هـ/1786م، يمنع عنه تقديم أي مساعدة لباي الغرب في حالة قيامه بأي هجوم على مدينة وهران[3]، هذا ما جعل الباي يعتمد على نفسه في مواجهة المحتلين، حيث استطاع تجهيز جيش وسار به إلى المدينتين لفتحهما،

---

1 - ابن زرفة مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص ص 179-180.

2 - صلاح العقاد: المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، الجزائر، تونس، المغرب الأقصى، ص40.

3 - ابن زرفة مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص 180.

ليستقر به المقام بوادي هايج، أين وفد إليه العديد من زعماء القبائل والمرابطين والعلماء والعامة من الناس من أجل المشاركة في عملية الفتح، وتدارس كيفية تنفيذ هذه العملية، ليستقر رأيهم على تشكيل مجلس استشاري؛ مهمته مسايرة عملية الفتح إلى نهايتها، وقد رأى أعضاء هذا المجلس أن يتم تأجيل الهجوم على المدينتين إلى غاية فصل الخريف، حتى يتسنى للفلاحين من جمع محصولهم وادخار أرزاقهم، هذا ما وافق عليه الباي محمد بن عثمان الكبير مشترطا استشارة العلماء والأولياء، لذلك بعث في طلب الولي سيدي محمد أبي ديه الضرير الذي كان موجودا بجبال سالة، وما إن وصل هذا الأخير إلى الباي حتى دخلا في مشاورات طويلة، أفضت إلى اقتناع الباي ببعد نظر سيدي محمد ابن ديه، الذي قال له أنه لا يستطيع فتح المدينة إلا في محرم من السنة القابلة، هذا ما أثلج صدر الباي وطمأن قلبه وشرح صدره.[1]

مباشرة بعد حلول الخريف وتنفيذا لما اتفاق عليه أعضاء المجلس الاستشاري الذي شكله الباي محمد بن عثمان الكبير، بدأت القوات الجزائرية بضرب حصار على مدينة وهران، وإقامة الرباطات حولها لمراقبة ورصد تحركات القوات الإسبانية التي بدأت تتعرض لحرب استنزاف طويلة الأمد كبدتها خسائر مادية وبشرية فادحة، زاد الطين بلة تعرض المدينة لزلزال عنيف، انتشرت على إثره أعمال القرصنة واللصوصية وفُقد الأمن بين الإسبان المحتلين للمدينتين[2]، هذا ما اضطر السلطات الإسبانية بمدريد لتعيين الكونت دي كومب هرموزا «Conte de Cumb et Hermoza» كحاكم جديد للمدينة خلفا للكونت نيكولا غارسيا الذي قتل أثناء الزلزال، حيث حاول الحاكم الجديد إعادة الأمن والنظام للمدينة وبناء الأبراج والحصون وتجهيزها لصد الهجمات المتواصلة للقوات الجزائرية، وفي نفس الوقت طلب من سلطان بلاده مده بالأسلحة والمؤن، التي أصبحت تشكل بالنسبة له الهاجس الأكبر بعد تضييق الخناق على المدينة بسبب الحصار الذي حال بين تعاون المحتلين وبعض القبائل العميلة، مما انعكس سلبا على الإسبان الذين أصبحوا يلبون حاجاتهم عن طريق الإمدادات المباشرة التي تأتيهم من إسبانيا، هذا ما حاول الباي استغلاله لصالحه بتكثيف هجماته ضد المدينة، التي لم يستطع تحريرها بسبب صمود الإسبان واستماتتهم في الدفاع عنها.[3]

بالرغم من الحصار المفروض والهجمات المتواصلة على مدينتي وهران والمرسى الكبير، إلا أن الباي لم يستطع فتحهما لعدة أسباب، نذكر منها:

---

1 – الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص260.

2 – يحي بوعزيز: مدينة وهران...، المرجع السابق، ص 260.

3 – بلبراوات بن عتو: التحرير النهائي لوهران والمرسى الكبير عام 1206هـ/1792م، **مجلة عصور**، ع 5/4، جامعة وهران، الجزائر، ديسمبر 2003م/ جوان 2004م، ص ص 281، 282.

- قوة ومناعة التحصينات الإسبانية حالت دون اقتحام الباي محمد بن عثمان الكبير وقواته للمدينتين.
- بسالة وشجاعة القوات الإسبانية المدافعة عن المدينتين، فقد بقيت صامدة بالرغم من الخسائر التي تكبدتها جراء الزلزال والهجمات المتواصلة للجزائريين.
- قلة أعداد القوات الجزائرية المهاجمة للمدينتين، لأن الداي محمد بن عثمان باشا رفض إرسال قوات إضافية احتراما للاتفاق الموقع مع الإسبان سنة 1200هـ/1786م.
- قلة خبرة القوات الجزائرية التي كانت في غالبها مشكلة من المتطوعين، خاصة طلبة العلم الذين كانوا يفتقدون للخبرة اللازمة في القتال.
- نقص الأسلحة والذخيرة الحربية، في ظل التزام الداي محمد بن عثمان باشا بالاتفاق المبرم مع الإسبان سابقا.
- خيانة قبائل المغطسين التي كانت تتعامل مع الإسبان بالرغم من تحذيرات الباي.
- الخطأ العسكري الجسيم الذي ارتكبه الباي، بعدم مهاجمة المدينة مباشرة بعد الزلزال، مفضلا استئذان الداي هذا ما أعطى الإسبان الفرصة لتحصين أنفسهم جيدا وطلبهم المدد من بلادهم.
- الحصار كان من جهة البر فقط، فيما كانت جهة البحر غير محاصرة فاستغلها الإسبان في فك الحصار وطلب المدد.
- تأخر وصول المدافع وتشتتها في عدة مناطق مثل تلمسان، مستغانم وسيق، وعدم جاهزيتها وتآكلها وقدمها لعدم استعمالها مدة طويلة، وقد صور لنا ابن زرفة هذه الوضعية بدقة قائلا: «...**فلم تنهض المدافع في سيرها ولم يتيسر ما عسر من أمرها...لأنها لم تُتفقد منذ زمان حتى نسجت عليها عناكب النسيان، فاشتغلوا يصلحون ما فسد ويجرون ويحددون ما نحر وكسد...**».[1]

2-2-ازدواجية الهجوم العسكري والمفاوضات الدبلوماسية 1206-1207هـ/1791-1792م.

كان الباي محمد بن عثمان في هذه المرحلة أكثر عزما وإصرارا على فتح مدينة وهران، ولذلك عمل على تعزيز الحصار، وشراء الأسلحة، وإعادة تجديدها وتزويد الجيش بالمؤن والعتاد استعدادا للمعركة النهائية، ويمكننا إيجاز أهم الخطوات التي اتبعها الباي فيما يلي:

1 - ابن زرفة مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص294.

- الاهتمام بعتاد الجيش وذلك بشراء الأسلحة، ولو بأثمان باهظة، فأرسل كاتبه الخاص ابن هطال التلمساني* وقاضي محلته لشراء الأسلحة من الإنجليز بجبل طارق، عارضا عليهم امتيازات تجارية ضخمة[1]، من أجل تجديد أسلحة الجيش لتأكده من استحالة مواجهة الجيش الإسباني بالأسلحة القديمة.
- تجديد وسائل الحصار من المدافع، قنابل، بارود، مهاريس وجميع الآلات الحربية.
- إعادة تنظيم جيش البايلك تنظيما يتماشى والاستراتيجية الجديدة، القاضية بالانتقال من الحصار والهجمات الخاطفة إلى الهجوم المباشر والالتحام مع الإسبان، فقسمه على الشكل التالي:
- محلة عسكر تلمسان: رابطت غرب المدينة (وهران)، قائدها ابن الباي محمد بن عثمان الكبير، والذي كلّف بمراقبة مداخل ومخارج المدينة وتحركات العدو، وتُمثّل ميمنة الجيش.
- محلة عسكر الشرق: رابطت شرق المدينة قائدها صهره محمد بن باي إبراهيم، تمثل ميسرة الجيش.
- المحلة الثالثة: يقودها بنفسه (الباي) تمثل القلب (الوسط).[2]

استمرت المعارك بين الطرفين طوال فصلي الربيع والصيف من سنة 1791م، وكانت أكثر عنفا خلال شهري ماي وجويلية، وقد هوجمت أهم الحصون مثل سانتاكروز من طرف الجزائريين، وكان الباي وقواته يتقدمون ويحكمون قبضتهم على المدينة، بالرغم من المقاومة الشديد التي أبداها أفراد الحامية الإسبانية واستبسالهم في الدفاع عن المدينة، وأمام اشتداد الحصار وضراوة المعارك، اضطر الإسبان في شهر أفريل 1791م للطلب من الداي تنفيذ الصلح المبرم بينهما، إلا أنه رفض هذا الطلب، وبقي مصمما على رأيه حتى وافته المنية في 10 ذي القعدة 1205هـ الموافق لـ02 جويلية 1791م.[3]

وموازاة مع المواجهات العسكرية كانت هناك جهود دبلوماسية على قدم وساق يقوم بها البلاط الإسباني، يقودها الكونت دي فلوريدا بلانكا بطلب من الملك كارلوس الرابع الذي أراد جس نبض حسن داي –الذي تولى بعد محمد بن عثمان باشا في 12 جويلية 1791م–، ومحاولة إيجاد حل لقضية وهران والمرسى الكبير، مقترحا:

* – هو أبو العباس الحاج أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن هطال التلمساني، كان كاتبا ومستشارا لمحمد بن عثمان الكبير باي الغرب، ومبعوثا في المهمات الخارجية، بعثه محمد الكبير لشراء الأسلحة، وقد توجه إلى جبل طارق فاشترى قنطارين ونصف قنطار من البارود من الإنجليز، وبعد وفاة الباي محمد بن عثمان الكبير ظل يشغل نفس المنصب في عهد ابنه ثم كاتبا للباي مصطفى بن عبد الله العجمي رابع بايات وهران، مات ابن هطال في معركة وقعت بين الأتراك وابن الشريف الدرقاوي في ربيع الأول سنة 1219هـ /1804م...، ابن هطال التلمساني: رحلة محمد الكبير "باي الغرب الجزائري" إلى الجنوب، تحقيق، محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1976، ص ص13-19.

1 – أحمد بن محمد بن علي ابن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص 247.

2 – ابن زرفة مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص267.

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص559؛ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص490.

- أن تقوم إسبانيا بتعويض النفقات العسكرية للباي مقابل رفع الحصار عن مدينة وهران والتوقف عن مهاجمتها وترك فرصة للتفاوض، ولذلك تم الاتفاق على هدنة مدتها 15 يوما ابتداء من 20 جويلية 1791م إلى 03 أوت 1791م بقدر ما يأتي الخبر ورد الجواب من عند كارلوس الرابع.[1]

أدت المعارك والهجمات المتكررة إلى إرهاق الإسبان ماديا ومعنويا، خاصة مع تزايد الإنفاق العسكري على الحامية الموجودة بوهران والمرسى الكبير وفي تجديد الحصون وإصلاح الاستحكامات، لذلك تقرر ترك وهران[2] التي لم تصبح ذات أهمية كبيرة، سواء استراتيجيا أو اقتصاديا لإسبانيا، إضافة إلى الإصرار الذي كان لدى الطرف الجزائري على استرجاع المدينتين، لذلك قرر الملك الإسباني الموافقة على إخلاء وهران والمرسى الكبير.

لما وصل رد الملك الإسباني كارلوس الرابع للداي، حول الخلاف الواقع بينهما على وهران والمرسى الكبير، كان الرد مفاده أن الملك الإسباني لا يستطيع الاستجابة للطلب الذي طلب منه مقترحا تسليم المدينة للباي كما كانت عندما أعاد الإسبان احتلالها سنة 1732م، وفي ذلك يقول ابن سحنون الراشدي على لسان الملك الإسباني:«...**إني لا أدفع مالي في أمر لا أتحقق دوامه لي، كيف وهو مجاور لمن لا ينام عنه غير أني أدعوكم لأمر فيه الإنصاف أسأل منكم أن تشرفوني بقبوله وهو أني أدفع لكم البلاد على الحالة التي تركها عليها المسلمون لما أخذناها منهم بمدافعها وأبراجها ولا أستثني من ذلك شيئا...**».[3]

كان الداي حسن مستعدا للموافقة على مطالب الإسبان، نظرا لتلك العلاقات الراسخة بين الطرفين -والتي تطرقنا إليها في حينها-، وبعد موافقته على مقترح الإسبان الذين طلبوا مهلة أربعة أشهر لإتمام عملية الانسحاب، كما أنهم اشترطوا تهديم جميع المباني التي قاموا ببنائها بعد احتلالهم لوهران سنة 1732م، ليبدأ الانسحاب من وهران، وكان أول المغادرين الأهالي المتعاونين "المغطسين" مع الإسبان وقائدهم رفقةعائلته و60 رجلا، على الرغم من أن الباي أعطاهم الأمان، ثم لحق بهم 250 شخص يوم 29 ديسمبر 1791م، وتوجهوا إلى مدينة سبتة وفي الأخير غادر آخر حاكم إسباني لوهران "دون خوان كورتين" من ميناء المرسى الكبير يوم 29 فيفري 1792م على متن سفينة أميرال سانت جواشيم[4]، وبذلك انتهى الاحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير نهائيا.

---

1 - أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص303.

2 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 559.

3 - أحمد بن محمد بن علي ابن سحنون الراشدي: المرجع السابق، ص308.

4 - أمحمد موفقي: المرجع السابق، ص 180.

3-المعاهدة الجزائرية الإسبانية سنة 1206هـ/1791م.

بعد صراع طويل ومرير توصلا أخيرا الطرفان الجزائري والإسباني إلى معاهدة سلم وأمن، تم بموجبها حل أغلبية الخلافات العالقة، منذ إمضاء اتفاق السلم سنة 1200هـ/1786م، فقد توصل الداي حسن باشا حاكم الإيالة الجزائرية والقائم بالأعمال والممثل الرسمي للملك الإسباني دون ميكائيل دولاريا بتاريخ 1 محرم 1206هـ/12 سبتمبر 1791م إلى توقيع معاهدة سلم وأمن وتجارة، وقد كتبت بنودها باللغتين العثمانية والإسبانية، حيث دخلت حيز التنفيذ مباشرة بعد إعلان الباي محمد بن عثمان الكبير رفع الحصار عن وهران والمرسى الكبير، ابتداء من التاريخ المذكور آنفا، لتبدأ القوات الإسبانية وبقية السكان في إخلاء المدينتين، ليتم رحيل آخر جندي إسباني عن وهران يوم 03 رجب 1206هـ/29 فيفري 1792م، معلنين بذلك التحرير الثاني والنهائي للمدينتين بعد التحرير الأول سنة 1120هـ/1708م.

أ-الحقوق السياسية -البند 1-

- الانسحاب الإسباني من وهران والمرسى الكبير، وعودة السيادة الجزائرية عليهما نهائيا.
- تحديد مهلة للانسحاب تقدر بـ 4 أشهر.
- حمل مفتاحين ذهبيين وجرتين من ماء عيون وهران إلى الباب العالي كرمزية لاستردادهما.[1]

ب-الحقوق الأمنية-البند 2-

- هدم كل الأبراج التي أقامها الإسبان أو تم بناؤها بوهران والمرسى الكبير بعد إعادة احتلالها سنة 1732م، وأخذ كل المدافع ومدافع الهاون (المهارس) التي نصّبوها للدفاع عن المدينة، باستثناء ما يقدمونه كهدية لحسن باشا، وقد برر الإسبان هذا العمل بأنه في حالة ما تركت سالمة تدعم هذه المنشآت قوى أوروبية قد تغزو وهران وتهدد أمن وسلامة إسبانيا لأن موقع المنطقتين لا تخرجان عن النطاق الأمني لمملكة إسبانيا.[2]
- لا يُسمح لأي عربي أو أجنبي دخول وهران أو المرسى الكبير أو الاقتراب منهما إلا بإذن من الإسبان.

الحقوق التجارية (البنود 3-4-5-6-7-8-9)

- امتلاك إسبانيا لحق احتكار التجارة في وهران والمرسى الكبير.
- يحق للإسبان تشييد المساكن والمخازن للتجار الإسبان، حتى يتمكنوا من إتمام صفقات البيع والشراء، وأيضا حق امتلاك السكن بالمدينتين.

---

1 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص63.

2 - بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص 159.

- احتكار الإسبان بيع وشراء الحبوب، مثل القمح، الشعير، الفول، الحمص والمواشي بجميع أنواعها، وبعض المواد الأخرى مثل: الصوف والشمع مع أخذ التزام من الداي بمنع السفن من الشحن أو التفريغ في الأماكن التي يحتكرها الإسبان.
- لباي الغرب الحق في توفير 10 آلاف حمولة سنوية من القمح و100 قنطار من العسل للسلطة المركزية بالجزائر، وله الحق في بيعها لمن يشاء بموافقة الداي والأولوية في ذلك للإسبان.
- تحديد قيمة الرسوم الجمركية للتجار الإسبان بوهران والمرسى الكبير، والحقوق المترتبة عن الامتيازات الممنوحة لهم، من تخفيضات جمركية أو إعفاء ضريبي مقابل هدايا وإتاوات، في مقابل حصولهم على 10 آلاف حمولة من القمح كل سنة.
- حق إرساء السفن الإسبانية بميناء المرسى الكبير دون غيرها مقابل رسم حدد بـ 56 ريال وحوالي 63 فرنك.
- الحرية المطلقة للسفن التجارية والحربية الإسبانية بالدخول والخروج بلا ترخيص وبدون إذن في حالة الضرورة القصوى.
- حماية التجار الإسبان المقيمين بالمرسى الكبير ووهران من أي مضايقات أو اعتداء مدة إقامتهم بالمدينتين.
- تدفع للجزائر من الخزينة الملكية الإسبانية ما قيمته سنويا 120 ألف جنيه مقابل الامتيازات والحقوق السابقة.[1]
- يسمح للتجار بصيد المرجان على الساحل الغربي للجزائر.[2]

ما يمكننا ملاحظته على هذه المعاهدة أن أغلب بنودها كانت عبارة عن امتيازات تجارية لصالح إسبانيا وهي ما كانت تهدف إليه، في جميع أطوار المفاوضات، وبذلك تحصل الإسبان على امتيازات ضخمة في بايلك الغرب، تماما مثلما تحصلت فرنسا على امتيازات تجارية في الجهة الشرقية، فيما لم تحصل الجزائر إلا على انسحاب تام من المدينتين.

ولعلنا نستطيع القول أن المفاوضين الإسبان كانوا فعلا مفاوضين متمرسين أكثر من الجزائريين، لأن الانسحاب من وهران كان تحصيل حاصل لعدة أسباب نذكر منها:

1 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص82.

2 - جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص 410.

- فقدان وهران والمرسى الكبير لأهميتهما الاستراتيجية والاقتصادية بالنسبة للإسبان خاصة مع اشتداد الحصار عليهما، وسيطرة إنجلترا على مضيق جبل طارق.
- التكاليف المالية الهائلة التي كانت تنفق من الخزينة الملكية في سبيل المحافظة على المدينتين، مما زاد من المتاعب المالية لإسبانيا مع ارتفاع هذه التكاليف من عام لآخر.
- تأكد الإسبان من استحالة تنازل الجزائر عن المدينتين.
- تأكد الإسبان وربما تقليدا لفرنسا وإنجلترا أنه بإمكانهم الحصول على امتيازات هائلة بدون العداء مع السلطات الجزائرية، وذلك بتجريب الخيار الدبلوماسي، بعدما جربوا مرارا الخيار العسكري الذي لم يجلب لهم إلا الهزائم المتتالية والخسائر البشرية والمادية.

4-بسط السلطة الجزائرية على مدينتي وهران والمرسى الكبير سنة 1206هـ/1792م.

بدأ الإسبان يسحبون قواتهم ورعاياهم ابتداء من تاريخ 17 ديسمبر 1771م، ليتم رحيل آخر واحد منهم يوم 3 رجب 1206هـ/29 فيفري 1792م، وبذلك انتهى احتلالهم لمدينتي وهران والمرسى الكبير نهائيا، لتبدأ صفحة جديدة من علاقاتهم مع الجزائريين، مبنية على الاحترام المتبادل والمصلحة المشتركة والمنفعة المتبادلة، فاسحين بذلك المجال لدخول الباي بن عثمان الكبير إلى المدينتين يوم الإثنين 25 رجب 1206هـ/17 فيفري 1792م[1]. وهذا ما نقله لنا أبو راس الناصري في سينيته بقوله:

فِي خَامِسِ الفَرْدِ ضُحَى يَوْمَ الإِثْنَيْنِ   كَانَ الدُّخُولُ بِعَوْنْ المِلِكِ القُدُّوسِ

سِتَةَ سِتٍ ثُمَّ الحَمْدُ لِخَـــــالِقِنَا   وَصَلِّي على المُنَقَّى مِنَ الـــدَّنَسِ.[2]

كان يوم دخول الباي محمد بن عثمان الكبير يوما مشهودا وحدثا عظيما يشبه تلك الأيام المشهودة في تاريخ المسلمين المجيد، وكيف لا يكون كذلك وقد عادت أرض من أراضي المسلمين إلى حاضرة الخلافة الإسلامية بعد احتلال طويل ومكلف، خاصة وأن الجزائريين دفعوا الغال والنفيس من أجل فتحها مرة أخرى، بعد الفتح الأول سنة 1120هـ/1708م، هذا ما ألهب حماس الكتاب والشعراء من أجل تخليد هذا الفتح المبين، ومن بين هؤلاء ابن سحنون الراشدي الذي كان شاهد عيان على دخول الباي للمدينة، حيث نقل لنا هذا المشد المهيب بأدق تفاصيله، وفي ذلك قال: «...**فبعث الباي محمد بن عثمان الكبير بالأعلام الإسلامية فنصبت على شواهق الأبراج، وسار هو فارتفعت الأصوات بالصلاة على سيد ولد عدنان ﷺ وكثر التكبير والآذان من كل لسان، ولعبت الخيول وقصفت أصوات البارود والطبول... ولما وصل الناس الأبواب ازدحموا أشد**

1 - الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص290.

2 - خوجة حسان: المصدر السابق، ص02.

الازدحام، كاد أن يفضي بهم إلى المقاتلة والالتحام، حرصا على السبق إلى دخولها والفوز بقبلية حلولها...»، «و...كان أول من دخلها –بعد الذين وضعوا الأعلام وعمروا المدافع وبنوا مضرب الأمير– العلماء يقدمهم صحيح البخاري ثم تلاهم الأمير في جنده الجرار وفي يد رمح كاد أن يمزق أديم السماء طولا، ويمس الثريا، وأسرة وجهه تتهلل بلوامع البشرى، وتتصوع بطيب أعبق من المسك نشرا، فنزل داخل البرج الأحمر بمضربه الفياح، الذي لا تهزه عواصف الرياح، فكان أول ما بدأ به أن صلى ركعتين شكرا لله تعالى، فضربت مدافع التهنئة طبولها، ثم دخل عليه الناس يهنونه أفواجا أفواجا...».[1]

نظرا للتغيرات الكثيرة التي طرأت على الملامح الكبرى لمدينة وهران والمرسى الكبير، بسبب طول احتلال المدينتين من طرف الإسبان الذين جعلوا أغلب بناياتها وعمرانها على النمط الإسباني، وهذا أمر عادي بالنسبة للمحتلين الذين عملوا لعشرات السنين على طمس النمط الإسلامي واستبداله بكل ما هو مسيحي إسباني، لذلك ما إن تم فتحهما حتى بدأ الباي محمد بن عثمان الكبير ببناء المدارس والمساجد والدور على النمط العثماني الإسلامي، وقد بادر هو شخصيا لبناء مسجد من ماله الخاص تقربا لله سبحانه وتعالى على أن منّ عليه بهذا الفتح العظيم، حيث أطلق عليه اسم الجامع الكبير "جامع الباشا"[2]، وفي نفس الوقت شجع الناس على الوفود إلى المدينة لعمارتها والاستقرار بها، خاصة أصحاب المهن والعلماء وعلية القوم، بالإضافة إلى أنه رخص لليهود بالبقاء والمشاركة في النهوض بالمدينة، مانحا إياهم امتيازات ضخمة تشجيعا لهم، مثل استثمار أموالهم في التجارة ، الصناعة، البناء والتعمير.

5-نتائج المعاهدة على الطرفين.

- أُعلنت الأفراح في كامل تراب الإيالة الجزائرية، ابتهاجا بهذا الفتح العظيم.
- زفت أخبار هذا النصر المبين إلى السلطان العثماني سليم الثالث[*]، الذي أرسلت له بشائر النصر ومفتاحان من خالص الذهب، وجرتان من ماء مدينة وهران[3]، هذا ما أثلج صدر السلطان[4]، الذي بادر

1 – أحمد بن محمد بن علي ابن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص 459.

2 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 64؛ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 491.

* – سليم الثالث ولد سنة 1175هـ/1761م، جلس على العرش سنة 1203هـ /1789م، وكان عمره 28 سنة، وحكم لمدة 19 سنة، عُرف عنه الفطنة والذكاء، عرف في عهده تغير نظام الجيش، لأن الجيش الانكشاري أصبح لا يواكب العصر، زِدْ على ذلك انتشار الفساد والفوضى بين صفوفه، وأوكل مهمة تغيير نظام الجيش للصدر الأعظم عبد الرحمن باشا، الذي لقي مقاومة ورفضا شديدا من الانكشارية، في عهده انفصلت الأفلاق والبغدان عن الدولة العثمانية سنة 1214هـ/1799م وانضمتا إلى روسيا، وبذلك اندلعت الحرب بين الدولة العلية وروسيا (بالاتفاق مع إنجلترا)... توفي سنة 1809م، محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص189.

3 – مجموعة رقم 3025، علبة11، الملف الأول، وثيقة رقم 54، شوال 1206هـ.

4 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 85.

بإرسال الخلعة السلطانية والتقليد لمنصب الداي لحسن باشا، رفقة 50 مملوكا ونيشايين وسيف مرصع بالذهب، دليلا على فرحه وابتهاجه بهذا الفتح.[1]

- بهذا الفتح العظيم، تم عمليا استكمال وحدة الإيالة الجزائرية سياسيا وجغرافيا لثاني مرة منذ تأسيسها سنة 926هـ/1520م، بعد سنة 1120هـ/1708م.[2]
- فتح صفحة جديدة من العلاقات الإسبانية الجزائرية، أساسها الاحترام المتبادل والمصلحة المشتركة.
- تأمين سواحل البلدين من الأعمال العدائية المتبادلة.
- مغادرة جميع العائلات الإسبانية الموجودة بمدينتي وهران والمرسى الكبير إلى إسبانيا، لعدم اندماجها مع العائلات الجزائرية بعد الفتح.
- اتخاذ مدينة وهران كعاصمة لبايلك الغرب، والتي شهدت فيها نهضة حضارية وعمرانية فريدة من نوعها بفضل المجهودات المبذولة من طرف الباي محمد بن عثمان الكبير.[3]
- قام الباي محمد بن عثمان الكبير بالعفو عن جميع الخونة والعملاء الذين كانوا يعملون مع الإسبان المحتلين، بعد تدخل قاضي مدينة وهران سي عبد الله بن حوا وأئمة مساجد معسكر، مثل سيدي أحمد وسي أحمد بن سحنون الكاتب بالجامع الكبير.
- يقوم الإسبان بتدمير كل الحصون التي بنوها منذ احتلالهم للمدينتين.[4]
- حاول كل طرف تفسير بنود هذه المعاهدة لصالحه، فالقيادة الجزائرية صورتها على أساس انتصار عسكري ودبلوماسي يضاف إلى تلك الانتصارات المحققة سابقا، بفضل قوتها العسكرية وحنكة قادتها الذين أرغموا الإسبان أخيرا على قبول شروطهم، أما السلطات الإسبانية فحاولت تصويرها على أنها انسحاب بمحض إرادتها، بعد أن فقدت المدينتين أهميتهما الاستراتيجية والاقتصادية، وهذا الانسحاب حقق كل أهدافها التي سعت إلى تحقيقها سابقا عبر القوة العسكرية، لذلك هذه المعاهدة كانت نصرا للدبلوماسية الإسبانية.

---

1 – مجموعة رقم 3025، علبة11، الملف الأول، وثيقة رقم 54، شوال 1206هـ.

2 – بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص290.

3 – الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص ص 294، 299.

4 – صلاح العقاد: المرجع السابق، ص40.

الفصل الثاني

العلاقات بين الإيالة الطرابلسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (12هـ/18م)

أولا: العلاقات الطرابلسية الإسبانية خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

المبحث الأول: التحالف الإسباني المالطي ضد الإيالة الطرابلسية.

1-السياسة العامة لحكام طرابلس الغرب داخليا وخارجيا بداية القرن 18م.

المبحث الثاني: أسباب الصراع الطرابلسي الإسباني.

1-الأسرى.

2-تطور الأسطول الطرابلسي.

3-نشاط الجهاد البحري الطرابلسي:

4-تخفيف الضغط على الدولة العلية:

5-محاولة حكام إسبانيا إحياء أمجادهم القديمة.

6-الحقد الديني.

7-القضاء على الجهاد البحري:

ثانيا: العلاقات الطرابلسية الإسبانية ما بين 1112-1198هـ/ 1700-1784م

المبحث الأول: العلاقات الطرابلسية المالطية خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

1-المعركة البحرية الطرابلسية المالطية سنة 1122هـ/1709م.

2-سير المعركة.

3-نتائج المعركة.

4-المعركة البحرية الطرابلسية المالطية سنة 1135هـ/1723م.

5-المعاهدة الطرابلسية الإسبانية سنة 1198هـ/1784م.

6-ظروف وأسباب توقيع المعاهدة.

7-المفاوضات الطرابلسية الإسبانية سنة 1198هـ/1784م.

8-توقيع المعاهدة الطرابلسية الإسبانية وبنودها.

9-بنود المعاهدة.

10-نتائج المعاهدة على الطرفين.

أولا: العلاقات الطرابلسية الإسبانية خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

المبحث الأول: التحالف الإسباني المالطي ضد الإيالة الطرابلسية.

1-السياسة العامة لحكام طرابلس الغرب داخليا وخارجيا بداية القرن 18م.

1-1-السياسة العامة داخليا.

كان من نتائج تدهور الأوضاع السياسية، العسكرية، الاقتصادية، الثقافية والاجتماعية للدولة العلية العثمانية ظهور عدد من الأسر بالإيالات المغاربية؛ التي كانت لها نزعة استقلالية عن السلطة المركزية باستانبول*، ففي تونس ظهرت الأسرة الحسينية سنة 1117هـ/1705م، وفي الجزائر أعلن علي شاوش رسميا انفصال الإيالة عن الدولة العلية سنة 1123هـ/1711م، وبذلك حذا حذو جيرانه التونسيين، وفي طرابلس تأسست الأسرة القرمانلية سنة 1711م**، وقد جاءت هذه الحركات كناتج طبيعي للسياسة التي كانت سائدة في الدولة العلية العثمانية[1]، التي بدأت تعرف العديد من المشاكل الداخلية والخارجية، بسبب العديد من العوامل التي نذكر منها:

---

* – تزامن ظهور هذه الأسر الحاكمة ببلاد المغرب وتولي بعض السلاطين العثمانيين الضعاف زمام الحكم، فقد تراجع نفوذهم وسلطتهم فاسحين المجال للنساء والصدور العظام للتحكم في مصير البلاد والعباد، وقد ترتب عن ذلك عدة نتائج هامة نذكر منها:

- ظهور العديد من الأسر الحاكمة بالولايات العثمانية ذات النزعة الاستقلالية.
- زيادة نفوذ القوى الأجنبية داخل البلاد الإسلامية وحتى داخل البيت العثماني الحاكم.
- ظهور حركات التمرد والعصيان، خاصة بالولايات الأوروبية.
- تمردات الجيش الإنكشاري عصيانه لأوامر السلاطين.
- ازدياد نفوذ الإنكشارية إلى درجة تدخلهم في تعيين السلاطين؛ مثلما حدث مع مصطفى الثاني (1695-1703) م الذي عزل من منصبه وعين بدلا عنه السلطان أحمد الثالث.
- زيادة نفوذ الصدور العظام الذين زادت سطوتهم ونفوذهم.
- ظهور الأطماع الاستعمارية في أراضي الدولة العلية العثمانية.

** – بعد مقتل إبراهيم أليلي داي في نوفمبر 1710م، حل محله إسماعيل خوجة الذي لم يبق في الحكم إلاّ شهرين، ليقتل في جانفي 1711م من قبل محمد بن الجن قائد الحرس، الذي أسند منصب حاكم طرابلس إلى الحاج رجب –وقد كانت هذه حيلة فقط من أجل السيطرة على الحكم فيما بعد، وهو ديدن العسكر في كل زمان ومكان– ليعلن نفسه فيما بعد حاكمًا لطرابلس الغرب، ليوقع مع الإنجليز اتفاقية بتاريخ 27 جوان 1711م باعتباره باشا طرابلس، بينما أسندت قيادة الحرس إلى محمد أبو مويس، الذي بدوره انقلب فيما بعد وقتل سيده محمد بن الجن في جويلية 1711م، وأعلن نفسه دايًا على الإيالة الطرابلسية، في هذه الأثناء كان بطرابلس الغرب أسرة قدمت من قرمانيا وهي مقاطعة عثمانية في الأناضول، واستقرت في طرابلس في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، في عهد حكم محمد الساقزلي انخرط أفرادها في الجيش الإنكشاري الطرابلسي، وقد برز أحمد القرمانلي كضابط في سلاح الفرسان، استطاع بمواهبه وإقدامه أن يترقى في سلك الجيش، هذا أكسبه مكانة عند أتباعه؛ سواء السكان المحليين أو داخل الجيش، إلا أن هذه المكانة ألّبت عليه محمد أبو مويس؛ الذي أحس بالغيرة والحسد والخوف على مكانته، لذلك خطر على باله تكليف القرمانلي بمهمة تأديب قبائل غريان، وما هذه المهمة إلا حيلة من أجل التخلص منه نهائيًا، بالتفاهم مع زعيم قبيلة غريان، غير أن أحمد القرمانلي اكتشف هذه الحيلة في الطريق عندما قرأ الرسالة التي كتبها الباشا، فقفل عائدًا إلى طرابلس واستولى عليها، وقتل الداي أبو مويس وأعلن نفسه دايًا لطرابلس رغبة عند إرادة الأهالي والأعيان والديوان في 28 جويلية 1711م، معلنًا بذلك بداية حكم الأسرة القرمانلية بطرابلس الغرب، الذي أصبح وراثيا في ذريته... للاستزادة ينظر، كوستانزيو برنيا: المرجع السابق، ص ص 214-217.

1- التدخل السافر من طرف سلطات الدول الأوروبية في الشؤون الداخلية للدولة العلية وإيالاتها.

2- تولي زمام حكم الدولة العلية سلاطين ضعاف، بعد السلاطين الأقوياء مثل سليم الأول، وسليمان القانوني وسليم الثاني.

3- زيادة نفوذ الصدور العظام في مقابل ضعف دور السلاطين؛ الذين ركنوا للحياة الدنيا وملذاتها.

4- تراجع دور الجيش الإنكشاري؛ الذي كان حامي الدولة وسلاطينها، ليتحول فيما بعد إلى جيش اتكالي وانتهازي همه تحقيق الامتيازات المالية والتسلط على الرعية بدل حمايتها والذود عنها.

5- ظهور العديد من الحركات الانفصالية ببلاد المغرب والمشرق* كان لها دورًا بارزًا جدًا في إضعاف الدولة العلية.

6- الأزمات المالية الناتجة عن النفقات المتزايدة، سواء على الجيش الإنكشاري أو موظفي الدولة.

7- تحطم الأسطول العثماني في معركة الليبانت في أكتوبر 1571م، كان له الأثر السيئ على المدى البعيد، وقد ظهرت نتائجه جليًا مع بداية القرن الثامن عشر وتزايد الأطماع الاستعمارية، خاصة الفرنسية والإنجليزية.

عرفت طرابلس الغرب بداية القرن الثامن عشر العديد من الأحداث البارزة داخليًا التي كان لها الأثر المباشر على السياسات الداخلية والخارجية للإيالة، فقد زادت الفتن والمشاكل والقتل داخل البيت الحاكم وحدث التنافر والفرقة بين الحاكم والرعية؛ فكلما استقر الحكم لأحدهم إلا وثار عليه الإنكشارية فقتلوه أو عزلوه، وما تكاد تستقر أمور الحكم لأحدهم حتى يظهر تمردًا من أحد الزعماء القبليين أو المرابطين، لذلك كان هذا القرن قرن فتن وانقلابات بطرابلس الغرب، وكان فاتحة حكام طرابلس خلال هذا القرن عثمان القهوجي الدرغوتكي**،

1- أمحمد سعيد الطويل: البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القرمانلي (1795-1832م) ، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان 2002م، ص 63.

* - ظهور بعض الحركات الانفصالية مثل:

-رفض علي شاوش سنة 1711م تولي مبعوث السلطان وممثله لدى ديوان الجزائر بحجة إثارة الفتن والمشاكل داخل الإيالة، وأرجع الباشا إلى عاصمة الخلافة استانبول على ظهر مركب تونسي، هذا ما اضطر السلطان العثماني أحمد الثالث للقبول بالأمر الواقع ومنح علي شاوش (1710-1718م)، لقب الباشا، بالإضافة إلى منصب الداي الذي كان يشغله، وقد عد الكثير من المؤرخين هذه الحادثة على أنها الاستقلال الفعلي للإيالة الجزائرية عن الدولة العلية العثمانية.

- ظهور الأسرة الحسينية بتونس، بقيادة حسين بن علي سنة 1705م.

- ظهور الأسرة القرمانلية بطرابلس الغرب سنة 1711م، بقيادة أحمد باشا القرمانلي.

- حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالدرعية سنة 1786م.

** - قال عنه النائب الأنصاري «... وكان عثمان هذا فظًا ذا جفاء وغلظة عاجزًا عن القيام بأعباء الولاية...» ،النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 272، وقال عنه ابن غلبون :«... كان يطبخ القهوة بسوق الترك وكان فظًا غليظًا...» للاستزادة ينظر ابن غلبون: المصدر السابق،=

خلفًا لمحمد الإمام* الذي انقلب عليه الإنكشارية وخلعوا بيعته، وكان ذلك ليلة الأربعاء 11ذي الحجة 1112هـ/ 1701م[1]، وكان أول عمل قام به عثمان القهوجي نفي محمد الإمام وأهله وأولاده إلى استانبول[2]، ولم تطل مدة حكمه إلاَ ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يومًا، استعمل فيها الغلظة والشدة تجاه السكان المحليين، فيما كان لينًا مع جند الإنكشارية الذين وزع عليهم الأموال حتى ينال رضاهم ويأمن جانبهم، ومخافة من بطشه وانتقامه فرّ خليل باشا** إلى تونس ولحق بحاكمها مراد بك بن محمد بن مراد الجبال الذي أحسن استقباله ووفر له كل متطلباته ليلتحق بعدها بصهره محمد الإمام باستانبول[3]، ليتولى من بعده الحاج مصطفى غليبولي*** الذي بايعه الإنكشارية

=ص230؛ بمثل هؤلاء الحكام ضاعت البلاد الإسلامية في ذلك الوقت، فأصبح كل من هب ودب يتولى قيادة الأمة، شرطه الوحيد أن يكون منخرطًا في صفوف الجيش، وما تطورت أمة حكمها الجهلة والمفسدون الذين يكون همهم الوحيد جمع الثروة واكتساب الجاه على حساب خدمة مصالح العباد والبلاد، ومع ذلك فنحن لا نحتقر المهن، ولكن من المفروض الذي يقود الأمة هم أهل العلم والمفكرين كل في اختصاصه.

* – محمد باشا الإمام شائب العين القاره طاغلي، قال عنه النائب الأنصاري:«...وأتاه التقليد من خليفة العصر السلطان محمد خان الرابع فتمكن به ونفذت أوامره وبسط في الناس العدل وكان خيرًا وتقيًا نزيه النفس واسع الصدر حسن الثناء ذا رأي وحزم وروية وله مشاركة علمية، مؤثرًا للإنصاف، متجانفًا عن العنف شديدًا على العمال، رادعًا لعداوتهم...»، النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 261، وقال ابن غلبون «...وكان محمد باشا حليمًا لين الجانب حسن السيرة لم يتخذ أعوانًا لخاصته غير عبد زنجي كان له قبل أن يلي الملك، لم يُرَ مستعملاً لحرير ولا ذهب، ولا مرتكبًا لمحرم في غير القانون المخزني، وأما هو فقد غلبه فيه العمال والجند حتى إنهم يغلبونه في إحداث الخوارق وهو لا يريدها، وربما صرح بذلك وتظلم، وكان ملازما للخمس في الجماعة، يؤم الناس إن غاب من عينه للإمامة بالقلعة كثير التوقير للعلماء، يقف لأدناهم منزلة، ويتنحى لكبرائهم عن سرير ملكه، سهل التناول، يطرق بيته جليل الناس وحقيرهم، ويخرج بنفسه ويسمع الشكاية من الكل فإذا أتاه الشاكي وقت أكله أخرجه إليه معه جبرًا لخاطره، لم يتأنق في مأكل ولا مفرش ولا بناء سوى مسجده الذي بناه بسوق الترك المعروف به، فإنه بذل فيه وسعه، وبناه من مفروضه في الغنائم...» للاستزادة ينظر ابن غلبون: المصدر السابق، ص 232، وهكذا هم الرجال الذين ترتقي بهم الأمة وتنتصر على أعدائها، وإنه وصف لا يليق إلاّ بالرجال العظماء الذين يخشون ربهم ويحبون أوطانهم ويبذلون الغالي والنفيس في خدمتهم.

1– ابن غلبون: المصدر السابق 229.

2– النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 271.

** – قال عنه النائب أحمد بك الأنصاري:«...كان عزيز النفس ثاقب الفكر عالي الهمة شجاعًا موهوبا، بعث العمال وأمن السرب وبسط في الناس العدل ودنت المعصية وأنشأ ضربخانة «دار» للمسكوكات، واتخذ الألبسة الرسمية المطرزة بالفضة في الأعياد وأصلح شأن الأساطيل الحربية واكتسب شهرة في الحروبات البحرية، وأنشأ الجامع الكبير الذي بالمنشية وأقام بالأمر»، للاستزادة ينظر: النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 278، ويقول عنه ابن غلبون «... وهو أول من اتخذ الحجاب من ملوك طرابلس، وأول من لبس الحرير والذهب وأكثر المماليك من الروم، وتأنق في المأكل والملبس ولم يكن لملوك طرابلس الذين قبله اعتناء بمثل هذا، ونحا في ذلك نحو ملوك تونس.. وكان خليل جبارًا ذا قوة لم يؤثر عنه شرب مسكر منذ ولّي، وفيًا بالعهد، لم تثبت عنه فلتة بخيانة قط، قوي العزم محبًا لأهل العلم، يكرمهم ويعطيهم، كثير التعلق بالأسئلة: فإذا أتاه آت ينسب إلى العلم ألقى عليه مسألة يعسر فهمها على مثله، فإذا أجاب زاد في تعظيمه واحترامه، وإلاّ غض عنه و إذا كتب توقيعًا في شيء لا يمكن الرجوع فيه يتحاشى قواده حامل كتابه ويخشون سطوته... وكان يقول: ألقى الله بكل ذنب ولا ألقاه منشورًا لي لواء الغدر، يتحامل على أهل البدع حتى قلت البدع في أيامه، وأذل رئيسها علي الفرجاني وسامه خسفًا ولم يدخل أرض طرابلس إلاّ بعد موته، بنا مسجدًا حسنًا بالظهرة، غير أنه كان مروانيا في إرخاء عنان عبيده وظلم حاشيته...»، للاستزادة ينظر ابن غلبون: المصدر السابق، ص ص 235، 236 .

3– ابن غلبون: المصدر السابق، ص 230.

*** – ينتمي إلى مدينة غاليبول الواقعة على ساحل البحر الأسود بالروميللي قال عنه النائب الأنصاري: «...وكان سيئ الخلق شديد الوطأة ضبط في الناس يد الجور وسامهم الخنق واضطربت في أيامه المسكوكات واشتد على ناس عنفه...» للاستزادة ينظر النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 276.

في 1ربيع الأول 1113هـ/1701م[1]، وكان سيئ السيرة، طاغية مفسدًا عامل الرعية بالعنف والغلظة، هذا ما اضطر العديد من القبائل لإعلان تمردها وخلع البيعة منه؛ مثلما كان الحال مع أهالي غريان الذين خلعوا بيعته بعد خمسة أشهر فقط من توليه، فاضطر لتجهيز حملة بقيادة سعيد بن المنتصر الزموري لإعادة إدخالهم في طاعته، وقد جرت العديد من المعارك بين الطرفين، كانت الغلبة فيها لجيش سعيد بن المنتصر الذي لم يرحل عن ديارهم حتى أعلنوا طاعتهم وإعلان ولائهم لمصطفى غاليبولي، بعد أن تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات.[2]

في هذه الأثناء استغل خليل باشا هذه الأوضاع لصالحه، حيث قدم من إستانبول مجهزًا بأسطول بحري واتجه إلى سرت واستقر بمنطقة الزعفران*، أين التقى بعبد الله بن حمود الجبالي –أبو طرطور– الذي كانت تربطه به علاقة صداقة قديمة، وصادف ذلك تذمر الناس من حكم مصطفى غاليبولي، الذي كان منشغلا بقتال قبيلة غريان، وبذلك تهيأت الظروف لخليل باشا للقيام بثورة ضد غريمه مصطفى غاليبولي.[3]

عندما سمع مصطفى غاليبولي بخبر خليل باشا جهز جيشًا وخرج إلى الزعفران لقتاله والقضاء على تمرده، وفي نفس الوقت أمر أعوانه بتاجوراء** لاعتراض سبيل خليل باشا، هذا الأخير ومباشرة بعد وصول أخبار مصطفى غاليبولي إليه سلك طريق الساحل متجهًا إلى العاصمة طرابلس للسيطرة عليها وخلع بيعة غريمه، وفي الطريق استطاع السيطرة على تاجوراء والقضاء على الكثير من أتباع مصطفى غاليبولي، ووعد الباقي بإعطاء كل واحد منهم عشرين ريالاً سنويًا، بالإضافة إلى الكثير من الأعطيات[4]، في مقابل التمرد على حاكمهم مصطفى

1– الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 211.

2 – النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 276.

* – الزعفران: وهو موضع بضواحي سرت على ساحل البحر، مجاورا لمدينة سرت القديمة بنحو أربعة كلم، على بعد 192 ميلا = 307.2 كلم إلى جنوب الشرقي منها. ماؤها عذب لا نظير له في العذوبة، يقوم للحيوان مقام العلف.... ابن غلبون: المصدر السابق، ص 231؛ الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 168.

3– الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 211.

** – تاجورة: كلمة بربرية لأن لفظ «تاء» في اللغة البربرية تدخل على المؤنث، مثل تاورغة، تاردية، تاغرمين وكتابة كلمة تاجوراء، بألف وهمزة لا أصل ولا سند لها حسب أحمد الطاهر الزاوي، وهي مدينة من مدن طرابلس القديمة مازالت معروفه بهذا الاسم إلى يوم الناس هذا، تقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بالقرب منها، كانت مركز لإقامة خير الدين بربروس سنة 937هـ/1531م، حيث طرد منها أنصار الحسن الحفصي الذي كان حليفًا لفرسان مالطا، وكانت أيضًا مركزًا لثورات الزعماء ضد الحكم العثماني، وأول من سكن هذه المنطقة في القديم حميد بن جارية جد الجواري سنة 550هـ/1155م ونقل إليها سكان من أرض عبدُ ربْ، وهم من أصل عربي ينتسبون إلى تميم، وسكنوا هذه الأرض منذ الفتح الإسلامي لطرابلس، وفيها قصر ينتسب إلى حميد بن جارية بناه بنفسه...، للاستزادة ينظر أحمد الطاهر الزاوي: المرجع السابق، ص ص 75، 76؛ الوزير الإسحاقي: رحلة الإسحاقي، تحقيق، عبد الهادي التازي، منشورات الجامعية الملكية، الرباط، المغرب الأقصى، ص ص 146، 147.

4– ابن غلبون: المصدر السابق ص 231.

غاليبولي، الذي ما إن وصل إليهم حتى أمسكوا به وأعلموا بذلك خليل باشا، الذي بعث به إلى تاورغاء*، وأوعز إلى حاكمها محمد بن علاق التاورغي بقتله، وكان ذلك سنة 1114هـ/2170م[1] وفي ذلك يقول النائب الأنصاري: «...**ثم أجمع – خليل بك–الرحلة إلى طرابلس فنهض إليها في جمهور أتباعه، وانتهى إلى الوالي خبره، فعسكر بخارج الثغر وأزاح العلل واستخلف كاهيته –مصطفى شوكلار– على البلد وارتحل للقائه؛ ولما انتهى إلى (وادي السمارة) لحق خليل بك بطرابلس من جهة الساحل وخيم عليها فمكنه منها وكيل الوالي لما بينهما من المودة القديمة...**».[2]

استطاع خليل بك –خليل القاره طاغلي–السيطرة على البلاد الطرابلسية في ربيع الثاني 1114هـ/1702م بعد قتل مصطفى غاليبولي، واستبشر الجميع لحكمه ولم يعارضه أحد في البداية؛ لأنهم سئموا حكم سلفه، ثم جاءه أمر التعيين من السلطان مصطفى الثاني** فتقوى مركزه وزاد نفوذه، فاهتم بالرعية وحاول الرفق بها وخدمتها، ثم طلب منهم التزام الطاعة والهدوء واحترام قراراته وأوامره وبذلك اطمأنت نفوس الناس وركنوا إليه[3]، ولما استقرت له أمور الحكم بعث لصهره محمد الإمام –شائب العين– وعياله سفينة قدمت بهم من استانبول سنة 1115هـ/1703م.[4]

---

* – من المصيبة أن يُبنى أساس الحكم على شراء الذمم والرشوة، ومن أعظم المصائب أن يصبح الجندي يباع ويشترى كأنه سلعة يتداولها الناس بينهم، لذلك يصبح هذا الجندي قابلاً للخيانة في أي وقت، ومن بنى حكمه على الرشوة فإن مصيره سيكون الخراب والهلاك، وهكذا هو ديدن الحكام المسلمين المتأخرين، إلاّ من شذّ عن القاعدة وهم قلة بالمقارنة مع هؤلاء النماذج الفاسدة التي ضيعت البلاد والعباد عبر الأزمنة المتأخرة.

1– الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 212.

2– النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 277.

** – مصطفى الثاني ابن السلطان محمد الرابع، ولد في 8 ذي قعدة 1074هـ/2 جوان 1664م، اتصف بالشجاعة والثبات والأقدام، فبعد ثلاثة أيام من توليه حكم السلطنة سار بنفسه إلى بلاد بولونيا وانتصر على جيوشها،ولولا حصانة مدينته لمبرج لتم له فتحها ومواصلة الزحف، إلاّ أن هذا الحصن لم يسقط بيديه، ليتوجه إلى قتال الروس الذين اضطرهم لرفع الحصار على مدينة أزاق ببلاد القرم التي حاصرها بطرس الأكبر قيصر روسيا وأراد احتلالها لتكون له منفذًا بحريا إلى البحر الأسود، وكانت قبائل القوزاق تحول بين هذا البحر وروسيا، فرفع الحصار عنها في أكتوبر 1690م، ثم غزى السلطان بجيوشه بلاد المجر و فتح حصن "لبا" وهزم الجنرال "فترايي" في موقعة لوجوس– تقع في جنوب الغربي من رومانيا إلى شرق من تمسوار– وقتل من جنوده حوالي 6000 جندي وأخذه أسيرًا وقتله في 12 صفر 1107هـ/22 سبتمبر 1695م، وفي 25 صفر 1109هـ/12 سبتمبر 1697م التقى الجيش العثماني والجيش النمساوي بقيادة "أوجين دي سافوا" الذي ألحق بالعثمانيين هزيمة نكراء وقتل منهم عددًا كبيرًا، كان منهم الصدر الأعظم الماس محمد باشا في قرية صغيرة اسمها زينتا "senta" بالقرب من رومانيا، وفي عهده استطاع بطرس الأكبر الروسي السيطرة على ميناء أزاق سنة 1696م، وفي عهده أيضا أمضت الدولة العلية مع روسيا والنمسا والبندقية وبولونيا معاهدة كارلوفتس في 24 رجب 1110هـ/26 جانفي 1699م، والتي تنازلت بموجبها الدولة العلية عن مدينة أزاق لفائدة روسيا، وجميع بلاد المجر وترنسلفانيا للنمسا، وبعد أن حكم لمدة 8 سنوات و8 أشهر عزل السلطان مصطفى الثاني في 2 ربيع الآخر 1115هـ/15 أوت 1703م، ليتوفى بعدها في 22 شعبان 1115هـ/31 ديسمبر 1703م... للاستزادة ينظر محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ص 308–311.

3– الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 213.

4– ابن غلبون: المصدر السابق، ص 234.

كان حكم خليل باشا مضطربًا، فما كاد يتم له الأمر ويَستقر له الحكم حتى ثارت عليه عرب المحاميد وغريان، فاضطر للخروج إليهم في ربيع سنة1115هـ/ 1703م على رأس قوة من جيشه مكونة من 3 آلاف جندي انكشاري و500 فارس و600 من أتباعه من عرب غريان، وجرت بين الطرفين معارك طاحنة بوادي الأرباع* كانت الغلبة فيها لجيش خليل بك، الذي ألحق بخصومه هزائم منكرة، وكبدهم خسائر فادحة في الأرواح والأموال، ثم قفل راجعًا إلى طرابلس في شهر جويلية بعد أن ضمن دخول خصومه في طاعته[1]، وما كاد يقضي على تمرد المحاميد وغريان حتى دبر له الإنكشارية مؤامرة؛ خاصة الكولغولية منهم، الذين تحججوا بمعاملته القاسية تجاه السكان والجيش الإنكشاري على حد سواء، هذا ما جعلهم يقررون التخلص منه، إلاّ أن خليل باشا اكتشف أمرهم وأحبط تمردهم وأعدم قيادتهم سنة1121هـ/ 1709م.[2]

في ربيع سنة 1121هـ/1709م أعلن عبد الله بن عبد النبي الصنهاجي تمرده وخلع بيعته عن خليل باشا[3]، وهاجم المحلة التي كانت تحمل خراج فزان واستولى عليها[4]، معلنًا بذلك عداءه لحاكم طرابلس ورافضًا لجميع قراراته التي لم يعد لها أي معنى عنده، فقرر خليل باشا الخروج إليه وقتاله في شعبان 1121هـ، إلاّ أنه في الطريق علم أن الباشا إبراهيم أليلي وجنوده خلعوا بيعته وخرجوا عليه معلنين تمردهم أيضاً وعينوا خليفته حسين آغا بدلاً عنه**، فما كان من خليل باشا إلاّ العودة للقضاء على تمرد إبراهيم باشا، فعسكر بجيشه في المنشية***، وهناك خرج إليه المتمردون مع بعض السكان لمحاربته، أين دارت معارك عنيفة بين الطرفين دامت سبعة أيام كاملة، أسفرت نهايتها عن انهزام جيش خليل باشا وفراره إلى عبد الله بن عبد النبي الصنهاجي الذي كان فيما مضى عدوا له، إلاّ أن قاره محمد قائد جيش إبراهيم أليلي لاحقه إلى تاورغاء، وهناك جرت معركة بين طرفين قتل خلالها عبد الله بن عبد

* – وادي الأرباع؛ موجود بغريان، واسم غريان يطلق على عدة مناطق في طرف جبل نفوسة الشرقي، وعاصمتها تفاسَّات، احتلها الطليان في أوائل سنة 1913م وطرُدوا منها سنة 1922م، فيها بيوت كثيرة محفورة تحت الأرض تشبه الغيران وهي عادة قديمة متوارثة عند السكان القدماء بالجبل، وتنقسم غريان إلى قسمين، عليا وسفلى، فالقسم الجنوبي من الكميشات إلى نهاية حدود غريان الجنوبية، وهو غريان العليا، ومن الكميشات إلى نهاية حدود غريان الشمالية من ناحية قطيس هو غريان السفلى، ويقال أن كلمة «غريان» تطلق على أكثر من مائة قرية وتقع جنوبي طرابلس بنحو 94 كلم وسكانها من العرب.. للاستزادة ينظر: أحمد الطاهر الزاوي: الرجع السابق، ص ص 245،244.

1– إتوري روسي: المرجع السابق، ص 314.

2– رودلفو ميكاكي: طرابلس تحت حكم أسرة القرمانلي، تعريب، طه فوزي، راجعه، حسن محمود، كمال الدين عبد العزيز الخربوطي،...1961م، ص 07.

3– النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 281.

4– إتوري روسي: المرجع السابق، ص 317.

** –هكذا دائمًا هم المتآمرون يستعملون الحيل والمكائد للوصول إلى الحكم، وما هذا التعيين إلاّ حيلة للوصول إلى حكم، وهي عادة العسكر عبر كل زمان، الذين يقومون بالاستلاء على حكم ثم يعثوا في البلاد فسادًا، ويرتكبون أبشع المخالفات في حق البلاد والرعية.

*** – المنشية: هذه المحلة بظاهر المدينة –طرابلس–جامعة الأطراف رائعة المنظر عليلة الهواء، وافرة الثمار والمياه، رحبة البيوت... للاستزادة ينظر عبد الهادي التازي: أمير مغربي في طرابلس 1143هـ/1731م، أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، ص 46.

النبي، وفرّ خليل باشا إلى ودان* أين بقي في ضيافة الناصر حاكم فزان، ومنها ذهب إلى مصر، ثم قرر بعدها التوجه إلى استانبول[1]، وفي ذلك قال النائب الأنصاري «... **واتبعه "قاره محمد"، ولما وصل "عين تاورغاء"– لقي هناك "عبد الله بن عبد النبي الصنهاجي" في جموعه، فحاربه وهلك عبد الله بن عبد النبي في الجولة وتفرقت جموعه، ثم انقلب (قاره محمد) لطرابلس ولحق خليل باشا بمصر وقدم منها لدار السعادة العلية...**»[2]، فيما قال عنه ابن غلبون: «... **وأقام خليل بسرت قليلاً ثم توجه منها الودان ولحق بالناصر صاحب فزان وتفرق عبيده وأتباعه شرقا وغربا، ولم يبق معه إلاّ قليل فأخذه لحومة ابن جويلي المسراتي كبير ركب تجار مصراتة لأرض فزان معه حتى أدخله مصر فأكرمه إبراهيم بك وأهلها إكرامًا زائدًا، وخرج منها إلى القسطنطينية شاكيًا لحضرة السلطان، وما درى أن الله ليملي للظالم** ** **حتى إذا أخذه لم يفلته...**».[3]

بعد فرار خليل باشا سيطرة إبراهيم أليلي على طرابلس في أكتوبر1121هـ/ 1709م، واستقل بالحكم سنة كاملة، وتصرف فيه بحرية مطلقة، أذاق خلالها أتباع سلفه الويلات وأذعن فيهم قتلا وتشريدًا انتقامًا منهم، وفي نفس الوقت قرّب منه أهل البلد متخلصًا بذلك من نفوذ الإنكشارية العثمانية، وواضعًا حدًا لسطوتهم ونفوذهم، خاصة بعد عزل قائد جيشه قاره محمد وتعيين بدلاً عنه محمد حسنين شاوش، الذي قام بعزله هو الآخر وعين بدلا عنه صهره محمد بك بن الجن***، هذا ما ألب عليه محمد قاره الذي أعلن تمرده وإثارة عرب غريان على الحكم المركزي بطرابلس التي هاجمها رفقة أتباعه، فخرج إليه محمد ابن الجن ولقيه بتاجوراء وجرت بينهما معركة طاحنة، تكبد فيها قاره محمد خسائر فادحة وفقد حوالي 300 من أتباعه، فيما فر البقية[4] إلى الجبل رفقة قائدهم،

---

*- ودان: كلمة مأخوذة من الود و المحبة، وهي واحة من واحات الجفرة، تقع جنوب سرت بحوالي 270كلم غربي زلّة بحوالي 166كلم، وفي الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بحوالي 225كلم، افتتحها بشر بن أبي أرطأة سنة 23 هـ في زمن عمرو بن العاص عندما كان يحاصر طرابلس سنة 22هـ، ثم نقض أهلها العهد، وأعاد فتحها عقبة بن نافع الفهري سنة 49هـ في ولاية معاوية بن أبي سفيان ، وكانت في القديم تنقسم إلى قسمين؛ شمالي وجنوبي، سكانها خليط من العرب والأمازيغ، وأصل العرب بها من اليمن سهميون وحضرميون، وكانت الجهة التي يسكنها السهميون تسمى دالْياك والتي يسكنها الحضرميون بُوصى، أما الأمازيغ فهم من قبيلة مزاتة، وكانت بلاد ودان تشمل: زلّة، هون، سوكنة، ودان وما جاورها...للاستزادة ينظر الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص ص 349، 355.

1- الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 282.

2- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 282.

** - عن أبي موسى رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» متفق عليه.

3- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 237.

*** - قال عنه إتوري روسي: «...وهو قولغلي ومن رؤساء البحرية المشهورين، وقد ظفر بحب الأهالي وإعجابهم به لما يتميز من شجاعة ونسب قولوغلي أبوه تركي وأمه عربية ...» للاستزادة ينظر، إتوري روسي: المرجع السابق، ص 318.

4- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 318.

وفي ذلك يقول النائب الأنصاري: «... **ثم قدم من منفاه غريان فانتفضوا له واعصوصبوا عليه ثم أجمع على محاصرة طرابلس ونهض في جموعه وقدم تاجوراء أواخر سنة 1122هـ اثنين وعشرين ومائة ألف، فحشد الوالي الجنود، وعقد "لمحمد بك الجن" عليهم، ونهض لقتالهم، ولما التقى الجمعان اختل مصاف (قاره محمد) واستبيح معسكره وانتهبت فساطيطه ونجا إلى الجبل مغلول الجناح وقفل محمد بك الجن، مظفرًا... »**.[1]

إلاّ أن إبراهيم أليلي لم يهنأ بالحكم أكثر من سنة واحدة، ليثور عليه الجند بقيادة محمد الجن[*]، وحاصروه بقصره، ثم قبضوا عليه ونفوه إلى الإسكندرية، ونادى الناس والجند بتولي محمد بن الجن للحكم، إلاّ أنه رفض ذلك مطلقًا وسلم الأمر لإسماعيل خوجه، وباشر مهامه في شوال 1122هـ/نوفمبر1710م، ولم يدم حكمه إلاّ شهرين، وثار عليه الجند مرة أخرى بحجة ضعفه وعدم الحد من صلاحيات ونفوذ محمد الجن الذي كان الحاكم الفعلي[**]، ليتولى من بعده الحاج رجب الذي كان أول قولوغلي يتولى فعليًا حكم البلاد، ليغدر به محمد أبي أميس[***] ويقتله في العشر الأخير من جمادي الأولى سنة 1123هـ/1711م، وكما كان سكان طرابلس قد تعبوا من الحكام الظالمين وممارستهم القاسية فإنهم هللوا لهذه الجريمة البشعة بالرغم من سماعهم إشاعة مفادها أن أبي أميس ارتكب هذه الجريمة لمصلحة خليل باشا الذي كان يعمل مستشارا خاصًا له ومن المقربين إليه، أما الكولوغية وأنصار الحاج رجب فإنهم التزموا الصمت مؤقتا، على أن بعضهم رفض هذا الفعل الشنيع، مثلما كان عليه الحال عند أحمد القرمانلي، الذي كان من أعيان البلاد وقائدًا للمنشية في عهد خليل باشا.[3]

ولما أحس أبو أميس بخطر أحمد القرمانلي وكفاءته ومكره أراد التخلص منه، إلاّ أنه كان يخشى من السكان المحليين والجنود؛ بسبب المكانة المرموق للقرمانلي عندهم، لذلك أرسله إلى غريان، وطلب من عامله عليها

1- أحمد النائب بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 282.

* – قال ابن غلبون: «... وكأن الله سبحانه أراد انقراض الدولة التركية وإقامة الدولة القولوغلية، فأيد محمد الجن وسلط الترك على بعضهم حتى قلوا وضعف أمرهم، فتاقت نفسه رحمه الله تعالى لخلع بيعة إبراهيم، فجمع كبراء البلدين، الساحل والمنشية وشاورهم في ذلك، فأشاروا عليه بخلع بيعته لخمس عشرة خلون من رمضان، وقيل لأربع عشرة مضيْن من رمضان من السنة المذكورة...» للاستزادة ينظر، ابن غلبون، المصدر السابق، ص 238.

** – مصطفى طاي قال عنه النائب الأنصاري: «...وولى الحاج مصطفى طاي وأتاه الأمر عفوًا صفوًا لم يمد إليه يدًا ولا تجشم فيه مشقة، وكان خفيف القيادة فاتر الهمة فأضاع الحزم وأغفل الأمور وكثر الثوار والبغي في زمانه وتخطف الناس من السايلة...» للاستزادة ينظر، النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 283.

*** –قال عنه النائب الأنصاري: «...وقدم لولايتها محمد أبو أميس كاتب الديوان وكان طايش الحلم لئيم الظفر، لسانه سلم موادع، وقلبه حرب منازع، فأظهر من حسن الخلق ولين العريكة ما أستمال به قلوب الجند وأعيانهم فاتفقوا على تقديمه للولاية، ولما نال قصده أسرع إلى النكوص على عقبيه وأقبل على التعدي وأظهر من الجفاء والغلظة ما لم يُظن به...» للاستزادة ينظر، النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، 284.

3- الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق ص 217.

قتله والتخلص منه، إلاّ أن القرمانلي تفطن لهذه الحيلة* ورجع قبل وصوله إلى غريان، فلما قدم إلى طرابلس بايعه أهل البلاد بالإجماع وبدون معارضة[1]، وكان ذلك في جمادي الثانية 1123هـ/ جويلية 1711م، وقد اجتمع الديوان وعقدوا مجلسًا واتفقوا فيه على خلع أبو أميدس وتنصيب أحمد القرمانلي**، وبخلع أبي أميس انتهى العهد العثماني الأول، وابتدأ عهد الأسرة القرمانلية.[2]

مباشرة بعد توليه الحكم واجهت أحمد القرمانلي العديد من الأخطار الداخلية والخارجية؛ كان أبرزها خطرين اثنين:

- شخص خليل باشا الذي كان أُقصي من الحكم سنة 1709م، وأراد العودة إليه بمساعدة العثمانيين.
- الصراعات والمشاكل القائمة بين سكان الدواخل.[3]

في 26 جمادي الآخرة 1124هـ/1712م قدم الوالي السابق خليل باشا على رأس أسطول بحري مكون من 800 جندي ومزودًا بفرمان لتولي حكم البلاد، إلاّ أنهُ منِعَ من دخول طرابلس[4]، فتوجه إلى زوارة*** واستطاع كسب تأييد عرب السهل، خاصة أولاد نوير، وقرر الزحف على المدينة برًا وأمر الأسطول بالتوجه إلى محاصرتها

*- يروي لنا رودلفو ميكاكي رواية مخالفة لما جاءت به المصادر المحلية التي أرجعت اكتشاف هذه الحيلة إلى دهاء وعبقرية أحمد القرمانلي، فيما أشار مكاكي إلى تسرب خبر هذه الخديعة إلى أعضاء الديوان والعسكريين والأعيان الذين أرسلوا إلى القرمانلي حتى يعود إلى طرابلس وفي ذلك يقول: «...فإنه أرسله إلى غريان بقصد قتله بواسطة الجنود المقيمين في تلك البلدة، ولكن هذا النبأ تسرب إلى أعضاء الديوان والرؤساء العسكريين و أعيان المدينة فأرسلوا إلى القرمانلي حتى يعود إلى طرابلس للاعتراف به رئيسًا وزعيمًا وتلقى القرمانلي هذه الدعوة، وعاد إلى المدينة في يوم الثلاثاء الموافق 2 جمادي الثانية سنة 1123 هجرية و28 يوليو1711م، ودخل السوق، ونادى به سكان الساحل والمنشية الذين كانوا موجودين آنذاك وأعضاء الديوان أميرًا على البلاد دون أية معارضة...» للاستزادة ينظر: رودلفو ميكاكي: المرجع السابق، ص 10.

1- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 240.

** – قال عنه النائب الأنصاري: «.. وولى أحمد بك قرمانلي في نحوه يوم الخميس الثالث عشر من جمادي الآخرة سنة 1123هـ ثلاث وعشرين ومائة ألف، وبعث العمال واتخذ جمعية علمية لحسم النوازل والمحاكمات الشرعية وكان مؤثرًا للعدل والإنصاف لين العريكة...» النائب بك أحمد الأنصاري: المصدر السابق، ص 285، وقال عنه ابن غلبون «... وهو الذي أسس قوانين الدولة، وأحيا رسومًا دائرة من قواعدها... وأدخلوا أمير المؤمنين المدينة وبايعه الناس وتمت له البيعة، وقدمت عليه الوفود من أهل القرى والبوادي يبايعونه وأعلن بنصرة الشريعة وأهلها، وعقد مجلسا لحضور العلماء بين يديه لفصل الخصام، وأمر عماله أن يفعلوا كذلك، ففعل البعض، وبالغ في تعظيم العلماء و إكرامهم وفرض لهم في العطاء؛ وزاد في إكرام أرباب البيوت القديمة، وحمد الناس سيرته... » للاستزادة ينظر: ابن غلبون: المصدر السابق، ص ص 240، 281 وقال عنه رودلفو ميكاكي: «...كان أحمد القرمانلي سنة 1711م شابًا يبلغ من العمر ما يقارب من خمسة وعشرين عامًا يخفي تحت رقة أخلاقه وحسن معاملته إرادة قوية وحزمًا وعزيمة لا تعرفان التردد...» ردولفو ميكاكي: المرجع السابق ص 13.

2- الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 219.

3- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 327.

4- النائب الأنصاري: المصدر السابق، ص 285.

*** – زوارة: اسم مدينة من مدن طرابلس تقع بالقرب من الحدود الغربية، كانت تسمى كوطين، تقع غربي طرابلس بحوالي 109 كلم وغربي صبراتة بحوالي 42 كلم، وجميع سكانها من الأمازيغ، يتكلمون اللغة الأمازيغية وهم فخذ من قبيلة نفوسة، وهي من المناطق القليلة التي لم تتأثر بكثرة العرب واحتفظ فيها سكانها بلغتهم وهويتهم...للاستزادة ينظر، الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 175.

بحرًا، ووقع الصدام بين الطرفين بمنطقة زواغة* وكانت الهزيمة من نصيب خليل باشا، الذي ألقي عليه القبض ثم قتل وأخذ رأسه إلى طرابلس يوم السبت 29 أوت 1712م.[1]

كان أحمد القرمانلي يعلم أن الإنكشارية لن يسكتوا على قتل خليل باشا سيدهم السابق، وسيقفون أمام أي إصلاحات يقوم بها، لذلك فكر في كيفية التخلص من نفوذهم، فأعد لهم في بيته الريفي حفلة فاخرة ودعا إليها عددًا كبيرًا من ضباط الإنكشارية، ثم أجهز على 300 منهم وقتلهم[2]، وبذلك خلا له الجو لتنفيذ مشاريعه التي خطط لها بعناية وإتقان.**

بعد القضاء على الإنكشارية قام أحمد باشا القرمانلي بملاحقة حركات العصيان التي كانت تحدث في تاجوراء وترهونه*** ومسلاتة**** التي قاد ضدها حملة عسكرية بنفسه[3]، إلاّ أن أخطر ثورة واجهها أحمد باشا كانت ثورة ذات طابع ديني قادها رجل يدعى علي بن عبد الله النبي المكنى "بأبي قيلة" من قبيلة صنهاجة بفاس، وقد عاش فترة كبيرة بطرابلس وكان شاهدًا على جميع الثورات التي حدثت بها، لذلك قرر خلع بيعة القرمانلي وأخذ يجوب القبائل محرضًا على سياسة والي طرابلس، وقد اجتمع حوله الانتهازيين والمتضررين من سياسة أحمد

---

*- بيت زواغة: مدينة قديمة تقع غربي مدينة طرابلس بنحو 72 كلم، وهي قريبة من البحر بها ميناء بحري، وسميت نسبة إلى قبيلة أمازيغية كانت تسمى زواغة وهي من البربر الذين سكنوا هذه المنطقة، وتقع غربي صبراتة بنحو 5 كلم، ولم تذكر في الفتوحات الإسلامية، ويظهر أنها لم تكن لها جهة، وتذكر من تلك الناحية إلاّ صبراتة، وبها قبور يرجع تاريخها إلى حقبة الفتح الإسلامي للمنطقة ، تسمى قبور الصحابة، وزواغة في أصل نطقها بربري، بتشديد الواو، وقد تساهل العرب في نطقها وأصبحت تنطق بتخفيف الواو...للاستزادة ينظر، الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص ص 175، 176.

1- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 328.

2- رودلفو ميكاكي: المرجع السابق، ص 13؛ محمود علي عامر، محمد فارس خير، المرجع السابق، ص 209؛ إتوري روسي: المرجع السابق ص ص 327، 328.

** -ما نلاحظه أن الوصول إلى الحكم عند العرب والمسلمين في العصور المتأخرة يقوم دائمًا على الغدر والخيانة والتآمر، والضحية في كل ذلك السكان الذين يدفعون الضريبة غالية خدمة لهؤلاء الحكام؛ الذين تهمهم مصالحهم الشخصية والاستئثار بالحكم أكثر من مصالح الرعية والأوطان، إلاّ القليل جدًا منهم.

*** – ترهونة: كلمة ترهونة كلمة بربرية تطلق على قبيلة أمازيغية من هوارة تسكن تلك المنطقة، ولما سكن العرب هذه المنطقة وتكاثروا رحل بعض سكانها وبقي البعض الآخر واندمج العنصران مع بعضهما، وبمرور الزمن انقطعت صلتهم وأنسابهم وزالت حساسيتهم تجاه العرب وزالت عنصريتهم اللغوية ولم تبق إلاّ اللغة العربية والعرب، وتطلق كلمة ترهونة على قبيلة عربية من أكبر القبائل الموجودة بطرابلس، وتقع هذه المدينة جنوب العاصمة طرابلس بحوالي 85 كلم...» للاستزادة ينظر، الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق ص 81.

**** – مسلاتة: مدينة كبيرة تقع في الجنوب الشرقي من طرابلس، بحوالي 120 كلم، أراضيها جبلية، تكثر فيها أشجار الزيتون، وكلمة مسلاتة كلمة أمازيغية تطلق على قبيلة أمازيغية، ولما تغلب عليهم العنصر العربي بعد الفتح الإسلامي انحاز أكثرية أهلها إلى جبل نفوسة وزوارة، فيما اندمج البعض الآخر مع العرب، وبقيت الأسماء تطلق على الأماكن التي كانوا يسكنونها مثل ترهونة، ومسلاتة وغريان، وتملّك العرب هذه المنطقة وسكنوها...للاستزادة ينظر، الطاهر أحمد الزاوي: المرجع السابق، ص 315.

3- محمود علي عامر، محمد خير فارس: المرجع السابق، ص 209.

القرمانلي، وما إن أحس أن له أتباعًا كثر حتى توجه بهم إلى الجبل الأخضر ببرقة مدعيًا أنه المهدي المنتظر*، لذلك زاد أتباعه وأصبحت له مكانة مرموقة وسمعة طيبة بين الناس، خاصة وأنه وعدهم بطرد االعثمانيين من كامل طرابلس، ثم استباح لأتباعه نهب القرى التي يمرون بها، فسلبوا الموانئ وأحرقوا المزارع، هذا ما اضطر العديد من سكان القرى للفرار والهجرة هربًا من الموت[1]، وفي ذلك يقول النائب الأنصاري: «...**وفي سنة 227[2]سبع وعشرين نافق علي بن عبد الله الصنهاجي والتف به كل مفسد من سكنة "الجبل الغربي" وأودية الكمكوم وثار في تلك النواحي وشنوا الغارات واغتصبوا أموال الرعايا ونهبوا مواشيهم وانتسفوا زروعهم، ثم فارق مكان ثورته وارتحل بأتباعه ذئاب الغارة إلى نواحي الجبل الأخضر فلقي وفرًا من العساكر ومعهم خراج قرية أوجله، فوثب عليهم واغتصب الخراج وخيل الجند، ثم انقلب ونزل بجموعه بالزعفران من أرض سرت...**».[3]

وأمام اشتداد وطأة علي بن عبد الله الصنهاجي وأتباعه على ممتلكات الدولة والرعية، قرر أحمد باشا الخروج للقضاء عليهم، وتخليص الناس من فسادهم، فقاد حملة بنفسه، وباغته في منطقة الزعفران بسرت[4] واكتسح فُسْطَاطه، إلاّ أن الصنهاجي تمكن من الفرار تارك أتباعه يواجهون مصيرهم من قتل وسبي وسلب للأموال التي كانوا تحصلوا عليها بالقوة والإكراه من عند البسطاء من الرعية المغلوبين على أمرهم...وفي ذلك يقول النائب الأنصاري: «...**ولما اتصل خبره بأحمد باشا حشد الجند لقتاله وخرج لقصدهم في أوائل ربيع الأول من هذه السنة والتقى الجمعان وتواقعوا، ولما حَمِي الوطيس اختل مصاف علي الصنهاجي وهلك الكثير من**

---

* – هي فكرة قديمة استعملها العديد من الدجالين والأفاكين من أجل استعطاف الناس واستغفالهم في نفس الوقت، خاصة ببلاد المغرب، حيث استعملها أبو عبد الله الشيعي للتبشير بالداعية الشيعي عبد الله المهدي، في قبيلة كتامة بالمغرب الأوسط، لنشر دعوته في كامل بلاد المغرب ، أين قامت دولتهم سنة 296هـ، إلاّ أن المغاربة بقيادة العلماء تصدوا لهذه الدعوة الضالة بكل حزم وقوة رغم ما عانوه على يد أولئك المبتدعة، ليظهر في كل مرة من يدعي أنه المهدي المنتظر، ولا زال الأمر كذلك إلى يوم الناس هذا، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب نذكر منها:

- انتشار الجهل والأمية.
- التخلف الاقتصادي والانهيار الأخلاقي داخل المجتمع.
- الظلم والجور والطغيان من طرف الحكام اتجاه الرعية.
- خراب العقائد نتيجة الابتعاد عن التعاليم الحقيقة للإسلام.
- غياب الوعي والانغلاق على الذات عند أتباع المبتدعة والدجالين.
- عدم قيام بعض علماء أهل السنة بدورهم الحقيقي، خاصة إذا وافق ذلك أهواء الحكام.
- شجع الحكام هذه الخرافات للبقاء في الحكم والاستئثار بمزاياه

1 – محمود علي عامر، محمد خير فارس: المرجع السابق، ص 210.

2 – يقصد سنة 1127هـ/1712م.

3 – أحمد بك النائب الأنصاري: المصدر السابق، ص ص 286، 287.

4 – إتوري روسي: المرجع السابق، ص 330.

أتباعه وأتبعت الخيل آثار المهزومين واستوعبهم قتلا وأسرًا، وأجلت المعركة عن علي الصنهاجي وأتباعه مضجعين في مراقدهم كأنما أقعدوا للرداء، فوطأتهم سنابك الخيل وغشيهم فنام الركاب، وذهب ذلك الجمع شعاعًا، واستولى على أموالهم ونعمهم وكافة حيوانهم ووجد الخراج بختامه...».[1]

استمر الحال هكذا في عهد أحمد القرمانلي حيث ما يكاد يقضي على ثورة إلى واندلعت أخرى ضده، إلاّ أن الملاحظ أنه لم يبذل جهدًا كبيرًا في القضاء على حركات التمرد والعصيان التي قامت في العديد من المناطق خاصة ترهوتة ومسلاتة وسرت، بسبب وقوف الأهالي إلى جانبه ومساعدته في القضاء عليها، مدعومًا في ذلك بالعلماء*، كما كان لطاعة الجند له والانصياع لقراراته دور في تنظيم أمور الدولة تنظيمًا جيدًا؛ فعين الموظفين في النواحي، وشكل حرسًا محليًا للمحافظة على الأمن ومطاردة اللصوص وقطاع الطرق، وحصّن البلاد مخافة من الأخطار الخارجية، فرمم القلاع والحصون، وقام ببناء أخرى جديدة، وأصلح الأسوار والأبراج، وبنى جامعًا سماه باسمه.[2]

وقد كانت لهذه الأحداث الأليمة التي شهدتها البلاد الطرابلسية آثارًا بالغة الخطورة على البلاد والعباد، خاصة على السكان المحليين الذين تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح والأموال دون الاستفادة من شيء، وقد كان المستفيد الأول والأخير الحكام الوافدين من الأناضول والبلاد الأخرى، في غياب تامٍ لحكام الدولة العلية الذين بقوا عاجزين عن فعل أي شيء لأهل البلاد، ومن أهم هذه الآثار نذكر:

- انتشار الغدر والخيانة داخل صفوف الإنكشارية، الذين أصبح همهم الوحيد السلطة والمال، بدل الدفاع عن العباد والبلاد.
- انتشار الفقر والجوع؛ نتيجة كثرة الحروب والفتن؛ فقد هجر الفلاحون أراضيهم وسلبت أموال الموالين، زاد الأمر خطورة إنهاك الرعية بالضرائب والمكوس، خاصة بعد تراجع مداخيل الجهاد البحري.
- عدم استقرار الحكم؛ فما إن يتولى حاكم حتى تحاك ضده الدسائس والمؤامرات، لدرجة أن هناك من تولى مدة 15 يومًا فقط.

---

1 – أحمد النائب بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 287.

* –يلعب العلماء دورًا بارزًا سواء سلبًا أو إيجابًا في تثبيت الحاكم، فإن كانوا من العلماء العالمين العاملين الناصحين للحاكم، استقام وصلحت أحواله وخدم البلاد والعباد، وإن كانوا من علماء البلاط المهادنين الخاضعين لرغبات الحاكم ضاعت البلاد والعباد وكانت عرضة للتخلف والعمالة للأجنبي، وانهارت جميع ميادين الحياة؛ السياسية، الاقتصادية، الثقافية والاجتماعية

2 – محمود علي عامر، محمد خير فارس: المرجع السابق، ص 210.

- تهميش أهل البلاد، ومنعهم من تولي المناصب العليا في الدولة، مثلما كان حادث في كامل الإيالات المغاربية الأخرى.*
- انتشار الجهل والأمية بين صفوف السكان المحليين؛ نتيجة لغياب أي استراتيجية للحكام من أجل النهوض بالتعليم والعمل على تطويره، فيما كانت الدول الأوروبية تعمل جاهدة للقيام بنهضة علمية بدأت تظهر ثمارها بداية هذا القرن وما بعده.
- ازدياد الهجمات الأوروبية على الإيالة، نتيجة لاشتغال الحكام بإخماد الثورات والصراع حول الحكم، فاسحين المجال لهذه القوى للعبث بمقدرات العباد والبلاد.
- انهيار الاقتصاد الذي كان يعتمد بالأساس على مداخيل الجهاد البحري، لذلك ما إن تراجعت البحرية الطرابلسية حتى انهار الاقتصاد، وأمام هذه المشكلة لم يجد الحكام إلاّ الرعية لإنهاك كاهلها بالضرائب وتعويض المداخيل وتلبية حاجيات الإنكشارية، خاصة وأن الرعية لم تكن من اهتمامات هؤلاء الحكام، إلاّ القليل منهم الذين شذوا عن القاعدة.

1-2-السياسة العامة خارجيًا.

أ-علاقات الإيالات المغاربية مع بعضها.

كانت علاقات الإيالات المغاربية ببعضها البعض متوترة وغير مستقرة، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب نذكر منها:

- الصراع حول الحدود.
- التدخلات المباشرة لحكام الجزائر في شؤون إيالتي طرابلس وتونس.
- تدخلات القناصل الأوروبيين الذين كانوا يعملون دائمًا على إثارة الفتن والمشاكل بين الدول المغاربية، لأن استقرار أوضاعها لا يخدم مصالحهم.
- عدم وعي الحكام بالمؤامرات التي تحاك ضد بلادهم.
- صراع القبائل المتواصل حول الكلأ والماء وأراضي الرعي خاصة.

*- في الوقت التي كانت فيه الشعوب الأوروبية تأخذ حريتها وتدافع عنها بكل قوة وحزم بعد عصور مظلمة ذاقت فيها جميع أنواع الاستعباد والتخلف، انقلبت الأمور رأسًا على عقب عند المسلمين الذين كانوا في العصور الوسطى أهل حضارة وعلم وتحولوا في بداية العصر الحديث وما بعده إلى عبيد لا يملكون لأنفسهم حولاً ولا قوة، تارة باسم الخطر الأجنبي وتارة باسم طاعة ولاة الأمور بتدخل العلماء وبطانة السوء حتى داهم الاحتلال بلادهم و أبقاهم عبيدًا أيضًا، فقتل أبنائهم واستحيى نساءهم وسلب خيرات بلادهم، لتبقى الرعية في بلاد الإسلام مستعبدة تعيش في جهل وتخلف لم تجد له أي مخرج.

- غياب سلطة الردع من سلاطين الدولة العلية الذين كان همهم المحافظة على ما تبقى لهم من أراضٍ خلال هذا القرن، خاصة بعد انهيار الأسطول وضعفه وكثرة مشاكلهم الداخلية.

كان خليل باشا صديقًا وفيًا لمراد بك حاكم تونس، هذا الأخير أكرم وفادة خليل بك حين فرّ من طرابلس بعد إطاحة الإنكشارية بصهره محمد الإمام من على رأس الإيالة[1]، لذلك وما إن طلب منه المساعدة من أجل القيام بحملة على الجزائر حتى وافق على ذلك مباشرة ردًا للجميل، لذلك قام سنة 1114هـ/1702م بتجهز مراد بك جيشًا واتجه به إلى الجزائر، وفي نفس الوقت كتب إلى خليل باشا من أجل الحاق به ومؤازرته[2]، تدفعه في ذلك العديد من الأسباب، نذكر منها:

- إظهار جانبا من قوته وحزمه لضمان ولاء الرعية.
- محاولة انتقامه من الجزائريين الذين دعموا عمه رمضان سابقًا.
- رفع معنويات جيشه، بتحقيق انتصارات خارج حدود الإيالة التونسية، وفي نفس الوقت توسيع الرقعة الجغرافية لبلاده.
- التخلص من الأداءات المالية التي كانت تدفعها سلطات الإيالة التونسية لنظيرتها الجزائرية.[3]
- رفض الداي الجزائري حسن باشا شاوش للهدية التي أُرسلت إليه من قبل الباي التونسي مراد بك[4]، ويرجح أن هذا السبب هو الذي حمل الباي التونسي على توجيه هذه الحملة، بدافع الانتقام لمقتل والده فيما سبق[5].

جهز الباي مراد بك حملة تتكون من 12 ألف جندي من المشاة و4 آلاف من الفرسان، ومعهم 32 مدفع وسار على رأسهم باتجاه الجزائر[6]، وكانت هذه الحملة الأولى التي وجهتها الإيالة التونسية لغزو الجزائر، لأن المحلات السابقة كانت كلها من الجزائر باتجاه الإيالة التونسية لتحقيق أهداف معلومة سلفا.[7]

قبل وصول الحملة التونسية لقسنطينة علم بها الباي علي خوجة؛ لذلك استعد جيدًا لملاقاتها، إلاّ أن قواته لم تكن في مستوى قوات الباي التونسي، وقد التقى الطرفان في معركة حامية الوطيس أسفرت نهايتها عن

---

1 - ابن غلبون: المصدر السابق، ص 235.

2 - أحمد بك النائب الأنصاري: المصدر السابق، ص 279.

3- عطية محمد: الصراع بين الإيالتين الجزائرية والتونسية من خلال المصادر المحلية الجزائرية والتونسية 1587-1830م، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي ليابس، قسم العلوم الإنسانية، سيدي بلعباس الجزائر، 1436هـ/2015م، ص 84

4- النائب بك أحمد الأنصاري: المصدر السابق، ص 279، ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 149.

5- مقديش محمود: المصدر السابق، ص 144.

6- المجموعة 3190، الملف الثالث، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، ورقة 53.

7- عطية محمد: المرجع السابق، ص 84.

هزيمة الجيش الجزائري[1]، الذي خسر حوالي 500 جندي إنكشاري من خيرة الجيش في بايلك الشرق، حيث لم يحدث أمرًا كهذا في جميع المعارك السابقة بين الطرفين، هذا ما وضع مصير الباي علي خوجة على المحك.[2]

بعد هذا الانتصار الكاسح وبعد استراحة جيشه لعدة أيام، قرر مراد بك حصار مدينة قسنطينة والسيطرة عليها، ظانًا أنه سيقتحمها بسهولة تامة، ولم يضع في حسبانه أن أهلها لما علموا بهذه الحملة جمعوا المؤن لما يكفيهم من الصمود أثناء الحصار الذي لم يكن أحدًا يعلم كم سيدوم[3]، ومع ذلك وخلال الشهر الأول من الحصار استطاع التونسيون افتكاك قلعة قسنطينة وقتل كل من كان بها والاستيلاء على الأسلحة والمؤن الموجودة فيها[4]، وقد استمر الحصار مدة ثلاثة أشهر أخرى[5]، كان فيها الباي التونسي ينتظر المدد من حليفه خليل باشا حاكم طرابلس، الذي قدم إليه على رأس 1500 فارس[6]، وبذلك استطاع الباي التونسي إقحام الإيالات المغاربية العثمانية الثلاثة في حروب طاحنة مجددًا.[7]

عندما علمت الإنكشارية في الجزائر بأخبار وصول خليل باشا للمشاركة في الحملة ضد بلادهم اتهموا الداي حسن باشا الشاوش(1698-1705م) بالتقاعس والتأخر في التصدي للتونسيين، وقاموا بعزله وتعيين الداي الحاج مصطفى أهجي (1700-1705م)[8] بدلاً عنه، هذا الأخير سارع في التصدي للتحالف الطرابلسي التونسي، حيث التقى الطرفان في السهول الواقعة بين قسنطينة وسطيف في أكتوبر 1700م[9]، وتزامن ذلك مع الهجوم الذي شنه السلطان المغربي مولاي إسماعيل على وهران للسيطرة عليها بجيش قوامه 50 ألف فارس، إلاّ أن محاولته باءت بالفشل، فغير وجهته باتجاه غرب الإيالة لعله ينال مراده في التوسع على حساب الجزائر[10]، وبذلك يمكننا القول أن البلدان المغاربية كانت جميعها تريد التوسع على حساب الإيالة الجزائرية، مشتتين جهودهم في حروب طاحنة، بدل توجيهها إلى مواجهة الدول المسيحية التي كانت تنتظر الفرصة المواتية لاحتلال بلاد المغرب كلها.

1- المسعودي الباجي: المرجع السابق، ص 112.
2- ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 148.
3- محمد عطية: المرجع السابق، ص 85.
4- النائب بك أحمد الأنصاري: المصدر السابق، ص 279.
5- ابن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص 26.
6- المجموعة 3190، الملف الأول، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، ورقة 53.
7- عطية محمد: المرجع السابق، ص 85.
8 - *De Grammont (H.DE) : correspondance Des consuls D'Alger…, op.cit. P50.*
9- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 236.
10- ابن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص 151.

بالرغم من عدم تكافؤ الجيشان المتحالفان مع الجيش الجزائري في العدة والعتاد، إلاّ أن جيش الجزائر استطاع إلحاق هزيمة نكراء بالتونسيين والطرابلسيين الذين انسحبوا من ميدان المعركة، تاركين الجيش التونسي يواجه الجزائريين لوحده، الذين تمادوا في التنكيل بالتونسيين، مما اضطر الباي مراد بك للفرار مع بقية جيشه الذي نجا من هذه النكبة، يجر أذيال الهزيمة[1]، وكان عدد القتلى كبيرا جدًا، أما الأسرى من التونسيين فقد بلغ عددهم حوالي 2000 أسير[2]، وبعدها عاد الجيش الجزائري من حيث أتى بقيادة الداي مصطفى الذي اكتسب الاحترام والتقدير مكنه من حكم البلاد لمدة خمس سنوات بدون مزاحمة الإنكشارية له[3].

بعد انتصار الجيش الجزائري على التونسيين والطرابلسيين توجه مباشرة إلى الجيش المغربي؛ الذي امتنع سلطانه عن دفع الضرائب المفروضة عنه، ودخل في تحالفات مع الباي التونسي، واستطاع الجزائريون بقيادة الداي مصطفى تحقيق انتصار باهر في معركة دامت حوالي أربع ساعات، قتل خلالها حوالي 3 آلاف من الجنود المغاربة وغنم 50 من خيولهم.[4]

ما يمكن ملاحظة أن الخاسر الأكبر في هذه الحروب هم السكان المغاربة الذين فقدوا الكثير من أولادهم وأموالهم في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، لأن المستفيد الأول من ذلك هم الحكام؛ الذين كان همهم البقاء في سُدّة الحكم والحفاظ على مصالحهم الشخصية، وبذلك فوتوا فرصا حقيقة للإقلاع بالبلاد المغاربية كلها وبدون استثناء.

أمام هذه الأوضاع المتردية حاول سلاطين الدولة العلية التدخل والحد من هذه الخلافات، وقد تزامن ذلك إرسال حكام إيالتي الجزائر وتونس لمبعوثين لهما إلى الباب العالي من أجل طلب الجنود اتباعًا للسياسة المتبعة في التجنيد من الدولة العلية، فاستغل السلطان العثماني مصطفى خان الثاني[5] هذه الفرصة وطلب من مبعوثي الإيالتين الجلوس لطاولة الحوار وإنهاء الخلافات بينهما، وحثهما على اتباع سياسة التهدئة وعدم الدخول في حروب طاحنة، وأمرهما بالرجوع إلى بلديهما مصحوبين بفرمانات تطالب بإنهاء حالة التوتر خدمة لمصلحة الطرفين[6]، إلاّ أن الباي التونسي مراد بك رفض هذه الأوامر*، وقد أدى هذا الرفض للسخط عليه من طرف

1- المجموعة 3190، الملف الأول، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، ورقة 53.

2- حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص 48.

3- عطية محمد: المرجع السابق، ص 87.

4- ابن ميمون: المصدر السابق، ص 27.

5- ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 149.

6- الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 113.

* - إن هذا الرفض لم يكن الأول بالنسبة لحكام الإيالات المغاربية وغيرها من الإيالات الأخرى، وما حدث ذلك إلاّ عندما ضعف سلاطين الدولة العلية، وتركوا الحرية للصدور العظام وقادة الإنكشارية للسيطرة على مقاليد الحكم، فيما ركن السلاطين في قصورهم يستمتعون بملذات الحياة الدنيا=

السلطان العثماني[1] وداي الجزائر وحتى الكثير من المقربين إليه، وبذلك فتح على نفسه جبهة أخرى هو في غنى عنها، كان يقودها إبراهيم الشريف آغا الصبايحية مبعوثه إلى السلطان مصطفى الثاني، وهكذا اتسع الرقع على المخيط، ولم يستطع هذا الباي التحكم في زمام الأمور نتيجة لتهوره وعدم تقدير عواقب أفعاله، وبدأ إبراهيم الشريف بالتخطيط للتخلص منه[2]، وعندما جاءته الفرصة المواتية قتله؛ أثناء خروجه إلى وادي الزرقاء قرب مدينة باجة من أجل جمع الضرائب، وبذلك استطاع إبراهيم الشريف السيطرة على مقاليد الحكم بالإيالة التونسية رغم أنه لا يمت بصلة للأسرة المرادية الحاكمة، وإنما وصل عن طريق الخديعة والغدر بعد أن أوعز له السلطان العثماني بقتل الباي مراد لرفضه الصلح بين الإيالتين، وبذلك انتهى حكم الأسرة المرادية ودشن عهدًا جديدًا في البلاد التونسية.

عندما سمع خليل بك بمقتل مراد بك حزن حزنًا شديدًا، لما له من أفضال كثيرة عليه، واتخذ موقفًا سلبيا من إبراهيم الشريف ونصب له العداء[3] وتزامن ذلك مع إرسال باشا مصر لجياد أصيلة ذات نوعية نادرة كانت تمر عبر تراب الإيالة الطرابلسية، ولما علم بها خليل باشا استولى عليها، فراسله إبراهيم الشريف يوبخه على هذا العمل، وطالبه بإعادتها فورًا، إلاّ أن خليل الأرناؤوطي رفض ذلك بشدة وردَّ عليه بأسلوب حاد وجارح[4]، وزاد الأوضاع تأزمًا بين الطرفين جنوح إحدى السفن التونسية إلى مرسى طرابلس نتيجة لهبوب عاصفة، وكانت هذه السفينة تقتاد سفينة أخرى على متنها ثلاثين أسيرًا نصرانيا وبضائع ثمينة وعتاد حربي مهم، فاستغل خليل باشا ذلك وأخذ منها ما يلزمه، هذا ما أثار غضب إبراهيم باشا، الذي قرر إعلان الحرب على حكام الإيالة الطرابلسية.[5]

مع بداية سنة 1116هـ/1704م جهز إبراهيم الشريف جيشًا قوامه 18 ألف جندي ونزل بأحد البساتين القريبة من مدينة طرابلس يرافقه ضابطان طرابلسيان عثمان القهوجي وشعبان بن قار يوسف آغا الكرسي، لأنه كان يعتقد أن وجودهما معه يحمس أهالي طرابلس للانقلاب على خليل باشا[6] هذا الأخير استعد لملاقاة الجيش التونسي بمسافة غير بعيدة خارج مدينة طرابلس، أين دارت معارك عنيفة أسفرت عن هزيمة الجيش الطرابلسي

=ومزايا الحكم، مهملين بذلك شؤون الرعية التي أصبحت تعاني التخلف والتهميش في جميع مناحي الحياة؛ السياسية، الاقتصادية، الثقافية، الاجتماعية والأمنية.

1- محمد عطية: المرجع السابق، ص 88.

2- حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص 89.

3- أحمد بك النائب الأنصاري: المصدر السابق، ص 280.

4- ألفونس روسو: المصدر السابق، ص 152؛ ابن غلبون: المصدر السابق، ص 235.

5- النائب بك أحمد الأنصاري: المصدر السابق ص 280؛ محمود مقديش: المصدر السابق ص 150.

6- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 234.

وتشتيت شمله، مما اضطر خليل باشا للعودة مسرعًا إلى المدينة والتحصن خلف أسوارها والدفاع عنها[1] مخلفًا وراءه 2000 من جنوده بين قتيل وأسير مناصفة في جولة واحدة، لا تساوي ساعة من نهار ذلك اليوم العصيب[2]، وتقدم إبراهيم الشريف باتجاه طرابلس وعسكر بالمنشية وقام جنوده بالإفساد والتخريب، ثم رحل إلى الرملة[*] وقطّع النخيل وأفسد البساتين القريبة من المدينة وبنا أبراجًا لحصار مدينة طرابلس، التي بدأ في رميها بالكور.[3]

ضرب الجيش التونسي حصارًا مشددًا على مدينة طرابلس مدة قاربت الأربعين يومًا، حدث خلالها الكثير من أعمال السلب والنهب والتخريب، مما كان له انعكاسًا إيجابيًا على الطرابلسيين الذين التفّوا حول قائدهم خليل باشا للدفاع عن مدينتهم، بالرغم من الإجراءات التي اتخذها الباي التونسي كحفر الخنادق والتقدم نحو المدينة كل يوم، وإحداث فجوات في جدران حصونها[4]، هذا ما جعل أهل الحل والعقد من أهل المدينة يعرضون الصلح على إبراهيم الشريف في مقابل تعويضات الحرب وإطفاء نار الفتن بين الأشقاء[**]، إلا أنه رفض ذلك مطلقًا وبقي مصممًا على الفتك بحاكم طرابلس والسيطرة على المدينة، وقد أثّر هذا الموقف المتعنت على نفسية الآغا حسين بن علي التركي[***] الذي كان الواسطة في الصلح، مما جعله يقرر الانتقام من الباي التونسي عندما تحين الفرصة المواتية والظفر بحكم الإيالة التونسية، ولم تمض إلاّ بضعة أشهر حتى تمكن من اعتلاء عرشها.[5]

بعد رفض إبراهيم باشا للصلح استؤنف القتال بين الطرفين وكان أكثر ضراوة مما سبق، ومع ذلك لم يستطع أيّ منهما حسم الأمر لصالحه، بالرغم من التسليح الجيد للجيش التونسي، إلاّ أن حصانة أساور المدينة[6] وتوفر المؤن والتكاثف بين أهل طرابلس وجيشها ساهم في الصمود لفترة طويلة من الزمن، إلى أن طرأ على مسرح

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 250.

2- محمود مقديش: المصدر السابق، ص 151.

* – الرملة: منطقة بأرض فزان، تقع شمالها على مسافة سير يوم من قرية الزيّغن، وهي قرية تابعة لمصراتة.

3- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 234.

4- عطية محمد: المرجع السابق، ص 92.

** – وفي ذلك قال ابن غلبون «...وحاصرها وضيق على أهلها، فأرسلوا إليه يطلبون الصلح على مال جعلوه له وكان ذلك بواسطة كاهيتة (حسن بن علي، فامتنع وأغلظ فحذره كاهيتة غائلة من دعي إلى الصلح ولم يجب وقال له: أن صاحبك الذي أغضبك فرّ بين يديك هاربًا وقتلت جنده وأعوانه!!. وأخذت محلته بما فيها، فأي ذنب لأهل البلد...» للاستزادة ينظر، ابن غلبون: المصدر السابق، ص 281.

*** – حسن بن علي التركي ولد سنة 1080هـ/1669م بجزيرة كريت، وقدم إلى تونس في زمن مضى تقلد العديد من المناصب آخرها كاهية الباشا إبراهيم الشريف، قبل أن يصبح بايًا على تونس، ويعد المؤسس الفعلي للأسرة الحسينية التي حكمت البلاد ابتداء من سنة 1705م، توفي سنة 1153هـ/1740م ... للاستزادة ينظر، أبو عبد الله محمد بن عثمان السنوسي: مسامرات الظريف وحسن التعريف، تحقيق وتعريب، محمد الشاذلي النيفر، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994م، ص ص 88، 92.

5- شارل فيرو: المرجع السابق ص 249.

6- عطية محمد: المرجع السابق، ص 92.

الأحداث عاملا مهمًا كان سببًا في رجوع المحلة التونسية إلى بلادها معلنة بذلك فشلها في السيطرة على البلاد الطرابلسية.

فقد تفشى الطاعون بين صفوف التونسيين وأهلك منهم عددًا كبيرًا، وفرّ عددًا آخرًا من ساحة المعارك، وفي ذلك يقول النائب الأنصاري: «...**فصمم على قساوته فدافع الله عنهم بوقوع الطاعون في معسكره، ومات به عدد كثير من الجند وكان سببًا في فرار من معه من الأعراب، فارتحل عنها أواسط رمضان سنة 1116هـ ست وعشرة ومائة ألف ورجع إلى تونس...»**.[1]

هكذا انتهت هذه الفتن التي لم تجن منها البلاد والعباد إلاّ الخراب والدمار وضياع الأرزاق والممتلكات، وكل ذلك بسبب تهور حكام الإيالات المغاربية واندفاعهم وعدم تقديرهم لعواقب الأمور، فبدلاً من توحيد الجهود وبناء دولهم بطريقة حضارية، اتجهوا إلى طريق الانحراف والممارسات المتخلفة التي كانت عاقبة أمرها خسرانًا مبينًا على كل الأصعدة.

ب-العلاقات الطرابلسية الفرنسية.

كانت السلطات الفرنسية تراقب عن كثب ما كان يدور داخل الإيالات المغاربية عامة وطرابلس الغرب خاصة، مستمتعة بتلك الحوادث الجسام التي كانت تمر بها البلاد وأهلها، وتدير اللعبة من وراء ستار بواسطة قناصلها وممثليها؛ ومن ذلك أن القنصل الفرنسي دي لالاند «Delalnd» -الذي تولى هذا المنصب مابين(1694-1702م) بطرابلس- استغل صداقته مع خليل باشا وقام بتحقيق العديد من الامتيازات للأوربيين المقيمين بالإيالة الطرابلسية، بالإضافة إلى ذلك قامت البعثة الفرنشيسكانية ممثلة في شخص الأب نيكولو بطلب توسيع مقر البعثة والكنيسة، ومن أجل ذلك وبتاريخ 14 سبتمبر 1703م وضع الحجر الأساسي للكنيسة الجديدة واحتفل بأول صلاة فيها في عيد الميلاد من نفس السنة[2]، وما إن عرف الفرنسيون أن الأوضاع بدأت تستقر لصالح أحمد القرمانلي، حتى بدأوا في إثارة المشاكل والفتن، بحجة النشاط المتزايد للبحارة الطرابلسيين، خاصة وأن أحمد باشا القرمانلي كان يحتاج إلى الأموال الكثيرة لسد العجز وتوفير متطلبات الجيش والموظفين، ومواجهة الأعباء المتزايدة الناتجة عن كثرة الحملات باتجاه الدواخل للقضاء على الثورات والتمردات، وكانت الوسيلة الوحيدة لزيادة المداخيل هي تشجيع الجهاد البحري[3]، وذلك بدعم صناعة السفن وبناء المخازن والأبراج وتزويد البحرية

1- النائب بك أحمد الأنصاري: المصدر السابق، ص 281.

2-كوستانزيو برنيا: طرابلس من 1510 إلى 1850، تعريب، خليفة محمد التليسي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ص ص 210، 211.

3- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 234.

الطرابلسية بعدد من السفن السريعة، وتوفير الماء الصالح للشرب لأصحاب المراكب، وبذلك استطاع أن يعيد للبحرية نشاطها وهيبتها.[1]

في سنة 1713م استطاع أحد الرياس الطرابلسيين السيطرة على سفينة فرنسية محملة بالزيوت، وقادها إلى ميناء طرابلس، فطالب القنصل الفرنسي بإعادة تلك السفينة سالمة، إلاّ أن السلطات الطرابلسية لم تستجب لطلبه هذا، فما كان من القيادات الفرنسية بباريس إلاّ إعطاء الأوامر للأميرال الفرنسي أبرام كويزن دي مونييه «Abrano Du Quesn-Monnier»، قائد البارجة البحرية الفرنسية لاديامان «Le Diamant» بالتوجه إلى طرابلس الغرب للمطالبة بإرجاع السفينة وحمولتها وإطلاق سراح ربانها وعقاب البحار الذي قام بهذا الفعل، ومن أجل إنجاز هذه المهمة وصل القائد الفرنسي إلى شواطئ طرابلس بتاريخ 21 جوان 1714م، ومباشرة اتصل بأحمد القرمانلي وأبلغه الأوامر الصادرة من قيادة بلاده*، وأعلن القرمانلي استعداده لتلبية هذه المطالب وإرضاء ملك فرنسا، إلاّ أن الأوضاع المالية للبلاد لا تسمح بدفع الأموال، ثم طالب دي مونييه بإطلاق سراح بعض الأسرى وأخذهم إلى بارجته، وبعدها ذهب إلى قصر الباشا أين استقبل وتلقى الوعود بدفع التعويضات اللازمة نظير الأضرار التي لحقت بالسفينة وأعضاء طاقمها، كما تعهد بإرسال موفدًا عنه إلى باريس لتقديم الاعتذارات لملك فرنسا[2] وهدايا له؛ ممثلة في جواد أصيل والكثير من الغزلان والنعام وكلاب الصيد -السلوقي-، وقد ذهب وفدًا طرابلسيًا إلى باريس يوم 17 أكتوبر 1713م، واستقبل استقبالاً حارًا من طرف الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، وعاد إلى طرابلس في شهر جويلية سنة 1714م محملاً بالهدايا الثمينة[3] دليلاً على تحسن العلاقات السلمية واستمرارها.

في شهر مارس 1720م توجه أحد ممثلي الملك الفرنسي إلى طرابلس للعمل على إبقاء حالة السلم بين البلدين، وترتب عن هذه الزيارة إرسال السلطات الفرنسية دوسولت «Dusault» كممثل لها مطلق الصلاحيات، وقد استطاع هذا الأخير إبرام معاهدة جديدة مع الطرابلسيين بتاريخ 4 جويلية 1720م[4]، حيث

1- أمحمد سعيد الطويل: المرجع السابق، ص 64.

* - هكذا هي القيادة الفرنسية تتعامل دائمًا مع الحكام المغاربة باستعلاء وتكبر، وكأنهم خدم عندها لا حكامًا مستقلين عنها تمامًا، فما إن يحدث أي أمر ولو كان بسيطًا إلاّ وحاولت استعمال القوة والعنف، وهذا في الحقيقة راجع لضعف الحكام وهوانهم على حكام فرنسا، وقد بقيت تستعمل هذا الأسلوب إلى غاية احتلال البلاد المغاربية واستغلال خيراتها، بل مازالت تستعمل هذا الأسلوب إلى يومنا هذا.

2- كوستانزيو برنيا: المرجع السابق، ص 223.

3- رودلفو ميكاكي: المرجع السابق ص ص 10، 19.

4- كوستانزيو برنيا: المرجع السابق، ص 223.

تمت هذه المعاهدة على أساس الاتفاقية المبرمة بين الطرفين سنة 1685م*، إلاّ أنه ما يشد الانتباه هو البند السادس والعشرون منها، الذي ينص على أن الآباء المسيحيين والمبعوثين من أعضاء الإرسالية المسيحية مهما كانت انتماءاتهم، يعتبرون من المشمولين برعاية الملك الفرنسي وحمايته، ولا يمكن التعرض لهم أو مضايقتهم أو المساس بأنفسهم أو ممتلكاتهم أو أماكن عباداتهم** مهما كانت الأسباب والمبررات[1]، وقد تم الاتفاق على جميع بنود الاتفاقية، وعندما حضر دوسولت في يوم 4 جويلية 1720م لتوقيعها مع الباشا أحمد القرمانلي، رفض هذا الأخير التوقيع على المعاهدة ما لم تشتمل على نص آخر يتحمل بموجبه ملك فرنسا المسؤولية عما يقع في المستقبل للتجار الطرابلسيين الذين يبحرون على السفن الفرنسية، لذلك اضطر دوسولت قبول هذا الشرط ووافق على إضافة مادة جديدة تفيد قبوله المقترح، وفي مقابل ذلك تنص هذه المادة على أن الباشا والديوان يتحملان نفس المسؤولية عن التجار الفرنسيين الذين يبحرون على متن السفن الطرابلسية.***

تطبيقًا لبنود المعاهدة المبرمة بين الفرنسيين والطرابلسيين وصل بعد شهرين من توقيع المعاهدة إلى طرابلس الماركيز دي فارين «De Varennes»، على رأس قوة بحرية متكونة من ثلاثة سفن حربية، وعند وصوله قام أحمد القرمانلي بتحية العلم الفرنسي وذلك بإطلاق تسعة وعشرين طلقة مدفع، غير أنه بتاريخ 21 فيفري 1721م

---

* – في سنة 1685م قرر لويس الرابع عشر إرسال سفنه الحربية للهجوم على الإيالة الطرابلسية، فكلف الأميرال دستري D'estrées بهذه المهمة وقد ظلت السفن الفرنسية تقصف المدينة لمدة ثلاثة أيام؛ أي من 19إلى 22 جوان 1685، مما ألحق بالمدينة دمارًا هائل، هذا ما اضطر السكان لإعلان تمردهم والمطالبة بالصلح حتى لا تزيد خسائرهم أكثر، وفي هذه الظروف تولى حاكم البلاد الحاج عبد الله الأزميرلي، الذي طلب من الفرنسيين إقامة صلح معهم، وقدكان هذه الصلح مهينًا ومكلفًا للطرابلسيين، وأهم ما جاء فيه:

—تحرير جميع الأسرى المسحيين دون تميز.

– تسليم رهائن من الطرابلسيين كضمان للصلح يكونوا من أعيان البلاد.

– تقديم تعويض مالي قدره 500.0000 فرنك.

وقد احتوت هذه المعاهدة على ثلاثين بندًا بالإضافة إلى رسالة اعتذار من عبد الله الأزميرلي، وتعتبر هذه المعاهدة من أكبر الإهانات التي فرضتها السلطات الفرنسية على حكام طرابلس... للاستزادة ينظر: كوستانزيو برنيا: المرجع السابق، ص ص 189، 191.

** – تعتبر هذه الشروط من أهم الأسباب التي اعتمدت عليها الدول الأوروبية لزيادة نفوذها داخل البلاد الإسلامية عامة والمغاربية خاصة، معتمدة في ذلك على المعاهدة الفرنسية العثمانية سنة 1535م، التي كانت الممهد الحقيقي لمثل هذه الخروقات الفادحة، وتعتبر هذه المعاهدة من أكبر الأخطاء التي ارتكبها السلطان العثماني سليمان القانوني بحق الدولة العلية وإيالاتها، رغم أنه لا يمكن تبرير رضوخ حكام الإيالات المغاربية لنزوات وخروقات القادة الفرنسيين الذين كانوا دائمًا يعملون على خدمة مصالحهم الذاتية والقومية الأوروبية الاستعمارية، التي كانت فرنسا رائدة فيها حتى تم لها ذلك باحتلال الدول المغاربية، وقسمة تركة الرجل المريض كما سمى الأوروبيون الدولة العلية العثمانية، لأنهم عملوا دائمًا على إنهاك قواها، وعندما أتيحت لهم الفرصة أجهزوا عليها، وقدكانوا ينتظرون هذه الفرصة منذ أن ظهرت على مسرح الأحداث العالمية، لأنهم لم ولن يرضوا بأن يقود العالم خلافة إسلامية قوية، بل كل ما يطمحون إليه دويلات متنافرة ومتقاتلة فيما بينها، تحقق طموحاتهم في نهب خيرات البلاد واستعباد سكانها.

1– إتوري روسي: المرجع السابق، ص 325.

*** – حصلت السلطات الفرنسية بموجب اتفاقية جويلية 1720م على حق الاستحواذ على أعمدة رخامية وتيجانها وبعض المرمر والتماثيل من مدينة لَبْدَة الأثرية والإذن بنقلها لفرنسا .... للاستزادة ينظر، كاماللو منفروني: المرجع السابق، ص 72، لا يمكننا التعليق على هذا الامتياز إلاّ بقول القائل:

وَمَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيهِ وما لجُرْحٍ ميّتٍ إيلامُ.

وقع حادث كاد أن يؤدي إلى عواقب وخيمة، لأن الباشا أحمد القرمانلي تلقى رسالة من الأسرى الطرابلسيين بميناء شيفيتا فيشا – «Civita-Vecchia» القريب من روما– وقد أخبروا الباشا بسوء المعاملة التي يلقونها إلى درجة ضربهم بالفلقة –ضرب على أسفل الرجل– بل أكثر من ذلك أن أحد القضاة الأسرى حلقت لحيته إهانة له، وتُليت الرّسالة على أعضاء الديوان، الذين غضبوا من هذا التصرف، لذلك أمروا بالقبض على الرهبان الإرساليين، الذين تم تكبيلهم بالسلاسل وعرضهم في المدينة أمام الجماهير الغاضبة، ثم سجنوا في زنزانات أرضية في القلعة[1]، وصدر أمرًا من السلطات العليا الطرابلسية بإغلاق الكنيسة ومستوصف الإرسالية، بعد تجريدهما من تجهيزاتهما.[2]

لما علم القنصل الفرنسي إكسبللي بالحادثة هرع إلى القلعة، أين قابل الباشا الذي كان في حالة غضب شديد وقلقًا على مصير رعاياه بروما، ثم ذكّره القنصل الفرنسي بأن أعضاء الإرسالية هم رعايا تابعين للملك الفرنسي بموجب الاتفاقية المبرمة بين الطرفين، طالبًا منه إطلاق سراحهم فورًا، وتسليمه مفاتيح الكنيسة والمستوصف[3]، وبعد إلحاحٍ طويل أطلق الباشا أحمد القرمانلي سراح أعضاء الإرسالية وسمح لهم بممارسة نشاطهم الديني في الكنيسة[4] في مقابل تعهد القنصل الفرنسي بتحرير خطابًا موجها إلى سلطات روما يطالبها فيه بالكف عن الإساءة للأسرى الطرابلسيين.[5]

في سنة 1722م قام الطرابلسيون بالسيطرة على سفينة تجارية فرنسية وأسر أربعة بحارة من طاقمها وضربهم بالسياط، لذلك تدخل القنصل الفرنسي إكسبللي لدى أحمد القرمانلي محتجًا على هذا العمل، فرد عليه الباشا غاضبًا بقوله: «...**إذا حدث وأن استأنف البحارة نقل الرمال إلى سفينتهم مرة أخرى، فسأقوم بأسرهم**...»[6]، وبعد هذا الرد القاسي أحس اكسبللي بالإهانة، ما جعله يراسل سلطات بلاده في الأمر، التي طلبت منه مواصلة جهوده الدبلوماسية، إلا أن هذه المفاوضات طالت ولم يحل المشكل بين الطرفين، مما اضطر السلطات الفرنسية1137هـ/1725م إلى إرسال سفينة حربية بقيادة دي واتن «De Wattan » لقصف المدينة والرد على الطرابلسيين*، ليعاد الأمر مرة أخرى سنة 1727م بقيادة الأميرال دي مونس «De mons»، في

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 283.

2- كوستانزيو برنيا: المرجع السابق، ص 261.

3- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 283.

4- ردولفو ميكاكي: المرجع السابق، ص 26.

5- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 283.

6- نفسه.

* – دائمًا السلطات الفرنسية تتصرف مع المغاربة بعنْجهية واستعلاء؛ فكلما حاول أحد الحكام الوقوف في وجه ممارساتهم المتوحشة، إلاّ واستعملوا القوة العسكرية ضده لثنييه عن الدفاع على بلاده ورعاياه، وقد حدث هذا الفعل في الكثير من المرات، وأشهره ما قام به دوفال مع الداي حسين،=

جويلية 1728م بقيادة الأميرال غراندبريه «Grandpre» الذي قام بقصف مدينة طرابلس ما بين 20 و26 جويلية، ومع ذلك لم يوقع الاتفاق إلاّ في جويلية 1729م، حيث تم بموجبها إعادة السفن الفرنسية لأصحابها ودفع التعويضات اللازمة، وطلب الباشا الطرابلسي العفو من الملك الفرنسي.[1]

هكذا ظلت العلاقات الثنائية تتراوح ما بين السلم والحرب، فكلما حاولت السلطات الطرابلسية الوقوف في وجهة أحلام الفرنسيين التوسعية إلاّ وسارعت السلطات الفرنسية إلى إرسال سفنها الحربية لقصف مدينة طرابلس من أجل ابتزاز حكامها وإرضاخهم لمطالبها والحصول على امتيازات جديدة.

ج-العلاقات الطرابلسية الإنجليزية.

كانت السلطات الإنجليزية من أوائل سلطات الدول الأوروبية التي سعت جاهدة لإقامة علاقات ودية مع سلاطين الدولة العلية العثمانية، وقد استطاعت إنشاء أول قنصلية لها باستانبول ترعى شؤونها وتحافظ على مصالح رعاياها المسحيين، وبعدها تم توقيع معاهدة بين الطرفين سنة 987هـ/1579م، حصلت بموجبها السلطات الإنجليزية على امتيازات اقتصادية ضخمة داخل أراضي الدولة العلية[2]، شبيهة بتلك التي تحصلت عليها فرنسا سنة 942هـ/ 1535م[3]، هذا ما أدى إلى اشتداد التنافس بين الدولتين الإنجليزية والفرنسية من أجل الحصول على أكبر قدر من الامتيازات والنفوذ داخل أراضي الدولة العلية وإيالاتها مشرقًا ومغربًا، وترتب عن ذلك مسارعة كل دولة لتنصيب قناصل[*] لها في هذه الإيالات خاصة المغاربية منها لرعاية مصالحها التجارية والسياسية.[4]

حاولت إنجلترا جاهدة إقامة علاقات ودية مع الإيالات المغاربية العثمانية، خدمة لمصالحها الاقتصادية، وكانت طرابلس الغرب أهم هذه الإيالات بحكم موقعها الجغرافي، فهي تملك شريطًا ساحليًا مواجهًا لشمال أوربا، وصحراء مترامية الأطراف باتجاه البلدان المغاربية الأخرى ودول إفريقيا جنوب الصحراء، وبذلك شكلت همزة وصل

=واتهامه بإهانة الشرف الفرنسي وطلب منه الاعتذار، وكان سببًا من أسباب احتلال فرنسا للجزائر؛ حتى وإن كان سببًا ثانويا اتخذته السلطات الفرنسية كذريعة لاحتلال الجزائر.

1- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 335.

2- محمد مصطفى بازامه: الدبلوماسية الليبية في القرن الثامن عشر، مكتبة قورينا، بنغازي، ليبيا، د.س.ط، ص 21.

3- أمير خوري، عادل سليمان: السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة 1789 إلى سنة 1988 ج1 دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، لبنان 1959م، ص 19.

* – لعب القناصل الأوروبيين العديد من الأدوار خدمة لمصالح بلادهم، وكان أبرز هذه الأدوار الجوسسة وابتزاز الحكام المغاربة من أجل تحقيق المصالح الأوروبية، خاصة القناصل الفرنسيين الذي كانوا دائمًا يحاولون التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان المغاربية وفرض إملاءاتهم على حكامها، واختلاق المشاكل لهم والتحريض على توجيه الحملات للإطاحة بهم وقصف المدن وتشجيع الثورات الداخلية حتى لا تستقر الأوضاع وتتقوى الإيالات المغاربية وتواجه الدول الأوروبية.

4- عبد الحفيظ خياط: العلاقات السياسية بين إيالة طرابلس الغرب وإنجلترا 1795-1832، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، الجماهرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، 1394هـ/ 1985م، ص 12.

بين هذه الأقطار مجتمعة، زادها أهمية ظهور النهضة الصناعية التي كانت تعيشها أوروبا وحاجتها إلى المواد الأولية ومراكزًا لتسويق إنتاجها، وقد كانت البلدان المغاربية والإفريقية مصدرًا لهذه المواد، لذلك كانت المصالح التجارية الإنجليزية عاملاً بارزًا في توطيد العلاقات بين الطرفين، بالإضافة إلى الأسرى الإنجليز بطرابلس الذين اعتنق الكثير منهم ا الإسلام وساهموا في النشاط البحري للأسطول الطرابلسي، وعملوا أيضا على توطيد العلاقات الثنائية.[1]

فُتحت أول قنصلية إنجليزية ببلاد المغرب سنة 983هـ/1585م بالجزائر، وقد تم تعيين السيد جون تيبتون «Mrjohn Tipton» قنصلا عامًا لها لرعاية مصالح بلاده وفي نفس الوقت رعاية المصالح الإنجليزية بطرابلس الغرب[2]، لتفتح أول قنصلية إنجليزية بطرابلس سنة 1068هـ/1658م إثر اتفاقية بين الطرفين، وقعها من الجانب الطرابلسي عثمان الساقزلي وعن الجانب الإنجليزي قائد الأسطول روبرت بليك «Robert Blake» وكان ذلك بتاريخ 25 جوان 1658م، ليعين صامويل توكر «Samuel Toker» كأول قنصل عام إنجليزي بطرابلس[3]، وقد جاءت هذه الاتفاقية بعد معارك بحرية بين الأسطولين الإنجليزي والطرابلسي، الذي تمكن بحارته من غنم سفينة وأسر قائدها وليم وايت «William white» وعدد من البحارة الذين كانوا برفقته على متن السفينة.[4]

تعتبر الاتفاقية الطرابلسية الإنجليزية التي وقعت بتاريخ 6 أفريل 1699 م اللبنة الأساسية في تطور العلاقات بين الطرفين، وبقيت سارية المفعول لمدة أربعين سنة تقريبا، بالرغم من الخروقات التي كانت تحدث لها من حين إلى آخر[5]، وبموجبها تزايد النفوذ الإنجليزي بصورة متسارعة، ولا أدل على أهميتها وحرص الطرفين على التمسك بها، خاصة إنجلترا من تجديدها خلال السنوات التالية:1701م، 1703، 1709، 1711، 1730م.[6]

وتكونت هذه الاتفاقية من 21 بندًا، وتم توقيعها من طرف محمد باشا أمير أمراء طرابلس الغرب وخليل بك قائد الحرس ومن الجانب الإنجليزي قائد الأسطول في بحر المتوسط.[7]

بعد اطلاعنا على نص هذه المعاهدة لاحظنا أن جميع بنودها تتعلق بالمصالح التجارية والأمنية والحقوق القنصلية لإنجلترا، وقلما يوجد عنصر يتكلم عن حقوق الطرابلسيين أو حتى التمثيل الدبلوماسي بإنجلترا؛ فالبنود:1، 2 ،3، 8، 17 تتكلم عن الحقوق والامتيازات التجارية الإنجليزية في الإيالة الطرابلسية أو مياهها

1- عبد الحفيظ خياط، المرجع السابق، ص 14.
2- ريتشارد توللي: عشر أعوام في طرابلس، ترجمة، عبد الجليل الطاهر، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، ليبيا، 1967، ص21
3-كوستانزيو برنيا: المرجع السابق ص 185.
4 - عبد الحفيظ الخياط: المرجع السابق، ص 15.
5 -كوستانزيو برنيا: المرجع السابق ص 203.
6- عبد الحفيظ الخياط: المرجع السابق، ص 21.
7-كوستانزيو برنيا: المرجع السابق، ص 203.

الإقليمية، أما البنود: 4، 5، 6، 7، 11 ، 12، 15، 18، 20، فإنها نصت على توفير الحماية والأمن لجميع الرعايا الإنجليز*، أما المواد: 9، 10، 13، 14، 19 فإنها بنودًا تتعلق بالحقوق القنصلية، للقنصل الإنجليزي بطرابلس الغرب، في غياب أي ذكر للحقوق التجارية والأمنية والقنصلية للطرابلسيين.

جددت هذه الاتفاقية بنصوصها المذكورة في شهر ذي القعدة 1112هـ/9 أفريل 1700م، حيث أمضيت من طرف عثمان داي ومحمد بن أحمد أمير لواء طرابلس، ليعاد تجديدها في ربيع الأول 1113هـ/16 أوت 1701م، لتتجدد مرة أخرى بتاريخ 13 رجب 1115هـ/23 نوفمبر 1703م، ووقعت من طرف مندوب الملكة الإنجليزية آنا ومحمد باشا ومساعده خليل بك، ليعاد تجديدها مرة أخرى في شوال 1121هـ/ديسمبر 1709م، في عهد إبراهيم داي، وتجددت مرة أخرى في جمادي الأولى 1123هـ/27 جوان 1711م، وهكذا بقيت هذه المعاهدة المرجع الأساسي لجميع الاتفاقيات التي تمت بين الطرفين فيما بعد.[1]

حصلت إنجلترا بموجب هذه الاتفاقية على امتيازات كبيرة جدًا في طرابلس الغرب، مكنتها من ولوج البحر المتوسط كقوة اقتصادية متنامية، أصبحت فيما بعد من نواة الاحتلال الحديث والمعاصر وكانت عبارة عن اتفاقية سلم وتجارة، ومعظم بنودها في خدمة المصالح الإنجليزية، وبذلك حصلت بموجبها على أسبقية بالمقارنة مع الدول الأوروبية الأخرى في المجال التجاري والتمثيل الدبلوماسي بطرابلس، لأن المادة العشرين نصت على تقدم القنصل الإنجليزي على بقية القناصل الأجانب بالولاية عند استقبال الباشا في المواسم والأعياد الدينية والرسمية، لأن إنجلترا كانت الراغبة في إقامة السلم والأمن.

د-العلاقات الطرابلسية الهولندية.

بعد إعلان استقلال هولندا عن إسبانيا سنة 1018هـ/ 1609م حاولت جاهدة أن تكون لها مكانة دولية في حوض المتوسط، لذلك عملت جاهدة لإبرام اتفاقيات سلم وتجارة مع الدول المغاربية، خاصة طرابلس الغرب من أجل حماية نشاطها البحري وتجارتها، وقد وُقعت أول اتفاقية سلام بين الطرفين الهولندي والطرابلسي في عهد عبدالله الروملي سنة 1094هـ/ 1683م، ليعاد تجديدها سنة 1703م،[2] وفي 12 سبتمبر 1712م وصلت إلى العاصمة طرابلس ثلاثة سفن هولندية بقيادة نائب الأميرال بيترسن «Petersene»، المكلف بتجديد المعاهدة

* – لا يمكن فصل الجانب الأمني عن الجانب التجاري، لأنه لا ازدهار للاقتصاد بدون توفر الأمن، خاصة وأن السلطات الإنجلترية كانت تعلم جيدًا قوة البحرية الطرابلسية، لذلك حاولت الحصول على امتيازات تجارية وفي نفس الوقت توفير الأمن لرعاياها وسفنها التجارية والحربية، وقد اتسم الاحتلال الإنجليزي بالطابع الاقتصادي، على عكس الاحتلال الفرنسي ذات الطابع الاستيطاني التدميري مع أن كلاهما هدفه نهب وتدمير البلدان المحتلة واستعباد أهلها.

1- عبد الحفيظ الخياط: المرجع السابق، ص ص 206، 207.

2- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 336.

المبرمة بين السلطات الهولندية والطرابلسية سنتي 1683 و1703م[1]، وقد استطاع هذا الأميرال التوفيق في مهمته حيث حافظ على حسن العلاقات، وكعربون عن تمسك هولندا بالسلم قدمت لأحمد باشا القرمانلي الكثير من الهدايا الثمينة، وأربعة مدافع من البرونز وخمسة قناطير من البارود.[2]

عندما استطاع أحمد القرمانلي السيطرة على الأوضاع الداخلية، بدأ يتبع سياسة القوة مع الدول الأوروبية ومن بينها هولندا التي طلب من قنصلها بطرابلس في شهر أوت 1714م مبلغًا من المال يزيد عن المبالغ التي كان يدفعها القناصل السابقين عن استلامهم لمهامهم.[3]

في 4 أكتوبر سنة 1728م أبرمت السلطات الهولندية اتفاقية سلم جديدة مع السلطات الطرابلسية، وبهذه المناسبة وتأكيدًا لحسن العلاقات بين الطرفين أوفد أحمد باشا القرمانلي عزالدين محمد أفندي كممثل عنه إلى الحكومة الهولندية، التي استقبله أعضائها في جلسة رسمية، عبّر خلالها عزالدين محمد أفندي عن سعادة سيده ورضائه التام عن العلاقات الجيدة التي تربط الطرفين، وتعبيرًا عن ذلك قدم الطرابلسيون ستة جياد عربية أصيلة، ليعود بعدها ممثل الباشا إلى بلاده يحمل معه أربعة آلاف فيورين*، كهدية لأحمد باشا وألفين لنفسه وخمسمائة لسكرتيره، وبفضل هذه الإعانات تمكنت طرابلس من تجهيز عشرة سفن للجهاد البحري**، وما لبثت أن اتجهت إلى البحر لاستئناف الغزوات ضد الأساطيل الأوروبية، وعادت بالكثير من الغنائم[4]، وفي سنة 1734م أرسلت بعثة دبلوماسية طرابلسية إلى هولندا تعبيرا عن حسن النوايا واستمرار العلاقات السلمية، وعندما وصلت إلى العاصمة الهولندية لاهاي استقبل الوفد الطرابلسي استقبالا خاصًا وأحيط بكل مظاهر الاحترام والتقدير وحفاوة الاستقبال.[5]

1- رودولفو ميكاكي: المرجع السابق، ص17.

2- صلاح أحمد البهني: طرابلس الغرب، دراسات في التراث المعماري والفني، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، 1423هـ/2004م، ص 24.

3- رودولفو ميكاكي: المرجع السابق، ص 21.

* - فيورين أو فلوران "Florin" وحدة نقدية رئيسية في هولندا ذلك الوقت، وقد كانت تصنع من ذهب وهي عملة متداولة بين الدول، وإلا بماذا نفسر إرسالها إلى طرابلس الغرب كهدية لحاكمها.

** - يشير شارل فيرو أن الأموال التي تحصلت عليها طرابلس الغرب تستعمل في القرصنة كما سماها، وكأنه يقول أن أموال الأوروبيين هي التي تقاتلهم، عن طريق بناء السفن وتشغيلها في الحروب بين الطرفين، وأن هذه الأموال ناتجة عن الابتزاز والإكراه تحت طائلة تهديد الملاحة البحرية والسيطرة على السفن الأوروبية، وكأن هذه الدول كانت معاملاتها سلمية وبريئة، ولا تتعرض للسفن الإسلامية، بل إن الدول الأوروبية نفسها كانت تستعمل القرصنة فيما بينها، وهي البادئة بهذه الأعمال، أما قادة الدول الإسلامية عامة والمغاربية خاصة؛ فقد استعملوا الجهاد البحري كحق مشروع يدافعون به عن بلدانهم ورعاياهم وتجارتهم.

4- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 292.

5- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 236.

المبحث الثاني: أسباب الصراع الطرابلسي الإسباني.

1-الأسرى.

لعب الأسرى الدور الرئيسي في تواصل الصراع الطرابلسي المغاربي ضد إسبانيا وبقية الدول الأوروبية الأخرى، خلال القرن الثامن عشر، خاصة وأن كلى الطرفين كان يتهم الآخر بإهانة أسرى الطرف الآخر، خاصة الدول الأوروبية التي اتخذت من قضية الأسرى هدفًا أساسيًا من أجل احتلال الإيالات المغاربية ومنها طرابلس الغرب التي حاول الكثير من المؤرخين الأوروبيين تصويرها على أنها سجنًا كبيرًا يهان فيه الأسير الأوروبي، وهذا ما نستخلصه من النص الذي نقله لنا كوستانزيو برنيا بقوله*: «...**أما الذين لا يحسنون حرفة معينة فقد كانوا يستخدمون في قطع الحجر من محاجر قرقاش والهنشير، ويقول المؤلف المجهول أن هذا النوع من الأعمال يعتبر من أشق الأعمال، إذ أن هذه المحاجر تبتعد بحوالي ميل من المدينة وكان لابد من قطع هذه المسافة صباحًا ومساءً، وكان يتحتم عليهم قطع عشر قطع في اليوم، ويبلغ حجم كل واحدة قدمين مربعين، ويُجبر الأسرى على القيام بهذا العمل الشاق، وقد يتعرض بعضهم للموت أثناء العمل، ويُشّغل بعضهم الأخر في أفران الجير، وأعمال البناء، وغرس البساتين وخدمة الأرض وقطع الخشب، واستخراج الماء، وتفريغ المجاري، وغير ذلك من الأعمال المشابهة وكانوا يسخرون بلا تمييز أو استثناء لشحن مراكب القرصنة بالمياه والإمدادات والتموين**...».[1]

2-تطور الأسطول الطرابلسي.

بعدما وصل أحمد القرمانلي إلى حكم طرابلس عمل على تحقيق هدفين رئيسين:

- إخماد الثورات والتمردات الداخلية، لتوطيد أركان حكمه.
- الاهتمام بالأسطول البحري، الذي كان يعاني من التهميش والتراجع في بداية القرن الثامن عشر، وكان هدفه من وراء ذلك مواجهة الأخطار الخارجية الأوروبية، وتنشيط الحياة الاقتصادية بالإيالة الطرابلسية التي كانت تعيش الركود ونقص الأموال.

* – وكأن الأسرى المسلمين كانوا في رغدٍ من العيش والهناء والراحة التامة عند الأوروبيين؛ فقد نقلت لنا المصادر ما يندى له الجبين في معاملة الأوروبيين لأسرى المسلمين عامة والأسرى المغاربة خاصة، ولا أدل على وحشية الأوروبيين من المأساة التي عاشاها الأندلسيين الموريسكيين، بالإضافة إل ما عاشه إخوانهم في بلاد المغرب.

1- كوستانزيو برنيا: المرجع السابق، ص 186.

اهتم أحمد باشا القرمانلي بتقوية الأسطول البحري الطرابلسي، لأنه القوة التي كانت تعتمد عليها الإيالة في مواجهة الأخطار الخارجية، وفرض سلطانها في حوض المتوسط[1]، وكان أحمد باشا يهدف من وراء ذلك إلى استرجاع هيبة الأسطول التي كان يتمتع بها أواخر القرن 16م وخلال القرن 17م، والاستفادة من موارده الناتجة عن الصراع العسكري ضد القوى الأوروبية المسيحية[2]، زاد هذا الأسطول قوة إهداء السلطان العثماني لأحمد باشا سفينتين إحداهما ملكًا للبندقية، لتظهر نتائج هذه القوة المتنامية بالسيطرة على السفن الأوروبية[3] وأسر طواقمها وغنم بضائعها، خاصة السفن التابعة لفرنسا ونابولي والبندقية[4]، وقد استطاع البحارة الطرابلسيين بث الرعب في قلوب الأوروبيين وإلحاق خسائر فادحة بأساطيلهم، وغمروا أسواق البلاد بالأسرى والسلع، ما نتج عنه حركية اقتصادية كبيرة جدا، عادت بالفائدة على الطرابلسيين حكاما ومحكومين، هذا ما شجع على زيادة نشاط البحارة، وكان النصر يتبع النصر حتى أصبحت سلطات الدول الأوروبية في رعب وخوف[5]، ما اضطرها إلى توقيع معاهدات مع سلطات الإيالة الطرابلسية لحماية سفنها التجارية ورعاياها، مثلما فعلت السلطات الإنجليزية، الفرنسية، الهولندية، النمساوية، النابوليانية والصقلية وغيرها.

لعب الأسطول الطرابلسي في بداية القرن الثامن عشر الميلادي دورًا رئيسيًا في زيادة التوتر والصراع بين إسبانيا وفرسان مالطة من جهة والإيالة الطرابلسية من جهة ثانية، لأن قوة الطرفين حتمت الصدام والمواجهة الحتمية، لأن كل طرف كان يحاول الاستفادة من القوة التي أصبح عليها من أجل تحقيق أهدافه، التي نذكر منها:

- كان قادة الإيالة الطرابلسية يحاولون عدم تكرار مأساة الاحتلال الإسباني لطرابلس الغرب سنة 1510م، ومن بعدها الاحتلال المالطي الذي دمر البلاد وأنهك العباد.
- الدفاع عن أهداف الدولة العلية العثمانية، التي كانت في مواجهة الدول الأوروبية المسيحية، وذلك بخلق عدة جبهات للصراع من أجل تشتيت جهود الأوروبيين وضمان عدم وحدة جيوشهم وأساطيلهم في مواجهة العثمانيين.
- تحقيق مكاسب اقتصادية من خلال الأسرى والغنائم، خاصة وأن الاقتصاد الطرابلسي أنهكته المشاكل والصراعات الداخلية، ولم يكن من ملجأ إلا الجهاد البحري.

1- شوقي عطا الله الجمل: المغرب العربي الكبير (ليبيا...)، المرجع السابق، ص 135.
2- مصطفى عبد الله بعيو: دراسات في التاريخ اللوبي، مطابع عابدين، الإسكندرية، مصر، ص 138.
3- كامللو منفروني: المرجع السابق، ص 74.
4- أمحمد سعيد الطويل: المرجع السابق، ص 65.
5- مصطفى عبد الله بعيو: المرجع السابق، ص 135.

- إلهاء السكان الطرابلسيين عن المشاكل الداخلية الناتجة أساسا عن الصراع حول السلطة والنفوذ وتهميش العنصر المحلي في ممارسة الحكم.
- حاول القادة السياسيين والعسكريين الإسبان والمالطيين الانتقام من هزائمهم المتتالية أمام الطرابلسيين، خاصة وأنهم لم ينسوا طردهم من البلاد الطرابلسية إلى الأبد.
- تحقيق مكاسب اقتصادية، وذلك بالسيطرة على السفن وأسر طواقمها والعاملين بها.
- محاولة الإسبان تحقيق أمجاد ضائعة على حساب الإيالات المغاربية بعد توالي نكباتهم داخل أوربا، خاصة أمام الجيوش الإنجليزية.
- محاولة إحياء أمجاد الإمبراطورية الرومانية المتهالكة.
- إلهاء الرأي العام الداخلي عن مشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية المتنامية، وذلك بمحاولة احتلال بلاد المغرب.

3-نشاط الجهاد البحري الطرابلسي:

بعد العناية بالأسطول البحري حاول القادة الطرابلسيين رفع راية الجهاد ضد المسيحيين المتكالبين على البلاد، وأُعلنت الحرب على كل السفن التي لا ترتبط مع حكام الإيالة الطرابلسية بمعاهدات[1]، ولم تكن هذه السياسة المتبعة في مواجهة الدول الأوروبية مقتصرة على عهد أحمد باشا القرمانلي فقط، بل امتدت إلى عهد أبناءه فيما بعد، الذين واصلوا تشجيع الأسطول البحري من أجل مهاجمة دول أوروبا في المتوسط[2]، بما في ذلك مالطا وإسبانيا وبعض الدويلات الإيطالية التابعة لها، وقد اضطرت حركية الأسطول الطرابلسي الدول الأوروبية إلى إرسال سفنها الحربية إلى طرابلس من أجل الحصول على التعويضات مقابل الأضرار التي لحقت بها جراء الأعمال الجهادية البحرية[3]، وما كان ذلك إلاّ لإمضاء اتفاقيات سلم وتجارة مع الطرابلسيين من أجل تقليل خسائرهم المتتالية، إلاّ أن السلطات الإسبانية لم توقع أي معاهدة أو اتفاق لإيقاف هجمات البحرية الطرابلسية على سفنها البحرية إلى غاية سنة 1784م.

4-تخفيف الضغط على الدولة العلية:

يكاد سلاطين الدولة العلية العثمانية منذ ظهورها كقوة عالمية لا يتوقفون عن حركة الجهاد، خاصة ضد الدولة الأوروبية في الجهة الشرقية وبلاد فارس، لأن أعداء الدولة في تفكير دائم وتخطيط متواصل لتدميرها واقتسام

1- عبد المنعم إبراهيم الجميعي: المرجع السابق، ص 32.
2 - محمد عبد الله بعيو: المرجع السابق، ص 138.
3- رودلفو ميكاكي: المرجع السابق، ص 6.

ممتلكاتها مشرقًا ومغربًا، وفي مقدمتهم قيصر روسيا بطرس الأكبر الذي دخل في حروب ضد الدولة العلية كانت سجالاً بين الطرفين إلى أن تم عقد معاهدة أدرنة سنة 1125هـ/1713م*، وفي نفس الوقت في الجهة الغربية كان العثمانيون في حروب متواصلة أيضًا ضد البنادقة، وقد استطاعوا فتح جزيرة كريت وبعض الجزر الأخرى، فاستنجد البنادقة بالنمسا التي دخلت هي الأخرى في حرب ضد الدولة العلية، التي كانت الدائرة عليها وانهزمت في هذه الحروب وفقدت الكثير من الأراضي[1]، وأمام هذه الحروب المتواصلة والتكالب الأوروبي على الدولة العلية اضطرت الإيالات المغاربية ومنها طرابلس الغرب لفتح جبهات قتال ضد الأوروبيين في الجهة الغربية للمتوسط من أجل تخفيف الضغط على الدولة العلية في الجهة الشرقية وتشتيت جهود الدول الأوروبية.

5-محاولة حكام إسبانيا إحياء أمجادهم القديمة.

تلقت إسبانيا العديد من الهزائم على يد القوات الإنجليزية والفرنسية خاصة، هذا ما جعل قوتها العسكرية تتراجع داخل وخارج أوربا في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر الميلاديين، وبذلك فقدت الكثير من الأراضي، هذا ما جعل القادة الإسبان يحاولون استرجاع أمجاد إمبراطوريتهم الضائعة، التي قضى الجزائريون على جزء منها في وهران سنة 1708م بقيادة محمد بكداش[2]، أين فقد الإسبان آخر منطقة محتلة من طرفهم في بلاد المغرب قبل إعادة احتلالها سنة 1972م، لذلك عملت السلطات الإسبانية بمساعدة الكنيسة البابوية ومنظمة فرسان مالطا استرجاع هيبتها التي فُقدت في الكثير من المناطق في العالم، ومحاولة العودة إلى ما كانت عليه خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.

6-الحقد الديني.

بني الصراع الإسلامي المسيحي على أساس ديني صرف منذ بداية القرن السادس عشر، وهذا ما عبر عنه الملوك الكاثوليك بكل صراحة، خاصة وأن منظمة فرسان مالطة شرعنة وجودها عند المسحيين على أساس

* – معاهدة أدرنة: تمت هذه المعاهدة بين الدولة العلية العثمانية في عهد السلطان أحمد خان الثالث وروسيا بتاريخ 24 جمادي الآخرة 1125هـ/18 أكتوبر 1713م بعد الحروب التي دارت بين الطرفين سنة 1124هـ/1712م، بعد تدخل كل من إنجلترا وفرنسا في إبرام هذه المعاهدة خوفًا على مصالحهما التجارية، وقد نصت هذه المعاهدة على:

- تنازل روسيا عن الأراضي الواقعة على ساحل البحر الأسود حيث لم يبق لها عليه موانئ أو ثغور.
- إلغاء ما كانت تدفعه روسيا من جزية لأمراء القرم.
- التزام أمراء القرم بعدم الاعتداء على القوافل التجارية الروسية... للاستزادة ينظر، محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص ص 314، 315؛ سهيل طقوش: تاريخ العثمانيين... المرجع السابق، ص 289.

1- محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ص 217، 218.

2- عبد الرحمان الجامعي: المصدر السابق، ص ص 123، 124.

التعصب الديني، وما وُجدت هذه المنظمة إلا لمطاردة المسلمين أينما حلو وارتحلوا[1]، وهذا أمر طبيعي عند هذه المنظمة، بل زادها ظهور الإيالات المغاربية في المتوسط أهمية من ذي قبل، كيف لا وهي التي حملت على عاتقها مواجهتهم، بعد ركون الكثير من قادة الدول المسيحية إلى مهادنه هذه الإيالات، خاصة في بداية القرن الثامن عشر الميلادي.

7-القضاء على الجهاد البحري:

في بداية القرن الثامن عشر برزت العائلة القرمانلية، التي قامت بتهميش العنصر القادم من إستانبول وبلاد المشرق، وأصبحت البلاد مستقلة نسبيا عن الدولة العلية، لذلك أخذ الجهاد البحري دفعًا جديدًا، خاصة بعد أن أهدى السلطان العثماني لأحمد باشا سفينتين إحداهما ملك للبندقية، التي ساهمت بفعلية كبيرة في ازدياد الغنائم البحرية[2] لذلك عمل فرسان مالطا لإيقاف هذا النمو المتزايد والهجمات المتكررة ضد الأهداف المسيحية في المتوسط.

ثانيا: العلاقات الطرابلسية الإسبانية ما بين 1112-1198هـ/ 1700-1784م

المبحث الأول: العلاقات الطرابلسية المالطية خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

لعبت السلطات المالطية دورا بارزا في الحرب بالوكالة بين الإمبراطورية الإسبانية والإيالات المغاربية ساعدتها في ذلك العديد من الأسباب، التي نذكر منها:

- قرب المسافة بين جزيرة مالطا والإيالة الطرابلسية.
- التعصب الديني المقيت الذي تميز به فرسان مالطا.
- دعم الكنيسة البابوية لفرسان مالطا، والتحريض المباشر لقادتها على مهاجمة البلدان الإسلامية عامة والمغاربية خاصة.
- انشغال حكام الدولة العلية العثمانية بحروبهم في الجهة الشرقية من المتوسط.
- تراجع قوة البحرية الطرابلسية بالمقارنة على ما كانت عليه خلال القرن السادس العشر والنصف الأول من القرن السابع عشر.
- الدعم غير المباشر الذي كانت تقدمه السلطات الفرنسية لفرسان مالطا في حروبهم المتواصلة ضد الإيالتين التونسية والطرابلسية.

1- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 337.

2- كامللو منفروني: المرجع السابق، ص 74.

- انشغال السلطات الإسبانية بمشاكلها الداخلية منعها من مواصلة حروبها ضد الإيالات المغاربية كما كان الحال خلال القرن السادس عشر، هذا ما جعل فرسان مالطا يتولون دور الصراع ضد هذه الإيالات.
- بما أن الأسرى لعبوا دورًا رئيسيًا في الصراع المسيحي الإسلامي، عمل فرسان مالطا على استغلال هذا الأمر لصالحهم، وخاضوا حروبًا طاحنة ضد المسلمين من أجل تخليص الأسرى المسيحيين من العبودية والاسترقاق، خاصة وأن الكنيسة البابوية المدعم الأساسي لفرسان مالطا حملت على عاتقها مسئولية الدفاع عن الأسرى وفديتهم وإطلاق سراحهم، وفي حالة التعذر كانت المعارك البحرية حلا لإنقاذ الأسرى المسيحين، وذلك بأسرى المسلمين ومبادلتهم بهم.
- محاولة فرسان مالطا استغلال المشاكل الداخلية التي كانت تعيشها الإيالة الطرابلسية نتيجة الثورات والتمردات ضد الحكم المركزي في بداية القرن الثامن عشر.
- محاولة استغلال الخلافات الموجودة بين حكام الإيالات المغاربية والصراعات المتواصلة بينهم حول النفوذ والأراضي، فقد حاول كل حاكم من حكام الإيالات المغاربية التوسع على حساب الأخر.
- حماية السفن المسيحية من هجمات البحارة الطرابلسيين، الذين كانوا دائمًا يعترضون هذه السفن ويعودون بها إلى طرابلس خدمة لأنفسهم وللسكان المحليين والمساهمة في تنمية الاقتصاد المنهار نتيجة المشاكل الداخلية ومضايقات الدول الأوروبية الكبرى مثل فرنسا وإنجلترا، اللتان كبلت الإيالة الطرابلسية بالعديد من المعاهدات.

كانت فاتحة الصراع الطرابلسي المالطي في عهد خليل باشا؛ ففي سنة 1115هـ/1703م استطاعت السفن المالطية مباغتة السفن الطرابلسية قرب رأس سبارتفنتو «Sparktivents» أين ألحقت بها خسائر فادحة، وتم الاستيلاء على عدة زوارق حربية وأسر 70 بحارًا طرابلسيًا، لتتواصل المعارك بين الطرفين بصفة مستمرة في بداية القرن الثامن عشر.[1]

1-المعركة البحرية الطرابلسية المالطية سنة 1122هـ/1709م.

1-1-أسباب المعركة.

- محاولة فرسان مالطا استغلال الاضطرابات الداخلية الناتجة عن تغيير القيادة الحاكمة في طرابلس سنة 1709م، لأن خليل باشا خلف صهره محمد شائب العين الذي توفي بالطاعون، خاصة وأن خليل باشا كان منبوذا عند السكان المحليين وحتى طائفة الكولوغلية بسبب جشعه وحبه الشديد للمال، لذلك

1- إتوري روسي: المرجع السابق ص 316.

دبرت مؤامرة ضده سنة1122هـ/ 1709م، إلاّ أنها اكتشفت ونفذ حكم الإعدام في مدبريها[1]، لذلك وما إن علم فرسان مالطا عن طريق جواسيسهم بهذه الأحداث حتى استغلوا الفرصة وقاموا بمهاجمة الأسطول الطرابلسي بالأدرياتيكي.

- محاولة الطرابلسيين الانتقام من المالطيين الذين استطاعوا الحاق العديد من الهزائم بهم في بداية القرن الثامن عشر، خاصة سنتي 1115هـ/ 1703و 1117هـ/ 1705م حين استولوا على العديد من السفن الطرابلسية كانت تحمل الكثير من الأشخاص والمؤن والعتاد.[2]
- وقوع خيانة داخل أجهزة الحكم بالإيالة الطرابلسية؛ خاصة وأن خليل باشا كانت له علاقاته حسنة مع الدول الأوروبية، لذلك منع حركة الجهاد البحري في البحر المتوسط، هذا ما جعل حالة من التذمر تسود بين الرياس، الذين قرروا الخروج بأسطولهم للجهاد بقيادة علي قبطان بدون إذن من الباشا[3]، الذي قرر الانتقام منهم، وأصدر أوامره بتدبير مؤامرة ضدهم وعدم مساعدتهم إذا خرجوا إلى الجهاد، لذلك استغل بعض الجواسيس هذه الفرصة واتصلوا بفرسان مالطا وأبلغوهم بالأمر، فكانت هذه الحادثة[4]، التي ذهب ضحيتها خيرة البحارة الطرابلسيين نتيجة الصراع على السلطة وخدمة للأهداف الأجنبية الأوروبية، وخاصة منها الأهداف الفرنسية.
- تحريض الكنيسة البابوية بروما لفرسان مالطة على مهاجمة السفن الطرابلسية والحد من نشاطها في المتوسط.

2-سير المعركة:

كعادة السفن الجهادية الطرابلسية خرجت جنوب البحر الأبيض المتوسط محاولة منها لاعتراض سفن القرصنة الأوروبية التي ليس بين حكام دولها وحكام الإيالة الطرابلسية أي معاهدة تمنع حدوث المعارك بين الطرفين، خاصة السفن البابوية والمالطية والإسبانية، ولعلم القيادة المالطية بخروج السفن الطرابلسية للجهاد بقيادة علي قطان "الأرناؤوطي" الذي كانت سفينته مجهزة بـ 56 مدفعًا و240 قاذفة وتحمل 500 نوتي، و44 أسيرًا؛ كان الطرابلسيون أسروهم أثناء بعض المعارك البحرية الجانبية في عرض المتوسط، فيما كانت السفينة الأخرى مجهزة بـ 40 مدفعًا و30 قاذفة حمم و50 بحارًا و10 أسرى مسيحيين، من بينهم رئيسين بحريين.[5]

1- رودلفو ميكاكي: المرجع السابق، ص 7.

2- عمر علي بن إسماعيل: انهيار الأسرة القرمانلية في ليبيا-1790-1835م-، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1966، ص 33.

3- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 252.

4- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 236.

5- إتوري روسي: المرجع السابق، ص217.

دارت أحداث هذه المعركة جنوب البحر الأدرياتيكي، وهذا ما يدل على نشاط البحرية الطرابلسية وسرعة تحركها، وهناك فاجأ قراصنة فرسان مالطا السفن الطرابلسية؛ ودارت معارك عنيفة بين الطرفين، استمرت لعدة ساعات، استطاعت فيها البحرية المالطية إضرام النيران في السفن الطرابلسية، التي لم تستطع الصمود ومواصلة المعارك لمدة طويلة، بالرغم من المقاومة الباسلة التي أبداها البحارة الطرابلسيين[1]، بسبب كثافة النيران واختلال موازين القوى، نتيجة لكثرة سفن الأسطول المالطي وقوته، الذي كبد الطرابلسيين خسائر فادحة في العتاد والأرواح، وفي ذلك يقول ابن غلبون الطرابلسي: «...**ولم يزل كذلك إلى أن دخلت سنة 1121هـ إحدى وعشرين ومائة وألف وخرج كبير أسطول السفن الجهادية علي قبطان غازيًا، وخرج معه البرنجي في سفينة صغيرة، فأعلم الإفرنج الذين بالبلد صاحب مالطة عنهما، وأخبروه بما فيهما من العدة والعدد، فجهز إليهما شوانيه وأسطوله فطاردهم علي قبطان وقاتلهم قتالاً شديدًا، وكان ذلك من البعد، فإذا همَّ بأن يحط على إحدى السفن ليربطه بها هربت منه حتى أعدموا السفينة عن بعد، فلما علم أنه لا نجاة له منهم أحرق السفينة ونزل من كان بها حيًا في البحر فأخذوهم، وكان ذلك في ربيع الآخر السنة المذكورة**...».[2]

3-نتائج المعركة.

- فقدان الأسطول الجهادي الطرابلسي إحدى أهم قطعه البحرية؛ وهي السفينة "كابتانا" التي كانت مجهزة بـ 56 مدفعًا و240 قاذفة[3]، وكان لها دورًا بارزًا في حركة الجهاد البحري الطرابلسي ضد الأساطيل المسيحية.
- انتصار باهر حققته البحرية المالطية، كان ضربة موجعة تلقاها الطرابلسيون بفقدانهم خيرة بحارتهم.[*]
- استشهد حوالي 300 بحارا طرابلسيا.
- تم أسر 400 بحارا طرابلسيا أُخذوا إلى جزيرة مالطا.[4]
- تحرير 50 أسير مسيحي كانوا في قبضة الطرابلسيين.

1- رودلفو ميكاكي: المرجع السابق، ص7.

2- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 336.

3- إتوري روسي: المرجع السابق، ص316.

* - بالرغم من محاولتنا التأكد من حقيقة الاتهام الذي تكلم عنه شارل فيرو ضد خليل باشا حول وشايته بعلي الأرناؤوطي وبحارته، إلاّ أنه لم يتسن لنا ذلك، فحتى رواية ابن غلبون غامضة لم تف لنا بالغرض، علمًا أنه ذكر أن المسحيين والمالطيين بطرابلس هم الذين أعلموا المالطيين بخروج الأسطول الطرابلسي للجهاد، وبذلك برئ خليل باشا من تهمة المؤامرة والوشاية، لكن إن ثبتت هذه الحادثة فإنها وصمة عار في جبين القيادة الطرابلسية في ذلك الوقت لا يمكن نسيانها، لأن بسببها فقدت البحرية الطرابلسية 700 بحار من خيرة البحارة في ذلك الوقت.

4- ردولفو ميكاكي: المرجع السابق، ص 7.

- لم يخسر فرسان مالطا في هذه المعركة إلاّ 6 قتلى بالإضافة إلى 39 جريحًا، وهي خسائر قليلة جدًا بالمقارنة مع الطرابلسيين الذي تكبدوا خسائر فادحة مادية وبشرية، لا يمكن مقارنتها بتاتًا بخسائر فرسان مالطة، فلماذا يا ترى حدث هذا الأمر؟

- مكان المعركة لعب دورًا بارزًا في هذه الخسائر، خاصة وأن البحر الأدرياتيكي بعيدا نسبيًا عن الإيالة الطرابلسية، لأن الطرابلسيين قاتلوا في مكان لا يعرفونه، فتكبدوا خسائر فادحة نتيجة جهلهم بالمنطقة.
- قوة البحرية المالطية التي حضّرت جيدًا لهذه المعركة واختارت قيادتها الزمان المناسب والمكان الملائم لخوض المعركة، في جغرافية يعرفونها جيدًا، لأنها قريبة جدًا من إيطاليا، الذين كان حكامها من حلفاء المالطيين الدائمين بقيادة قادة الكنيسة.
- مباغتة البحرية المالطية للطرابلسيين أربك علي الأرناؤوطي وبحارته الذين لم يعرفوا التعامل الجيد مع المعركة.
- ضعف البحرية الطرابلسية بالمقارنة مع نظيرتها المالطية، وإلاّ بماذا نفسر هذه الخسائر التي ربما لم تحدث من قبل في تاريخ البحرية الطرابلسية وحتى المغاربية.
- اندفاع علي الأرناؤوطي –وإلاّ بماذا تفسر وصوله إلى غاية البحر الأدرياتيكي–أدى إلى هذه النتيجة الكارثية لأنه لم يضع في الحسبان قوة البحرية المالطية.
- تعاون البحرية المالطية مع بعض حكام الدويلات الإيطالية خاصة البابوية منها رجح كفة المعركة لصالح المالطيين.

- غضب شديد انتاب الطرابلسيين قيادة وحكامًا وخيم الحزن على البلاد، خاصة وأن خيرة البحارة ذهب ضحية هذه المغامرة غير مدروسة العواقب.
- استغل الأسرى المسيحيين هذه الأوضاع وحاولوا التمرد على القيادة الحاكمة بطرابلس والاستيلاء على القلعة، بالأسلحة التي كان الباشا قد سلحهم بها للدفاع عنه في حالة قيام أي تمرد من رعيته[1]، إلاّ أن تدخل القنصل الفرنسي بوللارد أحبط هذا المشروع.*

1- ردولفو ميكاكي: المرجع السابق، ص 7.

* – هكذا هو زمن الردة والخنوع، يتخذ الحاكم بطرابلس الأسرى المسحيين لحراسته من رعيته، فانقلب الواقع بتاتًا وأصبح المسيحيون أقرب مودة من بني جلدته، بل هؤلاء الذين أراد منهم حراسته انقلبوا ضده، وكيف لأسير يسلح من أجل حماية الحاكم؟ في المقابل كان الأسير المسلم عند المسيحيين يهان ويعذب وينصر، والأدهى والأمر أنه ما حلت مصيبة إلاّ وكانت السلطات الفرنسية لها يد فيها، مع أنها في هذه المرة تدخل قنصلها لصالح=

4-المعركة البحرية الطرابلسية المالطية سنة 1135هـ/1723م.

4-1-الوضع العام في المتوسط قبيل المعركة.

في سنة 1127هـ/1715م غزت جيوش الدولة العلية العثمانية بلاد المورة* وكل جزائر التابعة لها، لذلك أعلنت السلطات النمساوية الحرب عيها تدعمها في ذلك سلطات جمهورية ونديك، وتم نقض معاهدة كارلوفجة**، والتقت هذه الأطراف في معركة دامية أسفرت نهايتها عن انهزام جيوش الدول العلية العثمانية، ومقتل الصدر الأعظم، الذي عين بدل عنه خليل باشا والي بغداد، الذي لم يفلح في مواجهة الجيوش الأوروبية المتحالفة التي استطاعت السيطرة على قلعتي بلغراد وطمشور.[1]

تماشيًا وسياسة حكام الإيالات المغاربية الداعمة لسلاطين الدولة العلية العثمانية في حروبهم المتواصلة ضد الدول المسيحية، أعلن حكام الإيالات الحرب على هذه الدول، وأخذ البحارة الطرابلسيين يهاجمون سفن: نابولي، جنوة، توسكانيا والبندقية التي كانت تقوم بالإبحار تحت علم النمسا تطبيقا لبنود معاهدة أوترخرت***، بالإضافة إلى السفن الإيطالية والمالطية التي كانت هدفًا مباشرًا للأسطول الطرابلسي[2] الذي عرف نشاطًا متزايدًا خلال هذه

=صديقها خليل باشا، لكن في الواقع كان هذا الأمر خدمة للأسرى المسيحيين الذين خاف القنصل الفرنسي على أرواحهم، لأنهم بكل حال من الأحوال لم يكونوا بكثرة، وإن كانوا كذلك فلا يمكن أن يكون الباشا قام بتسليحهم جميعًا.

* – بلاد المورة: إحدى جزر اليونان، تقع في جنوبه.

** – كارلوفجة: عقدت هذه المعاهدة بين الدولة العلية والنمسا سنة 1112هـ/1700م بمساعدة إنجلترا وهولندا في مدينة كارلوفجة وساهمت السلطات الألمانية والبولونية والروسية في التوصل إلى هذه المعاهدة التي نصت على مايلي:

- ألا تطلب سلطات الدولة العلية مدينة ويركو.
- الأراضي التي على ساحل نهر الطونة وصاوه تصبح تابعة للسلطات النمساوية.
- تصبح بلاد المورة والجزائر السبع ودلماشيا تحت يد سلطات ونديك.
- تعتبر حدود البولونيين من مياه طورله.

تبقى قلعة أزاق بيد السلطات الروسية...للاستزادة ينظر، عزتلو يوسف بك آصاف: تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، تقديم، محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ص 99.

1- عزتلو يوسف بك آصاف: المصدر السابق، ص ص 101، 102

*** – معاهدة أوترخت: تمت هذه المعاهدة على أثر حروب الوارثة الإسبانية التي امتدت من 1702-1713م، حيث تحقق الصلح بين الدول الأوروبية المتصارعة فيما بينها 1713-1714م، ونصت على مايلي:

- الاعتراف بفليب "أنجو" الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملكًا على إسبانيا ومستعمراتها بشرط أن يتنازل عن جميع حقوقه في عرش فرنسا.
- حصلت إنجلترا على نيوفاوندلاند وخليج هدسون ونوفا سكوشيا "Nova scolia" من فرنسا وعلى مينورقة وجبل طارق من إسبانيا.
- تعهدت فرنسا بعدم مساعدة أسرة شوارت المطالبة بعرش إنجلترا وتم الاعتراف بحقوق أسرة هانوفر في وراثة العرش الإنجليزي.
- أعيد كل من ناخبي كولون وبفاريا إلى إمارتهما.
- تم الاعتراف بناخب براند برج ملكا على بروسيا، وكانت هذه خطوة مهمة في ازدياد نفوذ أسرة الموهنزلرن "Sohensollprn"
- تم الاعتراف بدوقية سافو كمملكة وأعطيت لها جزيرة صقلية.... للاستزادة ينظر: عمر عبد العزيز: المرجع السابق، ص 277.

2- ردولفو ميكاكي: المرجع السابق ص 35.

الفترة؛ بسبب الاهتمام الذي أولاه أحمد باشا القرمانلي به، فقد شهدت هذه السنوات قيام البحرية الطرابلسية بعدة عمليات ناجحة ضد بحريات الدول المسيحية والسيطرة على العديد من السفن التابعة لفرنسا، نابولي والبندقية.[1]

عندما أصبحت النمسا لها امتدادات في البحر المتوسط بسبب ممتلكاتها في إيطاليا، كان لابد لها هي أيضًا أن تهتم بسلامة سفنها وتجارتها من البحارة المغاربة عامة والطرابلسيين خاصة، ولذلك طُرحت مسألة الهجمات المتتالية التي تمارسها السفن الطرابلسية والجزائرية والتونسية في المؤتمر الذي عقد في بساروفتس «Passarowits»[*]، وبمناسبة هذا المؤتمر عقدت معاهدة وأدرجت فيها مادة تنص على تعهد سلطات الدولة العلية العثمانية بإلزام كل من حكام الإيالات الجزائرية، التونسية والطرابلسية بإبرام صلح مع سلطات النمسا وجمهورية البندقية.[2]

بعد هذه التفاهمات التي حدثت بين السلطات النمساوية وسلطات الدولة العلية، حاولت القيادة الروسية التدخل لإفساد العلاقات الفرنسية العثمانية، وذهب بطرس الأكبر بنفسه إلى باريس في سنة 1132هـ/1721م من أجل تنفيذ هذه المهمة، وللوقوف في وجه المساعي الروسية سارعت سلطات الدولة العلية إلى إرسال محمد أفندي سفيرًا لها إلى باريس لتقوية روابط الصداقة بين الطرفين، إلاّ أن السلطات الفرنسية طلبت من محمد أفندي إعلان حكام الدولة العلية الحرب على روسيا من أجل استرجاع ممالك دولة أسوج[3] التي انتزعتها روسيا من فرنسا، غير أن السفير العثماني رفض هذا الطلب لأن بطرس الأكبر كان حليفًا لأمراء ألمانيا وأوستراليا ودولة الونديك.[4]

يمكننا ربط ما كان يحدث بالمشرق بما كان يدور في بلاد المغرب، لأن السلطات الفرنسية كانت دائمًا تجد المبررات من أجل اختلاق المشاكل مع حكام الإيالة الطرابلسية بغية الضغط عليهم لتحقيق مصالحها، ففي شهر نوفمبر 1722م، حدث وأن التقى أحد رياس البحر الطرابلسيين في عرض البحر بسفينة القبطان أولييه

1- أحمد السعيد الطويل: المرجع السابق، ص ص 64، 65.

* – تمت هذه المعاهدة بين سلطات الدولة العلية والنمسا، بعد هزيمة الجيوش العثمانية بقيادة الصدر الأعظم خليل باشا، بعد وفاة الصدر الأعظم علي باشا دامادا أثناء المعارك أمام الجيوش النمساوية التي استطاعت السيطرة على مدينة بلغراد في 19 أوت 1717م، لتبدأ مساعي الصلح الذي تم في 22 شعبان 1130هـ/21 جويلية 1718م بمدينة بيساروفتش جنوب شرقي مدينة بلغراد، وقد نصت على مايلي:

– تأخذ السلطات النمساية ولاية تمسور ومدينة بلغراد مع جزء كبير من بلاد الصرب وآخر من بلاد الفلاخ.

– تبقى دالماشيا تحت سيطرة سلطات جمهورية البندقية.

– تعاد بلاد المورة إلى سلاطين الدولة العلية، وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة سباروفتش...للاستزادة ينظر، محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 316.

2- رودلفو ميكاكي: المرجع السابق، ص ص 44،45.

3- ممالك دولة أسوج: السويد حاليا.

4- إبراهيم بك حليم: المرجع السابق، ص 161.

«Ollier» التابعة لمرسيليا محملة ببالات الحرير القيمة، فقرر السيطرة عليها واحتجاز طاقمها وأخذهم إلى ميناء طرابلس، بالرغم من تدخل القنصل الفرنسي بروتس ومطالبته بإطلاق سراح طاقم السفينة وإرجاع محتوياتها، إلاّ أن أحمد باشا قرمانلي رفض ذلك[1]، متحججًا بأن السفينة تابعة لجنوة وغنمها أمرًا قانونيًا، ولم تؤد مساعي القنصل الفرنسي الجديد مارتان «Martan» - الذي وصل طرابلس في شهر فيفري 1723م- إلى أي نتيجة[2]، لذلك أرسلت السلطات الفرنسية إلى مياه طرابلس مجموعة من السفن تحت إمرة دي جرانبرية «De Grandpre»[3]، لتهديد السلطات الطرابلسية التي لم ترضخ لتهديدات الفرنسيين وواصلت سياستها المعادية للدول الأوروبية.

4-2-وقائع المعركة.

تصادف وصول الأسطول الفرنسي إلى طرابلس مع وقوع هذه المعركة، ولذلك يمكننا ربط هذه الأحداث مع بعضها البعض من خلال مايلي:

- لا يمكن أن تكون السلطات الفرنسية بمعزل عن تحريض فرسان مالطا ضد الطرابلسيين، خاصة وأن هذه المنظمة ما تأسست إلاّ لخدمة الأهداف المسيحية ومضايقة البلدان الإسلامية خاصة المغاربية منها.
- بما أن فرسان مالطا منظمة مرتزقة، قد تكون قامت بهذه المعركة لحساب السلطات الفرنسية التي لم تكن مستعدة لإعلان حرب على حكام الإيالة الطرابلسية في هذه المرحلة، على أمل يتراجع حكام الدولة العلية ويعلنون الحرب على روسيا، وبذلك كانت السلطات الفرنسية تلعب على عامل الزمن ولا تريد خسران صداقة حكام الدولة العلية بإعلان الحرب على طرابلس.
- تزامن هذه المعركة وقدوم الأسطول الفرنسي إلى المياه الإقليمية الطرابلسية، يؤكد لنا أن الهجوم جاء بمباركة واتفاق السلطات الفرنسية مع حكام منظمة فرسان مالطا.
- بما أن قائد الهجوم على الطرابلسيين كان من أصل فرنسي، هذا يدل أن الهدف الأول لهذه الحملة كان رد الاعتبار للفرنسيين الذين أهينوا على يد البحارة الطرابلسيين على مرآى من أحمد باشا القرمانلي، الذي أعلن صراحة للفرنسيين أن هذا العمل قانوني ومشروع، يستهدف السفن المسيحية الأخرى وليس فرنسا.

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 284.

2- رودلفو ميكاكي: المرجع السابق، ص 36.

3- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 285.

في 11 أفريل 1723م استطاعت إحدى السفن المالطية السيطرة على سفينة طرابلسية في ليكاتا «Licata»*، وبعد أيام من هذه الحادثة علم المرشد الأكبر لفرسان مالطا أن سفينة عثمانية على سفينة تابعة لجمهورية جنوة وأخرى لصقلية كانتا محملتين بالملح، لذلك أمر سفنه الحربية بالخروج لمهاجمة السفن الإسلامية سواء تابعة للدولة العلية أو التابعة للإيالات المغاربية.[1]

بتاريخ 22 أفريل 1723م خرجت سفينة القيادة الطرابلسية رفقة العديد من السفن الصغيرة مجهزة بثمان وأربعين مدفعًا وأربعة عشر منجانيقًا من الحديد المصبوب تحمل على متنها 400 بحار، وكانت تتميز بسرعة فائقة وتسليحًا جيد ومتطورًا حسب ذلك الوقت، أهداها السلطان العثماني لأحمد باشا القرمانلي[2]، وكانت وجهتها جزيرة صقلية، فشاهدها القراصنة المالطيين الذين كانوا يصولون ويجولون في عرض البحر بحثًاً عن السفن الإسلامية للانتقام منها، نظير ما يقوم به البحارة المسلمين من أعمال جهادية ضد السفن المسيحية، التي تكبدت خسائر فادحة جراء النشاط المتزايد للبحارة الطرابلسيين، لذلك بادر قائد فرسان مالطا دي شامبري «De chambray» الذي كان على متن سفينته سان فنسنزو «San vincenzo» بمطاردة السفن الطرابلسية في مياه جزيرة بانتليريا «Pantelleriz»**، ومباشرة بعد اللحاق بها جرت معركة دامية بين الطرفين دامت أربع ساعات[3] كانت نهايتها وبالاً على الطرابلسيين، الذين خسروا هذه المعركة وفقدوا خيرة بحارتهم، وننقل وقائع هذه المعركة الدامية من عند شارل فيرو لتتكشف لنا العديد من الحقائق التاريخية حيث قال: «...**واستمر القرمانلي في عناده رافضًا القيام بأية ترضية بخصوص الأسلاب التي استولى عليها من البحرية التجارية الفرنسية، وفي تلك الأثناء بالذات أخذ فارس من فرسان مالطة، فرنسي اللسان، يدعى ردي شامبراي « De chambrav» على عاتقه –وقد استثارته صلافة الطرابلسيين في معاملتهم لمواظبة –مهمة تلقنهم درسًا قاسيًا، فخرج بالفرقاطة التي تحت قيادته وأخذ يتجول في الخليج، حيث تمكن من خطف سفينة قرصنة*** طرابلسية بعد معركة استمرت أربع ساعات وعلى ظهرها طاقم مؤلف من أربعمائة رجل لم ينج**

* – ليكاتا: مدينة إيطالية تقع على الساحل الجنوبي من جزيرة صقلية، تقع على مصب نهر تسالسو، تتوسط مدينتي أغريجنتو وجيلا، يوجد بها ميناء هام تأتيه السلع من كل مكان.

1– إتوري روسي: المرجع السابق، ص 337.

2– رودلفو ميكاكي: المرجع السابق، ص 36.

** – بانتيريا: تسمى أيضا قوصرة، جزيرة إيطالية تقع في مضيق صقلية على البحر المتوسط، تقع جنوب غرب صقلية بحوالي 100كلم، لا يفصلها عن البلاد التونسية (الوطن القبلي) سوى 70كلم.

3– أمحمد سعيد الطويل: المرجع السابق، ص 65.

*** – مع أننا نعترض على هذا اللفظ إلا أننا ننقل النص كاملاً وللأمانة العلمية لا يمكننا تغيير هذا اللفظ، لأن مفهومنا هو جهادًا بحريًا نتج عن القرصنة المسيحية التي كانت تهدد البلاد الإسلامية عامة والمغاربية خاصة، وبذلك فهي ردة فعل، لفعل وقع سلفًا من طرف المسحيين.

منهم في أعقاب المعركة سوى 267 رجلاً...» ثم يقول في موضع آخر «...**وقد أصبغ هذا النصر المبين على الفارس دي شامبراي تشريفًا كبيرًا لما أبداه من بسالة في الاستيلاء عليها...»**.[1]

انتهت هذه المعركة بمأساة أخرى للبحرية الطرابلسية التي فقدت أحسن سفنها الحربية ومفخرة الأسطول الطرابلسي في عهد أحمد باشا القرمانلي، بعد النكسة التي حلت بها سنة 1709م، وفي المقابل استطاع فرسان مالطا مواصلة انتصاراتهم وإثبات قوتهم، في المتوسط مستغلين في ذلك الصراعات الداخلية للإيالات المغاربية واشتغال الدولة العلية بحروبها ضد الدولة المسيحية الأخرى.

4-3-نتائج المعركة.

- استشهاد حوالي 133 بحار طرابلسي.
- أسر 267 بحار طرابلسي[2]، وبذلك فإن جميع طاقم السفينة الطرابلسية فقد إما شهيدًا أو أسيرا.
- خسر الطرابلسيون أحسن سفينة حربية لديهم ومعها 48 مدفعًا.
- عمّ الحزن جميع أنحاء الإيالة الطرابلسية، خاصة أحمد باشا القرمانلي الذي تأثرا كثيرًا، لذلك صمم على الانتقام من جميع السفن المسيحية، ورفض جميع تدخلات القناصل الأوروبيين المقيمين ببلاده والراغبين في حماية سفنهم وتجارتهم.[3]
- استطاع المالطيون إطلاق سراح حوالي 33 أسيرًا مسيحيًا.
- قتل من الجانب المالطي 4 قراصنة وأصيب 10 آخرين بجروح خطيرة.[4]
- استطاع القائد المالطي دي شامبراي نيل شهرة واسعة لما أبداه من شجاعة وروح قومية مسيحية[5]، التي ما وجد فرسان مالطا إلاّ للدفاع عنها والعمل على ترسيخها بين المسيحين، ففي الوقت الذي كانت فيه السلطات الفرنسية لا تعلن الحرب على الإيالة الطرابلسية قرر هو الانتقام لشرفها وشرف المسيحيين المهدور على يد الطرابلسيين، وبذلك نال هذه الشهرة والثناء.

من خلال الرواية التي نقلها لنا شارل فيرو نلاحظ أن السلطات الفرنسية كانت المحرض الرئيسي لفرسان مالطة من أجل القيام بمهاجمة السفن الطرابلسية بالنيابة عنها؛ لأنها كانت لا تريد خسارة صداقة سلاطين الدولة العلية، وفي نفس الوقت لا تريد إثارة المشاكل مع الإيالات المغاربية ومن بينها الطرابلسية، التي كان حاكمها أحمد

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 285.
2- أمحمد السعيد الطويل: المرجع السابق، ص 65.
3- ردولفو ميكاكي: المرجع السابق ص 37.
4- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 338.
5- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 285.

باشا القرمانلي يريد أن يتنصل من جميع الالتزامات تجاه السلطات الفرنسية التي كانت دائمة التدخل في شؤون بلاده الداخلية عن طريق قناصلها بطرابلس، تدفعه في ذلك العديد من الأسباب، نذكر منها:

- محاولة الحد من النفوذ الفرنسي بطرابلس الغرب التي أصبحت عرضة لتدخلات القناصل الفرنسيين.
- التنصل من الالتزامات تجاه الفرنسيين؛ الذين كانت سفنهم في أغلبية الأحيان غير مستهدفة من طرف البحارة الطرابلسيين، هذا ما انعكس سلبًا على الغنائم الطرابلسية في البحر، لأن الفرنسيين كانوا من بين أكبر الدول التي لها تجارة بحرية في المتوسط.
- انكماش الاقتصاد الطرابلسي نتيجة المشاكل الداخلية، أثر على مداخيل البلاد، وولد نوعًا من التذمر داخل الجيش الإنكشاري الذي كان يريد الأموال من القرمانلي، هذا الأخير كان مضطرًا لتشجيع الرياس على المضي قدمًا في مهاجمة السفن الأوروبية لتعويض نقص المداخيل داخليًا لترضية الجيش الإنكشاري.
- ضغط الرياس الذين تضرروا كثيرًا جراء الاتفاقيات المبرمة بين حكام طرابلس وحكام إنجلترا وفرنسا، كان له تأثيرًا مباشرًا على أحمد باشا القرمانلي في إثارة المشاكل مع الفرنسيين، حتى يكون في حِلٍّ من كلّ التزام تجاههم، وبذلك يستطيع تلبية رغبات الرياس الذين كانوا في حاجة ماسة للجهاد البحري من أجل تحقيق أهدافهم الدينية والدنيوية.
- كان أحمد باشا القرمانلي يعلم جيدًا المؤامرات الفرنسية الهادفة لزعزعة الاستقرار ببلاده، ودورها في تحريض سلاطين الدولة العلية أو حكام الدول الأوروبية الأخرى خاصة فرسان مالطا؛ الذين كانت السلطات الفرنسية الراعي غير المباشر لهم بعد الملوك الإسبان وقادة الكنيسة البابوية بروما، وذراعها الطويلة التي كانت تتخذها لإلحاق الأضرار بالإيالتين الطرابلسية والتونسية على وجه الخصوص، لذلك عمل القرمانلي على إثارة المشاكل معها من أجل إشغالها وإبعادها ولو مؤقتًا عن حياكة المؤامرات ضد بلاده.

5-المعاهدة الطرابلسية الإسبانية سنة 1198هـ/1784م.

تعتبر المعاهدة الطرابلسية الإسبانية سنة 1198هـ/1784م من أهم المعاهدات المبرمة بين حكام الإيالات المغاربية وحكام الإمبراطورية الإسبانية، لعدة اعتبارات نذكر منها:

- لم يحدث وأن أمضت السلطات الإسبانية أي اتفاقية مع حكام الإيالة الطرابلسية في العصر الحديث منذ احتلالها لطرابلس الغرب سنة 916هـ/1510م إلى غاية هذه الاتفاقية.

- بموجب هذه الاتفاقية تم الاعتراف رسميًا بالدولة الحديثة الطرابلسية من طرف الإسبان، الذين كانوا في كل مرة يحاولون إعادة احتلال البلاد المغاربية، ومنها طرابلس الغرب، التي لعبت دورًا بارزًا في إفشال المشاريع الاحتلالية الإسبانية في بلاد المغرب الإسلامي.
- تعتبر هذه الاتفاقية بمثابة الاعتراف الرسمي من السلطات الإسبانية بفشل مشاريعها في إعادة احتلال طرابلس خاصة وبلاد المغرب عامة.
- كانت هذه الاتفاقية بمثابة انتصار لسلطات الإيالات المغاربية على ملوك الإمبراطورية الإسبانية الذين سعوا جاهدين لتحقيق أحلامهم في احتلال بلاد المغرب وتنصير سكانها.
- تعتبر هذه الاتفاقية بمثابة الإعلان الرسمي لنجاح الاستراتيجية العثمانية في بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الحديث، المبنية على تحرير بلاد المغرب من الاحتلال الإسباني وتأسيس إيالات تدين بالولاء للسلطان والدولة العلية العثمانية.
- تم توقيع هذه الاتفاقية بين سلطات الدولتين، بعد أن وصلت كلاهما إلى مرحلة الإجهاد والتراجع، فقد تراجعت الإيالة الطرابلسية كثيرًا بسبب الحملات الفرنسية المتكررة وتضرر بحريتها وجيشها جراء ذلك، أما إسبانيا فقد أنهكتها الحروب داخل أوربا وفي العالم الجديد والمتوسط، هذا ما انعكس سلبًا على الاقتصاد الإسباني والخزينة التي تضررت كثيرًا جراء الإنفاق المتزايد على هذه الحروب التي لم تجن منها إلا الخسائر في الأموال والعتاد والأرواح.
- تعتبر هذه الاتفاقية بمثابة الحد الفاصل بين الصراع العسكري الطويل الذي طبع العلاقات الإسبانية الطرابلسية والعلاقات السلمية التي بدأت منذ تاريخ توقيع وقعت فيه اتفاقية السلم والتجارة.
- فسحت هذه المعاهدة المجال للدبلوماسية المغاربية والإسبانية لحل كل المشاكل العالقة بين الطرفين بالطرق السلمية بدل الحروب التي لم يجن منها الطرفين إلاّ الخسائر المادية والبشرية.
- أعطت هذه المعاهدة إمكانيات كبيرة وامتيازات لم يسبق للسلطات الإسبانية الحصول عليها من ذي قبل، لأنها فسحت لها المجال لخيرات البلاد المغاربية التي لم تستطع الحصول عليها بالقوة العسكرية.
- كانت هذه المعاهدة البداية الفعلية للتنافس الإسباني الإنجليزي الفرنسي على خيرات بلاد المغرب، لأنها أعطت لإسبانيا نفس الامتيازات التي كانت تحظى بها إنجلترا وفرنسا، هذه الأخيرة التي كانت تريد أن تكون بلاد المغرب منطقة نفوذ لها لا تنافسها فيها أي دولة أخرى، وهو ما تحقق لما سواء كان عن طريق الامتيازات أو الاحتلال المباشر فيما بعد.

5-1-إرهاصات المعاهدة الإسبانية الطرابلسية سنة 1198هـ/1784م.

يمكننا إرجاع أول اتصال بين سلطات الإمبراطورية الإسبانية وحكام الإيالة الطرابلسية إلى نهاية القرن السابع عشر، ففي سنة 1094هـ/1683م خلال فترة حكم عبد الله الأزميرلي، وبعد فشل القوات البحرية الإسبانية في احتلال مدينة طرابلس، جرت مفاوضات مباشرة بين الطرفين انتهت إلى دفع غرامة مالية من طرف الطرابلسيين وعقد صلح مؤقت، كانت أهم بنوده:

- إعلان هدنة في البحر بين الطرفين الطرابلسي والإسباني.
- إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين في الإيالة الطرابلسية.
- إطلاق سراح جميع الأسرى الطرابلسيين بإسبانيا.
- إرجاع جميع ما قام الطرابلسيون بالسيطرة عليه خلال هذا الهجوم.
- يدفع الطرابلسيون مائة ألف ريال كرميلية كأموال مستحقة من أجل عدم احتلال بلادهم.
- السماح للإسبان بالتسوق في أسواق مدينة طرابلس.
- يتعهد محمد باشا الأزميرلي بحماية الإسبان في طرابلس الغرب.[1]

استمر هذا الصلح إلى غاية سنة 1102هـ/1691م في عهد محمد باشا الذي قرر نقضه وإعلان الحرب على إسبانيا، غير أنه حدث أمر لم يكن في حسابات القادة السياسيين والعسكريين الطرابلسيين، ذلك أن البحارة الإسبان استطاعوا أسر خليل بك صهر حاكم الإيالة الطرابلسية محمد باشا، وهذا ما استغلته السلطات الإسبانية وطلبت من حاكم طرابلس الموافقة على إقامة صلح بينهما[2]، وأمام الضغوط المتواصلة للساسة والقادة العسكريين الإسبان، اضطر محمد باشا للموافقة على عقد الصلح مع الإسبان، كانت أهم بنوده:

- يتم هذا الصلح وفق الاتفاق الأول الذي وقع في عهد عبد الله الأزميرلي.
- يتم تبادل أسرى الطرفين، ويكون فداء كل أسير مسلم في مقابل أسير نصراني.
- إذا كان هناك أسرى عند أحد الطرفين أكثر من الآخر، يتم افتداء كل أسير بمائة وخمسين -150- ريالاً.[3]

1- أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: الرحلة الناصرية، (1121-1122هـ/1709-1710م)، حققها وقدم لها، عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الأمارات العربية المتحدة، 2011، ص 180.

2- النائب أحمد بك الأنصاري: المصدر السابق، ص 266.

3- نفسه.

ارتكز هذا الاتفاق على تحرير الأسرى وتوقيف الأعمال العدائية بين الطرفين وكان ممهدًا حقيقيًا لإنهاء حالة الصراع التي استمرت عشرات السنين، لم تجن منها إسبانيا إلاّ الخيبات المتتالية بالإضافة إلى الخسائر المادية والبشرية الفادحة، فيما تكبدت جرائها الإيالة الطرابلسية الكثير من الخسائر وتدمير شامل لمنشئاتها بالمدن الساحلية، زيادة على الخسائر المادية والبشرية الأخرى.

6-ظروف وأسباب توقيع المعاهدة.

تندرج معاهدة السلم والأمن والتجارة بين حكام الإيالة الطرابلسية الإمبراطورية الإسبانية في سياق مساعي حكام هذه الأخيرة من أجل إقامة علاقات سلمية مع حكام الإيالات المغاربية العثمانية مبنية على حسن الجوار وتبادل المصالح، بدل الحرب والصراع اللذين داما عدة قرون لم يجن منها الطرفان إلاّ الدمار والمشاكل المتواصلة[*]، هذا ما جعل الساسة الإسبان يفكرون جديًا في تغيير سياستهم تجاه الإيالات المغاربية العثمانية.

خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي، خاصة في عهد الملك الإسباني شارل الثالث (1716–1788م) شهدت السياسة الخارجية الإسبانية تجاه العالم الإسلامي تغييرًا جذريًا، بحكم التحولات العامة التي شهدتها البلاد بعد حروب الوراثة[**]، والتوجه الجديد في السياسة الخارجية الإسبانية، والتي كانت أبرز معالمها:

---

[*] – يجب الإشارة أن السلطات الإسبانية هي البادئة بالاعتداء والاحتلال انتقامًا من الأندلسيين الذين فروا إلى بلاد المغرب هربًا من بطشها، وفي نفس الوقت عقاب أهل بلاد المغرب على إيواء واحتضان إخوانهم من الأندلسيين، ولا يمكننا بأي حال من الأحوال المساواة بين الضحية والجلاد ولا بين المعتدي والمعتدى عليه.

[**] – حروب الوراثة الإسبانية : السؤال المطروح حينذاك داخل أوربا هو ماذا يكون مصير الإمبراطورية الإسبانية بعد وفاة ملكها شارل الثاني الذي كان متوقعًا منذ أمد بعيد، إلاّ أنه تأخر كثيرًا، وقد حكم إسبانيا منذ سنة 1665م، وكانت الشعوب الإسبانية في ذلك الوقت مهمشة وليس لها رأي في اختيار حاكمها، وتقرير مصير يخصها وحدها فقط، لأن الملك كان يعتبر مسألة عائلية لا دخل لرأي الشعب فيها، وكانت الأمور تتم بالوصية أو باتفاق الأسرة الواحدة فيما بينها، خاصة إذا كان لا يوجد وريث شرعي يتولى الحاكم بعد وفاة الملك، وقد أصبح عرش إسبانيا مشكلة أوربية بامتياز؛ ذلك أن الدول الكبرى كانت لها أطماع في إسبانيا وممتلكاتها الموزعة داخل أوربا والعالم الجديد، وعندما بات متوقعًا وفاة شارل الثاني أصبح هناك ثلاثة أشخاص يطالبون بالحكم، وهم: لويس الرابع عشر زوج لأميرة إسبانية وجوزيف فرديناند حاكم بافاريا، الذي كانت له صلة قرابة بالعائلة الحاكمة الإسبانية والإمبراطور ليوبولد الأول النمساوي، وهو ابن لأميرة إسبانية إلاّ أن إنجلترا وهولندا لم يوافقا على تولي أحد هؤلاء الحكم، بحجة الإخلال بالتوازن الدولي، لذلك عقدت معاهدتان بين السلطات الإنجليزية والهولندية من جهة والسلطات الفرنسية من جهة ثانية سنة 1698م، لاقتسام إرث الإمبراطورية الإسبانية بعد وفاة ملكها، وقد نصت على مايلي:

– أن يكون العرش الإسباني بمعظم ممتلكاته لناخب بافاريا.

– تأخذ السلطات الفرنسية نابولي وصقلية، وبذلك لا يحدث اختلال في موازين القوى الأوروبية، إلاّ أن وفاة ناخب بافاريا سنة 1699م الذي أوصى له شارل الثاني بالحكم ألغى هذه المعاهدة، واضطر موقعوها إلى إعادتها في مارس سنة 1700م، وبذلك عقدت المعاهدة الثانية التي تقضي بأن تؤل إلى النمسا الأراضي المنخفضة وإسبانيا ومستعمراتها في العالم الجديد، بينما تؤول لفرنسا نابولي وصقلية وميلان التي تعوض عنها باللورين، إلاّ أن حكام إسبانيا والنمسا لم يرضيا بهذه التفاهمات مطلقا، وعندما مات شارل الثاني سنة 1700م، ترك وصية تعطي الوراثة لفليب الخامس حفيد لويس الرابع عشر من أسرة البوربون كامل أملاك الإمبراطورية، وإذا رفض هذا الإرث كله آل الأمر إلى الأمير النمساوي شارل، وبسبب ذلك اندلعت الحروب التي لم تنته إلى غاية معاهدة أوتخرت سنة 1713م التي وضعت حدا لحرب الوراثة الإسبانية... للاستزادة ينظر، هربرت فيشر: المرجع السابق، ص ص 34، 39؛ عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق، ص ص 274، 278.

- انتقال الحكم من أسرة الهابسبورغ الألمانية إلى أسرة الفالوا الفرنسية.
- ظهور سياسة خارجية جديدة؛ تمثلت في اتباع نهج السياسة الخارجية الفرنسية.
- ظهور بوادر نهضة اقتصادية واجتماعية وثقافية بإسبانيا.
- تبني خطة الوزير الأول فلوريدا بلانكا المبنية على سياسة الانفتاح على العالم الإسلامي عامة وبلدان المغرب خاصة.[1]

تماشيا والسياسة الجديدة التي أصبحت تتبعها السلطات الإسبانية تجاه بلدان المغرب الإسلامي* حاولت جاهدة لإقامة علاقات سلمية معها، وكانت البداية مع المغرب الأقصى الذي كان حكامه فاتحة بلدان المغرب الإسلامي في إمضاء معاهدة مع السلطات الإسبانية وإقامة علاقات سلمية معها، لأن الإسبان حاولوا إبقاء سيطرتهم على المناطق المحتلة المغربية، بالرغم من أن مولاي محمد بن عبدالله كان يرغب في تحرير جميع أراضي بلاده من الاحتلال الإسباني، غير أن إمكانياته الحربية لم تسمح له بذلك، وهذا ما نستشفه مما نقله لنا الناصري السلاوي: «...**أن مولاي محمد مرّ بسبتة ونظر إلى حصانتها ومناعتها وتحقق ألا مطمع فيها إلاّ بالحد وأمر العسكر الذين حوله بإخراج دفعة من البارود، وأجابهم النصارى بمثل ذلك بالمدافع والكور حتى تزلزلت الجبال، فلما تبين له حالها أرجأ أمرها إلى يوم ما**...».[2]

بالرغم من حرص مولاي محمد على تحرير بلاده من الاحتلال إلاّ أنه كان يرغب في إقامة علاقات سلمية مع جارته إسبانيا التي كان حكامها يريدون أيضا تحقيق السلم مع حكام المغرب الأقصى، يدفع الطرفان إلى ذلك العديد من الأسباب، نذكر منها:

- الضغوط الأوروبية المتواصلة على السلطات الإسبانية التي كانت في مشاكل كبيرة، خاصة مع فرنسا وإنجلترا.

1- كمال جرفال: اتفاقية 1791م بين تونس وإسبانيا ظروف توقيعها، مضمونها ونتائجها، كراسات الأرشيف التونسي، ص 43.

* - بعد الانتقال السلالي في إسبانيا بعد وفاة الأمير شارل الثاني سنة 1700م، والذي أوصى لحفيد الملك الفرنسيي لويس الرابع عشر بالعرش، وقد أعلن ملك على إسبانيا وتوابعها يوم 2 نوفمبر 1700م باسم فليب الخامس (1700-1740م) حاولت إسبانيا اتباع نفس السياسة الخارجية الفرنسية بحكم الانتماء الواحد لأسرة البربون، والقاضية بمهادنة البلدان الإسلامية والحصول على امتيازات سياسية وأمنية ودينية بالتدرج منذ سنة 1535م، وتوقيع معاهدة الامتيازات التجارية، مع الدولة العلية العثمانية، وقد أتت هذه السياسة بنتائج إيجابية لفرنسا، على عكس البلدان الإسلامية، التي تعرضت سيادتها وخيراتها لخطر الفرنسيين، الذين أصبحوا الطامعين الأساسيين في ممتلكات العالم الإسلامي، ومناطق نفوذ لها، لتكون النهاية المؤلمة والحزينة للعالم الإسلامي؛ الذي تعرض للاحتلال ونهب الخيرات والتدمير على يد الفرنسيين، لذلك حول الإسبان إنهاء حالة العداء والحروب مع بلدان العالم الإسلامي عامة والمغرب الإسلامي خاصة، وهذا ما نلاحظه ابتداء من سنة 1767م، وتوقيع أول معاهدة مع المغرب الأقصى وانتهاء بالجزائر سنة 1791م.

2- أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى-الدولة العلوية-، ج8، تحقيق، جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب الأقصى1418هـ/1997م، ص ص 11، 40.

- المشاكل الداخلية الكبيرة التي كان يعيشها البلاط الإسباني بسبب الحروب المتواصلة داخل أوربا وخارجها، خاصة مع تزايد الأعباء المالية وتضرر الخزينة كثيرًا جراء ذلك، أدى بالحكام الإسبان إلى التفكير في إقامة علاقات سلمية مع حكام المغرب الأقصى.
- تراجع القدرات العسكرية لإسبانيا خاصة بعد تدمير أرمادتها على يد الإنجليز سنة 1588م.
- المشاكل الداخلية التي كان يعيشها المغرب الأقصى، نتيجة كثرة التمردات ورفْض السكان المحليين للاحتلال الإسباني، متهمين مولاي محمد بالتقاعس وعدم إعلان الجهاد ضدهم، بالرغم من محاولاته المتعددة لطردهم من الأماكن المحتلة، أدى بالسلطان المغربي إلى الإسراع في إقامة علاقات سلمية لعله يتحصل على ما يريد بدون المواجهات العسكرية، التي لم تحسم الصراع بين الطرفين.
- التحصينات الجيدة والفعالة التي كانت تتميز بها المناطق المحتلة وقوة الحاميات العسكرية الإسبانية، أدى بالساسة المغاربة إلى قناعة مفادها استحالة الحسم العسكري، هذا ما أدى بهم إلى تجريب الخيار السياسي الدبلوماسي في حل مشاكلهم مع السلطات الإسبانية.
- سياسة الانفتاح التي تبناها السلاطين المغاربة في ذلك الوقت مع جميع الدول؛ سواء الإسلامية مثل الدولة العلية[*] أو الأوروبية، بما في ذلك إسبانيا، كان له الأثر الفعال في إقامة علاقات سلمية.

---

[*] – تميزت العلاقات العثمانية المغربية بالهدوء وتبادل الرسائل والزيارات والسفرات مثل السفارة التي قام بها المكناسي في عهد سيدي محمد أبي عبد الله المنصور بالله إلى عاصمة الدولة العلية في سنة 1785م والتقائه بالسلطان عبد الحميد الأول (1725-1789م)، وقد تشكل الوفد من: ابن عثمان، مولاي عبد الله الملك بن إدريس ابن عم وصهر السلطان، أبي حفص عمر الوزير، وشيخ الركب أبي محمد عبد الكريم بن عم الزياني... للاستزادة ينظر،الزياني أبو القاسم: البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف، تحقيق، الزاوية رشيد، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب الأقصى، 1992م، ص 155، أحمد بن خالد الناصري: المصدر السابق، ص57.

في سنة 1201هـ/ 1787موجه السلطان عبد الحميد، سفارة إلى السلطان المغربي سيدي محمد بن عبد الله، مع إرسال بعض الهدايا–وفي عام 1203هـ/1789م أرسل السلطان المغربي سفارة إلى السلطان العثماني برئاسة محمد الزوين ومعه هدية فيها سرتين من الذهب وثلاثين من أولاد العبيد...للاستزادة ينظر: المكناسي (محمد بن عبد الوهاب: رحلة المكناسي: حققها محمد بو كبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع: أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة 2003، ص48.

وفي سنة 1143هـ/1731م بعث السلطان المغربي المولى عبد الله سفارة خاصة لتهنئة السلطان محمود الأول، بمناسبة جلوسه على العرش، وكانت هذه السفارة بقيادة أحمد البخاري، وفي سنة 1145هـ/1733م، بعث محمود الأول برسالة إلى السلطان المغربي المولى عبد الله يخبره أن المجاهدين بالجزائر انتكسوا وأنهم بحاجة إلى مساعدته، وفي سنة 1122هـ/22 جويلية 1709م، بعث مولاي إسماعيل إلى السلطان العثماني أحمد الثالث والملك الفرنسي لويس الرابع عشر يعرض عليهما المساعدة العسكرية في حربها ضد النمسا.

عبد الله الخياط الغاني برعديل، أمير ركب الحاج، اللذان قدما له رسالة تهنئة، وبعض الهدايا ورد السلطان العثماني على هذه السفارة بمجموعة من الهدايا احتوت على مدافع وأحجار كريمة ومجوهرات ذات الجودة العالية، وكانت هذه السفارة في أواخر شعبان 1178هـ/ أواخر مارس 1762م، وكانت هناك سفارات أخرى سنتي 1767، 1787م... للاستزادة ينظر، عبد الهادي التازي: المرجع السابق، ص ص 21، 40. محمد الضعيف الرباطي: تاريخ الضعيف، تحقيق وتقديم وتعليق، أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، المغرب الأقصى، 140هـ/1986م، ص ص 193، 195، 196.

- ظهور طبقة في البلاط الإسباني تدعوا إلى التفاهم مع البلدان المغاربية، خاصة المغرب الأقصى، ومغادرة المناطق المحتلة بسبب عدم جدوى الإنفاق على مراكز ليس لها أي عائدات اقتصادية أو فوائد عسكرية، خاصة مع ازدياد العداء من السكان المحليين وإعلان الجهاد، متهمين الحكام المغاربة بالتقاعس في تحرير البلاد من الاحتلال.
- تراجع حركة الجهاد البحري بسبب ظهور البحريتين الفرنسية والإنجليزية وازدياد نشاطهما ضد البحارة المغاربة، أدى بالسلاطين المغاربة إلى إقامة علاقات سلمية مع إسبانيا لفتح المجال لمواجهة هذه الأخطار المتنامية.

كحسن نية من السلطان المغربي مولاي محمد الذي كان شديد الاهتمام بالأسرى المسلمين عامة والمغاربة خاصة في إسبانيا كتب إلى الملك الإسباني شارل الثالث[1] رسالة يعبر فيها عن أسفه لما يعترض له الأسرى من ضيق وخنقٍ وازدراء وهذا ما نقله لنا الناصري بقوله: «...**إنه لا يسعنا في ديننا إهمال الأسارى وتركهم في قيد الأسر، ولا حجة في التغافل عنهم عمّ ولاه الله الأمر: وفيما نعلم أنه لا يسعكم ذلك في دينكم أيضًا**...».

تلقى الملك الإسباني شارل الثالث هذه المبادرة بكل فرح وسرور، لذلك أمر بإطلاق سراح جميع الأسرى المغاربة الذين في سجونه، ليرد عليه السلطان المغربي بإجراء أكثر إنسانية وصدقًا في إقامة السلام، حيث أمر بإطلاق الأسرى الأوروبيين والإسبان معًا، وأمام هذا الكرم الفياض أمر شارل الثالث بإرسال هدايا ثمينة إلى السلطان المغربي مولاي محمد.[2]

بعد هذه المبادرة الحسنة بين الطرفين، قرر السلطان المغربي إرسال سفارة برئاسة أبو العباس أحمد الغزال إلى مدريد[3]، وقد التقى هذا الأخير مع الملك الإسباني كارلوس الثالث في مصيفه بمدينة لاكرانجا «Lagranja»* شمال العاصمة مدريد، بتاريخ 10 ربيع الأول 1180هـ/16 أوت 1766م[4]، واتفق معه على جميع بنود المعاهدة التي نصت على:

- قيام صلح بين الطرفين المغربي والإسباني.

1- الناصري السلاوي: المصدر السابق، ج8، ص 23.

2- محمود علي عامر، محمد خير فارس: المرجع السابق، ص 113.

3- A.Gorguos : Ambassade Marocaine En Espagne Au 18 Siècle, R.Af, N°5, Alger, 1861.pp456.457.

* - لاكرانجا: مدينة إسبانية.

4- عبد الهادي التازي: المرجع السابق، ص 119.

- حرية الملاحة والتجارة.
- تعيين قنصل عام إسباني يقوم بشؤون الإمبراطورية ورعايا الملك الإسباني، ويعين أيضا نائب قنصل في الموانئ المغربية.
- للقنصل العام الإسباني حق التشريع المدني والتجاري والجزائي على الرعايا الإسبان.
- حصول الإسبان على حق صيد المرجان من أغادير إلى شمال المغرب.[1]

عاد بعدها الغزال إلى المغرب الأقصى رفقة الدبلوماسي الإسباني جورج خوان «J. Juan» الذي التقى مع السلطان المغربي وقدم له المخطوطات والكتب وأخبره بإطلاق سراح بعض الأسرى المسلمين، وتواصلت المفاوضات بين الغزال[2] وجورج خوان، ليتم توقيع الاتفاقية بتاريخ أول محرم 1181هـ/28 ماي 1767م[3]، ليعاد تجديد المعاهدة في 7 شعبان 1191 هـ/10 سبتمبر 1777م، وقد نصت على تحريم أسر الشيخ الذي تجاوز السبعين والمرأة مطلقا مهما كانت صغيرة أو كبيرة وعدم اعتراض المراكب التي تحمل المؤنة إلى قوم جائعين سواء مسلمين أو نصارى، ليقرر بعدها السلطان المغربي محمد بن عبد الله إرسال سفارة إلى ملك إسبانيا كارلوس الثالث، وكان على رأسها محمد بن عثمان* وابتدأت من شوال 1193 هـ/أكتوبر 1779م وانتهت في شهر محرم 1194 هـ/يناير 1780م بغرض تفقد الأسرى المسلمين، وقد أسفرت المفاوضات فيما بعد على إعادة إمضاء اتفاقية بتاريخ 26 جمادي الأولى 1194 هـ/30 ماي 1780 م[4] تم بموجبها منح الإسبان امتيازات تجارية على حساب الإنجليز الذين كانوا في حروب مع الإسبان أثناء حرب الاستقلال الأمريكية، كما منح للإسبان حق إقامة وامتلاك العقارات بالمغرب الأقصى مقابل إعطاء الحق سنويًا لتاجرين مغربيين في السفر إلى قادس ليبادلا الذهب والفضة.[5]

1- محمود علي عامر، محمد خير فارس: المرجع السابق، ص 114.

2- محمد الغزال: نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تحقيق، إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1984م.

3 - *Sadok Boubaker, Clara lham Alvarez Dopico : Empreinres Espagnoles Dans L'histoire Tunisinne, Bibliotheca Arabo-Romanica et Islamica, V6, Imprimé en Espagne, 2011.p176.*

* - قيد محمد بن عثمان هذه السفارة في كتاب قيم سماه الإكسير في فكاك الأسير الذي قدم فيه وصفًا دقيقًا عن سفريته وعموم الأماكن التي زارها في إسبانيا والأعمال التي قام بها هناك.

4- عبد الهادي التازي: المرجع السابق، ص 122.

5- محمود علي عامر، محمد خير فارس: المرجع السابق، ص 114.

7-المفاوضات الطرابلسية الإسبانية سنة 1198هـ/1784م.

فتحت هذه الاتفاقية الباب على مصرعيه أمام سلطات الدولة العلية العثمانية وإيالاتها المغاربية لتحذو حذوا سلطان المغرب الأقصى مولاي محمد الذي استطاع عقد معاهدات مع السلطات الإسبانية، بالرغم من بقاء بعض المدن المغربية محتلة، وشجع السلطات الإسبانية الحاكمة على مواصلة سياسة التقارب مع البلدان الإسلامية، خاصة في عهد شارل الثالث، عندما برز تيار داخل النخبة والساسة الإسبان يدعو صراحة إلى إنهاء عهد الخطاب التحريضي والعدائي ضد المسلمين، وفتح صفحة جديدة أساسها التفاهم والوصول إلى حلول سلمية عن طريق تجريب الخيار الدبلوماسي بدل الخيار العسكري، وظهر هذا التيار جليًا بتولي الوزير دي فلوريدا بلانكا* مسئولية الوزارة الأولى والخارجية، حيث كان يرى بحكم تكوينه القانوني ضرورة إعطاء أكبر قدر ممكن للدبلوماسية، لأنها الأفضل لحل الخلافات والحصول على منافع لبلاده[1]، وهذا ما عمل على تحقيقه من خلال إعادة إحياء الاتفاقيات مع المغرب الأقصى سنة 1780م.

لعلم الساسة والعسكريين الإسبان بصعوبة الوصول إلى تفاهمات مع حكام الإيالات المغاربية، حاول الكوت دي فلوريدا بلانكا التوجه مباشرة إلى الدولة العلية وإمضاء معاهدة مع حكامها؛ ومن ثم الضغط على حكام الإيالات المغاربية للموافقة على إمضاء معاهدات منفصلة مع السلطات الإسبانية، وهو ما تم فعلا سنة 1782م، حينما تم توقيع المعاهدة الإسبانية العثمانية، بالرغم من أن السلطات الإسبانية دفعت مبالغ ضخمة في مقابل إمضاء هذه المعاهدة قدرت بحوالي 3 ملايين دولار[2]، مقابل الحصول على امتيازات تجارية وقنصلية وإقامة السلم مع سلاطين الدولة العلية، الذين كان لزامًا عليهم الضغط على حكام إيالاتهم من أجل اتباع خطاهم في التعامل مع الحكام الإسبان.

* - الكونت دي فلوريدا بلانكا "cont de Florida Blanca" خوسي رودو ريقات مونينو، رجل قانون وسياسي إسباني محنك، ولد سنة 1728م في مرسيه، وتوفي في بإشبيلية في ديسمبر1808م، درس القانون، وبعد تخرجه امتهن المحاماة لمدة 18 سنة، ونتيجة لنشاطه وحذاقته وعلاقاته المتميزة عينه في شهر أفريل 1772م الملك الإسباني شارل الثالث وزيرًا بالنيابة لدى البلاط الإسباني، وبعد تقاعد الوزير الأول فزيمالدي في نوفمبر 1776م عين سكرتيرًا أولاً للدولة، وأضيفت له خطة مستشار الدولة في أكتوبر1777م، وبعد إنجازه العديد من الأعمال لصالح بلاده تم عزله من مهامه سنة 1792م، ونفي إلى قلعة بمبلونا، وعلى إثر احتلال نابليون بونابرت لإسبانيا دعي فلوريدا بلانكا لترأس اللجنة العليا للمقاومة فقبل هذه المهمة التي تولاها لعدة أشهر حتى وفاته سنة 1808م، حكم دي فلوريدا بلانكا وفق مبادئ الاستبداد المستنير، وأنجز العديد من الإصلاحات وتميزت سياسته الخارجية بالانفتاح على العالم الإسلامي والحوار مع حكامه قصد حل المشاكل العالقة بين الطرفين بالطرق السلمية... للاستزادة ينظر: كمال جرفال المرجع السابق، ص 44.

1- ميكال دي إيبالزا: "معاهدة السلم الأولى الإسبانية الليبية"، المجلة التاريخية المغربية، ع17و18، زغوان، تونس، 1980، ص38.

2- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 335.

نتيجة لتوقيع المعاهدة العثمانية الإسبانية، قررت السلطات الإسبانية الدخول في مفاوضات مباشرة مع حكام الإيالة الطرابلسية من أجل توقيع معاهدة معها[1]، لكن السؤال المطروح لماذا حكام الإيالة الطرابلسية أولا وليس حكام الإيالة الجزائرية أو الإيالة التونسية، ويرجع دلك إلى عدة أسباب، نذكر منها:

- العلاقات الحسنة بين سلاطين الدولة العلية وحكام الإيالة الطرابلسية لعبت دورها في هذا الاختيار.
- بُعْد الإيالة الطرابلسية عن الإمبراطورية الإسبانية كان له دورًا رئيسيًا في هذا الاختيار، لأن البحريتين لم تكونا في مواجهة مباشرة دائمًا.
- الاتفاقان اللذان وقعا سنتي 1683م و1691م مهّدا الأرضية لتقريب وجهات النظر.
- العلاقات الحسنة بين حكام المغرب الأقصى وطرابلس الغرب كان له دورًا بارزًا في اختيار طرابلس لتكون أول من تدخل في مفاوضات مباشرة السلطات الإسبانية.
- بقاء وهران والمرسى الكبير تحت الاحتلال الإسباني منع من إجراء مفاوضات مباشرة بين السلطات الجزائرية والإسبانية.
- العلاقات الحسنة التي تربط حكام الإيالة الجزائرية والإيالة التونسية في ذلك الوقت منع البلدين من الدخول في مفاوضات سلام مع السلطات الإسبانية ومدينتي وهران والمرسى الكبير مازالتا تحت الاحتلال.

بعد تهيئة الأجواء وتوفر الأسباب فسح المجال للدبلوماسية لتلعب دورها، حيث أرسلت السلطات الإسبانية بيترو وجيوفاني سولار «pietro soler»، «Giovanni soler» إلى طرابلس من أجل بدأ المفاوضات لتوقيع معاهدة مع حكام طرابلس، وفور وصولهما بدأ الأخوان بيترو وجيوفاني سولار الاتصالات مع علي باشا القرمانلي وأعوانه، إلا أن المفاوضات كانت شاقة وطويلة بسبب تمسك كل طرف بمطالبه، غير أن براعة وحسن تفاوض الأخوان منع قطع المفاوضات، خاصة وأنهما كانا يحملان تفويضًا مطلقًا من الملك الإسباني شارل الثالث بضرورة إبرام معاهدة مع حكام طرابلس الغرب.[2]

تركزت المفاوضات حول كيفية إحلال السلام بين الطرفين وتنظيم التجارة، إلاّ أن المطالب الإسبانية المبالغ فيها، خاصة ما تعلق بالامتيازات التجارية والحقوق القنصلية، جعل المفاوضات في كثير من المرات تتعطل،

[1]- *Sadok Boubaker, Clara lham Alvarez Dopico Sadok Boubaker, Clara lham Alvarez Dopico :op.cit, p169.*

2- رودولفو ميكاكي: المرجع السابق، ص 104.

إلاّ أن إصرار الطرفان حال دون قطعها[1]، خاصة من جانب الأخوان سولار اللذان أصرا دائمًا على مواصلة التشاور وفي نفس الوقت الحصول على أكبر قدر ممكن من المزايا والامتيازات، خاصة عندما لاحظ أن باشا طرابلس كان مصرًا على التوصل لاتفاق رجاء الحصول على أموال وهدايا ثمينة مقابل هذا الاتفاق.[2]

8-توقيع المعاهدة الطرابلسية الإسبانية وبنودها.

بعد مفاوضات شاقة وطويلة دامت من نوفمبر 1783م إلى غاية سبتمبر 1784م، توصل الطرفان الطرابلسي والإسباني إلى معاهدة أنهت حالة الصراع التي دامت حوالي قرنين وسبعين سنة، كانت وبالاً على الطرفين اللذين اهتديا أخيرًا إلى طريق الدبلوماسية التي أتت بنتائج ملموسة، تمثلت في إمضاء المعاهدة التي وقعها من الجانب الطرابلسي علي باشا القرمانلي ومعاونيه ومن الجانب الإسباني نيابة عن الملك كارلوس الثالث بيترو سولار وأخوه جوفاني سولار، بتاريخ 10شوال 1198هـ/ 10 سبتمبر 1784م.[3]

ساهمت العديد من الأطراف في التوصل إلى هذه المعاهدة، خاصة من جانب سلاطين الدولة العلية العثمانية الذين طلبوا من حكام إيالاتهم المغاربية المسارعة في توقيع معاهدات مماثلة مع ملوك الإمبراطورية الإسبانية[4]، بالإضافة إلى سلطات المملكة المغربية، مع أننا أثناء هذا البحث لم نجد ما يؤكد لنا مساهمتها المباشرة في هذه المباحثات بطريقة أو أخرى، إلاّ أنه توجد العديد من الإشارات التي تدل على أن سلطانها كان له دورًا فعالاً ومميزًا في إنجاح المفاوضات والتوصل لإمضاء المعاهدة، نذكر منها:

- لا يمكننا تصور أن يتدخل السلطان المغربي في تذليل الصعوبات بين حكام الدولة العلية وحكام الإمبراطورية الإسبانية ويساهم في إمضاء معاهدة بينهما سنة 1782م، ولا يتدخل في المفاوضات الإسبانية الطرابلسية.
- العلاقات الجيدة التي كانت تربط السلطان المغربي بالأسرة القرمانلية جعلته يتدخل من أجل التوصل لاتفاق مع السلطات الإسبانية؛ وهذا اعتمادًا على الزيارة التي قام بها ممثل علي القرمانلي سي أحمد خوجة إلى مراكش والتقائه بالسلطان المغربي سنة 1783م[5]، لذلك نتساءل لماذا بعث علي القرمانلي مبعوثة في هذا التوقيت بالذات؟ خاصة ونحن نعلم أن العلاقات المغربية الإسبانية كانت جيدة من جهة

2 - *Sadok Boubaker, Clara Ilham Alvarez Dopico Sadok Boubaker, Clara Ilham Alvarez Dopico :op.cit, p169.*

3- ميكال دي إيبالزا: المرجع السابق، ص33.

4- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 539.

5- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 333.

والعلاقات العثمانية المغربية كانت أيضًا جيدة، لذلك نرجح أن السلطان المغربي طلب من الطرابلسيين الموافقة على وساطته في التوصل لاتفاق مع الإسبان، ويزداد الأمر وضوحًا أنه مباشرة بعد توقيع الاتفاق في سبتمبر وصلت المؤن من الذرة بصورة مفاجئة من السلطان المغربي.[1]

- الاستراتيجية المغربية المبنية على تذليل الصعاب بين العالم الإسلامي وإسبانيا منذ سنة 1767م عندما تم توقيع المعاهدة المغربية الإسبانية ثم المساهمة في تبادل الأسرى بين الجزائر وإسبانيا سنة 1768م[2]، بالرغم من العداء الشديد بين الطرفين، ومواصلة لهذه الاستراتيجية يمكننا القول أن الدور المغربي واضح في إمضاء هذه المعاهدة.
- بعد توقيع المعاهدة العثمانية الإسبانية طلبت السلطات العثمانية من السلطان المغربي التدخل لحمل حكام الجزائر على توقيع معاهدة مع السلطات الإسبانية فهل يعقل أنها تغافلت عن طرابلس الغرب وتونس؟ وهذا ما يمكننا نفيه مطلقًا، لأن سلاطين الدولة العلية كانوا يريدون أن تكون جميع إيالاتهم في سلام مع إسبانيا، ولذلك تكون السلطات المغربية قد تلقت الضوء الأخضر للتدخل لدى حكام طرابلس من أجل إمضاء هذه المعاهدة.
- من الواضح أن السلطات الإسبانية تدخلت لدى السلطان المغربي من أجل المساهمة في التوصل لاتفاق مع حكام طرابلس الغرب، خاصة وأنها كانت تعلم أن العلاقات وثيقة جدًا بين الطرفين الطرابلسي والمغربي، لذلك استغلت الوضع لصالحها وطلبت من السلطان المغربي الضغط على الطرابلسيين لإمضاء المعاهدة.
- بالمقارنة بين بنود المعاهدة المغربية الإسبانية والمعاهدة الإسبانية الطرابلسية نلاحظ التشابه الكبير جدًا بين بنود المعاهدتين، خاصة في فيما تعلق بالامتيازات الاقتصادية والقنصلية للإسبان وكأن المفاوض كان واحدًا، بمعنى آخر أن اللمسة المغربية كانت واضحة في هذه المعاهدة.

عمومًا فإن سلاطين الدولة العلية العثمانية والمملكة المغربية ساهموا بطريقة فعالة في التوصل لهذه المعاهدة والعمل فيما بعد على تقريب وجهات النظر بين حكام الإمبراطورية الإسبانية وحكام الإيالتين الجزائرية والتونسية من أجل انهاء حالة الصراع وإمضاء معاهدات سلام بينهم.

1- ريتشارد توللي: المصدر السابق، ص 163.

[2] -ميكال دي إيبالزا: المرجع السابق، 33.

9-بنود المعاهدة[1].

9-1-**الجانب السياسي**. البند 01، 02، 38

- يتم الصلح بين الإيالة الطرابلسية بقيادة علي باشا القرمانلي حاكم الإيالة الطرابلسية والإمبراطور الإسباني كارلوس الثالث وجميع الأراضي التابعة له.
- يبقى هذا الصلح ساري المفعول بين حكام الإيالة الطرابلسية والإمبراطورية الإسبانية إلى أجل غير محدود.
- يتم هذا الصلح وفق الاتفاق المبرم بين سلطان الدولة العلية العثمانية عبد الحميد الأول والإمبراطور الإسباني كارلوس الثالث.
- يعم السلام بين جميع الرعايا الإسبان والطرابلسيين.
- لا تقطع العلاقات بمجرد حدوث خرق أو مخالفة لبنود الاتفاق، بل يجب التريث ومعالجة المشاكل بالطرق السلمية.
- تم توقيع هذه الاتفاقية من طرف الإمبراطور الإسباني كارلوس الثالث ومن طرف السلطات الطرابلسية علي القرمانلي حاكم الإيالة وحسن باي القرمانلي، وآغا الإنكشارية الحاج حسونة والكاتب مصطفى بن خوجة وشيخ البلاد الطرابلسية محمد بن أحمد عبد الرحمن وأمين خزينة العسكر محمد بن أحمد، وأمين الخزينة محمد بن الحاج رمضان وكاتب المرسى أحمد بن مصطفى.
- إذا حدث أي خلاف بين الطرفين يجب استبعاد الحلول العسكرية وإعطاء الدبلوماسية الوقت الكافي لحل الخلافات العالقة بين الطرفين والسعي دائمًا لإبقاء حالة السلم القائمة.
- لا يمكن بأي حال من الأحوال ومهما كانت الأسباب المبادرة بالحرب بعد أن وضعت أوزارها
- البحارة الطرابلسيين إذا التقوا مع البحارة الإسبان لا يعترضون سبيلهم ويتركونهم يذهبون إلى أي وجهة يريدون.
- البحارة الإسبان إذا التقوا مع البحارة الطرابلسيين لا يعترضون سبيلهم أو يهاجمونهم، بل يساعدونهم بكل ما يحتاجون إليه.

1- رودلفو مكاكي: المرجع السابق، ص ص 20-29؛

Sadok Boubaker, Clara lham Alvarez Dopico Sadok Boubaker, Clara lham Alvarez Dopico :op.cit, p p 160-170.

- إذا حدث وأن التقى البحارة الطرابلسيين مع السفن التجارية الإسبانية في عرض البحر لا يلحقون بها الأذى، إذا لم يرتكب ربابنتها أي مخالفة.
- إذا الت قت السفن الطرابلسية مع السفن الإسبانية يصعد إثنان فقط من البحارة الطرابلسيين إلى السفينة لمراقبة جوازات السفر، ولا يحق لهما التعرض لركاب السفينة بأي أذى.
- إذا صادف البحارة الإسبان السفن الطرابلسية في عرض البحر يصعد إثنان من البحارة الإسبان إليها لمراقبة جوازات السفر والتأكد من تبعيتها لحاكم طرابلس، ثم يخلون سبيلها ولا يعترضون لركابها بأي أذى أو المساس بممتلكاتهم مهما كانت الأسباب، إلاّ إذا كانت هناك مخالفات تعارض هذه الاتفاقية.
- يجوز للبحارة الإسبان الإمساك بالبحارة الطرابلسيين وسفنهم؛ إذا لم يكن عندهم إذن بالإبحار من طرف الباشا.
- يحق للبحارة الإسبان اعتراض سبيل البحارة الطرابلسيين إذا لم يكونوا يحوزون على جواز سفر مؤشر من طرف القنصل الإسباني بطرابلس.
- يحق للإسبان الإمساك بالطرابلسيين الهاربين من العدالة الإسبانية.
- لا يقوم البحارة الطرابلسيين بالهجوم على السواحل الإسبانية وتوابعها.
- في حالة هجوم البحارة الطرابلسيين على السواحل الإسبانية فللإسبان الحق في أسرهم مثل الهارب من العدالة.
- لا يمكن للبحارة الطرابلسيين مهاجمة أعدائهم على السواحل الإسبانية إلاّ بعد إخبار الإسبان بهذه المهمة.*
- في حالة اعتراض البحارة الطرابلسيين للسفن الإسبانية وأخذ أي حاجيات من ركابها تعاد إليهم فورا وفق هذه المعاهدة.
- في حالة التعدي أو اعتراض سبيل السفن الإسبانية من طرف الطرابلسيين يعاقب البحار المسئول عن هذه الأفعال من طرف الباشا وتسترجع جميع الأشياء التي أُخذت إلى الإسبان بضمان من الباشا شخصيا.

* – لا يمكننا تصور أن تسمح السلطات الإسبانية للبحارة الطرابلسيين بمهاجمة السفن الأوروبية مهما كانت على سواحلها، خاصة ونحن نعلم أن السلطات الإسبانية كانت حاملة لواء الدفاع عن المسحيين، والمنفذ الأساسي لتعليمات الباباوات في روما، التي كانت تدعوا لتجنب الخلافات الأوروبية الأوروبية لمواجهة المسلمين سواء العثمانيين أو المغاربة.

- إذا حدث وأن اعترض البحارة الإسبان سبيل السفن الطرابلسية أو أخذوا الأشياء الموجودة على سفنهم، يعاقب البحار المسئول عن هذه الأفعال وتسترجع جميع الأشياء التي أخذت من الطرابلسيين بضمان من السلطات العليا الإسبانية.
- لا يمكن للبحارة الطرابلسيين أسر الركاب على السفن الإسبانية مهما كانت جنسياتهم، ولا يمكن للبحارة الإسبان أسر الركاب الموجودين على السفن الطرابلسية أو اعتراض سبيلهم مهما كانت جنسياتهم.
- السلع والبضائع الموجودة على السفن الطرابلسية أو الإسبانية لا يمكن لبحارة الطرفين الاستيلاء عليها مهما كانت الظروف والأسباب.
- توفير الأمن للسفن الطرابلسية والإسبانية من كلا الطرفين والمحافظة على أرواح الركاب والسلع الموجودة عليها.
- الأسير الطرابلسي بإسبانيا يكون حرًا ولا يعترض سبيله أحد إذا التزم بقوانين إسبانيا.
- الأسير الإسباني بطرابلس يكون حرًا إذا التزم بقوانين البلاد.
- إذا حدث وأن جاء أحد الإسبان الهاربين من العدالة إلى طرابلس يحق للباشا الإمساك به لمدة يوم وإن تبين له أنه أضر بالإسبان يسلمه للقنصل الإسباني بطرابلس.
- يمكن للسفن الإسبانية والطرابلسية مساعدة بعضها البعض.
- لا يمكن للبحارة الطرابلسيين طلب المساعدة من البحارة الإسبان بالغصب والإكراه، بل يكون ذلك عن طيب خاطر بالوسائل السلمية، وبرغبة ورضى من الطرف الإسباني.
- إذا حدث وأن قام البحارة الطرابلسيين باحتجاز مراكب إسبانية يجب ألا تتعدى مدة الاحتجاز ثمانية أيام، ثم يتدخل الباشا بعد التشاور مع القنصل الإسباني بطرابلس ويخلي سبيل البحارة والسفن الإسبانية.
- إذا أراد الباشا الإمساك بإحدى السفن التي تعمل بالمجدافين لمصلحة معينة يجب إعلام القنصل الإسباني بذلك.
- لا يمكن للبحارة الطرابلسيين الاستيلاء على السفن التي على متنها جدافين.
- إذا التقت السفن الحربية الإسبانية بالسفن الحربية الطرابلسية تقدمان التحية لبعضهما البعض، وذلك بإطلاق أعيرة نارية تعبيرًا عن الاحترام المتبادل.

- في حالة قيام السفن الإسبانية الحربية التابعة للإمبراطور الإسباني بزيارة للبلاد الطرابلسية وعند وصولها إلى أسوار المدينة وقلعتها تطلق قذائف مدفعية تعبيرًا عن وصولهم وإعلام للقنصل بذلك، وهذا يكون وفق ما تقوم به البحريات الأوروبية وغيرها من البحريات الأخرى.
- للرعايا الإسبان نفس الحقوق والواجبات التي يتمتع بها المسحيين الآخرين، الذين لحكام بلدانهم معاهدات مع حكام الإيالة الطرابلسية.
- إذا لم يوجد في المعاهدة ما ينص على بعض حقوق الرعايا الإسبان، فهي نفس الحقوق الموجودة في المعاهدات الأوروبية الموقعة مع الإيالة الطرابلسية.*
- إذا استطاع البحارة الجزائريين أو التونسيين السيطرة على السفن الإسبانية بالمياه الإقليمية التابعة لسلطة باشا الإيالة الطرابلسية يسعى الباشا جاهدًا عند سلطات الإيالتين من أجل إعادة السفن لأصحابها الإسبان.
- إذا أُسر البحارة الإسبان على الشواطئ الطرابلسية من طرف البحارة الجزائريين أو التونسيين يسارع باشا طرابلس في الكتابة لسلطات بلدانهم من أجل إخبارهم بأعمال بحارتهم، وفي نفس الوقت يسارع لإطلاق سراح الأسرى الإسبان.
- إذا حدث وإن التقت السفن الإسبانية الموجودة بالشواطئ الطرابلسية مع سفن عدوة لهما تلتزم السلطات الطرابلسية بحبس هذه السفن لمدة يومين كاملين، حتى تسافر السفن الإسبانية وتتباعد عن أنظار أعداءها وبذلك تضمن السلطات الطرابلسية سلامة وأمن هذه السفن الإسبانية.
- تلتزم السلطات الطرابلسية بحفظ أمن وسلامة السفن الإسبانية التي تكون راسية بموانئها، حتى مغادرتها السواحل الطرابلسية.
- تتعهد سلطات الإيالة الطرابلسية بحماية الرعايا الإسبان وسفنهم من التعدي عليهم على أراضيها من أي طرف كان، ويتعهد الباشا شخصيًا بتوفير هذه الحماية.
- تتعهد السلطات الإسبانية بحماية جميع الرعايا الطرابلسيين وسفنهم على أراضيها في جميع الظروف ومهما كانت الأسباب.

* – بمعنى آخر أن جميع المعاهدات تكون حامية لحقوق الرعايا الأوروبيين مهما كانت جنسياتهم، بالرغم من الخلافات السياسية الموجودة بين المسيحين في ذلك الوقت.

- يجب التفريق بين سفن البحرية الطرابلسية وسفن البحرية الجزائرية والتونسية، وهو ما كانت تسعى إليه كل الدول الأجنبية، لأنه في حالة ما استطاع البحارة الجزائريين والتونسيين السيطرة على سفينة إسبانية يجب إعادتها بتدخل الجانب الطرابلسي.
- إذا تعرضت أي سفينة إسبانية لعطب فعلى السلطات الطرابلسية تقديم جميع التسهيلات لتلك السفينة وإصلاحها، وتوفير جميع المستلزمات لها دون المساس بها أو بطاقمها.

9-2-**الجانب التجاري: البنود** 12، 16، 18، 19، 20، 21، 22، 25، 27

- للسفن التجارية الطرابلسية الحق في الذهاب لجميع المراسي الإسبانية للإبحار فيها.
- يمكن للسفن التجارية الإسبانية الذهاب إلى جميع الموانئ الطرابلسية للتجارة بدون قيد أو شرط، بشرط احترام بنود هذه المعاهدة.
- يمكن للسفن التجارية الإسبانية الجنوح إلى الأراضي الطرابلسية للتزود بما تحتاج إليه سواء المؤن أو أي شيء آخر.
- يستطيع أهالي الإيالة الطرابلسية تقديم المساعدة للسفن الإسبانية الراسية على موانئ بلادهم، ولا يعترضون لها بسوء.
- إذا حدث وأن رست إحدى السفن الإسبانية على السواحل الطرابلسية بسبب العطب أو الظروف الجوية يمكنها تفريغ بضاعتها ثم إعادة تحميلها بدون أن تدفع أي ضريبة على ذلك.
- لا يمكن للسفن الإسبانية التي ترسوا بموانئ الإيالة الطرابلسية وكانت مضطرة لهذا الرسو أن تدفع أي ضريبة، لأنها في الأصل كانت لها وجهة أخرى، وبالتالي غير ملزمة بدفع الرسوم للطرابلسيين.
- لا تدفع السفن الإسبانية رسوم الدخول للموانئ الطرابلسية إلا عشرون ريال، في مقابل وصول مكتوبة من قبل رئيس المرسى.
- يرسل رئيس المرسى مركب طرابلسي لإخبار ربابنة السفن الإسبانية بحقهم في دخول المرسى بسلام وبدون أي مشاكل.
- تدفع السفن التجارية الإسبانية رسوم جمركية في مقابل الرسو بالموانئ الطرابلسية للإبحار أو التزود بما تحتاجه أو لإصلاح الأعطاب.
- للتجار الإسبان الحق في شحن أي سلعة يريدونها مهما كان نوعها بشرط دفع 3% من الحقوق الجمركية للسلطات الطرابلسية.

- يمكن للتجار الطرابلسيين الذين يريدون الذهاب لإسبانيا وشحن السلع منها أو الاتجار فيها دفع الحقوق الجمركية المتفق عليها بين السلطات الإسبانية وبقية الدول الموقعة معها على معاهدات سلم وتجارة، ولا فرق بين تجار هذه الدول والتجار الطرابلسيين في دفع رسوم الجمركة.
- لا يدفع الإسبان الحقوق الجمركية للطرابلسيين، إذا قدم تجارها بالبارود والرصاص وآلات الحرب إلى طرابلس للاتجار بها.
- إذا قدم التجار الإسبان بسلع مهما كان نوعها، ولم تباع على الأراضي الطرابلسية يعاد شحنها والاتجاه بها إلى أماكن أخرى من العالم بدون دفع أي رسوم جمركية وبدون قيد أو شرط.
- يستطيع التجار الطرابلسيين الذين لا تباع سلعهم على الأراضي الإسبانية شحنها من جديد والاتجاه بها إلى أي مكان من العالم بدون اعتراض من السلطات الإسبانية وبدون دفع أي رسوم جمركية مهما كان نوعها.
- لا يستطيع أي أحد كان إكراه البحارة الإسبان على تأجير مراكبهم للطرابلسيين أو فرض ذلك بالقوة.
- لا يمكن للبحارة الطرابلسيين إرغام البحارة الإسبان على السفر على متن سفنهم بالقوة والإكراه إلا بطيب خاطر ورضى منهم مهما كانت الأسباب.
- لا يحق لباشا طرابلس الزيادة في الرسوم الجمركية على الإسبان إلا ما أُتفق عليه سابقًا تحت أي عذر كان.
- إذا شحنت السفن الإسبانية أي سلع من الموانئ الطرابلسية لا تدفع أي رسوم جمركية جديدة.
- إذا شحنت السفن الإسبانية بضاعة دُفعت رسومها الجمركية سابقًا لإيعاد دفع أي مقابل جديد، بل تشحن البضاعة وتأخذ وجهتها إلى أي مكان من العالم.
- تعامل جميع السفن الإسبانية التي تصل إلى موانئ الطرابلسية باحترام ولا تعرض إلى مضايقات، وتوفر لها جميع المستلزمات الضرورية التي تحتاجها.
- لا أحد يجبر التجار الإسبان على شحن سلع لا يرغبون في شحنها على سفنهم أو إرغامهم على التوجه إلى وجهة لا يريدون الذهاب إليها.

9-3-**الحقوق القنصلية: البنود** 11 ،17، 23، 28، 29، 30، 31، 32، 33، 35، 36، 37.

- للقنصل الإسباني بطرابلس الحق في تسلم الإسبان الهاربين من عدالة بلادهم.

- إذا هرب أحد الرعايا الإسبان من عدالة بلاده إلى الإيالة الطرابلسية فللباشا الحق في الإمساك به، وإن وجد أنه يستحق العقاب يسلم إلى القنصل الإسباني.
- للقنصل الإسباني بالإيالة الطرابلسية الحق في استقبال البحارة الإسبان في منزله له الحق في كامل الاحترام والتقدير والمعاملة الحسنة من طرف السلطات الطرابلسية.
- إذا قدم البحارة الإسبان إلى الإيالة الطرابلسية يذهبون مباشرة إلى مكان إقامة القنصل الإسباني.
- للقنصل الإسباني بالإيالة الطرابلسية الحق في مقاضاة رعاياه بدون التدخل من أحد.
- لا يمكن إرغام القنصل الإسباني على دفع الدين الذي بذمة أحد رعاياه عند أحد الطرابلسيين، ما لم يلتزم القنصل كتابيا بذلك.
- إذا هرب أي إسباني من العدالة الطرابلسية لا يمكن إلزام القنصل الإسباني بإحضاره من أجل محاكمته.
- إذا حدثت معاملات تجارية أو مالية بين الإسبان والطرابلسيين بغير إذن القنصل الإسباني فهو غير مطالب بتاتًا بضمان هذه المبادلات التجارية والمالية بين الطرفين.
- يمكن للقنصل الإسباني إذا أعطى ضمانا كتابيا أو أُستشير في معاملات الرعايا الإسبان التجارية والمالية مع الطرابلسيين أن يكون ضامنًا لحقوق الطرابلسيين إذا أُعتدي عليها من طرف رعاياه.
- للقنصل الإسباني الحق في الإشراف على جميع ممتلكات أي متوفي من رعاياه في الإيالة الطرابلسية، ويتصرف فيها بما يخدم ورثة المتوفي والمصالح العليا لبلاده.
- في حالة وفاة أحد رعايا الإيالة الطرابلسية بإسبانيا فإن أمواله وحقوقه يحافظ عليها ولا يمكن التفريط فيها بأي سبب من الأسباب، وتعاد إلى ورثته.
- في حالة وقوع خلاف بين الرعايا الطرابلسيين والإسبان يجب التحاكم عند الباشا بحضور القنصل الإسباني.
- في حالة حدوث أي خلاف بين رعايا البلدين في المناطق الأخرى من البلاد الطرابلسية تتم المحاكمة أمام ولاة البلاد المعينين من طرف الباشا.
- إذا اعتدى إسباني على أحد الرعايا الطرابلسيين وأُمسك به فلا تجري محاكمته إلاّ بحضور قنصل بلاده والسيد الباشا حاكم الإيالة الطرابلسية.
- للملك الإسباني الحق في تعيين قنصلاً لبلاده بطرابلس الغرب من أجل تمثيل بلاده والسهر على رعاية شؤون الإسبان بطرابلس.

- للقنصل الإسباني في طرابلس الحق في محاكمة رعاياه وفق القوانين الإسبانية إذا كان الخصام وقع بين رعايا الملك الإسباني.
- يتمتع القنصل الإسباني بجميع الامتيازات التي يتمتع بها القناصل المعتمدين بالإيالة الطرابلسية.
- للقنصل الإسباني بالإيالة الطرابلسية الحق في رفع علم بلاده في مقر إقامته وعلى سفن التي يركب فيها.
- للقنصل الإسباني الحق في تعيين ترجمان وسمسار، ويكون ذلك بإذن حاكم الإيالة الطرابلسية.
- للقنصل الإسباني الحق في زيارة السفن الإسبانية الراسية بالموانئ الطرابلسية بدون أن يعترض سبيله أحد.
- الأثاث واللوازم التي يأتي بها القنصل الإسباني إلى طرابلس لتأثيث منزله بها لا تُدفع عليها ضرائب.
- للقنصل الإسباني بالإيالة الطرابلسية الحق في تعيين نواب له في درنة وبنغازي بنفس الشروط الموجودة في هذه المعاهدة.
- إذا أراد الملك الإسباني تعيين نوابا للقنصل الإسباني في الأراضي الطرابلسية الأخرى يحق له ذلك.
- إذا قدمت السفن الحربية الإسبانية التابعة للملك الإسباني يجب على القنصل الإسباني إعلام الباشا بذلك.
- إذا قدمت السفن الحربية الملكية الإسبانية تقوم المدفعية الطرابلسية بتحيتها بإطلاق القذائف من المدافع، مثلما تفعلوا مع بقية الدول الأخرى التي لها علاقات سلمية وتجارية مع طرابلس.
- للقنصل الإسباني الحق في إعلام الباشا بقدوم المراكب إلى بلاده من أجل اتخاذ الإجراءات اللازمة للحفاظ على الأسرى الموجودين بالإيالة، لأنه إذا هرب أحدهم إلى المراكب الإسبانية يصبح حرًا ولا يحق أسره من جديد.
- في حالة الإخلال ببنود المعاهدة ونقضها لأي سبب من الأسباب، تُمنح للقنصل الإسباني وجميع رعايا دولته مدة ستة أشهر لمغادرة البلاد الطرابلسية مع جميع مستلزماتهم بدون الاعتراض لهم من أحد.
- للقنصل الإسباني الحق في مساعدة رعايا الملك الإسباني الموجودين بالإيالة الطرابلسية بكل ما يحتاجونه بشرط عدم الإخلال ببنود المعاهدة.

9-4-**الجانب الديني: البنود** 33، 34.

- للقنصل الإسباني الحق في ممارسة شعائر ديانته المسيحية في مكان إقامته بدون تضييق من أحد.

- إذا أراد أحد المسيحين الإسبان أن يصبح مسلمًا، يستطيع القنصل أن يحبسه في مكان إقامته مدة ثلاثة أيام، وبعد انقضاء هذه المدة يحق له مسائلته فإن وجده مقتنعًا بالدين الإسلامي يحق له أن يصبح مسلمًا ولا يُكره على البقاء في الدين المسيحي تحت أي طائل كان وبدون إكراه من أحد مهما كان.
- لكل الإسبان الحق في ممارسة شعائر دينهم المسيحي في بيوتهم، بدون أن يعترض عليهم أحد.

بتاريخ 4 شوال 1198هـ/1784م تم توقيع المعاهدة الطرابلسية الإسبانية من طرف علي باشا القرمانلي حاكم إيالة طرابلس الغرب و:

- باي الوطن: حسن باي.
- كاهية القلعة: مصطفى بن خوجة.
- أغا الديوان: محمد بن أحمد.
- أغا العسكر: الحاج حسونة.
- رئيس المرسى: أحمد بن مصطفى.
- خزندار: محمد بن الحاج رمضان.
- شيخ البلاد: محمد بن أحمد عبد الرحمان.

أما من الجانب الإسباني فقد وقع هذه المعاهدة نيابة عن الملك الإسباني كارلوس الثالث دون بيترو سولار وأخيه جون خوان سولار.

من خلال بنود هذه المعاهدة يمكننا القول أن حكام الإمبراطورية الإسبانية استطاعوا الحصول على امتيازات اقتصادية وقنصلية ضخمة لم يستطيعوا الحصول عليها بالقوة العسكرية منذ أن تم احتلال طرابلس الغرب سنة916هـ/1510م وإلى غاية إمضاء هذه الاتفاقية، التي كانت بمثابة اللبنة الأساسية التي مهدت الطريق لإقامة علاقات دبلوماسية لأول مرة مع سلطات الإيالة الطرابلسية ومن بعدها سلطات الإيالتين التونسية والجزائرية على التوالي*، عير أن سلطات الإيالة الطرابلسية لم تحصل إلاّ على بعض المزايا لا يمكن مقارنتها بتاتًا بما تحصلت عليه السلطات الإسبانية، ويمكننا إرجاع ذلك إلى العديد من الأسباب التي نذكر منها:

- الحنكة والدهاء اللذين تميزا بهما المفاوضين الإسبان، الذين كانوا عازمين على التوصل إلى اتفاق بأقل التكاليف والحصول على أكبر المزايا.

* – يشير يحي بوعزيز رحمه الله تعالى أن حكام الإيالة الجزائرية كانوا السابقين في إمضاء معاهدة مع سلطات الإمبراطورية الإسبانية لكن باطلاعنا على المعاهدات المبرمة بين الطرفين وجدنا أن سلطات الإيالة التونسية كانت السباقة في إمضاء معاهدة مع السلطات الإسبانية أولا ثم جاء الدور فيما بعد على حكام الإيالة الجزائرية، اللذين كانوا آخر من أمضى معاهدة مع السلطات الإسبانية في سبتمبر 1791م.

- ضعف سلطات الإيالة الطرابلسية أمام خصومها الأوروبيين، خاصة حكام إنجلترا وفرنسا، خاصة حكام هذه الأخيرة الذين كانوا دائمي التعدي على الإيالة الطرابلسية، هذا ما أدى بالباشا الطرابلسي إلى المسارعة في عقد اتفاق لمواجهتهم والحد من سطوتهم داخل إيالته.
- قلة خبرة المفاوضين الطرابلسيين أدى إلى إعطاء أكبر قدر ممكن من الامتيازات إلى خصومهم الإسبان، في مقابل الحصول على القليل من المزايا، ولم يأت بتاتًا على ذكر المقابل المالي لهذه المعاهدة.
- ضغط سلاطين الدولة العلية على حكام الإيالة الطرابلسية من أجل توقيع اتفاق مع السلطات الإسبانية وهذا ما نلاحظه في البند الثاني من المعاهدة.
- ضعف البحرية الطرابلسية في هذه الفترة أمام خصومها الأوروبيين كان دافعًا مهمًا في توقيع الاتفاق، خاصة وأنه لم يكن باستطاعة علي باشا مواجهة جميع هذه الدول في آن واحد، هذا ما جعل الرياس يباركون ويساهمون في إنجاز هذه المعاهدة، من أجل تحييد الإسبان وحلفائهم المالطيين والصقليين في مواجهاتهم المقبلة مع الفرنسيين خاصة.
- الخسائر البشرية والمادية الهائلة التي تكبدها سكان الإيالة الطرابلسية جراء الصراع المتواصل منذ بداية القرن السادس عشر وإلى غاية القرن الثامن عشر، أدى بحكام الإيالة للتفكير في إقامة السلام مع العديد من الدول الأوروبية في مقابل إعطائهم الكثير من الامتيازات داخل بلادهم وتجنيبها المزيد من الخراب والدمار.
- انكماش الاقتصاد الطرابلسي وتراجعه بشكل رهيب نتيجة لتراجع مداخيل الجهاد البحري؛ بسبب ضعف البحرية، هذا ما أدى بحكام الإيالة للتفكير في حلول أخرى، ومنها إقامة معاهدات سلم وتجارة مع الدول الأوروبية ومنها إسبانيا في مقابل الحصول على امتيازات مالية أو تنشيط التجارة الخارجية، حتى يتم تعويض خسائر الجهاد البحري.
- الرغبة الشخصية للباشا الطرابلسي علي القرمانلي في إنجاز شخصي يخلد اسمه، ويعود بالسلم والأمن لرعيته، كان سببا في الإسراع إلى الموافقة على هذه المعاهدة، بالرغم من عدم تحقيق الكثير من المطالب الطرابلسية في مقابل ما تحصلت عليه السلطات الإسبانية
- الضغوط الداخلية التي مورست على علي القرمانلي من طرف معاونيه، خاصة قادة البحرية الذين تكبدوا الكثير من الخسائر خلال هذه المرحلة على يد البحرية المالطية والإسبانية كان سببا في تراجع مداخيلهم

وفقدانهم خيرة قادتهم وبحارتهم، ما أدى بهم إلى الضغط على القيادة من أجل الموافقة على المطالب الإسبانية.

10-نتائج المعاهدة على الطرفين.

10-1-على الإيالة الطرابلسية.

- بعد إمضاء هذه المعاهدة أصبحت الإيالة الطرابلسية في مأمن من الهجمات المالطية الإسبانية وتوابعها كصقلية ونابولي، وبدأت الطمأنينة تعود للطرابلسيين حكامًا ومحكومين.
- تحصلت سلطات الإيالة الطرابلسية على تعويضات مالية ضخمة قدرتها بعض المصادر بحوالي 60.000 جنيه أو ما يعادل قيمته 3 ملايين دولار[1]، بالإضافة إلى الكثير من المجوهرات الغالية جدًا في ذلك الوقت، وبهذا الخصوص قال ريتشارد توللي: «...**رأيت من بين المجوهرات والحلي التي أرسلت معهم اليوم طوقين، أحدهما أزرق اللون مرصع بالبرلانتي، هدية للأميرة الصغيرة، تعادل قيمته مائتين من الجنيهات، والحلقة الثانية الماسة واحدة للباشا تساوي قيمتها خمسمائة جنيه، يقول الإسبان بأنهم دفعوا ثمنا غاليًا لعقد الصلح بلغ ثلاثة ملايين من الدولارات الفضية، حوالي 60.000 جنيه...**».[2]
- رفض بعض قادة البحرية هذه المعاهدة بحجة تحديد مجال نشاطهم، والحد من مداخيلهم التي كانت تأتي من الجهاد البحري؛ خاصة وأن مجال تحركهم أصبح محدودًا جدًا مع ظهور البحريتين الفرنسية والإنجليزية، زاد الأمر خطورة هذه المعاهدة، إلاّ أن علي باشا القرمانلي رفض مطلبهم وقرر المضي قدمًا في تنفيذ بنود هذه المعاهدة.
- رُفعت الأعلام من كل الأنواع والألوان، وأطلقت المدافع القذائف ابتهاجاً وفرحًا بهذه المعاهدة، التي كانت بمثابة عيدًا عند الطرابلسيين وقادتهم، خاصة وأنها كانت مكملة للمعاهدة التي أمضاها السلطان العثماني مع السلطات الإسبانية.[3]
- إنهاء حالة العداء والصراع بين حكام الإيالة الطرابلسية وحكام الإمبراطورية الإسبانية ومملكة نابولي، بالإضافة إلى سلاطين الدولة العلية العثمانية.[4]

1- ميكال دي إيبالزا: المرجع السابق، ص60.
2- ريتشارد توللي: المصدر السابق، ص 201.
3- رودولفو ميكاكي: المرجع السابق، ص 104.
4- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 335.

- وصول مساعدات من الذرة للإيالة الطرابلسية هدية من السلطان المغربي، كمكافئة للطرابلسيين على قبول وساطته في إبرام هذه المعاهدة، وفي ذلك يقول توللي: «...**وأعقبت هذه الحادثة المفرحة حادثة أخرى في الأيام الأخيرة الماضية حيث وصلت المؤن من الذرة بصورة غير منتظرة من إمبراطور مراكش...**».[1]
- تحصلت السلطات الطرابلسية على عائدات مالية نتيجة لرسو السفن الإسبانية والنابليونية وبعض الدويلات الإيطالية ومالطا قدرت بـ 27 قرشًا عن كل سفينة ترسو بميناء طرابلس.[2]
- تعيين أول سفير طرابلسي بمدريد، وقد كان أول من تولى هذه المهمة هو أحمد خوجة[3] ثم تولى من بعده هذه المهمة سيدي عمورة.*
- تحصلت السلطات الطرابلسية على حق تأمين سفنها التجارية والحربية في عرض البحر المتوسط وعلى السواحل الإسبانية، لأن هذه المعاهدة كَفَلت عدم اعتراض السفن الحربية الإسبانية وتوابعها للسفن الطرابلسية ورعايا حاكم طرابلس الغرب والتعهد بالحفاظ على أرواحهم وممتلكات.
- عندما أصاب الإيالة الطرابلسية وباء الطاعون وتدهورت الحالة الاقتصادية في البلاد، أرسلت السلطات الإسبانية أسطولاً بحريًا في أواخر سبتمبر سنة 1785م محملاً بالهدايا والمؤن تقدر قيمتها بحوالي 30.000 زكيني.
- حاولت السفن الطرابلسية تعويض خسائرها جراء هذه المعاهدة بمهاجمة السفن الحربية في المحيط الأطلسي، خاصة السفن البرتغالية في طريق مضيق جبل طارق[5] الذي أصبح تحت سيطرت السلطات الإسبانية منذ سنة 1780م.**

1- ريتشارد توللي: المصدر السابق، ص 163.

2- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 363.

3- ميكال دي إيبالزا: المرجع السابق، ص52.

* -أشار رودولفو ميكاكي أن هذا السفير اعتنق المسيحية وبقي في إسبانيا لذلك قرر علي باشا استبداله بسيدي عمورة ...للاستزادة ينظر، رودولفو ميكاكي: المرجع السابق، ص 104.

5- محمد الهادي عبد الله أبو عجيلة: النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الأسرة القرمانلية 1711-1835م وأثره على علاقاتها بالدول الأجنبية، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، 1997م، ص 368.

** – تنطلق السفن الطرابلسية من السواحل المغربية، بدعم مباشر من السلطات المغربية ومساعدة الأسطول البحري المغربي، نتيجة للعلاقات الجيدة التي كانت تربط البلدين في ذلك الوقت، وقد تكون من بين ما اتفق عليه الطرفان نتيجة للوساطة المغربية في إقامة الصلح بين السلطات الإسبانية وحكام الإيالة الطرابلسية.

- بددت هذه المعاهدة حالة الخوف والتوتر بين حكام البلدين، وفسحت المجال للعلاقات السلمية والتعاون، وربطت بينهما روابط مبنية على الاحترام المتبادل والمصلحة المشتركة، مما مكن من تقريب وجهات النظر بينهما خلال تلك الفترة.*

10-2-**على إسبانيا**.

- كلفت هذه المعاهدة السلطات الإسبانية ثلاثة ملايين دولار فضة، بالإضافة إلى العديد من الحلي والمجوهرات دُفعت لعلي باشا القرمانلي وعائلته.
- الاعتراف الرسمي من السلطات الطرابلسية بسلمية العلاقات بينها وبين السلطات الإسبانية وسلطات مملكة نابولي وبعض حكام الدويلات الإيطالية الأخرى وفرسان مالطا، هذا ما جعل السفن الحربية والتجارية لهذه الدول في مأمن من الهجمات المتتالية للبحرية الطرابلسية.
- فتح أول قنصلية إسبانية في طرابلس الغرب خلال العصر الحديث وبذلك تم الاعتراف الرسمي بفتح صفحة جديدة من العلاقات السياسية بدل الصراع العسكري بين الطرفين الإسباني والطرابلسي.[1]
- تعيين أول قنصل إسباني بطرابلس الغرب للوقوف على سير مصالح الإمبراطورية الإسبانية وتوابعها ورعاية مصالح الملك الإسباني.
- تحصلت السلطات الإسبانية على حق عدم إلزام ربان السفن بتسليم المقود والأشرعة؛ الذي ظل ساري المفعول لدى الإيالات المغاربية مدة طويلة من الزمن مع الدول الأوروبية، وهو نوع من الضمان لدفع رسوم الميناء والجمركة أو الحيلولة دون هروب أو الإفلات الأسرى المسيحيين من البلاد الطرابلسية.[2]
- أُطلق جميع الأسرى الإسبان والتابعين لمملكة نابولي بمناسبة إمضاء المعاهدة الإسبانية الطرابلسية، تعبيرا من باشا طرابلس على حسن نواياه تجاه الملك الإسباني ورعاياه.
- استقبلت السلطات الإسبانية ورعاياها خبر هذه المعاهدة بفرح وسرور عظيمين؛ لأنها أزاحت من أذهانهم حالات الرعب والخوف اللذان كانا يسيطران على نفوسهم نتيجة مخاطر ضياع حمولاتهم وخطر الأسر في البحر.[3]

---

*- تنطلق السفن الطرابلسية من السواحل المغربية، بدعم مباشر من السلطات المغربية ومساعدة الأسطول البحري المغربي، نتيجة للعلاقات الجيدة التي كانت تربط البلدين في ذلك الوقت، وقد تكون من بين ما اتفق عليه الطرفان نتيجة للوساطة المغربية في إقامة الصلح بين السلطات الإسبانية وحكام الإيالة الطرابلسية.

1- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 335.

2- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 363.

3- ريتشارد توللي: المصدر السابق، ص 166.

— استطاعت السلطات الإسبانية بفضل براعة مفاوضيها بيترو وجوفاني سولار من الحصول على امتيازات تجارية وأمنية وقنصلية ضخمة وحتى امتيازات دينية، لم تكن لتحصل عليها بالوسائل العسكرية التي جربتها طيلة قرنين وسبعين سنة من الحروب المتواصلة ضد الإيالة الطرابلسية، سواء بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة عن طريق فرسان مالطا وصقلية تارة وعن طريق مملكة نابولي تارة أخرى.

— نجاح رجال الدبلوماسية فيما عجز عنه القادة العسكريين في تحقيق الأهداف الإسبانية التي ظلت مؤجلة منذ بداية القرن السادس عشر إلى غاية إمضاء هذه المعاهدة، التي حققت للإمبراطورية الإسبانية الكثير من المطالب التي قام عليها مشروعها لاحتلال بلاد المغرب عامة وطرابلس الغرب خاصة.

— قدمت السلطات الإسبانية التهاني "لخوسي سولار" بمناسبة نجاح أبنائه في التوصل لعقد معاهدة مع سلطات الإيالة الطرابلسية.

— حصول عائلة سولار على جوائز وهدايا قيمة نظير هذا الإنجاز التاريخي الذي رفع من قيمة هذه العائلة، خاصة بيترو وجوفاني سولار، وزاد من شَعبيتهما سواء داخل البلاط الإسباني الحاكم أو عموم رعايا الملك الإسباني كارلوس الثالث.[1]

1- محمد الهادي عبد الله أبو عجيلة: المرجع السابق، ص 368.

الفصل الثالث

العلاقات بين الإيالة التونسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (12هـ/18م)

أولا: العلاقات التونسية الإسبانية ما بين 1112 1161هـ/1700-1748م.

المبحث الأول: الأوضاع الداخلية والخارجية للإيالة التونسية بداية القرن الثامن عشر الميلادي.

1-الأوضاع الداخلية.

2-الأوضاع الخارجية.

المبحث الثاني: معاهدة السلم التونسية الإسبانية سنة1161هـ/ 1748م.

1-أهم بنود المعاهدة.

2-قراءة في بنود المعاهدة ونتائجها.

ثانيا: العلاقات التونسية الإسبانية ما بين 1161 1205هـ/ 1748 1791م.

المبحث الأول: المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1205ه/1791م.

1-إرهاصات المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1205ه/1791م.

2-المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1205ه/1791م.

3-أهم بنود المعاهدة حسب ما ورد في نصها الأصلي

4-نتائج المعاهدة على الطرفين.

أولا: العلاقات التونسية الإسبانية ما بين 1112-1161هـ/1700-1748م.

المبحث الأول: الأوضاع الداخلية والخارجية للإيالة التونسية بداية القرن الثامن عشر الميلادي.

1-الأوضاع الداخلية.

عاشت الإيالة التونسية في بداية القرن الثامن عشر الميلادي حالة من الفوضى؛ نتيجة انهيار حكم الأسرة المرادية، وتولي إبراهيم باشا مقاليد الحكم لمدة ثلاثة سنوات كثرت فيها المشاكل الداخلية والخارجية، خاصة مع إيالتي طرابلس الغرب والجزائر، ونتيجة لذلك عُين حسين بن علي تركي* لمساعدته من أجل التصدي للأخطار التي كانت تهدد الإيالة، هذا الأخير ما إن جاءته أول فرصة حتى خلع بيعة سيده السابق وأعلن نفسه بايًا على الإيالة التونسية.[1]

مرت الإيالة التونسية بظروف صعبة داخلية وخارجية، بعد انهزام إبراهيم الشريف أمام الجيش الجزائري ثم أسره، فعمت موجة من القلاقل والهرج والمرج داخل البلاد، لم يكن لها من مخرج إلاّ تولى شخصية قوية تستطيع إنقاذ العباد والبلاد من هذه الوضعية، فوقع الاختيار على حسين بن علي تركي ليكون رجل المرحلة[2]، والمعول عليه

* – حسين بن علي تركي أصله من جزيرة كريت باليونان، ولد سنة 1086هـ/ 1675م، عرف بذكائه وحزمه، عرفت البلاد في عهده ازدهارًا اقتصاديًا منقطع النظير، حيث ازدهرت تربية الماشية وتصدير القمح والجلود والشمع والإسفنج والتمر، وأصبحت الإيالة التونسية مقصد القوافل التجارية خاصة من المغرب الأقصى وفزان، وخفف من الضرائب، وحارب التبذير والإسراف، حتى غدا الترف ممنوعًا في وقته، حتى قال عنه حسين خوجة في ذيل كتاب بشائر أهل الإيمان ما يلي: «... ولما استقر على كرسي المملكة التونسية وتصرف في قطر بلاد إفريقية. وسار في الناس سيرة مرضية، فما اطلع على برّ ومعروف إلاّ وأخذ في اتصاله، ولا علم بمنكر إلاّ وبالغ في دفعه وانفصاله، وقطع شوكة أهل البغي والفساد وقمع طائفة الخلاف والعناد، وانقاد له العاصي وأطاعه الداني و القاصي ورفق بالفقراء والرعية وساس البلاد بأحوال مرضيّة، واهتم بأجراء الشريعة المحمدية، وأحي رسوم السنة السنية وأمنت الطرقات، وكثرت في أيامه الخيرات، فعمرت الرباع والرياض وبنى القصور بأمنه المستفاض، ما لم يكن في زمن غيره من المتقدمين، ولا على عهد سلاطين بني حفص الأقدمين مالا يعد ولا يحصى ولا يحد، ولا يستقصى...» وقال عنه محمود مقديش: «...فلم يجدوا أصلح من المقام الأرفع والصدر الهمام الأمنع ذو السياسة اللطيفة والمكارم الحنيفة سيدي حسين باي بن علي –رحمه الله تعالى– ورحم أسلافه وبارك في عترته وأخْلاَفِه فجددوا بيعته وأبقوه على ما هو عليه من ولايته لما يعلمون من شفقته، وعطفه وحسن عهده، وسلامة صدره من المكر والحقد والغدر، ولما جبله الله عليه من اللين والرفق، وحسن التدبير والسياسة، ففرح الخلق عامة من أهل تونس وأوطانها، وعجمها وعربها وبلدانها بتوليه، وسُقِطَ في يد أهل الفساد ما كانوا يتمنون، وازداد أهل الخير فرحا به لما كانوا منه يرتقبون...» للاستزادة ينظر: حسين خوجة: المصدر السابق، ص 19؛ محمود مقديش: المصدر السابق، ص ص 155، 156.

قال عنه الباجي المسعودي: «...كان والده علي تركي وبه يلقب، قدم من جزيرة كندية إلى الحاضرة أوائل دولة بني مراد فولوه قيادة أزمة الأعراب وكان من أهل الكفاءة و النجدة ولبث في إيالتهم إلى أن توفي سنة 1103م ثلاثة ومائة وألف، ونشأ ابنه المذكور في خدمة الأمراء المراديين وتقلد الولايات الجليلة وتسنم الخطط الرفيعة كخطة خزنه دار وكاهية دار الخلافة وولاية الأعراض و الجريد وآغا الصبايحية الترك وغير ذلك من المناصب النبيهة إلى أن آتاه الله ملكها وأتته منقادة إليه خلافتها...» الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 115.

1 – حسين خوجة: المصدر السابق، ص16.

2– محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص 82.

في مواجهة الجزائريين، لذلك قام الباي الجديد وبأمر من الإنكشارية بتعيين محمد خوجة الأصغر لمساعدته في مهامه الجديدة، وقد عرف عنه حزمه وقوة شخصيته، وتعاونا الاثنان تعاونًا وثيقًا لمواجهة الأخطار المحدقة بالبلاد[1]، إلاّ أن هذا لا يعني بتاتًا عدم وجود منافسة حول الحكم بينهما، ولكن ذكاء وفطنة حسين بن علي جعلاه يتخلص من خصمه ويهمشه بكل سهولة، فاسحًا المجال لنفسه وذريته من بعده لحكم الإيالة التونسية، وكان له الفضل في تنظيم شؤون البلاد، وجعلها وراثية يحكمها من أبناءه الأكبر فالأكبر، وهكذا قطع الطريق عن كل طامع في الحكم[2]، وهكذا مهد لحكم الأسرة الحسينية الذي ابتدأ من سنة 1117هـ/1705م واستمر إلى غاية سنة 1235هـ/1837م.

بدأ حسين بن علي تركي أعماله الداخلية بترتيب أمور الحكم، حيث جعل حكم الإيالة وراثيًا في بنيه، ولم يبق أمامه حينذاك إلاّ نيل التزكية من السلطان العثماني وذلك ما حصل عليه في جوان 1706م، وهكذا استطاع أن يجمع كل الصلاحيات بين يديه وفي أسرته، مزيحا بذلك كبار ضباط الإنكشارية، حيث أصبح دور الجيش حفظ النظام وتوفير الأمن، وقد تخلى مرغمًا أمام قوة الباي الجديد عن كل مهامه السياسية التي كان يقوم بها سابقًا، أما الداي- محمد خوجة الأصغر- والديوان فقد تم إخضاعهم وانحصر دورهم في بعض الوظائف البسيطة التي ليس لها أي تأثير على شؤون الحكم.[3]

حاول الباي حسين بن علي إقامة نهضة حقيقية في جميع المجالات؛ الاقتصادية والاجتماعية والعلمية، وظهر ذلك من خلال توفر السلع وانخفاض ثمنها وكثرة التجار واستقامتهم، وعُمِّرت الفيافي والقفار فضلا عن المدن والقرى والمداشر، وأمّنت الطرق وأصبح الناس في أمن وأمان، وخضع أهل البغي والفساد من الأعراب واللصوص والمفسدين[4]؛ بسبب الحزم في تطبيق القوانين وتوفر الأمن، هذا ما انعكس إيجابا على الجانبين الاجتماعي والثقافي حيث أعاد بناء مدينة القيروان التي أصابها الخراب والدمار وشيَّد بها المدارس والزوايا، وأنشأ مدرسة الحسينية قرب جامع الزيتونة سنة 1126هـ/1714م، وكذلك جامعه الشهير؛ الذي أقيمت به أول صلاة ظهر يوم الأحد 14 شوال 1129هـ/1717م، ليواصل سلسلة إنجازاته، وذلك ببناء المدارس بنفطة وصفاقس والقيروان، وأعاد بناء مدرسة سوسة وبنى مسجد جبل المنارة، وحفر الآبار والعيون لجلب الماء وأحي الكثير مما أصابه العطل مثل: عيون الأقرش والجبيبينية وأحمر عينه والفسقية قرب زعفرانة، وعيون أبي سلسلة بطريق قفصه

1- محمود مقديش: المصدر السابق، ص 155.
2- حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 125.
3- محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص 82.
4- محمود مقديش: المصدر السابق، ص 158.

وبئر البويتة على طريق سوسة وبئر خنقة الحمامات وبئر النفضية التي أنشأها محمد باي بن مراد وبني قنطرة أبي حميدة وقنطرة الفحص وقنطرة القلة قرب القيروان[1]، وكان يصرف على هذه الآبار والعيون من خاصة ماله، وعمل لها آلات لجلب الماء إلى المدارس والجوامع وللناس أيضًا، وعين لها رجالاً للخدمة وأوقف عليها أوقافًا وعين لهم مصاريف ليدوم النفع للفقراء والمساكين، ومن أعماله أيضًا تخصيص مرتبات للمعلمين والمشايخ القائمين على المدارس وكذلك توفير كل ما يحتاجه طلبة العلم من خدمات وحتى إعطائهم بعض المرتبات لمساعدتهم على اقتناء ما يحتاجونه.[2]

لإنجاح مشروعه اتبع سياسة لم يسبقه إليها غيره؛ وقد تمثلت في الاستعانة برجال لم يتقلدوا مناصب سامية من قبل؛ وتتوفر فيهم شروط الإخلاص، الاجتهاد والولاء للباي والإيالة وخدمة مصالح الرعية، فأخرجهم بذلك من حياة الظل والخمول إلى حياة النور والاجتهاد والعمل الدؤوب، خاصة من الكراغلة، ورجال العلم، الفقهاء والأعيان من أهل الثروة والوجاهة، أما في البوادي فقد اعتمد على قبائل المخزن مثل قبيلة دريد، وعمل على استعمال رؤساءها كمستشارين شخصيين لهم مكانة خاصة عنده[3]، وهذا كله لمساعدته في حكم البلاد وإخضاع الرعية لسلطة الدولة.*

حاول الباي حسين بن علي تركي تحقيق طفرة نوعية داخل الإيالة التونسية أساسها الازدهار الاقتصادي والتحصيل العلمي والاستقرار الاجتماعي، وذلك بتشجيع التجار والفلاحين وكل من يخدم في هذا المجال وتدعيم العلم وطلبته وتوفير كل ما يحتاجونه من خدمات، بالإضافة إلى توفير الأمن والحكم بالعدل بين الناس وإنصافهم والتقرب إليهم، هذا ما جعل العلاقة وثيقة بينه وبين رعيته، مما انعكس إيجابا على البلاد والعباد، فكان عهده بداية لنهضة بالإيالة التونسية.

حدثت العديد من الفتن الداخلية كان لها تأثيرًا واضحًا على المشروع التنموي لحسين بن علي، خاصة الفتنة التي وقعت بينه وبين ابن أخيه علي بن محمد، هذا الأخير الذي تبناه عمه وقلده العديد من المناصب ثم عهد إليه بولاية العهد، لأنه لم يرزق بأولاد حين ذاك[4]، إلاّ أن الأمور تغيرت فجأة حينما رزق الباي بثلاثة أبناء

1- الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص ص 120، 121.

2- حسين خوجة: المصدر السابق، ص ص 22، 23.

3- محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص 83.

* - لمعرفة شكل الحكومة ومهامها في عهد الباي حسيني بن علي وكيفية سيرها والمهام المنوطة بها ينظر:

Henry (Dunant): La Régence De tunis,Societe Tunisienne De Diffusion 5, Avenue De Carthage, tunis,1975, pp 75-**82**.

4- الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 121.

محمد الرشيد، علي ومحمود من امرأة أعجمية من جنوة[1]، فتغيرت بذلك الأحوال وانتقلت ولاية العهد لابنه الأكبر محمد الرشيد هذا ما أدخل الغيرة والحسد في نفس علي بن محمد وأدخل البلاد في محنة عظيمة بسبب خروج ابن الأخ عن عمه وإعلان خلع طاعته والثورة عليه، والفرار إلى الصحراء ثم إلى الجزائر التي استعان بحكامها على عمه، وقد دارت معارك عنيفة بين الطرفين بالقرب من العاصمة تونس سنة 1148هـ/1735م كانت فيها الدائرة على حسين باي الذي فرّ إلى القيروان، أين خرج إليه ابن أخيه ودار بينهما قتالاً متواصلاً أفضى في نهايته عن قتل علي باشا لعمه، سنة 1153هـ/1740م، لتتواصل الفتن الداخلية، بين الباي علي باشا وأبناء عمه الذين عملوا كل ما في وسعهم من أجل استرداد ملك أبيهم الضائع، إلى أن جاءتهم الفرصة، حين خرج يونس باي عن طاعة أبيه وأعلن تمرده سنة 1165هـ/1752م، إلاّ أنه انهزم وفرّ إلى قسنطينة حيث استقر هناك حتى توفي[2]، وفي أثناء هذه الفتنة الجديدة كان الكثير من الأعيان والعلماء يكاتبون محمد الرشيد وأخيه علي باي سرًا للعودة إلى الإيالة وحكمها، فاستعان الأخوان بجيش من الجزائر وزحفا به إلى تونس، وكان وصولها إلى مدينة الكاف سنة 1169هـ/1756م، ومنها توجها إلى العاصمة تونس، التي دارت بها معارك دامية أسفرت عن مقتل علي باي وتفرق أنصاره، وبذلك دانت الإيالة التونسية لمحمد الرشيد الذي حكم من 1756إلى 1759م ليتولى من بعده أخوه علي باشا الثاني من سنة 1759-1782م.[3]

2-الأوضاع الخارجية.

2-1-العلاقات التونسية الجزائرية.

كانت فاتحة الخلافات التونسية الجزائرية خلال القرن الثامن عشر الميلادي في فترة ولاية إبراهيم الشريف؛ هذا الأخير الذي استطاع قتل مراد باي الثالث وتولى حكم البلاد، وزادت سطوته بعد أن جاءه التقليد من السلطات العثمانية التي منحته لقب، باي، داي، وباشا وأبقت منصب الداي الذي كان شكليًا فقط، لذلك ومباشرة بعد نهاية حملته على طرابلس الغرب بدأ استعداداته لمحاربة الجزائريين، وبادر أولا إلى تحصين مدينة الكاف؛ حيثُ وضع بها حامية تتكون من 700 جندي بقيادة أخيه محمد، ليتجه بعدها على رأس جيش لقتال الجزائريين[4]، الذين قاموا بحركة سريعة ووصلوا إلى مدينة الكاف أين التقى الجيشان هناك، ودارت بينهما معارك طاحنة، كانت الغلبة فيها للجيش الجزائري، خاصة بعد انحياز قبيلة أولاد سعيد للجزائريين، بالإضافة إلى قبائل

1- شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 382.

2- محمود مقديش: المصدر السابق، ص ص 159، 166.

3- حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ص 128، 129.

4- عطية محمد: المرجع السابق، ص ص 93، 94.

أخرى لا تقل قوة وبأسًا عن هذه القبيلة كقبيلة دريد، زاد الأمر خطورة تمرد وزيره محمد بن مصطفى المعروف بـابن فطيمة مع جزء من الجيش النظامي، وكذلك حسين بن علي آغا الصبائحية بسبب رفض عرض الصلح الذي بعث به الداي مصطفى معه[1]، إلاّ أن إبراهيم الشريف واصل المقاومة إلى أن تم أسره.[2]

انتدب السكان التونسيون من يمثلهم وأرسلوا إلى الداي مصطفى يعرضون عليه تعويضات مالية قدرت بحوالي 150 ألف قرش مقابل عدوله عن مواصلة الحرب، إلاّ أنه رفض ذلك واتجه صوب مدينة تونس ضاربا بذلك عرض الحائط مطالب التونسيين[3]، ومباشرة بعد وصوله إلى المدينة ضرب عليها حصارا دام حوالي أربعين يومًا، صمد خلاله التونسيون بالرغم من الخسائر التي لحقت بهم، وبذلك عجز الداي مصطفى عن اقتحام المدينة، خاصة بعد أن خسر من جيشه حوالي 700 رجلا، ليضطر إلى رفع الحصار والعودة سريعًا إلى الجزائر[4] مخلفًا وراءه العديد من وسائله الحربية، خاصة بعد أن وصل إلى مسامعه أن الفرنسيين هاجموا الجزائر وقتلوا حوالي 800 شخص.[5]

بعد عودة الداي مصطفى إلى الجزائر دبر له الإنكشارية خديعة وقاموا بقتله ثم عينوا حسن خوجة دايًا جديدًا بدله، هذا الأخير قام بإطلاق سراح مصطفى الشريف الذي تعهد بإرسال مائة وخمسين بياسترا؛ إلاّ أنه مباشرة بعد وصوله إلى العاصمة تونس تلقاه جنود حسين بن علي وقاموا بقتله بالقرب من مرسى غار الملح[6]، وبذلك دانت البلاد لحسين بن علي في صيف 20 ربيع الأول 1117هـ/15 جويلية 1705م*، وتبخرت آمال الجزائريين في الحصول على الأموال، ليتم عزل حسين خوجة بعد هذا الفشل الذريع، ليتولى بعده الداي محمد بكداش (1707–1710م) ثم بعده علي باشا شاوش (1711–1718م)، الذي بادر بإلغاء منصب الباشا، لأنه يمثل رقابة السلاطين العثمانيين على حكام الجزائر، منذ بداية حكم الأغوات سنة 1659م.[7]

حدثت فتنة داخل البيت الحسيني الحاكم بعد اشتداد الخلاف بين حسين بن علي وابن أخيه علي الذي أُزيح من ولاية العهد بعد أن رُزق الباشا بأولاد؛ محمد الرشيد، علي، ومحمود من امرأة جنوية، ولما بلغ علي بن

1- الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 114.

2- محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص 81.

3 -*De Grammont: op.cit.p104.*

4- الوزير السراج: المصدر السابق، ص .245

5-عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 454.

6- أحمد توفيق المدني: محمد بن عثمان...، المرجع السابق، ص 66.

* – تعتبر فترة حكم إبراهيم الشريف فترة انتقالية في حكم البلاد التونسية، لأنها جاءت بين حكم الأسرة المرادية وبداية حكم الأسر الحسينية، التي استهلت الحكم بحسين بن علي.

7- ابن حمادوش عبد الرزاق الجزائري: رحلة ابن حمادوش لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تحقيق، تعليق، أبو القاسم سعد الله، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص 120.

محمد الثلاثين عامًا منحه الباي لقب الباشا، وولى ابنه الأكبر محمد الرشيد المحلة، مما جعل علي بن محمد يعلن الثورة ضد عمه[1]، وقد دامت هذه الثورة خمس سنوات متتالية أنهكت البلاد والعباد وكانت فتنة عظيمة، هذا ما جعل السلطات الجزائرية تتدخل ممثلة بباي قسنطينة لصالح الباشا، هذا ما أرغم علي بن محمد يفر إلى الجنوب التونسي ومن ثم إلى الجزائر طالبًا النجدة، إلا أن السلطات الجزائرية قررت سجنه هناك بإيعاز من عمه لمدة خمس سنوات في مقابل دفع مقدار من الأموال قدر بعشرة آلاف سكة ذهبية كل سنة، إلاّ أن الباشا التونسي أخلّ بتعهداته هذه فيما بعد، ورفض دفع المبلغ المتفق عليه، وقام بالتنصل من التزاماته السابقة، معلنا بذلك عن عداءه لداي الجزائر[2]، هذا الأخير الذي ثارت ثائرته نتيجة هذا الفعل وقام بإطلاق سراح علي بن محمد انتقامًا من حسين بن علي.[3]

قرر الداي مواصلة الحرب ضد التونسيين وتأييد علي بن محمد مقابل أموال تعهد بدفعها في حالة انتصاره على عمه وحكم الإيالة التونسية، وتوجه الجيش الجزائري نحو مدينة تونس وتمركز حول ضفاف وادي مجردة، عندها قرر حسين بن علي الخروج لملاقاته ووقف زحفه، وكان ذلك في شهر ربيع الأول 1148هـ/ أوت 1735م، وقد انضمت إليه قبيلة دريد وأولاد سعيد ومحلة ابنه محمد[4]، فيما كان الجيش الجزائري بقيادة الداي إبراهيم خوجة الخزناجي، وحسين باي قسنطينة وعلي بن محمد التونسي[5]، وقد التقى الجيشان في مكان يسمى سمنحة أين دارت معارك طاحنة بين الطرفين[6] كانت الغلبة فيها للجيش الجزائري، الذي استطاع إلحاق هزيمة نكراء بالجيش التونسي، الذي فر قائده حسين بن علي وأتباعه إلى القيروان، فيما اتجه علي بن محمد إلى العاصمة تونس مؤيدًا من الجزائريين ونصب نفسه حاكمًا للبلاد وتابعًا لداي الجزائر.[7]

دارت العديد من المعارك بين حسين باشا وابن أخيه وتواصلت لعدة سنوات إلى أن حلت سنة 1153هـ/1740م، وفيها قرر علي بن محمد الخروج من أجل ضرب حصار على مدينة القيروان، حينها قرر حسين بن علي الخروج لقتاله فكانت نهايته جنوب القيروان على يد ابن أخيه، لتنقل جثته فيما بعدها إلى مدينة تونس أين دفن هناك.[8]

1- حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 126.
2- أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص33.
3- ابن المفتي حسين: المصدر السابق، ص 72.
4- الصغير بن يوسف: المصدر السابق، مج2، ص ص 86، 89.
5- ابن المفتي حسين: المصدر السابق، ص 72.
6- الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 122.
7- عطية محمد: المرجع السابق، ص 101.
8- الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 122.

كان أبناء حسين داي قد نجوا من القتل وفرّوا إلى الجزائر طالبين الثأر، وبحلول سنة 1159هـ/1746م خرجوا رفقة جيش أمدهم به داي الجزائر حتى وصلوا إلى مدينة الكاف، أين عسكروا هناك في انتظار المدد من باي قسنطينة، هذا الأخير الذي تثاقل في إمدادهم بالذخيرة والمؤن لحصار مدينة الكاف، وبعد طول انتظار قرر الإخوة؛ محمد الرشيد، محمود وعلي باي رفع الحصار والرجوع إلى الجزائر[1] وقد أصيبوا بخيبة أمل لا توصف جراء فشلهم في الثأر لوالدهم.

عمومًا تميزت العلاقات التونسية الجزائرية بالتوتر والصراع نتيجة تدخل حكام الجزائر في الشؤون الداخلية للإيالة التونسية تدفعهم في ذلك عدة أسباب نذكر منها:

- الرغبة في الحصول على الأموال؛ خاصة بعد تراجع مداخيل الجهاد البحري، وزيادة النفقات على الجيش وتوالي الجفاف ونقص المحاصيل الزراعية، مما أثر على مداخيل الخزينة الجزائرية.
- استنجاد العديد من الخصوم التونسيين بحكام الجزائر، الذين كانت مصالحهم تتطلب التدخل لصالح أحدهم.
- محاولة حكام الجزائر بسط نفوذهم على حكام الإيالة التونسية بسبب القرب الجغرافي والبعد الاستراتيجي للإيالة التونسية في مواجهة الأخطار الخارجية.
- لعبت القبائل الساكنة بالقرب من حدود البلدين دورا هاما في تذكية الصراع بين حكام الإيالتين.

2-2-العلاقات التونسية مع بعض الدول الأوروبية.

تميزت العلاقات التونسية الأوروبية منذ بداية القرن الثامن عشر الميلادي بالتوتر تارة وبالهدوء تارة أخرى، ويرجع ذلك لعدة أسباب نذكر منها:

- المحاولات الأوروبية المتكررة للحد من نشاط الجهاد البحري التونسي.
- التدخل المباشر للقناصل المعتمدين بالإيالة التونسية، خاصة الفرنسيين منهم، الذين حاولوا دائما إثارة المشاكل والسعي للتأثير على قرارات الحكام، وعندما يحاول أي واحد من هؤلاء الحكام الحد من تدخلهم تثور ثائرة السلطات الفرنسية وتوجه الحملات العسكرية للإيالة التونسية، وعادة ما تنتهي هذه الحملات بمفهمات ومعاهدات ترضي نزوات الفرنسيين.
- الصراع الأوروبي الأوروبي على الإيالات المغاربية من أجل الحصول على امتيازات تجارية تخدم مصالحهم، فكانت الإيالة التونسية إحدى الحلقات في هذا الصراع، خاصة بين إنجلترا وفرنسا.

1- حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ص 126، 128.

- المشاكل الداخلية المتواصلة؛ نتيجة الصراع حول الحكم والتمردات والثورات التي ما تكاد تتوقف واحدة حتى تندلع أخرى، بسبب زيادة الضرائب والتسلط والقهر من الحكام.
- مشاركة البحرية التونسية كلما تطلب ذلك إلى جانب الأسطول العثماني في مواجهة الأخطار الأوروبية المتنامية، بسبب الأطماع في اقتسام ممتلكات الدولة العلية العثمانية، التي عرفت تراجعًا رهيبًا خلال القرن الثامن عشر الميلادي.
- امتناع بعض قادة الدول الأوروبية عن دفع الإتاوات والهدايا الناتجة عن إمضاء المعاهدات للحكام التونسيين، كان عادة ما يسبب القطيعة وإنهاء العلاقات معهم، خاصة الفرنسيين منهم.
- المشاكل مع الجيران، الجزائريين والطرابلسيين، كان دائمًا يشجع الأوروبيون على استغلال الخلافات المغاربية فيما بينها، من أجل الحصول على أكبر قدر ممكن من الامتيازات داخل الإيالة التونسية، أما إذا هدأت هذه الخلافات فعادة ما تتوقف التدخلات الأوروبية، مخافة من تكاثف جهود حكام الإيالات المغاربية.
- كره بعض الباشوات التونسيين للفرنسيين خاصة والأوربيين عامة، كان سببًا في توتر العلاقات مع حكام الدول الأوروبية، الذين كانوا يسعون للحد من نفوذ وسطوة كل باي تونسي قوي يريد الوقوف في وجه مشاريعهم التوسعية داخل الإيالة التونسية.

حاول الحكام التونسيون في بداية القرن الثامن عشر الميلادي إقامة علاقات ودية مع العديد من الدول الأوروبية بسبب ما يعود عليهم من مكاسب مادية نظير هذه العلاقات، بالإضافة إلى المحافظة على العلاقات السلمية معها من أجل التفرغ لحل المشاكل الداخلية المتزايدة نتيجة لتهميش الرعية والضغط عليها بزيادة الضرائب والأعباء المالية.

خلال فترة حكم علي باشا وقّعت السلطات التونسية العديد من المعاهدات، كان الهدف منها دفع أكبر قدر ممكن من الأخطار الخارجية، وفي نفس الوقت الحصول على أكبر امتيازات مالية ممكنة، فخلال الفترة الممتدة من 1735-1756م وقّع الباشا التونسي حوالي 9 معاهدات كان أبرزها:

1- المعاهدة التونسية السويدية، بتاريخ 29 ديسمبر 1736م؛ وهي أول معاهدة بين الطرفين.[1]

2- المعاهدة التونسية الهولندية، وقعها علي باشا وقنصل هولندا بتونس؛ وكانت بتاريخ 9 سبتمبر 1741م.[2]

1 - أ.و.ت.س.ت، صندوق 258، ملف 763.

2- كراسات الأرشيف التونسي: المرجع السابق، ص 184.

3- تجديد المعاهدة التونسية الفرنسية، وتم توقيعها بتاريخ 9 نوفمبر 1742م، من طرف علي باشا ولويس الخامس عشر.[1]

4- إعادة تجديد المعاهدة التونسية الفرنسية بتاريخ 24 فيفري 1743م.[2]

5- المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1748م، وقعها علي باشا والكونت ريش كور.[3]

6- المعاهدة التونسية التوسكانية، وقعت بتاريخ 23 ديسمبر 1748م من طرف علي باشا وفرانشيسكو الأول.[4]

7- المعاهدة التونسية الإنجليزية، بتاريخ 19 أكتوبر 1751م، بين علي باشا والأمير جورج الثاني.[5]

8- تجديد المعاهدة التونسية النمساوية بتاريخ 23 ديسمبر 1748م.

9- المعاهدة التونسية الدانماركية بتاريخ 8 ديسمبر 1751م، وقعها علي باشا وملك الدانمارك والنرويج.[6]

من خلال قراءة بسيطة في عدد هذه المعاهدات خلال فترة وجيزة من الزمن، يمكننا إبداء بعض الملاحظات:

- كانت الإيالة التونسية خلال هذه الفترة؛ من النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي تعيش ضغطًا رهيبًا من قبل الدول الأوروبية، الساعية حينذاك للحدّ من قوة الإيالة، وفي نفس الوقت الضغط على الحكام التونسيين لانتزاع منهم أكبر قدر ممكن من التنازلات والامتيازات.
- محاولة الدول الأوروبية الكبرى؛ وعلى رأسها فرنسا، إنجلترا وإسبانيا مهادنة السلطات التونسية، حتى تتفرغ لحل مشاكلها داخل القارة الأوروبية، خاصة في فترة حكم لويس الخامس عشر (1715-1724م)، حيث عرفت فترة حكمه لفرنسا الكثير من المشاكل داخل أوربا، خاصة حرب الوراثة البولندية (1733-1738م)* وحروب الوراثة النمساوية (1740-1748م)**، وهذا نتيجة ضغط النبلاء في فرنسا على ملكهم ضعيف الشخصية.

1- المعاهدة التونسية الفرنسية 1742م، أ.و.ت.س.ت، صندوق 205، ملف 59.

2- كراسات الأرشيف التونسي، المرجع السابق، ص 184.

3- المعاهدة التونسية الإسبانية 1748م، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق، 5001، ملف، 13.

4- المعاهدة التونسية التوسكانية 1748، أ.و.ت.س.ت، صندوق 247 مكرر، ملف 648.

5- المعاهدة التونسية الإنجليزية 1751م، أ.و.ت.س.ت، صندوق 224، ملف، 405.

6- كمال جرفال: المرجع السابق، ص 184.

*- حرب الوراثة البولندية: دامت خمس سنوات (1733- 1738م) وسببها أن لويس الخامس عشر ملك فرنسا الذي كان متزوج من ماري ابنة ستانسلاس ليزسكي "Stansislas Lesczinski" أراد أن ينصب حماه ملكًا على العرش البولندي، معتمدًا على عوامل أسرية وسياسية، فيما كانت السلطات النمساوية ترشح أغسطس السكسوني، يؤازرها في ذلك حكام روسيا، ولما كانت بولندا بعيدة عن الأراضي الفرنسية، كان المكان المفضل=

– استعمل علي باشا الدبلوماسية للحدّ من الأخطار الخارجية، حتى يتفرغ لحل المشاكل الداخلية التي كانت تعيشها الإيالة، نتيجة بطشه وطغيانه، حتى سماه محمد الهادي الشريف بالطاغية[1]، وهذا نتيجة للأعمال الوحشية التي ارتكبها ضد رعيته، في مقابل مهادنة الدول الأوروبية.

– حاول علي باشا استغلال المشاكل داخل القارة الأوروبية للحصول على أكبر قدر ممكن من الامتيازات المالية، وذلك بإمضائه العديد من المعاهدات، التي كان يتحصل بموجبها على الأموال والهدايا، بدل الجهاد البحري الذي بدأ يعرف تراجعًا رهيبًا في بداية القرن الثامن عشر.

=لتسوية الحسابات بين الأطراف المتصارعة عن الأراضي الإيطالية، أين استطاعت الجيوش الفرنسية المدعومة من الجيش الإسباني وسافوي إنزال هزيمة مفاجئة وسريعة بالجيش النمساوي، الذي طرده الجيش الإسباني بقيادة منتمار "Mentemer" من نابولي، التي نصبوا على رأسها حاكمًا من أسرة البوربون، وكان ذلك ضربة قاسية للنمساويين وحلفائهم الروس، فيما بقيت السلطات الإنجليزية والهولندية خارج هذا الصراع، ليضطر الإمبراطور النمساوي لقبول عرض الوزير الأول الفرنسي فليري والذي تم على أساسه ما سمي بصلح فيينا الثالث سنة 1738م، حيث تزوج فرنسوا دوق اللورين من ماريا تريزا وارثه العرش النمساوي، وأن يتولى عرش شكاينا عند موت آخر حكامها من أسرة مدتشي، و أن يتنازل فرنسوا الستانسلاس عن اللورين وأن تؤول المقاطعة لفرنسا عقب وفاة ملك بولندا...، للاستزادة ينظر: **هربرت فيشر: المرجع السابق** ص ص 387، 388.

**– حرب الوراثة النمساوية: كان لظهور بروسيا وروسيا كقوتين متناميتين على أحد جوانب الإمبراطورية الرومانية وفيما بعد الإمبراطورية النمساوية، سببًا كافيًا في زيادة التوتر داخل القارة الأوروبية، فقد كانت بروسيا بروتستانتية المذهب، وروسيا أرثوذكسية، فيما كانت النمسا تدين بالمذهب الكاثوليكي، ولذلك علقت الدول الأوروبية الكاثوليكية على حكامها الأمل في إعادة السيادة للكاثوليكية، إلاّ أن الضعف و التفكك الداخلي كان قد أثر على الكثير من هيبتها، خاصة وأن نسيجها الاجتماعي كان عبارة عن فسيفساء من القوميات والأثنيات العرقية غير المتجانسة، وكانت الأوضاع بالإمبراطورية النمساوية تغري العديد من القوى الأوروبية المعادي والمتربصة بها، وتجلى هذا بوضوح بعد وفاة الإمبراطور شارل السادس في أكتوبر 1740م، والذي ضحى بالكثير من الأراضي الإمبراطورية ومصالحها التجارية في سبيل الحصول على موافقة ملوك أوروبا على وراثة عرشه لابنته ماريا تريزا، حيث لم تكن هذه الفكرة مقبولة حتى داخل النمسا ذاتها، وكان سببًا في ظهور العديد من الطامعين في وراثة العرش النمساوي، منهم شارل ألبرت منتخب بافاريا والذي كانت تدعمه فرنسا، وشارل إيمانويل ملك سردينيا وأغسطس منتخب ساكسونيا يطمع أيضًا في بعض الممتلكات النمساوية متخذًا زوجته وسيلة لذلك، وكان أخطر هؤلاء فردريك الثاني ملك بروسيا (1740-1786م) الذي كان رجل عبقريًا وداهية بلا جدال، لذلك سارعت ماريا تريزا، لإعلان زوجها إمبراطورًا حتى تقطع الطريق أمام هؤلاء الطامعين، فبادر فردريك الثاني لشن هجومًا مفاجئًا استولى به على سليزيا معلنًا بداية حرب الوراثة النمساوية، وبما أن هذه المقاطعة من أهم أراضي الإمبراطورية النمساوية أعلنت ماريا تريزا خوض المعارك من أجل إعادة سليزيا إلى ممتلكاتها، بالإضافة إلى أن بروسيا كانت إحدى مقاطعات النمسا، هذا ما زاد في حزن وألم ماريا تريزا، التي لم تتقبل أن يخرج عن طاعتها أحد توابعها، لكن الأخطر من ذلك هو انهزام الجيش النمساوي أمام الجيش البروسي، في موقعة ملوويتز، تلك الموقعة التي أبانت عن ضعف شديد للجيش الإمبراطوري النمساوي، هذا ما شجع شارل ألبرت منتخب بافاريا ومن ورائه فرنسا، لذلك تدخلت إنجلترا لصالح ماريا تيريزا لاشتداد المعارك بين الأطراف الأوروبية، هذا ما اضطر ملكة النمسا للفرار إلى المجر، ومن بعدها تنازلت عن سيليزيا لصالح فردريك الثاني الذي انسحب من الأراضي النمساوية بمساعدة من الإنجليز، الذين شكلوا حلفًا ضد فرنسا تكون من ماريا تريزا وشارل إيمانويل ملك سردينيا وُقع في وورمز سنة 1743م ، هذا الحلف كبد الفرنسيين العديد من الخسائر في الكثير من المعارك، إلاّ أن طول المعارك وخسائرها الفادحة، جعل قادة الدول المتصارعة يدركون حقيقة مفادها أنهم لا يستطيعون تغيير خريطة أوربا مهما طال أمد الحرب، لذلك اتجهت رغبتهم إلى إنهاء هذه الحروب، وقد تجلى ذلك في صلح "إكس لاشبيل" في أكتوبر 1748م، والذي اعترف بفرنسيس إمبراطورًا على النمسا، وحسب رغبة ماريا تريزا، وأعطيت برصا في إيطاليا لدوق فليب الإسباني .... للاستزادة ينظر: عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين: المرجع السابق، ص ص 255، 260.

1- محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص 84.

2-3-العلاقات التونسية العثمانية.

تميزت علاقات الحكام التونسيين بالسلاطين العثمانيين في بداية القرن الثامن عشر ميلادي بالتبعية الشكلية، وذلك راجع لعدة أسباب نذكر منها:

- ضعف السلاطين العثمانيين، وانشغالهم بملذات الحياة الدنيا، تاركين الأمور بيد النساء والصدور العظام، الذين زادت سطوتهم داخل البيت الحاكم العثماني.
- اشتداد التنافس الاستعماري على ممتلكات الدولة العلية العثمانية أدى إلى اشتغال السلاطين العثمانيين بكيفية رد العدوان، بدل الاهتمام بالشؤون الداخلية للإيالات.
- ظهور حكام بالإيالات المغاربية ومنها الإيالة التونسية لهم نزعة استقلالية، أدى إلى استقلال شبه تام عن سلاطين الدولة العلية، اللهم إلاّ بقاء بعض المظاهر مثل نيل التزكية منهم والدعاء لهم على المنابر يوم الجمعة.
- بعد المسافة بين الإيالة التونسية وإستانبول، جعل حكام الإيالة ينفردون بالحكم ويتسلطون على الرعية في غياب شبه كلي للسلاطين العثمانيين.
- سطوة القناصل الأوروبيين، خاصة الفرنسيين وتدخلهم السافر في شؤون الحكم بالإيالة التونسية أحدث هوة كبيرة بين العثمانيين والتونسيين، خاصة وأن الهدف الأكبر للحكام الأوربيين هو فصل هذه البلاد عن إستانبول حتى يتم احتلالها والسيطرة عليها، وهذا ما حدث فيما بعد مع كل البلاد المغاربية من المغرب الأقصى غربًا حتى طرابلس الغرب شرقًا.

بالرغم من الاستقلالية التي كان عليها الحكام التونسيين، إلاّ أن ذلك لم يمنعهم من نيل التزكية من السلاطين العثمانيين، لما لذلك من شرعية أمام رعيتهم التي كانت تنظر لهؤلاء السلاطين على أنهم خلفاء الله في أرضه ويجب طاعتهم ونيل تزكيتهم[1]، وفي نفس الوقت لنيل المساعدات المالية والعتاد الحربي الذي يأتي أحيانًا كمدد من استانبول بالإضافة إلى عرض أحوال العباد والبلاد على السلاطين العثمانيين إذا اشتدت الفتن وتدهورت الأحوال أو أراد أحدهم الانفراد بالحكم وتوريثه لبنيه من بعده مثلما حدث مع حسين باي، وفي ذلك يقول حسين خوجة: «... **ثم بعد عوده إلى حضرة تونس جهز مراكبه وأرسل معهم رجالا من أجلاء أوجاق تونس وبأيديهم مكاتيب تتضمن ما وقع بمدينة تونس من الافتتان وما هي عليه الآن من الأمن والأمان منذ ولى هذا الأمير الأكرم والباي الأفخم، وعرضت الأحوال على أعتاب السلطنة العلية وأبواب الدولة العلية**

1- قطب الدين محمد بن أحمد النهرواني: الإعلام بأعلام ...، المصدر السابق، ص ص 6، 7.

العثمانية قبلوا أحسن قبول وحصل لهم المطلوب والمأمول وكتبت له التشاريف السنية مع الخلع الخاصة الملوكية، وفوض له تفويضًا تامًا في أوجاق تونس وأوطان إفريقية، وحين عود المراكب من جانب الدولة العلية حضرت العلماء والصلحاء وذوو الأحكام وأهل ديوانها والخاص والعام، واحتفل له احتفالاً عظيمًا وعقد لذلك ديوانًا جسيمًا، وقرئت التشاريف ولبس الخلعة البهية، ودعا الداعي بدوام السلطنة العثمانية، وأطلقت البشائر وضربت النوبة السلطانية، وكان يومًا مشهودًا ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء...».[1]

أما في جانب العلاقات الخارجية فقد كان الحكام التونسيين مستقلين تمامًا في سياستهم ،فقد كانوا يبرمون المعاهدات والاتفاقيات بما يخدم مصالحهم الخاصة ومصالح الإيالة بدون رقابة من السلاطين العثمانيين، مثلما كان ذلك في عهد الأسرة الحسينية التي ركز باياتها في إمضاء المعاهدات مع فرنسا وإنجلترا وإسبانيا وهولندا بما يخدم المصالح الداخلية للإيالة، خاصة في عهد مؤسس الأسرة حسين بن علي[2]، ومع ذلك كان السلاطين يتدخلون مباشرة إذا زادت المشاكل والفتن بين حكام الإيالات المغاربية، خاصة تونس والجزائر، مثلما حدث في عهد السلطان مصطفى خان الثاني (1695-1703م)، حيث قام هذا الأخير بمحاولة للصلح بين حكام الإيالتين بعد أن عرف أسباب الخلافات، ثم حمل مبعوثي البلدين فرمانات من شأنها إنهاء حالة التوتر وإعادة العلاقات الودية إلى طبيعتها[3]، محاولة منهم لرأبِ الصدع وإصلاح ذات البين، وفي كثير من المرات يجدون آذانًا صاغية من لدن التونسيين على عكس الجزائريين الذين يتصرفون بأكثر استقلالية وتمردًا على قرارات الباي العالي.

تميزت العلاقات بين حكام الإيالة التونسية وسلاطين الدولة العلية؛ بالاستقلالية في اتخاذ القرارات المهمة والحاسمة، لأنها كانت تراعي مصالح الحكام والإيالة على حساب مصالح الدولة العلية، خاصة بعد المشاكل التي كانت تعيشها الإيالة سواء الداخلية منها أو الخارجية؛ مع الجزائر وطرابلس والدول الأوروبية، إلاّ أن ذلك لم يمنع من مشاركة البحرية التونسية إلى جانب الأسطول العثماني في العديد من المعارك للدفاع عن حدود الدولة العلية ضد خصومها الأوروبيين.

2-4-العلاقات التونسية الطرابلسية.

تميزت العلاقات التونسية الطرابلسية بالصراع والتوتر تارة وبالهدوء وحسن الجوار تارة أخرى، نتيجة لطموح حكام الإيالتين في التوسع والبحث عن مصادر للخزينة أو نتيجة لتدخل حكام الإيالة الجزائرية في شؤون الإيالتين، ففي بداية القرن الثامن عشر، حدثت هناك خلافات أدت إلى قيام حرب طاحنة بين البلدين، بسبب

1- حسين خوجة: المصدر السابق، ص 2.

2- شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 382.

3- الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 113.

قيام الباشا الطرابلسي خليل الأرناؤوطي بالاستيلاء على خَيْلِ أرسلها حاكم مصر إلى الباي التونسي أثناء مرورها بالتراب الطرابلسي، وعندما علم إبراهيم الشريف بفعلة خليل الأرناؤوطي طلب منه إرجاع الخيل إليه، إلاّ أن هذا الأخير رفض رفضًا قاطعًا هذا الطلب؛ بل رد بطريقة جارحة ومهينة على الباي التونسي[1]، زاد الطين بلة استيلاء البحرية الطرابلسية على سفينة تونسية كانت تقتاد سفينة أخرى تحمل على متنها ثلاثين أسيرًا مسيحيًا وعتادًا حربيًا و الكثير من البضائع غالية الثمن.[2]

ما يمكن ملاحظته أن دعم خليل باشا للسلطات الجزائرية في حربها ضد التونسيين أيام محمد باي المرادي، وحصوله على العديد من الغنائم، ألَّب عليه إبراهيم باشا وأحدث بينهما عداوة وكرهًا كان سببًا في توتر العلاقات بين الإيالتين، بالإضافة إلى أن خليل الأرناؤوطي كانت تربطه علاقات حسنة مع آخر الحكام المرادين -مراد الثالث- مما أثار حفيظة الباي التونسي وجعله يفكر في إعلان الحرب ضد الإيالة الطرابلسية، ومن ثمَّ الانتقام من خليل باشا، هذا الأخير كان يقوم باستفزاز الباي التونسي ليكون البادئ بالحرب.[3]

دعا إبراهيم الشريف الديوان للاجتماع، ومناقشة المستجدات الحاصلة مع حكام الإيالة الطرابلسية، وكيفية التعامل معها، وقد أظهر غضبًا شديدًا تجاه خليل الأرناؤوطي وتصرفاته اللامسؤولة حسبه، هذا ما حَمَّسَ المجتمعين وجعلهم يتخذون قرارًا بالإجماع مفاده إعلان الحرب ضد الإيالة الطرابلسية، خاصة بعد حصوله على وعود من السلطات الجزائرية بالمساعدة في حربه هذه[4]، حيث أرسل عثمان الهقوجي- وهو أحد الحكام السابقين لطرابلس وكان بالجزائر- إلى إبراهيم الشريف واعدًا إياه بتقديم المساعدة في مقابل إرسال القمح إلى الجزائر، وبغرض إنجاز هذه المهمة بعث معه مركبين لجلب المؤونة[5]، وقد استجاب الباي التونسي لذلك وأرسل للجزائر مائتي قنطار من القمح.[6]

لعبت الحاجة والمصلحة الاقتصادية للجزائر دورًا بارزًا في اتخاذ الداي الجزائري لقرار مساعدة إبراهيم الشريف ظاهريًا فقط، خاصة وأن داي الجزائر أحس أن الباي التونسي لم يكن عند حسن ظنه وأرسل كمية قليلة

1- ابن غلبون: المصدر السابق، ص 235.
2- محمود مقديش: المصدر السابق، ص 150.
3- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 82.
4- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 246.
5- محمود مقديش: المصدر السابق، ص 151.
6- الوزير السراج: المصدر السابق، ص 697.

من القمح فقط، فيما كان يقدم للمسيحين أضعاف ذلك، وهذا من أجل إضعاف قوة الإيالة الجزائرية والاستقواء عليها، خاصة وأنها كانت تعيش أوضاعًا اقتصادية صعبة جراء قلة الأمطار وانتشار الجفاف.[1]

إلاّ أن ما يمكن ملاحظته أن داي الجزائر لم يكن صادقًا في وعده تجاه التونسيين، خاصة بعد أن أحس بأن الباي التونسي فضل المسيحيين على الجزائريين، وبذلك أراد الانتقام منه بطريقته الخاصة، حيث دعم في الخفاء الباشا الطرابلسي، وعندما علم إبراهيم الشريف بذلك سارع إلى الخروج لقتال الطرابلسيين على حين غفلة من الجزائريين والطرابلسيين على حد السواء.[2]

مباشرة بعد وصول الجيش التونسي إلى طرابلس ضرب حصارًا محكمًا على المدينة دام حوالي أربعة وثلاثين يومًا، تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة، خاصة الطرابلسيين الذين صمدوا وقاوموا رغم خسائرهم ومعاناتهم طيلة هذه المدة، ليضطر بعدها إبراهيم الشريف لرفع الحصار والعودة إلى عاصمته تونس دون تحقيق هدفه الذي ذهب من أجله؛ ألا وهو تنحية خليل الأرناؤوطي من سدة حكم طرابلس الغرب[3]، بل أكثر من ذلك حمل معه وباء الطاعون إلى بلاده، الذي كان يفتك بسبعمائة شخص يوميًا[4]، حتى أنه ذهب ضحيته حوالي أربعة وأربعين ألفا من سكان الإيالة التونسية، ولم تسلم منه حتى القنصليات الأجنبية.[5]

ظلت العلاقات التونسية الطرابلسية تتأرجح بين الهدوء وحسن الجوار تارة والتوتر تارة أخرى، وهذا هو حال علاقات الإيالات المغاربية العثمانية فيما بينها بصفة عامة، بسبب غياب تأثير السلاطين العثمانيين على حكام الإيالات، وضعف هؤلاء السلاطين وانشغالهم بمشاكلهم الداخلية والخارجية مع الدول الأوروبية، بالإضافة إلى بُعْد الإيالات المغاربية عن مقر حكم باستانبول، زاد التنافس والمؤامرات بين الحكام في تدهور العلاقات، والأدْهى والأمرّ تدخل القناصل الأوربيون في شؤون الحكم بالبلاد المغاربية، خاصة خلال الأزمنة المتأخرة من الحكم العثماني لهذه المنطقة، مما كان له الأثر السيئ على العلاقات المغاربية فيما بينها، وبذلك كانت هذه الإيالات تتراجع فاسحة المجال للدول الأوروبية للعبث بمقدراتها وإمكانيات الهائلة.

2-5-تحرير جزيرة طبرقة.

يعود احتلال الجونيين لجزيرة طبرقه منذ سنة 947هـ/1540م، عندما ألقى جنيتان دوريا ابن أخ أندريا دوريا الجنوي القبض على درغوث باشا بسواحل جزيرة كورسيكا، وكان تحريره موضوعًا لمفاوضات طويلة وشاقة،

1- محمود مقديش: المصدر السابق، ص 151.
2- شارل فيرو: المرجع السابق، ص 246.
3- محمد عطية: المرجع السابق، ص 91.
4- الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 114.
5- ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 155.

وذلك راجع لقيمته عند خير الدين، وفي المقابل أيضًا كان حدثًا بارزًا عند الجنويين خاصة والأوروبيين عامة، لأنه شكل ضربة موجعة للعثمانيين ببلاد المغرب؛ نظرًا لما كان يقوم به من جهاد بحري ضد المسيحيين، هذا ما جعل الجنويين يتشبثون به، إلاّ أنه في الأخير تم حسم المفاوضات بفضل أسرة لوميللّني الجنوية، التي تنازل لها خير الدين عن جزيرة طبرقة نظير مساعدتها في إطلاق سراح درغوث[1] الذي بقي في الأسر طيلة أربع سنوات يعمل كجدافٍ، إلى أن افتداه السلطان العثماني شخصيًا بمساعدة خير الدين عندما كان في مدينة طولون- الفرنسية[2]، مقابل الجزيرة التي تملّكها الجنويون واتخذوها مركزًا لصيد المرجان منذ ذلك التاريخ وإلى غاية سنة 1155هـ/1742م، حينما قرر علي باشا تحريرها نهائيًا وضمها للإيالة التونسية، خاصة بعد أن توفرت له العديد من الأسباب التي نذكر منها:

1- ازدياد نشاط الجنويين؛ بحيث لم يكتفوا بما اتفقوا عليه مع التونسيين، بل أرادوا التوسع خارج حدود الجزيرة من أجل صيد المرجان، وكسب مزيد من الامتيازات والأموال.
2- أمام تزايد المخاطر وإدراك حكام الإيالة التونسية بضرورة الحد من نشاط الجنويين، قرر حكام الجزيرة بناء قلعة حصينة من أجل إبقاء سيطرتهم عليها وعدم التفريط فيها، لذلك قرر علي باشا القضاء على هذه القلعة وتحرير الجزيرة نهائيًا وإدخالها في ممتلكات إيالته.[3]
3- الرغبة الشخصية لعلي باشا في إنجاز يحفظ له كرامته ويلهي به رعيته والمتربصين به، خاصة أنه عرف بطغيانه الشديد وقسوته تجاه مخالفيه وسكان الإيالة عمومًا؛ ولذلك حاول أن يقوم بعمل يحسن صورته التي تلطخت بأعماله الوحشية التي كانت سببًا في نفور الناس منه وكرههم له.
4- محاولة علي باشا توحيد الإيالة التونسية نهائيًا وتحرير جميع أراضيها من الوجود الأوروبي، خاصة وأن الجزيرة ظلت خاضعة للاحتلال الأجنبي منذ سنة 1540م، وكانت حجر عثر وسببًا مانعًا في وحدة الإيالة، لذلك قرر علي باشا تحريرها نهائيًا من الاحتلال المسيحي الجنوي الذي دام حوالي قرنين من الزمن.[4]
5- أمام تزايد طغيان وقسوة علي باشا، اندلعت العديد من الثورات والتمردات ضد حكمه الجائر، خاصة من طرف الإنكشارية الذين ثاروا في العديد من المرات ضد حكمه وسياسته، مثلما حدث في صيف

1- ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 187.
2- يحي بوعزيز: مع تاريخ الجزائر... المرجع السابق، ص 259.
3- حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 127.
4- محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص 85.

سنة 1741م، لذلك أراد توجيه أنظار خصومه إلى الخارج، فسيّر ابنه يونس الذي كان ساعده الأيمن على رأس جيش لتحرير جزيرة طبرقة من الاحتلال الجنوي.

6- كان علي باشا يعلم جيدًا بالأهمية الاستراتيجية والاقتصادية للجزيرة؛ خاصة وأنها معروفة بوفرة المرجان ونوعيته الجيدة، لذلك أراد أن يعيدها لممتلكات الإيالة، واستغلال خيراتها بدل تركها بيد الجنويين الذين استأثروا كثيرًا بخيرات الجزيرة، خاصة وأن مداخيل الجهاد البحري تضاءلت كثيرًا خلال هذا القرن، زيادة على رفض العديد من القبائل والسكان المحليين دفع الضرائب المتزايدة، التي كان يفرضها علي باشا عنهم، لذلك أراد تعويض ذلك من مداخيل صيد المرجان بالجزيرة.

7- الدعم الجزائري المباشر الذي تلقاه علي باشا بعدما أخبر حكام الجزائر بالمؤامرة الفرنسية الرامية لشراء الجزيرة ومن ثم احتلالها، وبذلك سارع حاكم الجزائر عبدي باشا (1724-1732م)، إلى إعلان دعمه لحاكم تونس[1] من أجل إفساده المشروع الفرنسي الرامي لاحتلال الجزيرة ومن بعدها يتم التوسع شرقًا على حساب الإيالة التونسية وغربًا على حساب الإيالة الجزائرية.

8- كانت "شركة امتيازات إفريقيا" الفرنسية تأسست سنة 1561م بفرنسا؛ ليقرر مالكيها فيما بعد نقل مقرها إلى مدينة القالة الجزائرية، وتغيير اسمها إلى اسم "شركة إفريقيا الملكية" سنة 1741م، حيث كان مالكوها ينظرون بعين الريبة والحسد إلى ملاك جزيرة طبرقة الواقعة بالقرب منهم، لذلك حاول الفرنسيون بكل ما أوتوا من قوة السيطرة على هذه الجزيرة، ففي سنة 1738م استطاعوا إقناع مالك الجزيرة جاك دي لوميلليني بالتخلي عن الجزيرة لصالحهم في مقابل بعض المزايا المالية، وكلفت الحكومة الفرنسية أحد التجار من مرسيليا سنة 1741م بالسفر إلى جنوة للتباحث حول تنازل الجنويين عن الجزيرة، إلاّ أن عدم احتفاظ هذا التاجر بسرية المفاوضات أفضى فيما بعد إلى علم علي باشا ومعاونيه بمرامي الفرنسيين والجنويين[2]، لذلك سارع إلى توجيه حملة عسكرية بقيادة ابنه يونس بك لإعادة الجزيرة إلى ممتلكات الإيالة التونسية، وقطع الطريق على الفرنسيين نهائيًا ومنعهم من الاستئثار بخيراتها، التي هي في أصلها ملك للتونسيين وليس لغيرهم.

1- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 493.

2- ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 189.

2-6-التحرير النهائي للجزيرة.

بعد أن توفرت الأسباب الكافية لعلي باشا، قرر تجهيز حملة عسكرية للقيام بتحرير الجزيرة نهائيًا، بقيادة ابنه يونس بك، الذي كان على رأس أسطول بحري مكون من 8 سفن[1] ومئات البحارة الراغبين في المشاركة في هذه الحملة، وقد سار الأسطول بمحاذاة الساحل إلى أن وصل إلى الجزيرة، أين تم إنزال الجنود إلى اليابسة، ومباشرة بعدها استطاعوا أسر حاكم الجزيرة بكل سهولة رفقة بعض معاونيه وبدون مقاومة تذكر في خطوة مفاجئة ومباغتة للجنويين، الذين لم يكن لهم من مفر سوى الاستسلام للتونسيين، وبذلك تم تحرير الجزيرة نهائيًا وبدون مقاومة تذكر.[2]

إلاّ أن ألفونص روسو يعطينا رواية مغايرة تمامًا لهذه الأحداث، حيث يقول أن يونس باي استعمل الحيلة والخداع المكر في تحريره الجزيرة، مفندًا بذلك رواية أغلبية المصادر التونسية، وهذا في الحقيقة ديدن هذا القنصل والمؤرخ في جميع كتابه إلاّ ما شذ عن ذلك، حتى يعطي أكبر مصداقية للأوربيين عامة والفرنسيين خاصة، وما نراه إلاّ متحصرًا على ضياع هذه الجزيرة من الفرنسيين الذين ضاعت عنهم فرصة كبيرة لتنفيذ مخططاتهم الاستعمارية، التي تأجلت بسبب هذه الخطوة التونسية الجريئة جدًا حينذاك، وهذه روايته كما جاءت في كتابه الحوليات التونسية، حيث قال: «... **عند وصول الريس الذي كان يقود فرقة الشقوف* البحرية، إلى مرسى طبرقة نراه يأمر حاكم الجزيرة وضباط الحامية الجنوية بها بالصعود على متن شقوفه بحجة التفاوض معهم حول تسوية النزاعات التي كانت قائمة بين الجانبين التونسي والجنوي، ونجحت هذه الحيلة تمامًا، إذ أنه ما إن صعد الحاكم وحاشيته إلى الشقوف حتى تمَّ إعتقالهم وانزال القوات التونسية التي كانت على متن الشقوف إلى أرض الجزيرة؛ الأمر الذي أشاع هلعًا مباغتًا بين مستعمري الجزيرة من الجنويين الذين لم يحاولوا أبداء أية مقاومة...»**.[3]

من خلال هذا النص يمكننا إبداء بعض الملاحظات التالية:

- التحامل الواضح من الكاتب على التونسيين، حيث وصف قادتهم باستعمال المكر والخداع وعدم الوفاء بالعهود في التعامل مع الجنويين.

1- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 492.

2- الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 123.

* - الشقوف: بمعنى المراكب الحربية بالمصطلح المغاربي، ومفردها شقفة أي مركب.

3- ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 189.

- هل لحكام تونس أي سلطة على الحاكم الجنوي حتى يتم أمره بالصعود إلى السفينة مع بعض معاونيه للتفاوض؟، وكان يمكن تقبل الأمر لو قال أنه طُلِبَ منه الصعود إلى السفينة!!!.
- هل فعلاً أن الجنويين كانوا من القوة ما جعل التونسيين يستعملون الحيلة والمكر معهم بدل القوة العسكرية.
- اتهام ألفونص روسو حاكم الجزيرة، ومعاونيه بالسذاجة وقلة الحيلة والحنكة في التعامل مع التونسيين، وإلاّ بماذا نفسر صعودهم مباشرة إلى السفينة وبدون تردد.
- ناقضت هذه الرواية جميع الروايات المحلية التي أقرت باستعمال القوة العسكرية في تحرير الجزيرة من قبل يونس بك، مثل ما قال ابن أبي الضياف: «... **ووافاهم يونس وقطع إلى [الجزيرة] المجاز الشواني «الشقوف» ونزل بقصبتها واستولى على القرية وساق أهلها إلى الحاضرة أسرى، وهم تسعمائة، وترك بالقلعة من يحرسها...**».[1]

2-7-نتائج تحرير الجزيرة.

- تحرير جزيرة طبرقة من الاحتلال الجنوي الذي دام حوالي قرنيين من الزمن، ليتم توحيد الإيالة التونسية نهائيًا[2] في عهد علي باشا، الذي يعد هذا العمل إنجازا يحسب له بالرغم من الفظائع والمنكرات التي قام بها ضد سكان الإيالة على حسب المصادر والمراجع التونسية.
- أُسر من الجنويين حوالي 900 شخص كانوا بالجزيرة[3]؛ إما كجنود لحمايتها من الأخطار الخارجية أو كتجار ومستنفعين من صيد المرجان.
- فرار حوالي 500 شخص من سكان الجزيرة كانوا قد خرجوا لصيد المرجان في ذلك اليوم، باتجاه مدينة القالة الجزائرية التي كانت بها الشركات الفرنسية لصيد المرجان، ومنها اتجهوا إلى جزيرة القديس بطرس الملاصقة لجزيرة سردينيا، أين أنشأوا بها مستعمرة جديدة لهم.[4]
- أدى تحرير جزيرة طبرقة من الاحتلال الجنوي إلى إثارة الفرنسيين الذين كانوا يرغبون في احتلالها، ولذلك قرروا توجيه حملة عسكرية للسيطرة على الجزيرة، متذرعين بسيطرة التونسيين على قرية تاسكرت* التي كانت بها بعض المراكز التجارية الفرنسية.[5]

1- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج2، ص 124.

2- محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص 85.

3- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 124.

4- ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 190.

* - تامكرت: قرية تونسية محاذية لجزيرة طبرقة، تقع شرقها، كان يسميها الأوربيون —كاب نيقرو–أي الرأس الأسود.

5- عزيز سامح التر: المرجع السابق، ص 493.

- قام يونس بك بتدمير جميع المراكز والمؤسسات التجارية الجنوية بالجزيرة[1]، حتى يقضي تمامًا على أي وجود جنوي وقد الطريق حتى لا يفكروا في العودة للجزيرة مرة ثانية.
- استعملت بقايا الأبنية المهدمة في بناء جسر أرضي لمد الجزيرة باليابسة حتى غدت هذه الجزيرة جزءًا من الوطن التونسي ولم تعد جزيرة كما كانت في السابق.
- بناء برج للمراقبة والدفاع عن المدينة ببقايا المباني المهدمة، لعلم يونس بك بالمؤامرات الفرنسية خاصة بعد الاستيلاء على المؤسسات التجارية الفرنسية بقرية تامكرت المحاذية للجزيرة.
- ترك يونس بك حامية عسكرية للدفاع عن الجزيرة وحمايتها من الأخطار الخارجية.[2]

2-8-العلاقات التونسية الفرنسية.

بعدما استتبت الأوضاع الداخلية للإيالة التونسية، حاول علي باشا الاهتمام بالجانب المالي لدولته، لعلمه أن المال عصب الحياة والضامن الأساسي لاستمرار حكمه، لذلك عمل على الحصول عليه، خاصة عن طريق الجهاد البحري الذي أولى له عناية كبيرة لعلمه بما يدره على البلاد من مداخيل لا نظير لها من المصادر الأخرى، وكانت التجارة الفرنسية مزدهرة حينذاك، وتكاد تكون المهيمنة على جميع أسواق حوض البحر الأبيض المتوسط، لذلك كانت الهدف المباشرة للبحارة التونسيين الذين كانوا يحاولون إيجاد المبررات الكافية لإنجاز هذه المهمة وقطع العلاقات مع الفرنسيين، لذلك اتهموهم بمساعدة سكان مدينتي سوسة والمنستير أثناء حصارهما من طرف قوات علي باشا، وهكذا وجد التونسيون المبرر الكافي لقطع العلاقات مع الفرنسيين وإعلان العداء لهم، وقاموا بالتعدي على رعايا الملك الفرنسي بتونس، خصوصًا القنصل جوتيه[3]، الذي كانت له مشاكل شخصية مع الباي التونسي بسبب تورطه في قضية شرف مع امرأة تونسية؛ هذا ما ألَّب عليه السلطات التونسية التي كانت تنتظر الفرصة المناسبة للانتقام منه، وكان سببًا في قطع العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين سنة 1741م، وزاد علي باشا غضبًا على غضب موقف مسير الشركة الملكية الإفريقية، ذلك أنه احتجز رسالة لمدير منطقة تامكرت –كاب نيفرو فوقاس– «Fougasse» محتواها خطة فرنسية لاحتلال جزيرة طبرقة، التي كان لوملليني «Lomellini» يعتزم بيعها للفرنسيين[4]، خاصة وأن هذه الجزيرة كانت لها أهمية اقتصادية واستراتيجية، تمثلت في غناها بالمرجان والسيطرة

1- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 493.

2- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 124.

3- ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 185.

4- شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 383.

عليها من الفرنسيين تعني التحكم في الإيالة التونسية والتوسع غربًا على حساب الإيالة الجزائرية، ومن ثم التوسع في كامل البلاد المغاربية.

كان علي باشا يرى أن سلوك القنصل الفرنسي جوتيه غير لائق تجاهه؛ بسبب التعالي الذي كان يبديه في التعامل معه، ومن قبله كل القناصل الفرنسيين الذين عملوا بالإيالة التونسية على عكس القناصل الآخرين، لذلك استدعى ترجمان القنصل الفرنسي وأبلغه بلهجة شديدة أنه يستغرب من القنصل امتناعه عن تقبيل يده كلما حضر بين يديه[1]، وفي ذلك يقول ابن أبي الضياف: «... **إن العادة في تحية ملوك تونس، أن يقبل الداخل يد الملك، من الوزراء فما دونهم، إلاّ أهل المجلس الشرعي، ولكل قوم عاداتهم، حتى أن أعيان الرسل من الدولة العثمانية يفعلون ذلك، ومن الآداب الإسلامية أن لا يطأ الإنسان بساط بيته بنعله، فمنهم من يعلل ذلك بالتحفظ من النجاسة، وهو من التعمق و الغلوّ في الدين، ومنه من يعلله بالتحفظ على البساط من أوساخ الأنعل، وكان القناصل يحيّون ملوك تونس بالمصافحة ويدخلون عليهم بأنعلهم، حتى كانوا يتكلفون الجلوس لملاقاتهم في بيت لا بساط به، فأنِفَ علي باشا من ذلك وقال: لكل بلد عادات تخصها ولا يباح للضيف ما لا يباح لربِّ البيت...**».[2]

كان هذا سبب من بين الأسباب التي اتخذتها السلطات التونسية لقطع العلاقات مع الفرنسيين، خاصة بعد أن تعنت القنصل الفرنسي جوتيه وقام باستدعاء جميع التجار الفرنسيين المقيمين بالإيالة وأطلعهم على ما أمر به علي باشا، فكان ردهم بالإجماع عدم الامتثال لأوامر الباي وتقبيل يديه لأنه إهانة للشرف الفرنسي وإنقاصا من قيمة الفرنسيين عمومًا وتعدٍ صارخ على الأعراف الدبلوماسية التي انفرد بها القناصل الفرنسيين على بقية القناصل الآخرين، والتي تقضي بعدم تقبيل يد حاكم تونس مهما كان الأمر، وهذا امتياز معمول به منذ توقيع المعاهدة الأولى مع الدولة العلية العثمانية وليس خاص بالإيالة التونسية فقط، ولذلك ذهب مندوبان فرنسيان إلى خزانة دار* للتفاوض حول عدم تطبيق هذه العادة مع القنصل الفرنسي، إلاّ أن خزانة دار رفض مطلبهما وقال لهما أن قرار الباي لا رجعة فيه.[3]

رجع المندوبان إلى مقر القنصل للتشاور حول المستجدات الحاصلة، وقرروا عدم الخضوع لمطالب علي باشا، وطلبوا منه عدم زيارة قصر الباردو، وما إن سمع الباشا بهذا القرار تملكه غضبًا شديدًا، وقرر استدعاء

1 -*A (de Flaux): La Règence de Tunis au 19ème sècle, Alger, Bastid Libraire, 1865, P209.*

2- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 125.

* - معناه المكلف بالخزانة والأموال.

3- ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 186.

القنصل للمثول أمامه حالاً، تطبيقا للأعراف الدبلوماسية الموجودة حينذاك، ومهددًا إياه باقتياده كرهًا إذا رفض المثول أمامه وتطبيق حد الموت عليه، لذلك سارع القنصل للذهاب إلى الباشا، لعلمه أنه قادر على تنفيذ وعيده بكل حزم وقوة، وفي نفس الوقت تجنيب الرعايا الفرنسيين أي مكروه يصدر من علي باشا، الذي ما إن وصل إليه القنصل حتى طلب منه تقبيل يده، إلاّ أن هذا الأخير رفض ذلك، متعللاً أنه ليس لديه أي تصريح من سلطات بلاده وعلى رأسها الملك، وعندما أصر الباي التونسي على ذلك، حينها قرر القنصل الفرنسي الصعود إلى مركب نقله من حلق الوادي إلى طرابلس الغرب، هذا أغضب الباشا وجعله يعلن قطع العلاقات مع الفرنسيين ونقض الصلح الموقع معهم سابقًا.[1]

فيما يروي لنا ألفونص روسو رواية عكس ما جاء به ابن أبي الضياف، فقد قال أن القنصل الفرنسي جوتيه اضطر إلى تقبيل يد علي باشا، بسبب خوفه من الموت وخشية تعرض رعاياه بالإيالة التونسية إلى بطش علي باشا الذي لا يخف على القنصل الفرنسي.[2]

إلاّ أننا نرجح رواية ابن أبي الضياف لعدة أسباب نذكر منها:

- كيف يمكن للقنصل الفرنسي تقبيل يد علي باشا ثم يضطر للفرار على متن مركب إلى بلاده؟
- كيف لعلي باشا قطع العلاقات مع الفرنسيين وقد تحقق هدفه بخضوع القنصل الفرنسي لرغبته وتقبيل يده كما يحدث مع بقية القناصل الآخرين.
- بصرف النظر عن التحامل والافتراء الذي حمله ألفونص روسو للتونسيين خاصة والمغاربة عامة في كتابه، فقد أراد إظهار علي باشا على أنه طاغية متجبرًا، حاول فرض منطقه بالقوة على الفرنسيين الذين أظهرهم على أنهم كانوا يريدون الحفاظ على السلم وعدم تعريض رعاياهم لخطر الباشا وطغيانه.
- أراد إظهار القنصل جوتيه كدبلوماسي واع ومحنك يعرف جيدا مصالح بلاده ورعاياه، لذلك فضل من أجلهم كل شيء حتى على حساب كرامته وشرف الفرنسيين وذلك بتقبيل يد الباشا!!!.
- بالرغم من قبول القنصل تقبيل يد الباشا، إلاّ أن هذا الأخير أعطى الأوامر للبحارة من أجل مهاجمة السفن التجارية الفرنسية، مخالفًا بذلك كل القوانين والأعراف الدبلوماسية، ولم يحترم المعاهدات الموقعة مع الفرنسيين، الذين أراد ألفونص روسو إظهارهم على أنهم ضحايا للسياسات المتقلبة لعلي باشا وعدم احترامه للمعاهدات الموقعة معهم، محاولا اتهام التونسيين بقطع العلاقات والاعتداء على التجارة الفرنسية، مبعدا أي مسؤولية للقنصل والسلطات الفرنسية في توتر العلاقات بين الطرفين.

1- ابن أبي ضياف: المصدر السابق، ص ص 125، 126.

2- ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 187.

– ابن أبي الضياف أكبر سنًا من ألفونص روسو، فقد عاش الأول ما بين (1804–1874م) فيما عاش الثاني ما بين (1820–1870م)، وبذلك تكون رواية ابن أبي الضياف أقرب للصحة والحقيقة بما أنه مؤرخ محلي، مع أن كلاهما بعيدان عن الأحداث.

وبالرجوع إلى العلاقات الثنائية؛ فإن الأوضاع زادت تأزمًا بعدما قام يونس بك بتحرير جزيرة طبرقة من الاحتلال الجنوي، ثم قيامه بتخريب جميع المؤسسات الفرنسية بمركز تامركت –كاب نيغرو– وطرد الرعايا الفرنسيين، هذا ما كان سببًا في تدهور العلاقات بين الطرفين سنة 1153هـ/1740م[1]، مما اضطر السلطات الفرنسية لتوجيه حملة عسكرية لاحتلال جزيرة طبرقة ومركز تامكرت[2]، بقيادة الضابط "صوران"، الذي كان على رأس ثمانين بحارا و ثلاثة ضباط واثني عشر جنديًا، تحملهم بارجتين حربيتين، وأقلع بهم من ميناء طولون يوم 12 أفريل 1155هـ/ 1742م، وفي نفس الوقت تم تسليح فرْقاطتين وأربعة سفن محملة بالجنود، أُعطيت لقادتهم إشارة الانطلاق من فرنسا بعد أسبوعين من إقلاع صوران، وصدرت لها أوامر بالتواجد في المياه المقابلة لمدينة تونس لمساعدة صولان فور بدأه في تنفيذ خطة الاحتلال انطلاقًا من جزيرة القالة الجزائرية التي كانت المنطقة المناسبة للانطلاق في احتلال جزيرة طبرقة.[3]

ومن القالة كان صوران وجواسيسه يستطلعون أوضاع الجزيرة ويضعون الخطط لتنفيذ عملية الاحتلال بأسرع ما يمكن، ومن ثم مباغتة التونسيين، حيث ظل يراقب الجزيرة ويستكشف استحكاماتها ووضعية الجيش التونسي بها ابتداءً من شهر أفريل إلى غاية 2 جويلية 1742م، أين هاجم الجزيرة على حين غفلة من أهلها، محاولا احتلالها بأقل التكاليف، إلا أن آماله تبخرت بعد أن قاوم التونسيون ببسالة واستطاعوا التصدي للهجوم وأسر صوران نفسه رفقة 150 جنديًا وقتل 100 جندي آخر[4]، وقد نقل لنا تفاصيل هذه الملحمة التونسية ابن أبي الضياف حيث قال: «.... **ثمّ جهز الفرنسيون مراكب لأخذ طبرقة، والضعيف نُهْبة المفترس، ولما نزلوا بها دافع أهلها عن أنفسهم ومكانهم، ورموا الشقوف بالمدافع حتى فرَّت، ولما رأى "الفرنسيون" بُعْدَ شقوفهم وعدم النجاة، ألقوا أيديهم للأسر، وهم نحو الثلاثمائة، وجيء بهم في السلاسل إلى تونس...**».[5]

بالرغم من ظروف الأسر والجراح البليغة التي أصيب بها صوران إلاّ أنه لم يعترف بطلوع السلطات الفرنسية وعلى رأسها الملك لويس الخامس عشر في هذه الحملة، بل نسبها لنفسه، مُبعدًا أي مسؤولية لسلطات

1- حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 127.
2- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 493.
3- ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 192.
4- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 494.
5- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 126.

بلاده، التي كانت قد دخلت في مفاوضات لإعادة الهدوء للعلاقات الثنائية[1]، مع أن السلطات الفرنسية كانت متواطئة وتنظر بعين الرضا لهذه العملية التي قادها صوران، الذي عُومل معاملة حسنة حتى شفي من جراحه، وعمل لدى يونس بك لمدة عشرة أشهر، ليطلق سراحه فيما بعد بعد توقيع معاهدة السلام مع التونسيين في نوفمبر سنة 1742م، حيث تم أيضًا إرجاع المراكز التجارية بتامكرت إلى الفرنسيين، وفرض على قنصل فرنسا بتونس الخضوع لمراسيم تقبيل اليد[2]، لتعود العلاقات إلى حالة الهدوء والاستقرار بعد إقامة السلام بين الطرفين[3]، وبدأت التجارة الفرنسية تعود إلى سابق عهدها في النمو والازدهار بعد النكسة التي أصيبت بها جراء المحاولة الفاشلة لاحتلال جزيرة طبرقة، بفضل المساعي الحثيثة التي قام بها القنصل الجديد فرنسوا فور الذي خلف جوتيه، هذا الأخير تم إبعاده عن مهمته إرضاءً للباشا التونسي، ليقوم بعد ذلك وزير البحرية الفرنسية دي موريباس بتنظيم شؤون المؤسسات الفرنسية بالإيالة التونسية، والتي بلغ عددها 6 مؤسسات في سنة 1126هـ/1748م[4]، وبذلك حافظت العلاقات التونسية الفرنسية على هدوء نسبي بعد حادثة جزيرة طبرقة.

المبحث الثاني: معاهدة السلم التونسية الإسبانية سنة1161هـ/ 1748م.

1-أهم بنود المعاهدة*.

جاءت هذه المعاهدة تتويجًا للمحاولات السابقة التي قام بها الطرفان التونسي والإسباني من أجل إنهاء حالة الصراع بينهما، وهي تتمة للاتفاق الموقع في شهر جوان 1720م، بين حسين بن علي باي والأب الراهب فرنشيسكو خمينس، والذي وضع الأسس الأولى لإقامة صلح دائم يخدم مصلحة الطرفين، وينهي حالة التوتر وعدم الثقة التي دامت أكثر من قرن ونصف من الزمن، وقد دامت المفاوضات حوالي عامين كاملين ابتداء من 23 ديسمبر 1748م إلى غاية جوان 1750م، ليتم بهذا التاريخ توقيع المعاهدة من طرف الكونت دي ريش كورت «IL Conte Di Ricrecourt» وروبرتو باندولفني «Roberto Pandolfini» ومن الجانب التونسي وقعها علي باشا.

1- ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 198.

2- شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 383.

3- الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 123.

4- ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 200.

* – حسب ما جاء في المعاهدة الأصلية الموجودة في الأرشيف الوطني التونسي، والتي تحصلنا على نسخة منها، وهي في أصلها باللغة الإيطالية وقمنا بترجمة بنودها إلى اللغة العربية.

1-1-الجانب السياسي.[1]

- تمت هذه المعاهدة بين الإمبراطور الإسباني والباشا التونسي، لنشر السلم والأمن بين الطرفين.
- يجب المحافظة على السلم القائم مهما كانت الخلافات والمشاكل العالقة، ولا يجب الإسراع في قطع العلاقات بين الطرفين.
- تنفيذًا لبنود هذه المعاهدة أمرت السلطات الإسبانية بنشر هذه المعاهدة، وتأمر جميع مسير الموانئ وحماة الأبراج والحصون الواقعة بالسواحل وجميع حكام الدوقيات والقادة والضباط العسكريين ووزراء الحرب والعدل بالالتزام بتطبيق بنود هذه المعاهدة.
- تحظى الإمبراطورية الإسبانية بتمثيل قنصلي بالإيالة التونسية، حيث يقوم القنصل برعاية مصالح الإمبراطورية وشؤون رعايا الملك، بالإضافة إلى مهام أخرى تخص بلاده.
- للباشا التونسي الحق في مراسلة حكام الولايات الإمبراطورية، ويجب على حكام تلك المناطق أن يستقبلوا رسائل ووفود الباشا بكل احترام وتقدير وصداقة دون أي حرج أو مضايقات.

1-2-الجانب الأمني.[2]

- يجب ألا تقوم سفن التجار التونسيون بالإبحار قريبًا من الموانئ والسواحل والجزر الخاضعة للإمبراطور الإسباني.
- يجب إنهاء كل مظاهر العداء بين السفن الحربية الإسبانية والسفن الحربية التونسية.
- إذا حدث وإن التقت السفن الحربية للبلدين؛ فيجب أن تتعامل مع بعضها البعض بالاحترام المتبادل وإظهار المودة والصداقة لبعضهما البعض.
- ممنوع رسو السفن الحربية التونسية بالشواطئ الإسبانية، إلاّ في حالة الضرورة، ويُسمح لها بالمرور والعبور في حالة تعرضها للأخطار أو العواصف أو أنها كانت مطاردة من طرف أعداءها.
- إذا حدث وأن قامت السفن التونسية بالرسو فيجب على الإسبان معاملة طاقمها بشكل ودي وتقديم المساعدة له.
- لن يتعرض الرعايا التونسيون الذين يركبون السفن الإسبانية لأي مضايقات من قبل أي سلطة مسيحية صديقة للإمبراطور.

1- المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1748م، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق، 5001، ملف 13.

2- المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1748م، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق، 5001، ملف 13.

- يجب عدم تعرض الرعايا الإسبان الذين يركبون على متن السفن التونسية لأي أذى، والحفاظ على أمنهم وسلامتهم.
- إذا حدث وأخذ أعداء الملك الإسباني أي رعية من رعاياه وأُخذ إلى الإيالة التونسية لبيعه فلا يحق ولا يمكن لأي تونسي أن يشتريه.
- إذا هرب أي عبد تونسي إلى سفينة تجارية إسبانية فيجب أن يُعاد في الحال، وفي حالة وصوله إلى تراب الإمبراطورية، فيجب على قبطان السفينة أن يعيده إلى بلاده، أو عليه بدفع ثمنه إن كان معقولا.
- عندما تصل السفن الحربية للإمبراطور الإسباني إلى الإيالة التونسية فيجب على حراس الحصون والقلاع استقبالها بطريقة ودية وبنفس الطريقة التي تستقبل بها الدول الصديقة للإيالة.
- يتم تزويد ركاب السفن الإسبانية بجوازات سفر ثابتة، وترافق ركاب السفن التونسية دائمًا شهادة القنصل الإسباني المقيم بتونس.
- جميع رعايا الإيالة التونسية الفارين من الدول العدوة لهم الحق في الفرار إلى تراب الإمبراطورية الإسبانية، وبمجرد وصولهم سيطلق سراحهم بدون عائق، ثم يرحلون إلى بلادهم.
- جميع رعايا الإمبراطور الإسباني الفارين من الدول العدوة لهم الحق في اللجوء إلى تراب الإيالة التونسية، أين يحضون بالاحترام والتقدير بمجرد وصولهم، ثم يتم إطلاق سراحهم بدون إشكال ويرحلون إلى إسبانيا.
- إذا حدث وأن هرب أي شخص مسيحي أو يهودي إلى تراب الملك الإسباني بممتلكات تعود للرعايا التونسيين فيجب إرجاعهم ومحاكمته على الجرم الذي ارتكبه وإعادة الحق لأصحابه.
- إذا حدث وأن هرب أي مسلم إلى تراب الإيالة التونسية بممتلكات تعود لرعايا الملك الإسباني، فيجب إعادته ومحاكمته على الجرم الذي ارتكبه وإعادة الحق لأصحابه.
- إذا وجد التونسيون سفنًا إسبانية في عرض البحر وجب عليهم مساعدتها وتزويدها بكل ما تحتاجه.
- يجب صعود بحاران تونسيان فقط لتفتيش السفن التجارية الإسبانية وأخذ المعلومات الصحيحة عنها، وبعد الانتهاء من مهمتهما يجب على البحارين المغادرة فورًا والعودة إلى مقرهما.
- يجب على السلطات الإسبانية عدم تسليم علمها الإمبراطوري أو جوازات سفرها لأشخاص هم في الأصل مازالوا في عداء مع سلطات الإيالة التونسية.

1-3-الجانب التجاري.[1]

- السفن التجارية التونسية والإسبانية تعامل بكل احترام وتقدير من طرف بعضهما البعض، ويجب عدم تعرضهما للخطر.
- تدفع الرسوم الجمركية بالطريقة المتعارف عليها بدون زيادة أو إخلال بما اتفق عليه الطرفان.
- يجب على البحارة التونسيين عدم الاعتراض للسفن التجارية الإسبانية، ويسمح لها بالمرور بدون مشاكل أو مضايقات، بعد الاطلاع على جواز المرور.
- جميع التجار الإسبان بما في ذلك المتجنسين إذا كانوا على متن سفن أعداء الإيالة التونسية ويكون لديهم جواز سفر إسباني وسند شحن لبضاعتهم، يجب معاملتهم كأصدقاء وتوفير الأمن لهم والحفاظ على بضاعتهم وعدم تعرضها للتلف.
- لا يمكن إرغام قباطنة السفن الإسبانية التي تصل إلى الإيالة التونسية على تأجير سفنهم، وإنما يتم ذلك بموافقة مالك السفينة.
- للباشا التونسي الحق في تأجير السفن الإسبانية لمصالحه الشخصية؛ بشرط موافقة القنصل الإسباني ودفع حقوق التأجير المستحقة.
- تدفع السفن التجارية الإسبانية الراسية بالموانئ التونسية نفس الرسوم الجمركية التي تدفعها الدول الصديقة للإيالة.

1-4-الحقوق القنصلية.[2]

- للقنصل الإسباني بتونس الحق في إعطاء جوازات سفر وشهادات شحن للسفن التونسية.
- للقنصل الإسباني بالإيالة التونسية سلطة الإشراف على السفن الإسبانية التي تتعرض لأي حادث أو عطب ويحق له الاحتفاظ بالبضائع والبحارة.
- للقنصل الحق في تعويض السفن الإسبانية المتضررة على الأراضي التونسية.
- يتمتع القنصل الإسباني المقيم بالإيالة التونسية، بجميع الامتيازات والمزايا التي تتناسب مع المنصب الذي يشغله بصفته ممثلا للإمبراطور وقائمًا على شؤون رعاياه.
- إذا حدث وأن تنازع أي رعية إسباني مع تونسي يتم محاكمته بحضور القنصل والباشا شخصيًا.
- يحق للقنصل محاكمة رعاياه الإسبان الموجودين بتراب الإيالة بدون تدخل سلطات البلاد.

1- المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1748، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق،5001، ملف13.

2- المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1748م، أ.و.ت، صندوق الوثائق الإسبانية، صندوق، 5001، ملف 13.

- إذا قام أحد الإسبان بالاعتداء على تونسي مسلم أو قتله أو قام بعمل يتنافى وأعراف البلاد فسيتم الحكم عليه وفقًا للقوانين السارية بالبلد وبحضور القنصل.
- إذا هرب أي إسباني بِدَيْنٍ لأحد التونسيين فإن القنصل لا يكون في هذه الحالة ضامنًا ولا يجب عليه إرجاع الدين إلاّ إذا كان متعهدًا وضامنًا لذلك.
- في حالة وفاة أحد رعايا الإمبراطور الإسباني بتونس ستعود جميع ممتلكاته إلى ورثته، وفي حالة عدم وجود هؤلاء الورثة تعود ممتلكات المتوفي إلى القنصل دون تدخل من أحد.
- في حالة إنهاء حالة السلم بين السلطات التونسية والإسبانية للقنصل وجميع أفراد عائلته ورعايا بلاده وأغراضهم وممتلكاتهم الأمان ولا يجب التعرض لهم بسوء أو أذى.
- يمكن للقنصل ورعايا الملك الإسباني مغادرة الإيالة التونسية بكل أمان في حالة إنهاء السلم بين الطرفين وبرفقته جميع الرعايا الإسبان بما في ذلك ممتلكاتهم وأمتعتهم.
- في حالة إنهاء السلم بين الطرفين التونسي والإسباني يحق للرعايا التونسيين مغادرة التراب الإسباني بكل أمان مرفوقين بكل مستلزماتهم.
- للقنصل الحق في إرجاع العبيد على الإيالة التونسية إذا فروا على متن إحدى السفن التجارية الإسبانية، وبإمكانه إعطاء الأمر لقائد السفينة بإعادتهم إلى بلادهم.
- بإمكان القنصل الإسباني بتونس استقبال رعايا دولته الفارين من الدول العدوة للإمبراطور إلى الإيالة التونسية.
- يمكن للقنصل الإسباني بتونس تسليم جوازات سفر ثابتة للبحارة التونسيين ورخص سير لسفنهم.

2-قراءة في بنود المعاهدة ونتائجها.

تعتبر هذه المعاهدة أول معاهدة رسمية بين الإيالة التونسية الحديثة والإمبراطورية الإسبانية منذ تحرير البلاد التونسية من الاحتلال الإسباني سنة 1574م على يد العثمانيين، وكذلك أول معاهدة بين الإيالات المغاربية وإسبانيا خلال العصر الحديث، أين تميزت العلاقات الثنائية بالصراع المستمر منذ سقوط غرناطة سنة 1492م، لتأتي هذه المعاهدة في وقت حساس تميزت فيه العلاقات الدولية بالصراع تارة وإعلان السلم تارة أخرى، خاصة داخل القارة الأوروبية التي عرفت صراعا مريرًا وطويلا، تمخض عنه تراجع قوة الإمبراطورية الإسبانية، فاسحة المجال لظهور فرنسا وإنجلترا كقوتين صاعدتين تبحثان عن مكان لهما في رسم العلاقات الدولية سواء؛ الأوروبية الأوروبية أو الأوروبية الإسلامية، إلاّ أن الهدف الأساسي الذي كان يجمع الأوربيين هو كيفية السيطرة على البلاد

الإسلامية، وبما في ذلك بلاد المغرب الإسلامي واستنزاف خيراته والاستئثار بها، خاصة بعد التراجع الرهيب للقوة العسكرية العثمانية.

وكغيرها من المعاهدات الأوروبية مع الإيالات المغاربية، فإن هذه المعاهدة جاءت لتكريس رغبة السلطات الإسبانية في الحصول على أكبر قدر ممكن من الامتيازات الأمنية والتجارية والقنصلية، داخل الإيالة التونسية، التي كان حكامها يسعون لشراء السلم بأي ثمن نتيجة للمشاكل الداخلية والخارجية التي كانوا يتخبطون فيها، خاصة مع حكام الإيالة الجزائرية؛ الذين حاولوا دائما السيطرة على مقاليد الحكم بها، أو على الأقل إخضاع الحكام التونسيين لرغباتهم، وذلك بالتدخل في شؤونهم الداخلية، ولذلك وأمام الضغوط الداخلية والخارجية كان علي باشا يسعى دائما إلى عدم إثارة المشاكل مع الدول الأوروبية القوية، وهذا ما تجسد مع السلطات الإسبانية؛ فما أن جاءته الفرصة من طرف الإسبان الراغبين في توقيع معاهدة سلام معه، حتى استغلها وقرر الموافقة على مطالبهم؛ كي يبعد مطامع خصم لطالما حاول دائما احتلال البلاد التونسية، بالرغم من أن معظم بنود المعاهدة كانت لصالح الإسبان[1]، إلاّ أن توقيع معاهدة سلم معهم كان كافيًا لرد مخاطرهم.

ثانيا: العلاقات التونسية الإسبانية ما بين 1161-1205هـ/ 1748-1791م.

المبحث الأول: المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1205ه/1791م.

تعتبر معاهدة السلام والصداقة والتجارة المبرمة بين الإيالة التونسية والإمبراطورية الإسبانية سنة 1205هـ/ 1791م من أهم المعاهدات الموقعة خلال القرن الثامن عشر الميلادي بين إسبانيا والإيالات المغاربية العثمانية، لأنها كانت بمثابة التتويج النهائي وخاتمة للمفاوضات التي أجرتها الدولة العلية العثمانية وإيالاتها مع الإمبراطورية الإسبانية، فقد عقد الصلح مع الدولة العلية سنة 1782م، ثم مع إيالة طرابلس الغرب سنة 1784م، ثم مع الإيالة الجزائرية اتفاق صلح سنة 1786م ليتوج هذا الاتفاق بمعاهدة تجارة وسلم سنة 1791م، وأخيرًا مع الإيالة التونسية في جويلية 1791م- ولا ننس المعاهدة الإسبانية مع المغرب الأقصى سنة 1767م، وهي أولى المعاهدات بين البلدان المغاربية وإسبانيا- وبذلك استطاعت الإيالة التونسية تطوير علاقاتها مع هذه الأخيرة، وفي نفس الوقت الحصول على امتيازات تجارية ودينية وسياسية، وكان ذلك بفضل حنكة وتمرس المفاوضين التونسيين الذين عرفوا كيف يفاوضون الإسبان، خاصة وأن الإمبراطورية الإسبانية فقدت الكثير من هيبتها و قوتها خلال هذه الفترة.

1- للاستزادة ينظر، المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1748م.أ.و.ت. رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 5001، ملف 13.

1-إرهاصات المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1205هـ/1791م.

هناك العديد من الأسباب التي منعت سلطات الإمبراطورية الإسبانية والإيالة التونسية من إقامة علاقات سلمية وتجارية وصداقة بينهما، يمكننا إيجازها فيما يلي:

- الاحتلال الإسباني لبلاد المغرب بداية القرن السادس عشر كان له الأثر السيئ على نفوس التونسيين، الذين كانوا يرفضون أي تقارب مع الإسبان مهما كانت الأسباب.
- الاضطهاد الإسباني للأندلسيين الموريسكيين، ولدّ كرهًا لهم في العالم الإسلامي، خاصة السكان المغاربة الذين كانوا الأقرب من إخوانهم الموريسكيين، وأكثر تأثرًا بهم بحكم معاشرتهم والقرب منهم، ومقاسمتهم الآلام والمعاناة، خاصة وأن كلاهما تعرض لنفس الاضطهاد من طرف نفس المحتل، لذلك لعب هذا الاضطهاد والتنكيل دورًا بارزًا في عدم التقارب وإقامة علاقات سلمية بين الطرفين.
- لعبت الجاليات الأندلسية دورًا بارزًا في تغذية الصراع الإسباني التونسي، لأن هذه الجالية لم تنس ما تعرض له آبائهم وأجدادهم من تنكيل وتعذيب وقتل وطرد وحتى التنصير والإبعاد عن الدين الإسلامي، لذلك كان من المستبعد جدًا إقامة علاقات سلمية طيلة المدة الزمنية الممتدة من 1574-1748م.
- الهجمات المستمرة على الإيالة التونسية من طرف القوات البحرية الإسبانية وتوابعها من الدويلات الإيطالية ومالطا، كانت من أهم الأسباب المانعة لإقامة علاقات سلمية بين الطرفين.
- المجازر المرتكبة من طرف القوات الإسبانية المحتلة لتونس سنة 1535م وما بعدها، أدت إلى إعطاء صورة سلبية لدى السكان التونسيين وقيادتهم، ومنعت من التقارب معهم.
- التضامن الموجود بين الدولة العلية وإيالاتها، أدى إلى تأخير إقامة علاقات سلمية مع إسبانيا، بحكم التبعية للسلطان العثماني، وفي نفس الوقت المصير المشترك للإيالات المغاربية مع بعضها، حيث رفضت السلطات التونسية أي تقارب مع السلطات الإسبانية ما لم يتم حلّ المشاكل مع الإيالتين الطرابلسية والجزائرية، خاصة هذه الأخيرة التي كانت بعض أراضيها، كالمرسى الكبير ووهران محتلة من طرف الإسبان.
- لعبت فرنسا دورًا مهما في اتساع الهوة بين الدولة العلية وإيالاتها المغاربية من جهة والإمبراطورية الإسبانية من جهة أخرى، لأن السلطات الفرنسية كانت تريد أن تبقى الوحيدة التي تنفرد باستغلال خيرات بلاد المغرب عامة والإيالة التونسية خاصة، لذلك عملت بكل ما في وسعها لمنع أي تقارب حقيقي بين الطرفين؛ مستعملة كل الحيل والدسائس الممكنة، فتارة بتحريض السلاطين العثمانيين وتارة أخرى

بتحريض حكام الإيالات المغاربية، وذلك باستغلال المكانة المرموقة التي كان يتمتع بها قناصلها في هذه البلدان.

1-1-العلاقات التونسية مع رهبانية الثالوث المقدس لافتداء الأسرى.

بالرغم من العداء المستمر بين إسبانيا والإيالة التونسية، إلاّ أن سلطات هذه الأخيرة أعطت هامشًا مهمًا من الحرية للبعثات المسيحية المهتمة بالأسرى المسحيين، ومن أهم هذه البعثات "رهبانية الثالوث المقدس لافتداء الأسرى" والتي يوجد مقرها بإقليم قشتالة، حيث استطاع أحد أعضائها الراهب فرانشيسكو خمينس ورئيس فرع استشفائي مخصص لعلاج الأسرى المسيحيين بتونس من توقيع اتفاق مع حسين بن علي باي في شهر جوان 1720م، كانت أهم بنوده كما يلي:

- تجديد الترخيص للمؤسسة بمتابعة رعايتها للمرضى النصارى.
- تسوية بعض المشاكل العالقة بخصوص الحقوق والامتيازات الخاصة بالراهب فرانشيسكو خمينس.
- إعطاء الحرية لهذه المؤسسة برعاية النصارى سواء أحرارًا أم أسرى والاهتمام بمصالحهم داخل الإيالة التونسية[1].

وقد كانت هذه المؤسسات الدينية الأوروبية تهتم بشؤون الأسرى المسيحيين داخل الإيالات المغاربية، يدفعها الحماس الديني المسيحي وبتشجيع من أعلى السلطات الحاكمة في أوروبا، وعلى رأسها البابوات وذلك بإرسال مبعوثين عنها إلى هذه البلدان لمساعدة الأسرى و افتدائهم وتثبيتهم على العقيدة المسيحية ومنعهم من دخول الإسلام مهما كانت الظروف والأسباب[2]، وفي مقابل ذلك كانت السلطات الإسبانية تمنع منعًا باتًا أي نشاط ديني للمسلمين مهما كان نوعه، وكل من يفعل ذلك يتعرض لأقسى أنواع التعذيب والتنكيل والقتل على يد أعضاء محاكم التفتيش وبتحريض أيضًا من الباباوات الذين يتعاملون بازدواجية غريبة حينما يتعلق الأمر بالمسلمين في بلادهم، وعكس ذلك عندما يتعلق الأمر بالمسيحيين في بلاد المغرب الإسلامي خاصة والعالم الإسلامي عامة.

وبالرغم من أن هذا الاتفاق وقع بين منظمة رهبانية الثالوث المقدس وباي تونس، إلاّ أنه لا يمكن فصل ذلك عن السياسة العامة للسلطات الإسبانية التي كان لها دورًا بارزًا في توقيع هذا الاتفاق، وقد يكون الأب فرنشيسكو خمينس الذي وقع الاتفاق مدفوعًا من أعلى السلطات الحاكمة في إسبانيا لتوقيع الاتفاق الذي يمكن

1- ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 171.

2- كوستانزيو برينا: المرجع السابق، ص 136.

أن يعتبر إلى حدٍ ما وثيقة سياسية تهدف إلى تسوية المشاكل العالقة بين البلدين[1]، أو هي بداية حقيقية لإعطاء فرصة للدبلوماسية من أجل أخذ مكان لها بدل الصراع العسكري المتواصل طيلة عشرات السنين.

1-2-المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1789م.

سبقت هذه المعاهدة، معاهدة أخرى بين الإيالة التونسية ممثلة بحمودة باشا والإمبراطورية الإسبانية ممثلة بالملك شارل الثالث، وكان ذلك سنة 1786م[2]، وجاءت بنودها خدمة لمصلحة البلدين، فيما يخص توفير الأمن لجميع السفن، سواء التجارية منها أو الحربية، حيث أراد الطرفان أن تبقى العلاقات الثنائية مستقرة يسودها التفاهم وحسن العلاقات، خاصة بعد سلسلة التفاهمات الحاصلة سابقًا، خاصة معاهدة سنة 1748م، التي وضعت الخطوط العريضة والأرضية الصلبة للعلاقات التونسية الإسبانية، حيث نصت صراحة على إقامة السلم وإقرار الصلح بين الدولتين ورعاياهما، وتثبيت هذا السلام مهما كانت الأسباب والدواعي، حتى ولو اخترقت بنود المعاهدة من أحد الطرفين، بل الواجب العمل والمحافظة على ما اتفق عليه الطرفان[3]، ومواصلة المساعي الرامية لإقرار حالة المصالحة والسلم التي بدأها الطرفان منذ بداية القرن الثامن عشر الميلادي.

ومواصلة لمساعي الطرفين الرامية لإقرار حالة السلم، توصل الطرفان إلى توقيع معاهدة جديدة سنة 1789م تتمحور أساسًا حول توفير الأمن والسلم للإسبان كما للتونسيين في عرض البحر، حيث التزم الطرفان بإقرار حالة السلم وعدم مهاجمة سفن الطرف الآخر سواء التجارية منها أو الحربية، زد على ذلك تقديم المساعدة لربابنة السفن وطاقمها، بالإضافة إلى المساعدة في إصلاحها وتوفير كل ما يلزمها من مواد[4]، وتطبيقًا للتفاهمات الحاصلة ما بين 1748-1789م بدأت المبادلات التجارية تعرف نوعًا من الازدهار، خاصة وأن الإيالة التونسية كانت بحاجة إلى الأصواف لصناعة الشاشية، وهو أول منتوج تستورده الإيالة من إسبانيا حيث تطورت نسبة الاستيراد بعد اتفاقية 1748م من 24.4 % إلى نسبة 34.1% خلال سنة 1789م[5]، وهو تطورًا ملحوظًا يجب أخذه بعين الاعتبار، ويعطينا صراحة العديد من المؤشرات التي يجب التنويه بها:

- أعطت معاهدة 1748م، الضوء الأخضر للتقارب والتفاهم، بالرغم من استمرار المشاكل بين إسبانيا والإيالتين الجزائرية والطرابلسية.
- سارع الطرفان في استغلال حالة الهدنة الموجودة بينهما، واستثمار ذلك في تطوير الشراكة التجارية.

1- ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 171.

2- المعاهدة التونسية الإسبانية 1786م، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 3408، ملف 5.

3- المعاهدة التونسية الإسبانية 1748م، أ.و.ت.س.ت، صندوق 254، ملف 705.

4- المعاهدة التونسية الإسبانية 1789م، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 3408، ملف 5.

5- كمال جرفال: المرجع السابق، ص 47.

- ساهمت الاتفاقية الموقعة بشكل كبير في تنشيط الحركة التجارية بين الطرفين.
- استطاع التونسيون تعويض نقص المواد الأولية المحلية، الخاصة بصناعة الشاشية بالاستيراد من إسبانيا، وهذا دليلا على استمرار حالة السلم بالرغم من عدم توصل سلطات الإمبراطورية الإسبانية والسلطنة العلية العثمانية إلى أي اتفاق إلى غاية 1782م.
- ساهم توفر الأمن، بعد عديد التفاهمات بين الإيالة التونسية والدول الأوروبية في زيادة النشاط التجاري.
- استقلالية حكام الإيالة التونسية عن السلاطين العثمانيين، وهذا ما نلاحظه من خلال زيادة النشاط التجاري، فيما كانت الدولة العلية في صراع مع الإمبراطورية الإسبانية، بالرغم من انخفاض حدة التوتر، بعد توقيع معاهدة 1782م.

وفي مقابل ذلك كانت السلطات الإسبانية تسابق الزمن لاستغلال هذه المعاهدة لصالحها، خاصة وأنها كانت تعيش عديد المشاكل الداخلية والخارجية الناتجة عن الانكماش الاقتصادي الحاصل حينذاك، بسبب كثرة الحروب داخل القارة الأوروبية وزيادة أعباء الخزينة العامة، مما انعكس سلبًا على جميع المجالات، خاصة الاقتصادية منها، حيث تراجع المنتوج الفلاحي إلى درجة رهيبة جدا، هذا ما حتم على السلطات الحاكمة في إسبانيا التوجه للاستيراد، فكان ملاذها الإيالة التونسية التي كانت تصدر لإسبانيا وأوروبا سنة 1788م ما يقارب 23% من القمح، و32.1 %من الفول، وهو ما يؤكد أهمية الإيالة التونسية كمصدر لتزويد إسبانيا بالحبوب وكشريك تجاري لا يمكن إغفال مكانته خلال هذه المدة.[1]

وما تجدر الإشارة إليه أن هذه المبادلات التجارية لم تكن تتم بصفة مباشرة بين البلدين، حيث كانت تتم بوساطة فرنسية وإنجليزية، أين كانت سفن البلدين تنقل البضائع والسلع إلى موانئ الإيالة التونسية والإسبانية، ومن ذلك وخلال المدة الممتدة ما بين 1750-1771م، تم تسجيل وصول سبع سفن قادمة من الإيالة التونسية إلى ميناء كاتالونيا محملة بالقمح، الشعير، الفول والصوف، لم تكن منها إلاّ سفينة إسبانية واحدة ملكًا لشخص من جزيرة مينوركة، أما البقية فهي إما إنجليزية أو فرنسية.[2]

بالرغم من انطلاق العمليات التجارية بين البلدين خلال هذه المدة، إلاّ أنها كانت محتشمة، خاصة وأن معاهدتي 1786 و1789م، لم تنص صراحة على المبادلات التجارية التي يمكن أن تحدث بين الطرفين، حيث ركزت المعاهدتان على الجوانب الأمنية بالخصوص، لأنها مفتاح أي تسوية قادمة، خاصة وأن المفاوضات بين ممثلي

1- *Daniel panzac: La Rrégence de Tunis et lamer à l'époque d'hammouda pacha bey (1782-1814) in les cahiers de Tunisie, n°165. P72.*

2- كمال جرفال: المرجع السابق، ص 47.

البلدين لم تنقطع ما بين 1786-1791م إلى غاية توقيع المعاهدة النهائية في جانفي وجويلية 1791م*، لأن المفاوضات السابقة كانت تهدف أساسًا لإيقاف العمليات الحربية وإنهاء حالة العداء المستمر بين البلدين، لذلك جاءت بنود المعاهدة التي أمضيت سنة 1789م لوقف استهداف سفن الطرفين وحماية المراكب التجارية والحربية على حد السواء، وعدم التعرض لها بسوء، وتزويدها بالماء والمؤن الضرورية إذا دعت الحاجة لذلك في موانئ الطرفين وعدم مساعدة أي طرف معاد لأحدهما إذا حدث نزاع تكون فيه الإيالة التونسية أو الإمبراطورية الإسبانية أحد أطرافه.[1]

عموما جاءت هذه المعاهدة لتكريس حالة التطبيع الحاصل بين البلدين منذ بداية القرن الثامن عشر الميلادي، خاصة بعد معاهدة سنة 1748م، والتي كرست بوضوح رغبة السلطات المحلية في كلى البلدين لوضع حدٍ للعداء المستمر الذي طال أمده، مع أنه أقل خطورة مما هو حاصل بين الإيالتين الجزائرية والطرابلسية من جهة وإسبانيا من جهة أخرى، لذلك حاول كل طرف تذليل الصعاب ومواصلة المفاوضات وعدم قطعها من أجل التوصل لاتفاق نهائي، يضع حدًا للنزاع العسكري الذي طبع العلاقات الثنائية طيلة قرنين ونصف من الزمن تقريبًا، وهذا ما حدث فعليًا سنة 1791م، بتوقيع معاهدة السلام والتجارة التونسية الإسبانية.

2-المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1205هـ/1791م.

2-1-أسباب توقيعها، سير المفاوضات، أهم بنودها ونتائجها على الطرفين.

2-1-1-أسباب توقيعها.

توفرت العديد من الأسباب التي أدت إلى توقيع هذه المعاهدة بين سلطات الإمبراطورية الإسبانية من جهة وسلطات الإيالة التونسية من جهة ثانية، خاصة وأن الإجهاد أصاب كلى الدولتين، أو بالأحرى نقول أن هذا الإجهاد والتقهقر كان انعكاسا لما أصاب الإمبراطورية الإسبانية والدولة العلية العثمانية، حيث تزامن ظهورهما على مسرح الأحداث العالمية كقوتين ناميتين تمثل كل واحدة منهما عالما منفصلا عن الآخر؛ فالدولة العلية العثمانية كانت تمثل العالم الإسلامي وتدافع عن حدوده وأهله؛ فيما كانت الإمبراطورية الإسبانية تمثل العالم المسيحي؛ خاصة العالم الكاثوليكي المصطف وراء الكنيسة الكاثوليكية، التي لعبت دورًا بارزًا في إذكاء نار الفتنة والحروب بين الطرفين، وفي نفس الوقت ومن غرائب الصدف والتاريخ أن التراجع والتقهقر أصاب الطرفين أيضًا، خاصة خلال القرن الثامن عشر وما بعده.

---

* - تم توقيع المعاهدة التونسية الإسبانية في جانفي 1791م من طرف السلطات الإسبانية وفي جويلية 1791م من طرف السلطات الإسبانية بعد وضع العديد من التعديلات على بنود المعاهدة.

1- المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1789م، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 3408، ملف 5.

ومن أهم الأسباب التي أدت إلى توقيع هذه المعاهدة نذكر:

أ-التقارب العثماني الإسباني.

مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي توصلت القيادتان العثمانية والإسبانية إلى قناعة؛ مفادها ضرورة إنهاء حالة الصراع والنّدية الذي طبع علاقات الطرفين، خاصة بعد أن تدخلت السلطات المغربية ممثلة في سلطانها محمد بن عبد الله* الذي أعطى الأولوية في سياسته الخارجية للحوار والدبلوماسية، لذلك نال ثقة كل الأطراف الراغبة في إحلال السلم في حوض البحر المتوسط، لذلك استطاع التوصل أولاً لاتفاق سلم مع السلطات الإسبانية بتاريخ 26 جمادي الأولى 1194هـ/30 ماي 1780م[1]، هذا ما شجع سلاطين الدولة العلية من أجلة الدخول في مفاوضات مع السلطات الإسبانية لتوقيع اتفاق سلم وأمن، وقد تم لهم ذلك أيضًا سنة 1782م، بفضل الدور الرائد للسلطان المغربي والمفاوض الإسباني بوليفني «Bouliony»، وكان الهدف من وراء ذلك حمل الدولة العلية للضغط على حكام إيالاتها المغاربية لإبرام معاهدات مع إسبانيا وإنهاء حالة الصراع بين الطرفين.[2]

وهنا يجب الإشارة إلى ذكاء السلطات الإسبانية وحنكتها السياسية، وتبين لنا ذلك لأنها فضلت الدخول في مفاوضات مع سلاطين الدولة العلية، بدل الاتجاه رأسًا إلى حكام الإيالات المغاربية، خاصة وأنها كانت لها تجربة فاشلة مع حكام الجزائر، مع أنها استطاعت التوصل معها لاتفاق يقضي بتبادل الأسرى بين البلدين بوساطة

* – هو محمد بن عبد الله بن إسماعيل ولد بمكناسة الزيتون سنة 1134هـ/1722 م، بويع بفاس بعد الفراغ من دفن والده مولاي عبد الله يوم الاثنين 15 صفر 1171هـ/8 نوفمبر 1757م. وهو يومئذ بمراكش، لتوجه البيعة منها إلى فاس، وقرئت على منبر جامع المنصور بالقصبة، وتولى قراءتها قاضي العاصمة الفاسية أبو محمد عبد القادر بن العربي بوخريص الكاملي الجعفري، وقد نظر في المصالح وقام بها قيامًا لم يقم به أحد من أهل عصره من ملوك الإسلام ولم يسبق إليه غيره من الخلفاء غير الراشدين الاثني عشر ولا أحد من ملوك المغرب؛ وكان إماما من علماء الإسلام له عدة تصانيف قرأت بالمشرق والمغرب، من آثاره جلب الآلات الحربية من مختلف بلاد أوربا من أجل الدفاع عن بلاده والعمل على تحرير المناطق المحتلة من طرف الإسبان، وساهم في نشر العلم وسهر على رعاية أهله، إذ سهل لطلابه أسباب طلبه، وفتح لهم أبوابه، وبذل كل ما في وسعه من أجل توفير جميع الضروريات للطلاب والمعلمين، وشجع العلماء على نشر العلم وبالتدريس والتأليف وحثهم على المنافسة بينهم من أجل رفع المستوى، وأمر بإصلاح التعليم في جامع القرويين، ووضع مناهج للتدريس فيه، والشروط التي تتوفر في المدرسين والأئمة، وقام بإصلاح القضاء وشدد على أن من يتولى مناصبه يجب أن تتوفر فيه الكفاءة والعلم الشرعي وموافقة أهل العقد والحل خاصة في العاصمة فاس، وكان يجتمع بالعلماء والأدباء ويناقشهم ولم يجعل بينهم وبينه حاجزًا، حتى كان يمازحهم ويناقشهم دليلا على تمكنه وتواضعه.

هاجم الفرنسيون في عهده مدينتي العرائش وسلاته سنة 1178هـ/1764م، وبالرغم من ضراوة الهجومين، إلاّ أنهم لم يستطيعوا احتلال المدينتين وعادوا خائبين، بعد أن تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، وكانت له العديد من المحاولات في افتكاك أسرى المسلمين، وقد اشتهر بتفضيل حل المشاكل بالطرق السلمية بدل الحلول العسكرية، وكانت له علاقات حسنة مع سلاطين الدولة العلية، وتبادل معهم العديد من المراسلات والسفارات والهدايا، وساهم في توقيع اتفاق الصلح بين الجزائر وإسبانيا ومع هذه الأخيرة والدولة العلية، بالإضافة إلى حله للعديد من المشاكل بين الإيالات المغاربية وبعض الدول الأوروبية خاصة إسبانيا... توفي يوم الاثنين 26 رجب 1204هـ/11 أفريل 1790م ودفن بالرباط.... للاستزادة ينظر: عبد الرحمن بن زيدان: المصدر السابق، ص ص 55–63؛ أحمد بن محمد الناصري: ج3، المصدر السابق، ص ص 21–26.

1– عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي...، المرجع السابق، ص 21–26.

2– يحي بوعزيز: إسبانيا تتوسط الجزائر...، المرجع السابق، ص 26.

مغربية ممثلة في أبو العباس الغسال سنة 1768م، لذلك أرادت استعمال السلاطين العثمانيين كوسطاء في عملية إحلال السلام مع حكام الإيالات المغاربية، لعلم السلطات الإسبانية بالمكانة الروحية لدى هؤلاء عند حكام الإيالات، الذين سيضطرون لإبرام المعاهدات بإيعاز وضغط من السلاطين العثمانيين.

ب-انتقال الحكم من أسرة الهابسبورغ "Habsburgs" إلى أسرة البوربون "Bourbons" في إسبانيا.

حدث في بداية القرن الثامن عشر الميلادي انتقال سلالي للحكم في إسبانيا من أسرة الهابسبورغ إلى أسرة البوربون الحاكمة في فرنسا، بعد أن استطاع فليب الخامس تأسيس أسرة مالكة من البوربون في إسبانيا، بالرغم من الفصل بين الأسرة الحاكمة الواحدة في فرنسا وإسبانيا، إلاّ أن الارتباط كان وثيقًا بين الدولتين على الأقل في السياسة الخارجية[1]، وفي تحالفاتهما، إذ أصبحت سياسة إسبانيا الخارجية مرتبطة بالسياسة الخارجية في المتوسط التي اتبعتها السلطات الفرنسية منذ زمن فرنسوا الأول؛ الذي حافظ على العلاقات الحسنة مع سلاطين الدولة العلية وحكام الإيالات المغاربية خاصة في الجانب الاقتصادي[2]، الذي حاول أصحاب القرار في فرنسا التمسك به وعدم التفريط فيه بالرغم من المشاكل الكثيرة والعقبات التي اعترضتها طيلة مئات السنين من العلاقات بين الطرفين.

ج-تغير السياسة الخارجية الإسبانية.

منذ أن تولى الوزير الإسباني الكونت دي فلوريدا بلانكا حقيبة الوزارة الأولى عمل على إنهاء حالة التوتر والصراع مع حكام البلدان المغاربية، خاصة وأنه رجل قانون لا يميل إلى الحلول العسكرية ولا يوافق على آراء زعماء الكنيسة الكاثوليكية الذين كان دأبهم إشعال فتيل الحروب، خاصة مع دول المغرب الإسلامي، لذلك اتبع سياسة الحوار وحل المشاكل بالطرق السلمية[3]، وكان مقتنعًا أن الحلول السلمية هي الطريق الوحيد لاسترجاع إسبانيا لمكانتها بين الأمم[4]، وتجلى هذا النهج الذي تبعه الوزير دي فلوريدا بلانكا بمباركة من الملك شارل الثالث سنة 1780م، عندما تم توقيع معاهدة سلام وتجارة مع المغرب الأقصى، ثم سنة 1782م مع الدولة العلية، وفي سنة 1784م مع الإيالة الطرابلسية، ثم مع الجزائر توقيع اتفاق صلح سنة 1786م، وكانت هذه الاتفاقيات مع البلدان

1- هربرت فيشر: المرجع السابق، ص 328.
2-كمال جرفال: المرجع السابق، ص 43.
3- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 25.
4-كمال جرفال: المرجع السابق، ص44.

الإسلامية دليلا واضحًا على النشاط الدبلوماسي الإسباني، وإعلانًا نهائيًا للقطيعة مع الأساليب العسكرية التي استعملتها إسبانيا منذ سنة 1492م، ومؤشرًا إيجابيًا على العمل الدبلوماسي الذي قام به دي فلوريدا بلانكا.

د-انتعاش الاقتصاد الإسباني:

كان لحركة الجهاد البحري الإسلامي عامة والتونسي خاصة أثرًا سلبيًا على نشاط التجارة الخارجية الإسبانية، خاصة الطريق البحري الرابط بينها وبين الدويلات الإيطالية ومالطا، الذي عرف نشاطًا متزايدًا نتيجة للإصلاحات الاقتصادية التي قامت بها السلطات الإسبانية منتصف القرن الثامن عشر ميلادي وما بعده، حيث عرف اقتصادها تطورًا ملحوظ وازداد مجال المبادلات التجارية مع. أوروبا الشمالية وروسيا والمشرق وحتى العالم الجديد وبلاد المغرب الإسلامي، لذلك كان يستوجب ربط علاقات دبلوماسية وتجارية وعقد معاهدات لتأمين الطرق البحرية والسفن التجارية، خاصة مع الإيالات المغاربية ومنها تونس التي تعتبر بوابة الجهة الشرقية للمتوسط.

ه-رغبة حمودة باشا في السلام:

لما تولى حمودة باشا حكم الإيالة التونسية ما بين 1782-1814م عمل على نشر الاستقرار والهدوء بالإيالة، وعين لمساعدته رجالاً اشتهروا بالكفاءة والحنكة وحسن التدبير، من أهمهم يوسف صاحب الطابع ورئيس الكتبة الشيخ محمد بن محمد الأصرم وقائد الجيش سليمان كاهية والناظر محمد العربي زروق[1]، وبفضل تكاتف الجهود استطاع القضاء على التمردات والثورات، بعد مهادنة الأعيان والزعماء في المدن البعيدة والأرياف، ليوجه أنظاره إلى الخارج حيث عمل على مهادنة الدول الأوروبية الكبرى، خاصة فرنسا وإسبانيا والدانمارك، وعمل على بناء علاقات حسنة معها، أساسها المصلحة المشتركة وعدم إثارة المشاكل لإنهاء حالة التوتر القائمة حينذاك [2]، فقد استطاع توقيع ثلاثة اتفاقيات مع إسبانيا خلال سنوات:

- 1786م وهي معاهدة تخص أمن التونسيين والإسبان في البحر، تم توقيعها بين حمود باشا والملك الإسباني شارل الثالث.[3]
- معاهدة سنة 1789م تمت بين حمودة باشا وبيترو صوشيتا قنصل إسبانيا.[4]
- ومعاهدة سنة 1791م.

1- حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ص 130، 131.

2- محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص 88.

3- المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1786، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 3408، ملف 5.

4- المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1789، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 3408، ملف 5.

وكل هذه المعاهدات دليلا واضحًا على رغبة حمودة باشا في إنهاء حالة الصراع مع إسبانيا نهائيًا، وذلك راجع لسببين اثنين:

- رغبة حمودة باشا في تنمية الإيالة.
- رغبة حمودة باشا في الحصول على امتيازات مالية كتلك التي تحصل عنها داي الجزائر مقابل إمضاء اتفاق الصلح مع إسبانيا.[1]

ز-زوال التوتر بين الدولتين.

طيلة القرن الثامن عشر لم نسجل أي صدام حقيقي بين الإيالة التونسية والإمبراطورية الإسبانية، اللهم بعض المناوشات مع البحرية المالطية التي لم يكن لها تأثيرًا كبيرًا على هدوء العلاقات بين الطرفين، خاصة بعد توقيع اتفاق سنة 1748م، الذي يعتبر أول معاهدة رسمية بين الطرفين[2]، بعد زوال الاحتلال الإسباني لتونس سنة 1574م، وبداية الحكم العثماني بها، خاصة وأن حمودة باشا عمل على إنهاء حالة التوتر مع الدول الأوروبية من أجل التفرغ لتنمية الإيالة والنهوض بها بدل إغراق البلاد في متاهات الصراعات والحروب المتواصلة خارجيًا لذلك قام بتجديد معاهدات السلم مع الدول الأوروبية.[3]

ح-إمضاء الطرابلسيين معاهدة سلم وتجارة مع الإسبان.

كان للمعاهدة الطرابلسية الإسبانية سنة 1784م، أثرًا إيجابيًا على العلاقات التونسية الإسبانية، حيث حاول الدبلوماسيون الإسبان الإسراع في إنهاء حالة التوتر مع الإيالات المغاربية، وكانت البداية من الجزائر سنة 1786م، ثم التفرغ للإيالة التونسية التي عمل الإسبان جاهدين من أجل توقيع معاهدة مع حكامها تنهي حالة التوتر والصراع بين الطرفين تكون تتمة للمعاهدات السابقة سنوات 1748، 1786، 1789م، وهو ما تم لهم فعلا سنة 1791م[4].

ط-الاتفاق الجزائري الإسباني.

عملت السلطات الإسبانية على إقناع السلطات الجزائرية بضرورة توقيع اتفاق صلح ينهي حالة الصراع والتوتر بين البلدين التي دامت حوالي 280 سنة، وأمام رفض السلطات الجزائرية لأي تسوية ما لم يتم إنهاء احتلال المرسى الكبير ووهران، توجهت السلطات الإسبانية إلى سلاطين الدولة العلية والمغرب الأقصى للتوسط

1- كمال جرفال: المرجع السابق، ص 48.

2- المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1748م، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 5001، ملف 13.

3- حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 132.

4-كمال جرفال: المرجع السابق، ص 46.

لهم والضغط على حكام الجزائر من أجل قبول إجراء مفاوضات مباشرة تتوج باتفاق سلم، وقد تحقق مسعى الإسبان وتم توقيع اتفاق بينهم وبين الجزائريين، لذلك لم تبق إلاّ الإيالة التونسية كعقبة أخيرة في وجه إقرار حالة السلم بين الإمبراطورية الإسبانية وجميع بلدان المغرب الإسلامي لذلك لعبت الجزائر دورًا بارزًا في وصول السلطات التونسية والإسبانية إلى اتفاق سلم وأمن.[1]

ي-ازدياد قوة ونشاط البحرية التونسية.

عرفت البحرية التونسية في عهد حمودة باشا انتعاشًا حقيقيًا، كان له الأثر الإيجابي على حركة الجهاد البحري، خاصة وأن مداخيل الإيالة كانت بنسبة كبيرة من عائداته، هذا ما جعل حمودة باشا ورجالات دولته يُوْلون عناية بالغة بالأسطول، لدرجة أن الباشا التونسي وأعيان البلاد كانوا يساهمون مباشرة في الجهاد البحري، كل حسب طاقته ووظيفته ومجال اختصاصه، حتى غدا الأسطول التونسي من أهم البحريات في المتوسط في ذلك الوقت، نظرًا لكثرة قطعه التي كانت على النحو التالي:

- 3 سفن ←——— تحتوي كل واحدة منها على 48 مدفعًا.
- 9 سفن من مختلف الأحجام ←——— تحتوي كل واحدة منها على 26 مدفعًا.
- 10 مراكب ←——— تحتوي كل واحدة منها على 16 مدفعًا.
- 80زورقًا ←——— يحتوي كل واحد منها إما على مدفع أو اثنان.[2]

هذا التطور لعب دورًا في توازن القوى في المتوسط؛ سواء مع إيالتي الجزائري والطرابلس الغرب أو مع الدول الأوروبية، ومنها إسبانيا التي تأكدت أن بناء علاقات سلمية مع الإيالة التونسية هو السبيل الوحيد للحصول على امتيازات تماثل ما كانت تحصل عنه فرنسا وغيرها، وأنه من المستحيل في ظل قوة البحرية التونسية العودة إلى ما كانت عليه الأوضاع بداية القرن السادس عشر أو حتى مجد التفكير في ذلك أو حتى التفكير بمطلق القرن السادس عشر.

2-1-2-سير المفاوضات.

نتيجة للعداء المستمر بين الإيالات المغاربية العثمانية وإسبانيا كان من الصعوبة بمكان إنجاح المفاوضات المباشرة بسرعة وبدون عوائق، أو إقامة علاقات ودية بين الطرفين التونسي والإسباني، زاد الأمر صعوبة أن سلاطين الدولة العلية العثمانية كانوا في عداءٍ دائمٍ مع ملوك إسبانيا، وبدون موافقة السلاطين العثمانيين لم يكن

1- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 27.

2- منصور عمر الشتيوي: حرب القرصنة بين دول المغرب العربي والولايات المتحدة، من محاضر مجلس الأمة الأمريكي، مؤسسة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1970م، ص 16.

بالإمكان إنجاح أي مفاوضات تفضي إلى عقد سلام مع السلطات الإسبانية، هذه الأخيرة أدركت متأخرة هذه الحقيقة؛ لذلك اتجهت رأسًا إلى الباب العالي واستطاعت توقيع معاهدة معه سنة 1782م بفضل حنكة دبلوماسييها وبتدخل مباشر من السلطان المغربي محمد بن عبد الله بن إسماعيل في إطار التعاون الذي كان حاصلا بين هذا الأخير وسلاطين الدولة العلية، وكانت هذه المعاهدة تقضي بسريان الصلح على جميع الولايات العثمانية بما في ذلك طرابلس الغرب، تونس والجزائر*، ولذلك طلب السلطان العثماني من جميع حكام الإيالات المغاربية الدخول في مفاوضات مباشرة مع إسبانيا على أمل توقيع اتفاقيات سلم وأمن تخدم المصالح المشتركة لهذه الأطراف.

كان لإبرام سلاطين الدولة العلية اتفاق صلح مع الإسبان، وانطلاق مفاوضات غير مباشرة مع الجزائريين، شجع الطرفان التونسي والإسباني على الدخول في مفاوضات غير مباشرة سنة 1782م، بوساطة قنصل هولندا بتونس[1] أرنولدو نيسان «Arnoldo Nyssen»[2] بالتعاون مع الأخوين خوان وخايم صولار؛ اللذان ساهما سابقًا في إقامة صلح بين السلطات الإسبانية وسلاطين الدولة العلية وطرابلس الغرب على التوالي سنتي 1782 و1784م، وبتوجيه مباشر من الكونت دي تيفو أنتث القائد العام لجزر البليار**، وقد استطاع أرنولدو نيسان سنة 1784م*** عقد لقاء سري بين مصطفى خوجة ممثلا للإيالة التونسية وخوان صولار**** ممثلا للإمبراطورية الإسبانية، هذا الأخير الذي توقف بالعاصمة تونس في طريقه إلى طرابلس الغرب، وكان متوجهًا إلى

* – باطلاعنا على قائمة المعاهدات والاتفاقيات الإسبانية التونسية في الأرشيف التونسي، وجدنا أن الدولة الحفصية عقدت خلال العصر الحديث 6 معاهدات مع إسبانيا خلال الفترة الممتدة من 1535م إلى غاية 1554م، وهي كالتالي: معاهدات سنوات (1535، 1538م)، (1547، 1548م)، (1550، 1554م)، وبعد تأسيس الإيالة التونسية سنة 1574م لم يتم إمضاء أي معاهدة إلى غاية 1748م، ثم تلتها أخرى سنة 1786، وسنة 1789م، وخاتمة ذلك معاهدة السلم والصداقة والتجارة في جويلية 1791م.

1– عبد الهادي التازي: المرجع السابق، ص 33.

2– كمال جرفال: المرجع السابق، ص 46.

** – جزر البليار تتكون من ثلاثة جزر هي: مينورقة – مينوركا التي استطاعت إسبانيا استرجاعها من إنجلترا سنة 1783م، ميورقة –ميوركا – ويابسة وهي جزر تابعة لإسبانيا.

*** – في هذه السنة استطاعت السلطات الإسبانية فتح أول قنصلية لها في الإيالات المغاربية العثمانية، وكان ذلك بطرابلس الغرب، إيذانا ببداية العلاقات السلمية بين الطرفين بعد سنوات طويلة من الصراع تكبد فيه الطرفين خسائر مادية وبشرية لا تحصى، وسبب ذلك كله هو سياسة ملوك إسبانيا العدائية وطموحاتهم الزائدة التي أدت إلى كوارث حقيقية سواء على بلاد المغرب الإسلامي أو حتى على الإسبان أنفسهم.

**** – الأخوان خوان وخايم صولار ينحدران من عائلة عريقة بمدينة ماهون عاصمة جزيرة مينوركا لعبا دورًا بارزًا في إبرام اتفاقيات السلام والصداقة بين إسبانيا والدولة العلية وطرابلس الغرب، وكمكافأة لهما عين خوان صولار 1750–1808م، قنصلا عامًا لإسبانيا في إستانبول، أما خايم صولار فقد عين قنصلا عامًا لإسبانيا بطرابلس الغرب ما بين 1791–1796م، ثم بتونس ما بين 1796–1798م، أين توفي بها في هذه السنة، مخلفًا وراءه ثلاثة أبناء هم: أرنولدو، بيدرو، وكارلوس، الذين تداولوا على إدارة القنصلية الإسبانية بتونس ما بين سنوات 1798– 1828م...للاستزادة ينظر، كمال جرفال: المرجع السابق، ص ص 49، 50.

استانبول كممثل دبلوماسي لبلاده، ومن خلال هذا اللقاء تأكد خوان صولار استعداد الباي التونسي حمودة باشا لتوقيع اتفاق صلح مع القادة الإسبان.[1]

وأمام صعوبة المفاوضات وكثرة العقبات، ومن أجل إنجاح المساعي الحميدة الرامية لإقامة صلح مع الباي التونسي حاولت السلطات الإسبانية إشراك الجزائريين كوسطاء في هذه العملية، حتى قبل توقيع اتفاق الصلح بين الطرفين سنة 1786م، للضغط على القيادة التونسية من أجل توقيع معاهدة سلام، وهذا لعلم القادة الإسبان بمدى قوة وتأثير حكام الجزائر على الحكام التونسيين، وبذلك تسهل المفاوضات وتُسَرَّع وتيرتها، على أمل إمضاء معاهدات متزامنة مع كل من الطرفين الجزائري والتونسي في نفس الوقت، تدفعهم في ذلك العديد من الحسابات، نذكر منها:

- تقليل الخسائر في حالة التوقيع الثنائي، حيث تقل تكاليف الصلح بالنسبة للإسبان.
- ضرب قيادة البلدين ببعضهما البعض، على أمل تقديم تنازلات من طرف قيادة البلدين، من أجل حسم مسألة الصلح لنيل السبق في ذلك.
- محاولة وضع القيادة الجزائرية الرافضة لأي تسوية ما لم يتم إنهاء احتلال المرسى الكبير ووهران أمام الأمر الواقع، بالضغط عنها من الجانب التونسي.
- ربح الوقت بدل تشتيت الجهود الدبلوماسية.

راسلت السلطات الإسبانية السلطات الجزائرية من أجل تسريع وتيرة المفاوضات وإنجاح مساعي الصلح، ففي رسالة لحسن وكيل الحرج إلى الوزير الإسباني الكونت دي فلوريدا بلانكا بتاريخ 21 شعبان 1199هـ/25 جوان 1785م، أعلمه أنه مازال يحاول بكل ما أوتي من قوة للتوسط بينهم وبين التونسيين، وتدعيم ما كان يسعى إليه مفاوضهم ديسبلي «El Conte Dexpilly» عند السلطات التونسية، ولذلك حاول دي فلوريدا بلانكا حثّ القيادة الجزائرية مرة أخرى من أجل العمل بكل ما في وسعها لإرغام حمودة باشا على قبول الصلح معهم، حيث يقول في رسالة موجهة إلى حسن وكيل الحرج: «... **إن الملك الإسباني يرجو منك أن تبذل جهدك وتتصل بباي تونس وتحثه على إبرام الصلح مع إسبانيا... وبأن ديسبلي سيحدثك بالتفصيل على كل ما يريد الملك قوله وذلك عندما يحضر إلى الجزائر...**».[2]

وفي شهر فيفري 1786م تم إيفاد المدعو بازيلني من الجزائر إلى تونس من أجل مواصلة المفاوضات، وقد استطاع إقناع القيادة التونسية وعلى رأسها حمودة باشا بتوقيع معاهدة باسم الملك الإسباني شارل الثالث تخص

1- كمال جرفال: المرجع السابق، ص 49.

2- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 28.

أمن التونسيين والإسبان في البحر[1] وهي عبارة عن هدنة مدتها 6 أشهر، وتعتبر هذه الهدنة مبادرة حسن نية لإيقاف جميع الأعمال العدائية من طرف السلطات الإسبانية تجاه الإيالة التونسية[2].

وبالموازاة مع المفاوضات التونسية الإسبانية، كانت هناك مفاوضات إسبانية جزائرية لإبرام اتفاق ينهي حالة الصراع بين الطرفين، ولذلك بادر الداي محمد بن عثمان باشا بإعلان إنهاء جميع الأعمال العدائية الحربية ضد إسبانيا مهما كان نوعها ابتداءً من 12 نوفمبر 1785م إلى غاية 10 فيفري 1786م[3] كمبادرة حسن نية في إحلال السلم والأمن مع السلطات الإسبانية الراغبة هي أيضًا في ذلك.

ولحرص السلطات الإسبانية على إقرار حالة السلم والأمن مع جميع الإيالات المغاربية العثمانية، وبتوصية من قنصل هولندا نيسان تم إرسال صهره صولار كمفاوض للسلطات التونسية بحكم معرفته الجيدة بالبلاد وعلاقاته الوطيدة بأعيانها، زد على ذلك إتقانه الجيد للغة العربية بحكم مخالطته للسكان المغاربة، ولذلك وفي 3 فيفري 1786م وصل إلى حلق الوادي مصحوبًا بمتصرف المستشفى الإسباني، ومباشرة بدأ في إجراء مفاوضات مباشرة مع الوزير مصطفى خوجة أولاً ثم الباي حمودة باشا.[4]

بدأت المفاوضات الإسبانية التونسية وقد تركزت حول بنود الاتفاق، و الأعباء المالية المترتبة عنه، حيث كان التونسيون يصرون على دفع مقابل مالي كبير جدًا شبيهًا بما تحصلت عليه السلطات الجزائرية، في مقابل إعطاء الإسبان امتيازات تجارية وقنصلية وإقرار حالة السلم والأمن بين الدولتين، إلاّ أن الممثل الدبلوماسي الإسباني خايم صولار رفض بشدة هذه الشروط التعجيزية حسبه، لأن الإيالة الجزائرية تختلف عن الإيالة التونسية، خاصة وأن المفاوضات الجزائرية الإسبانية كانت متقدمة وعلى وشك توقيع اتفاق صلح، لذلك أراد المفاوضون التونسيون استغلال هذا الأمر لصالحهم والاستفادة ماديًا، ومع ذلك لم يحاول خايم صولار قطع المفاوضات والعودة إلى بلاده لعلمه المسبق برغبة سلطات بلاده في إقامة صلح مع الإيالات المغاربية العثمانية، وقرر مراسلة الملك الإسباني ووزيره دي فلوريدا بلانكا يطلب منهما الموافقة على المطالب المالية التونسية؛ لأنه لا يمكن إقامة صلح معهم بدون مقابل مادي مهما حاول الإسبان، إلاّ أن الوزير الإسباني دي فلوريدا بلانكا رفض رفضا قاطعا دفع مليون بيزيتا للباي التونسي، واعتبر ذلك ابتزازًا بحق بلاده يجب رفضه مهما كان.[5]

1- المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1786م، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 3408، ملف، 5.

2- ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 258.

3- يحي بوعزيز: المراسلات الجزائرية الإسبانية ... المرجع السابق، ص 33.

4- كمال جرفال: المرجع السابق، ص 49.

5- نفسه.

أمام تعثر المفاوضات، رأى الوزير الأول الإسباني دي فلوريدا بلانكا أن الحل يكمن بيد السلطات الجزائرية؛ وعلى رأسهم الداي محمد بن عثمان باشا وحسن وكيل الحرج وعلي آغا الخزندار، لذلك بعث لهم برسالة بتاريخ 31 أكتوبر 1786م، يشكرهم فيها أولا لموافقتهم على إبرام الصلح مع بلاده، وثانيًا طلب منهم مواصلة مساعيهم وجهودهم الرامية للمساعدة على التوصل لاتفاق مع السلطات التونسية مخبرًا إياهم أنه على يقين بأن مفاتيح الحل وشروط الصلح بأيديهم نظرًا للتأثير الجزائري على البيت الحاكم التونسي، فما كان من السلطات الجزائرية إلاّ الاستجابة لهذا الرجاء، حيث سارعت في بعث رسالة إلى الوزير التونسي مصطفى خوجة تطلب منه الموافقة على بعث المفاوضات من جديد مع الإسبان، وإعادتها إلى مجراها الطبيعي في أقرب فرصة ممكنة على أمل التوصل لاتفاق يرضي الطرفين[1]، ويتماشى ومتطلبات المرحلة المتسمة بالمحاولات الإسبانية المتكررة لإزالة جميع الحواجز والعقبات، ومواصلة الجهود على أمل إعادة الدفء والهدوء إلى العلاقات الإسبانية المغاربية بعد مئات السنين من العداء والندية.

تماشيًا وسياسة دي فلوريدا بلانكا الرامية لإقامة اتفاقيات سلام مع حكام الإيالات المغاربية، وأمام فشل خايم صولار في مساعيه الرامية لعقد اتفاق مع التونسيين، قرر إبعاده عن هذه المهمة، وتعويضه ببيدرو صوشيتا «Pedro Suchita» لعله ينجح فيما فشل فيه سلفه، ويحاول إقناع الباي التونسي ومعاونيه بضرورة بعث المفاوضات من جديد، لذلك سارع بمغادرة الجزائر باتجاه العاصمة تونس، التي وصلها بتاريخ 20 فيفري 1787م، برفقة مساعده فنتورا بوزاران «Ventura Buzaran»، ومباشرة بعد وصولهما إلى تونس بدأ المبعوثان الإسبانيين المفاوضات مع القيادة التونسية، التي رضخت للحجج التي قُدمت لها من طرف بيدرو صوشيتا، ووافق حمودة باشا على تمديد الهدنة الموقعة سابقًا إلى غاية شهر ديسمبر سنة 1787م.[2]

مع أنَّ الطرفين توصلا لتمديد الهدنة طيلة سنة 1787م، إلاّ أن المفاوضات فيما بعد كانت طويلة وشاقة تعَسّر معها التوصل لحل نهائي، وبذلك وصلت إلى طريق مسدود، نتيجة تمسك كل طرف بمواقفه حول كيفية وثمن الاتفاق؛ فالباي التونسي حمودة باشا رفض مطلقًا إقامة أي صلح ما لم تدفع السلطات الإسبانية مقابلاً ماديًا تعويضًا عن الأضرار التي أُلحقت ببلاده، نتيجة للهجمات المتوالية واحتلال البلاد التونسية، وفي نفس الوقت حاول جعل مكانة بلاده في نفس المرتبة مع الإيالة الجزائرية التي استطاعت توقيع اتفاق صلح مع الإسبان بتاريخ 14 جوان 1786م، تحصلت بموجبه على امتيازات مالية هامة قدرت بحوالي 4.5 مليون دولار[3]، بما في ذلك هدايا

1- يحي بوعزيز: إسبانيا تتوسط الجزائر... المرجع السابق، ص 31.

2- كمال ماندي: المرجع السابق، ص 119.

3- منصور عمر الشتيوي: المرجع السابق، ص24.

قدمت للداي وحاشيته من أجل قبول الصلح، -بالرغم من أن هذه المبالغ الضخمة لم تكن أبدًا في مستوى تضحيات الجزائريين طيلة مئات السنين- فيما كان المفاوض الإسباني بيدرو صوشيتا يحمل تعليمات صارمة وواضحة من طرف سلطات بلاده وعلى رأسها دي فلوريدا بلانكا تمثلت في:

- عدم الالتزام أمام التونسيين وفي مقدمتهم الباي حمودة باشا بمنحهم أي مبلغ مالي مقابل الموافقة على إقامة الصلح.
- عدم قطع المفاوضات مهما كانت العراقيل والصعاب، حتى وإن غال التونسيون في مطالبهم.[1]

وهنا يجب إبداء بعض الملاحظات حول هذا الموضوع، نذكر منها:

- حاولت السلطات الإسبانية منع تكرار ما حصل لها مع الجزائريين، لأنها دفعت مبالغًا مالية ضخمة ولا تريد تكرار ذلك مع التونسيين للفارق الموجود بين قيادة البلدين وطريقة التعامل مع كل واحدة منهما.
- كانت السلطات الإسبانية تدرك أن الجزائريين لا يمكن إقامة سلام معهم بدون دفع الأموال في سبيل ذلك، خاصة وأن المرسى الكبير ووهران ما زالتا تحت احتلالهما، على عكس التونسيين الذين كانت بلادهم محررة كاملة.
- حاولت السلطات الإسبانية تحقيق الصلح مع التونسيين بأقل التكاليف لذلك رفضت المبالغ الضخمة التي طالب بها حمودة باشا، وفي نفس الوقت عدم قطع المفاوضات، متبعة سياسة شد العصا من الوسط حتى تحقق رغبتها في إقامة السلم.
- كانت السلطات الإسبانية حريصة على إقامة الصلح مع التونسيين، لذلك أعطت تعليمات صارمة بعدم قطع المفاوضات، أملاً في تراجع التونسيين عن مطالبهم والقبول بالشيء القليل في مقابل إمضاء الاتفاق.
- حاول المفاوضون الإسبان اللعب على عامل الوقت، والمماطلة لعل القيادة التونسية ترضخ لرغباتها وتتراجع عن مطالبها المبالغ فيها.

بالرغم من تعثر المفاوضات لتمسك كل طرف بشروطه، إلاّ أنها لم تنقطع، لأن بيدرو صوشيتا اقتنع بأنه لا مفر من تحقيق رغبة الباي في الحصول على التعويض المادي في مقابل الموافقة على إقامة الصلح، لذلك بعث إلى سلطات بلاده يخبرهم بالأمر ويطلب منهم الموافقة على مطالب حمودة باشا وعدم التسرع في رفض هذه

1- كمال جرفال: المرجع السابق، ص 50.

المطالب، لأنه لا سبيل لتحقيق السلم إلاّ بذلك، مخبرًا إياهم أن الباي طلب دفع مبلغً من المال قدره 250 ألف قرش إسباني، زيادة على 30 ألف قرش أخرى كهدايا وأتعاب حرب.[1]

أثناء سير المفاوضات –حتى ولو كانت في بعض المرات تتعثر– طرأت مستجدات جعلت الإسبان يتريثون ولا يستعجلون حسم الأمور بسرعة، حتى يروا ما ستسفر عنه الأحداث، وذلك أن سلطات الإيالتين الجزائرية والتونسية وقع بينهما خلافا بسبب اتهام السلطات الجزائرية لنظيرتها التونسية بإيواء متمردين عنها في الشرق الجزائري، كما اتهموا السلطات التونسية بتشجيع وتأليب بعض القبائل ضد سلطة باي قسنطينة والحكم العثماني بها[2]، إلاّ أن الحقيقة الماثلة للعيان هي أنها ليست هذه المرة الأولى التي تحدث فيها مثل هذه المشاكل؛ ولكن الإسبان أرادوا استغلال هذه الظروف لصالحهم وضرب الإخوة الأعداء ببعضهم البعض حتى يسهل فيما بعد التفاوض معهم وإمضاء الصلح بأقل التكاليف، إلاّ أن الباي التونسي أدرك هذه الحقيقة وأسرع في إرضاء السلطات الجزائرية؛ وذلك بتقديم تعويض مالي عَجَّلَ بإنهاء حالة التوتر، وجنب البلدين حرب كادت تكون عواقبها وخيمة على الطرفين، خاصة وأن الإسبان المتربصين كانوا على وشك إنهاء المفاوضات.

بالإضافة إلى هذا السبب كان هناك سببًا آخر، جعل الباي التونسي حمودة باشا يسارع إلى مهادنة الجزائريين، وذلك أنه تناهى إلى مسامعه أن هجومًا إيطاليًا وشيكًا على بلاده[3] قد يخلط جميع الأوراق ويجعله في موقع ضعف أمام مفاوضيه الإسبان الذين ينتظرون مثل هذه الفرص، وقد يكونوا هم المحرضين الأساسين للإيطاليين على القيام بمثل هذه الأعمال، بسبب الارتباط الوثيق بينهم وبين الإسبان الذين كانوا يريدون إنهاء المفاوضات في أسرع وقت ممكن وبأقل التكاليف.

وبعد إعادة العلاقات الجزائرية التونسية إلى طبيعتها، عاودت السلطات الإسبانية الرجوع إلى طريق المفاوضات بعد مماطلات كبيرة؛ إلى درجة انسحاب بيدرو صوشيتا تاركا بدلاً عنه مندوبًا ثانويًا يدعى ڤينتورا بوزران حتى لا تنقطع المفاوضات نهائيًا، إلاّ أنه بعد مشاورات عديدة مع سلطات بلاده قرر صوشيتا العودة إلى الإيالة التونسية لمواصلة المفاوضات، التي وصلها في جويلية 1789م، حيث استأنف الحوار مع التونسيين إلى غاية 12 سبتمبر من نفس السنة، وقد استطاع خلال هذه المدة إقناع السلطات التونسية وعلى رأسها حمودة باشا بتخفيض مطالبهم المالية تدريجيًا من مليون بيزتيا إلى 200 ألف، إلاّ أن فلوريدا بلانكا رفض تمامًا تقديم هذا المبلغ

1- ألفونص روسو: المصدر السابق، ص260.

2- عطية محمد: المرجع السابق، ص 111.

3- حصام صورية: العلاقات بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، الجزائر، 2013، ص 91.

المرتفع حسبه، لذلك حاول بيدرو صوشيتا المماطلة ومحاولة تخفيض المبلغ مرة أخرى، حيث استطاع إقناع التونسيين بضرورة تخفيضه إلى 100 ألف بيزتيا، وحينها راسل صوشيتا سلطات بلاده وأخبرها بتاريخ 12 سبتمبر 1789م أن التونسيين وافقوا على توقيع معاهدة مقابل مبلغ زهيد تدفعه السلطات الإسبانية تمثل في 100 بيزتيا[1]، ولم يبق إلا التوقيع النهائي للمعاهدة، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على:

- براعة وحسن التفاوض عند بيدرو صوشيتا.
- رغبة الإسبان الملحة في عقد صلح بأقل التكاليف وبأحسن البنود التي تخدم المصالح الإسبانية.
- طول نفس المفاوضين الإسبان وعدم التعجل في حسم المفاوضات بسرعة.
- التسرع الذي ميز القيادة التونسية، وإلاّ كيف نفسر تخفيض المبلغ من مليون بيزيتا إلى 200 ألف ثم 100 ألف فقط.
- تقلب مواقف المفاوضين التونسيين، والإسراع في إعطاء التنازلات للإسبان، الذين كانوا أكثر حنكة وتمرس منهم.
- ضعف القيادة التونسية أمام نظيرتها الإسبانية، خاصة بعد المشاكل التي حدثت مع الجزائريين والمخاوف من الهجوم الإيطالي المحتمل أربك التونسيين وجعلهم يسارعون في حسم المفاوضات مهما كان الثمن.
- حياد السلطات الجزائرية أو لنقل ضغطها على القيادة التونسية أعطى الإسبان دفعًا كبيرًا وجعلهم يفاوضون من مركز قوة على عكس المفاوضين التونسيين الذين لم يجدوا بديلاً عن القبول بإمضاء المعاهدة وبأقل مبلغ من المال.
- كانت القيادة التونسية تحت ضغط الأحداث؛ لأنها الوحيدة التي لم تُمض معاهدة مع الإسبان، فقد سبقتها الدولة العلية وإيالتي طرابلس الغرب والجزائر، وبالتالي كان الضغط عليها شديدًا ولم يكن بالإمكان رفض إمضاء المعاهدة، لذلك فضلت المقابل المادي القليل والرضوخ لشروط الإسبان ولم يكن بالإمكان أكثر مما كان.

2-1-3-توقيع المعاهدة.

بعد مفاوضات عسيرة وطويلة دامت عدة سنوات تخللتها إمضاء اتفاقيتان[2] تخص أمن الطرفين والعديد من الهدن دليلا على حسن نوايا الطرفين ببعضهما البعض، وتعبيرًا عن رغباتهما في التوصل لحل نهائي ينهي حالة الصراع الذي دام عشرات السنين، لذلك وبتاريخ 1 جمادي الأولى 1205هـ/1 جانفي 1791م تم توقيع معاهدة

1- كمال جرفال: المرجع السابق، ص 50.

2- المعاهدتان التونسية الإسبانية سنتي 1786-1789م، أ.و.ت رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 3408 ملف 5.

الصلح وتحسين العلاقات الإسبانية التونسية من طرف السلطات التونسية وبتوقيع حمودة باشا شخصيًا والوزير إبراهيم داي وأحمد آغة الإنكشارية بقصر باردو[1]، ولم يتم توقيعها من طرف الملك الإسباني شارل الثالث إلى غاية جويلية 1791م[2]، بسبب بعد المسافة بين البلدين والإجراءات المتبعة في مثل هذه الأمور، فقد تم إرسالها إلى إسبانيا لدراستها والموافقة عليها، بالإضافة إلى أن السلطات الإسبانية كان لها العديد من الاعتراضات على بعض البنود التي تم تعديلها والموافقة على الصيغة النهائية على بنود المعاهدة*، ومن ثم تم التوقيع عليها من طرف الملك الإسباني شارل الثالث وقد اشتملت هذه المعاهدة على 26 فصلاً -بندًا- تخص الجوانب السياسية والأمنية والتجارية والحقوق القنصلية والدينية.

3-أهم بنود المعاهدة حسب ما ورد في نصها الأصلي[3]

أ-الجانب السياسي-البنود: 1، 20، 24، 26.

- إقامة الصلح والسلام بين الدولتين التونسية والإسبانية.**
- يعم الصلح والسلام رعايا الدولتين.
- لا يمكن بأي حال من الأحوال الإسراع في قطع العلاقات السياسية وإنهاء حالة السلام، إذا ما حدث خرق أو مخالفة لبنود الاتفاقية، بل الواجب على من أحسَّ بالظلم والضرر عرض دلائله وادعاءاته على حكومة الطرف الآخر، وإثبات الضرر الذي لحق به؛ وبمعنى آخر إعطاء أكبر قدر ممكن للدبلوماسية من أجل حلِّ الخلافات العالقة بالطرق السلمية والودية، بدل قطع العلاقات وإعلان الحرب.
- لإعطاء القيمة الحقيقية لهذه المعاهدة وجعلها بمثابة الوثيقة الرسمية التي تحدد مسار العلاقات السلمية بين الطرفين التونسي والإسباني مستقبلا، يجب توقيعها من طرف الداي التونسي حمودة باشا شخصيًا والإمبراطور الإسباني شارل الثالث وكذلك الوزير الأول دي فلوريدا بلانكا في أسفل المعاهدة، دليلا على طابعها الرسمي وأهميتها في إقرار حالة السلم بين الطرفان.

1- كمال جرفال: المرجع السابق، ص 50.

2- المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1791م، أ.و.ت.س.ت، صندوق 254، ملف 705.

* - تحصلنا من الأرشيف التونسي على وثائق تحتوي على العديد من البنود المعدلة، مكتوبة باللغة العصمانلية والإيطالية، للاستزادة ينظر، البنود المعدلة من المعاهدة التونسية الإسبانية، أ، و، ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق، 3408، ملف، 5، فرعي، 3.

3- المعاهدة التونسية الإسبانية، أ.و.ث.س.ت، صندوق 254، ملف، 705، الملحق.

**- من خلال نص المعاهدة نلاحظ أن الإيالة التونسية يشار إليها كدولة مستقلة بعيدًا عن أي وصاية، وهي في نفس المستوى مع الإمبراطورية الإسبانية.

- يتعهد الطرفان التونسي والإسباني بالمحافظة على السلام القائم بينهما ويلتزمان بعدم خرق بنود المعاهدة أو محاولة الالتفاف عليها ومخالفة بنودها بأي عمل كان وتحت أي طائل.
- يتعهد الإمبراطور الإسباني شخصيًا رفقة الوزير الأول الكونت دي فلوريدا بلانكا والباي التونسي حمودة باشا بالمحافظة على ما اتفق عليه الطرفان حين توقيع المعاهدة.

ب-الجانب الأمني –البنود-2، 3، 4، 5، 6، 7، 11، 21، 23.

- إذا صادف البحارة التونسيين في عرض البحر سفنًا تجارية إسبانية وتأكدوا من عدم ارتكابها لأي مخالفة، يجب عليهم عدم إلحاق الضرر بها أو المساس بالسلع الموجودة فيها.
- إذاكانت السفن الإسبانية في عرض البحر وجب على التونسيين مساعدتها وتزويدها بالمؤن أو أي شيء آخر يلزمها.
- يجب صعود بحاران فقط من البحرية التونسية، يكونان على متن زورق واحدة فقط إلى السفينة الإسبانية، بحيث يكونا بدون أسلحة حتى لا يحدثا الهلع والرعب لدى طاقمها وركابها.
- تكون المعاملة بالمثل كذلك من الإسبان؛ إذا تعلق الأمر بالسفن التونسية.
- إذا حدث وأن لجأت السفن التونسية أو الإسبانية؛ سواء الحربية منها أو التجارية إلى أحد موانئ البلدين، لأي سبب من الأسباب كان، يجب استقبالها بمودة ومعاملة طاقمها معاملة حسنة، وتزويدها بجميع حاجياتها بدون مانع مهما كان، دليلا على حسن العلاقات.
- إذاكانت الإمبراطورية الإسبانية في حالة حرب مع إيالتي الجزائر أو طرابلس، وأسرت إحدى سفنها من طرف بحارة البلدين، واقتيد طاقمها أو ركابها إلى الإيالة التونسية أو أحد موانئها، فلا يمكن للتونسيين شراؤهم أو ترخيص بيعهم في جميع تراب الإيالة، ونفس الأمر بالنسبة للسفن التونسية التي تقتاد إلى الموانئ الإسبانية، ويجب معاملتها بالمثل كما يفعل التونسيون.
- إذا حدث وأن وجد البحارة التونسيين رعايا دول معادية لهم على متن سفن إسبانية، فلا يجب الاعتراض لهم بسوء أو التعدي عليهم وأسرهم إذاكان عددهم لا يتجاوز ثلث ركاب السفينة، أما إذاكان أكثر من الثلث فيمكنهم الاحتفاظ بهم واسترقاقهم، وهذا لا ينطبق على التجار والركاب العاديين مهما بلغ عددهم.

- إذا وجد التونسيون رعايا الملك الإسباني على متن سفن معادية لهم، فلا يجب التعرض لهم بسوء أو الاستحواذ على ممتلكاتهم؛ إذا أثبتوا جواز سفرهم الإسباني ووثائق الشحن، ومن لم يثبت ذلك يمكن أسره واسترقاقه وانتزاع أملاكه، ويعامل الإسبان التونسيين بالمثل الذين لهم نفس الوضعيات.
- يجب على التونسيين الإسراع في نجدة السفن الإسبانية التي تغرق بسبب سوء الأحوال الجوية أو بسبب ملاحقة الأعداء لها وتزويدها بكل ما يلزمها.
- يجب على التونسيين عدم فرض أي أداء جمركي على السلع والأغراض التي يتم إنقاذها.
- في حالة إن تعرضت إحدى السفن التجارية الإسبانية لأي عطب على الأراضي التونسية، وأراد ملاكها الإسبان بيعها هناك، تفرض عنهم الضرائب المتفق عليها بين الطرفين بدون زيادة.
- يدفع الإسبان للتونسيين مبالغ مالية نظير مساعدتهم وإنقاذ سفنهم وطاقمها وأغراضها.
- يتصرف الإسبان بالمثل على سواحلهم تجاه السفن التونسية الغارقة والتي يحتاج طاقمها للمساعدة.
- لا يمكن للتونسيين نجدة أو مساعدة أي دولة في حالة حرب مع إسبانيا؛ سواءً بالذخيرة أو الأسلحة، ويمكن لهم السماح لها بالتزود بالماء والمؤن دون المستلزمات الحربية.
- لا يمكن للتونسيين إعارة رايتهم أو جوازات السفر والذخيرة الحربية للمراكب المعادية؛ قصد القيام بعمل معادٍ للإمبراطورية الإسبانية، ولا يمكنهم تمكين هذه المراكب من التسليح في موانئهم.
- إذا حدث وأن أسرت دولة معادية للإيالة التونسية بعض رعاياها سواء من المسلمين أو المسيحيين على متن سفينة إسبانية، فإن السلطات الإسبانية تسارع في المطالبة بإرجاعهم وإطلاق سراحهم ثم إرجاعهم إلى الإيالة التونسية بواسطة القنصل الإسباني مع أملاكهم التي انتزعت منهم، وإن تعذر ذلك تعوض السلطات الإسبانية لهم خسائرهم بعد معاينتها، ويتم تخليصهم من العبودية والاسترقاق، مثلما تفعل بقية الدول المسيحية الصديقة للإيالة التونسية.
- تتعهد السلطات التونسية بالمعاملة بالمثل؛ إذا حدث وأن أسر تحت رايتها الرعايا الإسبان وممتلكاتهم من قبل دولة معادية للإمبراطورية الإسبانية، سواء بإعادة أملاكهم أو تعويضها، وإن تعذر عليها ذلك تخلصهم من الأسر والعبودية.
- إذا اعتدى القراصنة الإسبان في عرض البحر على السفن التونسية وألحقوا بها أضرارًا تعاقبهم سلطات بلادهم بما يناسب جرمهم المرتكب.

- إذا اعتدى البحارة التونسيين على المراكب الإسبانية وألحقوا بها أضرارًا يعاقبون ويلزمون بإرجاع ما انتزع غصبًا، وتلقى المسؤولية على ملاك البحارة.
- في حالة إرساء سفينة حربية إسبانية في إحدى الموانئ التونسية يُعْلِمْ القنصل قادة الموانئ بذلك، لكي يصدروا أوامرهم للقلاع لتحيتها بنفس عدد طلقات المدفعية التي تُحي بها السفن الحربية الفرنسية، ونفس الشيء إذا التقت السفن الحربية الإسبانية والتونسية في عرض البحر، وجب عليهم تبادل التحية وإظهار الاحترام والمودة لبعضهما البعض، ويتم ذلك برضى الطرفين تعبيرًا عن السلم السائد بين البلدين.

ج-الجانب التجاري -البنود-08، 09، 10، 12، 25 -فصل ملحق-

- السفن من نوع فراقط «Fregates» ومربعات الأشرعة «Polacres» والشباك «Chabèque» الرافعة للعلم الإسباني والتي تمر بالإيالة التونسية لا تدفع سوى 25 بيزتيا كحق للإرساء بالموانئ و5 بيزتيا أخرى لحراس الديوانة مقابل أتعابهم، ولا يجب إجبار طاقمها على دفع أتعاب وإتاوات أخرى مهما كانت.
- السفن الإسبانية التي ترسو في الموانئ التونسية للتزود بالماء والمؤن لا تتعرض للمعاملة السيئة ولا لأي مضايقات، ويجب إعطاء الأوامر من السلطات العليا في الإيالة للعمال وقادة الموانئ بأن لا يفرضوا عنها أداء الإرساء أو طلب أداءات أخرى مهما كان نوعها.
- التجار والرعايا الإسبان الذين يتاجرون في مراسي وموانئ الإيالة التونسية ويُنزلون سلعهم لبيعها، يدفعون نفس الرسوم التي يدفعها التجار الفرنسين.
- التجار التونسيون الذين يذهبون للتجارة في موانئ إسبانيا؛ سواء على متن سفن تونسية أو إسبانية، وينزلون سلعهم لبيعها يدفعون نفس الأداءات الجمركية التي يدفعها المسلمون الآخرون بإسبانيا.
- إذا جلب أحد الطرفين سواء كان قبطانًا أو تاجرًا إلى إسبانيا أو الإيالة التونسية سلعًا، ولم يستطلع بيعها أو لم يرغب في ذلك، ثم أراد نقلها إلى مكان آخر بعد أن أنزلها أرضًا، فيمكنه شحنها من جديد بدون أي صعوبة تذكر وفي ظرف سنة على متن سفينة إسبانية أو تونسية، بشرط احترام القواعد والاحتياطات المنصوص عليها -سنة كاملة-ولو بساعة واحدة فإنه يجب عليه دفع الإتاوات المعمول بها.
- إذا دخلت السلع الميناء ثم رغب أصحابها في نقلها إلى سفينة أخرى قبل إنزالها فإنه لا يُدْفع سوى نصف الأداءات الجمركية كما هو معمول به في تونس منذ القديم.
- لا يمكن انتزاع قيادة المركب لأي قبطان بدون سبب قانوني.

- لا يحق للتجار الإسبان تصدير مواد من الموانئ التونسية تمنع سلطات البلاد تصديرها أو توريد مواد تمنع هذه الأخير توريدها، ويطبق نفس الأمر على التجار التونسيين في إسبانيا، بمعنى الامتناع عن تصدير مواد تمنع السلطات الحاكمة تصديرها أو توريد مواد تمنع هذه الأخير توريدها، والامتثال لنفس القواعد الجارية العمل بها مع باقي المسلمين بالبلاد.
- إذا جلب التجار الإسبان إلى الإيالة التونسية سلعًا من دول معادية لها، وجب عليهم دفع 10% من قيمتها كأداء جمركي مثلما يدفع التجار الفرنسيين وبقية الدول الصديقة للباي التونسي.
- يجب على كل التجار التونسيين الذين يقصدون إسبانيا للتجارة مباشرة معها انطلاقا من الإيالة التونسية أو من أي ميناء آخر للإيالة المرور أولاً بماهون «Mahom» لقضاء مدة الحجز الصحي المعهودة، ثم التوجه بعد ذلك إلى مالقا «Malaga»، ثم أليكنت «Alicante» أو برشلونة «Barcelone» وهي الموانئ الثلاثة الوحيدة المعنية لتجارتهم بإسبانيا، أما إذا خصص ميناء آخرًا بسبب الطقس لقضاء الكرنتيه* فيسمح للتونسيين المرور إليه بدون صعوبة.
- إذا كانت أي سفينة تونسية سواء للبحارة** أو للتجار في حاجة إلى التزود بالماء والمؤن والمواد الضرورية والقلفطة*** الخاصة بها أو تبحث عن ملجأ بسبب سوء الطقس أو هروبًا من الأعداء، يمكنها الدخول بدون مانع إلى موانئ ومراسي برشلونة، ملقا، أليكنت، قادس، جزر مايوركا، ومينوركا وإبيزا وإلى بقية موانئ الإمبراطورية الإسبانية، ويمكنها البقاء المدة الضرورية للتزود والقلفطة ثم مغادرتها بأمان.
- جميع تجار الإيالة التونسية عندما يذهبون للتجارة داخل الأراضي الإسبانية وجب عليهم حمل جواز سفر يسلمه القنصل الإسباني المقيم بتونس.
- كل التجار التونسيين الموجودين في الدول الإسلامية الأخرى أو البلدان المسيحية ويريدون الذهاب إلى إسبانيا للتجارة عليهم حمل جواز السفر من القناصل الإسبان المقيمين في هذه البلدان، وبدون أن يدفعوا أي شيء للحصول عليه، وذلك لإثبات انتمائهم للإيالة التونسية ولتفادي وقوع أي مشاكل.
- عندما يجلب التونسيون إلى إسبانيا أي بضاعة يكون منشأها الإيالة التونسية، يدفعون نفس الأداءات الجمركية التي يدفعها بقية المسلمين.

* – الكرنتيه: وهي المدة التي تقضيها السفن حتى هدوء الطقس واعتداله.

**– في نفس الترجمة الأصلية استعمل لفظ القراصنة بدل البحارة، أما نحن فقد استعملنا لفظ البحارة كما هو معمول به في سائر صفحات هذا البحث، اعتقادًا منا أن البحارة هي الصفة التي يجب إطلاقها عنهم، لأنهم لم يكونوا لصوصًا بالمفهوم الأوروبي.

***– القلفطة: معناها الصيانة وإزالة المواد العالقة بالسفينة.

- يدفع الإسبان القادمون إلى الإيالة التونسية ومعهم سلع من إسبانيا نفس الرسوم الجمركية التي يدفعها الفرنسيون، مع التمييز بين السلع الإسبانية التي تنقل على متن سفن إسبانية وبين تلك التي تأتي من إسبانيا أو من جهة أخرى على متن سفن غير إسبانية، وهي التي يجب عليها دفع مقدار من الرسوم، كما هو الشأن بالنسبة للفرنسيين على السلع التي ليست إسبانية والتي تجلب على متن سفن دول أخرى.
- يدفع التجار التونسيين على السلع التي لا تكون من الإيالة التونسية وتحمل على متن سفن غير تونسية أو إسبانية، نسبة مئوية من الرسوم الجمركية كالتي يدفعها المسلمون عندما يأتون بسلع إلى إسبانيا من بلدان أخرى وليست من بلدانهم الأصلية.
- تحديد ثلاثة موانئ إسبانية للتجار التونسيين للممارسة نشاطهم بها وهي موانئ: مالقا، أليكنت، وبرشلونة، وهي الموانئ الوحيدة التي يمكن للتونسيين المتاجرة فيها.
- لا يفرض على التونسيين في الموانئ الثلاثة: مالقا، أليكنت، وبرشلونة أكثر من 3% كرسوم جمركية مقابل إدخال جميع السلع والبضائع التي تكون من منتجات الإيالة التونسية، والتي تكون مشحونة على سفن تمثل العلم التونسي أو الإسباني ومصحوبة بوثيقة ترخيص يمنحها القنصل الإسباني المقيم بتونس، وتؤكد أن تلك البضائع قام بتصنيعها بالإيالة التونسية، ولا يشمل هذا الإعفاء تلك السلع التي ليست مصنوعة بالإيالة.
- إذا حدث وأن اكتشفت الجمارك الإسبانية في الموانئ الثلاثة أن تونسيًا أراد الغش والخداع والاحتيال وذلك بمحاولته إدخال سلعًا أجنبية على أساس أنها تونسية، تُحجز هذه السلعة في الديوانة في نفس الميناء حتى يأتي صاحبها لأخذها، أما إذا رغب في إدخالها إلى إسبانيا، ففي هذه الحالة وجب عليه دفع الرسوم المفروضة في هذه الموانئ الخاضعة لسلطة الملك الإسباني، ومن أجل تطبيق هذه الإجراءات ستعطى التعليمات السرية الواجب اتخاذها في مثل هذه الحالات.
- يتمتع التونسيون بإسبانيا بالامتيازات والإعفاءات الجمركية الممكنة، تفضلاً من الملك الإسباني وتعبيرًا ورغبة منه في تقوية روابط الصداقة بين الإيالة التونسية والإمبراطورية الإسبانية.

د-الحقوق القنصلية -البنود-13، 14، 15، 16، 17، 18، 19، 22، 25.

- يسمح للقنصل الذي كلفته السلطات الإسبانية للقيام بمصالح بلاده بممارسة شعائر الدين المسيحي.
- لقنصل إسبانيا وجميع رعايا دولته حق الاحترام والتقدير في كامل الإيالة التونسية مثل قنصل فرنسا ورعايا دولته.

- للقنصل الإسباني بتونس حق مقاضاة رعاياه بالإيالة بدون تدخل من أحد.
- يتمتع القنصل الإسباني بتونس بحق حماية الرهبان الذين يأتون من روما إلى الإيالة.
- يمكن للقنصل الإسباني بتونس تعيين المترجم والوسيط والسمسار لدولته وتغييرهم بدون تدخل السلطات التونسية.
- للقنصل الإسباني بتونس الحق في زيارة سفن بلاده في البحر؛ وليس لأحد الحق في منعه من ذلك؛ إذا رفع العلم الإسباني على مؤخرة السفينة.
- للقنصل الإسباني بتونس الحق في رفع علم بلاده على منزله بدون معارضة أحد.
- إذا حصل نزاع بين إسباني وأحد رعايا الإيالة التونسية فالسلطات العليا للإيالة –الباشا، الداي، الباي، الديوان–لها الحق في محاكمته بحضور القنصل.
- لا يمكن إجبار القنصل الإسباني على دفع الدّيْن الذي بذمة أحد رعايا الإمبراطور الإسباني، لفائدة العثمانيين، إلاّ إذا أثبت كتابيًا أن القنصل قد ادعى أنه الضامن له.
- يتولى القنصل الإسباني بتونس الإشراف على جميع ممتلكات أي متوفٍ من رعايا الملك الإسباني بتونس، ويتصرف فيها كما يريد لصالح ورثة المتوفي، وبالمثل كلما توفي أحد التونسيين تجمع أملاكه وتوضع تحت تصرف ورثته.*
- كل مستلزمات القنصل الإسباني التي ليست للبيع تعفى من الأداءات الجمركية.
- يمكن للقنصل ورعايا الإمبراطورية الإسبانية جلب المشروبات الكحولية معهم للاستهلاك، كما يُسمح للدول الصديقة للباشا التونسي بذلك، ويُشترط عدم بيعها؛ وإذا فعلوا ذلك يعاقبون كما هو الحال مع المسيحيين الآخرين.
- لا يمكن لأي إسباني أن يُعَاقَبَ إذا أساء معاملة أي أحد من رعايا الإيالة التونسية، ولا يمكن مقاضاته إلاّ بحضور قنصل بلاده.
- إذا هرب أي إسباني من العدالة التونسية، لا يمكن مطالبة القنصل بإحضاره قصد محاكمته، وهو غير مطالب بالتفتيش عنه في السفن الحربية الإسبانية، أما إذا هرب إلى إحدى السفن التجارية فيجب إعادته ومحاكمته ومعاقبة من ساعده على الهرب، ومن استقبله وأخفاه، ويطبق الأمر نفسه في إسبانيا عندما يلجأ أي مسلم إلى سفينة تونسية.

* – لم يأت ذكر القنصل التونسي بإسبانيا بتاتًا، بل فقط ذكرت أملاك المتوفي التي توضع تحت تصرف ورثته بعد جمعها، ولكن من يقوم بجمع الثروة؟ ربما السلطات الإسبانية بمدريد!!!.

- في حالة إلغاء معاهدة السلم والتجارة الموقعة بين الإمبراطور الإسباني والباشا التونسي، تتعهد السلطات التونسية بالسماح للقنصل الإسباني ولجميع رعايا الإمبراطور بمغادرة تراب الإيالة بحرية تامة وبدون مضايقة من أحد إلى أي وجهة يريدون، وتمهلهم السلطات التونسية مدة ثلاثة أشهر لتسوية أمورهم العالقة بأراضي الإيالة والمغادرة بأمان.

هـ-الجانب الديني -البنود-13، 14.

- لكل الرعايا الإسبان الموجودين بالإيالة التونسية الحق في إقامة شعائر ديانتهم المسيحية وممارستها بحرية في منازلهم.
- لكل التونسيين الموجودين بإسبانيا الحق في ممارسة شعائر دينهم الإسلامي، وإقامة صلواتهم بحرية وبدون مضايقة من أحد في منازلهم.
- يمكن لجميع الرهبان الذين يأتون من روما إلى الإيالة التونسية ممارسة شعائرهم الدينية بدون قيد أو شرط، بالإضافة إلى جميع رهبان الدول الصديقة للباشا التونسي.

4-نتائج المعاهدة على الطرفين.

أ-على الإيالة التونسية.

1- إنهاء حالة الصراع والتوتر بين الإيالة التونسية والإمبراطورية الإسبانية بعد عشرات السنين من الحروب، كانت عواقبها وخيمة على الطرفين.

2- تحصل الباي التونسي على 100 ألف قرش إسباني و8 آلاف قرش أخرى دفعت للوزير الأول و2000 قرش دفعت لصاحب الطابع، بالإضافة إلى هدايا أخرى قدرت قيمتها بحوالي 20.000 قرش تمثلت في بنادق، ساعات وخواتم تم توزيعها على حاشية حمودة باشا.

3- أهدت السلطات الإسبانية سفينتين حربيتين مجهزتين بكامل معداتهما لحاكم تونس حمودة باشا[1].

4- الاعتراف المتبادل بالحق في إقامة علاقات سياسية بين الإيالة التونسية والإمبراطورية الإسبانية، ومنع جميع الأعمال العدائية من الطرفين.[2]

5- تحصلت الإيالة التونسية بموجب هذه المعاهدة على حق حماية سفنها الحربية والتجارية من هجمات السفن الإسبانية وعدم التعرض لها بأي سوء.

1- ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 262.

2- المعاهدة التونسية الإسبانية. أ.و.ت.س.ت، صندوق 254، ملف 705.

6- يحق للتجار التونسيين مبادلة سلعهم والاتجار في ثلاثة موانئ إسبانية هي مالقا، أليكنت، برشلونة.[1]

7- تحصل التجار التونسيون على العديد من الإعفاءات الجمركية على الأراضي الإسبانية.

8- أصبح بالإمكان للسلع التونسية أن تصدر لإسبانيا بكل حرية بشرط أن تكون مصنعة في الإيالة.[2]

9- لأول مرة في تاريخ الصراع الإسباني المغاربي استطاع المفاوضون التونسيين إجبار السلطات الإسبانية على الاعتراف بحق ممارسة شعائر الدين الإسلامي بإسبانيا ذاتها، حتى ولو كان في مجال ضيق تمثل في المنازل.[3]

وهذا إن دل على شيء إنما يدل على:

- رغبة حمودة باشا ومعاونيه في إعادة شعائر الدين الإسلامي إلى إسبانيا بعد عدة قرون من الزمن منع فيها الحكام كل مظاهر الدين الإسلامي على أراضيها بعد مأساة سقوط غرناطة في جانفي 1492م، وما تلاها من إجراءات قمعية؛ قد نقول أنه لم يشهد لها التاريخ الحديث مثيلاً، خاصة بعد قرار الطرد النهائي ما بين 1609-1614م في عهد الملك الإسباني فليب الثالث.
- قدرة السلطات التونسية على معاملة الإسبان بالمثل؛ ففي مقابل إعطاء الحق للمسيحيين في ممارسة شعائرهم، استطاعت أيضًا الحصول على حق ممارسة شعائر الدين الإسلامي في إسبانيا.
- حسن التفاوض والقدرة على التميز لدى المفاوضين التونسيين؛ لأن هذه الحقوق الدينية التي استطاعوا الحصول عليها لم يستطع الجزائريون ولا الطرابلسيون التفاوض من أجلها أو حتى مناقشتها، حسب ما هو موجود في نص المعاهدتين الجزائرية الإسبانية والطرابلسية الإسبانية.
- استطاعت السلطات التونسية إعادة الاعتبار للدين الإسلامي على الأراضي الإسبانية، وهي بداية صحيحة تحسب للمفاوضين التونسيين وعلى رأسهم حمودة باشا ومعاونيه.
- تنازل السلطات الإسبانية على أهم أساس قامت عليه إمبراطوريتها في العصر الحديث؛ وهي قتال المسلمين ومنع أي مظاهر لدينهم على الأراضي الإسبانية، دليلا على حسن التفاوض وقدرة الإقناع لدى المفاوضين التونسيين، وهي ميزة تحسب لهم، لأنهم أول من فرض على الإسبان التنازل للمسلمين عن حق ممارسة شعائر دينهم بالأراضي الإسبانية التي كان ممنوعًا فيها حتى الغسل، فما بالك ممارسة الشعائر الدينية الأخرى.

1-كمال جرفال: المرجع السابق، ص 54.

2- المعاهدة التونسية الإسبانية، أ.و.ت.س.ت، صندوق 254، ملف 705.

3- كمال جرفال: المرجع السابق، ص 54.

- كان للتربية الدينية التي نشأ عليها حمودة باشا وافتخاره بالانتماء للعثمانيين؛ دورًا بارزًا في إدراج هذا البند في المعاهدة، خاصة وأن السلطات الإسبانية كانت تمنع منعًا باتًا أي مظهر للدين الإسلامي على أراضيها.
- يمكننا القول أن الملك الإسباني وسكرتيره الأول دي فلوريدا بلانكا كانا يتمتعان بقدر كبير من الاعتدال من خلال موافقتهما على هذا الشرط، على عكس الملوك السابقين الذين اتصفوا بالتعصب المقيت وكره المسلمين.

10- الاعتراف بالإيالة التونسية كدولة مستقلة من طرف السلطات الإسبانية، مثلها مثل إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب، فقد أُمضيت هذه المعاهدة بعيدًا عن وصاية السلطان العثماني، وتم توقيعها من طرف الباي التونسي بصفته الممثل الشرعي للإيالة، والملك الإسباني ممثلا للإمبراطورية الإسبانية.[1]

ب-على إسبانيا.

1- تحصلت الإمبراطورية الإسبانية بموجب هذه الاتفاقية على حق إقامة علاقات سلمية مع الإيالة التونسية، بعد عشرات السينين من الصراع المتواصل بين الطرفين.

2- تكبدت الخزينة الإسبانية خسائر مالية كبيرة جدًا جراء إقامة هذا الصلح، حيث قدرت الأموال المدفوعة للتونسيين بحوالي 130 ألف بيزيتا، بالرغم من قلة هذه الأموال إذا ما قورنت بما تحصلت عليه السلطات الجزائرية؛ حيث قدرت الأموال التي تم على أساسها الصلح بين الجزائريين والإسبان بحوالي . 4.5 مليون دولار.

3- دفعت السلطات الإسبانية كل هذه الأموال الطائلة من أجل شراء السلم مع الإيالات المغاربية عامة والإيالة التونسية خاصة، ومن كان يعتقد أن الإسبان سيدفعون هذه الأموال ويرضخون بهذه الطريقة[2] بعد أن كان أسلافهم يتمنون احتلال بلاد المغرب وإدخال أهلها في المسيحية تحقيقًا لرغبة الملكين الكاثوليكين إيزابيلا وفارديناند ومن ورائهما الكنيسة الكاثوليكية بروما، ولكن المعتقدات المسيحية تتغير بحسب المصلحة وعلاقات الدول ببعضها البعض، لذلك نستطيع القول أن النظرة المتزنة للملك الإسباني شارل الثالث وسكرتيره دي فلوريدا بلانكا رجحت كفة السلام والأمن، فليس هناك عدوًا أبديا ولكن هناك مصلحة مشتركة يجب مراعاتها.

1- المعاهدة التونسية الإسبانية، أ.و.ت.س.ت، صندوق 254، ملف 705.

2- منصور عمر الشتيوي: المرجع السابق، ص ص 24-29.

4- ضمنت هذه المعاهدة للسلطات الإسبانية الحق في عدم تعرض سفنها التجارية والحربية لأي اعتداء في البحر من طرف البحرية التونسية.

5- تحصلت السلطات الإسبانية بموجب هذه المعاهدة على حق دخول سفنها الحربية والتجارية لجميع الموانئ التونسية والإرساء بها مقابل دفع رسوم الإرساء المقدرة بـ 30 بيزيتا.

6- ضمان حياد الإيالة التونسية في أي نزاع مع إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب، وهذا ما كانت تهدف إليه السلطات الإسبانية؛ متبعة في ذلك سياسة فرق تسد.

7- تحصلت الإمبراطورية الإسبانية على حق حماية سفنها الحربية والتجارية على الأراضي التونسية، والدفاع عنها وعدم تركها تواجه الأخطار الخارجية وهي راسية في موانئ الإيالة[1]، أي أن السلطات التونسية أصبحت تدافع بالوكالة عن السفن الإسبانية التي تتعرض للخطر الأجنبي في الموانئ التونسية.

8- استطاعت السلطات الإسبانية الحصول على حق المعاملة بالمثل مع الفرنسيين، حيث أصبح الإسبان لهم نفس الحقوق داخل الإيالة التونسية وذلك بالحصول على امتيازات تجارية وأمنية وقنصلية تضاهي ما كان يتمتع به الفرنسيين[2]، وهي الامتيازات التي عمل الإسبان طويلاً للحصول عليها بالقوة العسكرية؛ إلاّ أنهم فشلوا في ذلك، لينالوا هذه الامتيازات عن طريق الدبلوماسية وسياسة التفاوض وحسن التصرف تجاه أعداء الأمس.

9- استطاع المفاوضون الإسبان انتزاع حق ممارسة شعائر الدين المسيحي داخل بيوتهم، ولم يقتصروا على أنفسهم فقط، بل تعدى ذلك إلى جميع المسيحيين الكاثوليك، حيث أصبح بإمكان الرهبان القادمين من روما ممارسة هذه الشعائر بكل حرية، وهو أمر خطير على البلاد التونسية خاصة والإسلامية عامة، حيث تشكلت فيما بعد أقليات مسيحية نتيجة حرية الدعوة للدين المسيحي وأصبحت تشكل خطرًا على استقرار الدويلات المغاربية بحجة الدفاع على الأقليات المسيحية.

10- أصبح للقنصل الإسباني العديد من الامتيازات غير المسبوقة كالحصانة، ودوره الفعال في رعاية مصالح بلاده ورعاياها، وله نفس المكانة التي يتمتع بها القنصل الفرنسي[3]، حتى أنه أصبح الحكم بين رعايا دولته داخل الإيالة التونسية، وصار يشكل سلطة موازية للسلطة الحاكمة بتونس.

1- المعاهدة التونسية الإسبانية، أ.و.ت.س.ت، صندوق 254، ملف 705.

2- كمال جرفال: المرجع السابق، ص 52.

3- المعاهدة التونسية الإسبانية، أ.و.ت.س.ت، صندوق 254، ملف 705.

وعمومًا كانت هذه المعاهدة بداية للعلاقات السلمية بين التونسيين والإسبان؛ أساسها الاحترام المتبادل والمصالح الاقتصادية المشتركة، وبذلك أنهت الصراع المتأجج بين الطرفين بعد عشرات السنين من الخلافات الثنائية، بسبب سياسة الملوك الإسبان الذين حاولوا دائمًا احتلال البلاد المغاربية عامة، والبلاد التونسية خاصة، انتقامًا من سكانها لسببين رئيسين هما:

1- الانتقام من السكان المغاربة لأنهم كانوا الدعامة الرئيسية في الفتح العربي الإسلامي لبلاد الأندلس سنة 91هـ، ليستمر التواجد الإسلامي إلى غاية الطرد النهائي مابين 1609-1614م، وبذلك أراد الإسبان رد الصاع صاعين للسكان المغاربة، ومحاولة تنصيرهم واستغلال خيرات بلادهم؛ لكن شتان بين الفتح الإسلامي للأندلس والذي كان نعمة على البلاد الأوروبية قاطبة وليس الأندلس فقط، وبين الاحتلال الإسباني لبلاد المغرب الذي صاحبه التدمير والانتقام والقتل والتشريد... .*

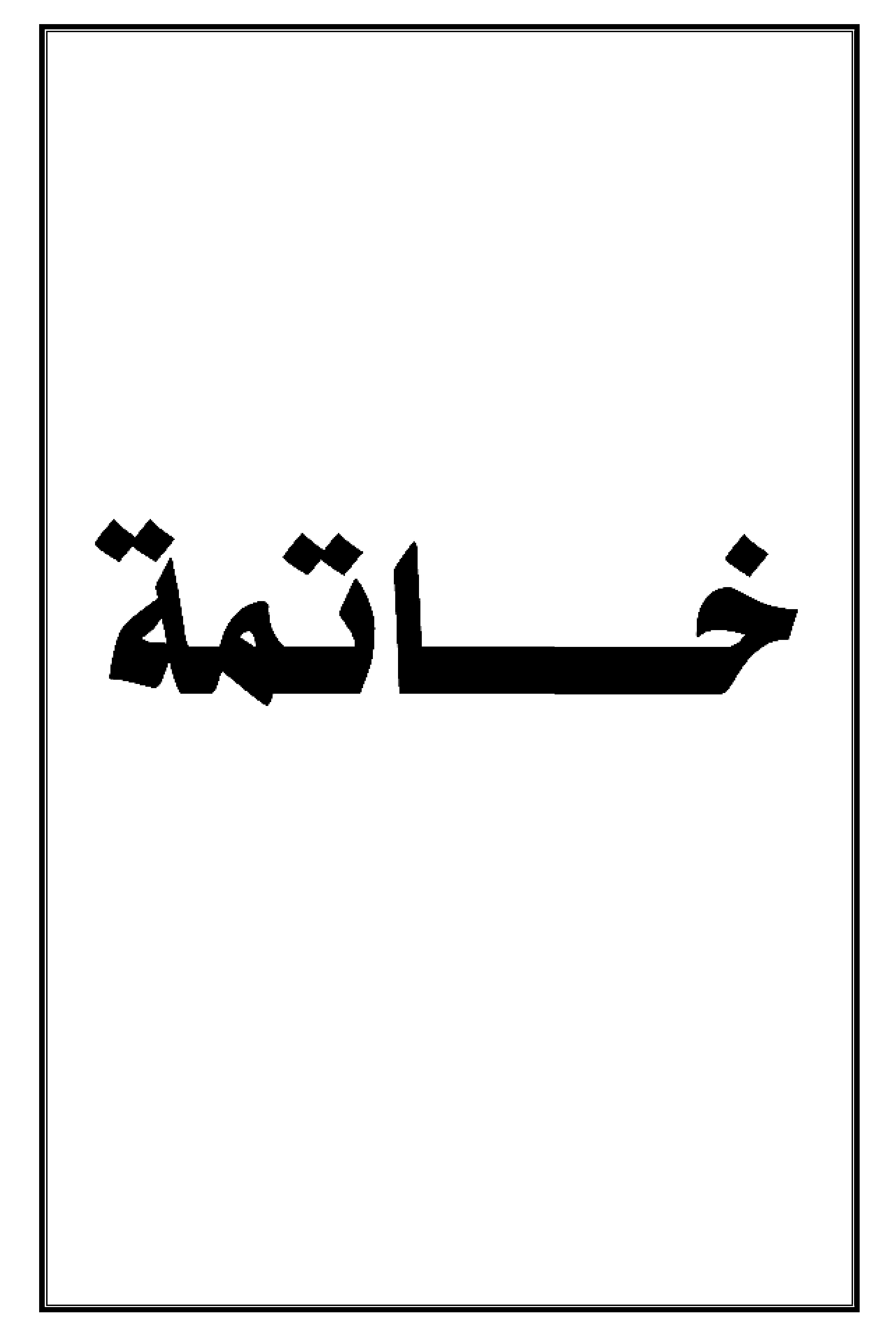
2- الانتقام من السكان المغاربة بعد أن قاموا باستقبال إخوانهم المضطهدين والمطرودين من الأندلس بعد احتلال إمارة غرناطة آخر إمارة إسلامية بالأندلس، وما تلا ذلك من تنكيل وتقتيل وطرد وسلب للممتلكات والأموال وغيرها من فضائع الإسبان، التي جسدتها دواوين التفتيش في أقبح صورة وبكل وحشية وعنف لم يشهد لها التاريخ الحديث مثيلا، بل وقلّ نظيرها خلال كل الأزمنة والعصور.

وبعد هذه السنوات الطويلة وما تخللتها من حروب طاحنة وخسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، أدرك الإسبان أن التاريخ لن يعيد نفسه، وأن البلاد التونسية عصية على الاحتلال، خاصة بعد أن تمكن العثمانيون منها وأحكموا قبضتهم عليها بعد تحريرها من الاحتلال الإسباني نهائيًا سنة 1574م، فما كان من القادة الإسبان وعلى رأسهم شارل الثالث وسكرتيره الأول دي فلوريد بلانكا إلاّ تجريب الخيار الدبلوماسي الذي حقق نتائج باهرة للإسبان لم يكونوا ليحلموا بها لو واصلوا نهج الطريق العسكري العنيف، الذي لم يجلب لهم إلاّ الخسائر المادية والبشرية الفادحة.

فقد تحصلوا عن طريق الدبلوماسية والحلول السلمية على امتيازات تضاهي أو تفوق تلك التي كانت تحصل عليها الدول الأوروبية الأخرى، على عكس الإيالة التونسية التي لم تحصل إلاّ على القليل من الأموال وبعض المزايا التجارية مع الإمبراطورية الإسبانية، إلاّ أن اللافت للانتباه أن المفاوضين التونسيين أعادوا إحياء شعائر الدين الإسلامي على الأراضي الإسبانية بعد حوالي قرنٍ ونصف القرن من الزمن على عملية الطرد النهائي وإخفاء كل مظاهر الدين الإسلامي هناك.

* -للاستزادة حول المقارنة بين الفتح الإسلامي للأندلس وما خلفه من نهضة علمية وثقافية واقتصادية وبين ما فعله الإسبان بالأندلسيين خاصة والمغاربة عامة، ينظر الدراسة القيمة والرائعة التي قام بها غوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب" ترجمة عادل زعيتر؛ والحق ما شهد به المخالف.

وعمومًا كانت هذه المعاهدة بادرة خير وسلام بين الطرفين التونسي والإسباني، ونهاية سعيدة بالنسبة للإسبان؛ لأنها كانت آخر حلقة في تسوية الخلافات مع الدولة العلية العثمانية وإيالاتها المغاربية، فالبداية كانت من الدولة العلية ذاتها سنة 1782م، ثم طرابلس الغرب سنة 1784م، ثم الجزائر باتفاق صلح سنة 1786م ثم معاهدة 1791م، وأخيرًا الإيالة التونسية في جويلية 1791م.



خـــاتمة

خاتمة:

ما نخلص إليه من خلال هذه الدراسة؛ أن علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا ما بين 1520-1792م تميزت في عمومها بالصراع والندية، نتيجة للأطماع الإسبانية الرامية إلى احتلال بلاد المغرب والسيطرة على خيراته كما فعل أسلافهم من قبل كالرومان والبيزنطيين، متخذين نشر الدين المسيحي والانتقام من المسلمين الأندلسيين الفارين من بطشهم وطغيانهم كذريعة للوصول إلى أهدافهم، وفي مقابل هذه الأطماع التوسعية حاول المغاربة حكاما ومحكومين الدفاع عن دينهم ونصرة إخوانهم الأندلسيين، وبذلك كانوا بمثابة السد المنيع والدرع الواقي لبلادهم من الأخطار المسيحية، وفي نفس الوقت ممثلين رسميين للدولة العلية العثمانية في الجهة الغربية من المتوسط لمواجهة الحملات الأوروبية المسيحية؛ سواء على بلاد المغرب أو الدولة العلية نفسها.

وفي نهاية هذه الدراسة توصلنا إلى عدة نتائج يمكننا تلخيصها فيما يلي:

1- كان الهدف الأساسي للإسبان طرد المسلمين من بلادهم مهما كان الثمن منذ أن توقف زحف الفاتحين في معركة بلاط الشهداء سنة 123هـ واستشهاد عبد الرحمن الغافقي، وبذلك انتهى حلم المسلمين في مواصلة الفتوحات، لتتبخر أحلامهم نهائيا بعد انهزامهم في معركة كابدانخا-مغارة دانجا-بقيادة الراهب بيلايو معلنا بذلك بداية النهاية للمسلمين، بالرغم من بقائهم حوالي ثمانية قرون أخرى، لتتحقق أحلامهم سنة 1492م باحتلال غرناطة وطرد آخر حكامها أبي عبد الله الغرناطي، وبذلك تمت الوحدة الإسبانية الفعلية ابتداء من هذا التاريخ.

2- شكلت بلاد المغرب الإسلامي حلقة الصراع الثانية بعد الأندلس، لأنه ولأول مرة تنقل المعارك إلى السواحل المغاربية منذ الفتح الإسلامي سنة 91هـ، وبذلك استطاع الإسبان رد الصاع صاعين للسكان المغاربة المساهمين بفعالية لا نظير لها في فتح الأندلس، والانتقام منهم جزاء لهم على فعلهم هذا.

3- ساهم التفكك والتجزؤ والانهيار السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي الذي عاشته بلاد المغرب الإسلامي في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي بقسط وافر في تفكير الإسبان في احتلال سواحله، خاصة بعد انشغال حكام دويلاته -المرينية، الزيانية، الحفصية-بخلافاتهم الداخلية والاستئثار بمزايا الحكم، متناسين زحف الإسبان على إمارة غرناطة واحتلالها وهذا ما كان يدل على أن الدور قادم عليهم لا محالة.

4- لعبت القضية الموريسكية دورا رئيسيا في تأجيج الصراع بين الإيالات المغاربية وإسبانيا، خاصة وأن الإسبان لم يكتفوا بمحاربة المسلمين على أراضيهم، بل مدوا أنظارهم إلى بلاد المغرب في محاولة منهم لمنع أي تعاون بين المغاربة والأندلسيين.

5- تعتبر المأساة التي تعرض لها المسلمون بإسبانيا من أعظم المآسي عبر التاريخ الإنساني الطويل، خاصة وأن هذه المحنة تمت على أساس ديني وعرقي، ولذلك بقيت وصمة عار في جبين حكام الإمبراطورية الإسبانية إلى يومنا هذا.

6- حاول حكام الإيالات المغاربية العثمانية مساعدة الأندلسيين الموريسكيين بكل الوسائل والطرق الممكنة، خصوصا حكام الإيالتين الجزائرية والتونسية، الذين لعبوا دورا بارزا في نصرة هذه القضية، وبدعم مباشر من سلاطين الدولة العلية العثمانية.

7- بالرغم من المحن والمآسي التي تعرض لها الأندلسيين الموريسكيين على يد الإسبان إلا أن ذلك لم يمنعهم من إعلان الثورات لاسترداد حقوقهم المسلوبة، مثلما حدث أثناء ثورة البيازين سنة 1500م وثورة 976-979هـ/ 1568-1571م وغيرهما من الثورات بدعم مباشر من حكام الإيالة الجزائرية.

8- لعب الأندلسيون دورا مهما وبارزا في بلاد المغرب الإسلامي، وذلك بالمساهمة في حركة الجهاد البحري ضد الإسبان وغيرهم من الأوروبيين، سواء كمقاتلين أو عن طريق تجهيز سفن الجهاد، كما أنهم عملوا كمستكشفين للأراضي الإسبانية وسواحلها نظرا لمعرفتهم الجيدة بإسبانيا، وفضلا عن هذا ساهموا بشكل فعال في إقامة نهضة علمية واقتصادية وعمرانية بالإيالات المغاربية؛ بمساعدة إخوانهم من السكان المحليين، وبدعم مباشر من الحكام.

9- من خلال إنجازنا لهذه الدراسة تبين لنا أن الدراسات الموريسكية الخاصة بالجزائر لم ترق لنظيراتها التونسية والمغربية اللتين قطعتا أشواطا كبيرة في هذا الخصوص؛ اللهم إلا الدراسات التي قام بها الأستاذ ناصر الدين سعيدوني، والأستاذ حنيفي هلايلي والأستاذ جمال يحياوي، وقد لاحظنا أن عدد الموريسكيين في الجزائر يجب إعادة النظر فيه بعد عدة مقارنات بين المصادر والوثائق وعمليات حسابية بسيطة، كما خلصنا إلى أن عدد 25 ألف موريسكي قليل جدا ويجب إعادة النظر فيه، وذلك بسبب عدة معطيات بسطناها في حينها، ولذلك قمنا بمحاولة بسيطة اعتمادا على عدة معطيات من خلال المصادر لنجد العدد على الأقل يكون في حدود 60 ألفا، ولعل الدراسات القادمة تثبت أو تنفي هذا الطرح.

10- كان للمفاوضين التونسيين السبق في إعادة ممارسة الشعائر الإسلامية إلى إسبانيا بعد عدة قرون من الزمن مُنعت فيها كل مظاهر الدين الإسلامي، وهذا ما لم نلاحظه عند المفاوضين العثمانيين والجزائريين والطرابلسيين ومفاوضي المغرب الأقصى.

11- حاول بعض المؤرخين المغاربة نسبة كل الإنجازات في المجال الصناعي أو الفلاحي إلى الأندلسيين الموريسكيين، فيما تم إهمال السكان المحليين وكأنهم لم يكونوا موجودين أصلا على هذه الأرض، ناسين أو متناسين أنه لولاهم لما استطاع الأندلسيون فعل أي شيء، زد على ذلك أن الكثير من الصناعات والمنتوجات الفلاحية هي أصلا مغاربية بالدرجة الأولى وإنما أدخلوا عليها بعض التعديلات فقط، مثل صناعة الشاشية والبرانس والسروج والحلي والمجوهرات وزراعة الزيتون والتين وبعض الخضراوات، وكان الأجدر بهم الإشادة أيضا بالسكان المحليين، وذكر إبداعاتهم إلى جانب ما أبدعه الأندلسيين، حيث أدى هذا التعاون إلى إخصاب حضاري امتزجت فيه الحضارة العربية الإسلامية المغاربية مع الحضارة الإسلامية الأندلسية ذات الطابع الأوربي، ما انعكس إيجابا على بلاد المغرب في جميع المجالات بالرغم من بعض المعوقات.

12- كان ظهور الإخوة بربروس بالسواحل المغاربية بمثابة بارقة الأمل التي انتظرها السكان المحليون طويلا، والذين كرهوا ممارسات حكامهم المتنازعين فيما بينهم والمنبطحين للإسبان، الذين احتلوا سواحل بلادهم الواحد تلوى الآخر، وأمام فشل هؤلاء الحكام تدخل الإخوة بربروس لإزاحتهم من على عروشهم وأخذ أماكنهم بمساعدة السكان المحليين أنفسهم، خاصة وأن الإخوة بربروس جاءوا بفكرة الجهاد وتخليص العباد والبلاد من الظلم والاحتلال.

13- أدى ظهور الإخوة بربروس ببلاد المغرب إلى:

- إفشال المشاريع الإسبانية بالمنطقة.
- إعادة التوازن إلى المنطقة بعد أن كانت في حالة استسلام تام، ثم أصبحت في حالة دفاع ومن بعدها في حالة هجوم.
- تحرير العديد من السواحل المغاربية.
- إعادة اللحمة بين الحاكم والمحكوم.
- نصرة الأندلسيين وإدماجهم تدريجيا في مجتمعاتهم الجديدة.
- اهتمام السلاطين العثمانيين ببلاد المغرب الإسلامي.

- إعادة بلاد المغرب الإسلامي إلى حاضرة الخلافة الإسلامية بعد أن كادت تخضع للاحتلال الإسباني المسيحي.

14- لم يكن تأسيس الإيالات المغاربية العثمانية بالأمر السهل؛ بل إعترضته العديد من الصعوبات أهمها:

- الاحتلال الإسباني.
- مؤامرات الحكام المحليين مع الإسبان ضد العثمانيين.
- تخوف بعض الزعماء المحليين من الإخوة بربروس ومن بعدهم الكثير من القادة العثمانيين.
- بُعد المنطقة عن مركز الخلافة العثمانية بإسطنبول.
- انعدام جيوش نظامية محلية تساهم في التصدي للمخططات الخارجية والداخلية الرامية إلى إفشال مشروع العثمانيين الهادف لضم المنطقة لممتلكات الدولة العلية.
- تشتت جهود العثمانيين والسكان المحليين بين الأخطار الخارجية متمثلة في الاحتلال الإسباني والأخطار الداخلية المتمثلة في التمردات والمؤامرات.
- لعب حكام المغرب الأقصى دورا بارزا في تأخر تأسيس الإيالات المغاربية وانضمامها إلى الدولة العلية بسبب مؤامراتهم؛ سواء مع الإسبان المحتلين أو الزعماء المحليين.
- لعبت بعض القبائل العميلة للإسبان دورا بارزا في التصدي لمشاريع العثمانيين بالمنطقة.

15- كان الصراع بين الإيالات المغاربية العثمانية والإمبراطورية الإسبانية امتدادا لذلك الصراع الإسلامي المسيحي، والذي بدأ منذ تأسيس الدولة الإسلامية على يد رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة ومازال متواصلا إلى يوم الناس هذا.

16- ساهمت الإيالتان الجزائرية والطرابلسية بفعالية كبيرة جدا في تحرير البلاد التونسية وضمها للدولة العلية العثمانية سنة982هـ/ 1574م، وهو الدور الذي أداه حكام الإيالة الجزائرية ابتداء؛ حيث تكفلوا بتحرير طرابلس الغرب من الاحتلال الإسباني المالطي سنة958هـ/ 1551م بمساهمة سلاطين الدولة العلية والسكان المحليين.

17- شكلت الإيالات المغاربية العثمانية الصخرة التي تحطمت أمامها جميع المخططات الإسبانية والأوروبية الرامية إلى تنصير السكان المحليين واحتلال بلادهم ونهب خيراتها، حيث صمدت هذه البلاد حوالي ثلاثة قرون ونصف من الزمن إلى أن جاء الاحتلال الفرنسي وواصل مهمة الإسبان، وهذا خير دليل على أن هدف الأوروبيين مهما كانت اختلافاتهم احتلال هذه المنطقة بأي ثمن.

18- كان الدين الإسلامي الدعامة الأساسية والمشتركة بين السكان المحليين والعثمانيين في مواجهة المحتلين الإسبان وغيرهم، وفي نفس الوقت كان العامل الأساسي في تقبل المغاربة لحكم العثمانيين لبلادهم.

19- لم يمض القرن السادس عشر الميلادي حتى استطاع حكام الإيالات المغاربية تحرير جميع أراضيهم من الاحتلال ما عدا المرسى الكبير ووهران وجزيرة قرنقة؛ والتي تأخر تحريرها إلى غاية القرن الثامن عشر الميلادي، حيث استطاع الجزائريون تحرير المرسى الكبير ووهران سنة1207هـ/ 1792م، بعد التحرير الأول سنة1120هـ/ 1708م، فيما تمكن التونسيون من تحرير جزيرة قرنقة وطرد الجنويين منها نهائيا سنة 1145هـ/ 1742م.

20- بالرغم من أن الإسبان كانوا يعلنون عداءهم صراحة للمغاربة، إلا أن هذا لا يعني أن بقية المسيحيين كانوا أصدقاء أو مسالمين للسكان المغاربة، بل كلهم كانوا يؤدون دورا متكاملا فيما بينهم، حتى وإن كان غير معلن أحيانا، من أجل إضعاف الإيالات المغاربية ومن ثم احتلالها ونهب خيراتها، فتارة تؤدي هذا الدور إسبانيا وتارة فرنسا أو إنجلترا أو هولندا، وفي مرات أخرى الدويلات الإيطالية ومالطا... .

21- كانت هناك علاقات طردية بين الإيالات المغاربية العثمانية وإسبانيا وبقية الدول الأوروبية، وكلما كانت هاته الإيالات تمر بمرحلة قوة كلما قلت الهجمات الأوروبية وخضع القادة الأوروبيون لإملاءات الحكام المغاربة، أما إذا كانت هذه الإيالات تمر بمرحلة ضعف كلما زادت الهجمات الأوروبية وكثرت المؤامرات الخارجية وخضع الحكام المغاربة لرغبات ونزوات الأوروبيين خاصة الفرنسيين منهم.

22- لعبت العلاقات الإسبانية العثمانية دورا بارزا في توتر علاقات الإيالات المغاربية مع إسبانيا، لأن حكام الدولة العلية كانوا في كثير من المرات يشجعون الحكام المغاربة على إعلان عدائهم للإسبان بسبب الخلافات الموجودة بين الطرفين، خاصة وأن كلاهما تزعم العالمين الإسلامي والمسيحي في ذلك الوقت، وكل واحد منهما أراد أن تكون له الغلبة في النهاية، إلى غاية توصلهما مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي إلى قناعة مفادها؛ التوصل إلى معاهدات تنهي حالة الصراع والندية، خاصة وأن الدولتين أصابهما الإجهاد والإنهاك وأصبحتا تصارعان من أجل البقاء فقط وليس التوسع والسيطرة.

23- مثلما تزامن ظهور الإمبراطورية الإسبانية كقوة عالمية مع ظهور الإيالات المغاربية كقوة إقليمية منافسة لهم تزامن أيضا ضعف هذه الدول وتراجعها على الصعيدين الإقليمي والدولي.

24- لم يقتصر الصراع بين حكام الإيالات المغاربية وحكام إسبانيا فقط، بل تعدى ذلك إلى عديد الأطراف المتحالفة مع هذا أو ذاك أو الراغبة أيضا في التخلص منهم جميعا في نفس الوقت، خاصة حكام فرنسا

الذين كانوا ينتظرون الفرصة المواتية للإجهاز على ممتلكات الإمبراطورية الإسبانية وفي نفس الوقت السيطرة على بلاد المغرب الإسلامي، لذلك كانوا في كل مرة يشجعون الصراع المغاربي الإسباني، وفي كثير من المرات يدعمون الإسبان في حروبهم ضد حكام الإيالات المغاربية، بالإضافة إلى تشجيع الخلافات المغاربية المغاربية، والمغاربية العثمانية.

25- كان لصراع حكام الإيالات المغاربية فيما بينهم دورا رئيسيا في إضعاف إيالاتهم وتخلفها، لذلك فوتت هذه الخلافات عدة فرص لمواجهة الإسبان والأوروبيين كقوة واحدة، وبالتالي القضاء على الأخطار الخارجية بأقل التكاليف.

26- بالرغم من تميز العلاقات الإسبانية مع الإيالات المغاربية بالصراع والندية، إلا أن هذا لم يمنع من ظهور عدة محاولات لحل المشاكل بالطرق الدبلوماسية، حتى وإن كانت تهدف دائما لإعطاء السبق للإسبان والحصول على أكبر قدر من الامتيازات، إلا أنه لا يمكننا إغفال هذه المحاولات في دراسة هذه العلاقات، خاصة مع الإيالة التونسية.

27- تعتبر العلاقات التونسية الإسبانية الأقل توترا إذا ما قورنت بالعلاقات الإسبانية الجزائرية، لأننا لاحظنا أن الهجمات الإسبانية على تونس أو الهجمات التونسية على إسبانيا تكاد لا توجد خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر وكامل القرن الثامن عشر الميلادي.

28- تعتبر العلاقات الجزائرية الإسبانية الأكثر توترا وعنفا، لأن احتلال الإسبان للمرسى الكبير ووهران كان عائقا في إقامة أي تقارب بين الطرفين.

29- تولى حكام جزيرة مالطا مسؤولية الصراع ضد الإيالتين التونسية والطرابلسية نيابة عن إسبانيا التي كانت غارقة في مشاكلها داخل أوروبا وضد الإيالة الجزائرية وفي العالم الجديد.

30- كان القرن الثامن عشر الميلادي قرن الدبلوماسية الإسبانية بامتياز؛ حيث تم توقيع إسبانيا لاتفاق سلام مع المغرب الأقصى سنة 1181هـ/1767م، ثم اتفاق صلح مع الدولة العلية العثمانية سنة1196هـ/ 1782م، ثم معاهدة سلام مع طرابلس الغرب سنة 1198هـ/ 1784م، ليوقع الإسبان اتفاق صلح مع الجزائر سنة1200هـ/ 1786م، ومعاهدة سلم وتجارة مع حكام الإيالة التونسية في جويلية سنة1206هـ/ 1791م، ليتم التوقيع على معاهدة سلم مع حكام الجزائر في سبتمبر 1206هـ/ 1791م.

31- كان للدبلوماسية التونسية الفضل والسبق في الحصول على حق ممارسة شعائر الدين الإسلامي داخل إسبانيا بعد عدة قرون من إعلان الإسبان حربا لا هوادة فيها على كل ما يمثل الدين الإسلامي على

أراضيهم، خاصة وأننا لم نجد أي إشارة لهذه الحقوق في المعاهدات الجزائرية الإسبانية أو الإسبانية الطرابلسية أو الإسبانية العثمانية؛ وهي خصال تحسب للدبلوماسية التونسية في ذلك الوقت.

32- الكثير من المصادر والمراجع الأجنبية كانت مبالغة في اتهامها للمغاربة حكاما ومحكومين ووصفهم بجميع الأوصاف الذميمة، في مقابل ذلك مدح الأوروبيين وتصويرهم على أنهم متحضرين مدافعين عن القيم الإنسانية، ناسين أو متجاهلين كل أعمالهم الوحشية الممارسة في الأندلس وبلاد المغرب والعالم الجديد.

33- حاولت المصادر والمراجع الأجنبية إلصاق تهمة الاحتلال بالعثمانيين، وقد تبعهم أذنابهم من أبناء المدرسة الكولونيالية بالجزائر وليبيا وتونس، محاولين بذلك تسويتهم بالفرنسيين المحتلين، وهذا ما وجدناه واضحا وجليا في كتاباتهم أثناء إنجازنا هذه الدراسة.

34- حاولت أيضا هذه المصادر نسبة جميع انتصارات المغاربة للأعلاج على أساس أنهم أوروبيون، متجاهلين بذلك الدور الكبير الذي أداه السكان المحليون، والذين لولاهم لما تمت هذه الانتصارات؛ وحتى وإن سلمنا جدلا أن هؤلاء الأعلاج هم صانعي هذه الانتصارات فهذا يعد فخرا لهم لأن الدين الإسلامي هو الذي رفعهم إلى هذه المرتبة، إضافة إلى بلاد المغرب التي أعطتهم فرصة كهذه.

35- حاولت كل المصادر والمراجع الأجنبية إرجاع جميع انتصارات المغاربة إلى العوامل الطبيعية، مهملين بذلك عبقرية وقوة السكان المغاربة وقادتهم الرافضين لأي احتلال، في مقابل تمجيد الأوروبيين وتضخيم انتصاراتهم، وتقليل خسائرهم والتكتم عنها إلا ما ندر.

36- حاولت المصادر والمراجع المحلية المغاربية التضخيم من خسائر الأوروبيين وهذا ما لا يتطابق مع الواقع التاريخي حينذاك، حيث نجد في كثير من المرات صعوبة في ضبطها مما يحتم علينا مقارنتها مع المصادر الأوروبية للوصول إلى الحقيقة بالتقريب.

37- من الصعوبة بمكان التطرق للعلاقات الاقتصادية بين الإيالات المغاربية وإسبانيا نتيجة لغياب أي إشارات عن ذلك، خاصة وأن الفترة المدروسة كانت تتميز بالصراع العسكري بدل العلاقات السلمية، ولذلك لا يمكننا فصل الجانب السياسي عن الجانب الأمني والاقتصادي الذي تأثر لا محالة بالصراع بين الطرفين.

38- نتيجة اهتمام الحكام المغاربة بالجانب العسكري، تم إهمال الجوانب الأخرى مما كان له انعكاس سلبي على العباد والبلاد، لأنه ما إن حلّ القرن الثامن عشر الميلادي حتى بدأت هذه الإيالات في الانهيار والتقهقر، فاسحة المجال للفرنسيين للعبث بالبلاد المغاربية واحتلالها فيما بعد.

39- لعب الجهاد البحري دورا رئيسيا في الصراع الإسباني مع الإيالات المغاربية العثمانية، خاصة وأنه كان عماد الاقتصاد والاستقرار السياسي، وفي نفس الوقت كانت القرصنة الأوروبية عماد السياسة الخارجية للدول المسيحية، حيث لقيت كل التشجيع والترحيب من طرف الحكام الأوروبيين الذين كانوا يرون فيها الحل الوحيد في مواجهة الجهاد البحري المغاربي.

40- كان للكنيسة الكاثوليكية دور رئيسي في تحريض الملوك الكاثوليك على احتلال بلاد المغرب ونهب خيراته وتنصير سكانه، خدمة لمصالح الإكليروس المادية بالدرجة الأولى، وهذا ما توافق مع رغبات وطموحات الملوك الإسبان خاصة خلال القرن السادس عشر الميلادي.

41- من خلال هذه الدراسة لاحظنا أن السلطات الفرنسية كانت تحاول دائما التآمر والتدخل في شؤون الإيالات المغاربية العثمانية منذ تأسيسها، وذلك للسيطرة عليها وكانت تنتظر الفرصة المناسبة فقط، وترجع أول محاولة لمخططها هذا بعد نهاية معركة الليبانت في أكتوبر 1571م مباشرة، حيث استغل الملك الفرنسي فرصة انهزام العثمانيين وطلب من السلطان العثماني سليم الثاني التنازل له عن الجزائر مقابل دفع غرامة مالية، لأن سكانها طلبوا منه الانضمام بدل العثمانيين؛ وهنا تكمن غرابة وسذاجة ومكر الفرنسيين بسبب:

- هل يعقل أن يتنازل السلطان العثماني عن الإيالة الجزائرية بعد أن ساهم حكامها مساهمة فعالة في هذه المعركة وبصورة مشرفة جدا؟ حتى أن علج علي باشا كان بطل هذه المعركة وأوكلت إليه مهمة إعادة بناء الأسطول العثماني المنهار.

- كيف يمكن تصور أن الجزائريين يُقْدِمون على هذا العمل الخطير ويستنجدون بكافر ضد سلطان مسلم؟ وهم الذين ثبت عنهم رفض أي تواجد أجنبي على أراضيهم، وإلا لماذا استنجدوا بالإخوة بربروس وغيرهم ضد الإسبان المحتلين وهم يعلمون جيدا أن الكفر كله ملة واحدة والاحتلال كله شرور ومآسي، ولا فرق بين محتل مسيحي وآخر، وهذا ما فعله الفرنسيون أيضا مع الإيالة الطرابلسية التي كان قناصلهم يتدخلون في شؤونها وكأنها مقاطعة تابعة لبلادهم ونفس الأمر حدث مع الإيالة التونسية، ولولا وجود سلاطين الدولة العلية وبعض الحكام المخلصين ويقظة السكان المحليين لتم احتلال الإيالات المغاربية منذ زمن بعيد، حيث نجدهم في كل مرّة يريدون استغلال أية فرصة ولو كانت بسيطة، خاصة وأنه ثبت أنهم شاركوا في العديد من الهجمات الإسبانية والمالطية ضد الإيالات المغاربية، لذلك ظل الفرنسيون يخططوا

ويتآمرون إلى أن حققوا رغبتهم التي عملوا من أجلها طوال عدة قرون من الزمن ابتداء من سنة 1830م وإلى غاية احتلال كامل بلاد المغرب.

42- يعتبر التاريخ الطرابلسي الحديث تاريخا مجهولا في جانب العلاقات الطرابلسية الإسبانية، خاصة ما تعلق منه خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، وحتى المؤرخين الطرابلسيين لم يخوضوا فيه إلا كإشارات عابرة، بحيث لا يتعدى ما كتبوه إجمالا بضعة صفحات لا تليق بمقام هذا القطر العريق، أما الدراسات الجزائرية فهي منعدمة تماما في هذا المجال حسب علمنا.

43- من المهم أن نشير إلى أنه يجب على المؤرخين وطلبة التاريخ في الجزائر الاهتمام بالتاريخ التونسي والطرابلسي الحديث بطريقة أفضل، خاصة ما تعلق منه بالعلاقات مع إسبانيا وهو ميدان لا يزال بكرا لم تخض فيه أقلام الباحثين إلا قليلا، لأن الدراسات في تاريخ العلاقات الجزائرية الإسبانية تكاد تنتهي تماما وهذه الفترة استهلكت تقريبا من طرف الدارسين.

44- حاول شارل فيرو في كتابه "الحوليات الليبية" اعتماد رواية تاريخية مغلوطة من عدة أوجه ونسبها لغير أصحابها الحقيقيين، وقد قمنا بتصحيحها وبسط البحث فيها بما توفر لدينا من أدلة تاريخية، ونحن لا ندري هل تعمد هذا؟ أم هو مجرد خطأ تاريخي لم يتسن له التأكد منه؟ مع أننا نرجح أنه تعمد الخطأ في ذلك، ونتمنى أن نكون على خطأ في ظننا هذا!!!، ولذلك ونتيجة لعديد الروايات المكذوبة والأخطاء التاريخية الفادحة التي صادفتنا في إنجاز هذه الدراسة ندعو إلى اعتماد رواية الجرح والتعديل المعتمدة عند المحدثين في إثبات الروايات التاريخية، لأنها الأنسب لمعالجة هذه الأخطاء واكتشاف التزوير والتدليس الذي طال الكثير من تاريخنا الإسلامي ابتداء من حادثة السقيفة إلى مسألة التحكيم مرورا بالعديد من المحطات التاريخية، خاصة في العهد العثماني وما شابه من تزوير وتحامل على العثمانيين والسكان المغاربة.

45- إذا أردنا أن نتكلم عن التواجد العثماني ببلاد المغرب الإسلامي بنزاهة وموضوعية فلا بد علينا أن نبعد تأثير مدرستين مهمتين استطاعتا التأثير كثيرا في تاريخنا الحديث وهما:

- المدرسة المشرقية؛ وهي مدرسة عربية متأثرة جدا بالمستشرقين وبعض الممارسات الخاطئة الصادرة من طرف بعض الولاة العثمانيين ببلاد المشرق، وتنظر إلى التواجد العثماني على أنه احتلال، وفي نفس الوقت تتباهى بالثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين سنة 1916م، والتي تم بموجبها طردهم من المشرق الإسلامي، لكن السؤال الذي يطرح هو: ماذا نتج عن هذه الثورة؟ ومن هم المدعمين الحقيقيين لها؟ وما موقف قادة الاحتلال البريطاني والفرنسي منها؟ خاصة وأن من أهم نتائج هذه الثورة الاحتلال الأجنبي

المسيحي للبلاد الإسلامية في المشرق لأول مرة عبر التاريخ وما نتج عن ذلك من وعد بلفور المشؤوم وسايكس بيكو وسان ريمو...وللأسف مازالت تبعات هذه الثورة موجودة إلى يومنا هذا في الشام والجزيرة العربية وفلسطين المحتلة، وما خفي كان أعظم للأسف الشديد، فهل البريطانيون والفرنسيون كانوا محررين؟ والعثمانيون الذين لهم رابطة الدين والعقيدة محتلين !!!

- وأما المدرسة الثانية فهي المدرسة الكولونيالية الاستعمارية التي يريد روادها أن يجدوا المبررات والحجج للاحتلال الفرنسي لبلاد المغرب ويحاول أصحابها إثبات أن الفتح العثماني احتلال كامل الأركان، وأن الفرنسيين جاؤوا من أجل تخليص المغاربة من الاضطهاد العثماني ونشر الحضارة الغربية، وكأنموذج على نشر حضارتهم الراقية نأخذ الجزائر مثلا؛ التي كانت إنجازاتهم فيها جلية وواضحة جدا طيلة مائة وإثنان وثلاثون سنة من احتلالهم، خاصة في تجهيل الجزائريين، وقتلهم جماعيا حتى هناك بعض الإحصائيات تشير إلى أنهم قتلوا من أهل هذه البلاد حوالي 6.500.000 جزائري طيلة احتلالهم، بالإضافة إلى المجازر الجماعية ونهب خيرات البلاد، التجارب النووية المدمرة والتي مازالت آثارها على أهل المنطقة إلى يومنا هذا، المعتقلات الجماعية، الاغتصاب، التجويع، سياسة الأرض المحروقة...فهل آن الأوان للمؤرخين لحمل المشعل وكتابة تاريخنا المغاربي المشترك بدون تأثير هاتين المدرستين؟

الملاحق

مراسلة من السلطان العثماني إلى بايلرباي الجزائر تأمره بالاستعداد لمواجهة الإسبان في حالة أي هجوم مفاجئ[1]



- 1 -

دفتر مهم 55

عدد: 158

تاريخ: 3

حكم الى امير امراء جزائر الغرب

تفيد الاخبار التي وصلتنا من الرجلين الواردين الى طرفنا من جانبكم - احدهما عربي و والثاني - شاويش بان 70 سفينة من نوع القدرغة التابعة لملك اسبانيا قد خرجت الى المياه البحرية وان هذا الامر يقتضي اليقظة والانتباه لما سيقدم عليه العدو الصافر من جراء هذه العملية كما يفرض علينا ايضا الانتباه الى كل الحيل والدسائس التي يمكن ان يلجأ اليه هذا العدو الشرس لان الغفلة عن ذلك لا يجوز ابدا ولذا قلت امرا : حال وصول امري اليكم بادروا الى الاستعداد والتهيؤ لمواجهة الكفرة في كل وقت من الاوقات ولا تغفلوا لحظة واحدة من جراعة الفلاح وحماية الثغور وصيانة المملكة والبلاد من شرور تجاوز العدو وباذلين في ذلك كل ما يمكن بذله من جهد وتضحية ثم ارسلوا جواسيس الى تلك الناحية للتحقق فيما اذا كانت تلك السفن هي تابعة فعلا للاسبان ام لا وهل هي خرجت الى البحر ام لم تخرج ؟ واذا خرجت كما قيل واخبر اين تتوجه يا ترى ؟

~~ثم اخبرونا كتابيا عن كل ما يتعلق بهذه السفن من الاخبار حتى نكون على يقين منه لان ذلك~~ يهمنا جدا

اذ ان خروج مثل هذا العدد الضخم من الاسطول الى المياه شيء لا يمكن الاستهانة به وبتحركاته ولذا كونوا متيقظين امام هذه الاخبار المتعلقة بتلك القوة البحرية التي قيل عنها بانها تابعة لاسباننا .

صورة
الى امير امراء تونس

صورة
الى امير امراء رودوس

صورة
الى امير امراء جزائر الغرب

---

[1] - مهمة دفتر، رقم 55، عدد158، تاريخ 993هـ.

مراسلة من السلطان العثماني إلى بايلرباي الجزائر حسان باشا تأمره بالخروج للمشاركة في حصار جزيرة مالطة سنة 1565م

Tasnifin cinsi	Muhimme	6
Numarası	451	

وثيقة توضح الخلافات الجزائرية المغربية حول مدينة مكناس، وتحذر من تدخل السلطات المغربية في شؤون الغرب الجزائري

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية



رئاسة الجمهورية

الأمانة العامة

الجزائر في :

مهمة دفتري رقم 6 صحيفة 451 حكم رقم 972

بتاريخ 7/ 9/ 972

كتب عينا

هذا ايضا (اعطى لغلامه في 7 رمضان 972)

حكم الى حسن باشا امير امراء جزائر الغرب

ورد الى عتبتنا العليا خطابك الذى تعلم فيه بأنّ عبد الله حاكم مراكش (فاس) قد نقض العهد والصلح الذى قام بعقده سابقا بحضر الصلحاء بينه وبين اخواته عبد المؤمن وعبد الملك وعلمنا بأنّ المذكوران قد عادا الى الجزائر ثانية واحيط كل ما يتعلق بتلك المسألة وما جاء في خطابك المذكور بعلمي الشريف على التفصيل ولقد سبق ان احيلت امور تلك الديار الى فكرك الثاقب ورايك الصائب .

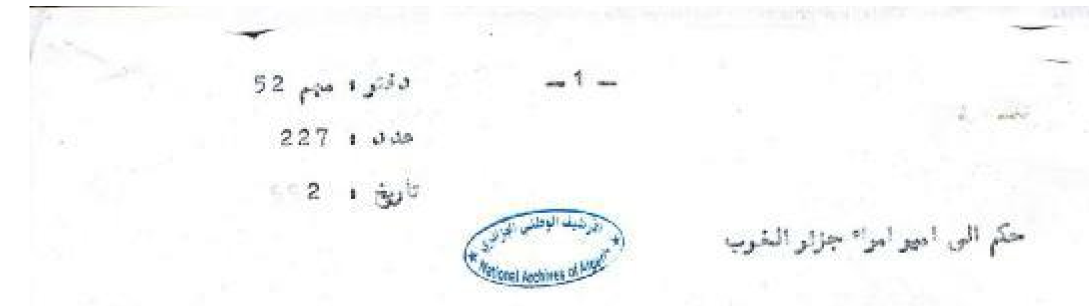
وامرت :

عند وصول حكمي الشريف الواجب الامتثال ءان تجد في تنظيم امور البلاد وترفيه احوال العباد كما سبق بكمال فراسة وجمال كياسة وان تظهر كلّ انواع مساعيك الجميلة بشأن حفظ وحراسة البلاد وصون صيانة الرعيه لأجل دفع الأعداء وقمع اهل الفساد بمقتضى وفور جلادتك وشهامتك وشجاعتك الكامنة في جبلتك وقد ارسل حكم همايوني عن طريقك الى شقيقي حاكم فاس المشار اليه (العلمين) والمقيمين طرفك فعليك مواساتهما بالوجه الذى تراه مناسبا .

ونظرا لاعلامك بوجوب ارسال اسطولي الهمايوني فقد تم ارساله تحت امرة الدستور المكرم المشير المفخم نظام العالم وزيرى (باشا مصطفى باشا ادام الله تعالى معاليه وقد عزم العزم على فتح تسخير جزيرة (قلعة) مالطة و حتى اتمام واجبات هذه الغزوة الشريفة بمشيئة الله الاعز فاذا اصر حاكم فاس المومى اليه على العداء والخلاف ولم يمل الى طريق الصلح والصلاح فان ردعه عن تصرفاته سيكون من واجبات السلطنة ويجب الاعداد له حين اوان الوقت والفرصة المناسبة .

وعليك الا تغفل عن مكر الكفار اصابهم الدمار اثناء محاصرة اسطولي الهمايوني لتلك القلعة وعليك ايضا بذل مقدورك في سبيل حفظ وحراسة قلاع وبقاع الشواطىء التابعة لولايتك ولا تتردد في قلع وقمع النجدة الواردة الى اسطول الكفار هزمه الله والحق بالاعداء كل ضرر وخسران وعاون وظاهر عساكر اسطولي الهمايوني نصرهم الله وليكن ذلك معلومك .

تعريب محمد داود التميمي



— 1 —[1]

دفتر: مهم 52

عدد: 227

تاريخ: 2

حكم الى امير امراء جزائر الغرب

جاءت رسالة الى المقام الشاهاني الكريم من قاضي جزائر الغرب وآغا الانكشارية بها حول مدينة — مكناس — التابعة لسنجاق تلمسان .

وتتمحور محتويات هذه الرسالة حول وضعية مدينة مكناس من حيث التبعية . هل هي تابعة لمدينة تلمسان وبالتالي للجزائر كما كان ذلك منذ الفتح العثماني ام اصبحت بموجب امر شاهاني جديد تابعة لحكم فاس؟ .

وسبب هذا الاختلاف راجع في ان هذه المدينة اى — مكناس — كانت تدفع الرسوم والضرائب الى الجانب الجزائرى منذ الفتح العثماني حتى الآن ، ولكن هذه المرة لما طلبت منها هذه الرسوم والضرائب حسب العادة المألوفة والمتبعة امتنع اهلها من الدفع قائلين بان هذه المدينة لم تبق تابعة للجزائر وانما هي اصبحت تابعة لمولانا احمد حاكم فاس بموافقة الباب العالي على ذلك .

فالرسالة اذا جاءت على سبيل الاستفاد والاستفهام عن كيفية التصرف ازاء هذه المدينة .

هل تؤخذ منها الرسوم حسب العادة ام تترك ويفوض امرها الى حاكم فاس؟ .

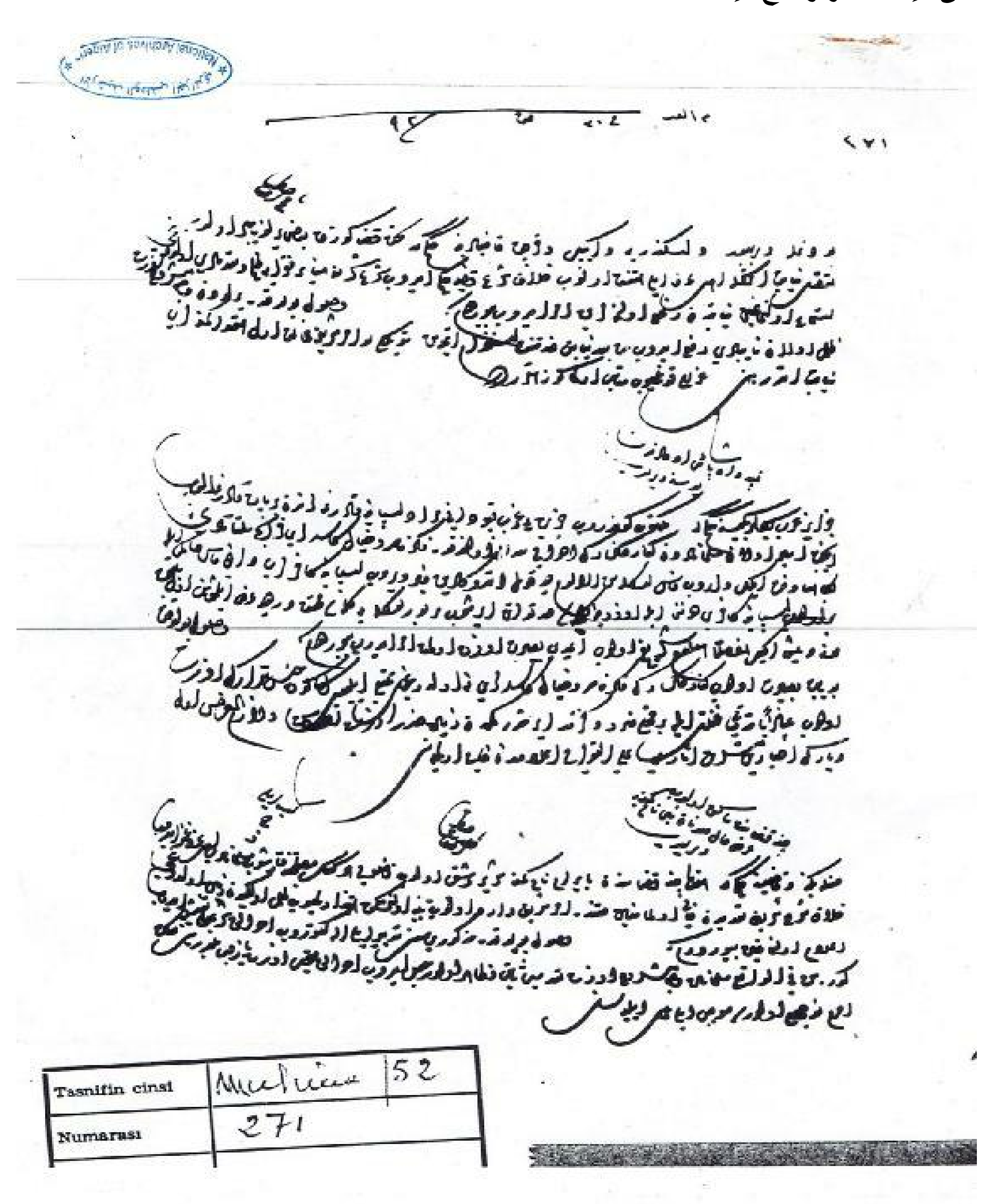
ولذا أمرت بما يلي : عند وصوله . بادر الى معالجة الامر بحكمة وفي ضوء العادة المألوفة منذ القدم حتى لا تكون التغيرات الجديدة ضارة بالنسبة للرعية وللدولة ولا تخالف العادة الجارية في هذا الموضوع ولا تسمح الاحداث بخالفها ابدا وكن حريصا كل الحرص على حماية وحراسة المصالح التابعة للإيالة والولا المذكورة .

ولا تترك فرصة لحاكم فاس للتدخل في هذه المناطق لان ذلك قد يؤدى الى نتائجة غير محمودة واثبت ولا تتغير في مواقفك لانك ان فعلت هذا تجدهم يتقلمونك ويرهبون جانبك ولا يقدرون على التفكير في التد والتصرف على ما في يدك . وتحت تقودك بحكم التمثيل والسلطة وكن حذرا دائما ومستعدا لجميع الا والطوارئ حتى نهايتها بالغفلة والسلام .

---

[1] – مهمة دفتر، رقم 52، عدد 227، تاريخ 992هـ

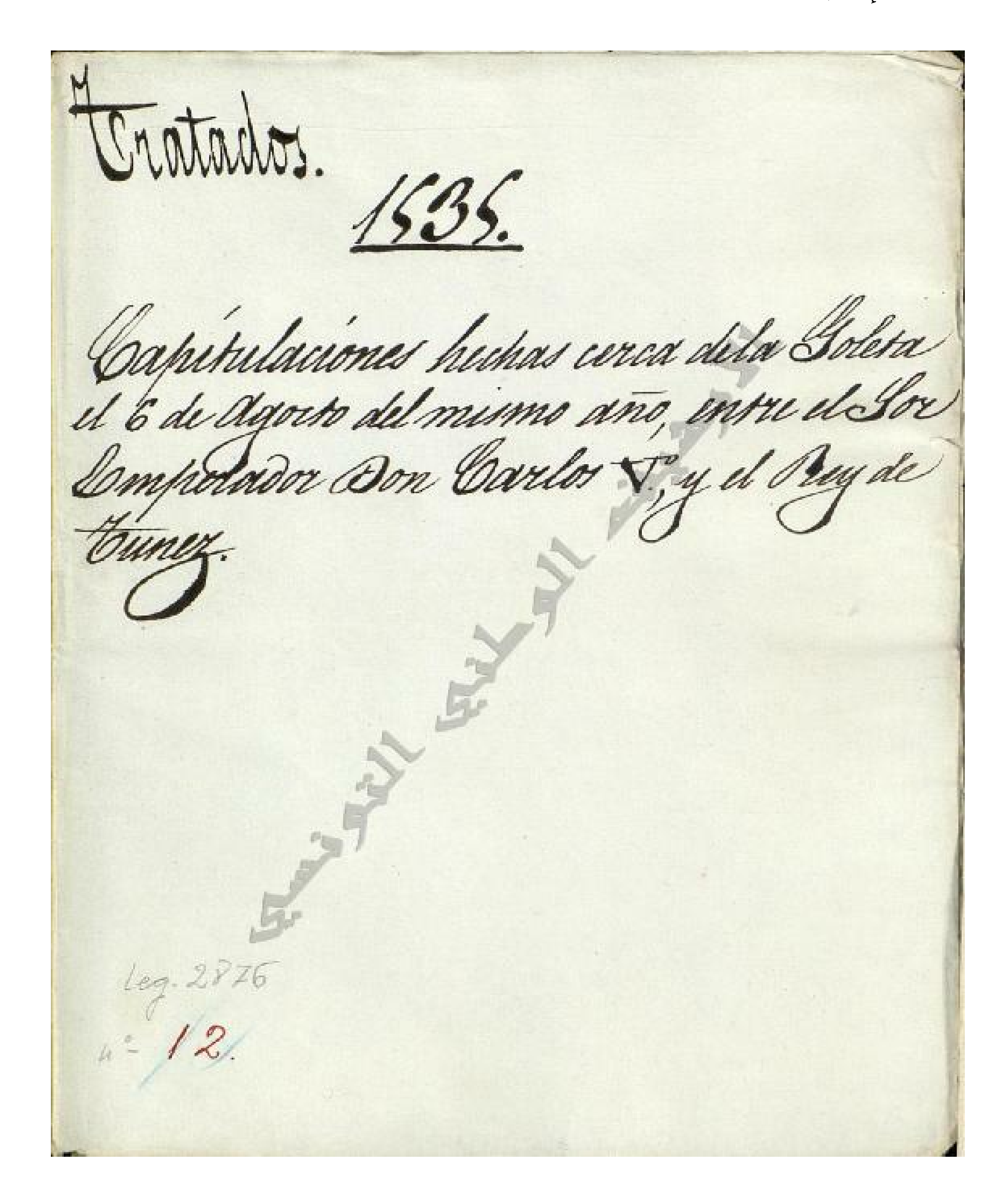
وثيقة توضح غنم الجزائريين لعدة سفن إسبانية، حيث تبين من التحقيقات مشاركة الفرنسيين في التآمر على الإيالة الجزائرية مع الإسبان



Tasnifin cinsi	Mühimme	52
Numarası	271	

المعاهدة التونسية الإسبانية بين شالكان ومولاي الحسن سنة 1535م

النسخة الإسبانية



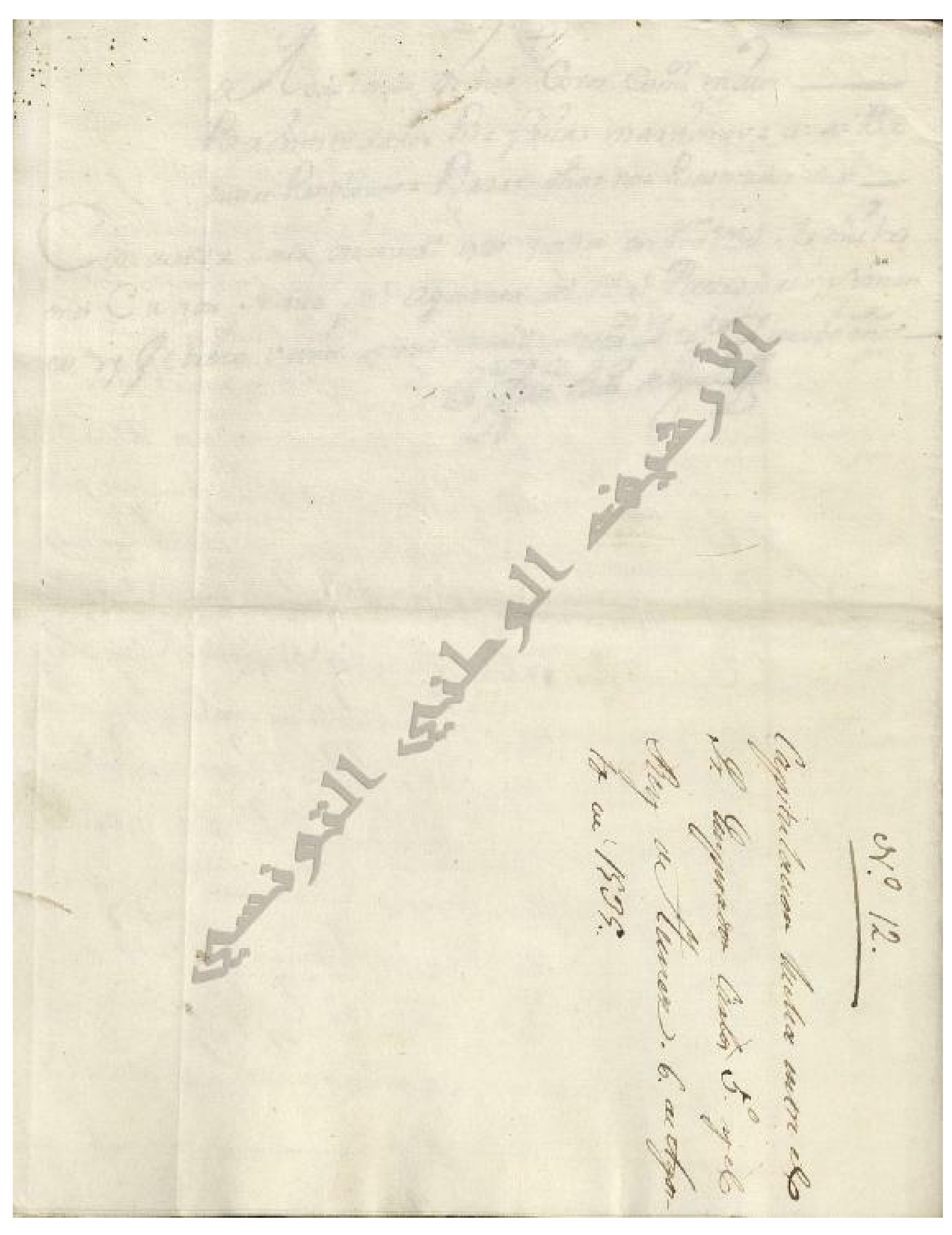
Tratados.

1535.

Capitulaciones hechas cerca de la Goleta el 6 de Agosto del mismo año, entre el Sor Emperador Don Carlos V., y el Rey de Tunez.

Leg. 2876

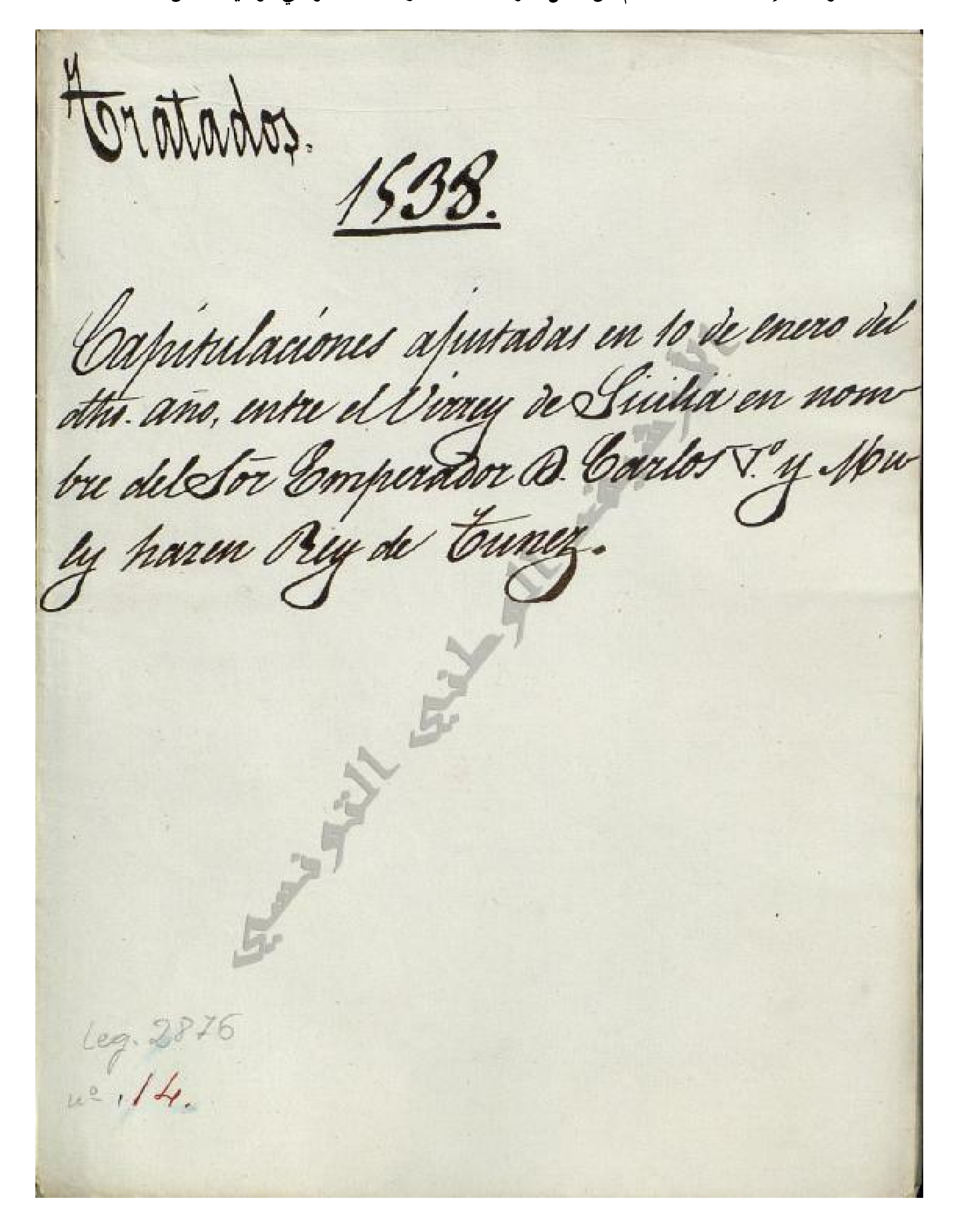
n.º 12.



N.o 12.

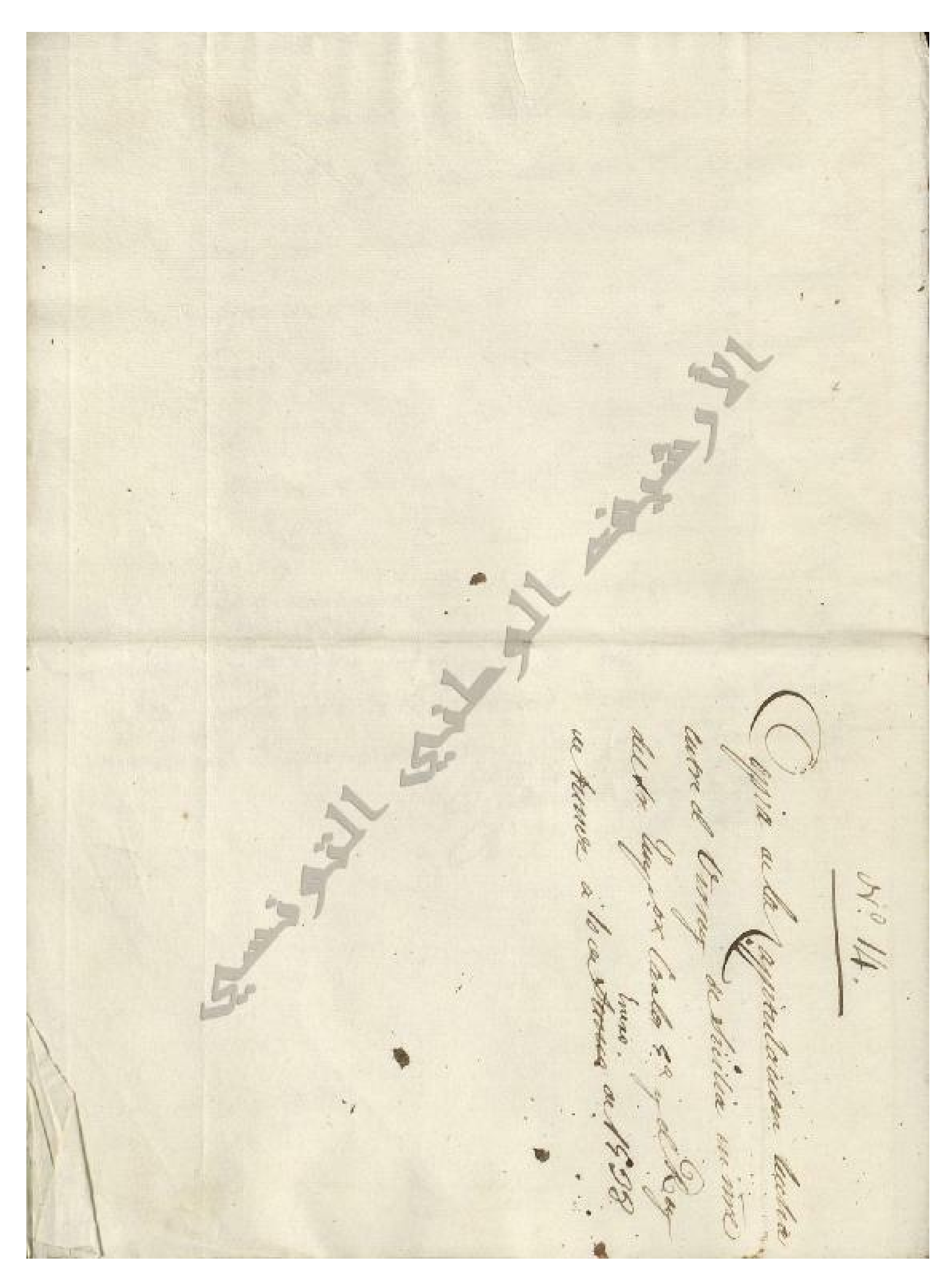
المصدر: أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق **2876**، ملف**12**.

المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1538م بين ممثل شارلكان بصقلية والسلطان التونسي مولاي الحسن


Tratados.

1538.

Capitulaciones apuntadas en 10 de enero del
dho. año, entre el Virrey de Sicilia en nom
bre del Sor Emperador D. Carlos V.º y Mu
ly hazen Rey de Tunez.

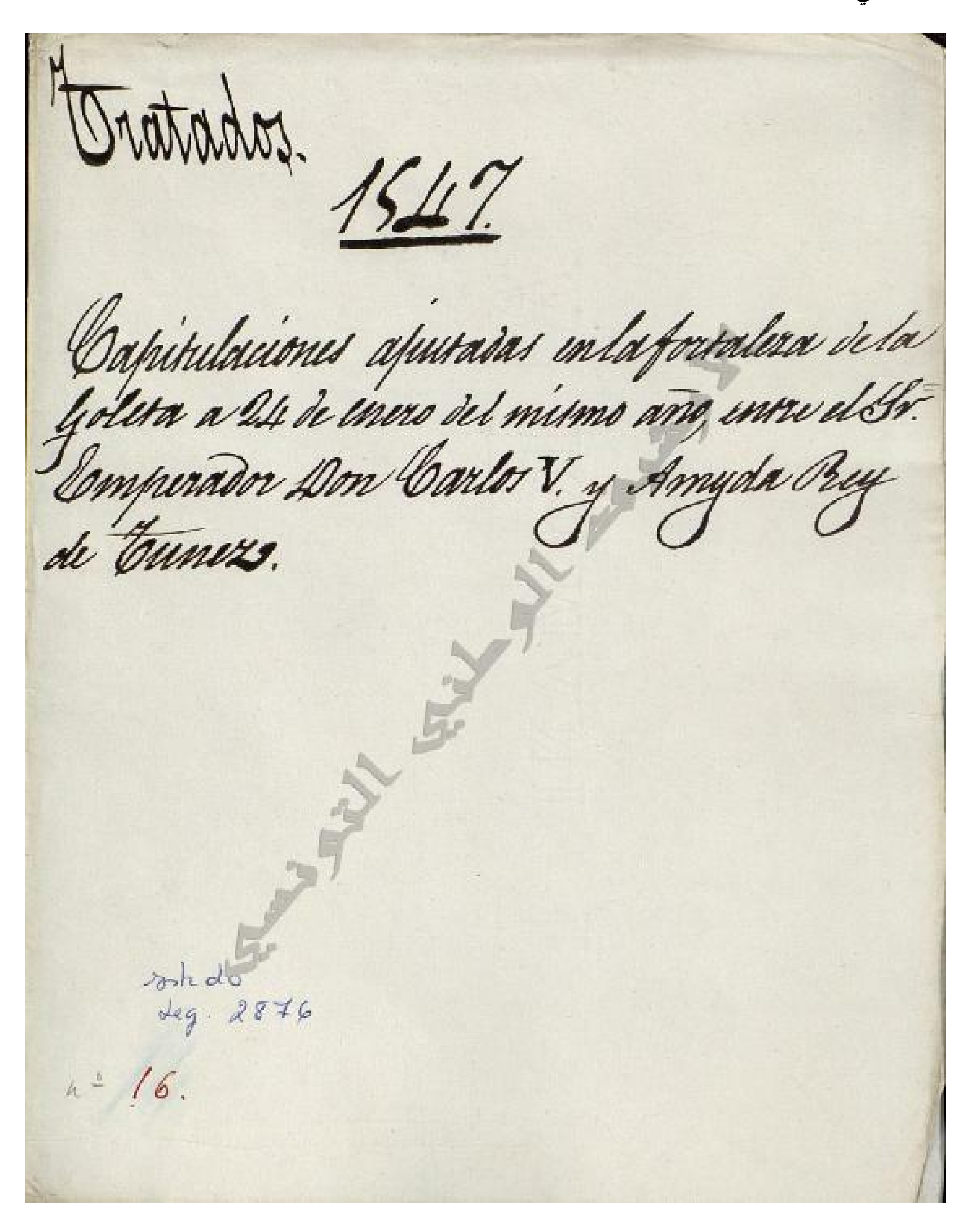


N.º 14.

Copia de la Capitulacion hecha

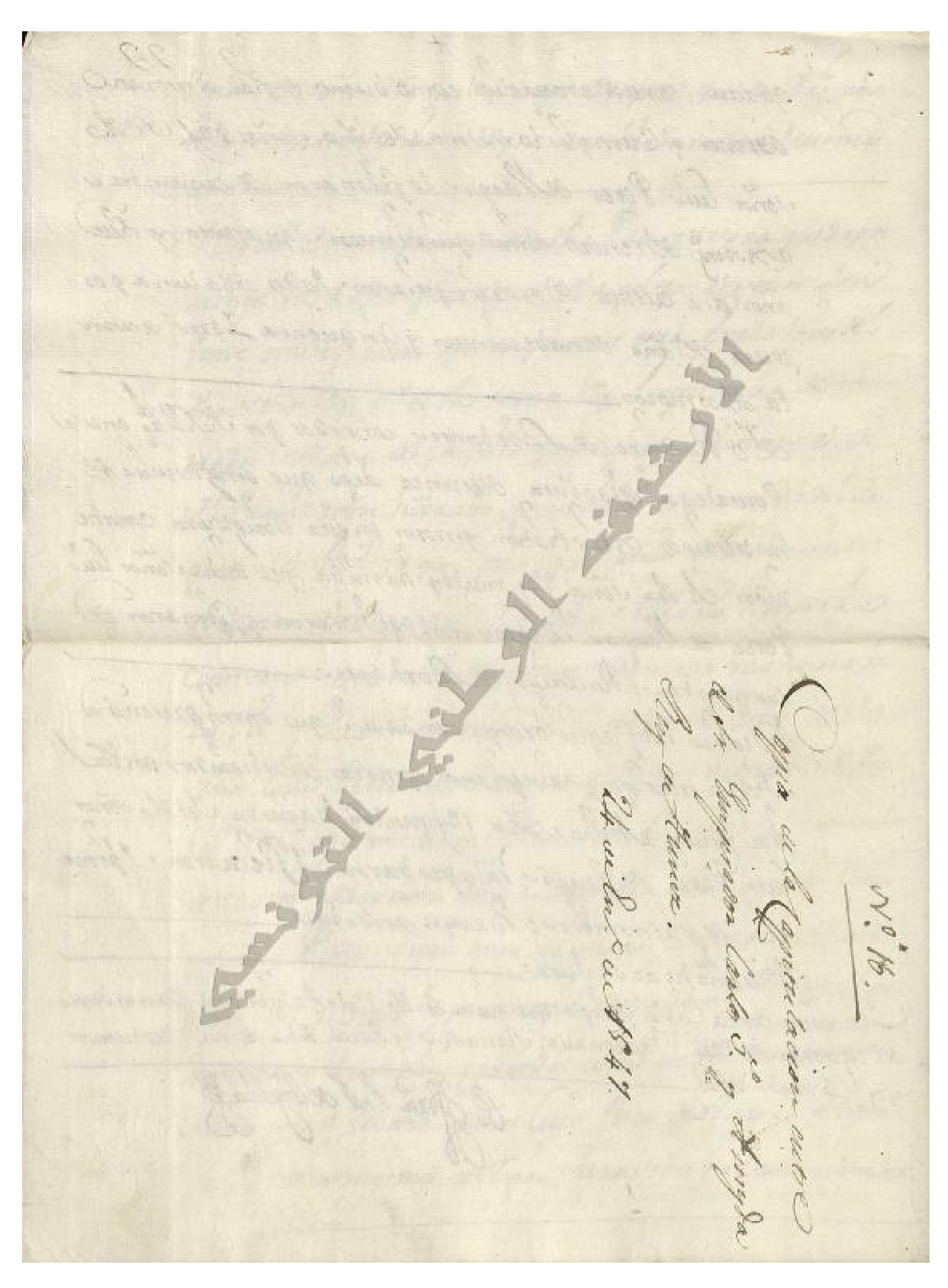
المصدر: أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق **2876**، ملف**14**

المعاهدة التونسية الإسبانية سنة **1547**م ممضاة من طرف الإمبراطور شارلكان والسلطان التونسي أحمد الحفصي


Tratados.

1547.

Capitulaciones ajustadas en la fortaleza de la Goleta a 24 de enero del mismo año, entre el Sr. Emperador Don Carlos V. y Amyda Rey de Tunez.



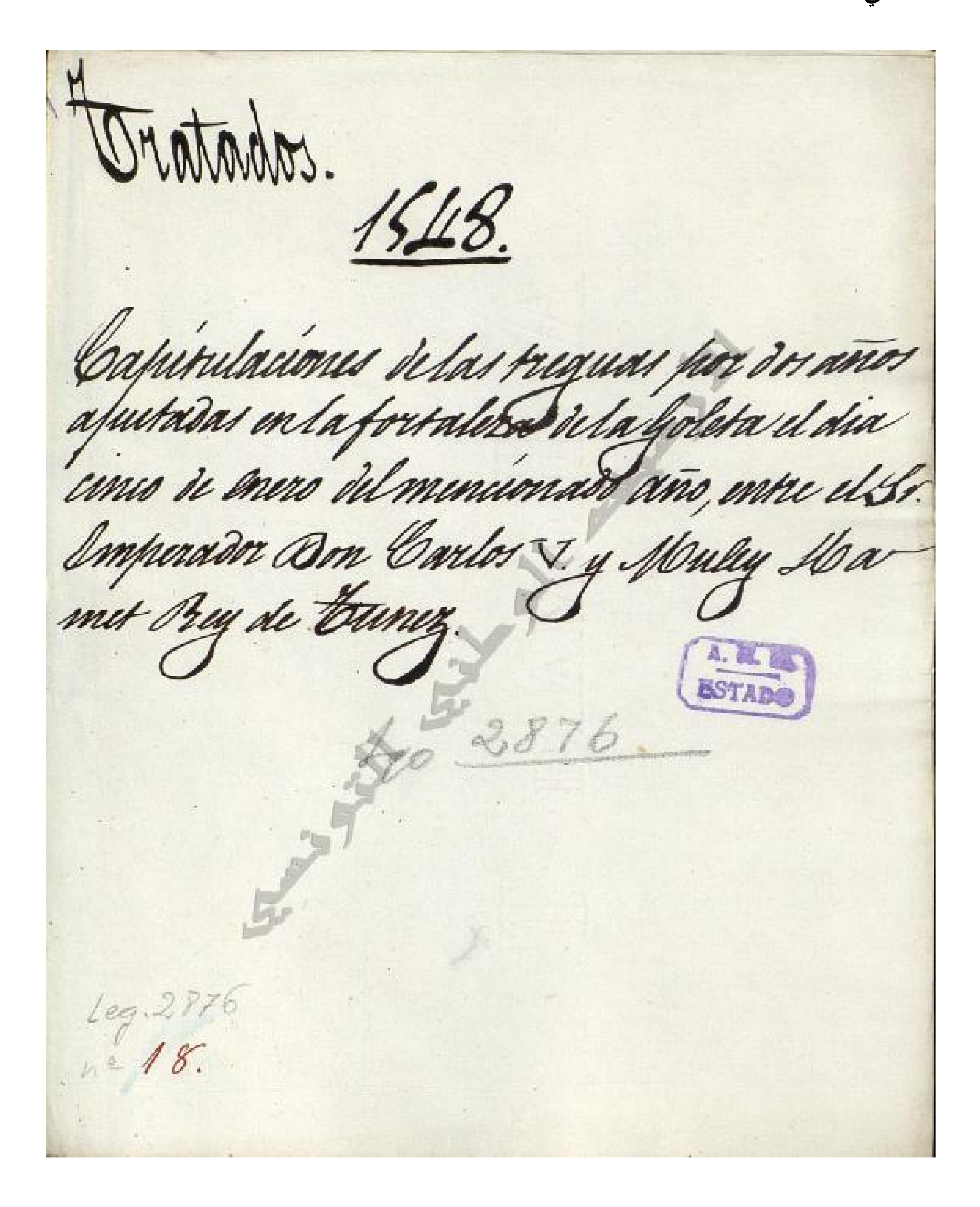
N.o 16.

Copia de la Capitulacion entre el Emperador Carlos 5.o y Muley Hacen Rey de Tunez.

24 de Julio de 1535.

المصدر: أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق **2876**، ملف**16**

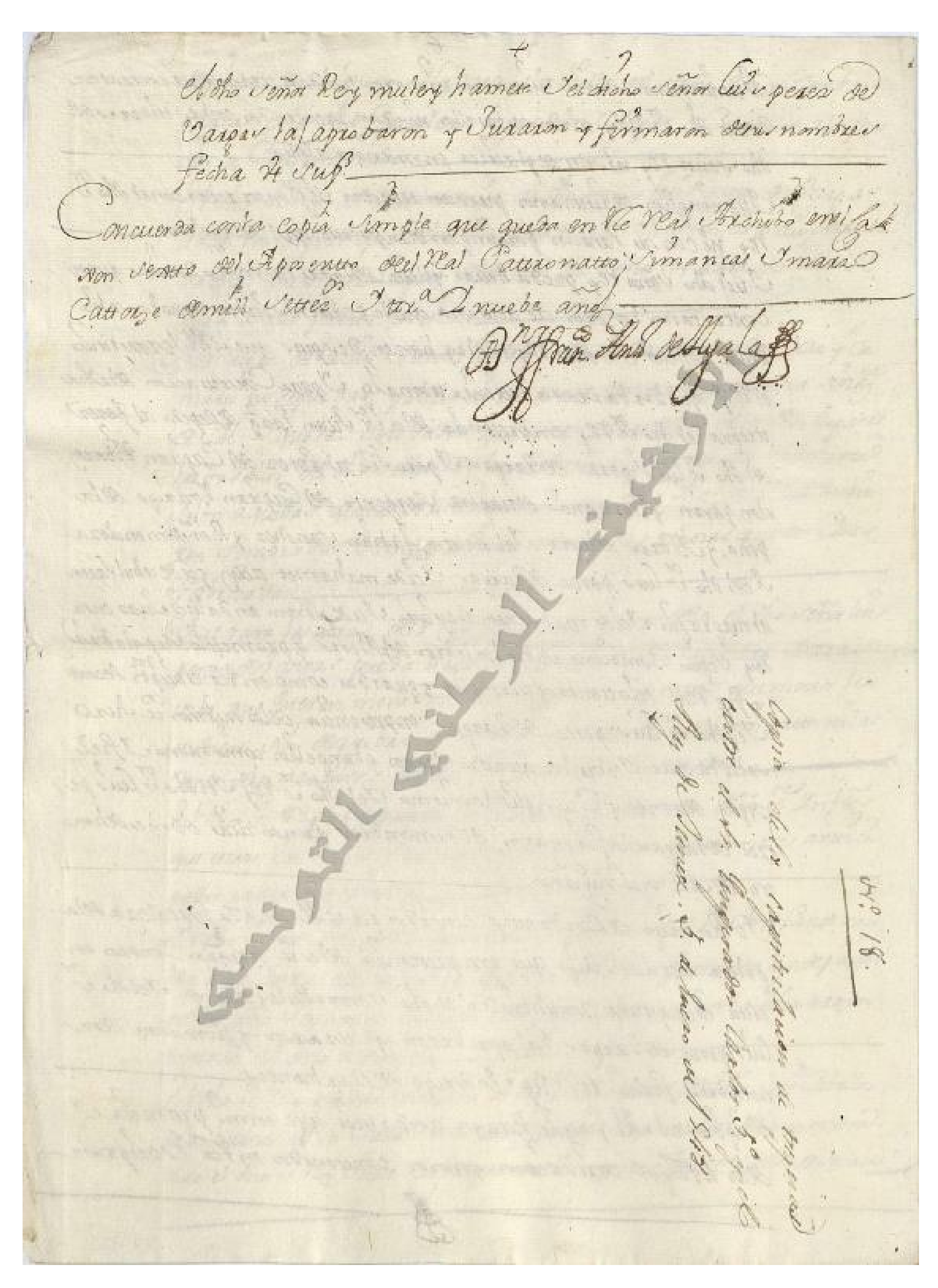
المعاهدة التونسية الإسبانية 1548م، معاهدة هدنة لمدة سنتين بين الإمبراطور شارلكان والسلطان أحمد الحفصي



Tratados.

1548.

Capitulaciones de las treguas por dos años ajustadas en la fortaleza de la Goleta el dia cinco de enero del mencionado año, entre el Sr. Emperador Don Carlos V. y Muley Hamet Rey de Tunez.



el d(ic)ho señor Rey muley hamet y el dicho señor Luis perez de Vargas la aprobaron y Juraron y firmaron de sus nombres fecha ut sup(ra)

Concuerda con la copia simple que queda en el R(ea)l Archivo

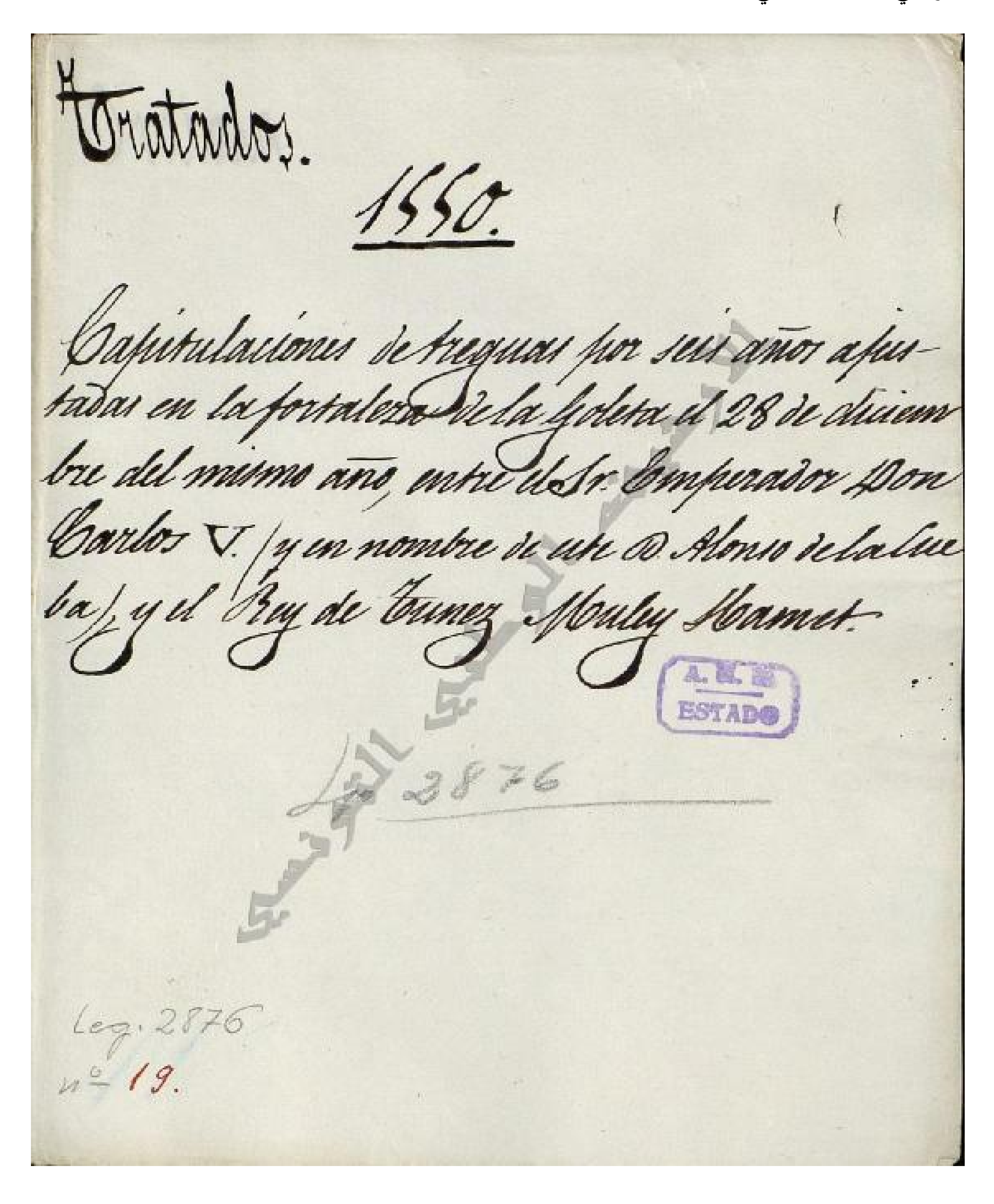
del Patronato R(ea)l Simancas

catorze de mill setez(ient)os y treinta y nueve años

D(o)n Fran(cis)co Ant(oni)o de Ayala

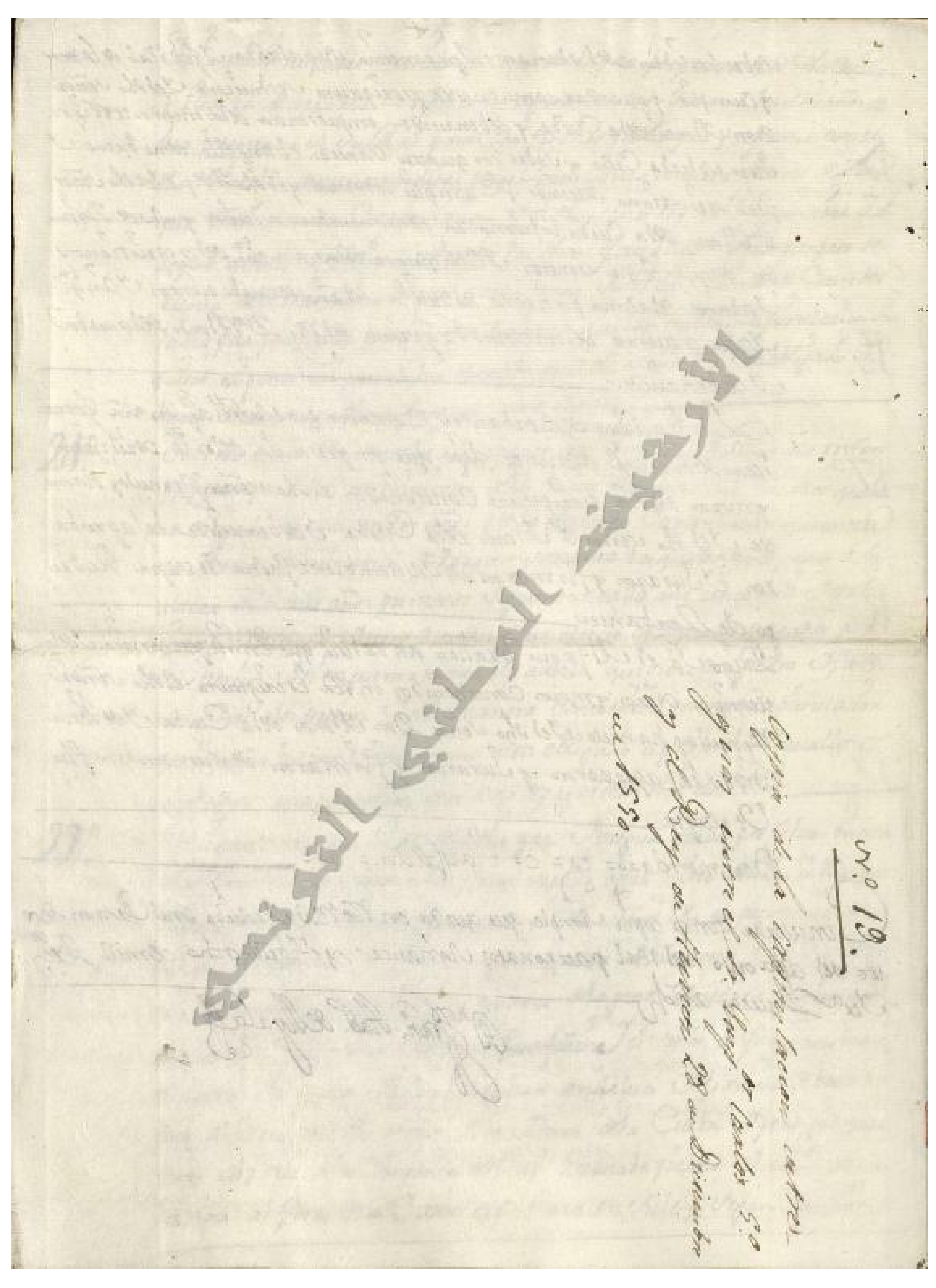
المصدر: أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 2876، ملف18

المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1550م، معاهدة هدنة لمدة ست سنوات بين شارلكان والسلطان التونسي أحمد الحفصي


Tratados.

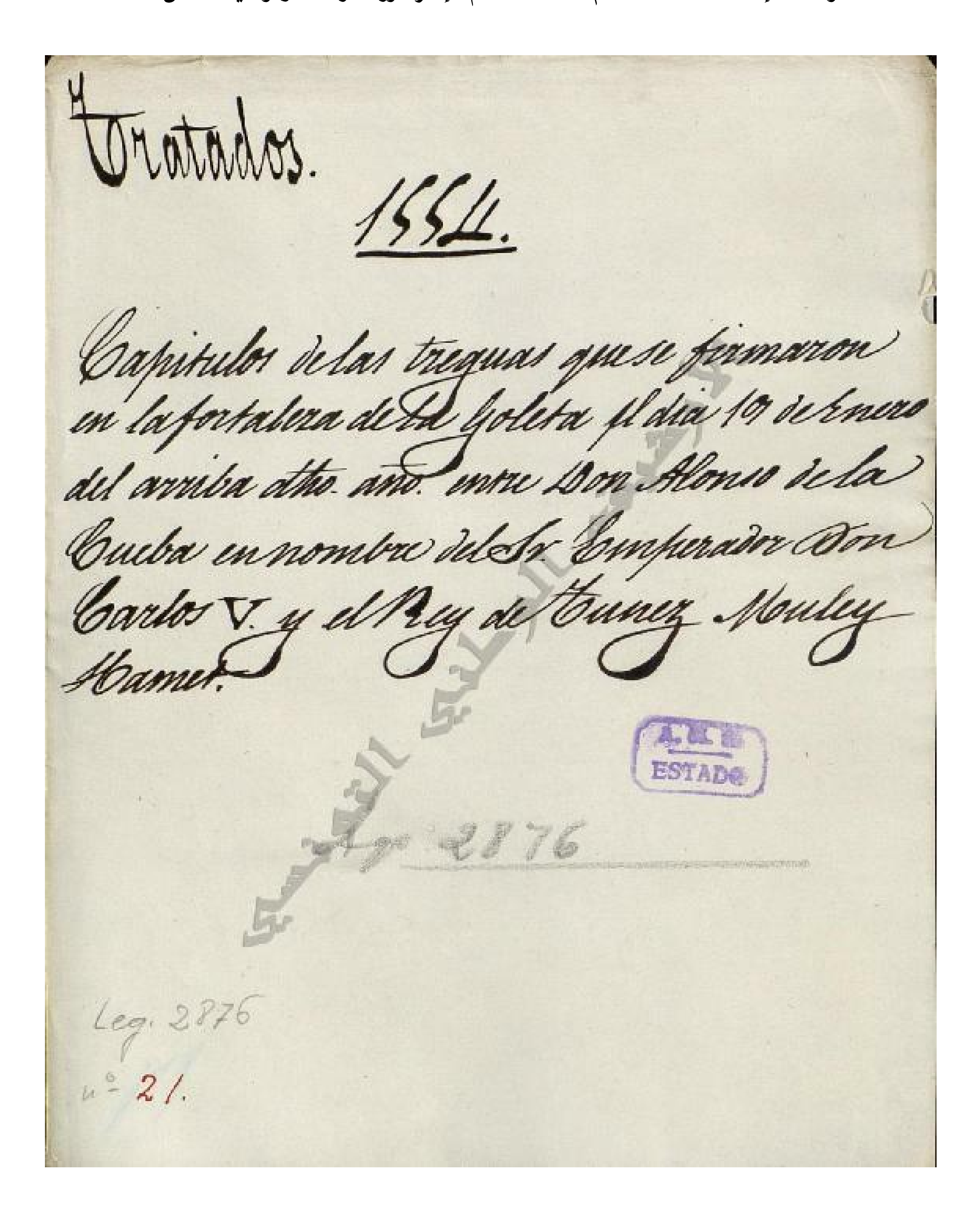
1550.

Capitulaciones de treguas por seis años ajus-
tadas en la fortaleza de la Goleta el 28 de diciem
bre del mismo año, entre el Sr. Emperador Don
Carlos V. (y en nombre de este D. Alonso de la Cue
ba) y el Rey de Tunez Muley Hamet.



المصدر: أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق **2876**، ملف**19**

المعاهدة التونسية الإسبانية سنة **1554**م، معاهدة باسم الإمبراطور شارلكان ومولاي الحسن



Tratados.

1554.

Capitulos de las treguas que se formaron en la fortaleza de la Goleta el dia 19 de Enero del arriba dho. año entre Don Alonso de la Cueba en nombre del Sr. Emperador Don Carlos V. y el Rey de Tunez Mouley Hamet.

sus haziendas muebles y rayzes

En lo que toca a los turcos que en qualquiera tierra del señor Rey poblada o despoblada donde ellos estuvieren pueda el señor Don Alonso embiar la gente que le pareziere para contra ellos y que si los basallos de su alteza lo recibieren como lo an fecho otras bezes sea obligado a mandarlos castigar a boluntad del dho señor Don Alonso y quando no lo hiziese assi el dho Don Alo le pueda hazer guerra

Todo lo qual y lo demas contenido en la capitulacion pasada promete su alteza y da su fee y palabra real de guardarlo y cumplirlo como en ella se contiene y asi lo promete el señor Don Alo de guardar y cumplir en lo que a el toca y lo firmaron de sus nombres fecha en la dha Goleta [illegible] a [illegible] de henero de mil quinientos y cinquenta y quatro.

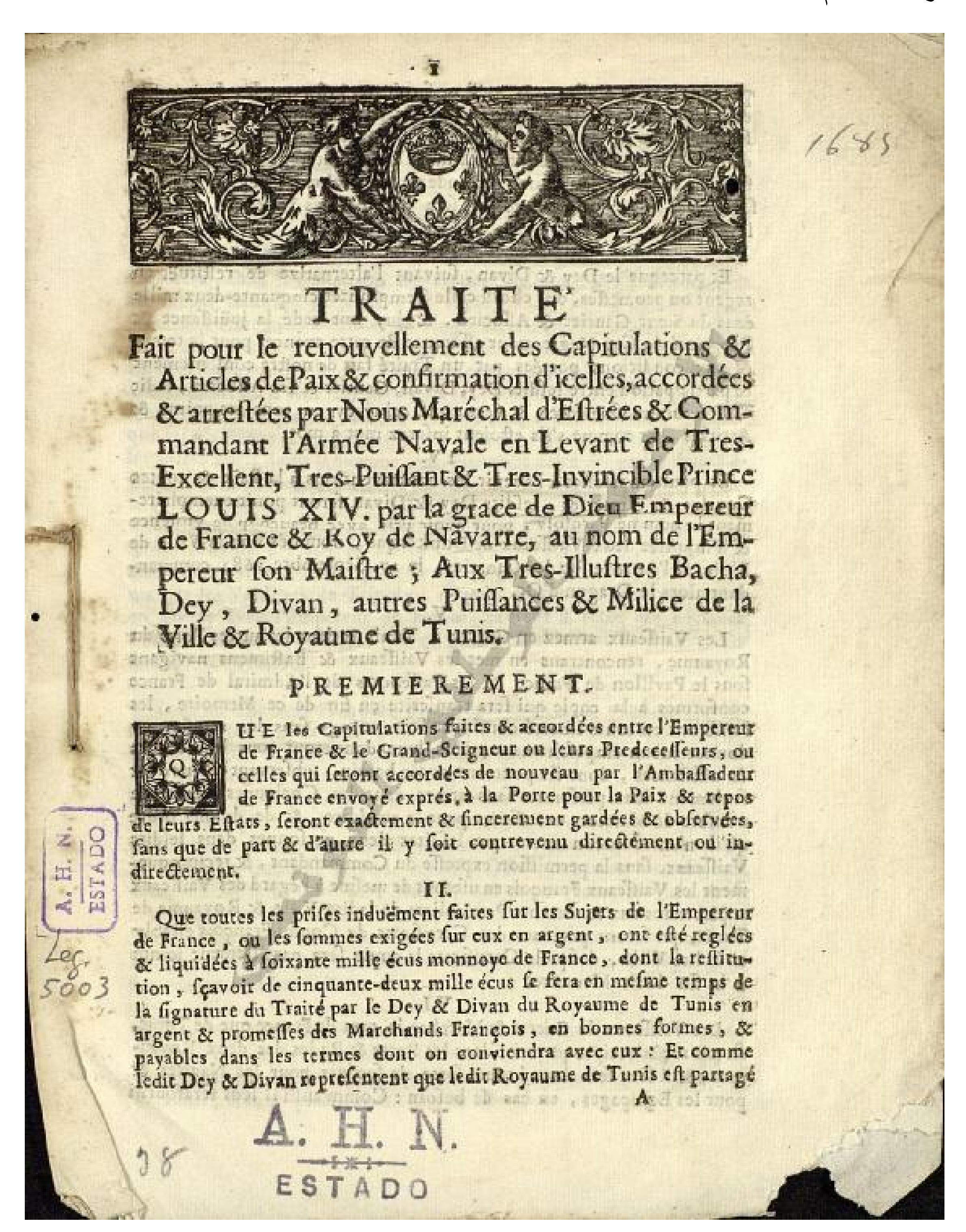
(Margen: los que bemieren a matar a los de su tierra y [illegible] saban por ella Joan [illegible] primero)

Concuerda con la copia simple que queda en el Real Archivo en la pieza de alta de [illegible] decima anden prim. Simancas y marzo quatro de mil setecientos [illegible] y nuebe años

Dn Juan Ant. de Ayala

المصدر: أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق **2876**، ملف**21**

المعاهدة التونسية الفرنسية، معاهدة سلم وتجارة بين المارشال دستري والداي التونسي أحمد شلبي 30 أوت 1685م



1

TRAITE'

Fait pour le renouvellement des Capitulations & Articles de Paix & confirmation d'icelles, accordées & arreſtées par Nous Maréchal d'Eſtrées & Commandant l'Armée Navale en Levant de Tres-Excellent, Tres-Puiſſant & Tres-Invincible Prince LOUIS XIV. par la grace de Dieu Empereur de France & Roy de Navarre, au nom de l'Empereur ſon Maiſtre ; Aux Tres-Illuſtres Bacha, Dey, Divan, autres Puiſſances & Milice de la Ville & Royaume de Tunis.

PREMIEREMENT.

QUE les Capitulations faites & accordées entre l'Empereur de France & le Grand-Seigneur ou leurs Predeceſſeurs, ou celles qui ſeront accordées de nouveau par l'Ambaſſadeur de France envoyé exprés, à la Porte pour la Paix & repos de leurs Eſtats, ſeront exactement & ſincerement gardées & obſervées, ſans que de part & d'autre il y ſoit contrevenu directément ou indirectement.

II.

Que toutes les priſes induëment faites ſur les Sujets de l'Empereur de France, ou les ſommes exigées ſur eux en argent, ont eſté reglées & liquidées à ſoixante mille écus monnoye de France, dont la reſtitution, ſçavoir de cinquante-deux mille écus ſe fera en meſme temps de la ſignature du Traité par le Dey & Divan du Royaume de Tunis en argent & promeſſes des Marchands François, en bonnes formes, & payables dans les termes dont on conviendra avec eux : Et comme ledit Dey & Divan repreſentent que ledit Royaume de Tunis eſt partagé

A

4

signé le present Certificat, & apposé le Séel de nos Armes. FAIT à Tunis le . . . . jour d . . . . . mil six cens quatre-vingts . . . Signé . . . . . Consul.

IL est ordonné au Sieur Brebion Imprimeur, d'imprimer le present Traité de Paix pour le Public. Fait à Marseille le 18. Septembre mil six cens quatre-vingts-cinq.

DE VAUVRE'.

PERMISSIONS.

SOit montré au Procureur du Roy, ce 20. Septembre mil six cens quatre-vingts-cinq.

DE BAUSSET Lieut.

IE consens pour le Roy l'impression des *Articles de Paix & Traité fait pour le renouvellement des Capitulations avec les Bacha, Dey & Divan de Tunis le trentiéme Aoust dernier* 1685. Fait à Marseille le 20. Septembre 1685.

RIGORD Proc. & Advoc. du Roy.

SOit fait suivant les conclusions du Procureur du Roy, ce 21. Septembre 1685.

DE BAUSSET Lieut.

A MARSEILLE,
Chez CHARLES BREBION Imprimeur du Roy, de Monseigneur l'Evêque, du Clergé, & de la Ville. 1685.

المصدر: أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق **5003**، ملف**38**

المعاهدة التونسية الإسبانية سنة **1748**م



1748

TRATTATO DI PACE

F E R M A T O

TRA SUA MAESTA' IMPERIALE

E LA CITTA' DI TUNIS

FINO A' CONFINI DI QUEL REGNO.

LI XXIII. DICEMBRE MDCCXLVIII.

In Firenze, l' anno 1750. *St. Com.* Nella Stamperia Imperiale.

6
ne' Paesi Imperiali, saranno salutate da' Bastimenti, conforme è il costume.

XVI. I Bastimenti Mercantili Imperiali pagheranno l' ancoraggio nell' istessa maniera, che lo sogliono pagare le altre Nazioni amiche.

XVII. I Sudditi del Regno, e Città di Tunis, che fuggendo da Paesi nemici si rifugieranno nelli Stati delle LL. Maesta' Imp. saranno fatti liberi; e senza impedimento potranno sicuramente tornarsene a Tunis; e nell' istessa maniera i Sudditi Imperiali, che fuggendo da Paesi nemici passeranno nel Regno di Tunis, verranno consegnati al Console.

XVIII. I Bastimenti Imperiali saranno sempre muniti de' stabiliti Passaporti, e i Bastimenti Tunesini saranno sempre accompagnati dal Certificato del Console Imperiale residente in Tunis.

XIX. Se qualche Cristiano, o Ebreo fuggirà nelli Stati sottoposti alle Loro Maesta' Imp. con de' Beni d' appartenenza di persone dependenti dal Regno di Tunis, sarà restituito, perchè sia fatta la dovuta Giustizia; ed il medesimo seguirà nel caso, che un Mussulmano si refugiasse nel Regno di Tunis, con beni d' appartenenza de' Sudditi delle LL. Maesta' Imp.

In esecuzione de' medesimi Comandamenti il Consiglio di Reggenza ordina che sia pubblicato il suddetto Trattato, e comanda a tutti li Governatori de' Porti, e Castellani delle Torri, e Forti delle Coste del Gran-Ducato, come ancora a tutti gl' Iusdicenti, Comandanti, Ufiziali, e Ministri di Guerra, e di Giustizia d' invigilare alla più esatta osservanza del medesimo &c.

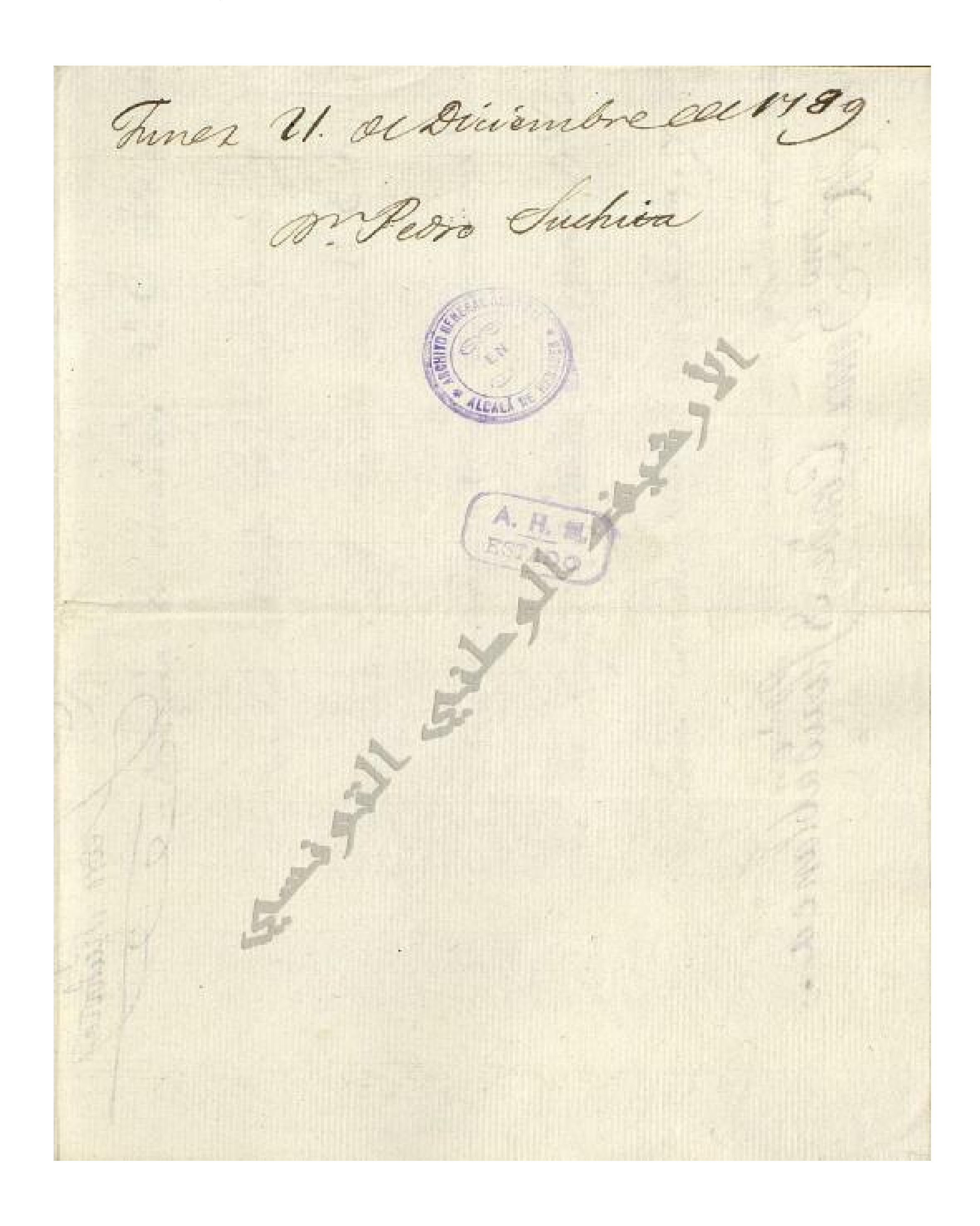
Dat. nel Consiglio di Reggenza li 4. *Giugno* 1750. *St. Com.*

IL CONTE DI RICHECOURT.

ROBERTO PANDOLFINI.

المصدر: أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق **5001**، ملف**13**

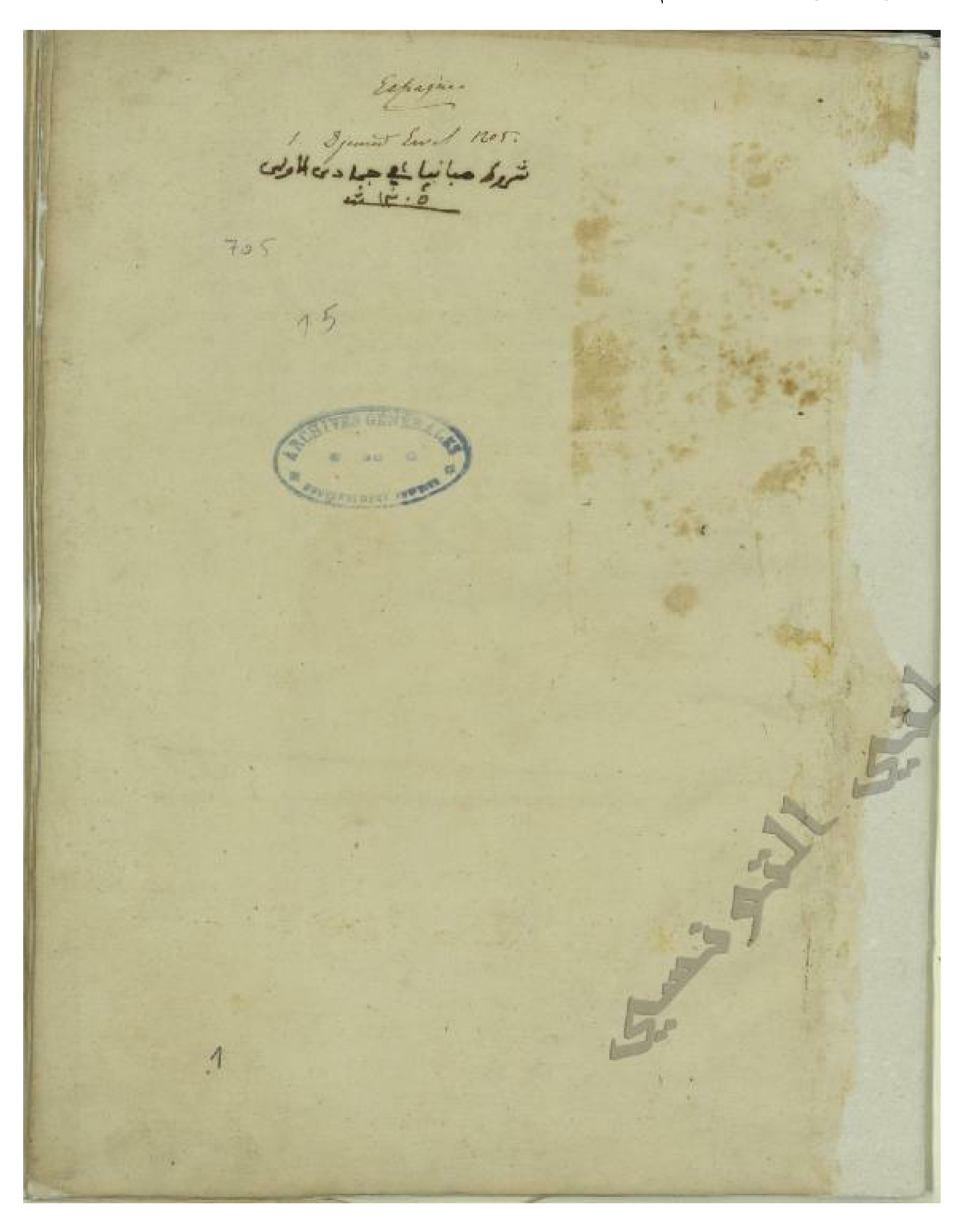
المعاهدة التونسية الإسبانية بين القنصل بيترو سوشيتا وحمودة باشا سنة 1789م

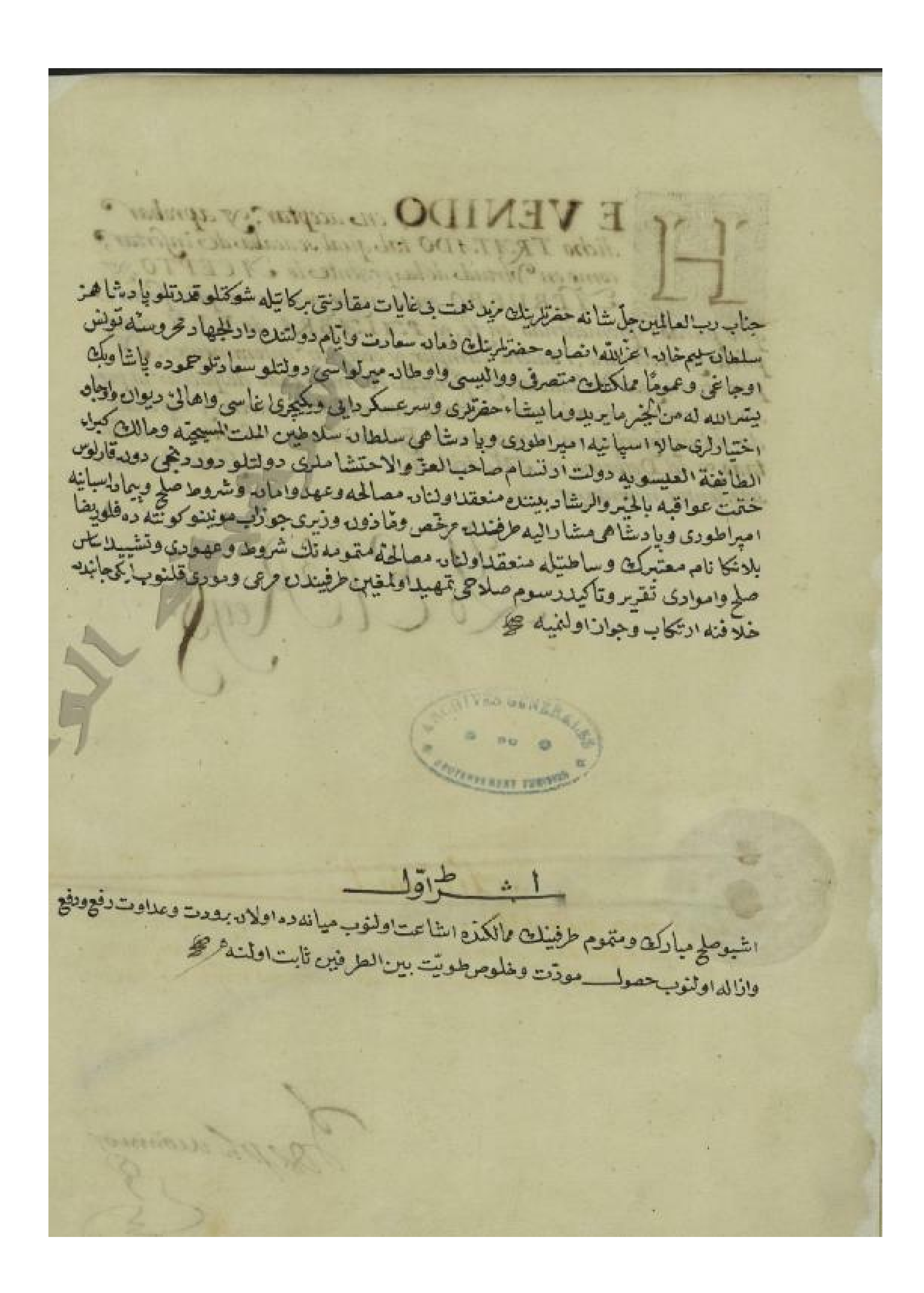


Tunez 21. de Diciembre de 1789

D.n Pedro Suchita

المعاهدة التونسية الإسبانية بين جوزاف مونينو والداي التونسي حمودة باشا في جانفي سنة 1791م وتخص تحسين العلاقات والسلم والتجارة





جناب رب العالمين جل شانه حضرتلرينك مزيد نعمت بى غايات مقارنتى بركاتيله شوكتلو قدرتلو پادشاهمز
سلطان سليم خان اعز الله انصاره حضرتلرينك زمان سعادت وايام دولتلرنده دار الجهاد محروسه تونس
اوجاغى وعموماً مملكتك متصرف ووالبسى واوطان ميرلواسى دولتلو سعادتلو حموده پاشا وبك
يسر الله له من الخير ما يريد وما يشاء حضرتلرى وسرعسكر دايى ويكيچرى اغاسى واهالى ديوان واجاق
اختيارلرى حالا اسپانيه امپراطورى وپادشاهى سلطان سلاطين الملت المسيحيه ومالك كبراء
الطائفة العيسويه دولت ارتسام صاحب العز والاحتشام ملرى دولتلو دون دنجى دون قارلوس
ختمت عواقبه بالخير والرشاد بيننده منعقد اولنان مصالحه وعهد وامان وشروط صلح وپيمان اسپانيه
امپراطورى وپادشاهى مشار اليه طرفندن مرخص ومأذون وزيرى جوزب مونينو كونته ده فلوريضا
بلانكا نام معتبرك وساطتيله منعقد اولنان مصالحه متقومه نك شروط وعهودى وتشييد اساس
صلح واموادى تقرير وتأكيد رسوم صلاحى تمهيد اولمغين طرفيندن رعى ومورى قلنوب ايكى جانبده
خلافنه ارتكاب وجواز اولنميه

١ شرط اول

اشبو صلح مبارك ومتموم طرفينك ممالكنده اشاعت اولنوب ميانه ده اولان بغضت وعداوت دفع ودفع
وازاله اولنوب حصول مودت وخلوص طويت بين الطرفين ثابت اوله



٢٦ شــــرط سادس وعشرون

اشبو دار الجهاد محروسه تونس اوجاغينك وعموماً مملكتينك صاحبي ووالى متصرفى واوطان
ميرلواسى دولتلو سعادتلو حموده پاشا وبك يسر الله له من الخير ما يريد وما يشاء وسرعسكر
دايى ويكيچرى اغاسى واهالى ديوان واوجاق اختيارلرى ايله حالا اسبانيه مملكتينك امپراطورى
وپادشاهى سلطان سلاطين الملة المسيحيه ومالك كبراء الطائفة العيسويه دولتلو دود دنجى
دون قارلوس ختمت عواقبه بالخير والرشاد طرفندن مأذون اولان جوزاب مونيتو كونته ده
فلوريضا بلانكا نام معتبر وزيرى وساطتيله طرفينك ما بيننده منعقد ومتموم اولان صلح مبارك
عقد وتمشيتى وثبوتى اظهار مودت وخلوص طويت ايله بين الدولتين وجه مشروح
اوزره قول وقرار اولنوب اشبو خاتمه ده ذكر اولندى خلافنه اصلا بركسنه ارتكاب وجواز
كوسترمیه هر ~~صحه~~ تحريراً في جمادى الاولى سنه خمس ومئتين والف ١٢٠٥

قائمة

المصادر والمراجع

القرآن الكريم: رواية ورش.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: الوثائق الأرشيفية

1-مجموعة الوثائق بالمكتبة الوطنية

- مجموعة 2005، علبة رقم 54، الملف الأول، وثيقة رقم 16.
- مجموعة 3025، علبة رقم 11، الملف الأول، وثيقة رقم 54، شوال 1206هـ.
- مجموعة 3190، الملف الأول، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، ورقة 53.
- مجموعة 3190، الملف الثالث، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، ورقة 53.
- مجموعة 3190، علبة 15، ملف رقم 16، المكتبة الوطنية الجزائرية.
- مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13.
- مجموعة 3190، ملف A19، المكتبة الوطنية الجزائرية.

2-مهمة دفتر:

- مهمة دفتر، علبة 02، عدد 127، 977هـ.
- مهمة دفتر، علبة 05، عدد171، 992هـ.
- مهمة دفتر، علبة11، عدد 158، 993هـ.
- مهمة دفتر، علبة 05، عدد171، 993هـ.
- مهمة دفتر، علبة 06، عدد09، 994هـ.
-مهمة دفتر، علبة 11، عدد09، 994هـ.
- مهمة دفتر، رقم 23، حكم 284، 981هـ.
- مهمة دفتر، علبة 47، عدد 174، صفر 990هـ.
- مهمة دفتري: رقم 21، حكم رقم، 637، 980/12/16هـ.
- مهمة دفتري: رقم24، حكم رقم166، 981/12/5هـ.
- مهمة دفتري: رقم24، حكم رقم167، 981/12/5هـ.
- مهمة دفتري: رقم 24، حكم198، 981/12/5هـ.
- مهمة دفتري: رقم 24، حكم رقم246، 981/12/14هـ.

- مهمة دفتري، رقم 12، حكم رقم 1037، بتاريخ 25/ 979/10 هـ.

- مهمة دفتري، رقم 18، حكم رقم 237، بتاريخ 979/10/19 هـ.

- مهمة دفتري: رقم21، حكم رقم509، تاريخ 980/11/21 هـ.

3 -**الأرشيف التونسي:**

- المعاهدة الفرنسية الطرابلسية 1684م، أ. و. ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 5003، ملف 38.

- المعاهدة الإسبانية التونسية 1535م، الأرشيف الوطني التونسي، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 2876، ملف12.

- المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1538م بين ممثل شارلكان بصقلية والسلطان التونسي مولاي الحس، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 2876، ملف14.

- المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1547م ممضاة من طرف الإمبراطور شارلكان والسلطان التونسي أحمد الحفصي، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 2876، ملف16.

- المعاهدة التونسية الإسبانية 1548م، معاهدة هدنة لمدة سنتين بين الإمبراطور شارلكان والسلطان أحمد الحفصي، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 2876، ملف19.

- المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1554م، معاهدة باسم الإمبراطور شارلكان ومولاي الحسن، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 2876، ملف21.

- المعاهدة التونسية الفرنسية، معاهدة سلم وتجارة بين المارشال دستري والداي التونسي أحمد شلبي 30 أوت 1685م، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 5003، ملف38.

-المعاهدة التونسية الفرنسية 1742م، أ.و.ت.س.ت، صندوق 205، ملف 59.

- المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1748م، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق، 5001، ملف 13.

-المعاهدة التونسية التوسكانية 1748، أ.و.ت.س.ت، صندوق 247 مكرر، ملف 648.

-المعاهدة التونسية الإنجليزية 1751م، أ.و.ت.س.ت، صندوق 224، ملف، 405.

- المعاهدة التونسية الإسبانية 1786م، أ.و.ت.س.ت، صندوق 254، ملف، 705، الملحق.

- المعاهدة التونسية الإسبانية 1786م، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 3408، ملف 5.

- المعاهدة التونسية الإسبانية 1789م. أ.و.ت.س.ت، صندوق 254، ملف 705.

- المعاهدة التونسية الإسبانية 1789م، أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 3408، ملف 5.

– المعاهدة التونسية الإسبانية سنة 1791م، أ.و.ت.س.ت، صندوق 254، ملف 705.

– البنود المعدلة من المعاهدة التونسية الإسبانية 1791م، أ، و، ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 3408، ملف 5، فرعي، 3.

ثانيا: المصادر

1-باللغة العربية

أ-المصادر غير المنشورة:

– **إبراهيم بن أحمد غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي**: العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، ترجمة، أحمد بن حاتم الحجري الأندلسي: مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1511.

– **التلمساني ابن رقية الجديري**: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1626.

– **الجربي محمد أبو راس**: الإصابة فيمن غزى المغرب من الصحابة، مخطوط، المكتبة الوطنية التونسية، رقم 225.

– **الصفاقسي محمد المنويب الفوراتي**: تاريخ عروج وخير الدين في مدينة الجزائر، مخطوط، المكتبة الوطنية، تونس، رقم 231.

– **الناصري أبو راس محمد**: الحلل السندسية في تاريخ وهران والجزيرة الأندلسية، مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 3182.

– **الناصري أبو راس محمد**: زهر الشماريخ في علم التاريخ، مخطوط، مكتبة خاصة، الجزائر، رقم 01.

– **بن أحمد محمد الطاهر**: ذكر طرف ولاية المرحوم السيد صالح باي أمير ببلدة قسنطينة، مخطوط المكتبة الوطنية، تونس، رقم 263.

– **حسان خوجة**: تاريخ بايات وهران، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1634.

– **مجهول**: الخبر عن قدوم عروج رئيس للجزائر وقدوم أخيه خير الدين، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1623.

– **مجهول**: تاريخ مجيء الإسبانيين في المرة الثانية والثالثة إلى الجزائر، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 2285.

ب-المصادر المنشورة:

– **أبكاريوس يوحنا أفندي**: قطف الزهور في تاريخ الدهور، ط2، د.د.ن، بيروت، لبنان، 1988م.

- **ابن أبي الضياف أحمد**: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ط2، ج3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971م.

- **ابن إياس محمد الحنفي**: بدائع الدهور وطبائع الدهور، ج4، 1501-1515-، تحقيق، محمد مصطفى، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1404هـ/1984م.

- **ابن أبي دينار**: محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1226هـ/1869م.

- **ابن حمادوش عبد الرزاق الجزائري**: رحلة ابن حمادوش لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تحقيق، تعليق، أبو قاسم سعد الله، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007م.

- **ابن زرفة مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن**: الرحلة القمرية، تحقيق، مختار حسان: مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، الجزائر، 2002م.

- **ابن مريم الشريف التلمساني أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد**: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1212هـ/ 1908م.

- **أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي**: الرحلة الناصرية، 1121-1122هـ/1709-1710م، حققها وقدم لها، عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الأمارات العربية المتحدة، 2011م.

- **أبو سالم العياشي؛ عبد الله بن محمد**: الرحلة العياشية (1661-1663م)، ج1، تحقيق، سعيد الفاضلي، يخية، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية، 1997م.

- **أبو عبد الله بن أحمد الشماع**: الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم، الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984م.

- **أبي عبد الله محمد بن عثمان السنوسي**: مسامرات الظريف وحسن التعريف، تحقيق وتعريب، محمد الشاذلي النيفر، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994م.

- **أحمد بابا التنبكتي**: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج 1، 2، تقديم، عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية، 1398هـ/1989م.

- **أحمد بك النائب الأنصاري**: نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، تقديم وتعليق، محمد زينهم، محمد غرب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، طرابلس، الجماهيرية الليبية، 1994م.

– **أفندي خليفة**: إتحاف ملوك الزمان بتاريخ شارلكان، تعريب، خليفة محمود، مطبعة بولاق، القاهرة، مصر، 1266هـ/1849م.

– **الإسحاقي الوزير**: رحلة الإسحاقي، تحقيق، عبد الهادي التازي، منشورات الجامعية الملكية، الرباط، المغرب الأقصى، د.ت.

– **الأندلسي محمد الغساني**: رحلة الوزير في افتكاك الأسير (1690-1691م)، حررها وقدم لها، نوري الجراح، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2002م.

– **الباجي المسعودي، أبي عبد الله الشيخ محمد**: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، ط2، مطبعة بيكار وشركائه، تونس، 1914/1333م.

– **التلمساني ابن هطال**: رحلة محمد الكبير "باي الغرب الجزائري" إلى الجنوب، تحقيق، محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1976.

– **التمكروتي علي بن محمد**: النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم وتحقيق، عبد اللطيف الشادلي، المطبعة الملكية، الرباط، المملكة المغربية، 1423هـ/ 2002م.

– **الجامعي عبد الرحمن**: فتح مدينة وهران، تحقيق، مختار حساني، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، الجزائر، 2003م.

– **الجزائري ابن ميمون محمد**: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

– **الجزائري المشرفي عبد القادر**: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق، محمد بن عبد الكريم، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.س.ط.

– **الجزائري محمد بن عبد القادر**: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج1، ج2، شرح وتحقيق، محمود حقي، ط1، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، سوريا، 1384هـ/1964م.

– **الحسين بن محمد الورثيلاني**: بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار -الرحلة الورثيلانية-، تحقيق محمد بن أبي شنب، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1394هـ/1974م.

– **الراشدي أحمد بن عبد الرحمن الشقراني**: القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم، ناصر الدين سعيدوني، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م.

– **الزركشي أبي عبد الله محمد بن إبراهيم**: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق، محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.

– **الزهار أحمد الشريف**: مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، تحقيق، أحمد توفيق المدني، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م.

– **الزياني أبو القاسم**: البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف، تحقيق، الزاوية رشيد، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب الأقصى، 1992م.

– **الزياني محمد بن يوسف**: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتحقيق المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1398هـ/1978م.

– **الشرقاي عبد الله**: تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين، تحقيق رحاب عبد الحميد القاري، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 1916م.

– **الشهاب الحجري أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي**: ناصر الدين على القوم الكافرين، ط1، تحقيق، محمد رزوق: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1407هـ/1987م.

– **الطرابلسي أبي عبد الله محمد بن خليل غلبون**: تاريخ طرابلس الغرب "المسمى التذكار في من ملك طرابلس الغرب وما كان بها من أخبار" نشره وصححه وعلّق عليه الطاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1333هـ/1920م.

– **الطرابلسي أحمد بك النائب الأنصاري**: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ط2، مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب، ليبيا، د.س.ط.

– **العنتري محمد صالح**: مجاعات قسنطينة، تحقيق وتقديم: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.

: فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها–تاريخ قسنطينة–، مراجعة وتقديم وتعليق، يحي بوعزيز، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.

– **الفشتالي أبو فارس عبد العزيز**: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، دراسة وتحقيق، عبد الكريم عبد الكريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، الرباط، المغرب الأقصى، د.ت

– **القلصادي الأندلسي أبو الحسن علي**: رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق، محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، الجمهورية التونسية، 1978م.

– **المبارك الحاج أحمد**: تاريخ حضارة قسنطينة، تصحيح وتعليق، نور الدين عبد القادر، المدرسة العلمية للدراسات العربية، تونس، 1952م.

– **المحامي محمد فريد بك**: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق، إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1401هـ/1981م.

– **المزاري الآغا بن عودة**: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز: ط1، ج2، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسن داي، الجزائر، 2007م.

– **المقري أحمد بن محمد التلمساني**: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج4، تحقيق وتعليق، إحسان حقي، دار صادر، بيروت، لبنان، 1408هـ/1988م.

: أزهار الرياض في أخبار عياض، ج1، القاهرة، مصر، 1993م.

– **المكناسي محمد بن عبد الوهاب**: رحلة المكناسي: حققها محمد بو كبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع: أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة 2003م.

– **الناصري أحمد بن خالد**: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى–الدولة العلوية–، ج8، تحقيق، جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب الأقصى 1418هـ/1997م.

– **الناصري محمد أبي راس**: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"، حققه، محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م.

: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، دراسة وتحقيق بوركبة محمد، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011.

– **الوزان الفاسي الحسن بن محمد**: وصف إفريقيا، ترجمة، محمد حجي، محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

– **الوزير السراج محمد الأندلسي**: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج2، تقديم وتحقيق، محمد الحبيب الهيلة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1973م.

– **بربروس خير الدين**: مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد دراج، ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م.

– **بن عبد القادر مسلم**: خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.

– **بن يوسف الصغير**: المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، ج1، تقديم أحمد الطويلي، المطبعة المصرية، تونس، 1998م.

– **ج. أو. هابنسترايت**: رحلة العالم الألماني إلى الجزائر وتونس وطرابلس-1145هـ/1732م-، ترجمة وتقديم وتعليق، ناصر الدين سعيدوني، دار المغرب الإسلامي، تونس، د.س.ط.

– **حليم إبراهيم بك**: تاريخ الدولة العثمانية العلية –التحفة الحليمية–، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1408هـ/1988م.

– **خليفة حاجي**: تحفة الكبار في أسفار البحار، تحقيق وترجمة، محمد حرب، تسنيم حرب، دار البشير للثقافة والعلوم، إستانبول، تركيا 2017/1438م.

– **خوجة حسين**: ذيل بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان، تعليق وتحقيق، الطاهر معموري، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 2001م.

– **خوجة حمدان بن عثمان**: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق، محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006م.

– **رجب شاوش ابن المفتي حسين**: تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، دراسة وتحقيق، فارس كعوان، ط1، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.

– **روسو ألفونص**: الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، نقلها ونقحها وحققها، محمد عبد الكريم الوافي، منشورات قار يونس، بنغازي، ليبيا، 1992م.

– **ريتشارد توللي**: عشر أعوام في طرابلس، ترجمة عبد الجليل الطاهر، دار ليبيا، للنشر والتوزيع، بنغازي، طرابلس، 1967م.

– **ستيفانس جيمس ولسن**: الأسرى الأمريكان في الجزائر، 1785 -1797م، ترجمة، علي تابليت، منشورات تالة، الجزائر، 2008م.

– **شالر ويليام**: مذكرات ويليام شالر 1816-1824م، تعريب وتعليق وتقديم: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

– **صوريس دي كودي:** تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي محمد الأخضر، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1989م.

– **عبد الكريم الفكون:** منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 140هـ/1987م.

– **فايست أوجبن:** تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي 1792 – 1873م، ترجمة، صالح نور، تقديم، الشيخ عبد الرحمان شيبان، ط1، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1432هـ/2010 م.

– **قطب الدين محمد بن أحمد النهرواني المكي:** الإعلام بأعلام بيت دار ليوبيزك، ألمانيا، 1857م.

: البرق اليماني في الفتح العثماني تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري، مع توسع في أخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر، أشرف على طبعه، أحمد الجابر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1387هـ/1967م.

– **كاثكارت جيمس:** مذكرات أسير الداي، تعريب إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.

– **كربخال مارمول:** إفريقيا، ج2، ترجمة محمد حجي وآخرون، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب الأقصى، 1989م.

: وقائع ثورة الموريسكيين، ترجمة، وسام محمد جزر، مراجعة وتقديم، جمال عبد الرحمن، ج1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2012م.

– **مبارك علي باشا:** الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، ج1، ط1، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر، 1306هـ/1888.

– **مجهول:** غزوات عروج وخير الدين، اعتنى بتصحيحه وتعليق حواشيه، نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، الجزائر، 1353هـ/1934م.

– **مجهول:** تاريخ بايات قسنطينة، المرحلة الأخيرة، تحقيق، حساني مختار، منشورات دحلب، حسين داي، الجزائر، 1990م.

– **مجهول:** تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تقديم وتحقيق، عبد الرحيم بن حادة، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، المملكة المغربية، 1994م.

– **مجهول**: نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب، ضبطه وعلق عليه، ألفريد البستاني، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 2002م.

– **مجهول**: سيرة المجاهد خير الدين بربروس، تحقيق وتقديم وتعليق: عبد الله حمادي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009م.

– **محمد أبو راس الحربي**: مؤنس الأحبة في أخبار جربة، حققه، محمد المرزوقي، قدم له، حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس، 1960.

– **محمد الصغير الإفراني**: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق، عبد اللطيف الشادلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1419هـ/1998م.

– **محمد الضعيف الرباطي**: تاريخ الضعيف، تحقيق وتقديم وتعليق، أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، المغرب الأقصى، 140هـ/1986م.

– **محمد بن الطيب القادري**: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج1، تحقيق محمد حجي، أحمد التوفيق، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المغرب الأقصى، 1397هـ،1977م.

– **محمد بن عبد المنعم الحميري**: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، دار القلم للطباعة، بيروت، لبنان، 1975م، ص74.

– **محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي**: رحلة المكناسي (1785م)، حققها وقدم لها، محمد بوكنبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2003م.

– **محمد بيرم الخامس التونسي**: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأخبار، دار صادر، بيروت، لبنان، 1303هـ/1985م.

– **محمود مقديش**: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق، علي الزواري، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

– **مولاي عبد الرحمان بن زيدان**: المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل الشريف، تقديم وتحقيق، عبد الهادي التازي، مطبعة إديال، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1413هـ/1993م.

– **نجم الدين محمد بن محمد الغزي**: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، حققه، خليل المنصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1418هـ/1997م.

2009م.

-المصادر باللغة الفرنسية:

- *Conestaggio (Jeronimo), Relation des Préparatif, Faits pour surprendre Alger, Traduite de L'italien et Annotée par, Grammont (H. de), Adolphe Jourdan, Alger, 1882.*
- *De Paradis (Venture), Alger au XVIII E Siècle, Alger, Typographie Adolphe Jourdan place du Gouvernement, 1898*
- *De Paradis (V), Expédition Contre Alger le Prince Charles-Quint à L'Assant de la Régence D'Alger en Octobre, 1541, Collection Regarde, Alger, 2013.*
- *De Tassy (Laugier), Histoire de Royaume D'Alger, Éditions, Loysel, Paris, 1990.*
- *Godard (L'abbe Léon), Soirées Algériennes-Corsaires, Esclaves et martyrs de barbarie, libraires, mdclvn, Paris.*
- *Haédo (Fray Diego de), Histoire des rois d'Alger, Traduit par H.D.DE Grammont, Adolphe Jourdan, Libraire éditeur, Alger, 1881.*
- *Pierre (Dan), Histoire de Barbarie et de Ses Corsaires, Seconde Edition, Paris, 1646.*

ثالثا: المراجع

1-باللغة العربية

– **أحمد الزاوي الطاهر**: معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، طرابلس، ليبيا، 1388هـ/1968م.

: ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1970م.

– **أحمد الطويلي**: في الحضارة العربية التونسية، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، د.س.ط.

– **أحمد توفيق المدني**: محمد بن عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م.

– **أحميدة عميراوي**: الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا)، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2003م.

– **إسماعيل أحمد ياغي**: الدولة العثمانية في تاريخ الإسلامي، ط2، مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية، 1998م.

: العالم العربي في التاريخ الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1418هـ / 1997م.

– **إسماعيل كمالي**: سكان طرابلس الغرب، تعريب وتحقيق، حسن الهادي بن يونس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية، 1997م.

– **البطريق عبد الحميد، نوار عبد العزيز**: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1973م.

– **ألتر عزيز سامح**: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ط1، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، 1989م.

– **الجمل شوقي عطا الله، إبراهيم عبد الله عبد الرازق**: تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، مصر، 2000م.

– **الجيلالي عبد الرحمن بن محمد**: تاريخ الجزائر العام، ج5، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م.

– **الزبيري محمد العربي**: مدخل إلى تاريخ المغرب الحديث، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985م.

– **الزيدي مفيد**: موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ج1، ج3، ط1، دار أسامة، الأردن، 2004.

– **الشطشاط علي حسن**: نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2002م.

– **العيدروسي محمد حسن**: تاريخ العرب الحديث، ط1، دار الكتاب الجامعي للنشر والتوزيع، الكويت، 1997م.

– **المدني أحمد توفيق**: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، ط1، دار البصائر للتوزيع والنشر، الجزائر، 2007.

– **أمحمد سعيد الطويل** : البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القرمانلي (1795-1832م) –دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، 2002م.

– **أمير خوري، عادل سليمان:** السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة 1789 إلى سنة 1988 ج1 دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، لبنان 1959م.

– **أندرسن ماتيوس:** تاريخ القرن الثامن عشر في أوروبا، تعريب: نور الدين حاطوم، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1988م.

– **إي براتشينا بورونات:** الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم، ج1، ج2، ترجمة، كنزة الغالي، مركز العمودي للترجمة ونشر التراث المخطوط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1432هـ/2012م

– **إيفانوف نيقولاي:** الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988م.

– **إينالجيك خليل:** تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة، محمد.م. الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2002م

– **براون جيفري:** تاريخ أوروبا الحديث، ترجمة علي المرزوقي، ط1، دار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2006.

– **بروكلمان كارل:** تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية، نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي: دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1968م.

– **بشتاوي عادل سعيد:** الأندلسيون المواركة -دراسة في تاريخ الأندلس بعد سقوط غرناطة-، منشورات دار أسامة، القاهرة، مصر، 1983م.

– **بن خروف عمار:** العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب الأقصى في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ج1، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1427هـ/2006م.

– **بنو جيت يوسف:** قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر الميلادي، ترجمة: سامي عمار، دار النشر دحلب، الجزائر، 2007.

– **جوليان شارل أندري:** تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، ج2، 1983م.

– **حاطوم نور الدين:** الموسوعة التاريخية الحديثة القرن السابع عشر في أوروبا، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1406هـ/1986م.

– **حسين مؤنس**: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، م3، ج3، العصر الحديث لنشر والتوزيع بيروت، لبنان 1412هـ/1929م.

– **حمادي عبد الله**: الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس (1492-1616م)، د.د.ط، الجزائر، 1989م.

– **حومد أسعد**: محنة العرب في الأندلس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1988م.

– **خليفة محمد التليسي**: حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، ط3، الدار العربية للكتاب، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، 1997م.

– **دحماني توفيق**: دراسة في عهد الأمان-القانوني الأساسي السياسي والعسكري للجزائر في العهد العثماني-، دار العثمانية، المدنية، الجزائر، 1430هـ/2009م.

– **دراج محمد**: الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512-1553م، ط2، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م.

– **دومينغيث أورتيث، برنارد فينسينت**: تاريخ الموريسكيين مأساة أقلية، ترجمة، عبد العال صالح، مراجعة وتقديم، جمال عبد الرحمن، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، مصر، 2007م.

– **راسم رشدي**: طرابلس الغرب في الماضي والحاضر، ط1، دار النيل للطباعة، طرابلس، ليبيا، 1953م.

– **راشد أحمد إسماعيل**: تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث والمعاصر (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا)، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2004م.

– **رزوق محمد**: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17م، ط3، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1998م.

– **روباربرشنفيك**: تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ج1-ط1-، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988م.

– **رودلفو ميكاكي**: طرابلس تحت حكم أسرة القرمانلي، تعريب، طه فوزي، راجعه، حسن محمود، كمال الدين عبد العزيز الخربوطي، دار الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1961م.

– **روسي إيتوري**: طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطة، ترجمة وتقديم، التليسي خليفة محمد، ط1، مؤسسة الثقافة الدينية للتأليف والترجمة والنشر، طرابلس، ليبيا، 1969م.

: ليبيا منذ الفتح العربي سنة 1911م، ترجمة خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، د.ت.

- **ريمون أندريه**: المدن العربية في العهد العثماني، ترجمة، لطيف فرج، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1981م.

- **زليتنر جان كلود**: طرابلس ملتقى أوربا وبلدان وسط إفريقيا 1500-1795م، ترجمة، جاد الله عزوز الطلحي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، بنغازي، ليبيا، 1431هـ/ 2001م.

- **سبنسر وليم**: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم، عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000م.

- **سعد الله أبو القاسم**: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م.

- **سعد الله فوزي**: الشتات الأندلسي في الجزائر والعالم، ج2، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1437هـ/2016م.

- **سي يوسف محمد**: أمير أمراء الجزائر علج علي باشا، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.

- **شريف محمد الهادي**: ما يجب أن تعرفه عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب محمد الشاوش، محمد عجينة، ط3، دار ساراس للنشر، تونس، 1993.

- **شوفالييه كورين**: ثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541م، ترجمة، جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991.

- **شوقي عطا الله الجمل**: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب)، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية للطبع والنشر، القاهرة، مصر، 1977م.

- **شويتام أرزقي**: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، ط1، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع والترجمة، القبة، الجزائر، 2009.

: نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830م، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2011.

- **صلاح أحمد البهني**: طرابلس الغرب، دراسات في التراث المعماري والفني، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، 1423هـ/2004م.

- **طقوش محمد سهيل**: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام 648-923هـ/1250-1517م، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، 1418هـ/1997م.

: التاريخ الإسلامي(الوجيز)، ط3، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2006م.

– **عامر محمود علي، فارس محمد خير**: تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى، ليبيا)، الجمعية التعاونية للطباعة، دمشق، سوريا، د.س.ط.

– **عبد الجليل التميمي**: الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، جمع وتقديم، عبد الجليل التميمي، تونس، 1984.

: تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الإسبانية والعربية الإسلامية منها، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، 2011.

: رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية المغربية في القرن 16عشر، م، ج، ت، ع 29.

– **عبد الحفيظ خياط**: العلاقات السياسية بين إيالة طرابلس الغرب وإنجلترا 1795-1832 المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان طرابلس، الجماهرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، 1394هـ،1985م.

– **عبد الكريم كريم**: المغرب في عهد الدولة السعدية دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، ط3، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، المملكة المغربية، 1427هـ/2006م.

– **عبد المنعم إبراهيم الجميعي**: الدولة العثمانية والمغرب العربي، دار الفكر العربي للطبع والنشر، القاهرة، مصر، 2002.

– **عبد الهادي التازي**: التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم –القرن 17-18م، المجلد9، عهد العلويين–، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية المملكة المغربية، 1405 هـ / 1988م.

– **عز الدين عمر موسى**: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1411هـ/ 1990م.

– **عزتلو يوسف بك آصاف**: تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، تقديم، محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر.

– **علي محمد الصلابي**: فقه التمكين عند دولة المرابطين، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، 1427هـ/2006م.

– **علي مظهر**: محاكم التفتيش بإسبانيا والبرتغال وغيرها، دار المكتبة العلمية، مصر، 1997م.

- **عمر عبد العزيز عمر**: دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، 1992م.

- **عمر علي بن إسماعيل**: انهيار الأسرة القرمانلية في ليبيا 1790-1835م. مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1966.

- **عمر محمد الباروني**: الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجير، طرابلس الغرب، ليبيا، 2001.

- **عنان محمد عبد الله**: دولة الإسلام في الأندلس-العصر الرابع-نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1417هـ/1997م.

- **غلاب عبد الكريم**: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج2، ط1، عصر الإمبراطورية العهد العثماني بالجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005م.

- **غوستاف لوبون**: حضارة العرب، ترجمة، عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2000.

- **غييرموغو ثالبيسبوستو**: الموريسكيون في المغرب، ترجمة، مروة محمد إبراهيم، مراجعة وتقديم، جمال عبد الرحمان.

- **فارس محمد خير**: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، مكتبة دار الشروق، بيروت، لبنان، 1969م.

- **فاروق عثمان أباظة**: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، ط2، دار المعارف، مصر، 1994م.

- **فكاير عبد القادر**: الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1260هـ/1505-1792م)، دراسة تتناول الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على الجزائر، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م.

- **قنان جمال**: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830م، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 1431هـ/2010م.

- **كمال جرفال**: اتفاقية 1791م بين تونس وإسبانيا ظروف توقيعها، مضمونها ونتائجها، دراسات الأرشيف التونسي.

– **كمال جرفال**: إتفاقية 1791م بين تونس وإسبانيا، كراسات الأرشيف، الأرشيف الوطني التونسي، الجمهورية التونسية، 2011م.

– **كوستانزيو برنيا**: طرابلس من 1510م إلى 1850م، تعريب خليفة التليبيسي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، الجماهيرية الليبية، 1394هـ/1985م.

– **كيليا سارتلي**: الحجري في فرنسا، تعريب، عبد الجليل التميمي، أعمال المؤتمر العالمي الثالث حول تطبيق الموريسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية – 1492-1609م – منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس، 1991.

– **لقبال موسى وآخرون**: الجزائر في التاريخ 3 العهد الإسلامي من الفتح إلى العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

– **متولي أحمد فواد**: تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، إتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2002م.

– **محمد الهادي عبد الله أبو عجيلة**: النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الأسرة القرمانلية 1711-1835م وأثره على علاقاتها بالدول الأجنبية، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، 1997م.

– **محمد بن الخوجة**: صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق، حمادي الساحلي، الجيلالي بن الحاج يحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986.

– **محمد حجي**: الموريسكيون في المغرب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، المغرب الأقصى، 2001م.

– **محمد قشتيليو**: محنة المورسكوس في إسبانيا، ط2، مطابع الشويخ ديسيريس، تطوان، المغرب الأقصى،1999.

– **محمد محفوظ**: تراجم المؤلفين التونسيين، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1982م.

– **محمد مصطفى بازامه**: الدبلوماسية الليبية في القرن الثامن عشر، مكتبة قورينا، بنغازي، ليبيا، د.س.ط.

– **مختار حساني**: التراث الجزائري المخطوط في الجزائر والخارج، ج2، الوثائق المخطوطة بالمكتبة الوطنية الجزائرية (نماذج)، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م.

– **مروش المنور**: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني –القرصنة، الأساطير والواقع–، ج2، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009م.

– **مصطفى شاكر**: الأندلس في التاريخ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1990م.

– **منصور عمر الشتيوي**: حرب القرصنة بين دول المغرب العربي والولايات المتحدة، من محاضر مجلس الأمة الأمريكي، مؤسسة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1970م.

– **منفروتي كاملو**: إيطاليا في الأحداث البحرية الطرابلسية، ترجمة، عمر محمد الباروني، صلاح الدين السوري، منشورات مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، الجماهرية الليبية، 1988م.

– **ناصر الدين سعيدوني**: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر–الفترة الحديثة والمعاصرة–، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي–تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين–، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1999م.

: ورقات جزائرية–دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني–، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م.

: تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.

: دراسات أندلسية – مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندليسي بالجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1424هـ/2003م.

– **نايت بلقاسم مولود قاسم**: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، ج1، ط2، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م.

– **نجم الدين غالب الكيب**: مدينة طرابلس عبر التاريخ، ط2، الدار العربية للكتاب، ليبيا 1328هـ/1978م.

– **نوار عبد العزيز سليمان، محمود محمد جمال الدين**: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، مدينة نصر، مصر، 1999م.

– **هلايلي حنيفي**: بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م.

: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدي للطباعة والنشر والتوزيع، عين ميلية، الجزائر، 2009م.

: دراسات وأبحاث في التاريخ الأندلسي الموريسكي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2010م.

– **واشنطن إيرفنغ**: أخبار سقوط غرناطة، ترجمة هلاني يحي نصري، دار الإرشاد العربي، بيروت، لبنان، 2000.

– **وولف جون**: الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط2، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.

– **يحي بوعزيز**: المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780-1798م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م.

: الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، الجزائر الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.

: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830م، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.

: مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، ط.خ، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، 2009م.

: مدينة وهران عبر التاريخ، دار البصائر للنشر والتوزيع، ط1، حسين داي، الجزائر، 2009م.

: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ط3، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، 2009م

– **يحي جلال**: التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الأولى، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، د.س.ط.

أوروبا في العصور الحديثة "الفجر"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر،1981م.

: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 1999م.

: أوروبا في العصور الحديثة، ط2، الهيئة العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر، 2002م.

– **يحياوي جمال**: سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين (1492-1610م)، دار هومه للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.

– **يلماز أوزتونا**: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح، محمود الأنصاري، م1، مؤسسة فيصل للتمويل، إستانبول، تركيا، 1988م.

-المراجع باللغة الفرنسية:

- Belhamissi (M), Marine et marins D'Alger 1518-1830, T3, Alger, Bibliothèque Nationale Algérie, 1996.

- , Alger La Ville aux Mille Canons E.N.A.L, Alger, 1990.

- Berbrugger (Adrien), le Pégnon d'Alger, ou les origines du Government Turk en Algérie, Collection Regarde, Alger, 2012.

- Braudel (Fernand), La Méditerranée et Le Monde Méditerranéen A l'époque de Philipe II, tome II, 2eme, Edition, Libraire Armand Colin, Paris, 1966.

- E. guellouz, A. masmoud, M.smida : Hestoire de la Tunisie, societetunisienne de diffusion, Tunis, 1983.

- Garot Henri: Histoire générale de l'Algérie, paris ,1889.

- Grammont (H, de), Histoire D'Alger sous la Domination turque, 1515-1830, Paris, 1887.

- H'sen Derdour : Annaba 25 siècles de vie quotidienne et de luttes, T2, Imprimerie Seybouse, Annaba, Algérie, 2004.

- Henri Dunant: La Regence De tunis ,Societe Tunisienne De Diffusion 5, Avenue De Carthage, tunis,1975.

- Masson (Paul), Histoire des Etablissent de Commerce Français dans L'Afrique Barbaresque, 1560-1793, Hachette, Paris, 1930.

- Mercier (Ernest), Histoire L'Afrique Septentrional (Berbérie) depuis les Temps les Plus Recule's Jusqu'à la conquête Française (1830) T3, Paris, 1868.

- Missoum (Sakina), Alger A L'époque ottomane la médina et la maison Traditionnelle, INAS, Alger, 2003.

- Rouard de card: traites de la France avec les pays de L'Afrique du nord, A pedone-éditeur, paris,1906.

- Sadok Boubaker, Clara lham Alvarez Dopico : Empreinres Espagnoles Dans L'histoire Tunisinne, Bibliotheca Arabo-Romanica et Islamica, V6, Imprimé en Espagne, 2011.

رابعا: المقالات

1-باللغة العربية:

– **أبو القاسم درارجة:** آثار الأندلسيين في الفنون الشعبية في إسبانيا وبلاد المغرب، صورة الموريسكيين في الأدب والفنون، أعمال المؤتمر الثامن للدراسات الموريسكية، زغوان، تونس، 92/91، ص ص 39- 45.

– **أرزقي شويتام:** "العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية خلال الفترة العثمانية"، مجلة الدراسات التاريخية، ع13، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر، 1433هـ/ 2011م، ص ص 79-108.

– **البوعبدلي المهدي:** "أضواء على مدينة الجزائر في العهد التركي من خلال مخطوط الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، مجلة الأصالة، ع8، الجزائر، 1972، ص ص 273-291.

– **الجيلالي سلطاني:** "قراءة في أرجوزة الحلفاوي في فتح وهران من خلال مخطوط شرح الجامعي للأرجوزة"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع5، مجلة علمية محكمة، جامعة وهران، الجزائر، 2011م، ص ص 35-43.

– **الساحلي خليل:** "وثائق عن المغرب العثماني أثناء حرب مالطة سنة 1565م"، المجلة التاريخية المغربية، ع8/7، تونس، 1977م، 40-45.

– **الصباغ ليلى:** "ثورة مسلمي غرناطة"، مجلة الأصالة، ع27، الجزائر، 1975م، ص ص116-175.

– **العبيدي علي:** "الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر 1541م وأثرها على توازن القوى في غرب المتوسط"، مجلة عصور، ع17، جامعة وهران، الجزائر، جوان/ ديسمبر 2011م، ص ص 9-22.

– **العدول جاسم محمد حسن:** "عروج ودوره في أحداث المغرب العربي وحوض المتوسط الغربي"، مجلة التربية والتعليم، ع2، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل 1980م، ص ص 202-218.

– **المدني أحمد توفيق:** "تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين 1530-1554م"، مجلة الأصالة، ع26، الجزائر، 2011م، ص ص 37-45.

– **المهدي البوعبدلي:** "الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى"، مجلة الأصالة، ع13، الجزائر، 1973م، ص ص 19-37.

– **بلحميسي مولاي:** "غارة شارلكان على مدينة الجزائر، 1541م"، مجلة الأصالة، ع8، الجزائر، 1972م، ص ص 91-112.

- **بن أشنهو عبد الحميد**: "الدور الذي لعبته الجزائر في القرن السادس عشر في البحر المتوسط"، مجلة الأصالة، ع8، الجزائر، 1974م، ص ص 293-303.

- **بن حفري شكيب**: "العلاقات الإسبانية الجزائرية في القرن الثامن عشر ميلادي من خلال مخطوط عثماني"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع1، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2002م، ص ص 120-138.

- **بن عتو بلبراوات**: "الإصلاح الثقافي للباي محمد الكبير لمدينة معسكر"، حولية المؤرخ، ع4/3، الأبيار، الجزائر، 2003م، ص ص 197-122.

: التحرير النهائي لوهران والمرسى الكبير عام 1206هـ/1792م، مجلة عصور، ع 5/4، جامعة وهران، الجزائر، ديسمبر 2003م/ جوان 2004م ،275-295.

: "الداي محمد بن عثمان باشا وسياسته 1766-1791م"، مجلة عصور، ع7/6، جامعة وهران، الجزائر، جوان/ ديسمبر 2005م، ص ص 89-107.

: "أضواء حول مدينة تلمسان خلال العهد العثماني"، الحوار المتوسطي، ع1، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، ربيع الثاني 1430هـ/2009م، ص ص 74-82.

: "المنشآت الدفاعية للجزائر ومينائها خلال العهد العثماني (1510-1555م"، مجلة الحضارة الإسلامية، ع14، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، سيدي بعلباس، الجزائر، شعبان 1431هـ/2010م، 150-165.

: "بجاية من الاحتلال الإسباني إلى التحرير العثماني"، عصور الجديدة، ع7-8، جامعة وهران، الجزائر، 1433-1434هـ/2012-2013م، ص ص 105-122.

- **بن معمر محمد**: "علاقات بني جلاب بسلاطين توقرت بالسلطة العثمانية بالجزائر"، مجلة الحضارة الإسلامية، ع12، جامعة وهران، الجزائر، جوان 2005م، ص ص 15-33.

- **بوعزيز يحي**: "إسبانيا تتوسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس"، مجلة التاريخ، ع25، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1986م 21-35.

- **بونو سلفاتور**: "العلاقات بين الجزائر وإيطاليا خلال العهد التركي"، مجلة الأصالة، ع6، ترجمة، أبو القاسم بن التومي، الجزائر، 197، ص ص 98-103.

- **حساني مختار**: "شرح تنوير البصائر والأبصار في تحريض سلطان الجزائر على قتال الكفار"، المجلة المغاربية للمخطوطات، أعمال الملتقى الوطني للتراث المخطوط، نوفمبر 2006م، ع4، جامعة الجزائر، الجزائر،2013م، ص ص 45-56.

- **حليمي عبد القادر**: "القروض والنقود في مدينة الجزائر أثناء العهد التركي"، مجلة الأصالة، ع7، الجزائر، 2012م، ص ص 73-79.

- **حموش نعيمة**: "دور البحرية الجزائرية في معركة الليبانت 1571م"، حولية المؤرخ، ع1، المطبعة الحديثة، الجزائر، 2005م ، ص ص 195-215.

- **دراج محمد**: "تأسيس الإيالة الجزائرية"، مجلة عصور، ع16، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، جوان، ديسمبر 2010، ص ص 43-55.

- **دي إبيلزا ميكال**: "حول ثلاثة أحداث غير معروفة من العلاقات الخارجية بين عنابة وإسبانيا"، مجلة الأصالة، ع 35/34، الجزائر، 1977م، ص ص110-121.

- : "معاهدة السلم الأولى الإسبانية الليبية"، المجلة التاريخية المغربية، ع17و18، زغوان، تونس، 1980، ص38.

- **رحمونة بليل**: "موارد إيالة الجزائر المالية في مطلع القرن التاسع عشر"، كان التاريخية، دورية إلكترونية محكمة، ع13، سبتمبر2011م، ص ص 19-30.

- **زهرة زكية**: "لمحة عن الجغرافي الأميرال العثماني بيري رئيس وكتابه "كتاب البحرية"، مجلة الدراسات التاريخية، العدد،6، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، وزارة التربية والتعليم، كتابة الدولة للتعليم العالي، الجزائر، 1413هـ/1992م، ص ص 101-109.

- **سعيدوني ناصر الدين**: "البحرية الجزائرية في العهد العثماني"، مجلة التاريخ، ع22، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1986م، ص ص 25-35.

: "المعاهدة الجزائرية الإسبانية 1791م"، مجلة الدراسات التاريخية، ع7، جامعة الجزائر 1414هـ/1993 م، ص ص 70-80.

- **شارف رقية**: "تشكل الكيانات السياسية للمغرب العربي في إطار الدولة العثمانية الفترة الحديثة"، مجلة الدراسات التاريخية، ع13، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 1433هـ/2011م، ص ص 56-65.

- **شايب قدادرة**: "الصراع الإسباني العثماني في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وانعكاساته على شمال إفريقيا خلال القرن السادس عشر الميلادي"، حولية المؤرخ، ع14/12، الجزائر، 2011م، ص ص 55-65.

- **طحطح خليد فؤاد**: العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث-القرن السادس عشر أواخر القرن الثامن عشر-، كان التاريخية، دورية إلكترونية محكمة، ربع سنوية، ع14، ديسمبر 2011م، ص ص 95-112.

- **عبد الجليل التميمي**: "أول رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م" المجلة التاريخية المغربية، ع3، جانفي، تونس، 1975م، ص ص 118-132.

: "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول 1519م، المجلة التاريخية المغاربية، ع6، تونس، جويلية 1976، ص ص 37-46.

: "الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين"، المجلة التاريخية المغربية، ع24/23، تونس، نوفمبر 1981م، ص ص 187-200.

: "الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني على الإيالات المغاربية في القرن السادس عشر الميلادي"، المجلة التاريخية المغاربية، ع11/10، تونس، 1985م، ص ص 8-19.

- **عنان محمد عبد الله**: "موقف القسطنطينية وباقي العالم الإسلامي من سقوط الأندلس وآخر مسلميها وأمام الغزو الأوروبي للعالم الإسلامي عموما"، مجلة الأصالة، ع27، الجزائر، 1975م، ص ص 101-115.

- **فكاير عبد القادر**: "حملتا أونطونيو بارثيللو على الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر من خلال مخطوط تاريخ مجيء إسبانيول"، مجلة عصور الجديدة، ع1، معهد التاريخ، معهد التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2011، 65-82.

- **قداش محفوظ**: "الجزائر في العهد التركي"، مجلة الأصالة، ع52، الجزائر، 1977م، ص ص 2-14.

- **محمد بوشنافي**: "مساهمة عروج بن يعقوب في مواجهة الخطر الإسباني على المغرب الأوسط 1512-1518م"، مجلة عصور، ع5/4، جامعة وهران، الجزائر، 2004م ص ص 145-156.

- **مختار حساني**: "دراسة تاريخية لقلعة بني راشد"، المجلة المغاربية للمخطوطات، ع3، مخبر المخطوطات، أعمال الملتقى الوطني للتراث المخطوط، نوفمبر 2011م، جامعة الجزائر، الجزائر، 2011م، 125-135.

- **مولاي بلحميسي**: "نهاية دولة بني زيان"، مجلة الأصالة، ع26، الجزائر، 1975م، ص ص 30-45.

- **هلايلي حنيفي**: "القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع4، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 1426هـ/2005م، ص ص 243-243.

: "عملاء وجواسيس الإسبان في بايلك الغرب على ضوء كتاب بهجة الناظر"، مجلة الحوار الفكري، ع7، جامعة قسنطينة، ذي الحجة 1426/ ديسمبر 2005م، ص ص 143-147.

- **ياسين حكمت**: "الغزو الإسباني للجزائر"، الأصالة، ع 15/14، الجزائر، 1973م، ص ص 239-255.

ب-باللغة الفرنسية:

- *A.Gorguos:Ambassade Marocaine En Espagne Au 18 Siècle, R.Af, N°5, Alger, 1861,p p114-210-376.*
- *Belhamissi (M) : Les relations entre L'Algérie et L'église catholique à L'époque ottomane (1615-1830), Majallat Et-Tarikh, 2eme semestre, Alger, 1980,pp 49-70.*
- *Berbrugger (Adrien), Reprise D'oran par Les Espagnols en 1732, R.Af, N°8, Alger 1864,pp 12-173,*
- *), Négociation entre Hassan Aga et le Comte D'Alcaudette Gouverneur D'Oran, 1541-1542, R.Af, N°9, Alger, 1865, pp336-346.*
- *Braudel (F), les Espagnoles et L'Afrique du Nord de 1492-1577, R.Af, N°69, Alger 1928,pp184-202.*
- *Charles (Feroud), Lettres Arabes de L'époque de L'occupation Espagnole En Algérie, R.Af, N°17, Alger, 1873,pp 313-312-117.*
- *, Les trois Attaques Des Espagnols Contre Alger au XVIII Siècle, R.Af, N20, Alger, 1876,pp 300-303.*
- *Dalarymple (Major), Expedition D'oreilly1775, R.Af, N°5, Alger, 1861,pp 31-40.*
- *Devoulx (Albert), El Hadj pacha 1545, R.Af, N°8, Alger, 1864,pp290-293.*
- *, L'amarine de la régence D'Alger, R.Af, N°13, Alger, 1869, pp 384-392.*
- *Grammont (H. de), Relations entre La France et La Régence D'Alger au XVII Siècle, Premier Partie, Les Deux canons de Simon Dansa (1606-1628), R.Af, N°23, Alger, 1879,pp 6-19.*

- _____, *Document Relatif À La Seconde Expédition DE Don Angelo Barcelo Contre Alger, 1784, R.Af, N°26, Alger, 1882,pp 309-387.*
- *Guy turbet –Delof."Note Sur une Enterprise Espagnole contre Alger En 1603"*، **المجلة التاريخية المغاربية**، تونس، زغوان، مارس2008، ع13, pp126-128.
- *Mazarredo (Joseph de), Expédition D'oreilly Contre Alger en 1775, R.Af, N°8, Alger, 1864,257-267.*
- *Primaudid (De la), Document Inédits « Relation du frère Juan de Iribes sur les événement du Tunis, 4 Janvier, 1535, R.Af, N°19, Alger, 1875,pp62-161-184-265-337-483.*
- *Watabled et Monnerau, Négociation entre Charle Quin et Khair-Eddine (1538-1540), R.AF, N15, Alger, 1871,pp 138-148.*
- *Gorgouos, Notice sur le Bey D'oran Mohammed Elkebir, R.Af, N°1, Alger, 1856*,pp 203-254.

خامسا: الرسائل والأطاريح الجامعية

– **الميلق عبد القادر**: تأثيرا ثروات الموريسكيين الأندلسيين على العلاقات الجزائرية الإسبانية (897-1017هـ/1492-1609م)، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، 1433-1434هـ/2012-2013م.

– **بوبكر محمد السعيد**: العلاقات السياسية الجزائرية الإسبانية خلال القرن الثاني الهجري/ الثامن عشر ميلادي (1119-1206هـ/1708-1792م)، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، 1431-1432هـ/2010-2011م.

– **تجاجنة بوحفص**: الحملات العسكرية لدول غرب أوروبا المتوسطية على الجزائر 1145-1246هـ/1732-1830م، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، 1432-1433هـ/2010-2011م.

– **حصام صورية**: العلاقات بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، الجزائر، 2013.

- **حيمر صالح**: التحالف الأوروبي ضد الجزائر عام 1541 وتأثيراته الإقليمية والدولية، مذكرة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2006-2007.

- **خرنق مبروكة**: العلاقات التونسية الفرنسية خلال القرن السابع عشر (1605-1705م)، مذكرة شهادة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم، الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي بغرداية، 1432-1433هـ / 2011-2012م.

- **درويش الشافعي**: علاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، مذكرة شهادة ماجستير، قسم التاريخ، المركز الجامعي غرداية، 1431-1432م/2010-2011م.

- **دكاني نجيب**: الوجود الإسباني على السواحل الجزائرية ورد الفعل الجزائري خلال القرن السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2002.

- **رضوان نبيل عبد الحي**: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلام الحديث، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية 1407ه/1987م.

- **سعيود إبراهيم**: الأسرى المغاربة في إيطاليا خلال العهد العثماني، مذكرة دكتوراه في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 1430-1431ه/2009-2010م.

- **شقدان بسام كامل عبد الرزاق**: تلمسان في العهد الزياني 633-962ه/1235-1555م، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2002م.

- **صالح كليل**: سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الإسباني لاحتلال المغرب الأوسط، مذكر ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2006.

- **عائشة محمة**: الأسرى الأوروبيون في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للمتوسط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، المركز الجامعي، غرداية، 1432-1433ه/2011-2012م.

- **عطية محمد**: الصراع بين الإيالتين الجزائرية والتونسية من خلال المصادر المحلية الجزائرية والتونسية 1587،1830م كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي ليابس، قسم العلوم الإنسانية، سيدي بلعباس الجزائر، 1436ه/2015م.

- **كعوان فارس**: النظام العثماني والفئات الاجتماعية في الجزائر (الكراغلة أنموذجا) 1629-1830، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة،2004-2005.

- **محمد أمين عطلي**: نشاط البحرية الجزائرية في القرن السابع عشر ميلادي وأثره في العلاقات الجزائرية الفرنسية، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي بغرداية، 2011-2012م.

- **موفقي امحمد**: العلاقات السياسية والتجارية بين الجزائر وإسبانيا 1200-1245هـ/ 1786-1830م، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، 1431-1432هـ/ 2010-2011م.

الفهارس

- فهرس الأعلام
- فهرس الأماكن الجغرافية
- فهرس المحتويات

فهرس الأعلام:

فهرس الأماكن الجغرافية:

المحتوى **الصفحة**

الفصل الثاني

العلاقات بين الإيالة الطرابلسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (10هـ/16م)

الفصل الثالث

العلاقات بين الإيالة التونسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (10هـ/16م)

الباب الثاني

علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا خلال القرن (11هـ/17م)

الفصل الأول

العلاقات بين الإيالة الجزائرية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (11هـ/17م)

الفصل الثاني

العلاقات بين الإيالة الطرابلسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (11هـ/17م)

الفصل الثالث

العلاقات بين الإيالة التونسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (11هـ/17م)

الباب الثالث

علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا خلال القرن (12هـ/18م)

الفصل الأول

العلاقات بين الإيالة الجزائرية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (12هـ/18م)

الفصل الثاني

العلاقات بين الإيالة الطرابلسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (12هـ/18م)

الفصل الثالث

العلاقات بين الإيالة التونسية والإمبراطورية الإسبانية خلال القرن (12هـ/18م)

ملخص الدراسة:

تتناول هذه الدراسة تاريخ العلاقات السياسية بين الإيالات المغاربية العثمانية والإمبراطورية الإسبانية ما بين (926-1207هـ/1520-1792م)، وقد تميزت العلاقات الثنائية بين الطرفين بالصراع والندية، تكبد فيها الطرفان خسائر مادية وبشرية فادحة، وهذا بسبب التعصب المقيت للملوك الإسبان وقادة الكنيسة الكاثوليكية الذين كانوا يسعون دائما للانتقام من المسلمين؛ سواء بإسبانيا ذاتها بعد احتلال إمارة غرناطة في جانفي 1492م أو ببلاد المغرب الإسلامي فيما بعد، وقد استمر هذا الصراع إلى غاية نهاية القرن الثامن عشر ميلادي، حيث اهتدى الملوك الإسبان إلى اتباع أسلوب الدبلوماسية الذي عاد عليهم بالمنفعة الاقتصادية والأمن والسلام، بعد أن استطاعوا إقناع سلاطين الدولة العلية وحكام الإيالات المغاربية بضرورة الجنوح للسلم، حيث تم توقيع معاهدة سلام مع الدولة العلية سنة 1782م، ثم مع حكام طرابلس سنة 1784م، ثم مع حكام الإيالة التونسية والجزائرية سنة 1791م، ليختتم هذا الصراع الذي دام حوالي ثلاثة قرون من الزمن.

الكلمات المفتاحية: العثمانية، الإسبانية، الدولة العلية، الإيالات المغاربية

Résumé de l'étude:

Cette étude porte sur l'histoire des relations politiques entre le Maghreb ottoman et l'Empire espagnol (926-1207 / 1520-1792) .Les relations bilatérales entre les deux parties ont été marquées par un conflit et une amitié au cours desquelles les deux parties ont subi de lourdes pertes humaines et humaines, en raison de l'intolérable méprisabilité des dirigeants et des dirigeants de l'Église catholique Toujours en Espagne après l'occupation de la Principauté de Grenade en janvier 1492 ou plus tard au Maghreb islamique, qui cherchaient toujours à se venger, ce conflit se poursuivit jusqu'à la fin du XVIIIe siècle de notre ère, où il incita les rois espagnols à suivre la méthode de la diplomatie. Ce qui leur fut rétabli avec bénéfice économique, sécurité et paix, après avoir réussi à convaincre les sultans de l'État suprême et les dirigeants des pays du Maghreb de la nécessité de la délinquance pour la paix.Un traité de paix fut signé avec l'État supérieur en 1782, puis avec les dirigeants de Tripoli en 1784, puis avec les dirigeants de Tunisie et d'Algérie en 1791, Ce conflit a duré environ trois siècles.

Mots-clés: Ottomane, Espagnol, Haut Pays, Maghreb